

١٢
١٣٥٨
١٣٥٩

١٣٥٨

الفهرس العام

للسنة العاشرة (١٣٥٨ هـ) من مجلة الأزهر

الصفحة	اسم	الموضوع
		(١)
٧٥٩	حضرة الأستاذ عبد الحميد سمي بيومي	أبو حيان التوحيدي
٥٢٤	» » رضوان محمد رضوان	الأحياء الدقيقة — نظرة في عالمها
٧٤٩	» » الدكتور محمد غلاب	الأخلاق والنصوح عند الفرائي
٥٣٢	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز	الأزهر — كلمة الأزهر في مؤتمر الأديان الأستاذ الأكبر — كلمات لفضيلته في :
٨٤	الاحتفال بالعام بالمعري
٢٤٦	الاحتفال بالمولد النبوي
١٨	الاحتفال بافتتاح معهد أسبوط
٤٨١	الاسلام والاخاء الانساني
١٣٢	الترحيب بسمو ولي عهد إيران
٤٠١	حرية الفكر في الاسلام
٥	الدروس الدينية — الدرس الثاني
٧٢٣	رمضان بين طامعين
١	عيد الميلاد الملكي
٢٤١	عيد الجلوس الملكي
٥٦٩	ما يجب على الناس لو فشت حرب
٨٧	مسجد محمد علي
٦٤٩	واجب الشعب وأبناء الأزهر
٤٨٣	واجب العلماء في الحياة العامة
٤٣٦٠٤٩٦٠٩٩٥	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	الاسلام كما يراه الأوروبيون
٥١٥٤٣٦٠٣٧٦		
٦٧٥٤٥٩٠		

الموضوع	بقلم	ملحة
(ح)		
الحرية العلمية في الاسلام	حضرة الأستاذ محمد ناصف	٧٨٩
(خ)		
اخلاقه والديقراطية	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٦
الخليل بن أحمد	» » محمد ناصف	٦٠٥
(د)		
الدارونية — ما جنته على الانسانية	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٣٣
الدعوى — متى تسقط	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	٥٥٨
الدين والدنيامعا	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٥
(ر)		
الربا	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	١٠٣٤٢٧
الربا	» » » » » نضر الدين الصاحب	١١١
رمضان شهر الصيام	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٦٩٠
الزمن	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	٢٥١
(ز)		
الزواج الاول للرسول	فضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين	٢٢٣
(س)		
سفينة نوح واستواؤها على الجودي	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	٣٣٧
الصلح	» » » » »	١٧٣
السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة		١٢
أدوار الدعوة الاسلامية		٥٦١
حفظ الامم من النبوة قديما وحديثا	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٢٤١
الشكوك في إمكان الوحي وعلاجها		١٦١

الرقم	الموضوع	الصفحة
٦٤٢	عزم المشركون على وقف الدعوة الإسلامية	٩٠
٤٠٤	النبوة والرسالة والأدلة على إمكان الوحي	٤٨٥
٤٨٥	نبوة محمد بن عبد الله والأدوار التي تقدمتها	٣٢١
٣٢١	والأدلة على صدقه	٧٢٥
٧٢٥	مهمة خاتم المرسلين	
	نصيب العالم من رسالة خاتم المرسلين ...	
	في مناهضة المشركون للدعوة الإسلامية	
	(ش)	
١٣٩	الشافعي رضي الله عنه	٣٠٥
٣٠٥	شبهات ضد الإسلام - حلول	٦٥٣
٦٥٣	شجاعة المسلمين الأولين	١٦١٩٠٤١٦٣١١
١٦١٩٠٤١٦٣١١	الشعرية وأثرها في الأدب العربي	٧٦٤٠٦٧٩
٧٦٤٠٦٧٩	الشواطي - حجة الآداب عليها	٣٨٨
٣٨٨	(ط)	
٥٠	الطبيعة - هل توصف بالقوم والتضليل ...	٤٩٩
٤٩٩	الطوفان وما يتعلق به	٤١٨
	(ع)	
٦٣١	عبد الخالق الطريس	٦٦٨
٦٦٨	عجائب الكون	٦٩٥
٦٩٥	العدة في الإسلام	١٨٣
١٨٣	عمر بن الخطاب	٢٧٣
٢٧٣	عمر بن عبد العزيز	٢٠٥
٢٠٥	عمر بن عبد العزيز	٥٩٥

الوضوح	قلم	صفحة
على بن أبي طالب	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٥٧٩٤٥٠٤٤٣٩ ٧٥٥٤٦٥٩
(ف)		
الفائدة والربا	حضرة الأستاذ إبراهيم زكي	٥٩٩
فاحة السنة العاشرة	» » مدير المجلة	٣
الفخر الرازي	حضرة الأستاذ عبد الحميد سامي بيومي	٦٨٢
فرعون	فضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين	٣٠٩
(ق)		
قادة الفكر في تاريخ الاسلام - تمهيد	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٥٩
القرءان - في بلاغته	» » أحمد صقر	١٢٠
القرءان الكريم - دفاع عنه	» » حسن حسين	٥٤٤٤٦٠٤٢٢٨ ٧٧٩٦١٣
(ك)		
الكناية والجهاز في كتاب الله	فضيلة الأستاذ الشيخ حامد محسن	٣٩
كنز الفاطميين المفقود	حضرة الأستاذ محمد حسن الأعظمي	٢١٥
(م)		
المهامة قديما وحديثا	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس مله	٧١٨٠٦٣٨
مختارات من كبار علماء أوروبا	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٧٨٣
المساواة الصحيحة والمساواة الزائفة	» »	٤٦٧
المستشرقون - بيننا وبينهم	» » محمد فهمي عبد الطيف	١٨٨
المسيحية في الاسلام	» » مدير المجلة	٦٥
مفترك المذاهب الفلسفية	» »	٣٦٨
معرض الآراء العالمية في الاسلام والمسلمين : الاسلام في العالم	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٧٦

شعبة	بفلم	للموضوع
١٥٦		الاسلام في أفريقيا السوداء
٦٣٧		الاسلام في بلاد الصومال
١٥٨		برنارد شو والاسلام
٧٩٢		تشيانج كاي شيك يشهد بيسالة المسلمين
١٥٤		التضييق على المبشرين
٢٣٨		الجامعة الاسلامية والقومية الشرقية
١٥٥		الخطأ في معنى الخلافة
٢٣٦		شدة تمسك المسلمين بدينهم
٢٣٩		رواية جان دارك وبرنارد شو
٥٥٧	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الرأى الاسلامى ومشرواودا
٣١٤		الصحرء والاسلام
٣٩٤		الصراع بين الجنسين في البلاد العربية ...
٧١١		القرءان
١٥٤		مار مديوك يترجم القرءان ويسلم
٤٧٢		عهد وشرلمان
٥٥٤		مراكس تحتفظ بالتقاليد القديمة
٦٣٤٠٥٥٥		المنتظمون في الدين
٢٣٤		المسلمون والوحدة الدينية
٢٩١٠٢١٠٠١٤٦		منطق الدين
٥٤٠	فضيلة الأستاذ عبد محرم	المنكرات — المطالبة بالقائما
		الملك :
١٨	» » »	جلالة الملك يقتنح معهد أسبوط ...
٨٧	» » »	جلالة الملك يصل الجمعة في مسجد عبد على
		جلالة الملك يهنئ الشعب والعالم الاسلامى
٨١	» » »	بالعام المحجرى
		جلالة الملك يهنئ الشعب والعالم الاسلامى
٧٢١	» » »	بشهر الصوم

الوضوح	قلم	صفحة
المواسم والأسواق وأثارها المولد النبوي :	حضرة الأستاذ إبراهيم زكي	٧٧٧
أى شهر مولد النبي	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٧٩
ذكرى ميلاد الرسول الأكبر	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المرافي	٢٥٦
ذكرى المولد النبوي	» » » عبد احمد العدوي	٣٨٢
من سوانح المولد الشريف	» » » عبد الجواد رمضان	٣٨٦
(ن)		
نفيد الأزهر في الحرب	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	٥٦٠
نصائح	» » » محمود أبو العيون	٢٠٨
النقد والأدب	» » » محمد هسي عبد الطيف	٥٢٩
(و)		
الوحي	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	٥٧٣
الورثة — من أبحاثها	حضرة الأستاذ رضوان محمد رضوان	٧٦٨
الوقف — نظامه في الاسلام	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس مله	٣٣٢ ، ١٥٩ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧
ولى عهد إيران في الجامع الأزهر	٧٩٧ ، ٤٧٧
الولى — من هو	١٣٦
	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد قطب	٧٤٤

الترتيب	بسم	الموضوع
٤٤٥	لجنة الفتوى	أذان الجمعة
٣٤٣	» »	الألبسة
٣٤٤	» »	الإنفحة والجبن
٧٧٤	» »	الاستنجار للقراءة على الميت
١٩٣	» »	الاستنجار بالورق الطين
٥٢١	» »	الاستحسان في الصلاة
٥٢١	» »	الاسترقاق - بيع المشرقة ولده الحر
٧٧٤	» »	الاستشفاد للميت
٥٥	» »	تكفير السيئات بكلمة الحق - معنى حديث
٧٧٤	» »	ثواب قراءة الأجر
٣٤٥	» »	خدمة الزوجة لزوجها
٢٨٧	دار الافتاء	الحرق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٣٤٦٥٦	لجنة الفتوى	الرضاع
٢٧١	» »	صلاة الجمعة وخطبتها
٣٤٣	» »	صلاة الجمعة بتبليغ الأذاعة
١٩٣	» »	الصلاة بالأحذية ودخول المسجد بها
٥٧	» »	الطلاق
٧٧٤	» »	قراءة الفاتحة في تشييع الجنازة
٥٥	» »	مكبر الصوت في المساجد الكبيرة
٧٧٤	» »	ملازمة القبر أياما
٣٤٦٥٢	» »	ميراث
١٩٣	» »	نكاح المتعة
٢٧١	» »	الوكالة بالتسكح

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

فاروق الأول

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام يحنل ه في الازهر

احتفلت الأمة المصرية على بكرة أبيها يوم ١١ فبراير الراهن بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، احتفالاً يستوقف النظر من أشراق الوجوه ، وافترار النفوس ، وشمول السرور ، فكان يوماً مشهوداً من أيام الأعياد الملكية ، تجلت فيه المملكة المصرية وعلى رأسها القاهرة في حلة بديعة من الزينات ، تحتف بها الرايات والشارات ، والأهلون يتدافعون في الشوارع تدافع السيل ، تعبيراً عما يتحلى قلوبهم من الجبور بدخول ملكهم المحبوب في السنة العشرين من حياته الطويلة الحافلة بجلالات الأعمال إن شاء الله .

وقد قام رجال الازهر بواجبهم من الاحتفال بهذا العيد الكريم ، تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، فاحتشد فيه بعد صلاة العشاء أعلام العلماء والطلاب ، وكبار موظفي المعاهد ، وحضر الاحتفال حضرة صاحب السعادة محمد كامل باشا البنداري . وما وافت الساعة الثامنة حتى نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام فألقى خطبة جمعت فأوعت من مناقب حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، فانتظمت عقداً من كراتم الانفاذ ، وعقائل المعاني ، على أسلوبه الشائق من الانجاز في الانجاز ، وشفيعها كمادته بكلمة في الحالة العامة كشف بها من تقسية الاجتماع الراهن ما استكن بها من الداء الدوي ، ووصف من علاجه الشافي ما يصفه النطاسي الراشد من صميم العلم الالهي ، فكان لهذه الخطابة الرائعة من الوقع في نفوس السامعين ما لاسيل الى وصفه ، فجزى الله الاستاذ الامام عن العلم وأهله ، ما يجزي به أوليائه الصالحين ، وأئمة دينه العاملين .

وقد ختم الاحتمال بقصيدة عصماء أنشأها وأنشدها الشاعر المطبوع ، صاحب الفضيلة الشيخ محمد الاسمر ، انتظمت من شمائل الفاروق ، وما سطره على العلم والعلماء ، ومصر والمصريين ، في ألفاظ موفقة ، وصياغة مؤنقة ، ما يعتبر من حسنات الأدب المصري .

حيا الله حضرة صاحب الجلالة عمرا طويلاً يحقق فيه لمصر وأهلها ، وللإسلام وذويه ، ما هو له أهل من الثمين والاقبال ، والسؤدد والجلال ، بفضل الله وكرمه .

خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام :

منذ تولى عرش مصر حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الاول ، أسبغ الله عليه النعمة ، وأدام له السعادة ، استقبله الشعب المصرى الكريم ، بل واستقبلته الشعوب الاسلامية . بموافقة من الحب والولاء لا أثر للعصمة فيها . ماطقة خالصة لله وللوطن ، منبعثة من شعور صادق ، وإلهام قوى حق بأنه مثال من مثل الخير العليا ، وصورة كاملة من صور الفضيلة المحبة للنفوس .

مرت الأيام والشهور ، وظهر للناس صدق الفراسة ، وجودة الرأى وصحة الإلهام ، وتجلت الحقيقة ناصعة ، وظهر جمالها الساحر الآخذ بالآليات والمقول .

فقوة عزمة الفاروق فى شبابه ، تصاحبها إصالة رأى الشيوخ وحكمة التجارب ، وفطرة سليمة موجهة الى الرشد ، وتحلى بطهارة الضمير ، وتقاء السريرة ، وتزين بحب الخير . وإسداء البر . وصنع المعروف ، وتنبعث عنها حركات النشاط المتوقد ، والفتنة الكاملة فى توجيه الامور وتصريفها .

وشباب الفاروق يصاحبه إقبال على الله ، وعلى بيوت الله ، وعلى كتاب الله وخشية من الله ، وركون الىه ، واعتماد عليه ، ويمجى من الله بتوفيق منه ، وعون وهدى ورعاية .

ظهر هذا جليا واضحا فى مواقف غير بعيدة ، وفيما أسداه من بر ، ووصل به المحتاجين من خير . وفى احتفائه بالشعائر الدينية ومنازته عليها ، وفى تفقده بنفسه أحوال الرعية ، وفى إكرام العلماء ، وفى العناية بمعاهد العلم ، ودور البر والخير ، والمنشآت التى تدر الخير وتجلب البركة والسعادة على الأمة . وليست رحلة جلالة الملك الى صعيد مصر الطيب ببعيدة فهى للخير ، وفى حبيب الخير ، وإعلاء قدر البلاد .

شائل زانه الله بها وأكرمها ، وخصه بها وحمله ، فضل الله يؤتبه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وقد علم أهل الأزهر ما حجام به وأكرمهم ، وما شمل به طوائف وجماعات من أم مختلفة رعام وأماهم على طلب العلم فى الأزهر وغيره من دور التعليم المختلفة .

كذلك علم الناس وعلمهم مقدار رعايته لوفود البلاد العربية ، وعنايته بها وبما وجهوا أنفسهم إليه من غرض ، وعلموا من قبل ذلك إكرامه أعضاء مؤتمر فلسطين وعطفه عليهم ، ذلك المطف الذى كان له أثر بالغ خطير فى توجيه القضية الى مرحلة من مراحلها التى ترجو أن يصاحبها التوفيق ، وأن يسودها الإنصاف ، وتسيرها الحكمة إن شاء الله .

وهذا مما يدل على أن صاحب الجلالة الملك فاروق الاول يعمل فى أفق من آفاق الخير

خطبة الأستاذ الامام

أوسع من أفق البلاد ، ويشعر بفطرته السليمة الطاهرة ، أن أعمال الخير يجب أن تكون عامة شاملة ، وعاطفة البر ينبغي أن تكون حدودها حدود الإنسانية عامة ، لا الوطن ولا الجنس خاصة

واتساع الآفاق في الخير والتعاون والتعاقد في الر نظرية من نظريات الإسلام مثبتة في تعاليمه جميعها ، وفي فواعده السامية التي ترى أن يكون الفرد للجماعة لال نفسه ، وأن يكون خيره للناس لا لشخصه .

وأتمم أيها السادة العلماء وأيها الاتناء من الطلبة ، حراس قواعد الإسلام ، والأمناء على شرح ما فيه من نظم وحكام ، ورسد الدعوة إليه ، والترغب فيه ، والألسن الصادقة في شرحه وبيان جماله ، وأتمم الأساة في مداواة أمراض النفوس وأدواء القلوب ، وأتمم الدين يجب قبل كل شيء أن تتحقق فيكم أخلاق النبوة ، وتتحقق فيكم تعاليم الكتاب ، وقد تعلمون ما يجري في العالم من أحداث حسام ، وعلمتم من قبل ما جرى فيه من خطوط جسام .

فتشوا عن الأسباب ، واجنحوا عن العلل ، وتحروا وحوه الصواب تجدها لا تمدوحب الغنائم والأسلاب ، وحب الاستمتاع شمرا كد الناس وكدهم ، وحب الأمر والنهي فيهم . وتجدها خلف دريته من المادى ، لم تحب إلا لأنها موصلة الى غاية فيها منافع ، ولم يدافع عنها إلا لأن في زوالها خطرا على أشخاص ممن يدافعون عنها .

على هذه الأسس المادية قامت الحياة العامة واستقرت نظمها بين الأمم والشعوب ، وعلى هذا جرى الأفراد في تعاملهم واتباعوا تلك السنن .

حياة مادية لا أثر للروح فيها ، أمدت عن الله وباعدت عن أوامر الله . حياة إن ظن فيها الحقي خيرا وسعادة فقد اعترف العقلاء بأنها شر وشقاء . حياة رفعت عن الأجسام ووفرت حظوظها وشهواتها ، لكنها سلبت أعر الأشياء : سلبت الطمأنينة ، وسلبت الهناء بالرضا ، وسلبت لذة الصلة بالله ، ولذة الاعتداد عليه ، وسلبت السلى بالقضاء والقدر . وعقيدة القضاء والقدر هي السلى الوحيدة المحمور من بنى الإنسان .

الحياة المادية ليس في استطاعتها أن تسع الناس جميعهم ، لكن الحياة الروحية السعيدة تقدر على جميعهم .

انظروا الى ما يعمده الإنسان لعناء الإنسان ، ويفتن فيه من الوسائل المدمرة المهلكة الخبيثة في الأرض وفي البحر وفي الهواء . تلك الوسائل التي لا تذر الطفل الرضيع ولا الأم المارصع ولا تدع الشيخ العاني ولا العالم الساك ، بل تم هولاء وتشمل العجزة والمقدمين واليتامى والمساكين . وتأتي على من له رأى ومن لا رأى له .

خطبة الأستاذ الامام

هل أعد هذا كله في تأكيد حق وعدم باطل ، ونصر مظلوم ورد ظالم ، وفي سبيل الفضيلة والخلق والعلم والدين ؟ أم أعد لسلب الضعفاء ما بأيديهم ، ولإدلال من لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولإشباع البطون والاستمتاع بالذات ؟

ما هذا كله إلا وحشية الإنسان قبل أن تهذب الشرائع ، وتلين قسوته تجارب العناء والحكماء ، لكنها وحشية فيها غلاء من مدينة كاذبة غرارة تحمل في طياتها أسباب العناء ، وتهوى بالإنسان الى دركات الشقاء ، لاتعتمد على خلق ولا تتركز الى دين .

مدينة سلبت الهناء النفسية ، ولم تقدر أن تحمل محلها هناء مادية ، تخرج الناس الى مذاهب جعلت الإنسان قطيما ضالا يتردى في المهالك ، حيث لا وازع ولا رادع ، وحملته يشعر بالآلام الحياء وقساوتها ، ويشعر بشقاء لا يجده منه محسما .

على حملة الأديان أن يسعوا الى رد الطمأنينة النفسية الى الناس ، والى إيجاد السعادة النفسية عند الجماهير بردهم الى الله ، وتوجيه قلوبهم الى الله ، وتحقير هذه الحياة المادية والإشادة بذكر الآخرة وما فيها من نعيم يمرض ما فات ، لا يدركه المترفون وإنما يحصله المؤمنون المتخلصون . وقد فعل المؤمنون هذا من قبل وكاتوا حكماء فيه محلصين ، وكانوا فلاسفة مرشدين جزاءهم الله خير ما يجازي به مؤمن أسعد الناس بعلمه ، وهداهم بإرشاده .

يجب أن يفعل هذا ، وأن يذكر أهل الثراء بحقوق الفقراء التي أوحىها الله ليبحرخوا عن شيء مما آتاهم الله يرفه عن هذه الطبقات الفقيرة بعض الترفيه .

ومن ظلم الإنسان للإنسان أن يببب شخص طاوي البطن يعصها من الجوع ، عاري الحسد يتحمل الزمهرير ، ويببب شخص متعبا بأنواع الطعام وأنواع الشراب على فراش وثير ، وفي دفة هي .

هودوا أيها الناس الى ما فرضه الله من الحق في أموال الأغنياء ، والى ما حسب فيه من الصدقات ، ونظموا هذه الحقوق وتوسموا فيها ، ثم احبوا الفقراء والمحتاجين واليتامى بما يخفف آلامهم ويذيل أحزانهم .

أيها السادة . أسأل الله أن يسع على مولانا جلالة الملك صحة كاملة ، وعافية شاملة ، ويديم صمره ، ويظيل أجله في طاعة الله وفي سبيل الوطن والدين .

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية
تصدرها شبكة الأزهر
في كل شهر عربي
درريد نفوس

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٨	المجلد العاشر
-------------	-----------------	---------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد الدين

الدولة	الاشتراكات عمدة سنة
ميدان الأزهر	داخل القطر ٢٠٠
تلفون : ٨٤٣٣٢	طلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	خارج القطر ٣٠٠

نفس الجزء الواحد ٣٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارج

(مطبعة الأزهر - ١٩٣٩)

فاتحة السنة العاشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على جبريل نعمائه ، وهذا يرشعنا للمزيد من حياته ، ويؤهلنا للحم من آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وصفوة أصفياه ، محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه .

وبعد فقد أتممت مجلة الأزهر تسع حجاج من حياتها ، ودخلت بهذا العدد في مآثرتها ، متحجرة لخدمة الاسلام وأمتة ، مشمرة في الذايد عن حوضه والدافع عن حقيقته ، بكل ما أوتينا وأوتي محرروها من حول وقوة ، فإن كما قد أحسنا بفضل الله وتوفيقه ، وإن كنا قد فصرنا فليس ذلك عن حمد ، والله في عون العبد والأخذ بيده ما أخلص النية ، وطهر الطوية ، ونحجى سبل الاتقان ، ونلمس طريق الاحسان ، وهذا ما جعلناه نصب أعيننا ، وقاية وجهتنا « والذين جاهدوا فينا لتهديهم سبيلا ، وإن الله لمع المحسنين » .

لقد عرفنا منذ أن علجنا الكلام في الاسلام ، أن أشد ما يعترض طريقه ، ويشبط من توثباته ، شبهات صبغها المتسرعون بصيغة العلم ، وأضاعوها بين المتعلمين في ثنايا أصوله ، وأطواء نظرياته ، وتلقفها الناس عنهم تقليدا ، وقد نقشوا في روعهم أن هذه الشبهات تدحض تعاليم الدين ، وتزعزع من أساسه ، وأنها حين صاولته في ملاد المدنية الحديثة ، تصدى لها عدد من الاعلام المقدمين ، ليقلوا من شباتها ، ويقفوا من محماتها ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، واتمى أحرم بالاستسلام لها ، فلم تبق من الدين هنالك ولم تذر .

هذه الشبهات تبذر بدورها اليوم لدينا ، وتتمهد بالمناجاة لتنمو بين ظهراينا ، وتعمل بنا ما فعلته بسوانا ، توها من الدين يدبرون هذه الفتنة أن التجرد من العقائد شرط للنهوض الأدبي ، والاستقلال الفكري .

هذا صلال بعيد منهم ، فليس في الاسلام أصل يعطل النهوض الأدبي ، أو يصعد عن التحرر الفكري ، بل الاسلام نفسه أقوى عامل عرفته البشرية للاستنهاض والتجديد ، وقد دل على ذلك بالعمل ، فأخرج أمة من العدم ، وأمتعها بكل الوسائل التي جعلتها في مقدمة الأمم .

فجلة الأزهر تبذل جهدها لتصيد هذه الشبهات المدسوسة على العلم وتحليلها ، وتبيين حواه القوة والضعف منها ، والتدليل على أنها لا تصدو على الاسلام ، ولا تمس جوهره ، ولكنها تصدقه وتؤيده ، وتجعل منه الدين العالمي الذي لا يحيد عنه .

والى جانب هذا تنشر مقالات متممة فى التفسير والسنة، يقوم بهما عالمان عظيمان من أعلام الأزهر ، وبحوثا أخرى فى الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم يكتفيها رجال إخصائيون فى هذه المواضع .

ومما يميز هذه المجلة أنها تعنى بنشر طائفة من الفتاوى على المذاهب الأربعة إجابة على استفتاءات تقدم إليها . وقد تداركت الإدارة العامة ما كان أصاب هذا الباب من الضعف فأصبح كميلًا بإيتاء حاجات الناس من هذه الناحية التى تهتمهم كثيرا .

ومنى تكلمنا عن مجلة الأزهر وجب علينا أن نذكر ما لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق من الأيادى الخالدة فى رفع منار الإسلام ، وإعزاز كلمته ، بما يحويه من من الساف الصالح ، ويجرده من آثارهم . وقد أصبحت أعماله الجبيلة فى هذه الناحية مُشْلا عليها ثابتة يترسمون خطواته لتحقيقها ، ويأتون بجلائته لتأييدها .

ولا نستطيع أن ننسى ما لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر من عناية بهذه المجلة شجعتنا على المضى فى عملنا بهمة لا يعرفها ملال ، وعزيمة لا يتحيفها كلال ، شأن القائد الحكيم يثبت فى معاونيه روح النشاط بقوله وعمله .
فأله أسأل أن يوفقنا فيما تصدينا له حتى نتال الموعد به من تأييده ، وأن يلهمنا الصواب حتى نستحق المزيد من توفيقه ونسديده .

مدير مجلة الأزهر

محمد فرير وجدى

الدرس الثاني

الذي ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الاسناذ الامام الشيخ
محمد مصطفى المراغي في مسجد البوصيري بالاسكندرية
في حضرة صاحب الجلالة الملك

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول
بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » .

الاستجابة : هي الإجابة ، ومنه : فلم يستجبه عند ذلك مجيب . أو هي الإجابة بعناية وقوة ،
فتكون السنين والتناء للمبالغة ، والأصل فيها أنها التحري والتحريق للحواب ، وعبر بها عما سبق ،
لأن التحري للإجابة قل أن ينفعك عن الإجابة بعناية .

والحول بين الشيء والشيء : المحر بينهما . والدعاء الطلب مع البعث والتحريض .
وما به الحياة هو العلم بالله ، والعلم بنفسه في الخلق ، وأحكامه الشرعية ، والتربى بالحكمة
والفضيلة والأعمال الصالحة التي تكملها الفطرة الانسانية ، وتسعد بها في الآخرة ، فهو
يشمل جميع ما في القرآن الكريم من حكم وأحكام وعقائد وأخلاق وآداب ، ويشمل ما فيه
من نظام الحرب والسلم وقواعد الاجتماع ، ويعم كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى
القول والعمل . كل ذلك يحيي من عمل به حياة طيبة ، يعزه في الدنيا ويسمده برغد من العيش ،
ويعلى قدره ، ويرفع ذكره ، ويجعله في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم في جات تجري من
تحتها الأنهار .

بعد أن طلب الله إجابة دعائه ودعاء الرسول ، نبه الى أمرين عظيمي القدر يبعث النعبة لهما
الى الانقياد والطاعة والاقبال عليها بالجهد والمزم (أحدهما) أن الله سبحانه قريب من العبد
مطلع على مكنونات صدره ، يعلم منه ما قد يخفى عليه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .
و (الثاني) أن العباد يحشرون اليه وحده ، ويبيده الجزاء على الأعمال « فمن يعمل مثقال ذرة
خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فقوله : « يحول بين المرء وقلبه » نظير قوله « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » ، وقوله :
« فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . والغرض منه الحث على الاحلاص وتصفية
القلوب . ويمكن أن يراد به أن الانسان عرضة لتغير الأحوال ، من أمن الى خوف ، ومن
ذكر الى نسيان ، وما أشبه ذلك مما يشوش عليه قلبه ، ويقلق نفسه ، ويضوت عليه الطاعة .

ولما كانت هذه الأسباب صادرة عن الله جل شأنه صح أن ينسب الخول إليها ، وأن ينسب إليه . فالآية لا تدل على أن الإنسان مجبور في عمله ، وحاشا أن يكلف عاجزا غير مستطيع ، يحول بينه وبين الإيمان أو الطاعة ، ولو كان الله يفعل ذلك لكان القرآن حجة للشركيين على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن حجة له عليهم .

وطاعة الرسول واجبة في حياته وبعد مماته ، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة : من السنن العملية المبينة للكتاب ، ومن السنن القولية القطعية في الرواية والدلالة . أما غير ذلك مما هو محل الاجتهاد فعلى كل مجتهد أن يعمل بما صح عنده وبما ترجح عنده . أما العادات من اللباس والطعام والشراب والنوم وما شبه ذلك فلم يعمده أحد من السلف من أمور الدين - وكما يجب أن نهتدى بالهدى النبوي ، يلغى أن نهتدى بهدى الخلفاء الراشدين والصحابة وعلماء الأمة في اجتهادهم وأدبهم ، مع مراعاة أصول الدين العامة ومصالح المسلمين ، لكن ذلك لا يسمى ديناً إلا إذا كان ثابتاً في كتاب أو سنة .

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » :

الفتن في اللغة : إدخال الذهب النار لتظهر خودته من رداءته ، واستعمل في إدخال الإنسان النار في الآخرة ، ومنه : « ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تمسعون » أي ذوقوا عذابكم . وتطلق الفتنة على ما يحصل العذاب بسببه نحو قوله تعالى : « ألا في الفتنة سقطوا » . وتطلق على الابتلاء والاختبار ، ومنه : « وفتنناك فنونا » . وتستعمل الفتنة والملاء فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ، ومنه قوله تعالى : « واحذروا أن يفتنوك » أي يوقعوك في بلاء وشدة بسبب صرفهم إياك عن الوحي . و « فنتم أنفسكم » أوقعتموها في بلية وعذاب . وعلى ذلك قوله في الآية : « واتقوا فتنة » أي بلاء وعذابا .

والمعنى : احذروا ابتلاء واختباراً من الله سبحانه ينتليكم به فلا ينحس المذنب الذي ركب المعصية واقترب الذنب بل يعم غيره .

من المعاصي ما هو خفي بين العبد وربه يحاسبه عليه وليس للعباد أن يبحثوا عنه ، وقد نهى الله سبحانه عن التجسس بقوله : « ولا تجسسوا » . ومنها ما يظهر ويضهر ، وهو على أنواع : بدعة في العقيدة والرأى ، وبدعة في الأعمال ، وورقة عن الجماعة لمحض الهوى لا لدليل من كتاب وسنة . وأشد هذه الأنواع الفتن المالية والقومية التي تقع بين الأمم عند التنازع على المصالح العامة من السيادة والملك ، وعند التنازع في السياسة على الحكم ، وقد تحصل تماثل تلك فرقة في الدين والشريعة حيث يتخذ الدين وسيلة للفوز والغلب . وقد طالب الله سبحانه المؤمنين أن يحذروا هذه المعاصي الظاهرة ، وبخاصة ما كان طاماً منها ، وما يوجد الفرقة بين الأمة ، ويصدع وحدة الجماعة سواء أكانت الوحدة في العقيدة أو العمل ، أو في السياسة وقواعد

الاجتماع ، لأن التفرقة في ذلك كله تضعف الجهود ، وتذهب القوة ، وتقطع الأعداء في المسلمين حتى يقتلهم إلى الضعف والوهن ، وينتهي أمرهم بتسلط الأعداء عليهم .

على كل فرد وعلى الجماعة الحذر من هذه العثر ، طالبهم الله بهذا وقطع دابرها وعدم تركها نبیض وتفرغ وتغشش ، ومن أحل هذا أوجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وشدد في ذلك في مواضع كثيرة من كتابه . من ذلك : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، فقد جعل الأمر بالمعروف فريضة إذا تركه المسلمون أثموا جميعهم ، وركبهم الحرج . وقد علق الله سبحانه الفلاح على ذلك وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « لِمَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . فقد استحق هؤلاء العقوبة لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « فَمَا كُنْتُمْ مَادُّوهُمْ أَنْ يُجِنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ رَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » وقال : « الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَلُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الأنبياء وحلفائهم ، ووظيفة ولاية الأمور جميعهم ، وإذا تعطلت فشت المضلة ، وشاعت البسدة ، وسرى الفساد ، واسترسل الناس في الشهوات ، وفلت مراقبة الخالق ، واستولت على النفوس مدهانة الخلق . ومن واجب الحكومات الضرب على يدي المفسدين ، وسن القوانين الصارمة ، وخلق حياة اجتماعية ترواح فيها نصيب لله نصيب . وما انحطت أمة إلى الدرك الأسفل إلا بتهاون الجماعة وتهاون أصحاب السلطان في تقويم الأفراد والجماعات .

ولن يبسط سلطان وإن ترزف سمادة وعرة ومجد حيث يملو سلطان الشهوة ويسود سلطان الشيطان .

وعقاب الأمم على الذنوب العظام والمعاصي الظاهرة لازم في الدنيا ، وهو أثر من آثارها الطبيعية كما هو مشاهد ومعروف في التاريخ ، وعقابه في الآخرة شديد يعاقب من يعصى أمره ، ويركب رأسه ، ويطيع شيطانه ، ويخالف نظام الله في خلقه ، وسن الكون ، وهدي الاجتماع .

وقد بدأت الفتن السياسية أيام علي ومعاوية ولست نوبا دينيا أوجد في الأمة فرقا ، ثم تسعها فتن أخرى أضاعت مجد الإسلام وعزه . ولا علاج إلا باتساع القرآن والرد إلى الله ورسوله ، ومحاولة التوحد في جميع الشؤون الإسلامية . وهذا ما ندعو إليه ، ونطلب من الله تحقيقه . وفي الحديث الشريف : « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يتذكر أن ينكر »

عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعصمهم الله بعذاب من عنده . وقيل : يا رسول الله أنهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : « نعم ، بنهاونهم وسكونهم على معاصي الله » .

وقد قال الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينها ففسقوا فيها خلق عليها القول فدمرناها تدميرا »

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأوكم وأيدكم بنصره ، ووزقكم من الطيات لكم تشكرون » :

بعد أن طلب الله سبحانه طاعة الله وطاعة رسوله ، وبين أن حياة العباد في هذه الطاعة ، وطلب اتقاء الفتى ، وعدم التفرق الذي يذهب ربح القوة ويورث القلة والضعف ، ذكرهم بأنهم كانوا قلة مستضعفة في الأرض ، يبايهم الناس فلكروهم ويقتلونهم عن دينهم ، لا يبايهم أحد ، ولا يدفعون عن أنفسهم إذا تخطفهم الناس ، وذكرهم بأنه أعزهم بالاسلام وجعلهم في منعة ، وجعل لهم قوة هي الحصن الذي يركنون اليه عند الشدائد ، ونصرهم على الأعداء ، وفتح عليهم بلادا وممالك درت الخير ، فصاروا في عيش رغيد ، وفي أمن بعد الخوف ، وعز بعد الذل ، ومن شأن هذا كله أن يقوموا بشكر الله ، ويقوموا بحدوده ، ويقادوا لأمره بالطاعة .

هذا التذكير كأنه دليل على صحة الطلب ، وعلى وجوب الطاعة ، لأنهم لم يبالوا كل هذا الخير إلا بالطاعة والوحدة وعدم التفرقة . وعن قتادة : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاء عيشا ، وأجوعه بطشا ، وأغراء جلودا ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرفهم منزلا ، حتى جاء الله بالاسلام فكنس به في البلاد ، ووسع به في الرق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . فبالاسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فانه منهم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى .

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » :

معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التام ، ومنه تخونه إذا نقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

والمعنى : لا تعملوا غرائض الله وما جاء به رسوله ، ولا تضعوا الأمانات فيما بينكم وأنتم على علم بأن ما تعملونه خيانة ، أي لا تعملوا ذلك عن عمد . أما الخطأ والنسيان فهذا مما اغتفره الله لمباداه . وكما تكون الخيانة ترك الطاعة ، تكون بعدم بيان الأحكام . وخيانة الأمانة تكون بين الرعية والراعى ، وبين الأفراد بعضهم مع بعض . والأمانة من الصفات الدينية

التي قام عليها بناء المجتمع ، وأسس عليها العمران والمدنية ، ولا صلاح لامة ولا بقاء لدولة إلا بها ، وعليها مدار الثقة في جميع المعاملات . ومن الأمانة إقامة العدل بين الناس ، وأن يقوم كل فرد بما هو موكول اليه بمجد واجتهاد وإخلاص . ولا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين لمن لا عهد له ، وآية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

ومن الحياة إبقاء مر الدولة ، وإحراجه للأعداء ، سواء في ذلك السلم والحرب ، والاستعانة على المسلمين بغيرهم . ومن الحياة أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم التحري في إتفاق أموال الدولة في المرافق العامة . ومن الحياة عدم تولية الأكماء ، وعدم التصح لأوليائه الأمور . كل ذلك حياة ، والله يطلب أن يكون المسلم مأمها أمينا ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . ومن الحياة إهمال الدفاع عن البلاد . ومن الحياة أن لا يُعهد كل مسلم نفسه ليكون جنديا يدافع عن دينه وعن وطنه .

وقد روى المفسرون في سبب زول هذه الآية : أن بعض الناس جمع من النبي صلى الله عليه وسلم أشياء فأنقأها إلى المشركين . ورووا أيضا أنه لما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخروج أبي سفيان عزم على الذهاب اليه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان يعلمه الخبر ويحفزه . ورووا أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني قريظة طلبوا اليه أن يتركهم يذهبون إلى الشام كما فعل مع بني النضير ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد ، فذهب إليهم أبو لبابة وأشار إلى حلقه ، يعني أن حكم سعد هو الذبح ، وشر أبو لبابة أنه خان الله ورسوله فتاب ، ولذلك قصة طويلة . وقد كان لأبي لبابة عتدم أموال وأولاد .

يصح أن يكون هذا أو غيره سبب زول الآية ، لكن الآية عامة تشمل كل خيانة لله ورسوله .

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » :

الأموال محموة للنفس ركز في طبيعة الانسان الحرص عليها ، فهي الوقاية ، وهي العدة عند الشدة ، بها الحياة ، وبها الاستمتاع مما تنارع اليه النفس وتقصاه الطبيعة من اللذات والشهوات ، وبها يدرك العز ، وينال القصر والجاه .

والأولاد عزيزة على النفس يرى الانسان فيها صورتها ويحتفظ به ، كما يحتفظ بنفسه أو أشده ، ويدرك أن في بقائها بقاءه . وقد جبل الانسان بل الحيوان على الحرص عليها ، والحرص بها ، والدفاع عنها ، وقد يضع الحيوان حياته دفاها من حياة ولده . المال والولد كلاهما فتنة ، وقد يكون سببا من أسباب عدم الطاعة ، ومن أسباب الخيانة ، فلا يتحرى العبد مورد الرزق والكسب ، ولا يقوم بحق الله في المال ليوفر لنفسه لقته ، ويدحر لأولاده بعد موته

ما يقيم أودم ، ويسهل عليهم العيش ويقبهم اتفاقية وذل السؤال . من أجل ذلك نبه الله سبحانه الى أن ما أخره لعباده من الأجر عظيم ، فلا يليق بالعاقل أن يتركه ويفتن بالعاجل ، فليس مما يرضاه العقل أن يترك نعيم مقيم ، وعز دائم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، ورضوان الله من أجل متاع قليل في هذه الحياة الفانية .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » :

الفرقان : الفارق بين الحق والباطل ، فيشمل كل ما حص الله به عباده المؤمنين من المعرفة والهداية ، وشرح الصدر ، والأحلاق الناضجة ، من الشجاعة والصبر والكرم والحلم ، والصبيحة لله ورسوله وللمؤمنين ، وعدم موالاة الأعداء ، وترك الغل والحقد والحسد وكل الأحلاق الذميمة . ويشمل أيضا إعلاء كلمة الله ، والظهور على الأعداء ، والثواب في الدنيا والآخرة . تقوى الله يحصل هذا كله ، ويستر الله السيئات ويمحوها فلا يؤاخذ عليها ، ويفقر الذنوب ، ويضعف الآخر ، فهو ذو الفضل العظيم .

ومعنى الآية : أن العمل على مقتضى الدين والشرع وسنن الله في الخلق ونظام الاحتجاج يورث ملكة العلم والحكمة ، وبذلك يفرق الانسان بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يرزقه الله النصر على الأعداء بما يعز به المؤمن ، ويكتب به المدو .

والتقوى تشمل اتقاء الذنوب ، واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما ترشد اليه السنن الكونية ، وذلك يتوقف على علم بسنن الله في الانسان مفردا ومجتمعا ، وعلى معرفة ما ينبغي أن يفعل ، وينبغي أن يترك .

توتحه النداء في هذه الآية الى المؤمنين ، وقد طلب الله منهم في آيات قبلها تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وهي رابطة الاسلام ، وإصلاحها يكون بالوفاء والتعاون ، والمواساة ، وترك الأثرة . ووصف الله المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، أى شعرت بالغشية والخوف من الله ، وبأنه إذا نليت عليهم آياته زادتهم إيمانا : أى سعة في العرفان ، وقوة في طمأنينة النفس ، كما فعل إبراهيم حيث طلب الاطمئنان بعد أن كان مؤمنا ، وبأنهم متوكلون على الله يفوضون أمهم اليه وحده بعد الأخذ بالأسباب ، ويفوضون اليه الامر ليهديهم الى الأسباب فيما لا يعملون له أسبابا ، وبأنهم يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، كل هذا تضمنه قوله سبحانه : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا دَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا نَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ رَادَّتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رُءُوسِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

وطلب منهم أيضا الثبات في القتال ، وحرم عليهم الفرار ، وقال : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بفنص من الله ومأواه جهنم ونفس المصير » .
ومعناه أنه لا يجوز أن يولى المسلم ظهره للاعداء إلا إذا أتى الانتقال الى مكان آخر هو أصلح للقتال ، أو رأى أن ينضم الى فئة أخرى من المؤمنين .

وطلب اليهم ترك النزاع وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وطلب اليهم التحك بالعهد والسلام ، وإعداد القوة للدفاع عن الدين والوطن ، كما طلب سد العهد عند الخيانة . « وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .
« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون » . عدوا الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلموهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون .
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

هذا بعض ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المعظات والبر والأحكام والحكم ، نسأل الله الهداية ، ونستلهمه الرشد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مقدمة

في هذا اليوم فاتحة العام الهجري الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية في دورها الخامس ، ندأ في نشر دراسات متتابعة في حياة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة .

كانت هذه أمنيى منذ سنين ، ولكنى كنت أرجئ تحقيقها ، لا إثاراً لغيرها عليها ، ولكن لما كنت أشعر به من المشقة العظيمة في توفيتها حقها من الناحيتين العلمية والفلسفية على ما ينبغي أن تكون عليه في بيئة أصبحت مطامعها العلمية لا تقف عند حد . فالبس اليوم وخاصة متعلميهم لا يقعهم سرد الحوادث التاريخية دون معرفة عللها الأولية ، سواء أ كانت من طبيعة البيئة ، أم من مقتضيات الاحتجاج ، أم من مستلزمات العاطفة الدينية التي جبلت عليها النفوس البشرية . ولا يكفهم سرد أطوار النبوة وحالاتها دون معرفة ماهية النبوة في ذاتها ، وهل هي حاجة من حاجات الروح الانسانية كما يقول الدينيون ، أم هي مجرد ظواهر اجتماعية ، تولدها ضرورات الاحتجاج ، وتستدعيها آماني النفوس ، مثلها كمثل جميع الظواهر التي تتولد في أدوار التطورات الأدبية للام ثم تزول وتحل محلها ظواهر أخرى أكثر مناسبة ، وذوئق صلة بضروب الثقافات التي تتعاقب على الجماعات في مراحل حياتها العقلية ؟

والميل الى تأييد أحد هذين التيارين الفكريين يستدعي إقامة الأدلة القاطعة عليه ، ولا يمكن أن يؤخذ كقصية مسلمة ، وخاصة في هذا الدور من تنازع المذاهب الفلسفية .

ثم إن الكلام عن الوحي وأساليبه ، والاتصالات الروحانية بالملأ الأعلى ، وإمكان استمداد العلم عن العالم العلوي مباشرة بواسطة الملك ، حلاقا للسمة المعروفة بين البشر ، كل هذا لا يتأتى للعقل الراهن أن يسهه بغير أدلة تناسب خطورته الاعتقادية ، فالنزاع كتابه السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة يوجب إبراز هذه الأدلة ، ويوجب أن تكون من القوة ، وصحة الدلالة بحيث تصلح أن تثليج عليها الصدور ، وتطمئن بها العقول ، لا أن تكون مسلمات تحكيمة في صورة أدلة علمية .

لا أنكر أن هذا كله من أشق الأعمال الكتابية ، وأن المتكفل له سبيل فتح طرائق جديدة للتدليل على أمور روحية يعتبرها أكثر الناس أجنبية عن المحاولات العلمية .

ولبست تنحصر صعوبة هذا البحث في هذه الباحية الروحية ، ولكنها تمتد الى نواح أخرى علمية باحتة يصعب تحليلها بالأسباب المادية على مقتضى الدستور العلمى ، وسنصطر الى تلخيص عللها من عالم ما فوق الطبيعة ، وهذا موضوع نزاع سيكون بيننا وبين العلم الاجتماعى نفسه ، لأنه لا يعترف بذلك العالم العلوى ، ويهون عليه أن يتلخص للحوادث علا واهية أو يتركها بدون تحليل تخائليا من نسبتها الى عللى غير طبيعية . مثال ذلك قيام محمد صلى الله عليه وسلم وحده بدعوة أمة رمتها الى ترك دين توارثته عن أسلافها أحيالا كثيرة ، والأخذ بدين منقاد له فى جملة وتفصيله ، وتجاوزه فيما تصدى له محاسن محسرا للعقل لم يسبق له شبيهه فى تاريخ النفس الإنسانية . فالباحث العلمى يحمد نفسه إزاء هذا الحادث الحبل مصطرا لأن يتلخص له العلل الطبيعية ، فيدعى أن الأمة العربية قبيل البعثة المحمدية كانت تتطلب ديننا جديدا ، وتتطلع الى تأليف كتلة اجتماعية تجتمع فيها كلتها ، وتتوحد وجهتها ، وتميز بها فائتها ، فلما ظهر محمد ودعا الى الدين الجديد والاحتجاج عليه ، تسارع العرب الى تلبية ندائه ، فقام الاسلام وقامت جماعته ، وتم لها ماتم من الفتوحات الضخمة ، والمدنية الفخمة ، ثم اعترى هذه الوحدة التراخي ، وانتهى حال المسلمين الى ما انتهى اليه اليوم !

يدعى الباحث العلمى هذه الدعوى تحلصا من ورطات الخيرة ، متممدا فى هذه السبيل الاستناد الى علل باطلة ، يعلم هو قبل غيره عرافها فى البطلان . فان الأمة العربية لم تكن قبيل البعثة المحمدية تتطلب ديننا جديدا ، وكيف يعقل ذلك وقد رفضت دعوة النبي رفضا باتا وعدته كاذبا ، ومجبت من جرأته على الزاوية بالهتفا ، واعتبرت التوحيد فرية لم يقل بها أحد غيره ، فقالوا كما ذكره الله عنهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهنكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » . فامة تقول مثل هذا القول ، وتناذ الداعى الى الدين الحق ، وتتقصده بالقتل حتى يحتمى ويخرج من بلده فى جنح الظلام ، ويعتصم الى غار تماديا من الطلب الذى أرسل وراءه ، كل هذا منها لا يدل على أنها كانت تتلخص ديننا جديدا أصلح من دينها الأول . وإنى أسأل القائلين بهذا القول : أى أمة فى الأرض من أهل القرون الماضية طلعت أن تتبدل دينها جديدا بدنيها الذى ورثته عن آبائها ، وسعت الى ذلك سعيه ، فتم لها ما أرادت أو كادت ؟ ليس فى تاريخ البشر كله ما يدل على هذا . وفى الأرض اليوم ثم لو انتقد الباحث أدبائها لمعجب كيف يسبق قوم لهم عقول أن يدينوا بها فى عصر بلغ فيه العلم الى حد التحديث فى الصعود الى القمر ، ولم يكنهم المنظار الفلسفى ولا آلة تحليل الأشعة المحسكة منه لمعرفة تركيبه المادى ؟

أما ادعواهم بأن القبائل العربية كانت تنهيا لجمع شتيتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبي

صلى الله عليه وسلم ، ففى دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإن أمة تدب فيها هذه الروح ولا تؤثر عنها كلمة فيها أو بيت من الشعر أو أية حركة تتم عليها ، لأمر يوحى الدهش ، لاسيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاؤوا أن يخلقوه ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما حثى أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير اليه . وما حفز أصحاب التميل الى هذه الاختلافات إلا حيرتهم فى تعليل حدوث انقلاب خطير كالتى حدثت على يدى النبى صلى الله عليه وسلم طفرة ، بدون أسباب مادية مهدت له آمادا طويلة .

وبما نسوقه من قبيل الاطراف فى هذا الباب أن الأستاذ مونتيه ، المدرس بجامعة جنيف ومترجم القرآن الكريم ، قدم لترجمته مقدمة قال فيها : إن هذا الكتاب يحوى كثيرا من الاصول القيمة ، والتعاليم الصالحة ، وعبارته فى أعلى درجات البلاغة ، فلا يعقل أن يكون مجد والحلقة هذه أميا ، لأن الآى لا يستطيع بحال من الاحوال أن يأتى بمثل هذا العمل الأدبى الضخم . فانظر كيف يتعسف الاسناد مونتيه فى حكمه ، وينسب الكذب لأعظم رجل أنجبته الأسرة الآدمية ، ويعزو الغفلة لامة يرمتها ، لجرّد أن الكتاب الذى هو بسيل الكلام عليه لا يمكن صدوره من أى اذلك لرسوخه فى عقيدته من أن العلم والحكمة لا مصدر لها إلا العقل البشرى ، وأنهما لا يمكن أن يأتيا من طريق الروح ، لأن الروح عنده لا وجود لها ، والعالم الروحانى خيال بحث . ثم هو لا يريد أن يدع أمر صدور هذا الكتاب من رحل أى أنجوبة خارقة للعادة ، يحب أن تنلس أساليب الحقيقة ، فرمى القول على عواهنه وعطله على النحو الذى رأيت ا

وأرائى من ناحية مضطرا لأن أقول : إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطائية ، والأغاني البيانية ، ولم يعنوا أقل عنابة بحاجة العقول القوية المجهولة على التشكك والتثبت ، فأسرفوا فى إهمال الناحية الاقناعية ، ونهافتوا على الناحية التسليلية ، جرم هذا الموقف الى قبول كل ما وضعه الخرافيون من المبالغات التى صاهاؤها ما ماورد من أمثالها عن الأمم المختلفة ، معاصين بذلك كل ماورد فى الكتاب من وجوب مجانبة الغلو فى القول ، وضرورة التثبت فى النقل ، والتمحيص فى الرواية ، فجاءت السيرة المحمدية زائفة بالانطباع الخرافية ، والروايات الموصوعة ، والأشعار المصنوعة . فان تكن هذه الكتب المؤلفة فى السيرة المحمدية قد راجت لدى العامة ومن يجرى مجرام ، فقد أهملها الخاصة ، وكان يجب أن تكون أول ما تنسج اليه عقولهم ، وتهوى اليه أفئدتهم . وقد تناول التأليف فى السيرة فى العهد الأخير رجال من أهل الثقافة الحديثة ، خوفوا بمحاجات فى نفوس الناس ، وبقيت حاجات أخرى لا تزال غير موفاة ، بل بقيت نواح لفتت المعلوم الراهنة الأنظار اليها ، ولم يطرّفها قلم كاتب الى اليوم ، ولا يجوز أن تكون سيرة النبى صلى الله عليه وسلم على هذا

المحو من النقص ، وخاصة في هذا المهد الذي بلغت الشكوك فيه أبعد مدى يمكن أن تصل إليه ، ووصل الاستخفاف فيه بأمر النبوات الى حد لم يبلغه حتى في أظلم عهود الجاهلية .

لقد أصبح القول الفصل اليوم للعلم ، العلم الذي اتفق قادة الفكر الانساني على تسميته بهذا الاسم ، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سُريّت عليه أصول الدستور العلمي ، فشكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشي أساوبه ، ويتمم حدوده ، لا ينال من العقلية المصرية المسكنة التي يراد أن تكون له . وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين حتى العقائد التي بادت في سبيل الدافع عنها أم برمتها ، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد ، ليفعل بعقائدا مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا اليه ، والامم الاسلامية اليوم محفوزة اليه بحكم القرية المصرية ، فوجب على القادرين منا على حمايته من الخطر العلمي أن يعملوا على شاكلتهم في هذه السبيل .

ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي ، أن جانب الاعجاز فيها سيكابد نقضا عظيما ، إن لم يفعل إغفالا تاما ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمرا طبيعيا ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عطاء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فالتا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث ، وعزوها الى علها القرية ، فإنه سيتألف من جملتها أمر حائل يقف العلم نفسه أمامه حائرا ، لا يستطيع تحليل صدوره عن فرد واحد ، وسيكون مضطرا بأن يعترف بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان عبقريا من طراز خاص فاق به جميع المباقرة ، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته ، لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة . هي في العلم ما يُلقي في روع المبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذا لا سابقة له ، يتخذ مثلا لغيره ولا يمكن تقليده . فالمبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة الى العقل ، وتسوغها في العلم ، كما سنفصل ذلك تفصيلا في الأعداد المقبلة .

إن ما تم على يد محمد صلى الله عليه وسلم أمور لا يصلح بها العقل ، لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها ، ولا الغض من جلالها بوجه من الوجوه . فقد تم على يده : (١) توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ، ولا تعطفها على عناصرها طائفة . (٢) قضاؤه في أمة برمتها على وثنية كانت متواردة فيها منذ آماد طويلة . (٣) وإحلاله محلها ديننا بنافى ما كانت تدن به من كل وجه . (٤) وإحداثه إصلاحا احتاعيا قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة ، وإباحتها متحركة ، وغفلة متغلبة ، الى إنسانية متألثة ، وفضيلة متوثبة ، وبقطة لا تدع فرصة الى الأفراس الشريفة ، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها ، حتى وصلت الى زعامة

البشرية في سنين معدودة . (٥) وتأسيسه دستوراً حكيماً وتحملها على اتباعه ، فتأدت الى أكل ما تنوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها ، وتسكاف بين آحادها ، وتصافر بين جميع قواها المعنوية ، للوصول الى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم . (٦) ووضعه أساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر ، تقوم على دين واحد هو الدين النطرى الأول ، وعلى شريعة واحدة تنبى على أصول الحق الطبعى والعدل المطلق ، وتنشد غرضاً واحداً هو الوصول الى أقصى ما قدر للانسان من كمال صورى ومعسوى معاً .

هذه الأعمال كل واحدة منها ترفع مقيم صرحها الى درجة مختازة من العبقرية لتحلله امماً خالداً بين أسماء عظماء النوع البشرى ، فما ظنك لو تمت كلها على يد رجل واحد ؟

وليس هذا كل ما فى هذا الموضوع ، فإن المقربات التى تم لها توحيد الأمم أو إيثؤها بدىن جديد أو بدستور الخ ، إنما سلكت طريق السمة التدرىجية للانتقالات الاجتماعية ، فأوجدت ما أوجدته من التعديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ، لا تقوى على البقاء إلا زمناً محدوداً ، ريثما تتهيا الأسباب للامة الى الدخول فى دور انتقال جديد تمر به الى حالة أرق من التى كانت فيها ، ولكن الرسالة المحمدية لم تسلك طريق تلك السمة لطبيعية ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التى أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمثلى العليا التى ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها فى بىئات مظهرتها أولاً من جميع البقايا الأثرية ، فجاءت نئينها قائمة على أسس لا تترزعزع ، حافظة لحدتها وروائها ما بقى الدهر .

مثال ذلك : يحدنا التاريخ عن عبقرىات ومحدث بين قبائل كثيرة فجعلتها أمة ، ولكنها لم تجعلها أمة مثالية خالصة من جميع عيوب الجماعات البشرية ، فأبك تصادف فيها طبقات ذوات امنايازات مختلفة ، وطوائف متوزعة سراقق الامة على قاعدة استبدادية تحكيمية ، وتجدداتمتها هملاً راعاً لا حق لهم فى الوجود إلا بقدر الخدم التى يؤدونها للخاصة ، فهم مستبدون ومحرمون من أكثر الحقوق التى يتمتع بها من فوقهم من منتحلى حق الوصاية عليهم ، فالامة المؤلفة على هذه الشاكلة تسمى فى العرف أمة ، ولكنها فى حاجة الى تطورات متعاقبة ليخلص فيها الاجتماع من آفاته المنفرة بالفقر الداخلية .

إن هذا من المجتمع الذى دعا اليه الاسلام خالصاً من جميع هذه العيوب ، وقائماً على أكل الاصول العمرانية ، فهو مجتمع متجانس التركيب ليس فيه طوائف مختارة ، ولا طبقات ممتازة ، ولا حوائل تمنع أى عقل عال ، أو فكر ناصح ، أو نظر نائف من إظهار نشاطه ، وإبراز مكنوناته لخدمة الجماعة ، ووصوله بمجهوداته الخاصة الى أرفع مكانة ؟ فكم تولى مناصب الحكم ، وزعامة الدين ، ورياسة العلم ، وقيادة الجند ، وتدير الثروة العامة ، رجال من أجناس مختلفة ، وألوان متباينة ، وطبقات شتى ، لم يجمع أحداً منهم أصله أو جسده أو لونه أو فقره

عن الوصول الى المرتبة التي عينتها له مواهبه . هذا هو المجتمع المثالي الذي دما اليه محمد صلى الله عليه وسلم وأوجده بالفعل .

وقل مثل ذلك في الدين الذي أتى به ، والدستور الذي أسسه ، والتقدم الذي أقامه ، والاصلاح الذي بنه ، والمجتمع الذي ألقه ، فقد جاء في كل هذه الشئون بالمثل العليا نفسها ، لاجالات ماذجة أو متوسطة تحتاج لأن ترقى وتتطور على مدى الأزمان ، كما سنبين ذلك بالأدلة المحسوسة عند كلامنا عليها في هذه السيرة . فهذه الأعمال منفردة أو مجتمعة لا يستطيع العلم أن يسلم بامكان وجودها في عهد من اليهود السابقة ، ولا بامكان اجتماع عبقرياتها جميعا في رجل واحد . فهذا العجز من العلم يكفيننا في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند كلامنا عن حقيقة النبوة والوحى ، وأدلة ذلك من العلم نفسه ، إن شاء الله .

محمد فريد وجدي

الحلم عند القدرة

قال حكيم : الكريم أوسع ما يكون مغفرة ، إذا ضاقت بالمسيء المعذرة . قال شاعر في هذا المعنى :

إذا اعتذر المسيء اليك يوما من التقصير عذرتني مقرر
فصنه عن عتابك واعف عنه فإن العفو شيمة كل حر

وقال غيره وقد أبدى وجهها جميعا لقبول المعذرة ، وهو الوجه الذي يتناساه كثير من الناس ويمجزون عن الانتصاف من حصومهم ، فيسجلون على أنفسهم القصور والتقصير مما ، قال :

أقبل معاذير من يأتبك معتذرا إن ير عندك فيما قال أو جرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وقال أديب . ما أذنب من اعتذر ، ولا أساء من استغفر .

وقال محمد بن سيرين . الأصغر يهفون ، والأكابر يعفون .

وكتب بعضهم الى رئيس يمتنر اليه :

اغفر زلتى لتحرز فضلى واعف عني ولا يفوتك اجري
لا تكلني الى التوصل بالمذ ر لمضى أن لا أقوم بمذري

وقال حكيم : إياك وما يسبق الى القلوب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره ، فما كل من أجمعته نكرا ، يطبق أن توسعه منك عفرا .

جلالة الملك يفتتح معهد أسيوط

ويفتتح مؤسسات حكومية أخرى هناك

كان يوم الثلاثاء الرابع من شهر ذي الحجة موعداً لافتتاح «معهد فؤاد الأول الديني بأسيوط» رسمياً، فرأى حضرة صاحب الجلالة الملك رعاية للعلم وأهله، وإكبار الدين وأعلامه، أن يشرف حفلة الافتتاح بشخصه، فامتطى جلالتَه في منتصف الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم متن طائرة حربية تحومها إحدى عشرة طائرة أخرى، فوصل إلى مقنناد، وهي على بعد اثني عشر كيلو متراً من أسيوط، قبيل الساعة العاشرة. فكان في استقبال جلالتَه رئيس أركان حرب الجيش وضابط حامية أسيوط. وبعد ريادة جلالتَه للمطار وثكنات الجيش قصد أسيوط فوصلها بعد الساعة العاشرة، بيضع دقائق. فكان في استقباله فيها صاحب المجد النبيل عباس حليم، وأصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى والسعادة محمد طاهر باشا ورئيس الوزراء والوزراء وكبار رجال السراى ووكلاء الوزارات ومدير السكك الحديدية ومدير أسيوط وشيوخ المديرية ونوابها وكبار الضباط والأعيان فيها. وبعد أن افتتح جلالتَه محطتها شرف دار الاسعاف الجديدة وافتتحها. ثم قصد جلالتَه معهد فؤاد الأول فكان في استقبال جلالتَه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الفحام وكيل الأزهر، وأصحاب الفضيلة شيوخ السكليات وأعضاء مجلس الأزهر الأعلى والمفتشون وى طلبتهم سعادة الأستاذ الكبير خالد حسنين بك، فتقدم جلالة الملك بين صفيين من الطلبة في مدخل المعهد فاستقبلوه هاتفين داعين. ثم تفضل فتصدر المراتق القمح الذى أعدته مشيخة الأزهر في منزله المعهد.

عند ذلك نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى بين يدى جلالتَه خطبة طالية السكيم في البلاغة، سامية القدر في البان، أوجزت داء المسلمين ودواءهم في أسطر معدودة، وبمبارات متخيرة خلاة، ونظم مؤثر رائع. قال حفظه الله :

مولاي صاحب الجلالة :

لهذا المعهد المبارك قصة فيها عبرة، فقد حدثنا الرواة أن والدكم العظيم صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول زار مدينة أسيوط وشاهد ما شاهد من قصورها الفخمة ومعاهدها الضخمة، ولم ير بينها داراً لتعليم علوم الدين الاسلامى تناسب جلال المدينة وسكان طامعة الصعيد، وتلقى بما يدرس فيها من علوم القرآن الكريم وآثار السلف من المسلفين، فلم ترض نفسه الكريمة إلا بأن يكون لهذه المدينة مبنى للعلوم الدينية يطاول بشاخ أركانه ماراق جلالتَه من عمائرنا العالية

ومعاهدها العظيمة ، ويتأمل في جلاله الى ما تناوله تلك الدراسات الدينية العالية ، فأمر بأن تشاد هذه الدار ، وصعد أولو الشأن بأمره ، وقام هذا المعهد الرفيع العباد الذي نشر فونه اليوم يا صاحب الجلالة بالزيارة الكريمة ، وتفتتحونه رسميا لدرس والبحث .

مولاي :

كان في حياة والدكم العظيم عبرة للناس عامة ، وللعلماء والملوك خاصة . فقد كان ، وهو ملك عظيم يدير الملك ويسوس الدولة ، ويقف بنفسه على جلائل الأمور ودقائقها ، يعنى بالدراسة والبحث في كل ما تتعدد به الحياة العلمية من آثار المؤلفين وآراء المصلحين ، ويعنى بإنهاض العلم وترفيه حياة العلماء . وكان شديد الإيمان بالله ، قوى التوكل عليه ، عظيم الصبر على ما كان يضطرب به من أعباء جسام ، حريصا على تقاليد الاسلام وعلى مكارم الأخلاق . ذلك الى تعدد بصيرته ورجحان عقله وصحة رأيه . وانطباع نفسه العلية على خلال الخير ، هو السر في حرصه على إقامة دور العلم ، وحرصه على إصلاح نظم التعليم وإعلاء شأن علماء الدين ، ورعيتهم الى مراتبهم اللاتئة بهم . وهو السر في إنشاء هذا المعهد ، وما فكر في إنشاء قبله من كليات الأزهر ودور كتبه ومعاهده وغيرها من دور العلم التي يخططها المد ، والتي هي حسنات ستوضع في ميزانه عند الله يوم القيامة ، يوم توزن الأعمال وتوفى كل نفس ما عملت ، وسترفعه عند ربه بفعله ورحمته الى منازل من رضى الله عنهم ورضوا عنه إن شاء الله .

حسبى هذا الآن ، غير أن حسنة من حسنات المغفور له والدكم العظيم لا يجوز لى أن أوصى في القول دون الإشارة اليها والاشادة بذكرها : تلك هي تنشئته ولده العظيم صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول — أعزه الله ورفع ذكره — على ذلك المثال الرفيع من الثقافة الدينية والمدنية ...

مولاي :

ورثت عن والدك عزمه ومضاهه ، وإيمانه بالله ووفاءه ، ورثت عنه خلال الخير ومقومات البر ، وورثت عرش مصر التي تهديك بالنفوس ، وتتيك بكل عزيز . وشعبها الشجاع الخير له فيك آمال كثر أن تنهض به الى الحق والعدل ، والى العلم والدين ، والى الخلق والعمل ، والى المزة والمجد . ولك من قوة الشباب ومن واضح الرأي ومضاء العزم ، ومما تبادل شعبك الأمين من صادق الولاء والحب ، ما هو كفيلا يحسن التوجيه الى السداد ، والتوفيق الى مواطن الرقى ، بفضل من الله وعون منه .

مولاي :

في شباب أمتك حياة متوثبة متطلعة الى المجد ، نزاعة الى المعالي ، ولكن هذه الحياة تشبه

حياة نهر قياص لم توضع له السدود ، ولم تنشق منه الحداويل ، ولم تحكم بعد طرق استثماره ، فهو في حاجة الى هذا كله ، وفي حاجة الى الرق والحزم ، وأنت خير من يرحى لهذا ، أعانك الله وسدد خطاك ، وأسعد بك رعيتك !

مولاي :

كُنْتُ بعض شعوب الشرق بمظاهر الغرب ونظمه ، وأسرفت في انتاج كثير من أساليب الحياة فيه ، واستعارت الرث الخلق من ثيابه مع قليل من جديده ، ولققت من زبها الأول ومن هذه الرقاع المستعارة لباسا مشوها لا هو شرق ولا هو غربى ، وأصبحت حياتها الاجتماعية أيضا ملتقة لا هى دينية ولا هى غير دينية ، وكلما هبت الريح طارت رقعة من هذا ترى ، والباس في م مقعد مقيم من ضم هذه الرقاع بعضها الى بعض .

ألم يأن لهذا البلد الطيب أن تجتمع فيه قوى الخير فتنبش للحياة المصرية نوبا تؤخذ خيوطه من مقومات الشعب ومزاجه ودينه وتاريخه وتقاليده الصحيحة ، ثم يخاط هذا الثوب على قده ليستطيع السير فيه واليهوض بأعباء الحياة المريرة النقية في هذا العصر المادى الملىء بجموح الشهوات ؟

شئ من عناية مولانا الملك الكريم وعزمه ، وشئ من حب الرعية للوطن ، وشئ من الحكمة والخوف من الله ، وشئ من الايمان وطرح الانانية ، كل أولئك كفيل بالخير موصل الى السعادة إذا خلصت النيات واتجهت القلوب الى الله ، واعترف الناس بالمصير فى الآخرة وما أعد الله فيها من عذاب أليم للأشرار ، ونعيم مقيم للأحيار .

مولاي :

نحتفل اليوم بدار العلم والدين بياها والدك العظيم ، وهناك معهدان جديران بالذكر أنشأنا في عهدك الزاهر ، وأقيا بأمرك الكريم : أحدهما في شين الكوم عاصمة مديرية المنوفية ، والثانى في عاصمة مديرية قنا ، وهما الآن عامران بذكر الله ، مليئان بالدرس والبحث ، تشرق منهما شعوس الهداية والعلم والدين . وإنى لأرجو أن يكون يوم الاحتفال بافتتاحهما على يد جلالتك الطاهرة قريبا ، بفضل الله وعونه .

مولاي :

كان الله لك وأمانك ووفقك ، وكان معك في شرك وعلمك ، وفتح لك باب الخير ، ويسر لك طريق الرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير !

والآن أرجو أن يسمح مولانا — أدام الله توفيقه — فيتنصل بزيارة معهد فؤاد الأول الدينى العلمى ، ويفتحه على بركة الله ، وباسم الله ، وعون الله .

بعد أن أتم حضرة صاحب العضية الأستاذ الامام إلقاء خطبته ، تفصل حضرة صاحب الجلالة الملك فتفقد المعهد ، ودخل الى حجرات الطلبة واستمع لبعض المدرسين ، وأصت لتحية طالين من طلبة المعهد ، وأصنى جلالاته الى مناقشة فصيلة الأستاذ الامام لبعض الطلاب في قواعد اللغة .

وبعد زيارة جلالاته لحجرات التدريس ، تفصل بتفقد قاعة المحاضرات والسينما ، والمعامل العلمية ، ومساكن الطلاب .

ثم تلتفت جلالاته فزار حجرة شيخ المعهد ، فالتى فضيلته بين يديه هذه الكلمة :
مولاي صاحب الجلالة :

تفصلتم في هذه الرحلة الميمومة ، بافتتاح المعهد العظيم « معهد فؤاد الاول » فاضفتم بذلك الى مرائكم المتواليه ، وحسناتكم المترافقه ، حسنة كبرى ، بتوارث ذكرها الابناء عن الآباء ، ونسجلها على صفحات قلوبنا المعصمة بالحب والاحلاص .

يا صاحب الجلالة :

قد رفعم بتشريفتكم هذا شأن العلم والعلماء ، وأد كيم عوامل النشاط في أسانذة المعهد وطلابه ، ليصلوا الى الحلية العلمية التي ترمي حلالنكم ، والتي حرصتم على أن تتحلى بها رعينكم ، المتفانية في حبكم ، الصادقة في التعلق بصدتكم ، المخلصة في التمسك بمرشكم المفدى .

يا صاحب الجلالة :

يكون لنا الشرف السامى ، إذا تفصلتم حلالنكم ، فتقبانم منى ومن أسانذة المعهد وموظفيه ، وطلابه --- شعائر الإخلاص والولاء ، وجبل الشكران والثناء .

نسأل الله تعالى أن يحفظ ذاتكم الكريمة ، وأن يجرسكم بعين عيانه وعظيم رعايته ، وأن يشرح صدركم بلوغ أمانيتكم في شأن أمتكم السعيدة ، وبلاذكم العزيزة ، إنه سمع بحبيب الدماء ، وإنى بهذه المناسبة الكريمة ، أتقدم الى حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم ، ملتسما من جلالاته أن يتفصل بالتوقيع بأفضائه الكريم ، على سجل الزيارة والاحتفال ، ليم لنا بذلك الشرف الاسمى .

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبق الكلام على الجلة الأولى ، أما قوله تعالى : « الله الصمد » فهو مبتدأ وحبر . وقيل : الصمد نعت واخر مانعه . وليس شيء . والصمد في تفسيره عبارات كثيرة . قال ابن الأثير : لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد ، وهو من يصدق اليه الناس في حوائجهم وأمورهم . وقال الزجاج : هو الذي ينتهي اليه السؤدد ويقصده كل شيء ، وأنشد :

لقد مكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكذلك قول الآخر :

عساوته بحمام ثم قلت له خذها خزيت فانت السيد الصمد

وهو تهكم من ذلك القائل .

ويقول ابن عباس : إنه السيد الذي كمل في مؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، والحكيم الذي كمل في حكمته . وعن أبي هريرة أنه المستغنى عن كل أحد ، المحتاج اليه كل أحد . وعن ابن جبير : هو السكامل في صفاته وأفعاله . وعن الربيع : هو الذي لا نعتريه الآفات . وعن مقاتل بن حيان : هو الذي لا عيب فيه . وعن قتادة : هو الباقي بعد خلقه . ونحوه قول معمر : هو الدائم . وقال مرة الهادي : هو الذي لا يبلى ولا يفنى . وعنه أيضا : هو الذي يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . وعن الحسن البصري ومجاهد وغيرهما أنه : الذي لا جوف له . وعن ابن مسعود : الصمد : القتي ليس له أحفاد . وهو رواية عن ابن عباس .

وليس يخفى عليك أن أكثر هذه التفسيرات منظور فيها لما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بالصمد ، وإلا فهو في لغة العرب لا يفسر بهذه الأوصاف التي لا تنطبق إلا على الله عز وجل كما عرفت من الشعر السابق .

والخلاصة : أن المختار من تلك الأقوال التي ذكرناها والتي لم يذكرها أنه السيد الذي يصمد إليه الخلق ، وهو بمعنى المفعول : أي المصمود إليه ، يقال : صمده وصمد إليه : أي قصده والنجا إليه . وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لا خلاف فيه ، وإن كان في السيد منه خلاف ، والصحيح إطلاقه عليه عز وجل .

هذا وقصد المخلوقات إياه تعالى بالحسوائج أهم من القصد الارادي ، والقصد الطبيعي ، وهو القصد بحسب الاستعداد الأصلي الثابت لجميع الماهيات ، إذ هي كلها متوجهة إليه تعالى في طلب كالاتها منه عز وجل .

وتعريف «الصمد» دون «أحد» في الجملة السابقة ، قيل لهمهم بصمدته تعالى دون أحديته . والأولى أن يقال : إن التعريف لإفادة الحصر ، كقوله : زيد الرجل . ولا حاجة إليه في الجملة السابقة ، فإن مفهوم أحد يقتضي التنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقا إلى آخر ما بيناه سابقا ، مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولا يعرفون بها ، فلا محل للتعريف .

ولك أن تقول : إن أحدا في غير النبي والمعد لا يطلق على غيره تعالى فلم يخرج إلى تعريفه ، بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل ، أي كما في البيتين السابقين .

وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير ، قيل للإشعار بأن من لم يتصف بالصمدية لم يستحق الألوهية ، وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين الحصر ، فإذا قلت : السلطان العادل ، أضمر بأن من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة . وإذا كانت الصمدية لازمة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها . ولم يكتف بمسند واحد بأن يقال : الله الأحد الصمد ، للتنبيه على أن كلا من الوصفين مستقل في تعيين الذات والاختصاص بها .

وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل على ما قلها ، فإن من كان غنيا لثاته محتاجا إليه جميع ما سواه ، لا يكون إلا واحدا ، وما سواه لا يكون إلا ممكنا محتاجا إليه .

والقرآن له عناية بالغة بذكر الأدلة في باب التوحيد فلو بما وتصريحا كما لا يخفى على المتأمل البصير .

وبهذه المناسبة نقول : إن قول ذلك الفيلسوف الذي نقلته مجلة الأزهر في عندها الثامن من السنة الماضية : « إن أدلة القرآن على توحيد الله تعالى إجمالية غير صحيحة ، وكأنه اغتر بما يراه في كتب المتكلمين من العبارات الطويلة والأسئلة والأجوبة ، إلى آخر ما عرفه من كلامهم . ولو تبصر قليلا لعرف أن طريقة القرآن أصح وأوضح وأقرب من تلك الطرق كلها ، وهي نافعة للخاصة والعامة ، بخلاف طريقة المتكلمين والمتعلمين .

والقرآن بين في وضوح أن كل شيء آية من آياته، ودليل على وجوده وعظيم صفاته . وكان يودى أن أبسط الكلام على مافى القرآن من البراهين والآيات التي لم يصل إليها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون ، ويعلم الله أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع . وإن شئت فانظر الى الاستدلال البديع الذي في نهاية لايجاز والاعجاز في قوله تعالى : « أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » وقوله : « أَلَمْ يَكُنْ لَآلِهَةٍ سُبُوحٌ وَاقِفَةٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَى أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْيَوْمُ الْمُنْقَضُ وَاللَّيْلُ الْمُدْتَضَةُ » . وقد أدكرني هذا ما قاله بعض فلاسفة المتكلمين ، وأظنه ابن سينا : « كنت أشتبه أن يرى أرسطو ذلك الدليل البديع على البعث في قوله : « قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

أما الاستدلال على قدرته وحكمته في القرآن الشريف فأكثر من أن يحصى ، وأكثر من أن يستقصى ، في مثل قوله « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » ، ويقول : « في أي صورة ما شاء ركبك » « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين » « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، ويقول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تستشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وحصل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يفتكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » إلى آخر تلك الآيات التي اختتمها بقوله « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » . وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الاستدلال على الله وجوده الآتي بمخازب الذكر » . ويقول تعالى « أنتم أشد خنقا أم السماء ، بنها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرماها ، والجبال أرساها ، مناها لكم ولا نعامكم » . ويقول : « قل أرأيتم إن حمل الله الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن حمل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بإيل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . ويقول غصرا عن الإنسان مستلفنا نظره إلى تلك الآيات البينات : « ألم يك نعمة من غنى يعنى ، ثم كان علة خلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » . ويقول : « أتمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات سحة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » إلى آخر الآيات التي جاءت في تلك السورة . ومن عجيب تصرف القرآن في الاستدلال على الله ما يسلكه في كثير من السور من تلك

الطريقة البديمة ، فيقسم بأشياء تستلفت الأنظار ، وتستهوئ الأفكار ، لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فيقول : « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عصى ، والصبح إذا تنفس » . ويقول : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يشاها ، والسما وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها » . ويقول : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون » .

ولعله لا يغيب عنك ما ذكره في الاستدلال على البعث ، وهو استدلال على وجوده تعالى وقدرته ورحمته : « بأيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا بخلقنا كم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقه ، ثم من مصغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور » . ويقول : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، فلا تبصرون » ويقول : « وكأين من آية في السموات والأرض يعرونها هم عنها معرضون » .

ولتعلم أن من مادة القرآن التفتن في ذكر الآيات ، علما منه بما جيلت عليه النفوس من الجهل والغفلة ، كما قال في حق الإنسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، ويقول : « قتل الإنسان ما أكره . من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يستره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ، كلما يقض ما أمره . فليظن الإنسان إلى طعامه أنا صيبنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبثنا فيها حيا . وعينا وقضبا . وزيتونا ونخللا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . ويقول : « إن الله فائق الحب والوئى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ذلك الله فائق ثؤفكون . فائق الإصباح وجمل الليل سكنا والشمس والقمر حسانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا آيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضران نخرج منه حيا متراكما ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . إلى آخر ما جاء في القرآن الشريف من ذلك وهو كثير « فذلكم الله ربكم الحق فإذا بهد الحق إلا الضلال فأنى تصرقون » .

وما أجدرنا أن يقول كل منا كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وحلاء حرتي ، وذهاب همي وغمي » ا فقل لي تأنيك أين هذا من تلك العبارات المثلجات التي تراها مختلطة بتلك الشبهات وهاتيك التشكيكات من التهاوت وتهاوت التهاوت مما يثير الأوهام وينسد الأحلام ؟ ! « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن همى فملها وما أنا عليكم بحفيظ »

يوسف الرجوى

عضو جماعة كبار العلماء

أحسن ما قيل في وصف الجنود

اليوم وحكومتنا تعمل جاهدة لا يجاد جيش يصلح للديار عن البلاد ، وحمايتها من يقصدها سوء ، يشوقنا أن نقرأ ما جادت قرائح شعرائنا القلماء في وصف حيوشهم ، لنعيد بذلك الى الأذهان صفحة من تاريخ مجدنا السابق ، راجين أن نسترده بجهودنا في العصر الراهن .

قال ابن عبد ربه صاحب العقد :

يحب عبايا من قبا وقنايل
ويرحل أخراة وليس براحل

وجيش كظهر اليم ينفجه الصبا
فبستل أولاه وليس بنازل

وقال أبو الفرج الأبيضا :

شعنا ولولا بأسه لم تنقد
كالقطر طافح قطر بحر مزيد
فيه اعتناق توائل وتودد
تحت المحاج وبالصواهل مرعد
إصباح من لبيل القبار الأريد
لنناظرين أهلة في الجلمد
جعل القبار لها مكان الإيتمد

فاذا الجياد الى الجياد هوايسا
في جعفل كالسيل أو كالليل أو
متوقد الجنبات تمتق القنا
تمسحر بضيا الصوارم مبرق
رد الظلام على الصبح واسترجع ال
وكانما نقش حوافر خيله
وكان طرف الشمس مطروف وقد

وقال غيره .

أضاء وأبداء الحديد المسرد
وتحمله الأرض الوفور فيرعد

خيس إذا أخفى عنا الشمس نطقه
تواحه هوج الرياح فبنتى

السيئة

الربا

عن جابر رضى الله عنه قال : « لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكانت به وشاهديه ، وقال : هم سواء » . رواه مسلم وغيره .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان أقسام الربا وتعريف كل قسم . (٢) حكم ربا السيئة ودليله وحكمة مشروعيته (٣) حكم ربا الفضل ودليله . (٤) تفصيل الأشياء التي تصح فيها المبادلة والتي لا تصح في المذاهب . (٥) هل يجوز لكاتب مسلم أن يسكر الأحاديث المتفق على صحتها بدون أن يفهم معناها فهمًا صحيحًا ثم يدعى أنها من وضع اليهود والمجوس ؟

(١) إن موضوع الربا قد كتب فيه كثير من علماء المسلمين ، وأبوا ما قاله فيه أنتمهم بيانا وافيا ، ولعل فذ وفيته بعض حقه في الجزء الثاني من كتابي (الفقه على المذاهب الأربعة) . ومع هذا كله فقد قرأت في الجزء التاسع من مجلة الأزهر مقالا لاحد (الابدونسيين) ذهب فيه الى حل ربا الفضل والنسيئة إذا لم تكن أصعافا مصاعفة . ومن الأسف أنه فهم الأحاديث فهمًا معكوسًا ثم حكم بأنها موضوعة ، فبعضني ذلك الى أن أجعل مقال هذا في موضوع الربا . والى القراء البيان :

(١) قسم جمهور الفقهاء الربا الى قسمين : ربا الفضل ، وربي النسيئة . فأما ربا الفضل فهو زيادة أحد البديلين المتجاسين بدون أن تقابل هذه الزيادة بموض ، مع التقابض . مثال ذلك : أن يبيع شخص أردبا من القمح بأردب وكيلة من الفصح المائل لقمحه ويقبض كل واحد من البائع والمشتري ما يخصه بدون تأجيل ما . ومثل ذلك ما إذا اشترى شخص عشرة مثاقيل من الذهب المصوغ بذهب مصوغ مثله ، قدره اثنا عشر مثقالا . فإذا أحل البائع القبض كان من ربا السيئة الآتي بيانه . ويسمى الشافعية مثل هذا بربا اليد .

وأما ربا السيئة فهو زيادة أحد البديلين سواء أكانا متعدي الجنس أم لا ، بدون أن تقابل هذه الزيادة بموض سوى تأخير الدفع . ولذا سمى ربا النسيئة ، فإن النسيئة معناها التأخير . مثال ما اختلف فيه الثن والمبيع : أن يشتري أردبا من القمح بمجنبيين على أن يدفعهما له

جنبين ونصفا إذا أحل له دفع الثمن مدة معلومة . ومثال ما اتحد فيه الثمن والمبيع : أن يشتري منه أردبا على أن يدفعه له أردبا ونصف أردب بعد مدة معينة . ومثل ذلك ما إذا أقرضه عشرين جنبها على أن يأخذها منه ثلاثة وعشرين بعد مدة . فالزيادة التي زادت على ثمن القمح ربا محرم لأنها لم تقابل بعوض مالى . ولا يصح أن يقال : إن العوض هو تأخير الدفع ، لأن تأخير الدفع ليس بعوض في نظر الشريعة الإسلامية المبنية على إغاثة المكروب وتوثيق صفات المودة بين أفراد المجتمع . فذلك هو حد ربا الفضل و ربا النسيئة . وقد يقال : إن الشافعية يشترطون في عقد البيع وغيره من العقود أن يكون بإيجاب وقبول لفظا ، سواء كان ذلك اللفظ صريحا في البيع أو كان كناية ، فلا يتحقق عقد الربا إلا بلفظ من الالفاظ الدالة على البيع : كأن يصرح الساع بلفظ البيع ونحوه ، والمشتري بلفظ يدل على القبول ، فيقول مثلا : بمنك هذا الأردب من القمح بمائة وخمسين قرشا على أن آخذها بعد ستة أشهر مائتين ، فيقول له : قلت أو اشتريت أو نحو ذلك . ومثله ما إذا قال الآخذ : أقرضني عشرين جنبها على أن أدفعها لك خمسة وعشرين بعد حول ، فيقول له المعطى : قلت فهذا مثال الصريح . وأما الكناية فكان يقول له : أعطيتك هذا بذاك ، فإنه ينمقدها بها البيع وإن لم يصرح باللفظ الدال على البيع أو الشراء أو القرض .

ومما لا ريب فيه أن معظم الذين يتعاملون الآن مع المصارف المالية وغيرها لا يصرحون بلفظ الإيجاب والقبول ، بل هم يكتبون بالتعاطى وبالإمضاء بدون نطق . وعلى هذا فلا تحقق ماهية الربا أصلا عند الشافعية . وهذا حسن ، ولكن الشافعية الذين صرحوا بذلك قالوا في كتبهم أيضا : إن المعاملة على هذا النحو أشد إثمًا من أكل الربا الصريح ، فقد ذكروا أن مثل هذا النوع من المعاملة من باب أكل أموال الناس بالباطل . فالمسألة شكلية . والشافعية مع غيرهم في فساد هذا النوع من المعاملة .

(٢) حكم ربا النسيئة ودليله وحكمة مشروعيته : فأما حكمه فقد عرفت أنه من الجرائم المحرمة ، ولم يقل أحد من المسلمين بحله ، بل هو من أكبر الكبائر التي حاروا بها الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . وأما دليل تحريمه فهو الكتاب والسنة والاجماع . فأما الكتاب فقد حرمه الله في غير موضع من القرآن الكريم ، وحدد الناس من شره تحديرا شديدا ، وأحافهم مما يترتب عليه من سوء المصير ، قال تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن طأ فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأتونا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . فكل مؤمن له قلب يخشى ربه

ويخاف عقابه ويرجو رحمته ، يقدر ما اشتملت عليه هذه الآية من الزجر الشديد والوعيد الذي تقشع منه جلود المؤمنين . وكفى بذلك زجرا ووعيدا . وأما السنة الصحيحة فيكفي منها الحديث الذي معنا ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لعن آكل الربا وهو صاحب المال الذي يسلفه بفائدة ، ولعن موكله وهو المدين الذي يستدين بفائدة يعطيها لصاحب رأس المال فيوكله بإها ، بل لعن الكاتب والشاهد لأنهما أعانا على ما همى الله عنه . وفي ذلك من الوعيد ما لا يخفى . وعلى ذلك فقد أجمع أئمة المسلمين وأولو الرأي على ذلك التحريم ، ولم يشذ منهم أحد .

ثم إن الآية الكريمة قد صرحت ببيان معنى ربا النسبة المحرم ، فقد قال تعالى : « فإن تنتم فلکم رهوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » وهذا نص صريح على أن الذي يستحقه صاحب الدين إنما هو رأس المال يدون زيادة ما ، وكل زيادة عليه ظلم . ولم تترك الآية الكريمة المدين المامل إذا كان قادرا على سداد دينه ، بل حذرت من ذلك ووصفته بالظلم كما وصفت آكل الربا . فإذا حاول المدين التقادر عدم السداد أو حاول سداد بعض الدين وأكمل بعضه استحق عقوبة آكل الربا في الدنيا والآخرة . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « مطل الغنى ظلم » . وقال : « لى الواجد يحمل عرضه وعقوبته » . ومعنى لى الواجد : مطل الغنى الذى يجد ما يسد به دينه ، متى كان قادرا على سداد رأس المال فانه يجب عليه أن يفعل ، وإلا استوى فى الظلم مع آكل الربا . وهذا المعنى يجمع عليه من أئمة الدين . فربا النسبة محرم عندهم قليلا كان أو كثيرا ، ولكن طغيان الشهوات على الناس دفعهم الى التورط فى الربا وهم لا يشعرون ، فأقصى ذلك ببعض المتعصبين الى تلبس باب ينفذون منه الى جواز حل الربا اليسير ، فمع تسليم جميع الباحثين بتحريم ربا النسبة بالنص فإن بعضهم يقول إن القليل منه لا يحرم دينا واستدلوا لذلك بقوله تعالى فى سورة آل عمران : « يأبى الله الدين آمتوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » فإن هذه الآية تفيد أن المحرم إنما هو الربا المضاعف ، فإذا كان غير مضاعف فانه يكون حلالا . ولكن فهم هذه الآية على هذا الوجه خطأ صريح ، وذلك لأنها بيان لحالة خاصة كانوا عليها قبل التحريم ، وفيها معنى التوبيخ والزجر . فقد ورد أن صاحب الدين كان يقول للمدين الذى حل أحصل دينه : إما أن تقضى حتى أو تربي وأزيد فى الإحل ، فيرضى المدين بالزيادة التى يرضها عليه فى نظير تأخير الدين ، وبذلك يضاعف الربا . وهذه حالة من أسوأ حالات الربا المحرم . ولهذا زجر الله المؤمنين عن هذه الحالة زجرا شديدا ، فقد قال بعد ذلك : « واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين » . وفى ذلك تسوية للمؤمنين المرايين بالكافرين فى دخول النار . ولذا كان أبو حنيفة رضى الله عنه يقول : هذه أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه من اجتناب ما حرمه .

وبهذا تعلم أن الآية الأولى ببيان لحكم الربا وأنه لا يحل أكله قليلا كان أو كثيرا ، وآية آل عمران حكاية لحالة خاصة كانوا عليها . ولو كان الغرض منها تقييد الحكم كما فهمه بعض الباحثين لجاز أن يؤكد أنه ما كان أقل من الأصناف ولو زاد على رأس المال . ولنفرض أن أقل الجمع ثلاثة ، فعلى هذا الرأي المضحك المبكى يجوز للرأيين أن يأخذوا فوائد مصاعفة ثلاث مرات إلا قليلا . وهل هذا كلام يقوله باحث بعد قوله تعالى « فإن تبتم فلکم رءوس أموالکم » ، وبعد إجماع أصحاب رسول الله ومن نقل عنهم الدين من عتهدى هذه الامة على أن قليل ربا النسيئة حرام ككثيره بلاحلاف ، فضلا عما في ذلك من إرهاب المدين إرهابا حرمته الشرائع الوضعية نفسها ؟

ومن الأسف أن الكاتب الأدبوسى لم يكنه الحكم بوضع الأحاديث المنفق على صحتها وقال إنها من وضع اليهود والنحوس ، وهو غافل عن فهمها تمام الفعلة كما ستعرفه ، بل تجاوزها إلى تفسير كتاب الله تعالى بما يشتهى فقال : « إن المحرم هو الربا المضاعف ، مضاعفا ، وسكان الله تعالى يداعب مرابي العرب ويشجعهم على الربا الذى يستنزف أموال الناس بشرط أن لا يصل إلى الأضعاف المضاعفة ! وأغرب من هذا أن يستدل على ذلك بأن الربا المقيد بالأضعاف هو المراد من الحكم لأن القاعدة عند علماء الأصول أن المطلق يحمل على المقيد ويقيد بقيد ، فآية البقرة التى ورد فيها تحريم الربا مطلقا يجب تقييدها بآية آل عمران فلا يحرم الربا إلا إذا كان أضعافا مضاعفة .

وإني أختصر الكلام فى هذا الموضوع تسهيلا لحصرات القراء فأقول له : على فرض أن هاهنا « مطلق ومقيد » فإن الذين يقولون بحمل المطلق على المقيد هم السادة الشافعية ، وهؤلاء قد أجمعوا على أن عقد ربا النسيئة حرام ، وأنه كبيرة من الكبائر سواء كان فائدة كبيرة أو يسيرة . أما الحنفية فانهم يقولون : لا يصح حمل المطلق على المقيد ، بل يجب العمل بالمطلق وبالمقيد متى كان ممكنا كما فى هذا المقام ، فإن الله سبحانه قد حرم الرافى آية البقرة تحريما مطلقا سواء كان قابلا أو كثيرا ، أما فى آية آل عمران فقد نص على تحريم الربا المضاعف ، فتحصل من هذا تحريم الربا بجميع أحواله . وفى ذلك من الوجع الشديد ما لا يخفى .

على أنك قد عرفت أن آية آل عمران إنما هى بيان لحالة واقعة كان عليها العرب فى الجاهلية ، فلم يقصد منها التقييد مطلقا ، ولذا لم يفهم منها أحد من أئمة الشافعية الذين قالوا بالتقييد سوى هذا المعنى . ولكن يظهر أن حضرة الكاتب الأدبوسى مشبع بضرورة استعمال الربا لأن الظرف المحيط به يقضى عليه بذلك . وإذا كان كذلك فإن المسألة تخرج من باب الجرأة على كتاب الله وأحاديث رسوله الصحيحة ، ومحاولة تطبيق نصوص الدين الباطل ، إلى باب آخر وهو أن الضرورة الملحة قد قضت بهذا النوع من المعاملة الفاسدة ، وحينئذ يمكنه أن

يحد له مخرجا . أما إذا لم تكن ضرورة تنوقف عليها حياة الأمم كما تنوقف حياة الأفراد على سد رمقهم بما لا يجل ، فمن المحال أن يوجد نص في الدين يبيح أكل ربا النسيئة قليلا كان أو كثيرا . أما حكمة تحريم ربا النسيئة فيمكن أن يسأل عنها أبواب الاملاك الذين أضاعوا ثروتهم وأصبحوا مالة على المجتمع الانساني هم وذرياتهم ، فانهم مثل قائم لمن تحدته نفسه بالتورط في هذا النوع الفاسد من المعاملة . على أن الدين الاسلامي كغيره من الاديان الالهية قد فرض على النوع الانساني أن يعين بعضه بعضا عند الحاجة ، ونهى عن إرهاب المضطرين وانتهاز فرصة احتياجهم للقضاء عليهم ، فلذا ترفع القرض للمحتاج بدون فائدة ، ووعد الذين يغيثون المضطرين وينقذونهم من بلائهم وعدا كريما وأجرا عظيما . فإذا فقد هذا المعنى من أنفس الناس وأصبحوا ماديين من جميع جهاتهم ، كان في ذلك القضاء على عوامل الرفق والرحمة بالإنسان ، وإمالة روح التعاون والتناصر في هذه الحياة الدنيا ، وذلك شر وويل . فالإنسان من حيث هو إنسان له قلب يدرك به معنى الحاجة والاضطرار ، يجب عليه أن يكون ذا عاطفة كريمة تأبى عليه أن يستغل فرصة احتياج أخيه فيوقعه في شرك الربا فيقضى على ما بقي فيه من حياة مادية . على أن في الربا فتح أبواب الشهوات السكالية لضعاف الارادة والعقول ، فتدفعهم شهواتهم الى الدخول في باب الربا ليحصلوا على أكبر قسط ممكن من اللذات التي تأكل ما بأيديهم من رموس أموالهم كما تأكل النار الخطب ، فلا يفيقون إلا بعد أن يلتهم الربا كل ما بأيديهم وهم لا همون .

قد يقال إن الربا ليسير لا يقضى على الثروة ، ولذا حرمت الشرائع الوضعية نفسها في بعض الافطار الزيادة المرهقة ، وأوقفت المرايين عند حد معقول لا يقضى على الثروة ، فما بال الاديان قد حرمت كثيره وقليله ؟

والجواب عن ذلك يمكن معرفته لمن وقف على حقيقة هذا النوع من المعاملة ، فإننا شاهدنا معظم الدين يتعاملون بهذه المعاملة قد فُضت بهم الفوائد اليسيرة الى ضياع كل ما يمتلكون ، وذلك لأن اليسير من الربا يتضاعف بمرور الزمن ، فهم يستهلكون الفائدة في أول الأمر فتضاعف بمرور الزمن وتتضاعف فائدتها ، وهم جرا ، فلا ينتهون إلا وهم منتقلون بالدين وفوائده ، محزونون عن السداد ، وعند ذلك اضيع أملاكهم وهم لا يشعرون . وهاهنا نسائل الذين تعاملوا بالربا اليسير الذي أباحت لهم القوانين الوضعية : لماذا فقدوا ثروتهم بديون الربا ؟ ولماذا عجزوا عن سداد ديونهم وأصبحوا بؤساء لا ينتفع بهم المجتمع ؟ على أنك قد عرفت أن الاديان الالهية تحتم على الناس أن يعين بعضهم بعضا ، وأن يتعقوا عن إرهاب المضطرين فلا يأخذوا على إغاثتهم ربا سواء كان قليلا أو كثيرا .

ومع هذا كله فإن الشريعة الاسلامية فرصت على كل فرد من المسلمين أن يعمل في هذه

الحياة الدنيا ، وكل طائل لا عمل له مذموم في نظر الإسلام ، وحتمت على الناس أن ينفقوا بقدر ما يتاح لهم ، فلا يبدروا ولا يقتروا ، قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، وقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » ، علو أن المسلمين اتبعوا هذه القواعد وعملوا بها بدقة لما احتاجوا يوما من الأيام إلى الربا ، بل كان لكل واحد منهم وفر من ماله يستعمله في مهنته التي أتتحت له . ولكنهم من الأسف الشديد فنعوا على أنفسهم باب الشهوات على مصراعيه ، فربنت لهم الحصول على الأموال التي يسدون بها هذه الشهوات ، وكثير منهم تزين له شهواته الحصول على المال من أي باب ، فيقدمون على الربا والميسر وغير ذلك من الموبقات بدون مبالاة ، فتكون النتيجة الإفلاس العاجل والعذاب الآجل . فمن أحل هذا كله حرم الله الربا على الناس كي لا يخرجوا عن دائرة الأعمال المشروعة ويستكبنوا إلى ما يذهب بأموالهم ويصرفهم عن هذه الأعمال التي بها قوام النوع الانساني وحياته حياة سعيدة .

(٣) وأما ربا الفضل فقد بينا تعريفه فيما مضى ، وهو مبادلة عين بعين مع زيادة يأخذها أحد المتبادلين بدون تأجيل . ولا يخفى أن هذا النوع من المعاملة قليل الوقوع في زماننا ، فليس له كبير الأثر في المعاملات ، إذ ليس من مقاصد العقلاء أن يستبدل أحد سلعة بأخرى إلا إذا كان في إحدى السلعتين معنى يحتاج إليه ، وفي هذه الحالة يمكن تقويم إحدى السلعتين بالثمن المناسب لها ، فيبيع أحدهما سلعته للآخر بذلك الثمن ، ويشتري منه سلعته كذلك بدون غبن ، أما أن يأخذ أحدهما ساعة جيدة ويعطي الآخر سلعة رديئة ، فذلك غبن لا يرضى به أحد من خلق الله ، لأنه يدل دلالة واضحة على نقص في تصرف المغبون ، وحرام على الناس أن يتغابنوا . ولا أدري كيف فهم السكاتب الأندلسي معنى ربا الفضل فصرحه فيه وأساء فهم الأحاديث الصحيحة إلى أبعد مدى ١٢

ولوضح للقراء معنى ربا الفضل المحرم مرة أخرى فنقول : إن الشريعة الإسلامية قد نصت على تحريم ذلك الربا في ستة أعيان ، وهي : الذهب ، والفضة ، والبر « القمح » ، والشعير ، والتمر ، والملح . فهذه الأصناف الستة قد اتفق المسلمون جميعا على تحريم الربا فيها عند اتحاد الجنس ، فلا يحل لأحد أن يبيع ذهباً بذهب مثله مع زيادة ، ولا فضة بفضة كذلك ، ولا قمحا بقمح ، ولا شعيرا بشعير ، ولا تمرا بتمر ، ولا ملحاً بملح . أما غير هذه الستة كالخديد والنحاس والخشب والقماش وغير ذلك من سائر أصناف التجارة فقد اختلفوا فيها ، فقال بعض المجتهدين . إنه يجوز التبادل فيها مطلقا لأن النص قد قصر المنع على هذه الأصناف الستة . وبعضهم قاس على هذه الأشياء غيرها . فالحنفية والحابلة قالوا : إن كل شيء يباع بالكيل أو الوزن لا يجوز استبداله بمثله مع زيادة في أحد البدلين سواء كان من هذه الأصناف

المذكورة في الحديث أولا . والشافعية قالوا : يقاس على هذه الأصناف كل طعام سواء كان برا أو شعيرا أو فاكهة أو حصرا أو غير ذلك . والمالكية قالوا جميع الأقوات على ما ذكر في الحديث ، فكل ما يؤكل يعطى هذا الحكم كالقردة والأرز ونحو ذلك . ورجح بعض العلماء هذا الرأي ، لأن غرض الشارع إنما هو المرب على أيدي العائنين بأقوات الناس .

وعلى كل حال فليس في منع ربا المصل ما يتخيله الكاتب من وقوف التجارة أو تعطيل حركة المعاملة ، فإن الذي يقول ذلك لم يفهم معنى ربا الفضل ، ولم يدرك ما هو واقع في الأمم الآن من الربا ، إذ كل معاملات المصارف والمرايين الآن إنما هي في ربا النسيئة . ولذا نقل بعضهم عن ابن عباس أنه قال بحله ، ولكن المحققين قالوا : إن ابن عباس رجع عن هذا القول . ومن ها هنا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا في النسيئة » فإن الغرض منه لفت النظر إلى المهم من أنواع الربا ، كما سنوضحه لك بعد .

وإذ قد عرفت أن ربا الفضل هو مبادلة عين بعين مثلها ، تعلم أنه إذا اختلفت العين كان بيعا لا ربا ، كما إذا باع قمحا بشعير ، أو باع تمرا بقمح ، أو باع ذهباً بفضة وهكذا . وهذا المعنى لا نزاع فيه بين العلماء .

ولكن اسمع لما يقوله حضرة الكاتب الابدنومى : إنه نقل عن سبل السلام وبيل الاوطار ما نصه : « إن العلماء قد أجمعوا على جواز المعاملة بالاشياء الستة المذكورة بالتفاضل وبالأجل دينا إذا اختلف الجنس كالذهب بالفضة والتمر بالملح الخ » ثم قال . لماذا أجمعوا عليه والأحاديث نصت على خلافه ؟ ثم ذكر ستة أحاديث صحيحة كلها صريحة صراحة لا تخفى على أحد تنص على ما أجمعوا عليه وليس فيها شبهة ما تجعل لأقل الناس فهما ، المذرى ذلك . وإليك لبيان :

١ - « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تشفوا بعضهما على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق ، لا مثلا بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منهما قائما بناجز » رواه البخارى ومسلم وأحمد . وتشفوا بضم التاء وكسر الشين معناه يزيدوا . فهذا الحديث صريح لا لبس فيه . وهو يدل على تحريم مبادلة عين بمثلها مع زيادة في أحد البدلين . لحرام على الناس أن يستبدل أحدهم من الآخر قطعة ذهب بقطعة ذهب مع زيادة في أحدهما . ومثل الذهب الفضة كما يحرم أن يبيع ذهب حاضرا بفضة قائبة كما هو الحال في الصرف ، فإنه لا يحل أن يصرف الشخص جيبها بفضة على أن يأخذها بعد مدة . فكيف يخالف هذا الحديث ما أجمع عليه أئمة الدين ؟ إن هذا لشيء عجيب !

٢ - وقال في رواية البخارى وأحمد : « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح إلا مثلا بمثل ، يدا بيد ، فمن راد واستراد فقد أربى » ، والآخذ والمعطى فيه سواء » . وهذا الحديث كالحديث السابق في تأكيد

إجماع العلماء ، لأنه نهى عن مبادلة أحد المثليين بالآخر مع زيادة في أحد البديلين أو تأجيل . ولا أظن أحدا من خلق الله يفهم منه سوى ذلك . ولولا أنه كتب في مجلة الأزهر ما سمحت لنفسى بتجشّم الرد .

٣ — وقال في رواية البخارى ومسلم وأحمد أيضا : « الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » . وهذا الحديث نص على ضرورة التقابض عند مبادلة النوعين المختلفين كالذهب والفضة ولو بزيادة ، ونص على مبادلة الأنواع المتحدة عند التساوى مع التفاضل كسادة أردب من الشعير بمثله . ومعنى هاء بالكسر : هات ، يعنى إذا باع أحد نوعا من هذه الأنواع بنوع مثله فانه يجب أن يقول كل من البائع والمشتري للآخر : هاء . وهذا كناية عن التفاضل في المجلس .

٤ — وقال في رواية مسلم والفسائى وأحمد وابن ماجة : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد ، فإذا اختلفت هذه الأشياء فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد » . وهذا الحديث أكثر صراحة من الأحاديث التى تقدمت ، لأنه اشتمل على نهى صريح عن ربا الفضل ، وبأن الأشياء التى لا تجوز مبادلة بعضها ببعض مع اتحاد الجنس . ومتى اختلف الجنس جازت المبادلة مع التقابض . ومثل ذلك ما نقله بعد ذلك من رواية مسلم وابن ماجة ، وبعد أن نقل هذه الأحاديث قال ما نصه : « فاما معنى هذا الإجماع أيهما أحق أن يقع الإجماع أو الأحاديث المذكورة ؟ من العلماء يستطيع أن يجيب ؟ عجبا والله لماذا أجمع هؤلاء العلماء على ذلك وقالوا فى الوقت نفسه بصحة هذه الأحاديث المماثلة ؟ ولماذا لم يردوا تلك الأحاديث وهى مناقضة للأحاديث الأخرى الصحيحة الموافقة للمثل كحديث أسامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الربا فى النسئة » واه البخارى ومسلم .

أما أما فقد أسفت لمثل هذا الإدراك وتلك الجرأة أسفا شديدا ، بل أقسم أنى حرنت ، لأنه يسرنى أن تكون الأفطار الإسلامية الناهضة طامة بالعلماء المفكرين والمؤلفين الذين يستطيعون فهم الأمور فهما صحيحا فلا تطيش أقلامهم هذا الطيش . وإننى أرجو أن تكون ترجمة هذا المقال قد اختلت فصول الحقائق معكوسة . أما أننى أتصور أن يوجد رجل فى مركز اجتماعى يكتب فى مسألة دينية مشهورة ثم يحلط فيها الى هذا الحد فذلك ما يحزنتنى ! والله يهدي المسلمين الى سواء السبيل .

للكلام بقية

عبد الرحمن الجزيري

للمربية والدنيا معا

حصرة صاحب الجلالة الملك يعيد عهد السلف الصالح

—

مسند أن تولى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الملك، انمحت ميوله الكريمة الى إحياء سنن السلف الصالح واحدة بعد أخرى، فبدأ بإعطاء صلاة الجمعة ما كان لها في سالف العهد من المظاهر الجلية، ثم أتبعها بإقامة الدروس الدينية في الأسابيع الأربعة من شهر رمضان، وكلف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، وهو فارس هذه الخلبة غير مدافع، أن يلقى هذه الدروس في حصرة جلالة. فكان لها أثر كبير في لغت الناس الى أسرار الاسلام، ومحو أصوله، وفعل بليغ في إيقاف العاطفة الدينية في قلوب النابتة المنقعة، مما رأينا ثمراته ماثلة أمام أعيننا تبشرنا بعود دولة المصائل الاسلامية التي أحدثت في العالم أكبر الانقلابات الأدبية، والاتقالات الاجتماعية غير المجموعة البشرية.

واليوم نرى جلالة الملك يخطو في تحقيق هذه السنن الكريمة خطوة واسعة، فيعيد سنة كان يُظن أن عهدها قد انقضى، وأنها بما لا يمكن إعادته لبعد العهد بزواله، ولعدم تفكير أحد في إحيائه، ألا وهي الصلاة بالناس في مسجد حافل بالمصلين من كل طبقة. أنا لست أستطيع تقدير مبلغ تأثير هذا الحادث الجليل في الرأي العام العالمي، ولكنني أعلم أنه سيكون عظيماً الى حد أنه سيكون سبباً للفت نظره الى دراسة تركيب الاسلام تحت ضوء المقررات الاجتماعية. ولا نشك في أن هذه الدراسة ستؤدي به الى فهم كثير من الأصول الاسلامية التي كانت سبباً في تطور الأمة التي أحدثت بها، واطراد تقدمها حتى وصلت الى رعاة الإنسانية في جميع باحات النشاط العقل والروحي والسياسي، في مدة لا تكفي عادة للإيصال اليها. وسيكون من ثمرات هذه الدراسة الوقوف على كثير مما اختص به الاسلام من عوامل البعث والانهاض العجائات، وفواعل التصامم والترابط بين آحاد الأمة وطبقاتها، دون أن تصادف من التقاليد والأوضاع ما يشط من حركتها الى الغايات البعيدة، تلك التقاليد والأوضاع التي قصت بالجمود والوقوف على أمم كثيرة. وليس في وسع أحد أن يتصور وسيلة لتنبيه العالم كله الى هذه الدراسة الخطيرة أوقع في النفس، وأفعل في الهمم، مما وفق جلالة الملك فاروق لعمله في الآونة الأخيرة.

إن الاسلام حافل بالأصول التي تعتبر بحق عوامل مؤدية للحياة الفاضلة، فاذا تنبه العالم لدراستها تحت ضوء العلم اليوم كان ذلك فاتحة انتشار له لا يقف عند حد.

منصب الخلافة والديموقراطية

دحض شبهات على سلطة الأمة في الاسلام

أثارت الجرائد الغربية مسألة الخلافة وزعمت وشك إعادة إقامتها ، ونحن لا يعنيها هذا الأمر من الناحية الاخبارية ، ولكن يعنينا دحض ما يحيط به الغربيون بهذا المنصب من المعلومات الخاطئة ، وقد غاضوا فيها اليوم ، وأقل ما فيها أنها تنافي الديموقراطية التي يفخر المسلمون بأن دينهم أول ما أقام صرحها في العالم ، فنقول :

تولدت في أوروبا بحكم الأوضاع الموروثة سلطتان إحداهما روحية ، والأخرى دنيوية ، نشأتا متفتحتين متكافئتين ، وكانت مهمة الأولى تنحصر في القيام على الدين والعمل على نشره ، وتنويع الملوك واستئزال البركات عليهم . ولكن لم يمر على هذا الوضع زمان حتى انتعلت هذه السلطة لنفسها ، اعتادا على مشايعة الناس لها ، حقوقا لم تزل تزيد فيها حتى أصبحت معها قسمة على السلطة الدنيوية ، بحيث لا تستطيع هذه أن تبرم أمرا أو تحل دون استشارتها ، مما دعا الكثيرين من الملوك الى مقاومة هذا التدخل بالقوة المسلحة ، ولكن تلك السلطة الروحية كانت قد استعدت لهذه الطوارئ ، فأتخذت لها جيوشا وأساطيل حاصدة بالقوة بمنتهى . فكان من أثر هذا التدخل الكفنى في أعمال الدولة أن تحزب كثير من الملوك مع دعاة البروتستانتية حين نشوئها في القرن الخامس عشر ، وتمكنوا من رفع يد السلطة الروحية عنهم بعد حروب لم يشهد تاريخ البشرية أشد هولاً منها . ومن ذلك العهد ما فتئت السلطة الدنيوية التي بقيت موالية للكنيسة تنازعها استقلالها ، حتى تم لها الغلب نهائيا بحوادث الوحدة الإيطالية سنة ١٨٧٠ ودخول جنودها ظافرة الى المملكة البابوية .

مثل هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة لم تحدث في العالم الاسلامي ، وليس في طبيعته ما يسمح بحدوثها ، فالاسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ، ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف ، بل ترك السلطة كلها للأمة تنبها للرجل الذي تراه صالحا لحكومتها ، وأمرها أن تحوطة برعايتها ومشورتها ، وأن تعطى لحكومتها الشكل الذي تحده أصلح لجمع كلمتها ، والقيام على مصالحها . وهذا الوضع أرقى وضع وصل اليه البشر في أمر السلطة الاجتماعية ، شأن الاسلام في كل الشؤون الانسانية . بقرر المثل العليا ويكلف الأمة تحقيقها بمجهودها الذاتية .

وعليه فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين الروحية والدنيوية ، وقد أنووا أصولا مراعى فيها المزج بينهما ، تفاديا من تنازعهما ، بحيث لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى ، وقد طاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ،

ولا يخشى عليهم ، وقد انتهوا الى هذا العهد ، أن يفتحوا شيئا من ذلك . فالتقام بالامرفى نظرم
يمثل المرتين الاساسيتين ، ومكلف بأن يقوم على حاجتهما بما تستدعيه من علم وعمل
أما الفرق بين الخلافة والبابوية ، فبعيد جدا الى حد أنها لا يلتقيان أبدا في نقطة .
فالبابا ينتخبه الكرادلة وعددهم سبعون ، والكاردinales أرفع الرتب الكهنوتية بعد
رتبة البابوية . وأمير المؤمنين يعتبر رجلا عاديا تنتخبه الأمة ، وهي التي تهبه السلطة ، ولها أن
تستردها منه وأن تمنعها غيره ، إذا رأت أن مصلحتها تقضى عليها بذلك .
والبابا بيده التقض والإيرام ، والفقراء والحرمان ، وأمير المؤمنين ليس بيده شيء
من ذلك .

والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب ، ووضع حدود للتفكير فيه والاستنباط منه ،
وليس لأمير المؤمنين شيء من ذلك يتجاوز به ما لآى رجل من المسلمين . فكل مسلم له
حق التفسير والتفكير والاستنباط . وآية ذلك أن كل ما وضع للمسلمين من التفسير والشروح ،
والظم العبادية ، والاصول المستنبطة من الكتاب ، والمذاهب الفقهية ، كلها من عمل الأفراد ،
وقد رضيا أمراء المؤمنين كارضيا الناس ، وعملوا بها في عباداتهم ، وحكوا بها في محاكمهم .
وهذه الحقوق الشعبية العامة التي لا تحلم بمثلها أرقى أمة في الأرض من الناحية الدينية ، قد
نشأت في الاسلام من الجرى على سننه ، والقيام على أصوله .

على أن الجمع بين السلطين الروحية والدينية لم يصبح مستنكرا في أوروبا بعد قيام
البروتستانتية ، التي تخلصت من ربة السكيسة الرومانية بعد حروب طاحنة ساحقة . وقد
ثبت في العهد الأخير أنه لا ينأى قيام الأمة على الديمقراطية الكاملة . والمثل الذي تقدمه
للدلالة على ما نقول اجتماع تينك السلطين في ملك الانجليز ، فهو يعتبر الرئيس الروحي والديوي
معا للشعب الانجلوساكسوني ، وهذا ما خول انجلترا منذ عدة قرون أن تمتد حامية
لبروتستانتية في العالم كله .

الذي يحدونا الى إيراد هذه التفصيلات كلها ، أن جمرة كتاب أوروبا يرون في إمارة
المؤمنين منصباً يشبه البابوية ، وليس هذا من الحق في شيء كما رأيت ، فديمقراطية المسلمين
لم تمس نسوة في أي عهد من عهود الخلافة الاسلامية ، حتى في العهد القريب جدا من النبوة .
فأبو بكر تولى أمر الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالانتخاب المباشر ، فبايعه المسلمون
يدا بيد ، وهذا في العرف السيامي معناه أن الأمة منحت السلطة لياشر بها مهمة القيام
بشئون الدولة في ناحيتها الروحية والدينية على الاسلوب الاسلامي ، والستور القرآني .

فكان إذا أعضلت عنده مسألة ، سأل عنها أولى العلم في مجلس طام ، وأمضاها على ما يستقر
عليه اجتهدهم . ولم يتحدث بطانة بكل إليها البت في الأمور ، ولا بت هو فيما لم يرد فيه نص

صرح دون أن يعرضه على الكافة ، معطيا الحق للأفراد على السواء في إبداء الرأي ، غير متقيد
بقوم معينين ، أو لطائفة بعينها .

وقد تحلى المبدأ الديموقراطي إزاء الخلافة على عهد عمر الفاروق كل التحلى ، فلم تنق منه
حمة خافية يمكن أن ينقح منها خصم لاتهام الاسلام بالعدوان على سلطة الامة . فقد روى
أن عمر رضى الله عنه رأى أن الناس قد أخذوا يتبارون في زيادة مهوور النساء ، فأراد أن يضع
لها حدا لا تتجاوز ، وهو ما مبررت به بنات النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا الناس لاجتماع عام
وخطبهم في هذا الشأن ، وطلب إليهم رأيهم ، فقامت امرأة وقالت : أوحى بعد رسول الله ؟ قال
الله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قسطا فلا تأخذوا منه
شيئا » ، وقوله قسطا يدل على ياحة التوسع في المهوور ، فكيف تصمون لها الآن حدا ؟

فأدرك عمر وحاجة اعتراضها ، ورجع عن رأيه إلى رأيها ، وترك الأمر على حاله .

فهذه إن دلت دلالة قاطعة على مهمة أمير المؤمنين من الوحدة التقيينية ، فهي تدل أيضا على
أوسع شكل للديموقراطية ليس وراءه مذهب

وأدل منها على ذلك ما روى من أن عمر رأى رجلا وامرأة على فاحشة ، فلم يدر أيمل له
الاكتفاء برؤيته في إقامة الحد ، أم نجب إقامة الدعوى العمومية عليهما ، والسير فيها على مقتضى
الأصول المرعية ؟ فجمع الناس وكاشفهم بما هو بصدده ، وطلب إليهم آراءهم ، فقام إليه على
ابن أبي طالب رضى الله عنه وقال له : الحكم أن يأتي أمير المؤمنين على ما يقوله بأربعة شهداء ،
وإلا اعتبر فادحا وأقيم عليه الحد .

لا حرم إن هذه الدرجة اربعة من الديموقراطية يجب أن تسجل في تاريخها ، ليعلم أنتمنا
أن قد سبقهم المسعود إلى أرقى ما تؤدي إليه من احترام الأوضاع القانونية ، ومراعاة
الضمانات القضائية في تطبيق العقوبات البدنية .

وتاريخ المسلمين حافل بأخبار دعاوى أقامها الأفراد على الخلفاء وصدور أحكام المحاكم عليهم ،
وخضوعهم لأحكامها ، ولا نفل أنه توحد ديموقراطية في العالم تلغ هذا الحد . ولقد قلنا
في موطن آخر وبكرره هنا . إن لغت الأنظار إلى دراسة أصول الاسلام تحت ضوء العلم اليوم
قد يكون فاتحة انتشار له لا يقف عند حد ، فتاريخ تكوّن الامة الاسلامية في القرن الاول
حافل بالحوادث التي تحلى فيها حقائق هذا الدين ، وتبين مثله العليا في كل ناحية من نواحي
النشوء الاجتماعي ، والنظور الأدبي ، مما لو درس دراسة علمية لظهر أنه أكبر الآيات الالهية
في هذا العالم . وهو ما سيبدل جهدا للقيام به هنا إن شاء الله .

محمد فريد وجدي

الكناية والمجاز في كتاب الله

كتبنا فيما مضى تحت هذا العنوان بيان آيات من القرآن الكريم ، ولما كنا مازمين على الاستمرار في الكتابة تحت هذا العنوان حتى نعرض لكل ما نرى فيه حاجة الى مثل ما بينا ، فقد أردنا أن نكتب اليوم لبيان تلك الآية الشريفة :

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان » ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم .
بذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية وجهين :

أحدهما . أن رسول الله كان يهيئ في نفسه شئونا أخروية فيخطر الشيطان بنفسه خواطر دنيوية ، ويسوفون للاستشهاد على ذلك حديث « إيه ليفاق على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة » فترلت الآية تعرية للرسول ، ويكون معناها على هذا : إنه ما من نبي ولا رسول إلا كان إذا اتجه بنفسه الى شئون الآخرة أراح الشيطان الى نفسه خواطر الدنيا .

وثاني الوجهين : أن الرسول كان قد تمنى ألا ينزل عليه من الوحي ما ينفر قومه من تحقير معبوداتهم ، ونفسه أحلامهم ، ثم كان أول ما نزل بعد تردد هذه الأمنية بنفس الرسول سورة « والنجم اذا هوى » فلما بلغ في قراءتها « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لترتجى . فنزل جبريل فأخبره الخبر ، فأغتم لذلك ، فترلت « وما أرسلنا من قبلك من رسول » الآية ، ويكون معناها على هذا : ما من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألا يكون من الوحي ما ينفر منه قومه ألقى الشيطان في أمنيته : أي أجرى الشيطان على لسانه كلاما من تأليف الشيطان كالذي أجراه على لسان الرسول من قوله : تلك الغرائق الخ . هذا ما يقوله المفسرون في سبب نزولها ، وفي تفسيرها وإنا قبل أن تناقشهم فيما يحس صميم الدين وأصوله من جراء هذا التأويل ، تناقشهم في أمور دون ذلك .

وأول ما تناقشهم فيه من هذا هو أن ذلك التأويل يقتضي أن كل نبي قد تمنى ألا يكون فيما يوحى إليه من ربه ما ينفر قومه ، كما يقتضي أن كل نبي أجرى الشيطان على لسانه غير ما أنزل إليه من الله ، فهل يمكن لاحد من الناس أن يثبت ذلك إثباتا صحيحا أو قريبا من الصحيح ؟ إنا موقفون أن لا جواب لذلك سوى النفي البات .

وثاني ما تناقشهم فيه : أنه بناء على هذا التأويل فإن النسبة تنقطع كل الانقطاع بين الآية

وبين ما سبقها من آيات ، إذ الآيات السابقة كلها عزاء الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر ما كان من تكذيب الأمم السابقة لرسولهم ، وكما ترى ليس بين أن كل رسول قد سلط عليه الشيطان ، وملك عليه لسانه فأجرى به ما شاء لا ما شاء الله ، وبين تكذيب الأمم لرسولهم ، مناسبة تما .

وثالث ذلك . أنه إذا كانت أمنية رسولنا الكريم هي ألا يكون في الوحي ما يفر قومه لا يكون إجراء « تلك الغرائق الصلا » على لسان الرسول من قبيل الإلقاء في الأمانة ، بل هو تيسير لسبيلها ، ومحاولة لتحقيقها .

أما ما نريد أن نناقشهم فيه مما عسى صميم الدين ويهدم أسسه وأصوله .

فأول ذلك : أما تعلم أن أساس الرسالة هو دعوة الناس إلى توحيد الله بالإعظام والتقديس والرجاء ، وإفراذه بالمعبادة والدماء ، فلا مناص والأمر كذلك عن حجاجهم في معبوداتهم ، وبناء الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله ، ليخلصوا دينهم لله ، فلو جاز أن يكون مثل هذا متمنى نبي أو رسول لكان معناه أما نحيب على الأنبياء أن يجاملوا في دينهم ويلابثوا في رسالتهم ، وذلك الذي طالما عيناه على عادي الناس فضلا عن الرسل والأنبياء .

وثاني ذلك : ما يستلزمه حديث الغرائق من أن يكون للشياطين من السلطان المادي ما يصل في قوته وهيئته إلى حد أن يملكوا على الأنبياء أنفسهم ، فيجروا عليها الكفر الصراح ، والشرك المهادم . واللام البتين لذلك أن يكون ما يملكون على الناس من غير الرسل والأنبياء أكر من هذا وأقطع ، وذلك ما ينكره الدين وينكره الواقع ، فانه ليس للشياطين من صلة بالناس إلا أن يوسوسوا لهم بالكفر والفسوق والمصيان ، وحتى هذا أيضا ترى الله قد استثنى منه عباده المخلصين ، وليس من ريب في أن الأنبياء والرسل هم صفوة المخلصين .

وثالث ذلك : ما يستلزمه حديث الغرائق من اقتلاع الثقة من النفوس بكل ما جاء به رسول الله من أصول وأحكام ، فما من أصل ولا حكم إلا ويحيز يحيز أن يكون مما أحراه الشيطان على لسان النبي إن كان قولا ، وعلى جوارحه إن كان فعلا .

من هذا يتبين للقارئ أنه يحجب وحويا لامراء فيه أن يملك في تفسير الآية الكريمة وجه غير هذا الوجه ، وسبيل غير هذا السبيل . وإليك ذلك :

إننا نعلم أنه ليس لرسول والأنبياء من غاية في هذه الحياة يحاولون تحقيقها ، ولا من أمل منها يتحمسون من أجله أهول المشاق وأعظمها ، إلا شيء واحد هو : أن يستجيب لهم قومههم ويؤمنوا برسالتهم فتلك مهمتهم في هذه الحياة ، وأمنيتهم التي لا يرجون سواها ، ولا يمكن أن يخطر ببالهم غيرها . ولعلم إلى ذلك أيضا أنه ما من أمة ذهبت على لسان رسول إلى خير ورشاد ، وإصلاح ونظام ، إلا صدم الشيطان ووسوس إليهم ، وزين لهم الشر والكفر ، وقبح في نظرهم الخير والإيمان ، وأثار حول أدلة الرسول وإرشاداته شبهات وشكوكا مختلفة

الآلوان والاتجاهات ، سنة الله وإن تجدد لسنة الله تبديلا . وهذا الصد وتلك الوسوسة هو إلقاء الشيطان في أمانى الرسل ، فانه الصد والوسوسة وإثارة القلب والشكوك كأعما يلقى الأشواك والصخور في طريق الأنبياء الى غاياتهم التي هي استجابة قومهم لهم ، وإيمانهم بهم . فيكون معنى الآية على هذا : إنه ما من رسول ولا نبي إلا إذا نعى إيمان قومهم واستحاثتهم للتغير والرشاد ، صدم الشيطان عن الايمان ، وعاق الرسل عن أمانيتهم بما يثير من شبه وشكوك حول آيات الرسل وحججهم ، وحول ما جاءوا به من أصول وأحكام ، ثم ما هو إلا قليل حتى تنطفئ شمسقة الباطل ، وينتشر دخان الشكوك والشبه التي أوحى بها الشياطين الى نفوس المدعوين ، ثم يبدو الحق بحكم البنيان ، راسخ الأركان ، بأسق الفروع

هذا هو التأويل الصحيح ، والمعنى الحق الذي يجب أن نحمل عليه الآية .

أما أولا : فلأننا نتحاى به باطلا لا يدايه باطل ، وفسادا لا يساويه فساد ، ألا وهو بحالة الأنبياء في دينهم ، وهيمنة الشيطان على ألسنتهم .

وأما ثانيا : ملأن الآيات السابقة قد ذكر فيها تكذيب الأمم الماضية لأنبيائهم مما يدل على أنهم جميعا قد عاقبهم الشيطان عن غاياتهم بما زين لقوم ، وأوحى إليهم من شبهات . وبذلك ترى بين الآية وبين الآيات السابقة صلة تامة واضحة .

وثالثا : ما تراء من المدول من سلوك سبيل الحقيقة فيما أسنده الى الشيطان ، إذ لم يقل بدل « ألقى الشيطان في أمنيته » : عاق الشيطان أمانيتهم بالوسوسة الى قومهم . بل سلك سبيل المجاز فكان ما ترى من إيجاز هو أكثر شيوعا وقاعدة مما في أسلوب الحقيقة من تفصيل ، ثم هو الى ذلك الإيجاز قد أبرز وساوس الشيطان وما يوحى من شبهات في صورة الأشواك والصخور تاتي في الطريق المعبد فتقف بالسائر عن مواصلة السير الى غاياتهم : ذلك أن الإلقاء من حصائص الماديات ، فلما أسند الإلقاء الى الشيطان والشيطان لا يكون منه إلا الوسوسة والتفصيل ، كان ذلك مصورا وساوس الى السامعين بالأشواك والصخور والسدود ، مما يزيد في نفور الناس من الشياطين ويضاهف الحلو منهم .

وهنا يقف بين مواكب الجلال والجمال ما يتحلى من روائع القرآن ، ويتمتع في ثنايا الأسلوب من دقائق تختلب القلوب ، وتغلك النفوس . فانه تعالى لما أراد تعزية رسوله بما قص عليه من تفصيل ما كان للأنبياء والرسل مع أقوامهم ، وكان مما أطال بذكر رسل وأنبياء فإنه يبقى احتمال أن يكون هناك رسل وأنبياء لم تذكر أصنامهم تكون قد تحققت لهم أمانيتهم واستجابات لهم أمهم دون أن يعوقهم الشيطان عن سرعة تحقيقها فلا تتم التعزية مع هذا الاحتمال ، لما كان كذلك تراء قد أجل التسلية في أسلوب شامل ، مستقص في الأفراد ، ومستقص في الأزمان ، حتى إذا أفلت واحد من عموم الأفراد في قوله « من رسول ولا نبي » لا يفلت

من عموم في الأزمان قوله « من قبلك » لأن « من » الأولى في الآية لاستقصاء الأزمان ، والثانية لاستقصاء الأفراد ، وبذلك لا يبقى هذا الاحتمال ، فتم تلبية الرسول حين يعلم أنه لم يشد عما بينه وبين قومه نبي من الأنبياء . وتراه ثانيا لم يذكر مفعول « تمنى » فلم يقل : إلا إذا تمنى هداية قومه ، لأن المفعول مشعر دائماً بأنه قيد في فعله وأن الفعل متعلق به هو دون غيره مما يصلح أن يتعلق به ذلك الفعل ، فذكر كره مفهم لا محالة أنه للاحتياط عما عداه من المفعولات ، فلو ذكر مفعول « تمنى » الذي هو هداية القوم ، لاشعر أن للرسل تمنيات غير هداية قومهم . وعلى هذا يكون إنكار للإيذان بانحصار تمنيتهم في ذلك المطلب العلى وتلك الغاية النبيلة ، وفي ذلك من التنويه بشأن الأنبياء ما فيه .

وكذلك الشأن في قوله : « ألقى الشيطان في أمنيته » إذ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألقى الشيطان في أمنيته العوائق من شبهات ووساوس ، لأن ذكر المفعول وهو — كما قلنا — قيد في فعله ، يفهم أنه للاحتياط عن مفعول آخر ، وهذا يقصر بصحة تعلقه بذلك الآخر ، فيفيد أن الشيطان يصح أن يلقي غير الشر الذي هو الشبهات والوساوس ، وعليه فيكون عدم ذكر المتعلق للإيذان بانحصار ما تلقى الشياطين في الشر ، وأنه لا يكون عن طريقهم غير ، فجرد ذكر الالتقاء مسنداً إليهم مفهم بوع ما يلقون إلى الناس ، وفي ذلك من تقبيح أمر الشيطان ما فيه .

والى هنا أستطيع القارئ هذرا في أن شغلت بروائع القرآن مما أما بصده . والآن سأعود ثانية إلى موضوعنا الأصلي فأقول :

إنى بعد أن اهتمت في تأويل الآية إلى ذلك المعنى راجعت تفسير الإمام الألوسي فوجدته بحمد الله قد أغفل حديث الفرائق إغفالا ، فلم يعرض له من قرب ولا من بعد ، غير أنه فسر قوله تعالى « تمنى » قرأ ، وفسر ما يلقى الشيطان بما يشبه المغالطات ، ولكنى على أى حال قد سرت كثيرا سلوك الأستاذ الألوسي هذا المسلك المشعر بأنه يرى بطلان حديث الفرائق ، والمشعر بوجوب صيانة القرآن الكريم عن الترهات والأباطيل ، وما يتخذش قدس الرسل والأنبياء . ولقد أيد لى ما اهتمت إليه من تأويل في الآية ما أخبرني به أحد شيوخنا الأجلاء أن الأستاذ الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمه الله قد أول الآية بنحو ما أولت به أوفرياً منه ، نسأل الله تعالى التوفيق والهداية إلى الرشاد .

حامد محسن

وكيل كلية اللغة العربية

التجديد في الاسلام

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »
حديث يروي شرف

- (١) ما أصول التجديد في الاسلام ؟ (٢) ما حكمة التجديد في الدين ؟
(٣) ما عوائق التجديد ، وما علاجها ؟ (٤) المستقبل للإسلام .

١ — ما أصول التجديد في الاسلام ؟

(١) من أصول الشريعة الاسلامية الفراء ، وقواعدها العامة ، التجديد في الدين ، والدعوة اليه ، والترغيب فيه ، وسنّ الأمور الحسنة ، وتحريم سنّ الأمور السيئة ، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها الى يوم القيامة ، ومن دعا الى هدى كان له مثل أجور متابعيه ، أو الى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه .

(٢) ولا أدل على هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وقد اتفق الحفاظ على أن هذا حديث صحيح ؛ وقال الامام الزبيدي المرتضى ، في شرح الإحياء . إن هذا الحديث استنبط العلماء منه التجديد . وقال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عقيب ذكره لهذا الحديث : نظرت في سنة مائة فإذا تجدد فيها رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عمر بن عبد العزيز ؛ ونظرت في رأس المائة الثانية فإذا تجدد الدين فيها رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الامام الشافعي رضى الله عنه . وسنوفى البحث حقه في حديث التجديد هذا إن شاء الله تعالى .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا يقسم من أجورهم شيء » ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا يقسم من أوزارهم شيء » (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من

تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا (١) .

(٣) فمن هذه الأحاديث الشريفة وأمثالها يتبين ان التحديد في الدين ، وفي التشريع ، وفي غيره — والاسلام دين ودولة — ليس لغريب عن الاسلام ، وليس هو من مبكرات هذا العصر ، وإنما هو من أصول الشريعة وقواعدها ، أنت به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قبل أن يعرف العالم ما هو التجديد ؛ ويتبين أن الاسلام ليس يدين جود كما افترى بعضهم ، وليس فيه سبب من أسباب تأخر الأفراد أو الأمم ، ولا عامل من عوامل الاضطراب ، ولكنه دين النهضة والتقدم والرقى ، والتجديد الصحيح النافع ، والسير الدائم الى الامام ، الى المثل الأعلى ، الى ذرا الجود والرفعة والخير والسعادة للمجتمع الانساني كله ، لا الاسلامي خصب . وأي نظام فيه صلاح وتقع للوجود ، وأي جديد فيه خير للعالم ، وأي حسن في السكون ، لم يدع اليه الاسلام ويبحث عليه ؟

وكفى دليلا على هذا ما ذكرناه من الأحاديث النبوية الشريفة ، فهي صريحة في التجديد ، والترغيب فيه ، بسن كل شيء حسن ، وبتنجيم كل شيء سيئ . وما ظنك بالآثار التي يحدتها هذا التجديد في الأخلاق ، والعمران ، والامم ؟

فتجديد الاسلام إذاً مبنى على قواعد منظمة ، هي قواعد المثل العليا ، قواء في الفضيلة التامة ، والأخلاق الكاملة ، والخير المطلق ، والعمل النافع لإصلاح المجتمع ، والنهوض به الى أعلى درجات الكمال ، وجلب السعادة لبني في الدنيا والآخرة .

(٤) ولم تكن السنة النبوية وحدها هي التي حملت لواء التحديد ودعت اليه ، بل إن القرآن الكريم نفسه جاء بمجدها مصاحا ، فسجبت السمة على مسوالة ، وسارت على منهاجه ، فكان كتاب الله تعالى منبع التجديد ، والمصدر الأول للإصلاح . وما يدل على هذا أنه نسخ ما قبله من الشرائع ، وغير من النظم القديمة ما غير ، وبذل من أحوال الجاهلية وماداتها ما بدل ، وسن من التحديد المحسن الصالح لكل زمان ومكان ما يطول شرحه .

من ذلك : أنه حد عدد الزوجات ، وقرر حقوق المرأة ، وغير كثيرا من مادات الجاهلية في زواجهم وطلاقهم ، وأتى بنظام عادل للارث يخالف النظام الجاهلي ؛ فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ، ولا الصغار من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاق العدو ، ويقاقل في الحروب ؛ فشرع الاسلام توريث المرأة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الميراث ، وكان ذلك شديدا على النفوس ، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت القرآني التي فرض الله فيها للولد الذكر ، والآثي ، والأبوين ، كرهها الناس أو بعضهم ، وقالوا : تعطى

المرأة الربع والنس ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاقل القوم ، ولا يحوز الفدية ؟ . وسأل بعضهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله : أتعطى الحارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاقل القوم ، وتعطى الصبي الميراث ، وليس يفتى شيئا ؟

ومن أجل هذا أكد القرآن الكريم إعطاء المرأة نصيبها ، وكرر ذلك في أكثر من موضع ، كما أكد إعطاء كل وارث نصيبه على ما هو مفصل في آياته البيات (١) . وليس في الامكان أن نذكر هنا جميع تجديد القرآن وإصلاحه ؛ ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه تفسير الآيات القانونية المفسرة عنها بآيات الاحكام ، كالتفسيرات الاحمدية في الآيات الشرعية للملايين ، وك تفسير آيات الاحكام للجصاص ، وابن العربي ، وعلى بن محمد الطبري ، وأبي بكر الرازي ، والقرطبي ، وبالتفاسير المعتمدة : كتفسير الطبري والسيابوري ، وكتب أسباب النزول ، وغير ذلك ، فانه يجد فيها ما يشق ويكفي .

(٥) ولقد حمل راية التجديد في الدين علماء الأمة وأتمتها في كل عصر ، على ما سنفصله بحول الله وقوته بعد ، فتعدوا شجرة الشريعة المطهرة ، وغذوها بتحديثهم باجتهادهم فزاد نمو تلك الشجرة ، وتضاعف اثمارها وثمراتها والانتفاع بها ، وأصبح المستظلون نظلمها ، المستعمون ثمارها في بقاع الأرض ، يزيدون عن أربعمائة مليون من المسلمين ، ولو سار الخلف منافي التجديد ، والعمل بخدمة الشريعة على سवाल السلف ، لباغنا من صمو المكاة ، وعزة السلطان ، ما لم تبلفه أمة من الأمم .

٢ — ما حكمة التجديد في الدين ؟

(١) مما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين ، ولا نبي بعده بنص الكتاب والسنة . ومما لا شك فيه أن حوادث الأيام - كما هو مشاهد ، وكما قال العلماء - تتجدد ، وهي خارجة عن الإحصاء والتعداد ، ومعرفة الدين وأحكام الشريعة لازمة الى يوم التناد ، وظواهر النصوص لا تنفي بيانها ، ولا يد من طريق واف بشأنها ، ولا طريق لذلك سوى التجديد باستنباط الاحكام التي تعد حاجات الناس في التشريع ، وتوافق كل عصر ؛ لهذا اقتضت حكمة الله تعالى ، وقد وعد بحفظ كتابه وشريعته ، أن يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها ، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) إن الشريعة الاسلامية عامة لسكافة الأمم ، وهي مستمرة لا تتسرخ ، ولا يعقل استمرارها إلا إذا كان يتغير الكثير من أحكامها الاجتهادية بتغير العصور والأزمان والاحوال ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، ولا يكون هذا التغير إلا بالتجديد باستنباط

(١) تفسير الطبري ، والسيابوري ، وكتاب بحر الاسلام .

الاحكام الشرعية من الاصول لاربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ؛ ومن أجل هذا يرسل الله المجتهدين على رأس كل قرن لاهياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والامر عقنصاهما ، ولتبقى للشريعة جدتها ، وصلاحياتها لسكل زمان ومكان ؛ وهل نخدم شريعة الله بأفضل من هذا ؟

(٣) ومن القواعد المقررة شرما أن الاحكام تتغير بتغير الأزمان ، نص على هذا العلماء في كثير من الكتب المتبرة ، ومنها مجلة الاحكام العدلية ، فقد جاء في مادتها التاسعة والثلاثين ما نصه : « لا يسكر تغير الاحكام بتغير الأزمان » . وعلق عليها حيدر افندي وزير العدلية السابق في الدولة العثمانية ، وهو من أعلام علماء الاسلام في هذا الزمان ، وأبو حنيفة هذا الاوان ، وكان مدرس المجلة بمدرسة الحقوق ، فقال : إن الاحكام التي تتغير بتغير الأزمان هي المستندة على العرف والعادة ، لأنه تغير الأزمان تتغير احتياجات الناس ؛ وبناء على هذا التغير يتبدل أيضا العرف والعادة ، ويتغير العرف والعادة تتغير الاحكام حسبما أوصحنا آنفا ، بخلاف الاحكام المستندة على الأدلة الشرعية التي لم تبين على العرف والعادة فانها لا تتغير .

مثال ذلك : جزاء العاتل العمد القتل ؛ فهذا الحكم الشرعي الذي لم يستند على العرف والعادة لا يتغير بتغير الأزمان ؛ أما الذي يتغير بتغير الأزمان من الاحكام ، فاعما هي المنية على العرف والعادة . وإليك الأمثلة :

كان عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشترى أحد دارا ، اكتفى برؤية بعض غرفها ، وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل غرفة منها على حبتها ؛ وهذا الاختلاف ليس مسقندا الى دليل ، بل هو ناشئ عن اختلاف العرف والعادة في أمر الانشاء والبناء ؛ وذلك أن العادة قديما في إنشاء الدور وبنائها أن تكون جميع غرفها متساوية ، وعلى طراز واحد ؛ وبناء على هذا كانت رؤية بعض الغرف تفي عن رؤية ساثرها . وأما في هذا العصر فقد جرت العادة بأن الدار الواحدة تكون غرفها مختلفة في الشكل والحجم والنظام ، لذلك لم عند البيع رؤية كل منها على الافراد ؛ وفي الحقيقة اللازم في هذه المسألة وأماها حصول علم كاف بالمبيع عند المشتري ؛ ومن ثم لم يكن الاختلاف الواقع في مثل هذه المسألة المذكورة تغييرا للقاعدة الشرعية ؛ وإعما تغير الحكم فيها بتغير أحوال زمان فقط .

وكذا زكية الشهود سرا وعادا ، ولزوم الضمان غاصب مال اليتيم ومال الوقف : مبنيان على هذه القاعدة ، وقد رأى الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله عنه عدم لزوم زكية الشهود في دعوى المال ، ما لم يطعن الخصم فيهم ، وسبب ذلك صلاح الناس في زمانه ، أما الصاحبان : أبو يوسف ، وعبد ، وقد شهدا زمنا غير زمنه تفتت فيه الاخلاق الفاسدة ، فرأيا لزوم زكية الشهود سرا وعلنا ، والمجلة قد أخذت بقولها ، وأوجبت زكية الشهود ، ولا تزال المجلة

هي القانون المدني لكثير من البلاد الاسلامية . وكذا من القواعد ان لا يجتمع أمر وصان ، إلا أن المتأخرين من الفقهاء لما وجدوا أن الناس في عصرهم لا يزالون باغتناب مال اليتيم والأوقاف ، والتمسدي عليها كلما سحت لهم فرصة ، أوجبوا ضمان مبالغ المسال المنصوب العائد للوقف واليتيم قطعاً للأطباع اهـ

فقد تبين من هذا كيف تتغير الأحكام بتغير الأزمان ، وكيف استنبط الامام أبو حنيفة والصاحبان والفقهاء المتأخرون الأحكام المناسبة للزمان والمكان .

٣ — ما هوائق التجديد وما علاجها ؟

من العوامل التي تقف حجر عثرة في سبيل التجديد ، وتموق ظهور المحدثين ، الجبن وعدم الانصاف ، والجرح ، والحسد ، وما الى ذلك .

(١) فأما الجبن ، فقد قال الامام العزير جماعة : إحالة أهل زماننا وجود المحدثين والمجتهدين ، يصدر من جبن ، وإلا فكثيراً ما يكون القائلون لذلك من المحدثين والمجتهدين ، وما المانع من فضل الله ، واختصاص بعض الفيض والوهب والعطاء ببعض أهل الصفوة ؟

(٢) وأما عدم الانصاف ، فهل رأيت مجتهداً أنصف من نظرائه ومعاصره ، أو شجع وقدر ، أو هم يملكون عليه حرب التحامل والانتقاص من قدره والوقوف في سبيله ، مع أنه في الحقيقة ، كما قال بعض الفضلاء ، لا يوجد لأهل العلم حلية كالانصاف ، والاعتراف بالفضل لقويه ، وبما عليه الانسان ؟ ولذا ينبغي ألا يتهم الانسان على ذوى الفضل بغير حق ، وألا يسمع قول أعدائهم فيهم ، وإن كانوا من الفضلاء ، إلا ببرهان واضح . والله در القائل :

وما عبر الانسان من فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل
وليس من الانصاف أن يدفع الفتي يد النقص عنه بانتقاص الأفاضل

(٣) وأما الجرح ، فقد قال الامامان : ابن عبد البر ، وابن السكيت صاحب جمع الجوامع : من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر ما دحوه ومركوه ، ونذر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب حرجه والتعامل عليه : من جهل ، أو اعتماد على نقل لا يوثق به ، أو هوى ، أو تعصب ، أو منافسة دنيوية ، كما يحصل بين النظراء ، أو غير ذلك . فلا يقبل جرحه ، ويعمل بالمعادلة فيه ، وإلا لو فتح باب تقديم الجرح على التعديل ، وأخذ بتقديم الجرح على إطلاقه لما سلم أحد من الأئمة ، إلا ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعون ، وهلك فيه هالكون ، فكلام النظر في النظر ، والعلماء بعضهم في بعض ، مردود ، ولا يلتفت الى جرح إلا أن يصححه الجارح ببينة حادة على طريق الشهادات .

(٤) وأما الحمد ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دب اليكم داء الأمم قبلكم : الحمد ، والبغضاء » .

وأما حبيبه : فنن المقرر في علم النفس أن الناس لا يرتاحون مادة للتفوق عليهم ، وإن كان النبوغ آتيا من بينهم ، لذلك ذهب عظماء المفكرين والعلماء ، والمصلحين ، والمكتشفين صعبة غضب قومهم في غالب الأحيان ، كما قال العلامة جوستاف لوبون . وإن أدع الكلام عنه للامام الحافظ الجلال السيوطي ليحدثنا عما أصابه حينما صرح بأنه مجدد القرن التاسع الهجري ، وها هو يخاطب من شدد عليه الشك من الحساد ، ممن حملتهم المعاصرة ، وعدم الانصاف ، وما الى ذلك ، على الخصام واللداد ، فيقول :

« إنك من إسكار التحديد والاجتهاد على إمكان ، وتزعم أنه في حيز الاحالة وعدم الامكان ، وهذا كلام من خلا عن العلم صدره والفؤاد ، ومن بينه وبينه ألف واد ، فان نصوص العلماء بالجديد وبفريضة الاجتهاد في كل عصر طالحة ، وبتأثير أهل العصر إذا قصرُوا في القيام به لأئمة . فان قلت : إن أحدا لم يناله ، فقد نسبت كل من في الأرض الى المعصية لا محالة ، والامة مزهية عن ذلك ، للحديث الصحيح « إن الله عصم هذه الامة من أن تجتمع على ضلالة » . ثم أين أنت من قول سيد المرسلين ، وخاتم النبيين : « إن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ؟

« وفسر العلماء هذا المبعوث برجل يقوم بالتجديد والاجتهاد ، ويحيي ما حفي دثوره بين العباد ، فان آمنت بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلف خبره ، وأنه لا بد لكل قرن من مجدد يعمره ، فقد فزمتك المحجة ، وسكنت منك هذه الصجة ، وعرفت خصوصية هذه الامة الشريفة حيث لم تفرط في هذا الواجب ، ولا حجبها عنه حاجب ، بخلاف غيرها من الأمم فانهم قصرُوا فيه حتى انقرض منهم المجددون ، وحلأ زمانهم عن إمام به يقتدون ويبتدون .

« ثم إذا اعترفت بوجود التجديد والاجتهاد فيما مضى ، وأسكرته الآن وقلت : إنه قد انقضى ، فإليك الإجابة أبي الحسن الشاذلي إذ قيل له : ما قوم بكرامات الأولياء السابقين يمتفرون ، وينكرونها لمن هو موحود ولا ينصفون ، فقال : إنما هم إسرائيلية ، فإن بني إسرائيل صدقوا ببوة موسى ومن تقدم من الأنبياء قبل أوانهم ، وكذبوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه موجودا في زمانهم » اهـ .

هذا شيء مما رد به السيوطي على حاسديه . وقال الشهاب ابن حجر :

لما صرح الجلال السيوطي بأنه مجدد القرن التاسع ، قام عليه معاصروه ورموه عن قوس

واحد ، وهذا من قبيل الغض منه والطمس عليه ، مع اعتقاد أقطاب العلماء «زيد جلالته» ، وفرط سعة اطلاعه ، ورسوخ قدمه ، وتمككه في العلوم الشرعية وآلاتها .

ولا يمكن ، كما قال أحد الأفاضل ، إرضاء جميع الناس ، والتخلص من لومهم ودمهم بحال من الأحوال ، لاختلاف عقولهم ، وتضارب آرائهم ، واختلاف تصوراتهم ، فإنك إن أوصيت زيدا في أمر أسخطت حمرا فيه ، وإن وافقت هذا خالفت ذاك ، وما على العاقل إلا أن يجهد نفسه في إتمام واجباته على وجه السكال ، من غير أن يبالى بقليل وقيل ، وإلا فلا تنهيا له الأقدام على عمل من الأعمال . والله در القائل .

ولقد طلبت رضا البرية جاهدا فاذا رضام غاية لا تدرك
والقائل :

فرضا البعض فيه للبعض سخط ورضا الكل غاية لا تمال
والقائل :

ومن في الناس يرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد
٤ - المستقبل للإسلام .

يمتاز الاسلام بأنه دين ودولة ، وبأنه يحمل معه عوامل التجديد والإصلاح ، والصلاحية لكل زمان ومكان ، وبأنه يضمن لقوية العاملين بتعاليمه الرفعة والمزية وسعادة الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه لا ريب في أن المستقبل له ، وسيدخل الناس فيه أفواجا بحول الله وقوته .

السبر عفيفي

أحسن ما قيل في فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » وقال : « ونشر الصابرين » .
ومما ينسب لعلی رضی الله عنه :

إني رأيت وفي الأيام تجرية للصبر طافية بمحمودة الأثر
وقل من جد في أمر يحاوله واحتسب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال أبو اسحاق الصابي : حظ الطالبين من الدرك ، بحسب ما استصحبوه من صبر .
وقال شاعر :

ما أحسن الصبر في موطنه والصبر في كل موطن حسن
حسبك من حسنه عواقبه عواقب الصبر ما لها ثمن

هل توصف الطبيعة باللؤم والتضليل

حضرة الأستاذ :

سلاماً وإحلالاً ، وبعد فترجوا مكارمك أن لا تضنّ على شبيبة تؤمل الخير فيك أن تخرجها من الشبهات التي أثارها قصيدة (نشيد الخلود) ، المنشورة في جريدة كثيرة الانتشار ، لأحد أساطين الشعر العربي . فقد جاء منها قوله :

ويح الطبيعة كيف تخرج برها
تتلقف الفضلات ثم تدسها
وقال ينحى باللؤم على الطبيعة :

تركنت أعزل بين مشتجر الأذى
ترد المياه وكل سائل قطرة
حفيت عليك ورفعت عنك الجوى
إن ضلتك وأوقنتك فانها
فصل الحياة الى م يصرع بعضها
تبقى وتهدم ما بينه ملوثة
لله كم للحمل عندك من يد
عبرت بك الأوهام تؤس عندها
فشفت بعض أحاح نفسك الذي
تلك السعادة في الحياة وإن تكن
ولقد وثبت من الخول فلم تدق
وعبرت تهلع من مصيرك في غد
تنفص مستر الهباء عمزقا

الى أن قال :

حمل العواة عليك في زفافهم
بني كفرت بما يقول غويهم
الوحي أصدق والخليفة آية
فضلت بين الحس والوجدان
ورضيت بالنوحيد والايان
لله تنطق عنه بالبرهان

يقول حضرة الشاعر . الويل للطبيعة فانها تهينك إذ تحلل لك المواد البرازية والقادورات

في بطن الأرض ، وتخرجها لك فاكهة وخصرا لنا كلها . وقد قنفت بك الى الحياة بغير سلاح ، فتخطفتك المعاطب . ورمتك بالميكروبات والمياه لتسلبك وجودك وأنت تتخيل بتناولها بك ترفه عن نفسك . واقد طمعت الطبيعة على التضليل والتعدي فصارت لك قدوة في المسكر والاحتيال . فاسأل الحياة لأي غرض يهلك بمضها بعضا ؟

ثم قال : إن الجهل أفضل من العلم ، فانه يؤاتيك برد الايمان ونعمة الرضى بما أنت فيه ، إذ يوهمك أن العوالم كلها خلقت لك فيشفي بعض ظنا نفسك بما يجلبه لك من أنواع الخيال . فهداه هي سعادة الحياة وإن كانت في حقيقتها من الألييب الصبيان وأضاحيك الأزمان !

أما العلم فقد أثبت لك أن طامك ذرة في جملة الكواكب المتكدسة ، فارتدت على عقبك منرجرا مرتعدا من روعة الملكوت .

هالك أطرقت مخلوع القواد يأسا من مصيرك الشخصى ، إذ تموت فتتحل أجزاء جسمك ويذهب كل منها الى عنصره ليس له وجود مستقل .

ثم قال : هذه هجمة من الفواة عليك فضلت بين العلم المحسوس وبين خيال الوجدان ، أما فقد كفرت بما يقول هؤلاء الفواة ورضيت بالتوحيد والإيمان ، ملتجئا الى ما أوحاه الله في كتبه .

فيأبها الأسناذ : هل يصح وصف الطبيعة بالقوم ؟ وهل هي تضلله لتوبقه وهو أعزل ، وتسقيه السم الزايف وهو يتوهم أنها ترفه عنه ؟

وهل الحياة تبني وتهدم على غير هدى ، كأها نشوى لا تبنى ما تفعل ؟

وهل الجهل هو الذى يوم الإنسان أنه سلطان الخليقة ، والعلم يزيل عنه هذا الوهم ويثبت له أنه لا شيء في هذا الوجود العظيم ؟

وهل الوحي عدو العلم ؟ سعيد وفقى

مواثبات على هذه المسائل :

لا يصح وصف العلم بالقوم ولا بالتضليل ، وهو عناد الانسان في هذه الحياة ، والكاشف له مساير الوجود ، والمبتكر له من الوسائل ما يستطيع معه أن يتغلب المبيدات التى تحدق به من كل مكان .

والحياة طمعت على الباء والنجوم ، فان تهدم فلاجل أن تبني ما هو أكل وأقوم ، وهذا الأثر منها ظاهر لا يحتاج لبيان ، فهل الأرض يوم انفصلت عن جرم الشمس كتلة ملتهبة ، ثم بردت فشرتها جرداء موحشة ، كانت على ما هي عليه اليوم عامرة بالأحياء ؟ وهل

الإنسان وهو يهيم على وجهه كيمض الحاجات ، لا ينال العيش إلا تبليغا ، ولا البقاء إلا ليذا في الكهوف والغيان ، كان على ما هو عليه اليوم من العلم والمدينة ، والخشب وتوفر الوسائل الحيوية ؟ فهل هذه الأعمال الخيرة للمقل تصدر عن قوة لشوى ، لا يحدث بها غير الهديان والعريضة ؟

وليس الجهل بخير من العلم . فإذا كان العلم قد كشف للإنسان أن أرضه درة في الفضاء ، وأنه هو يكاد يكون بجسمه لا شيء فيها ، فإنه قد أثبت له أنه بروحه وعقله عالم كبير ، عظيم الحول والطول ، متمثل بعالم الروح اتصال الجزء بكله ، والفرع بأصله ، وأنه بانتهائه إلى هذا الأصل سلطان على العالم المادى بحق ، وقد كشف عن سلطته عايه بما أحيانا من مواته ، وأنام من همراته ، وسحر من نواميسه ، واستخدم من قواعده . فإن شئت أن تعرف مدى سلطانه عليه فحسب فيها لا يسكنه من نقاعه ، فهل تصادف غير موام موحشة ، ومعام فاحلة ، وفياف ماحلة ؟

وكيف يسوغ لإنسان أن يدعى أن الوحي عدو للعلم ، وهو يدعو إليه ، ويشيد به ، ويقرر بأنه سبيل الإيمان ، ووسيلة الفهم والادمان ؟ ألم يجبه في الوحي الأخير قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا المرءون » وقوله : « إن في ذلك لآيات للعالمين » وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير . »

أما القول بأن الطبيعة تتلقف العضلات والأفذار ، وتحمل منها لك طعاما شهيا ، فاصدة بذلك إهانتك والسحر منك ، فقول ليس عليه عبقة من العلم . فإن ما تعتبره أنت فصلات وتقديرا ، لا يفترق في تركيبه السكباتى عن أى شيء تعتبره أنت نفسك أظهر ما فى الكون . والعفوة التى لا نستطيع أن تقرّب منها ، من سوء وقمها على حاسة شمك ، لا تفترق في طهارة عناصرها من الطيب الذى يستهويك عرفة فنضمخ به رأسك ، وتمسح به وجهك . فإن كانت حاسة الشم وحدها هى التى تفرق لك بين ما هو طيب وما هو قفر ، فقد حكمت على نفسك غير حكيم ، وأوقعتها فى خطأ عظيم . فإن خلاصة جنود بات العالميات لا يفترق فى ريحه عن ريح المادة الفضلية ، وهو علاج جليل القدر ومن الطهر بمكان مكين . فإن كان الإنسان أسير حواسه واعتباراته ، فإن العلم الحق لا يتقيد بشيء من ذلك ، فهو يعتبر الشيء من حيث هو فى حقيقته لا من حيث تأثيره فى الحواس البشرية ، ولا من حيث قيمته من الأمور الاعتبارية . والرجل الحكيم مع احترامه للأمور الاعتبارية الخاصة بنوعه وعُرفه ، يجب أن يكون من سلامة الإدراك بحيث لا يسرى تلك الاعتبارات على الوجود فى إطلاقه . فلا يحوز له ، وهو مكبل فى القيود الاعتبارية والعرفية ، أن يخضع لها فيقول إن الطبيعة

مشعوذة لثيمة ، تتلقف المواد البرازية ، وتحولها الى ثمرات شهية ، وتصطرفني الى أكلها ، مريدة بذلك إيهائي والسحر مني ، ولكن يجب عليه أن يعرف الى أي مدى هو مخدوع بأموره الاحتشادية وبعرفه ، حتى يخيل اليه أنه يعود فيأكل القدر الذي خرج من بطنه .

على أن الطبيعة عند ما آتت الانسان ثمراتها الشهية ، لم تكن قد كوتتها له من مواده الفعلية ، ولكنه هو الذي وضع يده تلك الفضلات حيث تسبح جذور المائات لتفندى بها ، وكان يستطيع أن يصنع بدلها مواد نباتية مما يغطي سطح الارض ولا فائدة له عنده ، فإن عد نحاييل الارض للمواد المفضلية وإعادتها اليه ثمرات شهية ، جباية عليه ، فهو الذي فعل ذلك بنفسه ، فلا يأخذن الطبيعة بذنبه .

أما أن الطبيعة قد تركت الانسان أعزل بين ملنظم الموادي ، ودست له المكاريب الفتاكة في المياه لتهدكه الخ الخ ، فكلام ليس فيه مسكة من المعدل ، ولا ظل من التحقيق ، فإنها قد آتت الانسان من قوة العقل ، ونور البصيرة ما استطاع معه أن يتغلب به على جميع تلك الموادي ، ما ظهر منها وما بطن ، خفضت لسلطانه ، وما برح يستثمر تلك القوة ليصل الى حيث لا يبلغه وهمه من العسك والسلطان على ما يحيط به . فمن لا يريد أن يرى هذا الأمر الجليل ، فليندب حظه ما شاء فليس ذلك بضائر أحدا غيره .

أما قول الشاعر : إن الموت سيدة ض عليك ، فيفض وجودك ، ويثر عناصرك في الارض فتصبح طامس العنوان . أي قايما ليس لك وجود ، فقول لوصح على الجنان المادي فلا يصح على الروح ، وهي ما بها الانسان إنسان . وقد أثبت علم القرن العشرين بأنها ستبقى بعد فناء هذا الجنان ، في عالم أرفع من هذا العالم ، أثبتته بأدلة لا يمكن دحضها على أسلوبه الذي لا عوج فيه ، فإذا أنكر ذلك مسكرا لا يريد أن يتابع العلم في تطوره ، مشايمة للنظريات المتبعة البائدة ، فإن مار ذلك لا يلحق بالعلم ولكن يلحق بالمقصرين فيه . وقد أتينا في هذه المحلة على كثير من ثمرات بحوث العلماء في هذا الباب ، وسنتبهما بأمثالها في كل فرصة .

فإن كان الشاعر يعي بالفجوة هؤلاء فقد أصاب ، ولكنه أطلق القول حتى عم كل رجال العلم ، كما يؤخذ من لجوئه الى الوحي مباشرة ، توها منه بأن ما يقوله هو رأي العلم نفسه ، لا رأي طائفة من شذائه ، وهو خطأ عظيم كان يجب أن لا يقع فيه ، فانه يجعله الوحي مناقضا لمقررات العلم ، قد سجل عليه أنه لا يصلح أن يجتمع هو والعلم في رأس ، وأنه لا يلجأ اليه إلا المستكبيون الذين يهون عليهم أن يتركوا العلم لأهله ، مكتفين بما يعده العلم وهما مقضيا عليه بالزوال . ولكنه كان يجب عليه أن يقول :

حمل الفجوة عليك في زغائنهم
والني لا يخفى على يقظان
فأجأ الى العلم الصحيح فانه
يحبيك من إفك ومن لظ-لان

وَأَلَى الْفَتْوحِ تَجَارِبًا حَتَّى غَدَا لِلوَحْيِ رِدْأً دَامَغَ الْبِرَهَانِ

لو كان قال هذا لكان ممثلاً للواقع ، فإن العلم بتجاربه وفتوحاته العظيمة قد أقام الأدلة المحسوسة على خلود الروح ، وعلى وجود العالم الروحاني ، وقضى قضاء نهائياً على المتلاعنين بقصوره ، الذين جعلوا من ذلك القصور حججاً للحادهم ، ومتى صح في عقل أن يكون القصور حجة على نفي شيء أو إثباته ؟ ولو انتظروا به فلفظه يفتح عليه ما يزيل عنه القصور كما فتح عليه من قبل ، ولكمهم لا يصبرون ولا يعترفون بقصوره !

فإن كان يوجد من تحدته نفسه بأنه ذو عقل جبار كما يقولون ، وأن الحبروت لا يكون إلا بالتردد على الحقائق الخالدة ، التي تصافرت الحجة المحسوسة على وجودها ، فإن حبروته هذا يعتبر ضعفاً يرثى له منه ، وحسبه ما وصفه به الشاعر من أنه يعيش مطرقاً منخلع الفؤاد من الهلع .

وعلى ذكر العقول الجبارة التي أكثر من ذكرها كتاب العربية اليوم ، نقول إن المعايير التي يزنون بها هذه العقول ليست لها قيمة حقيقية ، فهم يحسبون الجرأة على إنكار ما اتفق الحكماء على إثباته ، والاقدام على هدم ما تواضعوا على بنائه ، دون مبالاة ولا اكتراث ، ولا الرجوع الى علم أو هدى أو كتاب منير ، هي المعايير التي تقدر بها قوة العقول . والحقيقة أن قوة العقول تقدر بما تستكشفه من المجاهيل ، وما تستخرجه من المسائير ، وما تصل إليه مما خفى على الآخرين ، فإن كان الذين يدعوم الناس بجباري العقول على شيء من هذه الصفة ، وجب أن يبينوا للناس بالأدلة أن ما هم عليه مريق في البطلان ، وأنهم قائمون منه على عقائد موروثية لا أصل لها في العلم ، ولا أساس في المطلق . فإن وقفوا هذا الموقف أمام ما اتفق الناس على الادعاء له ، وأثبتوا لهم بما ألقوه عليهم من النور صحة اتهامهم به إليه ، ولم ينحسروا في الحق لومة لائم ، أمكن اعتبارهم من جباري العقول ، وليسكن اكتفاءهم بتكذيب ما عليه الناس ، والاستهزاء به ، وهم يحجزون عن إقامة أي دليل على ما يذهبون إليه ، فلا يليهم شرف هذا القرب العظيم .

وإننا لنأسف أن أكثر من يطلقون عليهم هذا القرب الضخم في الشرق هم من هذا القبيل الأخير . وما دام يستطيع أي مفلس أن يحمل على مثل هذا القرب بانكار العقائد ، والخط من قيمة التفاليد ، فلا عجب أن يكون في الشرق من حيازة العقول بقدر ما يكون فيها من المفلسين المستهزئين ؟

محمد قريبو ومري

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

مكبر الصوت

في المساجد الكبيرة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

ما قولكم في نصب الآلة المكبرة للصوت في المساجد وقت صلاة الجمعة والمبشرين ليتمكن المصلون من سماع الخطبة وتتبع قراءة الإمام أثناء الصلاة ، هل يجوز اتخاذ هذه الآلة شرعا للفرض المذكور أو لا يجوز ؟

محمد حكمة الله خان

رئيس جمعية سيرات . جهانس الهند

الجواب :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم . وبعد : فإن اتخاذ هذه الآلة (مكبر الصوت) في المسجد الكبير من المستحسن شرعا ، لأنه يحقق الفرض المقصود من الخطبة ، وهو الانعاط والتعلم ، وكذلك يعين المأمومين على العلم بأفعال الإمام في الصلاة . والله أعلم ؟

معنى حديث

و جاء أيضا :

رجل يقول : إني ذو حظ وافر ، إذ أن ذنوبي لا تكتب علي ، وذو بي المتقدمة والمتأخرة مغفورة ، لأنني قد واجهت الظالمين بكلمة حق ، وهرضت نفسي للهلاك . ويستدل رأيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كما في الجامع الصغير للسيوطي . فهل في هذا الحديث أو في غيره ما يوافق رأي هذا الرجل في غفران ذنوبه المتقدمة والمتأخرة ؟ وإذا كان هناك ما يوافقه فهل يصح له أن يرتكب الجرائم ولا يبالي باعتادها على غفران ذنوبه كما يقول ؟

الجواب :

الحديث المذكور في الاستثناء روى من طرق عدة نبينا فيما يلي :

(١) « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » : عزاه بهذا اللفظ الجلال السيوطي إلى الإمام أحمد في مسنده ، وابن ماجة والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الكبير عن أبي أمامة ، وعزاه أيضا إلى أحمد في مسنده ، والبيهقي عن طارق بن شهاب ، وإلى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري ، وقال المناوي : إنه صحيح الإسناد . وخرجه النسائي جوابا عن قال : أي الجهاد أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم . « كلمة حق عند سلطان جائر » .

(٢) وأخرجه الترمذي بلفظ « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

(٣) وخرجه ابن ماجة بلفظ « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

(٤) وفي رواية لابن ماجة أيضا بلفظ « كلمة حق عند ذي سلطان جائر » .

وهذه طرق متعددة يقوى بعضها بعضا في معنى الحديث وصحته ، والحديث الشريف يرشدنا إلى أن من جهر بالحق ولم يخش في سبيله لومة لائم ولا بطش حبار يكون عند الله في درجة تسمى درجة المجاهدين .

وليس في الحديث ما يؤخذ منه أن كلمة الحق عند السلطان الجائر تكفر لقاتلها جميع سيئاته ما تقدم منها وما تأخر ، ولا أنها تبيح له أن يرتكب ما شاء من الجرائم اعتمادا على ما يظنه من هذه المقترة الشاملة العامة ، بل النصوص الشرعية قائمة كلها على تحريم الجرائم وعدم إباحتها لكائن من كان . والله أعلم ؟

في الرضاع

وجاء أيضا :

لأنه رصعت من إحدى النساء رضعات لا تزيد عن ثلاث أو أربع ، وقد كبرت البنت وحلبها شاب ليتزوج بها ، وهو شقيق المرأة التي أرضعت البنت ، أي أنه يكون شبه خال فهل يجوز له التزوج بها أو لا يجوز ؟ وعلى أي مذهب يكون عقد الزواج ؟ وهل يجوز في جميع المذاهب أو في مذهب بعضهم ؟

الجواب :

يجوز عند الشافعية والحابلة أن يتزوج الشاب المذكور هذه الفتاة ، لأن المحرم من الرضاع في المذهبين ما كان خمس رضعات متفرقات فأكثر ، وإذا أريد العقد عليهما فينبغي أن يراعى فيه شروط عقد الزواج في مذهب الشافعية أو الحابلة . والله أعلم ؟

في الطلاق

وجاء أيضا :

شخص تما حلف بمينا بالطلاق ، وكان نص اليمين هكذا « على الطلاق بالثلاثة بأننى لن أدخل المنزل الفلانى طيلة حياتى » مع العلم بأن اليمين لم يقع لغاية الآن ، وأن هذا المنزل غير المنزل الذى يقطن فيه ، وأن هذا الشخص لا يمكنه الاستفتاء بأى حال من الأحوال من دخول المنزل الذى حلف اليمين بخصوصه . فما العمل فى تحليل هذا اليمين ؟ وهل يمتنع باتما لا يمكن حله ، أو يعتبر طلاقا واحدا ؟ وما العمل فى تحليله فى كلتا الحالتين ليحكمه دخول المنزل ؟

الجواب :

هذه اليمين فى معنى الطلاق المطلق الذى يقصد به الحل على ترك المحلوف عليه ، فكانه قال . إن دخلت المنزل الفلانى فمراأتى تكون طالقاً ثلاثاً ، يقصد بذلك منع نفسه من دخول المنزل . ويرى الامام على رضى الله عنه وطاوس وشريح وداود وأصحابه عدم وقوع الطلاق فى مثل هذه الصورة ولو حصل المحلوف عليه . ووافقهم على ذلك كثير من فقهاء الامصار . وقد صدر مرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ لاختيار هذا المذهب للعمل به فى المحاكم الشرعية . وعلى هذا لا يقع الطلاق فى هذه الحادثة ولو دخل الخالف المنزل والله أعلم .

وجاء أيضا :

رجل قال لزوجته الغائبة عن المجلس : « فلانة طالقة بالثلاث ، طالقة بالثلاث ، طالقة بالثلاث » بموجب وثيقة رسمية على يد أحد مأذونى للشرع وموقع عليها بامضاء وشهادة اثنين . فهل تحل له بعد ذلك على أى مذهب من المذاهب الأربعة أو لا تحل ؟ وقد أنكر الزوج ذلك على زوجته وعاشرها بعد ذلك .

الجواب :

يرى كثير من فقهاء الامصار أن قول الرجل لزوجته : « أنت طالق ثلاثاً » يقع به طقة واحدة . وقد احتير هذا المذهب للعمل به فى المحاكم الشرعية بمقتضى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ وإطادته اللفظ « أنت طالق ثلاثاً » مرتين عقب المرة الاولى يعتبر تأكيداً للمرة الاولى فلا يقع به طلاق آخر غير الطقة الاولى الرجعية .

أما معاشرته إياها بعد ذلك الطلاق فهي غير جائزة إلا بمراجعتها إذا كانت عدتها باقية ، أو بعقد جديد إذا كانت عدتها قد انتهت

وجاء أيضا

وقعت مشاحنة بيني وبين زوجتي قلت لها أثناءها : « أنت طالق بالثلاث » وعصمة على زى أمى وأختى » وهو الطلاق الثانى ، وأريد إرجاعها الى عصمتى . فهل يحل لى ذلك على مذهب الامام الشافعى أو لا يحل ؟

الجواب :

قول الرجل لزوجته : « أنت طالق بالثلاث » صريح فى الطلاق الثلاث على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، فيقع فيه الطلاق ثلاثا ، ولا تحل الزوجة لزوجها حتى تسكن زوجها غيره . ولا تأثير لقوله بعد ذلك : « أنت عصمة على زى أمى وأختى » لأن هذا القول يعتبر لغوا بعد وقوع الطلاق الثلاث . والله أعلم .

وجاء أيضا :

رحل قال : « على الطلاق بالثلاثة ما أنا إلا معزول من إخوانى ولا أقعد معهم فى عبشة واحدة » ثم قال : « على الطلاق بالثلاثة إلى عدو لإخوانى وهم أعداء لى » وكان حال صدور هذا منه فى غضب لا يعى معه ما يقول ، وغرضه من القول الأول مجرد حمل نفسه على أن يفصل من إخوانه وأن يترك معاشرتهم ، ومن الثانى مجرد حمل نفسه على الاستمرار فى ترك معاشرتهم وأنه لا يعود إليهم ، شأن كل عدو مع عدوه ، وهو الى الآن لم يفصل من إخوانه ، ويريد البقاء معهم والاستمرار فى معاشرتهم ، كما أنه لم يدخل زوجته التى حلف عنها . فهل يقع الطلاق بهاتين الصيغتين أو لا يقع ؟

الجواب :

هذه الصيغة من قبيل لطلاق غير المنعز الذى يقصد به الحمل على فعل المحلوف عليه . ويرى الامام على وطاوس وشريح وداود وأصحابه عدم وقوع الطلاق بمثل هذه الصيغة ولو حصل المحلوف عليه ، ووافقهم على ذلك كثير من فقهاء المذاهب . وقد اخير هذا المذهب للعمل به فى المحاكم الشرعية ، وقد صدر بذلك مرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ وعلى هذا لا يقع الطلاق فى هذه الحادثة ولو لم يفصل الحالف من إخوانه ، ولو استمر فى معاشرتهم . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النعمان

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

توطئة وتمهيد

هذه فصول من البحث لم أقصد بها الى التاريخ ، ولا حاولت أن أمسك لها براعة المؤرخ الذى يسجل ما يشهد في مسرح الحياة ، ويكتب ما يروى عن الغابرين ، وهى ليست من التاريخ ببعيد ، بل هى منه في الصميم ، ولم أقصد بها الى ترجمة بعض الشخصيات العظيمة في تاريخ الاسلام وإن كانت حول هذه الترجمة تدور ، وليس من همها أن تسجل يوم ولادة زيد ، ولا عام وفاة عمرو ، وليس من همها أن تحدثك عن البطولة والابطال في ساحة الوغى والانصاف ، وليس من همها أن تفتح بين يدي القارئ صفحة من قصص الوقائع ومرد الاحاديث ، فتلك سبيل مبسرة للسالكين ، ومنهج معبد للمابرين ، وطريق مألوف للباحثين من القدماء والحديثين ، وفي الاخير ، هو وجه من الدراسة تكفلت به كتب التاريخ التى لا يبلغها المد ، يثر عليه من أراده في غير إجهاد ومعااة أينما وقعت يده على أحدها ، ويستشفه بصره حينما حل في صفحاتها .

وإنما قصدت بها الى ناحية خاصة في سجل التاريخ الاسلامي ، هى أضواء واحية وأحدها بالعناية الدارسة والتأمل الباحث ، تلك هى ناحية تاريخ الفكر الاسلامي على ضوء ترجمة أشهر رجاله وقادته من علماء الملة ومفكرها ، والوقوف عند آرائهم ونظرياتهم في شتى الفنون ومختلف العلوم وفنون المعارف ، وما أفاده الاسلام من تلك النظريات ، وما كسبته الانسانية من ورائها ، لتكشف بها عن آيات الجلال الفكري في حياة الاسلام المباركة ، وآية التاريخ في الاعتبار لتقلباته ، والإفادة من أحداثه ، وسر المعبرة في الناس ، وطريق الناسي التحليل والتعليل ، ورد النتائج الى مقدماتها ، وربط الاسباب بمسبباتها ، فذلك أبلغ في تصوير البواحي النفسية لشكوك التاريخ الفكري على ضوء الظواهر الاجتماعية .

والتاريخ الاسلامي أحفل التواريخ بمواطن المبر ، والمسلمون اليوم أحوج ما يكونون الى بحث ماضيهم واستنارة دقات تاريخهم الذي يضم بين جنباته ثروة فكرية لا تفتنى ، وكنوزا علمية لا تنفذ ، لا يقتضيهم بحثها سوى عزيمة صارمة ، وصبر على لأواء البحث وجهاد التفكير .
وتاريخ الفكر الاسلامي واسع المدى ، مترامي الأرجاء ، متعدد المناحي ، صيق الغود ، لانه تاريخ التشريع وتعرف أطواره واتجاه مذاهب الفقهاء في فهمه وتدوينه ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية ومنشورها وصلتها بالفلسفات القديمة والحديثة ، وتاريخ العلوم العربية على اختلاف فنونها ، وليس يكفى في القيام بحق هذا التاريخ وبسطه كتابة فصول محدودة الغاية ، فما تبلى

من بدايته أول سطورها حتى تكون قد أتلفت على ذروة هائتها ، ولم تقض من لبنات الباحث أذناها ، وإذا لم يكن في طوق البحث أن يعتمد على التفصيل فقد يكون في الإجمال بعض الغناء لأنه لا يخلو من تنبيه الى مشارف الآراء ومعاقد الأفكار ، وهذا وإن لم ينقح غلة الصادي فيه مقع للشادي ، وحسبك أن تقف على باب الصحراء لتهدى السائلة الى خافجها ، وهم مع إيمان السير واصولون الى النهاية آمين

وسأحاول في هذه الفصول أن أتحدث عن قيادة الفكر في تاريخ الاسلام في إجمال لا يحجب وراءه معنى يقتضيه البحث ، حاعلا أشهر شخصيات قادة الفكر موضوع هذا الحديث ، موحها عناية البحث الى مناحبهم الفكرية وآثارهم العملية ، عارضا ذلك في شيء من التحليل بقدر ما يصل اليه جهدي على ضوء ما ثبت عنهم من النقل في مصادره الوثيقة الصادقة ، غير منمرص لشيء من حياتهم إلا بقدر ما يتصل بأفكارهم ، ومن ثم كانت هذه الفصول ترجمة علمية لمن نوفي لعرض حياته الفكرية في مرآتها

يحاول أنصار مذهب الفشوة والترقي أن يقيموا دعائم نظريتهم على أساس افتراض « التطور » الطبيعي لسكوك الإنسان المادي في حيز الكائنات الأولية ، بعيدا أشد البعد عن عوالم الحيوانية ، بله العقل والتفكير ، ثم الى السداجة الفكرية المطلقة منذ أول عهده بأبداية نشرا سويا الى أحقاب منطاولة وأعصر متعاقبة ، تدرج في مدارجها ، وترقى في مراقبها من حالة الحيوانية الوحشية الى حالة لا إنسانية المارقة المفكرة ، فالتفكير في نظرم لم يولد مع الإنسان ، وإنما هو شيء اكتسبه اكتسابا من طريق « التطور » في طبيعته وتكوينه المادي بمرور الأحقاب . وهذا مذهب قد تولت الأبحاث الحديثة فيما وراء المادة مناضته بسلاحه العلمي ، وهو نفسه يقرر أن النقاء للصالح ، وسواء أكان الإنسان خالق مفكرا كما تثبتته حياته الدينية في أطوارها المختلفة ، واستشعاره قوة غيبية تسيطر عليه وعلى جميع ما يشهد من كائنات ، يصورها في كل ما يتخيل فيه القوة القاهرة تبعاً لتأثراته الفكرية وبعده عن الهداية الإلهية ، وكما تقرره الكتب السماوية ، وكما تشهد به الأبحاث الروحية الحديثة ، أم خلق عريا عن التفكير إطلاقا كما يزعمه الماديون من أتباع الشوئين ، فإن التاريخ أثبت للإنسان منذ أقدم العصور تفكيراً يسمو على مضائق المادة في مواطن متعددة من السكرة الأرضية ، وأجناس مختلفة ، فقد عرف التاريخ منذ آلاف السنين حضارة قدامى المصريين المصرية ، وعرف أنها ثمرة من ثمرات حياتهم الفكرية التي تركت آثارها الناطقة لتدل على مكاتنها ، وقبل ذلك بصورة سحيقة عرف التاريخ مدينة الصيبيين ومن حاورهم من الأجناس الآرية ، وعرف فلسفتهم وصناعاتهم الدقيقة ، وعرف أنها صدى لما وصلوا إليه من التفكير الناضج والعقل الكامل ، ثم عرف عن الآشوريين والفينيقيين والبابليين والحموريين حياتهم فكرية خصبة تراعت في تلك القوانين والشرائع

التي سجلتها آثارهم ، وعرف الى جانبها شيئا عن حياة المعينين في حروب الجزيرة العربية ، وعن حلفائهم السبئيين ونهضتهم التجارية والصناعية وآثارهم الهندسية ، وعرف غيرهم كثيرا من الأمم التي بلغت في الحضارة والحياة الفكرية مبلغا أعدها لآل تصع في بناء المجتمع البشري لبنة من تاريخها ، ولا يزال في غيب التاريخ كثير من الأمم المتقدمة والأحبال البائدة ممن طوأم الزمن في صميره ، وأسدل عليهم حجابا كثيفا من الجهالة والفسيان .

وإذا اقترب الزمن بالحياة عرفت من نفسها ما كانت تمجمل ، فقيّدت غضا طريا ، وسجلته ناضرا نديا ، فدركه التاريخ جديدا زكيا ، وتنقل به في مراحل الحياة صورة لحبل من الناس وهو في حقيقته مرآة للمجتمع الانساني المتحدر مع الزمن في أحبال لا يأخذها الإحصاء .

هذه الحضارة الاغريقية والفلسفة اليونانية التي وصمها التاريخ تحت هذه العنونة الخاصة ، وتنفقها الناس على أنها صورة للفكر اليوناني ، ليست إلا سلسلة من الحلقات المنصلة من مجموع حضارات الأمم التي سبقت اليونان في الوجود المادي والوجود الفكري ، أظهرها فلاسفة اليونان في صورة من عقليتهم وتفكيرهم ، ومن يدم أحدها وارثهم من الرومان والفرس أولا ، ومن العرب ثانيا ، فالتمت بسمهم ، وتسمت باسمهم ، فقد حدثنا التاريخ عن رحلة فيثاغورث الى المدارس المصرية القديمة ، وحدثنا عن رحلات أفلاطون أسيرا ومعكرا الى بلاد كان للفكر فيها حفظ عظيم حتى عاد منها الى وطنه فيلسوفا ومعلما ، وحدثنا عن تلك الحروب الهائلة التي قاد جيوشها الشاب الفيلسوف الاسكندر المقدوني ، يكشف حفاويه علماء أمته وفلاسفتها ، وتخطى بها المعمور من الأرض ، وجلس معها خلال أقطار تنوطها أجناس من الناس مختلفة الألسنة والألوان والأخلاق والتفكير ، فزجت شعوبها مزجا وحشد تفكيرها وزاوج بين عناصرها ، وحدثنا عن تماذب الأفكار بين العلماء والفلاسفة تماذبا قرب اتجاهها ، وحدثنا عن تأخى كثير من الحضارات تحت راية واحدة .

وهكذا نجد من يدرس تاريخ الفكر الانساني صورة مجملة على ما بها من ضوض ، فإنها تعطى أن لتفكير ثمرة الانسانية في أجناسها المختلفة ، وليس وقفا على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس ، وإنما تتناثر فيه أمة على أمة بما تصفيه على الحياة الفكرية من طابع يبتها وحياتها الاجتماعية ، وما تصفها فيه من أسلوب خاص يطبعها بطابع عقلية تلك الأمة ، وما تصفه اليها من صور الفكر الموضوعية ، وبما تمدها به من اللجواهد العملية مما يقرها الى بوابيس الوجود ، وبما ينسج عنها التعريف والتضليل ، ويصفها من الخرافات والأباطيل .

وقد أحدثت تلك الصورة تنضج في ظل العقل اليوناني حتى اكتسبت قوة داهية في عهد عقول الفلسفة الثلاثة : سقراط الحكيم ، وأفلاطون العظيم ، وتلميذه أرسطو الذي أكرم الفلسفة شخصية علمية تمثلت في مؤلفاته ومؤلفات أسناده أفلاطون ، ومؤلفات تلاميذها ،

ومن تفلسف بعدم ، وقد أضنى أرسطو على الفلسفة من طابع شخصيته وبيئته وحياته الاجتماعية وخصائص أمته ما جعلها خصيصة به وبها ، وصيها في أسلوب منطقي ابتدعه لها ابتداء ، وأمدّها بكثير من الشواهد العملية والتجارب الواقعية ، وقربها الى سنن الوجود ، وصفها من خيالات أستاذه أفلاطون المثالية ، ورد نظرياتها الى الواقع في كثير من حواشيها .

بقى الفكر الانساني عيالا على فلاسفة اليونان في نظرياتهم التي أسسوا عليها أكثر فنون الفلسفة ، وفي مكان القيادة منهم أرسطو الذي كان بحق كما لقبه تلاميذ عقله من فلاسفة العرب « المعلم الأول » . وهذا كان لسقراط الفضل الأول في توجيه العقل الانساني الى السمو بنفسه عن مصائق المادة وهتك حجبها والنفاذ الى ما وراء سجنها من عوالم روحانية سامية ، فإن أرسطو هو صاحب الطريقة الانشائية في ترتيب الموجودات ترتيبا علميا يعتمد على قوانين ثابتة منتهجة من طائفتها وخصائصها ، وهو الذي كشف عن الصلة بين عالم المادة وعالم الروح وربط بينهما بقابلية الانفعال لتأثير روح أزلي قاهر محيط بكل موجود إحاطة رعاية وتدير .

عندئذ كان الفكر الانساني قد وصل من طريق الفلسفة الى القمة ، ولكنه لم يستطع أن يثبت في عليائه ، بل انحدر من طريق البيئة الاجتماعية الى حضيض الوثنية ، فان أولئك الحكماء الذين ارتقوا به الى الذروة هم أنفسهم — إذا استثنينا سقراط الذي قدم حياته قرانا ودى به عقله وروحانيته — الذين انحسروا به الى الحضيض مسايرة للدهاء ، ففي الوقت الذي كان يقرر فيه أرسطو ومن قبله أستاذه أفلاطون نظرياتهم الالهية كانت الوثنية الحفقاء تحرفهم أمامها في غمار الدهاء من عامة الشعب وخاصته ، وكانت معابد ثيننا وعفلفها تعج بتنايل آلهتهم وأصنامهم التي كانوا لها عاكفين ، وقد كان لخيال شعرائهم وروائيهم من أحاديث تلك الآلهة في محاسنها وتصلحها مادة خصبة أكتسبت آدابهم لونا من النصور الخرافي يدفعك الى الابتسام والسخرية دفعا لا اختيار لك فيه ، ولا شك أن هذه كبوة من كبوات الفكر التي أظلمته فلم يستطع معها أن ينهض وحده ، وبقي مغفولا بغلفها حتى افتسكته الديانات السماوية ، وكشفت عنه حجاب الضلالة وهدته الى أقوم طريق .

كان طبيعيا بعد إذ وصل الفكر الانساني الى هذا الطور الفلسفي أن يتحرك في سميت جديد لبيدأ طوراً جديداً في بيئة جديدة ، فانقل بترائه الفلسفي الى الرومان وارئ ثورة اليونان العلمية ، وهؤلاء الرومان لم تكن لهم العقلية الفلسفية المعقدة التي كانت عند اليونان ، وإنما كانت لهم عقلية اجتماعية اتخذها الفكر مراحاً لجولانه ، وقنع في ظلها من التفلسف بالشرح والتلخيص والاستنباط ، وانجم الى تنظيم الجماعة تنظيمًا قانونيا ، كان من أثره إخراج الفقه الروماني الذي اعتبرته الامم دستوراً تستمد منه شرائعها الوضعية ، وهذا يظهر فيفصل ما بين التفكير الفلسفي والتفكير الاجتماعي ، لأن الفكر في الأول يكون قائداً سلطان لا يحسد ،

وفي الثاني يكون قائداً مقيداً بالبيئة الاجتماعية التي يشرع لها ، وفي هذا ما يكشف لنا عن أخطاء الشرائع الوضعية ، ولا سيما التي لم تتأثر بشيء من الشرائع السماوية ، في تكييفها للجماعة البشرية ، وتقسيمها إلى طبقات بينها من التفاوت ما بين العجاوات وأرقى طبقات الانسان . وقد عنيت الشرائع الالهية أشد العناية بتصحيح خطأ الفكر الاجتماعي في التشريع ، كما عنيت بتصحيح خطئه الفلسفي في العقائد ، وكان النضال بينهما على أشده ، فلم يقف عند حد الصراع المكري ، بل اتخذ في كثير من الأحوال شكل التناحر المادي ، وقد أنبأنا التاريخ أن المسيحية لم تستقر في روما إلا بعد أن صليت بنار المحسومة الوثنية ، وحررت دماء شهدائها دفاعاً عن عقيدتها الدينية ، ولم يقف الفكر الفلسفي أمام هذا الانتصار الذي أحرزته الفكرة الدينية عاجزاً مستسلماً ، ولكنه واثبها في ميدان آخر ، فذهب مع أنصاره المشركين إلى مدرسة الاسكندرية حيث وجد هناك كسفاً موطناً ، وجناحاً مخفوضاً ، وامترج رجال الفكر من الفلاسفة رجال الدين من الكهنة ، وتماحمت الفلسفة مع الدين على ما بينهما من فوارق طبيعية وكسبية ، واستخدم رجال الدين أساليب الفلسفة المعماة في تصوير بعض العقائد الدينية ، وحاول الفلاسفة تطبيق نظرياتهم الفلسفية على قواعد الدين ، وقام على هذا الأساس مذهب الأفلاطونية الحديثة مزيجاً من الفلسفة وعقائد الدين ، وانهى به الصراع المندم بين المذهبين إلى التسليم والاستسلام من الجانبين ، وركن العالم إلى هدنة على دحس كانت سبباً في الاضطراب الاجتماعي الذي ساد الأم في ذلك الحين ، وتطلعت النفوس إلى منقذ ينقدها ، وكره الفكر الانساني الخلود الذي أصابه في ظل المهادة البليدة ، واشرب إلى أفق جديد يسطع منه أكل نوراً ، وأوصح حجة ، وأنمق أثراً ، وأنم تقماً ، وأصدق قبلاً ، وأخذ قبلاً ، فكان ذلك الأفق هو الاسلام ، وفيه بدأ الفكر الانساني طوراً جديداً نابع به نهاية عظمته ، وتوأم عرش الخلود في ظل القرآن الكريم .

كان الفكر قبل الإسلام فلسفياً في كنف الفلسفة ، وتشريعياً في كنف الفقه والتشريع ، وسياسياً في بيئة السياسة ، واجتماعياً في ظل الاجتماع ، وكانت له في مرحلة من أولئك عشرة ترجف منها قوائمه ، فلما جاء الإسلام احتضنه ، وأعظم شأنه ، ونشر لواءه ، وأعلى كلمته ، وجعله المهيمن على منافع الحياة كلها ، والإسلام دين تشريع وفلسفة واجتماع وأخلاق ، يسمو بالفرد والجماعة من طريق تكييل حصائصهما الطبيعية ، وتوجيه رغائيهما وجهة الخير والإصلاح ، فكان مجال الفكر فيه أرحب ساحة ، وأوسع مدى ، وأحكم قاية ، وأسد طريقاً ، وأقرب غرساً ، وأهدى عاقبة ، وأجمع لمناحي الوجود ، فهو في ظل الإسلام سياسي تشريعي ، واجتماعي خلقي ، وفلسفي علمي ، لا تطفئ به ناحية على ناحية ، غير أن حيوية الإسلام القاهرة جعلت من روحه قوة مهيمنة على الفكر تسده في سيره ، فأحدثته بالتربية المتدرجة بعد أن أحاطته علماً يسمو حقيقة .

وكان طبيعياً أن تكون أول جولاته في مضمار التشريع وتنظيم الجماعة الإسلامية تنظيماً اجتماعياً وسياسياً ، فإنها كانت أول أمرها أوجع ما تكون إلى هذا التنظيم ، ثم اتجه إلى ساحة العلوم والفنون فأحكم أمرها ، ومنها أخذ مبعته إلى الفلسفة حتى استولى فيها على الأمد ، وهذا هو يعمل الآن في تحقيق ما ابتدع من نظريات وما رتب من حقائق ، وإبرازها في صورة عملية حية ولكن في أفق آخر جديد .

وسأحاول أن أسور مراحل الإسلام في أشخاص قادته في تاريخ الإسلام ، غير متعبد بترتيب زمني ، ولكن بقدر ما يتسع له جهدي ويسمفني به الاطلاع ، عسى أن يبعث ذلك في نفوس المسلمين عامة وشباب الإسلام خاصة ، روحاً من الحية تدفعهم إلى النهوض الفكري حتى يكون لهم من العز والسودد ما كان لأسلامهم الأولين ما

صالح إبراهيم عرجونه

شجعان العصر الأول

قليل لم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام أشجع من خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ولشجاعته معاه رسول الله صلى الله عليه وسلم - سيف الله - ذلك أنه لم ينهرم في معركة قط ، ومات على فراشه . يقال : إنه سمع عند موته يقول « ما في حسدى موضع إلا وفيه ضربة أسف أو طعنة برح أو جرح نسهم ، وما أنا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا قامت أعين الجيلاء ! »

ومن شجعان العصر الأول : البراء بن مالك ، روى عنه أنه نازل مائة ماردة وقتلهم . وكتب عمر بن الخطاب إلى ولاته يحذروهم أن يسندوا رئاسة عسكر إلى البراء بن مالك ، فإنه يحملهم ما تدعوه إليه شجاعته فيهلكهم . وكان هذا من العاروق رحمة منه بالمؤمنين . ومن شجعان الصحابة : طلحة بن عبيد الله ، وحارثة بن حذيفة ، وأبيير بن العوام ، والمقداد بن الأسود .

يروى أن عمرو بن العاص طلب إلى عمر بن الخطاب أن يحمده ، وهو بصدد فتح مصر ، بثلاثة آلاف ، فأرسل إليه بأبيير بن العوام والمقداد بن الأسود وحارثة بن حذيفة ، عاداً كلا منهم بألف .

ومن الشجعان : الأشتر النخعي ، واسمه مالك بن الحويرث ، وهو الذي قبل فيه إن حياته هدمت أهل الشام ، وموت هدم أهل العراق .

المسيحية في الاسلام

وعندنا أن نأتي على ملحق لمقال حضرة الفاضل تادرس مسيحه أفندي ، فننجز وعده اليوم وننشره هنا مع التعقيب عليه . قال حضرته :

سيدى العزيز : إلحاقا برسالتى السابقة أرفع لمرتكم كلمتى هذه إتماما للقائدة فيما يخص بركم على كتاب المسيحية فى الاسلام ، فأقول : تهموننا ، أننا قد أخذنا عقيدتنا التى تشبه عقيدة الوثنيين السابقين من طريق الوراثة ، وأنه يجب علينا أن نرفضها الخ ، فقول :

إنما ياسيدى لم نقرر على الله الكذب ، ولم نقل شيئا يخالف ما أنزله الله فى كتبه المقدسة ، لذلك لا يمكن أن نرفض عقيدتنا المثبوتة فى كتب الله ، لأننا سمعنا عن أمم كانت قبلنا تقول وتمتدح بمثل ما نقول ونعتقد ، وإلا فإني أدعوك بأن تكذب القرآن فى أن عيسى المسيح قد ولد من عذراء اسمها مريم ، لأن ذلك يشابه ما اعتقده الهنود البراهمة من قبل .

هذا ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نورد لكم المقارنات الكثيرة بين أكثر عقائد الاسلام وعقائد الوثنيين أيضا كالذى بالجوار والطواف والاعتبار مما كان من عادات الوثنية العربية ، ومن تلقين الميت قبل دفنه وتقديس القرآن وعدم السماح بدسه أو تفسيره إلا من فئة خاصة ، كما كان عند الهنود القدماء كتاب يقدسونه بذات الطريقة ، بل تقول لكم ما قاله الأستاذ غلاب مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين ردا على ما قاله المستشرقون من أن أكثر العقائد الاسلامية مأخوذ من الوثنيات القديمة فقال : « إن هذا لا يقلل من شأن الأديان السماوية المبررة ولا يفض من كرامتها »

هذا فصلا عن أننا نستطيع أن نقول بأن العقل البشرى حتى فى زمن سذاجته لم يكن متروكا مهملا بل كان الله يقوده ويلهمه ، بما سنأتى به كتب الله المنزل ، لذا فليس يبعد على الوثنيين القدماء من مصريين وبرهمنين وغيرهم أن يكون الله قد ألهمهم الى ذلك التلبيث الاعتبارى للذات الواحدة الجوهر ، ولا نقول إنها بدهاية عقلية بدليل اتفاقهم جميعا على هذا التثليث ، وهى ظاهرة غريبة تدل على أن رعاية الله مع الجميع تتولاهم فى أقصى جاهليتهم بالهداية والارشاد ، وإلا فما معنى الاتفاق على التثليث ولم يقل بعضهم تربع أو خميس .

وما من جهة التقليد الأسمى الذى لا يستند على نصوص من الكتب المعتمدة بأها مرة فلا نطن أبنا موضع التهمة به ، ولكننا نسأل بتواضع حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الارهر فنقول : على أى نص من القرآن تستندون فى إثبات الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي الذى منه اشتق نور الأنبياء ولم يصرح القرآن بأكثر من أنه أمر ببيكم بقوله : « قل إنما أنا بشر

مثلكم يوحى الى؟ أما من جهة التقليد والاخذ عن الآباء بغير نظر والجود على المعتقدات الموروثة فلا نظن أنه قد قام في المسيحيين من رمام بالجود العام الشامل والاحد عن السلف على الطريقة العمياء حتى فيما يخالف نصوص الكتاب المنزل كما قام الامام محمد عبده الذي وصف المسلمين بهذا الجود حيث قال : « ولو أن أحدا أخذ مسلما من شاطئ الاطلنطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي - « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » فسلكهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار » .

تأدرس مسيحه بأخطاب

حاشية :

تقولون عرتكم بن لفظة (روح) قليلة جدا على الخلق لأنها مما خطر على بالك والله بخلاف ذلك ، أو ليست لفظة (ذات) على هذا القياس قليلة أيضا لأنها مما يخطر على ابال ؟ إذن فليس لله ذات فيكون غير موجود لأن الذات هي خاصية الوجود وكل ما ليس بذات هو غير موجود ، فكيف لا يكون لله روح كما جاء بالانجيل الشريف (الله روح) والروح هو خاصية الحياة كما أن الذات هي خاصية الوجود . ألم يقل البيضاوي : الروح القدس هو اسم الله الأعظم الذي كان يلزم عيسى ويحيى به الموتى ؟

ملاحظتنا على هذه الشبهات .

نكرر القول هنا نأما لم نسير هذا الجدل الذي نعتقد أن لافائدة ترجى من ورائه ، ولكن الذي آثاره هو أحد رجال الكنيسة المسيحية نكتاب ألفه بقصد التدليل على أن القرآن يؤيد القول بألوهية عيسى عليه السلام .

يقول حضرة الكاتب : « إتنا لم نقل شيئا يخالف ما أنزله الله في كتبه المقدسة التوراة والانجيل » الخ .

تقول . أما قوله إنه لم يدرن في عقيدة التثليث إلا وفاقا لما ورد عنها في التوراة والانجيل ، فهو غير صحيح ، أما التوراة فهي تدعو لإله واحد ، لا ولده ولا والده ، وقد أحدها الإسرائيليون وكلهم موحدون متشددون في توحيدهم

وأما الانجيل فلا يوجد فيها ما يدل على ألوهية عيسى ولا ألوهية الروح القدس .

ونحن لم نقل بوجوب رفض هذه العقيدة لأن أهما قديمة وثنية كانت تقول بها ، ولكن لأنها مع مخالفتها للكتب السماوية السابقة ليست بمقولة ، ولا يمكن الدفاع عنها بحجة أو شبهة . أما ما هو معقول وليس فيه ما يناق توحيد الله وتنزيهه فلا حرج من القول به ، ولو قال به جميع الوثنيين والاصول الاعنقادية التي يشترك فيها الكتابيون والوثنيون كثيرة جدا .

يقول حصرة تادرس افندى : « ويطول بنا المقام إذ أردنا أن نورد لكم المقارنات الكثيرة بين أكثر (عقائد) الإسلام وعقائد الوثنيين كالرعى بالجار الخ » .

ونحن نقول : إن كل ما ذكره ليس من باب (العقائد) ، ولكن من باب العبادات ، ولا يصير المسلمين ولا المسيحيين أن يتفقوا في بعض عباداتهم والوثنيين ، في جميع الأديان حتى أعرها في الوثنية صوم وصلاة وركوع وسجود وحج واعتار ، وإعما يصيرهم أن ينزلوا الى حضيب الوثنيين في تناول ذات الخالق بالتحليل والتركيب ، وأن يشركوا به ، أو يدعوا البسوة له .

وأما ما ذكره تادرس افندى من عدم السماح بلس القرآن أو تفسيره إلا لطائفة خاصة الخ فمح نأسف لورود مثل هذا على لسان رجل طائر المسلمين طول حياته ، وعرف كثيرا مما هم عليه . ألم ير القرآن متداولاً بين أيدي الناس كافة كباراً وصغاراً حتى أطفال المدارس اللازمية ، ومعرضاً في المكتبات يقتنيه من شاء من الناس دون أن يسأل عن مذهبه .

كل ما في هذه المسألة أن بعض العلماء فسر قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون » ، بأن المراد بالمطهرين أي الأطهار من الأحداث الجسدية ، حرموا أن يمسه غير مطهر ، وقال البعض الآخر : المراد بالمطهرين الملائكة المجردين من الكدورات الختامية ، بذليل قوله تعالى (في كتاب مكنون) وهو الفوح المحفوظ في العالم العلوى .

أما قوله - « عدم السماح بتفسير القرآن إلا لطائفة خاصة » فهذا عجيب كسابقه لأنه لا أثر له في العالم الاسلامي ، وقد تناول الكتاب الكريم بالتفسير العرب والترك والفرس والديلم والسودان والحبشان الخ الخ .

أما ما أورده حصرة السكاتب من أن المستشرقين قالوا بأن أكثر العقائد الاسلامية مأخوذة من الوثنيات القديمة ، فلو كان في العالم من قال هذا القول فقد دل على جهله المطبق بالاسلام ، فان هذا الدين الذي قال للوثنيين - « أتم وما تتمدون من دون الله حصص جهنم » ، ونصب العقل فيصلا بين الحق والباطل ، ودعا الى العلم وجعل منزلة أهله فوق منزلة الشهداء ، وهذا الدين لا يعقل أن يأخذ عقائده من الوثنيات القديمة ، وهل هذه الوثنيات غير إشراك بالله ، وتشبيه له بخلقه ، ورفع بعض الناس الى مرتبة الألوهية ، والطاعة المطلقة رؤساء الأديان ، والتقليد الأعمى للأباء والاجداد ، والأخذ بكل ما يقال بدون تعميم ولا تدليل ، فإن هذا كله من الاسلام في سمو عقائده ، وخلوص توحيده ، واعتناؤه على العقل والعلم في جميع تعامله ، واعتصاده بالدليل في كل أموره ؟ وإذا كان هذا يقال في الاسلام وهو الد أعداء الوثنية ، فإذا يقال في غيره مما لا يحكم العقل ، ولا يعتمد على المنطق ، ولا يأنه للدليل ، ولا يقف من تخيلات أهله عند حد ؟

يقول حضرة السكاتب : إن اتفاق الأقدمين من الهنود وغيرهم على التثليث قد يكون من عنابة الله بهم إذ هدام إليه ، وإلا فلم لم يقل بعضهم بتربيع أو تحميس الخ .

ونحن نقول : إن ما يدلى به حضرة السكاتب يتم عن نقص في البحث ، فإن من الأمم من قال بالهين فقط أرموزد وأهريمان ، ومنهم من قال بأكثر من ثلاثة حتى بلغوا بهم كاليومانيين والرومانيين والعرب وغيرهم ، عشرات . فالتعديد كما ترى ليس بمقصود على التثليث .

أما قوله . « على أي نص تستندون في إثبات الحقيقة المحمدية ، والور المحمدي الخ » فنرد عليه بأن هذا ليس من (عقائد) المسلمين ، ولا له أصل في الكتاب ولا في السنة الصحيحة ، وإنما هو من مبالغات بعض الغلاة ، وليس يلزم الاسلام منه شيء . وهؤلاء الغلاة يصادفون في كل مجال حتى في العلم والفلسفة وفي الاتحاد أيضا . وقد جاء الاسلام لا يطاله والتعقيد على أثره ، فقال الله تعالى : « يأهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والغلو في الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » .

وليس في الاسلام قديمة ولا أولية لأحد من المرسلين ، فالشكل في نظره مريبون له ، من أول آدم الى موسى وعيسى ومحمد ، وقد أمر المسلمون أن يؤمنوا بهم بغير تفرقة بينهم .

وقال حضرة السكاتب : « أما التقليد والاخذ عن الآباء بغير نظر والجود على المعتقدات الموروثة هم يرم بها أحد المسيحيين ، كما رمى بها الامام الشيخ محمد عبده المسلمين الخ » .

فنقول ليس الخطر في أن يتصف الآحاد والجماعات بالتقليد والجود ، ولكن الخطر في أن يتصف بهذا الوصف القائلون على العقائد ، والمؤمنون على الحقائق . فقول الامام الشيخ محمد عبده مشهد من أروع المشاهد امتاز به هذا الدين ، ودل على مبلغ ما خصه الله به من الحفظ والرعاية باعتبار أنه الدين الخالد . ذلك أن أركان التقليد والجود على الموروثات في جميع مللهم رجال الدين ، وإنهم ليمتدحرون ذلك مفجرة لهم ، ولم يذكر تاريخهم أنه ارتفع لهم صوت في عهد من عهودهم فاتهم أنهم يتفقدوا الآباء والجود على ما وروثوه عنهم ، بل يؤثر عنهم أنهم تشبهوا في دعوتهم اليهما ، والعرض بالواحد عليهما .

ولكن التقليد في الاسلام بغير نظر ولا تقدير لا يجوز ، فالمسلم مطالب بأن يعمل فكره ، ويجهد عقله في تحميم ما يقدم اليه من عقائد وأصول ، وما يكون قد نشأ عليه من عادات وتقاليد ، ليقر ما يتفق والعقل والمنطق ، ويبتل ما لا يتفق وبيانه ، لأنه مستول عن عمله ، وموكل الى نفسه « كل نفس بما كسبت رهينة » .

أليس من الظواهر التي توجب الإعجاب بهذا الدين أن إماما من المسلمين يقوم بعد مضي نحو

أربعة عشر قرناً على وجوده فيدعوم الى عدم تقليد الآباء باسم هذا الدين معه ، مستشهدا لهم بأية من آيات كتابه ، ألا يدل هذا على أن هذا الدين يبقى ما بقى الدهر ينبوع حياة للشعوب ، ومشرق نور وهداية لقلوب ؟

ملاحظاتنا على ما جاء في الحاشية :

يقول تدرس أبدي مسيحه : « إذا كانت لفظة (روح) كما تقولون قليلة حداً على الخالق أفليست تجري هذا الجري لفظة (ذات) الخ ؟ »

نقول : ليس في إطلاق أسماء وصفات كريمة على الله من حرج ، ولكن الحرج في عدم استشعار التنزيه في إطلاقها عليه ، تفاديا من الوقوع في فئسة التشبيه التي طمت في الديانات كلها ما خلا الاسلام ، وأدت الى ضروب شتى من الصلالات التي تناقض العقل والعلم معا .

وبما كان لا بد من أصل التنزيه في الكلام عن الخالق لسبب لا يختلف فيه عاقلان ، ذلك أن الانسان كائن محدود في كونه محدود ، فهو لا يفكر ولا يفهم إلا في دائرة هذه الحدود ، والله مطلق لا يحصره شيء ، والمحدود إذا حاول إدراك المطلق وقع في التحديد لا محالة ، فيكون كل ما يسمى به الخالق أو يدركه عليه من الصفات ، موصوماً بذلك الحدود .

هذا هو الفرق الجوهرى بين المسلم وغيره من ناحية العقيدة بالخالق جلي وعز ، فهو إن أطلق عليه كلمة (ذات) ، والذات لغة هي ما يصلح لأن يصلح ويخبر عنه ، سرى عليها قاعدة التنزيه فلم يعتبرها من نوع الذوات المعروفة ، واكتفى أن يقول إنها تعنى الموجود الأزلى الأبدى الواجب الوجود الذى لا يحد بحد ولا يدرك بعقل .

ولا يستطيع أن يطلق عليه لفظة (روح) بالمعنى المحدود المعروف له الذى يتزعه من المحسوسات والمعقولات ، لأن الله خالق الروح ، وخالق الشيء يكون أرفع منه بما لا يقدر . أما البيضاوى فلم يقل إن روح القدس في قوله تعالى « وأيدناه بروح القدس » اسم الله الأعظم ، بل قال إنه جبريل . ثم قال : وقيل إن روح القدس اسم الله الأعظم . ولا يخفى أنه أسند هذا القول لغيره ولم يرضه ، بدليل يشاره للتفسير الأول الذى عليه جميع المفسرين .

والمسلم إن اضطر أن يقول إن روح القدس اسم الله تعالى ، لم يفهمه على ما يدل عليه لفظة ، لأنه يعتبر ذلك تشبيهاً له بخلقه ، فيقدر له مضافاً ويقول : إن معناه (خالق روح القدس) . فالتنزيه كما ترى سباح لا يمكن تخاطبه بحول بين العقل البشرى وبين الخلط والخلط في الكلام من العزة الالهية ، فيحتجى به من الوقوع في الصلالات البعيدة التي تخيلها الناس قديما وحديثا ، وأوقفهم في الخلافات الشنيعة ، وجعلت من أديانهم ميتولوجيات لا تحتل النقد ، ولا تثبت على التحصيل ؟

محمد فريد وجري

المدرسة الأشعرية

تمهيد :

كانت لفظة المتكلمين في عصرها الأول تشمل جميع من يشتغلون بالنظر لا فرق فيهم بين صفائي ومعتزلي وجبري ، بل إن المعتزلة قد أخذت تقوى وتتغلب على ما عداها من الفرق حتى كادت تحتكر لفظة « المتكلمين » محتجة بأن الكلام هو النظر العقلي . وبما أن المعتزلة وحدهم هم الذين يحكمون العقل فهم الجديرون باسم المتكلمين دون غيرهم من المتقيدين بعوامل أخرى خارجة عن العقل . وقد تم لهم ما أرادوا من إحراز النصر على الفرق الأخرى بفصل ما ترجم إلى اللغة العربية من منشعات الأجانب التي أيدهم في أكثر ما ذهبوا إليه . وطل هذا شأنهم حتى أعلن أبو الحسن الأشعري مذهبهم الذي كان شبه ثورة قوية في تاريخ الحركة العقلية العربية ، وكاد يقص على كل الفرق التي حادت عن الشريعة السنية ، وقهرها على الانزواء والخموت . وإليك هذه الحركة في شيء من التفصيل :

أبو الحسن الأشعري — حياته :

ولد أبو الحسن بالبصرة في سنة ٢٦٠ هـ — ٨٧٣ م من أسرة يمنية نبيلة معروفة بالشرف والاستقامة منذ عهد بعيد ، إذ كان جده أبو موسى الأشعري من الصحابة الأحناء ، وقد فتح أصبهان وجزءا عظيما من بلاد فارس .

شب أبو الحسن في بغداد حاضرة الملك والعلم ، وكمة الشباب المنعطف إلى الثقافة في تلك المصور ، ثم أخذ يتلقى دروسه العقلية على الجبائي ، وكان رفيقا لابنه أبي هاشم الذين كانا رئيسي فرقتين من فرق المعتزلة ، فكان من الطبيعي أن ينشأ فتانا معتزليا ، وهذا هو الذي حدث : فاعتنق آراء أستاذه ، وظل يؤمن بها ويتناضل عنها في حماس حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان أستاذه ينييه عنه كثيرا في المحاورات العلنية حتى حاز بين معاصريه شهرة فائقة .

وفي هذه الآونة لا يدري إلا الله ما الذي كان يدور بخلفه ويحول مجرى تفكيره بطريقة غامضة خفية ، إذ لم يلبث الناس أن شاهدوا عليه تغييرا فجائيا حيث اعتكف في منزله بصمة أيام لا يرى أحدا ، ثم خرج على أثر ذلك فصعد المنبر في وسط جموع حاشدة من الناس وطلب إليهم أن يصغوا إليه ، فلما فعلوا نزع عيائه ومزقها ثم قال : بني كما خرجت من هذه العبادة أعلن براءتي من كل أخطائي السابقة ، وأصرح بأن جميع آرائي الماضية باطلة .

ومنذ ذلك الحين أخذ يصف المؤلفات المسهية بحمل فيها على المعتزلة والاعتزال ، ويناقش

آراءه القديمة وآراء أستاذه في شيء من العنف . ولقد كان له مع هذا الأستاذ محاورات حدية في الجامع العامة كان من آثارها أن انضم إليه جمهور كبير من التلاميذ والمريدين . وأخيرا توفي في سنة ٣٣٤ هـ — ٩٣٥ م تاركا وراءه تلك المدرسة القوية التي سحقت فرق المعتزلة ، وجذبت الحركة العقلية في ذلك العصر نحو دائرة الكتاب والسنة ، وظلت تناسل الفلسفة مناصرة شديدة ، ثم أنجبت فجر الأمة الإسلامية منذ القرن الخامس وهو الإمام القرألي الذي رأينا فيما بعد ذلك العصر ردوده القيمة على الفلاسفة .

غير أن خصوم أبي الحسن الأشعري كالحنفية والحنبلية والماتريدية قد طعنوا في إخلاصه ، فبينما كان المحايدون الأبرياء معجبين به إلى حد الإفراط ، كان خصومه يعلمون أن الذي حمله على سلوك هذا الطريق الجديد ليس هو الإخلاص للشرعية ، وإعما هو الأغراض الشخصية والرغبة في لفت الأنظار إليه ، واحتجاج كثير من التلاميذ حوله ، وفوزه بمكانة سامية في عصره ، لأنه لو ظل معتزليا لما استطاع أن يتفوق على أساتذته ورفاقه وعلماء الفرقتين : الجبائية والبهشية ، لغول تيار حياته إلى الحجة التي يستطيع أن يظهر فيها . وقد قطعوا في هذا الاتهام شوطا بعيدا ، فنسبوا إليه كتباً سرية زعموا أنه خالف فيها آراءه العلنية ، ولكن لم يثر أحد على شيء من هذه الكتب .

منتحاته :

يروى المؤرخون أن منتجات أبي الحسن الأشعري قد بلغت نحو مائتي مؤلف ، ولكنها فقدت إلا القليل منها . وقد حدثنا الأستاذ « كريمير » أنه قد اطلع من هذه المؤلفات على كتاب « الملع » وأنه كتاب قيم على الرغم من أنه ألف للتلاميذ ، لا لبحوث المسببة . أما ابن عساكر فيصف لنا كتاب « الإبانة » الذي هو - فيما يظهر - أهم بكثير من كتاب « الملع » . وقد ذكر ابن عساكر لنا شيئا من نصوص هذا الكتاب ، ولكن « البارون كارادى فو » يرى أن ما ذكره ابن عساكر من هذا الكتاب هو أقل أحراره أهمية ، إذ أنه لم يحرص فيما استأنس به لتلك الحركة العقلية التي حمى وطيسها في هذا الكتاب القيم بين الأشعري والنظام . ويمتقد البارون أن نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب في المكتبة المتبعة في القسطنطينية .

لم يكبد هذا الامام بعلن أن مهمته هي قبل كل شيء هدم جميع فرق المعتزلة حتى تلقى رسائل الأسئلة من مختلف أنحاء البلاد الإسلامية كخراسان وجرجان ودمشق يستفسر فيها أصحابها عن حلول بعض المشاكل الإسلامية ، فأخذ يجيب عليها بعلم غزير وأسلوب فياض . غير أن أكثر نتائج هذا المحهود العظيم قد فقد . ولولا مؤلفات ابن عساكر والشهرستاني ، والأستاذين المستشرقين : « ميرين » و « اسبيتا » لجهد العالم الحديث جانبا هاما من جوانب

التفكير الاسلامي ، أو لاساء فهمه على الأقل ، لأن التلاميذ — وهم المعتمد إذا فقدت كتب الأستاذ — ليس لهم إلا كتب قليلة يروي الأستاذ « كارادى فو » أنه اطلع على بعض مخطوطات منها في مكتبة باريس وبرلين والياقلاى وإمام الحرمين .

مذهبه :

يمتاز مذهب الأشعرى عن مذهب المعتزلة عبرات هامة ، منها أن الأول يتجه نحو الشرعية ويجعلها غايته المقصودة ، على حين يتلاعب الثانى بألفاظها ، ويتلمهى بتأويل عباراتها الى ما يؤيده فى غرضه ويحقق له هواه . ومنها أن الأول مؤسس على إخضاع العقل للسمعيات على عكس ما يرى الثانى من منح العقل أقصى آواج الحرية فى التفكير . ومنها كذلك أن الأول خالص لمبادئ الأخلاقية التى نص عليها الاسلام ، على حين يكبل الثانى الأمر الى حكم العقل فى تحديد هذه المبادئ وفى الانعاز لها . ومنها أن الأول كان يريد أن يؤسس حديثه على قديم السلف الصالح من أعلام الأمة الاسلامية ؛ أما الثانى فكان يود التخلص من هذا السلف والتحرر نهائيا من كل قديم . ولذلك حين ألف الجبائى تفسيره للقرآن لم يراع فيه الأسلوب العربى الصحيح ، ولم يأبه لآى مأثور من مآثورات السلف ، حتى قال فيه أبو الحسن ما معناه : إنه ألف تفسيراً للقرآن ، هو فى معناه معارض متعارض مع الوحي الالهى ، أما ألفاظه فهى بلغة قرية جباه البعيدة كل البعد عن لغة القرآن المقدسة ، وهو لم يشرفه الى أى أثر من آثار السلف ، وإنما اعتمد فيه على وحيه الخاص وعلى وحي الشيطان .

ولا ريب أن هذه العبارات توصلح تماماً للفروق الجوهرية بين المذهبين ، لآى الموضوع نحسب ، بل وفى الشكل أيضا .

أما المشاكل التى كانت قائمة بين المدرستين فأهمها ما يأتى :

(١) ثبات صفات الله أو نفيها . (٢) حرية الفرد أو حرمة ، وإلى أى حد تلك الحرية أو ذلك الحر . (٣) إمكان رؤية الله فى الآخرة أو استحالتها . (٤) وجوب فعل الصالح أو الأصلح أو اللطف على البارى أو عدم وجوبها . (٥) معرفة الحسن والقبح بالعقل أو بالشرع . (٦) استيجاب الطاعة للتوابع والمعصية للمعاقب . (٧) الحكم على فاعل الكبيرة الذى لم يتب منها . (٨) تركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ، أو من أجزاء قابلة للتجزؤ قبولاً غير متناه ، وفيها الخلاف حول الجوهر والعرض .

هذه أهم نقط الخلاف بين الأشعرية الأولى وخصومها من أهل الاعتزال . وإليك رأى أبى الحسن فى المشكلة الأولى ، وهى مشكلة إثبات الصفات أو نفيها ، قال أبو الحسن : « البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدر ، حى بحياة ، مرید بإرادة ، متكلم بكلام ، صميع بسمع ، بصير ببصر » . وله فى البقاء اختلاف رأى ، قال : « وهذه صفات أزلية قائمة بذاته ، لا يقال . هى

هو ولا غيره ، ولا لاهو ولا غيره . والدليل على أنه متكلم بكلام قديم ومريد بإرادة قديمة ، قال : « قام الدليل على أنه تعالى ملك ، والملك من له الأمر والنهي ، فهو آمر وناه ، فلا يخلو إما أن يكون أمرا بامر قديم أو بامر محدث ، فإن كان محدثا فلا يخلو إما أن يحدثه في ذاته أو في محل ، أو لا في محل ، فيستحيل أن يحدثه في ذاته ، لأنه يؤدي إلى أن يكون محلا للحوادث ، وذلك محال . ويستحيل أن يكون في محل ، لأنه يوجب أن يكون المحل به موصوفا ، ويستحيل أن يحدثه لا في محل ، لأن ذلك غير معقول . فتعين أنه قديم قائم به ، صفة له ، وكذلك التقسيم في الإرادة والسمع والبصر » ، قال : « وعنه واحد يتعلق بجميع المعلومات : المستحيل ، والحائز ، والواجب ، والموجود ، والمعدوم . وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده من الجائزات . وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الصفات . وكلامه واحد ، هو : أمر ونهي ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعد . وهذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات في كلامه ، لا إلى عدد في نفس الكلام والمعارات ، إذ اللفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمذكور قديم أزلي . والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو ، كالعرق بين الذكر والمذكور . فالذكر محدث والمذكور قديم » .

أما رآيه في المشكلة الثانية وهي حرية الفرد وإلى أي حد ، فهو يتلخص فيما يلي : قال : « والمبدأ قادر على أفعال العباد ، إذ الإنسان يحد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة ، وبين حركات الاختيار والإرادة . والتفرقة راجعة إلى أن الحركات الاختيارية حاصلة بحيث إن القدرة تكون متوقفة على اختيار القادر ، ولهذا فالتسكتب هو المقدر بالقدرة الحادثة ، والحاصل تحت القدرة الحادثة » . ويحدثنا الشهرستاني أن أبا الحسن يرى أنه : « لا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والمرض . فلو أثرت في قضية الحدوث ، لأثرت في قضية حدوث كل محدث حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدي إلى تحوير وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة ، غير أن الله تعالى أخرى سننه بأن يخلق عقب القدرة الحادثة أو تحتها ومعهما الفعل الحاصل إذا أَرَادَ العبد وتجرد له ، وسمى هذا الفعل كسبا ، فيكون خلقا من الله تعالى إبداعا واحدا ، وكسبا من العبد مجمولا تحت قدرته » .

أما مشكلة إمكان رؤية الله واستحالتها في الآخرة ، فهناك ما أثر عنه فيها :

« إن كل موجود يصح أن يرى ، فإن المصحح للرؤية إنما هو الوجود ، والبارئ تعالى موجود فبصح أن يرى ، وقد ورد في السمع أن المؤمنين يرونه في الآخرة ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » إلى غير ذلك من الآيات والأخبار . ولا يجوز أن تتعلق به الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع أو على سبيل الانطباع ، فإن

ذلك مستحيل . وله قولان في ماهية الرؤية : أحدهما أنه علم مخصوص ، ويعنى بالمخصوص أنه يتعلق بالوجود دون العدم ، والثاني أنه إدراك وراء العلم لا يقتضى تأثيرا في المدرك ولا تأثيرا عنه .

وقال في نقطة وجوب الصلاح على الله أو عدمه مانعه : « لا يحب على الله تعالى شيء ما بالعقل : لا الصلاح ولا الإصلاح ، ولا اللطف ، وكل ما يقتضيه العقل من الحكمة الموجبة فيقتضى نقيضه من وجه آخر . وأصل التكليف لم يكن واجبا على الله تعالى ، إذ لم يرجع إليه نفع ، ولا يدفع به عنه ضرر ، وهو قادر على مجازاة العبيد ثوابا وعقابا ، وقادر على الاتصال عليهم ابتداء تكريما وتفصلا ، والثواب والتفضل والنعم واللطف كله منه فصل ، والعقاب والعذاب كله عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وانبعث الرسل من الفضايا الجائزة لا الواجبة ولا المستحيلة » .

وقال أيضا في مشكلة الحسن والقبح - « والعقل ليس يوجب شيئا ، ولا يقتضى تحسينا وتقييحا ، ذرقة الله تعالى بالعقل تحصل ، وبالسمع تحجب ، قال الله تعالى « وما كنا معذنين حتى تبعث رسولا » . وكذلك شكر المسمم وإثابة المطيع وعقاب العاصي يجب بالسمع دون العقل » .

وقال في نقطة استيجاب الطاعة والمصية للثواب والعقاب : « وهو المالك في حلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فلما أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا ، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشيء في غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور » . وقال في الحكم على فاعل الكبيرة مانعه . « الإيمان هو التصديق بالقلب ، وما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه ، فمن صدق بالقلب أى أقرب بوحداية الله تعالى واعترف بالرسول تصديقا لم يما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب ، صح إيمانه حتى لو مات في الحال لكان مؤمنا ماحيا ، ولا يخرج من الإيمان إلا بإسكار شيء من ذلك . وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه الى الله تعالى : إما أن يغفر له برحمته ، وإما أن يشفع فيه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يجوز أن يخلف في النار مع الكفار ، لما ورد به الصمع من إخراج من كان في قايه ذرة من الإيمان » .

أما نظرية الجوهر الفرد ، فقد استعارها المتكلمون من « ديموكريت » الذى وصل إليهم مذهب عن طريق مؤلفات أرسطو ، غير أن ديموكريت كان يرى أن هذه الجواهر الفردة والذرات أرلية لا خالق لها ، وأبدية لا تدثر فأخذوا منه أصل النظرية ، ونكروا عليه قوله

بزلتها وأدبها ، مستدلين على لطلان رأيه بما احتج به عليه خصومه من فلاسفة الإغريق كاستحالة قبول الأزل للأعراض الحائلة والصور الزائلة على نحو ما هو مشاهد من تشكل تلك الجواهر الفردة بصور أخرى بعد تركيبها ، وغير ذلك من البراهين التي ليس هنا محل الإفاضة فيها .

قال الأشعرية إداً ، بوجود الجزء الذي لا يتجزأ ، وحزموا محدوده بعد العدم عن خالق أزل ليس حسماً ولا هو في حسم . وعدم أن هذه الذرات لا تتجزأ ، لأنها لا كم لها ، وأن الأجسام توحد وتعدم باحتجاج ونفرد هذه الذرات ، وأن الباري لم يكف عن خلقها ، بل لا يزال يخلق منها كلها عن له أن يفعل . وهذا الاحتجاج وذلك التفرد مسيبان عندم عن الحركة الدائمة من تحريك الباري لها . وهم يقولون كما قال ديموكريت بالفراع الذي لا نستطيع الذرات التحرك بدونه .

وكما أن الأجسام مؤامة من الجواهر الفردة ، كذلك الزمان مؤلف من لحظات فردة غير قابلة للقسمة يفصل بينها حلاء من الزمن كالحلاء الموحد في المكان .

وعندم أن الجواهر محل للأعراض ، وأن العرض لا بدوم لحظتين أو حوهرين مردين من حواهر الزمن ، وأن الباري لكي يدعمه بمجده في كل لحظة وليس هذا التماقب خاصاً بالأمور الإيجابية لا يتعداها الى ما يظهر في الخارج سلبياً كأن يتصور مثلاً أن السكون هو انعدام عرض الحركة ، أو الجهل انعدام عرض العلم ، أو الموت انعدام عرض الحياة ، كلا ، فإن السكون والجهل والموت أعراض إيجابية يخلفها الباري ، لتعقب أعراض الحركة والعلم والحياة .

ومن ثم ما بلغت نظر الباحث في فلسفة المتكلمين هو إسكارهم البات لضرورة الأسباب والمسببات ، وحرهم بأن الباري يعمل ما يشاء بمحض اختياره ، إن بسبب وإن مباشرة دون أن يتميز الأول من الثاني بأية ميزة . ويترتب على هذه النظرية شيان : أولهما هدم القانون الطبيعي من أساسه ، وثانيهما إمكان أن يتحقق في الخارج كل ما يخطر بمخيلتنا من الممكنات الذهنية كما مكان أن تكون النار مثلاً مبردة والتلج محرقاً . وقد سخر الفلاسفة من هذه النظرية شعورية لا ذعة ظهرت آثارها في ذلك الأسلوب القاسي الذي حمل به إخوان الصفاء على المتكلمين ، ورموم بالجهل المطلق في علم الطبيعة ، وسلقوم بألسنة حداد ، لأنهم في نظرم كانوا يتعرضون لما لا يحسنون ، ويهرمون بما لا يعرفون . وليس إخوان الصفاء وحدهم هم الذين هاجوا المتكلمين في هذه المقطة ، بل ابن رشد أيضاً قد وجه إليهم من سهام النقد أحدها وأقساها ١٢

الركنور محمد مغرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الآراء العالمية في الإسلام والمسلمين

الإسلام في العالم ، الحركة السياسية ومكانة أوروبا وفرنسا



نشر المسيو أرتور بيلوجران (Arthur Pellegrin) العضو بالمجلس الاستشاري الكبير في تونس ، كتاب أسمى (الإسلام في العالم) أتى فيه على آرائه في الإسلام وما يؤدي إليه ، وحالات المسلمين الاجتماعية والأدبية والسياسية ، ويريد أن تنقل بعض هذه الآراء هنا للتعقيب عليها بما نراه مناسبا لها تأييدا أو تفنييدا ، لأن الكتاب الأجاب لجهلهم اللغة العربية وحقيقة الإسلام ونفسية المسلمين ، كثيرا ما يخطئون في أحكامهم عليهم . فن الآراء التي أبداهها المسيو أرتور بيلوجران في كتابه المذكور قوله .

« من العدل أن نقول بأن الفتح الفرنسي قد أفاد في اتساع نطاق الديانة المحمدية في أفريقية (يريد تونس) ومراكش والحرائر ، أكثر مما فعل على منع تقدمها . وبفصل السلام والسكينة التي نشرها في تلك الأقطار زاد تبادل الآراء بزيادة المعاولات التجارية ، وسهولة انتقالات الناس » .

ثم شرع المسيو أرتور بعمل حركة تنشر الإسلام في أفريقيا فقال

« إن العامل النفساني (البسيكولوجي) الهام في انتشار الإسلام ، هو أن هذا الدين يمتزج لدى الرجل الأفريقي مخالفا لديانة الرجل الأبيض المستولى على بلاده ، وهي المسيحية . وقد شوهد أن القائل الشديدة النهج هي التي ترحب أكثر من - رواها بالمعتقدات الإسلامية ، على حين أن الجماعات ذوات الطبيعة الهادئة السلمية تبقى كثيرة التشبث بديانتها الوثنية » .

وقد تداول الأستاذ جورج جوبو أحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسي هذا الكتاب بالتحليل في جريدته (التارخ الاستعماري) فقال :

« إن المسيو أرتور بيلوجران يصح أمام أعيننا الوجوه المختلفة لمسألة هي غاية في التعقد والدقة . فيرى من ناحية ثقافة إسلامية تقوم على رُبط اجتماعية قديمة جدا امتزجت بالمواطف الدينية ، وهذه الثقافة لا ينسحب منها إلا نور ضئيل . ويرى من ناحية أخرى ثقافة أوربية يعتبرها المسلمون كافرة . ولما كان المسلم يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية ووقفة تراه لا يرتاح إلى ما يسميه المسيو أرتور بيلوجران بالذهب البشري ولا إلى مظهره الهائي وهو تطلب المقدرة للحصول على الأغراض الأرضية .

« ولكن في الوقت نفسه تولدت في عقول عدد من المسلمين رغبة ملحة في الأخذ ببعض

عناصر الثقافة العربية كالعلوم المقررة والمعارف السياسية ، لا باعتبار أن هذه الثقافة غاية ولكن باعتبار أنها وسيلة وأداة . « فقد ظن هؤلاء المسلمون ، كما يقول المسيو ارتور بيللوجران ، أن لهذه الأداة حاسة ذاتية ، وكما نجحت في أيدي الأوروبيين فقد وجب أن يتوقع لها مثل هذا النجاح في الشرق » . ولكنهم سرعان ما علموا أنهم كانوا وهمين . فإن الاسلام عند ما آنس إن هذه الحوافط الروحية والاجتماعية قد تحللت على أثر ما حدث من التماسح بين الثقافتين ثلثه للخطر وفقر واستعد للمقاومة » .

« ولا يغيب عن الأذهان أن إيطاليا منحت مسلمي طرابلس ورقة في سنة ١٩١٩ قانونا يعتبر مثالا يصرب في حب الحرية ، مقتضاه اعتبارهم إيطاليين مواطنين في داخل بلادهم ، وسمح لهم بشروط معينة أن ينتقلوا من هذه الحالة الى أرقى منها ، فيصبحون مواطنين في مملكة المملكة دون أن يتنازلوا عن قوانينهم الشخصية الخاصة ومسألة الوراثة . ولكن لم يلبث هذا القانون أن ألغى بسبب محافة المسلمين له . فقيم بهمهم هذا البرلمان المحلي الذي يسمح لهم هذا القانون بدخوله ؟ إن عرب الحيام كعرب القصور ، كما يقول المسيو ارتور بيللوجران ، لا يعرفون لهم سلطة غير التي تكون لرؤسائهم السياسيين والدينيين . وهؤلاء في حاجة لأن يشعروا بوجود رادة قوية تزعمهم عن الوقوع في مفاصلهم الموروثة عن أسلافهم . يضاف الى هذا أن رؤساء القبائل وأئمة الزوايا يعارضون ، حرصا على قائمتهم الشخصية ، قيام أى نظام ديموقراطى لديهم لأنه يلاشى الامتيازات التي يتمتعون بها . ولما كان الشعب لا يرى الأشياء إلا من خلال رؤسائه ، كان من المحتم أن يصادف هذا القانون حقد جميع المسلمين الليبيين عليه .

وقد حدثت هذه الظاهرة عينها في تونس ، فإن سياسة التماسح في منح التونسيين حقوق الوطنية الفرنسية التي أقرتها فرنسا حياهم ، رفضها الدستوريون باعتبار أنها تخالف الاسلام ، ونهتجى الوسائل لتقصير المسلمين . وبالفعل حتى في عديم حواجز دفين جثت من يقبلها منهم في مقابرهم ، فاضطرت الادارة الفرنسية لأن تنشى لهم مقابر خاصة .

« ولم نعتد الجرائر هذه السيرة عينها فإن العلماء هنالك وإن كانوا من أنصار هذا التطور السياسى لإخوانهم في الدين ، ويؤيدون الذين يرجون للعزائرين الدخول في الوطنية الفرنسية ، فإن المرابطين وهبة الدين يرجون كما يقول المسيو ارتور بيللوجران أن يحتفظوا بالقانون الاسلامى كاملا ، ولا يأبهوا بالحقوق السياسية التي يكتسبونها بهذه الوسيلة بل يعترضونها أحيال أعدت لهم لإبعاد المسلمين عن تقاليدهم الدينية » .

(مجلة الأزهر) إن المسائل التي يعالجها المسيو ارتور بيللوجران والمسيو جورج جويو سياسية محضة لأهانتهم لا مستأمر وحقوق الأمم ، ولكنهما أقحما فيها الاسلام إقحاما لا ترى له

مبررا . فلو كانت الشعوب التي استولى الفرنسيون على بلادها ليست مسخرة لوجد ما يحده الآن منها ونحن إذا تكلمنا عما أبداه من الآراء فأنا نفعل ذلك بمد حذف الناحية السياسية منها .

ذكر المسيو بيلوجران أن الاحتلال الفرنسي قد أخذ في اتساع نطاق الديانة الإسلامية في تونس والجزائر ومراكش ، ولا ندري كيف تجاهل أن الإسلام ينتشر بهذه القوة نفسها حيث لا يوجد الفرنسيون من القارة الأفريقية ، ومن سائر القارات العالمية ذلك لأن للإسلام قوة انتشار ذاتية لا تقف به عند حد . فهو دائم الحركة كالسيل الآتي لا يصدده عن بلوغ مداه شيء . فليس الفصل في انتشاره لآى ضرب من ضروب الاستعمار الأوربي .

ويقول إن المسلم يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية وقتية فلا يرتاح للمذهب البشري الذي مؤداه تطلب القدرة للحصول على الأغراض الأرضية .

وهذا القول فيه نظر فإن المسلم وإن كان يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية بجانب الأغراض العلوية ، فلا يعني ذلك أنه يحول على احتقارها وعدم الاشتغال بها . ولا يغال المسيو أرتور بيلوجران إلا طارفا بأن المسلمين الأولين بجانب كلفهم بالأمور العلوية ، عوا بالأمور الأرضية هناية أوجبت لهم زمامة العالم في سائر معدودة . وهم لم يغنوا بذلك من ناحية حربية محسب ، ولكن من جميع النواحي التي يستدعيها العمران البشري ، من علم وصناعة وفنون ، حتى أصبحوا أغنى دون سواهم . فإذا كانت توجد جماعات إسلامية اليوم لا تنهب للامور الأرضية مثل هناية أسلافهم ، فلا يكون لذلك معنى غير أنهم ليسوا على الطريق السوي من دينهم .

ويقول المسيو أرتور بيلوجران أن طائفة من المسلمين لما أخذت بالثقافة الغربية ، ورأى الإسلام أن الحواظ الروحية والاجتماعية لأهله قد تحللت بسببها ، تنبه لخطر واستعد للمقاومة . ونحن نحب من تظاهر المسيو أرتور بأنه لا يهم السبب في ذلك . السبب أن الثقافة الغربية تعطي هؤلاء الأقوام لغة غير لغتهم ، ويدس لهم فيها ما يوهن من قوميتهم ، ويشكك في عقيدتهم ، ويحل من حواظهم الأدبية . فلذلك يهيب بهم الإسلام إلى حظيرة صناعتهم على النحل والتلاشي . ونقاؤهم وحدة اجتماعية متميزة متأخرة في مآرقها ، حيرها من الفناء في وحدات أخرى باسم الثقافة والمدنية .

هذه مبرة عظيمة للديانة الإسلامية فإنها بما تحيط به أهلها من الحواظ ، لا تسمح بأن تعدو عليهم المحلات الأخرية من أى نوع كانت . ويرجى لكل الجماعات الإسلامية فصل هذه الحواظ أن تسترد وحدودها الاجتماعي ومجدها التال ، وتعود إلى ما كانت عليه جماعات قديمة قوية تشاطر الأمم الحياة الراقية ، وتأخذ حظها من تشكيل المدنية . محمد فرير ومجدي

ضيق المجال في هذا العدد لم يمكننا من إعطاء هذا الباب حقه من الاستيعاب .

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا في مقالنا السابق طرفاً مما يدخل في حدود الناطر من تصرفات

فنذكر اليوم أن العلماء قد وضعوا لذلك ضابطاً كلياً ، فنقل صاحب البحر أن الضابط الكلي لما يجوز للناطر من التصرفات أن يعمل كل ما فيه فائدة للوقف ومنفعة للموقوف عليهم مع ملاحظة شرط الواقف إن كان معتبراً شرعاً ، وتحت هذا الضابط الكلي تندرج أجزاء كثيرة يأتي الكلام عنها تبعاً لذكر مناسباتها ، وقد أثبتنا على حالات كثيرة يملكها الناطر وتقع في اختصاصه في المقال السابق ، فليس بنا من حاجة إلى ترديدها مرة أخرى .

أما ما لا يجوز للناطر من التصرفات فقد نوعه العلماء على أنواع كثيرة ، وفي حالات كثيرة ، من ذلك أنه لا يجوز له أن يخرج أحداً من الموقوف عليهم ولا أن يدخل معهم أحداً ، ولا أن يخصص واحداً منهم بالغة ، ولا أن يستبدل عقارات الوقف ، ولا أن يفضل بعض الموقوف عليهم على بعض إن كانوا محصورين إلا إذا شرط الواقف له ذلك في كتاب وقعه ، فلو كانوا غير محصورين جاز التفضيل . ومثال ذلك أن الواقف لو جعل وقعه على فقراء قرأته وفقراء الجيزة مثلاً من بينهم لفساكين ، كان للأمر وجهان فإن كانت أفراد كل من السوعين محصورة قسمت الغلة كلها على عدد رؤوسهم بدون تعاضل ، ولا يملك ناطر الوقف في هذه الحالة بوماً من التعاضل ضرورة أن الوقف عليهم في هذه الحالة بمنزلة الوصية والوصية تنفذ حسبما نص عليه الموصي الموصى له ، وإن كانت أفراد كل من السوعين غير محصورة قسمت الغلة نصفين لكل نوع نصفها ، فما حصل كل نوع جاز للناطر فيه أن يفصل بعض الأفراد على بعض ، كما حاز له أن يعطى البعض ويحرم البعض الآخر لأن المقصود من الوقف القرية إلى الله ، والقرية تتحقق بإعطاء البعض كالصدقة سواء سواء ، أما إذا كانت أفراد أحد النوعين محصورة دون أفراد النوع الآخر قسمت الغلة بين الفريقين على أن يحصل للفريق المحصور أسهم بعدد أفرادهم ، وأن يحصل للفريق غير المحصور سهم واحد . فمثلاً لو كان عدد أفراد الفريق الأول تسعة قسمت غلة الوقف على عشرة ووزعت تسعة أسهم على عدد أفرادهم وكان لناظر الوقف حق التفضيل في السهم الذي خص الفريق الذي لا يحصر ، لأن ما ينحصر قد حدد الواقف في كتاب وقعه ، أما ما لا يحصر فقد أطلقه الواقف من الحصر ابتغاء القرية والتصدق ، فكان للناطر أن يملك هذا الحق فيمن لا ينحصر من الأفراد الموقوف عليهم ، وألا يملك الحق في المحصر كما هو ظاهر . ولا يجوز للناطر أن يرهق عقار الوقف بسبب دين على جهة ، أو على المستحقين له أو عليه ،

لأن ذلك الرهن يؤدي الى بطلان جهة الوقف عند المعز عن الوفاء بالدين وبيع الرهن لسداده ،
وكم كان هذا التصرف ولا يزال سببا من الأسباب المباشرة لإلغاء أعيان كثيرة موقوفة على
المستحقين أو ناظر عين الوقف المرهونة عن الوفاء بما عليها من الديون ، فقضت المحاكم
المختلطة ببيعها وبقض الوقف ، وضاعت على المستحقين حقوقهم ، وفقد منها وجه البر والاحسان
من هذا التصرف البغيض . ولذلك أطبق علماء الفروع على أن الوقف لا ينعقد في عين مستغرفة
بديون الدائنين ، ومع العلامة صاحب الفتاوى المهدية انعقاد الوقف لأمين عليها جزء من الدين
وفيها احتمال أن هذا الدين لا يوفى إلا بعد طول وقت ومشقة ، فالأوقاف المرهونة معرضة
أبدًا الى ضياع العين . من أجل ذلك منع الناظر من هذا التصرف المتعلق بها .

وليس له أن يودع مال الوقف عند غير عياله ، ولا أن يقرضه إلا إذا كان ذلك أحرز له
وأحفظ من مساكه عنده ، فإن أودعه عند غير أمين فصاع فعليه الصمان ، وكذلك إن أقرضه
فصاع بموت المستقرض مقلما ، ما لم يكن الإقراض بأمر القاضي ، فإن كان بأمره فلا صمان
على المذلول .

وليس له أن يؤثر الوقف لنفسه ضرورة أن الشخص لا يكون مؤجرا ومستاجرا في آن
واحد . ونقل صاحب العناية أن عينا موقوفة على وقفها ناظران في هذه الحالة لا يجوز لأحد
الناظرين أن يستأجر العين الموقوفة من الناظر الآخر على رأي أبي حنيفة ومحمد ، إذ لا يجوز
انفراد أحد الناظرين عن الآخر بالتصرف ، ولا يمكن أن يفرد أحدهما بشيء دون الآخر .
فالتصرف من أحدهما تصرف من الآخر كما هو ظاهر .

وليس له أن يعمل في عمارة الوقف ما يعمله التجار أو الساء في مقابل أجر ، إذ لا يمكن
أن يكون أجيرا ومستاجرا في شعص واحد . وروى العلامة الميبداني لو أذنه القاضي كان
مستحقا للأجر . وعلل روايته بأن القاضي في هذه الحالة يعتبر مستأجرا والناظر يعتبر
أجيرا .

وليس له أن يرد في عمارة الوقف عن الحالة التي كان عليها عند ضبط الاشهاد إلا إذا نص
عليه الواقف أو رضى المستحقون تلك الزيادة ، ولا أن يرد في مرتبات أرباب الشعائر
وأصحاب الوظائف المعينة لهم من قبل الواقف أو من قبل القاضي .

وليس له أن يزرع في أرض الوقف أو يبنى فيها أو يغرر لنفسه أشجارا ، كما ليس له أن
يبيع أنقاض الوقف أو شجره أو ما يحيط به من ملحقاته إلا بأذن من القاضي . وليس للقاضي
أن يأذن إلا في أحوال مخصوصة كشفنا عنها في بحوثنا السابقة . وسنمود الى بقية البحث
في الأعداد المقبلة ، إن شاء الله

عباس ط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلام المملك ملك الكلام

إن التجديدات العظيمة الشأن التي يقوم بها حصرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، في علاقته بالامة في الناحيتين الدينية والديوية ، تنشر بحق تحشيا نحو العهد الذهبي للدولة الاسلامية أيام زعامتها العالمية .

من هذه التجديدات الجليلة الشأن ، البعيدة الشأو ، ما يتفصل به جلالتة من التحدث الى الامة في أيام أعيادها الدينية ، وذكرياتها التاريخية ، مما لا يستطيع ، مهما بالغنا ، أن نصور حسن وقعه في قلوب الناس ، وما يحدته فيهم من النزوع الصادق الى العمل بتصامح جلالتة وإرشاداته القيمة .

وإن ما أبداه جلالتة من ذكر ما حباه الله من الارادة القوية ، والتصميم الصارم ، في تنفيذ ما يعتقد أنه نافع للامة بعد إمالة الروية فيه ، وتقليبه على جميع وجوهه ومحتلاته ، والاستماع الى آراء رجال دولته ، وأركان مملكته ، لتصريح من جلالتة خطير الشأن تقابله الامة بالشكر والدعاء ، وتود لو كان كل مسئول عن عمل يأتي بمجلالتة في دائرة عمله ، فيكون للامة من وراء ذلك مجموع من القوى العاملة تبلغ بها أرفع مكانة في سنين معدودة .

ثم إن ما أسداه جلالتة من العطف على الشبهة المصرية ، وما أسد إليها من عهدة العمل لإعلاء كلمة الوطن ، وما بينه من النواحي التي تذلل فيه نشاطها ، لما لا يزول أثره من أدهان الشبان ، وسيكون له من الثمرات ما لا سبيل الى تحديده بحد .

وإننا لنحقق رعبات جميع قرائنا في تدوين الحديث الكريم الذي تفضل به جلالتة في مستهل هذا العام الهجري ، جملة الله فائحة إقبال ويمن على جلالتة ، وجميع المسلمين . وليك الخطاب الملكي الكريم :

شمسي المزي .

أحببت ونحن نستقبل العام الهجري الجديد ، أن أهنئكم والعالم الاسلامي بهذا العيد السعيد ، مبتهلا الى الله أن يجعله عام خير وسلام وإقبال على الجميع ، وأن يقرنه بتوفيق الجدد ، وبلوغ القصد .

إن هذا اليوم الذى يتمثل فيه أماننا حادث الهجرة العظيم ، بما فيه من العظمة البالغة والمعاني السامية ، وبما كان له من الأثر الخالد فى بث روح العزيمة والإخاء ، والمغامرة فى سبيل الحق ، ليستحق منا تعجيدته بالعمل الصالح ، واننوجيه النافع لخير الانسانية .

وإني لطيب لى أن أشير الى ما سيتم باذن الله وحيل رعايته ، فى مستقبل هذا العام المبارك ، من عقد أوامر المصاهرة ، بين الأسرتين السكريعتين فى إيران ومصر ، مما يزيد فى إحكام روابط الإخاء والمودة بين الشعبين ، فوق ما يربطهما من الصلات الأدبية والثقافية منذ القدم .

شعبى العزيز :

لم أتحدث إليكم قبل اليوم عن نفعى ، وكنت أعد ذلك من سبق الحوادث ، ولكن هذه الفرصة قد أتاحت لى أن أتحدث إليكم قليلا فى ذلك ، فتزدادوا معرفة بى ، وركونا الى .

إن سر النجاح هو الثقة والایمان ، ومن لا ثقة به ولا إيمان له لا رجاء فيه . فعلى الذين وثقوا بى أن يعتمدوا علىّ ، إذ فى ذلك كل الخير لهم .

إننى مع إعجابى العظيم بوالدى - طيب الله ثراه ، ولعمدة برحته - قد أكون خالفته فى بعض طباعه ، ولكننى أؤكد أننى قد احتفظت بأبرز هذه الطباع : فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر فى أحد ، إذا تبينت صواب أمر واعتقدت - بعد تقليب وجوه الرأى - أنه فى صالح شعبى أفرادا وجماعات .

وإن تقبى بنفسى ، وتوكلى على الله ، هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ، ويوجهنى الوجهة التى أختارها .

يبد أن هذا لا يجمع أن أستمع لأراء ذوى الخبرة من الرجال ، شأن كل إنسان يتحرى وجوه الصواب .

إننى أومن - ومرت الأيام يؤيد ريمائى - أن شباب مصر المتوثبة للمجد ، سيكتبون مصيصة خالدة فى تاريخ الوطن ، وفى استطاعتهم أن يصنعوا من هذا الوطن العزيز ، مصر العظيمة المتحدة التى هى آمالنا وأحلامنا جميعا ، وعلى الشباب وحده تحقيق هذا الحلم .

ولكن انتبهوا ، فالطريقة التى تتبعونها لا تحقق أملنا هذا ، ولا بد من العمل المتواصل ، فى جو يسوده الهدوء ، والإفادة من الرؤوس الناضجة ، واحترام النظام .

وليكن هدفكم : سعادة المجتمع ، ومصر القوية ، القوية فى نفسها ، وفى أبنائها ، والمستعدة لإعلاء كلمتها ، وفرض احترامها على من يعبت بعزتها .

شمسي المحبوب :

كم كنت أحب أنكم بعد أن معتم هذه الكلمات تدكرونها ، ليرجع إليها كل منكم بين الوقت والآخر ، حتى لا تأتي عليها يد السيان !

ولصيحتي التي أسديها الى كل مصري ، مخلص لوطه ومليكه : أن يكون ذا ثقة بالله ، وبنفسه ، وبمليكه .

والسلام عليكم ورحمة الله

خطبة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

في الجامع الأزهر احتفالاً بفاتحة العام الهجري

—

احتفلت مشيخة الأزهر الجليلة بفاتحة السنة المحمدية الجديدة ، فاحتشد في الجامع ألاف مؤلفة من أعلام العلماء والوجهاء وكبار الموظفين والطلبة ، وكلهم أنظار شاحصة إلى المنضدة التي عليها الميكروفون ، ترقبا لسماع كلمة من كلمات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، من التي عودم سماعها في أيام الاسلام المعدودة . فما وافت الساعة الثامنة حتى نهض فضيلته تحوطه السكينة والوقار ، وثقى الخطبة التي يراها القراء عقب هذه الأسطر . فكانت كلماتها تنفذ من الأسجاع إلى القلوب فتتمدها بما تتطلع إليه من بصيرة في الدين ، وتزوع إلى العمل ، وتوفر على القضية ، مما أوفر في نفوس سامعيه أن العالم الاسلامي لو رزق خطباء كثيرين من هذا الطراز ، الجامع بين النال والطريف من روائع العلم والحكمة ، والتقديم والجديد من عوامل التأثير في النفوس ، لقصوا على ما يقيم ظهورهم من البدع ، وينقل خطاهم من التقاليد الصارة ، ولثم تحردم الدين الحق بأسرع مما يقدره لهم أرْحَى المتفائلين . وناشرها هنا لتحل مع الكلمات الخالدة للكرام الخالدين .

قال حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم . السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وصلوات الله عليك وعلى إخوانك الأنبياء ، وآلِكَ الأصفياء ، وصحبك الاتقياء ، ومنعبيك الأوفياء .

أي سيدي محمد بن عبد الله . ليس أتباعك تحسب هم المديسين لك مالهدي والرشد ، والعلم ولنور ، والحرية العقلية ، والحرية الاجتماعية ؛ وليس أتباعك تحسب هم الذين قبسوا من نارك واستضاءوا بنورك ، فلقد جاء الغيث من سحبك فنلقاه أقوام تطهروا به ، وبردوا غلة الظل ، وسلك الله بفضله يسابع في الأرض ، فصخرت عند أقوام انتقموا بها ولم يعصوا أنها من غيثك وأنها من سحبك . فكم لك من يد على من أحبك ومن لم يحبك ، على من عرفك وعلى من لم يعرفك ، وكم لك من نعمة ، وكم لك من فضل .

قد علم الله طيب عنصرك ، وثقاء جوهرك ، وصفاء سريرتك ، ومصاء عزيمتك ، وقوة إرادتك ، وشدة أمانتك ، وطول أناةك وصبرك ، وبعدك عن الدنيا ، وقربك منه ، وشدة اتصالك به ، فاختارك أمينا على وحيه ، مؤديا لرسالته ، فصبرت وصابرت ، واحتملت واجاهدت ، وكان الله لك معينا ، وكان الله لك نصيرا ، وكان الله لك هاديا ومرشدا .

ولقد تولاك الله إذ وحدك بقيا فأوى ، ووجدك ضالافهدى ، ووحدك مائلا فأغنى ، وشرح

صدرك ، ورفع ذكرك ، وأعلى قدرك . ولقد ثبتك في مواضع تزل فيها الأقدام وتحار فيها الأقدام ، فصمدت أمام الباطل رافعا راية الحق ، واعتصمت بحبل الله في مواطن تزيغ فيها الأبصار ، وكان الله مولاك ، وحبرين وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير .

لقد وصفك الله في كتابه — وذلك حسك — بأنك على خالق عظيم ، وقلت وأنت أصدق قائل من الخلق : « أدنى ربي فأحسن تأديبي » فإذا نقول فيك بعد هذا ؟

ولقد كان من حسن الأدب أن تكف عن الفول ، وأن تردد قول الله فيك ، لكننا نجيبك وقد امترح حبك بدمائنا ، وخالف قلوبنا ، فلنا العذر ، والله عليم ، والله غفور رحيم .

سيدى رسول الله : كل جانب من جوابك مشرق مضي ، وكل ناحية من نواحيك بعيدة المدى مترامية الأطراف ، بعيدة الغور ، وليس من السهل على القائل أن يقول ، فشكل حديث مع هذا الجلال حقير ، لكننا محبون ، يقبل منا ما تقدم ، والله هو المطلع على السرائر .

سيدى إمام الأنبياء : بيا لك الموطن ، ولم يطق الباطل صبرا على ما أنت عليه من الشدة في الحق ، وأدار أهلك الرأى فيك فلم يقيموا إلا بالخلع منك ، وإهراق ذلك الدم الزكى ، ونقض ذلك الهيكل المقدس ، وإطعام ذلك الدور . لكن لك عقلا راجعا ، ورأيا واضحا ، ومراعاة تصل بها إلى أحماق القلوب ، وخفيات الضمائر ؛ ولك صديق كريم عند ذى العرش مكين ، لا يملكك إلى نفسك ، ولا يخفى بينك وبين الأعداء ؛ ولك رب عزيز رحيم ، أذكرك لوجهه ، واصطفاك لرسالته ، وأراد أن تكون حاتم الأنبياء ، وأن يكون هدى العالم على يدك ، فكانت الهجرة ، وبها وقى الله عبده وحبيبه وصفيه وحليته ، وبها انساح الإسلام في الأرض ، يحيى مواتها ويخرج نباتها ، ويورق أشجارها ، ويطلع ثمارها ؛ وبها بلغت الإنسانية آخر طور من أطوارها ، ويرى الإنسان من معبودات كثيرة إلى معبود واحد ، ومن آرباب متعددة إلى رب واحد ، يناجيه في كل صلاة : إياك نعبد وإياك نستعين . خرجت عن وطنك ، ورحلت عن أمائك بحبة إليك ، فيها ترات عزيز ، وفيها ذكريات الصبا والكهولة ، وفيها عشيرة وأحباب ، وفيها منوى الآباء .

فارتقت هذا لأن الحق أحق بك ، وأحب إليك من أولئك . ولقد كنت فيهم لولا ما احتهم به من دين ودعوتهم إليه من حق ، حبيبيا إلى نفوسهم ، لاحقا قلوبهم ، يصدقونك بالآباء والآلهات ، وبالطارف والتبديد ، لصفات ميرتك عن لداتك ، وخصمت بها من بين أهلك . لكن الله أحب إليك من الآباء والمشيخة ، ومن الأهل ، ومن الولد ، بل ما كنت ترى في الوجود غيره ، ولا يقع نظرك إلا عليه ، ولا تفكر إلا فيه ، صلوات الله وسلامه عليك .

أى رسول الله : تركت فينا كتاب الله واعظا ، وتركنا فينا سنتك إماما ودليلا . لكننا أعرضنا فلم نتمتع ، وعصينا فلم نمتد ، واتخذنا غيرك مرشدا ، واتخذنا الهوى دليلا ، وخلصنا غيرك

أهدى وأقوم ، وأعلم وأسلم ، نجبطا في التمنية ، وأوضعنا في القواية ، وضلانا الطريق القويم وهو أمام الأعين .

ألا نقحة من قمحناك الطاهرة ، ونسمة تهب من جانبك ، تروح عن قلوب المكروبين ، وتغيث الملهوفين ، فتحي ميت القلوب ، وتعيد شباب الدين ومعد الأولين .

رب إن الهدى هداك ، وآيات من الله تهدي بها من نشاء

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت في حلولها الأعضاء

هذه أمتك تتسب اليك بالقول وأنت لا ترضاها إلا عاملة مغلصة ، وتقرأ كتابك لا يجاوز حاجرها ، ولا يصل الى قلبها ، وأنت لا ترضاها إلا متحققة به بالهمة .

تركها أمة واحدة فنفرت ، وتركها جسما واحدا فتعزقت ، وتركها عزيزة فدللت ، وقوية فصعفت ، شعبتها الأهواء ، وتمددت فيها الأدواء ، متخاذلة عن الحق ، قوية في الباطل ، يكيد بعضها لبعض ، ويخذل بعضها بعضا ، ولو أنك اليوم بيننا لنسكرتنا ، ولو أنك اليوم بيننا لما عرفتنا :

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الخي غير نسايم

واقعد كان المسلمون قلة مستضعفة في الأرض يحامون أن يتحلفهم الناس فأوام الله وأمدم بعصره ، ومكن لهم في الأرض واستحلفهم فيها ، وصاروا ملوكا وساسة للامم ، وولاء وأمراء ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، فرفعوا رأيتة عالية ، وباعوا أنفسهم في سبيله ، فمز بهم وعزوا به ، ثم تبدل الحال فأصبحوا كثرة لا غناء فيها ، سلب الله من أهدائهم الرعب منهم ، وسكن قلوبهم الفرق والخوف من أهدائهم . كل هذا والاسلام هو الاسلام ، لكنه لا يعمل إلا في يدي بطل ، ولا يصلح إلا إذا كان في يد شجاع مؤمن به .

لا يصلح أمر هذه الأمة في آخرتها إلا بما صلح به أولها : رجوع الى الله وهدية ، وتحكيم كتابه عند الاختلاف . وإني يا مولاي الرسول الكريم ، مؤمن بالله ومؤمن بك ، ومؤمن بأن حوادث الزمان أكبر مؤدب وأعظم مرشد ، وأهدي ماصح ، وبأن أمواج البغي سنكسر على الصخور التي وصفتها للنجاة ، وبأن العالم سيلجأ اليك طالبا إنقاذه مرة أخرى ، وإخراجه من التمي ولصلال ، الى الهدى والرشاد ، وبأنك ستمد يدك اليه مستعينا بالله ، والله المستعان . وإني أغتم هذه الليلة المباركة فأسأل الله حلت قدرته وعظمت نعمته ، لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول ، رعاية دائمة ، وعناية شاملة ، وتوفيقا الى الخير والسعادة ، كما أسأله للمسلمين عامة ولهذا البلد خاصة ، هديا وارشادا ، وعونا وإسعادا ، والله سميع الدعاء !

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يصل الجمعة بمسجد محمد علي بعد ترميمه

وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام يقوم بالخطبة فيه

أتمت وزارة الأوقاف ترميم مسجد المغفور له محمد علي باشا موجود مصر الحديثة بالقلمة ، فصحت عزيمته حضرة صاحب الجلالة الملك علي تأدية صلاة الجمعة فيه في الخامس من المحرم لسنة ١٣٥٨ . وحضر الصلاة مع جلالاته أركان الدولة وكبار العلماء والموظفين العسكريين والمدنيين ، فكانت صلاة جامعة في أعظم مساعد العاصمة . ولما أذن المؤذن بهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي وألقى خطبة الجمعة ، وصل بها ما انقسم من عرا الخطب المبيرة المغفلة لعهد القوة الاجتماعية والاستقلال الصحيح ، فذكر الأمة بمجدها الثالث ، وعظمتها التاريخية ، ونبها الى أن ذلك لا يبال إلا بعلم وعمل ، وإيمان وإخلاص ، وجد ومثابرة ، وأخذ بالأهب للزيادة عن الحوزة ، والدفع عن البيضة ، فحرك من القلوب ، واستنهض من العزائم ، وبعث من الحمم ما الأمة في أشد الحاجة إليه في العهد الراهن ، فكان لهذه الخطبة الدافقة في مسجد موجود مصر الحديثة ، ومحضرة أنجب ملك رآته هذه البلاد ، وعلى لسان أكر أئمة المسلمين في هذا العصر ، أضحى تأثير في النفوس وأفعله . وإنا لنحرص على تسجيل هذه الخطبة الكريمة ، راجين أن تكون دستوراً لكل سالك الى الحق ، متوفر على خدمة الوطن .

قال أيده الله :

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وحمل الظلمات والنور ، ثم الدين كرموا برحمهم يمدلون . فامر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالربوبية ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأكمل الدين وأتم النعمة ، ونصب الهداية أعلاماً ، وبعث حاتم النبیین محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً وإماماً . صلى الله عليه وعلى آله المصطفين الأخيار ، وصحبه المجاهدين الأبرار .

عباد الله . لقد ضل من طرح العمل ، وتلهى بالبطالة والأمل ، واهتدى من عرف أن الحياة جهاد ، يفوز فيه من له عدة وعناد ، ومن كان قلبه عامراً بالإيمان ، مليئاً بالعرفان ، لا يداخله اليأس من روح الله ، ولا تنهيه الصعاب والعقبات ، عن السعى لبوغي أقصى الرغبات وأعلى الدرجات ، متجها الى الله بقلب سليم مع إحلاص النيات وصدق العزمات . قال الله تبارك وتعالى :

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » « إن الدين آمنوا وعمروا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فعماد السعادة ، ومناط السعادة ، وطريق الجنة : الإيمان بالله والعمل الصالح .
« لا وإن من أحق الأعمال الصالحة بالرحمة ، وأولها بالعناية ، إعداد العدة ، وأخذ الأبهة ، لا تقاه الأحداث ، وملافة الأخطار .

فلا شرف لامة لا اعتزاز لها بقوة ، ولا اعتزاز لامة لا تعترف لها منعة ، وفي قلوب الرجال خير الحصون ، وفي العدة خير معوان على تجنب الضعة والهون .
ولنا ماض عزيز كريم ، وتاريخ حافل بالمجد والشرف الميم ، وفي اقتداء الأبناء بالآباء في الخير عرفان بالجميل ، ووصل للشرف الحديث بالشرف القديم .

أدفع من ناز على نشر العلم ، وعلى إحياء الأخلاق الفاضلة ، والشيم العالية ، وفات الملهوفين وفرج عن المكروبين ، وأنان الصغفاء ، ورفه عن البؤساء ، ووجد الجهود ووثق الإخاء ، وأزال الشقاء والبغضاء من نفوس العباد ، وضرب على أيدي السفهاء ، وعمل على وقاية المجتمع مما يهدده من الأخطار في دية أو عرضه ، وفي جسمه أو عقله أو ماله . ومن واجب الأمراد والجماعات والهيئات والحكومات أن تعنى بهذا وأن تخلص البية فيه لله ، فإن الله لا يقبل هملا غالبا من الإخلاص « إن المسافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما » .

الحياة في الدين والدنيا في حاجة إلى الجِد والمزم ، وإلى السعى والحزم ، وإلى الحق والعدل ، وإلى الصدق واليقين ، وإلى محاسبة النفس ومراقبة الله ، وإلى علم نافع ، وخلق قويم ، وصبر على المسكروه والبلوى ، وطرح للهوى وملازمة للتقوى . وقد قيل :

لاكثر أنفع من علم ، ولا مال أربح من حلم ، ولا شرف أعمز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء أنجح من الرفق ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة .

ألا من سبيل إلى عزمة صادقة ، ونية خالصة ، وقلوب متوحدة ، وحياة حادة ، واعتماد على الله ، وتفكير في الحاضر والمآل ، يقرب الآمال ويسعد الحال ، ويمز البلاد وتزفر به السعادة على العباد !

ألا وإن الله عليم حبيب ، ومطلع رقيب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أعد لكل واحد كتابا ، وسيطلب مما قدمه جوابا ، ويحاسبه عليه حسابا .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

« ووضع الكتاب ففرى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا »
« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

أيها المؤمنون :

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا قبل أن توزنوا ، ولتنظر كل نفس ما قدمت لغدها من خير في سبيل إعلاء مجد بلادها ، وإعزاز دينها ، ورفع شأن وطنها .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » « يأيا الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لحد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه « قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله . قالوا : ثم من ؟ قال : مؤمن في شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره . »

وعنه صلى الله عليه وسلم « لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب »

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

— ٢ —

ما هي النبوة وما هي الرسالة ، والأدلة العلمية على إمكان الوحي

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى : إما إلقاء في الروح ، أو بتوسط ملك يتمثل في صورة بشرية ، أو في ثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التي لا يدركها غير بي ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمي المخالف للسنة العادية وحيا .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أود جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويُدعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين في جميع أدوار الانسانية .

وقد أجمع هؤلاء الانبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحي ، وأنهم إنما يُدعون إلى الناس بما أمروا أن يدلوا به اليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وإن غضب الناس منهم ، وتألّبوا على اضطهادهم . وقد أودى وقتل منهم عدد كبير ، وُبلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المبهطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا .

الأدلة المبطية على صحة النبوة وإمكان الوحي كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقنع بها ، فإن الفلسفة المادية قد أفلتت شبهات حجة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحاني ، وادعت أن كل ما يقال فيه ، ويسند اليه ، من أوهام الأفديمين وساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي ، أن يعدل عن الاستناد على الأدلة المبطية إلى الأدلة العلمية ، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية تُرعى على بحثها الأسلوب العلمي . وهذه محاولة عنيفة تسند على كثير من الجهد يذل في سبيل جمعها وترتيبها ، وتثبيتها للدفاع عن النبوة من طريق مباشر يوفر للأدلة كل قوتها الإقناعية ، وهيئتها الأدبية .

ونحن وقد اتدبنا لغرض غمار هذه المسألة ، نرى أن تتوجه إلى تحقيقها من ثلاث نواح : (أولاها) هل في الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات ، نمثا في الروح من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟

(ثانيها) هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه ، تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرق منها ؟

(ثالثها) هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة ، يُسوِّغ اعتبار النبوة والوحي أمرا ممكنا ؟

فلنعالج هذه المسائل الثلاث على الأسلوب الملقى فنقول :

١ — هل فى الوجود ما يدل على حدوث معرفة من غير طريق العقل والحواس ؟

الجواب . نعم ، إلهام الحيوانات ، والعبقرية .

فأما إلهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون فى حياة الحيوانات من لدن أقدم عهود العلم أن للحيوانات ، وخاصة الحشرة الساذجة منها ، أعمالا فى تطلب أغذيتها ، وبناء كنيها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر إدراكاتها القاصرة عن الاهتداء إليها لو تركت وشأنها . وإنا عارضون على قرائنا بعضا منها :

الفراش متى وصل الى الطور الثالث من حياته يصع بيضه على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أمهاتها (أى أمهاتها) قد ماتت ، أى أنها لا تراها . فمن الذى علم إناث الفراش أن صغارها متى خرجت احتاجت الى التغذى بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها الى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلاقى بها فى أى مكان آخر ؟ هل هديتها الى ذلك أمهاتها ؟ لا ، لأنها لم تراها فى حياتها . هل هديت إليها بعقولها ؟ هذا بما لا يتصوره عقل لأن إدراكاتها قاصرة . ولو أخذت بويضاتها وأفقسها فى بقاع ليس فيها فراش ، خرجت تلك الديدان وعاشت عيشها الذى يعيشه نوعها ، حتى إذا تطورت وصارت فراشا حملت العمل مينة الذى يعمل به جميع إناث الفراش فى كل بقاع الأرض ، مسوقة إليه بدوافع قاهرة لا تتكلفها . فلم يبق إلا القول بأنها ألهمت هذه الأعمال من القدرة العليا التى أبدعتها .

والحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى أنها لم تر لها ذرية قط . ولكنها قبل أن تبيض تعنى كل العناية بوضع جثث حيوانية ، تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت . فمن الذى أدرى هذه الحشرات أن فى بيضها صغارا ، وأن تلك الصغار ستخرج فى حاجة الى الغذاء ، وأن ما تحتاج إليه هى تلك الجثث الحيوانية ؟

ومن أحب المشاهدات العلمية أن الحيوانات المسماة (موبيل) من أكلة الحشرات ، ولكنها صغارها تولد من أكلة الحيوانات الى أمد محدود . فترى الأمات تعتمد الى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت وجدت ما لتغذى به . فمن الذى أدرأها أن صغارها ستخرج من أكلة الحيوانات ؟

والحيوانات المسماة أودينير و (سفكس) تخرج صفارها من بويضاتها محتاجة الى التغذية بأجساد حيوانات (حية) . فترى أماتها تعتمد الى اصطبياد حيوانات لا تقتلها ، ولكن تصربها في مجمع أعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فإذا خرج صفارها وجدت أمامها غذاءها الضروري لها .

ومن المثيرات لفكر ما ذكره الأستاذ (ميلس إدوار) المدرس في جامعة (السوربون) بفرنسا فقد قال : إن الحيوانات المسماة (إكسيكلوب) تعيش مفردة وتموت بعد أن تبيض إنثائها مباشرة ، تخرج صفارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية مادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك لحياتها تقضى أن تعيش مدة سنة في مسكن مقفل وفي هدوء تام وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعتمد الى قطعة من الخشب فتعفر فيها مردابا طويلا ، فإذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة اليه تكفي صغيرا واحدا مدة سنة . تلك الذخيرة هي طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتي بفشاراة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتي بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلم جرا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك السكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الصعيقة الساذجة هذه الصناعة الخيرة للعقل ؟ ومن أهمها وهي تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صفارها في حاجة الى البقاء سنة في حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذي غرس في قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة في وضع بويضاتها ؟

هذه الإلهامات دليل محسوس على أن قيم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غير طريق الحواس التي لا تستطيع أن تكتسبه بها ، وإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو أولى بأن يصح في عالم الانسان ، حيث اتصالاته بالآفاق الأعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها أكثر .

ولكن الماديين لما شعروا بالخطر الذي يهدد مذهبهم من هذه الناحية تألبوا على القول بأن هذا الإلهام عادة موروثية ، أي أن الجماعات الأولى من الحيوانات اكتشفت وسائل حياتها فأورثتها أحلامها ، فصارت فيها غريزة . ولكن كيف اهتمت تلك الكائنات الساذجة الى هذه الوسائل ولم تبيد قبل أن تجد لها ؟ وكيف اتفق أن جميع جماعاتها في مختلف القارات الارضية تهتدى الى وسائل من نوع واحد وليس بينها اتصال ؟ وكيف يعقل أن نورثها لأحلافها وقد ثبت أن الوراثة للصمات والعادات غير ممكنة ، كما قرر ذلك أخمص تلاميذ دارون الأستاذ (ومين) وتبعه أكثر الداروينيين ؟

وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف العظيمة لدى الكائنات الحية ، هي إلهامات إلهية

لاشك فيها . قال الأستاذ (يواراك) مدرس الفلسفة في كلية (كوندريسيه) بفرنسا ورئيس
المجمع العلمي في ديجون في كتابه الفلسفة صفحة ١٥٨ :

« إن الفريزة عند دارون وهربرت ميسر أصلها عادة موروثية ، بمعنى أن الحيوان حصل
بالتعلم على كل ما يعمل ، وعلمه إذا كان واحدا عند جميع أفراد النوع الواحد ، فذلك في رأيهم
لأن احتياجات وأعضاء هذه الحيوانات متشابهة . إن تفسيراً كهذا يكون نقصه واضحاً إذا
قوبل بالفرائز المحدودة والكثيرة التركيب لدى أكثر الحشرات . فلا التجربة ولا الذكاء
الشخصي يستطيع أن يُعلم الحيوان المسمى (اموفيل) الصناعة الجراحية التي تسمع له بشل
حركات الديدان الخسراء بدون أن يقتلها ليحصل منها غذاء لمخاره متى خرجت من بويضاتها »
وقال الأستاذ (ميلس ادوار) المدرس بجامعة السوربون :

« إن التخيل بأن غرائز النمل مثل أسمى مدركات القوة العقلية للإنسان ، ليست إلا نتيجة
عمل القواغل الطبيعية أو الكيميائية التي بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأحجار ،
إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأصول العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسي قد
دحضها العلم الصحيح دحضاً ، والطبيعي لا يستطيع أن يعقلها أبداً »

يروي القاري* مما سر أن العلم الطبيعي نفسه يعترف بحدوث إرشاد وتعليم من جانب القدرة
الإلهية للعالم الحيواني الذي يعجز عن تدبير نفسه والشعور بما يصلحه من المحاولات الضرورية له ،
فإنكار حدوث هذا الإرشاد للسوع الإنساني ، وجماعته في أثناء تكوّناتها في حاحة ماسة إليه ،
تحكم لا مسوغ له .

على أن هذا ليس بالاعتراف الوحيد للعلم بحدوث الهداية والإرشاد من غير طريق الحواس
أو العقل السادس ، فإن له اعتراضاً آخر لا يقل عن هذا خطورة ، وهو في هذه الدفعة خاص
بالسوع الإنساني ، وذلك من ناحية ما اصطالح على تسميته بالمبقرة .

فما هي المبقرة ؟

شاهد في تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية في أرفع درجات السمو ولا يمكن
تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها أتتهم عفواً بدون إجابة نظر فيها ، ولا أقل محاولة منهم
لإحداثها بل لم تكن تخاطر لهم على بال . وهي تظهر شذوذاً وبدون تمهيد . وقد تمر أحيال دون
أن يظهر في أي نقطة من الأرض عبقرى واحد . وأصحاب المبقرة في مجموع تاريخ السوع الإنساني
يعدون على الأصابع . وقد اعتبرها الفلاسفة الأقدمون حالاً علوية لا شأن للعقل فيها فقد
قال أفلاطون :

« المبقرة حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية » .

وليس المعاصرون لما بأقل من الأقدمين إكبارا للمعقريّة، وجنوحا إلى نسبتها إلى الذات الإلهيّة فقد قال فولتير وهو الفيلسوف السقادة الكبير :

« من شروط المعقريّة أن يكون فيها ابتكار، فهذه الخاصّة للابتكار هي التي تعتبر منحة إلهيّة » يريد أن لا عمل للعقل فيها كما ستراه هنا .

وقال المعقري المشهور فيكتور هوجو :

« لنضع ما هو من عمل المخ للمخ، ولنشهد بأن عمل المعقريّة تنحّية فوق القدرة الانسانيّة، تستخدم في بروزها للبيان الإنسان نفسه » .

هذا رأي الفلاسفة والمعارفة أنفسهم، والعلم الطبيعي يؤيدهم فيما ذهبوا إليه، ويقرر بأن المعقريّة منحة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة، ولا يوجد لها تفكير . جاء في دائرة المعارف القرن التاسع عشر :

« إن الإلهام المعقري لا يأتي من طريق التحريض ولا بالإرادة، ولا باطالة الرويّة . وجاء فيها : « إن كل ابتكار في صاحبه عنصر (موهوب) من الطبيعة نفسها . وهذا العنصر لا يستطيع الإنسان أن يوحده بمجهوده الذاتية » .

وقال الفيلسوف الكبير (تين) : « Taine »

« المعقريّة هبة لا يستطيع أن توحيها أية دراسة ولا أية مناصرة، فإذا عذمت هذه الهبة استحال العاملون إلى مقلدين وسمعة » إلى أن قال : « فإن لمحو هذا العامل الخفي بالأسماء الجبلة فنفسه وحيا أو ندّعه معقريّة كنت محسنا ومهييا فيما تفعل » .

وقال الفيلسوف الألماني (هيجل) في كتابه (علم الجمال)

« أعمال المعقريّة تحدث بذاتها من طريق الإلهام المفاجئ »، فالعمل المعقري لا يتحصل عليه بالتعلم ولا يقبل التورث، فهو هبة من المعقريّة وكفى » .

وقال الأستاذ الكبير الدكتور (بيرجانيه) المدرس بجامعة السوربون :

« المعقريّة قبل كل شيء إلهامات، وأعني بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطني ولا الذات نفسها أن تدعي أنها تملكها، فهي تحدث على غير علم منها، ولا نستطيع إرادتنا أن نوجدتها » .

هذا ويشهد العلم بأن المعقريّة أمر غارق للعادة . جاء في دائرة المعارف الانجليزيّة الكبرى (بريتانكا) في الطبعة الأخيرة لسنة ١٩٢٩ قولها :

« المعقريّة شيء غارق للعادة على وجه الإطلاق، وأرقى حتى من القوة العملية الفائقة » . إلى أن قالت : « وهي موهبة فذة لا تقبل التفسير محصورة في كلمة المعقريّة » .

وقرر العلم أيضا أنها مما لا يمكن تعليله بالقوانين الأدبية المعروفة ، فقالت دائرة معارف لاروس للقرن العشرين : « إن جميع النظريات تخيب وتفسل إن أريد فهم حقيقة العبقرية » . وقالت : « العبقرية لا يمكن أن تطل بقوانين » .

وأثبت العلم أيضا أن العبقرية غير إرادية ، جاء في المعجم المصري لفئة والعلم المطبوع بنويورك قول الأستاذ (هازلت) :

« تختلف الألمعية عن العبقرية كما تختلف المقدرة الإرادية عن المقدرة غير الإرادية » .
ونص العلم كذلك على أن الإنسان يملك الألمعية ولكنه لا يستطيع أن يملك العبقرية ، فهي التي تملكه وتسخره فيما يريد إظهاره بوساطته ، جاء في المعجم العلمي المتقدم ذكره بقلم الأستاذ (لوويل) :

« الرجل الألمعي يكون ماسكا للألمعية كما يملك الكثير من الأدوات ويستخدمها في تآدية ما يريد صنعه ، ولها حد تقف عنده ، ويسكن الرجل العبقرى يكون مملوكا للعبقرية ، وهي تحوله إلى كتاب أو إلى حياة على ما يشاء هواها » .

نقول : إن مذهب العلم في العبقرية ، وحيرته في تعليلها ، وتصريحه بأنها خارقة للعادة ، وأنها مما لا يعلل بالنظريات ، ولا يمكن التحصيل عليها بالدراسة ولا بالتفكير ، وأنها تملك صاحبها وتسخره لأغراضها ، كل هذا يعتبر اعترافا صريحا بأن أرقى مظهر للإبداع الأدبي والمادى يعطاه الإنسان من غير طريق العقل ومنافذ الحواس الجثمانية ، ولا يمكن الحصول عليه بالوسائل العلمية والعملية المعروفة .

ويجب أن يضاف إلى هذا ما شاهده العلم نفسه من الخوارق للعادة في الحالات العقلية والنفسية ، فإن ذلك يساعدنا على تذليل العقبات التي تقف في سبيل التذليل على وجود مرتبة النبوة ، وتقرب إلى عقولنا إمكان الوحي .

للاستاذ العلامة البسيكولوجى الانجليزى (ميرس) (Myers) مدرس علم النفس بجامعة كامبردج كتاب كبير أسماء (الشخصية الإنسانية) (Human Personality) ، ترجم إلى الفرنسية وغيرها ، تقتطف منه بعض ما أورده ، فإن فيه ما يدل على وجود خصائص نفسية عند بعض الناس تكشف عن حقائق خطيرة ، لا يجوز لمن يعالج مسألة النبوة والوحي تجاهلها .

قال الأستاذ (ميرس) : « كان للعصر بيدلر خاصة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فانه كان يمين على البدئية العوامل التي إذا ضرب بعضها في بعض أنتجت عددا مؤلفا من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا مثل مثلا : ماها المددان اللذان إذا ضرب أحدهما في الآخر أنتج العدد ١٧٨٦١ ؟ أجابك

على الفور بأيهما ٣٣٧ و ٥٣ ، وهو يقول إنه لا يدري على أية حال يأتي بهذا الجواب ، فسكات
الاجابة عنده كأنها غريزة طبيعية »

وقال الأستاذ ميرس : « كان لفستر (فان دونيكا) وهو في السادسة من عمره خاصة
في الحساب العقلي ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن يدري على أي أسلوب تسير في نفسه هذه
الأعمال الحسابية » .

وقال : « كان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرافيا يريد الكلام فيه ، مما هو خارج
عن الحساب الذي ألقى إليه »

ونقل عن العالم البسيكولوجي والشاعر الكبير (سولي برودوم) الفرنسي أنه قال :
« حدث لي في بعض الاحايين أني كنت أجد حافة برهان نظرية هندسية أُلقيت الى منذ سنة
وذلك بدون أن أعيرها أقل التفات »

وقال نقلا عن العلامة الرياضي المشهور (أراغو) : « اعتدت أني بدل أن أجهد نفسي
في فهم مسألة في الحلسة التي أُلقيت الى فيها ، كنت أسلم موقنا بأنها صحيحة ، فإذا جاء اليوم
التالي دهشت من فهمي كل التفهم ما كان قد ظهر لي مفضلا في اليوم السابق »

وقال نقلا عن الفيلسوف الكبير (كوتدياك) : « إنه كان غالبا يحدثني عملا لم يتم بالأمس
قد تم اليوم في عقله بدون جهد منه » .

وقال : « إن المسيو رينه الشاعر ذكر لذكثور (شايبيكس) بأنه ينام غالبا وهو يعمل
قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة » .

وقال راويا ما قاله الموسيقي (فسان دندى) المشهور عن نفسه « بأنه يرى غالبا وهو
في حالة اليقظة التامة خاطرا مريعا لموضوع موسيقي ، فيحاول بمجهود عظيم من العقل أن يضبطه ،
كما يفعل الانسان إذا أراد أن يتذكر مناما »

قال الأستاذ ميرس : « وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) الفرنسي عن نفسه يقول :
« أنا لا أصل شيئا ، ولكن أسمع ما يلقي الي فأنقله ، فكان إسحاق مجهولا يناجين في أذني » .

ونقل ميرس أيضا عن الوزير الشاعر الكبير (لا مارتين) قوله : « لست أنا الذي يفكر ،
والكس هي أفكارى التي تفكر لي » . يريد أنه لا يدخل لعقله الواعي في الشعر الذي يعمل .
قال « وكان (سانت سايفس) مثل سقراط يسمع ما تلقيه الروح الملامرة له إليه »

قال : « وقد ذكر المسيو (دو كوريل) وهو القصصى الفرنسي المشهور الى الأستاذ
(بيبه) بأن أشخاص أخصيصة بعد أن تظهر في عقله بعد جهد منه عظيم ، تصير مستقلة عنه
فتتكلم ضد إرادته ، وعلى الرغم من التفاته اليها ، وتتنالى أمامه عند ذاك أدوار قصته بدون

جهد يبذله ولا حركة إرادة ، ولا يكون عليه إلا كتابة أقوال تلك الشخصيات وجمع ما يرى . وإذا حدث أن انقطع عن النظر الى تلك الشخصيات لسبب كعمل آخر أو نوم ، استيقظ فوجد روايته نائمة في عقله . قال : وكان إذا تشاغل عن النظر الى الرواية التي تمثل أمامه سمع بأذنيه أحاديث أشخاصها .

ونقل الأستاذ (ميرس) ما كتبه القمصى الانجليزى المشهور (وردستورث) في كتابه (الفاتحة أو تطور عقل شاعر) قال :

« أشعر بضائبات باطنى يتحول الى إعصار ، فأشهد أن قوة بالغة الحد تختزع القطعة وتحيل بها هكذا وهكذا الى كل جهة . هذه القوة الهائلة تنفع من صميم روحى على هيئة البخار الكثيف الذى يغطى الساع المضررب فجأة . فأشعر إذ ذاك بأنى هلكت ، فأقف ولا أستطيع أن آتى بأقل جهد يخلصنى مما أنا فيه » .

هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، سافها الأستاذ الكبير (ه . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الانسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، لا يشعر به الانسان العادى ، ولكن يشعر به بعض ذوى الاستعداد لتلك الشعور ، وقد رأيت أنهم من كبار العلماء ، وأجله الفناين ، وأما لا أريد أن أثبت بما أقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكننا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين :

(أولهما) وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس كما تدل عليه حياة الخبوان بمحملتها وتفصيلها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التى لم يهد إليها عقل ، ولم يحم حولها فكر ، على حال خارقة للعادة .

(ثانيهما) وحسود اتصالات روحانية باطنية تعد الانسان بملم ، وتسعفه بهداية ، من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الحس ، تقريباً لروحى من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه الى حد أن كذبوا بالسبوات وهى أعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الانسانى ، وقد ابتنت عليها أكبر الأحداث التى مجرى الشؤون العالمية فى جميع الأدوار الانقلاية . وليس مما يعقل أو يناسب كرامة النوع البشرى أن تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الأثر فى حياته ، قد قامت على أكاذيب متعمدة ، أو أوهام فكرية .

ومن المبت المحض أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاماً تبعه القدرة الإلهية فى أحقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشرى ، وهو فى أشد الحاجة اليه فى أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفى أثناء تطوراته فى أدوار تلك الحياة المتعاقبة .

وإني أظن بأنني عا أثبتته هنا قد قربت للعقول حدوث الوحي لمن صرحوا للناس بأنهم أنبياء أو مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا اليه وحذروا منه .

وليس هذا كل ما نستطيع أن تقدمه للعقلية المصرية من المقررات العلمية المقررة للوحي من العقول ، فإن لدينا مقررات علمية أخرى نرجو أن ندلي بها في العدد المقبل إن شاء الله ؟

محمد فرير ومجدي

حفظ اللسان من الخطأ

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تكلم بخير وإلا فاسكت »

وقال حكيم كلام الرجل بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصره على الجليل ، واقتصر منه على القليل ، وإياك وما يسخط سلطانك ، ويوحش إخوانك ، فلي أسخط سلطانك تعرض للفتنة ، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية .

وقال شاعر :

يدل على جهل الفتى فضل نطقه ونطق أحمى العقل الرصين قليل
وابن لسان المرء ما لم يكن له حصاة على عوراته لتدليل

قال حكيم :

رب كلمة جاليت مقدورا ، وخربت دورا ، ومهرت فورا .

وقال شاعر :

احفظ لسانك واحتفظ من شره إن اللسان هو العدو الكاشع
وزن الكلام إذا نطقت بمجلس فبه يلوح لك الصواب اللامع

وقال غيره :

احفظ لسانك أن تقول فتبلى ابن البلاء موكل بالمنطق

وقال آخر :

وزن الكلام إذا نطقت فأنما يبدى الرجال من الستور المنطق

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغك إته ثعالب
كم في المقابر من قتييل لسانه كانت تخاف لسانه الأفران

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

سبق لك في تفسير الصمد آراء كثيرة ، ومنها أنه الذي لا خوف له ، ومنها أنه الذي لا يخرج منه شيء ، ومنها أنه الذي لم يلد ولم يولد ، فعلى هذا يكون قوله : « لم يلد ولم يولد » لازماً لكونه صمداً ، أو تفسيراً له . وعلى كل حال فمعلوم أن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يقتضى التركيب المتناهي للصمدية والاحدية الحقيقية ، على ما سبق بيانه ، لأن الولد من جنس أبيه ، والاحد لا يجانس أحد .

أما نفي المولودية عنه تعالى فواضح جداً ، لاقتضاها أنه ماضى منفصل عن غيره ، ولا شك أن هذا يقتضى التركيب ، والتعزى ، وسبق العدم ، والمجانسة المستحيلة على واجب الوجود . وقدم نفي الولادة على نفي المولودية ، لأن فريقاً كبيراً من البشر توهّموا أن له ولداً . وكأنه سبحانه يريد أن يسوى بينهما فيقول : إن نفي الوالدية ونفي المولودية متساويان لدى العقل الصحيح ، واستعانتها عليه أظهر من الشمس وأوضح من الحس .

ولا يمكننا أن نعقل ما يقوله المسيحيون في هذا المقام من أن هناك ثلاثة هي : الأب ، والابن ، وروح القدس ، وهي جواهر ثلاثة يستقل كل واحد منها عن أخويه ، ومع ذلك فهي إله واحد ، كما يقول قائلهم في المسيح عليه السلام :

فهو الإله ابن الإله وروحه ثلاثة هي واحد لم تقسم

ولا ندرى كيف تكون الثلاثة واحداً والواحد ثلاثاً ! وإن قلنا تبعاً لما تقيده بعض عباراتهم : إن الابن وروح القدس صفتان للأب وهما عبارة عن العلم والحياة ، مجزأتا عن فهم كون الصفة إلهاً ، ولم يمكننا أن نفهم الاستقلال الذي يزعمونه . ومع هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه يقولون : كل ذلك مما يجب الإيمان به ولو كان فوق طور العقل . وليت شعري كيف

يؤمن الإنسان بما يعتقد استحالة ، والديانات يصح أن تحيى بما لا يفهم العقل كنهه وحقيقته أو يجهل تفصيله ، ولكنها لا تحيى بما تحيله العقول وتعتقد عدم إمكانه ! « فإن كنت ترى فيها شيئاً من المحارات ، فلست ترى فيها شيئاً من المحالات » . وليس الأمر عندهم قاصراً على هذا ، فكلم لهم من أشياء غير معقولة ولا مقبولة ، مثل قولهم : « إن المسيح أطعم يوماً الجوارين خبزاً وسقاهم خراً ثم قال لهم : أكلتم حتى وشربتم دى فأنخدم معى وأنا متحد مع الآب » . والى الآن يعمل القسيس مثل هذا العمل ويسميه « المشاء الربانى ! » . والقوم يعتقدون أنه دم المسيح ولحمه .

وإن شئت فانظر الى رنات أخرى لا تقل غرابة عما سمعت ، وذلك مثل قولهم : « إن الله غضب على آدم وذريته من أجل ثمرة أخذها من الشجرة أشد الغضب ، وإنه يلحق بهم كل هوان وعذاب فى الآخرة من أجل تلك الثمرة التى تناولها من الشجرة » ، ثم سعى إليه أو الى ابنه الساعون من اليهود بالقتل (وهى جريمة فوق الأكل من الشجرة مليون مرة) فخر لهم ما تقدم من ذنبهم ورضى عنهم . « وأيت شعري كيف ذهب عند القتل ما يجب للإله من القوة القاهرة والجبروت والبطش الشديد ؟ ! هذا لمرى من منطق المجانين الذين لا يفقهون ما يقولون !

ومما يذكر فى هذا المقام أن بعض المسلمين قال لبعض القسوس : إن بعض الناس أخبرنى أن رئيس الملائكة قد مات ، فقال له القسيس : إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف وأنت تقول الآن فى وعظك : إن الإله قد مات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتحل الملائكة ؟ ! بهت القسيس ولم يجز جواباً .

ولا زل نقول : إذا كان الإله يقتل على خشبة الصليب فلن تكون القوة والجبروت ؟ ومن هو ذلك القاهر فوق عباده الذى بيده أرواح اليهود وغير اليهود ، ومن يحيى ويميت ، ومن يحيب المضطر إذا دعاه ، ومن ينشئ السحاب الثقيل ، وتندك من هيئته الجبال كما اندك جبل موسى عند تجليه تعالى له كما فى النوراة التى بين أيديهم ؟ ! فإنها لا تسمى إلا بصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور .

ولله در القائل :

عجبا للمسيح بين المصارى	والى الله والدأ نسيوه
أسلموه الى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فليس كان ما يقولون حقاً	فما لم فأن كان أبوه
فإذا كان راضياً بأذام	فما كروم لأجل ما منعموه
وإذا كان ساخطاً غير راض	فما عبدوم لأنهم غلبوه

ثم نقول : إذا حلت ذات الإله فى المسيح أفلا تكون معها الصفات ؟ وهل يمكن أن تتفارق الصفات الذات الموصوفة بها ؟ وإذا فما معنى أفنوم العلم وأفنوم الحياة ؟ وما معنى جعلهما

مستقلين ؟ ولت شعري لماذا حصوا العلم والحياة ؟ أليست للصفات كلها يجب أن تكون مع موصوفها ، أم الملازم له المنقل الى المسيح إنما هو العلم والحياة فقط ، وأما بقية الصفات فلم تنقل اليه ؟ ولا أدري كيف بقيت بعد انتقال الذات والعلم والحياة ؟ وهل قامت بنفسها فتكون صفات بلا موصوف ، أو قامت بذات أخرى غير الذات المقدسة ؟ وما أدري كيف تسيغ عقولهم أن الصفة تقوم بنفسها كالجواهر مع فرضها صفة ؟ (هذا خلف !) فالصفة صفة والجوهر جوهر لدى كل إنسان عنده مسكة من العقل .

ولمعر العقل والرشد إتنا لو لم نبصرهم باعيننا ونسمعهم بأذاننا لم نصديق أن من العقلاء من يمتد تلك العقيدة التي يردّها الأطفال ، ولا يساعدها إلا الخيال أو الخبال ، ولو تجرد المبشرون من التعصب وتبرءوا من التقليد الذي صار حججا على عقولهم ، لحجّبوا غاية الحجل من معتقدهم الذي لا يكاد يتصور ، فضلا عن أن يصدق به أو يقام عليه البرهان . وكثيرا ما رده أطفال المسلمين في مدارسهم عند ما رأوه يناقض الفطرة ويتناقى الضرورة . وقد أخبرني بعض أصحابي أن بفته كانت ببعض المدارس الأمريكية فقبل لها : إن الإله يسوع المسيح قد أخذه اليهود وصلبوه وألبسوه تاجا من الشوك وصاروا ييصقون في وجهه ، إلى آخره إلى آخره ، فقالت عند ما سمعت ذلك على البديهة : إن إلهنا يمجيت الناس ، وإلهكم تقتله اليهود ويصقون في وجهه ! والله ذو البوصيري حيث يقول في لاميته :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أصمتم أن الإله لحاجة	يتناول المشروب والمأكولا
ويبام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر المحير مقيلا
ويسه الألم الذي لم ينطع	صرفا له عنه ولا تحويلا
يألت شعري حين مات بزمهم	من كلف بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه	وأراه كلف القاتل المقتولا
أيجوز قول منزه لإلهه	سبعان قاتل نفسه فأقولا
أو جل من جعل اليهود بزمهم	شوك القناد لرأسه إككيلا
ومضى لحبل صليبه مستلما	للعوت مكتوف اليدين دليلا
ضل النصاري في المسيح وأقسموا	لا يبتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اختلفوا	لم يحملوا المسد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنه معشر	وأضلهم رأوا القبيح جيلا

ولو شئنا لأطنا ، فليعلم المبشرون ذلك ، وليكفوا عن إرسال الراسائل إلينا . وإذا نظرت فيها لم نجد إلا السفاهة والجهالة . وكنا نود أن ينصفوا من أنفسهم ، وينظروا لعقولهم إلى

ما يقولون ، ولا ينفشوا الناس بتلك الترهات وهاتيك الخرافات . وماروا الله على أبناء القرن العشرين الذين يزعمون حرية التفكير أن يعتقدوا دينا وضمه رهبان الكنائس ، كي يستعبدوا به البشر ، ويدلوا به النفوس لسلطانهم الذي امتد الى الجنة والنار ، حتى صاروا يبيعونها لمن شاءوا بما شاءوا (ولا غرو فيدم غفرا في الذنوب وزمام القلوب) ١ . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون .

ولابأس أن نذكر هنا ما جاء في بعض المجلات ، وهذه عبارة المجلة : « قبل الحرب الكبرى كان موسوليني يعد كتابا عن « حون هوس » المفكر البوهيمي المعروف الذي أحرقه رجال الكنيسة عقابا له على ما أذاع من آراء اعتبرت إذ ذاك إلحادا وخروجا على الدين ، فقال في مقدمته : « وإني لأرجو وأما أتقدم بهذا الكتاب الى جمهور القارئ أن أثير في قلوبهم كل مواطن الكراهية والاحتقار للاستبداد والمستبدين ... »

ويقول الورد هدى : « عجبا للأوربيين يمحنون عن أحسن المأكول والمشرب والملابس والمساكن ولا يمحنون عن أحسن الأديان » ١ . وكم للإسلام من شهادات طالية من كبار فلاسفة أوروبا وأمريكا . ونلفت نظر إخواننا المسيحيين الى ما كتبه « حوستاف لويون » الفرنسي ، وداري الأمريكي ، وتوماس كرليل الأنكليزي ، وغيرهم . وفي اعتقادي أنهم لو قرءوا ذلك بإيمان ، أو قارنوا بين الاسلام والنصرانية بتبصر وإنصاف ، لا عتقوا الاسلام فرحين مستبشرين ، ولا أصبح الدين كله لله ، ولا مسمى الناس كلهم عبيد الله لا عبيد المسيح ولا حلفائه الكاذبين من الأحبار والرهبان .

نقول هذا نصيحة لإخواننا في الانسانية ، وإخلاصا لهم ، وحبا لمعادتهم في الدنيا والآخرة ، وليعلموا أنهم مسئولون ومحاسبون ، وأن العالم لم يخلق سدى ولم يترك هملا « أحسبتم أنما خدعناكم عبثا وأنكم إلها لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أسأل الله أن يرينا الحق حقا ويررقتنا اتباعه ، والباطل باطلا وأن يرزقنا اجتنابه ، حتى نكون من عباده الذين يستمعون القول فيتعبدون أحسنه ، أولئك الذين هدام الله وأولئك هم

أولو الألباب ؟

يوسف المصري

عضو جماعة كبار العلماء

السياسة

الربا

— ٢ —

« آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » :

موضوع مقالنا هذا هو تسكلة الكلام في الربا ، ويشتمل على :

(١) بيان حكمة تحريم ربا الفضل . (٢) بيان كل نوع من الأنواع التي ذكرت في حديث « لا تبمعوا الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلخ إلا مثلاً بمثل هذا بيد » وبيان ما يحل وما لا يحل من هذه الأنواع . (٣) بيان خطأ منكرى الأحاديث الصحيحة وهم جاهلون بمغانيها . وإلى القراء البيان :

(١) قد ذكرنا في مقالنا السابق معنى ربا الفضل ، وقلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التبادل في ستة أنواع ، وهي : الذهب ، الفضة ، القمح ، الشعير ، التمر ، الملح . فلا يجوز لأحد أن يستبدل نوعاً من هذه الأنواع بمثله مع زيادة يأخذها أحد المتبادلين أما حكمة تحريم هذا النوع من المعاملة فقد ذكرها صاحب أعلام الموقعين ، فقال : إن تحريمه من باب سد الذرائع كما صرح به في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تبمعوا الدرهم بالدرهمين فأني أخاف عليكم الرما » والرما هو الربا . فهذا الحديث صريح في بيان حكمة تحريم ربا الفضل ، وهي الخوف من أن يجرى إلى ربا البسيطة ، ويوقع الناس فيه وهم غافلون . وذلك لأنك قد عرفت بما ذكرناه لك في المقال السابق أن ربا الفضل ليس له كبير الأثر في العالم ، لأنه عبارة عن مبادلة عين بعين ، وهذه المبادلة لا يتخلو حالها . إما أن تكون لمعنى زائد في أحد البدلين ، كأن يبيعه جيبها مضروباً في الزمن المأخوذ بزيادة يأخذها السائق أو المشتري ، لما في إحدى القطعتين من نقش طبعي ، أما النقش الصناعي فسيأتي أنه يجوز أخذ الزيادة عليه عند بعض الأئمة . وإما أن يكون أحد البدلين مساوياً

للآخر من جميع الوجوه ، كأن يبيعه حنينا مصريا بحنينة مصري مثله في الوزن والقيمة والصناعة والزمس مع زيادة يدفعها البائع أو المشتري ، وهذه الحالة لا تصدر إلا عن رجل غير أهل للتصرف . ولا يخفى أن هذا النوع من المعاملة نادر الوقوع بين الناس في الحالتين ، بل قد لا تدعو اليه ضرورة ما إلا عند الفواة المولعين بالخيال ، وهؤلاء لا يقيم لهم وزن . فلذا حرمت الشريعة الإسلامية هذا النوع من المعاملة كي لا يكون للمعتالين سبيل الى سلب أموال ضفاف العقول بالباطل من جهة ، وسدأ لباب أخذ زيادة من أحد المتبايعين بدون مقابل . وذلك لأن بمض الفواة قد تزين له شهوته ملك سلعة من السلع ويأبى مالكةا أن يبيعه ، فيضطر الآخر الى استبدالها بمثلها مع تاحيل دفع البذل في نظير زيادة خمسة جنيهات مثلا ، وذلك هو ربا النسئة بعينه ، لأنه قد أجل قبض البذل في نظير الزيادة . ومن هذا يتضح أن ربا الفضل قد جر الى ربا النسئة .

ومع هذا فقد نص الحديث على أن القمح والشعير ، من الأصناف التي يقع فيها ربا الفضل ، فإذا أبيع للناس أن يستبدلوا القمح بالقمح مع زيادة كأن يستبدل كيلة من القمح بكيلة ونصف من قح مثله ، فإن ذلك يجر الى احتكار المصنف وقلته في الأسواق ، لأن كل واحد يطمع في الزيادة فيدحر ما بيده ، وفي ذلك من الضرر على العامة ما لا يخفى . ومع هذا كله فإنك قد عرفت أن ذلك من باب الاحتياط . فالتشريع هاهنا مقصور على ما عساه أن يقع ، سواء كان قليلا أو كثيرا . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا في النسئة » . ومعنى هذا ظاهر ، وهو أن الربا الذي قد يكثر وقوعه بين الناس وتترتب عليه الآثار الصارة التي ذكرناها ، هو ربا النسئة . قال صاحب أعلام الموقعين في بيان معنى هذا الحديث مانعه : « إن مثل هذا يراد به حصر الكمال ، بمعنى أن الربا الكامل إنما هو في النسئة ، كما قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون » الى قوله : « أولئك هم المؤمنون حقا » ، وكقول ابن مسعود : « إنما العالم الذي يخشى الله » . وهذا وجيه لأن الحصر للكمال معروف في اللغة .

وبذلك تعلم أن الكاتب الأندلسي لم يفهم معنى ربا الفضل أصلا ، ولم يفهم معنى حديث : « إنما الربا في النسئة » ولا الفرض منه مطلقا ، لأنه على فرض أن الحصر في هذا الحديث حقيقي ، وأن ربا الفضل جائز ، فإذا يترتب عليه من الفائدة ؟ ومن هم الذين يحتاجون الى ربا الفضل ؟ وما هي المعاملات التي تتوقف عليه ؟ ألا يخجل من قوله : لماذا لم يرد المماء الأحايث المناقضة لحديث إنما الربا في النسئة مع موافقته لاحقل دونها ؟ اللهم فقه المسلمين في دينهم ، وعمهم الادب فيما يقولون ويكتبون ، إلك جميع الدعاء !

(٢) أما الكلام في الأنواع التي تصح مبادلة بعضها ببعض مع زيادة ، والتي لا تصح ،

فإليك بيانه :

قد عرفت أن الحديث الصحيح نهى عن المبادلة مع زيادة في الأنواع الستة ، وأن بعض المجتهدين قصر النهى عليها ، فيحوز التبادل في غيرها من السلع بزيادة وغير زيادة ، وبعضهم قاس على هذه الأنواع غيرها ، فلبين للقراء معنى النهى في كل نوع من هذه الأنواع ، ثم نذكر لهم ما لا نصح فيه المبادلة مع زيادة وما نصح :

فأول هذه الأنواع : الذهب والفضة . وجمهور الأئمة على أنه لا يصح لشخص أن يستبدل قطعة من الذهب أو الفضة بمثلا ، إلا إذا تساوت القطعتان في القيمة والوزن ، بدون زيادة ما ، وبشرط أن يقض كل من المتبادلين ما يخصه في المجلس ، لا فرق في ذلك بين أن تكون القطعتان مصرونتين كالنبيس والريال ونحوهما من العملة المأخوذة من الذهب والفضة كما ذكرنا ، أو تكونا مصوغتين كالأسورة والخلخال والقرط (الحلق) والقلادة (الكردان) ونحو ذلك ، أو تكون إحداهما مصوغة والأخرى غير مصوغة . ومعنى هذا أن الصياغة لا قيمة لها في المبادلة . ولكن بعض المجتهدين يرى أن الصياغة المباحة ينبغي أن يكون لها قيمة ، فإذا صنع الصانع قلادة من ذهب زنتها عشرون جنيها ، فإنه يصح شراؤها بخمسة وعشرين حنينا مثلا ، وتجعل الزيادة في نظير الصياغة ، إذ ليس من المعقول أن يبيعها بزنتها فقط بدون أن يكون لصناعته قيمة .

فإن كانت الصياغة محرمة في نظر الشريعة الإسلامية : كصياغة القنايل المحرمة ، وآلات اللهو ، فإنها لا يكون لها قيمة في نظر الشريعة . وعلى هذا فلا يحل شراء مصوغ محرم مطلقا فضلا عن شرائه بزيادة ما ، فإن فعل الحرام لا ثمن له .

ومثل الصياغة المحرمة النقش الطبيعي ، فإذا وجد شخص قطعة من الخلى عليها نقوش طبيعية وأراد استبدالها بقطعة مثلا لا نقش عليها ، فإنه لا يجوز أن يدفع زيادة في مقابل ذلك النقش الطبيعي . وقد يقال : إن النقش الطبيعي قد تكون له قيمة أغلى من النقش الصناعي كما هو الحال في الآثار . والجواب : أن عشاق النقوش الطبيعية يمكنهم تقويم كل من السلعتين بالثمن المناسب وشراؤها على أن يكون الثمن فضة إذا كانت العين ذهبا ، وبالعكس . على أن الحساب يقولون : إن الأوراق المالية ليست معتبرة من النقدين : الذهب والفضة . وهذا الرأي حسن ، وفيه سمة على الناس ، لأن الصناع الذين يبذلون مجهودا في صنع الخلى لا ينبغي أن يجرموا من أحورهم على عملهم ، وليس من العدل والإنصاف أن يقال لهم : إن مجهودكم قد ذهب أدراج الرياح . قال في أعلام الموقعين : « فالمصوغ والحلية إن كانت صياغته محرمة حرم بيعه بجنسه ونقيض جنسه ، وأما إن كانت الصياغة مباحة كخاتم الفضة وحلية النساء وما أبيع من حلية السلاح وغيرها ، فالعاقل لا يبيع هذه بوزنها من جنسها ، فإنه منه وإضاعه للصناعة ، والشارع أحكم من أن يلزم الأمة بذلك ، فالشريعة لا تأتي به ، ولا تأتي بالمنع من

بيع ذلك وشراؤه لحاجة الناس إليه الخ . وهذا هو الذى ينبغى التمويل عليه فى زماننا ، إذ ليس من قواعد الدين تحريم صناعة الصباغة ، أو النهى عن استعمال المصوغ ، فالصائغ قد احترف بمعرفة تقرها الشريعة ، والصباغة عمل دقيق قد يستلزم مجهودا عظيما ، فمن العدل والحق أن لا يقال للصائغ : قد ضاعت عليك صناعتك ولا قيمة لها ، ومن الحرج أن يقال له : يجب أن تبيعها بغير جنسها من القمح أو الشعير ، لأن هذا قد يتعذر ، فالخليفة المصوغه صارت بالصنعة المباحة من جنس الثياب والسلع لا من جنس الأعنان ، فليس فيها مبادلة ممن بشمن ، وإنما فيها مبادلة سلعة بشمن ، ذلك هو الذى ينبغى التمويل عليه .

بقى ها هنا شيء آخر ، وهو أن يقال : قد فهمنا مما تقدم تحريم ربا الفصل وتحريم ربا النسبة فى الذهب والفضة ، ولكن نحن فى زمن مادی غلبت فيه المادة على الآثراء الذين يمتلكون المال ، ولم نجد منهم أحدا تسمح نفسه بإخراج زكاة ماله ، أو ترضى أن تقرض العامل المضطربدون فائدة ، فإذا يصنع العمال الذين لا يجدون قوتهم ولا يملكون رأس مال يستعملونه فى بيع أو شراء ؟

والجواب عن هذا : أن فى المذاهب لأمثال هؤلاء سعة ، فقد اتفق الشافعية والحابلة على أن القروش المأخوذة من معادن غير الذهب والفضة : كالنيكل ، والبرنز ، والنحاس ، ويسمونها فلوسا ، لا يقع فيها الربا . وعلى هذا يجوز للشخص أن يشتري مائة قرش من العملة المصرية الصاغ بمائتين وخمسين قرشا من القروش التعريفية مثلا ، ويدفعها بعد شهر أو أكثر أو أقل . وفى هذا سعة للباعة والعمال الذين لا يجدون من يقرضهم إلا بمثل هذا . على أن المالكية يقولون : إن النقود المتخذة من النحاس أو النيكل أو البرنز كمقروض التجارة تماما ، فيجوز شراؤها بالذهب والفضة مع زيادة أو نقص الى أجل ، فلو قرض واحتاج عامل من العمال الى عشرة حبيبات ولم يجد من يقرضه إلا بفائدة ، فله أن يشتري من شخص قروشا صافا (ألف قرش) ويدفعها له أحد عشر جنيها أو أكثر إن وجد الجنبه ، فإن لم يوجد يقوم مقامه (ورق البنكنوت) . ولا يخفى ما فى ذلك من السمة . والخلفية يوافقون على شراء القروش الصاغ بقروش من التعريفية أكثر منها لأجل ، إلا أنهم يشترطون أن يقبض القروش الصاغ فى المجلس .

وحاصل ذلك : أن الأئمة الأربعة اتفقوا على أن النيكل والبرنز والنحاس لا يدخل فيها الربا ، فتباع وتشترى كما يباع غيرها من السلع . فمن ابتلى من المسلمين بالحاجة الى القرض بفائدة فليكن فى هذه الأصناف . ومن هذا تعلم أن النحاس والحديد والرصاص ونحوها من المعادن لا يدخلها ربا أصلا .

الثالث والرابع من الأنواع الواردة فى الحديث : القمح والشعير ، فلا يحل لشخص أن يبيع

أردبا من القمح بأردب وكيلة من قح مثله ، وإنما يحل فقط أن يستبدل أردبا بأردب بدون زيادة ولا نقص ، بشرط أن يقبض كل منهما حقه في المجلس . أما غير القمح والشعير كالذرة والأرز والبقول والحمص والتمر والحب المعروف وحب البرسيم والحلبة والجلبان والبسلة وغير ذلك من أصناف الحبوب التي تباع بالكيل ، فقد اختلف فيها الأئمة المجتهدون ، فمنهم من قال : إنها لا يقع فيها الربا أصلا ، فيصح بيعها بجنسها وبغير جنسها من الأصناف المذكورة ، مع زيادة وتأجيل القبض . وقد عرفت أن هذا رأى لبعض أئمة الحنابلة والظاهرية . أما المذاهب الأربعة المعروفة فقد اتفقوا على أن جميع الأصناف المذكورة يدخلها ربا الفضل ، فلا يجوز استبدال جنس منها بيمضه مع زيادة ما ، إلا البرسيم ، فقد قال الشافعية والمالكية : إنه لا يدخله ربا الفضل ، وذلك لأن علة التحريم في ربا الفضل عند الشافعية هي كونه عامما للآدمي غالبا ، وحب البرسيم ليس عاما للآدمي ، وعلة التحريم عند المالكية هي كونه صالحا للقوت والادخار ، والبرسيم ليس كذلك . فهذه الأشياء لا يصح بيع جنس منها بيمضه إلا مثلا بمثل بدون زيادة ولا تأجيل ، ويصح أن يستبدل جنسا منها بجنس آخر مع زيادة ، بشرط التقابض في المجلس ، وذلك كأن يستبدل أردبا من القمح بأردبين مع الشعير ، أو أردب ونصف من القمح بذلك القدر ، إلا عند المالكية ، فإنهم يقولون : إن الشعير والقمح جنس واحد ، فلا يصح أن يستبدل أردبا من القمح بأردب وكيلة من الشعير لأن منفعتهما واحدة عندهم . ولكن الظاهر يؤيد الأئمة المخالفين . على أن بعض المالكية يوافق الأئمة الذين قالوا إنهما جنسان مختلفان . ثم إن المالكية قالوا : إن الحلبة لا يدخلها ربا الفضل أصلا سواء كانت ياسة أو حضراء ، بل قال بعضهم : لا يدخلها ربا النسيئة أيضا لأنها من باب الأدوية لا من باب الأطعمة . وقد اتفقوا على أن الدقيق المأخوذ من كل جنس من هذه الأجناس هو كفلته ، فلا يصح استبدال أردب من الدقيق المأخوذ من القمح بأردب وكيلة من دقيق مأخوذ من القمح ، ولا عبرة باختلاف النوع في الجودة والرداءة . ويجوز استبدال الدقيق المأخوذ من القمح بدقيق مأخوذ من الشعير مع زيادة ، بشرط التقابض في المجلس .

وهل يصح استبدال الدقيق بالحلب المأخوذ منه : كأن يستبدل أردبا مطحونا بأردب

غير مطحون ؟

والجواب : أن بعض الأئمة يقولون : إنه يصح لأن الطحن لا يخرج الشيء عن جنسه ، وبمضهم يقول : إنه لا يصح لأن المائنة في الدقيق متميزة . والامر في ذلك سهل . ويصح بيع الدقيق والحنطة بالخبز ، فإذا أعطى شخص أردبا من القمح لأحد الخبازين على أن يأخذ منه مائة وخمسين أقة من الخبز ، فإنه يصح ، وذلك لأن الخبز أصبح جنسا مغايرا للقمح ، ولا يشترط فيه القبض في المجلس ، بل يصح أن يأخذ منه كل يوم (أقة) أو (أقتين) .

الخامس من الأنواع الواردة في الحديث : التمر . فالتمر من الأصناف التي يدخلها الربا بنص الحديث ، فلا يصح استبداله بمجنسه إلا مثلاً بمثل يدا بيد . ثم إن تمر النخيل جميعه جنس واحد وإن تعددت أصنافه ، لا فرق في ذلك بين جيده وورديه ، فالتمر المعروف بالمان أو الرغلول أو الاسيوطي أو الواحي أو المغربي كلها واحد ، فلا يجوز استبدال بعضها ببعض إلا مثلاً بمثل ، فإذا أراد شخص أن يستبدل عشرة أرطال من التمر الرغلول بأحد عشر رطلاً من التمر المغربي فانه لا يجوز . وكذلك إذا أراد أن يستبدل عشرة أرطال منه بعشرة من الآخر يدفعها بعد مدة فانه لا يجوز ، بل لا بد في استبدال التمر من المعاملة والقبض في المجلس . ومثل التمر الزبيب فانه جنس واحد ، لا فرق بين الزبيب البناتي وغيره ، فلا يصح أن يستبدل (أقة) من الزبيب البناتي بأقنين من الزبيب المرزوقي أو أكثر أو أقل ، بل لا بد من أن يستبدل مثلاً بمثل ، وأن يقبض كل منهما ما يخصه . على أن الحنفية يقولون إن التقابض فيما يؤكل ليس معناه الاستلام بالفعل ، بل معناه أن يمين كل منهما البدل بحيث يقول - أعطني رطلين مثلاً من هذا التمر وحد بدلها رطلين من هذا التمر . وهذا التعمين يكتفى وإن لم يستلم كل منهما ما يخصه .

أما غير التمر من الفواكه ، فإن كان يباع بالعد كالنخج والبرتقال والبطيخ والخرش والشام فانه لا يدخله ربا الفصل عند الحنفية ، فيجوز أن يستبدل البطيخة الواحدة بأثنين وهكذا ، سواء قبض أو لم يقبض . أما الفواكه التي تباع بالوزن كالوزن والرفوف فانهما يدخلها ربا الفضل ، ويعتبر كل جنس منها على حدة ، فلا يصح أن يستبدل أقة من الموز الجيد مثلاً بأقنين من غيره . وبديهي أن هذا مما لا حاجة اليه في المعاملة ، إذ من الممكن تقويم كل صنف بالسعر المناسب له . على أن المالكية يقولون : إن الفواكه الرطبة جميعها لا يدخلها ربا الفضل مثل الخضر كالشمش والموز والموخ والتفاح والبطيخ والقناء والليمون والجزر والكرفس والبارنج وغير ذلك من الفواكه والخضر التي لا يمكن ادخالها ، فيصح أن يستبدل كل جنس منها ببعضه وبجنس آخر بزيادة ونقص ومماثلة . ولكنهم يشترطون التقابض في المجلس ، فلا يصح أن يستبدل خمس بطيخات بعشر منها يأخذها بعد شهر ، لأنه في هذه الحالة يكون من ربا الفسينة .

أما المملح ففعل الناس لا يحتاجون الى أن يستبدلوا بعضه ببعض مثلاً بمثل يدا بيد . نعم قد يتصور احتياج الناس اليه في الأسفار ونحوها ، وفي هذه الحالة لا يضر به أحد على صاحبه ، ومع ذلك فهو من الأصناف التي لا يجوز استبدال بعضها ببعض إلا مثلاً بمثل يدا بيد .

فهذا بيان موجز لربا الفصل في الأصناف الواردة في الحديث ، ذكرناها لما فيها من فوائد نافعة . ومع هذا فقد عرفت أن بعض الأئمة يقول : إن ما عدا هذه الأصناف المذكورة في الحديث لا يدخله ربا الفصل .

أما الذهب والفضة فقد عرفت أن الاتفاق فيما عداها من حديد ونحاس وورصاص وغير ذلك عام ، فلا ربا في شيء منها .

وأما الحبوب فربا الفضل مقصور على القمح والشعير ، وما عداها من ذرة وأرز ودخن وبرسيم وحلبة وغير ذلك من أنواع الحبوب لا يدخلها ربا الفضل على هذا القول .

وأما الفاكهة فربا الفضل لا يدخل في شيء منها سوى التمر ، وما عداها فإنه يجوز استبدال بعضه ببعض مع زيادة ونقص إلى أجل ، لأنها غير محل الربا على هذا القول .

وأما الملح فقد عرفت مافيه . وهذا رأى لبعض مجتهدي الحنابلة ، ويجوز العمل به بلا كلام . فمن كانت له حاجة إلى استبدال شيء من غير هذه الأشياء المذكورة في الحديث فله أن يعمل ويقلد هذا الرأى . وقد عرفت أن الحاجة لا تكاد تصطر أحدا إلى استبدال جنس من الأحاساء المذكورة في الحديث بشيء من جنسه ، وإذا وجدت فيمكن تقويم السلعتين وشراء كل منهما بالثمن .

هذا وسنتكلم في مقالنا الآتي على السلم ، وهو نوع من أنواع المعاملة الضرورية ، إن شاء الله (٣) وبعد : فهل لأخينا الأندلسي أن يرجع إلى ما كتبناه وغيره ، فيفهم معنى ربا الفضل جيدا ، ويعلم معنى ربا النسيئة ، ويعرف ما قاله أئمة المسلمين في هذا الموضوع والقرض من التحريم ، قبل أن يقف موقف الحكم الجريء على أحاديث رسول الله الصحيحة ويقول : إنها من وضع اليهود والمجوس ! على أنه من الأسف قد فهم هذه النظرية فهما معكوسا أيضا ، لأننا إن فرضنا أن أحاديث الرما موضوعة ، فلا يعقل أن تكون من وضع اليهود مطلقا ، لأنهم هم الذين امتازوا بالربا ، ولا سوق لهم يجدون فيه لريستهم إلا سوق المسلمين الذين يحرضهم أمثال أخينا الأندلسي ، فكيف يعقل أن ينهى اليهود المسلمين عن الربا فتبور تجارتهم فيه ويقف دولابها ؟ إن المقول أن يضعوا لهم ما يرغبهم في الربا كي يقسموا عليه . ألا يرى ذلك الكائب وأمثاله أن يقتلوا فيما يقولون ويكتبون !

إن الدين الاسلامي قد امتاز بحرية الرأى ، وقد قبض الله له من أولى العلم والرأى من أبان للناس فصاياه وقواعده ، وكلها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة ، وقد أخذت أحكامه من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، ولا ريب في أن السنة الصحيحة ركن من أركان الاجتهاد بنص القرآن ، قال تعالى : « لتبين للناس » فبيان الرسول لا بد منه ، وقد أباح للملءاء من بعده أن يبينوا للناس . ومن حسن الحظ أن المسلمين قد بالفوا في نقد الحديث وتقد رجاله ، فلم يتركوا شيئا يتعلق برجال الحديث إلا قالوه صريحا ، فوضفوا رواة الاحاديث الموضوعة بالكذب والتدليس ، وضعفوا بمصها لما وجدوا في بعض رواتها ، ولم يعملوا إلا بالأحاديث الصحيحة المطابقة للعقل . ومع هذا فإن الأئمة قد يسلون بالحديث الصحيح ويختلفون في فهم

معناه فيممل كل منهم بما يراه . وهذا عما تقره قواعد الدين وتراضاه ، لأن الدين الاسلامي دين اجتهاد وإدراك ، فإذا وجد حديث صحيح ، وكان معناه مخالفا لقواعد الدين العامة ، فإنه يجب إرجاعه اليها إن أمكن ، وإلا حكم بعدم صحته مهما كان راويه ، لأن من شروط الصحيح أن يكون مطابقا لقواعد الدين العامة ، وهي مطابقة للعقل ، فما كان مخالفا لذلك فإنه لا يكون صحيحا في الواقع . وظاهر أن الأحاديث التي معنا مطابقة لقواعد الدين والعقل ، فلا يجوز لكتاب أن يقول إنها غير صحيحة ، وهو جاهل بها تمام الجمل . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

هبة الرحمن الجزيري

احتفظ بسرك لنفسك

قال عمرو بن العاص : ما وضعت سرى عند أحد وأفشاه فلعنته ، لأنى كنت أضيق صدرا منه حين استودعته إياه .

أخذ شاعر هذا المعنى فنظمه وأجاد فقال :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يستودع السر أضيق
إذا المرء أفضى سره لسانه ولام عليه غيره فهو أحسق

وقال معاوية بن أبي سفيان : الحازم من كتم سره عن صديقه مخافة أن تنتقل صداقته فيذيع سره .

وقال شاعر :

احذر عندوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما اقلب الصديق من فكان أعلم بالمضرة

وكان يقال : السكاتم سره بين إحدى فضيلتين : الظفر بحاجته ، أو السلامة من شر إذاعته . وقيل : أصبر الناس من صبر على كتمان سره ، فلم يبدئه لصديقه .

وقيل أيضا : كتمانك سرّك يعقبك السلامة ، وإفشائه يعقبك الندامة ، وأصبر على كتمان السر ، أسير من الندامة على إفشائه .

وقال شاعر :

تبـروح بسرك ضيقا به وتحسب كل أخ بكم
وكتمانك السر من تخاف ومن لا تخافهم أحـزم
إذا ذاع سرّك من غير فأنت إذا لنته ألوم

وأحل الله البيع وحرم الربا

يقول الأستاذ « شارل جيد » العالم الاقتصادي العبري : « إن تحريم الربا كان من الضروريات في العصور الفائرة ، وإن إباحته في هذا العصر من الضروريات أيضا ، لأن الدين فيها مضى كان للاستهلاك ، وأما الآن فهو للانتاج » هل هذا صحيح ؟

لقد قال الأستاذ الافرنسي « شارل جيد » أعظم علماء العصر الحاضر في علم الاقتصاد السياسي في الطبعة العاشرة في كتابه المسمى « الاقتصاد السياسي » المطبوع باللغة الافرنسية سنة ١٩٣٩ صفحة (٢٥٨) من الجزء الثاني عن مشروعية الربا ما معناه :

« إن موسى ، وأرسطر و . . . قد حرموا الربا ، وإن جميع الأديان أيضا قد حكمت بعدم مشروعيته ، فإن الكنيسة قد حرمته بصراحة في القانون المدني والقانون الكنسي « Droit Canonique » وإن الشريعة المحمدية قد اتبعت الطريق نفسه ، فقد جاء في القرآن الكريم : « وأحل الله البيع وحرم الربا » حتى إن المسلم الحقيقي في وقتنا الحاضر (ويقول ذلك متمجبا) لا يأخذ قائدة على دراهمه المودعة في البنك حتى ولو كان أصحاب البنوك ممن يديسون بالنصرانية ! !

ثم قال : « لقد أوضحنا في الجزء الاول بأن الدين منذ بدأت الخليقة الى وقت قريب لم يكن له أى صفة من صفات الانتاج ، بل إن الدين كان لا يستعمل إلا للاستهلاك ، وهكذا فإن الأقدمين ورجال الدين والرهبان لم يكونوا مضدوعين كما يتخيل إلينا حينما حرموا الربا ، بل إن تحريمهم له برهان قاطع على إحاطتهم بأحوال بلادهم الاقتصادية

« وإذا ما بحثنا عن الدواعي التي حلتهم على تحريم الربا ألفينا أن المدين كان في جميع العصور الفائرة حتى في روما ، وفي أوروبا إبان القرون الوسطى ، من عداد الفقراء المعوزين ومن عامة الشعب ، على أن الدائن كان من طبقة الأغنياء ومن اليهود الممولين ، والباعث على ذلك الدين في الحالات كلها هو شراء الأقوات والدروع والرماح وما الى ذلك من الأمور التي تعلم أنها غير منتجة اقتصاديا بل إنها للاستهلاك المحض » .

ثم قال : « ومن البدهي إذا حل أحل الدين ألغيت أن المدين لا يستطيع أن يدفع للدائن لا الفائدة حسب ، بل إنه لا يقوى على دفع المال نفسه ، ولذلك يجب عليه أن يدفع قيسة ذلك من حريته وجسمه وتعبه . فقد جاء في القانون الروماني المسمى : قانون الألواح الاثني عشر : « إن المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق ، إن كان حراً ، ويحكم عليه بالسجن أو بالقتل

إن كان رقيقاً . وعلى ذلك فإن الربا يترأى لنا كآفة وسيلة للاستثمار ولا فئلا للمدينين ، وإن هذين الأمرين يكفیان لتحريره تحريراً تاماً . ثم قال : « وبعد سنة ١٧٨٧ نرى أن الاقتصاديين قد أجمعوا على مشروعيته ، وكانوا بذلك محقين ومنبعين جادة الصواب ، فإذا بحثنا عن سبب ذلك ألفينا أن الأمور قد تغيرت في هذا العصر » .

(١) « ليس الفقراء والمعوزون وطامة الشعب هم الذين يستدينون من الأغنياء والأشراف في أيامنا هذه ، بل الأمر على عكس ذلك ، فإن الأغنياء وكبار التجار والشركات ذات الصيت البعيد ، وأصحاب البنوك والحكومات المظلمة ، وملاك مناجم الذهب ، هم الذين يستدينون في أغلب الأحوال من عامة الشعب ، من الأفراد البسيطين من الهال الماديين : أي بالإنجار « من المذخور الشعبي » فإنهم يأخذون من الصريرة ما وفره الفرد من قوته ومسكنه وملبسه ، وإذا صح ماقلته فإن الذي سينير حناقتنا وشفقتنا الآن ليس هو حالة المدين ، بل الذي سينيرها هو حال الدائن . وهكذا فليس ما يجب أن يحافظ عليه الرأي العام والقانون هو المدين الضعيف المحرد عن السلاح من شراة الدائن كما كان عليه الأمر في العصور الغابرة ، بل بالعكس يجب على القانون والرأي العام أن يحافظ على حقوق الدائنين الجاهلاء من استثمار كبار المدينين الممولين لهم . ولنا في التاريخ المباني في عصرنا هذا أمثلة وافرة مما توجب الأسف العميق .

(٢) ثم قال : « ومن جهة أخرى إن المقصد الأصلي من عقد الدين قد تغير ، وسوف لا يستندان لشراء الأدوات ، وما تقوم به مادة الحياة ، ولكن يستدان في هذا العصر طلباً للإثراء والإنتاج ، وأصبح بعد أن كان المتوخى من الدين الاستهلاك أصبح المراد منه الإنتاج بالمعنى الاقتصادي » . ثم قال : « لقد ذكرنا في الجزء الأول أن المنتج « L'entrepreneur » هو العامل الأساسي في الإنتاج ، فهو الذي يستأجر رهوس الأموال ، ويدفع الفائدة من الأرباح . فإن أسعار الحاجيات التي ينتجها تساوى قيمة المواد الأولية وأجرة الهال واستهلاك الأدوات ، وأجرته وأجرة بناء معمله . وكذلك فائدة رأس ماله وفائدة رهوس الأموال المستدانة من الآخرين ، فيكون من الحق والجنون أن نعى هذا « المنتج » من دفع الفائدة وندهى أن ذلك هو من باب الموااة للبشرية ، لأن ذلك الإغفاء يزيد ربحه ربحاً جديداً بدون مبرر » .

هذا ما قاله الأستاذ « شارل جيد » وحكم بموجبه بأن الربا هو من الضروريات في هذا العصر : عصر النهضة التجارية ، والصناعة . وإبنى سوف أسعى لأن أرذ عليه لا بالنصوص الدينية والشرعية من الكتاب والسنة ، بل بردود اقتصادية دامغة ، وذلك لأنه قد آمن بالنصوص الدينية ومشروعيتها ، ولكنه رأى أنها لا تصلح لوقتنا هذا فقط . فإذا ما أثبت نقاء ما اعترف بأنه كان في الزمان الغابر باعنا على تحریم الربا ، وبرهنت على عدم ضرورة الربا

في هذا العصر، ودلت على أن إباحته هي المسببة للأزمات الحاصرة، أكون قد حكمت بأن ديننا الاسلامي يصلح لكل زمان ومكان . لذلك أقول :

(١) لقد قسم الأستاذ « شارل جيد » الدين كما رأينا الى قسمين : دين للاستهلاك ، ودين للانتاج ، وأثبت بحجج دامغة عقم الاول وضرره ، وعلى الاخص في المصور القديمة ، ثم أثبت منفعة الثاني في عصرنا هذا ، وحكم بعد ذلك بعشروعية الربا في القسمين دون أن يلاحظ التقسيم عند الحكم ، فأقول . إنه قد أثبت بذلك جزء الدعوى وترك الجزء الآخر دون إثبات ، فهل من الصواب والرشاد أن يفتح باب الربا على مصراعيه بمجرد ادعائه أن دين الانتاج مفيد ؟ كلا ثم كلا ، بل يجب إن كان ما زعمه صحيحاً أن يباح دين الانتاج دون سواء ، ويحرم دين الاستهلاك ، لأنه لم يدل على عدم مشروعيته الآن ، ولأنه لم يبرهن أن هذا النوع غير مستعمل في وقتنا هذا .

(٢) لنسلم حداً لا أن ما زعمه الأستاذ « شارل جيد » صحيح . أي أن دين الانتاج مفيد ، ثم هل بعد ذلك أن حكومة من حكومات العالم حلت دين الانتاج ، وحرمت كل دين معد للاستهلاك أحداً برأيه ، فأنى أرى بل أحزم . أن هذا التشريع غير قابل للتطبيق ، لأنه لا يمكن التحقق قبل الدين من أن المدين سوف يمد حتماً هذه الدرام للانتاج دون غيره ، وباب الاحتيال كما تعلم في هذا الامر واسع ، وإذا علمنا أن الخير والشركة في هذا العالم نسي حتى إن الأكل إذا أكثر منه الانسان قد يودى بحياته ، أرى أنه وإن سلم بصحة ادعائه يجب الحكم بل الحزم بعدم مشروعية الربا ، لأننا لم نستطع الوصول الى القاعدة المزعومة من إباحته ، ويكون على ذلك أضراره أكثر من فوائده .

(٣) إن الأزمات الاقتصادية في عصرنا الحاضر هي أزمات من زيادة الانتاج لا من نقصه « Suprodu Atiou » فكيف من مرة أحرقت الحكومات ما زاد مما يستهلكه العالم من البن ، وأنقذت القطر كي لا ترخص أسعارها ، وكذلك اليابان قد اكتسحت العالم بمنتجاتها ، وكل الحكومات تشتكي قلة الأسواق لتصريف البضائع المتكدسة ، فهل وجدوا من دواء لهذا المرض العضال غير من الحروب طلباً لمستعمرات والأسواق ؟

لا ورب الكعبة ! فأنى أرى وإيم الحق في تحريم الربا والرجوع الى أوامر الله عز وجل في جميع كتبه الميزة الدواء الشافي لهذه لازمات ، فهناك التجار والمستحقين يشغل كل واحد منهم عشرة أضعاف رأس ماله وينتج أكثر مما يطلبه ربائنه منه ، وهو يشتكى في آخر الامر من الأزمة ، ومن قلة البيع ، ويقول إن أرباحه لا تكفي لدفع الفوائد التي على ، وتراه وكأنه يمس من الجنون يركض ويستدين ويختلس ويغش ، وكل ذلك خروفاً من تقصيره عن دفع الديون وفائدها ، وحواف من العار القاصح المسمى عند التجار بالافلاس ، فقد قال تعالى في محكم كتابه :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ». ألا ترى معنى أيها القارئ الكريم أنه لو اشتغل برأس ماله فقط وربح ما يسد عوزة ، وأنتج ما يطلب منه دون أن ينصب نفسه على غير جدوى سعيًا وراء الطمع ، لو كان فعل ذلك لما كان هناك أي سبب لإصابته بهذه العوارض .

(٤) إن أكثر أموال العالم في وقتنا هذا هي إما غنى لاسهم أو لسندات مالية . فالاسهم هي عبارة عن الأموال التي يدفعها الأغنياء عادة لتأسيس الشركات العظيمة ، وهي شرعية بكل معنى الكلمة ، لأن الربح فيها حاصل من طريق الانتاج والعمل . وأما السندات فهي ما تستدينه الشركات العظيمة من الأموال عند نجاحها من الأفراد العاديين لتوسيع أعمالها ، وتعليقها فائدة $\frac{3}{100}$ أو $\frac{4}{100}$ في السنة على ذلك ، وتأخذ الشركة بقية أرباح أموال هذه السندات ، فتري أن السهم يربح $\frac{25}{100}$ أو $\frac{50}{100}$ وأن السند لا يأخذ إلا $\frac{3}{100}$ أو $\frac{4}{100}$ حتى أنه قيل بأن شركة في القطر المصري يربح كل مليون من رأس مالها (١٢) ملياً في كل سنة . فهل تعلم ما هو نصيب المليون الواحد الذي استدانته الشركة ؟ هو $\frac{1}{100}$ من المليون في السنة .

وعما هو معلوم أن المؤسسين للشركات هم أكبر الأغنياء ، وتكون الأسهم موزعة عليهم بكميات وافرة للحصول على الانتخاب والتصويت والكفالة والإدارة الخ . وأما السندات فهي موزعة بكثرة على الطبقات الوسطى والفقيرة ، فهل من الصواب والرشاد أن يربح جنيه واحد جنيتها أو خمسة جنيهات في السنة مع أن الجنيه الآخر في نفس الشركة يربح أربعة أو ثلاثة قروش ؟ لا وإيم الحق ! فأننى أرى في تحريم الربا لشرا للعدالة والفضيلة .

ليوفى علماء الاقتصاد السياسي بأن تحريم الربا سوف لا يؤثر على المؤسسات الاقتصادية قط ، بل إن الشركات سوف تحرر عوصاً عن الاستئذنة بفائدة معينة إذا زعمها المال وتكملت أعمالها بالسحاح إلى تكبير رأس مالها وإصدار أسهم أخرى لها من الأرباح ما للأسهم الأولى ، ويتساوى بذلك في الربح كل الحاملين لهذه القراطيس المالية ؟

فخر الدين الصامب

خير البر عاجله

قال شاعر في هذا المعنى :

وقد تأخر لم يسلم من الكدر	حود الكرام إذا ما كان عن عدة
تفعا إذا هي لم تخطر على الأثر	إن السحاب لا تحدى بوارقها
يداه من بعد طول المظل باليد	وما ظل الوعد مذموم وإن ممحت

الاسلام كما يراه الاوربيون

يسط الاسلام في مبدأ شبابه سلطانه على قارتى آسيا وأفريقيا وجزء عظيم من قارة أوروبا من الداهيتين : النظرية والعملية ، ثم احترق صليل صولته أسباع الشعوب التي لم تدن به ، ودوى في رؤوسها صوت جلاله القوي ، فكان من الطبيعي أن يروع الساسة ، ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه في تلك الشعوب التي لم تسكن نطمئن على مصيرها بأزاء هذا التيار الجارف ، وكان من الطبيعي أيضا أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المحلصين منهم الى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراستها لاوقوف على ما فيها من فكر وآراء نظرية ، وطقوس وتقاليد عملية . وقد كان ذلك بالقمل ، فنظر أولئك وهؤلاء في نصوص القرآن والحديث والسيرة النبوية نظرة ادعوا أنها نظرة تقدر ، وتعجيب برى ، وأنهم لم يتخذوا خلافا كبراس هاد إلا الحقيقة وحدها ، وإن كان ذلك لا يتفق مع الواقع إلا في بعض الأحوال ، بل إننا نستطيع أن نجزم — استنادا الى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء — بأن الدراسة الجدية لنصوص الاسلام وتعاليمه ، والبحث الدقيق التزبه في أسرارها ومزاياها ، لم يبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية في أوروبا وأخذ المستشرقون بمجدون في فتح مغاليق المشرق وكشف ما فيه من كنوز بمدهمة (تالليون) التي فقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية .

أما قبل ذلك العهد ، فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الاسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء أكثر منها بمبنا للجدل والنقاش ، لأن أكثرها كان مفعما بالجهل المطبق ، والسطحية والنصب ، وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التي هي الدامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها وغاياتها . ونحن حين نقرر هذا لا نتعنى على أولئك المؤلفين ، ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التي في كتبهم وفي كتب الباحثين المحدثين الاكثر راحة وعلمنا من بين الاوربيين أنفسهم . وإليك شيئا من هذه الحقائق :

(١) قال الأستاذ « دير منجم » : « حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون ، اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل منهما فهم الآخر . ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين . وفي الواقع أنه على أثر تلك الممارك العقلية العنيفة التي أرهق فيها الجدليون اليزانتيون الاسلام بمساوى واحتقارات دون أن يتعمبوا أنفسهم في دراسته ، هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجون العرب ، فلم تكن مهاجماتهم إياهم إلا تنهما باطلا ، بل مشافضة » (١)

(٢) قال الأستاذ «كارادى فو» : «إن هذا ظل وقتنا طويلا مبروفا في الغرب معرفة سيئة ، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها اليه » (٢) .

ولما كنا قد اعترفنا أن نقصر عنايتنا في هذه البحوث على الكتب التي تستحق أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية ، مثبتين ما احتوته من حقائق عملية لشأن الاسلام ، هادمين ما اعتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن حبل ملقيف ، أو شطط في الفهم ، أو ابتعاد عن المنطق السليم ، مبرهنين على رأينا بأنصع الأدلة وأسطع البراهين . ولما كانت هذه الخطة التي اعتمدها تستتبع الإغضاء عن الأكتربة الغالبة من المؤلفات التي كتبت قبل القرن التاسع عشر ، فقد آثرنا أن نكتفي في جانب هذه المؤلفات القديمة بإشارة عاجلة الى كل واحد منها . واليك هذه الاشارات :

(١) نحمدنا قصيدة « رولان » وهي أهم منتجات المصور الوسطى الغربية على الإطلاق ، أن فرسان شارلمان قد أسقطوا الاصنام الاسلامية ، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلعا من : محمد و « أبولون » و « تيرفان » .

ولا أحسب أن التاريخ قد عرف سخفا أخط من هذا السخف ، أو ضلالا أسقط من هذا الضلال ، وأما لا أستطيع أن أعزو هذه الأضالة الوضيعة الى الجهل وحده بل الى سوء النية أيضا ، لأن انحصار غاية الاسلام المثلث في التوحيد ، وإلحاق القرآن على إثبات انفراد الله بالمادة الحقة ، وعاربة الوثنية ، وإزالة البهي بياها من فوق جدران الكعبة ، كل ذلك يوضح رأى الاسلام في التوحيد ، بل إن كلمة الاسلام التي لا يثبت إلا بها ، وهي كلمة (لا إله إلا الله) هي نفسها حلة قاسية على الأوثان والوثنية .

أما الثالوث الذي زعم مؤلف القصيدة أن المسلمين يعبدونه ، فهو لا يخرج عن كونه من باب « رمتني بدائها وانسلت » لأن المسلمين موحدون توحيدا خالصا تقيا لا يعرف المواربة ولا الهوادة ، ولا التعبيرات المبهمة دوات المعاني المختلفة والمراى المتباينة ، وإنما غيرهم هو الذي يرمى بمنزل هذه التهمة .

على أنى لست أدري كيف يعد مؤلف هذه القصيدة الثالوث مفعزا يطمح به على الاسلام مع أنه ارتضاه في المسيحية ولم يعترض عليه ، ولكن أنصار هذا المؤلف المنصب قد أجابوا عنه بأن ثالوث المسيحية يرجع الى واحد ، في حين أن ثالوث غيرهم مؤلف من كائنات متعددة . وهنا يهوى المدافع في ظلام الجمل الغامضة المعقدة التي خلا منها التوحيد الاسلامي خلوا تاما .

(ب) يشاهد القارئ في قصيدة « أورشليم » وصفا دقيقا لثمال زعم مؤلفها أنه صنع

لنبي من الذهب والقضبة الخالصين ، وأن قاعدته هي تمثال فيل أسعد فوقه كأنه يمثل النبي وهو راكب .

وقد وصلت المرأة على الحق والنحنى على التاريخ بهذا الشاعر الى حد أسقطه من صفوف المؤرخين الذين يسجلون الحوادث على حقيقتها إسقاطا تاما ، لأن أولئك الغربيين المحدثين أنفسهم اقتنعوا بعد الدرس والبحث أن مهمة الإسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها ، والحكم بالإعدام على جميع ما يمت إليها بصلة من قريب أو من بعيد ، بل إن المحدثين يأخذون على المسلمين مغالاتهم في هذا التشديد ويقولون : إن المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير . وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة بردود مغنطة ليس هذا المجال موضع ذكرها ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق ، ولا يبرزها المنطق ، ولا يسندها التاريخ .

(ج) هناك رواية سخيفة ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها أن الإسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا . وليست هذه الأكنوبة الساقطة في حاجة الى الرد ، لأن ضاكتها تهوى بها عن أدنى درجات الجدل والنقاش .

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الإسلام بالطمع والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة أو على الأهواء والأغراض (١) . ولم نفا أن تفيض فى سرد هذه الآراء الباطلة ، أو أن نذكر عددا من الكتب أكثر مما ذكرنا ، لأننا ألقينا العلماء المحدثين قد أنزلوها منزلة الجديرة بها من الإغفال والإهمال ، فرأينا أن مهاجمتها غير مجدية . ولهذا آثرنا أن نتخطاها الى الكتب الجدية التى يصح أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية ، ليكون البحث قيا مفيدا .

ليست العصور الوسطى وحدها هى المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة ، بل إن عصرى الانتقال والنهضة ، والقرنين : السابع عشر والثامن عشر ، قد احتوت من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير . فكما سقط كتاب القرون الوسطى وشراؤها فى الأخطاء المرعبة التى أبشاك طرفا منها آنما ، كذلك هوئ كثير من علماء هذه القرون الأربعة الأخيرة . مثلا : « باسكال » و « مالبرانش » فى القرن السابع عشر ، و « مونتسكيو » و « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، و « رينان » فى القرن التاسع عشر ، و « كارانوا » و « ديرمنج » فى القرن العشرين ، كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسيمة نحو الإسلام ، وهوا فى مخالعات جديدة للعلم

(١) اكتنبيا من كتب القرون الوسطى بما تقدم . ومن أراد الاستزادة فيه بالفواهم التى وردت فى كتب المحدثين حاوية أسماء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة كالفائمة التى أوردتها العالم الكبير السكوت دى كاسترى فى كتابه « الإسلام »

والتاريخ، كما أن لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال كارادى فو، وديزييه بلانشيه، وكليمان هوار وأصراهم، عن الإسلام آراء قيمة حذيرة بالاحترام.

وسنعرض لآراء كتب أولئك العلماء فى شيء من البسط فى الفصول المقبلة، ولكننا نكتفى اليوم بأن نشير الى أن « فولتير » فى هجومه على الإسلام كان قد أراد فيما يظهر أن يتخذ رمزاً لجميع الديانات، لأنه كان يطمح عليها كلها من غير استثناء. ولكنه لما خشى اضطهاد الكنيسة والحكومة، اتخذ نبي المسلمين ستاراً يختمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان. وقد وصل فى الاتفاق الى حد أن أهدى هذا الكتاب الى البابا، لينال رضاه، أو ليتقى غضبه على أقل تقدير.

وما اعتمد عليه العلماء فى الحكم بأن الإسلام فى كتاب « فولتير » صورة رمزية، هو أن آراءه فى كتبه الأخرى عن الإسلام تختلف عن رأيه فى هذا الكتاب، وأن طريقته فى كتابته كلها كانت دائماً تشتمل على هذا النوع من المداورة والمراوغة. اللهم إلا أن يكون « فولتير » قد قصد بهذه الصورة الضالة التى صور بها نبي المسلمين فى روايته أن يرضى البابا، ويخفى فى سبيل ذلك « التزاهة والحق والكرامة »، ولكنه لم يفز منه بهذا الرضى المنشود، ففسر الصنفقة وثمنها.

أما « رينان » فقد تناول الإسلام فى كثير من مؤلفاته بالقدح، ولاسيما فى كتابه « الإسلام والعلم » الذى طمس فيه على العرب والإسلام طموحاً دفعت المغفورة السيد جمال الدين الأدهنى الى الرد عليه بما أحسنه وأزعمه الحجة والاعتراف بصحف كثير من المصادر التى استقى منها معلوماته. وسنمر فى الكلمات الآتية بهذا كله فى شيء من التفصيل، معقبين على الباطل منه بما يدحضه دحضاً تاماً، مثبتين الحق مع الثناء على نزاهة أصحابه ورجاحة عقلياتهم، ولكننا رأينا أن نبدأ هذه الفصول بذكر الآراء الصحيحة التى هى الى جانب الإسلام والحق، فإذا انتهينا منها، مررنا بالآراء الأخرى المخالفة مرور الناقد بالحجة والبرهان، لا بتأثير العاطفة، أو بدافع التعصب والهوى.

أما اليوم فسكتى بأن نختم هذه الكلمة ببعض عبارات موجزة قيمة شهد فيها أصحابها للنبي صلى الله عليه وسلم شيء مما كان عليه من العظمة والجلال. وهالك هذه العبارات.

(١) قال الأستاذ « كازا بونا » : « إن كل تاريخ النبي العربى يدل على أن خلقه على جدى محمود. إنه حتى حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق عرف كيف يستمع آراء الغير ويعترف بهوائه ويصلحها. إن محمداً وأصحابه قد أضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وإدراكاته للحياة الواقعية من جهة، وبين تعاليم السماء من جهة أخرى. وقد ظلت هذه الفروق خالدة

في الاسلام الذي لا يخلط بين القران والسنة ، بل إنه في السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الموحى به ، وما هو شخصي لمحمد (١) .

(٢) قال الأستاذ « كارادى فو » : « إن محمداً أتم طفولته في الهدوء ، ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود ... وقد عاش هادئاً في سلام حتى بلغ الأربعين من عمره ، وكان بشوشاً تقياً لطيف المعاشرة (٢) » .

(٣) وقال أيضاً : « إن محمداً كان هو البى والملمهم والمؤسس ، ولم يستطع أحد أن يزاوجه المسكنة العليا ، ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عصر آخر ، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . إن شعور المساواة والاخاء الذي أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقاً عملياً حتى على البى نفسه » (٣)

(٤) قال « ديزيريه بلانشيه » : « إن النبى محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى : أنه أحيا شعباً ، وأنشأ إمبراطورية ، وأسس ديناً » (٤)

(٥) قال « لامارتين » : « إن محمداً أقل من إله ، وأعظم من إنسان عادى ، أى ، به نبى » .

(٦) قال الأستاذ على (٥) أسير الدين : « صريح ذلك الراعى ، قوى العزم ، بقى القلب ، ظاهر النفس ، دماه قومه بالأمين ، وحقق إنه لأمين . أحبه جده وأوصى بذلك الصبي الجميل خيراً ، فهو خير ثمرة لحجر شجرة نبتت بين ربوع قريش ، وقريش هذه من أعظم قبائل العرب في ذلك الحين » .

(٧) قال الأستاذ « حارسان دى تاسى » : « إن محمداً ولد في حضن الوثنية ، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بمقربة هائلة ازعاجاً عظيماً من الرذيلة ، وحباً حاداً للعصية ، وإخلاصاً ودية حسنة غير عاديين الى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد اسم الأمين » (٦)

البركتور محمد غمروب

مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٥ من الجزء الاول من كتاب « عهد وبهاية العالم » للأستاذ كارانوف . وليلم لتقارىء أن هذا الكتاب كما اشتت على آراء صحيحة ، احتوى على أخرى فاسدة سخرش لندها بما يمد . (٢) انظر صفحتي ٢٢ و ٢٣ من كتاب « الحمدي » للأستاذ كارادى . (٣) انظر صفحة ٦٣ من الكتاب المذكور . (٤) انظر كتاب « دراسات في التاريخ القديم » . (٥) هو شاب استرالى اعتنق الاسلام وقد ألف كتاباً فيها عن الدين الاسلامى وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم (٦) انظر صفحة ٦ من مقدمة كتاب « الاسلام » لجارسان دى تاسى .

في بلاغة القرآن

رأى جديد في بعض مناجيها

يطيب لنفسى أن أتعبد مادبة الله كلما استطلعت الى ذلك حبيلًا ، فالتهم من طعامها الشائق ، وأحتسى من شرابها الرائق ، ما أعتقد أن فيه غذاء لروحي الساعية وريا ، وما أكاد أنفعل عنها حتى أحس برغبة جامحة في العودة ، فأطوّد السكرة ابتغاء الاقترار وإزالة العطاش ، ولكن هيهات ، فكلما ازدددت منها ارددت شوقا اليها ، وحرصا عليها :

إذا ازدددت منها زاد وجدى بقربها فكيف احتراسى من هوى متجدد

هيهات هيهات أن تقنع روحي من مادة الله ، وطعامها شفاء للنفس ، وشرابها طهور للحمس ، وغشيانها جلاء للقلب وصقل للضمير . كيف أفنع من القرآن مادة الله ، كما سماه رسول الله فكانت تسمية فذة بارعة ، أصاب بها عليه السلام شواكل المراد ، وطلق مفاصل السداد ، بإيجاز وإيجاز لم نر لها ضريبا إلا في القرآن الكريم . والقرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وفضله على سائر الكلام « معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفي ، يشهد بذلك عمر المتعاطين ، ووهن المتكافين ، وتحير الكاذبين ، وهو المبلغ الذي لا يمل ، الجديدي الذي لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والمأخى لظلم الصلال ، ولسان الصدق النافى للكذب ، ونذير قدمته الرحمة قبل الهلاك ، وماعى الدنيا المسقولة ، وبشير الآخرة المخفلة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة ، وإن أوجز كان كافيا ، وإن أكثر كان مذكرا ، وإن أوما كان مقنعا ، وإن أطال كان مقبها ، وإن أمر فناصحا ، وإن حكم فعادلا ، وإن أخبر فصادقا ، وإن بين غشافيا ، سهل على الفهم ، صعب على المتعاطي ، قريب المأخذ ، بعيد المرام » لا تستسهل النظرة الاولى ، وقد تكون الثانية مبمّث توهيم . وإذا ما هجس التوهيم في نفس لا يقر لها قرار أو تكون على بيبة من أمره ، فتبحث وتنقب ما وسعها البحث والتنقيب ، وترهف الذهني وتحمد الخاطر ، ولا تزال تدبر الرأى ، وتحيل عيون الغرض لتعلم سر توهيمها ، ولا سيما إذا كان هذا التوهيم في كتاب أحكمت آياته وأعجزت ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكثيرا ما نظرت في آيات منه فتوهيمت ، فبحثت فأصفر البحث عن حقائق تجعل القلب خاشعا متصدعا من خشية الله ، مؤمنا إيمانا قويا صادقا لم تشبه شائبة من شوائب التقليد بأنه معجز حقا ، تتماقب عليه الأيام وتتماور الأيام فما تزيد الأيام إلا جسدة ونضارة ، وتنحسر عنه العقول ظالمة حسيرة وما تنفذ كلماته ، ولا تفرع أسرار بلاغتها « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

من تلك الآيات التي فطرت فيها فتوحات ، قوله تعالى : « فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوحك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظما فيها ولا تضحي » فلقد خيل إلى أنه لو قيل : « لا تجوع ولا تظما ، ولا تضحي ولا تعرى » لكان ذلك جاديا على ما تقتضيه البلاغة من الملاءمة بين الأشباه والنظائر ، ولكسها لم تحيى ، كذلك فلا بد لهذا من سر بل من أسرار ، لأن لكامة في القرآن ليست كما تكون في غيره « بل السمو فيها على الكلام أنها تحمل معنى ، وتوى إلى معنى ، وتستيع معنى ، وهذا ما ليس في طائفة البشرية ، وهو الدليل على أنه كتاب أحكت آياته ثم فصلت » فما سر مجيئها هكذا ؟

فطرت في كتب التفسير التي بين يدي ، وهي الكشف والطبرى والنسفي والجلالين والبحر المحيط ، فما ألفت كتابا منها حاول أن يكشف عن سر نظم الآية ، بيد أني وجدت فيما كتبه الصاوي على الجلالين كلاما ليس له ضحى ، فهو يقول : « قابل بين الجوع والعري ، والظما والصحو ، وإن كان الجوع يقابل بالعطش ، والعري يقابل بالضحو ، لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، والظما حر الباطن والضحو حر الظاهر ، فتنى عن ساكن الجنة ذل الظاهر والباطن ، وحر الظاهر والباطن » . ووجدت ابن المنير يقول في كتاب الانتصاف : « والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكلا لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة . على أن في الآية سرا زائدا على ذلك وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظما بالجوع لانتزسلك رءوس الآي ، وأحسن به مننظما » . وهذا الكلام ليس له نصيب كبير من الوجاهة والرجاحة ، ولذلك لم ترتع إليه نفسي ولم تقع به ، وإنما قنعت برأى حلو جميل انساب في أعطافها ، ودب في ثباياها ديب الكرى في المفاسل ، ففرحت به وآثرته ، وصارت به حفية ، وله وامقة ، ولشره تائمة ، ويتخلص هذا (الرأى في أنه لو جاء النظم هكذا : وأنت لا تجوع فيها ولا تظما ، لوجب أن يقال : وأنت لا تعرى فيها ولا تضحي ؛ ولو كان ذلك كذلك لقسد المعنى ، لأن التضحي هو البروز للشمس بغير سترة كما في اللسان وغيره ؛ وإذا كان التضحي هو البروز للشمس بغير سترة كان معناه العرى ، فيصير معنى الكلام : « وأنت لا تعرى فيها ولا تعرى » ، وهو فساد بين ؛ ولما كان هذا الفساد في النظم مرجعه ضم الأشباه والنظائر ، فرقها وجاء بها على هذا السق الدقيق : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظما فيها ولا تضحي » ، وضم سبحانه لئفى الجوع نفى العرى لنظم النفس بسد الجوع وستر العورة اللذين تدعو إليهما ضرورة الحياة ونجاسة الانسانية . ولما كان الجوع مقدما على العطش كتقديم الأكل على الشراب ، كان من مقتضى البلاغة أن يتأخر ذكر الظما عن الجوع ، وأن يتقدم على التضحي كما تأخر ذكر العرى عن الجوع ، لأن التضحي من حلس العرى والظما من جنس الجوع . ولعلك إذا بلغت هذا الموضع من مقالنا تسألنى فيما بينك وبين نفسك ، أو فيما بينك وبين غيرك ،

وتقول : إذا كان الأمر كما بينت، وكان سر التفريق بين الأجناس كما جلت، فلم ذكر التصحي وهو عري كما ثبت، وقد أغنى عنه ذكر العري؟ ولعل أبلغ الغاية من إقصاءك ومرضايتك، أو لعل أوفر عليك مؤنة السؤال أو التناؤل إذا قلت لك . في ذكر التصحي فائدة كبيرة، وهي وصف الجمة بأنها لا تفسح فيها « لا يرون فيها شمساً ولا زهرياً » فإن التصحي عري مخصوص مشروط بالبروز للشمس وقت الصبح، ولتلك سمى تضحياً، وسميت الشمس ضحى لظهورها في ذلك الوقت، والانتقال من الأعم إلى الأخص بلاغة، لاختصاص الأخص بما لا يوجد في الأعم كما يقولون .

وفي القرآن الكريم آية أخرى تشبه هذه الآية في التوهيم كل المشابهة، وهي قوله تعالى: « مثل الفريقين كالأعمى والأصم، والسميع والبصير، هل يستويان مثلاً؟ أفلا تذكرون » خيل إلى أن هذه الآية قد أتت على غير طريق البلاغة، فإن طريق البلاغة أن يقال: « كالأعمى والبصير، والأصم والسميع » لنلتزم الالفاظ وتأتلف بمعانيها، وليكون في كل جملة من الجملتين طباق لفظي . وأخيراً تبيّن لي أن عجبتاً على العظم الذي توهمنه وزينه لي الطبايق المردوج . يفسد المعنى الذي جاءت الآية لتقريره . وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال . « مثل الفريقين » فافتضى ذكر الفريقين تقييدهما، فقال : « كالأعمى والأصم، والبصير والسميع » ليكون المشبه به قسمين، والمشبه وفق عدد الفريقين؛ أحد القسمين مبتلى والآخر معافى، للتضاد بين القسمين حتى يصح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما . ولو قيل : « كالأعمى والبصير » لكانت هذه الجملة فريقين، ثم يعود فيقول : « والأصم والسميع » فيكون في الجملة الأخرى فريقان آخران، فيكون قد فسر الفريقين بأربعة، وهذا فساد واضح، ولذلك عدل الملاممة في ظاهر الكلام إلى ما هو أهم منها، وهو تصحيح المعنى المراد . ولقد أذكرتني هذه الآية والتي قبلها - والشئ بالشئ يذكر، والحديث شحون - بقصة طريفة جرت بين سيف الدولة والمني، توم فيها سيف الدولة عدم المناسبة بين أبيات، وكشف له المنفي عن المناسبة وبأن له سرها . روى البكري أن المنفي وقف يشد سيف الدولة قصيدته التي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
حتى وصل إلى قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف كالمك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وصاح وثرك باسم

فأسكر عليه سيف الدولة تطبيق عجز البيتين على صدرهما، وقال له : ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثاني، وعجز الثاني على الأول . ثم قال له : وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله .

كأنني لم أركب جواداً ثلثة ولم أتبطن كاعبا ذات حلحال
ولم أسبأ الرق الروى ولم أقبل خيلى كرى كرة بعد إجمال

ووجه الكلام في البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر. أن يكون عجز الأول على الثاني والثاني على الأول ليستقيم الكلام، فيكون ركوب الخيل مع الأمر بالخيل بالسكر، وصعب الخمر مع تبطن الكعب. فقال له المتنبي: أدام الله عز مولانا، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن البراز لا يعرف الثوب مثل معرفة الخائف، لأن البراز يعرف جلته، والخائف يعرف جلته وتفصيله، لأنه أخرجه من الغرلة إلى الثوبية. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السباحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتممته بذكر الردي ليحاذيه، ولما كان وجه المنهزم لا يخاف من أن يكون عبوساً، وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهك وضاح لأجمع بين الأضداد في المعنى. فأعجب سيف الدولة ووصله نخسائه دينار. قال أبو الفتح بن جني — فيما نقله الواحدى: وليس الملك والشجاعة في شيء من صناعة الشعر، ولا يمكن أن يكون في ملاءمة العجز للصدر مثل هذين البيتين، لأن قوله: كأنك في حفن الردي، هو معنى قوله: وقتت، فلامعدل لهذا المعجز عن هذا الصدر، لأن النائم إذا ألقى حفته أخط بما تحته، فكأن الموت قد أغلته من كل مكان كما يحرق الجفنة بما يتصمن من جميع جهاتها، فهذا هو حقيقة الموت. وقوله: تمر بك الأبطال، هو النهاية في النطاق للمكان الذي تكلم فيه الأبطال فتكلم وتفس، وهذا كلام رائق محجب يدل على حصافة وتفطن، وبصر بدقائق المعاني ومنازع الكلام.

السيد أحمد صفر

لا تكلمك العباءة

روى أن معاوية بن أبي سفيان نظر يوماً إلى النحار بن أوس العدوى ولم يكن قد حبره، وكان خطيباً مفوهاً وطاملاً بالأنساب، فأذرت عينه، وكان في ناحية من مجلسه وعليه عباءة. فأوهم تنحيه معاوية أنه من العامة، فأدرك النحار ذلك في وجه معاوية، فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك ولكن يكلمك من فيها، وكلام الرجل آداب، لا تبايه. وأنشد:

إني وإن كنت أثراوى ملفقة ليست ببحر ولا من نسج كنان
فإن في المجد هاتى وفي لغتى فصاحة ولسانى غير لحاف
فأكبره معاوية ورفع منزلته.

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٢ —

عمر بن الخطاب

ألمنا في مقالنا السابق الذى جعلناه تمهيدا لأحاديثنا عن « قادة الفكر في تاريخ الاسلام » الى أطوار الفكر الانسانى التى مرت بها فى مراحل من الحياة لم يجد فيها سلطانا غير سلطانه ، فاندفع مقامرا فى خضم الوجود ، يظن مرة سابحا ، ويفرغ أحيانا راسبا ، فادا عصفت به عواصف التقاليد الاجتماعية ، وغلبته أوضاع الأمم الساذجة على طبيعته ، وتلاعبت به أمواج الحياة ، هوى الى حصيص الجماعة فى حياة أساطيرها يستوحىها الخرافات والاباطيل ، يجرى وراءها حيا من الدهر حتى يمسود الى حقيقته من السمو فيأخذ فى اتجاه من المنظر العلمى يشرف به على نظام الحياة وسير الوجود ، وإذا صفت له الآفاق وضعت أمامه المقد الاجتماعية التى تربط بين الجماعات الساذجة ، مر على سياساته فى تفكير مرتب وحقائق سامية ، ونظريات فلسفية تكشف عن وجه الكون ، وتعمل عملها الطيبى فى ترقية الجماعة ، ووضعها فى وضع جديد لتستقبل به حياة جديدة ، وهكذا ظل الفكر الانسانى دأما الاضطراب يعدو هنا وهناك فى غير استواء غرض مرموق أو هدف مقصود .

فلما جاء الله تعالى بالاسلام هداية للانسانية ، وتقوية لنفكيرها ، وتسكينا لاضطرابها ، استقبل الفكر طورا جديدا من أطواره ، أخرجه من فوضى جاعة جاهلة الى حرية مهيبة فاضلة ، وأخذ بعنانه الى مسالك عبدها ، ووقف منه موقف المرشد السامع ، والقائد القوي الأمين ، يسدده ويهديه ، وكان طبيعيا أن يبدأ الفكر الانسانى حياته الجديدة فى ظل الاسلام فطريا برشا من شوائب التعميد الفلسى والتقنين العلمى ، وقد انطبعت الحياة الفكرية الاسلامية بهذا الطابع العطرى فى مدى القرنين الأولين لحيى الاسلام تقريرا ، وهى مرحلة من تاريخه جدية بالتسجيل ، لأنها تمثل الفكر الانسانى وليدا فى مهد الاسلام ، عنه يتلقى الحكمة ، ومنه يتفهم أسرار الوجود . والعجيب المدهش حقا أن هذا الفكر العطرى استطاع أن يضع للحياة الاسلامية الراخرة أسس حضارة خاصة قامت عليها ، وتميزت فى التاريخ بها ، واستطاع أن يقيم دعامم المدنية الاسلامية على قواعد الإيمان بالوحدة الانسانية التى لا تعرف هذه المروق الوطنية ولا التواصل المنصرية ، وهو أول من همس فى أذن الانسانية جمعا بهذا المبدأ السامى : « الناس سواسية كأسنان المشط » لافضل لعربى على عجمى ، ولا لايبيض على أسود ، ولا بالنقوى ، فأيقظ فيها روح الثورة لتتخلص من الاستعباد الاجتماعى والفكرى ، وأول

من وضع أساس تحقيق غاية الاجتماع الانساني وسعادته يربط الانسانية المؤمنة برباط الاخوة المتعاطفة ، ففي القرآن الحكيم « إيمان المؤمنون إخوة » وفي الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » مما لم يستطع الفكر الانساني أن يقرره في ظل الفلسفة قبل أن يأخذ الاسلام بزمامه ، وقد استطاع المسلمون الأولون أن يحققوا هذا الحلم الجميل للانسانية يوم أن كان الفكر إسلاميا خالصا قبل أن تتقاذفه أحاسير الفلسفات النظرية وتنسجه به في تيارات انحرفت عن ناموس الاسلام قليلا أو كثيرا ولكنها لم تفارقه ، وهذا الانحياز كان يده مرحلة أخرى للفكر الاسلامي كان فيها فكرا إسلاميا فلسفيا ، وعندئذ تجلت عظمة الروح الاسلامي ، وظهرت حيوية الشريعة الفراء في قيادتها لهذا الفكر المعقد ، وسيطرتها عليه سيطرة كانت تلاحقه أينما توجه في أودية البحث العلمي .

وما يستوقف نظر الباحث في تاريخ الفكر الاسلامي أن خصيصة هذا الفكر في مرحلته الأولى العظيمة ، أنه كان فكرا عمليا ، لا يقف عند حدود تقرير النظريات تقريراً علمياً لحسب ، بل كان أسرع الى تكيف الشخصيات الاسلامية تكيفا ماديا بما يقرره من الحقائق ، وكانت تلك الشخصيات أطوع لموامل التكيف العملي حتى أصبحت مثلاً عاليا لمظاهر التطبيق الواقعي لمقررات الفكر ، ومنشأ ذلك في رأينا تحرير الفكر من ريقه الأوضاع الاجتماعية التي كان يخضع لها في ماضيه ، وتجاوب صوته مع صوت العاطفة في آفاق النفس الانسانية بما أصله الاسلام في شرائعه الحكيمه التي اعتمدت على قاعدتي الرحمة والعدل ، والرحمة صدى العاطفة القلبية ، والعدل صدى الفكر المنطقي المستقيم ، فلم تعد مجالات الفكر في الاسلام تلك النظريات الفلسفية الجافة ، ولا تلك الخيالات الواهنة ، ولكنها أصبحت حقائق تدع من معين القلب الخفيا ترفده روافد العقل الزميت ، وبذلك امتاز الاسلام باعتباره شريعة عامة خالدة ، فهو إذ يحاطب الفكر بمنطق القصاص العادل فيقرر قانون الجزاء المحكم استملاحا للمجتمع « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ينفث الى القلب فيخطبه بمنطق العاطفة ، إثارة لشعور الأخوة ، وتهذيبا للنفوس « فن عفا وأصاح فأجره على الله » .

على هذا الأساس قام بناء الفكر الاسلامي ، وظهرت معالمه شائعة في شخصيات أخذت شرائع الاسلام مشافهة في آيات بينات من فم النبوة ، اندفعت الى فلولهم اندفاع الغيث في أخصب الأودية ، وكونت حيلاً من الأمة كان أسوة لمن بعده من قادة الفكر في تاريخ الاسلام . ولا ينسحب المقام للحديث عن جمهرة الذين أعتمدتهم طبيعتهم للتميز عن حيلهم فقادوا الفكر الاسلامي في هذه المرحلة ، ولكننا نحري الحديث عن مختاره مجرى المثل المصروب للناسي والاعتبار .

وليس من شك في أن أربع شخصية قادت الفكر الاسلامي في مشرق شمس شخصية

« صهر بن الخطاب » ثاني خلفاء المسلمين وأول أمراء المؤمنين ، فإن سيرته قائدا من قادة الفكر في تاريخ الاسلام كالشمس في الكواكب ، إذا طلعت فليس لكوكب منها في الأفق مكان . ونحن إذا تحدثنا عن سيرته في قادة الفكر فلسنا نطمح في أن نحدد شخصيته بتحديد يرسم له صورة تحيط بأطراف حياته ، ولكننا نحاول أن نلم بصورة منها تكون مثلا لنعرف ألوان المظلمة الفكرية حيث لا مدارس نظامية ولا جامعات علمية ، وإنما هي الفطرة الطاهرة الزكية إذا تكشف لها طبيعة الحياة عن جانب من جوانبها المضيئة التي تقطع التقاط المرأة الصقيمة للصور البيرة ليس دونها حجاب .

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها : « من رأى ابن الخطاب علم أنه خلق غنى للاسلام ، كان والله أهوديا نسيج وحده ، قد أعد للأموه أقرانها » . وهذا كلام من أحكم القول وأسدّه ، وأصدق الرأي وأرشدّه ، لأن الناظر في سيرة « ابن الخطاب » يرى أن الله تعالى خلقه ليكون أحد زعماء الدنيا الذين يسوسونها ، وأعدّه قائدا من قادة الفكر الذين يرممون الإنسانية طريق سعادتها ، فالتاريخ يروى أنه كان في جاهليته صغير فريش في حربها وسلمها ، وصاحب كلمتها في منازعاتها ، ولسانها الناطق في مفاخراتها ، وقريش سيده العرب ، وحاملة لواء الزمامة في قبائلها ، فهي إذا وسدت أعظم أمورها في جاهليتها لابن الخطاب فذلك لأنها وزنته بأرجح رجالاتها أحلاما فرجح بهم ، فرمت العرب عن قوسه في منازعاتها ، ورضيت ببيانه لمفاخراتها ، وعقله لسفارتها ، وهذه أمور ثلاثة مما تواضع عليه العرب تحل أوضح جوانب الفكر في حياتهم الاجتماعية ، فهي أحوج ما يكون الى بصر نافذ ، وعقل قوى ناصح ، وعلم بمصادر الأمور ومواردها ، ولم تكن فريش وهي ما هي في مكانها من العزة والسؤدد — لترضى عمر صغيرها والمنافع عنها وهي تعلم أن في رجالاتها أربع منه حكمة وسداد رأي ، وفصاحة منطق ، ونصاعة بيان وسياسة تدبير ، فهو لم يتبوأ منها هذه المنزلة لتيزه شرف جاهلي ، أو لسعة في ثراء مالى ، بل لنبل نفسى ودكاء فطرى ، ظهرت عليه مخايله وهو في إهاب الشباب وسن الفتوة ، فهو يتحدثنا عن نفسه أنه ولد قبل الفجر الأعظم بأربع سنين ، وهذا الفجر يوم من أيام العرب ووقائمه ، أدركه النبي صلى الله عليه وسلم ياقعا ، وكان ينبل فيه على حمومته ، ويحدثنا أيضا أنه أسلم وعمره ست وعشرون سنة ، فإذا نظرنا الحوادث في سلوكها رأينا أن فريشا قد وضعت في يده معاهد ثقافتها ، وجعلته مدرسه شرفها ، والدائد عن مناقبها ، والباشر لمفاخرها ، في مطلع شبابه وبجر فتوته ، وفيها من صناديد مشيختها الذين عركوا الدهر ، وحكتهم الأيام ، وساستهم التجارب ، عدد هديد .

جاء الاسلام ولقى الخطاب هذا الشرف الخطير في الجاهلية ، فكان — كما حدث عن نفسه — من أشد الناس على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين الذين ازووا بدينهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم يعبدون الله سرا وفرارا من أمثال « ابن الخطاب » الذين كانوا يلحقون

منهم أشد التسكين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتشوق الى إسلام « عمر » ليعز الله به الإسلام وأهله ، لما يعلم من قوة نفسه وشجاعته ومكانته في قريش ، وكثيرا ما كان يسمعه أمميابه يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ! » وقد استجاب الله دعوة نبيه ، وصدق كلمته ، وأسرع في تحقيق ما تشوق إليه ، فأسلم « عمر » وكان به لامة عزرا للمسلمين وقتها للإسلام ، حتى كان عبد الله بن مسعود يقول فيما أخرجه البخاري : ما رلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقد صدق ابن مسعود ، فإن الخطاب هو الذي أخرج المسلمين من نخبهم ، وأعلن كلمة الإسلام مدوية في أرجاء مكة ، حتى تحاببت بها آفاق أنديتهم ، ووجت لها قريش ، واكتأبت بإسلام « عمر » كآبة لم تر مثليا ، لأنها تعرف فيه الشخصية القوية القاهرة .

يحدثنا أنس بن مالك — فيما تصافرت بروايته السير — قال : خرج عمر متقلدا سيفه فلقبه رجل من بني زهرة فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمدا ، قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركك دينك الذي كنت عليه ، قال : أفلا أدلك على المعجب يا عمر ! إن أحبك وحشتك قد صبا وتوكلت دينك الذي أتت عليه ، فشى عمر ذا أمر — أي يلوم نفسه على ما فاته — حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له : خباب بن الارت ، فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الطينة التي سمعتها عنكم ؟ وكانوا يقرءون « طه » فقالا : ما عدا حديثنا بمحمد شاه بيننا ، قال : فلعنكما قد صبوتما ، فقال له خننه : يا عمر ! أرايت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على خننه فوطئه وطأ شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها ، فتفحها نفحة بيده وفي وجهها ، فقالت وهي غضبي : يا عمر ! إن كان الحق في غير دينك أنشهد أن لا إله إلا الله وأنشهد أن محمدا رسول الله ، فلما يش عمر قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عنكم لأقرأه — وكان عمر يقرأ الكتاب — فقالت أخته : إلك رحي ولا يحس إلا المظهر وب ، فقم فاغسل وتوضأ ! فقام فتوضأ ، ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه » ما أثرلنا عليك القرآن لتشي ، حتى انتهى الى قوله : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » فقال عمر : دلوني على مجد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر يا عمر ، فاني أرحو أن تكون دعوة رسول الله لك ليلة الخميس « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بابي جهل بن هشام » ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار ، وعلى الباب حمزة وطلحة وماس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاف القوم منه ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة : نعم فهذا عمر ، فإن يرد الله بعمر خيرا يسلم ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم في داخل البيت يوحى إليه ، قال عمر في إحدى الروايات : نفرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ بمجامع ثيابي ثم ثر في ثرة فأتاكت أن وقعت على ركبتي ، ثم قال :

ما أنت بمنه يا عمر؟ قال: قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة محمدية أهل المسجد، قال عمر: فقلت يا رسول الله لنسألك الحق إن متنا وإن حييا؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم! قال: قلت: ففيم الاحتفاء؟ والذي بعثك بالحق لخارجين! فأخرجناه في صغين، حمرة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها، فسمعتي رسول الله صلى الله عليه وسلم «الفاروق» يومئذ.

هذا أول موقف إسلامي لابن الخطاب، يمثل حالة من حالات انتقال النفوس من حضن الحمية الجاهلية إلى بهاء الإيمان وسكينة، ثم إلى رسوخه وقوته، كان عزة للإسلام والمسلمين، وخزيا للشرك والمشركين. وللفكر في تحاييل مجالات تكشف عن مواطن العظيمة في نفس «عمر» وتبين لنا مطامع آيات المرة التي كسبها المسلمون بإسلام «عمر» ونحن نجعل القلم قليلا حول هذا الموقف لنجلب ما فيه من عبرة نرحو حيرها ونقعها لحاضر المسلمين:

أثبت على ابن الخطاب نفسه العظيمة أن يرى البطل الحرام الذي جعله الله مبدأ القدم أمنا وسلاما للناس، يضطرب بأعظم حادث يحاول به أحد بني هاشم تغيير وجه التاريخ بدعوته إلى دين جديد لا يعرفه العرب، بل يهدم كياناتهم الاجتماعية، ويهدر شرفهم الجاهلي، يسفك أحلامهم، ويحقّر آلهتهم، ويؤذي بتقاليدهم، ويفرق كلتهم، ويشقت جماعاتهم، ويصدع قلوبهم بالشهادة فيما بينهم، فاحترط سيفه وهش في عزيمة الأبطال لا يثنيه شيء، ليفتك بصاحب هذا الدين الذي زلزل على العرب حياتهم، ولكنه صدم بصخرة في بيته، فادأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد اعتنقا هذا الدين الجديد، وآمنا بمحمد بن عبد الله، وتحدث الناس بهذا الإيمان، وهو لا يعلم من علمه شيئا، فثارت نفسه فوق ثورتها، واضطربت نيران الحمية في رأسه، وذهب لا يلوي على أحد تاركا محمدا وأصحابه حتى يبلو خبر بيته، فدخل على أخته وختنه وصاحب لهما لم يقسو على لقاء «عمر» فأنزوى في كن من البيت يرعد رهبة أن يبطش به «عمر» وإذا بهم يقرءون شيئا من القرآن في سورة (طه) لم يتبينه «عمر» فسألهما عما سمع منهما، فعرضا إليه لعله يقطع، فأبى وأبى، وسارحهما بما باعه من اتباعهما لمحمد في دينه، فأبى الإيمان إلا أن يتفجر منهما صريحا قويا، فهم بهما تسكيلا، فلم يقل ذلك من مزيجتهما، بل رادها الإغاثات إيمانا وقينا، وهنا انظر إلى الوجود مسجورة الإيمان وسحر اليقين!

فهذا «عمر» في اكتال فتوته وقوة شبابه وبطشه، وعظم منزلته في قومه، خرج من بيته ينقل مرجل غيظه على هذه الدعوة الجديدة وأصحابها فتغافسه في أقرب قرياء، وبين يديه

في عشرته وهو لا يدري بها ، وإذا به من غير تمهيد يهدأ ويعمن في الهدوء ، ويذهب من نفسه ذلك الغضب الخائض النائر ، ويبدل به اطمئنانا ورضا ، فيطلب الى أخته التي ضربها فأدماها وإلى خنته الذي وطئه أشد الوطء ، أن يقرأه أو يسمعه شينا مما في صحيفتهما ، فأيأيا عليه إلا أن يتطهر لأنه رجس وكتابهما طاهر مطهر لا يمس إلا المعاهرون ، فيطيع راضيا مختارا ، بل راغبا مشوقا ، ثم يقرأ فيما يقرأ « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » فنضمره موجة من نور الايمان ، ويسأل : أين عهد ؟ فيثبت ذلك الخائف المزوي في ستر البيت لبشر « عمر » وقد رأى نفحة الايمان مست قلبه ، بأنه يرجو أن تكون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بكرة الاسلام له لا لأبي جهل ، ويعلمه بمكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيأخذ « عمر » ليه طريقه ، وإذا نفق الفتيان حزة بن عبد المطلب — وكان قد سبقه الى الاسلام بثلاثة أيام — آخذ بالباب يحضى المؤمنين ، ويسمع الناس حس « عمر » فتزج منهم الأبصار هالما ، وتدخل من بين جنوبهم الأفتدة فرقا ، ويشدد خفق قلوبهم جرأ أن يحسم « عمر » بسوء ، ولكنهم لم يلبثوا أن يسموا صوت الايمان يدوي على لسان « عمر » فيكبروا تكبير الفرح والسرور بإسلام « عمر » ، وقد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الاسلام بعمر بن الخطاب .

هنا يعجز أربع الأقلام عن تصوير شخصية « عمر » في تلك اللحظات التي تحللت خروجه من بيته متقلدا سيفه ظمآن الى الدماء يريد قتل « عجل » وجثوه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنا أصدق الايمان ، محبا للنبي صلى الله عليه وسلم أشد الحب ، حتى قاضت نفسه بهذا الحب العظيم فقال : ما في الأرض نسمة أحب الى من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لم يرض « عمر » في فتوته ، ورسوخ يقينه ، واعتداده بنفسه ، وقوة إيمانه ، أن يعبد ربه متخفيا ، والشرك يعشى في طرقات مكة تياها جهير الصوت ، تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن استمد من روحه قوة اليقين تلك المسألة التي يقول فيها « عمر » : ألسنا على الحق إن منا وإن حيننا ؟ في أن يخرج معنا دعوته في وجه قريش وصناديدها ، فيجيبه النبي صلى الله عليه وسلم الى ما طلب ، ويخرج يحيط به أصحابه في صفين على أحدهما « عمر » وعلى الآخر حمزة معلمين كلمة الحق حبيزة مدوية ، فتؤخذ بهذا المنظر الباهر قريش ، وتذهل عن نفسها وكأنما أصابها قارعة ، أو نزلت عليها صاعقة ، لأن « عمر » بن الخطاب ذلك الفتى الذي كانت تدخره لأخطار أحداثها ، والذي تعرف له شجاعته وصلابته ، قد أصبح عليها لاهيا ، ترك دينها ، وآمن مع هؤلاء المؤمنين بحمد ودعوته ، وأعلن هذه الدعوة بعد استسرارها ، وجهر بها بعد خفوتها ، وصلى محمد في الكعبة بعد أن حيل بينه وبينها ، ورد المؤمنون على الكافرين بعض كيدهم ، لاشتداد ساعدكم بهذا البطل الجديد الذي انضم الى صفوفهم .

بدأ الإسلام منذ اليوم حياة جديدة ، هي حياة الجهاد بين الحق والباطل ، والصراع بين الهدى والضلال ، فكان ذلك أعز موقف للإسلام وأول نصر في تاريخه ، حتى قال صهيب وهو أحد السابقين : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ردهى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، واتفقنا ممن أغلظ علينا ، ورددنا بعض ما يأتى به . وقد تحدث عمر عن ذلك - فيما أحرقتنا به السير - قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال فيضربونه ويصرههم فجئت الى حالى فأعلمته إسلامي فدخل البيت ، وذهبت الى رجل من كراء قريش فأعلمته فدخل البيت ، فقلت فى نفسى : ما هذا بشي ؟ الناس يضربون وأنا لا يضربني أحد ، فقال رجل : أتحب أن يعلم بإسلامك ؟ فقلت : نعم ، قال : فإذا جلس الناس فى الحجر فأت فلا تقل له . قد صويت فإنه قلب يكتهم سرا ، فجئته فقلت : تعلم أنى قد صويت ، فمادى بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبا ، فإزالوا يضربونى وأضرهم ، فقال خالى : يا قوم إني أحرقت ابن أختي فلا يحسه أحد ، فأنكشعوا عني ، فكنت لا أشاء أن أرى أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيته ، فقلت : الناس يضربون ولا أضرب ، فلما جلس الناس فى الحجر أتيت خالى فقلت : تسمع ؟ قال : ما أسمع ؟ قلت : جوارك مردود عليك ، قال : لا تفعل ، فأبيت ، قال : فما شئت ، فما زلت أضرب وأضرب حتى أظهر الله الإسلام .

ويحق ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم « الفاروق » ، فقد فرق الله به بين الحق والباطل ، وأظهر به الدين ، وثبت اليقين ؟
صادق إبراهيم مرجوم

فضيلة الاقتصاد

قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعند ملوما محسورا » فنهى سبحانه عن التقتير كما نهى عن التبذير ، ثم بين سبحانه وتعالى سبيل الاقتصاد فقال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ثم ذم المرففين كما ذم الباخلين فقال تعالى : « إن المذنبين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » ولا إخال أنه يوجد أبلغ من هذا فى ذم التبذير .

وقال السى صلى الله عليه وسلم . « ما حال من اقتصد » أى ما افتقر من اقتصد .
وقال أمير المؤمنين عمر : « إن الله يحب القصد والتقدير ، ويكره السرف والتبذير »
وقال معاوية بن أبى سفيان . « حسن التقدير نصف الكسب وهو قوام المعيشة » .

سمو ولي عهد الدولة الإيرانية

يزور الجامع الأزهر وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء قصد حضرة صاحب السمو الامبراطوري الامير محمد رضا بهلوي الجامع الأزهر ، فاستقبله هناك حضرات أصحاب الفضيلة الأستاذ الامام ومفتي الدولة المصرية ، وشيخ السكيات ، وأصحاب السعادة وكلاء ورايات المال والعدل والأوقاف ، وغالد حسين بك كبير مفتشى العلوم الحديثة ، ومحافظ مصر بالنيابة ، ومدير المساجد .

وكان يرافق صاحب السمو الامير صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا ، وسعادة محمد طاهر باشا ، وعبد يسى بك .

فبدأ سمو الامير بزيارة المبنى الأثرية في داخل الأزهر ، وكان سعادة خالد حسنين بك يترجم لسموه بالفرنسية ما يقوله صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . ثم زار القبة الجوهريه ومكتبة الأزهر ، واطلع على بعض كتبها الخطية ، ثم زار قبة المدرسة الطبرسية وهي التي بها ضريح الامير طبرس وزير الملك الناصر قلاوون ، وقد أنشئت سنة ٦٨٠ هجرية . ثم زار قبة الاقباقوية وشاهد مصاحفها الأثرية وغيرها .

ثم انتقل سمو الامير من المسجد الى الادارة العامة ، لزيارة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام زيارة خاصة في مكتبه حيث تناول بعض المرطبات ، وكان يصحبه رفقة شريف صبرى باشا . وقبل انتهاء الزيارة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى كلمة من كلماته القيمة قام بترجمتها رفقة شريف صبرى باشا .

وكانت جماهير الناس والطلبة محتشدة في ميدان الأزهر تهتف لسمو الامير ، فدعا فضيلة الأستاذ الامام سمو الامير للاطلاع على الميدان ليرى مبلغ احتفاء أبناء الأزهر به ، فلبى الدعوة وأوماً بيده بحيا جوعهم الفقيرة .

ثم غادر سمو الامير إدارة الأزهر مودعا كما استقبل بأكبر مظاهر الإجلال ، في وسط هتاف يشق عنان السماء ، من طلبة الأزهر وجوع الشعب الراخرة في حى الأزهر .

ولا بد لنا هنا من نشر كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، فانها فوق ما احتوت من عبارات التحية والاحتفاء بالزائر العظيم ، اشتملت على نبذة تاريخية حليمة القدر في مبلغ ماعمله الايرانيون في مجال العلوم الاسلامية ، وما خلقوه من ثمرات عقولهم فيها .

قال حفظه الله :

حضرة صاحب السمو الامبراطورى :

إن من دواعى القبلة والمرور أن أرحب بسموكم باسم الأزهر الشريف ، أقدم جامعة في العالم ، وأكبر معهد إسلامي .

يرحب الأزهر بسموكم لما اشتهرتم به وعرف عنكم من الثقافة العالية ، والآداب السكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، والشخصية المحبوبة ، ولأنكم ول عهده مملكة من كبريات الممالك الإسلامية وأعرقها في الحضارة والمدنية ، ولأن لبلادكم الخالدة في المجد ذكرًا مجددًا كل يوم في الدراسات الأزهرية ، فما من علم من العلوم الإسلامية إلا ولرجال بلادكم فيه أثر مشكور وعمل محمود . ولا يزال علماء الأزهر وعلماءه يذكرون لهؤلاء الرجال فضلهم كلما اقتبسوا من آرائهم القيمة ما يضيء لهم السبل في التحوث العلمية .

فصلتنا ببلادكم يا صاحب السمو ليست حديثة العهد ، وإنما هي صلة قديمة يعرفها علماء الإسلام منذ فجر الإسلام ، ولكن الله سبحانه أراد أن يحكم الروابط بين البلدين ، ويزيد في وثاقة الصلة بين الشعبين ، فكانت هذه الرابطة الكريمة - رابطة المصاهرة السعيدة ، التي شرفتم يا صاحب السمو بلادكم من أهلها - خير ما تنوِّق به أواصر المحبة ، وتم به دواعي الألفة والمودة .

يا صاحب السمو الامبراطورى :

في الوقت الذي تنبه فيه المسلمون الى ضرورة إحكام الروابط والصلات بين الشعوب الإسلامية ، بنيت هذه الفكرة السامية : فكرة المصاهرة الميمونة إن شاء الله ، فتوثقت بها الصلات بين أمتين عظيمتين من أئم الإسلام ، وقربت الوصول الى وحدة إسلامية لا مناص من رجوع المسلمين اليها .

وإذا كان القرآن هو إمام الجميع ، وكان بيت الله في البلد الأمين هو قبلة الجميع ، وجب أن يكون المسلمون في جميع الأمم إخوة في دين الله ، لا يفرق بينهم تعدد المذاهب واختلاف الآراء . على أن نفسى تحدثني بأنه كلما زاد العرفان وقوى الإيمان ، وحلقت السيات لله سبحانه ، ضاقت مسافة الخلف في الرأي ، ورجع المسلمون الى القرآن يستهدونه ويتلقون عنه عقائدهم وشرائعهم ، وإذا ذاك يمس المسلمون السعادة كاملة ، ويستمتعون بلذة الآخرة في الله وفي دين الله .

وإني يا صاحب السمو الامبراطورى : أشكر لكم تكريمكم بزيارة الأزهر الشريف ، وتفصلكم زيارة هذه الدار المعدة لإدارته ولقد يطيب لسموكم أن تعلموا أن هذه الدار واحدة من دور عظمية فكر في سائر المنفرد له الملك نؤاد الأول رحمه الله ، وسيم سائرنا بفضل الله في عهد حضرة صاحب الجلالة صهركم العظيم ملكنا المحبوب فاروق الأول ، أعزه الله بنصره ، وأيده بروح من عنده .

وإني لأرجو لسموكم إقامة طيبة في بلاد مصر العزيرة ، وسعادة دائمة في ظل والدكم العظيم صاحب الجلالة الامبراطورية الشاهنشاه ، أدامه الله ، وأيد ملكه ، وأعز به بلاده .

ماجنته الدارونية على الانسانية

مبدأ التنافس بين الأفراد والجماعات

—

ظهرت الدارونية في سنة ١٨٥٩ حاملة اسم مؤسسها شارل دارون المؤرخ الطبيعي الانجليزي ، قائمة على نوااميس أربعة لتعليل وجود الأنواع الحية على سطح الأرض سواء أ كانت نباتية أم حيوانية ، من أول الأحياء ذات الخلية الواحدة الى الانسان نفسه ، وهذه النوااميس هي : ناموس التنافس بين الأحياء ، وناموس الانتخاب الطبيعي ، وناموس المطابقة ، وناموس الوراثة ، فالأول مؤداه أن بين الأحياء من نوع واحد أو أنواع مختلفة كفما على وسائل الحياة ، يهلك فيه الضعفاء ويبقى الأقوياء ، ثم يستمر الكفاح بين الأقوياء فيبقى المتفوقون في القوة وهلم جرا ، فنكون نتيجة ذلك بقاء الأصلح لبقاء ، وهذا مؤداه أن الطبيعة تعمل على استئصال الأكل ، كأنها تنتخب من كائناتها ما كان أصبر على الكفاح ، وأجمع لوسائل البقاء ، وقد اعتبر هذا العمل الدائم ناموسا طبيعيا أطلق عليه اسم ناموس الانتخاب الطبيعي ، تفرقة بينه وبين ناموس الانتخاب الصناعي ، وهو ما يفعله الانسان من اختيار أحسن البذور للاستنبات ، أو أكل آحاد الحيوانات للاستيلاد ، للحصول على آحاد جيدة في أنواعها .

أما ناموس المطابقة فعماه أن البيئة وانقلاتها ، ولتووع الأغذية وطرق الوصول إليها ، دخلا كبيرا في أحدث الاختلافات بين الأنواع

وأما ناموس الوراثة فؤداه أن الصفات الجديدة التي يكتسبها الأفراد تحت تأثير الكفاح ، يورثها كل جيل لأحلافه ، فتبقى ثابتة فيهم مع قبولها للارتقاء ، ولما تنافس حدا بعيدا في طائفة من طوائف أحد الأنواع تصبح تلك الطائفة مياية لجمعية ، فتعتبر موعا مستقلا عنها . وعلى هذا النحو تكثر الأنواع وابتين بعضها بعضا ، وبعدت شقة الخلاف بينها حتى يصعب على من يراها أن يحسبها كلها متولدة من نوع واحد ، من شدة ما بابت وجوه الخلاف بينها وبين أصولها في الشكل والحجم والفرائر . فمن الذي يستطيع أن يتخيل أن الانسان والبرغوث والشعبان والفيل والنعمايات والطيور والسلاحف والميكروبات ، كلها نشأت من حلية أو خلايا معدودة ، وإنما نوعها تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، واكتساب الصفات الجديدة ، وناموس المطابقة والوراثة ؟ يمد هذا من الحالات العقلية ، ولكنه في نظر الدارونيين من المرجحات العملية

لما نشر دارون مذهبه هذا قاله العلماء والناس بعاصفة من الانتقادات ، ولكنه صمد لها ودحضها كلها ، فصبا اليه جمهور العلماء في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وامتدت أصوله على العلوم الأخرى حتى الآداب والشرائع . ولكن ما عثم الناس أن أنفقوا من اغترارهم به

بسبب ظهور اكتشافات جديدة في العلوم ، فبات العلماء يمتقدون أن مثله كمثل غيره من التعليلات التي سبقته ، ثم قضى عليه نهائيا باكتشاف العلامة المولاندى (دوفريس) للتطورات الفجائية في عالم الاحياء ، فبطل سحره الذى كان آخذا بأكظام العقول ، وأصبح الناس تحت ضوء هذا الاكتشاف الجديد يعتبرون مسألة تنوع الانواع سرا من أسرار الخليفة ، لا يحل إلا تبعا لحل مسألة الوجود برمتها .

قلنا : إن النقد المعنى أسقط مذهب دارون قبل أن يسقطه تجريبييا مذهب دوفريس ، مكتشف التطورات الفجائية التي رأى فيها بالتجربة أن نوعا جديدا قد يتولد مفاجأة من نوع موجود ، حاصلًا على جميع مقوماته وغرائزه ، بحيث يحيل للناظر اليه أنه نشأ نشوءا تدريجيا في آماد طويلة جدا ، فما هي تلك الانتقادات العلمية ؟

أولها : ما ثبت من أن التناحر الذى تحيله دارون ، لا وجود له بين آحاد النوع الواحد ، ولكنه موجود بين الانواع المتشابهة . فقد ثبت أن بين أفراد النوع الواحد تعاونًا وترافدا عظيمين يكمسانه من المقاء والاستمرار . فسقط بذلك ماموس الانتحاب الطبيعي الذى يعلل به دارون نشوء الانواع الجديدة في الآماد الطويلة ، وجاءت تجارب (دوفريس) في نشوء الانواع مفاجأة مجهزة على هذه النظرية .

ونبع الأستاذ الألماني (وِسمَن) « Weismann » تلميذ دارون فأثبت بالمشاهدات أن الصفات التي يكتسبها الآحاد لا تنتقل الى أحلافها بالوراثة ، وتبعه جمهور الداروينيين حتى قال العلامة البيولوجى الكبير لودانتك أحد أساتذة جامعة السوربون في كتابه (أزمة مذهب التطور) : إن أكثر الداروينيين أصبحوا وهمنيين .

وجاء أحيرا الأستاذ (دوفريس) مثبتا بالتجربة أن الانواع التي تتولد مفاجأة تكون حاصلة على جميع مقومات النوع الجديد وغرائزه (بدون كسب) . فأجهزت هذه التجربة على مسألة اكتساب الصفات الجديدة وتوريثها إجهازا لا هوادة فيه .

فأصبح مذهب دارون والحالة هذه ليس له الإقيمة تاريخية ، ولكن لأجل أن ينعدى هذا الاعتبار حيزا أهل العلم الى حيز الدهاء ، يجب أن يمر وقت طويل ، لأن هؤلاء متى نشبت فيهم عقيدة صعب تخليصهم منها ، فلا يزال فريق كبير من الكتاب ومن الذين يتحكمون في العلم والعلماء ، يمتقدون أنه لا يزال لمذهب دارون السلطان الذى كان له على العقول ، وأقطع ما بقى لهم منه ، وأشدّه ضررا بالمجموع الانسانى ، اعتقادهم الراسخ في أن الحياة لا تقوم إلا على الكفاح بين الأفراد والجماعات ، وهى عقيدة أفسدت قلوب كثير من الشعوب ، وحملتها تعتقد أن لا حق إلا مع القوة ، وأن الحرب لا بد منها لحل المشكلات ، وفض الخلافات ، وأن

التبسط في الأرض، وتدويع الأمم، حق للأقوياء على الضعفاء، بل إنه لا يمكن أن تترقى الأفراد، وأن تزدهر الصناعات والمدن، إلا بتغلب القوى على الضعيف وإبادته وأخذ ما بيده !

نعم . ليست هذه المزاعم من بنات المذهب الداروني ، فقد كانت موجودة منذ وجدت الجماعات الأولى على سطح الأرض ، ولكن جاء المذهب الداروني فجعل لها مستنداً علمياً . قال الأستاذ (هريوت سنسر) في المجلد الثالث من كتابه أصول الاجتماع :

« إن ذبوع مبدأ الكفاح لأجل البقاء في جميع العالم الحيواني ، كان وسيلة ضرورية لتطوره . فإننا نرى أن تزامم أفراد النوع الواحد على مواد الحياة ، وبقاء الأصغر منها ، قد ساعد على إيجاد الطبقات الراقية منها . ونرى أيضاً أن الحروب المستمرة بين الأنواع هي السبب الرئيسي في نمائها وفي نظامها أيضاً . فبدون التنافس العام لا يمكن أن يحدث تطور للخصائص الفعالة . فمن ناحية الحيوانات المفترسة رأينا أن موت بعض أفرادها جوعاً ، ومن ناحية أخرى الحيوانات التي تصلح لأن تكون فرائس لغيرها ألفينا أن موتها بواسطة الاجتياح ، قد أبادا الأفراد والأنواع الأقل كمالاً في التسليح » .

هذا في عالم الحيوان ، أما في عالم الإنسان فإن التنافس على قول الدارونيين هو الوسيلة الوحيدة لنمائها وترقيا ، وحصولها على جميع مقومات الحياة والمدنية ، فقد قال سنسر في كتابه المتقدم ذكره صفحة ٢٢٧ :

« يجب علينا أن نعترف بأن التنافس لأجل البقاء بين الجماعات البشرية كان الآداة في ترقيا وتطورها . فلما تحولت الطوائف الصغيرة الى طائفة واحدة كبيرة ، ولا انتظام الجماعات المناكفة وتضاعفها ، ولا ازدياد عوامل الوجود في حالة أوسع وأرقى ، كل ذلك لم يكن ممكناً بدون الحروب التي حصلت بين قبيلة وقبيلة ثم بين أمة وأمة . ذلك أن مصدر التعاون الاجتماعي هو العمل المركب الناتج من الحاجة الى الهجوم والدفاع . فمن هذا الصرب من التعاون نتجت جميع ضرويه الأخرى . مما لا مشاحة فيه أنه من المحال تبرير الفظايات التي تقسب من جراء هذا التنافس العام الذي استأ منذ عشرة آلاف سنة بين الجماعات الصغيرة ، وانهى الى المعارك الكبرى بين الأمم العظيمة ، ولكن يجب الاعتراف بأنه لولا هذه الفظايات كانت الأرض لا تزال مسكونة بأناس من صنف ضعيف لا مطعم له إلا البحث عن موئل يلجأ اليه في الكهوف والمغار ، والقاعة بالأغذية الغليظة . فالتنافس بين الجماعات لأجل البقاء كان شرطاً ضروريا لترقى تلك الجماعات . ونحن نعترف بأننا مدينون للتنافس بقيام الأمم العظيمة ، وترقى أدواتها في الحياة » .

وقد تأثر الفيلسوف الكبير (إرنست وينان) الفرنسي بهذه الآراء فقال في كتابه :
(الإصلاح العقلي والأدبي) (La Réforme intellectuelle et morale) :

« إذا لم يكن الحق والإيثار والكسل وعدم التبصر دافعة بالممالك الى الحروب لكان

من الصعب أن يتخيل الإنسان إلى أي درجة من الاضطراب يستقط النوع البشري . فالجرب والحالة هذه مائة من عوامل الترقى ، وهي السوط الذي يلعب الأمة ويمعها السوم ، ويصطر الحالة الراكدة المتخلدة إلى الجود للخروج من جودها . فالإنسان لا يسند في الحياة إلا الجهد الجاهد والكفاح . فالسوم الذي تصبغ فيه البشرية أشبه بدولة رومانية رائعة في مجبوحة السلام ، وليس لها أعداء يترصون بها الدوائر من الخارج ، فذلك يكون اليوم الذي فيه تتعرض فيه أحلافها وعقولها إلى أشد الأخطار .

هذا رأى الفيلسوف إرنست ريمان ، وليس هو الوحيد في هذا المذهب ، فيكون الساعون لنشر السلام العام عاملين في نظرم على هدم العوامل التي ترقى البشرية . يخبر

على أن الدارونية قد تحطمت أصولها ، وخرت على نفسها ، بظهور مذهب دوفريس الذي سبق ذكره ، وهي إذا ظهرت الحرس على مبدأ التناحر فذلك لأنه الأصل الأصيل فيها . ولكن تسرية الأصول إلى هذا الحد يكون فيه القضاء عليها ، فإن جبهة علماء النفس والاحتجاج قد حقروا من شأن هذا الأصل حتى جعلوه طائعا للغباوة لا يحصى أثره في قسبات الداروينيين . قال الأستاذ الاجتماعي الكبير (توفيكو) في كتابه (نقد الدارونية في ناحيتها الاجتماعية)

(La critique du darwinisme social) :

« أدرك الناس الطريق الملتوى الذي سلكه الداروينيون لترويج سفستهم هذه (يريد مبدأ التناحر) . فانهم لم يستطيعوا أن يؤكدوا أن القتل الجلى هو السبب المباشر للترقى . فان في مساء يوم معركة ، عندما يكون مائة ألف رجل مجذلين على الأرض ، بعضهم قتل وبعضهم في سكرات الموت ، يكون من الصعب الزعم بأن هذه المجازر وهذه الآلام يمكن أن تسر التقدم للإنسانية . لذلك لا يتجرأ أي دارويني أن يؤيد أية قضية مضادة للمثل إلى هذا الحد . ولكنهم يزعمون أن التهيؤ لارتكاب هذه الوحشيات ، هو الذي يبعث على الترقى ، باعتبار أن الشعب الأحسن استعدادا للحرب هو الذي ينال الغلب فيها . وقد علمت أن التهيؤ للحرب يسندهم أعمالا متناعة تفعد العقلية البشرية ، ومن هنا استنتجوا أن التناحر الجلى يؤدي إلى التقدم في المدنية . وهذا القول مما يكاد لا يشعر الإنسان بضرورة دحضه لوضوح صفته . فأولا القضية الرئيسية باقية كما هي ، وهي : أن كل شيء يتبع ما سيفعله الغالب بعد انتصاره . فإذا أحدث أحسن النظم ، فإن الترقى يكون ثمرة هذه النظم لا ثمرة الحرب . وثانيا توجد هناك قضية أكثر تحديا في هذا الموضوع ، وهي : إذا كان مبلغ الجهود العقلية التي بذلت للاستعداد للمعركة ، بذلت لتحسين حال الناس مباشرة ، كان الترقى الانساني سار بخطوات أسرع .

إلى أن قال :

« إن التناحر الفردي والجلى هادم لبناء الاجتماعي ، لأنه يقف سير الظواهر الاجتماعية ،

ويضطرها لأن تعود الى متابعة سيرها بعد الحرب . وأن تطبيق الوسائل البيولوجية على الجماعات البشرية فصلا من أنه لا يسرع بها الى الترقى ، يحط من درجة النوع البشرى في سلم الكائنات الارضية . هذا أمر واضح لأن الترقى البشرى ينأت من إصلاح النظم الاجتماعية ، وهذا الإصلاح يقف مدة حصول تلك المجازر على الأقل . ولم تصدر القرارات الخاصة بالعمل وحماية الطفولة في ساحات القتال ، ولكن داخل قاعات البرلمان . ولست أنيس في ذكر الحروب التي جرت حوادث سوء على النظم المقررة لدى الغالب والمغلوب معا . وسيادة الروح العسكرية تقضى غالبا الى قيام حكومة استبدادية . وقد شوهدت بمالك كانت حرة ، بمعنى أنه كانت فيها ضمانات كافية للأفراد ، أصبحت بعد الحرب مستعبدة ، أى ليس فيها ضمانات كافية للأفراد .

هذا رأى عالم اجتماعى من أكبر أعلام هذا العلم في الغرب اليوم ، ويوافقه جمهور الاجتماعيين ، ولكن المبادئ مهما كانت بعيدة عن التثبت العلمى تجدها دائما أنصارا لدى الأمم التى تلائم تلك المبادئ هواها واستعدادها الفطرى ، فتتخذ هذه المقررات مسوغا لها للظهور بظهور الأمة الحربية التى ترى فى الحرب سماتها ومنها الأعلى .

وقد شهد الناس ما حدث من أمر الحرب العظمى ، فأنها بعد أن بادت ملايين من خيرة شبان الأمم ، وأنت على ثروات لا تقدر بقيمة ، طادت نشر لاحد له على البشرية ، فقد أيقظت فى نفوس الجماعات التى تناحرت ميلا للتأثر . فما كادت تضع الحرب أوزارها حتى عاد الاستعداد للحرب سيرته الأولى بل أشد ، وسفلت الآداب الاجتماعية ، وطفقت الطبيعة الحيوانية الى حد أن رجال الحرب أصبحوا يتحدثون لافى سحق الجيوش فى ميادين الوغى غسب ، ولكن فى تخطيط المدن ، وتسميم سكانها بالغازات المهلكة ! فإذا كان فى العالم من يرى أن ما تآدى إليه الناس فى العشرين السمة التى تلت الحرب هو من الترقى الذى يجب أن تتطلبه الانسانية ، فذلك الانسان يكون فذا ، ولا يجد من يوافقه إلا الأعداد من أمثاله !

والذى دعا قدماء الهنديين والصينيين والمصريين والآشوريين والفرس الى التأمل فى الوجود والتدبر فى كائناته ، ودراسة النفس والعقل ، ونشاء أصول الحكمة وإقامة صرح العلم ، ورفع عظم العمران ، ليست هى حالة التناحر التى يتغنى بها الدارونيون ، ولكنها حالة السلام التى كانت ضاربة أطنابها فى تلك الأقطار ، وكانت تأتى الحروب فتفسد من تلك الاعمال الجليلة وتعطلها حينئذ ، ثم تزدهر متى عاد السلام .

ربما يقول الدارونيون : إن ما تذكره من توفر تلك الأمم على الاعمال المدنية والعمرانية ، كان بسبب ما اتبناها من حوادث التناحر ، فأيقظت من عقولها ، ولطفت من نفوسها ، ودفعت بها الى باحات الابداع .

فقد رد عليهم بأنه لو كان الأمر كما يقولون لكانت تلك الثمرات العقلية الجنية مطبوعة بطابع حربي أو عليها عبقة منها ، أو متجهة الى ناحيتها ، والواقع أن الانسان انجمه بتلك الثمرات الى نواح تدابير مبدأ التناحر من كل وجه ، فقرر أصول الفضائل النفسية ، والآداب الخلقية ، وأنشأ بالتواضع ، وندد بالكبرياء ، ونوه بالقناعة ، وشنع على الطمع ، وعظم من شأن العطف على الضعفاء ، والمفوع عن الجساء ، ومقابلة الاساءة بالصفح ، وهذه أكثر ما يدل على شرف معتد الانسان ، وعرفته في السموع الحيوانية ، فهل كانت هذه الثمرات من توليدات مبدأ التناحر وهي لا تدعو الى شيء مما يأسسها من إثارة السيطرة والغشمة والكبرياء والخيلاء ؟

ربما قال الداروينيون : إن هذه الثمرات التي تصنعونها بالسمو والكرامة ، هي التي حطت مستوى القوة عند كثير من الجماعات السابقة ، وجعلتها مرئس لغيرها من الأمم التي تقول بما يناقضها ، وهي التي تحط الى اليوم من أقدار الأمم التي تعمل عليها أو تتخذها مثلاً عليها .

نقول : إذا كنتم تصدرون في مذهبكم عن العلم ، فقفوا في المجال العلوي ، ولا تتسلطوا منه الى مجالات الخيال . إنكم تعلمون أن الأمم من أقدم عهودها اشتغلت بتوليد هذه الثمرات التي نصفها بالعراقة في السموع الحيوانية ، وهي التي دعت الناس الى الترامي في أحضان الآديان التي تأمر بها ، وتحض عليها . فكيف تثبت في بيئة أول ما أحست به فيها الحاجة الى التناحر ؟ وكيف تغلبت على سائر الأصول الداعية الى الكبرياء والغطرسة والعنف ، وسادت حتى جعلت من ليس من أهلها يتظاهر بأنه من أخص أهلها لينال الخطوة من الناس ؟

لو فكر الداروينيون في هذه المسألة لأدركوا أن الطبيعة البشرية العالية وإن التاثت بالصفات الحيوانية أحقاباً طويلة مضطربة ، فإنها عادت فتغلبت على النوااميس الفولادية المحيطة بها ، وأنشأت لنفسها جوا ملائماً لشعورها الصميم ، وحقيقتها العاوية ، فقلبت مبادئ المدل والمساواة والتواضع والابتناء ، على الصفات الحيوانية من الضراوة والبطش والاثرة والقلب . وإذا كانت المبادئ الداروينية قد هجرت في خلال ثمانين سنة أن تقنع الأمم بصحة مذهبها في هذه الساحة ، فهي ستكون أعجز بمد اليوم ، وقد اتضح للناس كافة بكل دليل ، أن الحرب شر مستطير ، وأنها لو وقعت لأبادت خضراء الأمم ، وحطمت ما أقاء السلام من صروح العلم والمدنية .

وإني أؤكد للقراء أن دارون وأركان حربه لو كانوا عاشوا حتى رأوا الحرب العامة وماجرته على الإنسانية من شرور وتوازل ، لغبروا من رأيهم ، ولانضموا الى شيعة السلام العام . ولو كانوا بقوا الى عهدنا هذا ورأوا أن الأمم تقبلي في الاستعداد لاهلاك الناس بوساطة الغازات الخائفة والمحرقة ، لقالوا إن الحرب أصبحت جريئة ، وأصبح من يفكر في إيقاد نارها مجرماً ؟

محمد فريد ومجدي

الشافعي رضي الله عنه

واضع علم أصول الفقه

الشافعي هو . عبد بن إدريس القرشي من حبة الآب ، الأردى من حبة الأم ، يلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف . ولد في بلاد الشام بفزة أو عسقلان سنة ١٥٠ هـ ولما مات أبوه حملته أمه الى مكة وهو ابن سنتين .

نشأ رضي الله عنه فقيراً حتى إنه قال عن نفسه :

« كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن لها مال ، وكان المعلم يرضي من أي أن أخافه إذ . قام ، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكانت دارنا في شعب الخيف ، فكنت أكتب في العظم فادا كثر طرحته في جرة عظيمة » الى أن قال : « خرجت من مكة فلزمت هذيلاً في البادية أنعلم كلامها وأخذ اللغة ، وكانت أمصح العرب » . ولا شك أن إقامة الشافعي بالبادية هذبت لسانه ، ومعرفته باللغة والشعر أعانت على فهم معاني القرآن والسنة ، وطبعت أسلوبه بطائع الرصانة ، وأوصلته الى الدوق السليم ، حتى لقد قرأ عليه رجل فلحن فقال له الشافعي : أضرستني ! وحكى عن مصعب الزبيري قوله :

« كان أبي والشافعي يتشادان ، فأثنى الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال : لا يعلم بهذا أحدم من أهل الحديث فانهم لا يحتملون هذا » معجم الأدباء من ٣٨٠

وقد روى أن الأصمى أخذ عنه شعر الهذليين وشعر الثغفري ، ولما انتقدت له الأثمة والشعر اتجه الى مكة وأخذ عن شيبان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي الحديث والفقه وحفظ الموطأ ، ثم رحل الى مالک في المدينة وسمع منه الموطأ وأخذ عنه فقهه ، ولا زمه الى أن مات مالک سنة ١٧٩ هـ

عقب هذا توحه الشافعي الى اليمن لأنه كان هما يتابعه في العلم يلتبس كل ما يجده من فنونه . وقد ذكر من ترجوا له أنه اشتغل بالفراصة حين ذهب الى اليمن ، وعالج الفلك والطب .

قدم الشافعي بغداد وأقام بها سنتين ، ثم قتل واحداً الى مكة ، ثم قدم بغداد ثانية سنة ١٩٨ هـ وأقام بها أشهراً ، ثم خرج منها الى مصر سنة ١٩٩ هـ وظل بها الى أن مات سنة ٢٠٤ هـ

وأثناء إقامة الشافعي بالمراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وأخذ عنه فقه المراقين ، وهنا قال ابن حجر :

« انتهت رئاسة الفقه بالمدينة الى مالک بن أنس ، ثم رحل إليه الشافعي ولازمه وأخذ عنه .

وانتهت رئاسة القمعة بالعراق الى أبي حنيفة فأخذ الشافعي عن صاحبه محمد بن الحسن . وعلى ذلك احتج للشافعي علم أهل الرأي ، وعلم أهل الحديث ، فتصرف في ذلك حتى أصل الأصول وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره وعلا ذكره ، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار ، توالى التأسيس من ٥٤

وأما صفات الشافعي العقلية والفلسفية ، فأجمع المؤرخون على حسن بيانه وقوة طارضته ، وقدرته الفائقة على الجدل ، ومهارته الممتازة في الاستنباط ، وأن ثقافة الشافعي في اللغة والأدب واسعة شاملة .

ولعل اتصال الشافعي بأصحاب أبي حنيفة والاستفادة من كتب محمد ، ثم علمه لطريقة أهل العراق ، جعله يرى طريقتهم لا يحسن الأخذ بها كما لا يحسن تركها . فالقياس عندهم منهاج صحيح ولكنه في نظره ليس على إطلاقه بل لا بد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة ، ثم عندهم طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها ، وعندهم الجدل والاستدلال بالمعدل والمصلح وإلحاق الشبه بالشبه ، وما بين الإِسْنَاد من فروق ثم من موافقات . فرأى الشافعي أن يصيف كل هذه الفروع العراقية الى تروته المجازية من اللغة والأدب أولاً ، ومن الاستنباط أخيراً ، فهاتان الساحتان قد استفاد منهما الشافعي وألف بينهما شخصيته ، فأخرج مذهباً جديداً دما إليه في العراق سنة ١٩٥ هـ وتبعه عليه من أصحابه البغداديين أمثال أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي وهو من مشاهير أهل العراق ، ومثل أبي ثور الكلابي وكأثير بن علي الرعقراني . ثم رأى رضي الله عنه أن يرحل الى مصر فوصل إليها وأقام بها أربع سنوات ، أملى فيها كثيراً من كتبه .

مسلك الشافعي في الاجتهاد :

قال : « الأصل قرآن وسنة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله وصح الاستناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر المفرد والحديث على ظاهره ، وإذا احتمل معاني ما أشبه منها ظاهره أو لاها به ، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أو لاها ، وليس المنقطع بشيء ماعداً منقطع ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لم وكيف ، وإنما يقال للفرع لم ؟ فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة » وقال أيضاً :

« إذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن هناك حديث يخالفه حمل به ، فإذا كانت هناك أحاديث محتلة نظر هل فيها ناسخ ومنسوخ ؟ فإن لم يكن هناك ناسخ ومنسوخ نظر في أدنى الروايات وأمنها في الصحة فعمل بها ، فإن تكافأت عرضها على أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الأحاديث أقرب الى ذلك ، وإذا ثبت الحديث عن رسول الله لا يترك هذا الحديث لأي قياس ولا لأي رأي ولا لأي أثر يروى عن صاحبه كائناً من كان ، أو تابعي كائناً من كان » ضمن الإسلام الجزء ٢

موقف الشافعي من القياس :

وقف الشافعي من القياس موقفا وسطا : لم يتشدد فيه تشدد مالك ، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة ، فهو يقول :

« إن جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار ثم القياس عليها ، ولا يقىس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها ، وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأدبه ، وناسخه ومسوخه ، وعامه وخاصه . ولا يجوز لأحد أن يقىس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقوال السلف ، وإجماع الناس واختلافهم ، ولسان العرب . ولا يكون له أن يقىس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشبه . ولا يعمل بالقول به دون الثبوت . ولا يتمتع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ، ويزداد به تثبتا فيما اعتقد من الصواب ، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك » (رسالة الشافعي في الأصول ص ٧٠) . ومن هنا ترى الشافعي يهاجم مالكاً في قوله بالمصالح المرسلة ، ويهاجم الحنيفة في قولهم بالاستحسان .

من هذه الآراء العملية التي أوردتها الشافعي ، استطاع تحديد موقفه بقواعد فقهية لم يسبق أن فكر فيها مشرع . ولا يخفى كما سبق أن بينا أن رحلته إلى المدينة واليمن ومكة والعراق ومصر كان لها أثرها المحسوس في ثقافته في الحديث ، وأنه بالرغم من هذه الثقافة لم يتعصب لأهل بلد من هذه البلدان . ولهذا كان المحدثون أميل بطبعهم إلى الشافعي ، لأنه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة ، وحدث من الرأي والقياس وضيق سلطتهما كذلك . وكان من أنصاره أحمد بن حنبل وأسحاق بن راهويه وغيرهما من كبار المحدثين .

ونظراً لأن الشافعي قرب وجهة النظر بين المدرستين : مدرسة الحجاز ، ومدرسة العراق ، وانتخابه ما رأى الحق في كليهما ، فقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهبه الجديد .

وقال غير الدين الرازي ص ٢٤٣ :

« إن الناس كانوا قبل الشافعي فريقين : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي . أما أصحاب الحديث فكانوا حازمين عن المناظرة والمجادلة ، حازمين من تزيف طريق أصحاب الرأي ، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة الكتاب والسنة . وأما أصحاب الرأي فكانوا سعيهم وجهدهم مصروفاً إلى تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بغيرهم . لهما الشافعي ، وكان حارفاً بأسول الفقه وشرائط الاستدلال ، وكان قويا في المناظرة والمجادلة ، فرجع عن قول أصحاب الرأي أكثر أنصارهم وتباعهم » .

وقال في موضع آخر . « اعلم أن نسبة الشافعي إلى أصول الفقه كنسبة أرسطاطليس إلى علم المنطق ، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض ، وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطو يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السلبية ، لكن ما كان عندهم قانون محلي في كيفية ترتيب الحدود والبراهين . فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة ، فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون السلكي فلما أفلح . فلما رأى أرسطاطليس ذلك اعتزل عن الناس مدة من الزمن واستخرج علم المنطق ، ووضع للحلق بسببه قانونا كلياً يرجع إليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين . وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً ، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع ، فاستخرج الخليل علم لعروض ، فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده ، فكذلك هاهنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة ، وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها ، فاستبسط الشافعي رحمه الله علم أصول الفقه ، ووضع لخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع . فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطو إلى علم العقل . واعلم هو في ذلك أن الشافعي صف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، وفي كل واحد منهما علم كثير . والناس وإن أطنبوا بعد ذلك في علم أصول الفقه إلا أن كلام عيال الشافعي فيه ، لأنه هو الذي فتح هذا الباب ، والسبق لمن سبق ، الرازي ص ١٠٠ وما بعدها .

كتاب الأم :

كتاب وضعه الشافعي ، وهو مجموع أمال أملاها في حلقته ، كتبها عنه تلاميذه وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم . والكتاب فصيح العبارة ، حسن الأداء ، بحكم الوضع ، عليه مسحة من كلام البادية وفصاحتها . وفي الكتاب تنجلي براعة الجدل المنطقي . والكتاب محبوب على أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ ، وقد أملت هذه الأبواب في مصر . والكتاب يعطينا صورة وضاعة قوية لمناحي الشافعي في الاجتهاد ، وعلى مذهبه الجديد .

لماذا وضع الشافعي علم أصول الفقه ؟

أهل الحديث كانوا يعيرون أهل الرأي بأنهم يأخذون في دينهم بالظن . فأصحاب أبي حنيفة يقدمون القياس على خبر الواحد ، وهم يقبلون الحديث المرسى الذي أسنده التابعي أو تابع التابعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابي الذي روى الحديث ، ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفاً للقياس ، ولا يقبلونه في الواقعة التي تم فيها البؤى - الرازي ص ٣٥٠ ٣٥١

لما ذهب الشافعي إلى العراق أول مرة استرعى نظره تحامل أهل الرأي على أستاذه مالك

وعلى مذهبه ، وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المسكنة عند الخلفاء ، وبتوليهم شئون القضاء . ذلك إلى أنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأقذبياً . ويمثل حاله العربيين مروي عن إمامي أهل الرأي وأهل الحديث : أبي حنيفة ، ومالك .

لهذا كان طبعياً أن يجادل الشافعي عن أستاذه وعن مذهبه ، وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعي عن مالك ومذهبه .

وقد روى أبو عبد الله الصغاني يحدث عن يحيى بن أكثم قال : « كتبنا عبد محمد بن الحسن في المناظرة ، وكان الشافعي رجلاً قرئى العقل والمهم صافي الذهن سريع الالسابه ، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء » ابن حجر من ٥٩

وعن محمد بن الحسك قال : « سمعت الشافعي يقول : قال لي محمد بن الحسن : صاحبنا أعلم من صاحبكم (يعني أبا حنيفة ومالك) وما كان على صاحبكم أن يتكلم وما كان لصاحبنا أن يسكت . قال : فغضبت وقلت : نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك أو أبو حنيفة ؟ قال : مالك ولكن صاحبنا أقيس ، فقلت : نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي حنيفة ، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام » الانتقاء من ٢٤ .

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك في قدوم الشافعي إلى العراق أول مرة . وأقام الشافعي في العراق زمناً غير قصير ، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأي فيما درس في العراق ، ولازم محمد بن الحسن ورد على بعض أقواله وآرائه مناصراً لأهل الحديث .

لما عاد الشافعي إلى بغداد في سنة ١٩٥ هـ - ٨١٠ - ٨١١ م ليقم فيها سنتين ، اشتغل بالتدريس والتأليف . روى البغدادي في كتاب تاريخ بغداد :

عن أبي الفضل الزجاج يقول : لما قدم الشافعي إلى بغداد ، وكان في الجامع إمامان وأربعون حلقة أو خمسون حلقة ، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون : قال أصحابنا ، حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره (من ٦٨ ٦٩) واختلف إلى دروس الشافعي جماعة من كبار أهل الرأي كأحمد بن حنبل وأبي نوح فانتقلوا عن مذهب أهل الرأي إلى مذهبه . ويروي عن أحمد بن حنبل أنه قال : « ما أحد من أصحاب الحديث حمل بحجة إلا وللشافعي عليه منة » فقلنا : يا أبا عبد الله كيف ذلك ؟ قال : « إن أصحاب الرأي كانوا يهزمون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم » الانتقاء من ٧٦

وفي أثناء إقامة الشافعي في بغداد صنف كتاب الحجة . وقد روى ابن حجر عن البويطي أن الشافعي قال : اجتمع على أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة ، فقلت :

لأعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم ، فكتبت إلى محمد بن الحسن ، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ، ثم وضعت الكتاب البغدادي ، يعني الحجة — ص ٧٦

يظهر من ذلك أن مذهب الشافعي القديم الذي وصمه في بغداد كان في جل أمره ردا على مذهب أهل الرأي ، وكان قريبا إلى مذهب أهل الحديث .

ولما انتهى الشافعي إلى مصر وضع مذهبه الجديد ، وأخذ نفسه بتأليف الكتب ردا على مالك ، وكان يقول : مالك بشر يخطئ ، فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه ، مه ، وكان يقول استخرت الله تعالى في ذلك — ابن حجر ص ٧٦

وسئل أحمد بن حنبل : ما ترى في كتب الشافعي التي عبد العرافين . أنه أحب إليك أم التي بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التي وضعها بمصر ، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك ، كما يرويه الذهبي في تاريخه الكبير (راجع هامش الانتقاء ص ٧٧) .

مذهب الشافعي الجديد :

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي إلى جمع المعائل وترتيبها ووردها إلى أدلتها التفصيلية عند ما تكون دلائلها نصوصا .

وأهل الحديث لم يكتفوا بجمع النصوص على النصوص ، أكثر تعرضا لذكر الدلائل من أهل الرأي ، فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله ، وذلك يشهد بانحياز الشافعي في الفقه باتجاه جديدا هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني كثيرا بالجزئيات والفروع . يدل على ذلك ما قاله أحمد بن حنبل رضى الله عنه . ومما يدل على أن اتجاه الشافعي لم يكن إلى تمحيص الفروع ، ما نقله ابن عبد البر في الانتقاء قال : قال الشافعي لنا : أما أنتم فاعلموا بالحديث والرجال مني ، فإذا كان الحديث صحيحا فاعلموني أن يكون كوفيا أو بصريا أو شاميا أذهب إليه إذا كان صحيحا — ص ٧٥

فالشافعي في اتجاهه العلمية يعني قبل كل شيء ضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول يجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي . وهو من هذه الناحية يتبع مذهب الفيلسوف ابن سينا في الاستدلال والبحث الفقهي ، حيث يقول ابن سينا في كتابه الشفاء .

« أنا لا أشتغل بالنظر في الجزئيات لكونها لا تنتهي وأحوالها لا تثبت ، وليس علمنا بها من حيث هي جزئية تنبئنا كمالا حكما أو تبليغا غاية حكمة ، بل الذي يهمنا هو النظر في الكليات » .

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه :

قال الرازي :

« اتفق الناس على أن أول من صنف في هذا العلم أي علم أصول الفقه ، الشافعي ، فهو الذي رتب أبوابه ، وميز بعض أقسامه ، من بعض ، وشرح مراتبها في القوة والضعف » .

ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ سنة ١٣٩٢ م في كتابه في أصول الفقه المسمى بالبحر المحييط :

« الشافعي أول من صنف في أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن واختلاف الحديث وإبطال الاستحسان ، وكتاب جامع العلم ، وكتاب القياس الذي ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » .

ويقول ابن خلدون في مقدمته :

« كان أول من كتب فيه أي علم أصول الفقه الشافعي رضي الله عنه ، أم في رسالته المشهورة ، تكلم فيها في الأوامر والنواهي ، والبيان والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » .

عبد الحميد سامي بيومي

اياكم والبخل

قال الله تعالى : « ولا يحسن الدين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطرقون ما بخلوا به يوم القيامة ، والله ميراث السموات والارض ، والله بما تعملون خبير » سيطرقون ما بخلوا به : أي سيلزمون بأداء حقه لزوم الطوق في الإحاطة ، أي أنهم لن يفلتوا من المحاسبة عليه .

وسأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأنصار فقال : من سيدكم ؟ فقالوا : الجدي بن قيس على بخل فيه . فقال رسول الله : « وأي داء أدوا من البخل ! »

وقد حد أديب البخل فقال : « هو منع المسترفد مع القدرة على رفده »

وكان الامام أبو حنيفة لا يرى قبول شهادة البخيل ويقول : بخله يحمله على أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن ، فمن هذه حاله لا يكون مأمونا .

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي :

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى
بخيلا له في العالمين خليل
وإني رأيت البخل يزري بأهله
فاكرمت تسمى أن يقال بخیل

منطق الديني

محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

للمعتقدات أداة يقال لها المنطق، تعصم الفكر عن الخطأ، وهو مؤسس على القوانين العقلية؛ وللمعلومات أداة يُصايقال لها المنطق العلمي، تحمي الباحث فيها من الانخداع بالظواهر، والخلط بين ما هو علم يقيني، وما هو رأي مرجح، وما هو افتراض مؤقت، وتدله على ما يجب الجري عليه في جمع المشاهدات وترتيبها، والتأمل فيها وتمحيصها؛ كل ذلك ليأمن العقل بالأول من الخلط على غير هدى، والتنادي إلى أوهام يظنها معقولات وليست بها؛ ويتقى الباحث بالثاني رفع الأمور الظنية، إلى مرتبة العلوم اليقينية، فيتبع بسبب ذلك فيما كان عليه السابِقون من اعتبار الآراء والافتراضات معارف مقررة وهي ليست منها، ويكون وجودها مغطاه عن الوصول إلى الحقائق الثابتة.

وضع المنطق أرسطو في القرن الرابع قبل المسيح، وأكمله من جاء بعده من كبار الفلاسفة، ووضع الثاني العلامة (بيكون) الانجليزى في القرن السابع عشر، وأنا أرى أن الدين يجب أن يكون له منطق يحفظ من يريد الاهتداء إلى صهيجه من الخلط بينه وبين فاسده، وفيما وصل إليه العلم المصري والفلسفة الحديثة من المعلومات الحقيقة، والنظرات الصادقة، ينبوع لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق. وإذا كان عهد يُعتبر أكثر عهود العقلية الانسانية صلاحية لهذا العمل الديني الخطير، فهو هذا العهد الذي نعيش فيه، وذلك لعدة وجوه:

(أولها) أن العلم قد وصل إلى حد بلغ فيه من الرشد، لا من ناحية أنه انتهى إلى حدود ما يمكن معرفته، ولكن من ناحية أنه أدرك أنه يستحيل أن يعين ما يمكن معرفته من المجهولات، ومالا يمكن معرفته منها، وأن وفق المعرفة اقترح أمامه إلى ما لاحد له، وأصبح من كثرة ما منى بالمفاجآت، يتوقع أن يياقت بشيء منها يقلب جميع مقرراته رأساً على عقب، حتى قال العلامة الكبير هنري بواسكاريه أحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسي في كتابه (العلم والافتراض) « La Science et l'hypothèse » :

« لما تروى العلماء قليلا (في العهد الأخير)، لاحظوا مكان الافتراض من العلوم، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك. حينذاك سأل بعضهم بعضا: هل هذه الصروح العلمية على شيء من المنانة والرسوخ، وتحققوا أن نفحة واحدة تكفي لجعلها عاليها سافلها ».

(ثانيها) إفاقة العقلية العلمية من غرورها القديم ، وهذه الإفاقة ثمرة الرشد الذي بلغه العلم ، وبيناه في الوحة السابق ، فقد كانت انخلاء العلمية قد انتهت في القرنين الثامن والتاسع عشر الى حد لا يطاق ، حتى ظنوا بأنفسهم ما لا يصح أن يظنه عاقل بنفسه ، وتوفسوا في سبيل ذلك عن قبول أى قول يخالف ما كانوا عليه . حتى إنه لما حبل العلامة (لافوازييه) الهواء الى أوكسيجين وأزوت في القرن الثامن عشر ، وأعلن ذلك للعلماء ، كدجوه أشنع تكذيب ومارضوه بأن الهواء من العناصر الأربعة ، وأنه لا يعقل أن يكون مركبا . فأخذ يلفت نظرم الى أنه إنما يحدتهم عن تجربة علمية يمكن شهودها عمليا ، لا عن رأى يقبل لأخذ والرد . فلم يرفعوا باكتشافه رأسا خسا وعشرين سنة ، ثم قبلوه كارهين وكادوا لا يفعلون .

ولما اكتشف العلامة باستور أن الحى لا يمكن أن يتولد تولدا ذاتيا ، وكانت هذه عقيدة راسخة عند العلماء ، قالوا اكتشافه بالازدراء والسخرية . فقال لهم إني لا أدعوكم الى مسألة فلسفية ، ولكن الى تجربة علمية ، فلم يقيموا الكلام وزما ، غرورا بما كانوا عليه ، فظل ينافع عن اكتشافه عشرين سنة حتى قبلوه مضطرين .

(ثالثها) بلوغ الدراسات الدينية من وقفوا أنفسهم لهذه الناحية التاريخية من النفسية البشرية ، الى حد النضج ، فعرفت أصول الأديان ، وظهر تسلسل بعضها من بعض ، وعرف أن أصلها جميعا التوحيد الخالص لا التعدد فى الآلهة ، قرر ذلك كبار المستشرقين وعلى رأسهم الأستاذ الألماني الكبير (ماكس مولر) . وكدرست الكتب السماوية دراسات تحليلية ، وضبطت سنوتدوينها ، وعُرف ضياع أصول أكثرها ، وضياح تراجمها أيضا التى أخذت عنها السخ الموجودة الآن ، واكتشفت أمكنة التحريف من بعضها ، وحللت شخصيات رجالها ، وحُشرت أفرامهم وآراؤهم ، وعُلم مبلغ تأثير كل منها فيما عليه أصحاب تلك الأديان الآن . فأصبح من يريد التبحر فى هذه الموضوعات ، حيال ذخر جليل القدر من مؤلفات توصله الى ما يريد كففه منها ساعة طلبه ، لا يبدل فيه جهدا ، ولا يكده عقلا .

(رابعها) إكباب العلماء والفلاسفة وقادة الأفكار منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث خارقة للعادة ، على دراسة النفس الانسانية على أسلوب عملي تجريبي ، من ناحيتي التنويم المغناطيسى والوساطة بين العالمين . وقد أفضت هذه الدراسات العملية الى تجارب حاسمة تثبت وجود روح فى الجسم الانسانى مستقلة عنه ، يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تحسدا خفيفا ، مستعيرة حسدا من مادته ، يمكن تعيين وزنها ، بما نقص من جسم الموقم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته ، وكل ميزات ظهورها وليس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع فى النفس شبهة . ثبت كل هذا ثبوتا علميا ، ولا عبرة بمن يجمله ممن لا يعتهم أمره .

هذه الثمرات العلمية التي تقروا على مقتضى الدستور العلمى الصارم ، قد أتت على جميع شبهات الماديين ، وقصت على مذهبهم قضاء لا أمل فى قيامه بعدها . فخلصت بذلك العقول من المازق التي كانت دفعنها فيها الفلسفة المادية ، وانجبت الى آفاق جديدة من الدراسات العالمية متبعة أصول الدستور العلمى ، لا سابعة فى جو الخيال الذى لا يؤمن معه الشطط ، ولا يرجى به الوصول الى الحقيقة الطبيعية . هذا حدث جلل خص الله به أهل القرن العشرين الذى طفت فيه الفلسفة المادية طغيانا كادت معه تلحق الانسان بالحيوان الأعجم .

(خامسها) كل هذه الفتوحات العلمية نبهت فى القلوب العاطفة الدينية ، وأيقظت مطالبها الروحية ، وفتحت للمقول آفاقا عليها نافت معها الى البحث عن نظام دينى يتفق ومقررات العلوم ، ويصلح لأن يرقى بالروح فى عالمها حالصة من وساوس الأساطير القديمة ، حرة من قيود التقاليد الميتولوجية البائدة . وقد دفعت هذه النزعة الشريفة رجالا من أكرم مفكرى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر ، الى وضع دين علمى سموه الدين الطبيعى ، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وبخلود الروح ، وتعاليمه الآداب العالمية ، والأخلاق الصالحة ، والسيرة القويمة ، مما يشير اليه العلم بجملته وتفصيله . هذه الديانة التى قام بها أ كبر فلاسفة العصر من أمثال جول سمون وكارو ، لقيت إقبالا عظيما من كبار العقول ، وأصبح أشباعها لا يحصون كثرة وإن كان لا يشعر بهم أحد .

هذه الحالة العلمية والنفسية الراحنة ، تسمح لمن أن يستفيد منها فى وضع منطق دينى ، مستمد مما تقرر من ثمرات المعارف المحيصة ، بحيث لا يخرج فى أصل من أصوله عما نلت بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عرف من انجهاات النفسيات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح المعاصرة قد نضجت لظهور مثل هذا العمل العلمى ، فإن المقررات التى يجب أن يستمد منها مادته ليست مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغ إن قلت إنها أصبحت بدهيات علمية تكاد تكون فى مستوى المعلومات الضرورية للإنسان .

الآن يسوغ لنا أن نبدأ فيما نحن بسبيله من بناء هذا المنطق الخاص فنقول :

الاصول الاول :

الناس كلهم إخوان متساوون فى الحقوق ، لا يتفاضلون بأخناسهم ولغاتهم وبيئاتهم وألوانهم ، ولكن بمزاييم الأدبية ، وقوام العقيدة ، وقد خلقوا ليرافدوا على تذليل مصاعب الحياة ويتعابوا ، لا ليتناكروا ويتناحروا .

تفصيل هذا الاجال :

من العلم المحسوس أن الناس جميعا نشأوا من أبوين اثنين ، فالغوا فى أول أمرهم جماعة

واحدة ، قامت من الأرض على بقعة واحدة ، فلما كثروا وضائق بهم بيئتهم ، نزلت طوائف منهم الى نقاع جديدة ، ثم تكاثروا وتفرقوا ، وتكاثروا وتفرقوا ، وفي كل مرة يزداد بعدم عن بيئتهم الأولى ، حتى ملأوا الأرض على رحبها . هذا هو السبب الطبيعي في وجود القبائل والشعوب والأمم وتفرقها في الأرض .

ولما كانت حياة الإنسان في أول أمره ساذجة ، لم يضطر من اللغة إلما يدل على حاجاته الضرورية ، وكلما اضطر لشيء ، وأوجده بما منحه من قوة العقل ، أطلق عليه اسما جديدا . وبما أن هذا التوسيع في إطلاق الأسماء نشأ وجماعات متفرقة في الأرض ، جاءت هذه الأسماء متخالفة ، وكان هذا سبب تخالف لغات البشر في بقاع المعمور .

أما اختلاف الألوان ، فنشأ من تفاوت درجات الحرارة والرطوبة في الأصقاع الأرضية ، فمن سكن البقاع التي تقرب من القطبين ، جاءت ألوانهم ناصعة البياض لضعف تأثير الأشعة الشمسية في تلوين بشرتهم ، وكلما بعدوا عنها واقتربوا من خط الاستواء ، اشتد فعل الشمس على خلايا أجسادهم فبعدت عن البياض الناصع يسيرا يسيرا ، حتى انتهت في المناطق المحرقة الى السواد الماحم ، وكان هذا مصدر اختلاف الألوان في النوع الإنساني . ولو كان له مصدر غير هذا لوجدت في المناطق المختلفة ، ألوان متخالفة لأهلها الأصليين ، وهذا لا وجود له أئنة .

هذه هي الأسباب الطبيعية لفوارق الرئيسية بين طوائف الأسرة الآدمية .

ولسنا نشك في أنه كانت قسائم مختلفة ، وماقيته الجماعات في رحلاتها الشاسعة ، ولا اختلافات الجواء وانقلاباتها الكثيرة ، ولما اضطرت اليه من ضروب الجهود ، ولما دُعيت الى التعويل عليه من المواد الغذائية ، والتواء طرق الوصول اليها ، قلنا : لسنا نشك في أنه كان لسلك ذلك تأثير في إحداث الاختلافات في أشكال جاجها ، وصفات وجوها ، وقابلياتها للتعقل والترك ، مما لا يجوز نكرانه أو تجاهل تأثيره .

هؤلاء الأقوام رغمًا من تباعد بيئاتهم ، وتباين أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، يمتثلون إخوانا بحكم النسب الطبيعي الذي لا خلاف فيه . وهم وإن اختلفوا في بعض التفاصيل الصورية إلا أن لميهم نفوسا وعقولا وميولا متشابهة في أصلها ، وإن توعت بسبب العوامل التي احتوتها . ولكن هذه الاختلافات لم تمتد على طريقتهم الإنسانية ، ولا تصلح أن تكون سببا لحرمانهم من الحقوق الطبيعية . فلا يوجد شعب في الأرض يشذ عن الآلة والافهام لاجتماعه ، لو آتس في الفاتمين بهذه الدعوة روح الانصاف والرحمة وشرف النفس ، ورأى أن نصيبه من العمل لمصلحة المجموع يحمل اليه كاملا موفورا . ولكنه يشذ وينفر ويفصل الموت على الحياة دفاعا عن حوزته ، لورأى أن قواه تستغل كما يستغل قوى الحيوان ، ولا يناله من وراء كده ما يقيم أوده ، ويصلح من شأنه .

فأساس العرق والتناحر، الظلم والآثمة والغشمة. وما دام الأقوياء المتعلمون يتصرفون بها، ويعامل بعضهم بعضاً على موجبها، فلا يزالون يقتاحرون حتى تسلك آخر قطرة من دم الجاهلية فيهم. وهذا لا يمنع أن المثل الأعلى الذي قرره العلم هو أن جميع الناس إخوان، وأنه يجدر بهم أن يتعارفوا ويتعاونوا، لا أن يقتناكروا ويتناحروا. أما مسألة: هل هذا ممكن أو غير ممكن في هذه الحياة، فلا تندح في مسألة هذا الأصل، ولا في كونه المثل الأعلى.

نعم لا تندح في أنها المثل الأعلى للحياة الاجتماعية، لأنها إن كانت غير ممكنة في عصر الانسانية الراهن فذلك بسبب ما لا يزال موجوداً في النفس البشرية من أدان الجاهلية، وبقايا الصفات الحيوانية، من الآثمة والعدوان على الغير وحب الذات وخود العاطفة، وقد أجمع علماء الأخلاق أن هذه كلها أدواء نفسية يعكس معالجتها وزوالها، ولو بعد آماد طويلة تمضي في التطورات الأدبية. وما كان من هذا النوع من الصفات فسواء أبقى ملازماً للبشرية أم رايها، فلا تندح وجوده في وجود المثل الأعلى لحياة اجتماعية أفضل مما هي عليه.

على أن في لعالم الانساني أفراداً كثيرين حصلوا على درجة ممتازة من سمو الخلق يقومون على هذا المثل الأعلى، وهم لو وكل اليهم تنظيم علاقات الناس بعضهم بعض، لما حروا إلا على هذه الشاكلة. وما جاز على هؤلاء الأفراد الكثيرين يجوز على غيرهم من بقية الناس، ولو بعد آماد طويلة، إن قدر للانسانية أن تصل الى الدرجة التي تصورها من سمو الأدبي. وليس من شروط صحة المثل العليا أن تكون ممكنة في عهد من العهود المسحطة للانسانية، ولكن يكفي أن تكون معقولة لديها، ومبينة على أصول تقوم عليها الحياة على أكل وجه

تطبيق هذا الأصل على الاسلام:

قبل أن ننتقل الى الأصل الثاني من المطلق الديني، يحسن بنا أن نشير الى أن هذا الأصل الأول ينطبق على أول أساس وضعه الاسلام ليقم عليه صرح الدين العام، الذي أعلن أنه دين البشرية كافة، فقد قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير». أزلت هذه الآية إيداناً للناس كافة بأنهم إخوان أيوم جميعاً واحد وأمة واحدة، وأنهم وإن تفرقوا في البلاد، واختلفوا في الأجاس واللغات والألوان، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الاخوة بل توجب عليهم أن يتعارفوا، والتعارف يدعو الى التعاون والتراشد، والى النكاتف والتساند على تذليل عقبات الحياة.

ولما كان شر ما خلقه تباعد البيئات، وانقطاع الصلات، وتباين اللغات، وهما استولى على نفوس كل جماعة بأنهم خير ممن سواهم، وأنهم أحق برغد العيش، والسيطرة على الخلق من كل من عداهم، صرح الحق بأن هذا الوهم لا يجوز أن يقام له وزن، وأن الميعار الصحيح

للتفاضل هو تقوى الله ، والقيام بحاجه ، والابتعاد عن مكارهه . فضلا الابيض بأفضل من الأسود ، ولا العربي بأمثل من الأعجمي ، إلا بعمل طيب ، وتقوى باعثة على الصلاح . ولله صلى الله عليه وسلم تفصيل لهذا الإجمال ، فقد قال : « ليس لأبيض على أسود ، ولا لعربي على أعجمي فضل إلا تقوى أو لعمل صالح ، كلكم من آدم وادم من تراب » .

وروى أن أبازر الغماري وهو من كبار رجالات الاسلام ، قال عبدا أسود في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء افغضب النبي صلى الله عليه وسلم ونظر الى أبي ذر وقال له : « إياك امرؤ فيه جاهلية ، ليس لابن البضاء على ابن السوداء فضل » الى آخر الحديث السابق .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يفرق في الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين حر ومولى ، فقد روى أنه ولي بلالا المدينة وفيها كبار الصحابة ، وأصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى صلى الله عليه وسلم بإذان الفارسي على اليمن ، ولما مات ولي ابنه مكانه .

وكان لسعدان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهما حظ كثير من في القلب في المهام الاجتماعية .

عامل المسلمون جميع الشعوب التي دخلت في دينهم معاملة الاخوان بدون التفات الى لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، وعاملوا من هادهم وخضع لحكمهم بأدق أصول العدل ، فساووهم بأنفسهم أمام المحاكم ، وراعوا في معاشرتهم ما راعوه مع أثناء ملتهم من حقوق الجوار . وقد أمر الاسلام بمراعاة حقوق هذه الآخوة الانسانية العامة حتى في الحرب ، فأمر أن لا تحرق دور المحاربين ، ولا تنادر روعهم ، ولا تعطل مرافقهم ، وأن لا يحجز على جريحهم ، ولا يعتدى على أسيرهم ، بل أن يكرم ويحسن إليه . وبالغ في وجوب مراعاة هذه العواطف النبيلة ، حتى أمر أن لا يسخدم جيوشهم بسوء ، وأن لا يقتل الشيوخ والامني ورجال الدين ، وأن لا يصادروا في حرثهم الدينية . وهذا شيء لم تعرفه الانسانية حتى في العصر الراهن

فالاسلام في كل محاولاته قد رعى الى تأليف أمة عالمية ، تغل فيها جميع الاقوام والالوان تقريبا من المثل الأعلى . وهذا أول ما حدث من نوعه في الارض .

في المقالات التالية ندرس جميع أصول منطق الدين تباعا إن شاء الله ؟

محمد فريد وجرى

بَابُ السُّئَالِ وَالْفَتْوَى

فِي الْمِيرَاثِ

حاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

توفى رجل عن أخت شقيقة ، وأولاد عم شقيق لواله المتوفى ذكور وإناث . فن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

الذى يرث من المذكورين : الأخت الشقيقة ، وأولاد العم الذكور . ولا شيء لأولاد العم الإناث لأنهن من ذوى الأرحام .

وأما توزيع التركة بين الوارثين : فملاخت الشقيقة : النصف ، وأولاد العم الذكور : الباقي وهو النصف ، يقسم بينهم بالنسوى . والله أعلم

وجاء أيضا :

مات الميت عن أمه ، وأخته لأمه ، وأخته لأبيه ، وعمه الشقيق ، وعمتيه الشقيقتين . فن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

الذى يرث من هؤلاء هم : الأم ، والأخت لأم ، والأخت لأب ، والعم الشقيق . أما العمتان فلا ترثان .

ونصيب الأم في هذه المسألة : السدس ، ونصيب الأخت لأم : السدس كذلك ، ونصيب الأخت لأب : النصف ، والباقي للعم الشقيق . والله أعلم

وجاء أيضا :

اتبان أولاد عم ، أحدهما خلف بنتين وولدا ، وإحدى البنتين توفيت عن ولد ، ثم توفى الولد عن جدة لأبيه : أى أم أبيه ، وحال ، وخالتين ، وعمين ، وعمه ، وابن عم الجد . فما الحكم ؟

الجواب :

هذا السؤال يتضمن سؤالين : الأول : لمن تقول تركه امرأة توفيت عن ولدها ؟ الثاني : لمن تقول تركه رجل توفى عن جدة لأبيه وخال وخالتين وعمين وصمة وابن عم الجد ؟
والجواب : أن التركة في السؤال الأول تقول إلى ولد المرأة ، إذ لم يتبين في السؤال وجود وريثة آخرين غيره .

وفي السؤال الثاني تقول التركة للجدة والعمين لا غير ، فتعطى الجدة السدس ، ويعطى المهرن الباقي بالتساوي بينهما ، فيكون لكل منهما نصف الباقي . ولا شيء لخال والخالتين والعممة لأنهم من ذوى الأرحام ، وذوو الأرحام لا يرثون مع وجود عصبة الميت . وكذلك لا شيء لابن عم الجد لأنه أبعد من العمين فيحجب بهما . والله أعلم

وجاء أيضا :

امرأة توفيت وترك زوجها وأختا شقيقة ، وأختا لأب ، وإخوة لأم وم خمسة ذكور .
فن يرث من هؤلاء ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع المذكورين في السؤال يرثون ، فلزوج النصف ، وللأخت الشقيقة النصف أيضا ، وللأخت للأب السدس ، وللأخوة للأم الثلث .

وبما أن مجموع الانصاء قد زاد على الواحد الصحيح ، وجب تقسيم التركة تقسima تناسبيا .
ويعتضى قواعد التقسيم التناسبي تكون التركة تسعة أجزاء : ثلاثة منها للزوج ، وثلاثة للأخت الشقيقة ، وجزء واحد للأخت للأب ، وجزءان اثنان للأخوة للأم يقسمان بينهم بالسوية .
والله أعلم

وجاء أيضا :

مات الميت عن ثلاث زوجات ، وخمسة أولاد ذكور ، وعماتين بنات . فما نصيب كل وارث على حدة ؟

الجواب :

نصيب الزوجات الثلاث : الثمن « ثلاثة أرباع » لكل واحدة منهن قيراط ، والباقي يقسم بين أولاد المتوفى الذكور الخمسة . ولأنات الثمان ، لذكر منهم مثل حظ الانثيين ، فيخص الواحد من الذكور قيراطان وثمانية أسهم من القيراط ، ويخص الواحدة من الاناث قيراط واحد وأربعة أسهم من القيراط . والله أعلم

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النعمان

التضييق على المبشرين

جاء في جريدة (الكريستيانسم) التي تصدر في باريس ما يأتي :
« نشرت جريدة البنية الانجيلية لدى المسلمين في موضوع العالم الاسلامي ما نعه :
« تعلق جريدة (البونيه) أنه قد قدم الى مجلس الشيوخ المصري مشروع قانون يقضى
الى تثبيط كبير من نشاط هذه البنية إذا قبل هذا المشروع . فينتج عنه أن دعوة البنية يجب
أن لا تذاع بين الشبان الذين تقل سنهم عن ست عشرة سنة مادام القصد تحويلهم عن دينهم .
ومخالفة هذا القانون تجر الى الغرامة أو الحبس . نعم إن المشروع لم يصبح قانونا بعد ، ولكن
الإسلام من العزة والمناعة بحيث يستطيع صد الدعوة عن الشيعة ، ومنعها من الاستفادة من
مواضع الانجيل . فلا جرم أن هذا الموقف يشغل بال الكنيسة التبشيرية ويقلقها كثيرا جدا » .



(مجلة الأزهر) : إننا لا نرى موجبا لاهتمام المبشرين بالمسلمين ، فإن لهم ديناً شهد له من
درسه من الأجانب عنه بأنه أقوم الأديان كلها ، وشهدوا بأن الناحية الخلقية منه قائمة على أسمى
ما عرف عن الناموس الأدبي العام ، والمسلمون من الناحية الاعتقادية يؤمنون بجميع الأنبياء
والمرسلين لا يفرقون بين أحد منهم . فإذا كان يراد منهم بعد ذلك أن يؤمنوا ببسوة المسيح
فذلك من المحالات التي لا يصح أن تطوف به وس المشتغلين بالأمور الدينية ، وقد ثبتت هذه
الاستعالة بفشل المبشرين في بلاد المسلمين فشلا لا يدع محلا لأقل أمل .

وعلى فرض أن هذه المحاولات غير مستحيلة ، وأن لديهم حقيقة يمكن التذليل عليها ، فما
الذي يزعمهم من قصر التبشير على من جاوز السادسة عشرة من عمره ، وهم يعلمون أن ما قبل
هذه السن دور طفولة لا يهتم فيها صاحبها بغير اللعب والتلهي ؟ ولست أحب أن أفهم من فلقهم
هذا أنهم يعرفون أن دعوتهم تصادف من ناضجى القوة العقلية مقاومة عنيفة ، ولا يمكن
ترويحها إلا عند من هم في سن الطفولة .

مارمديوك يترجم القرآن ويسلم

جاء في جريدة المانستر جوارديان تحت عنوان (داخل في الاسلام) نقد لكتاب
وضع في تاريخ حياة (مرمديوك بكتول) وهو أحد مترجمي القرآن الى الانجليزية . قالت :
« اعتنق مرمديوك الاسلام . وهو شاب كان مدرسا باحدى مدارس حيدرآباد ثم استخدم
في القصر . وكان يقضى معظم وقته بين زيارة الشرق الأدنى والاطلاع على الآداب في مقاهيها .
وكان سبب قلقه فله موارده المالية .

«وهو يختلف كل الاختلاف عن ولعده بلات ، لأن هذا اكتفى بالاطلاع على مزايي الاسلام ولكن بكتحول دخل فيه فعلا ، وكان يجذبه عزاءه في وحدته . وكان يصنع نفسه في خدمة الخلافة والامبراطورية التركية . وكان يمتد أن الحكومة البريطانية أضاعت فرصة جعل تركيا حليفة لها . وربما كان في هذا شيء من الحقيقة » .



(مجلة الأهرار) : ليس لمعجب على من يفهم القرآن ويترجمه أن يدخل فيه ، ولكن المعجب أن يفهمه إنسان ويترجمه ثم ينقلب عليه ويضع منه ، كما فعل (سيل) صاحب الترجمة المشهورة . لا جرم أن للورثة الدينية تأثيرا مثل تأثير السحر بل أشد ، فإن من يكون نال قسطا من العلوم الاجتماعية والنفسية ، وأخذ بحظ من الفلسفة ، يستحيل عليه أن يشهد آيات القرآن البالغة ذروة الإعجاز في جميع هذه المواطن ، ثم ينقلب عليه . إن في هذا أدل دليل على أن من يحرؤ على مثل هذا العمل تكون ثقافته واقفة عند حد ، والورثة الدينية آخذة منه بالكظم .

الخطأ في معنى الخلافة

أنت حريدة جلاسنجو سينير الانجليزية بتاريخ الخلافة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم قالت .

« والالسان يعجب من اهتمام العالم الاسلامي بها ولكن يكون لها من السلطة ما يذكر عنها في أغرب تاريخها . ولكن النظريين يعتقدون أنها ضرورية للدفاع عن الدين ، ولسياسة الدولة ، ومعنى هذا أن الخليفة يجب أن يكون له من القوة ما يجعله ذا نفوذ في العالم ، فيكون جديرا بما يحيط بمركزه من العظمة بصفته وكبلاؤه في الأرض .

الى أن قالت الجريدة :

« ولقد استمرت الخلافة قائمة في أوقات لم يكن للخليفة فيها سلطة ما ، فلما كان الخليفة تحت إشراف السلاطين كان هؤلاء يستمدون سلطتهم من يديه وإن كانت في يدهم فعلا ، ويؤمنون بقيمة هذا ، وكان الولاة يطلبون من الخليفة الاعتراف بسلطتهم ، وهذا يدل على أن في الخلافة شيئا غير القوة التي تتركب التي يشغلها . فهي محوطة بالقداسة عند كثير من المسلمين . فلا عجب إذا شعر المسلمون بالخيرة وهم بغير خليفة ، وإذا أبوا أن يدعوها نزول ، فالخليفة رمز للوحدة الاسلامية » .

(مجلة الأزهر) : لا يعنيها من نشر هذه الكلمة ما ذكره كاتبها من اهتمام العالم الاسلامي بالخلافة ، ورأى النظرين في تفهما ، ولكن يعنيها ما ذكرته من أن الخليفة يعتبر وكيل الله في الأرض . هذا بعيد عن روح الاسلام ، وعن معنى الخلافة الاسلامية ، فان المسلمين لا يعترفون بوجود وكيل لله في الأرض يحل ويبرم ، ويحلل ويحرم ، ولا ينظرون الى الخليفة إلا نظرم لكل فرد من أفراد المسلمين حتى حوزوا خلعهم إن ثبت خروجه عن حدود الدستور الاسلامي ، وهو القرآن . فسلطة الأمة لم يعترها ومن في نظر المسلمين ، حتى في أشد أيام صمفهم . ولكن كتاب الفرنجة ياخذون علم الاسلام عن الأحوال التي يشاهدونها في أهل . فهم إن تسكلموا عن قيمة المرأة في الاسلام عند زوجها وفي المجتمع ، نظروا الى ما هي عليه لدى أحقر طبقات الشعوب الاسلامية ، وقرروا أنها أسيرة مستعبدة ، ومجردة عن جميع الحقوق الانسانية . وإن تسكلموا عن دين المسلمين نظروا الى مساجدهم وما فيها من بدع ، وإلى المسلمين وما يعملونه في موالد أوليائهم ، من الذكر وقوتا وبالصنوج والدقوف والطول ، وقرروا أن كل ذلك من صميم الاسلام . فان قلت لهم : إنه مما يحرمه الدين ، قالوا لو كان كذلك لأبطله نعمة الدين على الأقل من المساجد ، أما وهم يقرونه في كل بلد إسلامي فهو منه !

هذه حجة كتاب الفرنجة ، وهي من المسكتات عند الأكثرين !

الاسلام في أفريقيا السوداء

جاء تحت هذا العنوان في جريدة (لافرانس اكستريور إي كولونيال) أي فرنسا الخارجية والاصتمارية :

« إن انتشار الإسلام في أفريقيا السوداء تعلق من عدة نواح بال كثيرين ممن يعنهم مركز فرنسا الادبي في ممتلكاتها السوداء . وبدون أن يُعبأ بمعرفة هل ديانة محمد تحمل للكائنات البشرية نظاما اجتماعيا ، وقانونا أدبيا ، يفوقان ما تحمله الوثنية وما يحيط بها أو يشتق منها من النحل المختلفة ؟ فالواقع أن كثيرين من الناس يسكلمون انتشار الإسلام في مستعمراتنا السوداء ، معتبرين أنهم إذا عجزوا عن القيام بعمل حاسم صد قلب الرجل البدوي أوجه للاطلاع في الناحية الدينية ، فإن الحد الطبيعي ضد انتشار الإسلام في مستعمراتنا يجب أن يكون نهر النيجر .

« ولكن تيار الاسلام لم يقتصر على نهر النيجر والسودان خشب ، ولكنه ينساح اليوم الى نواحي بحيرة تشاد . ولا ندري الى أية درجة يشعرون أو لا يشعرون جماعة الهاووس بهذا النضاح بنيجريا وهم أولئك الدعاة المجيبون .

« وإننا نرى أنه مما يفيد في هذا الباب نقل الرأي الآتي للآب فريدريك دويلينييه ، القس الملحق بالجيش الفرنسي بجهة تشاد ، وقد نشر هذا الرأي في مجلة المعلومات الاستعمارية لشعبة أفريقيا الفرنسية ، قال :

« أنا لست أول قسيس دخل الى تشاد (١٩٣٥) حسب ، ولكنى لا أزال القسيس الوحيد فيها . والحالة الراهنة هنا يمكن أن تدوم طويلا لأن الاتفاق بين المسيو لاغال والسنيور موسوليني لا يزال باقيا بدون تصديق . والدعوة الدينية لا يمكن أن تعمل حدودها ما دامت الحدود السياسية غير معينة .

« والتصميم الواجب اتباعه هو أن يجعل مجرى نهر (شاري) خطا دفاعيا تؤسس فيه سلسلة مراكر تبشيرية تقوم سدا صد التسرب الاسلامي الآتي من الشمال .

« الرجل الأسود يشربنا نخطاط ديانتة الوثنية ، وروحه المتأصل فيها حب التدين منعشة لعقيدة أرق من عقيدته . وهو لا يقتل الاسلام إلا لأنه لا يعرف ما هو أفضل منه ، ولأن الفقهاء ، وهم المنفردون بإدارة المدارس دون سواهم ، يقيدون أمماء التلامذة لحساب محمد .

« ومما تجب معرفته أيضا أن الموجة الاسلامية التي تنتهي الى هنا ، قد فقدت كثيرا من اندفاعها . فقد نصرت مسلمانا عريية ، وبوجد بين الدين أعدم للتصميم مسلحون من أهل فزان ، وهم من أكثر المسلمين تعلقا بالنسوية . وعليه فهناك أمل عظيم في النجاح حيال المسلمين » .



(مجلة الأزهر) . لا هبرة بما ينوقه الآب فريدريك دويلينييه من نجاح التبشير عند المسلمين ، فقد مضى قرنان بل المملعون فيها بالدماء من كل نحلة ، فلم يزدادوا إلا حبا في دينهم ، وقد فشل التبشير حتى في البقاع التي أهلها جاهلون ، بل فشل حتى لدى الأمم الوثنية في أفريقيا وآسيا ، وفاز الاسلام فيها بمشرات الملايين بشهادة أولئك الدعاة أنفسهم ، ولكننا ننقل مثل هذه الأقوال لنثبت للمسلمين أنهم حد مقصدين حيال دينهم القويم . فانهم لا يفكرون في أمر نشره كما يفكر أصحاب الأديان الأخرى ، مكتفين بما يقوم به المستزقة من أصحاب الطرق الذين يجوبون تلك الأصقاع البعيدة ، ولكنهم لا ينشرون من الاسلام هناك إلا تعاليم مشوثة بكثير من الخرافات التي ليست منه .

نعم : إن الأزهر يقوم بعمل مشكور من هذه الناحية ، ولكن وسائله المالية لا تمكنه من عمل جدي يستلزمه هذا الأمر الجلل ، فهو بحاجة الى مال كثير يقوم به الأفراد . فإن تمويل جماعات التبشير في البلاد الغربية يحصل من تبرعات الفيورين على دينهم ، ولا دخل للحكومة

فيه . وقد عهدنا بحسن المسلمين يتبرعون لكل شيء إلا الدعوة الإسلامية ، لأنهم لم يألوا هذا الضرب من العمل الصالح ، ولكن حفظ دينهم ونشره في هذا العصر يستدعي أن يجعلوا من أموالهم نصيباً للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وخير مستودع لهذه التبرعات خزانة الأزهر لتضمه إلى الاعتماد المالي الخاص في مزايتها بالدعوة والارشاد . فإذا آنس الأزهر اتجاه النفوس لأداء هذا الواجب عرف كيف ينفقه في وجوهه المستحقة ، لا بإرسال علماء إلى الجهات النائية لحسب ، ولكن بتعليم اللغات الأفريقية والآسيوية لمن يعدم الدعوة هناك ، فلا يعمى وقت طويل حتى يكون لنا أداة صالحة للعمل من هذه الناحية ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

برناردشو والإسلام

حدثت ضجة حول قصة ألفها الكاتب الفيلسوف الأيرلندي برناردشو تدرس في كلية الآداب ، قيل إن فيها طعنًا في الإسلام ، فمجئنا من ذلك لعلنا أن برناردشو شهادة قيمة في الإسلام ، حتى إنه يرى أن أدواء أوروبا لا تشفى إلا إذا تولتها مبادئ جديدة ، وقال : إنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يرى الانجليز أن الإسلام جدير بالاتباع ، وأن أوروبا قد بدأت تعرف ماهية الإسلام ، ولن يمر عليها قرنان حتى تصبح من أهله . فرأينا أن نستحضر نسخة من هذه الرواية ، فقلنا أن برناردشو يبسط فيها تاريخ جان دارك بحيرة فرنسا من الانجليز في القرن الخامس عشر ، ويأتى بمحدث تخيله قد دار بين أشخاص عن جان دارك ، أهدى فيه كل منهم رأيه فيها ، فقرر بعضهم أنه من الخطر التساهل في أمرها ، حتى لا تحرق فتيات غيرها أن يدعين مثل دعواها ، كما يكون من الخطر أن يدعى رجال أنهم مثل محمد . وهذا الفريق يشبه الوحي الذي نزل عليها بالوحي الذي نزل على محمد ، واستطرد إلى التعامل على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم . ولكن فريقاً آخر دافع عن وجهة نظر أخرى وقرر أن المسلمين من الناحية الخلقية لا يفترون عن المسيحيين ، ويؤمن على ذلك بما شاهدته بنفسه حينما سافر إلى فلسطين لأداء فريضة الحج .

والمعروف في وصح الروايات أن واحداً من أشعاص الرواية لا يمكن أن يعتبر معبراً عن رأى مؤلفها إلا إذا كانت هناك قرينة تدل على ذلك ، ولا قرينة هنا عليه ، بدليل أن المؤلف أقام فريقاً آخر يناقض هذا الفريق ويدل على ذلك بحجة عيانية ، وهذا يدل على أنه إنما ينقل آراء فريقين مختلفين . وقد كتب برناردشو نفسه ما اتهم به في جريدة النيوز كرونكل وقال إن خصومه لم يفهموا روايته ، وقد تقلت هذا التكذيب حريدة المقطم .

محمد فريد وجدي

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

بما لا مرأى فيه أن الموقوف عليه لا بد أن يكون معروفاً معيماً بالتسمية أو الصفات المميزة للموصوف وقت إنشاء الوقف ، من أجل ذلك نحب أن نعرض لهذا النوع من التسمية أو التحيين بالوصف حتى تنسق البحوث في الوقف على وتيرة واحدة ، ونجربى على سن مستع ، فإذا ذكر الواقف في إشهاد وقفه الموقوف عليه ، وهو لا بد منه في إشهاد الوقف وإلا وقع إشهاد الوقف باطلاً ، فإما أن يذكره باسمه أو بوصفه : فإن كان مذكوراً باسمه الذي لا ينك عنه وبقي ملازماً له حتى يوم ظهور غلة الوقف ، كان الوقف صحيحاً ، وكان على الناظر أن يعتبر استحقيقه مستنداً الى سبب شرعى صحيح . أما إذا سمي الواقف الموقوف عليه في إشهاد وقفه وتبين بعد أن هذا الموقوف عليه لم يكن موجوداً وقت صدور إشهاد الوقف ، وإن سمي بهذا الاسم الذى عناء الواقف في إشهاد ، وقع الوقف في هذه الحالة غير صحيح .

وتوضيح ذلك : أن الواقف حين وقف على شخص معين باسمه فقد قصد إيصال غلة الوقف عليه ، وهو لا يكون يومئذ إلا موجوداً ، فلو وقف على ميت وقد سماه في إشهاد وقفه وهو مجهول صفته ، وقع الوقف باطلاً قطعاً ، حتى وإن وجد هذا الاسم المعنى للواقف علماً على الموقوف عليه ، وفي هذه الحالة يذهب نصيبه الى الفقراء لأنهم أصل المشروعية للوقف . ويشبه هذه الحالة حالة ما إذا وقف الواقف على موقوف عليه بوصفه العنوانى . وهنا يفصل العلامة صاحب كتاب أنفع الوسائل فيقول : « إن كان هذا الوصف مما لا يزول كالعلمى والجرس ، فالعبرة باستحقاق الموصوف وقت ظهور الغلة أو وقت إنشاء الوقف ، وإن كان مما يزول كالصغر والفقر فباطل الاستحقاق يوم ظهور غلة الوقف وصيرورتها صالحة للاستثمار » . وقد تعقب العلامة ابن مابدين هذا الكلام على إطلاقه فقال : « هل إذا قال الواقف في إشهاد وقفه : وقت هذه الضيعة على ولدى فلان الذى سأتسميه بهذا الاسم ، ولا يزال حاملاً مستكناً ، ثم مات الواقف في أثناء الحل وتنت أمه للعدة الشرعية وصمته بالاسم الذى اختاره له الواقف سواء كان الواقف أمّاً أم غير أب ، فما الذى يمنع الناظر من اعتباره في هذه الحالة مستحقاً إذا جاءت التسمية منمشية مع تسمية الواقف ؟ » وهو تعقيب منجبه وإن كان لا خروج منه مندوحة . وبدهى أن نوايا الواقفين الغير المطلق لبنى الانسان ، وليس من الرخصة المفترضة في مثل هذا النظام النبيل في سماويته وحكم مشروعيته أن يضيق في مرامى هؤلاء الواقفين .

وجهة القول . أن الواقف إذا وقف على أسماء أو صفات للموقوف عليهم وكانوا غير موجودين أو كانت صفاتهم مما يزول كال فقر أو العتة الخفيف ، وقع الوقف غير صحيح . ويتفرع على ذلك

أن الواقف لو وقف عينا على أولاده العمى أو البكم فلا ينقصد لهم استحقاق إلا منذ ظهور غلة الوقف .

لكن حقق العلامة صاحب البحر أن الواقف إذا وقف على فقراء ، انقصد الوقف صحيحا حتى ولو وجد هذا الوصف بعد إنشاء كتاب الوقف لا وقته حسب .

لكن حقق غير واحد من علماء الفروع أن حبس الواقف للمعين على أصحاب الأوصاف الورثة أو الدائمة غير مطرد بطلانه ، فقد ضربوا مثلا فيما إذا وقف الواقف على نباته الثيبات أو الأبنكار ففي كل من الحالتين ينقصد الوقف بمجرد ظهور الغلة ، على حين أن الثبوتية مما لا تروى عادة ، والبكورة مما لا تدوم مادة .

وغنى عن البيان أن علماء الفروع لم ينفوا شأن استحقاق الحمل ، فقد نصوا على أن كل من ولد بعد ظهور غلة الوقف ووجودها مقومة صالحة للاستثمار لأقل من ستة أشهر ، يدخل في عداد المستحقين ، لتحقيق وجوده في بطن أمه وقت خروج تلك الغلة ، لأنهم اعتبروا وقت خروجها مناطا للاستحقاق ، فهو يشارك المستحقين في هذه الغلة مادام ظهورها معتبرا مناطا استحقاقه حتى لو مات قبل توزيع تلك الغلة كان نصيبه موروثا .

أما إذا ولد الحمل لستة أشهر فأكثر من وقت خروج غلة الوقف ، فلا يشارك الموقوف عليهم في هذه الغلة ، إلا إذا تبين أن وطء أمه كان حراما شرعا أو غير ممكن مادة من وقت خروج غلة الوقف إلى حين الولادة كأن تكون أمه مبانة أو متوفى عنها زوجها وقد جاءت بالولد لستة أشهر فأكثر من وقت ظهور غلة الوقف ، ولأقل من سنتين من وقت الطلاق أو الوفاة . وهذا واجب الاتباع بناء على حكم الشارع في هذه الحالة .

ولو كان الوطء حلالا وقت خروج الغلة : كأن تكون زوجة أو معتدة من طلاق رجعي ثم جاء الولد لستة أشهر فأكثر من وقت ظهور غلة الوقف فلا يشارك الولد في هذه الحالة المستحقين في تلك الغلة ، لعدم تحقق وجوده وقت ظهورها . وهذا هو الظاهر من كلام صاحب تنقيح المحيية .

ولهذا البحث تفريعات وتعليقات تحتاج إلى عدد آخر ، فإلى العدد القريب ؟

عيسى ط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الشكوك في إمكان الوحي وعلاجها بالفتوحات العلمية الحديثة

الشك من الصفات العقلية التي نشأت في الإنسان مع العقل نفسه ، وهو كسكل صفاته الأدبية نشأ ساذجا ، ثم تطور بتطور الإنسان في النظر والتفكير . ولما ولدت الفلسفة أصبح أساسا للبحث فيها ، ولكنه لم يكتسب كل قوته إلا على عهد الفلسفة اليونانية ، حيث تكثرت المعقولات ، وتداخلت مناهج البحث فيها ، فكان ذلك داعيا لعلم من أعلامها وهو أرسطو أن يضع أداة للتدليل وهو المنطق .

ولكن صفة الشك لم تبلغ أوج سلطانها إلا على يد (رُنيه ديكارت) الفيلسوف الفرنسي ، فقد جعله أساس مذهبه ، واعتبر بذلك مجددا في أسلوب البحث عن الحقيقة في القرن السابع عشر . في أثناء هذه التطورات العقلية تولدت في النفس الإنسانية نزعة جديدة أسماها زيادة التثبت ، بوصف المعقولات على قرار مكين من الأدلة المحسوسة ، وما دفع بالنفس الى هذا الموقف الخشن إلا ما ظهر للباحثين في المعلوم من أن كثيرا من المسلمات المنطقية تحكمان فرضها على العقول الجاهل بالكون ورواياته ، ومحمدوا الى وضع منطق دعوه بالعلمي ، جعلوا أساسه أن كل معقول لا يؤيده شاهد من الوجود المحسوس لا يجوز وضعه في المدركات اليقينية . فان كان مما يقتضيه العمل العلمي فلا بأس من تسميته افتراضا علميا ليمثل بجانب افتراضات أخرى ، حتى إذا حظي بشهادة محسوسة رفع الى درجة الملاحظات العلمية . وضع هذه القاعدة (فرنسا بيكون) الفيلسوف الانجليزي المتوفى سنة (١٧٢٦) وهو صاحب الدستور العلمي الذي يعتبر سدا منبعا في وجه الأهواء والأوهام التي قد تتسرب الى العلوم اليقينية فتفسد كيائها وتلحقها بالأساطير .

ولقد غلا حفظة هذا الدستور كما غلا جميع حفظة النظم ، فعملوا من الدرجة التي وصل اليها العلم في القرن التاسع عشر نهاية لا محل وراءها الجديد ، وحلهم الغلو في تقدس ما وصلوا اليه الى اعتبار ظنيات أعلامهم أصولا يقينية . فلما ظهر مذهب لامارك في تسلسل الأنواع الحية ، وتلقى مجده في أوائل القرن التاسع عشر ، اعتبره علماء ذلك العهد الكلمة النهائية للعلم لكشف

سراً أكبر مسألة بيولوجية، وصاروا يستجلبون كل من يجرد على التشكيك فيه . فلما ظهر مذهب دارون بعده بنحو ستين سنة ، افتتن به العلماء ودخلوا فيه وتركوا مذهب لامارك من أجله ، وغلوا فيه غلوا عظيماً حتى عبدوا كل من لا يقول به غيباً . ولكن لم تمض عليه ثلاثون سنة حتى تبير لكثير من كبار العلماء وهن أصوله الأولية ، ففسلوا منه وعاد كثير منهم إلى مذهب لامارك ، ومنذ عشرين سنة تركوا المذهبين وتمسكوا بمذهب (دوغريس) العالم الهوللندي ، وهو يشايح إيمان الإلهيين ، فانه أثبت بالتجربة أن الأنواع تنشأ طفرة متولدة من أنواع قديمة ، حاصلة على جميع مقوماتها بدون تطور تدريجي في آحاد طويلة ، ولا بسبب تأثير البيئة فيها . وفي الوقت نفسه أدركوا أن العلم الذي وصفوا أصوله باليقينيات قرنين متوالين لا تقوم كثير من أصوله إلا على افتراضات حتى في العلوم الرياضية . أرجع إلى ما كتبناه في مقالات كثيرة في هذا الموضوع ، وما ألمنا به في مقالة (منطق الدين) في العدد السابق .

هذه التطورات المتنامية في المقررات العلمية أثرت أعظم تأثير في عقلية المشتغلين بالعلوم الكونية ، وأورثتهم أدباً عاليًا حيال الوجود المحسوس ، وما عسى أن يكون في تماياه من القوى المجهولة . فبعد أن كانوا يتعصبون لأصوله المقررة عندم قمصاً يأباه العلم نفسه حتى عارضوا أصحاب المكتشفات الحديثة معارضة عنيفة انتصاراً لتلك المقررات ، أصبحوا يرجون بالمجددين في العلم ، بل يرجون أن يكثر عديدهم ليستطيعوا سد الثلم التي أحدثتها الانقلابات المتوالية فيه ، حتى لم يأتقوا عند ما حدثت حادثة خارقة للعادة في أمريكا (١) أن يحققوها ، وأن يعلنوا صحتها وصحة أمثالها ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعو بوجود شيء في الكون غير المادة وقوتها ، ويرمون من يقول غير هذا بالبله أو بالوقوع تحت تأثير العقائد الموروثة .

إن موقف العلم والذين يعبون من منله كان قبل الحنين السنة الأخيرة موقف خصومة لكل معقول لا يمت إلى المادة بسبب . فكانت مسألة الوحي من المسائل التي يدحضها العلم بكل شدة ، ويعددها من أبعد الحالات العلمية ، ثقة منه أن ليس وراء المادة عالم أرق منها ، بل ليست الروح البشرية التي تعتبر آية الخلق ، إلا مظهرًا من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من أعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الانسانية وعلاقتها بعالم علوي وراء الحس ، واستمدادها منه قوة وسلطانًا لا تحصل عليهما في عالم المادة . فهي توسعت في علاقتها به . وكان الباعث لهؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، إكبابهم منذ نحو تسعين سنة على البحث في النفس الانسانية من طريق التنويم المغناطيسي والذهول الذي يقع فيه بعض الناس فيصيرون به أداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

(١) حادثة ظهور أمور روحانية محققة في منزل بمدينة هيدسفل .

فالتنويم المغناطيسى الذى كشفه الدكتور مسر الألماني (١٧٣٣ - ١٨١٥) ، واعترف بوجوده عليا بمد جهاد مائة سنة للحصول على هذا الاعتراف ، قد أثبت أن للإنسان عقلا باطنيا أرقى من عقله المادى كثيرا ، وأنه وهو فى تلك الحالة يرى ويسمع من بعد شاسع ما يحدث وما يقال ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا توجد فى عالم الحس أقل علامة لحدوثه . شاهد هذه الأحوال ملايين من الناس حتى أصبحت أمرا لا يمكن المراء فيه .

ولكن علماء كثيرين لم يقفوا عند هذا الحد ، فلم يكتفوا بالدرجة الأولى أو الثانية لهذا التنويم بل تجاوزوها الى حدود بعيدة منه ، فهاهدوا أن العقل الباطن يزداد سموا عما شوهد عليه فى درجات اليوم الأولى ، ولا يستمر خاضعا لارادة المنوّم . وبالتوغل فى درجات التنويم توصل الجريون الى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ، وتثقل الى جابه غير مرئية ، بينما يكون الجسد فى حالة موت حقيقى لولا علاقة خفية بينه وبين الروح . وقد توصل هؤلاء العلماء الى تحقيق أمور روحانية - والمنوّم فى تلك الحالة - أثبت لهم أن الروح مستقلة عن الجسد كل الاستقلال ، وأنها لا تتحل بالتحلل ، وتتصل وهى متحدة عن المادة بالأرواح التى سبقها الى ذلك العالم .

وقد علم من هذا أن الروح ، عندما يعترى صاحبها نوم طبيعى أو صناعى ، تتصل فى عالمها الروحانى بأمانها من الأرواح ، ولما تستيقظ لا تذكر شيئا من ذلك لعدم تدخل المخ الجنائى فى هذا الاتصال .

أما حالة الذهول التى يقع فيها بعض الناس ، فيصحبها حدوث ظواهر روحانية تعتبر من الخوارق التى لم يكن ليحتم بحدوثها العلماء ، استعصت على كل تعاليل مستند الى عوامل مادية ، وقد استحضر لشهودها أكبر مشهودى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشهوة فى شيء ، ولكنها حوادث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة اليدوية .

إنى بالمسمى هنا هذا الفتح العلمى لا أقصد الدعوة له بالذات ، ولكنى أقصد منه أن جمهورا كبيرا من أكبر علماء الأرض أصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحانى ، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الانسانية ، وأن ذلك يظهر بوضوح فى حالة النوم المغناطيسى وحالة الذهول الذى يقع فيه بعض الناس بسبب مرض أو بسبب استعداد عصبى فيهم . ولو كانت هذه التأكيدات من هؤلاء العلماء كلامية فلسفية ، لما سمحت لنفسى بالاستناد اليها فى بحث أخذت على نفسى أن أعتمد فيه على العلوم اليقينية . نعم إن هذا الفتح العلمى لم يعم جميع علماء الأرض ولم يصبح فرطاً من العلم الرسمى ، ولكن الجيم الغفير الذى يبحث عنهم واعترفوا به فى مدى تسعين سنة ، وفى كل أمة متمدنة ، نفت فى عضد المادية ، ويطأ من كبريائها ، ويشكك المشايخين لها .

على أن من لم يقل به من العلماء لم يتسن له غصه . وليس فيمن وفق لفحصه واحد أعلن احتقاره له ، واستند الى علم في دحضه . قال العلامة الطيبي الكبير مكتشف ناموس الانتخاب الطيبي كدارون في كتابه : (الآيات والمذهب الروحاني في العصر الراهن) : « أنا على اتصال بتاريخ هذه البحوث وكل ما يكتب فيها ، وقد رجحت نفسي فيها منذ عشرين سنة فلم يتفق مرة واحدة أن رأيت رجلا بحثها بحثا جديا واقتنع بصحة الظواهر الروحية ، ثم ماد ففقدتفه بها وأعلن أنها مبنية على الخداع والتدليس » .

ونحن لأجل إحاطة هذه البحوث بالاحترام الواجب لها في نظر القارئ ، نقل لهم فذلكا من تاريخ اشتغال العلماء بدراسة المسائل النفسية على أسلوب العلم الحديث فنقول :
تاريخ تأسيس جمعية المباحث النفسية في إنجلترا سنة ١٨٨٢ .

جاء في كتاب الشخصية الانسانية « The Human Personality » للعلامة الاستاذ (هـ . و . ميرس) « H W Myers » مدرس البسيكولوجيا في جامعة كامبردج ما يثني :
« حوالي سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادي قد أوغل في البلاد حتى وصل إلينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلة من الزملاء في كبردج وأجمعوا رأيا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها ، (يريد المباحث الروحية) ، تستحق التعاننا وجهدا جديا أكثر مما عولجت بهما الى ذلك الحين . وكنت أرى أما أن محاولة جدية بهذا الاسم لم تعمل الى ذلك الوقت للبت في هل نحن أهل أو غير أهل للالمام بشيء يتعلق بالعالم غير المرئي ؟ وكنت مقتنعا بأنه لو أمكن معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يمكن العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقا على الظواهر التي تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها ، فإنها متزهة عن الهوى ، ومتروى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التي نحن مديون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس .

« فالمباحث التي يجب علينا حملها لا يمكن أن تقتصر على تحليل ماذج اللاسائيد التاريخية ، أو التي صدرت من هذا الوحي أو ذاك مما حدث في الزمان الماضي ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شيء — كسكل بحث علمي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة — على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن تزيد علينا غدا ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية وهي : « إذا كان يوجد عالم روحاني ، وكان هذا العالم الروحاني موجودا في أي عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويستكشف ، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه » .

« فمن هذه الوجهة وبالحرى على هذه الاعتبارات العامة ، واجبت لجمعية التي أنا عضو منها هذه المسألة » .

ثم أخذ الأستاذ ميرس يسرد التجارب التي عملها وعملها غيره عما لا سبيل الى نشره هنا ،
ثم قال :

« ماهي الأدلة التي تحملني على الاعتقاد بأن كل هذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه إذا توصل الى الحق ، بغير طريق التأمل ، من الجهل المطلق الذي هو عليه بمباهية الوجود الحقيقية .

« إنني أعترف في كل حال بأن معارفي فيما هو مرجح أو غير مرجح في الوجود لم تظهر لي كافية لرفض مشاهدات يظهر لي بحقي أنها حقيقية ، وأنها مع ذلك ليست مناقضة لملاحظات وأصول عامة أكثر منها تأسسا . ومهما كان مجال المشاهدات العملية واسعا فانه — حتى باعتراف ممثلي العلم الرسمي — ليس إلا نظارة مجبلى في العالم المجهول وغير المتناهي للتواميس الطبيعية » انتهى .

هذا هو تاريخ تكوين جمعية المباحث النفسية بلوندره سنة ١٨٨٢ ، من أقطاب العلم في إنجلترا ، ولا تزال باقية للآن ، وقد جمعت من التجارب النفسية ما وقع في نحو أربعة وخمسين محلا ، وهو ذخري علمي لم يوجد له مثيل قط في أي عهد من عهود العقلية الانسانية . فإذا أراد قراءنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية في نظر رجال العلم ، فليقرءوا ما كتبه عنها الأستاذ الكبير ولیم جس في كتابه إرادة الاعتقاد « La Volonté de Croire » ، وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، قال في الصفحة ٣١٣ :

« إن جمعية المباحث النفسية التي يمتد عملها في إنجلترا وأمريكا ، قد سمحت بأن يتلاقى العالمان العلمي والروحاني في مجال واحد . وإنني أعتبر أن هذه الجمعية بها كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير في ترتيب المعارف الانسانية . فلهذا أستحسن أن أقصي الى القارئ بنتائج أعمالها بإيجاز فأقول :

« إذا صدقنا الجرد وأوهام الصالونات ، خيل اليك أن الصنف العقلي وسرعة التصديق هما الرباط المعنوي الجامع بين أعضاء هذه الجمعية ، وأن حب العجائب هو الاصل المحرك لها . والواقع أنه يكفي أن تأتي نظرة واحدة على أعضائها لدحض هذه التهمة . فان رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ سدجويك « Sidgwick » المعروف بأنه أشد الناس شكيمة في النقد ، وأعضاها قيادا في الشك بجميع البلاد الانجليزية . ووكيلها المستر ارثر بلنهور والأستاذ ج . ب . لحنلي ، سكرتير المجمع العلمي . ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفيزيولوجي الفرنسي الخطير . وتشمل قائمة أعضائها رجالا آخرين كفائتهم العلمية أشهر من نار على علم . فإذا طلب اليك أن أعين جريدة علمية تكون مصادرها أغلاطها متقاة بأدق أساليب التحجيس ، فاني أنوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فان الفصول الفيزيولوجية التي تنشرها الجرائد

الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ في دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة ، حتى أن صرامة الأساليب الكشفية التي طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء ، كانت بحيث توجد اختلاف الآراء في باطن الجمعية نفسها » انتهى .

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأي العام المجمع العلمي الانجليزي على تأليف لجنة لفحص الظواهر النفسية وتعميقها ، فحدث ثلاثا وثلاثين علما من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية . فبدلوا في تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهرا ، ثم حرروا تقريراً إجماعيا وقع في ٥١٤ صفحة ، وطبع في أكثر اللغات الحية . جاء في آخره ما نصه :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالأعضاء ، لأجل نفي كل احتمال في إعداد آلات لاجداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أي نوع كانت .

« وقد تمحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أحراراً على عملهم هذا ، لأن واسطتنا كان أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له من غرض مالى يرى إليه ، ولا أية مصلحة في غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما أمكن لجموع عقولنا أن نتخيله من التعويطات ، حملت بصبر وأمانة . وقد دبرت هذه التعارب في أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا ، وإبعاد كل احتمال لتزوير أو توهم .

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس أعضاء اللجنة بتجارهم وهم في أشد درجات الاسكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها كانت إما نتيجة التندليس أو النوم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية العضلات ، ولم يتناول هؤلاء الأعضاء المنكروون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا يمكن مقاومته في شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لا غبار عليها الخ .

هذا ما ورد في ذيل ذلك التقرير الضخم ولسا في حاجة لأن نقول إن هذا أكرر حدث سُجل في تاريخ العلم . ومن العيب المحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضعي أو أن التندليس يروج بين يدي ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتبرسين على النظر والتحقيق وتمييز الغث من السمين في كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر طالى عام ، فهب ألوف من العلماء والفقهاء في جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألقوا لها مئات من الجمعيات ، ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوانا من الكتب ، ولا تزال هذه المؤسسات قائمة الى اليوم ، والاهتمام بها يزداد على نسبة كثرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث ، وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية في لوندرة وباريس وغيرها ، أصدرت تقارير ضافية ترجمت الى اللغات الحية .

هذا ولو أردنا أن نقل شهادات أعضاء الجامعات العلمية ، ورؤساء الجامعات ومدرسيها ، والفلاسفة والصحفيين والمحامين ، وجميع من فحسوها من كبار العقول ، لاقتضى ذلك منا مجلدا ضخما ، ولكننا نكتفى بما تقدم فإن فيه بلافا للمكبرين .

غرضنا من الالمام بهذه المسألة :

لسنا نقصد بما نشرناه في هذا الموضوع أن ندعو اليه ، ولكننا نقصد منه أن نثبت للذين غرتهم الفلسفة المادية فوففوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين يظنون أنه ليس في الوجود شيء فوق ما يعرفون ، أنهم مخدوعون ، فإذا لم نظفر إلا بتشكيكهم ، ونشكيك من يتأثرون بكتاباتهم فيما هم حامدون عليه ، فهذا كسب لنا عظيم .

على أننا نرجو أن يحملهم هذا الشك على ترك خيالاتهم بالقليل من المعرفة التي حصلوها ، وعلى التأمل بأقطاب العلم المعاصرين في التواضع وفي الامتناع عن نفي ما لم يحيطوا بعلمه . وإن لهم في مثل العلامة الكبير السير وليم كروكس أسوة حسنة ، فإن هذا الرجل الفذ حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمي البريطاني ، وقد قال في خطبة له فيه ، كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التي حاولتني في مباحثي النفسية ، وذلت لي طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادي الراسخ الصحيح بحيل . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا الى إهمالهم الكلي لحائب عظيم من رأس ما لهم العلمي المزعوم .

الى أن قال : « ولست بأسف من الحدود التي تصمها أماننا الجاهلة اللسانية ، بل إلى اعتبارها منسحقا منقذا . إني أعتقد بأنني لست أما وليس أحد سواي أهلا لأن نحكم بأن شيئا دميته ليس بموجود في الكون (تأمل) » .

كذلك لهم أسوة بمثل الأستاذ الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا في جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال في مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور (ماكسويل) النائب العام في بوردو من فرنسا : قال

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم المصري أن يعتقد بقوة أن هذا العلم المصري مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا .

ثم قال : « لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به الى هذا الحد ، ليس فى حقيقته إلا إدراكا لطواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتقات منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجأمة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟

الى أن قال : « فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وحريثا فى آن واحد ، متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وحريثا لأن مجال المواقف المجهولة مفتوح أمامه . »
نتيجة ما تقدم :

يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المصنفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم بال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسيهم من الموجودات . أما كنه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التى تديرها ، فلا يزال أمرها مجهولا . وقد يحيل لهم أن من الحفاقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بكنهه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا أيضا أن طائفة من أمثال هؤلاء العلماء ، قد وقفوا منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث محقة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، الى التسقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على أساليبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور فى خلد أحد أن قطاب العلم المادى يعودون فيثبنون وجسودها وقد سبق لهم نفيها ، والتشذيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد الى اكتشافات هؤلاء العلماء فى عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجسوده بالحس من الفرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث الميعريات ، ولسكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا ، إدلالا على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل الى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التى توصلها الى كمالها المرحو لها ، خالصة من الشبهات القائمة على الصدور ، والشكوك المحيرة للعقول ؟

محمد فريد وجرى

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلنا بك أيها القارئ الكريم من سورة الإخلاص الى قوله : « ولم يكن له كفوا أحد » . ونقول اليوم في الكلام على هذه الآية الشريفة : إنه تعالى لما بين أنه المصمود اليه في قضاء الحوائج ، ونفى الوسايط من البين بقوله « لم يلد ولم يولد » على ما بيناه ، ختم السورة بأنه ليس هناك شيء من الموجودات مساو له في شيء من صفات الجلال والعظمة .

وبيان ذلك : أن وجوده تعالى من مقتضيات حقيقته ، فانه واجب لذاته لا نشيء خارج عنه ، لأن حقيقة غير قابلة للعدم ، وأما صفاته فلا مناسبة بينها وبين صفات المخالفين ولا اشتراك بينهما إلا في الأسماء . وانظر الى علمه مثلاً تجسده لا يتصور فيه مساواة أصلاً ، لأنه ليس بضروري ولا استدلالي ، فليس مستقداً من الحس ولا من الروية بترتيب المقدمات والنظر في شرائط الانتاج ، ولا من خبر أو معلم ، ويستحيل عليه أن يكون في معرض الغلط أو الزوال ، الى آخر ما يرشدك اليه العقل السليم والفهم المستقيم ، بخلاف علوم المحدثات فانها ليست كذلك في كل ذلك ، وهو بعد ذلك لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . وأما القدرة التي أبدعت السموات والأرضين فأمرها أوضع من الشمس وأحلى من الحس ، وكذا بقية صفاته جل وعز ، من الرحمة ، والجود ، والعدل ، والفضل ، والاحسان ، والحسنة التي أتقن بها جميع العوالم العلوية والسفلية ، وقد بهرت الناظرين فيها والمتنبعين لخوافيها : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حير » الى آخر صفاته التي لا تحصى ، ولا يأتي عليها العدد ، فسبحان من لا تنهاى كماله العلياء ، وأسماؤه الحسنى .

هذا وأما تقديم الخبر وما يتعلق به من الحار والمجروح ، فلكون هذا الكلام سبق لنفي المكافأة عن ذات الله ، فتقديم ما يفيد ذلك المقصود المسوق له الكلام أولى . والكف : المثل والنظير . قال عطاء في تفسير الآية : لم يكن له مثيل ولا عدل . وقال مجاهد : لم يكن له

صاحبة . وكأنه تعالى يقول : لم يكن أحد كفوا له فيصاهاهه ، ردا على من حكى الله عنهم أنهم قالوا : ولد الله ، وأن الملائكة بنات الله ، وأن المسيح ابن الله . فكأنها دليل لقوله : « لم يلد » ولكننا لا نخصصها بهذا وإن كان ما قاله مجاهد داخلا في ذلك دخولا أوليا .

والخلاصة : أن هذه للسورة الشريعة يستفاد منها تلك المطالب العالية المبينة لكمال الله وعظمة شأنه ؛ فبقوله : « قل هو الله أحد » يدل على أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ؛ وقوله : « الله الصمد » يدل على أنه كريم رحيم ، لأنه لا يصمد اليه في جميع الخواص لا إذا كان محسنا غاية الاحسان ، جوادا لأحد لجوده ؛ وقوله : « لم يلد ولم يولد » يدل على أنه الغنى على الإطلاق ، وأنه منزّه عن التغيرات ، ويلزم ذلك أنه لا يجعل بشيء أصلا ، ولا يمكن أن يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضرر ، بل بمحض الاحسان وإلا لم يكن الغنى المطلق ، وقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات ، وما يستحيل في حقه من المعارك .

وإجمال القول : أنه نفي عن ذاته أنواع الكثرة بقوله « أحد » ، ونفي النقص والبطل والمحرم لفظ « الصمد » ، ونفي العلية والمعلولية بقوله : « لم يلد ولم يولد » ، ونفي الأضداد والأمداد بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » .

ثم نقول بعد ذلك : إنها أنطلت مذهب التنوية القائلين بالنور والظلمة ، كما أنطلت مذهب الصابئين في الأملاك والكواكب التي يبدونها ويمتقدون أنها المؤثرة في هذا العالم وليس يخفى عليك أن كونه صمدا يبطل مذهب من أثبت خالقا سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان مصمودا اليه في جميع الحاجات ، على ما تقدم في تفسير الصمد . وقوله : « لم يلد ولم يولد » يبطل مذهب بعض اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، والمشركين في أن الملائكة بنات الله . وقوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد » يبطل مذهب الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى . فسبحان من أودع في كلامه ما يدهش الأنظار ، ويملا الأفكار من عظمة الواحد القهار .

واعلم أن للقرآن عناية كبرى ببيان عظمة الله وتوحيده ، وإن كان معنيا بالترغيب والترهيب وغيرهما من المقامات التي أفاض فيها القرآن ، إلا أنه يبرز ذلك كله ببيان العظمة والحلال ، وكأن ذلك هو العنصر الساري في كل شيء ، والاسم الذي يبنى عليه كل شيء ، فإن من امتلأ قلبه بعظمة الله لم يفرط في شيء من أوامره الله . ولتعلم أن القرآن يرى أن كل شيء آية يجب التفكير فيها ، وحقا هي آية ، فإن كل شيء يوصل إلى الله تعالى . « ومن البدهي أن كل صنعة تدل على صانعها وما هو عليه من علم وحكمة » ولا شك أن كل ما في الوجود أثر من آثاره ، وفائض من أشعة أنواره ، فالوجود كله مرآة يتجلى فيها جمال مبدعه الذي يهر

العقول وبعلا النفوس . فإن شئت فاقرا في كتاب الكائنات التي خلقها الله بديع صفاته وعظيم آياته ، فليست تخلو من صحائفه ولا ذرة من ذراته إلا وفيها آية من آياته ، ودليل ساطع على وحدانية ذاته :

ورق الفصون لدى الرياض صحائف مشحونة بأدلة النوحيد

بل كل شيء في الوجود فيه تلك الأدلة على مبدعه الحكيم وصفاته القديم .

ومن عجيب أسرار القرآن فوق ذلك ، أنه كثيرا ما ينفذ على أمور مستقبلية تحقق وقوعها بعد ، مثل قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » ، وقد خلق ما نشاهده من المحترقات التي هي آيات بينات على ما أودعه رب الأرض والسموات من الأسرار في جميع الكائنات .

ولندكر لك بعض تلك الإشارات التي بينتها الصلوات الحديثة والاكتشافات الحديثة فسكانت آية من آيات القرآن ، وممطرة لسيد ولد عدنان ، فنها ما اكتشفوه من أن في كل نبات ذكرأ وأنثى ، فلنحمل عليه قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ولنجمله في تفسيره ، ومن ذلك ما اكتشفوه من أن الرياح تلقح الأشجار ، فلنجمله في تفسير قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » ، ومن ذلك ما ذكرناه في كتابنا « رسائل السلام » من أن المفسرين ذكروا في قوله : « وآية لهم أما حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » ما ينفو عنه الذوق السليم والفهم المستقيم من أن المراد بالفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام ، وأن المراد بذريتهم آباؤهم الذين كانوا في السفينة ، وأن المراد بمثله في قوله « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » هو الإبل ، وقلنا : إنه سبحانه وتعالى أشار بتلك الآيات وما يحاثلها إلى ما سيوجد من تلك المحدثات والمخترعات ، فنبه سبحانه وتعالى إلى أنه سيخلق في المستقبل ما لم يحطرتنا على بال ، علما منه تعالى بما سيوجد من بواخر تمخر عباب الماء ، ومناطيد تخترق الهواء ، وتذهب سابحة في جو السماء ، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى تلك البواخر بأشكالها الأنيقة كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري حين قام يضحك من النوم فقبل له : ما يضحكك يا رسول الله ؟ فقال ما معناه : « عرضت على طائفة من أمي يركبون ثبج البحر على الأسرة كأنهم ملوك » .

ولماذا لا نفهم من قوله : « وآية لهم أما حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » أن ذلك المثل إنما هو تلك المناطيد التي تسبح في الهواء كما يسبح الفلك المشحون في الماء ، ويكون الصمير في قوله « لهم » عائدا على القرية باقية على معناها الظاهر منها ، غير معدول بها إلى ما يذكره المفسرون من تلك التأويلات البعيدة . أو ليس هذا أولى من حمل مثل الفلك المشحون هو تلك الإبل التي من عادة القرآن أن يمرعها بلفظها ؟ وسيتأتى التلبيه عليها في السورة نفسها في قوله « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما صلت أيدينا أنما

فهم لها ما الكون ، ودلتناها لهم فيها ركوبهم ومنها يأكلون . أليس شبه سراكب الهواء بمراكب الماء طيرا ما في ذلك الغاز السهل ، وحولانا في ذلك السيل الهل ، ثم من شبه الابل بالسفن ، مع أنه لا داعي الى العدول عن ذكرها بأسمائها ، ولا لصراف الذرية عن معناها الظاهر منها ، ويكون ذلك آية من آيات القرآن المستقبلة ؟ اللهم إن ذلك شديد ، وليس بعيد . وعندى أن العقل يوجب أن يكون في القرآن مقاربات تحت على أسرارها رموز وكنوز ، ولا تزال يتحلل منها الشيء بعد الشيء على عمر الأعمار وكر الليل والنهار ، ولا يتم انصافها إلا بالدخول في عالم الآخرة ومشاهدة ما سيكون فيه .

ولا يسهل علينا أن نلقى القلم قبل أن نلقت نظر القارىء الى أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار الى كثير مما سيحدث بعده ، وهي من معجزاته الباقية التي تتجدد شيئا فشيئا الى يوم القيامة . وقد جاء عنه في هذا الباب شيء كثير أفرد به العلماء بالتأليف ، ومن ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أن الساعة لا تقوم حتى يكلم الرجل سوطه . ولماذا لا نطق هذا على المذيع « الراديو » الذي أصبح يكلم الناس في كل مكان حتى في السيارات والطرق ؟ ولتقف هنا اليوم منتظرين للفرص التي نملكها من افتتاح تلك الموضوعات التي تبين عظمة القرآن ، وفضل سيد الأكرام ، صلى الله عليه وسلم ؟

يوسف الرموى

عضو جماعة كبار العلماء

مجذو بونا ومجذو بوهم

لما مجاذيب يرمون الناس بالحجارة ، فاذا رموا بها صاحوا وأعولوا وأغروا الصغار بالفتادى في معاصرتهم . وكان لأبائنا مجاذيب ولكن يظهر أنهم كانوا من نوع يناسب آدابهم . فن مجاذيبهم عليان وبهلول وغيرهما . قال الحسن بن سهل بن منصور : رأيت الصبيان يرمون عليان بالحجارة فأدماه حجر منهم فقال :

حسبي الله توكلت عليه فمن نواصي الخلق طرأ في يديه
ليس للهارب في مهربي أبدا من راحة إلا اليه
رب رام لي بأحجار الأذى لم أجذبدا من العطف عليه

فقال له رجل : تعطف عليهم وهم يرمونك بالحجارة ؟ فقال له : اسكت لعل الله يطالع على صبي ووجعي وشدقي فيفرج هؤلاء ، ويبب بعضا لبعض .
الهم إن هذه غاية في تكران الذات .

السِّلَافُ

السلم

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال . قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسلفون في النمار السلة والسنتين ، فقال « من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم ، الى أجل معلوم » رواه الحنفية .

يتملق بشرح هذا الحديث مباحث : (١) بيان معنى السلم ، وهل هو مرادف للسلف ؟ (٢) بيان شروط السلم (٣) حكمة إباحة هذا النوع من المعاملة مع أنه قد يصير المحتاجين أكثر مما يضرهم الربا (٤) هل السلم موافق للقياس أو هو على خلاف القياس ؟

(١) السلف والسلم بمعنى واحد في اللغة ، فقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن السلم بالسلف في الحديث الذي معنا ، فقال : « من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم الخ » . على أن السلف قد يطلق على القرض بدون منفعة . فإذا أسلف شخص آخر عشرين جنبها مثلاً الى أجل بدون أن يأخذ منه سلعة يفتنع بها ، فإنه يقال لذلك : سلف ، ولا يقال له سلم . وطاهر أن المراد بالسلف في الحديث إنما هو السلم ، لأنه قال . من أراد أن يسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم . وهذا بيان لشروط البدل الآتي بيانها . وقد عرفت أن القرض لا يدل له وإنما يرد المقترض رأس المال بدون زيادة .

أما معنى السلم في اصطلاح الفقهاء : فهو عقد على شيء اجتمعت فيه ثلاثة أمور : (أحدها) أن يكون ذلك الشيء من الأشياء التي يصح بيعها ، فلا يحور السلم في الحر والخنزير ونحوهما . (ثانيها) أن يكون ذلك الشيء وهو المبيع موصوفاً بما يرفع عنه الجهالة التي تؤدي الى النزاع . (ثالثها) أن يكون ذلك المبيع مؤجلاً . فهاهنا أربعة أمور : أحدها : المشتري الذي يملك القدين من ذهب أو فصة ونحوهما ، ويسمى هذا (مسلياً) أو مسلياً أو رب السلم . ثانيها : بائع السلعة المؤجلة ، ويقال له مسلم اليه . ثالثها . السلعة المبيعة كالسمن والزبد والقمح ، ويقال له مسلم فيه . رابعها : الثمن الذي يدفعه المسلم ، ويقال له رأس مال السلم .

وبهذا يتضح لك أن السلم هو عقد بيع لا بد فيه من بائع ، ومشتري ، وسلعة تباع ، وثمن لهذه السلعة ، إلا أنه يفارق البيع في أن السلعة في البيع تكون حاضرة بخلاف السلم ، فإن السلعة فيه تكون مؤجلة بحيث لو لم تكن السلعة مؤجلة فإنه لا يسمى سلماً بل يكون بيعاً إذا استكمل شرائط البيع . وقد خالف في ذلك الشافعية وقالوا : لا يشترط في السلم فيه (المبيع) أن يكون مؤجلاً بل يصح أن يكون حالاً . فالمدار عندهم في تحقق السلم هو أن يبيع شخص لآخر سلعة موصوفة وصفا يرفع عنها الجهالة لفظاً سلم ، كأن يقول له : أسلمت اليك عشرين حنفيها مصرياً في عشرين أردباً من الذرة الصنبراء أو الشامى أو نحو ذلك على أن أقبضها في زمن كذا . فإذا كان المبيع حاصراً وقال له : أسلمت اليك عشرين جنبها مصرياً في عشرين أردباً من الذرة الحاضرة ، فإنه يعقد سلماً عندهم . ولا بد من أن تشمل الصيغة على لفظ السلم عند الشافعية على المعتمد ، بخلاف غيرهم من الأئمة فانهم يشترطون تأجيل السلم فيه (المبيع) ، ولا يشترطون أن تكون الصيغة بلفظ السلم ، بل تصح بلفظ البيع والشراء وغير ذلك من الألفاظ التي يشعدها البيع . أما الذين اشترطوا تأجيل السلعة فقد اختلفوا في أقل الأجل ، فقال المالكية : أقل الأجل أن يزيد على خمسة عشر يوماً ولو بلحظات . وقال الحنابلة والحنفية : إن أقل الأجل في السلم هو شهر كامل .

هذا والسلم معروف عند العامة (بالتسليف) على القطن أو القمح أو المسلى أو غير ذلك من السلع ، بمعنى أن صاحب السلعة يبيعها بثمن معين ويأخذ ثمنها على أن يسلمها في وقت معين . وهذا غير السلف المعروف في المصارف المالية ، فإنه من باب رهن العين ، وهو جائز إذا لم يكن فيه فوائد ربوية . فالفرق بين السلم والسلف المعروف في المصارف أن السلم لا يلزم أن تكون العين موجودة عند بيعها ، ويلزم أن يقبض النافع منها حالاً . أما السلف المعروف في المصارف فإن العين تكون موجودة وتودع في خزن البنك ويسلف عليها ما يتفقان عليه ، وهذا هو الرهن .

(٢) أما شروط السلم فهي شروط البيع مع زيادة يسيرة اقتضاها تأجيل المبيع ، وهي ضبط المبيع ضبطاً تاماً يرفع النزاع عند تسليم السلعة . من الشروط المشتركة بين البيع والسلم أن يكون العقد واقفاً بين عاقلين ، فإذا وقع من مجنون أو صغير غير مميز فإنه لا ينعقد رأساً . أما الصبي المميز الذي يعرف معنى البيع والشراء وما يترتب عليهما من فوائد ومصارف ، فإن بيعة أو سلمه ينعقد موقوفاً على إجازة الولي أو الوصي ، فإذا أقره فإنه ينفذ ولا فلا . ولم يخالف في ذلك إلا الشافعية ، فانهم قالوا : إن البيع لا ينعقد إلا إذا وقع من بالغ ، أما الصبي فإن بيعة لا ينعقد ولو كان مميزاً ، ومثله الأحمى ولو كان بالغاً حافلاً ، لأنه يكون عرضة للغبن لسبب عدم رؤية السلعة . وظاهر أن السلم مثل البيع في ذلك بلا فرق .

ومنها : أن يكون العاقد مختاراً ، فلا ينقذ بيع المكره ولا شراؤه .

ومنها : أن يكون المبيع أو المسلم فيه طاهراً ، فلا يصح أن يكون النجس بحسب ذاته كالخنزير أو الذي عرضت له نجاسة يتعذر إزالتها مبيعاً ولا نجساً . ولا يخفى أن هذا من محاسن الشريعة ، لأن قواعدها دائماً تشمل على ما فيه مصلحة النوع الانساني ، فإن قواعدها تشمل على تحريم ما يضر الانسان في بدنه أو في كرامته وخلقه ، ولم تحظر على الناس إلا الخبائث الضارة القذرة ، فأباح لهم الطيبات وحرمت عليهم الخبائث . وعلى هذا يكون تحريم بيع النجس وشراؤه إنما هو لفائدة المجتمع . على أن بعض المجتهدين الذين أدركوا أغراض الشريعة الاسلامية وعرفوا ما تقصده من فائدة الناس ، أباحوا بيع الاشياء النجسة التي يمكن الانتفاع بها في غير الأكل ، وفي غير الأماكن التي ينبغي أن تكون دائماً نظيفة ، بشرط أن لا يترتب على استعمالها ضرر أو أذى . ومنها الدهن المنتجس ، والمغفرة المخلوطة بالتراب (الساخ) و (الزبل) النجس الذي ينتفع به ، فإن كل ذلك يصح بيعه وشراؤه عند الحنفية . إنما الذي لا يصح بيعه بالإجماع ، هو : الميتة ، والخنزير ، والحر ، والدم . على أن الأئمة قالوا : إذا كانت هذه الاشياء مملوكة لشخص غير مسلم ويبيحها له دينه فإن له أن يبيعها لأهل ذلك الدين خاصة ، بحيث لو باعها لمسلم فإن بيعه يكون باطلاً .

ومنها : أن يكون المبيع (أو المسلم فيه) مقدوراً على تسليمه ، فلو باع شخص لأخر سلعة لا يقدر على تسليمها فإن بيعه لا ينقذ ، وعليه أن يرد ثمنها إذا كان قد قبضه . ولا يشترط في السلم أن يكون المبيع مملوكاً عند قبض الثمن ، بل يجوز أن يبيع عيساً سيملكها فيما بعد ، بشرط أن يكون قادراً على أن يملكها في الوقت المحدد لدفعها ، كالقطر والذرة ، والقمح ، والسمن ، والعمل ونحو ذلك من الاشياء التي توجد في أزمنة معينة من السنة . ولهذا قيل : إن السلم على خلاف القياس كما سنبينه بعد . وذلك لأنه يشترط في المسع أن يكون مملوكاً للبائع وقت البيع ، فإذا لم يكن مملوكاً فإن البيع لا يصح ، والسلم ليس كذلك ، فإن المبيع فيه مؤجل غير مملوك للبائع وقت العقد . فمقتضى هذا الشرط أنه لا يصح ، ولكن الشارع قال إنه صحيح .

ومنها : أن يكون المبيع معلوماً والثمن معلوماً علماً يرفع النزاع بين المتعاقدين ، فإذا باع شخص لأخر حيواناً أو غلة أو فاكهة أو غير ذلك بدون أن يبينها بياناً وافياً ، أو يراها المشتري بنفسه أو بمن يثق به ، فإن البيع يقع باطلاً ، لأنه اشترى شيئاً مجهولاً قد يقضى إلى النزاع والخصام . ومن ذلك ما إذا قال شخص لآخر : اشتر فاقني بالثمن الذي يحكم به فلان ، أو اشتر شاة من قطيع الغنم التي أملكها .

ومنها : أن لا يكون العقد مؤثماً كأن يقول له : بعثك هذا البعير بكذا المدة سنة ، فإن

هذا البيع يكون باطلا ومنها غير ذلك من الشروط التي ذكرناها موضحة في الجزء الثاني من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

وحاصل ما ذكر في باب السلم من الشروط التي لم تذكر قبل : هي بيان جنس السلم فيه (المبيع) ، وبيان رأس المال ، وبيان نوع المبيع ، وبيان صفته وقدره ، بالكيل في الأشياء التي تساع كيلا ، والوزن فيما يباع بالوزن ، ولعمد فيما يباع بالعمد . مثال ذلك أن يقول شخص لآخر : أصليت إليك جنهين مصريين في أردب من القمح البعل أو المستقى الجيد أو المتوسط على أن أستلمه في وقت كذا . فهذا هو عقد السلم في أردب من القمح ، لأنه قد اشتمل على بيان جنس المبيع وهو القمح ، وقدره وهو أردب ، ونوعه وهو كونه بعليا أو مستقيا ، ووصفه وهو كونه ردينا أو جيدا أو متوسطا ، وبيان رأس المال وهو الجنهين الخ . على أن الشاعمية لا يشترطون ذكر الوصف بل يقولون : المدار في ذلك على ضبط المبيع بأي عبارة كانت . وعلى هذا القياس فيما يباع بالعمد أو الوزن كالطبيع والحبوة ونحوها .

ويشترط أن يكون رأس المال وهو الثمن حالا ، فلا يجوز تأجيله باتفاق المذاهب ، وإن اختلفت آراؤهم في بعض أمور لا يترتب عليها كبير فائدة في موضوع القبض . فالحنفية يقولون : يشترط أن يكون رأس مال السلم وهو الثمن مقبوضا في مجلس التعاقد ، سواء كان ذهباً أو فضة ، أو كان سلعة مميّنة أو غير ذلك من العملة . والمالكية يقولون : إذا تأخر قبض الثمن عن المجلس ، فإن كان ذلك بشرط ، بطل العقد ، وإن لم يكن بشرط فبعضهم يقول بجوازها وبعضهم يقول بطلانها . وعلى كل حال فلا يصح السلم إلا إذا قبض البائع الثمن في مجلس العقد عند جمهور الأئمة .

ويشترط أيضا أن يكون الصنف المبيع في السلم موجودا في الأسواق ، بمعنى أن يكون كثير التداول كالحبوب والفواكه والزبد والسمن والقماش المعنود ونحو ذلك ، فإن لم يكن كثير الوجود كالجواهر النفيسة التي لا وجود لها في الأسواق فإنه لا يصح شرائها سلما ، لأن المشتري قد يدفع ثمنها والبائع قد لا يستطيع الحصول عليها ، فيقع بينهما النزاع والشرعية الإسلامية دائما تحت الناس على المودة والإخاء ، ولتسك بكل ما يزيد الروابط ، ويقوى وسائل التعاون والتناصر .

هذا ويصح السلم في كل شيء يباع بالكيل أو الوزن أو العمد ، أو يباع بالذراع كالقماش والبسط والحصير . أما الحيوان فإنه يصح السلم فيه عند الأئمة الثلاثة ما عدا الحفية فانهم يقولون : لا يصح السلم في الحيوان مطلقا ، فإذا باع شخص لآخر خروفا صفته كذا ونوعه كذا وسه كذا بشمن يقبضه حالا على أن يدفع الخروف بعد ذلك شهرين مثلا عند حلول عيد الأضحى ، فإنه جائز عند الأئمة الثلاثة خلافا للحنفية . على أن الحنفية يقولون بصحة السلم

في السلم استثناء من الحيوان ، ثم إن كان السمك طريا وكان لا ينقطع عادة كسمك نهر النيل ونحوه فإنه يصح السلم فيه في كل الأوقات ، وإن كان ينقطع في بعض الأزمنة كالسمك الموجود في البحيرات التي يمنع منها الصيد في أوقات معينة فإنه لا يصح تعيين مدة القبض في هذه المدة . ومثله السمك الجاف المملح (البكلاه) . ولا من التعيين بالوزن أو العدد ، وتعين الصنف بما هو متعارف بين الناس .

(٣) أما حكمة تشريع السلم وإباحته فهي ظاهرة ، لأن الناس قد يحتاجون إلى المال الذي يستعينون به على العمل في مزارعهم وتربية ما يملكونه من حيوانات أو نحو ذلك فلا يجدونه ، فيقف دولا ب عملهم ، وتتعطل مزارعهم ، ويحرمون من نتائجها ونتاج حيواناتهم ، وفي ذلك ضرر شديد يلحق بالناس ، والشرعية الإسلامية إنما هي شريعة رحمة وعطف ، فليس من أغراضها سد باب العمل في وحوش الناس ، وليس من عاداتها أن تغلق الأبواب في وجوه المحتاجين فتسببهم من قضاء حاجاتهم بحجة أن ذلك يتنافى مع قواعدها العامة ، بل هي في الواقع لم تشرع شيئا إلا وهو مطابق لمصلحة المجتمع الانساني ، وموافق لما تقره الفطرة السليمة والعقول الصحيحة . فإنها ما حرمت الربا إلا خوفا على المحتاجين من قسوة المرابين ومطامعهم التي قد خربت بيوتا عامرة ، فضلا عما في الربا من قسوة تنافي الرحمة الانسانية التي أودعها الله تعالى في قلب الإنسان من حيث هو إنسان كامل ، وهي بذلك لم تسد باب المعاملة التي فيها رخ مشروع ، بشرط أن لا يترتب على ذلك غبن فاحش وإرهاق للمحتاجين . والسلم هو بيع وشراء ، غاية ما هناك أن السلعة المباعة لا تكون موجودة وقت البيع ، فهي مؤجلة كتأجيل الثمن وتحويل السلعة ، فإذا باع شخص مثلا آخر ثوبا من القماش بجنيه وأحل قبض الجنيه شهرين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل ، فإنه جائز بلا خلاف . والسلم هو عكس ذلك ، فإنه كما عرفت دفع الثمن وتأجيل الثوب ، فإذا اشترى ثوبا بجنيه وأعطى التاجر الجنيه على أن يحضر له الثوب بعد شهر مثلا ، فإنه جائز متى كان الثوب معينا ، فأى فرق بين الحالتين ؟

قد يقول بعض الناس : إن السلم بالصورة المتبعة في البلاد الإسلامية قد يكون أشد ضررا وأعظم أذى للفقراء الذين يضطرون إلى المال الذي يسد حاجاتهم الضرورية ، فيذهبون إلى أبواب الأموال وبييعونهم السلعة التي تساوي عشرة بخمسة ، وذبح شر من الربا ، فإن فوائد لا تصل إلى العشر .

والجواب عن ذلك : هو أن الشريعة الإسلامية قد حرمت الربا لما فيه من أخذ مال بدون عوض ، وحرمت كل ما يقترب عليه ضرر وإحباط بالأفراد أو الجماعات ، فهذا النوع من المعاملة ، وهو السلم ، إذا تحقق فيه ضرر أحد المتعاقدين حال التعاقد ، فإنه يكون حراما مثل الربا بلا فرق . أما إذا كان التعامل به كالتعامل بغيره يحتمل أن يتنفع به البائع والمشتري ،

بصرف النظر عن الموارض الأخرى التي قد يترتب عليها خسارة أحد الفريقين ، فإنه يكون جائزا بلا كلام . مثلا : إذا اشترى شخص من آخر قنطارا من السمن بسعر الرطل ثلاثة قروش على أن يسلمه منه في وقت يساوي الرطل فيه أربعة قروش أو نحوها ، فإن ذلك يكون بيعا مقبولا ، فإن البائع قد استلم الثمن وعمل فيه بما يسد حاجته ، وبما قد ينمي محصوله ، فينصاعف بذلك ربحه ، والمشتري قد ربح ربحا معقولا يقتنع به أيضا ، فتبادل المفعة بين الناس كتبادل السلع المبيعة لا فرق . أما إذا استغل المشتري حاجة البائع المضطر فاشترى منه الرطل بقرشين أو أقل فإنه يكون قد غبنه غبنا فاحشا يترتب عليه من الأثم ما يترتب على الربا بدون فرق .

(٤) ومن هذا تعلم أن السلم إنما وافقت الشريعة الإسلامية عليه لما فيه من تبادل المنافع بين الناس كالبيع بلافرق ما ، إلا أن البيع قد يكون الثمن فيه حالا ومؤجلا ، والسلم يجب أن يكون الثمن فيه حالا والسلمة مؤجلة . وقد هرفت أن بعض الأئمة يقول : إن السلعة في السلم لا يجب تأجيلها ، وعلى كل حال فن قال : إن السلم على خلاف القياس ، فقد فهم أنه داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تبع ما ليس عندك » والسلعة التي لا يملكها الشخص الآن قد لا يقدر على ملكها عند حلول الأجل ، فلهذا كان السلم على خلاف القياس . ولكن قد يجاب عن ذلك بأن السلم يشترط فيه أن يكون المبيع موصوفا معينا مقدورا على تسليمه حالبا ، فلا يجوز السلم في غير ذلك ، فإذا وجد عارض يمنع من القدرة على تسليمه فذلك لا ينافي صحته ، كالبيع بشئ مؤجل إلى أجل معلوم فإنه قد يمرض للشخص مانع يمنعه من الدفع عند حلول الأجل . فهل هذا القرض يبطل البيع أو يحرمه ؟ كلا ، فإذا كان الشخص على ثقة من قدرته على تسليم العين عند الأجل المحدود ، لم يكن فرق بين تأجيل الثمن وتأجيل العين المشتراة ، فلم يدخل السلم تحت هذا الحديث ، لأن المراد به النهي عن بيع ما ليس مقدورا للإنسان : كان يبيع جوهره نفيسة غير موجودة في الأسواق أو نحو ذلك . وهذا المعنى لازم لأن الأحاديث التي وردت في إباحة السلم صحيحة متفق عليها . وحديث : « لا تبع ما ليس عندك » يمكن حمله عليها بدون حاجة إلى استثناء . ومما لا ريب فيه أن تأويله على هذا الوجه ظاهر لا نكسف فيه .

هذا المصنف العزيز

أى شهر مولد النبي

أى شهر ربيع الأول ١ بمحاذات طالعنا الانسانية قبل أربعة عشر قرنا وأحد عشر عاما ؟ وماذا حملت الى الناس بين حواش ذلك المولود اليتيم ، الذى أنقشته بين أحضان والدته آمنة بنت خويلد وأسمته محمدا ؟

من الذى كان يستطيع أن يتخيل أن هذا الطفل الذى لم يعش بميلاده غير أمه فى كسر دارها ، سيكون شغل العالم كله بمد سين معدودة ، وسيدق ذكره خالدا خلود الانسانية ، وتعالجه حية مع حياتها الأبدية ؟

إن محمدا صلى الله عليه وسلم أعظم آية من آيات الله فى الخلق ، يزداد وقعها فى قلوب الناس ، ويشهد تأثيرها فى عقولهم ، كلما ارتقت المعارف الانسانية ، وأدرك الناس مبلغ قوى الفرد ، إزاء الطبيعة والمجتمع ، وغاية ما تستطيع أن تحدته قواه المحدودة فيها .

نعم . إن محمدا كان رسولا يعمل بوحي من الله ، ويعتمد فى محاولاته على تأييده ، وقد وعده الحق بالنصر والمقابلة المحمودة ، فمن اعتقد هذه العقيدة لم يجب أن يبلغ محمدا ما بلغه فى ظلال هذه الرعاية الإلهية ، ولكن الذى يحب من أمره ، ولا يكاد يصدق ما يراه من آثاره بعينه ، أولئك الذين لا يستقدون برسالته ويعمدونه عمقريا ، بل أولئك الذين يظنونه كاديا فيما ادعاه من وحي الله اليه واتصاله به .

نعم هؤلاء هم الذين يحق لهم أن يحبوا ، وأن يحاربوا فى تعيين المسكان الذى يضمون فيه محمدا من المراتب الانسانية المحضة .

يشهد تاريخ الانقلابات الاجتماعية أن جميع الرجال الذين قاموا بالأحداث الخطيرة فى الأمم ، رجال ولدوا فى جماعات محكمة الروابط ، مستحصدة العرى ، قد دفعوا بها الى ضروب من الحركات الجريئة ، أعدوا معها — مع صرف النظر عن المظالم التى ارتكبوها — من رجالات التاريخ . فبختنصر الباطلى ، وقبروش الفارسى ، والاسكندر المقدونى ، وجنكيز خان المغولى وغيرهم ، كل هؤلاء كانوا عياهل فى أقوامهم ، وقد ولدوا فى شعوب متأسكة الآحاد ، لا يعوزها غير التوجيه الى الغايات البعيدة مصحوبة بمحكمة فى القيادة .

ولا نستثنى من هذا الحكم الرسالات الدينية نفسها ، فإن موسى الذى أرسل الى بني اسرائيل فى مصر ، استقل منهم كمقد ، ولم يبدل فى استألتهم الى تعالجه جهدا كبيرا ، واصطر أن يقف فى النية ، ولم يزحف بنو اسرائيل الى فلسطين إلا بمد وقته . وعيسى عليه السلام

نشأ في أمة مستكحلة شرائط الاجتماع ، ومع ذلك لم تثمر تسليمة الثمرة التي تَطْلُبُهَا أتباعه إلا بعد أن اختمرت في مدى نحو أربعة قرون .

ولكن هذا الذي كان أكر آيات الله في الخلق وُلِدَ في أمة كانت لا تزال على الحالة القبلية ، فلم يجد معيها له حتى من القبيلة التي هو منها ، ودُفِعَ لأن يلتبس المعونة على أداء مهمته من جماعة ينشئها إنشاءً ، فتم له ذلك في بني الأوس وبني الخزرج سكان يثرب .

إن كانت هذه عجيبة ، فشكل ما حدث بعدها عجائب ، تلا بعضها بعضها ، اتسعت لها الأيام القليلة انساعاً بحيرا للعقل ، حتى تم له في ثلاث وعشرين سنة ما لا يقل أن يتم إلا في قرون عديدة ! لما آتس صلى الله عليه وسلم خذلان القبائل كلها له ، كما تبين له ذلك من عرض نفسه عليها في مواسم الحج ، شرع ينتهي أمة جديدة ، نعم أمة جديدة !

أمة في بيئته لم تقم فيها أمة ، وليس فيها مقومات الأمان ؟

نعم وأمة عالمية ، على ما يشاؤه المثل الأعلى ، لا تقوم على وحدة الجنس ، ولا وحدة اللغة ، ولا الحافات الجسدانية الملحة ، ولكن على ما يصلح أن تجتمع عليه البشرية كافة ، من الأصول الأدبية العالية ، والسادى الانسانية الخالدة .

فإن تعجب فاعجب منه أن يتم تأليف هذه الأمة ، فيصبح فيها الصناديد من فريش وحزاة ، والهاميم من نجيم وأسد وهوازن ، هم والفرس والديلم والروم والسود والحبشان ، ومن لا يعرف له صِشْيٌ من جاليات الجماعات المختلفة ، في مستوى واحد من الحقوق والواجبات الاجتماعية . أو تقوم مثل هذه الأمة في مثل تلك البيئة ، وقد هجر الفلاسفة والقادة في العصور الأخيرة عن تأليف أمة عالمية ، وهي مما لا يمتري رجلا في أنها المثل الأعلى للاجتماع ؟

إن تعجب فاعجب منه أنها قامت في تلك البيئة الجدة ، وأنتجت من الثمرات ما لم تنتجه أمة في الأرض من أول عهد البشر إلى اليوم ، وفي مدى لا يذكر إلى جانب أعمار الأمم .

ولا نفس أن تسجل إلى جانب هذا أن محمداً غيّر ديانة القذائل العربية قاطبة ، وأبدلها منها ديناً لانسبة بينه وبين وثنيته ، والدين أعاق الأشياء بالنفوس ، وأقواها سلطاناً على القلوب . وحول أحلافها من جفوة البداوة ، وعسجوبة الحاهلية ، إلى لطافة الحضارة ، ورقة المدينة . وقلب مبادئها من تأليه الأقوياء ، وتسجير الضعفاء ، والتقلب مع الأهواء ، إلى العمل بمبدأ المساواة ، وتقرير الحق لصاحبه بصرف النظر عن جميع الاعتبارات ، والنبات على إقامة الأصول مهما اعتورت المكلف بإقامتها ، المصانعات ، وتجاوزته المسولات .

لعلك تقول : وصل إلى كل ذلك بعمل الحديد والبنار . . .

فهل قيل لك : إنه أرسل بالخيوش الحرارة تُسْقِدُ منه حيث سار ، أو بالجلالوزة تلقى كل من

يعصيه في النار ؟ ألم يلفك أنه بعث وليس له قوة ولا ناصر ، حتى اضطر أن يدعو إلى دينه سرا ، فلما أعلن الدعوة عُودى وأودى ، واضطر من آمنوا به إلى الهجرة إلى الحبشة فبعثتين ، ثم اضطر هو نفسه - وقد تحالف قومه على قتله - أن يهاجر إلى المدينة في جمح الظلام ، وأنه لما أشرق الصبح وهو في الطريق اضطر أن يحسب* هو وصاحبه في غار ؟

لو كان الأمر كما تقول قد استقر له بالإجبار ، فهل سمعت أن أخلاقا تُعرض على قوم مرضاء تدوم بعد وفاة فاضلها ، وتؤتى ثمراتها ناضجة بالغة ، وتعند ثم تعند حتى تجعل لأهلها ملكا لم ينبغ لامة في هذه الأرض ؟

إني أشفق على الذين يدعون أن ما عمله محمد أثر من آثار المبقرية ، ويقولون أن الذي يلفظ كلمة المبقرية يحمل معناها العلمي ، فيظن أنها تمنى درجة رفيعة من الذكاء . والحقيقة أن المبقرية إلهام ينزل على صاحبه لا يعرف مصدره ، فيندفع لعمل من الأعمال ، فيجىء مثلا أعلى لا يمكن تقليده . فإن كان محمد عبقريا ، فهل يعلم أن يكون مع عقريته كاذبا يدعى للناس أنه رسول قد أوحى إليه من عند الله ولم يوح إليه ، وهو نفسه يقول « ومن أعلم من افترى على الله كذبا ، أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ؟ »

بني أنه كان ذكيا بالغ الذكاء ولم يكن رسولا ، فوسلما أنه مع ذكائه هذا كان من عدم الاعتداد بالذات في درجة يسكر معها صفاته العالية ويقول : « إنا أنا بشر مثلكم يوحى إلى » مساويا نفسه سقية الخلق ، كل ذلك توسلا إلى إنقاد قومه من شرور الجاهلية التي كانوا عليها ، فهل غاب عنه مع هذا الذكاء الفذ أنه لو كان جاءهم من الناحية البشرية لما صادفه من المقاومات العنيفة ، والمصادمات الشاقة ، شيء مما أثارته دعواه النبوة ؟

نملك نقول : إن حبه لأن يرفع إلى مقام المرسلين ، ويحشر في زمرة الرجال العلويين ، هو الذي دفعه إلى سلوك هذه السبيل . فهل عهد في تاريخ البشر أن رجلا يبلغ من سداد القلب إلى حيث يجرو على مثل هذه الدعوى ، يصدق الله في كل ما ادعاه من الظهور على أعداء دينه ، ومن النجاح في دعوته حتى يتأهل أتباعه خلافة الله في الأرض ؟ ألم يقل : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ، فليستظهر هل يذهبن كيد ما يفيظ ؟ » أي فليمدد يحمل إلى سقف بيته وليشقي به نفسه . ألم يقل أيضا : « يا منصر رسلا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ؟ ألم يقل أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وهموا بالصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنك لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ؟ ألم يقل أيضا : « كتب الله لأغلبن أأنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز » ؟ قلت : إني أشفق على الذين يدعون أن أعمال محمد صلى الله عليه وسلم تعسر بالمبقرية ،

أو بدرجة راقية من الالهمية : كيف لا أشفق عليهم وهم يضطرون أن يفترضوا أن أعظم عبادة العالم ، أو أدكى أدكيائهم ، وهو محمد ، كان كادبا مفتريا ؟ في الذي يمنهم بعد ذلك أن يقرروا بأن جميع الانبياء كذبة مفترون ، فتكون أكبر الانقلابات الأدبية والاجتماعية حدثت على أيدي كذبة مفترين ، وتكون مجموعة البشرية مدينة بمعائنها وآدابها لكذبة مفترين ؟

إنهم يضطرون إلى هذا الحل اضطرارا لأنهم لا يعرفون النبوة ، فلا يسمون بوجود رتبة روحية تصل الإنسان بعالم أرقى من عالم الطبيعة .

ولكن أيستدعي الجدل نفي عدم التسليم بوجوده ، أم يقتضى الإجماع في البعث عنه ، والتعسس منه ، في كل المظان التي يتوقع أن تؤدبهم اليه ؟

في العالم اليوم أقطاب من لعناء يدعون أن الوحي حق ، ولهم على ذلك أدلة قاطعة محسوسة ، قبل بحث المكذوبين في هذه الأدلة وأثبتوا للناس يعلم أنها معالوة ؟

ألم يبلغهم أن الناس كانوا يحفلون وجود العناصر الكيماوية ويتشددون في نكرانها ، عند ما تصدى بعضهم لإثباتها عمليا ، وأنهم كانوا لا يعرفون الميكروبات وبالقوى في جحدها حين اكتشفها المكتشفون ، وأنهم هربوا بمن بشروهم بوجود قوة في الكون تسمى الكهرباء ، وبإمكان نقل المسافرين على خطوط حديدية بدل العربات ، وبإمكان عمل حفريات في البيوت تؤتي أهلها الماء من مواسير تدفن في الشوارع . . . مما لو شئت للمأت منه محمدا ضحيا ؟

إن أمثال الذين كانوا يكذبون بإمكان نقل الناس على قضبان حديدية بواسطة الآلة البخارية ، وهو ما يسمونه الآن بالواور ، وبإمكان عمل حفريات في البيوت تقدم بالمياه وتغنيهم عن السقائين ، وكان هؤلاء من العلماء الأكاديميين ، هم الذين يكذبون اليوم بإمكان الوحي ، ويحدثون النبوات ، حتى في الوقت الذي يهيب بهم علماء طبيعيون أن هلموا إلينا فقد فتّح علينا من طريق البحوث التجريبية ما يثبت النبوات بدليل محسوس ، ويذكرونهم بمواقف أسلافهم من الفتوحات العلمية ، والمستكشفات النفسية ، مهيبين بهم إلى عدم اتباع مناهلهم فيستبشرون معطلين .

مما يمر المسلمين أن جميع العلماء الذين تجردوا لمبحث المسائل النفسية منذ تسير سنة ، وانتهوا بالأدلة المحسوسة إلى التسليم بوجود روح في الجسد الإنساني مستقلة عنه وتبقى بعد انحلاله في عالم الروح ، قد اعترفوا الآن بأن من ادعوا النبوة من أمثال موسى وعيسى ومحمد كانوا صادقين فيما يقولون ، وزادوا على تأكيدهم هذا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكبرهم شأنًا ، وأعظمهم اتصالًا بالملأ الأعلى ، وأن دينه أرقى الأديان على الإطلاق . أليس هذا مصداق لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ .

محمد فرير ومجدي

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

عمر بن الخطاب

(٢)

أصبح أحلاس الكفر من صناديد قريش وقد أخذوا بحالهم في حقاني البيت الحرام ، ونظر بعضهم الى بعض نظرات أبلغ في التعبير عن خابجات أفئدتهم حيال هذا الحدث الجديد الذي أقض مضاجعهم وأدار رءوسهم ، من زلاقة السنة أبيائهم ، وكأعما يسأل كل واحد منهم صاحبه - وهو في دخيلة أمره يسائل نفسه التي بين جنبيه - في كثير من الدهش والحيرة المضطربة يستوحى ما عنده في استكشاف خبر مكة ودهوة « ابن عبد المطلب » ، وإذا بهم يسمعون من هول ما يسمعون ، فشخصت أبصارهم ، وأسرعت بهم أنفاسهم ، وأحسوا بقلوبهم تث من صدورهم ، وأن الأرض تميد بهم ، وأن السماء آذنتهم بصوت الحق يدوي بكلمة الله في آفاق البلد الأمين ، وإذا بذار « الأرقم » في أسفل الصفا تمشي إليهم شحمة قوية جبهة الصوت ، وعهدم بها هادئة وادعة تمس الى نفسها همسا ، بأحدها الفرق من سطوة المتو الفاجرة فتتجمع في بعضها لتستمد من تجمعها حيوية لايمان في ظل العزلة المستضفة .

«مه ! مه ! نسمع ؟ نسمع ؟ نعم ، نعم . هذا « محمد » في أرقائنا وضعفائنا يخرج من تلك الدار التي انطوت على أتباعه ، وانطوا على أنفسهم في خوفها فلم نسمع لهم ركرا ، ساعيا الى « بنية » ابراهيم واسماعيل ليعطن ، ونحن نسمع ونبصر ، دعوته التي تريد أن تجعل من هؤلاء المبيد سادة ، ومن الضعفاء أقوياء ، ومن الأذلة أعزة ، لا كانت حياتنا إن نحن تركنا محمدًا في جموعه يصل الى هذا البيت الذي جعله الله مناط العزة القرشية في قبائل العرب !

«مه ! لا يجلسكم الغضب عن الحد في التفكير وأخذ الحذر ، فبالأمس من ثلاثة أيام صبا الى محمد همه « حمزة » ونحن نعلم من هو « حمزة » في فتوته وحبته ، أعز فتى في قريش وأشدّها شكيمة ، وقد شهد من كان معنا في مجلسنا هذا غداة عاد « حمزة » من متصيد . وقد حدثته « فاختة » مولاة عبد الله بن جدعان بما صنع أبو الحكم سيد بني مخزوم بأبن أخيه ، فلم يرض عن نفسه إلا بعد أن علاه بقوسه فشحه شحّة أسال بها دمه ، ونحن وفيما بنو مخزوم ننظر فلم نستطع أن رد على أبي حمارة ساعه ، أفتعدون « حمزة » في الضعفاء ؟ كلا ، ولكن قينا أقرانه وأترابه من عبد شمس ومخزوم ، صه ! انظروا واحذروا ، أهؤلاء أرقاؤنا وضعفاء الأمس يكتنفون صاحبهم ؟ أم أولئك قوم من سادات العرب وغطارقتها

استجابوا لدعوة «محمد» في غفلة منا؟ هذا أزيز المراحل نسمعه من صدورهم، فمن أين لهم هذه الحيوية المائلة، والقوة الجائلة، بهجمون بها علينا ونحن سادة الوادي؟ كذبك نفسك يا قريش، وحدعتك أوهامك، فقد وقع ما كنا نخافه! هذا فتى بنى عدى وبطنها، وسفير قريش ومنطيقها «هر بن الخطاب» تهر شفاشقه، قائدا أصحاب «محمد» الى جانب «حزرة» يريدون البيت ونحن في ظله قعود، فويل لقريش إن لم تأخذ على يد «محمد» وتشد دعوته في مهدها قبل استفعال أمرها، وقد جذبت إليها أرحى فتيان قريش للنصال عن دينها!

سقط في يد قريش، وأحاطت بها الحيرة من كل جانب بعد أن رأت في صموف أصحاب «محمد» روح القوة والتضحية تسرى إليهم في إهاب «ابن الخطاب» وهم كانوا أوثق به حمية لدينهم من أنفسهم، وأعلم بما تنطوى عليه نفسه من الشجاعة ورجاحة الرأي، وقوة المخاضة في سبيل ما يعتقد. ألم يكن أشدهم على «محمد» قبل أن تنفتح لدعوته شعاب قلبه؟ فإيمنه أن يكون على مثل ذلك أو أعظم في سبيل عقيدته الجديدة، وقد ملأ الايمان بها حواسه ومشاعره؟

فكروا، وقدروا، فليس الأمر أمر الأرقاء والصغفاء الذين كانوا يتهامسون بدعوتهم في دار الأرقم، بل هو أمر السر الذي اشتمل عليه «محمد» فسرى فيمن تبعه سريان الحياة في الأحسام، حتى انتزع فتيان قريش وشجعانها من بين أحصائها واحدا فواحدا، وحتى دخلت دعوته في بيوتاتها فغنت من رجالها من لا صبر على تركهم ينضوون تحت لوائه، أليس قد استنزل نضله واستجاب لدعوته عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة طاهر بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وغيرهم ممن لا يقل شرفا فينا عنهم؟ أداروا رأيهم فيما بينهم وانتهوا الى أخذ هذه المصابة بالشدة القاسية، فليعذب هذا الحبشى بلال الذي كان أسرع الناس فآلتي يقبله بين يدي «محمد» غير ماني بما عليه من سلطان، ولينكل بعاصم بن فهيرة، ولتشد الوطأة على آل ياسر، وليضيق الخناق على «زنية» وليصنع فلان وفلان ما يردم الى يده أمرهم، ولكن أتى لهم أن يصلوا الى معقل الايمان من أرواح المؤمنين؟ فلنعذب الأجسام، ولينكل بها، فما شيء من ذلك يراد مؤمنا عن إيمانه، فان الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب تعلق بشعافها.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر الغفاري: «كان أول من أظهر الاسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأنما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحه الله بعنه أبي طالب، وأما أبو بكر فتحه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، وإن بلالا هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد».

اشتدت وطأة العتو على الضعفاء من المؤمنين ، وأصاب سوام من الأذى شيء كثير ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى الحبشة « لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يحمل الله لكم فرجا بما أتم فيه » فهاجر إليها جبهة من السابقين ، فيهم عثمان بن عفان ومعه زوجه « رقية » بلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر ابن أبي طالب وعثمان بن مظعون ، وعزم على الهجرة أبو بكر الصديق رضى الله عنه فردّه ابن الدغنة سيد القارة بجيرا له من قريش ، وكان الصديق رجلا بكاء بالقرآن ، فحشيت منه قريش على شبابها ونسائها أن يجتذبهم الى حظيرة قدس الاسلام ، فكلوا ابن الدغنة في شأن جواره حتى رده عليه الصديق ورضى بجوار رب العالمين .

وهكذا ضاقت مكة على المسلمين أشرافا ومستضعفين ، واشتد بهم البلاء حتى هدى الله الى الاسلام « عمر بن الخطاب » فمز به النبي صلى الله عليه وسلم ، واشتد به ساعد الاسلام وظهرت كلته ، وقويت نفوس المسلمين ، وصعقت لإسلامه قريش وبطل تديرها ، وأيقنت أنها أمام قوة جديدة وشخصيات لا تستطيع أن تصل إليها بمثل ما وصلت به الى أولئك الذين ألبانهم الى الهجرة مستحقين تحت جناح الظلام كما دخلوا في الاسلام ، أليست هي أمام « حمزة ابن عبد المطلب » الذي أسلم وقوسه التي شج بها أبا جهل في يده بتحدى جبروت قريش ؟ أو ليست هي أمام « ابن الخطاب » الذي لم يرضه أن يظهر على ملا قريش إسلامه حتى أخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مظاهرة تملن كلمة الله مدوية في الآفاق ، وذهب الى رأس السكفر أبي جهل فقرع عليه بابه في مثل صاعقة السماء ليخبره أنه أسلم ، فلم يسع أبا جهل في عتوه وجبروته إلا أن يغلق بابه دونه حيلة العاجز المكبوت !!

رأت قريش أن المسلمين ، وإن قلّ عددهم ، قد أصبحوا قوة خطيرة بمن انضموا إليهم من فتيانها ورجالاتها ، وأنهم باسلام « ابن الخطاب » تظاهروا بدعوتهم بعد استمرارها ، وأن « محمدا » أخذ يتصل بقبائل العرب ممن جاؤوا مكة يقش فيهم دعوته ، فتبادت الى دار ندوتها لتقرر عملا حاسما يقف دون تيار هذا الانقلاب التاريخي الذي لم تشهد جزيرة العرب له مثيلا ، فإذا هم قائلون ؟ لقد عبدوا أصحاب « محمدا » ونكلوا بهم أشد التنكيل ، وآذوا « محمدا » أشد الأيذاء ، وأمعنوا في فنون الشر ، وتفننوا في طرق الايلام ، فلم يقل ذلك من عزيمة « محمدا » ولا نال من عقيدة أصحابه ، بل لقد ازدادوا بهذا المذاب وذلك التنكيل قوة إيمان وصدق عقيدة ، فلم يبق أمام قريش إلا أن تقف في وجه سي هاشم وفقة دموية يتحكون فيها الى السيف أو تستكين بنو هاشم وتسلم إليهم « أمينا » ، وقهقهت شياطين الجن سخرية من شياطين الناس :

تقفون والملك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

وكان الله تعالى قد أمد رسوله بقلوب أنصاره من فتيان يترب وساداتها في حرم مكة وغلة قريش ، فوعده النصر والتأييد إن هو قدم إلى يدهم ، وأشار على أصحابه بالهجرة إلى أولئك الغر الميامين ، فقتلوا لوأذا يسكنهم الليل ، وتكلمهم الكهوف والمنافور ، وأت على « ابن الخطاب » شجاعته أن تكون هجرته مستحقة ، فكما حالن قريشا بإسلامه وتحداها بإيمانه ، فلا بد له أن يذرها بهجرته ، فواعد صاحبه « عياش بن أبي ربيعة » واختطف سيفه وطاف بالبيت مودما ، وصاح بجارية قريش وهم في ظل الكعبة يتجادبون أطراف الحديث فيما يشغلهم من هذا الحدث العظيم : ألا إني مهاجر ، فمن أراد حتمه فليقتني وراء هذا الوادي ! فما طرفت منهم عين تنظر إليه . روى ابن إسحاق أن أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم قدم بلال ، وسعد ، وعمر ابن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . استقر المقام بالعاروق في المدينة يرتقب وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أدن الله لرسوله بالهجرة فهاجر إليها ، وبدأت حياة الجهاد والصلال والتشريع والاستقرار وتكوين المجتمع الاسلامي بشخصيته المنوية التي صورها القرآن الكريم ، ومن يومئذ بدأ في حياة « عمر بن الخطاب » طور جديد هو صورة من أروع صور البطولة الاسلامية ، ومنها تتبين شخصية العاروق الفكرية ، وأنها كانت متداوقة مع طبيعته الحازمة ، وأنها تمل روح التشريع الاسلامي أصدق تمثيل ، وبهذا كان « ابن الخطاب » زعيم قادة الفكر في تاريخ الاسلام .

وتصورنا لبطولة « عمر » وشجاعته في الحق ، وصراحته ، وحزمه وعزمه وشده ، فصدنا به إلى أن تتبين طبيعته الخلقية لتعرف على ضوئها شخصيته الفكرية لما نعتقد من وثيق الصلة بينهما ، فإن مثل « عمر » لم تكن شخصيته الفكرية نتيجة دراسة فنية ، وإنما هي صورة لفطرته مشربة بروح التعاليم الاسلامية . لقد اتخذته النبي صلى الله عليه وسلم وزيرا إلى جانب أبي بكر ، يستشيريه ويقدمه على سائر أصحابه ، حتى قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فيما رواه البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما يرنى « عمر » وهو على سرير موته : « ما حلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن لي جعلك الله مع صاحبك ، وذلك أني كنت أكثر أن أسمع رسول الله يقول : ذهبت أما وأبو بكر وعمر ، ودخلت أما وأبو بكر وعمر ، وخرجت أما وأبو بكر وعمر ، كست لأظن لي جعلك الله معهما » . وقد كانت الحوادث مرآة لتقليد « عمر » العفة ، وصورة لسداد رأيه ورجاحة فكره وعقريته الملهمة ، وهذا ما حدنا به النبي صلى الله عليه وسلم عن شخصية « عمر » الفكرية فقال فيما رواه البخاري ومسلم : « إنه قد كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناس محدثون ، وإنه إن كان في أمتي منهم أحد فانه عمر بن الخطاب » . وأول موقف إسلامي تمثل به سياسة « عمر » الحازمة التي لا تعرف التلبن والهوادة ، وتمكيده الملهم ، ورأيه المسدد ، موقفه

في غروة بدر ، ومنهجه في أسراها ، فلقد كانت هذه الفزوة المباركة أول فتح للإسلام ، أيد الله فيها نبيه بالنصر المؤزر ، ومكنه من أعدائه ، فكان رأى « عمر » أن يحمل هؤلاء الأسرى أنشودة لسطوة الإسلام وسلطانه ، وأن يشردهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، وهو يحدثنا عن هذا الموقف حديثا يصور لنا روحه وفطرته وسياسته :

روى الامام مسلم عنه أنه قال : « لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استغار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عصدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قالت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن نمكنى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، ونمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، ونمكن حمزة من فلان — أخيه — فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للشركين . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، فأخذ منهم القداء ، فلما كان من القداء غنوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فادا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما بيكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ قال وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تبكيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ابك للذي عرض على أصحابك من القداء ، لقد عرض على عذائكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة — فأزول الله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُشحن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

وهذه القصة تصور لنا جانبا مهما من حياة « عمر » الفكرية ، ظهرت آثاره فيما بعد في سياسته وفهمه لتشريع الاسلام ، فهي توضح لنا الى جانب مكانته من النبي صلى الله عليه وسلم أن الرحمة على أهل الباطل لا تعرف سبيلا الى قلبه ، وأن مظهر القوة للأمة يجب أن يشعر به أعداؤها . وإذا تأملنا فيما ذكره سببا لرأيه من قوله : حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين ، تبينا روحه القوية في معاملة أعداء دين الله . ومن الطراف الله بهذه الأمة الكريمة أن جعل وزيرى نبيها أبا بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فأبو بكر صاحب سياسة الرفق والرحمة بالأمة ، وعمر صاحب سياسة الحزم والمراحة ، ولكل منهما جانب تطلبه الحياة ، ولذلك ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم شبه أبا بكر بخليل الله ابراهيم ، وشبه عمر بنى الله نوح . وقد سدد الله « عمر » في سياسته على ما فيها من شدة ، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »

صاحب ابراهيم عمرجونه

بيننا وبين المستشرقين

مستقبل اللغة العربية في أيدينا

هذا موضوع لا أقصد منه أن أورد المستشرقين عن رأيهم ، فهم أجانب عن العربية لا يبالون بقيت العربية سليمة ، ثم تحيفتها صروف الزمن ، ولكني أحاول أن أكشف الحقيقة لقوم من أبناء الصاد يطعنون لكلام المستشرقين طعنات لا يحترمونها فيها عقولهم ، ولا ينصفون به لغتهم ، بل إنهم ليعتبرون كلامهم في ذلك حقيقة علمية ثابتة ، لا تقبل الرد ، ولا يمتريها النقض ، كأن هؤلاء المستشرقين من المعصومين المزهزين ، فهم فوق الهوى وفوق الغلط ، وكأنهم لما صار لهم الذراع الرحب والباع الطويل في العلوم السكونية والعمراية ، أصبحوا يفهمون من أسر لغتنا ومحورها وصرورها ومقوماتها وآدابها فوق ما تفهم ، وصار قولهم فيها وحكمهم عليها هو الحكم النافذ الذي لا ينقض ولا يبرم ، وإن تجرد من الدليل وتعمل من البرهان !

ورأى المستشرقين في العربية رأي خاطئ " لا يستقيم ، فهم يتنبأون لها بالسقوط ، ويتوقعون لها الموت ، لأنها - كما يقولون - لغة جامدة هامدة ، لا تسير التطور ، ولا تجري مع الزمن في نهوضه ، ولا تنمى مادتها للأوضاع التي تجتهد كل يوم ، سواء في العلوم والفنون ، أم في مساحي الحياة المادية ... وهم يحتجون لذلك بأن اللغة كائن حي يدركه من أطوار النماء ما يدرك كل كائن آخر ، يقولون : وقد أحدثت العربية حظها من الحياة ، ونالت نصيبها من الشباب والقوة والنفوذ في صدر الأول من حكم العباسيين ، ولكنها ابتدأت تحدر ، وستظل في انحدارها لأن اللغات الغربية تجرّفها بما لها من القوة والسلطان ، ولا شك أن الكلمة اليوم للغرب في العلوم والاختراعات ، وفي القوة والبطش ، والاستعباد والاستعمار ، ولا شك أن الغرب حريص على نشر لغاته ، يسند بها لحاء المال ، ويحرص على تمكينها في الآلس وإذاعتها بين الناس ، وليس من المعقول أن تناهض العربية - وهي الزلاء المعهدة في وهمهم - تلك اللغات القوية المؤيدة ، ولا طاقة لها أن تقف في عرض هذا التيار الحار الذي يهدم كيائها ويقضى على حياتها !

وهذا كلام كان يصح في العقل ، لو كانت العربية في مهمتها قاصرة على صلة التغاطب بين الناس لحسب ، ولكنها لعة تؤدي رسالة دين حام خالد ، يحقّق القرون ، ويهتلك الحوائل ، وتحمل تعاليم شريعة قوية ، تمد في أسباطها إلى القلوب ، وتسمو بها إلى النفوس ، ولها كتاب فصيح معجز ، يخلدها على الدهر ، ويثبتها على المحن ، ويعينها على مدافعة الأحداث والموال ،

ومن ثم تتلذذ هذه اللغة الكريمة عند أهلها منزلة العقيدة ، وجرت في قلوبهم مجرى الفطرة ، فالיום الذي تنعدم فيه من ألسنتهم ، هو اليوم الذي نخرج فيه العقيدة من قلوبهم ، وتنعكس الفطرة في طباعهم ، وهيهات هيهات !

وكأنني بهم يقولون اعتراضاً على هذا الكلام : إن القرآن لا يقدر على تخليد لغته كما لم يقدر الانجيل على تخليد لغته القديمة ، وكما لم تقدر النوراة على حفظ لغتها ، وهما كتابان إلهيان دانت بهما أمم وشعوب كالتى دانت بالقرآن ، وامسند نفوذهما في كثير من الأقطار كما امتد نفوذ واتسع . وهذا في الواقع تنظير لم تتم وجوهه ، وقياس ولكن مع الفارق كما يقول المطابقة ، ذلك لأن القرآن كتاب مميز في رسالته وفي أسلوبه ، أما في رسالته فهي كما نعلم رسالة عامة جاءت للناس جميعاً ، فيستوى في معناها الأبيض والأسود ، والآخر والأصفر . ثم هي رسالة خالدة تعتمد بنفسها في كل عصر وجيل ، فليس تلسخها شريعة بعد ، ولن تأتي من وراءها رسالة قط . ثم لا ننسى بعد هذا أن القرآن لا يقف في هذه الرسالة عند الحد الديني ، ولا تقتصر تعالجه على أحكام العبادة ، ولسكنه يحمل في أطوائه كثيراً من فلسفة الحياة ، وقواعد العمران ، ونظريات الأخلاق ونظم الاجتماع ، وهو في كل هذا نافع للناس في كل عصر ومصر ، يناولون منه عظيم ومبتغاهم ، ويجسدون فيه هاديتهم ومرشدتهم ، مهما تطور الزمن ، وتغيرت أوضاع المجتمع ، ومهما ابتدع الإنسان من نظريات وقوانين ، ووضع من نظام وتشريع ، ومن هذه الناحية كان القرآن مورداً ومعيّناً لكل باحث في الشؤون الإنسانية وإن بعد دينه ، واحتلفت لمحلته ، وعلى هذا الاعتبار سيظل كتاب العالم الخالد ، لن يزول حتى يتأذن الله لهذا الكون بالقاء .

وأما في أسلوبه - فقد جاء على نمط بديع لا يطاول ، انقطع عن نمحيه حول البيان ، وعجز عن إدراكه قروم الفصاحة ، ولا جرم أن القرآن بأسوبه هذا قد خلق العربية خلقاً جديداً ، ونماها بنحو السكال طمرة ، جمعها في لغة واحدة وكانت من قبل لهجات تتوزعها لسنة القبائل ، وأنشأ لها ما أثر عن العرب من الثقافة الأدبية والعلوم اللسانية ، ذلك لأنه اقنصى — كما يقول الزافمي رحمه الله - ما أحدثه العلماء من تنبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدا والتحمل لها ، فكان صنيعهم صلة بين اللغة وبين العلوم التي أفرغت عليها من بعد ، ومعلوم أن لغة لا تحيا ولا تموت إلا بحسب اتصالها بمادة العلم الذي به حياة أهلها وموتهم ، وهي لا يلبسها العلم إلا إذا كانت قشبية محكمة لا تصيق عن ألواح وفروعه ، ولا يخلقها الاستعمال ، وإنما شباب هذه الحياة الثموية أن تكون اللغة أئنة شديدة كما يكون كمال الإنسان بقوة الخلق والخلق ، وهذا وجه لو لم يتم القرآن عليه العربية لما استقامت أبداً ، ولا وقعت على طريقه ، ولا تلاق فيه آخرها بأولها ... تقول وتلك ميزة لا يلتقي فيها مع القرآن كتاب آخر ، ومن الواضح

في العقل أن هذا الكتاب الذي جاء معجزة في لفته ، وخلقها هذا الخلق المبين ، وأنشأ لها هذه الثقافة الواسعة الضافية ، وكان لها مادة مواتية في كل مادون علمائها ، قين وزعيم بأن يؤكد أواخيها على الزمن ، ويثبت دمائها على المحس ، ويقف بها في وجه تلك اللغات المزاجية بما له من السطوة الروحية على النفوس ، والسلطة النافذة على القلوب .

هذا كلام لا نقوله فرضاً ، ولا نقرره وهماً ، ولكنه كلام أقرته الحوادث في الماضي ، وشهد به التاريخ من قبل ، فقد سقطت الدولة العباسية بسقوط بغداد على يد التتار ، وورث ملك العرب العظيم شعوب أجنبية ، أخذت لغاتهم تدافع للمرية وتحمده من نفوذها ، وفرض الأتراك العثمانيون لغتهم رسمياً في الدواوين ، وجعلوها لسان المحاضرات والامصار ، وكادت الفارسية والكردية تحملان محل المرية في أعلى الجزيرة وشرق العراق ، وأيد المماليك العامة في مصر فدونت بها بعض الكتب ، ولا أكتفك أن كل هذه الأحداث كانت طعنات دامية في إهاب المرية الشریف ، ولكنها لا ريب قد فشلت في النيل منها ، وعجزت في القضاء عليها ، وبقيت تلك اللغة الكريمة بفضل القرآن ، يحفظها في أسلوبه المعجز ، وفي تعاليمه القويمة ، وفي رسائله الخالدة ، فلو كان شأن التوراة والإنجيل لما عاشت المرية إلى اليوم ، ولما صبرت على كل هذه الاغيار تلك القرون الطويلة بعد سقوط بغداد وقد انقض عنها الجاه والسلطان .

على أن المرية لو كانت تحيا في ألقاظ معدودة ، وتعيش في أوضاع معدودة ، وتجرى على نهج عقيم منقطع ، لكننا عند رأي هؤلاء المستشرقين ومن يشايعهم ، قرأنا فيها التخلف والضعف ، وقدرنا لها القضاء ، أو على الأكثر : البقاء في الدائرة التي قد يحفظها فيها القرآن ، وهي دائرة معدودة قاصرة ، لا تفي بالفرض ، ولا تنسج لسكل ما يجد ، لكنها لغة وافية كافية ، لها من المقومات ، ما يهيئ لها الرقي المطلوب ، والنهوض المرغوب ، ويصلها بالملم والتمن صلة وثيقة مستقلة استقلالاً إن لم يكن كاملاً فهو أقرب إلى السكالك منه في أية لغة أخرى . ولقد وقع هذا وتحقق في تاريخ تلك اللغة الكريمة ، فإن العرب لما رغبوا في النقل والترجمة عن الفارسية واليونانية والسريانية أيام العباسيين ، لم يخذلهم المرية في ذلك ، ولم يضق صدرها بما جلبوا من المعارف الأجنبية والأوضاع العجيبة ، بل طاولتهم إلى حد بعيد ، حتى لقد استطاع القوم أن يقرروا حدود العلوم المترجمة ، وأن يؤدوا مصطلحاتها بألفاظ عربية خالصة في غير سموية ولا لبس ، فقالوا في المسطق : موضوع ومحول ، وقياس واستنتاج ، ومقدمة ونتيجة ، وتصور وتصديق ، وكلى وجزئى ، وقضية مسورة وقضية مهمة ، كما قالوا في الفلسفة : موجود ومعدوم ، وهرض وجوهر ، وكسر وانكسار ، وأثر وتأثر ، وماهية وهوية ، ومقتض ومانع ، وكذلك صمموها في كل العلوم التي نقلوها كالكيمياء والطب والهندسة ، والفلك والنبات والحيوان ، مع أن علماء الغرب لما نقلوا هذه العلوم إلى لغاتهم أخذوا ألفاظ الحدود والمصطلحات كما هي في اللغات المنقولة عنها ، على ما يعرفه علماء اللغات ، ويقف على حقيقته المطلعون .

إن الاستعارة تجري في كل اللغات ، وليست هناك لغة ما قد تجردت عن الاقتباس من غيرها كما كان خطرهما ، ومهما كانت ثروتها ، ولست أقول . إن العربية قد شذت في هذه الساحة فتزهدت عن الأخذ ، وتجردت من الحاجة ، فإن القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، قد جاء فيه السندس والإستبرق والأباريق والزمججيل وغيرها من الألفاظ التي استعرت وجرت مجرى الأصيل في اللسان العربي ، ولكن أستطيع أن أقول : إنها أقل اللغات استعارة ، وأدونها اقتباسا ، ذلك لأن القدماء رضى الله عنهم قد رأوا أن التقاليد في الاستعارة ، والتهافت على الاقتباس ، ربما يفقد اللغة شخصيتها ، أو على الأقل قد يخرجها عن شخصيتها كما وقع لكثير من اللغات التي اندفعت في ذلك الطريق ، فتخرجوا من الاستطراد في ذلك ، وكل ما أخذوه من اللغات الأخرى ألفاظ معدودة جمعها السيوطي أوجع أكثرها المزهر ، وربما كان في حُرِّ العربية ما ينفي عن بعضها ويفيد معناه ، وإنما استطاع أسلافنا أن يترفعوا كل هذا الترفع ، وأن يلتزموا القناعة إلى هذا الحد ، لأنهم وجدوا في مقومات العربية ما يغنيهم ويكفيهم ، فسكوا يستعملون النقل (١) ويستخدمون القياس ، ويبدرون إلى الاشتقاق ، وكثيرا ما محدودوا إلى التضمين والحجاز ، وبذلك ارتفعت اللغة ، فتمت مادتها ، وربت مقدراتها وتكونت عباراتها ، وأوفت بحاجة القوم في كل فرض من أغراض الكلام والعلم ، وفي كل ناحية من مناحي الحياة والمعيش .

هذا كلام أحبه من المعلوم المشهور ، ولعل من المعلوم أيضا أن هذه المقومات التي قامت بها العربية من قبل لم يفرضها القوم على رغم اللغة ، ولم يشكف وضعها العلماء لحاجة طارئة حتى نقول إنها مقومات قد تتبدل بتبدل الزمن ، وإنها إن أغنت وأفادت بالأمس فربما لا تقيد ولا تفي اليوم ، بل إنها طبيعة العربية وفطرتها التي فطرت عليها ، وقواعدها الثابتة التي هي منها في كل طور من أطوارها مكان الروح من الجسد ، وستظل هذه المقومات في كل زمن ، وعلى كل حال : القوة الدامنة في عماء العربية ، تشد أروها ، وتبسط تمودها ، وتقدمها إلى محارة الزمن ، وتكمل لها الصلة الوثيقة بالعلم والحياة ، وتبجح لها تقبل الأوضاع المتغيرة ، والمعاني الحديثة ، وتغنيها عن الاستعارة والاقتباس ، وهي خاصة لا تطاول العربية فيها لغة أخرى . وفي المنصفين من المستشرقين من أعلن هذه الحقيقة صراحة في غير مواربة ، ولفق بها شهادة حققت الفصل كما يقول المثل (٢) . وأنا أكتب هذا وبين يدي فصل كتبه الدكتور جرمانيوس المستشرق المجري في شأن إصلاح العربية يقول فيه :

(١) هو عبارة عن نقل الكلمة من معناه إلى معنى آخر ، كقوله كذا ، لا أدب من معناه الاحلاق إلى معناه النفاق ، والشرط أن تكون هناك علاقة

(٢) إشارة إلى قولهم فضل ما شئت به الاعتناء .

« إن الاشتقاق مصدر ثروة كبيرة للغة العربية لا مثيل له في غيرها من اللغات الأجنبية التي كثيرا ما تضطر إلى الاقتباس من غيرها للدلالة على معان حديثة ، وهي تدخل تلك الألفاظ في معجم لغتها ، فيجب أن ننتفع بهذه الميزة الفريدة التي تمتاز بها العربية ، وأن نلجأ إليها كلما أردنا التعبير عن معاني الاختراعات الحديثة ، فنشتق ألفاظا من كلمات معروفة في اللغة للدلالة على تلك المعاني (١) »

وقد أيد الدكتور الباحث كلامه بالأمثلة والشواهد ، وما أريد أن أعقب على هذا الكلام بتعليق أو شرح ، وحسبنا أن تقدمه لأولئك الذين يرمون العربية بالحجر والقصور ، وهم في الواقع العاجزون عن إدراك أسرارها ، المتمصبون عليها . وعند هذا الحد فلتقف اليوم ، وقد بقي في الموضوع بقية موعدا بها المقال الآتي إن شاء الله ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

كيف يتراضى الكبراء

حري بين الحسين بن علي وبين أخيه محمد بن الحنفية رضي الله عنهما كلام وافترقا متغاصبين . فلما وصل محمد إلى داره كتب إلى الحسين ما نصه :

من محمد بن علي إلى أخيه الحسين بن علي ، أما بعد : فإن لك شرفا لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، فإن أمي امرأة من بنى حنيفة ، وأملك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما وعين أمك . فإذا قرأت رقعتي هذه ، فلبس ردائك وعلملك وسر إلى لثرتي ، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني ، والسلام .

لبس الحسين ردائه وعلبه وجاء إليه وترضاه .

ومن جميل ما قيل في قبول العذر .

أقل ذا الود عثرته وقفه على سنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعصية اليه فقد يهفو ونيتة سليمه

بَابُ الْأَسْبَغَةِ وَالْفَتَاوَى

نكاح المتعة - الصلاة بالأحذية ودخول المساجد بها

الاستحمام بالورق الخشن

جاء الى لجنة الفتوى بالمساجد الازهر الاسئلة الآتية :

(الأول) ما حكم نكاح المتعة الآن مع العلم بأنه كان مباحا في أول الاسلام ؟

(الثاني) ما حكم الصلاة بالأحذية ودخول المساجد بها ؟

(الثالث) ما حكم الاستحمام بالورق الخشن ؟

الجواب عن الأول :

إن نكاح المتعة هو أن يتزوج الرجل المرأة الى أجل ينتهي بانتهائه عقد الزواج .
وقد روى الثقات من المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص في نكاح المتعة في بعض غزواته . وروى الثقات من المحدثين أيضا أنه عليه الصلاة والسلام حرم نكاح المتعة آخر الأمر تحريما باتا الى يوم القيامة .

ويرجع الأمر في إباحتها الى أسباب وعوامل لم توجد إلا في بدء الاسلام :

(١) ذلك أن العرب في أول الاسلام كانوا قوما حديثي عهد بجحلة لم يألفوا فيها المصروع للتكاليف التي تحمّل من حرياتهم ، وتقيدهم في معاملاتهم ، وتلزمهم أنواعا من العبادات لا عهد لهم بها من قبل . فالانتقال بهم من الفوضى والإباحية المطلقة الى النظام والترام الأحكام ، لا بد فيه من التدرج في التشريع باتخاذ أحكام وقتية تدعو اليها مصلحة الانتقال من دور الى دور ، وعلى ذلك تكون إباحة المتعة في وقت الضرورة من باب التدرج في تحريم الزنا .

(ب) أذن الله للنبي ومن معه في الجهاد لتأمين الدعوة الى الاسلام ، ولدفع عدوان المشركين الذين فتسوا المؤمنين وصدوا عن سبيل الله ، فاستعالت حياة المسلمين بعد هذا الاذن الى حياة كلها جهاد وكفاح . ومعلوم أن معظم المسلمين كانوا من المهاجرين الذين تركوا بلادهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم وخرجوا يلتمسون الدين الجديد ، ويقتبسون من النور الإلهي الذي أفاض الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا فقراء لا يملكون أهبة النكاح ، وكانوا

كما قلنا في جهاد مستمر وكفاح دائم ، وليس معهم تساؤم ، ولم يألوا بعد طول الصبر عنهم ، حتى لم يعضهم أن يختصي ، فهام الرسول الأكرم عن ذلك . فن هنا اقتضت الحكمة مراعاة لهذه الحالة الاستثنائية — أن تباح المنعة لهم في أسفارهم للغزو ، وعند ضرورتهم القصوى .

فلما استتب الأمر للدين الاسلامي في جزيرة العرب ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، واجتمع شمل الرجال بأولادهم ونسائهم ، لم تعد هناك حاجة لهذا التشريع الوقتي الاستثنائي . هناك أحكم الله الدين ، ونهى عن المنعة على لسان نبيه الكريم ، وحرمها تحريما باتا الى يوم القيامة .

على هذا انعقد إجماع من يعتمد به من أئمة الدين وفقهاء الامصار . وهاك طائفة من الأحاديث الصحيحة التي استند إليها العلماء في إجماعهم على تحريم المنعة :
 روى مسلم وغيره من حديث سبرة بن معبد الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس : إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك الى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فبخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » .
 وروى مسلم أيضا عن سلمة بن الأكوع قال : « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس في المنعة ثلاثا ثم نهى عن ذلك » .

وأخرج ابن ماجه عن ابن عمر بإسناد صحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لنا في المنعة ثلاثا ثم حرمها ، والله لا أعلم أحدا تمتع وهو محصن ، لا رجنه بالمحارة » .
 وروى مسلم وأحمد رضي الله عنهما عن سبرة الجهني : « أنه غرام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة قال : فأقنا بها خمسة عشر فأذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في متعة النساء » وذكر الحديث ، الى أن قال : « فلم أخرج حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الجواب عن الثاني :

إن الصلاة بالأحذية جائزة ولا بأس بها متى كانت الأحذية طاهرة . وقد جاءت في ذلك أحاديث صحيحة مذكورة في صحيح البخاري ومسلم وغيرها ، فكل مصل تأكد أن نعله طاهرة ، سواء أكانت طهارتها بالحك أم بغيره ، فلا جناح عليه أن يصل بها .

وأما دخول المساجد بالأحذية فإن العرف العام يعتبره الآن امتحانا للمساجد واتباعها لحرمتها ، وقد أمرنا بتعظيم المساجد وصيانتها عن الامتهان ، قال تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » قال العلماء : المراد من رفعها تعظيم شأنها ، وتوفير حرمتها ، وصيانتها عن الانجاس والأقذار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في قبلة المسجد نخامة فقام إليها وحكها بيده الشريفة ثم دعا بخلق فطبخ مكانها » .

وعن أنس بن مالك مرفوعاً : « والنفل في المسجد خطيئة » . وعن زيد بن أسلم قال : « كان المسجد يرش ويقم في عهد رسول الله » . وأخرج ابن أبي شيبة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنعم غمار المسجد بحريضة » . وأخرج ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جنبوا مساجدكم صياكم ومجايدكم ، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ، وصعوا على أبوابها المطاهر » . إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار التي تعيد حرص الشريعة على صيانة المساجد وتنزيهاها مما يلونها أو يمتن حرمتها ، ولو كان طاهراً .

وإذ قد جرى عرف الناس الآن بأن دخول المساجد بالأحذية ، ولو كانت طاهرة ، يعد أمتهاماً لها ، فضلاً عما يترتب عليه من تساهل العامة الذين يغلب على نعالهم تلوثها بالنجاسة ، ومن المعلوم شرماً أن العرف معتبر في مثل هذا — يكون دخول المساجد بالأحذية حراماً .

الجواب عن الثالث :

إن الاستحجار جائز بالورق الخشن إذا كان الورق طاهراً مريلاً لعين النجاسة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النمام

أحسن ما قيل في الرأي

قال شاعر :

وذى يقطات مستمر مرورها إذا الدهر لاقاها اضمحلت وائمه
بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه
وإن يفر الحزم منه وإنما مراعى الأمور المشكلات تجاربه

وقال أبو هبادة البحرى في ساجان بن عبد الله :

بربك بالظن ما طاق اليقين به إذا تلبس دون الظن إيقان
كأن آراءه والحزم يتبعها تربه كل خفى وهو إعلات
ما غاب عن عينه فالقلب يكلاه وإن تم عينه فالقلب يقطان

وقال شاعر غيره :

ذهب الصواب برأيه فكانما آراءه خلقت من التأيد
وإذا دعا خطب تبليج رأيه صبحاً من التوفيق والتسديد

الاسلام كما يراه الاوربيون

- ٢ -

أسلفنا في المقال السابق أن الاوربيين قد اختلفوا في فهمهم للاسلام وحكمهم عليه اختلافات شتى ، وأن القدماء منهم قد أسسوا آراءهم فيه على الجهل أو على التعصب وسوء النية ، وأن المحدثين كانوا أحسن حالا من القدماء ، فدرسوا وبحثوا ثم ساءوا أحكامهم على هذا لدرس وذلك البحث . وقبلنا إن آراء أولئك المحدثين - على ما فيها من جبهة ودقة - لم تخل من ما أخذ وهفوات وقد أتينا في الكلمة الأولى من هذه السلسلة بأمثلة من سخافات أفكار القدماء ، واستقامة آراء المحدثين ، ووعدنا القراء بأننا سنغضى عن الأولى ، خلف قيمتها في ميزان العلم الصحيح ، وسنمضى بالنابية عناية الباحث بمواجهة آراء العلماء ، لا يصاح فامضها ، والاشادة بما فيها من حق وخير ، وإزهاق ما فيها من باطل وشر ، بأسطع الأدلة وأنصح البراهين . وقد اخترنا أن بدأ هذه البحوث بعرض آراء الأستاذ « البارون كارادى فو » وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين الذين سطعت أسماؤهم في أوائل هذا القرن :

تلاّنا نجم هذا الأستاذ بين المستشرقين بسبب مؤلفاته في الفلسفة الاسلامية التي كانت ولا تزال ذات شأن عظيم في البيئات العلمية والتي نذكر أهمها فيما يلي :

(١) « مفكرو الاسلام » ، وهو كتاب ضخم في خمسة مجلدات تناول فيه مؤلفه الحركة العقلية الاسلامية في بسط وإسهاب (٢) « ابن سينا » . (٣) « الغزالي » ، وهما كتابان عظيمان درس فيهما المؤلف حياة هذين المفكرين الجليلين وفلسفتيهما دراسة دقيقة قيمة ، بمد أن لم يصريهما إلماما وافيا بالفرض المراد (٤) « الحمدي » وقد عرض فيه لكثير من الفرق الاسلامية عرضا جديرا بالعناية والاحترام .

وهذا عدا بحونه التي كتبها عن عظماء الاسلام في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، والكتب العربية التي ترجمها الى الفرنسية ، مثل كتاب « التنبيه والاشراف » للمسمودي وغير ذلك .

وإليك أهم آراء هذا المستشرق بعد أن نشر الى دعوى « ريسان » الباطلة التي ستكون آراء الأستاذ « كارادى فو » بمثابة دحض لها :

الاسلام والفلسفة :

دأبت بين الاوربيين في القرن الماضي فكرة خطرة على الحقيقة والتاريخ ، مؤداها

أن الاسلام كان حراً ضرورياً على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة ، وحظر على معتقيه التأمل والنظر ، وأن العرب مدينون بالناصر الاول من أفكارهم للاغريق ، إذ أنه لم يظهر لديهم قبل عصر الترجمة شيء من التفكير .

وكان « إرنست رينان » أبرز دعاة هذه الفكرة الخاطئة ، فأفصح لها أمكنة واسعة في عدة كتب من مؤلفاته ، وأفرد لها سماً خاصاً عنوانه : « الاسلام والعلم » ، فانتشرت بسبب هذه الدعاية في جميع الأوساط الاوربية المثقفة على ما بها من عداوة للعق وافتيات على التاريخ . وقد نشرت هذه الفكرة في مصر بدون رد عليها منذ نحو ستة عشر عاماً ، فكان ذلك متاراً للجدل شغل الصحف أكثر من ثلاثة أسابيع . وها نحن أولاء اليوم نعود إليها ، ولكن للفرق بيننا وبين غيرنا هو أننا سندحضها بأدلة علمية قاطعة ، مستقاة من أصدق النظريات الفلسفية المصرية المنشئة مع المنطق المستقيم . وهالك دحض هذه الفكرة الخاطئة .

نحب أن نبداً هدم هذه المكرة بذكر رأي « البارون كارادى فو » ، باعتباره باحثاً فنياً خصص نفسه للفلسفة الاسلامية ودرسها دراسة عميقة تسمح له بأن يرى منها ما لم يره الأستاذ « رينان » ، ونبيح له أن يحكم عليها الحكم الذى له قيمته في نظر الباحثين .

على أن لهذا الأستاذ أيضاً هفوات لا نقره عليها ، وسلفت اليها نظر القارئ ، مشيرين الى مخالفتها للحقيقة . قال الأستاذ « كارادى فو » : « ليس القرآن كتاباً فلسفياً ، وليس عهد فيلسوفاً بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، ولكنه ، كسبى ، التقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فتحها حلولاً إلهامية ، مصوغة في أسلوب أدبى ، ومجموعة هذه الحلول هي التي كونت المقعدة الاسلامية ، وهي التي صارت فيما بعد نقطة محدة في النظر الفلسفى عند العرب . وإذاً ، فلم تكن المشكلة العامة عند العرب هي البحث عن الحقيقة مادام أن هذه الحقيقة قد قدمت اليهم في عدة من هذه القطع الجوهرية ، وإعما كانت هي التبدل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقيقة التي بسطت لطريقة إلهامية ، واستبدال الصورة الأدبية التي صيغت فيها بصورة تتفق مع مساهج الفلسفة القديمة ، وذلك هو ما يمكن أن يطلق عليه اسم : المشكلة المذهبية .

نعم إن بعض العقول قد أضاعت الغاية المرادة من هذه المشكلة وأخذت تعنى بالفلسفة أكثر من عنايتها بالعقيدة التي كان ينبغي أن لا تكون لفلسفة إلا منهجاً لها . بل إن هذه العقول قد استخدمت الفلسفة في تشويه العقيدة ، ولكن هذه الحركات لم تكن إلا الخطوة الثانية في تاريخ الفكر العربى ، أما الخطوة الأولى فهي حركة البحوث المذهبية .

وإذاً ، فمن المهم أن نعرض هنا المباحث العقيدية التي عنها صدرت هذه الحركة ونعت . وهذا هو الذى سنقفه حين نبسط إلهيات القرآن .

إن معرفة جد الإلهامية المباشرة له هي قبل كل شيء معرفة لإله واحد قادر . إن فكرة الوحدة الإلهية المتعارضة مع عقيدة التعدد المربية قد استولت على النبي أثناء اعتكافه في غار حراء ، أما فكرة القدرة الإلهية ، فقد أخذت تعظم في نفسه بمقدار ما كانت مقاومة العرب المجاهدين تنجسم ثم تنهزم أمام دعوته .

نفسا بدرى ماذا يقصد الأستاذ « كارادى فو » بهذه العبارة . فلذا أراد بها أن فؤاد النبي كان بزيد قوة وثباتا بقدر ما يرى من انهماك خصومه وتقهقرهم أمام دعوته فنحن نقره على ذلك . أما إذا كان يريد أن يقول : إن إلهام الوحدانية سبق إلهام القدرة إلى نفس النبي ، وإن عقيدة القدرة لم تستول على نفسه إلا بعد أن جرب أثرها في انهماك خصومه فذلك خطأ ، لأن المفطرة السليمة لا تتمثل إلها واحدا عاجزا البتة ، بل بالعكس إن أثر القدرة أظهر في الشعور الإنساني العادي من أثر الوحدانية ، إذ أن الأولى تدرك بالاحساس ، بينما تدرك الثانية بالتفكير . وقد اتفق الفلاسمة الإلهيون على أن القدرة هي أثبت دعاتم الوحدانية ، وأن أصبح أدلة الثانية هو ما أقيم على أساس الأولى ، فقال أفلاطون : إنه لو لم يكن واحدا ، لحد الشريك سلطته التي لا يثبت السكالم الذي هو أول شروط الألوهية إلا بأن تكون لاحدا لها .

والآن لنعد إلى النصوص التي كنا بصدددها . قال البارون بعد ما تقدم .

« إن وحدة الإله قد أكدت بدون برهان في نصوص القرآن كما هي في صيغة العقيدة الإسلامية : لا إله إلا الله » .

ولأننا أن أعلق على هذه الجملة بأكثر من أن ألفت نظر هذا الاستاد المستشرق ، الذي لا بد أن يكون قد قرأ القرآن مرارا ، إلى أنه ما كان يليق به أن يغفل عن مثل قول القرآن : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » . تلك الآية التي هي قصبة شرطية مارة يمكن أن تبقى على حالها ، أو أن تحول لتفتق في الرد ، إلى قصبة حملية كما كان منطقة الانغريق يفعلون . وفي كلتا الحالتين تفتج الجرم بالوحدانية ، لانتفاء المعاد الذي يفتج من التعدد بثبوت أدق أنواع النظام .

فان « البارون كارادى فو » بحوثه عن القرآن فقال : « إن هذا الإله الواحد هو إله التوراة وإله إبراهيم وهو الذي ظهر (لموسى) من خلال الهيش المنهب » وهل أتاك حديث موسى إذ رأى مارا فقال لاهله امكثوا إلى آتست فارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على البار هدى . فلما أتاه نودى باموسى إني أنا ربك ، فاخلع نعليك إلك مالواذى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا » . (١)

« إن محمدا حين أعلن أن الإله لا يلد أدان بضربة واحدة عقيدة التالوث المسيحية وبعض

عقائد شعبية أخرى مختلفة كالمقيدة التي كانت تقول بأن « إدراش » هو ابن الإله ، أو التي كانت تحاول أن ترى في الملائكة بنات للإله » ،

ولعل « البارون » يقصد « إدراش » هذا « العزيز » « وقالت اليهود عزيز بن الله » وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يصاهتون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » (١)

ثم قال البارون : « قرر محمد إذاً ، أن الإله كائن واحد مخالف للمالم مخالفة مطلقة » .

لا يخفى على من له دراية بالفلسفة أن اسمى نظريات الفلاسفة التي فرروها في الالهيات هي مخالفة الإله السكامة لكل من عداه بحيث لا يماثله أى موجود أدنى مماثلة ، وأن كل الفلاسفة الذين لهم مذاهب محترمة فيما وراء الطبيعة قد اتفقوا على أن المماثلة بين الإله وغيره منعدمة ، وأن ما في بى الانسان من سمو وإدراك ليس إلا أشعة بسيطة من قبضه على البشر ، ليستطيعوا الاتصال به لا أكثر . ثم قال الأستاذ :

« إن المواضع التي تتعلق بالقُدرة الالهية كثيرة العدد في القرآن ، وهي أكثر إسهاما من المواضع المتعلقة بالوحدانية . وقيمة هذه الآيات تظهر فيما نحتوى عليه من ثناء . إن الإله عند المسلمين كما هو عند اليهود يستدل على وجوده بقدرته ، وإن هذه القدرة نفسها واضحة ، وهي تظهر ثلاث كيفيات : الأولى في الطبيعة ، والثانية في التاريخ العام ، والثالثة في المعجزات ، وهذه المظاهر الثلاثة توراتية » (٢)

وهائذ هذه الكيفيات الثلاث :

(١) مظهر القدرة الالهية في الطبيعة .

« إن الإله الذي يراه محمد في الطبيعة هو ذلك الخالق ، ذلك الحاكم للعالم الذي كان حسيبه أن يقول في سفر التكوين : ليكون النور فكان ، والذي أمامه - كما قالت المزامير - هربت البحار ، وقفرت الجبال ، والذي تسبح بحمده السماوات والأرض والشمس والكواكب والصباب » .

هذه هي عبارة المزامير ، والآتي استمع ما قاله القرآن : « ألم تر أن الله يسبح له من السماوات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » (٣) « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » (٤)

(١) سورة التوبة . (٢) توراتية نسبة الى التوراة . (٣) سورة البقرة آية ٤٩ .

(٤) سورة البقرة آية ١٥٩ .

(٢) مظهر القدرة في التاريخ :

قال الأستاذ « كارادى فو » : « إن برهان قدرة الإله من طريق تاريخ الشعب العبرى المذكور بوفرة في التوراة التى يصلصل فيها صدى صوت الإله بدون انقطاع قائلا - أنا الذى أخرجت آباءكم من أرض مصر وفتحت البحر أمامهم وأرشدتهم بالسحاب » . والقرآن يتحد هذا البرهان نفسه ، ولكنه لا يعتمد من القوة والفصاحة المقدار الذى منحه البراهين السابقة » (أى براهين ظهور القدرة الإلهية في الطبيعة) ، إلى أن يقول - « من الممكن أن يلاحظ أن القرآن قد احتار للاستدلال على الإله أروع ما في الطبيعة وأرهب ما في التاريخ » .

كتب الأستاذ « كارادى فو » قبل هذه الجملة الأخيرة ولمدها عبارات لا تتفق مع العقيدة الإسلامية . ونحن — وإن كنا لا نعصر على الممء المستشرقين الإيمان بالاسلام فرضا — نرى أن هذه العبارات من الناحية العلمية البحتة غير مسلمة ، بل هي صميعة ، لأنها مؤسسة على المبروض والتخميمات أو على الاستنباط الخاطيء ، ولكننا آثرنا أن ننحطها الآن ، لنعود إليها حين نعرض لآراء القسم الثانى من المستشرقين ، وهى الآراء التى اصطدمت مع القرآن لسبب من الأسباب التى ذكرناها في الكلمة السابقة .

(٣) مظهر القدرة في المعجزات :

نحن نعلم أن أهم معجزات النبى هى معجزة القرآن ، ولا تكلف الأستاذ « كارادى فو » الإيمان بهذه العقيدة ، ولكننا نكتفى منه في هذا المقام بتلك الملاحظة القيمة التى سجلها في العبارة الآتية : « إن القرآن قد أبان حيدا الشروط التى يجب أن نصير البرهان المؤسس على المعجزة منتجا ، إذ اشترط وجود الاستعداد القلبي لتصدق المعجزة عند الذين يشاهدونها فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عنهم كل شىء قلنا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (١) .

من هذا البحث الوجيز الذى قدمه إلينا الأستاذ « كارادى فو » عن القرآن ، ومن النصوص القرآنية التى أشركا إليها آتفا يقين حليا أن القرآن إلى هنا قد عرض لحس مشاكل هى من أعوص النظريات الفلسفية وأعظمها خطرا وهى : (١) الألوهية . (٢) نظرية الوحدانية . (٣) نظرية القدرة . (٤) نظرية التمره عن الإنسال . (٥) نظرية مخالفة واجب الوجود

لكل من عداه من الموجودات . وليس هذا هو كل ما عرّض له القرآن من المسائل الفلسفية بل هناك نظريات أخرى سنشير الى عرضها في الفصول الآتية . ولا أحسب بعد ذلك ان كتابا يعرض لهذه المشاكل الفلسفية المتقدمة ويكلف معتقيه بالنظر فيها يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر وحارب النظر ، ولكنه الجهل أو الغرض هو الذي يجسد بصاحبه دأماً عن الصراط المستقيم . « يتبع »

الدكتور محمد محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(حجة الأبرار) إن ما نقله الأستاذ الحليل الدكتور غلاب عن كارادى فو يشعر بأن هذا المؤلف متشيع بقول حصوم الاسلام إنه منقول عن اليهودية ، وهذا باطل كل البطلان ، فإن في القرآن من مناقضة اليهودية ما لا يوجد في كتاب غيره . والعقيدة بالله لم تبتكرها التوراة ولكنها كانت شائعة بين البشر حتى قبل ميلاد ابراهيم ، والكلام في الألوهية قديم ، ولكن العبارة بالتبريه التي نحاط بها هذه العقيدة حتى لا يقع صاحبها في التشبيه الذي لا يفرق عن الوثنية في شيء ، وهي من مميزات الاسلام دون سواه . والتوراة من هذه الناحية حالية من التنزيه ، فقد نصت على أن الله نزل الى الأرض ، وأمسك به يعقوب ، ولم يدعه يغفل منه حتى لقبه بامرائيل . ونصت على أنه تدم على خلق آدم ، وأنه بكى الخ . ولكن القرآن أتى من هذه الناحية بالتنزيه المطلق الذي لم يسقه اليه كتاب . فقال : « ليس كمنه شيء » « لا تدركه الأبصار » .

أما قول المسيو كارادى فو إن القرآن أتى بالثنوحيدي ولم يقم عليه دليلاً ، فهذا دليل على أنه لم يقرأ القرآن قراءة تدبر . ألم ير قوله تعالى : « وما كان معه من إله إذا نذهب كل إله بما خلق » ، وهذا أقوى برهان على الوحدانية يمكن أن يتصوره العقل البشرى ؟

أما قوله إن الاسلام اضطهد الفكر وحارب النظر ، فلا أدري من أين استدل كارادى فو عليه ؟ هل قال الاسلام لأحد (اعتقد وأنت أعمى) ، كما اتهم به الأوروبيون كنيستهم ؟ لو كان ما قاله كارادى فو صحيحاً لأقام الاسلام سلطة تراقب الاختلافات المذهبية ، ولعللت ما عملته محاكم التفتيش في أوروبا ، ولما كان للمسلمين غير مذهب واحد ، ولما أخذ المسلمون العلم الطبيعي والفلسفة عن الأجانب ، ولما برعوا فيها حتى بزوا أهلها ، ولما نقلوا جميع الآراء الفلسفية ، والنظريات العلمية الى لغتهم ، واشتغلوا بها علناً في مدارسهم ، وفيها كثير مما يناقض ظاهر ألفاظ الكتاب حتى اضطروا لتأويلها جرياً على أصول الاسلام نفسه . ألم يبلغ المسيو كارادى فو أن المسلمين هم الذين بذلوا جهود الجبارة في استخراج الكتب العلمية وترجمتها بعد أن قضت الأديان الأخرى بكفر من ينظر فيها ؟ فهل يُتهم الدين الذي يسمح لأهله بكل هذا بأنه يضطهد الفكر ويحارب النظر ؟

التجديد في الاسلام

— ٢ —

(١) ما حديث التجديد، وماذا قال العلماء فيه ؟ (٢ ما معنى)
التجديد في الدين ؟ (٣) لماذا يكون التجديد على رأس كل
مائة سنة ؟ (٤) ماذا قال بعض العلماء في تفسير حديث
التجديد ؟

١ — ما حديث التجديد، وما أقوال العلماء فيه ؟

١ — « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يحدد لها دينها » .
هذا هو حديث التجديد في الدين ، وقد اتفق الحفاظ من المتقدمين والمتأخرين ، على أنه
حديث صحيح ، رواه كل راو معتبر ، وكل حبر حافظ للأحاديث والآثار ، عن أبي هريرة
رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومن نص على صحته من المتقدمين الحاكم
في المستدرک ، والبيهقي في المدخل ، ومن المتأخرين . الحافظ العراقي ، والحافظ ابن حجر .
وقال الزبيدي في شرحه للإحياء : إن هذا الحديث هو الذي استنبط منه العلماء التجديد .

٢ — وقال العلامة المحدث الدهلوي : « إن تفسير هذا الحديث في حديث آخر ، وهو
قوله صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ،
وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » اه ، فإن الناس لما اختلفوا في الدين ، وأفسدوا
في الأرض ، قرع ذلك باب جود الحق ، فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأراد بذلك إقامة
الملة الموجهة ، ثم لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، صارت تلك العناية بعينها متوجهة إلى
حفظ علمه ورشده فيما بينهم ، فأورثت فيهم إلهامات وتقريرات ، ففي حظيرة القدس داهية
لإقامة الهداية فيهم ، ما لم تقم الساعة ، فوجب لذلك أن يكون فيهم لا محالة أمة قائمة بأمر الله
تعالى ، وأن لا يجمعوا على الضلالة بأمرهم ، وأن يحفظ القرآن فيهم ، وأوجب اختلاف
استعدادهم أن يلحق بما عندهم مع ذلك شيء من التغير ، فانتظرت العناية لناس مستعدين
قضى لهم بالتنويه ، فأورثت في قلوبهم الرغبة في العلم ، ونفى تحريف الغالين . وهو إشارة
إلى التشدد والتمسك ، وانتحال المبطلين : وهو إشارة إلى خلط ملة بأخرى ، وتأويل الجاهلين .
وهو إشارة إلى التهاون ، وترك المأمور به بتأويل ضعيف » .

٢ — ما معنى التجديد في الدين ؟

(أ) لم يترك الله تعالى شريعته تدرس وتنظم وتذهب كلها طال عليها الزمن ، أو كما ابتعدت عن المصدر الأول ، تكرار المصور ، وصر الدهور ، بل حاطها بموامل البقاء والاستمرار والدوام والصلاحية لكل زمان ومكان الى ما شاء الله ؛ من هذه الموامل أنه تعالى يقيض لها من العلماء الأعلام من يجددونها على رأس كل مائة سنة

(ب) ظاهر كلام العلماء أن المراد بالتجديد هو استنباط الأحكام المناسبة للزمان والمكان من نصوص القرآن الكريم ، وإشاراته ، واقتضائه ، ودلالاته ، ومن أدلة الشرع الأخرى ، والقيام بأعباء الحوادث والنوارل ، ورد المنشآت الى المحكمات ، وإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ، والأمر بمقتضاها ، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة ، وتأييد الدين وتمضيده وتشييد أركانه ، ونشر أحكامه بمزيد الإيقان والإحكام ، ودفع المسكاره عن الناس ، ونصر الحق وهله ، وحمل ما فيه نفع الأمة : كالتدريس ، والوعظ والإرشاد ، وتقويم الأخلاق ، ونشر الفضائل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصر السنة ، وقمع البدعة ، الى غير ذلك مما يجمل كلمة الله هي العليا ، وشريعته هي المعمول عليها ، والمعمول بها دون غيرها .

٣ — لماذا يكون التجديد على رأس كل مائة سنة ؟

(أ) صرح العلماء بأن التجديد إنما يكون على رأس كل مائة سنة لكونه مظنة انحرام علماء المائة غالبا ، واندراس السنن ، وظهور البدع والمذعن ، فيحتاج حينئذ الى تجديد الدين ، فيأتي الله من الخلف ، بموض من السلف ، وبهذا تبقى للشرعة جديتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

(ب) وصرحوا أيضا بأن البعث على رأس القرن : أي أوله ، ليس قيدا ، بل ذكره للغالب ، وللاقتداء بالحديث الشريف ، ولقدفع نوم حلول أول القرن الثاني عن المحدد ، فإذا أفرغت المائة الأولى — مثلا — كان في أول المائة التالية من يجدد أمر الدين ، وإنما كان البعث على رأس القرن ليس قيدا ، لأن عمر بن عبد العزيز كان أول المجددين ، بإجماع العلماء ، ومع ذلك لم يوجد في أول القرن ، فقد ولد في سنة ٦٢ هـ وتوفي في سنة ١٠١ هـ .

(ج) كما صرحوا بأنه قد يكون في أثناء المائة من هو موصوف بالتجديد ، بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن ، وكذا قيل بتعدد المجددين ، المقيمين للرجوع على تعضيد الدين ، كما سيأتي من ذلك إن شاء الله تعالى في مقال آخر ما يشئ ويكفي .

(د) واختلصوا في رأس المائة المذكور في الحديث الشريف ؛ فقال العلامة المساوي : يحتمل أن يكون من المولود النبوي ، أو البعثة ، أو الهجرة ، أو الوفاة . وصرح الامام ابن السبكي وغيره : بأن المراد اعتبار القرن من الهجرة النبوية الشريفة . وقال الامام الجلال السيوطي :

المراد ما يؤرخ بها في مدة المائة ، ورجح بعض العلماء أن رأس المائة يعتبر من البعثة النبوية الشريفة لأن منها ابتداء هذا الدين القويم ، ولكل وجهة هو موليها .

(هـ) والسنة والعام مترادفان ، وقيل بينهما مصوم مطلق ، لأن العام من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، والسنة من أي يوم في أي شهر إلى أن يأتي مثله ؛ فكل عام سنة ، ولا عكس .

٤ — ماذا قال بعض العلماء في تفسير حديث التجديد ؟

قال بعض العلماء بمسألة حديث : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . قال هذا البعض بمسألة هذا الحديث : بدئت بعمر ، وختمت بعمر ؛ يريد بدئت بعمر بن عبد العزيز ، محمد القرن الأول ، وختمت بشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ، مجتهد عصره ، وعالم المائة الثامنة المحررة ومجددها ؛ فإنه كان له ترجيحات في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه خلافاً ما رجحه النووي ، وله اختيارات خارجة عن المذهب كإفتائه بجواز إخراج القود في الزكاة ، وله تصنيف في الفقه ، والتفسير ، والحديث ، منها : حواشي لروضة ، وشرح البخاري ، وشرح الترمذي ، وحواشي الشكاشبي ؛ وكان أحق الناس في أهل زمانه بالتجديد وقد توفي في سنة ٨٠٥ هـ ثمانمائة — على رأس القرن .

ولكن القول بأنها بدئت بعمر ، وختمت بعمر ، لا يلائم منطوق هذا الحديث الشريف فاذ منطوقه يؤذن بالتجديد في كل عصر ، وينبئ تناوب دول المجددين في كل قرن أبداً الأبد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فلا يصح هذا القول إلا إذا حمل على أنه لا يوجد بعد عمر البلقيني مثله ، وأن المجددين الخلف ، لا يصلون إلى درجة السلف مثلاً . ولا شك في أن مرتبة التجديد كرامة الاجتهاد متفاوتة ؛ فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن الإمام شمس الدين الرملي المصري ، الشهير (بالشافعي الصغير) ، مجدد القرن العاشر ، ووقع الاتحاق على المباينة في مدحه ، وأنه يحيي السنة ، وسمدة الفقهاء في الآفاق ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي ، وهو أحد الذين أخذوا عنه :

فضائله عند الزمان فن يطق ليحوى معشار الذي فيه من فضل
فقل لنبي رام إحصاء فضله تربت استرح من جهدهم ذلك الرمل

وعلى الجملة . فمنطوق هذا الحديث الشريف يفيد التجديد في كل عصر ، وبدل على أن المجددين دول ، وأنهم يتناوبون التجديد في كل زمان إلى أن يأتي أمر الله . والقول بأنها بدئت بعمر وختمت بعمر يتنافى مع منطوق هذا الحديث ، ولا يتلاقى معه إلا إذا حمل على ما ذكرناه ؟

السيد عفيفي

عمر بن عبد العزيز

— ١ —

نسبه ومولده :

بينما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتفقد حال رعيته ذات ليلة ومعه أسلم ، إذ أعيأ فانسكا على جدار دار ، فسمع جارية تقول لا بنتها : قومي فامدق اللبن بالماء ، فأبت فقالت لها : يا أمتاه أما علمت بما كان من عرمة أمير المؤمنين اليوم ؟ فقالت : وما كان من عزمته يا بسية ؟ قالت : إنه أمر صادية فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء . فقالت لها : يا بنتاه قومي فامدق اللبن بالماء فإنك عوصح لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر . فقالت الصبية لأمها : يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملاء ، وأعصيه في الخلا ! وعمر يسمع كل ذلك ، فقال : يا أسلم علم الساب واعرف الموضع . ثم مضى في عسسه ، فلما أصبح قال عمر : يا أسلم امض الى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها ؟ وهل لهما من بعل ؟ فذهب أسلم الى ذلك الموضع فاذا الجارية أيم لا لعل لها ، وإذا تيك أمها ، وليس لهما رجل . فأخبر عمر بذلك ، فدعا أولاده الثلاثة . عبد الله ، وعبد الرحمن ، وعاصم ، وقال لهم : هل منكم من يحتاج الى امرأة أزوجه ؟ فقال الأولان : إنا متزوجان ولا حاجة لنا بذلك ، وقال عاصم : يا أبتاه لازوجة لي فزوجني . فبعث الى الحارية فزوجها من انه عاصم ، فولدت بنتا سميت أم عاصم ، ولما ترعرت وأراد عبد العزيز ابن مروان أن يتخير لنطفته تمسكا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » . فقال لقبه : اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالى فاني أريد الزواج من أهل بيت لهم صلاح وتقوى . فذهب الى أم عاصم ونهى بها ، فأتت عمر بن عبد العزيز سنة ٦٣ هجرية .

طلبه للعلم :

إن غصنا كعمر بن عبد العزيز قد نبت من شعرة مباركة طيبة تتصل من قرب بالناروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، غلبت أن تتوق نفسه الى العلم وهو غلام ، فبعث به أبوه الى المدينة ليتأدب بها على عبيد الله بن عبد الله ، في رقابة صالح بن كيسان ، فأقرمه المشاورة على العمل والصلاة ، فأبطل يوماً عن الصلاة ، فقال له : ما حبسك عنها ؟ قال : كانت مرجلتى تسكن شعري ، فأنيبه على ذلك ، وكتب الى أبيه ، فبعث اليه رسولاً لم يكلمه حتى حلق شعره .

فأكب على الدرس والتحصيل حتى جمع القرآن وهو غلام صغير ، وتعلم من العلم طيبه ونفيه ، واصطحب خيار الناس فسمى نجيب بن أمية .

لما أسندت إليه الخلافة :

لم يفت عمر بن عبد العزيز أن يتأسى بقول الله تعالى « وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » لجمع العلماء ، وسألهم الموعدة ، وأنصت إليها وحمل بها ، منهم محمد بن كعب ، وسالم بن عبد الله ، ورجاء بن حيوة ، وقال لهم : إني ابتليت بالخلافة فأشيروا علي ، فقال له سالم : إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم عندك ولدا ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، ونحى عن ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

ولقد وصف له العدل محمد بن كعب بعد سؤاله عنه فقال : يا عمر سألت عن أمر حسن ، كن لصغير المسلمين أبا ، وللكبيرهم ابنا ، وللعمل منهم أخا ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن لفضلك سوطا واحدا ، فتتعدى ، فتكون عند الله من العادين ، ولا تصحب من الأصحاب من خطر لك عنده على قدر قضاء حاجته ، فإذا انقطعت حاجته انقطعت أسباب مودته ، واصحب من الأصحاب ذا العلي في الخيرة ، والآفة في الحق ، يملك على نفسك ، ويكفك مؤنته .

ولايته

ولما علم الوليد بن عبد الملك عن عمر بن عبد العزيز أنه عالم وورع حتى شديد في الحق ، ولا تأخذه فيه لومة لائم ، عينه واليا على المدينة ، فجعل من فقهاء مجلسا للشورى والمصالحات ، وحثهم على نصره الحق والدين ، وأن يكونوا له عونا وألا يكتموا عليه سرا ، حتى لا يأخذ الناس بغير جرم . وصار يحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله ، ويعمل على إعزاز الصفاء وإعانة الفقراء ، ولا ينفذ للخليعة أمرا إلا ما كان فيه طاعة الله ورسوله ، ولا يحب أن يأخذ بالشدّة ولا يؤخذ بها ، فألطا ذات يوم عن الخروج لعمله فقال الوليد لحاجبه : ويحك ما بال عمر لم يخرج إلى عمله حتى الآن ! فقال الحاجب : زعم أن له إليك ثلاث حوائج ، فاستحضره وقال له : ما بالك قد تأخرت ؟ فقال عمر : إليك استعمات من كان قبلي وأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل الظلم والجور والعدوان . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا لا درهما واحدا .

جرائته في الحق :

نشأ عمر بن عبد العزيز على الشجاعة وقول الحق ، لا تأخذه فيه لومة لائم ، ولم يبال فيه بكبير أو عظيم ، فعارض الخلفاء في أعمالهم ، وجابههم بالحق ، وتألب على ما كانوا يفعلون ، فدخل يوما على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فخاءه إنسان يطلب ميراثا لبعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إحال النساء يرثن في العقار شيئا . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : بأغلام اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب فيه ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف . قال أيوب : والله ليوشكن الرجل يتكلم مثل هذا عبد أمير المؤمنين ثم لا يشعر أن يفارقه رأسه ، فرد عليه عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك شئ مما خشيت أن يصيبهم من هذا ؟ فقال سليمان لأيوب : مه ألابي حنص تقول ذلك ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حللنا عنه !

ولم تكن هذه أول حادثة جابه فيها العظماء بالحق ونصر كتاب الله وسنة رسوله على مذاهب أهل البدع والتحريف الذين كانوا يركبون الشطط فيها ، تاركين الكتاب والسنة وراءهم ظهريا ، بل وقف حياته كلها على قول الحق والحكم بين الناس بالقسط المستقيم ، وصدد نزغات الحكام وتذكيرهم بعيوبهم ، فخرج مع سليمان بن عبد الملك سنة فلما أضرعا على عقبة عسكان نظر سليمان إلى عسكريه فأعجبه ما رأى من حجره وأبنيته ، فقال : كيف ترى ما هاهنا يا عمر ؟ قال : أرى دنيا يأكل بعضها بدضا أنت المستول عنها والمأخوذ بها .

ولما راوده الوليد بن عبد الملك على خلع سليمان قال له : يا أمير المؤمنين إما بإيمنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلمه ونتركك .

ورحل هذه صفاته وتلك خصاله الجدير بالتقدير والاعجاب . محمد مصطفى شادي

البلاغة في الاستجداء

كتب أبو العيناء المشهور بالأدب والاجوبة المكتبة في القرن الثالث إلى أبي الوليد يستعديه :

« مسنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الود والفكر ، فان لم تعطنا قلنا من يلزمك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »

وأبو العيناء سئل عنه محمد بن مكرم فقال : من رعم أن عبد الحميد اكتب من أبي العيناء إذا أحسن بكرم ، أو شرع في طمع فقد ظلم .

نصائح

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ علماء الاسكندرية نصائح قيمة في الأدب النفسى والدينى والاجتماعى نشرها على طلبية معهده ، رأينا أن نسجلها لفصيلته شاكرين جهاده الكريم فى تكوين نفسية طلبته على هذه الصورة الحكيمة ليتخرجوا علماء نافعين لا تقسمهم وأمتهم ، وهى :

أقدم من أعماق قلبى هذه النصائح الغالية لأبنائى طلبة المعهد مؤملاً أن يحفظوها وأن يحرصوا عليها ، وأن يأخذوا تقوسهم بها ، فإن فعلوا — وذلك طناً فيهم — أفلحوا وكافوا من المهتدين إن شاء الله تعالى .

أبى بنى :

١ — ليكن شعارك دائماً : حب الله ، وحب المليك ، وحب الوطن .

٢ — التزم طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم طاعة الأستاذ ، وخذ عنه العلم مستنصحا مسترشداً ، واعلم أن جعود الأستاذ والتجهم له والعبث بين يديه أذى أثراً وأضرار عاقبة من حقوق الابن لأبيه ، وأخلق عن كان ذلك شأنه ، أن ينقطع عن ربه ويفشل فى طاب العلم الذى هاجر فى سيبله ، وترك الأهل والأعرة والراحة من أجله .

٣ — لا تقصر نفسك على تحصيل دروس المنهاج الذى تدرسه ، بل تزود ما استطعت من علوم الحياة والاجتماع ، وتصلح من الثقافة بكل جديد نافع ، لتكون عضواً هاملاً فى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولتؤدى رسالتك على صورة مثالية كاملة .

٤ - ليكن حرصك على طلب العلم الذى أنت بسبيله شديداً وقوياً ، وليكن حرصك على العمل بما تعلم أشد وأقوى ، فإن العلم بلا عمل ، كالشجر بلا ثمر .

٥ — لا تجعل طلب العلم وسيلة للمادة وحطام الدنيا ، فإن ذلك تحقير للعلم ، وإزدراء بأفضل مكتسب ، وأعرض مقتنى ، بل اطلب العلم للعلم ، واطلبه لأنه لذة للعقل ، ومتعة للنفس وذخيرة للحياة المعنوية ، وثق بأن المادة تأتى بعد ذلك طواعية واختياراً ، وثق بأن الدنيا تطلبك وتستمتع بها حللاً طيباً بغير كفاة ولا صغار .

٦ — اعرف لنفسك منزلتها فى الوجود كطالب علم ودين ، وثق بأنها فوق منازل

الكبراء والحكام فصفا بزيئة العلم ، وجمال الأدب ، ووقار الدين ، واسم بها عن منازل المضمورين المتعتمدين .

٧ — أغنى الغنى القساسة ، وأفقر الفقر الطمع ، ولكن التمناعة في طلب المجد خود في النفس ، وجود في القربة ، والطمع فيه والمفاخرة من أحله كمال لها ، وفضيلة محدودة .

٨ — حزماء الرجال وأكياسهم يمثلون لأنفسهم غايل السكال وصحات الفضيلة لرياسة نفوسهم عليها والأخذ بأسبابها ، فخذ لنفسك مثالا من عطاءه الأيام وأبطال التاريخ واجعل أفعالهم قدوة لك تترسمها في كل ما تعترمه من عمل جليل .

٩ — عود نفسك الإيثار ، ومواساة العفاة والمعوزين ، فإنك إن أتقت عانيا هالكا فذلك خير لك من الدنيا بمخذاقيرها .

١٠ — بلضا أنه كان من سلها الصالح من يؤثر العزلة ويلتزم خويزة نفسه وبلغنا أن الكبراء والحكام كانوا يتفقدونه ويلتمسون لقاءه فلا يكادون يظفرون بذلك .

هذه الحالة كانت فضيلة في زمانهم ، لأن الدين كان سائدا بين الأقوام ، وكان سلطانه يملأ القلوب رهة وجلالا ، أما وقد أصبح الدين غريبا في بلاده فالعزلة حدود ومأثرة ، وصار الجهاد في سبيله والنجاح عن شعاره واحا حتميا في عنق كل عالم ومتعلم في حكمة ورفق .

١١ — اعلوا أنكم في مدينة كبيرة يقطنها كثير من الأحانب وعلية القوم ، فاحرصوا الحرس كله على مظاهر السكال والاحتشام في كل مكان : في الدرس ، وفي الطريق ، وفي كل مجتمع عام ، ولا يرى الناس فيكم ما يشين طالب العلم ويتنافى مع خلق رحل الدين .

١٢ — لاتهمل محنتك ، وحافظ على جسمك من الترهل والحدود ، وأعطه قسطه من العلاج والرياسة البدنية ، فإن العقل السليم ، في الجسم السليم ، شيخ علماء الاسكندرية

محمد أبو الصبور

كم نجا الادب صاحبه

تقم طلحة بن حمير بن المتوكل المسمون بالموفق على هرون ابن عبد الملك . فأمر بإحصاره إليه ، فلما وقف بين يديه ، أنشده من شعره على البديهة :

يا بني هاشم بن عبد مناف لكم حادث' العلى والتقديم

ليس عندي وإن تغيرت إلا طاعة محبة وقلب سليم

وانتظار الرضا فإن رضى السا دات عز وعنتهم تقويم

فأعجب ببديته وعفا عنه وأمر له بمجازة .

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

الدين غريزة عقلية

نشرنا في العدد الماضي المقدمة والاصل الأول لهذا المطلق الديني واليوم نورد الاصل الثاني منه .

الأصل الثاني :

الدين غريزة عقلية موهوبة لا مكتسبة :

لم ير المتقبون في أساطير الأمم أمة مجردة من الدين ، إذا فهم الدين بمعناه الساذج المنشأ في البساطة ، ولكن إذا فهم بتوابعه من عبادات وكهنة وهياكل ، فرموا الخدع الباحث بعدم وجود تلك التوابع فظن أن بعض الجماعات تعيش بغير دين . وقد خطأ كبار العلماء هؤلاء الباحثين في اعتمادهم على الظواهر ، وقرروا عدم وجود مجتمع يتخلو من الدين على أية حالة من الحالات ، حتى الجماعات اللاتي كانت عائشة في عصر الحجر . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ روسكوف من جامعة فيينا ، وماكس مولر من ألمانيا ، وهربرت سبنسر وتيلر من إنجلترا ، وغيرهم ، وقد فندوا جميعهم قول المنكرين بالحجج الدامغة .

على أنه مما لا خلاف فيه أن الجماعات البشرية الأولية كافة قد طبقت على القول بوجود قوة شاملة فوق العالم المادي هي مصدر كل خلق وإبداع ، تعد كل كائن بالقوى والوسائل الضرورية له لحفظ شخصه ووعه . ويمكن استمداد الحول منها بالتوجه إليها واحداث أمور خارقة للمادة . وقد سماها بعض هذه الجماعات (مانا) وبعضها (وا كان) وغيرهم (وشورنجا) و (أورندا) الخ على حسب اختلاف اللغات ولكن معناها عند الكافة واحد .

قال العلامة (ماكس مولر) الألماني في كتابه (أصل الدين وتطوره) :

(Origine et développement de la religion) :

« المانا في اعتقاد البولنديين ترينا كيف ظهرت ، عند أحط الأجاس البشرية على صورة مبهم وقامصة ، فكرة اللانهاية وغير المرئي ، أو كما يحينه فيما بعد بالالهي . وقد كتب المستر (كودرنجتون) وهو مبعض مجرب ولاهوتي مفكر ، كتب من نورفولك (الولايات المتحدة) في سنة ١٨٧٧ يقول :

« إن ديانة الميلانيزيين (بالاقيانوسية) تتألف من الاعتقاد بأن وراء هذا العالم قدرة فوق الطبيعة غير مرئية ، وعبادتهم لها تنحصر في اتخاذ الوسائل للاستعداد منها لمصلحتهم .
وقال العلامة (ج . ن . ب هويت) (Hewitt) عند كلامه عن هذه القدرة عند الايروكيين وهم هود أمريكا الساكنون في الجنوب الشرقي من بحيرتي أريه وأونتاريو الآن .
قال في مقالاته : (أورندا وتعريف الدين) المنشورة في مجلة (الانثروبولوجيست) الأمريكية ، والأورندا هي إلها في لغة الايروكيين ، قال :

« هي قدرة خفية ينصورها الانسان المتوحش ملازمة لكل الاجسام المكونة للبيئة التي يعيش فيها . . . فهي ملازمة للصخور وللغياض وللأعشاب والأشجار والحيوانات وللناس وللرياح وللزواجر ، الخ .
ويعتبر العقل الساذج للانسان هذه القدرة السبب المولد لجميع الظواهر الطبيعية ،
ولكل مظاهر النشاط التي تحدث حوله » .

نقول : إن الذي قرره العلماء أن القول بوجود هذه القدرة العليا عام لدى الجماعات الأولية كافة . قال العلامة (س . دوفيسم) في كتابه تاريخ الروحية التجريبية . (Histore du Spiritualisme Experimental)

« إن ما نجب معرفته والتنبه له هو أن هذه العقيدة تكاد تكون عامة بين جميع الجماعات الأولية ، والأرجح أنها تمهما جميعا دون استثناء ، حتى لدى الذين لا يميل أن يكون قد حدث بينهم وبين غيرهم اتصال » .

ولكن الذي أوقع العلماء في الحيرة ، وجود هذه العقيدة على الدرجة العليا من التنزيه عند الشعوب الأولية ، وهي درجة لا تسمح لها عقولهم القاصرة التي لا ترتفع كثيرا عن العقلية الحيوانية . قال الأستاذ مارسيل هاريت من أساتذة جامعة بروكسل الحرة في كتابه (الإلهي) (Le Divin) صفحة ٢٥٥

« إن في تصور المتوحشين وجود قدرة روحية عامة وغير متحيزة ما يوجب لنا شيئا من الارتباك العقلي والحيرة . ومع هذا فقد ثبت بثبوتنا قاطعا أن الجماعات الساذجة تقول بهذه العقيدة وتميش فيها . ويجب علينا أن نلاحظ هنا أن هذه العقيدة الآن يصاحبها عقيدة في وجود الأرواح الشريرة » .

نقول : ولكن الأمر الذي حير العلماء وأدهشهم أكثر من هذا هو أن عقيدة المتوحشين هذه هي القول المعنى الذي هدى إليه العلماء في الزمان الأخير . قال الأستاذ (فان جنيب) في مجلة (ميركور دو فرانس) صفحة ٤٩٣ من مجلد سنة ١٩٢٤ :

« قد نهت منذ زمان طويل ، عند ذكر خرافات وأساطير استراليا ، كيف أن عقيدة الماسا التي هي أساس كل ديانة عند المتوحشين ، لا تتفرق إلا من ناحية درختها عن الأصل العلمي الراجح المسمى بالقوة الوجودية العامة » .

نقول إن هذا من المخطورة - كان عظيم ، فإن في ثبوت انتهاء العلم في تحسسه من علل الوجود ، إلى قول لا يفترق عما كانت تقول به الجماعات الساذجة من المتوحشين ، ولا تزال تدّين به جماعاتهم إلى اليوم ، إلى جانب ما كدسته من خيالاتها في خلال العصور ، يعتبر بحق أمراً جالاً يوجب التفكير .

قال العلامة (س . دويسم) في كتابه (تاريخ الروحية التحريضية) الذي تقدم ذكره في صفحة ١٩٦ عند الماهمه بهذه العقيدة :

« بناء على ما تقدم نقول أنه مما يوجب الفخار العظيم أن نحصل أن العلم الحديث قد وصل إلى ما يقرب من عقيدة الماسا التي نشأ عليها النوع الانساني » انتهى .

أدلة الغريزية العقلية في هذه العقيدة الأولى :

مما لا يمكن التسليم به ، أن تتنازع جميع الجماعات الأولى منذ نشوئها ، على القول بعقيدة تعتبر اليوم غاية ما وصل إليه العلم من تعليل الوجود .

نعم بها عقيدة ساذجة ولكنها ساذجة تنزه لا ساذجة جهالة ، وهي لا تفترق من عقيدة أرق فيلسوف في القدرة العليا التي أوجدت الوجود ، والفيلسوف يرى أن تلك القدرة مصدر كل خلق وابداع ، وأنها علة كل حركة وسكون في عالم الكون والفساد . فإن راد على الأولين فيها قال : أنها أزلية أبدية ، لا تتأني معرفة كتبها بالحواس ولا بالعقل ، محيط بكل شيء ، يصدر منها كل كائن وينتهي إليها ولا يخفى أن هذه كلها محسمات لمظية اقتضاها التمسك في التحقيق ، ولكن كل ما يمكن أن يقال من هذا القبيل لا يريد على عقيدة الأولين شيئاً . فهم إن كانوا لا يذكرون الأزلية والأبدية ، والشمول والاحاطة ، والبدائية والنهاية ، فلا أنهم لم يشعروا في أنفسهم باعتراك الشكوك ، ونزاع الشبهات ، فلم يصطروا لإحاطة عقيدتهم بالتحوطات الكلامية ضدها .

والقول بأن هذه العقيدة غريزية في العقل لا ينافي العلم الرسمي في شيء ، فإنه يمد من مميزات الغريزة أنها تكون عامة في النوع ، ولا ينحصر عليها من طريق التفكير وهذا ينطبق على ما نحن بصده من هذه العقيدة .

فأما كونها عامة ، فقد أثبتناه لك من طريق العلم نفسه ، فقد قرر كما رأيت هنا ، أنها موجودة

حتى لدى الجماعات التي لا يمثل حدوث اتصال بينها في حين من الاحيان ، وأنها وجدت في كل زمان الى أبعد ما وصل اليه علم الانسان .

وأما كونها لم تحصل عليها من طريق التفكير ، فما لا يمكن التمازى فيه ، فان الافكار ، وبخاصة الساذجة منها ، إذا اتجهت لتعجيل الوجود ، فلا يتصور أن تقع على معقول واحد . يعتبر غاية في السمو والتزبه ، يفصح العلم نفسه بأنه انتهى اليه في عهده الأخير .

وأية غرابة في كون هذه العقيدة غريزية في النوع الانساني ، وقد قُذِفَ به الى هذه الأرض حاصل على غرائز عقلية كثيرة لولاها هلك بعد وجوده بأيام معدودة ؟

ألم يتمتع الانسان بحظ كبير من الأصول العقلية التي أصبحت فيما بعد أساسا لعلم المنطق ، كلمه بعدم اجتماع القيصين ، وبأن الشيء الواحد لا يوجد في مكانين الخ ، ولو كنا ووجدنا في عهد الاسلاف الأول رأيا أنه قد اشأ منحيا بغرائز عقلية أخرى ضرورية لحياته مما لا يمكنه تحصيلها بمجهوده الذاتية إلا بعد أمد بعيد .

على أن من لم يشأ أن يقول بغريزية تلك العقيدة ، وجب عليه أن يدعى بأنها ثمرة تأمل الانسان في الوجود وهو خالي القلب من جميع الصور الذهنية ، لأن التحليل العلمي أثبت أن هذه العقيدة سبقت جميع الخيالات الوثنية ، والخزعبلات الميتولوجية . وهذه الثمرة التأملية في عمومها وبساطتها وتجردها من الخزعبلات المتكررة ، تقتضي أن يكون العقل بحكم تكوينه الطبيعي مضطرا للوصول إليها ، والفرق بين الحالتين يكاد لا يذكر ، فسواء أفطر الانسان على أن يدرك بهذه العقيدة بحكم الغريزة العقلية ، أم تأدى عقله إليها لأول تأمله في الوجود ، وقبل تلوه ناية صورة ذهنية ميتولوجية ، فان الأمر يرجع في كلتا الحالتين الى الفطرة الانسانية . وكل ما بين الرأيين من الفرق يحصر في أن هذه العقيدة لم يحددها الانسان مطبوعة في نفسه بدون تأمل ، وإنما وصل اليها بعد أن تتطلب علة الوجود في أول عهده بالحياة فوحدها بدون كلفة .

تطبيق هذا الأصل على الاسلام :

إن من الآيات التي يجب أن تبهر الآلالباب في هذا الدين ، أنه سبق العلم في هذه الباحية بحو ثلاثة عشر قرنا . في الوقت الذي كان يتوارى النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا (أي حائدا عن العقائد الباطلة) ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، كان الناس لا يعرفون من أمرار الفطرة الدينية شيئا ، ولا يتحيلون أن يحجب بها وحى من السماء قبل أن يهتدى إليها العلم بنحو ثلاثة عشر قرنا .

إن هذه الآية صريحة في أن الدين الحق فطرة في النفس تهتدى اليه بدون كلفة ، ككل

ما هو فطرى فيها ، وإنه عام في جميع أفراد النوع البشرى . ومن المحيى أن هذا التصريح مدبل بقوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وهو حق ، فإنه لا يعلم هذا الاكتشاف إلا أفراد ممن وقفوا أنفهم لتلقف فتوحات العلم .

والذى يقرأ قوله تعالى عن الدين الفطرى على بساطته : « ذلك الدين القيم » ، ويكون مطلما على ما انتهى اليه العقل العلمى فى العهد الأخير ، يحزم بأن إدراكا بشريا لا يستطيع أن يصدر هذا الحكم قبل وجود دواحيه بنحو ثلاثة عشر قرنا . فإن أى عالم يعند برأيه اليوم لا يستطيع أن يحتمل عقله غير مؤدى هذا الدين الفطرى ، الذى اكتشف أنه كان دين الجماعات الأولى من عهدا الأقدم الى اليوم .

لا حرم أن هذا الأمر من أعظم المعمرات العلمية فى القرآن الكريم ، وآيتها محكمة لا تقبل التأويل ، وقد زادها النبي صلى الله عليه وسلم إيضا فقال : « كل مولود يولد على الفطرة (أى على الديانة الحقة) ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى يحولون فطرته عن صراطها ، تلقين المولود لعليات مما تواضعوا عليه وليس من الديانة الصحيحة فى شىء .

وقد بنى الله على هذه الحقيقة أن الناس كانوا فى أول أمرهم أمة واحدة على هذه الديانة الفطرية ثم اختلفوا ، فقال : « وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاحفظوا » . وبين فى آية أخرى سبب الخلاف فقال : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » . ومضاهى كان الناس أمة واحدة متفقين على الدين الفطرى (كما ثبت علميا) ، فاحفظوا ، فبعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، فحدث بينهم اختلاف فى الكتاب نفسه ، وما اختلف فيه إلا الذين أعطوه بغيا بينهم ، أى حسدا أو ظلما ، فمكسوا الأمر فأصبح ما أنزل لإزالة الخلاف سببا فى استحكامه ، فهدى الله المسلمين للحق بإزالة القرآن إليهم ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

لو كشف هذا الأمر على هذا النحو لذين اكتشفوا الديانة الانسانية العامة ، التى كانت تدين بها البشرية فى أيام سذاحتها الأولى ، خالصة من الخزعبلات التى انشأها الأفسكار البشرية فيما بعد وقد سبها ، متانة لأوامها وأهوائها ، فدهش أولئك العلماء ، ولما كان دهشهم حافزا لهم على التنقيب فى مكنونات القرآن فى مجالات أخرى . ولا نشك فى أن هذا سيكون ، وزجوا أن يكون قريبا ؟

محمد فريد ومجدي

كنز الفاطميين المفقود

لعلك أيها القارئ لا تذهب بخيالك بعيداً إذا سمعت كثيراً ، وتعلق أمام مخيلتك بريق النفضة اللامعة والذهب المتوهج ، وإنما الكثر الذي أقدم أمامك عنه فكرة في هذه العجالة هو ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي باني القاهرة ومشيد مسجدها العظيم الأزهر المعمور . وديوان الأمير تميم هو كما قدمت إليك كثر حافل بالشعر الغزير ، والسظم المؤثر البليغ ، والقوافي الرقيقة ، والمعاني الأحادية ، والحكم الجذابة ، والأحيلة الرائعة ، والصور الجميلة التي يتجلى فيها النفس والانتكار ، وتبدو الطبيعة من خلالها في قالب يملك على القارئ له وتفكيره وتصوره . ديوان الأمير تميم يكشف صحيفة مجهولة من سجل التاريخ الأدبي بوجه عام ، والحياة الفاطمية بوجه خاص . ومن حقنا أن نقول إن الأمير تيميا سيطلمنا على وجوه كثيرة من الحقائق ، ويمطى المؤرخ حياة جديدة في آراء هذا العصر ومذاهبه وأفكاره ، وإن كان استخلاصها من الشعر يبدو صعباً في أول الأمر ، خصوصاً عند من يجهل تاريخ الفاطميين ومذهبهم . ولكيك على كل حال سترى صورة واضحة للدعوة الفاطمية وتفسيرها الصحيح .

وفي هذا الديوان ما في غيره من الدواوين من ملوح وغزل ، ووصف وتشبيب ، وفيه زهد ونصح ورد على بعض الآراء . ولمصر خاصة أعظم نصيب من هذا الديوان ، فهو يطلنا على كثير من أعيادها ومواسمها ، ويتحدث عن بعض مواطن القاهرة وأدبائها وبركتها ، ومنزلاتها وحدائقها الفناء ، وقصورها الشاغرة الباذخة ، فهو شاعر مصري ، وللأدب المصري فيه حياة جديدة نأن يناولها بالبحث والتنقيب من يهيمه تناول الأدب المصري وتعرف شخصيته الممتازة الواضحة . إنك لترى الإمارة في ديوان تميم وقد تجلت في عزة نفسه واعتداده بمقداره ومكانته من أبيه وأخيه الملسكين ، ففيه ترى كيف يتكلم الأمراء إذا أرادوا صياغة الشعر وصناعته .

ولتيم شخصية تبدو لك في كثير من نواحي قصائده ، فهو خفيف الروح ، رقيق الخائب ، جميل اللفظ ، وهو فوق ذلك كله صريح إلى أبعد حد في الصراحة والوضوح . وقد ترى أحياناً في معانيه حمماً وبُعداً ، وقد تلمس الفكاهة المصرية ولا سيما في غزله الفحشى الرقيق ، وقد يخلق بهذا الغزل في أفق سام من المعاني البحرية في عبارة تقع من السامع موقع رنين الميزهر ، ويريك فيها ابتسامة الأزهار ونضارة الأغصان .

على أنى إذا وصفت تيميا وبلغت به هذه القمة من السمو فإني لا أبرئته من التكلف

والاعتساف أحيانا ، فإنه كان في بعض أوقاته يعتمد القصاص ويرسل فيها القريب من اللغة ومن الوصف . ولعل ما حمله على ذلك هو الادلال بعلمه والتنويه بمكانته من اللغة والدراية بفريها ، ولعله كان يريد أن يقول لقراءه . لا تفرنكم منى ركة الفاظي ومهولة أسلوبى فإنى أستطيع أن أخطبكم بما لا تعلمون ، وأتلو عليكم لا تدركون .

عندما تقرأ قصيدة في الصحراء ترى نفسك قد انتقلت من مصر الى مقراى الببءاء من جزيرة العرب ، وأنتك تسمع أصحاب المعلقات يجولون بك بين الرسوم الدارسة ، ولها مامه الخاوية ، ويصفون لك ظباءها وأطلاءها ، وسباعها وأوعالها . وإعما عمد تميم الى هذا اللون من الكلام قصداً الى أن يعرف له الخويون والعلماء قدرا . كما أنه قد يسحف بالشعر أحيانا فيرسله في أسط الوجوه وأقل الغايات ، فإذا أراد أن يستمير كتابا من صديق ، أو يرسل إليه بعض الأرهار استخدم الشعر ليترجم عن غرضه وإن كان غرضه هينا يسيراً . وهو في هذا كبعض الأندلسيين الذين انتشرت بين ربوعهم لغة الشعر والنظم ، فأصبحوا يتعدنون عن جميع مطالبهم ، وما ربههم وعن أصغر حاجاتهم وأيسر أمورهم بلسان الشعر ، حتى كاد الشعر عندهم يصبح أمراً ناوليا . ففي هذا النوع يقل افئسانه ويتوسط بياه ، ولكبك تلمس فيه عبقرية الفئسان ، وسحر الشاعر ، وقلم المصور عندما تحفظه نوازع الشوق ، وفوارع الآلام ، وأدواف العتاب ، فأنتملك شعره السهل الممتنع ، وتلمس روحه الجياشة تأدبع المعاني وأحدث التصورات .

استطعننا أن نصل الى هذا الديوان بعد جهد غير يسير وعناء قل أن يحتمل ، فلقد كان شعر تميم جوهرا مكشونا في قصر الفاطميين ، وحمل فيما حمل من خزانات الكتب الى جبال اليمن بعد ضعف دولتهم وزوح كبار من رجالهم فراراً من سطوة الأيوبيين الذين كانوا يحسبون لها ألف حساب ، وقد استطاع هذا الديوان أن يسحو من الإحراق الذي أصاب خزانة الفاطميين . ونقى في جبال اليمن معتصبا بمكائها البعيد عن تناول العصف والمدوان الى أن رافق النقية من الفاطميين الى بلاد الهند منذ خمسمائة سنة ، وكانت أجزاؤه مشتتة بين النسخ الخطية التي اختلفت فيها الروايات الى أن يسر الله لنا التطواف بين المراكز الفاطمية من بلاد الهند ، واستطعننا أن نتمر على نسخ مختلفة ، فاستخلصنا من مجلتها هذا الديوان الوحيد ، وهو خلاصة من سبع نسخ مختلفة قديمة وحديثة ، لتقدمه في أعظم مناسبة هي العيد الأتلى للأزهر والقاهرة . فالشاعر من صميم الأسرة التي شيدت أقدم جامعة في العالم وأعظم مدينة في الشرق . ونحى إذ تقدم هذا الشعر إعما تقدم صورة من إخلاصا وآية من حبنا لمصر ، وزد إليها كترا من كسوزها ، وحق الأمانة أن ترد لأهلها . وقبل أن تقدم هذا الديوان تقدم الى قراء مجلة الأهر طائفة كبيرة من مختلف أبوابه آملين أن نجد القرصة لإتمام بقية كتابه .

فما قال في الزهد :

أفريت دهر — رك تسقى فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الرحمن فيما أنت واکب
لأمنت من نار الجحيم وفي الحياة من السوائت
إن لم تراقب من له حكمك عليك فن تراقب
ومما قال في وفاء أبيه المعز لدين الله :

كيف لا نندم الجسوم القلوبا ترى نضرة الوحوه شحوبا
من يمرى الجياد أم من يسلى مجلس الملك والسيرو الكنيا
فقدوا بمدك القلوب اللواتى شقها واجب فشقوا الجيوبا
والمعزاه والمعزاه حتى يغشى الدمع بالدماء خضيا
فلينق غيرى الحياة غائى لا أرى للحياة بمدك طيبا

ومما قال في وقت حمل الشمسية لبيت الله الحرام :

يا حبذا دهرك الزلال إذا أمر دهر وعصرك الشئب
وحذا القصة التي نصت بقصر عنها المديح والخطب
فأبست العبد وهي حلتها وأخفت اليوم وهو منتصب
ينهب يا قوتها العيون فما بكل إلا من حيث ينهب
دائرة أهدفت بفرتها أهلة لا تنجها السحب
كأما رصمت مناقبك الفرس عليها وأفرغ الحبس
حتى على الشمس طول نقتها منها وذات الحياة تفتب
وقد أراها ولا مدام بها فكيف قالوا لدرتها الحبس
نظمتها للمدى ولبنته وإن سخط الكواكب المرب
في كد المسجد الحرام بها شوق ولبيت نحوها طرب
ولا تمشى بأهله زمن إلا بما تفتنى وترغب

الأمير يقتصر على بنى العباس :

أقرتوا لنا يا آل عباس بالعمى فلمن لها يا آل عباس أكسبا
سبقناكم للدين والمهرة التي تأخر عنها جدكم ومحجبا
وكنتم بنى عم النبي محمد وكسا بنيه وهو كان لنا أبا
وليس بنو أمصاه في دنوكم كثل بليه خبطة وتفتبا

ولو لم تكن إلا بنى العمّ مثلكم
وما يستوى العيان هذا مقرب
نبا جدّكم عن نصره يوم بعثه

ومما قال في الوصف :

مضمورة تفعل بالبيداء
قطعه مشيع المـوياه
قطع نجوم اليـل للظلماء
أصبح قـدأى ما ورائى
نذيب حرّاً هامة الحـرياء
حتى ترى العين لدى الرضاء
والضبة لا يبدو من الدأماء
أسير في ديمومة جرداء
حتى وصلت الصبح بالمشاء

وقال في الغزل :

إن يحجبوا وصلها لنا حبوا
بعيدة الدار وهى دانية
في ناظر القلب شخص مرءاها
أمارت الراح لوف وجنتها
فالحر لو لم تكن كقتلتها
سقتنى الراح وهى خداهها
تخالها الشمس فى تلاءوها
ولست أروى من الأمور بما
من اصطفاى بوده فله

وقال في المدح :

سعى وطال النجوم مبتدأ
نفس كأن السماء مسكنها
لم يسع الدهر حين حل به
لو أمه من عفاته أحد

بهمة يستقل مسعاها
وهمة كالزمان أذناها
صغرى علاه فكيف كبراه
يقول هب لى علاك أعطاه

ليس بناس لوعده وإذا
فن يطعمه يفز بطاعته
مجدك يستغرق الثناء ولو
ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن رشيقي :

أصبح وأقوى ما سمعناه في الندى
أحاديث يرويها السيول عن الحيا
من الخير المأثور منذ قديم
عن البحر عن كف الأمير نعيم

محمد حسن الأعظمي

المتخصص بالدراسة الفاطمية

بين العفو والمؤاخذاة

لا مشاحة في أن العفو من شيم الكرام ، والمتخلق به جدير بأن يعتبر من كبار القلوب ،
ولكن إذا كان العفو يرفع من قدر صاحبه فهل يفيد المعفو عنه أدبا يردعه عن معاودة
جرمه ؟

يرى الحكماء أنه يفيد الفطر الطيبة ، ويزيد الجلات السيئة سوءا فقالوا : العفو يفسد
من الشيم بقدر ما يصلح من الكرم .

وقالوا : جنب كرامتك اللثام فإني أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن أسأوا لم يستغفروا .
وقالوا : اللثام إلى ركبوت ، أحوج منهم إلى ركبوت .

وقال أبو الطيب المنهجي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندي في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندي

ويسب إلى الامام على كرم الله وجهه ، ونحن لا نرجح ذلك ، وتنبه هنا باعتبار أنه قيل
وهو حسن في هذا الباب :

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني
ولي فرس للخير بلخير ملحم
فإن شاء تقوى غاني مقوم
وما كنت أرى الجهل جدا ولا أبا
إني قال بعض الناس فيه ساجدة
إلى الجهل في بعض الأحيان أحوج
ولي فرس قشر بالشعر مسرج
ومن شاء تمويجي فاني معوج
ولكنني أروى به حين أخرج
لقد صنفوا والتل بالحر أصح

الجامعة والمقيدة

الحياة العقلية والأزهر

نحت العنوان الأول كتب الأستاذ السوادى فى جريدة البلاغ (٩ صفر سنة ١٣٥٨ - ٣٠ مارس سنة ١٩٣٩) ، وناقش فى كتابته السؤال الآتى : هل الجامعة مطالبة بحماية المقيدة والدفاع عنها ؟ ، وعلل جوابه السلبى الذى صممه صريحاً بقوله : « الجامعات لا يدخل ضمن اختصاصها حماية العقائد والدفاع عنها ، بل تقوم على أساس واحد إذا اهار اهارت ممه حكمة وجودها ، ووجب حتماً إغلاقها أو جعلها مدارس طالية تخرج موظفين أو مدرسين أو فنيين . وهذا الأساس هو (حرية الرأى) » . ثم اعترض على الأزهر فى تدخله فى حادث كتاب جان دارك باسم القيمة الدينية بينما يدرس المذهب الابيقورى فى كلية من كلياته .

ونحن الصوان الثانى كتب الأستاذ توفيق الحكيم رداً على ما وصل الى سمعه عن طريق الاشاعة الصحفية من أن الامام المراغى وجه نظر وزارة المعارف لما ورد فى مؤلف الأستاذ « يوميات نائب فى الأقاليم » ، من عبارات تمس كرامة طائفة من طوائف الأمة المحترمة ، وهى هيئة القضاة الشرعيين . وقد ذكر ضمن ما كتبه : « وقد آن الأوان لواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخله — شيخ الأزهر — المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن تدبر الخطر الذى يهدد (حرية الكتابة) ، وحركة التأليف ، ونهضة العلوم ، إذا سيطر على الحياة العقلية فى هذا البلد العصرى يمثل هذه الروح . فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تسجك فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والتفوق . . فلا شك عندى أن مستقبل مصر كله متوقف على ضمان (حرية العقول) والأفكار الحرة الضرورية لكل نهضة حقيقية » .

إن الذى يقرأ ما كتبه الأستاذ السوادى ، ثم ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم ، ويقرأ أيضاً ما كتبه غيرهما عن يدعون لأنفسهم رطامة الأدب أو النهضة الفكرية ، يجد كل ما كتب -- ويكتب -- يدور حول فكرة واحدة : حرية الرأى . وما يفهم من حرية الرأى حسبما يوحى به إليهم خيالهم ، أو حسبما يفرضونه هم من أنفسهم ، هو كما يفهم من كلمة « الديمقراطية » فى الشعوب الشرقية ، أو من كلمة « التحديد » أو من كلمة « الجامعيين » أو « البحث الجامعى » فى مصر .

فتجاوز العادات ، وتجاوز قواعد الأمة الخلقية وأحرمت الغير ، وإلزام القارئ باعتقاد

ما يبشر من آرائهم — وإن عبرت عن خيال سقيم، أو غرور نفسي، يدفع بهم في كثير من الأحيان إلى التفاضل عن الواقع — حرية في الرأي، حرية في التفكير، حرية في الكتابة والتأليف، إلى غير ذلك من الألفاظ الجوفاء التي لم تحدد معانيها بمد تحديدًا واضحًا لشدة ما طغى عليها من طابع الدعاية والإعلان.

كما أن طلب الانصاف في الكتابة، ورعاية حرمة الجامعة وما يسيطر فيها من قانون حلقي أو معتقدات دينية، أو طلب منح القارئ الفرصة لمناقشة ما يكتب وعدم الحجر عليه في استعماله حقه من «حرية الرأي»، ينبت في عرفهم بالتدخل في شئون البحث الحر، البحث الجامعي، ويوصف بأن فيه «هدرا لحرية العقول والأفكار الحرة الضرورية لسبيل نهضة حقيقية».

الاستاذ السوادى، كالأستاذ توفيق الحكيم وغيرهما من «دعاة حرية الرأي»، كما تدور فكرة كل منهما حول هذا «الحق المقدس» ولمهضوم في مصر، للانسانية، بسلك في إقناع الشعب أو إقناع الجزء الذي يعرف القراءة منه مسلوكا يظن — في نظرهم — أنه مسلم الإيمان به من القارئ، وهو: الغرب ونهضته وحوادث ثوراته. فأوربا قد فصلت سلطة الكنيسة عن الدولة، فجب أن تفصل «سلطة» الأزهر عن حكومة مصر المدنية، وى كبر دمج واكسford تناقض العقيدة، فلماذا يتدخل الأزهر المحافظ في حرية البحث الجامعي إذا ما تعرض للعقيدة؟

الامر يدور بين شيئين: إما استمرار الأزهر في سلطته مع الرضا شأخ نهضة الأمة «الحقيقية»، وإما كبح جماحه كي تثمر هذه النهضة الفتية، بما تدعله في الشئون الجامعة وبالأخص في أساس الجامعة وهو حرية الرأي مع الرضى نتجويلها إلى مدارس عليا تخرج موظفين، وإما صده إلى حد معلوم كي تؤدي الجامعة رسالتها من خدمة العلم والانسانية. هذا هو منطق «دعاة التجديد» وإن اختلفوا في التعبير.

ولكن من الذي تآمر من غير هؤلاء مهمة الأزهر في حياته المجيدة التي كلها نغز للشرق الاسلامي سلطان الكنيسة في القرون الوسطى؟ ومن الذي حدد لنا أن جامعة كمبرج أو أكسفورد تضع أمام طلابها للنقاش وأمام بحثها العلني كتابا أو كتابا تطفئ في المسيح من مؤلف شرقي أو غربي؟

إن الأزهر لا يطلب سلطان الكنيسة في القرون الوسطى، ولم يطلبه يوما ما، وإنما يؤدي مهمته الروحية، فوق مهمته العلمية، وهي المحافظة على الأمة وعلى شبابها المتقنين، ليس فقط في منعه من التهجم على دينها بل في ضمان الندين به. وشيخ الأزهر، الامام المراغى، لا يجد

من حرية البحث الجامعي إذا ما حاول أن يزرع الأمة - وبالأخص شبابها - من تحكم فئة تدعى لنفسها من الانقلاب الثقافية مانشاء ، مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمي فيه . إن العقيدة هي الأساس الأول في نهضات الأمم ، لأنها كفيلة بتعميد الشعب الطاعة لقيادته الصالحة . وكما أن الكفاية ركن جوهرى في إنتاج قيادة الشعب ، كذلك طاعته المبنية على العاطفة الدينية ، لا على التشريع الوضعى ، شرط أولى ليمان هذا الانتاج . وإن من يحاول إفساد العاطفة الدينية في شبيبة لم تلق من مبادئ الدين شيئا - كشباب الجامعة - بالتشكيك في معتقدات الأمة باسم البحث الجامعى ، لم يحاول خسب أن يبنى نهضة الأمة على غير أساس ، بل هو يحاول أيضا أن يضع نقاش البحث الجامعى على غير أصل . وهل ذلك هو العمل لنهضة الأمة والحرم على إنتاج البحث الجامعى ؟

حددوا الألفاظ أولا قبل استخدامها ، وصعدوا المقارنة في نهضات الأمم على أسس صحيحة وتخلوا قبل كل شيء عن عقيدة « وحب تقليد الغرب » ، تصدقكم الأمة ، أو من يعرف القراءة فيها ، أنكم تقاد باحثون بغية الانتاج ، وأنكم أحرار في الرأى لم تصلوا الى نتائج بحكم عن تعصب لبدأ وتشيع لفكرة . أما التلاعب بالألفاظ فشأن المغرر المعلن عن نفسه ، وأما الايمان أولا بوجوب تقليد الغرب ، في خيره وشره . ثم الزام القارئ بنتائج ما يسمى والبحث المبنى على هذا الايمان ، فذلك هو هدم حرية التفكير والنحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة في القرون الوسطى .

وأما أنت أيها الأستاذ السوادى فكنت أود لك أن لا تتبع في مذهب أبيقور ما يشيع على لسان « الموظف » أو « المدرس » أو « الفنان » بل ما يحب أن يدرسه « الباحث الجامعى » ويحققه .

محمد البهرى

دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس

المعروف معروف

قال ابن عباس رضى الله عنه : لا يزهديك في المعروف كفر من كفره ، فانه يشكره عليه من لم تصطنعه اليه .

وقيل لعبد الله بن طاهر وكان جوادا : أتفق وأمسك ببعض الامساك . فقال : إن يمكن الكيس ، ونبل الذكر لا يجتمعان .

الزواج الاول للرسول

كيف نشأت فكره ، وتمت غايته ؟

كان لنساء مكة في الجاهلية عيد يجتمعن فيه في الكعبة ، وبيناهن مجتمعات فيه يوما ، ينممن بفرحة العيد ، ويرفلن في أثواب الابتهاج والمسرّة ، ويمرحن في مجبوحة الصفو والانس ، إذ طلع عليهن فجأة رجل يهودي ، وصاح بأعلى صوته قائلا . يا نساء مكة ، إنه يوشك أن يظهر فيكم نبي ، فأينكن استطاعت أن تكون زوجا له فلنعمل .

أخذ النسوة عند سماع هذا القول ، واستنكرت آذانهم وقوع هذا الخبر المدهش ، وارسم على وجوههن كثير من علامات الدهش والاستغراب ، وأخذ بعضهن ينظر الى بعض نظرات الاستنباء والاستطلاع ، ولما لم يجدن لمن يحلصن مما أوقعهن فيه ذلك اليهودي من الحيرة والارتباك ، لم يكن منهن إلا أن أخذن يرمينه بالحصاة ، ويقبحنه ، ويغلطن له القول .

ولكن امرأة واحدة كانت بين هذا الجمع الحاشد لم تبد حراكا ، ولم تتغير سمات وقارها ولم تقع فيما وقع فيه النسوة ، وهي وإن ظلت ساكنة على قول ذلك اليهودي ، إلا أنه لم يمرّ عندها مرور اللغو من الكلام ، بل أخذت تفكر فيه ، وتتدبر أسرارها ومراميها ، وأخذت تيارات تفكيرها تزخر وتضطعب ، وبحار آمالها تتسع وتمتد ، وجعلت من ذلك الوقت ترقب الحوادث عن كثب ، وتنتق ما يقع في صمت وهدوء وكتان .



نشأ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم معروفا بين قومه وعشيرته بصديق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، وكمال المروءة ، وبأبلغ الوفاء ، ومشهودا له بالصراحة في القول ، والشجاعة في الحق ، وأبعد عن المداورة والمماراة ، ولاشتماره بينهم بهذه المصائل السامية ، واتصافه بتلك الخلال الكريمة ، صارت قريش تدعوه باسم «الأمين» وتنتح كم اليه — على صغر سنه — فيما شجر بينهم من خلاف وزاع .



كانت خديجة بنت حويلد صاحبة تجارة ، وذات مال ويسار ، وكانت تبعت رجالا من قومه يتجرون في مالها ، ويصيبون منه منافع ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما بلغها ، وعلت ما كان بينه وبين عمه أبي طالب من محاولة بشأن حثه على الذهاب الى خديجة ومخادتها في أن يخرج في مل لها تاجرا — نعمت اليه ، ففرست عليه الخروج الى الشام في تجارة لها ، وأن تعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذا العرض ، وفرح به ، وكذلك فرح به عمه أبو طالب ، وقال له : إن هذا الرزق ساقه الله اليك ثم خرج النبي الى الشام ، وخرج معه ميسرة غلام خديجة .



رجع محمد الى مكة بعد فراغه من تجارة الشام ، وأخبر ميسرة خديجة بما رآه من أحواله ، وبما شاهدته فيه من حسن التدبير ، ورجاحة العقل ، وحم النشاط ، وقوة الصبر والاحتفال ، وطلاقة الذاكرة ، وشرف النفس ، وحدثها بما سمعه من قول الراهب عنه ، وكان قد لقيه راهب في الشام ، وذكر لميسرة أنه سيكون لمحمد شأن أي شأن .

وهما رجعت خديجة بالذاكرة الى ما كان قاله ذلك اليهودي الذي خرج على الدعوة يوم اجتماع في العيد ، ورجع اليها ذلك الأثر العظيم الذي تركه كلامه في نفسها ، فردد فرحها ، وتضاعف سرورها ، وقويت آمالها ، وجعلت تنظر الى المستقبل بعين المتفائل المستبشر ، ولتطمئن خديجة على ما في نفسها ، وثقت من تحقق رجائها ، وتعرف رأي أهل الذکر فيما علمته ، وفيما أخبرها به ميسرة ، ذهبت الى ابن عمها ورقة بن نوفل — وكان قد تنع الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل — وذكرت له أمر محمد ، فقال لها : إن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدا نبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر ، هذا زمانه .

جاء كلام ورقة لخديجة ناطقا بما وفر في نفسها ، صريحا في تحديد المعاني التي ساورتها لأول وهلة عند ما رأت في أذنها صيحة ذلك اليهودي ، فمر ذلك منها المشاعر ، وفتح لها باب الأمل على مصراعيه .



أمام هذه الحوادث البارزة ، والآيات الناطقة ، ومع ما أوراده الله تعالى لخديجة من الكرامة والخير ، فكثرت كثيرا في أمر الاقتران بمحمد ، وأخذت تنمى له الأسباب ، وتقتزله الفرم ، ولم يكن الباعث لها عليه في الواقع فكرة التزوج وحسب ، كما تمكر في ذلك المرأة المادية ، كلا ، فقد كانت امرأة عاقلة حارمة شريفة ، وكانت من أعرق نساء قريش نساء ، وأكثرهن مالا ، وأحسنهن جمالا ، وكانت تدعى بينهم بالطاهرة ، كما كانت تدعى سيدة نساء قريش ، وما كان بين عشيرتها من يتأخر عن طلب يدها ، فمن غير المعقول والحالة هذه أن يدفعها الى الزواج مجرد الرغبة في الزوج ، وحب الاقتران برحل ، وإنما دفعها اليه تلك الميرة الطاهرة

والأخلاق النادرة ، والآيات الباهرة ، والمستقبل المملوء بالقصائل والمعشائم ، وهذا كله قد اجتمع له صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماذا تصنع خديجة ؟ وكيف السبيل الى مفاتحة محمد في هذا الأمر الخطير — وهي التي اشتدت عندها الرغبة ، وكثرت لديها الدواعي — امرأة لها حياة المرأة الشريفة وإياؤها ووقارها ، ولها غر حسنها ، وعراقة نسبها ، ووعرة مالها ؟ وهل يابقى عن كان في مسكناتها شرفا وجاها أن تقدم على هذا الأمر — معها كان اقتناعها به — دون أن تتخذ له من المناسبات والملابس ما يكفل لها جلالها ، ويحفظ عليها احتشامها ؟

ومع دقة هذا الموقف ووعورة مسلكه على المرأة البتيلة ، لم تعدم خديجة من الوسائل ما تجد فيه منفذا الى رغبته ، وطريقا الى طلبها ، فبمنت الى نفيسة بنت منية — وهي يومئذ من أغر صويحباتها ، وأمينه سرها — وأرسلتها الى محمد ، لتتحدث معه في أمر الزواج ، فذهبت اليه ، وكان حديثها معه فيه كياسة ولباقة ، وفيه مهارة وبراعة ، فتكلمت معه ، أولا في شأن الزواج عامة ، ثم تدرجت منه الى الحديث عن زواجه بخديجة خاصة ، وتلك سياسة رشيدة في أساليب الحديث ، لها نتيجتها ، ولها أثرها في استطلاع الرأي ، وفي معرفة الخبوء في النفس ، وتروى نفيسة هذه القصة فتقول : فقلت له يا محمد . ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما يبدى ما أتزوج به ، قلت : فإن كفت ذلك ، وذهبت الى المال والجمال والشرف والكفاءة ، ألا تحبب ؟ قال . من هي ؟ قلت : خديجة ، قال : وكيف لي بذلك ؟ قلت : بلى ، وأنا أفعل .



بعد هذه الخطوة المباركة التي تمت بسفارة نفيسة بين خديجة ومحمد ، التقت رغبتهما في الزواج وامتزجت عواطفهما ومبولهما ، وأحس كل منهما أن ما بينهما أخذ يدنو منه ويقترب ، فأكادت خديجة تعلم من نفيسة رغبة محمد فيها ، وما كادت تراه بعد ذلك حينما حصر إليها للتحدث في أمر النكاح ، حتى قالت : يا ابن عم ، إني رغبتي فيك لقراحتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ولم تقصر خديجة على هذا ، بل أرادت أن تبين له في جلاء وصراحة سبب رغبته فيه ، وسر حرصها على الزواج منه ، فأخذت بيده ، ثم قالت . بأنني أنت وأمي ، والله ما أفعل هذا لشيء ، ولكي أرحو أن تكون أنت البهي الذي سيمت ، فإن نكحه ، فأعرف حقى ومنزلى ، وادع الإله الذي سيعتلك لي ، فكان جوابه لها صلى الله عليه وسلم ، جواب الصادق الكريم والوحي الأمين ، فقال لها : والله لئن كنته ، لقد اصطنعت عندي مالا أضيعة أبدا ، وإن يكن غيري ، فإن الإله الذي تصنعين هذا من أجله ، لا يضيعك أبدا .



كان طبيعياً بعد أن انقضى شأن الخطبة أن يأتي بعده شأن عقد الزواج ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم في مهمته من بني هاشم ، ورؤساء مصر ، وبينهم عمه أبو طالب وحزبه ، فأبوا دار خديجة ، وفيها مهمتها وذووها ، وبينهم عمها عمرو بن أسد ، وابن عمها ورقة بن نوفل ، فقام أبو طالب وقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيننا محجوجاً ، وجعلنا الحكماء على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله بن أخي ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجع عليه براً وفصلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قليل ، فإن المال ظل زائل ، وطارية مسترحمة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى . . . فلما أتم أبو طالب خطبته ، تكلم بعده ورقة بن نوفل ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفصلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاتنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبت في الاتصال بجيلكم ، فاشهدوا على يامعشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله ، وذكر المهر ، ثم سكوت .

فقال أبو طالب ، قد أحببت أن يشركك معها ، فقال لها : اشهدوا على يامعشر قريش أني قد زوجت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش .



أصبح محمد وخديجة بعد إتمام العقد عروسين ، ولا بد أن يكون السرور قد ملا قلوبهما والفرح قد أقم نفوسهما ، وخصوصاً بعد رواج اشتدت الرغبة فيه ، وقوى الحرص عليه من جانب كل من العروسين ، وكان وصولهما إليه أمنية مرقوبة ، وبغية محبوبة وحققاً كان ذلك ، فقد ابتهج العروسان وذووها لهذا القران ابنهاحاً عظيماً ، وأخذت مظاهره تبدو في ألوان مختلفة ، وصور متنوعة .

فأما محمد ، فقد أولم وليمة عامة دعا إليها الناس ، وهي أول وليمة له صلى الله عليه وسلم ، وكذلك صنعت خديجة وليمة عظيمة أطمعت فيها الأقارب والأباعد .

وأما أبو طالب ، فقد فرح فرحاً شديداً ، وجعل يحمد الله على نعمائه ، ويشكر له جزيل فضله .



قضت خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها أحداً ، ولم يشركها فيه غيرها ، وانفردت به هذه المدة الطويلة التي صانها الله فيها عن مواسن الغيرة ، ومتاعب الصراع ، فدل ذلك على عظيم قدرها عنده ، ومزيد فصلها ، وعلى صادق الوفاء ، وأكيد الولاء بينهما ، ولقد كانت رضى الله عنها خير مؤازر له ومعين قبل البعثة وبعد البعثة ، فساعدته بمالها ، وكانت أول من أجاب إلى الإسلام ، ودعا إليه ، وأعان على ثبوته بالنفس والمال ،

وكان صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئاً يحزنه ، من ردة عليه ، وتكذيب له ، إلا فرّج الله عنه بخديجة ، فكان إذا رجع إليها تثبتته ، وتخفف عنه ، وتهون عليه أمر الناس ، وتسهل عليه أذامهم ، وأنهم إن قالوا فيه ما لا يليق ، فهم يعلمون أنه يرى منه ، وإنما يقولونه حسداً .

لما جاءه الوحي ، وذهب إليها ، وأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسي قالت له كلا ، والله ما يجزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فأى زوجة تصنع مع زوجها من ضروب المعاونة والمواساة والتشجيع ما صنعته خديجة رضي الله عنها مع محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وأي زوجة تبذل من الوفاء والإخلاص والأمانة والمروءة وحسن العشرة ما بذلته تلك الزوجة الوفية الكاملة لزوجها الوفي الكامل ؟ .

نستطيع أن نؤكد أن التاريخ على اتساع مداه ، ووفرة أخباره ، لم يحدثنا عن رابطة زوجية مثينة ، كذلك الرابطة الزوجية التي كانت بين محمد وخديجة .

ولذلك لما ماتت رضي الله عنها ، حزن عليها النبي حزناً شديداً ، وصحى العام الذي مات فيه هي وأبو طالب عام الحزن ، وكان كثير الذكر لها ، والثناء عليها ، حتى روى عن عائشة أنها قالت : ما غرت على أحد ما غرت على خديجة ، وقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكاد يخرج من البيت ، حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ، قد أبدلك الله خيراً منها ، ففضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقت منها الولد ، وحرمتني من غيرها ، قالت عائشة : فقلت في نفسي لا أذكرها بعدها أبداً .



هذا عرض وجيز لتاريخ ذلك الزواج النبوي الأول ، نطالع به حصرات القراء الكرام بمناسبة إقبال العام الهجري الجديد ، وحين أن يكون لما جاء فيه من خلق فاضل ، وسيرة حميدة ، وأدب رفيع ، وتعاون قوى ، وتضامن بين الزوجين أحسن قدوة للمسلمين ، وأبلغ عظة في نفوسهم ، فيستقبلوا عامهم الجديد بقلوب طاهرة بالخير ، وهم صادقون في الأخذ بمبادئ الرسول الكريم ، واتباع سنة القويمة ، والله الموفق ؟

فكرى يسى

المدرس بكلية الشريعة

الدفاع عن القرآن الكريم

باب آخر من أبواب الاتفاق

حرق سيدنا عثمان المصاحف :

ذكر أبو بكر الانباري في كتاب الردع سويد بن غفلة قال . سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والعلو في عثمان ، وقولكم : حرق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمرو بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان . اهـ

وروي ابن أبي داود معنى هذا في كتابه قال :

حدثنا عبد الله حدثنا يونس بن حبيب قال حدثنا أبو داود ، وحدثنا محمد بن أنان الجملي سمعه من علقمة بن مرثد قال : لما حرج المختار كنا هذا الحى من حصر موت أول من تسرع اليه ، فأتانا سويد بن غفلة الجملي فقال . إن لكم علي حقا وإن لكم جوارا — أو إن لكم قراءة — والله لا أحدثكم اليوم إلا شيئا سمعته من المختار . أقبلت من مكة وإني لأسير إدا فمزي غامر من خلقي ، فإدا المختار ، فقال لي يا شيخ ما بقى في قلبك من حب ذلك الرجل - يعني عليا - ؟ قلت إني أشهد الله أنني أحبه بسمى وقلبي وبصري ولساني . قال : وليكني أشهد الله أنني أنفضه بقلبي وسمى وبصري ولساني . قال قلت : أبيت والله لا تشيطا عن آل محمد وترثينا في إحراق المصاحف (أو قال حراق ، هو أحدهما يشك أبو داود) فقال سويد : والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، سمعته يقول : « يا أيها الناس لا تفلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا — أو قولوا له خيرا — والمصاحف وإحراق المصاحف ، فوالله ما فعل الله فعل في المصاحف إلا عن ملأ ما جميعا . فقال ما تقولون في هذه القراءة ، فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءة في خير من فراءتك — وهذا يكاد يكون كقراة — قلنا : فما الرأي قال : نرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف ، قلنا : فسمع ما رأيت — قال فليل أي الناس أفصح ، وأي الناس أقرأ ؟ قالوا أفصح الناس سعيد بن العاص ، وأقرأهم زيد بن ثابت . فقال : ليكتب أحدهما ويعلى الآخر . ففعلوا . وجمع الناس على مصحف . قال قال علي « والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل » (ومن طريق آخر) عن سويد بن غفلة يقول سمعت عليا يقول : « رحم الله عثمان . لو وليته لفعلت ما فعل في المصاحف » .

حدثنا أبو الربيع قال أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن تكبرا حدثه أن ناسا كانوا بالعراق يسأل أحدهم عن الآلة ، فإذا قال فاني أكفر بهذا ، ففشا ذلك في الناس ، واختلفوا في القرآن ، فكلهم عثمان بن عفان في ذلك ، فأمر بجمع المصاحف وأحرقها ، ثم بثها في الأجناد — يعني الذي كتب — اهـ

فهذا يدل صراحة على أن روايات ابن أبي داود فيها يخص إحراق المصاحف موافقة تمام الموافقة لما رواه أهل السنة في ذلك .

ومما اتفق فيه ابن أبي داود وكتب السنة . روايات عن سيدنا حذيفة تذكر هدا بعضها مع العلم بأنها في صحيح البخاري ومسلم قال :

حدثنا عبد الله قال حدثنا نشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فرج أرمينية (قال أبو بكر يعني المرج النحر) وأذريبعان مع أهل العراق ، قرأى حذيفة اختلافهم في القرآن ، فقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلى بالصحف تنسخها في المصاحف ثم ردها إليك ، فأرسلت حفصة إلى عثمان بالصحف ، فأرسل عثمان إلى زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن الزبير أن انسخوا الصحف في المصاحف ، وقال للرهبان القريشيين الثلاثة ما اختلفتم ثم وزيد بن ثابت ما كتبوه بلسان قريش ، فإنه نزل بلسانهم حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، تمت عثمان إلى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا وأمر نسوي ذلك في صحيفة أو مصحف أن يحرق ، (وقال غيره يخرق) . ثم قال بعد أسطر تخص رواية زيد بن ثابت : قال الزهري . واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوت ، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال : اكتسوه التابوت فإنه بلسان قريش — وروى هذه الرواية نفسها عن أنس . غير أن فيها اختلافا يسيرا . في قول سيدنا عثمان رضي الله عنه إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت ما كتبوه بلسان قريش في هذه الرواية : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في عربية من عربيات القرآن ما كتبوه الخ — وفي آخرها زيادة : فذاك زمان حرق المصاحف في العراق بالنار — اهـ ثم ذكر العلامة ابن أبي داود في هذا الموضع روايات كثيرة لا تخرج مما تقدم في المعنى — ونحن لا نرى نقلها جميعا هنا فإن ذلك كثير لا تحتمله مقالات وضعاها الرد .

ومما اتفق فيه ابن أبي داود وكتب السنة حبر قول الله عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا » الآية قال : أخبرنا القاضي أبو الفصّل الأرموي قراءة عليه وأنا أسمع : حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن المسعدة المعدل قال أخبرنا أبو عمرو عثمان بن محمد المعروف بابن الأدي . قال حدثنا

أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي قال حدثنا أبو سلمة بن شبيب ومحمد بن يحيى قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال : لما كتبت المصاحف فقدت آية كنت أجمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتها عند خزيمية بن ثابت الأنصاري « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه — إلى قوله تبديلا ». وكان خزيمية يدعى ذا الشهادتين ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته لشهادة رجلين . قال الزهري وقتل مع علي رضي الله عنه يوم صفين — ثم ذكر رواية أخرى عن زيد بن ثابت لا تخرج مما تقدم في المعنى — وترجم بعد ذلك لآية أخرى فقال :

وقال حدثنا عبد الله قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا هارون بن معروف حدثنا محمد ابن سلمة قال أخبرنا ابن اسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمية بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم — إلى قوله رب العرش العظيم » . أبي عمر فقال : من معك على هذا ؟ قال : لا أدري والله ، إلا أتى أشهد أتى معتمدا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما . فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجمعتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فالحقوها فيها . فالحقتهما في آخر براءة . وبسنده عن أبي العالبيه عن أبي بن كعب : أنهم جمعوا القرآن من مصحف أبي فكان رجال يكتبون بحسب ما يسمعون من أبي بن كعب فلبسوا آياتها إلى الآية التي في سورة براءة : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ، فثبتوا أن هذه الآية آخر ما أنزل الله تعالى . من القرآن . فقال أبي بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقراني بعد هذا آيتين . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم — إلى آخر السورة » . قال : فهذا آخر ما نزل من القرآن قال : فحتم الأمر بما فتح الله به بلا إله إلا الله . يقول الله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . وبسنده عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأتنا به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان قتل وهو يجمع ذلك ، فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شهيدان ، فجاء خزيمية بن ثابت فقال : إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما . قال : وما هما قال تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم — إلى آخر السورة » . قال عثمان : وأنا أشهد أنهما من عند

الله فإين ترى أن تجعلهما ؟ قال : أختمهما آخر ما نزل من القرآن . اهـ ما رواه ابن أبي داود — وقد تقدمت هذه الروايات معظمها بالنسب وهو المروى عن سيدنا زيد بن ثابت ، وبعضها باللفظ أخرى — وهي التي نقلناها عن البخاري ومسلم والترمذي في موضوع جمع القرآن . فإين أبي داود في هذه الروايات موافق تمام الموافقة للبخاري ومسلم والترمذي . وأرى هنا أن أنقل رواية (مسلم) في قرآن سورة الانفال بسورة التوبة ، ثم أنقل رواية ابن أبي داود في هذا الباب فستجدونها هي بالنسب :

في مسلم ما نصه : ومن سورة التوبة ، حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وابن أبي عدي ، وسهل بن يوسف قالوا : حدثنا عوف بن أبي جميلة حدثنا يزيد الفارسي حدثنا ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عدتم إلى الانفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني فقرتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووصعتموهما في السبع الطوال ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وإذا نزلت عليه الآية فيقول ضموها هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الانفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرئت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، فوصعتهما في السبع الطوال . اهـ ما رواه مسلم .

وقال ابن أبي داود :

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وابن أبي عدي ، وسهل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبي جميلة حدثنا يزيد الفارسي حدثنا ابن عباس قال : قلت لعثمان الخ وساق الرواية بنصها .

وأريد أن أنهي الكلام إلى هنا على الموافقات ، فانها كثيرة في كتاب ابن أبي داود . مثل حكم السفر بالمصاحف إلى أرض الكفار ، وتعليق المصاحف ، والمصحف يحمل في المقدمة واستبدال المصحف بالمصحف ، وبيع المصحف وشراؤه ، والاحتساب في كتابة المصاحف ، وتناول الأجر على كتابتها وغير ذلك ، مما يوافق كتب السنة وأحكام الفقه الاسلامي مما لو شغلنا به ومقارناته لطال الكلام ، ونخرجنا قليلا عن أصل موضوعه ، وإنما المهم هو بيان المخالفات ، أو ما يظن أنه منها ، وبيان الشبه في ذلك والرد عليها — وهذا ما سنشتغل به الآن وسقدم بين يدي ذلك الاسس التي ستبنى ردنا عليها — وعلى الله الاعتماد .

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

مما تواضع عليه علماء الفروع — أن العقار هو الأرض سواء أكان عليها بناء أم لا فيدخل في وقف العقار بطريق النسخ من غير تخصيص عليه كل ما يدخل في بيعة وإجارته وهذا هو الضابط الشامل والذي وضعه الفقهاء لإلحاق ما لم ينص عليه بما نص عليه في حكم الوقف .

نقل صاحب العناوى الهندية أن الواقف إذا وقف أرضاً مملوكة له دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه إذا كان الشجر من نوع يمكث في الأرض لأكثر من عام بحيث إنه يصنع موقوفاً تبعاً لوقف ذلك العقار وإن لم ينص عليه الواقف في إظهاره وعلى الجملة فإن الواقف إذا وقف ضيعته لحق بها في الوقف ما كان متصلاً ببقائها واستمرارها وسبباً من أسباب نفعها وتأبدها كرحى الماء والدوايب والآلات البخارية التي توصل إليها الماء — ويتفرع على ذلك الاتجاه تقريب آخر وهو أنه لا يلحق بالأرض الموقوفة ما بها من زرع وقت وقفها وهو مالا يمكث في الأرض لأكثر من سنة كالقمح والشعير والقطن سواء كان ذلك الموجود قيمياً أم غير قيمي . ويدخل في ذلك الثمر الموجود على الشجر وقت الوقف سواء أكان مما يؤكل كالعنب والبرقوق أو لا يؤكل كالورد والياسمين بل يبقى كل ذلك ملكاً للواقف دون الخلق بالأرض الموقوفة .

وحكم النصارى على أحد رأيين حكم المواشي والمحارث والنوارج وما إليها من المقولات المستعملة في الزراعة وليست متصلة بالأرض اتصال ثبات وقرار — لكن نقل العلامة صاحب البدائع وصاحب الأسعاف أن الواقف إذا ذكر هذه الأشياء في إظهار وقفه — وقع وقفها عند الصالحين صحيحاً فعند أبي يوسف لأن المواشي والمحارث والنوارج وما إليها تابعة للأرض في نماء ثروتها واستبانت غلتها وإعدادها للتداول بين الناس واستثمارها والانتفاع بها . وقد يصح من الأحكام تبعاً ما لا يصح قصداً وهذا أولى وحوه التبعية لما تقدم وعند محمد رضى الله عنه لأن مذهبه يجزئ وقف المنقول استقلالاً فأولى أن يجزئ تبعاً للعقار إذا كان من مقوماته وسبباً أولياً في إصلاحه وإعداده للاستغلال والانتفاع اهـ .

فاذا تقادم العهد بها وأصبحت غير صالحة لتداولها فيها أعدت له بيعت واشترى بشئها ما يسد كفاية الدين الموقوفة على نمط سابقتها فلم يكن ثمنها كافياً للوفاء بأعدادها كملت من غلة الوقف بحيث تصبح قادرة على أداء مهمتها حتى ولو لم يشترط الواقف ذلك لتحقيق ضرورة وجودها كجزء غير منفصل عنها واستثنى العلماء من ذلك نوماً آخر وهو ما إذا جعلت الأرض

مقبرة فلا يدخل فيها الشجر والبناء ولا موصفهما بل يكون ذلك ملكا للواقف ولورثته من بعده ذلك لأن موضع الشجر والبناء يوم الوقف كان مشغولا بهما فلا يمكن وقف تلك الأرض المشغولة ضرورة أنها غير صالحة لوقفها والوقف إنما يقع صحيحا إذا تحققت شرائط صحته .

غير أن العلماء بعد ذلك حكوا عن أبي حنيفة أنه منع الوقف في المنقول سواء كان الوقف له استقلالاً أو تابعا للمعار في بعض صورته السابقة وسواء جرى العرف بوقفه أم لا وحنة أبي حنيفة في المانع أن الشرط في الوقف أن يكون الموقوف متابدا للبقاء والمنقول لا تابديه وذلك يجري منه مجرى القياس في القياس أخذ أبو حنيفة ونحوه صاحبان نحو وقوع الوقف وجوازه وصحته في المنقول تبعا واستقلالاً فأما تبعا فقد مر عن أبي يوسف ومحمد رضي الله عنهما تجويزه تبعا للأرض الموقوفة في المواشي والمحارث والنواحي وما إليها .

وأما استقلالاً فلو ورد النص بوقوعه في السلاح والكرام فقد وقف خالد بن الوليد رضي الله عنه دروا له في سبيل الله وحبس طلحة رضي الله عنه سلاحه وكرامه في سبيل الله وحين علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أجازه إجازة مطلقة . فسدن الصالحين في ذلك التجويز النص والنص مما يترك به القياس كما لا يخفى على المطلعين .

وإذا وقف الواقف كتباً على طلبة العلم وعين لها مكاناً خاصاً وضعها فيه فلكل طالب علم أن ينتفع بها فقيراً كان أو غنياً ، لكن إذا شرط الواقف ألا يخرج كتبه من ذلك المكان صح شرطه واتباع . أما إذا سكت فقد تردد بعضهم في جواز النقل . فنقل العلامة صاحب كتاب أنفع الوسائل عدم جواز النقل ، ونقل الزيلعي جوازها . وفصل صاحب ملتقى الأبحر فقال إذا أمن النقل جار ولا منع فإن شرط واقف الكتب ألا تعار كتبه إلا بتذكرة صح شرطه واتباع ، وحكى صاحب الدر المختار لو شرط الواقف ألا يخرج كتبه إلا برهن وقع شرطه باطلاً إذا أريد بالرهن مدلوله الشرعي لأنها في يد المستعير أمانة والرهن بالأمانات باطل .

أما إذا قدم المستعير رهناً على قصد أن يكون ضامناً للكتب المستعارة كأن تكون معدومة الظاهر أو قيمة القيمة أو مشرفة على لفء فلا خطر فيه لأنه يكون رهناً لغوياً لا شرعياً ، فإذا جهل قصد الواقف في اشتراط الرهن حمل على الرهن القوي لا على الرهن الفقهي ووجه القول أن شروط الواقفين قد تكون في بعض الأحيان مضافة لمصلحة الوقف أو لمصلحة المستعيرين أو لا تكون مضافة ، ومن هذه الناحية كغيرها جعل الإشراف للولاية القضائية ، فلفاضى تحديد مرامى الواقف وتبيين أغراضه بل له أن يلغى بعض الشروط التي قد يشترطها الواقف مضافة لما بدا في عصر من العصور أن إلغاء إحدى على الوقف من إنقائه

مبلى طه
الحامى الشرعى

الآراء العالمية عن الإسلام والمسلمين

المسلمون أصبحوا مثلاً أعلى للوحدة الدينية

— — —

يخس أن نورد هنا ملخص ماورد لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراعى شيخ الجامع الأزهر من جناب القس (كرستيان أنطون ا . جوب) من غرابدوقية لوكسمبورغ المستقلة ، وهى تحده شرقاً بألمانيا وغرباً بفرنسا ، فان فى هذا الكتاب وما أرفقه به من مقال نشره باللغة الألمانية تنفا تدخل فى باب الآراء العالمية .
فما ورد فى كتابه قوله :

يؤسفنى ما وصل اليه الموقف السياسى العالمى فى الوقت الحاضر ، وهو مطابق لما تنبأتم به حينما أخبرتكم مما أبذله من الجهود فى سبيل السلام ، وفى سبيل دوام الصداقة بين أمتينا على الخصوص ، وبين الشعوب الشرقية والشعوب الغربية على العموم .

« وفى مرسل لكم مع هذا مقالا باللغة الألمانية بينت فيه للمسيحيين المثل الأعلى الذى صرتموه لهم جميعا ، فاسمكم تخدمون الإله القوى القدير بعسه الذى أخدمه أنا ، فنحن أمامه إخوان ، ولا شك فى أنه سيدارك ما بيننا من حب واحترام .

« وإن شعب النيل يسير تحت إمرة ملككم الغاب الصالح الى الرشاد ، ضاربا المثل الأعلى لسلك الشعوب الاسلامية فى الاستقلال والمظمة .

« لقد دوست الحروب الصليبية دراسة دقيقة فأعجبت بأطال الاسلام ، وإن قلبى ليحزن حينما يرى اختلافا بين أمتينا . لقد عشت طامين من سنى شبابى بين ظهرائى حرب النجس فغلبنى هذا من أحلص أصدقاء العالم العربى ، كما أن قضائى شتائين فى القاهرة قدوسى فى نفسى هذه العاطفة نحو مسلمى مصر وملكها الذى أدعو الله أن يبقى حكمه السعيد طويلا »

❦❦

أما ماورد فى مقالته الألمانية فقد بدأها بالنهى على حركة الانقسام فى جماعات المسيحيين وعقبها بقوله :

« أما الاسلام فليس هذا حاله اليوم . فحركة الاتحاد فيه التى منشأها القاهرة تتقدم بخطوات واسعة »

ثم قال :

إن حركة الاتحاد داخل البلاد المسيحية أمكنها أيضاً أن تعمل مثل هذه الخطوات

الواسعة، ولكن المثل الأعلى للنضحية من تسليم الفرد حياته وماله لجماعته الدينية العليا بدون اعتراف بالذات، متقدم في الاسلام أكثر مما هو عندنا. وهذا الفضل ينسب إلى الجامعة التي تعتمد على نفسها، جامعة الأزهر التي يوشك أن تتم لها ألف سنة، وشيخها صاحب الفصيلة والرفعة الشيخ محمد مصطفى المراغي هو الحامل الرئيسى لشعلة هذه الحركة. وانه في سفره الأخير للحج إلى مكة تقدم للملك ابن سعود، ذلك الماهل الموحد لخريطة البلاد العربية، طالباً إليه الاعتراف بالملك فؤاد الأول كحامل لنواء الخلافة الدينية.

فصرح لفصيلته هذا السياسي المحك، والقائد الحربي ابن سعود وهو يضعك قائلاً: نحن أولي بهذه المهمة. قال هذا هو يعلم أن الملك فؤاد الأول وهو سياسي محك مثله سيرفض الاضطلاع بهذه المهمة قطعاً. ولكن الشيخ المراغي يعمل على أن تأتي من الخارج نعثات إلى جامعته ليحزبها بكل سلاح إسلامي، حتى إذا ما عادت إلى أوطانها أمكنها أن تؤسس بيئات تنميه الأزهر.

إلى أن قال :

لقد جرب الاسلام كما حربت المسيحية قبله، في عهود ازدهاره المختلفة في تاريخه، عاقبة التفرق الديني والزندقة، وتعاليم الفرق الدينية الخطاطئة، وجرب انقسام امبراطوريته إلى دويلات، فاقضت هذه الحال غالباً إلى صيرورة هذه الدويلات، التي كان الغلاف المذهبي سبب تفرقها، واقعة في الشرك والتأليه الباطل، على ما آلت إليه الحال في بيزانس (اسم القسطنطينية) إذا صارت مستعبدة للدخلاء الاجانب، ولما جلبوه اليها من لغة وعبادة، ولما ارتكبوه من قتل طالعه هده، وإحراق أمتد أجهل.

وقال :

« إن السيد المسيح أشوق ما يكون الى حركة اتحاد تقوم في المسيحية، ولكنها تبدو لأننا مما يصعب تحقيقه، على تقيض ما عليه الحال عند المسلمين. لماذا؟ الجواب في غاية البساطة وهو: لأن نير المسيح ينقل حمله لدى الأغنياء الممولين، فانهم لا يريدون أن يصادفوا حواجز شهواتهم التي يرغبون إشباعها في هذا العالم، على حين أن المسلمين يحسنون معاملة السائل حتى المجنون. فلو جيلنا هذا عملاً لمقارنة لوجدنا أن الاسلام أقرب كثيراً الى الأصول المسيحية من أكثر المسيحيين.



(مجلة الأزهر) أجاب حضرة صاحب الفصيلة الأستاذ الامام حناب القس بما يناسب المقام، وسلم الى المقالة التي نشرها بالألمانية لاقتطف ما يحسن فهمه منها تحت عنوان الآراء العالمية. فلما قرأتها وعلمت ما قاله في شأن الخلافة رأيت أن أتحقق من صحة ما جاء فيها فسألت فضيلته

عنه . فتفصل بإجابتى قائلا لك أن تصرح عن لسانى بأنى ما فاتحت جلالة الملك ابن سعود فى أمر الخلافة ، ولم يكلمنى المغفور له الملك فؤاد بمفاتيح أحد فى ذلك ، ولم أقم فى سبيل إعادتها بأى عمل ، وكنت ممحضا سقري الى الحجاز لأعمال خيرية أخرى لاصلة لها بالخلافة . وقد حدثنى جلالة الملك ابن سعود فى شأن الخلافة حديثا لا أسمح بنشره ، ولكنه يخالف كل المخالفة ما جاء فى مقال جناب القس كرسنيان .

فاكتفيت من فضيلته بهذا ، ولا مشاحة فى أن جناب القس كرسنيان اعتمد فيما ذكره على الاشاعات التى راجت أيام شعور من فضيلته الى مكة والناس بمسألة الخلافة على أشد ما يكونون بها اهتماما ، وأكثروا ظنوا وأوهاما .

أما ما ذكره من مسألة العمل على توحيد المسلمين فقد كان هذا ديدن أئمة المسلمين فى كل عصر ، قياما بما يفرضه عليهم الدين ، لا بقصد تأليب المسلمين على الأمم ولكن بقصد إقامتهم على ما يجب أن تكون عليه أمة من وحدة الوحدة والغاية ، ومن التكافل على إنتاج أعظم ما يمكن من الخير للعالم الانسانى . وفضيلة الأستاذ الإمام أعرف الناس بما تتطلبه الحياة العالمية الراهنة من حسن الرماله بين المسلمين وجميع الأمم على السواء ، فهو إن عمل لتوحيد المسلمين فى مقدمة العاملين ، فإنما يقصد هذه الغاية الشريفة . ولفضيلته كلام جليل القدر فى هذا الموضوع أفضى به على صورة خطابه القيت فى مؤتمر الأديان الذى انعقد بلوندى فى سنة ١٩٣٦ فى وجوب العمل على تحسين العلاقات بين الشعوب المختلفة لايجاد زمالة عامة بين جميع البشر فى هذه الحياة . وقد تالت هذه الخطابة إعجاب علماء الملل المختلفة من أعضاء المؤتمر، وهنأوا فضيلته عليها ، وهذا الفخر يفاطره فيه كل مسلم على سطح الأرض .

شدة تمسك المسلمين بدينهم

سمحت الحكومة الفرنسية بمنح الجزائريين الحقوق المدنية الفرنسية على شريطة أن ينضموا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية للقانون الفرنسى ، وهو كما لا يخفى لا يسمح لعدد الزوجات ولا يذهب مذهب الشريعة الاسلامية فى التورث الخ ، فأكثر المسلمون هناك أن يجرموا من هذه المسعة على أن يجرموا على غير السنة القرآنية فى أحوالهم الشخصية .

فكتب المسيو (بيرمبل) فى جريدة (الديبش) الفرنسية يقول أن المسيو (موديس . أنجم) كتب فى هذه الجريدة عن هذه المسألة وذكر أن اليهود وإن كان بين كتابهم وبين القوانين الأوروبية خلاف ، فانهم آثروا أن يخضعوا لتلك القوانين على أن يبقوا متمسكين بشريعتهم الدينية ، والذين يملكون بدينهم منهم ظلوا فيما عدا الأحوال الشخصية على ما كانوا عليه من تقديس السبت وتحريم لحم الخنزير واجراء الختان الخ .

قال المسيو بيرميل عقب هذا :

« ولكن الموطن الذي أعرب فيه المسيو مورييس أمام عن حقيقة لا تقبل الجدل ، هو ما قاله من إن الأمر إذا تعلق بالقرآن تغير من هذه الناحية كل التغير . فذكر أن المؤرخين المنحطين بصفة الزاخرة يدهشون كل الدهش عندما يتأملون في العمل الذي قام به محمد . فما أحل العبقريّة التي تحمل بها هذا البني وأمكنته من النجاح في فرض هذا الترابط الديني والتشريعي على المؤمنين به ، وهم يقدرّون بمئات الملايين بحيث لم يستطع أي مسلم حتى في هذا العصر أن يحطمه . »
« فالقرآن قانون مدني وكتاب ديني في آن واحد . وقد أوجد لمنبعه عقلية تفرم أساسيا عن بقية النوع الانساني . وهو خلافا للمسيحية والبوذية لا يصح حداثا بين ما هو روحي وما هو زماني فزج أحدهما بالآخر » انتهى .

نقول بخيل لمن يقرأ هذا الكلام إن الكاتب يمدح الاسلام ، وليس ذلك بصحيح . فان قوله إن الاسلام أوجد للمسلمين عقلية تفرم عن بقية النوع الانساني يشعر بانهم جامدون على ما هم عليه لا ينفون عنه حولا .

ولكن ما قوله في أن الذي يعتبره عيبا هو مظهر من مظاهر مساعيتهم الاجتماعية ، التي تحميمهم من الفناء في أجساد الملل الأخرى .

يستغرب المستعمرون من رفض المسلمين منحة تحيلهم وإياهم من ناحية الحقوق المدنية في مستوى واحد ، ويعتبرون هذا الرفض منهم أثرا من آثار عقلية لا تتفق وعقلية نقيّة البشر . ولو أنصف أولئك المستعمرون ووضعوا أنفسهم موضع أولئك المسلمين ، وتخيّلوا أن قوما من مستعمري بلادهم تنزلوا أن يعتبرهم وإياهم في مستوى واحد من الحقوق الوطنية ، أن كانوا يقولون ذلك أم يعتبرونه صرفا لهم عن حقوقهم الطبيعية في بلادهم ؟

إن المسلمين في بلادهم المستعمرة يعتبرون أنفسهم أصحاب تلك البلاد الشرعيين ، فان كانوا فقدوا سلطانهم فيها بسبب ضعفهم أو جهلهم ، فهم يرغبون أن يستعيدوا حقوقهم عليها ، ويصبحوا أصحاب الحقيقة ، فكل عرض يرضه عليهم المستعمرون وخاصة إذا كان يقابل تنازل منهم عن نظم يدينون بالمخضوع لها يعتبرونه ويقابلونه بالرفض ، وهذا موقف يشرفهم كل التشريف ، وإذا كان يعزى لدينهم فهذا يدل على أن دينهم يفت فيهم من روح المساعة والعزة ما لا تستطيع أسلحة الاستعمار الجهنمية كسر شوكنه .

وإن الترابط الآلي الذي يقول فيه المسيو مورييس أجاب أنه غير قابل للنحطيم ، لم يملك المسلمين جامدين خيال أية غاية من غايات المجد والعلم والحكمة ، ولكن أوجد لهم سيادة العالم كله . ولا أظن كاتب جريدة الديبش يجهل ذلك .

الجامعة الإسلامية

والقومية الشرقية

جاء في حريدة (الأكسيون فرانيز) الفرنسية وهي اللسان الرسمي للحزب الملكي المأموداء. « إن فكرة الجامعة الإسلامية قديمة قدم الاسلام نفسه . ومصدرها الشعور الذي يربط جميع أتباع النبي بالوحدة الدينية ، على نحو ما كانت عليه الحال أيام عهد وأصحابه الأولين ضد عدم اكتراث المشركين بالدعوة الإسلامية ومجانفتهم لها .

« ولكن هذه الفكرة لم تظهر في السياسة الأوربية إلا من سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٩٠٠ في الوقت الذي ظهرت فيه فكرة وجوب إنهاض المسلمين بعد فقري استمرت خمسة قرون سديتها المنازعات الداخلية ، واختلافات الطوائف المذهبية . وكانت تتوالى في هذه الآونة حملات الغرب على الشرق مما أوقر في نفوس المسلمين المننورين أن بلادهم على وشك الوقوع بين يرائن المستعمرين . فحدث ود فعل لهذه الحركة في البلاد العربية من فاحيى الوهابية والسنوسية اللتين تركزت حولهما قوى المقاومة ضد الاستعمار ، حتى مع رجل ذو مقدرة خلائية عظيمة ، ونشاط فياض ، (يريد جمال الدين الأفغانى) ، نصبه سلطان فد الذكاء ، متقد المطامع بخدمة قضية الاسلام ، والعمل على جمع كلمة جميع المسلمين أولاً ، ثم دفعهم بعد ذلك ضد المدنية الغربية .

« جمال الدين يعتبر بحق محي فكرة الجامعة الإسلامية ، جملة السلطان عبد الحميد على رأس دعائه الكثيرين ، ولكنه إذا كان فشل في محاولاته فذلك لضعف الجانب الذى كان يعتمد به . وهو الامبراطورية العثمانية — التى أضعفتها الأحكام الحائرة والاضطرابات مدة قرون متوالية الخ » .

نقول . الذى بدعشنا أن يسمى الأوربيون فهم نهضة المسلمين الى حد أن لا يجمعوها موجبة الى الاستعمار وما يلاقون منه من ويلات ، ولكن الى المدنية الغربية نفسها ، غير مألين بتكديس الحوادث أيام . وغرضهم من ذلك أن يشوهوا حركاتهم في نظر الشعوب الأوربية ليحملهم على زيادة السكب على اخضاعهم وإدلالهم . لأنهم لو قالوا لهم اضطروا الى توحيد كلمتهم ، وتقويم صفوقهم ، للدياد عن بيضة بلادهم ، لاحت الضمير البشرى بالمعطف عليهم ، والمذر لهم ، باعتبار أن الدفاع عن الحوزة غريزة طبيعية في كل نفس حتى الحيوانية .

وهذا النهج فضلاً عن كونه عيباً عظيماً لا يلىق بالمنصفين ، فإنه يفضى الى توسيع شقة الخلاف بين الغربيين والشرقيين ، وقد حدث ذلك وأمر أسوأ الخرات على الجانبين . ومن المعجب أنهم لا يزالون يحرون على هذه السنة من التجبى والتجزم وسوء الظن .

لم يكن المسلمون بأعداء المدينة في أى عهد من عهودهم ، بل هم الذين أعادوا بناءها بعد أن قد تزعزعت قواعدها ، وتناكلت وطائدها ، وهم اليوم يتدافعون بالمناكب ليهبوا من حياضها ، ويمبوا من ينبوعها ، فلو كانوا يتحفزون لتحطيمها لما ربوا تابتهم عليها ، ولما غلوا في ذلك حتى يزوا أهلها في الاعتداد بها .



رواية جان دارك وبرنارد شو

رأيت وأنا أعرض الآراء العالمية في الشهر الماضي عن الإسلام والمسلمين ، لأعقب على ما يجب التعقيب عليه منها في مجلة الأزهر ، أن صيغة قامت صد الكاتب الارلندي المشهور (برنارد شو) بسبب قصة جان دارك التي قيل أنها اشتملت على طعن في الاسلام . فعصبت من ذلك لأنى أعرف أن هذا الكاتب من المدحجين بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالدين الذي جاء به ، وله في ذلك أقوال طنانة تناقلتها المجلات الاسلامية في جميع بلاد المسلمين ، فاستحضرت نسخة منها فوأت أن الطعن الذي هاج النفوس ضد مؤلفها محصور في الناحية التي أراد بها الكاتب تصوير رأى الكنيسة في القرون الوسطى في جان دارك ، بلان « بير كوشون » أسقف بوفيز ، فاستطرد هذا الشخص الخيالى الى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وسبه على أسلوب ذلك المصر . ولكن مؤلف القصة تخيل شخصا دماه (الفورد وارك) اعترض الاسقف ورد عليه وأثنى على المسلمين بقدر ما يسمح به في تلك الأيام .

لما وقفت على هذا كنت ما ينبغي أن يكتب في هذا الشأن ، لا تسويفا لتدريس مثل هذه القصة ، ولكن تبرينا لبرنارد شو من تهمة الطعن ، وضما للحق في نصابه ، وحرصا على مودة كاتب عالمى يرجى منه أن يقف موقفا محمودا في دفع المطاعن عن الاسلام .

وقد جاء في عدد ١٤ مارس من جريدة النيور كرونكل الانجليزية ما يؤيد رأينا هذا نفتطف منه ما يأتى :

« أخبرت النيوز كرونكل أمس المستر شو بالقرار الذى اتخذته الطلبة المصريون حيال كتابه . فعقل الغضب لسانه عن الكلام وهو أفصح رجال العهد الحديث . ولما هدأت سورة غضبه قال :

« إن ما كتب ليس رأىي أما ولكنه رأى الكنيسة في القرون الوسطى ..

« ولماذا لم يقرأوا رأى الشريف الانجبارى (وهو أحد أشخاص القصة) ، الذى كان من المحاربين ضد الجيوش الاسلامية ، وهو الفورد وارك فانه اعترض الاسقف الطاعن وتحداه ؟

« وكيف غاب عنهم أن الذى طعن ليس أنا ولكن أستقف مذهب غير مذهبي ، رجل عاش في القرن الخامس عشر وليس في وقتنا هذا » الخ .

ولمذ طر ما كتبت لا يبنى أنى أرى الاستمرار على تدريس هذه القصة في بلاد تدعى بالاسلام ، فان في الأدب الانجليزى معينا لا ينضب من الاقاصيص الرائية ، بل في مؤلفات برنارد شو نفسه ما هو أولى من هذه القصة وأمثالها من معاهد العلم المصرية ، فكل أمة تحترم نفسها الجليلة في وجوب إيراد هذه القصة وأمثالها من معاهد العلم المصرية ، فكل أمة تحترم نفسها تعمل على هذه الشاكلة .

ومها قبل في أن هذا الأسلوب في تصوير الآراء العتيقة سائق لدى الاوربيين ، فانه يعتبر نايبا عن فوقنا ، مستهجننا في عرفنا .

وإذا كان هذا ما يقال في كتاب برنارد شو ، فإدعى أن يقال في معاديات لاندور ، وفيها فعل ، وإن لم يكن مقررًا للتدريس ، فانه يشتمل على أمور لا أقول يجب أن لا توضع بين أيدي طلبة مسلمين ولكنى أقول يجب ألا توضع بين أيدي طلبة على الإطلاق ، لأنها خيالات منسية على أكاذيب صريحة ، ومصوغة في قالب استهزائي بعيد عن روح الادب الصحيح . ولقد أحسنت الجامعة المصرية صنعا في إلغاء تدريس هذين الكتابين ؟

محمد فريد وجدي

« التهذيب في الفقه »

جرى صاحب الفضيلة الأستاذ الباه الشيخ احمد كامل الخضرى المدرس بكلية الشريعة على ستة نعتيرها ثمانية محبي العلم الدينى في هذا العصر ، تلك هى وضع مادة الفقه التى عليه تدريسها في وضع جديد ، وترتيب جميل ، وتقريبه من الأذهان بحيث لا يلتوى فهمه على أحد ، نجنى طلبته منه ثمرتين أولاهما سرعة فهمهم للمقرر عليهم ، وثانيتهما اكتساب ملكة التعبير عن الفقه بلهجة أهل العصر الحاضر .

وقد تم طبع الجزء الثالث من كتاب التهذيب ، وهو مقرر السنة الرابعة لجاء كاللذين تقدماه كفاية واتقانا وحسن ترتيب .

لخذنا لو شجعت إدارة الأزهر أمثال فضيلة الأستاذ الخضرى من المؤلفين المجددين ، وذلك بنقرير كتبهم للتدريس بعد النظر في كفايتها ، فهذا يث في روع المدرسين روح العمل ويكون لنا من وراءه خير على عظيم .

الاشتراكات المقسطة

من حضرات المشتركين من دفعوا ربع قيمة الاشتراك فنلت نظرهم إلى دفع قسط جديد

خطبته

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

في الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وعيد جلوس

حصرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

حفل الأزهر بالعلماء الاعلام ، وكبار الموظفين ، والاهيان ، والطلاب ، دفعتين في أسبوع واحد من شهر ربيع الأول الماضي كان من أئمن أسابيع هذا العام وأكثرها عظمة وجلالا : أولاها احتفاء بيلة ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم في مساء اليوم الحادى عشر منه ، وثانيتهما في مساء اليوم الخامس عشر منه احتفالا بعيد جلوس حصرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول على أريكة المملكة المصرية . وقد رأس الاحتفالين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ عبد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وألقى فيهما خطبتين طابتي حيا في أولاها روح خاتم المرسلين بما هي أهله ، وذكر من مهام رسول الله وخصوصياته ما يستحيل اجتماعه في فرد واحد .

ثم استطرد فضيلته الى ذكر ما يتردد على الألسنة اليوم من أمر الحرب ، وبين وصايا الاسلام فيما يجب على كل فرد من الاستعداد لها ، والتهيؤ للقيام بها على الوجه الذى يضمن الفوز ، ويسر العكس ، فقرر فضيلته أن كل حمل أيا كان نوعه يقوم به عامل وتفضى نتيجته إلى تقوية الجماعة وسد حاجتها في إبان نشوب الحرب يعتبر في الاسلام جهادا في سبيل الله يؤجر عليه القائم أحر المجاهدين ، واستشهد فضيلته على قوله هذا بآيات من الذكر الحكيم . ومن أجل ما يؤثر في هذه الخطبة ، وهو من المبارات الدافعة ذات الدلالات العالية التى يكثر ورودها في خطب فضيلته ويحفظها الناس عنه ، قوله : « إن الأمم لا تحيا إلا إقامات » وألم فضيلة الاستاذ الامام في خطبته الثانية بعيد جلوس جلالة الملك ، ونوه من شأنه الكريمة ، وما أثره الجليلة ، بما يجب أن يشوه به في هذا اليوم الميمون ، يوم تبوؤ جلالة عرش المملكة المصرية .

ثم استطرد فضيلته الى ذكر الأهر وما وصل اليه من الرقى حسا ومعنى بفضل المقبور له والده العظيم ، وفضل حالته ، حتى أصبح يقطع طريقه الى الكمال ونما . ولقد أبدع الاستاذ الامام في الخطبتين ما شاء له الاداع ، فجاءنا خير ما يمكن أن يؤثر عن الأزهر المصور في هذه الظروف ، وسيكون لصداها في أربعة أرجاء المعمور ما كان لصدى جميع خطب فضيلته ، حياة للنفوس ، وغذاء للارواح ، وبست قلوبهم .

قال حفظه الله في أولهما بعد البسملة :

في الدفاع عن الوطن إذا نشبت الحرب :

كان المقدر عندي في هذه الليلة أن أكتفي بمحضرات الخطباء من علماء الأزهر فلم أحضر شيئاً أقوله لكم في هذا الحفل المبارك ، لكنني رأيت واحداً علي ، وفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفاء لكم ، أن أقول كلمة في هذه الليلة المباركة ، وقد سمعت في فرصة أردت اغتنامها ، كي أسمعكم صوت أمير البيان ، صاحب المطوفة الأمير شكيب أرسلان — وهو ضيفكم الليلة — لكن هذه الفرصة أفلتت من يدي ، فقد اعتذر من عدم تلبية طلبي . أما موضوع الليلة ، وهو ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت في غنى عن أن تسمعوا فيه شيئاً ، فقد قرأت سيرته مرات متعددة ، وهو غني عن أن أقول فيه ، والله در البوصيري حيث يقول :

فبأن العلم فيه أنه شر وأنه خير خلق الله كلهم

لكن الرسول كما تعلمون هو أمين الله علي وحيه ، وهو سيد العلماء ، وسيد الساسة الحكماء ، وأكبر قائد في الجهاد من قواد الإسلام ، وأنتم تعلمون أنه كان يجاهد بنفسه ، وقد صادفته أوقات عصيبة في غزوات أصيب فيها ، وتنازل عنه أصحابه ، وفر الكثيرون منهم ، وبقي هو ثابتاً صابراً مصابراً محتسباً في سبيل الله .

والعالم بموج الآن بأخبار الحرب ، ومعدات الهلاك ، وفي هذا الوقت يمتز أصحاب وسائل الدمار بقوتهم ، وتضعف نفوس الأمم الضعيفة أمام تلك الأمم التي أعدت نفسها طول أيامها للجهاد والقوة . وقد تكون مصر يوماً من الأيام معرضة لنكبة الحرب ، ومصر لا شأن لها قط في هذه المطامع التي تتمازج نفوس الأمم ، لكن وضعها الذي قدر لها ، هو الذي جعلها في مكان لا تأمن فيه إذا نشبت الحرب بين أم لا شأن لها بها ، لا في الدين ، ولا في الأمانة ، ولا في الجنس .

هذا الوضع الذي أراده الله لهذه البلاد قد يكون سبباً يؤدي إلى تدخلها في الحرب ، فإذا دخلت مصر الحرب فلا تظنوا أيها الاخوان من العلماء ، وأيها الأنساء من الطلبة ، أن واجب الجند في جبهة القتال أكبر من واجبكم أنتم ، بل إن علي العلماء وعلى الطلبة في هذه الحالة أكبر واجب ديني وعلى اجتماعي . فالذين يستطيعون منكم أن يكونوا في صف القتال يقضى عليهم واحدهم الدين بأن يكونوا في صف القتال ، أما الذين لا يستطيعون ذلك فواجبهم نحو أهلهم وعشيرتهم وأمتهم يقضى عليهم بأن يكونوا أمناء في أداء المصحفة ورسوله .

فإذا اعتدى علي مصر ، صار واجباً شرعياً علي كل واحد من المسلمين أن يدفع عنها هذا الاعتداء ، فالذي يستطيع أن يجاهد بنفسه يجب أن يجاهد بنفسه ، فإن لم يستطع ذلك فواجب

عليه أن يجاهد بحاله ، فإن لم يستطع لا هذا ولا ذاك كان عليه أن يجاهد في بيان أحكام الدين الاسلامي للأمة ، والقواعد التي وضعها علماءنا المجاهد عند اعتداء أحد على قطعة من أرض المسلمين .

ويغلب على ظني أن كلامكم يحفظ القرآن ، وخاصة سورة التوبة وسورة الأنفال ، فكررنا هاتين السورتين ، واعلموا أنه لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فصل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفصل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً .

إن الأمم لا تحيا إلا إذا ماتت ، والقرآن هو الذي يقرر ذلك ، وليس موت الأمة أن تبعد حتى لا يبقى أحد منها ، ولكن أن يجاهد فيبقى منه من يفي ، والذين يبقون بعد حصد السيوف هم الساجدون في الحياة ، وهم الذين يصلحون للبقاء ، وأنتم تعلمون أن في الأمة عدداً وفيراً لا يعرفون واحسانهم عند التنازل ، فعليكم أن تعرفوا هؤلاء هذه الواجبات ، وأن تدعواهم إلى الصبر والطمأنينة والسكينة وقت الشدة ، فإن الأمة لا تنال مجدها ولا تنفصر إلا إذا كان الصبر في مجموع أفرادها ، والسكينة عند حلول المصائب شيمة أبنائها .

واعلموا أن كل خدمة تؤدي في أثناء النكبات هي جهاد في سبيل الله ، فالزراع الذي يتقن ريعه ويقدم القوات إلى المجاهدين مجاهد ، والذي ينقل القوات والماء إليهم مجاهد ، والذي يرشد الناس إلى واجباتهم وقت المحنة مجاهد ، وكل هذه الواجبات التي تخرج من دائرة القتال ، أتم يا علماء الأزهر وطلبة ، مسئولون عنها أمام الله وأمام الوطن ، فذكروا هذا ولا تغفلوا فيه ، ولا تكونوا كبعض سلافكم : يقرءون البخاري في المساجد وينتظرون النصر

كان ذلك في بلد من بلاد المسلمين تابعة للروسيا ، غزاها جيش ، وأراد أهلها الدخا من وطنهم وأنفسهم ، فقال لهم العلماء : لا تفعلوا ، ودعونا نقرأ لكم البخاري فيهنز الأعداء ، ثم جعلوا يقرءونه ويفتشون في ناحية العدو المهاجم ، فلم يقن عنهم ذلك ، ودخل العدو عليهم من كل باب .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعتمد إلا على القوة ، التي قال الله تعالى فيها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل السلم سائداً ، وأن يقينا شر عوادي الزمن ، وأن يباعد بيننا وبين الحرب ، وأن يعيد عليكم هذا اليوم المبارك في العام المقبل وأنتم آمنون في أوطانكم ، مطمئنون إلى دينكم ، وأن يجعل هذا العام عام سعادة على الاسلام والمسلمين

احتفال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك

وقال فضيلته في خطبته بهذا الاحتفال بعد البسمة :

يسر الأزهر دحماً في المناسبات السعيدة الخاصة بمليك البلاد ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أن يقدم ولاءه وإحلاله وإخلاصه لمليك مصر المحبوب ، لما يعلمه الأزهر من جلالته من العطف عليه ، والرعاية التامة الدائمة لأموره وشئونه .

وإني في هذه الليلة ، أرفع باسمكم جميعاً خالص الولاء ، وخالص التحية والاحلال ، إلى صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، داعياً الله سبحانه وتعالى ، أن يميزه بالدين ، ويميز الدين به ، وأن يطيل حياته في خدمة الاسلام والمسلمين ، وفي خدمة الوطن العزيز .

لقد ورث صاحب الجلالة الملك فاروق الأول عن المغفور له والده ، العطف والحنوب على الأزهر ، وإذا رجعت إلى الماضي وحدثم أن ما استفادته الأزهر من عناية المغفور له الملك فؤاد ، وما استفادته من عناية شبيهه صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، وحدثم أن ما استفادته من هذه العناية لا يقدر قدره إلا من عرف التاريخ معرفة صحيحة . لذلك أريد أن أرجع بكم قليلاً إلى الوراء ، وأريد أن أقارن بين الأزهر الآن ، وبينه في الماضي من جهات مختلفة .

وسيتبين لكم من هذه المقارنة أن الوم القائم بأدهان الساس الآن ، وهو أن الأزهر في الماضي كان خيراً من الأزهر في الحاضر ، هو وهم باطل ، وأن الأزهر الحديث ، خير من الأزهر القديم .

الأزهر في ماضيه وحاضره :

وأبدأ بالكلام في هذا من ناحية قد يكون غريباً أن تكون هي الأولى في المقارنة ، وأعني ناحية التدين ، فمن الناس من يقولون : إن الأزهر القديم كان متمسكاً بدينه أكثر من الأزهر الجديد ، وأنا أقول لعؤلاء : لا ، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم .

كل المعاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها ، إلا أنه يطلب إزالتها ، فقد فطم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه ، وأبيع الحمر في البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها ، ووحدت البدع في الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل في وجودها .

كل هذا وجد في عهد الأزهر القديم ، ولم يرفع صوته طالباً إزالة هذه المنكرات التي

استقرت في البلاد كأنها شأن من الشؤون القومية ، والتي يطالب الأزهر الحديث الآن بإزالتها ، فالأزهر مكبل بآثار الماضي ، وهو يعاني في سبيل إزالة تلك الآثار ما يعاني ، ولا أظن أن هذه الأشياء المنكرة كانت تستطيع أن توجد في هذا العهد الحديث .

لقد اتصل الأزهر الحديث بالناس بالوعظ والارشاد ، وعلى صفحات الجرائد ، ليفهمهم دينهم ، فاستفادت الأمة منه ، واستفاد العالم الاسلامي كذلك . أما الأزهر القديم فكان قابعا بين الجدران ، لا أثر له في الخارج ، ولا يعرفه الناس إلا بطريق السماع ، كأنه تاريخ من التواريخ .

اتصال الأزهر بالحياة العملية :

هذا شأن من شؤون الأزهر والشأن الثاني هو أن الأزهر الحديث لأمس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها .

لقد كاد الأزهر يحترق منذ عشر سنوات . ففي سنة ١٩٢٨ أرادت وزارة الأوقاف أن تنشئ مدرسة للوعظ والارشاد ، ووضعت في ميزانيتها مبلغا من المال لإنشاء هذه المدرسة ، وفي ذلك التاريخ كانت هناك مدرسة للقضاء ، وكانت هناك مدارس للغة العربية ، فلو أن مدرسة الوعظ والارشاد أنشئت في وزارة الأوقاف لكان علماء الأزهر الآن بين جدران الأزهر كأنهم من الآثار القديمة التي يحجبها السائحون للخطر إليها ولا صلة لهم بالحياة العامة في بلادهم .

لكن الأزهر الحديث استطاع أن يتصل بالعالم ، وأن ينفرد بشؤون القضاء والوعظ والارشاد ، واستطاع أيضا أن يشارك في شؤون أخرى .

نظم الدراسة في الماضي والحاضر :

يمكنني أيضا أن أقارن بين الحياة العلمية في الأزهر الآن وفيما مضى . فقد كان أكثر العلماء يترقبون الاحتمالات المتعددة في صارات الكتب ، وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم ، وما كان يوجد منهم من يستطيع أن يحاضر في موضوع علمي ، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب وتقدها ، بل كانوا يعنون بالألفاظ ، فلم تكن الدراسة شبيهة مثمرة .

لكن الأزهر الحديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائما ، وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلًا حقيقيًا ، وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها . ولا شك عندي في أنه من هذه الناحية يفضل الأزهر القديم .

منذ ثلاثين سنة كنت مفتشًا في وزارة الأوقاف ، وقد فكرنا في ذلك الوقت في إيجاد

خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التي كانت تنلى دائماً على الناس ولا تغير ، وأعلن عن ذلك ، فجاءنا خمسمائة خطبة لم نستطع أن نلتقي منها واحدة نقول إنها صالحة ، أما الآن فقد وجد في الأزهر خطباء ووطاظ ومرشدون ، يمكنهم أن يرتجلوا الخطب ، وأن يكتبوها ، وأن يؤلفوا مائة منها أحسن بكثير من تلك الخطب القديمة ، ويتضح من ذلك بلا شك ، أن النفع بالأزهر الحديث أوفى بكثير من النفع بالأزهر القديم .

أثر الرعاية الملكية :

هذا الذي قلته لكم من المقارنة ، أقصده شيئاً واحداً ، هو أن رعاية صاحب الجلالة المفقور له الملك فؤاد ، ورعاية صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، للأزهر ، هي التي أوصلت الأزهر إلى ما نحن عليه اليوم .

الأزهر والحياة العامة :

هناك شيء ينبغي أن أذكره ، وهو أن الناس في مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة ، فهم يقولون إن الأزهر إذا قوى واشتدت عزيمته ، يدخل في الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، إذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة في طريق الأفكار العلمية الحرة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يحرم الناس ملامهم وشهواتهم ، والحياة لا تحتل ولا تطلق إذا سيطر الأزهر عليها بسلطان الدين .

احترام الأزهر لحرية الفكر :

هذا شيء يقوله الناس ، حبيت أن أذكره لكم ، أما الحياة الفكرية فلا أظن محال أن الأزهر خطر عليها ، لأن الأزهر يسير أسلافه من العلماء الأجلاء ، ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتل هذه المذاهب المتعددة التي تفرقها في كتب الكلام ، وفي كتب الفقه ، والتي نتقدها ونختار منها ما هو صالح ، ونترك ما ليس بصالح .

والإسلام بطبيعته دين تسامح ، ومبادئه لم تعترف بالإكراه . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، « أفأت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وقد جرى الإسلام أدياناً تحالفه ، وحيى علماء الإسلام مذاهب غير صحيحة ، واحتشدوا في أن يردوا عليها بالدليل ، ونقبت هذه المذاهب حية مائسة في كتبنا التي تفرقها في الأزهر ، فليس الأزهر من المعاهد التي تكهر حرية الرأي والآراء العلمية ، لكن الأزهر يكره شيئاً واحداً ، هو تعمد الاستهزاء بالدين ، وتعمد الاستهزاء بالأنبياء ، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين .

يكره هذا ، ويكره أيضاً أن يشكك العامة في دينهم ، وأن يشكك الناس في عقائدهم ،

فكل شيء من شأنه أن يجعل العامة أو يجعل النشء غير مستمسين بدينهم ، يقاومه الأزهر بكل ما يستطيع من قوة .

أما الآراء العلمية ، في حدود العلم وفي دائرته ، فإنها تدرس في المعاهد الكبرى ، دون أن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها ، أو يكون حجرة عثرة في سبيلها .

مثولية الأزهر في الحياة الاجتماعية :

وأما الحياة الاجتماعية ، فانه تعالى يقول : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبني بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

هذا هو الذي يدخل فيه الأزهر ، فهو يقاوم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويقاوم الذين يقولون على الله بغير علم ، والفواحش ليست من الكثرة بحيث إذا اعدمت من أمة ضاع هناؤها وترغها وسعادتها ، وفي المباحات من الكثرة ما يجعل الحياة سعيدة مشرفة ، بل من المباحات ما يجعل الحياة سعيدة مترفة ناعمة ، فالدائرة التي يقاومها الأزهر لا يمكن أن تجعل الأمة عديمة الهناءة .

واحب الأزهرين .

إن الناس فيكم ، أيها الأزهريون ، أملا في مصر وفي غير مصر ، والحياة الإسلامية تفتش في هذا الوقت في الأمة المصرية وغيرها ، وهذا الانعاش يحتاج الى عناية ورقابة وتدريب وتبصر .

إن الذي يجب عليكم هو أن تفهموا دينكم حق الفهم ، وأن تمرسوه على الناس عرسا صحيحا ، وأن لا تبغوا فيه تلك الاصابات التي أضيفت إليه وكرهت بعض الناس فيه .

حردوا دينكم من كل ما غشبه ، وخذوه من ينباع الصحة ، خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة ، واتركوا بعد ذلك ما جد وما عرض ، فإذا فعلتم ذلك اهتديتم واهتدى الناس بكم ، وحققتم أمل أممكم والعالم الاسلامي فيكم . وإني أسأل الله سبحانه وتعالى لنا السعادة جميعا ، كما أسأله أن يطيل حياة صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، وأن يجعله دائما وأبدا عوننا للدين ، وعونا للإسلام والمسلمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

— ٤ —

حفظ الأمم من النبوة قديما وحديثا

يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فإن من اشتهر منهم في التاريخ العام ، وعرفت سيرهم ، وصُيِّبَتْ تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تُعرف أحوالهم ، ولم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية في جميع أدوار وجودها صدرت في حياتها الدينية عن تعاليم مقررّة أفصى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهنة وبطارقة ومواعدة ومعلمين ، بل وآله وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية الخ ، ولكن بسبب الظلمات الخيمة على تواريخ تلك الأمم لم تعرف أسماء أكثرهم ، ولم يمكن تقدير ما أتوا به من التعاليم ، وتقدير قدرها من الداحية الفلسفية ، وتمييز من يصح أن يحشر منهم في زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الرجحان بهم في قبيل الدجالة والمشعوذين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين .

ليس هذا موطن تحقيق تاريخي لتمييز الأنبياء الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكننا نلقت نظر القارئ إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى في فهم حرمي العاطفة الدينية ، وهي أن العالم كله متمدّدٌ ومتوحّش ملئٌ حول النبوة في جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة في أي عهد من عهود التاريخ ، فأينا أجلت نورك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا إلى القرن العشرين ، وغيا قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أم وشعوب وقبائل معولة في توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة . فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الانسانية الأولى توارتها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لا بد من توفيتها على حال من الأحوال ؟

يقول الماديون : نعم ، ويقول الاعتقاديون : لا . فأى الفريقين أهدى سبيلا ، وأقوم فيلا ؟ الماديون يحكم أصولهم مضطرون لا إنكار النبوة واعتبارها شعوعة وتدليسا وخداما ، ولحسابان المتلفين حولها سذجا مخدوعين ، وغفلا مأفونين .

هذا تعليل قليل الكلفة ، سائق في نظر الذين لا يهمهم تحقيق الأمور ، ولكن الذي أوتي نعمة التثبت يصعب عليه أن يتحلل من النظر في أمر جليل كأمر البوة بكلمة ينقذها لا يعرف مبلغها من الصحة .

كل الأنبياء مشعوذون مزورون ، وجميع المطلق سذج مأفونون ! لو صح هذا لكان أقطع طعن يمكن توجيهه إلى الحيلة الإنسانية ، وإلى الطبيعة التي كونتها في رأيهم على هذه الشاكلة . فإن كائنا تستوعب حياته نفسه من هذا الطراز ، ويتسلط عليه وهم بهذا القدر من الخطر ، ويستمر مئات الألوف من السنين في هذا الصلال العقلي ، يعتبر وجوده شؤماً على الأرض التي يعيش عليها ، ويمد أفضل منه الحيوان الأعجم بما لا يقدر .

هنا يمكن أن يقول لنا واحد من أنصار هذا الرأي : رويدك قليلاً ! أليست القبائل والجماعات قد تآحرت ولا تزال تتناحر لنصرة صنم من الأصنام ، أو لتأييد وهم من الأوهام ، فهل الأصنام والأوهام مما يجب أن يتمصّب له إلى هذا الحد ؟ وهل تاريخ الحروب الدينية إلا سلسلة من هذه الاندفاعات الجنونية ، وراء الأوهام النفسية ؟ فإن شئت أن تنظم الدراري مدحا في تقدّيس هذه النفسية الدثرية ، فافعل ، ولكن لا تنتظر أن يخفف النقد العلمي من هذته لأي اعتبار من الاعتبارات .

فاجبه بقولي . لقد قرّبت إلى البعيد ، وكفيتني مؤنة مرد الأصنام الدالة على سمو النفسية الإنسانية ، واسترخاها حياتها الأرضية في سبيل غرض لا يمت إلى المتع الجسدية بسبب . إنك نظرت إلى السبب المباشر للتناحر ، فوجدته مانئاً في نصرة صنم من الأصنام ، أو وهم من الأوهام ، ولسكتك لم ترتفع عن هذا الخفيض لتشرف على الدوافع الحقيقية الباعثة على تأييد الأصنام أو الأوهام . إنك لو فعلت لرأيت أن الباعث ثم بعيد الشاؤ ، على القدر ، سام السمو كله ، وهو اختراق الحجب الأرضية ، للوصول إلى عالم الروح المحض ، والتحرير البحت .

لا يعيب هذا الاندفاع الإنساني أن يكون باعته المباشر صنم أو وهم ، فقد يكون منشؤها جهلاً أو سداجة ، وهما عرصان يزولان وتحمل محلها عقائد صحيحة ، وقد تعود فتُعرف تلك العقائد الصحيحة ، وهلم جرا ، ولكن الباعث الذي يهيب بالإنسانية إلى الجهاد في سبيل الروح دائب على العمل ، لا يعمل ولا يني في دور من الأدوار .

يجب أن يُجرد هذا الباعث الروحاني من كل ما يلبسه من عقائد باطلة ، وضلالات عارضة لم يكن رؤيته على حقيقته ، وتقدير طبيعته ، ومعرفة مدى تأثيره في ترقية النوع البشري وتحريره من بهيمته .

أما رأيت في خلال تاريخ النوع البشري أن هذا الباعث العالی حمله على تقييد إطلاقه ،

وتهذيب أخلاقه ، فعد العدل فضيلة ، والنظم رذيلة ، واعتبر البذل محمداً ، والامساك مذممة ، وعد التواضع مكرمة ، والتكبر مائة ، وحسب المساواة مفخرة ، والتبذير معرة ؟

فإن قلت . كل هذا أوجبه على قول الدارونيين ما غرس في طبيعة الانسان من غريزة الاجتماع ، فهي التي دفنته قهراً للتعلم بما يحفظ وجود الجماعة من الأخلاق الفاضلة ، فتخلق بها قهراً ، وبالإدما عليها ، كما تقتضيه حاجة الاجتماع ، انطبعت في ضميره ، فإذا نظر إليها المتأمل السطحي ظنها صفات فطرية علوية ، وما هي في حقيقتها إلا ضرورات اجتماعية اقتضتها الطبيعة الأرضية ولا أثر للروح فيها

نقول . كل هذا الكلام معلول ، فإن الاجتماع ليس بحاجة من الأخلاق إلا للقدرة الذي عليه العمل والسعي والذئب والغيران ، وهذه الأنواع كلها ولدت مفطورة على ما يحفظ وجودها الشخصي والتوعى بدون كسب ، فكان يكفى الانسان أن يولد مفطوراً على مثلها ويقف منها حيث وقفت ، أما وهو لم يقف منها عند حد ما يستدعيه الاجتماع ، فقام يذبها كل يوم تهدياً ، عاملاً على إنشاء جو أدبي حوله يباين به مادية الطبيعة ، حتى إنه ليعاود أن يخرج نوعه من سلطانها ليعيش في ظلال آدابه وأخلاقه ومدنيته ، بمعزل عن خشوتها وصرامتها ، فإن هذا كله لا يستدعيه قيام الاجتماع ، ولا هو بحاجة إليه . ألسنت ترى ألوما مؤلفة من الجماعات قائمة في الأرض على أخلاق السباع والذئب والذئبة ؟ فأى مامل دفع الانسان لما وراء حاجة الاجتماع ، فدرس الأصول حتى قتلها خيراً ، وسرى في سرائر المسادى حتى لم يقع رحناً من إحناثها بمكس أن تنزوي فيه حقيقة حتى مد مسبارها إليها ، وسلط عليها من تدره نوراً كذافاً فأدركها ، ولم يأل في إضافة ما يمجده من أسرار العدل والانصاف ، وخفايا الآداب والأخلاق ، الى ماسق له تسجيله منها ، حتى أصبح لديه كنز منها اتخذها مثلاً أعلى لا يزال يحن إليه ، ويود أن يصيبه تطور أدبي جديد فيصطبره الى التعويل عليه .

ماهذا الحنين من الانسان الى المثل الأعلى من الاجتماع ، وفيه تقييد للحرية ، وتحديد للعقود ، وتكاليف على الأقوياء ، واجبات على الممتازين ، وحقوق للضعفاء ؟

ما هو العامل النفساني السامى الذى يجمل الانسان يشقى أن لو أصبح الناس كلهم متساوين في الحقوق والواجبات ، في مجتمع لا أثر فيه للاعتمارات والامنيات ، بل ماهو ذلك العامل السماوى الذى يحجب بعض النفوس في الايشار ، فينزولون لإخوانهم مما يملكون ، وليس في القانون ولا في حاجات الاجتماع ما يدمر اليه ؟

إن قلت : إن كل هذا دعا إليه التوسع في توفية حاجات الاجتماع ، قلت لك : فإن كثيراً من الناس فكروا في الزهد حتى كان أحدهم يكتفى من الغذاء بسبع تمرات أو تينتين ، ومن اللباس بمائة يجمع حافيتها بخلال ، وآخرين آثروا اعتزال الجماعة ضناً بأنفسهم على موبقات

الاجتماع ، وغيرهم شغلوا أنفسهم بالمعبادة حتى قد لا تصادف الواحد منهم إلا راکما أو ساجدا ، فهل كان هذا كله من توليدات غريزة الاجتماع التي يقول بها الداروينيون وهي لا تمت إلى الاجتماع بأدنى سبب ، بل تنافيه في نظر الكثيرين من العلماء ؟

تأييد الفطرة الانسانية لتعاليم الانبياء :

ماذا حمل الانبياء للأمم من التعاليم ، وأى شئ أعادوه المجتمعات المختلفة في خلال العصور ؟ إن بضاعة الانبياء معروفة في كل زمان ومكان ، وهي تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها في حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الانسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك تلفت نظر الناس إلى أنف للكون صانعا قديرا حكيما ، وأن لهم روحا قدر لها الخلود في حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذي يرتكبه الانسان في حياته الأرضية ، ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه في تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديما ولا حديثا أمة تغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول ، حتى والانسانية في أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل في الدين إلا واحداً وتكاليف وإشارات وتوضيحات ؟ فلو كان الانسان طينا محضا لما هوى الى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطري اليه .

وقد بلغ نحو ألف وخمسمائة مليون نفس اليوم من المدنية شأوا لم تكن تعلم به الجماعات التي سبقتها في الوجود ، ومع هذا فهي لا تزال تدين بنسوة أربعة أو خمسة رجال مصى على أقربهم عهدا نحو أربعة عشر قرنا ، ولم ينقطع أنبه الماديين ، رغمهما كتبوا في صرف الناس عن هذه السبوات ، أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئین . مع أن في تعاليم بعض هؤلاء الانبياء ما يكرهه الى النفوس الحياة الأرضية ، ويعتد المتع الجسدية رجسا من الأرجاس ، فإن فيهم ، وليس من أقلهم أتباعا ، من يقول إن جميع المطالب البدنية أفذار لا تليق بكرامة الانسان ، وأن ليس يحبه منها إلا الفناء في الله . وفيهم من يقول ، ولا يقل عن سابقه في عدد الاشياء . من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر ، ومن سرقك رداءك فأعطه قبضك .

فما السر في نقاء هذه الأديان الى اليوم سائدة على الأمم المنعدنة رغمهما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؟ السر غلبة طائفة علوية على الفطرة البشرية الأرضية ، فهي تدين بهذه الأديان على ما فيها لأنها تنسجم من حلال تعاليمها عرف الوحي السماوى الذي تولاها في طفولتها ، وقومها في شببتها ، وعزها في شيخوختها ، ولا يزال ينعحها في سويدها فتوادها بما يرثها ويكملها .

العوامل النفسية الخفية في حياة النبوات :

يشهد الكتاب الماديون في ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الانسانية ، بحجة مذاطنها للعلم من ناحية ، وعدم حاجة الاجتماع اليها من ناحية أخرى . ويفعلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقص ، وما حيلتها فيمن جحدوا على ما هم عليه ، ولم يبالوا بما جد في العلم من الفتوحات التي أقامت ألوانا من العلماء وأقدمتهم في أرومة أرجاء المعمور ، ولا تزال تفعل في النفسية الفلسفية الأفاعيل ؟

وما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع الى النبوات فيمن عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ، فإن المجتمع كالجسم المحي يبنى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه . أما وهو لم ينف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التي تستخدم لصرفه عنها ، فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها . فيجب على كل باحث في أطوار الانسان أن يدرك سر تمسكه بها رحما عن جميع الشبهات التي أثبتت حولها . وإذا شئت أن نقص عليك بما انتهى إليه علمنا في هذا الشأن فإليك

لا جدال في أن العلوم والفنون قد آتت الانسان بكل ما هو في حاجة إليه من مقومات الحياة ، وهي دائمة على إيتائه منها بما لا يدع له ممها حاجة الى المزيد ، ولكنها قد عجزت الى اليوم عن إيتائه بأعز مطلوب لديه ، وهو (العزاء) الذي لا بد منه حيال ما يشابه من صروف الأيام ، وكراث الخلدنان في الأهل والنفس والمال .

ماذا يعني الانسان أن يحاط من طرف الصنائع ، ونحف الفنون ، وبذائع المخترعات بما يجعل حياته طيبة هنيئة ، وبما يجيبه في استبقائها واستدامتها ، ويزيده تشنأ فيها ، وولولها بها ، وهو لا يلبث أن يصاب له عزيز عليه بمرض فيعجز عن علاجه فطس الأطباء ، ثم يختطفه الموت من حابه فلا تقوى قوى العالم كله على تخليصه من أنيابه ، فإذا شيمه الى متواء في الأرض ، وطاد ييكبه وينديه أياما وشهورا ، وبدأ يعاود حياته العادية في وسط هذا النعم المذني العظيم ، برغت سكراته أخرى من هذا النوع في عصو آخر من أعضاء أسرته ، أو أصيب هو بمرض خطير يفقده لذة العيش ، ويجعله حيا كيت ، لا يستطيع حراكا ولا همسا ، ويتراءى له الموت كاشرا عن أنيابه بين لحظة وأخرى ، ويدخل إليه الأساة ويخرجون فلا يستطيعون إسعافه بما يعيده الى حالته الأولى أو ما يقاربها ، وقد يكون في عنقوان شبابه ، ورقيق صباه ا

هه قد عمر حتى بلغ من السن عتيا ، ثا الذي يميزه عن شبابه الذي تصوحت زهرته ، وأخلقت ديباجته ، وعن قواء التي غارت حتى أصبح لا يستطيع النهوض ، وطالعه وجه الموت شاحبا مزعجا في كل لحظة من وجوده المتعب المثقل بالهموم ؟

إن هذا العزاء للانسان حاجة لا تمدها حاجة عنده ، وقد حاول أن يجدها في كل ما تسمح له به العلوم والصناعة فعمجت ، وعمد الى صرف عقله عنها بالصهياد والمزاهر والدخوف ففشلت ، بل زادت به إنيالا في المعلوم !

هذه الحاجة الماسة الى العزاء وحدها الانسان في تعاليم النبوات ، فهي التي تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا الى كلمة طيبة توجه اليه ، وأمل — ولو صغيرا — يعتمد عليه ، فاضطر أن يبتل على هذه التعاليم ، متربصا بالعلم أن يفتح عليه بما يؤيدها ، وقد ظهرت بوادر هذا الفتح بما اتفق له من بحوث تجريبية في عالم الروح ، فاكتملت بذلك تعاليم النبوة سلطانا جديدا على العقول ، وكلما تقدمت تلك البحوث ازدادت مرتبة للنبوة إشراقا ، مصداقا لقوله تعالى :
« لاغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز »
محمد فرير ومجدي

كيف كان مجازيهم

يحفظ تاريخ الأدب العربي أخبارا لبعض المجاذيب في زمان ازدهار الدولة الاسلامية ، منهم هلول وعلبان وسعدون وممنون وشقران وغيرهم وقد عزيت اليهم أشعار ، وأقوال ، ونحن وإن كنا نشك في صحة نسبتها اليهم إلا أننا نوردنا على سبيل الفكاهة .
من ذلك من رواه عيسى بن علي قال : رأيت سعدونا والصبيان يرموه بالحجارة فصرفتهم عنه . فقال لي بعض الصبيان : أنه يزعم أنه يرى ربه . فقلت له ما تسمع مقالة الصبيان . فقال يا أخى مذ عرفت الله ما فقدته ثم قال :

زعم الناس أنني محزون	كيف أسرولى فؤاد مصون
علق القلب بالبكا في الدياجي	وهو فلقه مغرم محزون
وقال اسماعيل بن عطاء صررت بسعدون فلم أسلم عليه فنظر الى وقال :	
ياذا الذي ترك السلام تعمدا	ليس السلام بضائر من سلما
إن السلام تحية مبرورة	ليمت تحصيل قائلها مغرما
ومن شعر سعدون أيضا :	

لئن أمسيته في ثوبي عديم	لقد بلبا على حر كرم
فلا يحزنك ان أبصرت حالا	مغيرة عن الحال القديم

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » :

رأينا بعد تفسير هذه السورة الشريفة بما يسهل الله تعالى أن نجيب داعي المقام ولننزه هذه القرصة فنذكر فقاري الكريم بعض ما جاء عن فلاسفة أوروبا بما يناسب ما نحن فيه ، علما بأن كثيرا من أبناء هذا العصر ينأثرون بذلك فضل تأثر . وعلى كل حال فقد قالوا قديما :
« والفضل ما شهدت به الأعداء » :

ذكرنا لك في بعض ما كتبناه أن العقيدة بالله فطرية ضرورية ، لا يلهيك عنها إلا الغفلات المتركة ، أو الجهل الذي يفوق جهل الحيوان ، فإن الحمار مثلا إذا ضرب التفت ليعرف الضارب ، لأنه لا يتصور أن هناك ضربا بلاضارب أو أثرا بلا مؤثر . فمن رأى هذا الوحد وما اشتمل عليه من حكم وأسرار وآيات تدهش الأنظار وتحير الأفكار ، ثم لم ينتقل منها إلى الإحساس بعظمة الواحد القهار المتكرر الجبار ، فهو أجهل من ذلك الحمار ، بل أخط رتبة من الأحجار التي تسبح خالق الليل والنهار : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فسبحانه من إله عظيم ، ورب حكيم .

وبالجملة فمن يتأمل في هذا العالم وما هو عليه من الوضع المظم والترتيب المحكم الذي وضعه البارئ الحكيم لكيفية التوالد وتكاثر الأجناس مع تمايزها وتشابه أفراد الأنواع مع مزيد كثرتها ، وتضامن جميع المخلوقات علويها وسفليها وصغيرها وكبيرها مع ما فيها من الحكم المدهشات ، وترتيب أنواع الكائنات ، وارتباط العلل بالمعلولات ، وضرورة خدمة بعضها لبعض وما أودع فيها من القوى المختلفة والأسباب المتباينة ، وما تشاهده كل وقت من إخراج الحي من الميت والميت من الحي - من نظر في ذلك كله علم أن جميع الكائنات معجزات إلهية تفوق المدارك البشرية ، وتنطق بعظمة الله الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير « إن في خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » « فليظفر الإنسان ثم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » « وكأن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » إلى آخر ما جاء في القرآن وقام عليه البرهان . ولندع ذلك فهو معلوم للقارئ أو لجميع المؤمنين .

ولنتل عليك من كلام الفلاسفة الأوربيين في تعظيم الله وبيان كبريائه فنقول :
قال الفيلسوف أرسطو : « إذا أردنا أن نقرب لك امر الخالق عز وجل فنصور فكرة لانهاية لها مركزها في كل مكان ومحيطها ليس له مكان » . وهنا يحسن أن نقرأ قوله تعالى : « وهو الله في السموات وفي الأرض » . « فأينما تولوا فثم وجه الله » . « وهو معكم أينما كنتم » « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » . وقال الفيلسوف اليوناني أبيقور : « العقيدة بالله مستحضرة عظمتها يجب أن تكون مستمرة كاستمرار النفس » . وقال شوتانز : « لم يتجأ على نكران الله غير الإنسان » . وقال ش . حوتيه : « الله هو الكائن الذي لا يدرك ولا يوصف ومع هذا فهو ضروري » ويقول : « إن ضماؤنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن نكتشفه لنا عقولنا » . وقال لامارتين : « إن ضمير غالبا من الله كالحكمة الخالية من القاضى » . أقول :
وأكثر المحاكم الآن خالية من ذلك للقاضى . وقد أذكرنى هذا قول القائل

عدى ضمير لست أرضى بيمة بجميع ما في الأرض من أموال
وها ضماؤ لو أردت شراءها لأخذت أغلاها بربع ريال

وقال بيلوتان : « الله هو الحياة العامة فهي الأصل والمرجع لكل حياة »
وبعد : فيحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة من القدماء والمحدثين على وجود الخالق عز وجل فنقول :

قال المسيو بوسنيت في كتابه المسمى « التذكرة » في تاريخ البرهان على وجود الخالق :
« اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره في الخالق اعتقاد أصطراي قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما سعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يحد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التي نادت صامته وصار لها أكبر الآثار في حياته ، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، في

الحالة الاولى يرينا التساوي الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم وحكمة بين الناس بالمدل تكافؤ على الحسنه والسئته سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المستقبلية . وقد قرأنا بحثا كتبه الفيلسوف الكبير « مومنيه » يثبت به وجود الخالق ، قال : « إن افترضنا بطريقة تعلم عن متناول العقل أن السكون خلق بلا فاعل مرید مختار ، وأن الانتفاضات المتكررة توصلت الى تكوين رجل ، فهل يعقل أن الانتفاضات أو المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما في الشكل الظاهري ومباينا له في التركيب الداخلى وهو المرأة ، لأجل صمارة الارض بالناس وإدامة النسل فيها » ثم قال : « أليس يدل هذا وحده على أن الوجود خالقا مریدا مختارا أبدع الكائنات ونوع بينها ، وغرز في كل نوع غرائز ، ومتمه بمواهب يقوم بها أمره ويرتقى عليها نوعه ؟ »

أقول : أشار القرآن الى ذلك بما يملو تلك البراهين المنطقية والأساليب الجدلية ، فذكر ذلك البرهان في قالب يستهوى المدارك والأرواح معا ، فهو ملك للوجدان من كل برهان ، وبتين أنها آية نستريح الانظار ، وتستوى العقول والأمسكار ، فقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ولا تنس أن القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى ما يعوق كل دليل ، وله في ذلك سبيل هو أوضح من كل سبيل ، مثل قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » وكقوله « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » الى غير ذلك مما لا يخفى عليك . وقد قلنا : إن القرآن ينطوى على شيء كثير مما يعمل في النفوس أكثر مما تعمل البراهين المنطقية والمحاولات الجدلية .

وبحسبنا وقد تصدينا للنقل عن الفلاسفة أن نذكر لك هنا المعادنة التي حادت بها سقراط أرسطوديم بخصوص الالهية ، وذلك أنه علم أن أرسطوديم هذا ينكر الالهية إسكارا باننا وقد غلا في ذلك ، فقال له :

قل لي يا أرسطوديم : أوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أرسطوديم : نعم

سقراط : أخبرني عن أمثالهم

أرسطوديم : أعجبني الشعر الروائي « هومير » وفي صناعة التماثيل بيوليكتيت ، وفي التصوير بزوكتيس

سقراط : أى الصانع في نظرك أولى بالاعجاب : لذي يصور صورا بلا عقل ولا حراك ، أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أرسطوديم : وحق « جوبثير » يريد الزهرة - أن أولاهما بالاعجاب هو الذى يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة إذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن نعتبرها من نتائج الاتفاق أو من نتائج الإدراك :
التي غايتها ظاهرة ، أم التي مفاعها مشكوك فيها ؟

أرسطوديم : من العدل أن أقول : إن الكائنات ذات النفع هي أولى أن تنسب إلى عمل الإدراك

سقراط : ألا ترى أن الذي يطر الناس قد أعطاهم ما لديهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم العين للنظر ، والأذن للسمع ؟ وماذا كانت مجدبنا الروائح إن لم تكن لنا أنوف ؟ وهل كنا نضعر بجمرة المر وحلاوة الحلو إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيلة أن تكون العين رقتها وسهولة تأثيرها قد تمتعت بالأجفان التي تقفل وتفتح بالارادة وتسدل على العينين وقت العاص ، وقد حليت أطرافها بأشبه شيء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتحمي تساقط العرق إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات بدون أن تمتلئ فقط - إلى أن قال : كل هذه الأعمال تدل على تبصر واحتياط ، إلى أى شيء تمزوها : للاتفاق أم للإدراك ؟

أرسطوديم : لا وحق « جوبتر » يريد الزهرة - هذه الأعمال إذا نظر إليها الانسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول في الميل المودع في النفوس للتناسل ، وفي الحنان المخلوق في قلوب الأمهات للبهيمة على فلهات أكبادهن ، وفي الخوف الموحود في تلك الكائنات من المطب ؟

أرسطوديم : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر خلق الحيوان على ما تقتضيه الحكمة .

سقراط : أتعتقد أنك قد تحليت بعقل وإدراك وأنت كما تعلم لا تقارن بشيء من الوجود وأن هذه المخلوقات كلها المتمتعة بإدراك مثلك لا تحتاج لعقل يرتب علاقاتها ويقيم أمرها على قاعدة النظام ؟

أرسطوديم : أنا أنكر ذلك وحق « جوبتر » ، فإني لا أرى ذلك الصانع كما أرى الصانع من الناس .

سقراط : إياك لا ترى كذلك روحك التي تتسلط على أعضائك ، فهل تستطيع أن تقول إن جميع أفعالك صادرة بلا عقل ولا إدراك ولكن بالاتفاق ؟ !

كانت نتيجة هذه المجادلة اعتراف أرسطوديم بوجود الصانع

ولنقف هنا اليوم وموعدا العدد الآتي إن شاء الله

يوسف المهدي

عضو جماعة كبار العلماء

الزينة

الرهن

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرهن يركب بنفقته إذا كان مرهونا ، وليس الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا ، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهودى طعاما ورهنه درعه » رواها البخارى .

يتعلق بشرح هذين الحديثين أمور : (١) بيان معنى الرهن (٢) شروطه (٣) حكم الانتفاع بالمرهون سواء كان أرضا أو دارا أو كسكى أو حيوانا أو غير ذلك (٤) لماذا رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند اليهودى مع أن المسلمين كانوا يومئذ كثيرين وهو كان سيدهم بدون منازع ؟

(١) يطلق الرهن فى اللغة على الثبوت والدوام ، ومن ذلك قولهم : نعمة راهنة بمعنى دائمة وثابتة ، كما يطلق على الحس ، ومنه قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » أى رهن وحبس بكسبها بحيث لا ينفك عنها عند الله تعالى سواء كان خيرا أو شرا . والمراد بالمباغة فكأن النفس هى عين الرهن ، وقد يطلق على نفس العين المرهونة ، فإذا وضع شخص مينا عند شخص آخر لتتوب مباب ما أخذه منه من مال أو غيره فانه يقال لتلك العين رهن ، مثلا إذا افترض شخص من آخر مائة جنيه ووضع عنده دارا لتتوب مباب الجنيهات فانه يقال لهذه الدار رهن . وكذا إذا أخذ منه ناقة ووضع عنده ثورا ليؤوب مباب ناقته ، فانه يقال لهذا الثور رهن . وأما معنى الرهن فى الشرع فهو : « جعل عين لما قيمة مالية فى نظر الشرع وثيقة يدين بحيث يمكن أخذ ذلك الدين أو أخذ بعضه من تلك العين » . وهذه العبارة معناها ظاهر معروف عند الناس ، وإن كان فى بعض ألفاظها خفاء يظهمه طلبه العلم ، وذلك لأن الغرض منها أن يستدين شخص من آخر ديناً ويجعل له فى نظير ذلك الدين عقارا من أرض أو نحوها ، أو حيوانا محبوسا تحت يده حتى يقضيه دينه ، ذلك هو المعنى المراد ، فعنى قولهم . وثيقة : شئ متوثق به ، مأخوذ من وثق كظرف إذا صار وثيقا محكما ، وذلك لأن الدين أصبح بحبس هذه

العين محكماً لا يسع المدين إلا سدادها أو تضييع عليه هذه العين كلها أو بعضها بحسب ذلك الدين . هذا وقد اصطلح الفقهاء على تسمية مالك العين (رهن) ، وتسمية صاحب الدين الذي يأخذ الرهن في نظير دينه (مرتهن) ، ومن هذا تعلم أن العين المرهونة قد تسمى رهناً وصاحبها الذي رهنها يسمى راعها ، وصاحب الدين يسمى مرتهناً .

(٢) أما شروط صحة الرهن ، فمنها العقل ، فلا يصح أن يكون أحد المتعاقدين (الرهن أو المرتهن) مجنوناً ، وهذا الشرط متفق عليه طبعاً ، ولا بد منه في جميع العقود . ومنها البلوغ ، فلا يصح أن يكون أحدهما صبياً غير مميز ، لأنه في حكم المجنون باتفاق أيضاً . أما الصبي المميز فإنه يصح أن يكون راعها أو مرتهناً لأنه يعرف معنى المعاملة ويدرك ما يترتب عليها من منافع ومضار ، ومع هذا فإن عقده لا ينفذ إلا إذا أقره الولي ، وفي ذلك من الحيلة ما لا يحمل بين عقد وليه وعقده فرطاً مادام المرجع في النهاية للولي ، ولذا اتفق الأئمة على هذا ما عدا الشافعية ، فانهم هم الذين قالوا : إن رهن الصبي لا يصح ولو كان مميزاً ولو أذنه وليه . وعلى كل حال فالخلاف في هذه المسألة هين . ومنها أن لا تكون العين المرهونة غير معينة بمحدودها ، فلا يصح رهن المشاع سواء كان عقاراً أو عروض تجارة ، أو حيواناً ، أو غير ذلك ، وهذا الشرط اتفرد به الحنفية ، وخالفهم غيرهم ، فقالوا إنه يصح رهن المشاع . مثلاً إذا كان لشخص دين على آخر ، فله أن يرهن له بدنه جزءاً من داره المملوكة له مقابل ذلك الدين سواء كان شريكاً له في هذه الدار أو لا ، فإذا ملك شخصان داراً فإن لأحدهما أن يرهن نصيبه المشاع لشريكه كما إذا كان يملكها وحده ، وكذا إذا كان يملك شخص تجارة من قح أو عمل أو نحو ذلك ، فإن له أن يرهن جزءاً مشاعاً منها ، مثلاً إذا كان لشخص محل تجارة (دكان) به بضاعة من قماش أو غيره ، فله أن يرهن بعض هذه البضاعة كصفتها أو ثمنها مشاعاً ، ومثل ذلك ما إذا كان يملك جملاً أو حملاً ، فإن له أن يرهن بعضه مشاعاً ، وقد عرفت أن هذا الحكم لم يخالف فيه سوى الحنفية ، فانهم قالوا أنه يجب أن يكون المرهون متعيناً ، فلا يصح رهن المشاع سواء كان يحتمل القسمة أو لا ، وسواء رهنه لأجنبي أو لشريكه ، فلو كان لشخص دين على آخر ، وكان شريكاً له في داره أو في أرض زراعية ، فإنه لا يصح له رهن نصيبه لشريكه إلا بعد القسمة وفرر نصيب كل منهما ، ومنها أن تكون العين التي يراد رهنها موجودة وقت العقد ، فلا يصح رهن الثمرة التي لم توجد ، فإذا رهن شخص ثمر حديقته قبل وجوده فإنه لا يصح لأن مالكه لا يقدر على تسليمه وقت العقد ، وهذا متفق عليه بين ثلاثة من الأئمة ، وخالف المالكية ، فقالوا إن رهن غير الموجود فعلاً جائز ، وإن كان لا يجوز بيعه ، على أنهم اختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم إذا كان المرهون معدوماً وقت العقد بالكلية فإنه لا يجوز رهنه ، وذلك كثمر الحديقة قبل يروزه (طرحه) ، أما إذا برز ولو كان صغيراً فإنه يجوز رهنه باتفاق .

و بعضهم قال يجوز رهن الممدوم بالكلية . فلو رهن شخص ثمر حديقته سنين كثيرة ، فإن الرهن يصح ، وكذلك إذا رهن ولد الباقه وهو في بطنها فانه يصح . وعمل هذا الخلاف عندم ما إذا علق الرهن على عقد آخر من عقود البيع أو القرض . مثلاً أن يقول شخص لآخر بعتك هذه الناقه بثمان كذا الى أجل كذا بشرط أن ترهن لي ثمر حديقتك سنتين أو أكثر أو أقل . أو يقول له أفرضتك عشرين حنينا بشرط أن ترهن لي ما تنسحه غصبك سنة أو سنتين ، فهذا الرهن هو المختلف في صحته عند المالكية . أما إذا رهن ثمر الحديقة ، أو ولد الناقه التي في بطنها بدون أن يعلقه على شيء آخر فانه يجوز بلا خلاف عندم . فإذا رهن ثمر الحديقة قبل أن يظهر صلاحه فانه يصح ، وينتظر حتى يضيح ، ثم يأخذه إن لم يرد له دين الرهن .

وقد يقول بعض الناس ما حكم بيع ثمار الحدائق والبخيل قبل بروره (طرحه) ، فإن هذا الحكم كثير الوقوع بين الناس ، وقد اعتاد المسلمون أن يتبعوا في معاملاتهم القواني الوضعية بدون نظر الى ما نقله أئمة الدين من القواعد والأحكام ، وفي ذلك من الجراءة على هجر قواعد الاسلام ما لا يخفى ؟ والجواب : أنه يجب على المسلمين أن يستمسكوا في جميع معاملاتهم بقواعد دينهم ، ويصرفوا أنظارهم عن القواني الوضعية التي قد تصرم أكثر عما تسعهم . أما حكم بيع الثمار قبل أن يظهر صلاحها أو قبل (طرحها) فإليك بيانه .

اتفق أئمة المذاهب على أنه لا يصح بيع الثمار قبل أن تبرز ويظهر صلاحها ، وظهور الصلاح يكون بأمور قد فصلها علماء المذاهب . منها اللون وهو علامة لصلاح البلح والعناب ، ومنها العلم كحلاوة القصب وحموضة الرمان ، ومنها النضج ويظهر في البطيخ والتين فتي نضج فانه يظهر صلاحه ، ومنها الاشتداد كالقمح والشعير ، فتي قوى حبه واشتد فقد ظهر صلاحه . ومنها الطول والامتلاء كالموخية والفصولياء والبرياء . ومنها انشقاق الغلاف كالقطن والحوز . فهذه الأوصاف علامة لظهور الصلاح عند الشافعية . وقد وافقهم المالكية في كثير منها فقالوا إن ظهور صلاح البلح والعناب باصفراره أو احمراره ، ويلحق به القناون والحرش والمجور (العبد الاوى) والدميري (الشهيد) ، وبعضهم يقول إن هذه الأنواع لا يلزم فيها الاصفرار بالفعل بل يكفي أن تقرب من الاصفرار ، أو الأمر في ذلك سهل ، أما البطيخ فظهور صلاحه يكون بتلون لبه بالأحمر أو الاصفرار ، وعلى هذا فلا يصح بيع البطيخ الذي لونه بيض إلا إذا كان ذلك اللون طبيعيا له فلا يتأ في حلاوته . وبالجملة فظهور صلاح الثمار عند المالكية مداره على إمكان الانتفاع بها ، ولو بعد قطعها بزمان كالوز فانه يصح بيعه وهو أخضر لم يستو لأنه يمكن وضعه في تبن أو نخالة أو نحو ذلك فيستوى ، وما ذكره من تفاصيل العلامات الدالة على ظهور الصلاح فاعلموا يقصدون منها ذلك . مثلاً القمح والحبوب فإنهم يقولون إن ظهور صلاحه بيبسه وانقطاع سقيه بالماء بحيث لو سقى بالماء لا ينفع به ، وهذا معنى إمكان الانتفاع به

لأنه في هذه الحالة يكون (مريكا) إذا كان قحاً ، ويكون حبا ينتفع به إذا كان غير قح . أما الحنفية فإنهم يقولون إن ظهور صلاح الثمرة هو أن يؤمن عليها من الماهات والفساد ، فتى احتارت الثمرة الأدوار التي تكون فيها عرضة للفساد بسبب الآفات الجوية وغيرها فقد ظهر صلاحها وصح بيعها منفردة عن غيرها ، أما إذا لم يظهر صلاحها بهذه الحالة فإنه لا يصح بيعها منفردة مطلقاً . والحابلة يقولون ظهور الصلاح في الثمر هو أن يضح ويطيب أكله ، وفي الحب هو أن يشتد أو يبيض ، وإذا اشترى ثمرة لم يتوفر فيها هذان الشرطان فإنه لا يصح شراؤها إلا إذا اشترط قطعها في الحال .

ومن هذا تعلم أن أئمة المذاهب قد أجمعوا على أنه لا يصح بيع الثمار والفواكه قبل أن تبرز على شجارها ويظهر صلاحها بحيث يمكن الانتفاع بها . ومن الأسف أن هذا الحكم مهمل تمام الإهمال فإما نرى أرباب الأملاك يبيعون ثمار حدائقهم ونجيلهم قبل بروزها ولا يبالون بأحكام شريعتهم مع أنها مطابقة للعقل وموافقة للمصلحة من جميع جهاتها ، إذ من الواضح الجلي أن الشجر قد لا يشمر أو قد تتسلط عليه آفة تدمر ثمره قبل أن يشتد وفي ذلك من الضرر على المشتري ما لا يخفى . أما المالك فإنه مكلف عقلاً وشرعاً أن يبيع سلعة ينتفع بها المشتري ، فليس من قواعد التعامل بين الناس أن يبيع المالك شيئاً معدوماً أو يبيع شيئاً محتمل الوجود والعدم . ولا يقال إن البائع لم يجبر المشتري على الشراء هو الذي قذف بنفسه في هذا المضيق ، لأننا نقول إن الشريعة الإسلامية فرصت على البائع أن يتعفف عن التفرير والاجفاف ، فإذا وجد شخص مجازف يريد أن يشتري منه ما لا يحل له يبيعه فإنه يجب عليه ألا يوافق على هذا ، وبذلك تتوثق صلات المودة بين الناس ، وتزيد وسائل الثقة بينهم .

(٣) أما حكم الانتفاع بالرهون فينبغي أن يكون محل عناية ونظر دقيقين ، وذلك لأن علاقته بالربا ظاهرة ، فإن الذي يقرض شخصاً مقداراً من القدين فائدة كالذي يرهن عقاراً أو نحوه في نظير مبلغ ثم ينتفع بهذا العقار ، لأن الانتفاع بالعقار هو الفائدة التي يأخذها رب المال على قرض المال . ولهذا منع الشافعية الانتفاع بالرهون بثاناً ، فليس للراهن أن ينتفع عندما بالرهون على أي وجه . وفائدة الرهن في هذه الحالة هي توثيق الدين وضمانه بحيث إذا لم تؤده الراهن في الموعد المحدد فإنه يجبر على سداذه . أما بعض الأئمة فأنهم رأوا أن الانتفاع بالرهون يمكن أن يفارق الفوائد الربوية ، فيصح الانتفاع بالرهون متى أمكن أن يفارق عقد الربا ، وذلك بأن يرهن له العين ويأذن له في الانتفاع بها بشرط أن لا يذكر ذلك في عقد الرهن . ومتى أذن بالانتفاع فإنه لا يصح له الرجوع بعد ذلك . وهذا هو رأي أكثر الحنفية ، وقالوا إن لذلك نظيراً ، وهو ما إذا اقترض من شخص قرضاً ثم أهدي له هدية ، فإنها إذا لم تكن مشروطة في العقد كانت جائزة . أما إذا اشترطها في العقد فإنها تكون مكروهة فقط . وأظن أن في هذا الرأي سعة ، لأن الناس يصعب عليهم أن يتركوا أموالهم بدون استثمار خصوصاً

في هذا الرهن الذي غلبت فيه المادة ، وقد تقف مصلحة الشخص المالية إذا لم يرهن جزءا من ملكه يسد به حاجته الضرورية . فرأى جمهور الحنفية في ذلك مناسب لهذا الزمان بدون نزاع . أما المالكية فاهم أحازوا الانتفاع بثمرة المرهون ونتاجه ثلاثة شروط :

(أحدها) أن يكون الدين بسبب البيع لا بسبب القرض مثال ذلك أن يبيع شخص لآخر دارا أو أرضا زراعية أو عروض تجارة أو نحو ذلك بشمن ، ويحل ميرهن له في نظير ذلك الدين عينا لها فائدة فإن لصاحب الدين وهو المرتهن في هذه الحالة أن ينتفع بفائدة هذه العين المرهونة . (ثانيها) أن يشترط المرتهن (صاحب الدين) أن تكون منفعة العين المرهونة له ، فإن تطلع له بها الرهن فإنه لا يصح . (ثالثها) أن تكون مدة المفعة التي يشترطها معينة . وغرض المالكية من ذلك إنما هو القرار من الرياء ، وذلك لأنه إذا أقرضه مائة جنيه مثلا ، ورهن له بها فدانا وانتفع بفلته ، كان ذلك فائدة ربوية لأن الفائدة في هذه الحالة تكون في نظير القرض . أما إذا باع له فدانا بمائة جنيه مؤجلة فقد أصبحت المائة جنيه دين يبيع لا قرصا . فإذا رهن منه دارا في نظير ذلك الدين وانتفع به فإنه يكون جائزا لأن المنفعة ليست مقابلة للقرض ، وإنما هي مقابلة لدين البيع . وقد وافق الحاشية المالكية على هذا الحكم ، فقالوا إن كان سبب دين الرهن قرصا فإنه لا يصح الانتفاع بالمرهون ، وإلا فإنه يصح .

هذا وقد أجاز الأئمة الانتفاع بالحيوان المرهون من لبن وركوب ونحو ذلك في نظير أكله كما هو منصوص عليه في الحديث الذي معنا .

(٤) أما كون الرهن جائزا فذلك مما لا خلاف فيه ، فقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع . فقد عرفت في الحديث الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رهن درعه عند اليهودي . وبما لا ريب فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قادرا على الحصول على كل ما يمكنه من زخارف الحياة الدنيا وزينتها ، وكان قادرا أن يختص بكل ما فيه مظاهر الملك وأبهة السلطان ، ولكنه رسول الله حقا ، فقد عرف الدنيا حق معرفتها ، وقدر ما يترتب على شهواتها وملذاتها حق قدره ، فرفض من نعيمها الزائل وشهواتها المفرية ما لا فائدة فيه للمجتمع الإنساني . ولهذا كانت تأثية الأموال أكواما فيوزعها على مستحقيها بدون أن يأخذ منها كثيرا أو قليلا . ولقد روت زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها أنهم كانوا يمشون في الشوارع والشهريين بدون أن يوقدوا في بيوتهم نارا ، وكانوا يعيشون على الماء والتمر ، فلا يحب أن يرهن رسول الله درعه عند اليهودي لغرضين : أحدهما أنه صلى الله عليه وسلم قد انصرف عن مظاهر هذه الحياة الدنيوية وزخارفها مع أنه هو الذي كانت تهتز لذكركه عروض القياصرة ، وكانت تحبب إليه الأموال أكادسا مكدسة . ثانيهما للإشارة إلى ما عليه الدين الإسلامي من سمحة وتساهل مع أهل ذمته من الكنايين ، فإنه لا يفرق في المعاملة بينهم وبين غيرهم حتى في الأمور الشخصية التي يصح أن تكون مقصورة على المقربين من المسلمين ، ولكنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون قدوة للناس في قوله وفعله . عليه الصلاة والسلام ؟

عمر المرحوم الجيزري

ذكرى ميلاد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم

جعلت الذكرى رمزاً على الأحداث الحسام ، ودليلاً على التطور في حياة الأفراد أو الجماعات أو الأمم ، أو العالم بأكمله : كحادث الطوفان الذي عم ماؤه الأرض . وما هذه الحوادث الخطيرة في التاريخ إلا غزلة البوتقة للذهب ، فهي تجمع عود المرء ، أو الجماعة ، أو الأمة ، أو العالم ، ليتبين غنثه من نعيته ، وحيره من شره ، ونفعه من ضره ، وعند ذلك تجري سنة الله في الوجود ، فيقضى على الفساد ، ويبقى النافع « فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . وما حادث الطوفان ، ومصاداة نوح لاسه ، وطلب الشفاعة له من الله تعالى وحواب الله تعالى له إلا تمحيصاً لهذا العالم ، وتصفية له من عناصر الفساد التي يضطرب بها نظامه ، وينقوض بنيانه . ولعمري تلك هي المداهب الحديثة القائمة بقاء الأصلح ، وفناء غيره من مادة هذا الوجود الذي خلقه الله غاية في السكال والابداع .

« فتبارك الله أحسن الخالقين »

ونحن إذا تاملنا من نريد إحياء ذكرى مولده في هذا اليوم ، تواردت علينا آثاره وفصائله على النوع البشري ، آخذة بعضها بحزن بعض . فقد كان بين الناس سادة وكبراء ، وعبيد وضملاء ، ومقلدون وزعماء ، وكان هذا التفاوت سائداً في كل شيء من مظاهر الانسانية حتى في العقيدة نفسها ، فقد حرم الانسان من استعمال عقله ، والسير في العقيدة على مقتضى فطرته ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينطق بالحق ، ويهدم هذه التقاليد المنافية لطبيعة الكور ، والمعلقة لمواهب البشر . قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . فلم يجعل الاسلام بارزاً بين الناس عند الله إلا بالتقوى التي هي القسطاس المستقيم بين المرء وربّه ، وبينه وبين غيره من بني نوعه . فمن اتقى الله حق تقواه ، راقب حدوده واتبع أوامره ، واجتنب منهياته ، فسلمت الناس من شره ، ومن موبقات جوارحه ، حفظ لسانه عن نهش الأعراض ، والسعي بين الناس بالهينة والافساد ، والتقوى عليهم ما لم يقولوه ، وحفظ أذنه من سماع المنكر ، وغض نصره عن النظر إلى المحرم ، وبالجملة فالتقى من استعمل مواهبه وحواصيه فيما

خلقت لأجله من الأعمال ، والأقوال النافعة التي تحمل النوع الانساني يفيض بالسعادة ،
وبهنا بالعيش الرغد . وبذلك يفضل الشخص على غيره ، ويحظى بالرفعة عند الله الذي امتحنه
بالشبهات ، وزخرف الحياة ومتاعها ، فكان أداة صالحة في البيئة التي ممكن له فيها ، ويقبوعا
بفيض الخير على من يجواره .

ولئن تأملنا أصول القوانين الحديثة ، وما يفتخر به المشرعون ، لوجدنا أسسها ضاربة بقدم
ثابتة في شرعة محمد صلى الله عليه وسلم . فذهب المسؤولية الشخصية ، وما تفرع منها من أحكام ،
وما تطبق عليها من حوادث ، قد جمعها القرآن الكريم في آيات محكمة قليلة العدد كبيرة الفائدة
قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » ، وقال : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا
ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » ، وقال : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم
توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » الى كثير من آي الذكر الحكيم التي بينت حدود
المسؤولية الشخصية في غير خفاء ، وأوضحتها في غير لبس ولا إبهام .

دما الاسلام الى حرية العقل والتفكير في ظواهر الكون ، وعاصر هذا الوجود رغبة
في استخراج خواصه ، وتسخيرها في تدعيم أسس الحضارة الصحيحة التي تحفظ للحياة
صعادتها ، وللنفوس طمأنينتها ، قال تعالى : « الله الذي خلق السموات والارض ، وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم
الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما
سألتهم ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الانسان لظالم كفار » . ولكن الانسان لظلمه
وطمعه في إشباع غريزة التغلب والانتصار وإدلال الضعفاء بقوته ، واخضاعهم لسلطانه ، ما
لبث أن عرف بعض أسرار الكون وخواصه ، حتى جعل منها المهلكات والفواجع ، فقد
صير البر والبحر والهواء مبعث شرور ، وينبوع فناء ، في أبشع حالة تشيب الولدان وتذهل كل
مرضة مما أوضحت من شدة هولها وعظيم أثرها .

ولو نظر العقلاء الى أمهات الفضائل ، وجماع المكارم ، من مروءة وشجاعة ، ورباطة جأش
لوجدوا صاحب هذه الذكرى قد جمعها في أقواله وأفعاله : فقد حجب الفصيلة ودما اليها ،
وحث على مكارم الأخلاق واشتهر بها قبل أن يأتيه الوحي ، أو يرسل الى الناس كافة ، حتى عرف
بين أهل مكة بالأمين : لامن الناس منه في ما لهم ، وأعرضهم ، ودماهم . وإن شئت الدليل
القاطع على ذلك قائل قوله تعالى لنبيه : « وإنك لعلی خلق عظيم » .

ولقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم حسن الخلق حينما سأله رجل عن بقوله تعالى :
« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلین » ، وأتى أحلاق تسمى بالانسانية وتعلموها
من أن يطالب المرء غيره بمسهل عليه في المعاملة بدون تكلف ولا إرهاب ، ويأمر غيره بالمعروف

الذي يجلب الخير ويدفع الشر ، ولا يخوض مع الجاهلين في لغوهم وثرثرتهم ، دون وصول الى حق . وقد روى عن عكرمة أنه قال لما نزلت هذه الآية : قال صلى الله عليه وسلم يا حبريل ما هذا ؟ قال يا محمد إن ربك يقول . هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتقو من ظلمك . ثم هو بعد ذلك كله لم يترك أمته دون أن يضع لها أسس التشريع في معاملاتها حتى لقد روى عنه : « الدين المعاملة » . وقد بين لها المقوبات التي يجارى بها كل من تعدى على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه — وبالجمل : فقد نزل عليه القرآن الذي وصفه الله تعالى بقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » . وقد بين مجالات آي الذكر الحكيم بسفنه القويمة . وروى عنه أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي » . وقد جاء بجوار هذين الأصلين في التشريع أصلاً آخران ، أولهما : جماع خواص علماء المسلمين من بعده على رأى في مسألة لم يسبق الفصل فيها عن طريق الكتاب أو السنة ، وثانيهما : ثبوت الحكم في مسألة سبق الفصل في نظيراتها عن طريق الكتاب أو السنة ، أو الاجماع . وقد اصطلح على تسمية هذا الأصل بالقياس .

وهذان الأصلان هما عماد نمو التشريع ، وصورته صالحا للحكم فيما يجد في هذا العالم من حوادث ، وما يطرأ عليه من تغيير ، تبعاً لما يقتضيه نظام الرق وال عمران ، وما تدعو اليه الحضارة والتقدم . وهذه الأصول التشريعية صلحت الشريعة لكل زمان ومكان .

وقد كانت له مواقع حربية كثيرة ، وغزوات مشهورة وماها التاريخ ، وحفظ صورها نماذج يهتدى بها القائدون ويقتدى بها المجاهدون ، كغزوة بدر وأحد وغيرها من الغزوات التي دلت على الشجاعة في أرق درجاتها ، والاقدام في أسنى معانيه — فزعيمه محمد صلى الله عليه وسلم صلبة قوية في حال انتصاره وهزيمته ويسره وعسره . فاقدامه يوم انتصاره ببدر لا يفوق إقدامه يوم هزيمته بأحد : ففي كلا الحالين كان مجاهداً بأسلاً يوجه جميع حواسه الى غرضه الاسمي ومقصده الاشراف من التفاني في سبيل دعوته ، وحراسة رسالته التي بها السعادة لمن تمسك بها ، وأخلص يقبله لها ، وكانت أعماله الظاهرة صورة صادقة لما تطوى عليه نفسه دون تفاني أو خداع أو محاورة .

ولقد كان لنفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وما طبعت عليه من أخلاق طالية وصفات طيبة ، أثر في أصحابه الذين وصفهم بقوله : « أصحابي كالجوز بأبيهم اقتديتم اهتديتم » . فلو قلبنا صفحات تاريخ هؤلاء الاصحاب لوجدنا كل واحد منهم يجمع صفات لو انتظمت لامة لسمت بها وسيرتها على الصراط المستقيم ، والمنهج القويم . خلفاؤه الراشدون ما وهنت عزائمهم ، ولا ضعفت قواهم بعد موته . فأبو بكر رضى الله عنه حينما وكل إليه أمر الامة الاسلامية

وكانت حديثة المهد بالاسلام ، ارتد بعض قبائل العرب ، ومنعوا الزكاة ، وأرادوا الايمان ببعض أحكام الكتاب دون بعض ، فلأبث أن قال : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليها » وجر ذلك جنودا غلصين رخصت نفوسهم في سبيل حماية أسس الدين الذي ائتمنهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم واستطاع أبو بكر أن يحمل العرب على العمل بقواعد هذا الدين كما تركها النبي صلى الله عليه وسلم بدون تغيير ولا تبديل .

ولم يكن حرص عمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم بأقل من حرص أبي بكر . فلكل يعمل لله ، وفي سبيل الله ، لا يبنى من وراء عمله إلا ابتغاء رضوان الله ، والفوز بجنة عرضها السموات والأرض ، ولم يستأثروا بشيء مما آفاه الله عليهم من هذه الأموال والمائس ، بل جعلوا كل همهم العمل على نصره الدين وحمايته ، فمكن لهم في الأرض : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمما » .
 عبد الله مصطفى المرافعي
 وكيل قسم المساجد

المزاح المرذول

إذا مزح الانسان فليكن مزاحه هينا لينا لا يؤلم نفس الذي يوجه إليه ، ولا يستدعي منه ردا جارحا ، كما هي العادة .

وقد قال الحكماء : المزاح يضع قدر الشريف ، ويذهب هيئة الخليل .
 وقال شاعر :

إياك إياك المزاح فانه يطمع فيك الطفل والرجل النذل
 ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العز صاحبه ذلا
 وقيل : أوكد أسباب الفطيلة المزاح .
 وقال أبو جعفر الطبري :

لي صاحب ليس يخجل من لسانه من جراح
 يحيد تمزيق عرضي على سبيل المزاح
 تقول : ليس يستعمل لدع الناس بلسانه على سبيل المزاح إلا رجل هانت عليه نفسه ،
 لأنه يتعرض بما يفعل إلى أن يسب ويستردل .

الاسلام كما يراه الاوربيون

- ٣ -

تتمة البحث في إلهية القرآن :

عرضنا في الكلمة السابقة لتلك الفكرة الخاطئة التي أذاعها « رينان » عن الاسلام، والتي مؤداها أنه حارب المسلم واضطهد الفلسفة، وأنها بعيدة عن الحقيقة، وذكرنا في معرض الرد عليها طرفا من آراء الأستاذ « كارادى فو » التي ثبت فيها أن القرآن عرض لعدد عظيم من كبريات المشاكل الفلسفية، وسرد ما منها مشاكل : الألوهية والوحدانية والقدرة والتنزه عن الانسان ومخالفة الحوادث . واليوم نتابع بحثنا فيما بقى من هذه المشاكل الفلسفية التي ألق بها القرآن، ثم قال كلمته الحاسمة في حلوطها المختلفة قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية الى العربية . وهاك أهم ما بقى من هذه المشاكل : قال الأستاذ كارادى فو : « إن علم الله يظهر في القرآن كشرط أساسى لقدرته ، أو كساحية من نواحيها ، وهو وارد في ذلك الكتاب بطريقة أكيدة بحيث لا يقل في ثبوته عن القدرة نفسها ، « وعنده مفاع الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تنمط من ورقه إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (١) »

« إن القرآن يؤكد فى وضوح روحانية الإله (٢) التي يلاحظ صلتها الوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال . إن الله عنده هو الذى يحيط بكل شئ ، ولا يمكن أن يحاط به ، وهو المنزه عن كل ما يلحق الأبدان ، وهو أسمى من طبيعة الانسان ، ومن طبائع جميع الكائنات الأخرى ، وهو أرفع من كل ما عدها رفعة تجعل حتى رؤيته مستحيلة « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »

« من هذه النقطة ، وهى نقطة الجلال الإلهى ، نشأت بين المسلمين مشكلة كبرى احتدم حولها الجدل فى عصورهم الفكرية الأولى ، كما احتدم بين المسيحيين من قبل ، وهى مشكلة إمكان رؤية الإله فى حالة الغيبوبة أو فى مقام الشهود

« من الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية فيما يرى القرآن أمر شديد العسر . ففى السور التي تحوى القصص التوراتية يرى القارئ هذا العسر جليا ، إذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كله ،

(١) سورة الانعام آية ٥٩ (٢) معنى هذه الجمله الألوهية فى الاسلام ليست مشوبة بشوائب المادة كالألوهيات فى بعض الديانات الاخرى .

وأن نوحا لم يفر هذه الرؤية بعد نجاته من الطوفان ، وأن إبراهيم — مع أنه خليل الله — لم ير إلا ملائكته ، وأن موسى حين طلب أن يراه أجابه بقوله : « لست تراه ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراه » ، فلما نحى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك « (١) » ، وهذا معناه أنه ندم على هذه الجرأة . وأن عبدا نفسه — وهو خاتم النبيين — لم ير إلا الروح الأمين : الملك جبرائيل ، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن المختارين يستمتعون برأى مسكن جميل ، وحدائق وخلقوات من الجلسين ، ولكنها لم تنص على أنهم يستمتعون برأى الإله . أما في حالة الحكم بينهم ، فهم سيحشرون في حضرة الإله ، ولكن بدون أن يفهم أحد الكيفية التي سيكون بها هذا الحضور ، أو الطريقة التي سينتقم عليها .

« نعم إن في القرآن آيات غريبة في بابها ، إذ يقول بعضها : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمنهم » (٢) والبعض الآخر يقول : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » (٣) » وإذا اقتشأ في كتب التفسير ألفيناها لا نرى في هذه الآيات إلا تشبيها وتشبيلا انتهى

لا ريب أن الأستاذ كارادى فو لم يفهم هذه الآيات على حقيقتها ، فتوهم أن الذى يسمى بين أيدي المؤمنين وبأيمنهم في الآخرة إنما هو الله نفسه ، لأن القرآن أطلق على هذا السامى اسم النور . وقال في آية أخرى : الله نور . ولعل الرجل معذور في هذا الفهم ، لأنه أجنبى مهما كانت درايته باللغة فإنه قاصر عن فهم أسرارها ، ولا سيما أسرار القرآن ، ولكن الذى تأخذه عليه هنا هو أنه اتخذ هذا الفهم الملتوى أساسا لمقد تحبط فيه تحبط لا يليق بالعلماء . وقد تفند هذا المقد حين نعرض لقسم الآراء الباطلة من منتجات المستشرقين .

أثبت الأستاذ « كارادى فو » بعد هذه المقطة أن القرآن عرض لمشاكل أزلية الباري وثباته وبده المخلوق ومصير العالم في الحياة الأخرى ، فقال في الأولى : إن أزلية الإله مثبتة في القرآن ، وإن لم يكن قد ألح عليها كثيرا . وقال في الثانية : إن ثبات الإله يتحارب في القرآن مع أوليته وأبديته وعلمه ، أو هو نتيجة لها ، وهذا الثبات الإلهي يتضح على الأخص في إدارته للكون : « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن نجد لسنة الله تنديلا (٤) » .

غير أن الثبات الإلهي الوارد في القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والأخلاقية . أما من الثبات الميتافيزيكي فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بينه وبين إيجابية الإله وتأثيره في الكون ؟

ولست أدري كيف يعتبر الأستاذ «كارادى فو» القول بثبات الإله مع القول بإيجابيته في القرآن أمرا غريبا، مع أن أرسطو — وهو الذى أسرم بفلسفته — قرر أن الإله ثابت وأنه هو المحرك الأول لجميع المتحركات، مع أن الاجماع منمقد على أن التغير دليل الحدوث، والتحرك دليل التأثر بالمحرك، والثبات لا يتعارض مع الإيجابية، وأن الفرق حتى بين من يفقد الحركة لمجزء عنها، وبين من يتجرد منها لنتزعه عنها. وقال فى المشكلة الثالثة: إن فكرة بدء الخلق ليست محددة فى القرآن تحديدا تاما، لأن نصوصه كنصوص النوراة لم ترفض وجود «الكأوس» (١) الذى صنع منه العالم.

وقال فى المشكلة الرابعة: إن الانسان ليدعش من العبارات الغير المحددة الواردة فى القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو انتهائه: «فأما الذين شقوا فى النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ» (٢) ويعلق الأستاذ كارادى فو على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء لم تؤخذ صراحة من القرآن، وإنما هو يلوح الى الأبدية ولكنه لا يصرح بها، وأن المتكلمين هم الذين قالوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الاغريقية.

ولست أدري م استنتج الأستاذ كارادى فو هذا الحكم؟ إن كان قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والأرض، فإن القرآن لا يريد السموات والأرض الموحدة الآن، وإنما يريد تلك التى عنها بقوله: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» (٣) وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر الذى خلقت فيه، وإن كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الالهية، فإن هذا التقييد لا يفيد إلا إمكان الزوال إذا تعلق المشيئة به. والأستاذ نصفته عالما يعرف أن كل ما عدا الله فى نظر الإسلام ممكن. فنص القرآن على إمكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا الزوال، بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وإمكان الزوال. الإخلاص الفلسفية:

بعد أن انتهى الأستاذ «كارادى فو» من بسط إلهية القرآن، عرض لما فيه من أخلاق فلسفية، فكانت إبانته إياها بمثابة رد قاطع على أولئك المنهقيين والجاهلين الذين زعموا أن القرآن ليس فيه إلا نوع من الاخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين من الاسر بالصدق والأمانة، والنهى عن الكذب والخيانة، وما شاكل ذلك، فأنبت لهم أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية هى فى أسمى درجات النظر. قال:

(١) الكأوس هو المنصر الذى خلقت منه المخلوقات، وهو الماء عند هيراقلى من العلامنة، والهواء عند فريق ثان، والنار عند هيراقلى ثالث، وتسمى غير محمود عند فريق رابع، والسماء عند فريق خامس. (٢) سورة هود. (٣) سورة ابراهيم.

« إن علم الله وحكمته وقدرته ليست مقصورة في القرآن على زمن إيجاد الكائنات ، بل هي تحوطها في مستقبلها الغابر ، لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد إليها من إيجاد المجموعة الكونية . وقد أبان هذه الغاية بكل بساطة في قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (١)

« وفوق ذلك فإن الباحث يلاحظ في القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعة قد صنع لصالح المجموع وللوصول إلى الغاية القصوى منه ، ولا ريب أن هذه هي عينها نظرية التفاضل المستسطة من الإدراك الأولى للإله ، وهو أنه عالم ، قادر ، خير ، كل ما يفعله هو بقدر ، وهو لصالح العام : « والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (٢)

« لا ريب أن من لديه دراية بالفلسفة يلاحظ أن من أجل النظريات التي سمحت بأرسطو إلى الأوج هي نظرية الحزم للمجموع التي أعلن فيها أنه ما دام أن الكل هو في مجموعه خير ، فلا أهمية للجزء ، وما دامت الغاية خيرا فلا يؤبه إلى الشرور الجزئية العارضة في الوسائل ، وذلك كالمطر فإنه ضروري للصالح العام ، فإذا أفسد حبوب فقير ، أو خرب بيت عجوز ، فإن هذا لا يخرجنا عن صلاحيته ، ولا ينقله من مرتبة الخير إلى دركة الشر ، فإذا ألقينا هذه النظرية في القرآن كان ذلك برهاناً على أنه واجه أعور النظريات الأخلاقية كما واجه أدق المشاكل الفلسفية .

عرض الأستاذ « كارادى فو » بعد هذه النظرية لنظرية القضاء والقدر في القرآن ، فقال ما يحمله : « إن القرآن قد ألح كثيراً على ذكر القدر ، ولكن على الرغم من هذا إذا فحص الباحث بعقل هادئ وبدون تحيز ، فقرأت هذا الكتاب المتعلقة بالقدر ، تبين له أنها ليست جبرية إلى الحد الذي ظنه كثير من الناس ، وأنها على الرغم مما تحتويه من إرهاب من القدر ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض . وهاك بعض الأفكار التي تحتويها تلك الآيات فيما أرى : إن الإله يعلم كل شيء قبل وقوعه ، وبالتالي هو يعلم كل البشائ وما يتبعها من عقوبات ، والحسنات وما تستتبعه من مكافآت ، لأن كل شيء قد كتب قبلاً في كتاب محفوظ في السماء . ولا يعني أن يكون لهذا الكتاب وجود حقيقي أو هو رمز لعلم الله بكل شيء ، وإنما المهم هنا أن هذا التعبير يعادل من الجهة الفلسفية تأكيد حقيقة لسانية علم الله بكل ما سيكون : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك

على الله يسير» . (١) وليس معنى هذا أن المصيبة تصيب أحدا ظاهرا ، فأنها إما أن تصيبه عدلا وإما أن تصيبه في سبيل صالح المجموعة ، وهو يموض عنها جزاء في الحياة الآخرة . وليس معناه كذلك أن القدر السابق يلغى الحرية الفردية ، كلا ، وإنما معناه أن الإله لا يحمل شيئا مما سيكون ، وأن لقدر الاختيار بين الطريقين . ولهذا لن يستند في جزائه إلى ما هو مكتوب في الكتاب السابق ، وإنما يستند فيه إلى الكتاب الذي سجلت فيه أعماله . وفي هذا برهان على أن الجراء منوط بالعمل الفعل ، لا بالتقدير قبل الوقوع . وإلى هذا يشير القرآن بقوله : « إنا نحر نجي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » . (٢) لأن الكتاب المذكور في الآية الأولى لم يخرج من كونه منهج الكون الذي قدر الإله فيه سيره كله . أما الكتاب الثاني فهو سجل قيد فيه ما عمله كل فرد بدقة : « فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٣)

« غير أن المرعب في هذا الموضوع هو تلك الآيات الأخرى التي تقول مثلا : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لآملن جهنم من الجنة أجمعين » (٤) « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (٥)

« فنحن إذا نظرنا إلى هذه الآيات على حدة ، أي منفصلة عن الآيات الأخرى التي تقيد بها ألقينا أنها ترمي إلى أن الله قد أجبر كلا على ما فعل ، ولكننا إذا نظرنا إليها كما يجب على ضوء الآيات الأخرى ، تحققنا أنها لا تلغى الاختيار الفردي ، وأنه لم يكتب في الصالحين إلا ما سيخلقون قلوبهم باختيارهم عن سماع الهدى . وإليك هذه الآيات :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أبصار لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٦) . « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين » (٧) .

« لاشك أن ما تحتويه هاتان الآيتان الأخيرتان عظيم الأهمية ، لأنه تصريح بأن الفريق الذي عين في كتاب القدر للجهنم ليس مؤلفا من أشخاص عادين سيؤخذون على غرة حتى يعتزض بالظلم أو الاكراه ، وإنما هو مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى ، ويغمضون أعينهم عن مشاهدته ، ويجولون قلوبهم عن تعمقه ، وكل ذلك بإرادتهم الحرة واختيارهم البعيد عن كل تأثير ، إذ ليس بين المفسر عليهم وبين سلوكهم العملي أية صلة واقعية تجذبهم قسر إرادتهم إلى ما قدر عليهم » .

(١) سورة الحديد . (٢) سورة يس . (٣) سورة الزلزال . (٤) سورة السجدة .
(٥) سورة طه . (٦) سورة الاحزاب . (٧) سورة ابراهيم .

هذا هو مجمل آراء الأستاذ « كارادى فو » فى المشاكل التى عرض لها القرآن ودار حولها الجدل فى الميئات العربية قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية ، والتى تحمل بين ثمايها أقطع الردود على فكرة « أريست رينان » التى أسلفناها فى الكلمة السابقة . وينبغى أن نعيد هنا ما أسلمناه من أن لهذا الأستاذ آراء لا تتفق مع روح الاسلام سنعرض لرد عليها فيما بعد . واليوم نضيف الى ذلك أنه أحيانا يعبر عن الآيات القرآنية بقوله : « قال محمد » وأحيانا أخرى بقوله : إن محمدا لا يرى كذا ويقصد القرآن . ونحن قد ضربنا صفحا عن هذه الهفوات ، لأنها لا تعنينا فى البحوث العلمية ، ولأنه ليس فى ملكنا أن نحمل هذا الأستاذ المستشرق مسلما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، فاكثفينا منه بما أثبتته من شهادات قيمة للقرآن فيما نحن بصدد من احتوائه على النظريات الفلسفية الهامة وحلولها القوية ؟

الدكتور محمد محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

انتهاز الفرص للاحسان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه »

وقال شاعر :

ليس فى كل ساعة وأوان	تتيا صنائع الاحسان
فاذا أمكنت فبادر اليها	حذراً من تعذر الامكان
واغتنمها إذا قدرت عليها	حذراً من تغير الارمان
أحزم الناس من إذا أحسن الدهر	ر تلقى الاحسان بالاحسان

وقال ابن النقيب الكنفانى :

الحمد أينع ما اجتناه المجتنى	والمجد أرفع ما ابتناه المبتنى
فاذا وليت وكان أمرك نافذا	فأفخر صليبا فى الولاية وابتنى
من قبل أن يسمى لها فتوته	ويقول عند فواته ياليتنى

وقال ابن هندو :

إذا هبت رياحك فاعنتمها	فما تدري السكون متى يكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها	فما تدري السكون متى يكون

التجديد في الاسلام

- ٣ -

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوي شريف

- (١) من هو المبعوث ، أو المجدد لهذه الأمة أمر دينها ؟ .
- (٢) بماذا يعرف أن العالم بلغ رتبة التجديد ؟ (٣) ادعاء كل قوم في إمامهم أنه هو المقصود بمحدث التجديد .
- (٤) آراء علماء المذاهب في التجديد والمجددين .

١ — من هو المبعوث ، أو المجدد .

١ — سر العلماء ، المبعوث أو المجدد : بعالم تقي مشهور ، يقوم بالتجديد بالاحتياط ، ويحیی ما خفي دثوره بين العباد ، له قوة استنباط الحقائق والدقائق ، النظريات — من أصول الشرع — من قلب حاضر ، وفؤاد يقظان ، له ملكة رد التشابهات إلى المحكمات ، وعنده قدرة على إحياء ما اندوس من أحكام الشريعة ، وذهب من معالم السنن ، وعلى الدفاع عن الاسلام ، ونشره ، ونشر أحكامه ، وثقافته ومعارفه ، وأخلاقه وفنائه ، وعمل كل ما فيه رفع شأنه ، ووسط نفوذه وسلطانه ، وأن يكون بالغاً في العلوم الدينية متقناً ، حتى يتأتى أن يكون مجدداً ، وغير ذلك مما أئلفنا اليه من قبل .

٢ — وإنما كان المبعوث على رأس القرن مجدداً ، لأنه مجتهد ، وشأن المجتهد التجديد وهل التجديد إلا ثمرة من ثمرات الاحتياط ، وغاية من غاياته ؟ وعلى ذلك لا يكون المجدد لا مجتهداً مطلقاً ، أو مقيداً . وقد بينا أنواع المجتهدين فيما سلف .

٣ — ولكن بعض العلماء يرى : أنه يجوز أن يكون المجدد من المجتهدين ، أو التقليدين بناء على أن المراد بالتجديد نشر الأحكام ، بمزيد الاتفاق والإحكام ، والذب عن السنة ، وليس هذا مقصوراً على المجتهدين ، وقد سبقت الإشارة إلى أن المجددين درجات ، وأن مرتبة التجديد متفاوتة ، كرتبة الاجتهاد .

٢ — بماذا يعرف أن العالم بلغ رتبة التجديد ؟

تضمنت أقوال العلماء أنه يعرف أن العالم بلغ رتبة التجديد : بقلية الظن بمن حاصره من العلماء ، بقرائن أحواله ، والاتقاف بعلمه .

ويعترف العالم بأنه بلغ رتبة التجديد من نفسه ، بأن يعلم أنه أتقن آلائه كل الاتقان ، وأنه يجده ملكة وقدرة على الاستساط ، واستخراج الأحكام الخفية من الأدلة البعيدة ؛ وقيل يعرف العالم بأنه بلغ هذه الرتبة بإخباره عن نفسه ؛ والظاهر قبول قول العالم في الاخبار عن نفسه بأنه وصل الى حد التجديد والاجتهاد — إذا كان عدلا — لأن عدالته تمنحه من أن يكذب ، ولا نظر الى اتهامه بكونه يدعى لنفسه رتبة عالية ؛ ويكتفى في معرفة عدالته بقول عدلين ؛ وقيل يُعترف أنه بلغ رتبة التجديد بالشمرة ، بأن ظهر اسمه في البلد ، وشاع ذكره في ألس الناس ؛ وقيل غير ذلك ، مما سلفونفيه في بحث آخر إن شاء الله تعالى .

٣ — اذعاء كل قوم في إمامهم أنه المقصود بمحدث التجديد :

١ — ادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بمحدث التجديد ، ونشط كل لتأييد مُدعاه وليبيان المحدثين من علماء مذهبه ، معرضا عن ذكر المحدثين من علماء المذاهب الأخرى ، كأن الدين الذي يجدد انحصر في مذهبه هو دون سواه ، وكأن المذاهب الأخرى لا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها ، ولا يذكر مجتدوها وأئمتها ؛ وفي هذا من التعصب المذهبي ، ومن يحس علماء المذاهب الأخرى حقهم ما فيه ، وما لا يجمل صدورهم من العلماء ؛ وقد قلنا من قبل إن التعصب المذهبي من عوائق التجديد وآفاته .

٢ — وسأعرض في بحثي هذه — بحول الله وقوته — وجهة نظر المذاهب في التجديد والمحدثين — مع التعليق عليها — عرض من لا يعرف الحيازة ، ولا التعصب لمذهب ، ولا يبغى سوى نشر الحقيقة بين الناس ، وخدمة العلم والتاريخ ؛ ومن لا يكتب إلا لشرعة الله تعالى — جميع مذاهبها — فكلها تنفع من منابع الشرع ، وتأخذ من أصول الدين . وكلهم من رسول الله متمسك غرطا من البحر أو رشقا من الدم

٤ — آراء علماء المذاهب في التجديد والمحدثين :

١ — يظهر من كلام العلماء من الشافعية : أن المحدث على رأس المائة الأولى : محمد بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية : الامام لشافعي رضي الله عنه ؛ وعلى رأس المائة الثالثة : أحمد بن محمد بن سريج ؛ وعلى رأس المائة الرابعة : القاصي أبو بكر الباقلاني ؛ وعلى رأس المائة الخامسة : الإمام الغزالي ؛ وعلى رأس المائة السادسة : الإمام الفخر الرازي ؛ وبوازيه الرافعي ؛ وعلى رأس المائة السابعة : ابن دقيق العيد ؛ وعلى رأس المائة الثامنة : السراج البلقيني ؛ وعلى رأس المائة التاسعة : الإمام الجلال السيوطي ، وشيخ الاسلام زكريا الانصاري ؛ وعلى رأس المائة العاشرة : شمس الدين الرملي . وفي البحوث الآتية أستوعب أشهر المشهورين من المحدثين من جميع المذاهب الى وقتنا الحاضر ، إذا وفق الله وأعان .

٢ — وقال الامام ابن السبكي : صاحب جمع الجوامع ، وهو من أئمة الشافعية : عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يحدد لها دينها » وفي لفظ آخر : « يبعث الله لهذه الأمة ، في رأس كل مائة سنة ، رجلا من أهل بيتي يحدد لهم أمر دينهم » (١) ذكره الامام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ، وقال عقبة : نظرت في سنة مائة ، فإذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم . عمر بن عبد العزيز ؛ ونظرت في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم : محمد بن إدريس الشافعي ؛ وهذا ثابت عن الامام أحمد — سقى الله عهده — ومن كلامه : إذا سئلت عن مسألة لأعلم فيها خيرا ، قلت فيها بقول الشافعي ، لأنه عالم قريض ، وذكر الحديث وتأوله عليه .

٣ — ثم قال ابن السبكي : ولأجل ما في هذه الرواية الثانية من الزيادة لا أستطيع أن أتكلم في المثني بعد المائة الثانية ، فإنه لم يذكر فيها أحد من أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : وهنا دقيقة تنبهك عليها فنقول : لما لم نجد بعد المائة الثانية من أهل البيت من هو بهذه المائة ، ووجدنا جميع من قبل إنه المبعوث في رأس كل مائة سنة — ممن تعذهب بمذهب الإمام الشافعي وانقاد له — علمنا أنه الإمام المبعوث ، الذي استقر أمر الناس على قوله ؛ وبعث بعده في رأس كل مائة من يقرر مذهب ؛ وبهذا نعين عندى — أى عند ابن السبكي — تقديم ابن سريج في الثالثة على الأشعري ، فإن أبا الحسن الأشعري — وإن كان أيضاً شافعي المذهب — إلا أنه رجل متكلم ، كان قيامه للذهب عن أصول العقائد — دون فروعها — وكان ابن سريج وحلاقتها ، وقيامه للذهب عن فروع هذا المذهب الذي ذكرنا أن الحال استقر عليه ، فكان ابن سريج أولى بهذه المرتبة ، ولا سيما و وفاة الأشعري تأخرت عن رأس القرن إلى بعد العشرين — أى أن من مات على رأس القرن ، فهو المجدد ، ومن تأخر فلا .

٤ — وقد صح أن هذا الحديث ذكر في مجلس أبي العباس بن سريج ، فقام شيخ من أهل العلم وقال : أبشر أيها القاضي ، فإن الله تعالى بعث على رأس المائة الأولى : عمر بن عبد العزيز وعلى الثانية : الامام الشافعي ؛ وبعثك على رأس الثلاثمائة ، ثم أنشأ :

اثمان قد مضيا فبورك فيهما عمر الخليفة ثم حلف السود
الشافعي الألمي محمد إرث النبوة وابن عم محمد
أرحو أبا العباس أنك ثالث من بعدهم سقيا لثربة أحمد

قال : فصاح أبو العباس بن سريج ، وبكى ، وقال : لقد نعى إلى نفسي ، وروى أنه مات في تلك السنة .

(١) يؤخذ من هذه الرواية أن المجدد يكون من أهل البيت ، ويستعمل هذا في بحث آخر

٥ - ثم قال ابن السبكي : وقال آخرون : إنما المبعوث على رأس المائة الثالثة : أبو الحسن الأشعري ، لأنه القائم بأصل الدين ، المناصل عن عقيدة الموحدين ، السيف الملول على الممثلة المارقين ، المغبر في أوجه المبتدعة المحالين ، وعندى — أى عند ابن السبكي — أنه لا يعد أن يكون كل منهما مبعوثاً ، هذا في فروع الدين ، وهذا في أصوله ، وكلاهما شافعي المذهب ، والأرجح إذا كان الأمر محصوراً في واحد أن يكون هو . ابن سريج .

٦ — وأما المائة الرابعة : فقد قيل : إن الشيخ أباً حامد الاسفراييني هو المبعوث فيها ؛ وقيل : بل الأستاذ سهل بن أبي سهل الصمدوسي ، وكلاهما من أئمة الشافعية ، وعظماء الراسخين .

٧ — قال الحاكم : لما رويت أنا هذه الرواية — يعني حكاية ابن سريج والايات — كتبوها — يعني أهل مجلعه ، وكان ممن كتبها شيخ أديب فقيه ، فلما كان في المجلس الثاني ، قال بعض الحاضرين : إن هذا الشيخ قد زاد في تلك الايات ذكر أبي الطيب : سهل ، وجمله المجدد على رأس الأربعمائة ، فقال من قصيدة :

والرابع المشهور سهل محمد أنحى عظيماً عند كل موحد
لا زال فيما بيننا خير الوري للمذهب المختار خير مجدد

وقد كان سهل ممن لا يدفع عن هذا المقام بوجه من الوجوه ، لمشاركته للشيخ أبي حامد في الفقه ، وقرب الوفاة ؛ ثم قال الحاكم : فلما سمعت هذه الايات المزيدة ، سكنت ولم أنطق ، وغنى ذلك ، إلى أن قدر الله وفاته في تلك السنة .

٨ — والخامس : الفرالي ؛ والسادس : الامام الفخر الرازي ، ويحتمل أن يكون الامام الرافعي ، إلا أن وفاته تأخرت إلى بعد العشرين والستائة ، كما تأخرت وفاة الأشعري . ومن المعجب موت ابن سريج سنة ست وثلاثمائة ؛ والاختلاف فيه وفي الأشعري ؛ وموت الأشعري بعد العشرين والثلاثمائة ؛ وكذلك موت الامام الفخر الرازي سنة ست وستائة ؛ والمطر فيه وفي الرافعي ، وتأخرت وفاته هكذا — أى إلى بعد العشرين — فقد توفي سنة ٦٢٣ هـ والسابع : الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ؛ وهؤلاء لا يحسن من أحد أن يخالف فيهم . ولم يذكر ابن السبكي أحداً من المجددين بعد هذا ؛ لأنه توفي في سنة ٧٧١ هـ .

٩ — ولاحظ العلامة محمد بن الحسن الحجوي على ابن السبكي فقال :

إن ابن السبكي تركه فيمن يمدّه من المجددين في المائة الثالثة ، هل هو الامام الأشعري ، أو ابن سريج ؛ ثم أذاه التعصب المذهبي إلى أن قال : إن الأشعري — وإن كان أيضاً شافعي المذهب — إلا أنه رجل متكلم ، كان قيامه للذب عن أصول العقائد — دون فروعها — وكان ابن سريج فقيهاً يذب عن الفروع ؛ فكان أولى بهذه المرتبة . . . فتأمل قوله . وإن كان

شاهعيا — كان الدين الذي يجتهد هو مذهب الامام الشافعي ، رضى الله عنه ، لحسب ، وما سواه لا عبرة به — مع أن الامام الشافعي رضى الله عنه ، يحترم المذاهب ، ويعظم أربابها ، ويحجل العلماء ، وهو القائل : « الناس عيال أبي حنيفة في الفقه » وذكر بعض المتكلمين على المهاج للإمام الموصى : إن الإمام الشافعي صلى الصبح عند قبر الإمام أبي حنيفة ، ولم يقنّت ، فقيل له : لم لم تقنّت ؟ فقال : تأديا مع صاحب هذا القبر — ثم قال العلامة الحجوى : وتأمل ما أتى إليه التمسب من تقديم الفروع على الأصول ، على عكس المعقول والمنقول ؛ على أننا لا نعلم عدم معرفة الأشعري بالفروع ؛ ففي المنع البادية ، عن عبد الله بن محمد بن طاهر الصوفى ، قال : رأيت أبا الحسن الأشعري ، وقد أثبت المعتزلة في المناظرة ، فقال له بعض الحاضرين : قد عرفنا تبخرك في الكلام ، فإننا نسألك عن مسألة في الفقه ؟

ما تقول في الصلاة بغير فاتحة الكتاب ؟

فقال : حدثنا زكرياء بن يحيى ، قال السراج : حدثنا عبد الجبار ، حدثنا سفيان ، حدثني الزهرى ، عن محمود بن الربيع ، عن عباد بن الصامت مرفوعا ، « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » أخرجه أحمد ، والشيخان ، وأصحاب السنن . وحدثنا زكرياء ، حدثنا بندار ، حدثنا يحيى بن سميد ، عن حمفر بن ميمون ، حدثني أبو عثمان ، عن أبي هريرة ، قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أفأدى في المدينة ، إنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ؛ قال : فسكت السائل ؛ فهذا يدل على مقام أبي الحسن الأشعري في الحديث والفقه ، وعلى أنه لم يكن بالقليل البعث ، وأنه إمام في أصول الدين ، وبحر لا ساحل له في الفروع ، وحزاه الله عن الاسلام حير الخزاء ، فلقد ذب عن الدين ، ونصر سنة سيد المرسلين ، وكان شيخ طريقة أهل السنة والجماعة وإمام المتكلمين ، — باعتراف ابن السبكي نفسه — ولقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال له : أنصر المذاهب المروية عن فاتها الحق ، فصعد عما أمره به الرسول ، حتى قال النقات من العلماء : أعاد الله تعالى هذا الدين بعد ما ذهب أكثره . أعاده بأحمد بن حنبل ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي نعيم الاسترابادى ؛ وسنفضل سيرة الإمام الأشعري ، حينما نذكر حياة المجتهدين في الاسلام ، إن شاء الله تعالى ؟

السيد عفيفي

من محاسن الارتجال

ما روى أن المأمون أمر محمد بن حازم أن يرتجل بينين فقال :

أنت سماء ويدي أرضها والأرض قد تأمل غيث السماء
فأزرع يدا عندى عمودة تمجد بها منى حسن الثناء

باب الأسئلة والفتاوى

- جاء من بعض حضرات الجاويين إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :
- (الأول) ما قولكم في أهل قرية بلغوا أربعين ممن تحب عليهم الجمعة ولا يحسن قراءة الفاتحة منهم إلا واحد ، فهل تحب عليهم الجمعة ؟ وهل يعيدونها ظهراً ؟
- (الثاني) إذا لم يبلغ أهل القرية أربعين فهل تحب عليهم الجمعة ؟ وهل إذا أقاموها يعيدونها ظهراً ؟
- (الثالث) إذا كان أهل الجمعة في القرية فاسقين أولاً يعرفون شروط الجمعة أو عليهم صلاة فاتحة ، فهل تحب عليهم الجمعة ؟ وهل يعيدونها ظهراً ؟
- (الرابع) هل يصح أداء خطبة الجمعة بغير العربية إذا كان السامعون لا يحسنون العربية ؟
- (الخامس) ما حكمة جعل صلاة الجمعة ركعتين وخطبتها خطبتين ؟
- (السادس) هل يجوز لو كمل ولي النكاح أن يوكل غيره بغير إذن الولي أو بإذنه ؟
- وهم يرجون أن تكون الإجابة على مذهب الشافعي مع بيان المذاهب الأخرى .

الجواب

- عن الأول . مذهب الشافعي رحمه الله أن قراءة الفاتحة للقادر عليها فرض في كل ركعة من ركعات الصلاة ، جمعة كانت أو غيرها ، ولا تصح الصلاة بدونها .
- أما الذي لا يحسن قراءة الفاتحة ويحسن غيرها من القرآن فإنه يجب عليه أن يقرأ في كل ركعة سبع آيات بدل الفاتحة .
- فإن كان لا يحسن شيئاً من القرآن وجب عليه أن يأتي بذكر بمقدار الفاتحة في كل ركعة ، ولا تسقط الصلاة منه بحال ، جمعة كانت أو غيرها .
- وعلى هذا فأهل هذه القرية تحب عليهم صلاة الجمعة ، كما يحب عليهم غيرها من سائر الصلوات سواء أكان فيهم من يحسن قراءة الفاتحة أم لا ، فإذا أدوا صلاة الجمعة مستوفية بآتي شروطها صححت منهم ولا يعيدونها ظهراً .
- عن الثاني : المعمول عليه عند الشافعية أنه إذا قل عدد أهل القرية عن أربعين رجلاً ممن تنعقد بهم الجمعة فلا جمعة عليهم ، ولا تصح منهم إذا صلوا ، بل الواجب عليهم في هذه الحالة صلاة الظهر ليس غير ، وكذلك عند الحنابلة .

أما المالكية فيكفي عندهم اثنا عشر غير الامام .

وأما الحنفية فيكفي عندهم إقامة الجمعة ثلاثة سوى الامام على مختار المذهب ، وعلى هذا إذا أقيم الجمعة عدد من أهل هذه القرية على مذهب من المذهبين السابقين صحت جمعهم ولا يعيدونها ظهرا .

عن الثالث : إذا كان في القرية المدد الذي تنعقد به الجمعة طقا للبيان السابق ، فإن الجمعة تكون واجبة عليهم ، وحكومتهم فاسقين أو عليهم صلاة فائنة ، لا يمنع وجوب الجمعة عليهم ، أما إذا كانوا لا يعرفون شيئا من شروط الجمعة فإنه يجب عليهم أن يتعلموا ما يعتبر شرما لصحة صلاتهم ، فإذا لم يتعلموا كانوا آثمين ، لأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم ما يحتاج إليه في صحة عباداته ومعاملاته . وكل جمعة أدبت على وجهها الشرعى من غير إخلال بشيء مما يلزم لصحتها شرما فلا تعاد ظهرا .

عن الرابع : أصح القولين في مذهب الشافعية أنه يشترط في خطبة الجمعة أن تكون باللغة العربية ، فإذا لم يوجد في أهل القرية من يحسن العربية وجب أن يتمها أحدهم وإلا كانوا جميعا آثمين ، ولا تنعقد منهم جمعة ، وعليهم أن يعلموا الظاهر إلى أن يوجد فهم من يحسن اللغة العربية ، وإلى هذا ذهب المالكية . وللشافعية قول آخر وهو أنه يجوز في الخطبة أن تؤدى بغير العربية ، وإلى ذلك ذهب الحنفية .

ونحن نميل إلى هذا الرأي ، لأن المقصود من الخطبة الوعظ وهو حاصل بكل اللغات . وعند المسألة إذا صحر عن اللغة العربية صح أن يخاطب بغيرها ، على أن يأتي الخطيب بذل القرآن المفروض في الخطبة بذكر من عنده .

عن الخامس : لما كانت صلاة الجمعة فرض عين على جميع المكلفين من المسلمين ، وكانت الجماعة شرطا لصحتها من المكلفين وغيرهم ، وذلك مما يدعو إلى احتشاد الجمع الكثير في المسجد وفيه نوع من الحرج ، لذلك خفف الله عنهم ورفع هم جعل صلاة الجمعة ركعتين فقط ، وكذلك جعل الخطبة خطبتين رفقا بالامام وترويحاً على السامعين .

عن السادس : ليس للوكيل في التكاح أن يوكل غيره إلا بإذن موكله ، سواء أكان الموكل أحد الزوجين أم ولى أحدهما ، والله أعلم

رئيس لجنة الفتوى

محمد هبة اللطيف النحام

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٤ —

عمر بن الخطاب

إياه العروبة ، وعز مصر ، وسؤدد فريش ، وفتوة الشباب ، وشجاعة الأنطال ، ونبل ما عرف الناس من أخلاق ، في كمال رجولة ، وصدق عزيمة ، وإرادة حازمة ، وصرامة صارمة ، عناصره من النعائز والأخلاق أخصب ما تكون حيوية ، وأكمل ما تكون في خصائص الانسانية ، التأمّت ثم امتزجت بروح الاسلام القاهرة ، وآدابه الباهرة ، وتعاليمه السامية ، وشرائعه الفاضلة ، فكان منها متسقة شخصية « فاروق الاسلام عمر بن الخطاب » تلك الشخصية الاسلامية التي تمثلت هقيرتها الغدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت بزمام الامة تسوسها ، وتسلط بها مسالك المجد والسلطان يقدمها الفتح الميمون ، ويحدو بها السدال المبين ، فقال فيما يرويه البخاري : « أريت في المنام أني أنزع بدلو مكرة على قلبب فجاء أبو بكر فتزع ذوبوا أو ذنوبين والله يفقر له » ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر هقيريا يغري فريه حتى روى الناس وضربوا بمطن « وهذه العبقرية هي التي غدت النبوة بفضل ما آتاهها الله من علم وحكمة ، وتمثلت في إحدى سرايى الوحي النبوى ، وتحدث بها النبي صلى الله عليه وسلم الى أمته لتعرف لها حقها ، وتقدرها من العظمة والحلال قدرها ، فقال فيما حدث به البخاري : « بينا أنا نائم أثبت قدح لبن ففصرته حتى إنى لأرى الرى يخرج في أنفارى ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلم » وهى العبقرية الفكرية التي يتحدث عبد الله بن عمر عن منبعها من عقل الفاروق والمعينه فيقول : ما سمعت عمر لشيء قط يقول : إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن .

ولقد كان أعرف مظاهر عبقرية عمر الاسلامية عنفه في الحق والحق ، حتى هابه المؤمنون موقيرا للاحق في إهابه ، وتقرعت قلوب الكافرين فرقا من سطوة الحق على يديه ، روى الطبرى في تاريخه أن نورا من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر ، فقال : أو قد قالوا ذلك ؟ قواؤه لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ، ولقد اشتدّت عليهم حتى خشيت الله في ذلك ، وأيم الله لا ما أشد منهم فرقا منهم منى ! وروى ابن الجوزى أن رجلا من فريش لقي عمر بن الخطاب فقال : لى لنا فقد ملأت قلوبنا مهابة ، فقال : أفى ذلك ظلم ؟

قال : لا ، قال فزادني الله في صدوركم موبة . وكان عبد الله بن عباس يحدث قال مكنت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

ونستطيع على ضوء هذه الحقيقة في عمر ألف نكتين ناجية خفية في جوانب النفس الانسانية ، وهي الفصيل بين الأعمال التي تصدر عن الانسان في تكلف يشق به صاحبه ليخفيه إيماناً في التصليل والايهام أنه صادر عن طبيعة صادقة ، وبين الأعمال التي تصدر عن الانسان فطرية لا أثر فيها للتصنع والتعمل فصاحبها حتى بها ولو كانت قاسية مريرة ، لأنها صورة من نفسه ، فالرجل الذي يتكلف من الأعمال مالا يتحارب صداه مع فطرته حري أن لا يلحق بغاية ولا ينتهي إلى غرض ، وإنما يدور حول نفسه كالرحى فنسمع له هجيها دون أن ترى أثراً ، ولو جرى لغايته شوطاً لكان من الحتم أن يقصر في الثاني أو الثالث ، فلا يقبض من صعيه إلا على قبضة من الریح .

أما الطبيعة التي تسوق صاحبها على طبيعتها فأعمالها صدى لصوتها يتردد في آفاق من الحياة الملازمة لأشد الملامحة لمصادر الطبيعة التي أرسلت بصوتها على أنبيائها ليبلغ مداه ويستقر في نهايته دون أن يعوقه شيء يحجز بينه وبين تلك النهاية ، وشواهد القبل الأول من التاريخ القديم والحديث كثيرة فيمن اغتصبوا أئنة الأمم فترات من الزمن ، وحملوا نوازعها هدى لهم صوت الطل في أرحام الحياة ، ثم عادت بهم فطرتهم إلى طبيعتها فارتجفت أيديهم ، وانفشت منهم الاعة وسقطت الألوية ، وأوم عليهم التاريخ حكاه في سجل صفعاتهم ، واتخذ منهم مثلاً مضروباً للعظة والاعتبار .

أما الذين تساوقت أعمالهم مع طبائهم فقادوا أمهم إلى سؤدد المجد ونسالة الغاية وعز الحياة ، فهم في سجل التاريخ العام قليل ، ولتاريخ الاسلام أوفر حظ من هذه القلة الصالحة ، وقد جعل الله تعالى « فاروق الاسلام » المنزل الأعلى لهذا النوع من العقريات المؤلفة مع طبائهم فيما يصدر عنها من أعمال وأفكار تأخذ في سميت واحد لا يتكاهدها شيء ، ولا يحول دون غايتها شيء ، فلقد وقف عمر في وجه الدعوة الإسلامية أول أمرها قويا عتيقا ، ثم ألقى الله تعالى في قلبه الهداية فأسلم إسلاماً قويا عتيقا ، وأحب الاسلام ونصره نصرًا قويا عتيقا ، وقد تجلت هذه القوة الرهية ، وذلك العنف الصادق في مواقف تاريخية لم يكن لغير الفاروق أن يقفها أو يسمع له فيها صوت ، حتى لكان عمر نفسه يحب من حرأته ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم والوحي يرسل عليه ، روى مسلم في صحيحه عن عبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفي عبد الله بن أبي ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى قت في صدره ، فقلت : يا رسول الله على عبد الله بن أبي تصلي ، وهو القائل يوم كذا كذا

ويوم كذا كذا؟ أعدد أيامه ورسول الله ينتم ، حتى إذا كثرت عليه قال : أخر عني يا عمر ، إلى خيرت فأخبرت ، وقد قيل لي «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر لهم لزدت ، قال : ثم صلى عليه ومشي معه فقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبنا إلى وجراءتي على رسول الله ، والله ورسوله أعلم ، قال : فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » فاصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل .

وفي هذه القصة يشتمل جانب من صراحة عمر وشدة في الحق وتأيد الله له وتقرير مذهبه في حذلان أعداء الله والتسكيل بهم ، وأنه إنما كان يصدر في موافقه عن عقيدة راسخة وطبيعة صادقة ، وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخليفة في صر فديبه يوم أحد من بين أصحابه للرد على أبي سفيان ، روى البخاري وأصحاب المغازي : أنه لما كان يوم أحد جاء أبو سفيان بن حرب ، فقال : أفبكم عهد ؟ فقال رسول الله : لا يجيبوه ، ثم قال : أفبكم عهد ؟ فلم يجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفبكم عهد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفبكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فلما ثلثا ، ثم قال : أفبكم ابن الخطاب ؟ فلما ثلثا فلم يجيبوه ، فقال : أما هؤلاء فقد كفيتنهم ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ! ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وأما أحياء ، ولك منا يوم سوء ! فقال : يوم يوم بدر والحرب سجال ، ثم قال : أهل هبل ، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب : قل : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله : قل : الله مولانا ولا مولى لكم .

قال الامام ابن الجوزي : واعلم أن المر في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر أن يخاطب أبا سفيان دون غيره من الصحابة من خمسة أوجه ، أحدها : أن عمر هو الذي ابتداء بالرد على أبي سفيان بقوله : هذا رسول الله وهذا أبو بكر وأما أحياء ، فلما رأى رسول الله من غليان قلب عمر في نصرة الحق ما أوجب الكلام بعد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاب أبو سفيان ، أحب أن يتم شفاء صدر عمر بتوليته الجواب . والثاني أن أبا سفيان لما قال : أهل هبل ، انتدب عمر دون غيره شاكيا من هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب ترويح قلبه بتوليته الجواب . الثالث أن عمر هو الذي غار على كتمان التوحيد فأظهره يوم إسلامه ، وسمى لذلك الفاروق ، فأحب أن يبي هذا القول لأنه من تمام ذلك العصر . الرابع أن عمر كان أكثر الصحابة مهابة وأشد صولة فأحب أن يكون هو المناضل لأجل ما حصل به من ذلك . الخامس أن عمر كان يحب مقاومة الأعداء ، ويلتذ بما يناله في الله من الأذى .

وموقف عمر حيال معاهدة الحديبية يمثل أعنف ثورة نفسية صادرة عن عقيدة راسخة لا تزعمها العواصف ، حتى إذا تكشفت لها خفايا الأقدار وعلم من أمرها ما لم يكن يعلم ، طابت نفسه واستكان لأمر الله ورضى بما رضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء في رواية البخاري : فقال عمر بن الخطاب : فأنيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ألسنت نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذا ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ماضى ، قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنتطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتكم أما تأتونه العام ؟ قلت : لا ، قال : فانك آتيه وتطوف به ، قال : فأنيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا بي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذا ؟ قال : أيها الرجل ! إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ماضى ، فاستمسك بفرزه ، فوافقه إنه على الحق ، قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنتطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتونه العام ؟ قلت : لا ، فقال : فانك آتيه فتطوف به .

قال الخذاق من الراسخين في العلم : لم يكن سؤال عمر رضى الله عنه وكلامه في مساءلة النبي صلى الله عليه وسلم والصديق الأكبر شكاً بل طلباً لكشف ما حجب عنه ، وحثاً على إذلال الكبر والظهور بالاسلام ، كما عرف في خلفه وقوته في نصرة الدين وإذلال المبطلين ، وأما جواب أبي بكر لعمر رضى الله عنهما يمثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضل الصديق وبارع علمه وزيادة عرفانه وروسخه وزيدته في ذلك على غيره . ومما بلغت نظر الباحث هذا الهدوء البالغ أقصى غايات السكال في موقف النبي صلى الله عليه وسلم وأجوبته لعمر ينهيه في رفق وسكينة على أن ستن الله مع أنبيائه ورسله لا تخضع لومضات القول البشرية ، وأن الله بالغ أمره ومحقق وعده لرسوله . وقد أنزل الله على رسوله لما قل بعد إتمام الصلح سورة الفتح بشرى ونسلية للمؤمنين ، فلما سمعهم عمر اغتبط واستبشر ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أو فتح هو ؟ فقال : إني والذي نفسي بيده إنه لفتح .

إن الدعوة الإسلامية — باعتبارها دعوة إلى نظام اجتماعي جديد يقبض النظم الاجتماعية الفاسدة التي توارثها الناس وأنوعها ، ولا سيما الأمة العربية التي ظهرت الدعوة بين أحضانها — في أمس الحاجة إلى هذا النوع من الشخصيات القوية التي لا تصرف المداورة في الحق ، ولا المداهنة في الدين ، ولا سالى بهذه العنجهيات الوراثية التي تريد الدين والنظم والقوانين على أن تكون عطية كبرياتها لاستعباد البشرية والتعالى عليها ، وقد تألف الاسلام قوماً من أصحاب تلك العنجهيات يوم أن كان الاسلام قليلاً ، وكان عمر ينظر إلى هؤلاء نظرة المقرص بهم حتى يكفكف من غريهم ويقل من حدم ويميدم إلى مكانهم من الحياة ، فلما أزع الله

تعالى الاسلام أرادوها ميراثا لهم فأبى عليهم « فاروق الاسلام » إلا أن يكونوا كاحاد الناس رضوا أم غضبوا ، فوضع بذلك شرعة عملية وطد بها دعائم الحياة الاجتماعية الجديدة التي أقامها الاسلام على قاعدة المساواة المطلقة بين المؤمنين ، وقد حدثنا ثقات المؤرخين أن عيينة بن حصن والاقرع بن حابس قدما على أبي بكر في خلافة فقالا : يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلاً ولا مسفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها أو نزرعها ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فقال أبو بكر لمن حوله : ما تزرونه فيما قالوا ؟ قالوا : إن كانت أرضا سبخة لا ينتفع بها فترى أن تقطعها لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فأقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتابا وأشهد عمر وليس في القوم ، فأطلقا إلى عمر يشهدانه فوجداه قائما بهذا بعيراه ، فقالا : إن أبا بكر يشهدك على ما في هذا الكتاب ، فتعروء عليك أو تقرأ ؟ قال : أما على الحال التي ترياني ، فإن شئنا فقرأ ، وإن شئنا فانتظرا حتى أفرغ فأقرأ عليكما ، قال : لا ، بل نقرأ ، فقرأه ، فما سمع ما في الكتاب تداوله من أيديهما ثم تقل فيه فعداه ، فنذمرا وقالوا مقالة سيئة ، فقال لهما عمر : إن رسول الله كان يتألفكم والاسلام يومئذ قليل ، وإن الله عز وجل قد أمر الاسلام ، اذهبا فاجهدا جهديكما ، لا رعى الله عليكما إن رعيتهما ! فذهبا إلى أبي بكر وهما يتدمران ، فقالا : والله ما ندرى من الخليفة أنت أم عمر ؟ قال أبو بكر : بل هو لو كان شاء ، فجاء عمر وهو مغضب حتى وقف على أبي بكر فقال : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتهما هذين ؟ أرض هي لك خاصة أم بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هي للمسلمين عامة ، قال : فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال أبو بكر : استشرت هؤلاء الذين حولي فاشاروا علي بذلك ، قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أفسكل المسلمين أو سعتهم مشورة ورضى ؟ قال أبو بكر : قد كنت قلت لك : إلك أقوى على هذا مني ، لكنك غلبتني .

ونحب أن نقف قليلا إلى جانب هذه القصة العظيمة لنستخرج منها بعض العبر الباهرة التي اشتملت عليها ، ففيها (أولا) : أن عمر واجه عيينة والاقرع — وهو يعلم مكانتهما من زعامة تميم — بما نهته عن معرفتهما وطامن حينهما الأعرابية في صراحة قاسية ، وأفهمهما في غير مواربة أن الاسلام لا يعرف هذا التعاطف الحاملي الأجوف ، وتحدهما في توزيع قارس أن يجهدا جهديهما ، لأن الاسلام تألفهما أيام قلته ، وقد أعزه الله فلا حاجة به إلا إلى قلوب صرهما الايمان واليقين .

وفيها (ثانيا) : أن عمر لم يقف عند صفيه بالرجلين وتحديه لهما ، بل ذهب مقصدا إلى أبي بكر ، وهو خليفة المسلمين وإمامهم ، يأخذ عليه في صراحة قاسية أنه أقطع هذين الرجلين أرضا هي للمسلمين عامة ، ولم يقبل اعتذاره بأنه استشار من حصره من عظماء المؤمنين ، ولم يكن من الصديق وهو العدل الرضا المهدي الراشد إلا أن يقر عمر على نظريته في عبارة مفهمة بالاخلاص والصدق فيقول له : قد كنت قلت لك إلك أقوى على هذا مني ، لكنك غلبتني .

وفيها (ثالثا) : تصوير واضح لنوع الحكم الاسلامي ومجانيته للاستبداد المطلق ،
ونائبه على قاعدة الشورى العامة ، لأن الخليفة الأول ، وهو من هو ، لم يستبد برأيه ،
بل أشرك معه بعض ذوى الرأي ، ولكن عمر لم ير ذلك كافيا ، لأن كل مسلم له حق إبداء
الرأى فى مصالح الأمة العامة ، وأن الشورى يجب أن تنسج لعامة المسلمين ورضاهم ، ولا سيما
فيما يختص بمالية الدولة ومصادر إيرادها ، فهل سمع المتشدقون من دعاة الاستبداد المثلث
والديمقراطيات الزائفة ، أن شريعة من الشرائع أو زعيا من زعماء الديمقراطية استطاع أن يبلغ
بها من الكمال ما بلغه بها دستور الاسلام وقادته الأولون ؟

إن فى الاسلام ضما لسعادة الانسانية وسلامها ، وإن فى سيرة الراشدين من خلفاء
الاسلام نبراسا لمداية الانسانية الى وشائج الاخاء والعدل والمساواة ، وهى أنعم دواء
لأمراضها العنصرية ، فهل آن للذين أعضوا أعينهم على القذى ، وصموا آذانهم عن صوت الاحوة
المبهمات من ضمير الاسلام ، أن يدرسوا دستور هذا الدين القيم ، وأن يجهلوا النظر فى سيرة
عظمائه وقادة الفكر فى تاريخه باخلاص وصدق نية ؟

صالح ابراهيم عمر محمود

لا تزهد فى معروف

قال ابن عباس رضى الله عنه : لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره ، فانه يشكرك عليه
من لم تصطنعه اليه .
وقال الشاعر :

يد المعروف غنم حيث كانت	تحمّلها شكور أو كفور
ففى شكر الشكور لها جزاء	وعند الله ما جعد الكفور
وقال وهو من أحسن ما يقال فى الابتاء :	
أبيت خميس البطن غرثان طابوا	وأوتر بازاد الرقيق على نفسى
وأمنحه فرشى وأفقرش للثرى	وأجعل قر الليل من دونه ليسى
حذار مخازاة الاحاديث فى غد	إذا ضمني وحدى الى صدره رمسى
وقال آخر فى إكرام الصيف :	

يسترسل الصيف أنسا فى منازلنا	فليس يعلم خلق أينما الضيف
والسيف إن فسته يوما بنا شبا	لم تدر من عزمتنا من ذا هو السيف

الامام البخارى

وكتابه الجامع الصحيح

الحركة العلمية في العصر العباسي الأول :

خطت الأمة الاسلامية في هذا العصر ، خطوة جديدة في حياتها العقلية ، وحركتها العلمية ، وكان هذا نتيجة لازمة لقيامها على السة الاسلامية التي تقتضى دوام طلب العلم والحكمة ، والاخذ بكل نافع من الفنون والصناعات ، ولو من طريق الاقناس من الأمم المختلفة ، وقد اتفق للمسلمين بعد دور فتوحاتهم الأولى ، أن احتكوا بشعوب كانت على شيء كبير من العلم والمدنية ، فأخذوها عنها وزادوا عليها بمجهودهم الخاصة .

في هذا العصر ظهر ما نسميه بالتقدم ، ومظهره القبول والھضم لكل ما تستعصنه الطبيعة البشرية الزراعة للكمال مما ينجم وحاجاتها .

وبالتقدم تسكن النفس الى الاصلح وتطمئن اليه بكل ما فيها من قوى العقل والعاطفة والارادة .

والقوانين العامة لمراحل العقل البشري في الرق واحدة وإن اختلفت الجريئات ، فإذا ما اتحدت الأسباب ، وتوحدت الخطوات ، لا بد من اتحاد النتائج . فالحضارة اليونانية ، لم تكن إلا أسلوبياً من أساليب التقدم ، نشأ في الزمن القار من احتكاك الاغريق بغيرهم من الشعوب . فقد اتصلوا بمدائن آسيا ، واتصل روادهم وفلاسفتهم بعصر ، ونم لهم من هذه الاتصالات اتخاذ أمور واستخلاص قواعد للمير ، ومحاكاة نظم رأوا أنها أصلح لحياتهم . وكان من قبولهم وهضمهم لما يناسب حاجاتهم ، سواء أكان من ابتكارهم أم من ابتكار غيرهم ، ماتكونت منه حضارتهم . ولم تكن حضارة الرومان لذلك إلا أسلوبياً من أساليب التقدم ، تهيأ لهم عند احتكاكهم بالاغريق وبغيرهم من الشعوب ، ثم تقبلوه وهضموه لما رأوا الخير في قبوله وهضمه .

وقد دخلت النهضة العلمية للمسلمين في طورين ، أولهما ديني بحث استنوع عهد بنى أمية ، والثاني علمي صملى بدأ من أول الدولة العباسية في القرن الثاني ، وكلاهما ساءت من الاسلام نفسه ، قرأنا العلوم في العهد العباسي والفلسفة تترجم من اليونانية والفارسية والهندية ، وتعرض مجابها الديانات من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها . وتحولت الدعوة الدينية في العصر الاموى من لفت الى الكون وآثاره الى علم الكلام في العصر العباسي ، وتأثر تفسير القرآن وتفسير الحديث والتشريع بالآثر الفلاني المؤسس على المنطق .

قال الذهبي : في سنة ١٤٣ هـ شرع علماء الاسلام في هذا العصر ، في تدوين الحديث والفقہ والتفسير . فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعي بالشام ، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرها بالبصرة ، ومصر باليمن ، وسفيان الثوري بالكوفة . وصنف ابن اسحاق المغازي ، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقہ والرأي ، ثم بعد يسير صنف هشيم واليث بن سمد وابن طيمه ، ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب . وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودوت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة (يراجع ص ١٠١ من تاريخ الخلفاء للسيوطي) .

وفي الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فأكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأوصاه أن يكتب له ما عند حمزة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أهل الآفاق : انظروا الى حديث رسول الله فأجمعه .

وكانت الأمة الاسلامية ، عقب نداء الخليفة عمر بن عبد العزيز ، قد مرت بطور المسائل الجزئية المبثرة ، فكان لزاماً أن يسلمها ذلك إلى الطور الآخر : طور التنظيم وتدوين العلوم وتبسيطها ، كما سبق أن شرحه الذهبي ، ودوه السيوطي في تاريخ الخلفاء . وكان أهم مظهر للحديث في العصر العباسي مظهر التدوين ، حتى إذا كان القرن الثالث فغطت حركة الجمع والتقد ، فقد ألف البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ الجامع الصحيح ، وألف مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ صحيحه ، وقبى ألف سنن ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ وسنن أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وجامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ وهي التي تسمى الكتب الستة ، والتي عدت أصبح كتب الحديث . ويلحق بهذه الكتب مسند أحمد المتوفى سنة ٢٤١ هـ والمحدثون يضعون صحيح البخاري ومسلم في الدرجة الاولى .

البخاري :

هو محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردبذ (بردبذ كلمة فارسية معناها الزراع) . كانت أجداده مرساً على دين المحوس ، وأول من أسلم من أجداده المغيرة ، أسلم على يد الميان الجعفي ولي بخاري ، فكان ولاؤه له ، وتنقل الولاء في أولاده ، فذلك يقال في البخاري إنه محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفي .

اتفق مؤرخو التاريخ الاسلامي أن البخاري ولد بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ وأنه توفي يوم السبت عند صلاة العشاء ، ودفن ليلة عيد الفطر سنة

٢٥٦ هـ وله من العمر اثنتان وستون سنة إلا ثلاثة عشر يوما ، ودفن بخرنك ، قرية على فرسخين من ممرقند .

كان والد البخارى محدثا ، مات وهو صغير ، وترك له مالا جليلا ، فنشأ في حجر أمه ، وأسلم إلى الكتاب ، فلما بلغ عشر سنين بدأ في حفظ الحديث في كتب ابن المبارك ووكيع ، وها محدثان مشهوران .

وقد روى كتاب طبقات الشافعية ، وكتاب الخطيب البغدادي ، أن البخارى كان يحفظ في صباه سبعمائة ألف حديث وأكثر ، ولا يحصى بحديث عن الصحابة والتابعين إلا ويعرف مولد أكثرهم ، ووفاتهم ومساكنهم . وكان البخارى يقول عن نفسه — كما هو مذكور في تاريخ أبي الفدا : ألهمت حفظ الحديث وأما في الكتاب ابن عشر سنين ، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة ، صنفت قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم ، وصنفت كتاب التاريخ ، عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خطا البخارى في جمع الحديث خطوة جديدة ، فذاك بن أنس يجمع أحاديث الحجاز وخاصة أهل المدينة ، وابن جريج أحاديث الحجازيين وخاصة أهل مكة ، ولكن البخارى وسع هذه الدائرة ، وسن سنة لمن بعده من المحدثين في الإمعان في الرحلة لطلب العلم ، وبعبارة أخرى لطلب الحديث ، فبعد أن سمع حديث بلده ذهب إلى بلخ وسمع محدثيها ، ورحل إلى مرو ونيسابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقباصية وعسقلان وحمص ، فهو بهذا وضع له خطة أن يجمع ما تفرق من الحديث في الأمصار ، وأنظم في هذه الرحلات نحو ستة عشر عاما ، لقي فيها عناء شديدا لا يتحمله إلا الصابرون ، وأخيرا عاد إلى موطنه ، ومات سنة ٢٥٦ هـ

كما أنه خطا بالحديث خطوة أخرى ، في جده في التمييز بين الحديث الصحيح وغيره ، وقد كانت الكتب قبله لا معنى فيها بهذا الموضوع عنايته ، فكان المحدث يجمع ما وصل إليه ، تاركا البحث عن روايته ومقدار الثقة به إلى القارئ أو السامع ، حتى الموطأ تقدمه كثير من المحدثين من هذه الناحية .

وهذا العمل — أعني تعرف صحيح الحديث من ضعيفه — كان يحتاج البدء فيه إلى عناء لا يقدر ، فهو يحتاج إلى معرفة واسعة بتاريخ رجال الحديث ، وتاريخ حياتهم ووفاتهم ، ليرف هل الشيء الراوى عن روى عنه أولا ، ويحتاج إلى معرفة دقيقة رجال الحديث من زمن البخارى إلى زمن الصحابي ، ما مقدار صدقهم والثقة بهم وحفظهم ، ومن منهم صادق أمين ومن منهم مستور الحال ، ومن منهم كاذب ومن منهم صادق « تقبل دعونه ولا تقبل روايته » ، كما يحتاج إلى مقارنة الأحاديث التي تروى في الأمصار المختلفة ، وما بينها من فروق وموافقات

وما فيها من علل ، كما يحتاج الى معرفة مذاهب الرجال ، من خارجي ومعتزلي ومرجعي ، وشيعي الى غير ذلك ، ليتين منها مقدار ما قد يحمله مذهبه على القول بحديث غير صحيح ، أو تأويل له غير راجح ، وهي مهمة في غاية العسر والمشقة ، لأن كثيرا منها يتصل بالسيات والعمائر وخفايا السرائر ، فكيف من باطل لا يتفق والظاهر ، وكم من متصنع تقوى وصلاحا وقد اتخذ ذلك سلاحا ، وهكذا . (ضمنى الاسلام الجزء الثاني) .

كتاب الجامع الصحيح :

أراد البخاري في كتابه أن يقتصر على جمع الأحاديث الصحيحة ، والحديث الصحيح في اصطلاح المحدثين : هو الحديث المسند الذي يتصل بإسناده — من الراوى الى النبي صلى الله عليه وسلم — ويكون كل راو من رواه عدلا ضابطا ، وقد اتفق البخاري في جميع كتابه هذا سنة عشر عاما ، ومناه الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد جمع فيه ، على ما ذكره ابن حجر ، (٧٣٩٧) حديثا ، وهذا العدد تدخل فيه الأحاديث المكررة ، ولا تدخل فيه التعليقات والمتابعات والموقوفات والمقطوعات . فإذا أضيفت اليه التعليقات والمتابعات بلغت (٩٠٨٢) حديثا غير الموقوف والمقطوع . وإذا حذف المكرر واقتصر على عدد الأحاديث الموصولة السند غير المكررة ، كانت (٢٧٦٢) حديثا .

وقد جاء في الجزء الاول من مقدمة فتح الباري ، أن البخاري اشترط في جمعه للأحاديث التي يصححها شروطا تسمى « شروط البخاري » ، كما اشترط مسلم شروطا تختلف بعض الشيء ، شروط البخاري ، ويسمونها شروط مسلم ، فكلما اشترط في الحديث أن يكون إسناده متصلا ، وأن يكون كل راو من رواه مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط ، متصفا بصفات العدالة ، ضابطا متحفظا ، سليم الذهن قليل الهم ، سليم الاعتقاد . وكان البخاري يرى أن المحدث إذا كان من أساطين المحدثين ، وهم المكثرون من جمع الحديث وروايته كالزهري ونافع ، فإن أصحابه الذين يروون عنه درجات تختلف في مقدار الصلة به ، وفي الحفظ والإتقان ، فالدرجة الاولى من كان يزامله في السفر ويلزمه في الحضر ، والدرجة الثانية من لم يلزمه إلا مدة قصيرة ، وكلا النوعين عُرف بالثبوت ، وبلى ذلك درجات ، فالبخاري يشترط في الرواة أن يكونوا من الدرجة الاولى عادة ، وقد يروى عن رجال الدرجة الثانية ، ولكن في الغالب يرويه تعليقا على حديث ، ويسمى ذلك أيضا شرطا من شروط البخاري ، ومسلم يقبل رجال الدرجة الثانية كما يقبل الاولى ، ولا يقتصر في الدرجة الثانية على التعليق ، وأما غير المكثرين فاكثري فيهم عند البخاري ومسلم بشرط الثقة والعدالة وقلة الخطأ .

أما السبب الجوهري في اتباع البخاري لشروط قيد بها الأحاديث التي جمعها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترجع الى أن أحاديث العهد الأموي أكثر من أحاديث عهد الخلفاء

الراشدين ، وأحاديث العصر العباسي أكثر من أحاديث العهد الأموي ، وهذا من جهة ، ومن جهة أخرى أدخل اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الأحاديث أشياء كثيرة من دياناتهم وأخبارهم ، فثلث الأحاديث بما في التوراة وحواشيها ، وبعض أخبار النصرانية وتعاليم الشعوبية ، كالأحاديث التي تدل على فضل الفرس والروم (انظر جولد زهير ودائرة المعارف الإسلامية في مادة حديث) فكان هذا الخلط في الأحاديث من أقوى الأسباب في هجرة البخارى الى الأمصار المختلفة ، لتتقية الأحاديث ونقدها ، وتمييز الجيد والرائف منها .

وفي الحق أن ثقات المحدثين بدلوا من الجهد في التحجس مالا يوصف ، واحتشدوا في وضع رواية الحديث من التابعين ومن بعدهم في موازين دقيقة قدر الامكان ، مع شرح تاريخهم ، ووضعوا في ذلك قواعد للتحريح والتعديل .

أما القواعد فوعان : نوع يستند فيه على الرواية وصحتها ، والرجال ومقدار الثقة بهم ، ويسمى هذا النوع بالنقد الخارجي ، ونوع يعتمد فيه على الحديث نفسه ، هل معناه يصح أو لا يصح ؟ وما هي أوجه الصحة وعدم الصحة ؟ الى غير ذلك من أسباب الدفع والاثام ، ويسمى هذا النوع بالنقد الداخلي .

ولقد جرت هذه القواعد المحدثين الى تقييم الحديث باعتبار ذلك الى حديث صحيح وحسن وضعيف ، والى مرسل ومنقطع ، والى شاذ وغريب ، وغير ذلك .

وقد اشتهر في هذا الباب يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ هـ ثم يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ وأحمد بن حنبل سنة ٢٤١ هـ ، ومحمد بن سعد في طباقه سنة ٢٣٠ هـ .

وبالرجوع الى كتاب الجامع الصحيح نرى أن البخارى كان مع قدرته الفائقة في الحديث فقيها ، ويهده السبكي شافعيًا في كتابه طبقات الشافعية ، والظاهر أن البخارى كان مجتهدًا مستقلًا وله استنباطات تعذر بها ، وآراء توافق أحيانًا مذهب أبي حنيفة ، وأحيانًا مذهب الشافعي وأحيانًا مخالفتها ، وأحيانًا يختار مذهب ابن عباس ، وأحيانًا مذهب مجاهد وعطاء .

هذه الناحية الفقهية كان لها أثر كبير في كتابه الجامع الصحيح ، فقد رتب ترتيبًا فقهيا كما فعل مالك في الموطأ ، فبعد أن يبدأ بيده الوحي ، وتناه بكتاب الايمان والعلم ، ذكر كتاب الطهارة ثم كتاب الصلاة ثم كتاب الزكاة ، واحتلت في التسخ في الصوم والحج أيهما قبل الآخر ؟ ثم كتاب البيوع ، حتى إذا انتهى من المعاملات ذكر المرافعات ، فقال : كتاب الشهادات وكتاب الصلح ، ثم كتاب الوصية والوقف ، ثم أعقب ذلك بكتاب الجهاد ، وظهر بعد ذلك الى أبواب غير فقهية ، فذكر الكلام في بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الانبياء ، ثم

مناقب قریش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار، ثم ذكر السيرة النبوية والمغازي وما إليها، ثم كتاب التفسير، ثم زاد إلى الفقه من نكاح وطلاق، ثم كتاب الأطعمة والأشربة، ثم خرج من ذلك إلى كتاب الطب ثم كتاب الأدب والبر والصلة والاستئذان، ثم كتاب النذور والكفارة ثم الحدود والأكراه، ثم كتاب تعبير الرؤيا، ثم كتاب الفتن وكتاب الأحكام، وذكر فيه الأسراء والقضاة، ثم ختم ذلك كله بكتاب التوحيد.

وقسم البخاري كل كتاب من هذه الكتب إلى أبواب، وعدة الكتب ٩٧ كتابا فيها ٣٤٥٠ بابا، والمؤلف وهو البخاري لم يكن قد وضع كتابه في صيغته النهائية، فبعض السامعين ضم بابا لم يذكر فيه حديثنا إلى حديث لم يذكر له بابا.

قال الحافظ أبو اسحق إبراهيم بن أحمد المستمل: «انقضت كتاب البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه (أي صاحب البخاري) محمد بن يوسف القيرري، فرأيت فيه أشياء لم تتم وأشياء مبيضة، منها تراجع لم يثبت بعدها شيئا، ومنها أحاديث لم يترجم لها، فأصقنا بعض ذلك إلى بعض» (يراجع كتاب هدى الساري لابن حجر ج ١ ص ٥).

وثانيا ما كان فقد مُعِدَّتْ كتاب الجامع الصحيح نُصَحَ كتب الحديث، ولم ينزع أحد في أفضليته وعدّه أصح كتب الحديث.

وللبخاري مصنفات غير الصحيح، كأدب المفرد وفتح اليبدين في الصلاة والقرأة خلف الإمام، وله التاريخ الكبير والأوسط والصغير، وله كتاب الصغفاء والجامع الكبير والمسند الكبير، وكتاب أسماء الصحابة وكتاب الوجدان وكتاب المبسوط وغير ذلك.

وكان العصر العباسي الأول أكثر عصور الإسلام نشاطا في التشريع، وأكثر عددا من الفقهاء والمجتهدين، وكان للمجتهد في ذلك العصر الحرية في استنتاج الأحكام من الكتاب والسنة، وكما أكثر الفقهاء والمفترون وكثر اجتهدهم، كثرت المسائل القانونية وأحكام الجزئيات كثرة لا يقاس بها، فقرعت الفروع وفرصت الفروض ووضع لها الأحكام، وكانت نتيجة هذه الاستنتاجات والأحكام والفروض وما يتبعها، جمع الأحاديث الصحيحة التي كانت أساسا تفرع عنه التفسير والفقه وتاريخ السيرة وتاريخ الفتوح والطبقات، ولما جاء البخاري وازل ميدان هذه الحياة الثقافية في هذا العصر الذي كان نسيجا من ألوان الزمان، كان صاحب الإشعاع القوي، يوظف النفس ويحيي الروح، حتى إذا طالعت كتابه الصحيح أضاء لك ما بين جوانبك، ورأيت كل شيء حولك صافيا بيضا.

والبخاري من أصحاب النفوس والمقولات التي لها قوة تنفذ إلى ما وراء الحجب، وتسمد منه ما يستخرج العجب، فأحساسة القوي بمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام كان إهابه

الموصول بعروق جسمه ، المدسوج من لحمه ودمه ، وهذا الاحساس بمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام كان الذهب المودع في خزانة قلبه .

وقد رزق البخارى خصلتين بارزتين مكنتاه من أن يقرب من غرضه :

(١) حافظة قوية لافطة ، وخاصة فيما يتعلق بالحديث ، وقد بالغ الرواة في كثرة ما كان يحفظه عن ظهر قلبه من أحاديث بسندها ، وكان يستعين على حفظه بالتنقييد وكثرة الفكر ، وقد رووا عنه أنه ورد مرة الى بغداد ، فعمد أهل الحديث الى مائة حديث فلبوا متونها وأسابيدها ، ووضعوا عشرة أنفس ، فأورد واحد بعد الآخر الأحاديث المذكورة ، والبخارى يقول في كل حديث منها : لا أعرفه ، فلما فرغوا قال : أما الحديث الأول فهو كذا ، ورده الى حقيقته ، وأما الثاني فهو كذا ، حتى ذكرها عن آخرها على حقيقتها . ومن اهتمامه الشديد بالحديث ذكر عنه أنه كان يقوم في الليل مرارا يأخذ القداحة فيورى نارا ويسرج ، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه .

(٢) مهارته في تعرف الرجال وتقديم ، وفي ذلك وضع كتابه التاريخ لتمييز الرجال ، ورووا عنه أنه قال « قل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة » (ينظر الخطيب البغدادي) فأمام هذا التفكير النادر المثال ، وأمام هذه الشخصية القائمة بنفسها ، نرى أننا حيال حكيم ومصور لطبيعة النفوس ، وعالم بالنيات والبيولوجيا والتشريح ، وطبائع الأحياء وفلسفة الأديان ، في كل علم من هذه العلوم كان لبحثه أثر ولأيه قيمة ، وفي جملة الأحاديث اعتبار مكانة مكانة فلا يعتلى الى شرفتها متسلق ، فما من خاطرة جالت في عقل محدث قبله إلا كان لها مجال في عقله ، وكان له فيها رأى العارف المختبر إن لم يكن فيها رأى المصيب المعصوم .

له نظرة التأمل والاستبابة ، أو ما شئت بعد هذا من رأى نافذ في الاخلاق والمقائد المتفشية في أيام عظمة الخلافة العباسية ، والاجتماع وسرائر النفس ، فهو يفهم ماحوله عند الرحيل من قطر إلى قطر ، ويشمر بما يصادفه من رجال ومناع وسماع قصص وروايات رواة ، كأنه لا يحيدله عن الفهم والشعور والاستمراء ، ثم يتحفز بمسد ذلك لعمل له أوقاته ومجاولاته ، شأن الفيلسوف الحصيف في جمع الأحاديث ، ثم يلقى بالحديث الصحيح من الرسول عليه الصلاة والسلام ويستند بمد طول الجهد والجهاد في سبيله ، كأنه يتنفس أو يؤدى وظيفة من وظائف حياته له بأدائها غبطة وارتياح ، لا كأنه ينهض بعبء أو يعالج مشقة مفروضة عليه . ونذكر من هذه المعالجة النفسية أن طبيعة تفكير البخارى التي واحده بها تلك الآفاق الواسعة من العلوم والمعارف التي رواها عن خاتم المرسلين وإمام المتقين محمد صلوات الله وسلامه عليه ، هي طبيعة واحدة على تعدد الموضوعات التي قام بحملها مدى ستة عشر عاما ، رغم تخافة جسمه (الذي ليس بالطويل ولا بالقصير) ورغم زهده المتواصل وقلة أكله حتى

الكفاف ، هي طبيعة المتذوق لهذا الجهد المتصل ، طبيعة الصابر لهذا التذوق ، والذي منه يستمتع بتكوين عقيدته ودينه وعواطفه ومدارفه ، كما يستمتع الفنان بتكوين تماثله .

والرجل كان جيد التفكير إلى أبعاد الحدود ، فهو الدارس للأحياء وظواهر الطبيعة في كل شيء ، قوى الذاكرة ، له العراسة الطبيعية للحكم على الصحة والسقم في تمييز الحديث . ولما كان فكر البخاري موزنا بين جمع الحديث ، وجمع حقائق الحديث الصحيح ، دفعه هذا إلى الاستجلاء بحرص وحذر على الدرس والمواصلة بالحب واليقين ، كالباحث المدقق يتعلم ليتفقه كيف تعيش الطبيعة في خلأثها .

فالبخاري في جمع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان سبيله لا مجرد المذلة في هذا الجمع ، وإنما الشعور بما يعمله في هذا الوجود لأداء رسالة مكلف بتنفيذها أو يملك دون الناقية ، والحياة عنده عبارة عن تفكير يعقبه عمل ، وعمل يعقبه تفكير .

فالتصوف والمتطرف ، وطاشق المثل الأعلى ، وطالب الواقع القريب ، والمحدث الفيلسوف ، والعنان والحكيم ، كلهم يجهد في صبحيح البخاري نبياً ، ويلبس فيه عظمة ، ويستريح فيه إلى جانب عمله المخلص فيه ، ويأخذ منه بنصيب .

فهذه ألمية متعددة الجوانب ، يذكر صاحبها مع Harold الزمان ، وخلود عقائد بني الإنسان ؟

عبد الحميد سامي يوسى

البصيرة تغنى عن البصر

أحسن ما قيل في دفع التمييز بالمعى قول بشر بن برد :

وغيرنى الأعضاء والعيب فيهم	وليس بعار أن يقال ضرر
إذا أبصر المرء المروءة والنسبى	فأن عمى المبين ليس بصير
رأيت المعنى أجرا وذخرا وعصمة	وإنى الى تلك الثلاث فقصير

ولمبد الله بن عباس رضى الله عنه :

إن يأخذ الله من عيني نورهما	ففى فؤادى وقلبي مهما نور
قلبي دكى وعقلى غير ذى دخل	وفى مى صارم بالقول مشهور

وفوق هذا كله بلاغة وحكمة قوله تعالى : « فأنها لا تسمى الابصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور »

رأى الشريعة الإسلامية في الخمر

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

—

فتوى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية .
صدرت هذه الفتوى بناء على استفتاء مقدم من إحدى الهيئات تضمن هذه الأسئلة
الأربعة :

١ — ما حكم الخمر ؟

٢ — ما هو حد شارب الخمر ؟

٣ — إلى أي حد يجوز لغير المسلمين الانحمار فيها وبيعها للمسلمين على رؤوس الأشهاد ؟

٤ — ما هو حد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ وما القول في مسلم ساءه الاستهتار
بالدين إذ رأى الحانات تفتح أمام المساحد فدعا المسلمين إلى العمل على إغلاقها وقصر بيعها
على أهل القعة في أحيائهم ؟

وقد أجاب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية
على ذلك بما يأتي :

الجواب :

اطلعنا على هذا السؤال ونعيد بما يأتي :

عن المسألة الأولى : إن حكم الخمر في الشريعة الإسلامية هو الحرمة ، وذلك ثابت بالكتاب
والسنة . أما الكتاب فقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ
وَالْأَرْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »
وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ مَسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ » رواه أبو داود
والإمام أحمد وروى عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله الخمر
وشاربها وساقها وبائعها ومبتاعها وهاصرها ومعتصرها وحاملها وحاملها والمحمولة إليه » رواه
أبو داود ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة في تحريم الخمر . قال ابن قدامة في المغني
« وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر » .

هذا ، والخمر : كل مسكر خامر العقل وستره . فاسم الخمر يتناول كل شراب مسكر سواء
أكان من العنب أم من غيره ، وهذا ما عليه جمهور الفقهاء وأهل الحديث جميعا . ويدل على

ذلك ما جاء في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « خطب عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه قد نزل تحريم الخمر وهي من خمسة أشياء : العنب ، والتمر والخنطة ، والشعير ، والاعسل ، والخمر ما خمر العقل » ، وما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال . « كنت ألقى أبا عبيدة وطلحة وأبي بن كعب من فضيخ زهو وتمر ، خاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، فقال أبو طلحة : قم يا أنس فهرقها فهرقتها » والفضيخ بوزن عظيم : اسم للمسح إذا شدد ونبد . والزهو بفتح الزاي وسكون الهاء بعدها واو : هو البسر الذي يحمر أو يصفر قبل أن يتقلب .

ولمعد أن ورد فصيلة المفتي أحاديث كثيرة وأسانيد تثبت أن كل مسكر حرام قال : ولولا خشية الإطالة لذكرنا هذه المصوم ، ومن شاء الاطلاع عليها فليرجع إلى كتب الحديث ، أو باب الأثرية وحد الشراب من الجزء الرابع من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد ذكر رحمه الله كثيرا من هذه الأحاديث .

ومما ذكرنا كله يتبين جليا أن الحق أن كل مسكر حرام ، قليله وكثيره في ذلك سواء . ومن هذا كانت الفتوى في مذهب أبي حنيفة على رأي محمد القائل بذلك .

عن المسألة الثانية : إن حد شارب الخمر هو الجلد ، ولكن الفقهاء اختلفوا في مقداره ، فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الإمام الشافعي إلى أنه أربعون جلدة ، وعن الإمام أحمد روايتان . قال ابن قدامة في المفتي مائمه (الفصل الثالث) في قدر الحد وفيه روايتان ، إحداهما أنه ثمانون ، وهذا قال مالك والنوري وأبو حنيفة ومن تبعهم لإجماع الصحابة ، فإنه روى أن عمر استشار الناس في حد الخمر فقال عبد الرحمن بن عوف : أجمله كأحف الحدود ثمانين ، فضرب عمر ثمانين ، وكتب به إلى خالد وأبي عبيدة بالقام .

وروى أن عليا قال في المشورة : إنه إذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري ، فحدوه حد المفتري . روى ذلك الحوز جاني والدارقطني وغيرهم . والرواية الثانية أن الحد أربعون ، وهو اختيار أبي بكر (من الحنابلة) ومذهب الشافعي ، لأن عليا جلد الوليد بن عقبة أربعين ثم قال : « جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب إلي » رواه مسلم .

وعن أنس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فضر به بالعمال نحواً من أربعين ، ثم أتى به أبو بكر فصنع مثل ذلك ، ثم أتى به عمر فاستشار الناس في الحدود ، فقال ابن عوف : أقل الحدود ثمانون ، فضر به عمر (متفق عليه) ، وفعل النبي صلى الله عليه وسلم حجة لا يجوز تركه فعل غير ، ولا ينقصد الإجماع على ما خالف فعل النبي وأبي بكر وعلى رضي الله عنهما ، فتحمل الزيادة من عمر على أنها تمزيح يجوز فعلها إذا رآه الإمام .

والظاهر لنا وجاهة القول بأن الخمر أربعون ، وللإمام أن يعز مع إقامة الخمر بما يراه أصح .
هذا ، ومن يقيم الخمر إنما هو الإمام أو من ولاء الإمام ذلك .

عن المسألة الثالثة : لا يجوز تمكين غير المسلمين من بيع الخمر ظاهراً في أمصار المسلمين ،
لأن إظهار بيع الخمر إظهار للفسق ، فيمنعون من ذلك ، نعم لهم أن يبيعوا الخمر بعضهم لبعض
صراً .

وعلى الجملة لا يجوز الاتجار بالخمر في أمصار المسلمين على رهوس الاشهاد ، كما يؤخذ هذا
من البدائع صفحة ١١٣ من الجزء السابع ، ومن فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية في باب الاشربة
من الجزء الرابع .

عن المسألة الرابعة : إن من أوجب الواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك
ثابت بالكتاب الكريم والسنة ، قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى
ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ومعنى التعاون على البر والتقوى الحث عليهما ، وتسهيل
طرق الخير ، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الامكان .

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فليسه ، فإن لم يستطع
فليقلبه » . وذلك أضعف الايمان . وروى الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله
أن يبعث عليكم عقاباً منه » . إلى غير ذلك من الآيات والاحاديث المتطافرة على وجوب الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد فصل العلماء شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبينوا حدود ذلك . وأحسن
من كتب في هذا الموضوع على ما رأينا هو حجة الاسلام الغزالي في الجزء الثاني من كتاب
إحياء العلوم ، فقد أطال رحمه الله تعالى القول في ذلك ، وشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ،
والذي يهمنا في الإجابة عن هذا السؤال هو ما ذكره من أنه : إذا كانت المعصية راهنة وصاحبها
مباشر لها كلبس الحرير وإصاكه العود والخمر فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن
مالم يؤد إلى معصية أخشى منها أو مثلها ، وذلك يثبت للأحاد والرعية .

فهذا صريح في أن النهي عن المنكر إنما يكون إذا لم يترتب على هذا النهي منكر أعظم
من هذا المنكر ، ومفسدة أشد من مفسدة فعل المنكر ، وهذا هو الذي ينبغي ألا يكون فيه
خلاف . وقد قال المحقق ابن القيم في أعلام الموقعين من الجزء الثالث في مبحث تغير الفتوى
واختلافها بحسب تغير الأزمنة والامسكة والأحوال والنيات والعوائد بعد كلام مانعه :

« فانكار المنكر أربع درجات : « الاولى » أن يزول ويخلفه ضده . « الثانية » أن يقل وإن لم يزل بحملته . « الثالثة » أن يخلفه ما هو مثله . « الرابعة » أن يخلفه ما هو شر منه . فالدرجتان الاوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة »

وحينئذ لا يجوز الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر إذا ترتب على ذلك مفسدة أشد وقهر أعظم من ترك المعروف وفعل المنكر .

ومن هذا يعلم أنه إذا كان المسلم الذي ساءه الاستهتار بالدين إذ رنى الحانات تفتح أمام المساجد الى آخره ، دعا المسلمين الى العمل على إغلاق هذه الحانات بطريقة لا يترتب عليها شر أعظم ولا فتنة أكبر : بأن دعاهم الى مطالعة أولى الأمر بمنع فتح هذه الحانات والاتجار بالخرء ومنع سائر المنكرات التي فشت في الأمة فأمانت القلوب وأصمدت على العقول إدراكها ، فأصبح كثير من الناس يستحسنون القسيح ويستحبون الحسن ، وفقدت منهم قوة التمييز بين الخير والشر والنافع والضار والحسن والقبيح — كان هذا المسلم ومن يقوم معه قد أدوا ما هو واجب على حسب استطاعتهم .

أما إذا قاموا بأنفسهم بإزالة هذا المنكر وتغييره بأيديهم ، وكان هذا مما يترتب عليه فتنة وشر بالآلة أعظم من الاتجار بالخرء ، فذلك مما لا يجوز فعله ، بل هو محظور لما يترتب عليه من المفاسد والمضار كما قدمنا .

هذا وقد ذهب أبو حنيفة رحمه الله الى أن تغيير المنكر باليد إنما هو على الأمرء والحكام ، والتغيير باللسان على العلماء ، والتغيير بالقلب على العوام ، ذهاباً منه الى أن التغيير باليد يعتمد القدرة ، وأنه لا قدرة لغير الأمرء والحكام . ولكن حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الخ » نص كما قال العلامة البركوي في كونه الواجب على هذا الترتيب على كل شخص ، وهو قول أكثر العلماء ، وهو المختار لفتوى . غير أن الأمر مقيد كما قلنا سابقاً بما إذا لم يترتب على ذلك شر أعظم ومفسدة أكبر .

وخلاصة القول : أن الشريعة الاسلامية ، كما قال المحقق ابن القيم ، مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها . فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث ، فليست من الشريعة . فإذا أمرت بشيء فإنما تأمر به لما فيه من المصلحة الراجحة ، وإذا نهت عنه فإنما تنهى عنه لما فيه من المفسدة الراجحة .

فعل المسلم حينئذ أن يتبع قواعد دينه ، فيكون حكيماً في دعوه الى الله ، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

هذا ما ظهر لنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لتحيز الدين الحق

الأصل الثالث :

الغرض من الدين ، وما يجب أن يقوم عليه من أصول :

لقد علم من رجال الدين في أوروبا طوال عهد القرون الوسطى ، وهي تزيد عن ألف سنة ، أننا لم نسبق له مثيل في الشدة بين طائفتين ، في جميع تاريخ النوع البشري . فقد أهدمت محكمة خاصة لها كرامة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يهدد رجال الدين مخالفا لآراء الكنيسة ، وكان هذا ثبت على أحدهم شيء من ذلك استنبيح ، وأخذت عليه الموائيق بأن لا يعود إليه ، فإن عاد قبض عليه وألقي حيا في النار . فأهلك على هذه الصورة في مدى القرون الوسطى رجال من ذوى الأهمية العالية ، ومن العباقرة المحددين ، من نُسِف عددهم على ثلاثمائة ألف نسمة . ولكن هذه العقوبة على فظاعتها لم تردع طلاب السوء ، بل زادت عددهم ، فكانوا يظهرون كالكواكب الساطعة في تلك السماء الممكفة ، وكلما خبا واحد منها حل محله غيره ، غير حاسب لسوء المنقلب حسابا . واستمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين ، لتشوء الشقاق العظيم بينهم ، بظهور البروتستانتية ، وصعود ممالك برمنيا إليها . والبروتستانتية اضطرت لاجتذاب النفوس إليها ، أن تطلق الحرية للعقول ، تفرج العلم منتصرا ، ولكنه من فداحة مالهقه من اضطهاد رجال الدين ، جعل أول ما فكر فيه إسقاطهم وإسقاط ما يقدسونه من العقائد ، فلم يدعوا ثغرة توصلهم إلى هذه الغاية إلا اقتمعوها ، وأذاعوا ذلك بين الناس ، فانتشر الإلحاد بين جميع الطبقات ، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلا على الجهل .

ونحن لأجل أن نعطي القارئ مثلا مما كان يهاجم به الدين في خلال حرية الفكر ، نقل له طرفا من أقوال العلماء : جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة (دين) ما يأتي :
« إن قلنا : إن الدوق الانساني يقتضى اعتقاد الأشياء التي يمكن تعقلها ، يقولون : لا ، ثم يحاولون إبطال هذا العقل الانساني الذي يهدى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم قمية عين العقل ، وتفتية باصرة البصيرة ، إلى حد أن تعتبر المعجزات أمورا عادية ، وأن تتوهم الأبيض أسود ، وأن تعد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهييب بالناس إلى الطاعة . فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، أم واجباتنا الطبيعية ، أم إحساساتنا القلبية ؟ أنطيع القوانين الحقة المفيدة للانسانية ، والتي تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ أجابوك : لا ، ولكن أطيع وأنت أسمى . الخ الخ »

وقال العالم فورباخ وقد نقلته عنه دائرة المعارف السابقة : « إن الفضية الدينية وخاصة الفضية العليا ، أى فضيلة القديسين ، هى أن تمس الحياة المدنية والسياسية ، وأن تطرح سائر الاهتمام والأشياء الدنيوية ، باعتبار أنها طوباوية ، لأجل أن تستطيع بدون ترويح لنفسك ، وبقلب منكسر ، أن تبدل في انتظار الجنة ، وأن تغفل جميع هواطفك وميولك الطبيعية ، وتميت نفسك وتذلها » .

يرى القراء مما مر أن هؤلاء العلماء خلطوا بين الأديان وبين ماعلقه عليها زماؤها من تعليقات وشروح وتأويلات ، ولما نشك في أنهم لو حردوا كتبها من هذه التوسعات ، واكتفوا بما فيها من نصوص الوحي لا يمكن اتقاء أكثر هذه الانتقادات . وقد اتبع كثير منهم هذه النزعة من الاعتدال ففصلوا بين ما هو وحي وما هو شرح أو تأويل ، ولكنهم في النهاية أظهروا اليأس من خضوع قادتها للفصل بينها ، لما رأوا من تشددهم في الدافع عنها . من هؤلاء الأستاذ (سيجمان كونستان) فإنه بعد أن أفاض في كتابه (الدين ونبوذه وأشكاله وترفقه) ، في إيراد الطل التي تهككت الجماعات البشرية من جراء المعتقدات الباطلة ، رأى وحبوب تجريد الأديان منها ، ولكنه مادقاظهر بأنه من قبول رؤسائها لهذا التجريد فقال : « بهذه الطريقة تخلص الأديان من أوهامها ، ولكننا لانحال ذلك يتحقق ، لاعتقادنا أنها لا تتناول عن عقيدة من عقائدها . ولما كانت هذه العقائد تناقض العلم وتعارضه ، فيكون من المقرر الثابت إخماء الأديان وزوالها »

ولم يغفل الأستاذ بنحمان كونستان هذا تعليل زوال تلك الأديان فقال :

« إن كل قاعدة مهما كانت نافعة في عهد فلا بد أن تكون محتوية على حرثومة تعطل الرقي في عهد مستقبل . لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المسكت شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى مسابرة في مكتشفاته التي ترفقه كل يوم وتهدبه . إذا حدث ذلك انفصلت العاطفة الدينية عن تلك القاعدة المتحجرة ، وتطابت سواها من القواعد التي لانحرجها ولا تخرجها ، ولا تزال تضطرب حتى تصادفها »

العاطفة الدينية غريزة طبيعية لا تقبل الزوال

بعد أن اشتد العلم في أوروبا صد رجال الدين حتى تصدى للدين نفسه كراهة لهم ، عقب ذلك عهد سكينه واعتدال ، فظهر أقطابه في الدين نظرة تشبث وتحقيق ، فظهر لهم أنه يقوم من النفسية الانسانية على غريزة طبيعية لا يمكن إزالتها ، ولا تنفيع أثرها . قال الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) في كتابه تاريخ الأديان :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحمة ، وكل شيء لعمدة من متع الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أيضا أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية ، والعلم ، والفنون ؛ ولكن يستحيل

أن ينمحي الدين أو يتلاشى ، بل سيقى أهد الآباد حجة ماطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المصايق الدينية للحياة الأرضية .

وقال العلامة (هنرى بيراجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المحلات الفرنسية ، وهو الآن مدير لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الفرنسى .

« إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال الثابتة غير القابلة للتغير فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية ، بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، وإن كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفلطور على الاعتقاد بالله رغم أنه فى كل جهة وكل زمان قد شهود احتياج الانسان الى الدعاء والمباداة والتضحية فى أحس الأديان الوثنية كما فى أرقى المذاهب الروحية . هذه هى الشرارة النفسية التى استخلصها من رماد المصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المستحيل عليه أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل . »

وقال الفيلسوف الألماني (جيزلر) فى كتابه (تاريخ المعتقدات) :

« الدين خالد مثل خلود الاحساس الذى ينتجه ، ولكن علوم الدين مثل حائر العلوم يجب أن تكون قابلة لفرق على قدر الرقى العقلى ، وذلك مثل العلاقة المرحودة بين الحقوق وعلم التشريع ، فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتنهد على الدوام . »

وقال الفيلسوف المشهور (أجوست سباتيه) فى كتابه (فلسفة الأديان) :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى محفورا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنى من لوازم ذاتى يقولون لى . ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المراجع . فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض عينه ، ولكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها . وإن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبهاً منى بأهداب الدين . الى أن قال : فالدين إذن باقى وغير قابل لازوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتأدى الزمن ، نرى ذلك اليبوع يزداد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى ، والتجارب الحيوية المؤلمة . »

تقول يتضح من هذا أن الرأى العلمى فى الدين قد تم نضجه ، فبعد أن بدأ العلم حياته ، بسبب العقيدة التى كان يشعر بها فى نفسه ضد رجال الدين ، مناوئا للدين ، عاد بعد أن عجز عن هدم الدين عقب كل ما بذله من جهد وعف ، يثبت بالدليل المحسوس أن الدين لا يمكن هدمه لأنه غريزة طبيعية فى النفس البشرية . ولكنه مع هذا يرى أن كل ماحله الدين من الشروح والتأويلات والأفكار البشرية رائل لا عمالة . فلو اتفق وجود دين خال من خليط الآراء

البشرية ، ومزيج التاويلات الكلامية ، ولم يحتو إلا على أصول أولية ، ومبادئ بديهية ، فإن ذلك الدين يكون هو الحق ويتمين الأخذ به ، قال الفيلسوف الألماني (كُنت الشهور) :
« الديانة الحقّة الوحيدة هي التي لا تحتوى إلا على قوانين ، أعني قواعد صالحة للجري عليها ، نضمر من ذاتنا ضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والنعاليم الكهنوتية » .



الى هنا انتهى علم العلماء الراسخين ، وفهم الفلاسفة المثبتين ، وهي نهاية لا يحصى عنها ، وهي نفسها الصفة المميزة للديانة الحقّة التي يقرها العلم والفلسفة ، والتي ستكون — إن كانت موجودة — ديانة العالم أجمع يوم يتجرد من وساوسه ، ويتخلص من أوهامه ، ويلقى عن طاقه آصار الموروثات الاعتقادية ، وأوزار الشروح الكهنوتية ، والتاويلات الكلامية .

كل الذي نأخذه على العلم والفلسفة في هذا الموطن هو أنهما تسرعا فقررنا عدم وجود هذه الديانة لدى طائفة من المتدينين في العالم ، وأن كل ما يوجد منها لا يصلح أن يكون دينا للبشرية الراقية . قال العلامة (هنرى بيرنجيه) المتقدم ذكره في ذلك الموطن نفسه :

« إن حل المسألة الدينية هي أهم ما يشغل العالم المتمدّن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المنمّدة يتوقف على حلها . ثم قال :

« إنا نرجو أن يتحقق هذا الحل ، لاسيما وقد تألفت الديانة القلبية وعحصت بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فإن (جان جاك روسو) و (لامرتين) و (لامتييه) و (ميشليه) و (كينييه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة (الجديدة) . وقريب منا (إرنست رينان) و (جيرو) و (شوريه) و (ساباتييه) قد أعطوها قوة عظيمة ، انتهى .

فإن سأل سائل : ما هي أصول هذه الديانة الجديدة ؟ أحبناه بما ذكره عنها الفيلسوف الفرنسي المشهور (كارو) في كتابه : (البحوث الأدبية على المصير الزاهن) فقد قال : « هي الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعنى بها ، وهو متميز عن عالم الكون والفساد وعن النوع الانساني ، ووجود روح في جسم الانسان متصفا بالادراك والحرية ، ومحبوسة في هذا الجسم المادي أمدا لتنتل فيه ، هذه الروح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء ، كما يمكنها أن تسفل بأخلادها الى المادة العمياء ، والاعتقاد برفعة العقل على المواقف ، ووضع الحرية المخلقية التي هي ينبوع وأصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو التخلص التدريجي للنفس من علائق الجسم ، والتهير لساعات الموت بالزهادة ، وأخيرا الاعتراف بتأون الترقى ، ولكن بدون فصل رقي الانسان في مسارج السعادة المادية ، من المواقف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة » .

وقال العلامة الكبير (جول سيمون) الفرنسى فى كتابه (الديانة الطبيعية) :
 « كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر
 على كل شئ ، لا يغيره شئ ، خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى
 تؤدى كل وعود هذه الحياة ، ونحزى الظالم بالجزاء الأولى » انتهى

نقول : لو كان هؤلاء العلماء أجادوا البحث فى الديانات القائمة اليوم لوجدوا طلبتهم
 فى إحداها مما لم تتناولها أبداً التحريف ، ولكن يجوز أن الذى صدم عن مثل هذا التعمق
 فى البحث أنهم لم يصادفوا لها مظهراً مادياً من أحوال الشعوب التى تدين بها فلم يريدوا
 أن يتعبوا أنفسهم فى تلخيصها من كتبها .
تطبيق هذا الأصل على الاسلام :

هل تتوافر الشروط التى تتطلبها العلم والفلسفة للدين الحق ، على الاسلام ، فيكون هو الدين
 الذى يصدق عليه أنه الدين العام للبشرية ؟

إنها تتوافر فيه ويزيد عليها إيمان من الله للناس كافة بأنه الدين العام الخالد . فلننظر الآن
 فى هذه الشروط وفى وجوه انطباقها على الاسلام :

يكفى العلم والفلسفة حيال الديانة الحقبة بأن يتوافر فيها شرطان اثنان : (أولهما) أن لا
 يكون فيها غـير قوانين أى قواعد صالحة لتجرى عليها تشمر النفوس بضرورتها المطلقة ؛
 و (ثانيهما) أن تكون خالية من الأساطير الخرافية والتعاليم الكهنوتية .

والشرط الأول يحمل محتاج لتفصيل ، فإن القوانين أى القواعد الصالحة التى تشمر النفوس
 بضرورتها المطلقة تشمل ما هو خاص بالاعتقادات وما هو خاص بالمعاملات والعبادات ،
 وما هو متعلق بالمحلات والمحرمات ، إذ لا يعقل أن يخلو دين منها .

فهل كل ما فى الاسلام مما هو خاص بهذه الأمور يعتبر قوانين صالحة لأن يجرى الناس
 عليها ، بل يشعرون بضرورتها المطلقة ؟ لننظر فى ذلك :

ما هو خاص بالاعتقادات فى ديانة القرآن :

أول ما طالب القرآن الناس به من هذا الأمر الحلال . (الاسلام) ، ومعناه لغة : الاستسلام ،
 والمراد به شرماً : الانقياد الى إرادة الله ، وعدم التمسك للمورثات والتقاليد والمعادات
 والآهواء والأوهام ، للتندرج بها الى مقاومة إرادة الله .

ولكن أين هى إرادة الله ، وكيف نميزها من إرادة المدعين ؟

إرادة الله ممثلة فى الطبيعة ، وفيما أتزله مصداقاً ومهيمناً عليها من شريعة . فكل شريعة

تناهى الطبيعة وما فيها من العنصر العقلي ، لا تكون شريعة لله ، فإن الله أجل من أن ينقض قوله فعلة .

من هذا الأصل أصبح لدينا أداة مميزة ، للتمييز بين ما هو إلهي من الشرائع وما هو مفترى على الله . فإذا دعا إليه القرآن نحت هذا الصوء القوي من التمهيص ؟

دعا إلى إقامة الدين ، الدين الذي ينطبق عليه هذا الشرط ، فدعا إلى دين الفطرة « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد بينا لك في فصل سابق أن الإنسان مفلور على الاعتقاد بصانع قدير حكيم ، وبوجود حياة وراء هذه الحياة ، وعلى إكبار الفضيلة ، واحتقار الرذيلة ، وعلى حب الخير وكراهة الشر الخ . وقد اهتدى كبار علماء أوروبا الذين قاموا بوضع الدين الطبيعي إلى هذه الأصول كما رأيت . وهذا أدل دليل على أنها فطرية أي طبيعية ، وأن النفس تشعر بضرورتها المطلقة حفظا لوحودها .

ولكن الاعتقاد بالله واليوم الآخر ، وبضرورة الأخلاق الخ ، قد جبر الناس إلى الاختلاف فيها ، والتناحر عليها ، فأيهما على حق وأيهما على باطل ؟ الخطب سهل ، وهو النظر أيها يوافق الطبيعة ، وهي عمل الله ، وأيها يخالفه ، والأداة الطبيعية للتمييز هو العقل ، فالذي يوافقه يكون هو الحق .

العقل لا يسلّم أن يكون خالق الكون مما يمكن إدراكه بالحواس ، ولا معرفة كنهه بالفكر ، ويرى أنه يجب أن لا يشبه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا أن لا يحاط به علما : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

ويرى هذا العقل وجوب الوقوف من جميع المعتقدات عند هذه الحدود الطبيعية ، وأن لا يصار فيها إلى ما تستحسنه الأهواء ، أو تصوره الأوهام ؛ وأن لا يعمل فيه على التقليد ، ولا على الوراثة ، لأن هذه كلها تفصى إلى الأخذ بما لم ينزل به الله سلطانا ، وتكون عرضة للاختلاف والتنايد بين الناس ، كما هو مشاهد محسوس بين عقائد البشر ، ومراد الله أن يجمعوا على كلمة واحدة لا يتناول إليها النقد ولا التجريح ، ولا تخالف ما وضعه الله من أداة لتمييز الحق من الباطل .

وقل مثل هذا في كل ما يختص بسائر المعتقدات ، وهذا هو الذي قرره الاسلام ، فقد دعا إلى الله ، وأقام على وجوده الدليل ، فقال : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، أم أن خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ »

ثم أمر أن يرجع إلى حكم العقل في كل ما يندرج في باب الاعتقادات ، وأن يقام عليه

الدليل ، وأن يتجنب فيه التقليد للأبناء ، والتمويل على الأهواء ، والأخذ بالظنون ، فقال تعالى : « لعلكم تعقلون » « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » « إنهم ألقوا آياتهم ضالين فهم على آثامهم يهرعون » « ولا تقف ما ليس لك به علم » « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقال تعالى في الكافرين : « إن يتبعون إلا الظن وإنهم إلا يخرصون » أي يكذبون ما هو خاص بالمعاملات :

إن ما وضعه الاسلام من الأصول لمعتقدات يسرى على المعاملات أيضا . فقد جعل أساسها العدل الطبيعي المطلق ، لا العدل الانساني المقيد ، والفرق بينهما أن الاول لا يمتد باختلاف الأجاس والألوان والصفات والأديان والأحوال فالشكل في نظره سواء ، والعدوان في نظره عدوان بصرف النظر عن ارتكبه وعن ارتككب ضده ، وجزاؤه لا يتغير بتغير الأشخاص . وأما الثاني فيفرق بين الناس اعتبارا لشكل هذه الفروق .

وقد أمر الاسلام الانسان بالعدل حتى في مواطن القتال فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أي ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم . وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وأمر فوق ذلك أن لا يجهز على جريح ، ولا ينقلب مهزوم ، ولا يقتل خدمة المحاررين ، ولا يعتدى على الشيوخ ورجال الدين والنساء والأطفال والعبيد ، وأن لا تخرب بلادهم ، ولا تحرق ثمارهم ، وأن يحسن إلى أسراهم ، بل أمر أن لا يسبوا ، فقد سب قوم قتلى وقمة بدر فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال للناسين : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص اليهم شيء » مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لثم »

إن ديننا يأمر أهله بمعاملة أعدائهم على هذا النحو لجدير أن يعتبر مثلا أعلى في المعاملات ، وأن تتسارع الأمم إلى الدخول فيه .

ليس في الاسلام حرية من حزنيات المعاملات إلا وأحيطت بمثل هذه التعاليم العالية القدر ، الجديرة بالكبار والاجلال ، وليس يتسع لنا هذا الفصل لنأتى على تفصيل لهذا الاجال ، وحسبك أن تعرف ما وصى أهله به في حالة الحرب لتدرك مبلغ ما وصاه به في الأحوال العادية ، في جميع ضروب المعاملات ، من المساواة والانصاف ، وتجاهل جميع الاعتبارات في نصرة الحق على القوة ، وتحري العدل الطبيعي المطلق في كل حال .

ما هو خاص بالعبادات :

في كل الأديان عبادات ، وهي أعمال قصد منها تهينة الإنسان للاتصال بمبدعه في أحوال خاصة من الركوع والسجود ، أو الامساك عن الطعام ، أو الحج إلى أماكن مقدسة الخ ، وحتى هذه العبادات في الاسلام تجدها مدبرة تديرها بحيث تلائم الطبيعة ولا تشذ عن دائرة الأمور المعقولة . وقد قرر لها الاسلام دستوراً عاماً يتألف من أصول رئيسية لا بد من مراعاتها فيها ، وهي :

- (١) التكليف بقدر الاستطاعة . « لا يكلف الله تعساً إلا وسعها »
- (٢) فرصت العبادة لاصلاح الانسان لا لتسكيره ولا إعسائه : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »
- (٣) الصرورات تبيح المحظورات . « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه »
- (٤) يجب الاعتدال في العبادات بحالة الانسان من الضعف والقوة ، ومن الصحة والمرض ؛ وبواجباته نحو نفسه وأمرته ومماشرته ومجتمعه . يفصل لك هذا الاجال كله ماورد من النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يباليغ في العبادة . فقال له : ألم أحبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قال : بلى يا رسول الله وإني لأطبق ذلك . فقال له : كلا ، بل قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لبدنك عليك حقاً ، وزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً (أي وزائريك) . الحديث .
- (٥) العبادة الروحية والعقلية خير من سائر العبادات . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « درم من حمل القلب خير من مثل حمل أحد من حمل الجوارح » . وقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وقال : « ما تقرب أحد إلى الله بشيء أفصل من طلب العلم » . وقيل له يوماً : ليس هينا يا رسول الله من يشبهك في العبادة غير فلان ، فإنه منقطع لها لا يزاول عملاً سواها . فقال لهم : فمن يموه ؟ قالوا : يا رسول الله كلنا نموه . فقال لهم صلى الله عليه وسلم : « كلهم أفضل منه » الحديث .

(٦) كل الأعمال التي يقصد بها الانسان غاية شريفة لنفسه أو لأمته أو لمجتمعه أو لبني نوعه ، أو لأي كائن من الكائنات ، يعتبر في الاسلام من أجل العبادات . كبده صاحب السلام ، وقضاء حاجة لمضطر ، وتنقيس كربة لمسكر وب ، وكامطة أدي عن طريق ، وصلة رحم ، وإسعاف

حيوان ، وسقى نبات صديان ، الخ الخ ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن المرء ليؤجر في كل شيء حتى في القملة يرفعها الى في امرأته » .



هذه العبادات كلها أعمال شخصية واجتماعية تعتبر من أخص ما تقتضيه الحياة المدنية ، وقد رأيت أن الاسلام يرفع قيمتها على العبادات البدنية ، ويحض عليها بكل ضروب المغريات الثوابية في الدنيا والآخرة . ومن أعجب ما تقدمه من الأمثلة على ذلك ما رتبته على تنظيف الاسنان بالسواك ، والاستحمام يوم الجمعة ، من أجل المكافآت .

أمثال هذه العبادات يستحيل أن تصادف اعتراضا من أحد من المعكرين ، ولا أن تنير شكاً في كونها من أهل العبادات المستوجبة لأرق الدرجات ، إن أريد بها وجه الله ، في نظر الناسي قيل لهم إن الفضيلة هي أن تبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تذبيل في انتظار الجنة ، كما رأيت ذلك في مقدمة هذا الفصل .

خلو الاسلام من الآراء الكهنوتية :

من الشروط التي يرى العلم والفلسفة وحب توافرها في الدين الحق ، خلوه من الاساطير والنعالم الكهنوتية . وهل شرع الاسلام إلا لتحقيق هذا الغرض نفسه أي لتخليص البشر من سلطان الاساطير القديمة ، والنعالم التي سقتها طوائف تحلت نفسها حق الوساطة بين الله وحلقه ، فأنقلوا عوائق الشعوب شكائهم لا تقصد بها إلا تدليلهم لعبادتهم ، وتسخيرهم لخدمتهم ؟ لذلك لم يدع الاسلام وجهاً من وجوه التأثير في إسقاط مكانات الاساطير ، ومكانات المسيطرين ، إلا أتى به لاسقاط دولتها ودولتهم ، قال الله تعالى في الاساطير : « إن يتمون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ، وقال : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » . وقال في إسقاط المسيطرين على الأديان . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . وليس بعد هذا استغفاح للاستسلام لمذعي الوساطة بين الله والناس . وبما يحسن إرادته في هذا المواطن أن عدى بن حاتم ، وكان من أهل الكتاب ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما كنا نعبدكم يا رسول الله . قال : أو لم يكونوا يحلون لكم ويحرمون ؟ قال : بلى . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلك . أي هو ذلك . ومنه أن التسليم لهم بحق التعليل والتحرير يعتبر عبادة لهم ، فان ذلك من حق الله وحده .

وقال تعالى : « يد تبرا الذين أثموا من الذين أتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » . وقال الذين أتبعوا لو أن لنا كرة (أي رجعة الى الدنيا) فنتبرأ منهم كما تبتروا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ومأم بخارجين من النار . وقال تعالى : « وقالوا (أي يوم الحساب) ربنا إنما أطعنا سادتنا وكبراءنا فأفصلونا السبيلا . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب

والعصم لما كبيرا . وقال تعالى : « قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الخس والانس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أحتها ، حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أحرام لاؤلام : رننا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » أى أن لكل من المقلدين والمقلدين عذابا ضعفا . ولا مشاحة في أنه يستحيل أن يؤتى أتباع من هذا الزجر في إسقاط الدين يعطون أنفسهم حق السيطرة على أرواح الشعوب ، وفي ردع الدين يأخذون ما يلقونه اليهم باعتبار أنه واجب الاتباع .

وقد نهى الاسلام عن تقليد أى إنسان كائنا من كان ، إلا بعد محاكاة أقواله الى العقل ، فقال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهندون ؟ » وفي آية أخرى « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وقد نهى جميع أئمة المسلمين الى خطر التقليد ، وأهابوا بالناس الى استعمال عقولهم في كل ما ينقضي إليهم . فقال الامام أبو حنيفة : « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » ، وقال : « هذا رأى أبى حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا نحس منه فهو أولى بالصواب » .

وكان الامام مالك إذا استسقط حكما قال : « انظروا فيه فانه دين ، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) .

وقال الامام الشافعى لتلميذه : « يا أبا إسحق لا تقلدنى في كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين » .

وقال الامام احمد بن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عيب البصيرة » .

وقد أجمع المسلمون على ذلك فى كل زمان ومكان حتى يومنا هذا .



وبعد : فقد ثبت من كل ما مر أن الدين الذى يتطلبه العلم والفلسفة هو الاسلام ، فقد توافر فيه شرطا هما ، إذ ليس فيه كما رأيت إلا قوانين تشع النفس بصورتها المطبقة ، وهو مجرد عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية ؟

محمد فرير وهبى

فرعون

أصل اللفظ ومعناه — أصل القراعنة — قراعنة الأنبياء
فرعون إبراهيم — فرعون يوسف — فرعون موسى .

١ — أصل اللفظ ومعناه :

قال المسعودي : إنه لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . وقال الزاغبي : فرعون اسم أعجمي ، وقد اعتبرت غرامته (شدته وتجبره وصعوبة حلقه) فقيل : تفرعن فلان ، إذا تعاطى فعل فرعون . وجاء في اللسان والقاموس : الفرعنة : الكبر والتجبر ، والدهاء والتكبر ، وكل حات فرعون ، والعناة القراعنة ، وهو ذو فرعنة : أي دهاء وتكبر . ويقال : فرعون على وزن فعملون ، وفرعون (بضم الفاء وفتح الميم) وفرعون (بضمها) وهي لغة نادرة .

وهو مجموع من الصرف في قول بعضهم ، لأنه لا سمي له ، كما ليس فيمن أخذه من ألس ، قال ابن سيده : وعندي أن فرعون هذا العلم أعجمي ، ولذلك لم يعرف .

وهو اسم لكل من ملك القبط ومصر في الزمن القديم ، وقيل : هو لقب لمن ملك المماثلة ، ككسرى ملك الفرس ، وقبصر ملك الروم ، وخاقان ملك الترك ، وتبع الملك المين ، والتجاشي ملك الحبشة . وقيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه ، وهو صاحب موسى عليه السلام .

والإطلاق الأول هو الأظهر ، لأنه يتفق وما جرى عليه العرف بين المؤرخين قديما وحديثا من تسمية العصر التاريخي الذي يبتدىء بظهور « مينا » وينتهي بانتهاء الأسرة الحادية والثلاثين بعهد القراعنة ، وتاريخ القراعنة ، ومن عدم إطلاقهم ذلك على أي عصر من العصور التاريخية الأخرى ، ولأن الواقع يؤيد أن الدول التي ملكت مصر بمسد أيام القراعنة كانت من سلالات أخرى غير السلالة الفرعونية ، وكانت لهم في الحكم والملك والحضارة صبغة وطابع تخالف صبغة القراعنة وطابعهم .

٢ — أصل القراعنة :

هناك آراء كثيرة في نسب القراعنة ، وأرجح الآراء الحديثة الرأي ، الذي أخذ به معظم المؤرخين الحديثين ، وهو رأي الأستاذ « برستد » معلم التاريخ المصري القديم ، وتاريخ المشرق بجامعة شيكاغو ، وذلك أن المصريين الأولين الذين كانوا يقطنون مصر قبل أجداد « مينا » قوم من سكان أفريقيا المعروفين باللوبيين ، أما أجداد « مينا » فقد ثبت أنهم قوم ساميو الجنس ، قدموا إلى مصر من آسيا ، وينسبون إلى سام بن نوح عليه السلام ، وبذل على ذلك أن ما وصل إلينا من لغتهم يغلب فيه العنصر السامي على غيره ، وقد امتزج العنصران

الافريقي والاسيوى ، واندجبت الولايات الصغيرة تدريجيا ، حتى تكونت منها مملكتنا الشمال والجنوب ، ولما ظهر مينا تمكن من ضم المملكتين ، وكون منهما مملكة مصرية عظيمة ، كان هو أول الفراغة الذين جلسوا على عرشها . ثم تتابعت الأسرات والملوك إلى أن انقرضت دولة الفراغة سنة ٣٤٠ قبل الميلاد ، بعد أن حكموا وادى النيل نحو ٤٠٠٠ سنة

٣ — فراغة الأنبياء :

ذكر ابن الجوزي أن فراغة الأنبياء ثلاثة : فرعون الخليل ، وفرعون يوسف ، وفرعون موسى ، وهو فرعون هرون . وذكر بعض المؤرخين أن سليمان بن داود عليهما السلام تزوج بنت أحد فراغة الأسرة الحادية والعشرين ، وأتى بها إلى مدينة داود . ولعله لم يعد في فراغة الأنبياء ، لأن الأمر لم يزد به وبين سليمان على حصول تلك المصاهرة ، بخلاف ما كان بين إبراهيم ويوسف وموسى وهرون وبين فراغتهم من حوادث سجلها التاريخ ، وعثفت بها الكتب المترلة . ونحن متحدثون هنا عن فراغة الأنبياء بما استطعنا أن نصل إليه بشأنهم ، بعد البحث والاستقصاء ، وبعد الرجوع إلى أهل الذكر في هذا الموضوع الغامض الدقيق .

٤ — فرعون إبراهيم :

يغلب على ظن الجمهور من المشغولين بتاريخ مصر القديم بحثنا وتأليفنا ، أن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى مصر كان زمن أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ويحكي بعضهم بجامع العلماء على ذلك ، ولكنهم جميعا لم يستطيعوا إلى الآن إقامة الدليل الكافي على تعيين الملك الذي جاء إبراهيم إلى مصر في عهده .

فذهب بعضهم إلى أنه « أسرتش الأول » ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وهو الذي أشركه معه أبوه « أمنمحت الأول » في الحكم ، بقصد تدريبه على إدارة شئون البلاد ، ومن شهر آثاره مسلة عين شمس ، وقد بقي في الحكم من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد . وذهب آخرون إلى أنه « أمنمحت الثالث » سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وهو صاحب أعمال عظيمة ، وآثار نفخة ، واستمر في الملك من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٠١ قبل الميلاد .

والكتب العربية تدعو فرعون إبراهيم « سان » ، وتذكر له نسبا يصل إلى نوح عليه السلام ، وستحدث عن قصته مع إبراهيم حين الكلام على إبراهيم إن شاء الله تعالى .

٥ — فرعون يوسف :

يرجح المؤرخون أن قدوم سيدنا يوسف عليه السلام إلى مصر ، وحدث ما حدث له ، كان في عهد الأسرة السادسة عشرة .

ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أنه لم يبق شك في أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر في عهد الأسرة السادسة عشرة .

أما ملوك هذه الأسرة ، فهم من قوم « فتمين » ، أغاروا على مصر حوالي سنة ١٦٥٧ قبل الميلاد ، وهم الذين يدعون باليونانية « هيكسوس » أي الملوك الرعاة ، ويسمون في الكتب العربية بالمهالقة .

ولم يعرف من ملوك هذه الأسرة الذين يبلغ عددهم اثنين وثلاثين إلا ملك واحد ، يسمى باللغة المصرية القديمة « إياي » ، والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ، والمؤرخ مانيتون يدعوه « أبوفيس » ، وهو الذي وقفت في أيامه السيارة التي باعت يوسف بن يعقوب إلى « فوئي فارغ » المذكور في التوراة « فوطيفار » — عزيز مصر .

وقد انتهى أمر يوسف مع هذا الفرعون إلى أن جعله أميناً على خزائن الأرض .

٦ — فرعون موسى :

تحدث القرآن عن فرعون موسى أكثر مما تحدث عن غيره من مراعاة الانبياء ، فذكر قصته في غير موضع منه ، وعرض لها في كثير من آياته وسوره ، ولعل السر في هذا — والله أعلم — هو تبيان ما وقع على بني إسرائيل في ذلك العهد من ظلم واضطهاد ، وما أصابهم من بطش وعنف ، وما قاموا به من فضال وكفاح ، وتذكير الناس بفضل الله على عباده ، ورحمته بخلقه ، وتفصيل جهود الأنبياء وما بذلوه من عناء ومشقة في سبيل تبليغ دعوتهم ، وإيراد هذه المعاني وما يسببها في أساليب مختلفة ، وعبارات موعة ، ليكون ذلك أهمل في النفوس ، وأملك للقلوب ، وأبلغ في التأثير .

أدرك موسى عليه السلام عهدي ملكين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة يقال للاول منهما « فرعون الاضطهاد » لأنه اضطهد بني إسرائيل ، وقسا في معاملتهم ، وشدد الوطأة عليهم ، ويقال لثاني « فرعون الخروج » لأن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهده .

فأما فرعون الاضطهاد ، فهو رمسيس الثاني ، المعروف برمسيس الأكبر ، وقد ولد موسى في زمنه ، وتربى في بيته ، بعد أن التقطه آل فرعون من نهر النيل الذي كان قد ألقى فيه بالهام من الله تعالى لأمه ، وكانت قد وضعت في سفل من الردى ، لأن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنه يبق من التماسيح وغيرها من الحيوانات الصارة .

وقد شيد رمسيس كثيراً من المباني في جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها أخبار حروبه وانتصاراته ، فأكسبه ذلك شهرة فائقة في التاريخ ، جعلت كثيراً من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر ، وبلغ من إعجاب خلفه به أن عشرة منهم حملوا أنفسهم باسمه على التوالي .

وكان قد بلغه ما هو مشهور في بني إسرائيل يومئذ من أنه سيخرج منهم غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، كما كان يخشى أن يضم بنو إسرائيل إلى أعدائه وبمآلئهم عليه إن حدث حرب، خصوصا أنهم صاروا عسكرا عظيما، ونموا وتكاثروا، فاضطهدهم، وزاد في تعذيبهم، وسخرهم في تشييد المباني، واستخدمهم في أحسن الصنائع، وأدب الحرف، وأمر بذبح أبنائهم، وطرحهم في البحر، واستحياء نسائهم « إن فرعون علا في الأرض، وحمل أهلها شيئا يستضعف طائفة منهم، يذبح أبنائهم، ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين » واستمر في معاصيهم على هذا الموال إلى أن مات بعد أن حكم ٩٧ سنة.

ومما يعرف عنه أنه كان جسيلا وصيئا، وقد تزوج بكثيرات ولدن له نحو المائتين من الأولاد. وقد دفن في مقبرة ببيان الملوك، ثم نقل إلى الأقصر، لأسباب غير معلومة، ثم نقل إلى متحف بولاق.

وأما فرعون الخروج، فهو « منفتح الأول » الابن الثالث عشر لمسيس الأكبر، وقد أشركه معه أبوه في الحكم قبل وفاته، وأخذ ولاية العهد وهو من، وقد حاصر موسى وهو يتربى في بيت أبيه.

وكان منفتح مولعا بتشديد المباني كأبيه، وكان يحبو أسماء الملوك من الآثار التي شيدها ويقش اسمه مكانها، وقد فعل ذلك بكثير من آثار أبيه نفسه، ولولعه بتشديد المباني، ظل مع بني إسرائيل على الاضطهاد الذي بدأه أبوه، ثم أرسل الله إليه موسى وهرون لدعوته إلى عبادة الله، وأظهر له معجزاته، فأبى، فخرج موسى بقومه بني إسرائيل من مصر، بعد استئذان منفتح في ذلك، ولكن بعد خروجهم تقليل ندم فرعون على خروجهم، لجمع فرسانه وحيوده، وحث في اللحاق بهم، ليعيدهم إلى الدل والعبودية، فأمر الله موسى أن يصرب البحر، فضره فانقلب، وعبره هو وقومه حتى انتهوا إلى الشاطئ الثاني، فأنعمهم فرعون وحيوده، ففرقوا في الجمر الشمالي من البحر الآخر، وغشيم من اليم ما غشيم، وأضل فرعون قومه وما هدى، وقد أظهر الله تعالى بدن منفتح على وجه الماء بعد الفرق، ليصدق بنو إسرائيل أنه قد مات.

وقد بني منفتح لنفسه قبرا في ببيان الملوك، ولكنه لم يدفن فيه، ووحدت جثته مع غيرها من الجثث في قبر أمنتعجب الثاني بالأقصر.

ولقد جاء إظهار بدنه، والمنور على جثته، ووجودها الآن بالمتحف المصري، متفقا كل الاتفاق مع ما أخبر به القرآن الكريم في قوله: « فاليوم نتجيك بدبك لتكون لمن خلفك آية » فسكري يسرى

حلول شبهات ضد الاسلام

في كتاب (مختصر تاريخ العالم)

يوجد كتاب باللغة الانجليزية ، «تداول في مصر وغيرها ، اسمه : (مختصر تاريخ العالم) ،
(A short history of the World) لمؤلف يدعى ه . ج . ويلز ، أتى فيه بكتف من
تاريخ الأمم ورجالها ، ألم فيه بذكر لمعة من تاريخ الأمة العربية ، صدرها بفصل في النبي صلى
الله عليه وسلم ، قال فيه :

« إنه تزوج بعدد من الزوجات في شيخوخته . وإذا قيست حياته على العموم بالمقاييس
الحديثة ، كانت حياة لا تأخذ بالابصار . ويظهر أنه كان مركبا من كثير من الغرور والطمع
والمكر وخداع النفس ، كما كان مخلصا في شدة ماطفته الدينية . وقد أملى كتابا من الاوامر
والقصص اسمه القرآن ، قال إنه أوحى اليه من عند الله ، إذا نظر فيه من الناحية الادبية
أو الفلسفية كان غير جدير بنسبته إلى الله » .

هذا ما قاله المستر ويلز ، وهو لغو كنا نستطيع أن نغربه من الكرام ، لأن في الأرض
ألوفا من الكتب تحيط النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا السقط من الكلام ، وفيما نكتبه
كل يوم دحض موجه لها جملة ، لولا أن هذا الكتاب وقع لبعض نجباء طلبة كلية الشريعة ،
فرفعوه لحصرة صاحب الفصيلة شيخها الموقر ، وطلبوا اليه أن يعمل على دفع هذه الفيرى حفظا
للكرامة الاسلام . فكان حقا علينا ، وقد انتشر هذا القفو بين أيدي الطلبة وغيرهم ، أن نخضعه
برد حاسم ، فنقول :

هل تعديد الزوجات يقدح في النبوة ؟

يكثر خصوم الاسلام من ذكر تعديد النبي صلى الله عليه وسلم لزوجات ، ويمتروونه دليلا
على تورمه على الشبهوات . وقد صرح كثير منهم بأن من كان هذا شأنه لا يصلح أن يكون نبيا .
ولو تأملوا رأوا أنه تزوج أكثر هذه الزوجات لأغراض اجتماعية ، إما لإيواء ذات رحم ،
أولا أحداث صلة من الصهارة تعينه فيما هو بصدده من تمكين ربط المجتمع الاسلامي الحديث ،
أو لإبطال عادة جاهلية من طريق عمل مؤثر الخ .

على أن لو حردنا رواجه من جميع هذه الأغراض الجلية ، فإن تعدد الزوجات في بيئة
كان يربي فيها عدد الإناث على عدد الذكور ، إرباء يجر إلى تعطيل عدد من النساء من الزواج ،
لا يعتبر عملا شائنا . وقد كانت بلاد العرب ممتنة بالقارات والحروب ، حتى كان يكاد لا ينتهي

الرجال فيها الى عهد من السلام إلا يستعدوا فيه لغارات أو حروب جديدة . ولا شك في أن هذه الحالة ، التي دامت قروناً ، تكون قد جعلت عدد النساء فيها أكثر من عدد الرجال ، وهي نتيجة طبيعية لا مفر منها . (راجع كتاب علم الاجتماع للعلامة سبنسر)

على أن المؤلف يدين بالمسيحية ، ويعتمد بالضرورة ، وهي تشهد بأن من كبار الأنبياء من عدد الزوجات حتى بلغ بعضهم بهن مائة زوجة ، فلم لم يشهر بهم المستر ويلز كما شهر بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ؟

الغرض من هذا التشهير ظاهر ، ولكن الممول على شهادة الحوادث ، فهل شهدت بأن محمداً كان مشغولاً بشهواته ، كما يؤثر عن الملوك الشهوانيين في التاريخ ؟ التاريخ لا يجابى أحداً ، وقد اعترف بأن محمداً كان يشغل ساعات طويلة من ليله متعبداً ، وكان يطيل في ركوعه وسجوده الى ما يوازي قراءة حمس آية من القرآن وأكثر ، وكان يستيقظ مبكراً فيصلي بالناس ، وكان ينظر في شئونهم ومنازلاتهم معظم يومه ؛ أثر عنه كل هذا ولم يؤثر عنه ما عرّف من سيرة الشهوانيين من إهمال الشؤون العامة ، وتخصية الليل في الشرب والغناء ، وسط سرب من النساء . أين هذا من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت في حقيقتها محاريباً لمسك والمعبادات ، لا مسرحة للشهوات ؟ إن شئت دليلاً على ذلك فأنل قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً . وفرق في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الحاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً . فهل هذه بيوت رجل شهواني ؟ وإن لم تكن البيوت التي يقر نساؤها فيها مشغولات بالصلاة والزكاة والطاعة ، وتاليات آيات الله والحكمة ، إن لم تكن هذا البيوت بيوت نبي فيبيوت أي صنف من الناس تكون ؟

خل هذا جانباً :

خل هذا جانباً ، فالملاحاة فيه لا تساوي قيمة المداد الذي تكتب به ، وهات قول المستر ويلز : إذا قيس حياة محمد بالمقاييس الحديثة كانت حياة لا تأخذ بالابصار ! الخ

لا مشاحة أنه يريد بهذا القول أن حياته كانت ساذجة ، أي حياة فرد من سواد الناس ، ليس فيها ما يأخذ بالابصار ، كما في حياة الأقداد من الرجال إذا قدرت بالمعايير الحديثة ؛ أي أنه لم يكن بالخطيب المفعوف ، ولا بالشاعر الفحل ، ولا بال كاتب المبدع ، ولا بالمستترع المحيط بالاصول ، وكل ما فيه أنه كان ذا نفسية مؤلفة من خليط من صفات غير شريفة ، كالغرور والطمع والمكر وحداق النفس ، ولكنه مع ذلك كان مغلفاً في شدة عاطفته الدينية !

تقول : أما أن حياة محمد الشخصية قبل النبوة ، كانت لا تستلقت الأنظار ، فصحيح ، لأنه عاش أربعين سنة فلم يشتهر بشيء أكثر من أنه كان قويم السيرة أميناً ، وهذا من أقوى أدلة المسلمين على نبوته ، فإن رجلاً يمضي زهرة الشبيبة ، وهي عهد التوث لبوغ المجد ، والنطلع لتحقيق المطامع ، ساكناً وادماً ، حتى إذا شارف سن الكهولة ، هب بهمة لا تعرف الملل لجمع النثرية كلها على كفة جامعة ، مضحياً في سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله ، واجداً من حرائثها من الاضطهاد وضروب الأذى المألوف لا أحد على احتاله ، في مدة لا تقل عن ثلاث وعشرين سنة ، ثم يصطر بمداه لتحصية بقية حياته في جلال وجهاد لتحقيق ما يرى اليه ، قلنا : إن رجلاً يكون على هذه الشاكلة ، لا يمثل أن يكون قد صدر في التحول الذي حدث في سيرته ، عن هوى في نفسه ، أو خبث في طويته ، ولكن عن أمر جلال ، لا يكون أقل من النبوة ، لأن ما حققه من الأمور العظيمة في كهولته وشيخوخته ، لا يتمكن أن يعقل تحقيقه في مثل تلك المدة اليسيرة على يد رجل ملثث بأفذاء الغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، وهي الصفات التي وصفه بها المستر ويلز مؤرخنا منذ اليوم .

ولو كان نشأ محمد على حال تلت الأنظار من المواهب : خطيباً مصقفاً ، أو شاعراً مقلماً ، أو عالماً محققاً ، لكان المستر ويلز أول من يشك في نبوته ، ويرفع عقيرته قائلاً : لا جرم أن رجلاً يستمرى الأنظار منذ نشأته ، فيقرح الأسباع بسعده ، ويستهوئ النفوس بشعره ، لجدير بأن يعتلى قلبه غرورا ، وصدره مطامع ، وخليق به أن يستغدم كل وسيلة من المكر والمخادع والتزوير ليصل إلى التسلط على قومه . فما أعجب حال المستر ويلز وهو يدعي أن محمداً كان مجرداً من كل ما بلغت النظر اليه ، أن يسرد أعماله ، إن كان مؤرخاً جديراً بهذا اللقب ، من تأليف أمة ، ووضع ديانة ، وسن قانون ، ونحطيم وثنية ، ووضع أسس اجتماعية ، تصلح لا يصلح أمته إلى خلافة الله في الأرض في سنين معدودة !

إيه مستر ويلز ! أين تشبَّهت المؤرخ النافذ ؟ أين تدقيق الاجتماعي الممحص ؟ أين تحقيق البسيكولوجي المطلع ؟ إن نسمة كل هذه الشؤون الجسام ، التي حققها محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة ، وعجز عن تحقيق واحد منها في مثل درجة الكمال التي هي عليه في الدين الاسلامي أكبر عباقرة الأرض ، إلى نضع حالات نفسية خبيثة كالتي وصفت بها محمد جزافاً ، لا يعتبر عملاً تاريخياً يوجب الاحترام ، ولكنه يعتبر ثمرة لتعصب ديني ذميم ، أو لجهل فاضح ، لا يصح أن يدرج في صلب التاريخ .

لعل المستر ويلز يتخيل محمداً رجلاً دفعته وسأوسه في سن الكهولة ، أن يقوم بتأسيس دين ليعبد في زمرة التديسين ، فألف بمجوماً من عقائد خرافية ، وآداب سطحية ، وقام بشرها بين ظهرائي قومه ، فاتبه رجال منهم ، فنهض بهم لمقارعة خصومه ، وتمكن بعد عدة معارك

من إجبارهم على مشايخته ، وغاب عنه ، والهووى يعنى ويصم ، أن الدين الذى أتى به محمد كنهه مثل عليا لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن هذا الدين نفسه قد أودع فيه كل ما يصلح لتطوير المجتمع الذى يقسم عليه ، ولم يزل به حتى يوصله فؤامة الأرض فى سنين معدودة . أما رأى أنه قد قامت به أم وسقطت أم ، وبمنت به علوم كانت دفنت فأرهرت وزيد عليها زيادات لا تزال محل إعجاب العلماء الى اليوم ، وتغيرت جغرافية العالم تغيرا لم تكابده فى عهد من العهود ، وانتعشت بما أدخل إليها من العناصر المحيية حتى صارت أما للعندنية الحديثة ، إلا ما الساتت به من قشور وبدع ؟ فإذا كان المستر ويلز يورد الى ذهنه كل ماتم على يد المسلمين بسبب الاسلام لخلل أن يصف منير كل تلك الحركة التى لم تشهد الأمم لها شعبها ، بما وصفه به من الصفات الذميمة ، ولر كز بحته فى هذه النفس السامية كل السمو ، وهى نفسية محمد التى حملت أعباء الوحي السماوى ، وكانت واسطة فى إيصال كل هذا الخير الى سكان الأرض .

كتاب محمد فى نظر المستر ويلز :

يقول المستر ويلز : « وقد أملت محمد كتابا من الأوامر والتقصص اسمه القرآن ، زاعما أنه أوحى به اليه من عند الله ، وإذا نظرنا الى هذا القرآن ، من الناحية الأدبية وفلسفية كان غير جدير بنسبته الى الاله » .

لاحرم أن هذا أمر يؤسف له ، ويدل إما على تعمد الاستخفاف ، وهو لا يصدر إلا عن تعصب ذميم ، أو على جهل ، وهو لا يفقر لمؤلف فى التاريخ ، والتاريخ فى عرف أهل العصر الحاضر يقتضى درس الملل الأولى لحوادث الكبرى وآثارها المترتبة عليها ، وما أدت اليه من الانقلابات فى خلال القرون ، ويستدعى تحليل نفسيات الشعوب وقادياتها ، ونفسيات قادتها ، ومكانة تعاليمهم من الأصول المقررة ، والحقائق الثابتة .

فأول ما كان يجب على المستر ويلز ، أن يدرس ما كان عليه العرب من الأحوال الاجتماعية ، وما طرأ عليهم بسبب هذا الدين ، وأن يدقق فى معرفة الغايات التى قام عليها هذا الاجتماع ، وما يحتمل أن تتأدى اليه الجماعة بالاتجاه إليها ، مع عدم إغفال عوامل التطور المودعة فى هذه التعاليم ، وما عسى أن توصل اليه ، وقيمة ما فيه من الآداب والوصايا من علم البسيكولوجيا ، وما يتوقع أن تقضى اليه بالسيرة عليها ، ومبلغ ما انتهى اليه طامعا فعلا ، كل هذا أغفله المستر ويلز ، ولذلك لم يبين له من أمر القرآن إلا ما تلقاه فى المدرسة الأولى التى أمضى أول سنى حياته فيها ، وهو أنه كتاب لا قيمة له ، وضعه رجل عربى لتقوم عليه قبائل بدوية ، ولكن هذا الضرب من التسرع فى إصدار الأحكام ليس من الآداب العلمية فى شيء .

إذا كان القرآن متى نظر اليه من الناحية الأدبية والفلسفية ، يظهر أنه غير جدير بنسبته الى الله ، فلا يوجد كتاب فى العالم يستحق هذه النسبة . بل لو أنصف المستر ويلز لقال : ما كان

الانسان ليستطوع أن يدرك الفسواق البينة المحسوسة بين الكلام الإلهي في روعته ومحموه وروحانيته ، وبين الكلام البشري في نصيبته وماديته ، إلا بعد زول القرآن .

نعم ، لأن الأنجيل كُتِبَ وضعها رجال معروفون في سيرة عيسى عليه السلام ، والتوراة كتاب صاع نصه العبري وبقيت منه نسخ ، وقد قرر النقد التاريخي أن الذي وضعه كتّاب متعددون في أزمنة مختلفة . فليس في الأرض غير القرآن حفظ النص الذي أدّاه من أنزل إليه ، باعتبار أنه الوحي الأخير للعالم بأسره .

يدعى المستر ويلز أن القرآن من الساحة الأدبية والفلسفية غير جدير بنسبته إلى الله ، وإنما يصح هذا لو كانت آدابه وفلسفته تتم عن قصور لا تتنزه عنه البشرية ، وقصر نظر ملازم لها ، وخاصة في عهد نزوله ، وفي بيئة لا عهد لها بعلم ولا فلسفة ، فاقولك وآداب القرآن وفلسفته قد بلغت النهايات القصوى التي لا مذهب بعدها لسوء ولا لا إطلاق ؟

ماذا عسى أن يتخيل أرفع الناس خيالاً من السوء الأدبي فوق قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » ، وقوله : « أعم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تسمي إلا بصر ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » ، وقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

فأنت ترى أن الإسلام يُعنى كل العناية بقلب الإنسان ، ويوجه إليه كل اهتمامه ، حتى لم يجد القلب في كل تاريخ البشرية من معنى به هذه العناية ، وهذه النزعة هي لب أرفع مذهب إصلاحى اليوم . وقد تانع الإسلام طريقته في هذا الأمر الجليل حتى علق النجاة في اليوم الآخر على سلامة القلب ، فقال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » ، ومدح بسلامته أنبياءه فقال : « وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم » .

وهل يستطيع متحدث أن يأتي في باب العدل بما هو في درجة قوله تعالى -

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . ولكن أى عدل ؟ العدل المطلق الذي لا يحاية فيه للذات ، أو لأحب الناس إليها ، قال الله تعالى : « يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط (أى بالعدل) ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولو شئت احتيطاب كل أمهات الآداب التي وردت في القرآن ، وأريد منها نهاياتها البعيدة ، التي لم يصل لإدراكها الانسان إلا بعد أن بلغ من التطور الأدبي والعلمي إلى الحد الذي وصل إليه في هذه القرون الأخيرة ، لاستدعى ذلك منى سفرًا كبيرًا ؛ بله الأصول الأولية التي تعتبر

أساساً لآخر طور من أطوار الفلسفة ، وبها تم للعقل البشرى إدراك الوجود والحياة على الوجه الذى يحسب تنويهاً لجهود جبارة ، بذلها العلم فى اماد طويلة ، كقوله تعالى : « ولئن تجد لسنة الله تبديلاً » ، وقوله : « إنا كل شئ خلقناه بقدر » ، وقوله : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » وقوله : « إن يتسمون إلا الظن وما تهوى الأنفس » وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك » ، وقوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وقوله فى لانهائية العلم : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر عده من بعده سبعة أبحر (أى من ممداد) ، ما نفدت كلمات الله » ، وقوله : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » ، وقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » وقوله : « قل إنما حرم ربه الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والائتم والنهى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، وقوله : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » ، وقوله : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » ، وقوله : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » وقوله فى بر الآبوين : « فلا تقل لها أف ولا تنهرها وقل لها قولاً كريماً » ، وقوله : « وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعها وصاحبها فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم فأنشكم بما كنتم تعملون » ، وقوله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، وقوله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم (أى من أهل المنزل الأخرى) ، أن تبرؤم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » الخ مما يعلا ما بين دفتى كتاب ضخم .

فإذا كانت هذه الأصول التى جاءت منشورة فى القرآن ، وكان كل منها مظهرًا لمعبرة أدبية أو فلسفية أو علمية قام لها الناس وقعدوا ، وهملوا فى إبان ظهورها وكبروا ، ليست فى رأى المستر ويل ذات شأن يذكر ، فليس يوجد فى الكون كله شئ يذكر . وإذا كانت هذه الأصول ، وكلها فتوحات علمية وصل إليها الناس بعد أن كلفت عقولهم بحثاً وتنقيهاً ، لا يصلح أن ينسب الكتاب الذى جاء بها جلة إلى الله ، فأى كتاب يصح بعد ذلك أن ينسب إليه ؟

محمد فرير ومجدي

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

برغت أفكار الاسلام ساطعة في أرجاء الجزيرة فبددت منها محرف الجهالة ، وهتكت حجب الضلالة ، ومزقت شمل الحمجية ، وأشعلت شموعه مرسلةً أشعتها الذهبية على ما جاور الجزيرة من أقطار ، فغلت مبعث الحضارة ومنع المدنية ، ومهد العلم ومبوء العرفان ، وكان طبعها أن يمر بأوهام العرب طيف الإدلال ، وتتمثل في نفوسهم هواجس الاعتزاز ، وتملك وجوههم حرارة العرة ، وتسلط على قلوبهم كبرياء الأنفة . والفارسي يعرف سلمان الفارسي وصهيبا الرومي وبلالا الحبشي ، وثلاثتهم من أجيال الصحابة ، وكل منهم ينسب إلى أمة عظيمة لها ماضيها الحافل بشيئ العبر ، وكل منهم له مكانة عظمى ومنزلة سامية في تشييد أركان الاسلام ، والإيعلاء من كلمته ، والعمل على رفعة ، وما كان لهم من اعتزاز إلا بالاسلام . وكيف يعترف الفارسي بفارسيته ، والرومي بروميته ، والحبشي بحبشيته ، وهم بين قوم عظيمي الفخر يرميبتهم ، شديدي الأنفة على غيرهم ؟ !

بالرغم من أن الدين الاسلامي قضى على هذه العصبية الحسية الشائنة ، ولم يبق وزنا لغير المكانة الدينية ، فقد ظهرت العرة العربية عظامرشتي ، واقتضت أن تنشأ أمامها ما يقابلها من العرات الجنسية المختلفة ، ولكنها لم تتجاوز مجال الأدب ، وبقي جنمال المجتمع الاسلامي سايبا من النحلل بسبب التعصب للجنس .

ومن عنده إلمام بطوائع البشر وما لصق بها من غيرة متوقدة ، آمن معنى بأن الشعوبية مظهر كان لا بد من وجوده في شكله الذي كان عليه أو في شكل أشد وأعظم . والشعوبية: اسم لهذا الفريق من الناس الذين ذهبوا إلى تحقير شأن العرب وتصغير أسرهم ، ورأوا أن لا فضل لهم على غيرهم ، ومنهم من سواهم بسواهم من الأمم والشعوب ، وهؤلاء يعتبرون من معتدليهم ، وحجبتهم أقوى من حجة منطرفهم .

منشأ تلك الشعوبية المتطرفة فيما يحدتنا التاريخ ، أن زياد بن أبيه لما استلحقه معاوية بأنى سفيان ، علم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمهم بنسبه ، فأنار ذلك مكان الغيط من نفسه ، وألهب نيران الحقد في قلبه ، وأوغر من صدره فسيحا ، وأوجع من فؤاده سليما ، وصار يتلمس الطريق إلى تقيص العرب والتهوين من شأنهم ، وألحط من مكانهم ، فألف كتاب المنال وأودعه ما شاء أن يودع من عيوب العرب ونقائصها ؛ وأنت تعرف زيادا في بلاغة قوله وذلاقة لسانه ، وأنه إذا قال أبدع ، وإذا قرص أوجع ، وإذا ابتدع بدعة لم يعدم الأنصار والشيع

الذين يلقون لعه ، وينتهجون نهجه . لذلك ثناء الهيثم بن عدى ، وكان في قومه دعيا ، فَرَاد
 أن يمر أهل الشرف ، ويلصق بهم الشرور ، وينحطهم الأفك والبهتان ، تشميا منهم وإشباعا لنهم
 الخنق والحقن الذين أقضا مضجعه ، وأسهر أعينه ، وآلما نفسه . وقد كان أبو عبيدة معمر
 ابن المثنى يهودى الأصل ، أسلم جده على يذى بعض آل أبى بكر ، فأتى إلى ولاد تيم ، فزع
 هذا المنزع ، وسار تلك السيرة مجددا فيها وزائدا عليها . وقد أدلى ابن غرسية دلوه في الدلاء
 فأشأ رسائله القصيدة في تمصيل المعجم على العرب ، وقد تكفل بنقضها والرد عليها بعض
 علماء الأندلس في عدة رسائل منذ ذكر لك طرفا منها عند المناسبة في موضع آخر . ثم نشأ غيلان
 الشعوبى الوراق ، وكان مترددا ، فعمل لطاهر بن الحسيم كتابا خارجا عن آداب الإسلام ،
 بدأ فيه بمثالب بنى هاشم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ، وألصق بهم كل نقیصة ، وأجازة
 طاهر عليه ثلاثين ألفا . وكان هشام بن عبد الملك قد أمر النصر بن شميس وخاله بن سبعة
 الخزومي فوضعا كتابا في مثالب العرب ومناقبها ، وليس لقريش في هذا الكتاب ذكر ،
 وذلك أنه قال لها ولمن لف لهما : « دهوا قريشا بما لها وما عليها » .

ذلك بلعاج يجل إلى أطوار الشعوبية التي مرت بها ، وها أنت داتراها حلبة لتائق فيها
 بعض ذوى اللسن والبيان ، كل يجلى من غرضه ، وينافع من معتقده ، ويلصق بصاحبه
 ما واتته به عبارات المجر والإفداع ، ويظهره ماحلا من كل فضل عاريا عن كل خير ، مقفرا
 من كل جيل ، من ذلك ما روى عن بدیع الزمان الهمداني أنه قال : كنت عند الصاحب كافي
 الكفاة أبى القاسم اسماعيل بن عباد يوما وقد دخل عليه شاعر من شعراء المعجم فأشده
 قصيدة يفضل فيها قومه على العرب ويذمهم ، وهى :

غنيما بالطول عن الطلول	وعن كهنس هذاهرة ذمول
فلست تشارك إيوان كسرى	لتوضح أو لحومل فاللخول
وضب بالفلا ساع وذئب	بها يصوى وليث وسط غيل
يلون السيوف لرأس ضب	حراشا بالندادة وبالأصيل
إذا ذبحوا فذلك يوم عيب	وإن نحروا فنى عرس حليل
أما لو لم يكن لفرس إلا	نجار الصاحب القرم التبييل
لكان لهم بذلك خير نقر	وجيلهم بذلك خير جيل

فلما وصل إلى هذا الموضع من إنشاده أمر الصاحب : وكان من أصل فارسي ولكننه

كان يكره هذه النعرة الجسدية المخالفة للإسلام ، بديع الزمان الهمداني ، وكان من أصل فارسي مثله ، أن يرد عليه ، فالتفت للشاعر وقال :

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت لفظك من مهول
تريد على مكارمهم (١) دليلاً متى احتاج النهار الى دليل ؟
الى أن قال :

فرت بملء ماصتبيك هجرأ على قطائف والبيت الاصيل
وتحمر أن ما كولا ولبسا وذلك نقر ربات المحجول
ففاخرهن في خد أسبل وفرع في مفارقها رصيل
وانجهد من أيبك إذا تزا عراة كالبيوت على الخيول
ثم صرف صاحب بن عباد ذلك الشاعر جاعلاً حائزته جوازه .

محمد إبراهيم موسى البارودي

(١) في الاصل (مكارمنا) ولا يصح ذلك لان الهمداني نفسه كان فارسياً .

ما قيل في الزهد

قال حكيم : ليس الزاهد في الدنيا من زهد فيها وقد أعرضت عنه ، ولم تمكنه من متاعها ، وضائق عليه مع آساعها ، وهو مضطر الى ذلك ، لظهور عمرته ، ونقود يمرته ، وإيما الزاهد في الدنيا من أقبلت عليه ، وحشدت فوائدها اليه ، وحسنت له في ذاتها ، وأمكنته من لثاتها ، فأعرض عنها ، وزهد فيها .

ومن أحسن ما قيل فيها شعراً قول ابن عبد ربه صاحب العقد .

إلا إيما الدنيا غصارة أيبك إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها وما اللذات إلا مصائب
فسمك سخفت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمها الآن ساكب
فلا تكتحل عينك منها بعمرة على ذاهب منها فأك بك ذاهب

نقول وليس الغرض من الزهد في الدنيا أن يترك الانسان الجهد والعمل ، ويتحقق بأهل الكسل ، فان المرء خلق ليغيد وينفع ، فان قنع بأن يعيش غير مفيد فأغنا قنع بالدون ، ورضى بالهون . وإيما الغرض من الزهد أن يحرص الانسان نفسه على احتقار لذاتها وهي ممكنة له ، ليحصل من وراء ذلك قوة روحية ترفعه الى المكنانات العلى .

معرض الآراء العالمية في الإسلام والمسلمين

المصحاء والإسلام

نشر المسبو (دنيه بوتيه) في جريدة (لاكروا) أى الصليب التبشيرية مقارنة بين البدوى المسلم والأوربي منها على أسباب فشل الجماعات التبشيرية . قال :

« البدوى رجل يعيش في الشطف والجشوة ، ولا يحاول أن يتمتع نفسه بأشياء لا فائدة فيها . وهو لوحده في بيئة مناوئة له ، يعرف كيف يكتب من الغذاء بقبصة من التمر أو قليل من الكسكسي وجرة من الماء الأحاج . والعناية التي ينقاضيها منه قطيعه الصغير لا تشغله وقتنا يذكر . وهو لأجل أن يعمل تصوره لا يجد أمامه غير المطهر الفخم الطبيعة ، وهو مطهر ثابت ويتجدد على توالى الأيام والليالي . فإذا كان وقت القيولة حيث يشتد قيظ الظهيرة ، والشمس ضائعة وسط هب يأخذ بالابصار ، والأشياء القليلة الموجودة حوله كأنها ذائبة في لآلاء تفوق قوته البصرية ، والسكون شامل فيما حوله ، في هذه الحالة التي يسمع البدوى فيها دقات قواده ، بأى شيء يشتغل فكره إن لم يكن في مبدعه وفي ديانت ، وهما الموضوعان اللذان يقطع لسانه نحوهما على الدوام ؟

« أراد البدوى أن يكون حاصلا على هذا الوصف أو لم يرد ، فهو رجل تأمل وتدبر بضرورة الحال .

« يؤدى البدوى كل يوم خمس صلوات يكرر فيها الركوع والسجود أمام مولاه . ويؤدى في كل سنة صوما لا يحس صومنا إذا قول به شيئا مذكورا . فإذا يقول أكثرنا نسكا وتقوى إذا فرض عليهم أن لا يأكلوا شيئا ، وخاصة أن لا يشربوا حرة ماء ، من لدن الفجر الأول إلى المساء ، في إقليم شمه تحرق الأجسام ، ورياحه تحفف الرطوبات .

« إن لهجة البدوى نفسها تم عن اشتغال باله بالأمور المتعلقة بما فوق الطبيعة . فهو ليس بسعد مستقبل ، فكل ما يختص به متوقف على إرادة الله وإذا أراد الأعراب عن ففكرة تقتضى تعيين زمان معين ، عين لها زمانا لاهو بالحاضر ولا هو بالماضى فقال : إن شاء الله . وهو مادة لا يقول : سأفعل ذلك غدا ، ولكنه يقول : أفعله إن شاء الله .

« ما أعظم الفارق بين المسلم وبيننا المسلم يعيش في الدقيقة التي هو فيها ، أما نحن فلا يكون لوجودنا معنى إن لم تكن لنا نوايا نرجو تحقيقها !

« وهناك عبارة أخرى تتردد على شفاه المسلمين كثيرا وهي : سم الله . فلا تصادف مؤمنا يشرع في أي عمل كان دون أن ينطق بهذه الكلمة الدالة على الصلاح .

« سكان المدن منهم يفسون على عمل الأسلوب الديني ، ولكن اليك ما قاله لي رجل من قبيلة وادي السباح ، وقد كنت ألتحفه دليلا في رحلتي . قال :

« أنا سعيد بمودى إلى البلد ، لأنني لما كنت بالصحراء كنت لأرى الله إلا كما يرى الأعمى موقد النار ، بتأثير الحرارة التي تلبث منه »

« وكان هذا العربي رجلا من عامة الناس لا يحفظ من القرآن إلا الآيات التي يحتاج إليها في تأدية الصلاة .

« ليس من غرضي أن أمدح الإسلام فإن سهولة الأخلاق فيه ، وغلوه في بث الاعتقاد على الله في القلوب ، كثيرا ما يقضى إلى المذهب الجبري ويؤثر تأثيراً سيئاً في العقول الساذجة ، ولكن أليست البيئة التي يعيش فيها البدوي هي السبب في إكسابه روحاً دينية .

« إن تحويل البدو إلى مدنيين يؤدي إلى تدميرهم من إيمانهم القطري دون أن نوصيهم منه ديناً آخر ، وهذا التقصير له سببان أولهما أن الحكام لا يعنون به ، وثانيهما قلة عدد الدعاة ، ولو كثر عددهم لما تقدمت الكاتوليكية عن موقعها الحالي ، لأن الإسلام يحمل في جوهره ، بالاستقلال عن روحه الحربي الذي يدفعه إلى الجهاد ، مناعة تجعل كل دعوة تبدل ضده مادية الحدوى . وهذا ما أحسن بياه الكاردينال (لا فيجري) فيما بذله من النصيح لاتباعه المتدينين إذ قال : « كونوا مثالا حيا لعقائدكم مائة سنة ، ثم اشرعوا في دعوة الناس للتكلم بعد ذلك » .



(مجلة الأزهر) مصت على الدعوة المنظمة التي يقوم بها دعاة المسيحية في بلاد المسلمين نحو قرن ، وقد أنفقوا في هذه السبيل مئات الملايين من الجنيهات ، ولم يحصلوا من ورائها على طائل . ولكنهم لم يقلعوا عنها ، لا بسبب أنهم يرحون أن يصادفهم الحظ فتشر دعوتهم في المسلمين ، ولكن هناك اعتمادات مالية خاصة موقوفة على بلدان معينة لا بد من إنفاقها فيها سواء أجدت مساعيهم أم لم تتجدد .

أما لا أدري والله أية حال يرحى أن يكون عليها أهل بدعوة ، انفصل مما عليه البداة المساكين . لقد وصفتهم جريدة الصليب بأنهم متحلون بروح دينية قوية ، وأن أسلحتهم لا تنفتر عن ذكر الله ، وقلوبهم لا تنفي في تعجيبه ، وأنهم صلاب في عقائدهم حتى لا يستطيع أن يستهويهم دعاة يارحون لهم بالمتع الجمدية ، والمسولات المادية ؟

إذا كانت بعض البينات من حشوية الطبيعة ، وعوالة القرية ، بحيث لا تمكن الحياة فيها إلا في حالة بدوية ، انفصل أن يكون أهلها على الطريقة التي عليها بداءة المسلمين ، أم على الطريقة التي عليها بداءة الوثنية ، أو أية ملة من الملل المعروفة الذين لا يعرفون الله ولا يشتغلون بغير السكر والفسق والاباحة وسفك الدماء وارتكاب المنكرات ، التي يترفع عن مثلها الحيوان الأعجم ؟

في جميع تارات الأرض إلا أوروبا بداءة غير مسلمين ينقل عنهم من المنكرات والفتناعات ما تقشعر الأبدان من سماعها ، أفليس من مصلحة النوع الانساني أن يكون جميع أهل البداءة مسلمين ، على مثال بدو بلاد الجزائر التي روت جريدة الصليب عنهم ما رأيت ؟

تدعى جريدة الصليب أن في الاسلام روحا حربية تدفع دائما الى الجهاد ، ولا ندرى من أين استنقت هذا العلم ؟ أم من قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصالات ومساكن يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوات وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر وفيه طائفة الأمور » .

أم من قوله تعالى : « فان جنحوا لمسلم فاجسح لها وتوكل على الله ، وإن أرادوا أن يخدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ؟ .

لقد أكثر الأوروبيون من اتهام الاسلام بالاغراء على الغزو ، وقد شهد مؤرخوهم أن الشعوب لم ترافحين كالمسلمين في عطفهم على المهجورين ، ورحمتهم بالمستضعفين ، وإن البلاد التي افتتحوها حيي مواتها ، وازدهرت مدينتها ، ودخل أهلها في دينهم بدون دعوة منظمة ، كالتى صممت الجيوش الأوروبية في العالم الجديد حتى أبادوا فيها أنما يرمتها ؟

ألا ينظرون الى ما أنجاه الاسلام من المسلم ، وما أقامه من المدنية ، وما بثه في عقول مشات الملايين من الحكمة ، ليكفوا عن دعايتهم السيئة ضده ؟ ألا إن اليوم الذى يزول فيه الاسلام من الأرض يزول كل خير فيه . وهيهات : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

محمد قمرى وجرى

تصحيح

النص الصحيح للآية الواردة في سطر ١٥ من صفحة ٣١٦ هو :

« وإن جنحوا لمسلم فاجسح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم .
وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى يهلك بصرة والمؤمنين »
« وارجو إسلامهم جميعا ، كما رجوا كسرهم » وإن الله « وجعل ناه الصلاة »
مربوطة في الآية التي قبلها .

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

تحدثنا فيما سبق عن الاستحقاق وآثاره وأسبابه ، ونعرض الآن بقدر لمسألة اختلف عليها العلماء جد اختلاف ، وهي أن يقف الواقف على نفسه ابتداء أو على غيره ابتداء ثم من بعده أو من بعد غيره يقفه على جهة ير لا تنقطع .

فلو حمل الواقف لنفسه عينا ابتداء ثم من بعده جعلها لجهة سماها في إهداء وقفه أو فعل بغيره ما فعله بنفسه ، وقع الوقف صحيحا عند الامام أبي يوسف ، وغير صحيح عند الامام محمد . واحتج محمد للمطلان بحجج منها أن تملك الانسان ما تحت يده لنفسه لا ينجو من نصف كالصدقة المنجزة ، فقد منع العلماء اتفاقا أن يتصدق الانسان بمال على نفسه وهو مملوك له ، فكيف يباح بعد هذا المانع اتفاقا في مادة الصدقة المنجزة أن يقف الواقف ما يملكه على نفسه ابتداء ؟ أليس هو في هذه الحالة قد قطع سبيل الانتفاع على الفقراء ، وأحال لنفسه ما للفقراء والمهرومين فيه نصيب .

أما أبو يوسف رضي الله عنه فقد أجاز وقف الواقف على نفسه ابتداء ثم منع ما استبدل به بعد من أن وقف الواقف على نفسه ابتداء معناه تملك ما يملكه إلى نفسه وأنه كالصدقة المنجزة ، لأن إحالة الوقف إلى الله عند أبي يوسف معناها انتقال الملكية من الله إليه في كل غلة الوقف أو بعضها ، ولأن وقف الواقف بعض غلة العين الموقوفة أو كلها ابتداء على نفسه ليس معناه تملك النفس ما كانت تملكه الذي هو عبارة عن تحصيل الحاصل ، بل معناه استمارة غلة الوقف على أية صورة من صورها من الله للواقف ، وهذا لا تعسف فيه بل هو واقع وجاز ، فقد نقل العلامة ابن الهمام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل من صدقته الموقوفة على المسلمين ، والأكل منها في جانب النبي صلى الله عليه وسلم أمانة جوارها ، بل قد ثبت بعد ذلك أن عمر رضي الله عنه وقف عينا ثم كمل منها طيلة حياته ، وثبت أن كثيرا من أئمة المسلمين ومراتبهم انتفعوا من أموالهم الموقوفة واعتبروها مستغلا يجرى عليهم منه ير غير قليل ، وقد اتفق العلماء على أن الواقف إذا وقف سقاية أو وقف أرضا وأقام فيها مقبرة أو أقام عليها مستشفى أو معبدا ثم أراد الانتفاع بكل هذه المؤسسات فليس بمعتن على شرا إذا اشترط لنفسه أن يشرب من هذه السقاية أو يتعلم في ذلك المعهد أو يدفن في تلك المقبرة أو يتطبب بذلك المستشفى ، لأن الوقف في معناه ومدلوله التقرب إلى الله

فاشترط الواقف حبس الموقوف على نفسه كله أو بعضه لا يثنى معنى هذه القرينة بل يزيدها توثيقاً عند الواقف ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نفقة الرجل على نفسه صدقة » ، وأية صدقة أبلغ في النفس أترا وأرفع في الناس ذكراً من صدقة يأكل منها مذهبها ويسد بها مصروفه في ذات نفسه .

وقد فرغ علماء الفروع على مذهب أبي يوسف رضى الله عنه تفاريع كثيرة ، فنقل صاحب الاسعاف : لو وقف الواقف عينا مؤبدة على جهة من جهات الخير ثم شرط لنفسه في إسهاد وقفه أن ينفق من هذه الغلة عليه وعلى خدمه وحشمه وأولاده مدة حياته ثم انحازت إليه الغلة ووضع يده عليها لأنه هو الذى يقوم بتنفيذ شروطه ثم مات بعد تحصيل هذه الغلة في بيته ، فالقول المفتى به أن هذه الغلة تصير موته مما يورث عنه ، فتصح حقاً للورثة تلقاؤه عن مورثهم باعتبارها مالكا لهذه الغلة لا واقفاً ، لأنه حين وضع يده على غلة العام أو العامين أو الأكثر منهما ، فقد نفذ ما شرطه ، فكان ملكاً له داخل في حيازته يتصرف فيه تصرف المالك ، فليس في ميراثه عنه نمو عن الجادة الواضحة ، وخروج عما التزمه في كتاب وقفه .

ولهذا البحث فروع يجب استيفائها والكشف عنها في صورة تحقق رغبات القارئين والباحثين ، فالى عدد تال إن شاء الله ؟

عباس ط

استدراك

في التعليق الذى ذيلنا به مقالة الأستاذ الدكتور غلاب في العدد السابق وجهاً نقدر الى المسيو كارادى فو وحقه أن يوجه الى إرنست ريبان ، فليصحح الاسم .

وجاء في العدد السابق أيضاً ص ١٧٩ س ٤

خويلد والصواب : وهب

حكم الشريعة الإسلامية

في تنظيم النسل

من الآراء المقررة عند المسلمين أن الشريعة الإسلامية يتسع صدرها لكل جديد من الانقلابات الاجتماعية ؛ وأنها مرنة إلى حد أنها تساو كل تطور تدخل فيه الأمم سواء أكانت محمودة اليه بالعوامل الطبيعية أم بتغير وجهات النظر تحت تأثير تقدم العلوم والفلسفة ؛ وأن أئمتنا الأولين قد استنبطوا أحكامها من الوحي الإلهي وهم على أكل ما يكونون من استقلال الرأي ، وحرية البحث ؛ وأن الأصول القرآنية التي أسسوا نظرم عليها تسمع بالحوالان في كل نواحي المكنات ، بل تدعوم إلى الجولان فيها لتفري ما يصلح لكل الانتقالات الاجتماعية ، والتطورات الفكرية ؛ وأنه لا توجد أصول شرعية وضعية تلغ مصلح الأصول القرآنية في دفع صاغة النظم إلى الاحتياط لجميع الطوارئ ؛ وأن المشرع العصري لو اتخذ هذه الأصول مرجعا له لتمكن من وضع نظم لجميع ضروب المعاملات الفردية والدولية تبرز جميع ما هو موجود منها إلى اليوم .

هذه آراء إسلامية مقررة عند المسلمين تقرر العقائد الأولية ، ولكن ربما كان يضطر الذي يريد التدليل عليها ، في مضطرب هذه العلاقات المذهبية ، إلى كتاب ضخم يشغل على الناس أن يقرأوه ، فإذا كنت قائلًا لو تسنى ذلك كله في رسالة لا تزيد عن أربعين صفحة صغيرة مطبوعة بأحرف كبيرة ، وفي موضوع جديد لم تكن له دعوة إلا منذ عشر سنين ، ألا وهو مشروع تنظيم النسل .

هنا قد يدهش الكثير من القراء ويقولون : وهل بلغ جولان مشرعي المسلمين في صميم الشؤون الانسانية إلى هذا الحد ؟ وهل يروى عنهم فيه كلام يستسيغه باحثو هذا الزمان الأخير ؟ لست أستطيع أن أبلي بك من الاقتناع بالجواب ما تبليغه بقراءة هذه الرسالة ، فهي حذيرة بالقراء لاعتبارات كثيرة أهمها وأعظمها مائدة ، التدليل على صحة آراء المسلمين المقررة في شمول شريعتهم لكل الشؤون الانسانية والاجتماعية ، وصلاحيتهما لكل زمان ومكان .

إن صاحب هذا التوفيق هو حضرة صاحب التفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمود شلتوت المفتش بالأزهر والمعاهد الدينية ، فقد سلك في وضع هذه المسألة وترتيب نواحي البحث فيها ، وإيراد الآراء المختلفة عليها ، مسلك العلماء المعاصرين ، فلم يدع للقارئ حاجة إلى بيان غامض ، أو كشف مستور ، أو إيضاح مبهم ، إلا أتى به مصاصة سائلة في عبارات تعتبر غاية في البراعة والوضوح .

وإني إكبار الأئمة التي أتوقعها من وراء نشر هذا العمل العظيم ، للاعتبارات التي ذكرتها في مقدمة هذا الكلام أعرض على القراء عنوايات فصوله وهي : مسألة تحديد النسل قديماً وحديثاً ، من له حق الولد ؟ الرأي الأول . الرأي الثاني . الرأي الثالث . الرأي الرابع . حكم إسقاط الحمل . الفقهاء يعترفون بحياة مادة التلقيح . الفقهاء وحق الأمة في النسل . الشريعة وحق الأمة في النسل . الشريعة وكثرة النسل . الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة . الشريعة تطلب كثرة قوية . سبيل الكثرة القوية . واجب الأغنياء والحكومة في مساعدة الفقراء . مسئولية الحكومة شرها عن حوادث الفقراء . خاتمة .

من طرائف هذه الرسالة ما كتبه فضيلة المؤلف تحت عنوان : (الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة) . وأنا لتتحدث القارئ باطروفة منها قال الاستاذ .

« وإذا نفقت الشريعة والطب في هذه الناحية ، فهما يلتقيان مرة أخرى في ناحية وجوب دفع الضرر الذي يلحق الزوجة أو الأمومة من جراء إطلاق الحرية في تحصيل النسل وكثرته ، فكما أن الطب لا يقر خلافه إضرار المرأة أو بالنسل ، وتوافقه الشريعة في هذا ، فالشريعة أيضاً لا تعجبها كثرة هريفة ، ولا تقبل لارتضاع نسبتها في التعداد ورناء ، ولا يتخذ منها السبي الكريم مبعثاً للمباهاة بها ، بل بالعكس نفقت الشريعة هذه الكثرة وتحقرها ، يشير إلى هذا ما صح في دلائل النبوة عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الآكلة إلى قصبتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، بل أنتم كثيرون ، ولكم غناء كغناء السيل ، وليرتعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في فلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكرهية الموت » يشير الحديث إلى أن الكثرة التي تملكها عوامل الصنف كثرة لا خير فيها . وكما تكون عوامل الضعف من الجانب الخلقى ، فهي تكون في الجانب الخلقى . والوهن كما يبعثه الجبن والبخل يبعثه ضعف البدن ، فلا خير في أمة ذبلت أباؤها ، كما لا خير في أمة حرمت فضيلة الشجاعة وحرمت فضيلة البذل والسخاء .

« إن الشريعة في الوقت الذي حثت فيه على كثرة النسل إغناء للأمة وتكويلاً لقوتها ، قضت بصيانة هذه الكثرة من الضعف ، ومن أن تكون غناء كغناء السيل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

نصيب العالم من رسالة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

لو كانت الحركة التي أحدثها الاسلام انحصرت في سئتها التي نشأت فيها ، لما ساء لنا أن نذكر نصيب العالم منها ، ولكنها كما يعلم الناس كافة ، ما عتصمت بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، أن اجتازت حدود البلاد العربية شمالا وشرقا وغربا وجنوبا ، منخبطية جميع الحوائث التي وصفت أمامها ، وكانت سببا مباشرا لتغيير خريطة العالم في مدة لا تزيد عن ثمانين سنة .

لو كانت هذه الحركة ذات صبغة استعمارية باحتة ، لانحصرت بعد بلوغ شوطها الأقصى ، تاركة وراءها أحداث الفظائع التي ارتكبت لتدويع الأمم ، ولسلبها ما بأيديها من المال والعناد ، ككل حركة من هذا النوع حدثت في خلال المصور ، ولكن هذه الحركة لم تسكن حتى بعد وصول الفتوحات التي اقتضتها الى نهايتها التي قدرت لها ، بل حتى بعد طروء الضعف والفتور على بنية الدولة الاسلامية التي تحملها ، ويجب أن أقول حتى بعد أن ضاع استقلال أكثر الممالك الاسلامية ، واشتد كآلِب الدعاة على أهلها في جميع البلاد الشرقية . وهذا يدل دلالة لا تقبل النقض على أن قوامها عنصر أدبي له وقع عظيم في النفوس ، لبقائه مؤدبا مهمته في أثناء دور الفتور الذي أصاب جماعته ، وقد شوهد أنه اشتد وازداد سلطانا على العقول ، عندما بلغ هذا الفتور أقصى درجاته في القرن الأخير .

هذا موضوع دراسة علمية لا يجوز إغفالها ، بل هو موطن القصد الرئيسي من الرسالة المحمدية ، إذا لم تكشف حقيقته ، وبقيت تحت حجب الإغفال ، استحالَت السيرة المحمدية الى مثل سير رجال التاريخ العاديين ، وبقي معنى الاسلام الذي استوعب كل حياة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوده ، مجهولا حتى عند أهله الأقربين . ونحن لأجل إدراك هذا القصد مضطرون للرجوع الى ما كان يفهمه من الاسلام رجاله الأولون ، والجماعات التي كانت تتسارع الى الدخول فيه من أهل الملل الأخرى .

الامر الذي كان يفهمه المسلمون الاولون من امر هذا الدين ، أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاول الذي أوحاه الله الى جميع رسله في خلال القرون ، وأفسده القادة بالزيادة فيه والتقص منه ، وتناوله بالشروح الطويلة ، وإخراجها عن حقيقته بالتأويلات الخيالية ، ليتم لهم ما كانوا يرمون إليه من التسلط على الناس ، وتسخيرهم لمصالحهم الخاصة . ولم يكن في الأرض دين سميت أصوله من هذا التحريف ، نغتنع كل قبيل لما عليه الكفاة ، غير متوقعين أن يكون لهم مخرج منه ، فصبوا على ما هم عليه مستسلمين .

اتفق أنه عند ما نشأ الاسلام كلف بحجزة العرب يهود ونصارى ، تزحوا إليها هربا من اضطهاد العرس والرومانيين ، فأخذوا ، ولا سيما اليهود ، يقدحون في الاسلام ويحرضون المشركين على مقاومته ، ويشدون أزرهم على ذلك ، ويشيرون بالشبهات عليه . فكان ينزل في الرد عليهم قرآن يدهم ما يفترون ، ويبين وأنهم ما إليه يستمدون . استمروا على ذلك حتى بعد أن أسلم حم وغير من أعلياهم . فاجتمع من شبهاتهم والد عليها شيء كثير من الحوار ، تجأت فيه الأصول التي يقوم عليها الاسلام ، والمبادئ التي شرع ليبثها في القلوب ، ويحمل على احترامها العقول ، ويبين ما عليه حصومه من مجافاة المطلق ، ومخالفة الواقع ، والتعويل على الوساوس ، والجحود على الاضاليل . وهذا كله يعتبر أكل أسلوب للدعاية الى الحق في أمم أحيطت بالباطيل ، حتى كادت تحتنق فيها فطرتهم الانسانية ، فتخلط بين ما هو حسن وما هو قبيح ، وبين ما هو ممكن وما هو مستحيل .

ما تبين للأمم من هذا الحوار :

تبين لها من هذا الحوار هذه الأصول :

- (١) شرع الدين لتربية الانسان وتكيله ، لا لتسحيه وتذليله .
- (٢) دين الله واحد لا يتعدد ، وإنما تعددت الأديان بسبب ما أدخله عليها زعماءها من آرائهم ، وما حملوها من تأويلاتهم .
- (٣) خلق العالم الانساني كله من أب وأم ، جميع أفرادها إخوان ، وقد انقسموا بسبب كثرتهم الى شعوب وقبائل ، فيجب أن يتعارفوا ويتآلفوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا .
- (٤) قوام الدين العقل ، ومادته العلم ، وميزانه الدليل ، العقل المطلق من أسر الآوهام التقليدية ، والعلم القائم على الاعلام الوجودية ، والدليل الخالص من مؤثرات الأهواء النفسية .
- (٥) التكليف الدينية ، مقبسة على الاستطاعة البشرية ، ولها عجز عن أدائها المعذرة .
- (٦) لا وساطة بين الله وعبد ، ولا سلطان لطائفة تتنحل لنفسها هذه الوساطة ، وليس أحد مجرم أن يتبع رأى غيره ، فهو حر لا يتقيد إلا بما تتقيد به الكافة أمام الشريعة العادلة .

(٧) التقليد غير جائز لأنه كما يكون في حق يكون في باطل ، وفي الاتباع غنى عنه ، ولا اتباع إلا بعد النظر في أدلة المتبوع ، ومحاكاة أقواله الى المطلق والعلم .

(٨) الدين لا يحرم على الانسان إلا ما يضره ، ولا ينهيه إلا عما يفسده ، ولا يعاقبه على الخطأ والنسيان ، ولكن على العمد والإصرار .

(٩) كل إنسان مسئول عن نفسه ، وعن أعماله ، ومطالب بالدفع عن ذاته ، لا يفييه في ذلك لجوؤه الى ملك مقرب ، ولا انتسابه الى نبي مرسل ، أو ولي جيم .

(١٠) لا فضل لنفس على نفس ، ولا سلطان لضهير على ضمير ، ولا زينة لامة على أمة ، فالكل سواء أمام الله ، وإنما التمايز بتقوى الله وطاعته .

(١١) المنح الإلهية سواء أ كانت مادية أم روحية حق للكافة على السواء ، تستلحق للمستحق لها بلا تمييز بين الاجناس والألوان واللغات .

(١٢) المثل الأعلى للاجتماع أن يكون الناس أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، هو دين البشرية الأول الذي زل على أسلافهم ، ولكن بعد تعجيزه من زيادات المتردين ، وأهواء المتحكمين ، وأضاليل المؤولين ، وأن يكونوا أمة عالمية خاصة لاحكام العقل ، و متمشية مع فتوحات العلم ، وماضية قدما في تحقيق المثل العليا من العدل والانصاف والمساواة والحرية والاستقلال ، والتطهر من بقايا الوحشية والصفات الحيوانية .

الفرق بين الاسلام والاديان الأخرى في معنى الدين :

هذه بعض الأصول والمبادئ الإسلامية التي يجد الباحث فيها عشرات من الآيات القرآنية تدل عليها نصا ، وقد دونتها كتب الشريعة الإسلامية بين دفتها ، ونه اليها الأئمة ، وبنوا عليها استنباطهم للأحكام ، ووضعهم للنظم الاجتماعية . وأنت ترى أنها جملة وتفصيلا مخالفة لما كانت عليه الأمم كافة . فقد كانت الجماعات لا تفكر في وحدة الدين ، ولا في صحته أو تحريفه ، فإن ذلك كان موكولا للقائمين به ممن نصبوا أنفسهم هميمين عليه . وكان الناس يعتقدون ، كما أوهمهم بذلك قادتهم ، أن الدين لا يُتناول بالعقل ، ولا يتحكم فيه بالنظر ، فاعما هو إيمان تقليدي لا يجوز أن يتردد عقل في قبوله . وكل علم يدفع بصاحبه لتحقيق الانتقاد وتصحيحه ، وكل فلسفة تستدعي إثارة الشكوك في النفوس ، كانت تعتبر ملعونة يستحق المشغل بها أن يرمى في النار حيا ليحوت على أفعط حاله . أما التكاليف الدينية فكانت في نظرم من حق المهيمين على الدين ، وعندما أنه لا يلحظ فيها تربية الانسان ولا تكميله ، وإنما محض العبودية للخالق ، وكلما كانت أشق على النفس ، وأدعى للإعياء والغوب ، كانت أفضل .

أما الوساطة بين الله وعباده ، فكانت في نظرم ضرورية ، لأن رؤسائهم أوهمهم أن ذلك من

وضع الخالق نفسه ، وأنهم وكلاؤه في أرضه ، ما يحلونه في الأرض يحمل في السماء ، وما يعقدونه في الأرض يعقد في السماء . والطاعة لهؤلاء الوسطاء واجبة ، وتقليدهم أمر لا بد منه بدون نظر ولا نقد ، ولا تُطلب دليل ، فذلك كفر !

أما المسؤولية الشخصية فلم يكونوا يقولون بها ، لأن القائلين على الدين هم الذين يجبون عنهم في الآخرة ، وهم الذين يتولون عند الله الشفاعة لهم .

أما تناضل النفوس فكان من الأمور المقررة عندهم ، فالذين ينتسبون الى الطوائف الممتازة من القادة والزعماء والوسطاء ، مفصلون على من سوامهم ، ويجب أن يعفوا من جميع التكاليف الاقتصادية والقانونية ، والخدم الاجتماعية .

أما المثل الأعلى للاجتماع فكان في نظرم مأم عليه ، وإن كانوا أسرى للتقاليد ، وهبادة للحيالات ، وصرهى للباطيل ، يساقون سوق الأنعام الى حيث لا يعلمون ، أو الى حيث يعلمون ولا يريدون .

هذه الأصول التي تولى نشرها القرآن ، ويصلح كل منها أن يكون ثمرة ثورة اجتماعية ، اجتمعت بين دفتي كتاب ، فتألفت منها روح إلهية قامت بها أمة ، ثم سرت في أربعة أرجاء المعمور لا يصددها شيء ، لأنها مطلب التطورة البشرية ، وسكن النفس الانسانية ، ومنهم المواطف القلبية ، فلا عجب أن تبقى حية قوية حتى بعد أن أصاب جماعتها الوهن ، وبرَّح بها الفتور ، فهي حفظ العالم كله لاحظ أمة واحدة منه .

وإذا شوهده أن هذه الروح تزداد على مدى الأيام فناء وقوة ، فلأن كل ترق للانسانية يظهرها ، ويحلى حقيقتها ، ويتولى إزالتها ، فهي مما لا يعقل أن يضعف أو يروى بتأدي الأيام ، وكر الأعوام .

تعليل سرعة انتشار الاسلام :

إن السرعة التي انتشر بها الاسلام في بيتات لا تعرف العربية ، وبدون دعوة منظمة ، قد حيرت مؤرخي العالم الغربي ، وهو حدث في حد ذاته يوجب الحيرة ، لم يدون التاريخ له نظيراً في حياة العالم كله . فالدين الموسوي لم يجاوز في انتشاره أسرة إسرائيل ، ولا يزال في الحدود التي كان عليها من لدن وجوده . والدين المسيحي بقي نحو ثلاثة قرون محصوراً في طوائف مبعثرة ، لم تقم لها دولة ، الى أن تولى الامبراطورية الرومانية كونستنتين الأول ، وكانت أمه قد رنته على الديانة المسيحية ، حمل قومه على النصرانية ، وأمر بتعطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية (٣١٣ - ٣١٣) . من ذلك الحين ظم النصراني بأرسال بعثات تبشيرية منظمة للبلاد القصبية ، استعمل فيها الاجبار أحياناً . ولما

اكتشفت أمريكا في القرن الخامس عشر ، وجدت تلك البعثات مجالا فسيحا لدعوتها ، وغالفت
 «بها مساحة المسيحية مخافة صارخة ، وقد دون مؤرخوهم كل ذلك تفصيلا بما لا موجب لنشره .
 ولكن الاسلام الذي يحرم مثل هذا الاجبار في نصوص صريحة من كتابه : « لا إكراه
 في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، « وجادلهم بالتي هي أحسن » ، ولم تكن له قط إدارة
 دعاية منظمة ، قد سرى الى أقصى ما يمكن أن تسرى اليه دعوة ، وبلغ عدد أتباعه في نحو قرن
 واحد أكثر من مائة مليون نسمة ، ثم استمر تياره في السرعة حتى بلغ الى ما هو عليه الآن ،
 مقاوما كل الدعايات السيئة التي تحاط بها مبعثه ، ومتغلبا على جميع العقبات التي توضع في طريقه ،
 مستمرا على ما هو عليه ، واقفا بقوة الذاتية ، ومحدثا نفسه بأن سيكون ديانة العالم كله
 في يوم من الأيام : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها
 ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون »

هذه الظواهر الغربية لا يمكن تحليلها إلا بما ذكرناه ، من أن هذا الدين قد حل الى الناس
 روحا إلهيا ، فيه من قوة السريان ، وعظم السلطان ، ما لجميع الحقائق الخالدة .
 اعتبر ذلك في الأمم التي كانت تخالف العرب في لغتها ، ومنها ما كان لها السلطان عليهم كالامة
 الفارسية التي كان قد خضع لها العرب آمادا طويلة في العراق واليمن . فان هذه الامة العربية
 في السؤدد والمدنية بعد هزيمتها في وقعة القادسية تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ، بدل أن
 تشتغل بدس الدسائس ، وتدير المسكائد ، وإشغال نار الفتنة في كل مكان ، لإحلال العرب من
 بلادها إرضاء لأنفتها القومية ، أخذت تشتغل بالدخول في الاسلام ، ونشره في ربوعها ،
 وتعلم لغة المغير عليها وحققها ، والتبصر في علوم القرآن وفروعها ، فلم يمض عليها سنون
 معدودة ، حتى كان أقطاب الاسلام من رجالها ، وكانوا قد توزعوا ضروب البحوث العقلية
 والعقلية والفنوية ، حتى سأل السائلون : ماذا كان يحدث لو لم يتول القرس والديلم والأجانب عن
 العربية هذه العلوم الاسلامية ؟

سبب تهاقت الأمم على الدخول في الاسلام :

لست أريد التوسع في تفصيل هذا الاجمال ، فهو معروف مقرر بين أهل العلم ، ولكنني
 ألقت نظرهم لهذه الظاهرة النفسية المدهشة ، التي تدل دلالة غاطسة على أن هؤلاء الأقوام تنفقوا
 مبادئ هذا الدين لما آنسوا فيها أنها منزلة للانسانية عامة ، لا لامة خاصة ، وأن كتابها لم يذكر
 في مخاطباته أمة بأسمها القوي قط ، فلم يقل مرة واحدة : يا أيها العرب ، ولكنه قال عشرات
 المرات : يا أيها الناس ، ويا أيها المؤمنون . ولما رأوا أيضا أن في الاسلام غذاء أرواحهم ، وشفاء
 قلوبهم ، وسكن عقولهم ، ومطمأن نفوسهم . وفي لا أظن أنه يمكن حياقة برهان أقوى
 من هذه الظواهر ، على أن أصول هذا الدين ومبادئه كانت ولا تزال ساجدة الجماعات الانسانية .

ومما أعود ما لفت النظر إليه ما ذكرته في صدر هذه المقالة ، من أن أصول الاسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد ضعف أهله ، وذبول دولته . وهذه أكثر تحميرا للعقل من سابقتها ، فإن الناس قد اعتادوا أن يفتنوا بدين القوى ومذهبه وماداته ، حتى أهوائه وأوهامه ووساوسه وفسوقه ، بل بلاهاته وجنونيته ، وانفقوا على أن يتحولوا عن الضعيف وكل ما يتصل به من عقائد ومادات وتقاليد ، وأن يشنعوا عليها ، ويتشاءموا منها ، وأن يتوقموا كل سوء من الأخذ بها .

ولست أحيل القارئ من ذلك الى أمر مستور ، فقد ثبت ثبوتا قاطعا حتى شهادة دعاة الملل الأخرى ، أن دعاية الاسلام تنجح حيث تحجب جميع الدعايات الأخرى . فلو لاحظت أن البعثات التبشيرية تدعو الى أديان الأمم القوية ، ذات المدينات الغائنة ، وقد حُكمت في أموال طائلة ، تبدلها تألفا للناس وجنبا لمودتهم ، ولها دور ضخمة يسكنها رجالها ، يؤوون فيها من يظهر الميل اليهم ، ويعدونه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويختصونه بالحماية بين أهله ومعشره ؛ بينما لا توجد بعثة رسمية للاسلام ، اللهم إلا نفرًا من التجار ، أو أفرادا من متسولة الدراويش ، يمشون مائة على من يدعونهم ، ومع ذلك يتسارع الناس الى الدخول في ملتهم ، مفتونين بما يسمعون من أصول الاسلام ومبادئه . وهذه الحال كما تشاهد في أفريقيا ، تشاهد في آسيا والافياتوسية ، وكل مكان لا يكلف فيه الانتقال من دين الى دين تأثيرا سيئا على الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية كما هي عليه في أوروبا وأمريكا . فهذه الظاهرة ذات دلالة قوية جدا على أن أصول الاسلام ومبادئه قد جلبت للانسانية حيرا لم يجلبه دين قبله ، ولا أي نظام اجتماعي آخر . فإن الأقوام التي تسكن بلاد العرب وسورية وبلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر الى الصين ، كلها حرحت من وثنية منحطة ذات أصول جاهلية ، الى دين هو أرقى ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية لا تحصى . فبعد أن كانت القبائل العربية لا تعرف الوحدة ، ولا تدين لغير القوة ، وكانت الحروب بينها دائمة التدمير ، تأخت في دين الله ، وسادها النظام ، ورحل كثير منها الى الممالك التي فتحها الاسلام ، وساهمت في بناء مجد المسلمين ، ورفع أعلام مدينتهم الفاصلة .

أما الفرس فقد أمد لهم الاسلام دولتهم وثقافتهم ووحدتهم ، فقد كانوا اتبها في أواخر عهدهم الى مثل العهد الإقطاعي الذي أهلك أوروبا قرونا طويلة ، فكان دخولهم في الاسلام سببا في رجوع وحدتهم اليهم ، وزوال أسباب التناحر من بينهم . وعادوا الى أكل مما كانوا عليه أيام مدينتهم ، وكثر فيهم نبوغ الأئمة الدينيين ، والمؤلفين العلميين ، والكتاب والشعراء المبرزين .

أما الأمم التي وصل اليها الاسلام في شمال بلاد الفرس وشرقها الى الصين ، فقد أخرجها

الاسلام من غيبة الخول العقلى ، وصار يدون تاريخ الادب من رجالها أسماء لا يزال يعترف العالم بفضلهم على العلوم والفنون والصنائع الى اليوم .

ولا أحدثك عن الأمم التي كانت لا تذكر في تاريخ البشر ، إلا في باب المستعمرات للأمم القوية في الاسلام كأهم شمال أفريقيا ، فقد تألفت فيها دول ، وقامت فيها مدنيات ، وسجلت لها اسما في ديوان الجاهات التي ساهمت في بناء المدنية .

أما مصر التي كان قد أحاطها الاستعمار الرومانى الى جنة مصبرة ، كما عبر ذلك عنها الأستاذ جول لالوم ، في مقدمة التهرست الذى وضعه للقرآن الكريم ، فقد تنبت من رقابها الطويل ، وتفضت عنها غبار خمولها المزمز ، وعادت أفضل مما كانت عليه في عهد فراستها ، حتى كان من مؤسساتها مابقى الى اليوم قبلة أنظار مئات الملايين من البشر ، يقتبسون منه الدين واللغة ، وهو الأزهر المعمور .

ماذا أفاد الاسلام اهل أوروبا من الناحية الأدبية ؟

يخيل الى ، وقد انتهيت الى هذا الحد ، أنك تريد أن تسألنى : وماذا أفاد ظهور الاسلام اهل أوروبا من الناحية الأدبية ؟ فأجيبك :

ظهر الاسلام في القرن السابع للميلاد في وقت كانت فيه أوروبا في ظلام حالكة بشهادة المؤرخين الأوربيين ، فكان رجال الدين هناك مستولين على السلطة الدنيوية فوق سلطانهم الروحية ، وقد حملهم تطرفهم في حماية العقول من الشبهات الدينية التي تثيرها العلوم في الصدور على إعلان أنها عدوة الدين ، فقاطعوا الناس طائمين ومكرهين ، فنضبت ينابيعها ، وتصححت أزميرها وأقوت مفاتيحها ، ولم يبق منها إلا ما تمس اليه الحاجة الساذجة .

وكان إذا سولت لإنسان نفسه أن يعيد النظر فيها ، أو أن ينشأ رأيا على أصولها ، زج به في أحماق السجون ، وُعذب واستناب ، فإن أناب أطلق سراحه ، وإن أصر ألقي حيا في النار . ظهر الاسلام وأوروبا من أدناها وأقصاها على هذه الحال ، فقفر بعض رجاله الى أسبانيا فامتلكوها ، وكانت على مثال غيرها من الاستبداد في الحكم ، والتصديق في الدين ، فضى المسلمون على صحتها في تأسيس المدارس بها ، ونشر العلوم ، وبناء المستشفيات ، وإقامة المراصد ، وفتح جامعاتهم لمن يقصدها من الطلاب ، غير ناظرين الى أحناسهم ولا أديانهم ولا ألوانهم ، فتنور كثير من أهل الأقطار الأوربية في مواد العلوم ، وقدم اليها طلاب آخرون من بقية الممالك . وكان المسلمون قد امتلكوا أيضا جزيرة صقلية (سيسيليا) في جنوب إيطاليا ، خرجوا هنالك أيضا على عاتقهم من نشر العلم ، وتشجيع دوره ، فدخل اليها طلاب كثيرون من سكان تلك البقاع . فكان ذلك سببا مباشرا في انتشار علوم المسلمين وآدابهم في أوروبا ،

واندست معها أساليبهم في التحميم ، وأصولهم في التدقيق ، فتبتهت هناك عقول ، وفكرت في مصيرها نفوس ، وأدركت حالتها قلوب ، فكان ذلك ، على قول الأوروبيين ، سببا في نهضة أوروبا الحديثة .

فهل يمكن أن يثبت لنا إنسان ، بأن ديننا من الأديان ، أو نظاما من النظم ، عم خيرها الأرض ، ونالت كل أمة منه نصيبا مثل ما معها من الاسلام ، إما مباشرة وإما بواسطة ؟

هذا ولم يتم الاسلام حولته العالمية بعد ، ولا تزال أمم في الأرض لم تبلغها منه دعوة ، وأنهم قد ضللت فيه تضليلا بعيدا ، ولكنه بما أودع من قوة وحق ، سينقلب على هذه العقائد كلها حتى يسود العالم كله : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وبما استغرب باحث أن لا تؤثر أصول الاسلام على سموها هداى العالم المنمذن ، كما أشرت فيما عداها ، والواقع أن العالم المنمذن الذى استعصى على الاسلام ، هو أعصى ما يكون على العالم نفسه ، الذى كان عمرة من ممرات رجاله ، فلا يزال الناس فيه يعيشون على الضد بما يوصى به قانون الصحة ، وما يتطلبه ناموس الاخلاق ، وما يتقاضاه علم الاجتماع ، وتصيبهم على ذلك المثلاث فلا يرجعون ؛ فهل يصح أن يقال اعتمادا على هذا : إنهم سيستمرون على معاصاة الحقائق ؟ اللهم لا ، فلا بد لهم من مناب ، يوم يحدث تطور أدبى جديد ، فينقلب العقل على الهرى . وفى حدث ذلك ظهرت أصول الاسلام هنالك على أكل ماهى عليه فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتم له الامر « وتعلمن نباء بعد حين » .

وأما لا أقول هذا لأن الاسلام دينى ودين قوى ، ولكن لأن الأصول التى يقوم عليها ، والمبادئ التى يدعو اليها ، هى التواميس الالهية الخالدة التى اكتشفها الناس فى حلال العصور المتتابعة ، ودلت عليها العلوم اليقينية فى أدوار متوالية من الثورات الفكرية ، والانتقالات الادبية .

إن ديننا يدعو الى المثل الأعلى من الاحتجاج ، وهو أن يتعارف الناس قاطبة ، ويعيشوا إخوانا متكاملين ، لا أعداء متناحرين ؛ والى نصب العقن ميزانا لتمييز الحسن من القبيح ، والحق من الباطل ؛ والى إيمان النظر والمكر ، وإعمال الروية والبصيرة فى اكتماء الجاهيل ، وتمحيص المعالم ، والبعد عن الظنون والأوهام ، واجتناب الخيالات والوساوس ، والاستماع الى كل قول وانباع أحسنه ، وتصيد الحكمة حيث كانت ، والاحسان فى كل شئ ، وتطلب العلم من معادنه ، وعدم الوقوف منه عند حد ، وعدم التقيد بأحوال الأمم السابقة ، والسير قدما الى الغايات البعيدة ، والنهايات القاصية ، والتعلق بأخلاق الله فى سموها وإطلاقها ، والانصاف بالحمد والابتعاد عن السعاسف ، ومجانة الظلم والانظام ، والعدل المطلق حتى حيال الأعداء الألداء ، والدعوى على إصلاح العالم ، وعدم الاقصاد فيه الخ ، مما لا يمكن

إحصاؤه ، وقد قامت الفلسفة بتفصيله في الزمان الأخير ؛ قلت : إن دينا يدمو الى كل هذه الأصول على إطلاقها ، وفي غاية سموها ، لا يعقل أن يقف من انتشاره عند حد ، ولا أن يحل بينه وبين القلوب بعد ، والله الأمر من قبل ومن بعد . « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ، « أغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

محمد خير وبري

الكبر يؤدي الى الوضاعة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » .
وكان يقال : من جهل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل ، ومن أنف من عمل نفسه اضطر الى عمل غيره .

وقال شاعر :

رأيت الفتى يزداد تقصا وذلة اذا كان منسوباً الى المعجب والكبر
ومن ظن أن المعجب من كبره فاني رأيت المعجب من صغر القدر

وقال معاوية بن أبي سفيان : إن التواضع مع البخل والجل ، أزين بالرجل من الكبر مع البذل والعقل . فبالها حسنة غطت على سيئتين كبيرتين ، وبالها من سيئة غطت على حسنتين عظيمتين .

وقال حكيم : من أصاب حظا من جاه فأصاره الى كبر وترفع ، أعلم الناس أنه دون تلك المنزلة ؛ ومن أقام على حاله أعلمهم أن تلك المترلة دونه ، وأنها دون ما يستحق .

وقال بعض المنهوسين بالكبر ، وإنما نوره تفكته :

أتيه على جرت البلاد وإسها ولو لم أجده خلقا تهت على تقصي
أتيه فما أدري من النيه من أما سوى ما يقول الناس في وقى جنمي
فان زعموا أنني من الإنس مثلهم فاني عيب غير أنني من الإنس

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » : ذكرنا لك في مقالة السابق كلام سقراط مع أرسطوديم في البرهنة على وجوده تعالى ، واليوم نذكر لك شيئاً من براهين غيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين لما في ذلك من القوائد لأولئك الذين قلدوا سفهاء أوربا بلا عقل ولا روية ، فنقول :

قال أفلاطون : « من البدهي أن كل حادث له سبب أحدثه لولاه لبقى في العدم ولم يخرج إلى الوجود ، ولا يعقل حدوث شيء بلا سبب (لأنه لا يعقل إيجاد نفسه) ومن المعلوم بالضرورة أن العالم حادث ، لأنك تشاهد وجود الأشياء بعد عدمها ، ولأنك تعلم أن هذا العالم ممكن وكل ممكن يجوز عليه الوجود والعدم ، فلا يثنأى إلا عرجح يرجح وجوده على عدمه ، وهذا بدهي في الممكن ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان واجباً والواجب لا يسبقه عدم ، ولا يجوز أن يطرأ عليه عدم ، فإذا يجب أن تكون هذه الموحودات المديعة لها سبب هو أكل الأسباب كلها » .

براهين أرسطو واضح المنطق ويلقب بالمعلم الأول :

قال : « إما وحدنا المتحركات تنحرك ، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا يجوز أن يذهب إلى غير النهاية لامتناع التسلسل ، فلا بد أن يستند إلى محرك غير متحرك ، ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ، فانه لو كان كذلك لاحتاج إلى شيء يخرج من القوة إلى الفعل ، فالمعمل إذاً سابق على ما بالقوة ، وكل جائز وجوده ففي طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والحوار ، فيحتاج إلى واجب به يجب حتى يظهر إلى الوجود ، فكل متحرك يحتاج إلى محرك لا محالة ، لأن جائز الوجود ليس له في نفسه إلا الامكان والقابلية »

وقال في إثبات الوحدةانية : « محرك العالم واحد لأن العالم واحد ، ولو كان كثيراً لخل

على واجب الوجود ما حمل على غيره بالتواطؤ ، فيشملها حقها وينفصل أحدهما عن الآخر نوعاً ،
فتركب ذاته من جنس وفصل ، فتسقط أجزاء المركب على المركب سيقاً بالذات ، فلا يكون
واجباً بذاته »

ثم قال : « إن واجب الوجود لا يتغير ، لأن انتقاله عن حالته يكون إلى الشر لا إلى الخير ،
لأن كل رتبة هي دون رتبته ، وكل شيء يناله هو دون نفسه الكاملة » .

ولنتقصر من براهين الفلاسفة الأقدمين على هذا ، ولنذكر لك من براهين فلاسفة
أوروبا المحدثين ما تيسر ، لما في ذلك من الفائدة التي تمود على كثير من القراء ، إن شاء الله ،
فتقول :

قال الفيلسوف للشهير المصبت ديكارت الفرنسي :

« إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجود وجود ذات كاملة ، وأراني
مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسه في ذاتي تلك الذات الكاملة المتعلية بجميع
صفات الكمال ، وهي : الله » .

ثم قال (وهو وجه آخر من وجوه الاستدلال) : « إني لم أخلق ذاتي بنفسي ، وإلا
فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها . إذاً أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات
يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التمثيل الذي
طبقت على نفسي » .

ثم قال : « إن عندي شعوراً بوجود ذات كاملة لا يفترق في الوضوح عن شعوري بأن
مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتي قائمتين . إذاً فله موجود » .

ولا بأس أن نقول لك : إن ديكارت كان عمماً في الشك في كل شيء ، وما كان يريد بذلك
الشك إلا التوصل لتحقيق ناصعة خالصة من كل تقليد ، فهو أشبه شيء بالرأي الذي يذكر
عندنا في كتب الكلام من أن أول واجب هو الشك . فاعرف ذلك ، وإياك وتقليد بعض
الجاهلين الملعدين !

وما يناسب موضوعنا الذي نحن فيه قوله : « إن في هذه الشكوك كلها شيئاً لا يتناول
الشك أبداً وهو « أنا » ، وقد كنت مقتنعا بأنني لست بموجود ، ولكني في الواقع كنت
موجوداً ، إذ استطعت أن أعتقد أو على الأقل أن أتفكر في شيء ، فإذاً أنا موجود ، ولا
يوجد شيء يمكنه أن يقتضي بأنني لست بموجود مادمت أتفكر . فقولي أنا موجود إذاً ،
هو حقيقة ثابتة لا شك فيها ، كلما قلنا أو تصورنا في ذهني » .

هنا تمكن ديكارت ، أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج بعقيدة صريحة واضحة

لا تغفل الجدال ، وهي أنه موجود ، ومنها تمكن من اكتشاف حقيقة أخرى حليلة القدر وهي أنه يوجد ذات متصفة بجميع صفات الكمال .

قال : « إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتي ، وقد ولدت حاملا أمانتها في ثيابا ضميري ، لأنه كيف يعقل أن أدرك أني شاك وأنني راغب ؟ أي أنه ينقصني شيء ، ولم أكن بالغاية الكمال إذا لم يكن مغروزا في طبيعتي إدراك وجود ذات أكل من ذاتي » .

ثم قال : « إن لفظة « الله » إن لفظت بها فإنما أعني بها هيولى لانهاية لها ، أولية دائمة مستقلة عالمة بكل شيء ، وقادرة على كل شيء ، وأنى أنا وجميع العوالم الموحودة مخلوقة لها ، وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأنني لم أستبسط الشعور بوجود الله من ذاتي وحدها ، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن الله وجودا مستقلا ، وأن شعوري بوجود هيولى غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله من ذاتي أنا ذلك الكائن المنهاى ، بل غرست في ذاتي تلك العقيدة من قبل هيولى غير متناهية في الحقيقة » .

براهين فنيلون :

وهو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « لست موجودا من ذاتي ، وكل شيء من هذه العوالم كذلك ، لأنه يجب للموجود من ذاته أن يكون أزليا ثابتا ، فانه يكون حاصلًا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتاجا لشيء من الخارج عنه ، فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحدد به ولا أن يكمله ، لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحدد مع الموجود بذاته الذي لا يقبل التغير ، فان الفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له ، إذا فلا يمكنهما أن يؤلفا مجوعا حقيقيا ، إذا فالموجود بذاته لا يمكن أن يزداد شيء على حقيقته ، ولا على رحمته ، ولا على كماله ، فهو في ذاته كل ما يمكن أن يكون ، ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه . فالموجود على هذه الصفة هو أرق درجات الوجود » .

برهان بوسوت :

هو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « ليس علينا إلا أن نسطر الى أنفسنا لتتحقق أننا صادرون من أصل رفيع ، نرى أنفسنا أهلا لأن نفهم الأشياء وندرك الموحودات ، وأما قد نجعل بعضها فنشك فيها ، أو نرى الاحوط ألا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها الى حقيقة ما ، وما ذلك إلا لأننا نعتقد أن بنموسنا نقصا بمعها الوصول الى الحقيقة المطلقة ، وإذا كان في الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل وهو مع ذلك موجود ، فن باب أولى يكون موحودا فيه عقل كامل ليس عقلا منه إلا قطرة من بحر أو شماما من شمس ، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وإدراك ، ويكون الوجود العظيم كله خاليا

منهما ، إذ يقال إنه إذا كان الوجود كله مكونا من مواد صماء صماء لا عقل لها ولا إدراك ، فمن أين نشأ للإنسان هذا العقل والادراك ؟ « وفقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم » ، إذ فلا بد أن يكون في الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له .

برهان ليبنتز :

وهو من أشهر فلاسفة الألمان :

قال في بعض كتبه : « الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثره ، شاعرنا ، هومن الممكنات ، أي ليس بضروري الوجود ، فقد يوجد وقد لا يوجد ، وليس في أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها أن تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالي ، إذا يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذي هو مجموع هذه الكائنات الممكنة . يجب البحث عنها في الهول التي تحمل معها وجودها ، فهي الواجبة الوجود والأولية . يجب أن تكون هذه العلة مافلة ، لأن السكون الموجود لما كان ممكنا ، أي قد يكون ولا يكون ، ومن الامكان حدوث دنيوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطا بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شيء يجمل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التي لهذه العلة الحكيمية . يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كاللا مطلقا من حيث القدرة والحكمة . ولما كان الوجود كله مرتبطا ببعضه ببعض ومنفردا في قالب واحد ، فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها . »

هذا بعض ما قاله أولئك الفلاسفة . وما أجدنا في هذا المقام أن نقول :

حسالك يا قدوس ليس له عدد	كذلك صفات القديس ليس لها عدد
تعاليت عن وصف الخليفة كلها	ومن وصف عليك الطهارة والمجد
فضاؤك محض ومأمرك نافذ	وما شئت من شيء فليس له رد
لك المنزل الأعلى وكل معتد	كفاه اعتراض أن يقال هو العبد

ولكتف اليوم بهذا المقدار مخافة السآمة . وقد نقلنا من تلك الشهادات للدين الاسلامي شيئا كثيرا في كتابنا (الجواب المنيف) علما بأن الاتحاد قد طم سيله ، وعم يله ، وظن أربابه أنهم وصلوا من العلم الى ما لم يصل إليه الأولون « ويحسبون أنهم على شيء » ، ألا إنهم هم الكاذبون ! وقد بين الله حقيقتهم وملتهم من الانسانية فقال وهو أصدق القائلين : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » « وإن

تدعهم إلى الهدى لا يسموا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . » غير أن هنا كلاماً مهماً لكانة أمريكية عن الاسلام يحسن أن نذكره لحضرات القراء في هذه الفرصة :

نشرت مجلة بوسطن التي تصدر بأمریکا مقالا طويلا لكاتبة أمريكية بعنوان « لا دين أعلى من الحق » استعملته بوصف جامع وثراء طائر على النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أحدثته رسالته في العالم ، وما كان لبعثته من أثر في أخلاق الأمم وتطور العقائد من الخفيض إلى الأوج ، إلى غير ذلك من الإصلاح الاجتماعي الذي لا حد له ، ثم أهابت بالناس جميعا ألا يفهلوا عن تعاليمه ، وأن يوحوا كل همهم إليها ، ففيها الخير المميم ، وفيها المنافع الكثيرة . فمن قولها في هذا المقال :

« إن مقاييس الإصلاحات الانسانية هو الخير الذي يمكن أن يصل إلى نوع الانسان عن طريق ذلك الإصلاح ، وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم قاموس محيط لأرقى مزايا الإصلاحات وأعمها نفعا للبشرية .

« فمن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم : أن كل عمل طيب صدقة ، وابتسامتك في وجه أحبك صدقة ، وتوجيه النصيحة إليه بمثابة هدية غالية ، وهداية الخائر إلى الطريق يعد إحسانا ، ورفع الحجر والشوك ونحوها من الطريق كي لا يشتر فيها الساري في الظلام صدقة وبر عظيم .

« أطعموا الجائعين ، واسقوا العطاش ، وعودوا المرضى ، وحرروا الأسارى ، وأعتقوا المبيد ، وساعدوا كل إنسان .

« هذه من أقوال محمد ونصيحته . وكذلك قوله : أسعدوا القلب الحزين ، وأنقذوا المكروبين ، وخلصوا الغريم من عبء الدين الثقيل ، لأن من أخرج المكروب من ضيقه يفرج الله عنه في يوم القيامة الذي يحقق الله فيه العدل ، وينجز وعده بالجزاء .

« وفي ذلك اليوم تمر على الانسان ذكريات دنياه ليقيم عنها الحساب ، فبشرى للذين يعاونون إخوانهم في أوقات صيقتهم ، ويرقمونهم من كبواتهم ، أولئك يساعدكم الله يوم الفرع الأكبر .

« تلك وصايا محمد وعظاته البالغة التي تدفعنا لنعمل نور الفرح إلى القلوب التي تراكت عليها ظلمات الهموم ، ونور الهداية إلى النفوس التي أغرقها ظلمات المعاصي .

« إن محمداً يبين لنا أن أحب مخلوق إلى الله هو الذي يصدر منه الخير لمخلوقاته ، لأن جميع الناس سواء عند الله ، أفضلهم من ممّا بالفصل فيهم ، وتعاليم محمد لا تميز الانسان كاملاً عند الله بمحض ألفاظه وكلماته ، فالكمال في الاسلام قائم على الصدق الذي يبدو في ثلاثة مظاهر من الحياة الانسانية : الصدق في القول ، والطهارة في النية ، وظهور الايمان في الحياة العملية .

« قل الصديق إذا نطقت ، أد الشهادة على وجهها ولو على نفسك ، أنجز إذا وعدت ، أد الأمانة لمن ائتمنتك ولا تخن من خانك . خالف نفسك في هواها إذا مالت الى شيء يغضب الله ، لا تحمل في قلبك غلا ولا حقداً لأحد ، واغسل يديك من أدران الأذى والاعتداء . وهذا الدين يحرم على أهله أن يفشي المسلم عيوب غيره ، أو ينقل بين الأصدقاء حديثاً يفرق بينهم ، أو أن يتنصع المرء عورات أخيه ويخني محاسنه ومزاياه .

« وهناك حقيقة عظمى يكاد الاسلام يمتاز بها . وهي أن الانسان ينبغي أن يعيش من كسب يده : من التجارة ، أو الصناعة ، وغيرها ؛ وأن الله جلت قدرته يبارك للمجتهدين في أرزاقهم ، ويعطيهم ثواب العباد ، ويمنحهم أجر الذين جاهدوا في نصرته الدين .

« نصبح مجد لرحل سائل أن يجمع الخطب من الجبال والغابات ويبيعها لكي لا يقع تحت ذل المنة عليه من الناس .

« وينصح مجد بأسمى فضائل الأخلاق ، ويدعو الى أن فصل من قطعك ، وتحسن الى من أساء اليك ، وأن لا تتكلم إلا بخير ، وإذا سكنت فليكن صمتك تفكيراً في الله ومصنوعاته .

« أما تعليم العلم وتعلمه : فإن العلم مدين كثير الحمد الذي يعلم أتباعه أن ساعة من الليل في مذاكرة العلوم أفضل من قضاء الليل كله في العبادة ، ويعتبر الاسلام أن من اجتهد في العلم وأصاب الصواب كان له أجران عند الله : أجر نجاحه ، وأجر اجتجاهه ، وأن من أخطأ فله أجر اجتجاهه . فأى تشجيع على التعليم أسمى من هذا ؟

« إن مجداً يعتبر اقتناء العلوم جهاداً ، والتكلم بها ذكراً ، والبحث عنها فتناً ، وتعليمها تصدقاً وإحساناً ، لأن العلم هو المفقذ من الخير ، والنور الكاشف للظلمة ، وهو صلة الأرض بالسما ، وطريق الانسان الى الله . العلم هو صديقنا في صحراء الحياة المعبدة ، وأيسرنا في وحشتها ، ومساعدنا عند فقد الأصدقاء ، ومرشدنا الى السعادة ، وهو الذي ينقذنا من البؤس ، ويكسبنا زينة مع الفقر ، سلاحنا ضد أعدائنا . ولطالما رفع العلم الخاملين وسما بهم الى معاشره الملوك .

« تلك هي أفعال الاسلام وتعاليم مجد نقلنا خلاصة منها في هذه الأقوال الموحزة الجملة غاية الاجمال .

ولقد نشر أصحاب مجد لواء العلم في كل مكان ، ويطن بعض من يجهل الحق أو يتجاهله أن الاسلام كان دين غزو وفتح . هو قول بلغ أقصى غايات البعد عن الحق المبين .

« حقا إن المسلمين فتحوا ممالك وشادوا أمبراطوريات ، ولكنهم لم يحملوا سيوفاً فقط ، بل حملوا عدلاً ، ونشروا علماً وفناً تجلى في عبقرية المجتهدين الذين نشطوا بين القرن الثامن

والأربع عشر نشاطاً لم يعرف التاريخ مثله ، شيدوا مدارس وجامعات في مصر وبغداد وقرطبة في غرب أسبانيا ، وما ازدهرت الحضارة في الدنيا كما ازدهرت في ظل أتابع محمد .

«إن المسيحيين في أوروبا لا ينكرون ما اقتبسوه من الأندلس من العلوم والفنون التي كانت حياتهم بعيدة كل البعد عنها ، فتعلموا الفلك والرياضيات من المسلمين الذين كانوا يترجمون ثم يحققون ، فتبدو شخصيتهم العلمية والفنية وعليها من الاسلام طابع واضح يشهد بالفضل لتربية محمد صلى الله عليه وسلم التي أثرت في الدنيا كلها ،

هذه أقوال سيدة مصففة تحب الحق وتحب ربه ، وإما تنمى أن يرشد الله أبناءنا المتعلمين أن يحشوا عن الحقيقة التي جهلوا حتى يعرفوا أسرار دينهم التي غفلوا عنها ، حتى يعود اليهم مجددم الذي كانوا فيه عند ما كانوا مسلمين حقاً .

أسأل الله أن يعرفنا مزايا الاسلام وعظمة نبي الاسلام بمنه وكرمه ؟

يوسف الرموي

عضو جماعة كبار العلماء

البذىء لا يكون كرىما

قال النبي صلى الله عليه وسلم . « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » .

وقال على كرم الله وجهه : ما استب رجلان إلا غلب الأملهما .

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدواء الداء ؟ الخلق الدنى ، واللسان البذى .

وقال أديب : اللئيم بعد الخناجعة ، والوقاحة جنة ، فوجهه ضلّ ، ولسانه حُلْب .

وقال حكيم : القافة خير من الصفاقة .

وقال غيره . الوقاحة في الرجل تدل على لؤم نحره (أى أصله) ، وحساسة قدره ، وقلة

خيرته ، وكثرة شره .

وقال شاعر يهجو واحدا من الأوثاق :

لئن عرض مثل من قواريد

مر ووجه ملثم من حديد

وقال شاعر وقد أجاد :

لم يخرج الطيب من فيه

ويرشع الكوز بما فيه

من فعله يظهر خافيه

كل من لم يكن منصرفه طيبا

كل امرئ يشبه فعله

أصل الفتى يخفى ولكنه

السنة

استواء سفينة نوح على الجودي وكيف عبر القرآن عن الطوفان

حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي ، قال : حدثنا الحارثي عن عثمان بن مطر عن عبد العزيز ابن عبد الغفور عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في أول يوم من رجب ركب نوح السفينة فصام هو وجميع من معه ، وجرت بهم السفينة ستة أشهر ، فأنهى ذلك إلى الحرم ، فأرست السفينة على الجودي يوم عاشوراء ، فصام نوح وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله تعالى » . أخرجه ابن جرير .

وروي أحمد عن أبي هريرة : « أن يوم عاشوراء هو اليوم الذي استوت فيه السفينة على الجودي ، فصامه نوح شكراً » .

يتعلق بشرح هذا مباحث : (١) بيان الطوفان وهل عم جميع الأرض أو لا . (٢) بيان أن الله تعالى كان يغضب الأمم الماضية باهلاكمهم إلى بعثة سيدنا محمد . (٣) كيف أهلك الله الأطفال والصبيان الذين لم يكلفوا . (٤) بيان معنى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » الآية . الغرض الأول من هذا المقال هو بيان بعض المعاني التي أعجزت أساطين الفصاحة والبلاغة في آية « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » وإسماء أقلعي وغيبض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للظالمين » . فإن هذه الآية الكريمة قد حوت من أسرار البلاغة والفصاحة ما حضمت له أعناق ملوك الفصاحة والبلاغة ، واستيقنوا أنهم عاجزون عن معارضة القرآن الكريم ، كما سنبينه قريباً . وإنما ذكرنا هذا الحديث لأن موضوع مقالنا في مجلة الأزهر هو الكلام في السنة ، فلنشرح أولاً بعض المعاني التي أشرنا إليها في الحديث إجمالاً ، ثم نتكلم في الآية الكريمة بقدر المستطاع :

(١) الطوفان ، وله في اللغة معان ، منها الماء الكثير الذي يغشى كل شيء ، وهو المراد هنا ، فإن الله سبحانه أراد أن يهلك قوم نوح باغراقهم جميعاً إلا من آمن ، كما قال تعالى : « وما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » . وقد عبر الله سبحانه عن الطوفان بمعبارات مختلفة في كتابه

الكريم ، منها قوله تعالى في سورة القمر : « ففتحنا أبواب السماء بغيا منهجر ، وجبرنا الأرض عيوننا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودُسُر ، تجري بأعيننا جريا لمن كان كفر » . فهذه الآية الكريمة تبين لنا معنى الطوفان ، وتصور لنا كثرة الماء أحسن تصور ، لأن معنى « منهجر » : مصعب في كثرة وتتابع ، فلم يقطع مدة أربعين يوما ، كما روى في صحيح الأخبار . ومعنى قوله : « وجبرنا الأرض عيوننا » : وجعلنا الأرض كعيون الماء المتفجرة . والمتفجرة : السائلة ، يقال تفجر الماء وانفجر إذا سال . فحاصل معنى هذا أن الأرض نبتت منها المياه السائلة ، والسحب قد انصب منها الماء الكثير المتتابع ، فالتقى الماءان على حالة قدرها الله القوى القدير ، ليهلك الكافرين الطاغين الذين كذبوا بآيات الله وعصوا رسوله ، واستهانوا بالدلائل القاطعة التي تدل على أن خالق الكون ومدبره إله واحد عليم قدير .

أما كون الطوفان قد عم الأرض كلها أو لا ، فلم يبينه القرآن الكريم ، لأنه لا يتعلق به غرض في الموضوع الذي سبقت من أحله الآيات ، فإن الغرض الظاهر منها إنما هو التذكير بعظمة الاله الخالق ، وبيان بطشه بالكافرين الصالين ؛ ولكن العلماء قد اختلفوا في أمره ، فمنهم من قال : إنه قد عم الأرض ؛ ويؤيد هذا ما ذكره بعض علماء طبقات الأرض من أنه وجد في أعلى الجبال عظام حيوانات لا تعيش إلا في الماء كالأسماك . وإذا كان الماء قد غطى الجبال فلا بد أن يكون قد عم الأرض جميعها ، إذ ليس من المعقول أن يغطي الماء الجبال وتبقى سهول الأرض خالية منه . ولعل هذا هو الظاهر من القرآن ، لأن آياته فيه عامة . وبعضهم يقول : إن الطوفان لم يعم الأرض كلها . وعلى كل حال فما لا ريب فيه أن سكان الأرض يومئذ كانوا منحصرين في قوم نوح ، إذ ليس من المعقول أن يعذب الله من لم يرسل له رسولا بالهلاك . وعلى هذا تكون فائدة عموم الطوفان إندار الأمم التي تأتي بعد نوح وتعمر الأرض في جميع جهاتها ، فكان الله تعالى يقول لهم . إنه قادر على إهلاكهم بما أهلك به قوم نوح من قبلهم .

(٢) ولقد كان من سبق الله سبحانه مع الأمم السابقة على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يرسل إليهم الرسل المؤيدين بالمعجزات الواضحة والبراهين القاطعة ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، وينههم عن عبادة الأوثان ، فلم يزدحم ذلك إلا ضلالا وعنادا ، وإصرارا على استمسكهم بأوثانهم ، ومخارية خالفهم واضطهاد رسله ، فيجزيهم الله على ذلك بالهلاك في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

أما إهلاكهم في الدنيا فقد كان متنوعا ، فمنهم من أهلكه الله بالفرق ، ومنهم من أهلكه بالمسخ والخسف ، ومنهم من أهلكه بالصواعق والرياح ، إلى غير ذلك من المهلكات المدمرات الواردة في كثير من آي القرآن الحكيم . فمن ذلك ما بيده الله تعالى في قوله : « فكلأ أخذنا

بذنبه ، فنههم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ومعنى الحاصب : الريح العاصف التي فيها حصباء ، وقد أهلك بها قوم لوط . والصيحة معروفة ، وقد أهلك بها مدين وثور . وحسف الأرض بقارون . وأهلك بالفرق قوم نوح ، وفرعون .

أما بعد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد رفع الله عن الناس الذين يكفرون به هذا النوع من العذاب ، وهو استئصال المكذبين وقطع دابرهم أجمين ، وإن كانت النذر الإلهية لم تنقطع ، فإن الله سبحانه لم يزل يذكر الناس ببطشه وساطاته ، ويحذرهم بأواع من العذاب ليتدبروا عاقبة طغيانهم فيكفوا عن الظلم والفساد ، قال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله مصذبهم وهم يستغفرون » . فهذا وعد من الله تعالى لنبيه بأنه لا يعذب أحداً من أمته (وهو رسول إلى الناس جميعاً) بذلك النوع من العذاب ، ولذا قال تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لأمرنا وأجل مسمى » . ومعنى ذلك أن الله تعالى يقول لنبيه : لولا ما وعدناك به من أننا لا نعذب أمتك عذاب الاستئصال الذي عذبا به الأمم التي من قبلك لكان ذلك العذاب أمراً لازماً . أما قوله : « وأجل مسمى » فهو عطف على قوله : « كلمة سبقت » .

(٣) أما كون الله تعالى قد أغرق الأطفال الذين لم يكلفهم بدون ذنب ، فقد اختلفت فيه آراء العلماء ، فنههم من قال : إن الله تعالى قد أعقم النساء في زمن نوح مدة أربعين سنة فلم يوجد بينهم طفل غير مكلف عند الفرق . ولكن هذا القول لم يدل عليه دليل صحيح . ومنهم من قال : إن الله تعالى قد علم بأن هؤلاء الصغار سيكونون مثل آبائهم إذا كبروا ، وقد صرح بذلك سيدنا نوح ، فقد حكى الله عنه أنه قال : « رب إنك إن تذرهم يصلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » وأقره الله على ذلك ، فلم علم الله أن أحداً من هؤلاء الصغار سيكون مؤملاً حياً له وسائل النجاة . ومنهم من قال : إن هؤلاء الأطفال قد ماتوا لا يتقضاء أجلهم كما يموت غيرهم ، فإن الموت لا يترك الصغير رحمة به ، بل معظم الموتى من الأطفال ، فليس في الموت تعذيب خاص بفريق دون فريق لأنه عام ، وقد يكون من مصلحة الطفل أن يموت في هذه الحالة لينجو من فساد أبويه وكفرهم وطغيانهم . بل قد ورد في بعض الأحاديث أن المؤمنين الذين يعيشون في البيئات الفاسدة يحسمهم العذاب الذي يلحق المفسدين في الدنيا ، وأجرهم على الله في الآخرة . وهذا الرأي قد أقره كثير من محققى المفسرين ، وهو الظاهر ، لأن هذا الخلاف في الواقع مبني على الظاهر المعروف لنا ، ولكن عند التأمل ترى أن كل كائن في هذه الحياة له أجل معلوم ، وقد جرت سنة الله في خلقه أن يجعل للموت أسباباً متنوعة

بعضها ظاهر وبعضها خفي . فنهاية أجل الانسان هي الموت باتفاق الناس . أما كون الميت لو فعل كذا لم يمت أو لو ابتعد عن المهلكات لنجا ، فهذا صحيح ، ولكنه لم يتعد فأصابته فئات ، فغير المسكنيين من قوم موح قد انتهت آجالهم فأتوا بالفرق ، ولا فرق بينه وبين غيره من الحيات القتالة (والميكروبات) الميتة .

فان قال قائل : لولا كفران آباءهم وإغراقهم بالطوفان لما ماتوا ، فذلك صحيح ، ولكن آباءهم كفروا فأغرقواهم وأبناؤهم عظة وعبرة لمن يأتي من بعدهم ، فدل ذلك على أن آجالهم قد انتهت بلا نزاع .

(٤) أما ما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة فأمره معروف مشهور ، فقد روى أن غول البلاغة من كفار قريش أرادوا أن يمارضوا القرآن بالإتيان بمثله ، فأخذوا يترضون ولا يأكلون إلا ما يمتقدونه نافعاً في صفاء الأذهان ودكاه العقول ، فسكنوا على أكل لباب البر ولحوم الصائغ وشرب سلاف الخمر مدة أربعين يوماً ، فنزلت هذه الآية ، فلما سمعوها قالوا : إن هذا الكلام لا يشبه كلام المحلوفين ، ويقتنوا بمحزهم عن الإتيان بمثله فتمرقوا وروى أن ابن المقفع (وكان من مشاهير البلغاء والكتاب) أراد أن يعارض القرآن قبل إسلامه . فسمع هذه الآية فرجع ومحا ما عمله من ذلك ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر ا على أن هذه الآية وإن بلغت أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة فالقرآن الكريم كله قد بلغ المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وإن كان بعضه أبلغ من بعض كما هو مقرر في علوم البلاغة .

وليك بعض ما اشتملت عليه هذه الآية من دقائق البلاغة التي لا تخفى على قلب بشر مهما كان بليفاً فصيحاً :

إن الغرض من هذه الآية أمران : (أحدهما) التعبير عن قدرة الإله القاهر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإذا أراد أمراً قائماً يقول له كى فيكون . (ثانيهما) إشعار النوع الانساني بهذه القدرة ، وتخويف الطاغين من بطشه وسلطانه كي يؤمنوا به ويتبعوا أوامره التي جاءت بهم بها الرسل المؤيدون بالمعجزات . فكأنه يقول للناس : انظروا الى هذه الآيات الكونية وفكروا فيها لتكون لكم منها عظة وعبرة ؛ وانظروا كيف أطاعت الأرض والماء والسحب أمري وأنتم تحالفون مع أنكم تمتازون بالعقل الذي يدرك ، ومعرضون لآلام العقوبة دونها وقد عبر سبحانه عن هذا في الآية الكريمة بما لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثله مهما أوتي من بلاغة وحسن بيان كما ذكرنا .

أما تفصيل بعض ما اشتملت عليه هذه الآية من المعاني ، فهو أنه سبحانه عبر أولاً بالفعل المبني للمجهول فقال : « وقيل يا أرض » وقال : « وقيل لعدا للقوم الظالمين » ولم يقل : قال

الله مثلا ، أو قال القادر ، أو قال الخالق ، أو نحو ذلك . والمر في هذا عدم تحديد التفاعل ليذهب العقل في تقديره كل مذهب . فكأنه يقول : إن فاعل ذلك لا يمكن لأعقول البشرية أن تحده بالعبرة أو تصوره بصورة خاصة ، فهو الإله ، وهو القدير ، وهو القوي ، وهو القاهر ، وهو ذو السلطان الذي لا حده ، إلى غير ذلك من العبارات التي تدل على العظمة المنتهية والقدرة القاهرة .

ثم قال : « يا أرض » . ومعروف أن النداء بيا ، كما يكون للعاقل يكون لغير العاقل . أما النداء بلفظ يأتيها أو يأتيها فاعلم يكون للعاقل لما فيه من التنبيه ، وهاهنا إنما ينادي الله غير العاقل ، فكأنه يقول . إن الذي أنادي وأمره لا يعقل ومع ذلك فقد فهم ندائي وصنع بأمرى ، ومن ذا الذي يستطيع أن ينادي غير العاقل فيسمع ويجيب ؟ من ذا الذي يستطيع أن يأمر الماء الطاغى بالقصان فيمتثل الأمر ؟ من ذا الذي ينادي السحب التي تنصب منها المياه بالكف فتكف ؟ لا شك أن ذلك محتمل بالإله القادر وحده ، وأن هؤلاء الطاغين الذين مكث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوم إلى توحيد الله فلم يجيبوا ، أحقر من الجناد ، وأهون عند الله من السحب والماء .

ثم قال : « ابلى ماءك » . وهذه الصارفة تشتمل على شيئين : أحدهما الأمر بالبلع . وثانيهما إضافة الماء إلى الأرض . فإله سبحانه قال للأرض ابلى ولم يقل : ارتقى أو امتصى مثلا . والمر في ذلك أن البلع هو ازدياد الماء دفعة ، أما الانقصاص والارتشاف فهو تناول الماء تدريجيا . فإله سبحانه أمر الأرض أن تبلع الماء دفعة واحدة إظهارا لما يجب أن يكون عليه حال الأمور في امتثال أمر الخالق العظيم ، فهو سبحانه إذا أمر أمرا لا يصح للأمر به أن يهمل في تنفيذه أو يتندب لإجابته . وإذا كانت الأرض وهي جماد قد أسرع في تنفيذ أمر الخالق العظيم ، فما كان أجدر بالإنسان العاقل الذي يدرك دلائل عظمة الخالق بالبراهين العقلية أن يبادر بامتثال الأمر وتنفيذه ؟

وأما إضافة الماء إلى الأرض ، فلأن الله لو قال للأرض ابلى الماء أو ماءنا الذي خلقناه ، لكان معناه أمر الأرض ببلع جميع ما عليها من الماء دفعة واحدة ، وفي ذلك ذهاب لجميع مياه الأرض اللازمة لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وذلك يناقض إرادة الله سبحانه في تمعير الأرض على الوجه الذي أراده . فمن أجل ذلك أمرها الله سبحانه ببلع القدر الذي راد على الحاجة وهو الذي أهلك به قوم نوح وحمله عبء لمن يأتي بعدهم . فلذا أضاف الماء إلى الأرض ، وأمرها أن تبلع الماء الذي تفجر منها . فالفرض من إضافة الماء إلى الأرض هو أن تلع الأرض الماء الذي تفجر منها ولم يكن فيها من قبل ، بدليل قوله تعالى « وإسماء أقمت » . فالماء الذي كان نشأ منها الطوفان هو المقصودان بأمر الله تعالى . أما الماء الذي كان على الأرض من قبل فلم تبلعه الأرض ، وفي ذلك من الحيلة في الأمر وتنفيذه على الوجه النافع ما يدهش

العقول وبحير الالباب . أما ما فهمه بعضهم من أن الأمر عام وقد جف مياه الأرض جميعه سم خلقه الله مرة أخرى ، فهو تكلف لا معنى له ، فضلاً عن خلوه عن مراعاة الدقة في الأمر .
أما قوله تعالى : « يا سماء أقمي » : فمعناه أن الله سبحانه بعد أن نادى الأرض وأمرها بأن تفعل ما هو من شأنها وهو بلع الماء الذي يضر بالمرآن ، أمر السماء بأن تكف عن إمداد الأرض بالماء . وكان أمره تعالى للسماء كأمره للأرض معبراً عن تمام قدرته وعظمته سلطانه ، فقال لها : « أقمي » ومعنى القلع نزع الشيء من أساسه بحيث لا تبقى له بقية . فالغرض من الأمر هنا أن تكف السحب عن إزال المطر مرة واحدة بحيث لا يبقى له أثر . وما قيل في نداء الأرض يقال في نداء السماء ، فالتقدير القاهر هو الذي أمر ما لا يعقل بالكف عن إرسال الماء فعقل أمره وامتنل وتفقه بدون تردد .

بعد ذلك قال تعالى : « وقضى الأمر » : ولا ريب أن هذا نتيجة طبيعية لما ذكرناه أولاً من أن الأمر هو التقدير الذي لا حد لقدرته ، فإذا أمر أمراً وأراد إنفاذه فلا بد أن ينفذ ، وإذا قضى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ؟
عبد الرحمن المزهرى

فضيلة التواضع

قال عروة بن الزبير : التواضع من مصادف الشرف . يريد أن الانسان يستلذ بها الشرف ، أى أنها مجلبة للشرف لا للذلة .

وقال حكيم : التواضع في الشرف أشرف من الشرف .

كان النبي صلى الله عليه وسلم مع علو منصبه ، وهو مكانته يحجب دعوة العبد والحر والامة والمسكين (أى يحجب دعوتهم للطعام) ويقول : لو دُعيت الى كراع لأجبت . وكان ينخسف النمل ويحلب الشاة ويركب الحمار رداً ، ويرقع الثوب ويطبخ مع الخادم إذا أُميت ، ويأكل معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويسلم مبتدئاً ، ويصافح الغني والفقير ، ويخلط أصحابه ويحادثهم ويمارحهم ، ويلعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، وما دعه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال ليبيك .

وقال البراء بن مازب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل التراب حتى وارى التراب صدره ، وكان ينقل اللبن على حاتقه (أى الاحجار) مع أصحابه عند بناء مسجده بالمدينة .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

صلاة الجمعة بتبليغ الاذاعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :
نسكن في قرية في الريف ليس فيها حاكم سياسى ولا آخر شرعى ، ومذهبنا حنفى فلا
نحوز لنا صلاة الجمعة جماعة في القرية .

وعندنا (راديو) يذيع كل يوم جمعة الأذان والخطبة والصلاة ، فهل يجوز لنا الصلاة
وقت الإذاعة مؤتمنين بالامام الذى نسمع صوته وحركاته بجلاء ووضوح ما دامت الاذاعة
أمامنا لجهة القبلة ؟

الجواب :

يشترط لصحة الاقتداء عند الحنفية ألا يكون بين المأموم والامام فاصل كبير كطريق
واسع .

وحيث إن بين الامام في الصورة المستول عنها وبين المأمومين مسافة واسعة لا يصح
معها اقتداءؤهم بذلك الامام ، فلا تصح جمعهم ، لأن من شرط صحتها أن تكون في جماعة .
والله أعلم ؟

حكم الالبسة

وجه أيضا :

هل لبس النبي صلى الله عليه وسلم الالبسة على وجه العبادة ، أو على وجه العادة التى قصد
منها ستر العورة ، ودفع أذى الحر والبرد ؟

حافظ ملا محمد زاده

كركوك — العراق

الجواب :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس قبل البعثة ما اعتاد قومه لبسه ، ولما شرفه الله تعالى
بالرسالة لم ينتقل أنه غير من لباسه شيئا ، والشرعية المطهرة التى جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم

أوحيت على الناس جميعاً من عوراتهم ، ولم تلزمهم زياً معيناً فيما يسترون به العورة ، ولا فيما يتقون به الحر والبرد ، ولا فيما يتجملون به من ثياب الرينة ، ولكن مع هذا حرمت على الرجال لبس الحرير ، كما حرمت التشبه بالكفار في ذيهم الخالص الذي له صبغة دينية عندهم .
ومن هذا يتبين أن اللبس على عمومهم ليس من العبادات ، وإعما هو من العادات التي تصطلح كل أمة على اختيار نوع منها . والله أعلم ؟

الإنفحة والجبن

وجه أيضاً :

كان الناس في القديم يستعملون في عمل الجبن بأنواعه الإنفحة الطاهرة من صفار الضأن والمعز والبقر ، فلما ظهرت وشاعت في بلادنا المادة المجلوبة من المالك الأجنبية التي يقال لها في السنة العامة « مائة بيتير » (خيرة جبنه) ، تركوا استعمال الإنفحة المذكورة ، إلا النادر من المنورعين ، وأكثروا من استعمال المادة المجلوبة لأنهم على ما يقولون وجدوها أسهل وأكثر وجوداً وأرخص قيمة ، ولم يصادفني إلى الآن في الكتب الفقهية التي بأيدينا رأي العلماء في هذه المادة المجلوبة : أهى طاهرة أم لا ؟ وقد حكنت في مجلس جري البحث عن الجبن ، فقال بعض الحاضرين : إن غير المسلمين يستعملون في عمل الجبن إنفحة الخنازير قطعاً وجزماً ، فأشكلك الأمر ، وتمسكت شبه قوية في طهارة المادة المجلوبة من الأجانب ، لأن عمالها غير مسلمين ، وبأن تكون الخنازير ، فيحتمل احتمالاً قوياً أن يوجد فيها شيء من إنفحة الخنازير ، والناس هنا يأكلون الجبن أكثر من سائر الأغذية ، والأسواق مملوءة به ، ويعمل المسلم وغير المسلم ، وكذا يبيع ويشترى كل منهما ، والتمييز بين جبن وجبن متعذر لأن أثر النجاسة لا يظهر فيه ، فما الحكم ؟

عبد الحميد بن محمد

عضو المجلس العلمي في أسكوب سابقاً

يوجو سلافيا

الجواب :

الأصل أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين ، لقوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم »

وعليه فكل ماورد من بلادهم من الأطعمة يحل للمسلم تناوله ما لم يقد دليل قاطع لاشبهة فيه على أن هذا الطعام نجس أو احتلط بما ينجسه أو يحرمه .

وعلى هذا فالجبن المصنوع بالإتفحة المستول عنها حلال تناوله إلا إذا علم يقيناً أن الإتفحة التي صنع بها الجبن مأخوذة من خنزير أو من حيوان غير مذكى . والله أعلم .

خدمة الزوجة لزوجها

وجاء أيضاً :

هل المرأة ليست مكلفة شرعاً بالقيام بخدمة زوجها ورعاية أطفالها ، وتقديم الخدمة اللازمة لسلامتهم ؟ وإن كان ذلك فهل وردت آية أو حديث ينص على هذا ؟ مع التفضل بإيراد هذا النص .

الجواب :

مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنه لا يجب على المرأة أن تخدم زوجها ولا أولادها ، لأن عقد الزواج لم يتناول شيئاً من هذا .

أما المالكية فيرون في هذه المسألة تفصيلاً يتلخص فيها بآتي :

أولاً — إذا كانت الزوجة من ذوات القدر والشرف اللاتي جرت العادة بأنهن لا يتولين الخدمة بأنفسهن في بيوتهن ، فإنه يجب على الزوج أن يجعل لها خادماً أو أكثر بحسب ما يليق بها متى كان قادراً على ذلك .

ثانياً — إذا كان الزوج من الأغنياء الذين لا يليق بهم عادة أن تقوم زوجاتهم بخدمة المنزل ، وجب عليه أن يجعل لها خادماً أو أكثر ، ولو كانت هي فقيرة ليس من شأنها أن يكون لها خادم .

ثالثاً — إذا كان الزوج فقيراً لا يتيسر له أن يجعل لزوجته خادماً ، فلا يجب عليه استحضار خادم لها ولو كانت شريفة ، ويجب عليها حينئذ القيام بالخدمة بحسب ما جرت به العادة .

رابعاً — إذا كان الزوج موسراً ويستطيع أن يجعل لزوجته خادماً ولكن لم تجر العادة بأن يكون مثله ومثل زوجته خادم ، فعليها أن تخدم نفسها بحسب المادة . وحيثما تجب عليها الخدمة كما في الحالتين الثالثة والرابعة ، فاعلم الواجب عليها خدمة نفسها وزوجها لا غير ، أما أولادها وضيوفه فلا تجب عليها خدمتهم . والله أعلم .

في الميراث

وجه أيضا :

مات الميت وترك أما وإخوة لأم وعمما ، كما ترك تركة قدرها أحد عشر قيراطا باعها الميت لعمه في مرض الموت ، فطعن باقي الورثة مطالبين بفسخ عقد البيع ، حكمت المحكمة أولاً بفسخ عقد البيع ، ثانيا بتوزيع التركة على الورثة باستحقاقهم الشرعي ، إلا أن المحكمة إمد هذا فصلت تقسيم التركة وهي الأحد عشر قيراطا ، حملت للأم الثلث وقدره ٣ قرايط و ١٦ سهما كما خصصت للإخوة لأم الثلث ، وللمدعي عليه وهو العم الثلث .

وبما أن الحكم الشرعي يتعارض مع حكم المحكمة في نصيب الأم والمعم ، رأينا الالتجاء إليكم لمعرفة الحكم الصحيح ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الجواب :

حيث تبين من السؤال أن المتوفى ترك أما وإخوة لأم وعمما لاغير ، فالتركة تقسم بينهم بالكيفية الآتية :

للأم سدس التركة بنص قوله تعالى : « فإن كان له إخوة فلأمه السدس » ، وللإخوة للام — اثنين أو أكثر — الثلث بنص قوله تعالى : « فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث » إذ معنى الآية : فإن كان إخوته لأمه أكثر من واحد فلهم الثلث يشتركون فيه ، الذكر والأنثى منهم في ذلك سواء .

ولعم الباقى وهو النصف بطريق التمهيب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى رجل ذكر » . والله أعلم ؟

في الرضاع

وجه أيضا :

ولد رضع من جدته أيام رضاعته رضاعا كثيرا ، فهل جواز أبو حنيفة أن يتزوج هذا الشاب من بنت عمه التي أصبحت بنت أخيه رضاعا ؟

الجواب :

لا يجوز على جميع المذاهب أن يتزوج هذا الرجل بهذه البنت ، لأنها بنت أخيه من الرضاع ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

السيد محمد اقبال شاعر الهند

ولمعة من تاريخ اللغة الاردية

ليس في الناس من يجمل أن المهور كانوا أسبق الناس إلى الشعر ، والشعر لا يجمل إلا إذا امتزج بالتصوف والحكمة ، وكلها وليدة الهند أيضا . وقوى دليل على ذلك قول المرب . « الحكمة هندية » . والتصوف في اعتقادي وليد الفلاسفة ، وبعبارة أوضح : التصوف هو فلسفة الأديان والمقائد . وإنى لا أريد أن أفيض في هذا الموضوع الآن .

كان قبل الاسلام في الهند شعراء وفلاسفة ينظمون الأشعار باللغات الهندية القديمة ، وقد بقيت آثارها إلى الآن ، ويحفظ هذه الأشعار كثير من الهنود ، ولكنها غير مدونة في دواوين . وقد دخل الاسلام الهند في القرن الأول الهجري على يد محمد بن قاسم بأمر الوليد ابن عبد الملك الأموي ، فانه زحف أولاً على بلاد السند ، وجيزه ابن عمه الحجاج بستة آلاف مقاتل ، فحاصر محمد ثغر الديبل ومكانه الآن كراتشي ، واستولى عليه ، ثم واصل الفتح حتى بلغ نهر السند وقتل داهر ملك السند وهزم أتباعه ، وآثرت زوجة داهر وأتباعها إحراق انفسهم على الوقوع في أيدي المسلمين . وزحف المسلمون من السند على بلوچستان وحاصروا ملتان في جنوب بلاد البنجاب . ومن ذلك الوقت تأثرت اللغة السندية باللغة العربية . وكتابتها إلى اليوم بالعربية . وهذا أول أثر للغة العربية في اللغات الهندية .

وبعد ذلك حكم المسلمون الهند ، واستمرت دولتهم حوالي خمسمائة سنة ، وآثارها تظهر إلى الآن عظيمة هؤلاء الملوك ، وذلك أنه في سنة ١٥٠٥ م . قرّر «بار» أحد زعماء المغول من سلالة تيمورلوك من موطنه الأصلي إلى سمرقند فقتل بها وكثر أتباعه ، فدانت له بعد ذلك بلاد أفغانستان ، ثم جاوزها إلى حدود الهند ، فطالب بملك البنجاب متخذاً له ذريمة هي أحد أجداده (وهو تيمورلوك) الذي كان قد فتحها منذ مائة وسبع سنين . وما لبث أن وإلى انتصاراته في أراضي البنجاب حتى جاورها إلى ما وراءها ، وكانت بلاد الهند وقتئذ منقسمة على نفسها ، على استعداد لأن ترحب بأي فاع يكفل لها الهدوء والسلام ولو كان هذا الفاع أجنبياً لا يمت إليها صلة . وظل يابر ردحا من الزمن كان النصر فيه تارة إلى جانبه وأخرى إلى جانب أعدائه من الوطنيين حتى جاء عام ١٥٢٥ م وفيها وقف وجهاً بوجه مع سلطان دلهي ، أشد ملوك الهند مراساً . وكان ذلك أمام قرية « ثانييت » التي تبعد عشرة أميال عن دلهي ، فانتصر يابر بالرغم من قلة جنده الذي لم يزيد على ٢٥ ألفاً ، بينما بلغ جيش سلطان دلهي مائة ألف مزودين بعدد عظيم من التيلة لا يقل عن ألف . وبانتصار يابر على سلطان دلهي دانت

له بلاد الهند الشمالية ، وأطلق على نفسه لقب إمبراطور الهندوستان . وموت بار (١٥٣٠)
 وقف تيار الفتوحات المغولية في الهند زهاء ربع قرن ، ولم يستعد المغول بشاطهم في الفتح
 والغزو إلا بعد أن تولى حفيده الأعظم أكبر جلال الدين عرش الامبراطورية . وكان أكبر
 خان أعظم ملوك المغول في الهند ، وتملك كل الهند ، وكان عهده عهد ثقافة ورخاء ، وبقيت
 إمبراطوريتهم الى أن دخل الانكليز في الهند . وتأثرت اللغة الهندوستانية في عصر أكبر
 خصوصاً ، وفي عصر ملوك المغول الآخرين صمو ، باللغة الفارسية والتركية ، وتلوت بلون
 جديد ، وانتشرت انتشاراً عظيماً .

اللغة الهندوستانية أو الآرية :

اللغة الهندوستانية فرع راق من اللغة الهندية الآرية ، وقد تكلم بها أهل الهند في القرن
 الرابع الهجري في وسط الهند كلفة مستقلة ، وبقيت على هذه الحالة حتى احتارها المسلمون
 في القرن السادس لغة واحدة لهم . ولما انتشرت في « دهل » وجوارها ، دخلت فيها ألفاظ
 جديدة ، وتغيرت نوعاً ما . وفي القرن نفسه صارت بعد إصلاحها لغة الثقافة . وفي القرن الثامن
 اختارها الملك أمير حمرؤ لغة للحكومة . ومن هذا القرن بدءوا استعمالها في العلم والفن .
 فن القرن الثامن الى القرن الثاني عشر الهجري دوت فيها علوم كثيرة وآداب جم .
 وأما الشعراء فنظموا بها أشعارهم من القرن السابع . وفي القرن التاسع استعمالها الشعراء الفحول
 مثل كبير نايك ، وداسورداس ، وننداس ، وكوسواني ، وتلدي داس ، وكانت تسمى
 إذ ذاك الهندوستانية ، وبعد ذلك دخلت فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية في كثرة هائلة
 حتى ظهرت بلباس جديد واسم جديد في سنة (١٦١٨) م حين شرع الملك شاه جهان الخامس
 من أسرة المغول تعمير « لال قلعة » (القلعة الحمراء) التي تم بناؤها بعد عشرين سنة . ويقال :
 إن جيشه وخدامه كانوا فوق المد والحد ، وهم من جميع الأقوام والبلاد ، وسكنوا في معسكر
 عظيم كان يسمى (أردو) ، ومعناه بالتركية الجيش . وكان في جوار هذا الجيش سوق يسمى
 « أردو بازار » (سوق المسكر) ، فكل هؤلاء من الهنود والفرس والأتراك والعرب
 تنافسوا في إدخال لغاتهم في هذه اللغة ، فامتزجت فيها ألفاظ منتخبة من العربية والفارسية
 والهندية الآرية والتركية ، وصارت زبدة اللغات الشرقية ، فيها لطافة الفارسية ، وبلاغة العربية ،
 وحمق الهندية ، وحجاسة التركية ، حتى صارت لغة جديدة ، وسميت « أردو » ، لأنها تحدثت
 في السوق المذكور ، وبقي هذا الاسم الى قرنا العشرين . ولكن منذ سنة فقط بعد استقلال
 الهنود استقلالهم الداخلي وتشكيل الوزارات الهندية سميت مرة ثانية « اللغة الهندوستانية »
 لأنها قررت لغة للحكومة . والألفاظ العربية فيها تقارب نصفها ، والفارسية تقارب ربعها ،
 والباقي من الهندية الآرية والتركية ، ودخل فيها شيء من الانكليزية منذ دخول الانكليز

في الهند . ولهذه اللغة كتب مدونة في النحو والصرف والقواعد والبلاغة . ومن أكبر محاسنها أننا نستطيع أن ندخل فيها ألفاظا من أية لغة على هيئتها . وهي الآن أكثر انتشارا من اللغة العربية والفارسية والتركية ، لأن عدد الذين يتكلمون بها يبلغ ثلثائة مليون في الهند ، ويفهمها أكثر من أربعمائة مليون . وهي تدرس تقريبا في كل العالم ، وعدد حروف هجائها واحد وخمسون حرفا .

المقارنة بين الأشعار الهندية والعربية :

افتخر العرب على سائر العالم بستين ألف بيت نظمها الفردوسي في شاهنامه ، ولكنهم تجاهلوا أنه ألفت في الهند دواوين هذا الحجم في الأشعار فقط . ونظم مهرة الفن مثل آئيس ودبير ونمشق وغيرهم مئات من المراثي ، وفي كل مرتبة جمالية وسنائة مسدس ، وكل مسدس ثلاثة أبيات . وألفت كتب متعددة في نقد أشعارهم من الشرقيين والمستشرقين . ونحن لا نجد لهم نظيرا في غيرهم . وعلماء الفنون الحربية متحبرون كيف قدر هؤلاء على نظم سكات غامضة من فنون الحرب بعبارة بديعة طريفة مع أنهم لم يخرجوا من منازلهم .

ومن أهم موضوعات اللغة الهندوستانية ، الأوصاف الجميلة ، والفلسفة والتصوف ، والتخييل والمراثي ، والغزل والقصة ، والمدح ، وغيرها . وبعض شعرائها الماهرين جمعوا دواوين على ألسنة النساء وفي أفكارهن ، ولا يمكن أن يعرف القارئ أنها لرجال . ومن يذكر من هؤلاء الشعراء من المتأخرين « سودا » ، غالب ، ذوق ، مير ، آئيس ، دبير ، أنيس ، مومس ، ظفر ، نيشق ، داغ ، تقيس ، أكر ، حالي ، اقبال ، وغيرهم . ومن المعاصرين « آرزو » ، حسرت ، سياب جليل (أستاذ نظام حيدر اباد) ، أعبد ، ظفر علي ، سالك ، صفى ، حوش ، أثر ، عزيز ، وحشت ، محشر ، جكر ، وغيرهم .

وأهم سبب لانتشار الشعر في الهند هو المشاعرة . أي المكاتبة بالشعر ، وهي أكبر دعابة للشعر هذه اللغة أيضا . فنذبذبها الى يومنا هذا يحتفل الشعراء بالمشاعرة ويشكلون لأجلها الأحزاب ، ويسمونها « بزم » حتى لا نجد قرية إلا وبها هذه الجاعات ، يتنافس بعضها بعضا في الشهرة والتقدم ، وتقدم الجوائز القيمة للسق في مبارياتها ، فتجد الاعلانات المتنوعة في أكثر الجرائد الهندية لهذه المشاعرات الطريقة كاعلانات الرياضة والألعاب في الجرائد المصرية . والهنود يشتركون فيها أكثر مما يفترون إخواننا المصريون في الألعاب والرياضة البدنية . وطريق مبارياتها أن شاعرا منهم مشهورا يقدم شطرا لبيت مع شروط ، وينشره في الاعلانات والجرائد ، ويرسله أيضا الى الشعراء المعروفين بتعديده ميقات الاحتفال ، فكل من يريد الاشتراك في هذه المباراة من كل نواحي الهند ينظم أشعارا حسب ذوقه وطبعه مراعيًا الشروط ، ويحضر يوم المشاعرة ، ويسمع الناس نظمه بصوته الجذاب ، ولحنته الخلابة ، والذي

لا يستطيع الحضور لأمر ما يرسل نظمه الى سكرتير الجامعة ليسمعه أحد الحاضرين باسم الشاعر ، حتى مثل إقبال وغالب وذوق وآيس : أوائك الشعراء العظام ، كانوا يشتركون في هذه الجملات ويستمعون الحاضرين أشعارهم ، وكنت أشارك نفسي فيها ، وما كنت أقوم منها طول الليل إلا قرب طلوع الشمس ، وكنت أعدها أحب الليالي الى . وهذه الجملعات أنواع ، فبعضها للأطفال ، وبعضها للشبان ، وبعضها للشيوخ ، وبعضها للنساء . وإذا نظرت الى كثرة الشعر والشعراء في الهند اعتقدت أن أرض الهند كلها شعر ، فالأطفال من سن الثامنة ينظمون القصائد ، ولقد انتشر في الهند محلات وجرائد خاصة للشعر نتائج المطارحة ، وتجد أكبر عدد للشعراء في العالم في الهند ، وتؤلف فيها كل يوم دواوين متعددة في المواضيع العريضة المتنوعة . ومعظم سلاطين الهند وحكامها وزعمائها شعراء ، ولهم دواوين ، ورئيسهم في هذا الفن نظام حيدر اباد ملك الدكن والبراري ، ويسمى سلطان العلوم ، وله دواوين الشعر كما لأبنائه دواوين . وهذا الفن خاص بالهنود .

وسبب آخر لانتشار الشعر في الهند : هو أنه لا توجد في اللغة الهندوستانية لغة طامية كسائر اللغات ، بل لغة التخاطب والكتابة في الهند واحدة ، والهنود ينظمون بها حسب قواعدها ، وتختلف باختلاف الشعوب ومقاديرها . فظهر من هذا أن الشعر مكانة خاصة في أرض الهند .

ومكانة السيد إقبال بين هؤلاء الشعراء العظام ، كمكانة الشمس بين النجوم المتلألئة ، أو كمكانة الملك بين أمراء بلاده . فإذا قرأت شعره تأثرت به تأثرا عظيما كأنك ألهمت شيئا كنت تجهله وهو كان بين يدي خيالك ، فإن الشاعر لا يأتي بشيء مستحيل بل يأتي بشيء ممكن ولكن يعسر على غيره الاتيان به ، وإذا لم يكن الشعر هكذا فليس بشعر ، بل هو نظم قد رتب الناظم ألفاظا بطريقة على طريق بديع ومماها شعرا . وإنى شخصيا لا أطرب لأشعار الشعراء المعروفين طرقي من أشعار السيد إقبال ، فكلمتا تلوتها شعرت كأننى أقرأ شيئا جديدا ، لأنى أجد فيها روحا وقوة لا أجدها في أشعار غيره ، وكلكم تعرفون أن روح الشعر تزول بعد الترجمة من لغة الى لغة إلا إذا كان الشاعر رسول فلسفة أو حكمة أو شيء جديد غير معروف قبله ، فانكم حينئذ لتشعرون شيئا جديدا من الروح الجديدة في أشعار هذا الشاعر بعد زوال أكثرها

وإنى أحاول الآن أن أعرض على حضراتكم صورة إجمالية لألمعية إقبال التي اتخذ شعره منها لها وترجمانا عنها في هذه القصيدة ، عنوانها « طلوع إسلام » ثم أقدم اليكم بعد ذلك أبياتا مختلفة أتقدم بها كأمثلة من شعره ، وسأترجمها اليكم الآن ثرا . وهى قصيدة « طلوع إسلام » :

« العين التي تعودت أن تنظر الى عظم من الأشياء لا تهتم بصغيرها ، والعين المتطلعة الى الفرسان والغزاة لا تهتم بالنظر الى ما يكون في الركاب من زينة .

«أثر أيها المسلم في ضمير «زهرة لاله» مرآج الرجا والامل، واجعل كل ذرة في بستان العالم شهيدة البحث والاكتشاف .

«أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها . فيها اخلق يقين الهمة ولا تمش أسير الأوهام .

«إن الدنيا تنفى ولكنك أعظم خلودا من الدنيا، لك مجد الأزل، ولك نعيم الأبد أيضا، وأنت الرسالة الأخيرة لله، لذلك أنت موصول الدوام .

«اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، دروس الصدق والمعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود لتعود للعالم مرة ثانية .

«فهذه هي مقاصد الفطرة الأولى ورمز الاسلام الحقيقي أن تملك العالم بالاحوة وتحكمه بالحقبة .

يجب أن تنفى في ديبك وملتك بعد أن تكسر أصنام اللون والدم حتى لا يبقى في العالم توداني ولا إيراني ولا أفغاني .

«ما الذي يحا استبداد قيصر وشدة كسرى؟ أكانت هناك قوة في العالم كانت تحارب الجبايرة سوى قوة علي، وفقر أبي ذر، وصدق سلمان؟

«عندما ينبعث في هذه الشرارة الترابية روح اليقين، فانها تطير الى سماء المجد بجناح جبريل الأمين .

«لا تعيد السيوف ولا التداير إذا سيطرت العبودية والاستكانة، ولكن إذا وجد اليقين فهناك تتحطم السلاسل والأغلال .

«هل يستطيع أحد أن يقيس مبلغ قوة ساعد المسلم؟ إن نظرة المؤمن تبدل الاقدار .
«إن الولاية والحكومة واكتشاف علوم الكائنات ليست إلا تفسيراً لكنته من نكات الإيمان .

«ولكن من المسير أن يخلق في النفوس إيمان ابراهيم، فان عوامل الحرص والخوف مستقرة في الصدور لتخلق الصور والتمائيل .

«إن امتياز السيد والعبد هلاك الانسانية، فاحذروا أيها الجبايرة الأقوياء لأن فطرة العالم تتبدل وتتغير ولا تبقى الحياة على الحال .

«إن حقائق الأشياء واحدة متساوية، فالذي خلق من تراب كالذي خلق من نور، ولو شققنا قلب القدر لتقطر منها دم الشمس .

« إن سيوف الأبطال في جهاد الحياة هي اليقين المحكم والعمل المستمر . إن الذين ارتفعوا من أسلافكم كالنصور والعقنان ، لم يكن لهم ريش ولا جناح ، والذين طلعوا محومًا في السماء قد غرقوا أولاً في دم الشفق ، والذين كانوا يسبحون في هدوء البحر دفنوا في قاعه السحيق . وأما الذين كانوا يصارعون لطبات الأمواج فقد حرحوا إلى الدنيا بعد أن صاروا يواقيت »
 « الذين كانوا يفتخرون بكيمياء الذهب صاروا غباراً في عمر الطريق . والذين كانوا يضعون جباههم على التراب هم الذين صاروا يصنعون الكيمياء .

« إن المؤمن يعيش حياً كالشمس يغرب في جهة ليشرق في جهة أخرى ، فهو دائم الإشرق والحياة ، لا يفت .

« أنت أيها المؤمن سر « كن فيكون » فظهر على الميرون وكن عارفاً لأسرار حقيقته وترجماً لقدرة ربك .

« واستغرق في ذلك فهذا هو سر الحياة ، وصر خالداً بعد أن تخرج من حلقة الصباح والمساء .

« إلى اليوم لا يزال الإنسان شراً فريسة لصيد الحكام ، وإنها لقيامه كبرى أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان .

« ولم يخلق هذا الهيكل الترابي في أول فطرته من تراب الحميم ولا من تبر الرصوان ، ولكن الحياة تخلق بالعمل ، كذلك الحميم وكذلك الجنة » .

الفقر والعلم في تصوف إقبال :

« معجزات الفقر هي التاج والعرش والجنود ، والفقر هو أمير الأمراء والفقر هو ملك الملوك .

« ومقصود العلم نزاهة العقل والفهم ، ومقصود الفقر غفة القلب والطر .

« العلم فقه وحكيم ، والفقر مسيح وكليم ، والعلم طالب الطريق ، والفقر عارف الطريق ، والفقر مقام البطر ، والعلم مقام الخبر . السكر بالفقر نواب ، ولكن السكر في العلم دب وعذاب . لو كان قلبك في هذا التراب حياً ومستيقظاً لكسر نظرك زجاج الشمس والقمر »

محمد حسن الأعظمي الهندي

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٥ —

عمر بن الخطاب

تحتاج الامم الناشئة في مبتدأ نهوضها الى نوع من الشخصيات المثالية الباعثة في تكيف المبادئ الجديدة ، والنظريات التي تركز عليها دعائم تكوينها الاجتماعي ، تكييفها عمليا بخروج بالامة مراراً من طور المعارف النظرية الى طور التمثيل العملي الذي يصور للامة مُثلها العليا حية متحركة ناطقة ، ليكون ذلك أسرع في توجيهها توجيها صادقا الى تحقيق تعاليمها ، وفرض شخصيتها على الحياة بما لها من أفكار وأخلاق وآداب وتشريع ، فرضا يكتب لها صك السيادة والسلطان في خلافة الله تعالى على عباده ، وقيادة الانسانية في لاحب من الهداية ينتهي بما تتأدى اليه من إصلاح وعز وسعادة .

والامة الاسلامية في نشأتها الاولى أصدق صورة المجتمع الذي يدلف الى الحياة وفي يده تشريع إلهي يرسم له طرائق أكمل هداية عرفها البشر من قبل ومن بعد ؛ وشريعته أصدق صورة للتشريع العملي الذي يطبع المتشريعين به طابعا عمليا يدفعهم الى تحقيق غاياته ومراميه في أنفسهم ، ليكونوا مثلاً مضروباً ، وشاهد صدق على ما تستطيع الامة أن تبلغه من السمو الفكري ، والنبيل الخلق ، والرق الاجتماعي ، في ظل دينها الذي هو دنياها في تشريعه وسياسته ، وآخرتها في تهذيبه وآدابه ؛ وهذا منتهى ما تطمح اليه أمة يقدر لها الخلود .

وإذا كانت الشريعة الاسلامية — لما أودع الله فيها من عناصر الخلود والحيوية الروحية والمرانة التشريعية بما يتفق مع روح الأعصار المتعاقبة ، ويساير ما يتحدد من أوضاع عامة في نبات الأمصار المختلفة — زعيمة أن تجعل من الامة الاسلامية وحدة اجتماعية قوية تتخطى حواجز الفوارق العنصرية والاختلافات الجسمية ، فان هذه الزمامة في حاجة الى شخصيات مثالية تكون رموزاً حية لتحقيق التكيف العملي ، والانطباع بطابع تعاليم هذه الشريعة الطاهرة ، وصنع المثل العليا للقوى الانسانية ، وتصوير الطاقة البشرية في طور الكمال الفكري .

وقد كان فجر الاسلام مظهراً طاماً لهذه الشخصيات المكيفة بآداب الشريعة وتعاليمها ، لأن جدة الايمان صادفت قلوباً أبكاراً ، ولأن تنجيم الشريعة وفقاً للأحداث والنوازل ، ويسر العقيدة الاسلامية وما يتبعها من تهذيب ، وتأخيها مع الفطرة السليمة ، وانطواء

التشريع الاجتماعي على مافيه مصلحة العباد وسعادتهم - جعل لامتناهال آيسر على النفوس الفاضلة التي اتخذت الشريعة نبراسا لها في جميع شئونها ، ومقياسا تقيس به أعمالها .

ومن هذه الشخصيات من ارتفع عن حيزه الخاص الى سدة القيادة الفكرية للأمة ، جعل من شخصه أول مرقة في سلم التطبيق العملي لنظريات الشريعة وتعاليمها ، قصدا الى تحقيق الاسوة الحسنة . وليس من شك في أن « عمر بن الخطاب » كان أعلى مثل لشخصيات قادة الفكر في تاريخ الاسلام من جهة التطبيق العملي في صرامة أُنعت من جاء بعده من أبطال الاسلام وقادة الفكر ، وبقيت حياته كالشمس يقع الناس تحت أشعتها ولا ينالون موضعها ؛ وهذه الصرامة التطبيقية هي مولد التمرد في عظمة « عمر » ، وهي التي وطأت للاسلام في عهده مكانا من الحياة لم يشهده التاريخ لدين من الأديان ولا لدولة من الدول .

والاسلام باعتباره عنوان أمة ودمشور دولة ، لا يكفي في تحقيق أغراضه من الوجهة العملية تقرير النظريات والوقوف في سبيلها ، لأن الاسلام شريعة ودولة ، فهو باعتباره شريعة محفوظ ككفالة الله تعالى في نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وهو باعتباره دولة لا يستوى سلطانه على عرش الحياة إلا إذا سيطرت نظرياته على أعمال أئمة سيطرة عملية في غير خداع ، واتخذت من نفوس القادة وشخصياتهم مثلا تطبيقية لتحقيقها .

وقد جعل الله « عمر بن الخطاب » غاية الغايات في هذا التطبيق العملي الصارم ؛ وكانت هذه الصرامة صدى لطبيعة « فاروق الاسلام » القوية العنيفة ، فهو منذ ألبسه الله بالاسلام رداء الحق اثرايت نفسه الى الكمال صريحا عنيفا ، فما ولاء الله أمر المسلمين وحمله ثأري الراشدين ، تحلت للناس عبقرية الملهمة الصارمة في عدالة لم يعرفها البشر قبل مجيء الاسلام وحلافة عمر . وهل عرفت الانسانية في تاريخها الدولي وحياتها الاجتماعية قبل خلافة عمر أن ملكا أو رئيس دولة في أية صورة من صور الحكم يمتد مسكه ، وتحقق بنوده على أرق من عرف من ممالك الأرض ، ثم يرى نفسه أنه « عبد » لرعيته يحوطها ويرعاها رعاية العبد لسيده الكريم ؟

روى أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب في وفد من العراق ، فصادفه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز لمباة يهنا بغيرا من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فانه لمن إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة فقال رجل من القسوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ! فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفئك هذا ؟ قال عمر : « وأنى عبد أعبد مني ومن الأحنف ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » ! فليظن المتشددون بالديموقراطية الزائفة كيف تكون الديموقراطية الحققة على يد

أعظم حاكم لأعظم دولة ، فهو لا يفنيه في أداء واجبه لرعيته أن يقوم في حاجات أفرادها ومواساتهم ، بل ينتفع الحربي من إبل الصدقة يداويها بنفسه ، لأن فيها حقاً لليتيم والمساكين والأرملة ، وهو إنما يصنع ذلك تقديراً لمساكنه من الأمة ، وليكون مثلاً صالحاً لمن يتولى من أمور المسلمين شيئاً وانظر إلى لطيف إشارته بأشراك الأحنف ، وهو رئيس الوفد ، دون غيره من عامة المؤمنين ، حتى يفهم المسلمون أن عظامهم ورؤساهم ليسوا إلا أفراداً منهم ، بل هم أثقل كاهلاً بواجبات رياستهم ، وفي ذلك من هواميل التكوين الخلقى والتربية الاجتماعية ما يسمو على هذه النظريات الجوفاء التى لا تمتدى صفحات الكتب إلا إلى الآدان وليس لها إلى القلوب سبيل .

وكان رضى الله عنه يقول : إذا كنت في منزلة تسمى وتمحز عن الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس ! وهذا أساس للتربية الوطنية الإسلامية يضعه « ابن الخطاب » ويدعمه بأعماله الخالدة ، ثم يطبقه على عماله وولاة أمور المسلمين تحت يده . ويقول في بعض خطبه « ألا وإني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا بأشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه ؟ قال : إني والذى نفسى بيده إذن لأقصه منه ، إني لأدس منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى من قسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلومهم ، ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تتزولم القضاء فتضيعهم » وما كان عمر بالذى يقول قولاً لا يثبت به العمل ، فإذا قال لأمراته إنه سيخص من أخدم لأحد أفراد الأمة فقد ذلك ونحوى أن يكون في ملائس الناس ليشر المسلمون أنهم سواسية في الحقوق والواجبات ، وأنه لا سلطان لأمير على أحد من الرعية إلا بمقدار ماخوله الله تعالى من إقامة الحدود . قال أنس بن مالك : كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : هذا مقام العائذ بك ؟ قال : وما لك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرس لي ، فلما تراءها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسى ورب الكعبة ، فلما دما منى عرفته ، فقالت : فرسى ورب الكعبة ، فقام يضربني بالسوط ويقول خذها خذها وأما ابن الأكرمين . قال أنس : فوالله ما أراد عمر على أن قال للمصرى : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو : إذا جاءك كنانى فأقبل وأقبل معك بإبلك عهد . قال : فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنه فقال له : أحدثت حدثاً ؟ أحنيت حديثاً ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب إليك ؟ فقدمنا على عمر . قال أنس : فوالله إننا لعند عمر بمى إذ نحن بم عمرو ، وقد أقبل في إزار ورداء فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه خلقه ؟ فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصرى ؟ فقال : هانذا ، قال : دولك الدرة ، اضرب ابن الأكرمين ، يكررها ثلاثاً ، قال : فضربه حتى ألتخنه ، ثم قال :

أجلها على صنعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفصل سلطانه ! فقال المصري : يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربى ، فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلما بيك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ! ثم التفت الى عمرو وقال كلمته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

أجل : لقد ولدت الانسانية ميلادا جديدا يوم هتف عمر بن الخطاب فى وعيته بهذا الدستور الذى ضمن لها عز الحياة فى ظل الاسلام لو استملك الناس بصريح الاسلام . قرء من حمار الذهب يقص له خليفة المسلمين من ابن أميره ، ثم يخلى بينه وبين الأمير نفسه ، وهو من هو فى قادة المسلمين وعظماهم ، ثم ينفخ فى نكير الحياة يبشر الاحياء ببعث جديد : الناس أحرار منذ ولدتهم أمهاتهم ! فهل تذوق المصريون فى ظل الرومان والفرس ومن تقدمهم من ملوك وفراصة جعلوا أنفسهم آلهة وشعوبهم عبيدا ، شيئا من هذه الحرية قبل أن يضع الفاروق لهم هذا الدستور الذى هو أقل حق لهم فى الحياة ؟ وهل عرفت شعوب الأرض فى هذا العصر الذى يتشدق بعصاه المتشدقون هذا النوع من الحرية ؟

وقد آتت هذه التربية الفاضلة أكلها ، وأينعت ثمرتها ، وأنبئت رجالا من المسلمين أبوا أن يستكينوا لسيطرة الأمراء ، وردوها فى صرامة كانت أحب الى عمر من جميع ما أتاه الله عليه . روى جرير بن عبد الله البجلي : « أن رجلا كان مع أبى موسى الأشعرى وكان ذا صوت ونسكاية فى العدو ، فغضبوا مغنبا ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه ، فأبى أن يقبله إلا جميعا ، فجلده أبو موسى عشرين سوطا ، وحلقه ، فجمع الرجل شعره ثم ترحل الى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ، قال جرير : وأنا أقرب الناس من عمر ، فأدخل الرجل يده فاستخرج شعره ثم ضرب به صدر عمر بن الخطاب ، فقال : أما والله لولا ! قال عمر : صدق لولا النار ، فقال : يا أمير المؤمنين إني كنت ذا صوت ونسكاية فى العدو ، وأخره بأمره ، وقال : ضربنى أبو موسى عشرين سوطا وحلق رأسى وهو يرى أن لا يقتص منه ، فقال عمر : « لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب الى من جميع ما أتاه الله على » . فكتب عمر الى أبى موسى : « سلام عليكم . أما بعد فإن فلانا أخبرنى بكذا وكذا ، فإن كنت فعلت ذلك فى ملا من الناس فعزمت عليك لما فعدت له فى ملا من الناس حتى يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك فى حلاء فاقعد له فى حلاء من الناس حتى يقتص منك » . فقدم الرجل ، فقال له الناس : اعف عنه ، فقال : لا ، والله لا أدعه لأحد من الناس فلما قعد أبو موسى ليقتص منه رفع الرجل رأسه الى السماء ثم قال : اللهم قد عفوت عنه ! »

هنا يجب أن نسكب الاقلام عبراتها ، وتريق ماء بلاغتها ، باحثة عن موطن العظمة الاسلامية فى عهد « عمر بن الخطاب » ، فهو يرى أن يكون الناس كلهم على هذه الصرامة التى

وقف بها أحد أفراد رعيته في وجهه يستدفع ظلماً أذل نفسه ، أحب إليه من جميع ما أنعم الله عليه ، لأن عمر يعلم أن تربية الأمة على الشجاعة والرجولة ، وبعث العزة والإباء في أنفوس بنيها ، أضمن خلودها ، وأخصب لحياتها .

وكان من سنن عمر السياسية أن لا يأخذ بالتهمة ولا يعمل بالظنة ، بل كان يجمع بين الشاكي والمشكو فيه ، ليحقق الحق ، ويجعل من حوادث الإفراط زاحراً للمجموع . روى الطبري في تاريخه فقال : لما تم فتح « يروذ » من الأهواز ، جمع أبو موسى السبي والأموال وغدا على ستين غلاماً من أبناء الدهاقين تنقام وعزهم ، وبعث بالفتح إلى عمر ، وقد سألته ضبة بن محسن العتري أن يحمله في وفده إلى عمر ، فأبى عليه أبو موسى ، فغضب وذهب إلى عمر يشكو إليه أبا موسى ، وكان أبو موسى قد كتب قصته إلى أمير المؤمنين ، فلما قدم الكتاب والوفد وافتتح على عمر ، قدم ضبة وأتى عمر ، فحجه ثلاثاً ، وفي الرابع دخل عليه ، فقال له عمر : ماذا قممت من أمورك ؟ قال : تنقي ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه ؛ وله حارية تدعى « عقيلة » تغدتي جمعة وتعتشى جفنة ، وليس منارحل يقدر على ذلك ؛ وله قفيزان ، وله خاتمان ؛ وفوض إلى زياد بن أبي سفيان ، وكان زياد يلى أمور البصرة ؛ وأجاز الخطيئة بألف . فكتب عمر كل ما قال ، فبعث إلى أبي موسى ، فلما قدم حصه أيلما ، ثم دعا به ودعا ضبة بن محسن ، ودفع إليه الكتاب فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ : أخذ ستين غلاماً لنفسه . فقال أبو موسى : دلت عليهم وكان لهم فداء فقديتهم فأخذه فقسمته بين المسلمين فقال ضبة : ما كذب ولا كذبت . وقال : له قفيزان . فقال أبو موسى : قفيز لأهل أقوتهم وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم . فقال ضبة : والله ما كذب ولا كذبت . فلما ذكر « عقيلة » سكنت أبو موسى ولم يعتذر ، وعلم أن ضبة قد صدقه . قال : وزباد يلى أمور الناس ولا يعرف هذا ما يلى . قال أبو موسى : وجدت له نبلاً ورأيا فأسندت إليه مهلى . قال : وأجاز الخطيئة بألف . قال : سدوت فم بمالى أن يشتمنى . فقال عمر : قد فعلت ما فعلت ، وإذا قدمت فأرسل إلى زيادا وعقيلة ، ففعل ، فقدمت عقيلة قبل زياد ، وقدم زياد فقام بالساب ، فخرج عمر وزياد بالباب قائم وعليه ثياب بيض كنان ، فقال له عمر : ما هذه الثياب ؟ فأجبره ، فقال : كم أثمانها ؟ فأخبره بشئ يسير وصدقه ، فقال له : كم عطاؤك ؟ فقال : أثمان ، قال : ما صنعت في أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت في الثاني ربيبي عبيد فأعتقته ، فقال : وفقت . وسأله عن الفرائض والسفن والقرآن فوجده فقيها ، فردده وأمر أمراء الأحناد أن يأخذوا برأيه ، وحسب سنة بالمدينة ، ثم قام في الناس فقال : ألا إني ضبة العتري غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه ، وعارقه مراغماً أن فاته أمر من أمر الدنيا ، فصدق عليه وكذب ، فافسد كذبه صدقه ، فأياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى النار .

ولقد كان « القاروق » من أعلم الناس وأعرفهم بالطبيعة العربية ، وما ركب الله فيها من شماس وجومح يدفعها إليه ما نشأت عليه من تشعب بالحرة الفردية ، واعتزاز بالشخصية ، وفراغ في الوقت ، وتقلل من أسباب العيش تبعاً لحياة البداوة التي كانوا يحيونها ، فرمى بهم الأمم عن قوس الاسلام ، وشغلهم بالغزو والجهاد والفتح ، وكأنه الى هذا المعنى قصد بقوله : « إنما مثل العرب مثل جبل أليف اتسع قائده ، فلينظره ثده حيث يقوده ، فأما أما فو رب الكعبة لأحملنهم على الطريق » . وهو الى ذلك كان حفيها بهم ، حريصا عليهم ، فإذا شيع محاله وأمرأه ولاياته قال لهم فيما يوصيهم : « ولا تجلدوا العرب فقتلوها ، ولا تحجروها ففتنتوها ، ولا تغفلوا عنها فحسروها » وإذا حضره الموت كتب في وصيته الى الخليفة من بعده « وأوصى الخليفة من يمدى بالعرب فاهم مادة الاسلام » .

ولم تغفل عبقرية « عمر » المرأة المسلمة ، بل عنيت بها أشد العناية ، وتطاعت الى تشريع سماوى يحفظ عليها كرامتها ويصون حياتها من حومان الريب والظنون ؛ روى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقت ربي في ثلاث ، ووافقتى ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فقلت « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقلت يا رسول الله : إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن بأن يحتجبن . فقلت آية الحجاب ؛ وبلغنى معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساءه فاستقرت أمهات المؤمنين واحدة بعد واحدة ، وأقول : والله لئن انتهيت وإلا ليدلن الله رسوله خيرا مكن ، هاتيت على بعض نساءه (هي أم المؤمنين زينب بنت جحش كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات) فقالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تكون أنت تعظهن ؟ ! فأزل الله عز وجل « عسى به إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا مكن » . وهذا الحديث يدلنا على أن « عمر ابن الخطاب » كان أول عقل إسلامي ، بل أول عقل إنساني فكر في المرأة ، وتنه الى مكاسها من الحياة الاجتماعية ، وأدرك بفطرته الطاهرة أن نبل المرأة في صيانتها بعيدة عن حائنة الآعين ، حتى قال فيهن : « لو أطاع فيكن ما رأيتكن عين » ولينأمل القارىء قول « عمر » لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر » فهو بهذا يتوجه الى صاحب الشريعة في شأن نساءه الطاهرات وهو يعلم أنهن أعف أسراء ولدت حواء ، ولكنه يعلم الى جانب ذلك ما يسود البيئة العربية الجاهلية من فوضى اجتماعية لا تابق بكرامة المرأة المسلمة ، ويعلم ما في الاختلاط بين النساء والرجال من بواعث الفساد والافساد ، من جوح الفرائر ، ويعلم ما في الاختلاط بين النساء والرجال من بواعث الفساد والافساد ، والاسلام كله نبل ومكارم ، فلا يليق بالمسلمة في ظله إلا أن تكون أصلح مثل للمضيئة والعفاف ؛ وأمهات المؤمنات القدوة الفاضلة للمؤمنات ، فليكن المنسل الأعلى ،

وليكن التشريع يبدأ في شأنهن ، حتى إذا علم الناس أن أشرف من مشين على الأرض أمرهن الله بالحجاب ، وأبى عليهن الاختلاط ، كان ذلك أسرع إلى قوبب المؤمنين بالرضى والقبول .

وإدراكنا قد أدركنا البحث في عبقرية عمر على مظهر الصرامة للحق ، فليس ذلك لأن تلك الصرامة كانت ترجح جانب العطف والرحمة في شخصيته ، بل لأن عمر عرف أفضل مظهر الحاكم الذي يحكم أمة ناشئة ، ويسوس دولة مترامية الأطراف ، فتجلى به ؛ وهو إلى ذلك كان أعطف الناس على الضعفاء ، وأبرم بالمساكين ، وأرحمهم باليتامى ، ولينهم فيما ينبغي . قال الشعبي : لما سمع الناس قول عمر ورأوا عمله ، ذكروا أبابكر والنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بأبي بكر ، وكان أبو بكر أعلم بـعمر ، غري أبو بكر وعمر مجرى واحدا ، وكأول يخافون من لين هذا ومن شدة هذا ، فكان أبو بكر مع لينه أقوام فيها لا توا عنه وألينهم فيما ينبغي ، وكان عمر ألينهم فيما ينبغي وأقوام على أمرهم . وروى الأوزاعي : أن عمر بن الخطاب خرج في سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز حياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدني منه كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى ! فقال طلحة : نكلك أمك طلحة ! أعترا عمر تتبع ؟ ! وأحاديثه في هذا الوادي لا تستقصيها الأسفار ، غير أنا نذكر حادثة هي أعظم ما عرف الناس في باب الرحمة والعطف القلبى ، وكأنها دستور أئمة الهدى وعلماء الأمة : روى ابن الجوزى : أن رجلا كان ذا بأس ، وكان يوفد إلى عمر لبأسه ، وكان من أهمل الشام ، وأن عمر فقدته فسأل عنه ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فدعا كاتبه ، فقال : اكتب : « من عمر بن الخطاب إلى فلان . سلام عليك ، فإني أحمده إليك الله الذى لا إله إلا هو ، فافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير » فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول : فافر الذنب : قد وعدنى ربى أن يغفرنى ، وقابل التوب شديد العقاب : قد حذرنى الله من وجل عقابه ، ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، فلم يزل يردد على نفسه ، ثم بكى وزرع فأحس التزع . فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أباكم زل زلة فسدوده ووقفوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

أما بعد : فإن الفكر الإنسانى ليس حبيسا على فنون الفلسفة ونظرياتها ، بل ربما كانت الفلسفة أصيق مجالات الفكر ، وإن كانت من أشرفها وأعماقها ؛ وجولات الفكر الاجتهادية التى يقوم عليها نظام الأمم في حكمها وسياستها وأخلاقها وقوانين معاملاتها ، من ثم جوابية واعودها على الانسانية بالنفع ، وقد كانت هذه المناحي على عبقرية « عمر بن الخطاب » وفي طريقها قاده « الفاروق » الفكر الإسلامى حتى بلغ به ذروة الخلود ؟

صادق إبراهيم عمر مجرى

التجديد في الاسلام

— ٤ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوي شريف

(١) هل يعتمد المبعوثون ، أو المجددون لهذه الأمة أمر دينها ؟

(٢) من هم المجددون في الاسلام من القرن الأول الهجري

الى الوقت الحاضر ؟

المجددون في القرن الأول : عمر بن عبد العزيز ، محمد الباقر ، القاسم بن محمد ، سالم بن عبد الله ، الحسن ، ابن سيرين ، ابن كثير ، الزهري . . .

٩ — هل يعتمد المبعوثون ، أو المجددون ؟

للعلماء أقوال كثيرة في المبعوث على رأس القرن : هل يكون واحدا أو متعددا ؟ فقال الحافظ ابن كثير : قد ادعى كل قوم في إمامهم أنه هو المراد بهذا الحديث ، والظاهر أنه يعم جملة العلم من كل طائفة ، وكل صنف من أصناف العلماء ، من محدثين وفقهاء ، ونحاة ، ولغويين ، وغيرهم .

وقال الحافظ ابن حجر : نبه بعض الأئمة على أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن مجدد واحد فقط ، بل الأمر فيه كما ذكره النووي في حديث . « لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق لا يضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتي أمر الله » من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع ، وبصير بالحرب ، وفقه ، ومحدث ، ومفسر ، وقائم بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهد ، وطايع ، ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد ، ويجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وتفرقهم في الأقطار ، ويجوز أن يكونوا في بعض البلدان دون البعض الآخر ، ويجوز إحلاء الأرض كلها من بعضهم أولا ، فأولا ، الى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا أتى أمر الله ؛ وهذا منتهى ، فإن اجتماع الصفات المحتاج الى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير تنحصر في شخص واحد ، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى بالتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ، وأما من بعده : فالإمام الشافعي وإن انصف بالصفات الجليلة ، والفضائل الجمة ، لكنه لم يكن القائم بالأمر ، ولا بشأن الجهاد ، والحكم بين الناس

بالعدل ، فعلى هذا كل من اتصف بشيء من ذلك عند رأس المائة ، فهو المراد ، تعدد أم لا .

وقال الحافظ الجلال السيوطي : روى أبو داود والحاكم عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يحدد لها دينها » قال بعض شراح هذا الحديث : ذهب بعض العلماء الى أنه لا يزم أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يكون واحدا وقد يكون أكثر ، فإن انتفاع الأمة بالعلماء وإن كان عاما في أمور الدين ، فانتفاعها بغيرهم أيضا كثير : مثل أولى الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء ، والوعاظ ، والزهاد ، وأصحاب الطبقات ، وغير ذلك ، يستفيع بكل في فن لا ينتفع بالآخر فيه ، فإذا حمل تأويل الحديث على هذا الوجه كان أولى وأشبه بالحكمة .

وقال الحافظ الذهبي : إن كلمة « من » في حديث التجديد للجميع لا للمفرد ، فنقول مثلا : على رأس الثلاثمائة ابن مريج في الفقه ، والأشعرى في أصول الدين ، والنسائي في الحديث ، وعلى الستائة : الامام الفخر الرازي في الكلام ، والحافظ عبد الغني في الحديث ، ونحو ذلك .

وقال الحافظ ابن الأثير : قد تكلموا في تأويل هذا الحديث ، وكل أشار الى القائم الذي هو من مذهبه ، وحملوا الحديث عليه ، والاولى العموم ، فإن « من » تقع على الواحد والجمع ، ولا يختص بالفقهاء ، فإن انتفاع الأمة يكون أيضا بأولى الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء ، والوعاظ ، وأنواع العلماء العاملين ؛ لكن ينبغي أن يكون المبعوث مشارا اليه في كل فن من هذه الفنون .

٢ - من هم المجددون من القرن الاول الى الآن ؟

في القرن الاول :

يرى الحافظ ابن الأثير أن مجددى الاسلام في المائة الاولى المحورية هم : من أولى الأمر : عمر بن عبد العزيز ، ومن الفقهاء : محمد الباقر ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، والحسن ، وابن سيرين ، وغيرهم من طبقتهم ، ومن القراء : ابن كثير ، ومن المحدثين : الزهري ، وهكذا .

(١) فمن هو عمر بن عبد العزيز ؟

هو الخليفة العالم ، والامام المجتهد ، الورع ، الزاهد ، المتواضع ، البعيد عن الزهو والكبرياء ، التزبه العفيف ، المصلح ، المجدد ، جامع مكارم الاخلاق ، الذي ملأ طباق الارض عدلا ، والذي أجمع المسلمون على أنه المبعوث على رأس المائة الاولى ليجدد للأمة أمر دينها ، مصداقا لحديث التحديد ، والذي أجمع العلماء قاطبة على أنه من ثمة العدل ، وأحد الخلفاء

الراشدين ، والأئمة المهديين ، الذين عدهم سفيان الثوري فقال : الخلفاء خمسة . أبو بكر ، وصهر ، وعثمان ، وعلي ، وصهر بن عبد العزيز ، والذي فصله مالك بن زياد على نفسه في الزهد فقال : يقولون . مالك زاهد ، مالك زاهد ، أي زهد عدي ؟ إنما الزاهد صهر بن عبد العزيز ، أنه الدنيا فاعرة فأعرض عنها وتركها ، وسأل امرأته يوما أن تقرضه درهما يشتري به عتيا فلم يجد عندها ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ فقال لها : هذا الحرمان أيسر من معالجة الأغلال غدا في جهنم .

ولم يكن زهد صهر من النوع المعروف ، من لزوم الرجل كسر الحائط ، وهو غريق في لعبه ، حار عن بعض ثيابه ، جامد الفكر ، لا يتعدى إنصافه موضع قدميه ، فهذا إلى البله والعته أقرب ، ولكنه كانت الدنيا عنده في كفة ، والآخرة في كفة ، يزن من هذه هذه ، ويوزع في دنياه ما يجزى بخيره في آخرته . ومن فضائل صهر أنه كان دائما يجالس العلماء ، ويطلب عظائهم ، حتى إنه قال يوما لعالم : عظمي ، فقال له عليك بقول الشاعر .

تجرد من الدنيا فانك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

من أين اكتسب صهر هذه المكارم ؟

والناس يتساءلون : ممن اكتسب صهر هذه الفضائل ، حتى صار مثلا أعلى في نبل الأخلاق وسموها ، مع أنه نشأ في بيت الترف ، والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان ؟ ومن حقق النظر وجد أن صهر أرسله والده إلى المدينة صغيرا ، فربى فيها بين علمائها وصلحاءها ، فاكسب منهم حسن الخلق ، ومحبة الأمة ، والعفة في أموالها ، والزمانة بها ، والوفاء لها ، وحسنه أن يكون من شيوخه بها أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وغيرهم ، أضف إلى هذا صفاته الموروثة من جده الفاروق صهر بن الخطاب ، فإن صهر بن عبد العزيز أمه ليلت حاصم بن صهر بن الخطاب ، وكان يقال لصهر بن عبد العزيز : أشج بن مروان ، فقد ضربته دابة في جبهته وهو غلام ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : « إن كنت أشج بن مروان إنك لسعيد » . قال ذلك لأن جده صهر الفاروق كان يقول : « من ولدي رحل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا » . ومن المأثور : « الناقص والأشج أعداء بني مروان » أي أنهما العادلان ولا عدل في غيرهما .

كيف ولي صهر الخلافة ؟

كان سليمان بن عبد الملك من خيار خلفاء الأمويين ، وكان يؤثر دينه وأمنته على نفسه ، فإنه لما مرض ونحس بدنو أجله كتب عهدا يستخلف فيه صهر بن عبد العزيز من بعده ، ولقد آثره على أولاده وعلى أقاربه ، وفيهم من يصلح للخلافة ، والقواد العظام الذين أولوا البلاء

الحسن في الحروب ؛ ومنهم داود ابنه ، ومسلمة بن عبد الملك ؛ ولكنه رأى أن حقوق أبنائه وأقربائه أقل عنده من حقوق المسلمين التي جعلها الله في عنقه ؛ ولذلك اختار للخلافة صفوة أهل زمانه ، وسلمها لخير أهل عصره وهو عمر بن عبد العزيز ؛ ولما علم عمر باستخلافه استاء من ذلك استياء عظيماً ، واسترحم ؛ ولما سلموا عليه بالخلافة وهو بالمسجد ، عُقر ولم يستطع النهوض ، فأخذوا بيده وأصعدوه المنبر ، فجلس طويلاً لا ينكسر ، وبعد أن تمت بيعته ألقى الخطبة الآتية :

« أيها الناس : إني لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني لست بقاضٍ ولكني منفذ ، ولست بمستدعٍ ، ولكني مَنبُح ، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً ، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق » .

ولقد وثق على الولايات من هو أصابح لها ، فانتظمت الأمور واستقامت الأحوال ، ولقد كان عمر لا تأخذه في الحق لومة لائم ، فقد دخلت عليه أشراف بني أمية يسألون لم يملأ ، فأبى ، وقال : أتم عندى وأقصى رجل من المسلمين في هذا الأمر سواء أقبل رأيتم عدلاً كهذا ؟

وانظر كيف كان عمر يعامل صحابه ، فقد كتب إليه الجراح بن عبد الله يقول : « إن أهل خراسان ساءت أخلاقهم ، وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأتى في ذلك ، فعل ، ورأيه الموفق ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر به أن أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم ، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسم ، فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق ، فأبسط ذلك فيهم ، والسلام »

ماذا كانت حال عمر قبل الخلافة وبعدها ؟

كان عمر قبل أن يلى الخلافة شديد التمتع ، فلما وليها خرج مما كان فيه من النعيم والمال كل والملبس والمتاع حتى الفناء ، وصار في غاية التقشف والزهد ؛ وكان دخله أربعين ألف دينار ، ورد ذلك كله الى بيت المال ، وخصص لنفسه يومه درهمين ، ثم صار يلبس القميص القليل ولم يتعد الواحد ، فكان إذا غسوه يمسك حتى يجف ، ويأكل القليل من الطعام ، ورد جميع المظالم لبيت المال ، حتى إنه رد ما كان لزوجته (وهى فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان) ، ورد فص خاتم كان في يده قال أعطانيه الوليد بغير حق ، وقد قالت زوجته : إنه يكون في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة ، فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس ويبكى ، وهى تقول : « ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ! »

ما ذا حصل عمر من التجديد والاصلاح ؟

- لعمر بن عبد العزيز من التجديد والاصلاح ما سجله التاريخ وهو كثير ، منه :
- (١) أنه أول من عمل على جمع السنة النبوية وتدوينها ، فكان في ذلك حفظها ؛ وهذا حصل مبكر نافع ، كعمل أبي بكر الصديق في جمع القرآن الكريم .
- (٢) أنه رد المظالم لاهلها ، وأبطل المغارم والصرائب الكثيرة التي استحدثت قبل عهده .
- (٣) أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل ، أو قطع ، إلا بعد أن يمرض عليه ويراجعه ، وقد كانت الدماء قبله تراقى على حسب هوى الأمراء من غير حساب .
- (٤) أنه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام - وقد كانت سيرته بلغتهم - فأسموا وتسموا بأسماء العرب .

(٥) أنه أول من أنشأ في البلاد الاسلامية دورا للضيافة من الخلفاء ، وأول من فرض لإنشاء السبيل ، فقد كتب الى سليمان بن أبي السرى : أن اصنع خانات ، فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة ، وتمهدوا ذواهبهم ، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعا فأبلغه بلده .

(٦) أنه جمع كلمة الأمة بإبطال سب على بن أبي طالب على المنابر ، وقد كان بنو أمية يفعلونه ، فتركه عمر وكتب الى الأمصار بتركه ، ووضع مكان ذلك قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . فهو أول من قالها عقيب خطبة الجمعة ، واستمر الخطباء على قراءتها على المنابر للآن ، وبذلك رفع الشر ووضع مكانه الخير ، ومن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .

(٧) أنه كان يشتري البلاد من أعدائه بأسراهم ، كما اشترى ملطية من الرومان بمائة ألف أسير كانت لديه منهم ، وصارت من مدن الاسلام المهمة .

(٨) أنه سن السنة الحسنة بإبطاله ما كان يعمل من الاحتفالات (الزفات) عند تولي الخليفة ، فانه لما تمت له البيعة ، أتى بمراكب الخلافة كالعادة ، من البرازين ، والخليل والبنغال فقال لهم : ما هذا ؟ فقالوا : مراكب الخلافة . فقال : ذاتي أوفق لي ، وركها ؛ فصرفت تلك الدواب وأبطلت عادة (الزفات) ؛ ودعوه للجلوس في بيت الخلافة ومحل الحكم فأبى ، وقال : في منزلي الكفاية .

(٩) أنه وسع على الموظفين في مرتباتهم قطعا للرشوة ، ولاستقامة المال ، فكان يعطى العامل بحسب عمله : من مائة دينار ، الى مائتين ، الى ثلاثمائة ، فإذا كان الدينار نصف جنيه

مثلا ، فيكون عمر كاف يعطى مما له مرتبات لا تقل عما يعطى الآن لكبار الموظفين في مصر وغيرها .

(١٠) أنه أماد سيرة اطلقاء الراشدين الذين كانوا يعبدون عن كبرياء الملوك وجبروتهم ، والذين كانوا ينظرون الى أمتهم بنظر الاب النار ، ويمدنون بينهم في الحقوق ، ويمنفون عن أموال الرعية ، ولا يعرفون غير العدل والحرية والإخاء والمساواة ؛ والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها ، وكان يتكشف في ملبسه كجده عمر بن الخطاب .

شيء من أقوال العلماء في عمر :

قال أس بن مالك : ماصليت وراء إمام قط أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر ابن عبد العزيز . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه . وقال ميمون ابن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلاميذ ، وهو معلم العلماء . وقال الامام أحمد ابن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز . هذه قطرة من بحر مما قاله لعلماء في عمر بن عبد العزيز ، وليس هنا الآن محل استيعاب كل ما قيل فيه .

شيء من كلمات عمر :

قال : من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربا ؛ يرفع الينا حاجة من لا يستطيع دفعها ، ويعيقنا على الخير بجهده ، ولا يغتاب أحدا ، ولا يتعرض لما لا يعنيه ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي اليه . وقال : إن كانت الناس لا يصلحها الحق فلا أصلحهم الله . وقيل له : هؤلاء بنوك — وكانوا اثني عشر — ألا توصي لهم بشيء فاتهم فقراء ؟ فقال : إن ولى الله الذي لا إله إلا هو ، وهو يتولى الصالحين ، والله لا أعطيهم حق أحد ، وم بين رحلين : إما صالح فآله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فأكنت لأعينه على فسقه .

ولادته ووفاته :

ولد عمر بخولان بمصر حينما كان والده واليا عليها ، واختلف في تاريخ ميلاده ، فقيل إنه ولد سنة ٥٩ أو ٦٠ أو ٦١ أو ٦٢ ، وتوفي سنة ١٠١ هجرية . ومن أسباب وفاته أن بني أمية تألبوا عليه لكرهاتهم له لأنه ضيق عليهم الخفاق ولم يتركهم يستقلون ضعف الضملاء ، فهدسوا له السم في الطعام أو الشراب بواسطة مولاه ، وأعطوه على ذلك ألف دينار ، فلما مرض وأخبر بأنه مسموم ، استندعى مولاه ، فقال له : ما حثلك على ما صنعت ؟ قال : ألف دينار ، فقال : هاتها ، فأحضرها ووضعها عمر في بيت المال ، وقال لمولاه : اذهب فلا يراك أحد .

ولما احتضر صرف من حوله ، فخرجوا ، وجلس على الباب مسلة بن عمه ، وفاطمة زوجته ، فسمعا يقول : أهلا بهذه الوجوه ، ليست وجوه إنس ولا جان ، ثم قرأ : « تلك

الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين ، ثم انخفض الصوت ، فدخلوا ، فإذا به قضى نحبه ، رضى الله عنه .

(ب) ومن هو عبد الباقر ؟

هو ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . لقب بالباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع فيه ، وهو أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية ، أو الإمام الخامس من نعمة الشيعة الإمامية ، ولد بالمدينة سنة ٥٧ ، وكان عمره يوم قتل جده الحسين ثلاث سنين ، وتوفي سنة ١١٤ ، روى عن أبيه ، وابن عمر ، وغيرهم ، وكان عالما كبيرا ، سيد بني هاشم في زمانه .

(ج) ومن هو القاسم بن محمد ؟

هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، رثه عنه عائشة أم المؤمنين ، وروى عنها وعن جماعة من الصحابة ، وروى عنه جماعة من كبار التابعين . كان أفضل أهل زمانه ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ومن سادات التابعين . قال يحيى بن سعيد : ما أدركنا أحدا تفصله على القاسم بن محمد . وقال مالك : كان القاسم من فقهاء هذه الأمة . وقال ابن عيينة : كان لقاسم أعلم أهل زمانه . وقال عمر بن عبد العزيز : لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت القاسم . توفي سنة ١٠٦ هـ .

(د) ومن هو سالم بن عبد الله ؟

هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ، من سادات التابعين ، وأحد فقهاء المدينة ، روى عن أبيه وغيره ، وروى عنه الزهري وناقع وغيرهما ، دخل سليمان بن عبد الملك الكوفة فرأى سالما ، فقال له سلى حوائجك ، فقال : والله لا سألت في بيت الله غير الله ! وقال مالك : لم يكن أحد في زمان سالم أشبه منه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل ، وكان على صمت أبيه وعدم رفايته . توفي سنة ١٠٦ أو ١٠٨ هـ .

(هـ) ومن هو الحسن ؟

هو الحسن البصري ، من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن : من علم وفصاحة وزهد وورع وعبادة . قال ابن سعد : كان الحسن كبير العلم ، رفيعا ثقة ، حجة ، مأمورا ، ناسكا فصيحيا جيلا ، وسيما ، وهو أحد الصادعين بالحق الذين لا يخشون في الله لومة لائم . وكان أبوه مولى زيد بن ثابت ، وأمه « خيرة » مولاة « أم سلمة » زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، ورعا ثابت أمه فيبكي ، فتعطيه أم سلمة رضى الله عنها ثديها ، ويرون أن حكمة الحسن وفصاحته من بركة ذلك . قال أبو عمرو بن علاء : ما رأيت أفصح من الحسن ومن الحجاج بن يوسف ، فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن . ولما ولي ابن هبيرة العراق

استدعى الحسن وابن سيرين والشعبي وقال لهم : إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله وقد ولاني ماترون ، فأترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقيّة (١) فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً ، فيزيلك عن سرورك ، ويخرجك من سعة قصره ، إلى ضيق قبره ، ثم لا ينحك إلا صمك يا ابن هبيرة : إن تعص الله فأعما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركن دين الله وعباده بسلطان الله ، ألا لا طاعة لخلق في معصية الخالق ! ولد الحسن بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ

(و) ومن هو ابن سيرين ؟

هو عبد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، روى عن مولاه أنس ، وعن أبي هريرة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم ، كان فقيهاً إماماً غزير العلم ، ثقة ثبتاً علامة في التعبير الرؤيا ، وأساس في الورع ، قال مورق المحلى : ما رأيت أحداً أوفقه في ورعه ، ولا أوفقه في فقهه من ابن سيرين . توفي سنة ١١٠ بعد الحسن بمائة يوم .

(ز) ومن هو ابن كثير ؟

هو عبد الله بن كثير ، أحد القراء السبعة ، وقاضى الجماعة بمكة ، ومن الطبقة الثانية من التابعين ، وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً ، أبيض اللحية طويلاً جسيماً ، أسمر أشمل المينين ، وكان كثير السكنية والوقار ، ويخضب بالحناء . وكان مولى عمرو بن علقمة الكناني ، ولد بمكة سنة ٤٥ هـ ولقى بها عبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ، قال ابن عباد : لم يزل عبد الله ابن كثير هو الإمام المجتمع عليه بمكة حتى مات سنة ١٢٠ هـ

(ح) ومن هو الزهري ؟

هو محمد بن مسلم ، المعروف بابن شهاب الزهري ، ولد سنة ٥٠ هـ وحدث عن عبد الله ابن عمر ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم . قال عمر بن عبد العزيز : لم يبق أحد أعلم لسنة ماضية من الزهري . وقال مالك : بقي ابن شهاب وماله في الدنيا نظير . وقال الليث بن سعد : ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري ، يحدث في الترغيب ، فنقول لا يحسن غيره ، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك . توفي سنة ١٢٤ هـ

السيرة هفتي

(١) التقيّة : قول فيه سياة وسفر عن الادى .

معترك المذاهب الفلسفية

ما هو الضمير الأدبي وهل هو غريزي أم لا

الضمير الأدبي شعور ماضى فى الإنسان يشهد على ما يفعله هو أو يفعله غيره إن كان خيراً أو شراً ، وهو الذى نُعبر عنه فى القرآن الكريم بالقلب ، والضمير والقلب لغة بمعنى واحد . قال الله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال : « فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور » أى تفسد بغلبة الأهواء عليها فيستوى عندها الحسن والقبيح ، والخير والشر .

وبناء على هذا فوظيفة الضمير هى ما يحسه كل إنسان فى نفسه عند ما يترع فى قول أو عمل من الحكم على ما هو شائع فيه ، إن كان خيراً موافقاً لقانون الأدب ، والعرف الإنسانى ، أم مخالفاً لهما . والمشاهد أن هذا الحكم لا يتجاوز حد الشهادة ، فليس فيه صفة الإلزام . فقد يشهد عليه ضميره بأن ما ينتوى عمله شرفياً ، وأن تقيضه خير فيمنع عنه ، مصراً على الإساءة . فالضمير الأدبى والحالة هذه فى حاجة إلى قوة تنفيذ تكبح الإنسان عن عصيان ضميره ، وهى لا توجد إلا فى النفوس العالية التى يقوم فيها مجرد الشعور بحساسة الإساءة مقام الوازع المادى ، فلا يصدر عنها إلا ما يشهد بحسنه ضميرها الأدبى .

ما هو الضمير الأدبى وكيف نشأ فى الإنسان ؟

انقسم علماء النفس فى كنهه ، وفى كيفية نشوئه فى الإنسان إلى ثلاثة مذاهب :

(أولها) أنه شعور غريزي فى النفس البشرية ، أى موهوب وليس مكتسب .

(ثانيها) أنه وجه من وجوه العقل .

(ثالثها) أنه ثمرة التجربة والتمرس بشئون الحياة .

١ — مؤيدى المذهب الأول أن الحكم الأدبى الذى يشعر به كل إنسان فى ضمير نفسه ، أمراً إياه المعروف ، وناهياً له عن المسكر ، ومشيراً عليه بما يجب أن يفعله ، هو صوت حاسة غريزية فى النفس ، نشأت ملازمة لها بالفطرة ، مثلها كمثل مامتنعنا من خاصة النفرة بين الطعوم المختلفة ، والتبيز بين الخير والشر . وكما تلازم حواسنا الجنائية دوافع تدفعنا لا يشار الحلو النافع على المر الضار ، كذلك تلازم الضمير الإنسانى عوامل تسوقنا لتفضيل الأفعال الطيبة على الأفعال السيئة .

بناء على هذا المذهب يكون حكم الإنسان على ما هو خير وما هو شر ليس متزلاً عن

تعقل سابق ، أو عن تجربة متقدمة ، بل عن شعور اضطرارى طبيعى موحود فى النوع البشرى من أول وجوده .

يمزى هذا رأى الى الفيلسوف الانجليزى شيفتسبورى المتوفى سنة (١٧١٣) .

٢ — مؤدى مذهب العقلين أن الضمير الانسانى نعمة من نعمات العقل . فان الانسان متى عقل أن فصلا من الافعال سوى الأثر على فاعله وعلى مجتمعه ، سقطت منزلته فى نفسه وكرهه ؛ وأن فصلا آخر حسن الأثر فى نفسه وفى جماعته التى يلتصق اليها ، ارتفعت قيمته فى نظره وأحبه ، فيتألف من مجموع هذه المدركات شعور قوى فى نفسه يعبر عنه بالضمير الأدبى . وبناء على هذا فيكون الضمير الأدبى فى الانسان مجموع أحكام عقلية مستفادة من الشئون الحيوية .

٣ — أما مذهب الذين يقولون بأن الضمير الانسانى ثمرة التجربة والتمرس بأمور الحياة ، فان له ثلاثة أشكال :

(أولا) أن الضمير الأدبى ثمرة التربية والعرف .

(ثانيا) أنه نتيجة تشارك الأفكار والنمود .

(ثالثا) أنه أثر من آثار ناموسى التطور والوراثة .

مؤدى الشكل الأول : أن الضمير الانسانى يميز الخير من الشر على مقتضى ما تلقنه من أبويه ، ومن المجتمع الذى يعيش فيه . ودليل القائلين بهذا رأى من أمثال الفيلسوف الانجليزى هوبز وهلفيتيوس ، أن الحيور والشرور كثيرا ما يختلف عند الأمم . فلو كانت صادرة عن غريزة طبيعية ، أو عن حكم عقلى ثابت ، لما اختلفت الى هذا الحد .

ومؤدى الشكل الثانى : أن الضمير نتيجة تشارك الأفكار والنمود ، والعامل الرئيسى فيه هى قيمة النفع العائد على الانسان من أعماله ، وتأثيرها فى تحسين أحواله .

وقد فسر القائلون بهذه النظرية ، وعلى رأسهم الفيلسوف الانجليزى ستوارميل ، كيف ينشأ الضمير الأدبى فى الأفراد ، فقالوا - لا يخلو أى مجتمع من قوة وازعة تسهر على الأمن العام ، وعلى الفصل بين المتنازعين ، وعلى الهيمنة على حفظ كيان الجماعة ، فهى لائى فى الهى عن الرذائل ، وعن الأمر بالفضائل ، ولا تألو جهدا فى ماقبة المجرمين ومكافأة المحسنين . ولا تنس ما تصادفه الرذيلة من ذم الناس وتشنيمهم ، والقدح فى أهلها وتحقيرهم ، وما تجده الفضيلة من ثناء الناس وتقديرهم ، ومدح أهلها وتبجيلهم . كل هذه المؤثرات ولدت فى قلوب الناس إكبارا للفضيلة ، واحتقارا للرذيلة ، أصبح بالتمرس به طبيعة ثانية فى النفوس البشرية يتوهمها الخيالون منتزة من العالم العلوى ، وما هى إلا ثمرة ما ذكرناه هنا من العوامل .

أما مؤدى الشكل الثالث فهو أن الصمير الانساني ثمرة من ثمرات ناموسى التطور والوراثة ، فمعد هؤلاء العلماء وعلى رأسهم دارون وبوختر وهلسكى أن العالم وما فيه من الواميس قائم على نظام آلى محض ، وكل ما فيه خاضع لهذا النظام لا يشذ عنه ، لجميع الكائنات البسيطة والمركبة ، حتى الحياة والقوة العاقلة ، من صنعها ، وقد صدرت لا عن تدبير وقصد سابقة بل عنها ، ولكن عن الاتفاق المحض ، وإنما جاءت محكمة ومناسبة ، لأنها نشأت عن قوى منتظمة لا يتعرب اليها أقل اختلال ، وما كانت كذلك فلا يعقل أن يصدر منه إلا كائنات منتظمة .

والصمير الأدبى لا يشذ عن هذه القاعدة ، فليس هو بشئ قائم بنفسه ، ولا بمنزل من عالم أرفع من هذا العالم ، ولكنه من متولداته كالروح والعقل وما نشأ منهما من العلم والحكمة والعبقرية .

والصمير الأدبى فى نظرم بدأ تولده فى الحيوان ، فان الحاجة الحيوية حتمت عليه القيام على نظام خاص فى معيشته ، وأورث هذا النظام أخلافه ، وكلما ترقوا فيه وصار فيهم صفات راسخة ، وأورثوه ذرائعهم ، حتى نشأ الانسان فكان حاصله على ما ورثه من آباءه الحيوانيين . وما أنه أوتى حظا من انتظام الجمجمة وتناسب الاعضاء ، تابع طريقه فى الارتقاء تحت هوامل النواميس ، فوصل الى معقولات أولية ، وأصول أدبية اضطرارية لا اختيارية ، وأورثها أخلافه ، وما زال يترقى ويورثهم صفاته المكتسبة ، حتى تكون لهم ضمير أدبى ظنه للفلاسفة هبة سماوية ، وهو فى الواقع من إملاء الحاجات عليه فى آماد لا تحصى ، فظنوا اليه فى حالته الراقية ، ولم ينظروا اليه أيام كان لا يفترق عن ضائر القردة وما دونهم من الحيوانات .

تحليل هذه المذاهب والنظر فى أدلتها :

قبل أن نكتب كلمة واحدة فيما نحن بصدده يجب علينا أن ندحض شبهات أصحاب نظرية التطور والآلية الوجودية ، فان هذا المذهب وإن خدع بسهولة بعض العقول ، فانه قد تبين لأهل العلم فسادة بأدلة لا تقبل النقض ، ولزم أشياعه السكوت .

يسهل على الباحث السطحي أن يشبه العالم وما فيه من القوى بأداة مولدة للكائنات على سبيل الاتفاق والخط ، ونحليتها بكل ما هي فى حاجة اليه تحت تأثير الضرورة القاهرة ، ولكنه يصعب بل يستحيل عليه أن يعقل ذلك أو يقيم عليه شبه دليل ، لا بناء جميع عناصره على افتراضات .

لقد كفانا العلماء مؤنة دحض هذا المذهب ، ونقلنا مقالات ضافية من بحوثهم فى أعداد سابقة من هذه المجلة . وقد ذكرنا فيها أن الاتجاه العلمى تحول الى ناحية مذهب العلامة دوفريس الهولاندى ، الذى ثبت عمليا فى العهد الحديث ظهور الأنواع الحية الجديدة ، خاصة على جميع مقوماتها وغرائزها ، طفرة ، فسقط بذلك قولهم بضرورة التطور فى الآماد الطويلة ،

وبنشوء التراث بالتعود ، وتوريثها للأحلاف ، ويزوال هذين الأصلين ما ذا بقي من نظرية التطور التدريجي ، ومن معنى الانتعاب الطبيعي ، ومن رأيهم في نشوء التراث ، وفي وراثة الصفات المكتسبة ؟

الهم لم يبق شيء أصلاً .

وبشئ حدوث التراث المهيمة للمقل الحيوانات الحفيرة ، هبة بدون كسب ، يسهل تصور أن يُسمح للإنسان ضميراً أدبياً هبة من مبدعه بدون كسب ، لأنه من ضرورياته في درجة حواسه الخمس .

لاجرم أنه يصعب جداً على الإنسان أن يعتقد بأن الصانع جل شأنه يلهم الحشرات الدنيا بوسائل يستحيل عليها تحصيلها لحفظ ذواتها وأنواعها ، ولا يودع في قلب الإنسان غريزة أدبية يميز بها الحسن من القبيح ، والخير من الشر ؛ فالعلاسة الذين قالوا بهذا الرأي هم في نظرنا على حق ؛ ولكن هل لدينا من دليل على ذلك تكافح به في سبيل تثبيت هذه العقيدة في النفس ؟

نعم ، وهو دليل محسوس لا يترك ريباً في النفس . ولا طريق إليه إلا بعد إيراد المناقشات التي تشور طادة حول هذا الموضوع :

مناقشات فلسفية حول الضمير الأدبي للإنسان .

تتضمن شبهات الماديين على فطرية الضمير الأدبي للإنسان في ثلاثة أمور :

(أولها) أن ليس للجماعات المنحطة ضمير أدبي على الإطلاق .

(ثانياً) أن الضمير الأدبي في الجماعات التي اجتازت أدوار الاجتماع الأولى يوجد مناسبات لحالتها الأدبية ، وهو يخالف في كل منها ما عليه في غيرها . فأتعده جماعة واجبا تعده الأخرى جرماً ، وما تعده الأولى حسناً تعده الثانية قبيحاً . فهو يتطور في كل منها على حسب تغير الزمان والمكان والاختبار .

(ثالثاً) أن الضمير الأدبي متناقض عند الأمم المتقدمة .

ونحن نتأقش كل شبهة من هذه الشبهات بغية الوصول إلى حقيقة ثابتة يتلج الصدر عليها فنقول :

١ — إن عدم وجود الضمير الأدبي عند الجماعات المنحطة التي لا تمتاز كثيراً عن الحيوانات المعجم ، لا يدل على أنه ليس موجوداً فيها بالقوة ، كما لا يدل عدم وجود الفلسفة لديها أنها ليست موجودة لديها بالقوة . وإذا كان لا يجرؤ على القول الأخير إنسان يعتقد بعقله ، فكان يجب أن لا يجرؤ أحد على القول الأول . وإلا فهل كان يريد أن يكون الرجل الذي لا يفرق عن

المجاثوات إلا في التلغظ بضع عشرات من الكلمات الساذجة ، ومضطر لأن ينقل عنها ما تصنعه من بيوتها التي تأوى إليها ، ووسائلها التي تستخدمها للحصول على فرائسها الخ ، وهو مع ذلك مهدد في كل آونة من وجوده بفارات الوحوش ، وعاديات الطبيعة ، هل كان يريد المعترض أن يكون لمثل هذا الرجل ضمير أدبي كالذي عند من أمن على نفسه وذويه ، وبلغ غاية بعيدة من العلم والوسائل الحيوية ، وماذا يفيد ذلك الضمير لو كان له وهو في تلك الحالة المزعجة ، والحياة المضطربة ؟

ولكن قد يكون لهذه الشبهة وزن إن ثبت عن هذا الرجل أنه لست على حاله الأول مجردا من الضمير الأدبي بعد أن أمس شر الموادى عليه وعلى أهله ومجتمعه ، وبعد أن وصل إلى حالة من الرخاء والنظام الاجتماعي تسمح له بالانتفاع بما أودع في جبلته من المواهب الأدبية ، والصفات العلوية ، وهذا لم يحدث قط .

٢ - أما ما يشاهد من الخلافات بين الأمم في الضمير الأدبي لسلك منها ، على حسب تباينها في البيئات ، وتحالفها في شئون الحياة ، فهذا أمر طبيعي لا يمكن أن يحدث سواء . فمن الذي قال إن الإنسان خلق حاصلا على جميع ما هو في حاجة إليه من علم وأدب وصناعة وفن ؟ أما رأيت أن كل هذه الشئون الضرورية لوجوده قد نشأت فيه بشوا تدريجيا ، واختلفت في كل منها مما هي عليه في غيرها على حسب اختلافات بيئاتها ، وتباينات أحوالها ؟ فهل يسوغ لمن يرى الشعوب على هذه الحالة من الخلافات العلمية والأدبية والصناعية والفنية أن يقول إنها مجردة من الأصول الجيلية التي تولدها ؟

وهل عند ما قال الاجتماعيون إن الإنسان مدنى بطبعه ، رادوا بذلك أن توجد الجماعات الساذجة على أرقى الأصول الاجتماعية ، من درجة التي تشاهد لدى أرقى الأمم الأوروبية ؟

وهل قدح في هذا الأصل العلمي وجود جماعات أولية على مثل ما عليه الحيوانات المحم من الفرفة والتشتت ، بحيث ظنهم كثير من العلماء من أنواع القردة المرتقية ؟

٣ - أما ما يشاهد من الخلافات في الضمير الأدبي لدى الأمم المتقدمة ، فلا يقدح في وجوده فطريا في النفس البشرية ، كما لا يقدح اختلافها في أصول الاجتماع ، وأصول الحكم ، واختلافها في المذاهب الفلسفية ، والمثل العليا الفنية . فإذا كان لا تؤثر هذه الخلافات السياسية والاجتماعية والفلسفية والفنية في أن الإنسان مفعور على الاجتماع ، وعلى إقامة حكومة ، وعلى النظر في السكون ، وعلى العاطفة الفنية ، فكذلك لا تؤثر خلافاتها في الضمير الأدبي في أن الإنسان مجبول عليه من أصل الخلقة .

على أن هذه الخلافات الضميرية بين الأمم لا تعدو الأمور العرضية ، أما الأصول الرئيسية فلا يوجد عليها خلاف ألبتة فلا خلاف في وجوب إقامة العدل بين الناس قطعا لذرائع الانتقامات

بينهم ، وفي إسعاف المرضى بالملاح ، وتدارك الطفولة بالتربية ، واليتم بالكفالة ، والعجز بالايواء ، والمهلوف بالاناقة .

وإذا كان الضمير الأدبي وهما من الأوهام ، فلماذا افتخر للناس قديما وحديثا بأعمال البر ، وتظاهر بها من ليس من أهلها ، وثبارى فيها أولو الجاه والثروة حتى بلغ ما دفعه بعضهم زيادة عن مائة مليون من الجنيهات ، كما يروى عن المثرين الأمريكيين كارنجي وروكفلر وغيرهم ؟ ولماذا لم تقض المدنية ، والضلالة في المعلوم والفلسفة ، على الضمير الأدبي كما قضت على أوهام إنسانية كثيرة ، بل زادت ثقلها بالنفوس ، وتسلبا على القلوب ؟

لقد قام في العالم الإنساني في العهد الأخير غلاة من الاشتراكيين ، ارتأوا أن أصحاب العاهات أسباب وهن في المجتمعات ، فيجب إبادتهم وإبادة من يحد منهم ، حتى لا يكونوا عبثا ثقيلا عليه . هذا رأى من الوحة العلمية البحتة صحيح ، ولكنه من الوحة الإنسانية التي يتحكم فيها الضمير الأدبي لا يمكن إساغته ، ولذلك هدت الإنسانية هذا القول هراء محض ، وأزرت بقائله واعتبرتهم غير جديرين بالاحترام ، فصمتوا في وسط سحق العالم وسخريته .

وإليك ما هو أعظم دلالة على سلطان الضمير الأدبي من هذا : ذلك أن من الأمراض ما هو عسل لا يرجى له شفاء ، ويكون صاحبه عرضة لآلام مبرحة لا تحتمل ، يضطر معها للتسكين بالمخدرات ، فارتأى بعض الأطباء إراحة هؤلاء المرضى الميتوس منهم بالقضاء عليهم . فلم يرجع الضمير الإنساني إلى هذا الحل وطاوع فيه جمهور الأطباء وإن كان الداعي إليه إراحة المرضى أنفسهم .

وقد ازداد الضمير الإنساني صموا حتى امتد على عالم الحيوانات ، فأصبح لناس لا يطيقون أن يروا حوزيا يحمل عربته فوق ما تطيقه البهيمة التي تجرها ، فوضعوا لذلك عقوبات رادعة ، وعينوا رجالا يراقبون الحيوانات العاملة حتى إذا رأوا في دابة جرحا ، أو آتسوا في مشيتها ظلما ، أو في جسمها نحولا ، قادوها إلى المستشفى الخاص بالحيوانات وعملوا على معالجتها .

ومما هو ذو دلالة عظيمة في هذا الباب أن الأمم المتقدمة قررت منع تشريح الحيوانات وهي حية ، لرؤية أعضائها الصدرية والبطنية وهي تعمل ، إشباعا للشهوة العلمية . وقد كان هذا التشريح سببا للوقوف على معلومات تفصيلية في الدورة الدموية والحضم وحمل المصاراات المختلفة ، ولكن الضمير البشري رأى أن يستغنى عن هذه المعلومات التفصيلية ، إذ لم يطق أن يسمح بحدوث مثل هذه القسوة ، وحمل الحكومات على تحريم هذا النوع من البحث العلمي .

لوكالت اختصت بهذه الصفات النفسية العالية أمة دون أمة ، فقلنا إنها من باب التألق

في التنظرف المدني، ولكننا نراها عامة في النشوع البشرى، وإنما زادتها المدنية والثقافة العلمية قوة .

ولعلنا نظرف القراء بما يسرفهم إذا ذكرنا لهم أن الاسلام سقى العالم كله فى رفع مستوى الضمير الانسانى، وإكبار شأنه، والعمل على إبلاغه السمو الذى هو أهل له .

فأما مادما اليه من العطف على الضعفاء، والرحمة بالمرضى، والحذب على اليتامى، والرفق بالأسرى، فلا سبيل الى حصره، وقد تجلّت آياته فى القرآن كله . ولكن الذى ننبه اليه أن الاسلام سبق المدنية الأوروبية فى تسرية مهمة الضمير البشرى على العالم الحيوانى أيضا، بأكثر من ألف سنة . فقال صلى الله عليه وسلم : « لو غفر لكم ما تأتون الى البهائم لغفر لكم كثير » وقال : « إن الله يرحم عبده المؤمن برحمته المصنوع » وقال : « لعن الله من مثل بالحيوان » والمراد بالقتيل به بتر أعضائه وقتله على هذه الصورة، واللعن من أشد العقوبات الإلهية . وقال « اركبوا هذه الدواب سالمة، واتدهوها سالمة، ولا تنخذوها كرامسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها » الحديث . وقال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت » .

وقد زاد الاسلام محموا على كل ما رأيته من سمو الضمير الانسانى فى العالم المتقدم، فنهى حق عن لعن الحيوان، كما اعتاد الناس أن يفعلوه عند ما يستعصى عليهم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تلعن إنسانا ولا دابة فترجع اللعنة إليكم » . وكان صلى الله عليه وسلم على سفر فى بعض أصحابه، فلعن واحد منهم راحلته، فكره رسول الله ذلك ومنعه من ركبها عقابا له .

كلمة ختامية :

إذا كان شأن الضمير الأدبى من الحياة الانسانية هو ما رأيته، فمن الذى يجبرؤ أن يدعى أنه مادى بحت، وأنه لا صلة له بعالم أرفع من العالم الأرضى .

وصكيف يمكن أن يدعى أنه لا أصل له غير الحاجة الحيوية، وأنت ترى أنه قد تعدى فى تطوره منطق تلك الحاجات الى مناطق أرفع منها، لا تدور إليها حاجة الاجتماع، وأنه أصبح واحدا فى جميع فلسفات العلم المتقدم، حتى فلسفة الملاحظة ؟

إذا لم يكن للانسان وراء الشعور بحاجاته المادية، عاطفة أرق منها لها حاجيات من نوعها تتطلب توفيتها، فكيف يعقل أن يتعدى هذا الشعور المادى طوره، فيصل الى آفاق أعلى مما لم يخلق له، آفاق يمدّها الماديون الذين ينكرون الضمير الفطرى ضارة به، وممثلة لتطوره، كإثارة الفقر على الفنى، والزهد فى متع الدنيا، والعزوف عن الشهرة وبمد الصيت، والعزلة لبلوغ الدرجات الروحية العالية ؟

يعز على أصحاب الفلسفة المادية أن يعترفوا للإنسان بضمير فطري هرباً من عزوه إلى أصل روحاني فوق المادة ، وهم لا يعترفون بوجود سواها ، كأن الكون لا يجوز أن يكون فيه إلا ما تحس به حواسهم القاصرة . وقد أنكروا في هذه السبيل القدرة المدبرة للكون ، والروح الإنسانية ، وكل ما سوى التراب والصخور ، وإني لأشك في أنهم يستطيعون أن يبنوا الكون بما فيه من المعائب ، والمقايبة البشرية بما احتوته من البدائع ، بضعة ألفاظ احترعوها ومموها نواميس طبيعية . فهذه الفلسفة قد طمنت حتى لا تعجد فيها مكاناً لظلم ، ومزقت حتى لا تستطيع أن تصادف منها ما تمزقه ، ومن المحيب أنها مع هذا المضحق كله لا تزال تبيع محتالة في بعض الرؤوس !

محمد فريد وجدي

الاستعطاء بالالن ام

دخل دعبيل الخزاعي الشاعر على بعض الأمراء فقال : أصلح الله الأمير ، لا أقول كما قال صاحب معن :

بأي الخلقين عليك أنني	فاني عند منصرفي مسول
أبا الحسنى وليس لها صياء	على فمن يصدق ما أقول
أم الأحرى ولست لها بأهل	وأنت لكل مكرمه فصول

ولكني أقول :

مادا أقول إذا أثبت معاشرى	صفاً أيدى من عند أروع مجزل
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل	ضن الأمير بماله لم يجمل
ولأنت أعلم بالمكارم والصلى	من أن أقول فعلت ما لم تعمل
فاختر لنفسك ما أقول فاني	لا بد مخبرهم وإن لم أسأل

وكتب حبيب الطائي إلى أحمد بن أبي دؤاد :

اعلم وأنت المرء غير معلم	واقهم جعلت فذاك غير مفهم
أن اصطناع العرف ما لم توله	مستكلاً كالنوب ما لم يعلم
والشكر ما لم يستثر بصنيعة	كالخط تفسرؤه وليس بمعجم
وينفوتى في القول إكثار وقد	أسرجت في كرم الفصايل فالجلم

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٤ —

أسلفنا في الفصل الأول من هذه السلسلة أن الباحثين المحدثين من الغربيين هم أكثر نزاهة وأعظم انعطافاً إلى الحقيقة من القدماء ، وقررنا أن من يجحد مهمهم عن جادة الصواب قائماً بهوى في هذا الخطأ قسر إرادته بدافع الجهل أو السطحية ، لا بالتعصب وسوء النية كما كان القدماء يفعلون . وبرهننا على هذه الدعوى برأى « البارون كارادى فو » الذى بسط فى إسهاب إلهيات القرآن ، وثبت أن هذا الكتاب قد عرض لأعوم مشاكل الفلسفة : كاللوهية والوحدانية ، والقدرة ، وتنزه الإله عن الإنسال ، ومغالفته لكل من عباده ، وعلمه لكل شيء ، وعنايته الشاملة ، وكلامه العام . وكشاكل القضاء والقدر ، والحياة الأخرى والخلود فى العيم والجحيم ، وماشاكل ذلك مما استأنسنا به فى ردنا على نظرية « رينان » الخاطئة التى أشرنا إليها فى الكلمة الثانية من هذه السلكات .

والآن تتابع هذه الفكرة فنقرر أن بحوث الغربيين عن الاسلام فى تقدم وشك أن يكون مطرداً نحو الاهتداء إلى الرشاد ، وفهم هذا الدين على حقيقته بفضل دراستهم العميقة لأصوله ومبادئه الجوهرية . ومن آيات ذلك أن الأستاذ « إميل ديرمانجيم » — وهو الذى أهد عنه الدكتور هيكل باشا كتاب « حياة محمد » — يلاحظ « أن التسرع فى الأحكام قد حال زمننا طويلاً دون دراسة علمية حقة لأصول الاسلام ، وأن مجهوداً جديداً قد قام به فى القرن التاسع عشر : « كوسمان دى بيرسيغال » و « موير » و « موسى » و « مريحيلوت » و « نولدريك » و « أسيرينجير » و « اسنوك هورجرونج » و « دوزى » . وأحدث من هذا المجهود الذى قام به « كاييتانى » و « لاماس » و « ماسينيون » و « مونتقي » و « كازانوفا » و « بيل » و « هوار » و « هوداس » و « مارسيه » و « أنرولد » و « جريم » و « جولدىزبير » و « جود فرواديمونين » . ويلاحظ كذلك أن بعض هؤلاء الاختصاصيين قد هووا مع الأسف فى الإفراط فى النقد ، فكانت كتبهم — وهى لا تعتبر فى الحقيقة إلا ظلالاً للبحث — معاول للهدم ، وأنه هو شخصياً قد حول على أن يسلك طريقاً وسطاً بين الإفراط والتفريط ، فيتبع الرواية إلى الحد الذى لا يتعارض فيه مع النقد الحر ، أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول كالسعودى مثلاً ، ولا يغالى فى الهدم كما فعل بعض المستشرقين الذين حرصوا لدراسة الاسلام . وقد سلك هذه السبيل موفق إلى كثير من الحقائق ، وإن كان له هو الآخر هفوات سنعرض لها فى حينها ، ولكننا نكتفى اليوم بأن نسجل هنا بعض أحسن آرائه فى النبي

صلى الله عليه وسلم وفي القرآن . وتلك الآراء التي أدلى بها هذا الكاتب الممتاز تتعلق بمعضها
بمحمد صلى الله عليه وسلم إنسانا ، وبمعضها به حكما ، وبمعضها به نبيا . واليك هذه الآراء :

محمد إنسانا :

زبد الآن أن نغير الى رأى الاستاد « دير مانجيم » فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم
الشخصية ، لا لأننا فى حاجة الى التدليل برأى كاتب أوروبى على نحو هذه الأخلاق النبوية الى
أقصى ما تسمح به الطاقة البشرية ، ولكن لنبين أن الباحث المحامد البقيق إذا بذل أدنى عنابة
فى البحث انكشف له من الحقائق ما يبرر لقب بسطووعه ولمعانه . وهالك موجزا
فى هذه الآراء :

« إن محمدا قد أبهى فى أغلب حياته اعتدالا لافتا للنظر ، فقد برهن - فى انتصاره النهائي -
على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال فى التاريخ ، إذ أمر حوده أن يعفوا الصغفاء والمسنين
والأطفال والنساء ، وحظر عليهم أن يهدموا البيوت ، أو أن يسلبوا الثمار ، أو أن يقطعوا
الأشجار الثمرية ، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا فى حالة الضرورة القاهرة ، بل قد رأته
يؤوب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحا ماديا ، ويقول لهم : إن تقسأ واحدة خير من
أكثر الفتوح زاء .

« إن الفاسم الحربية كانت فى ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد ، بل يمكن أن يقال :
إنها كانت - مع التجارة وتربية الحيوانات - هى الصناعة الوطنية العربية ، فأعلن محمد
إياحتنا لاتباعه نتيجة لصعفهم ، ولكنه حددها بقواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها
للمصدقات والحاجات الجيش . إنه قد حظر فى قسمة الأسارى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم . إنه
لم يكن يستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغيرا تاما ، ولكنه نجح فى أن يقوم فى نقط كثيرة .
إنه هو شخصيا لم يكن إلا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريبا كجميع بنى حلدته فى عصره ،
ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لاحد لها ، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية ،
وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية ، وهو فى هذا يقول : « كاد الحليم أن يكون نبيا » بل
يمكن أن تكون آلامه التى كان يمانها ناشئة من أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه . إن
إحلاسه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك ، فإن حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن
برسالته إيمانا عميقا ، وأنه تقسها - لا بدون بطولة - كحمل يجب عليه أن يحتمل أثقل
أوزانه . إن قوة عبقرية الانشائية واتساعها ودكاهه العظيم ونظره الصائب الى الحقائق ،
وسيادته لنفسه وقوة إرادته وحكمته واستمداده للعمل وحياته الواقعية ، كل ذلك يمنعا من
أن نعتبر هذا الملمهم المضاء البصيرة مصروعا أو محتوها ذا خيالات زائفة ، مادام قد ثبت أن
الزيف فى مبدأ رسالته مستحيل القبول . فكيف يتصور أن يتقلب كاذبا بخاة ذلك الذى كان

نجاحه يظهر له كبرهات ساطع على تأييد الإله لدعواه؟ وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته في الوقت الذي كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله؟ (١) ،

محمد حكيم :

قال : « إن محمداً كان رجلاً مؤمناً بالعالم الروحاني . إنه ذلك الإنسان الذي للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية ، والذي عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات ، والذي يرى أن النظام الروحاني هو النظام الأساسي ، بل إنه هو النظام الوحيد الذي يوجد حقاً . به قبض على الحقيقة العميقة ثم صدع بين بني الإنسان باكتشافه . إن هذا القلب الغلو من كل كذب ، ومن كل ثقافة مزيفة ، ومن كل غرور ، قد استحوذ دفعة واحدة على الصحرة المتينة . (٢) وبذلك كان حقيقياً (٣) بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . » Réaliste « فقد كان نجاحه في الحياة العملية حين وكفت إليه أعمال العالم الخارجي أتم وأكمل ، لأن المرئي هو (مينا) الساعة التي عليها يرسم اللامرئي ، ولأنه هو حذر للبيئة الحقيقية ، إداما هو أدنى ، صورة لما هو أعلى (٤) . »

محمد نيفيا :

بعد أن خصصنا لك شيئاً من آراء هذا الكاتب عن النبي صلى الله عليه وسلم كإنسان ثم منه حكيم ، وجب علينا أن نجمل لك آراءه عنه كنبى ، ولكن بعد أن نشير إلى آرائه في النبوة وآثارها في الإنسانية بوجه عام .

« إن النداءات الداخلية هي لتاريخ الإنسانية أشبه الأشياء مخاض الحسم البشري التي تسمح له بأن يتحرك ويؤدي مهمته في الحياة ، فن وقت إلى آخر ترن دعوة ، وتسمع صرخة في الليل ، وينادي صوت في السكون ، فيهب إذ ذاك رجل قافزاً من نومه ويسير دون أن يدري إلى أين يشعه بالضبط كإبراهيم وإلياس ، ثم يستمر في سيره بلا راحة ولا فتور ، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل . وبهذا يتكون سلام الإنسانية في سلسلة من الأفعال الحرة . . . وهكذا نهض محمد ليدعو بني جنسه إلى دين واحد هو دين الإله الواحد ،

(١) انظر صفحات ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٧ و ١٩٨ من كتاب « حياة محمد » لؤلؤة « دير مانجم » .
(٢) هذا تصوير لحالة من يندى إلى غير ما يشهد عليه ، وفيه تشبيه بالفريق الذي يمشي في وسط الحصر على صحرة متينة ينشئ بها فيجو من الفرق . (٣) انقسمت المذاهب الفلسفية بأراء ما وراء الحسرات إلى ثلاثة أقسام : الأولى مذهب حقيقة ، وهو الذي يرى أن الحسكيات وجوداً ذاتياً حقيقياً سبق وجود الحسرات وبه قال أفلاطون . والثاني مذهب الاحية ، وهو الذي يرى أن للماهم ليست إلا أسماء اعتبارية ، مسببات الحسرات ، وبه آمن السوفسطائيون ومن نحا منحهم . والثالث مذهب للمهومية ، وهو الذي يرى أن للمفاهيم وجوداً ذهنياً انتزع من الحسرات ، وبه قال أرسطو . والاستاذ « دير مانجم » يرى أن بني المسلمين من أفعار المذهب الأول ، وهو أجمعاً جيهاً . (٤) انظر صحتي ٨٠ و ٨١ من كتاب « حياة محمد » لدير مانجم .

وليوقط جزءا من آسيا وأفريقيا ، وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكي يجدد بلاد فارس التي كان النعاس يشملها ، ولينعش المسيحية الشرقية التي شوهتها المجادلات الخيالية من الجاس ومن الاعتقاد العارى عن الوحدة . . . إن الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالتقوى الطبيعية العظمى الخيرة القاسية : كالشمس والمطر وكمواصف الشتاء التي تصيب الأرض العربية لتكسوها بالخضرة في بصمة أيام ، فتبارهم بنفى أن يحكم عليهم إن أفضل براهين رسالتهم هي تلك العقول المطمئنة والقلوب المقعدة بالسكينة ، والارادات القوية ، والأوجال المستحيلة الى هدوء ، والأمراض الأخلاقية التي أوردوا الإنسانية منها ، والصلوات التي تصعد الى السماء النقية .

« إنهم قد هوجوا بالكبرياء العالمية ، وهم يدون معتمد ويدون قوى مادية ، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سر أعلى أنواع الحرية الذي يمكن أن يلخص في هذه العبارة : لأن تعصى الناس خير لك من أن تعصى الإله الذي أمامه وحده يجب أن يسجد الجميع متساوين .

« إن محمدا كان يجمل كل ما ليس علما مطلقا ، وكان أميا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، وليس مصاحا — فيما أرى — العامية أو الخلو من التأديب ، وإنما الأي هو بالآخرى الرجل النقي الذي جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة . والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرفة ، ومع ذلك فقد نهض لكي يدعو العلماء الى أن يفهموا ما يقولون ، وليقوم الطرق المتنوية التي يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء . إن الناس حالة سماعهم خطبه الملهمة ، وكنائاته المتنومة مع عصره قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذي يحولهم ، وخصعوا للإله فأروا كيف يستطيعون أن يهدوا وجودهم المؤقت . وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لا يستطيع العلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه .

« إن محمدا قد جاء في عصر يعتبر أحد عصور التاريخ المظلمة ، إذ أن جميع المدينيات من حدود الجول إلى أقاصى الهند كانت منهارة أو مضطربة . . . إن دعوة محمد قد أوجدت في جزيرة العرب تقدما غير قابل للاعتراض ، سواء أكان ذلك في دائرة الأسرة ، أم في دائرة الجماعة ، أم في الناحية الصحية ، فإن حفظ المرأة قد تحسن ، وإن الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت ، وقد حرم أيضا إكراه الأمام على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء موالين كما كان متبعيا في ذلك العهد » ولا تكرر هذا فتياكم على البقاء إن أردن تحمينا .

« إنه قد أباح الرق ، ولكنه نظم وضيق حدوده ، وجعل العتق عملا خيرا ، بل كفارة عن بعض المعاصي . . .

« إن أباحر دما بلالا يوما بابن الأمة ، فقال له النبي : إنك لا تزال تشمر بشعور الجاهلية الأولى .

«إن الإلهيين والأخلاقيين والفقهاء والمنسكين قد وجدوا فيما بعد في دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم ، فاحترشدها بها كل منهم في طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى ، وهو أن الإله هو المحور الرئيسى فى كل شئ . لقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتنافضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت الى النبى ، بل إن المشكلات الميتافيزيكية العظيمة التى لم يكن محمد يجب أن يلج عليها قد عولجت فيما بعد استنادا على تلك الأحاديث نفسها . ففما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد أن الجبرية وخصومهم للقدرية قد فتشوا عن أدلهم فى الكتاب والسنة ، وهذه المسألة قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسين المسيحيين كالقديس توماس ، وعند بعض المحدثين كبوسويه والجانسينيين ، والموليين ، بنفس العبارة التى بسطت بها عند العرب ، وحلت نفس الحلول التى وضعوها لها . وفى الواقع أن القرآن يلج على بيان القدرة والعلم الإلهيين السكاملين ويعلن أن كل شئ آت من الإله ، ولكنه يصرح أيضا بأن الشر وليد الإرادة الإنسانية الفاسدة . وعلى الجملة يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصا لحرية الفرد أو عليها . وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد على حلقاتها الوسطى . فاذا كان المسلمون — وعلى الأخص فى عصور التدهور — قد أبدوا انعطافا نحو الجبرية الشرقية ، فإنه ليس فى الاسلام ما يضطرم الى هذه الجبرية ، على عكس ما كان « لينيتير » يعتقد مسايرو للرأى العام ، إذ حين سأل أحد الأعراب محمدا عما إذا كان يكتب فى حفظ ناقته بالتوكل على الله ، أجابه قائلا : « اعقلها وتوكل » . وحينما قيل له : إنه مادام أن كل شئ معلوم لله مقدما ، فإن العمل عبث ، قال : كلا ! « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وهذا منناه : « ساعد نفسك تساعدك السماء » . وقال كذلك : « اعمل لربك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا (١) » . وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق فشهد لها بالحكمة (٢) .

القرآن :

لننظر الآن فى رأى هذا الكاتب فى القرآن وإيجازه بعد أن ذكرنا لك رأيه عن النبى ، قال : « إن كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته . وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتي به الأولياء ، ويسمى كرامة . . . والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة (٣) ، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته الوجدانية لا يزالان الى اليوم لغزا لم يحل ، وهما يضمنان من يتلونه — ولو كانوا أقل الناس تقوى — فى حالة خاصة من الحواس .

(١) يظهر أن هذه الحكمة هى للامام على كرم الله وجهه لا لنبى صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه ديرماجي . (٢) انظر صفحة ٢٧١ وما بعدها من « حياة محمد » لديرماجي . (٣) نحن نعلم أن القرآن هو المعجزة الاساسية ، لا الوحيدة لنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكننا كثيرا ما نقصد عد المستشرقين هذا الجرم من المسلمين اعترف هو نفسه بأنه ليس له معجزة أخرى غير القرآن . ولست أدري أين عثروا على هذا الاعتراف

لقد تحدى هذا الالهي والجنى أن يأتوا بمنزله . وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الامر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية ، فإن هذا كان يحتقر الشعراء ، ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم ، ولكن الامر يتعلق بشئ آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحي الاله وإلهام الشياطين (١) .

« يتبع »

الدكتور محمد فهد
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحتي ٧٩٧ و ٢٧٧

في الحرب وما إليها

كثر الكلام في الحرب في هذه الآونة ، فيحسن أن نورد للقراء بعض ما جاء في القرآن الكريم ، وما قاله قادة المسلمين في ذلك :

قال الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » يريد أن يكونوا متصافين بنظام تام لا عوج فيه ، ومتساوين في أشخاصهم ووحداتهم كأنهم بنيان مرصوص لا يستطيع العدو أن يخرق صفوفهم .

وقال النعمان بن مقرن الصحابي لرجاله في وقعة من وقائعهم : إني هاز لكم الراية ، فليصلح كل رجل مسك من شأنه ، وليشد على نفسه وفرسه ؛ ثم إني هاز لكم الثانية ، فلينظر كل رجل مسك موقع سهمه ، وموضع عدوه ، ومطار فرسه ؛ ثم إني هاز لكم الثالثة وحامل فاحملوا على اسم الله .

في النعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذا تكاملت الخيل ، وتطاع الصحابة التقدم عليها ، لأقلدن أعتها رجلا يكون غداء لأول أسنة يلقاها .

وقال على رضي الله عنه انتهزوا الفرصة فانها تمر مر السحاب ، ولا تطلوا أثرا بعد عين . وقد ذكره قواد المسلمين التصايح في الحرب وعدوه فشلا ، فكان جودهم يقاتلون سكوتا . لذلك قال عتبة بن ربيعة من صناديد المشركين لاصحابه يوم بدر لما رأى عسكر المسلمين : أما ترونهم خرسا لا يتكلمون ، ينلمظون تلمظ الحيات ؟

في ذكرى المولد النبوي

الخطبة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد العدوي في احتفال الأزهر بذكرى المولد النبوي ، وقد فاقنا أن ننشرها في حينها فنتدارك ذلك بنشرها في هذا العدد لنفاستها وروعة بيائها ، قال فضيلته :

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد إمام المتقين وسيد المصلحين . وبعد : فإذا احتفل الأزهر في هذه الليلة بذكرى المولد النبوي ، فإنما يحتفل بذكرى مصلح غير وجه الأرض ، وحول مجرى التاريخ ، وسعدت به الملايين من البشر ، وظهر به فصل الله على خلقه : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

إذا احتفل الأزهر بهذه الذكرى فإنما يحتفل بميلاد ميمون على الخلق ، وعهد مبارك . ونظرة واحدة فيما كان عليه البشر قبل ميلاد الرسول الأعظم ترى مقدار الإصلاح المحمدي . فقد كانوا في ظلام حالك ، وحاهلية عمياء . فمن عقائد باطلة ، إلى أخلاق فاسدة ، إلى صلات مفككة ، إلى فوضى في الاجتماع والسياسة مروعة .

ومن عبادة للأصنام ، إلى إنكار للبعث ، إلى وأد للبنات خشية العار ، إلى قتل للأولاد مخافة الفقر ، إلى إضرام لنار الحرب لأوهى الأسباب .

دع ولوعهم بالخر ، وكلفهم بالميسر ، وهتكهم للأعراض ، وتقطيعهم للأرحام ، وإساءتهم إلى الجار ، وظلمهم لليتيم .

فكانت مهمة سيدنا محمد بن عبد الله شاقة : أخذ يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم بالمعروف والنافع ، ويدعوهم للعمل الصالح والخلق الطيب ، وينشر فيهم العقيدة الصحيحة .

يعلمهم التوحيد ، ويربهم ضلال ما كانوا عليه من عبادة الأصنام ، وأن التوحيد هو قضية المنطق ومقتضى العقل « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يشيرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب المرش هما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشعرون إلا لمن ارتضى وهم من خشية مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين » .

« يشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أَدْعَوْتُكُمْ أم أَمْسَكْتُكُمْ ، فإن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعواهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أَلَمْ أَرْجُلْ يَمُشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَمْ أُنْذِرْ يَبْعَثُون بِهَا ؟ أَمْ لَمْ أُعَيِّنْ يَبْصُرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَمْ أَأَدَّ أَنْ يُسْمَعْنَ بِهَا ؟ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْتَفِرُونَ . إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ لِكِتَابٍ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

أَرَاهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَيْتِ وَالْحِزَاءِ أَصْلُ أَنْتَ بِهِ كُلُّ الشَّرَائِعِ ، وَلَا غِنَى لِلنَّاسِ عَنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ ، حَتَّى يُعَدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عِدَّتَهُ ، فَيَصْلَعُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » « وَاسْتَمِعُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَنْتَوُونَ عَنْهُمْ مَلَاقٍ بِهِمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » . وَأَقَامَ لَهُمُ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ حَقَّ بَيْتِ الْمَنَاءِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ تَتَكَرَّرُ أَمَامَهُمْ كُلِّ يَوْمٍ ، وَابْتِغَاءَ فَوْقَ ذَلِكَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ فِي أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ حَيَاةٌ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَيَاةِ يَنْتَصِفُ فِيهَا الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ ، وَالصَّغِيرُ مِنَ الْقَوِيِّ : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ، « الْحَسْبُ أَنْتُمْ خَلَقْنَاكُمْ عَشْرًا وَآخِذُوا إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » .

وَأَرَاهُمْ بِمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْخَلْقَ الطَّيِّبَ لَا غِنَى عَنْهُ بِمَدِّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْيُجِبْهُ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَمْلُوءٌ بِالْمَدْعَوَةِ إِلَى الْخَلْقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فِيهِ أَدَبُ الْمُؤْمِنِ مَعَ رَبِّهِ ، وَأَدَبُهُ مَعَ رَسُولِهِ ، وَأَدَبُهُ مَعَ آبَائِهِ وَقُرْبَانِهِ ، وَأَدَبُهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَدَبُهُ فِي دُخُولِ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ ، وَأَدَبُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَفِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآدَابِ .

أَهْدَانَا الْإِصْلَاحَ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَلْقِ قَامَتْ قُرَيْشٌ وَقَعَدَتْ ؟ وَلَنُشْرَ ذَلِكَ الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَ حَارَتْ رَسُولُ رَبِّهَا وَبِأَنْعَمَ اللَّهُ كَفَرَتْ ؟ وَمَنْ حَرَّاهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي قَامَ بِهِ مَعْدُ وَصَحَابِ عَمْدٍ أَخَذَتْ تَوَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَى حِزْبِ الْحَقِّ ! وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدْعِهِ لِلْهُمُومِ تَسْتَوِي عَلَيْهِ ، وَلِلْيَأْسِ يَشْرِبُ إِلَى قَلْبِهِ ، بَلْ أَرَاهُ أَنَّ أُولَئِكَ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ الدَّاعِيَ لَا غِنَى لَهُ عَنْهَا ، وَهَاتِيكَ الشَّدَائِدُ الَّتِي تَقْرُلُ بِالْمَصْلَاحِ شَفِيفَةً قَدْ عَرَفْتَ عَنْ الْمَصْدِقِينَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَصْلُوحُ أَنْ يَفْرَغَ مِنْهَا مَا دَامَتْ مَهْمَتُهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَ النَّفْسِ وَشَهْوَاتِهَا ، وَالْقُلُوبِ وَأَهْوَاتِهَا ، لِيَرْسُمَ لَهَا طَرِيقًا غَيْرَ الطَّرِيقِ ، وَيَأْخُذَ بِالْعَفْوِ ، لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ

من الشيطان زرع فاستعد الله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا متهم طائفة من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . « قد علم أنه ليحزبك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك إعراصهم فإن استنطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يعصمهم الله ثم إليه يرجعون . »

ما زالت قريش تعت رسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتؤذى أصحابه ، وتذيقهم المذاب ألوانا ، ولا سيما الصغفاء منهم ، وافته يأمره بالصبر ، ويدعوه إلى الصلح ، حتى بلغ الإغاث فآيته ، فغاريوا أصحاب عهده في الأرزاق واطعموم في وسائل الحياة ، وديروا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مؤامرة ليقنلوه ، وكانت تدبير الله فوق تدبيرهم : « وإدعك ربك الذي كفروا ليؤثبنوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » أذن الله له في ليلة المؤامرة بالمهجرة إلى المدينة المنورة ، ففجا من مؤامرتهم ، ووجد فيها الأنصار الذين آزروه وأيدوه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وهناك أخذ ينشر دعوته ، ويتمتع بحريته في الدعوة إلى الله كاملة .

غير أن فريقاً من أهل الكتاب دخل عليه الشرك في العقيدة كما دخل على مشركي العرب في مكة ، وكان فيهم من يتغالي في رسول الله عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حتى أخرجه من صف البشر ، وفيهم من تغالي في الثرير وقال إنه ابن الله ، فكان من الخير أن تصح هذه العقيدة « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . » يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فامنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ؛ إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله كيلا . لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . »

أخذ الرسول صلوات الله عليه وسلامه يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، ويؤلف بين الأوس والخزرج ، وقد طجتهم الحروب ومكثوا ما ينيف على المائة سنة متناحرين ، فكان حظه في ذلك المصير والظفر : « وادكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . » نعم هي آية من أكبر آيات الله لذلك النبي الأبي العربي : أن يجمع الله له

القلوب المختلفة ، ويستل منها السخام ، ويطهرها من الاحقاد والضغائن : « هو الذي أيدك بصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » . ولا عجب فقد أرسل بكتاب أنزله خالق النفوس ، العليم بأمراضها ، الخبير بوسائل علاجها : « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

مكث صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة تسع سنين ونسمة أشهر يبلغهم فيها التشريع الديني في العبادات ، كالصوم والحج ، والتشريع المالي كالزكاة ، ويضع لهم نظام الحكومة على أساس الشورى ، وتشريعه في الحرب والسلام ، وأن الحرب لم يكن فرضاً من أغراض الشرع بل هو ضرورة اجتماعية غايتها دفع العدوان عن العقيدة والنفس والمال .

وهناك وضع أصولاً للمعاملات مائة ، ونظاماً لقيوت حكيمة ، وقواعد للوراثت رحيمة . وهاهيك بما أعطاه للنبت : جعل لها الحق المالى فى الميراث ، وكذلك فى البيع والشراء والوصية والهبة ، وما الى ذلك ، بمد أن كانت ثورث ولا نرث ، وتملك ولا تملك ، وتباع وتشتري كالأشياء . ووضع نظاماً للمعقوبات هو فى نظر بعض الناس قسوة ، ولكنه فى واقع الأمر رحمة وحكمة .

وفى كل يوم تقوم الأدلة على أن المدنية الحاضرة فشلت أمام مشاكل الحياة حتى فى أرق بلاد العالم مدنية ، فلم تمد صالحة لعلاج الجرائم وأمراض الاحتجاج وأهواء النفوس ، وكلما تقدمت المدنية شوطاً سبقتها الجرائم أشواطاً .

وفى الحق أن الناس لا يصلحون إلا إذا اعتصموا بكتاب ربهم وهدى رسلهم ، وتمسكوا بسنة الراشدين من خلفائهم ، وأنه لا غنى للناس عن الوازع الدينى والإصلاح الحميدى ، فقد سمعت به الأمة أيام أن أخذته نقوة ، وتلقفته بجمرة . سمعت بذلك الإصلاح حينما اعتبرته كلاً لا يقبل التجزئة ، وديناً لله لا يحتمل التفرق . فالصوم والصلاة والزكاة والحج دين الله ، ونظامه العادل الذى وضعه فى المعاملات دين الله ، وأصله الذى رضيه للحكومة الإسلامية وهو الشورى دين الله ، وعقوبته التى رضينا مؤدية لعباده وهو الرحيم بهم دين الله .

والأمل فى الله كبير أن يوفق الأزهر للقيام بهذه الدعوة العادلة لينشرها فى البلاد الأناثية كما نشرها خاتم النبيين بالحكمة والموعظة الحسنة ، مسلحاً بصلاح العلم واللغة بعد الثقة بالله ، مستنجزاً وعد الله لجنده بالصبر والحزب بالغلب : « ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون » ، وإن جندنا لهم الغالبون ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب الملك فاروق الأول ، أبقاه الله ناصراً للدين معزاً للحق ؟

محمد أحمد العبرى

من سوانح المولد الشريف

الاسلام ، في الحرب والسلام

أعد ذكر سلع والعقيق وما ضاً
عهد أناخ المجد فيها رحكابه
بنا من هواها صبوة طامرية
إذا ما ذكرناها ، ففاح أريجها
مرايح عذات ، وأطام يعرب
حبا بينها طفلا ، وأشرف يافعا
وأشرق في أفق البسيطة طالعا
رمى بجلال الحق أعداء نوره
سلوا الشرق هل أكدى سلوا الغرب هل أسا
سلوا مؤقدي الأضغاف حربا مبيرة
ملكنا فأسجنا ، فلما تملصوا
سيوف رجال ، أين مالت أكفهم
عزيز على الاسلام أن يصغر الحى

بني الأزهر الموفى على قبة الملا
دعوا المجد تمديه الأيادي ، فأنما
دعيت : حماة الدين ، فاحوا ذماره

خذوا شرعة الإصلاح عن نهج دينكم
وجسدوا ، فقد جدد الزمان ، وإنما

أصبتم بشيخ الدين نهجا مسددا
فسيروا على اسم الله تحت لوائه
وفي عرش فاروق عماد وعصمة

عبد الحواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

أطروفة أدبية

أين الزوجة ١٩

أَتَخْلُقُ المِهَادَةَ ، وَتُخْلِقُ الخمر
وَعَرَسَ تَجَمَّرَ إِلَى بَعْلَهَا
فِيخْلَعُ فِيهَا رِداءَ الشَّبَابِ
أَرَى الْغَانِيَاتِ كَثِيرًا وَلَا
وَمَاذَا يَقْسِدُ جَمَالَ الزُّهُورِ
إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلْغَوَايِ قُلُوبَ
وَلَا كَانَتْ يَوْمًا بَيَاضَ الْجَبِينِ
وَكَمْ خَاطِبٍ قَادَةً حَسَنًا
فَنَقَبَ عَلَى مَنْ سَقَاها الحَيَاءُ
وَأَيَّاكَ إِيَّاكَ زُورَ الْجَمَالِ
وَبَعْضُ النِّسَاءِ شَبِيهَ السِّبَاعِ
وَكَمْ لِلْكَوَاعِبِ مِنْ مَقَلَّةٍ
وَلَيْسَ بِهَا غَيْرُ حَقِّ الْخُدَاعِ
وَكَمْ مِنْ وَجْوهٍ عَلاها المَلَأُ
وَمَا الزُّهْرُ مِنْ مَحْمِلِ الْعَامِلِينَ
وَلَا صِبْغَةَ اللَّهِ صَبْغَانَهُ

•••

خَبَرْتُكَ يَا عَصْرَ هَذَا الْجَمَالِ
فَا أَنْتِ إِلَّا غَرِيبُ الدَّهْورِ
أَنْتِ وَكَذَلِكَ هَرْنَا
فَهَلْ فَيْسُكَ مِنْ أَمَلٍ يَرْجَى
طَوِيلًا وَعِنْدِي عَنْكَ الطَّيْبُ
وَمَا أَنْتِ إِلَّا عَجِيبُ الْمَصْرِ
وَتَأْتِي الْمَعْصُورَ بِخَيْرِ وَشَرِّ
وَهَلْ فَيْسُكَ مِنْ زَوْجَةٍ تَنْتَظِرُ ١٩

محمد الماسر

حماية الآداب على الشواطئ

لقد ضج حمأة الآداب العامة ، وحفظة الكرامة الاجتماعية ، من تهاون بعض المتردات على الشواطئ في التصون الذي يجب أن يراعى في محال مكشوف للأُنظار يغشاه البار والقاجر من جميع الطبقات . وقد حمت الصحافة التي يعينها الإصلاح الاجتماعي حملات صادقة على المقصرين في وضع حد لهذه العدوانات على الآداب العامة ، وقد حاولت الإدارة بقدر ما سمحت لها به الأحوال أن تضع نظاما للشواطئ ، يقطع شأفة هذه الشكايات ، ويكفل حفظ كرامة السيدات ، ولا تزال جادة فيه .

فإن كان يجب علينا أن سوه بهمة رجال كان لهم القدر المثل في استحضار وضع هذا النظام ، فإننا نذكر منهم حضرة صاحب الفصيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو الميوز ، فإنه منذ توليه مشيخة المعهد الاسكندري الذي لم ين في الدوب وراه تحقيق هذه الأمنية ، فأكثر من مقابلة صاحبي السعادة الطهامين محافظ الاسكندرية ورئيس المجلس البلدي ، واشتغل معهما فيما يجب أن يكون عليه ذلك النظام ، وما يتخذ من الوسائل لتنفيذه . وإننا نشكر ما كنبه فضيلته لسعادة محافظ الاسكندرية من الآراء لتحقيق هذا المشروع العظيم ، ومنه يرى القارئ أنه لم بالصعوبات التي تعترض ما هو نصده في مدينة تفص بالأجانب كالاسكندرية ، فلم يشترط حتى يجعل الأمر غير قابل للتنفيذ ، ولم يفرط حتى يتركه حبرا على ورق .

وإننا ننشر هنا آخر كتاب له الى سعادة محافظ الاسكندرية ، وفيه أصول النظام الذي كلف باقتراحه ، فإليك :

حضرة صاحب السعادة الأجل محافظ الاسكندرية :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد : فإني بمناسبة حلول موسم الصيف وارتداد المصطافين مصايف الثغر ، أقدم باقتراحات لصيانة الآداب في الحمامات وشواطئها ، ولست أزعج أن هذه المقترحات كفيلة بتحقيق الغرض المنشود ، أو تحسم الداء ، ولكن بقدر ما استطعت بعد البحث مع ذوي الاختصاص جمعت تلك المقترحات ، وأرجو أن تنال توفيقا وتحقيقا لما يرتجيه كل حريص على الأخلاق وسمعة البلاد ، والمقترحات هي :

١ - تخصيص حمامات للسيدات مجانا في المناطق القريبة ، كالشاطئ والابراهيمية وجليمونوبول ، أو تخصيص زمن للسيدات صباحا كما هو منوع في بعض المصايف الأخرى مع وضع رقابة على هذه الحمامات لوقايتها من غيب الشبان ، بواسطة البوليس ، وذلك لايحاد فرصة للأسر الخريصة على صيانة كرامتها ، وشرف آدابها من اختلاط الجفسين وعبث المستهترين

٢ — يرم إيجاد نقطة دائمة من البوليس في كل بلاجات النغر التسعة المعروفة ، بشرط أن تكون النقطة لبوليسية ثابتة لا تنتقل من مكانها ، وربما يسكن في كل بلاج كوستبل واحد ومعه جنديان لمعاونته .

٣ — تعديل لائحة الآداب الخاصة بالشواطئ بما يجمع أي منظر مخالف للآداب العامة سواء في الماء أو على الشاطئ ، ويترك هذا التقدير لرجل بوليس الآداب الذي لابد أن يتفق ممن عرفوا بشرف السيرة وحسن السمعة .

٤ — ينص في اللائحة على أن يخول لبوليس سلطة إزالة أي كبينة استهزام أهلية تحدث فيها أمور مغايرة للآداب ، ويكون ذلك عقب إنذار يوجه الى ساكن الكبينة ، وتكون الإزالة على نفقة صاحبها .

٥ — تقفل الشواطئ جميعها ، وتحلى الكسائن من جميع ساكنيها وقت الغروب مباشرة .

٦ — لابد لصان الحالات المقترحة من بوليس نسائي مختلط ، ولا بد أيضا من التعاون الوثيق بين بوليس آداب البلدية ، وبوليس آداب المدينة .

ذلك ما رأيناه حتى الآن ، تقدمه لسعادتكم تنفيذا لرغبتكم من تقديم المقترحات للبحث فيها والعمل بما فيه المصلحة ، ولنا نطمح في أن هذه المقترحات تحسم الداء كما قلنا ، ولكم أمل في تنطيفه ، وتخفيف وقعه على النفوس الكريمة .

وختاماً نشكر لسعادتكم اهتمامكم بالأمر ، وغيرتكم المعروفة ، وسلام الله عليكم ونحيته من الخاص

محمود أبو العيون

شيخ علماء الاسكندرية

لا يؤس ولا تباؤس

قال بعض الظرفاء كل ما اشتيت نفسك ، والبس ما يلبسه أبناء جنسك .

وقد اعتذر رجل ليس في قدرته لباس حسن فقال -

يا هذه كم يكون اليوم والفند	لا تسكرى رجلاً أنوابه قد
إن يمس منفرداً بالسيف منفرد	والليث منفرد والندر منفرد
أو كنت أسكرت طمره وقد حلقتا	فالبحر من فوقه الأقداء والزبد
إن كان صرف الليالي در بزعت	فبين طمره منه ضيفم لبد

التشريع الإسلامى

ومارممه للحياة من مُثل عُليا

جاء الإسلام والناس في جهالة عمياء ، وضلالة شاملة ، وتكسب عن طريق الحق ، وتفتت بأهداب الباطل ، واتباع لحافة الهوى ، وابتعاد عن هداية العقل .

فن تأليه للأصنام ، وعبادة للأوثان ، وتعميم للأنصاب ، واتخاذ لطواغيت — الى استقسام بالقداح ، واعتقاد في الكهانة ، والعرافة ، وزجر الطير والحيافة .

ومن تقديس للعوروثات والتقاليد ، وثقة في الخرافات والأوهام ، وانحطاط في النظر والفكر ، وتمويل على الأفاعيص والأساطير — إلى عصبية قبلية ، ودمرة جنسية ، وتفاضل بالأحساب ، وتفاخر بالأنساب .

ومن فهم للأخلاق الفاضلة على غير وجهها ، وإسراف في سوء تقديرها ، وإباحية مطلقة ، وتبذير لا حذله — إلى أكل الميتة ، وإتيان الفواحش ، وقطع الأرحام ، وإساءة الجوار ، وقسوة في الانتقام ، وإفراط في الأخذ بالثأر ، واعتداء القوى على الضعيف ، وشن الغارات لأقل حدث ، وأتفه سبب .

تقول : جاء الإسلام وحال الناس على ما وصفنا من طغيان الجهالة ، وشيوع الصلابة ، وانتشار المسكرات ، فلم تقتصر مبادئه السامية ، وقوانينه الوافية ، على أن تقرر من النظم ، وتمن من الأحكام ما ينتشلهم من مهاوى الرذيلة ، ويقضى على سوء أثرها ، وما يجرحهم من ظلمات الجهل ، ويبعد سحبه الكثيفة ، بل رسم من محكم التعاليم ، وأنشأ من أقوم المناهج ، وأهدى السبل ، ما هو أعلى مُثل في كل فكرة نادى بها ، وكل دعوة دعا إليها ، وما هو أكبر شاهد له على أنه خير دين تعبد الله به عباده ، واختتم به شرائعه الأولى ، وجعله دستوراً كاملاً متمماً لشئون الناس جميعاً ، وشاملاً لكافة حاجتهم ، وصالحاً لكل زمان ومكان .



انجبت التعاليم الإسلامية في تشريعها ثلاثة اتجاهات رئيسية :

الاتجاه الأول : العقائد ، فأسمها الإسلام على وطنه دعاتهم ، وأعلى مُثل في التوحيد الخالص ، والالوهية الحقّة التي لا يشوبها شيء من الشرك ، ولا يخالطها أي نوع من التعدد ، أو أي رمز يقهر بالتعدد .

انظر إلى القرآن الكريم، تجده يقرر في كثير من آياته ونصوصه وحدة الألوهية، ويبطل التعدد، ويهدم الشرك من أساسه، قال تعالى: «فاعلم أنه لا إله إلا الله»، وقال: «وما من إله إلا إله واحد»، وقال: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً»

ثم انظر إليه في آيات أخرى تجده يقرر شمول الألوهية وعمومها وإحاطتها، ويبين أنه تعالى ليس إله قبيلة من القبائل، ولا إله أمة من الأمم، ولا إله عنصر من العناصر، ولا إله معنى من المعاني، كالإنس والجن والملائكة، وكالخير والشر والجمال، بل هو إله كل شيء، ورب كل موجود، وأن جميع ما في الكون من أسرار ومظاهر، وكل ما يحتويه من معالم ورسوم مملوك له تعالى، وصادر عنه، ومسخر بأمره، وأنه قادر على كل شيء، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، قال تعالى: «الله ربكم ورب آبائكم الأولين»، وقال: «لله ما في السموات وما في الأرض»، وقال: «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والسجود مسخرات بأمره»، وقال: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الملك مواءم فيه»، وقال: «وألقى في الأرض رواسي أن تعمد بهم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون»، وقال: «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

وهكذا حينما تتبعنا آيات القرآن الكريم، نجد أنها قد اهتمت بأمر العقيدة اهتماماً عظيماً، وركزتها في التوحيد الصرف، ووصف الله تعالى بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص، كما أنها قد اهتمت أيضاً بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى، وبما يكون فيها من مسئولية، وبما يلقاه الإنسان فيها من ثواب أو عقاب جزاء على ما قدمت يداه في دار الدنيا من أعمال، قال تعالى: «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم»، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.



الاتجاه الثاني: محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، فقد عنى الإسلام بها عناية فائقة، وحث عليها حثاً شديداً، وطلب إلى المسلمين أن يتخلقوا بأخلاقها، ويأخذوا بأفضلها، ويخالقوا الناس بأحسنها، ويحللوا، وأن يكونوا جميعاً أمثلة حية، وصورة تامة للعدل والإحسان، والوفاء بالعهد، والصبر في الشدائد، والعفو عند المقدرة، والشعور بالواجب، وعرة النفس، وعلو الهمة، وطهارة الضمير، وما إلى ذلك من الخصال الجليلة، والخلل الكريمة، قال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى»، وقال: «والموافون بهداهم إذا ما هدوا»، وقال: «واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»

وقال : « حذ المفسر ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » وقال : « ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

فهذا النمط العالى من التهذيب الكامل ، والأدب السامى ، والخلق الرفيع ، هو الذى دعا إليه الاسلام ، ورغب فيه ، وحرصت عليه تعاليمه ، وأحبر نبئيه صلى الله عليه وسلم أنه ما جاء إلا لإتمامه وإكماله ، فقال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .



الانجاء الثالث : الأعمال المتعلقة بأفعال المكلفين ، فقد شرع الاسلام منها ما هو خير مظهر من مظاهر الانقياد لله تعالى ، والاخلاص له ، والافرار بنعمه والشكر عليها ، وما هو أبلىغ تعبير عما يمكنه العبد في نفسه من ماطقة الإجلال والتعظيم لمخالفه ، كما شرع ما يعتبر - بأثماره ونتائجه - أرق نظام ، وأكفل وسيلة لمساعدة الفقراء والمهموزين ، والترفيه عنهم ، وللمساهمة في مصالح المسلمين العامة ، والقيام بأعمال ما تتطلبه حالة الجماعة ، وذلك كفرىضتى الصلاة والزكاة ، وما إليهما من بقية ما شرعه الاسلام من أحكام وأعمال كثيرة ، تختلف في صورتها وأدائها باختلاف الفرض المقصود منها ، والحكمة الداعية الى تشريرها ، وآيات القرآن الكريم في هذا الصدد كثيرة مشهورة ، لا تحتاج الى إيرادها وذكرها .



من مجموع هذه الاتجاهات الثلاثة التى أُلْمنا إليها في وجارة وتلخيص ، تتحلى دقة التشريع الاسلامى ، وتظهر متانة أصوله ، وقوة تعاليمه ، ويقين في وصوح أنه في كل ناحية من هذه النواحي الأساسية ، قد أتى بأرق النظم ، ورسم أعلى المثل ، ووضع خير الأسس وأتمها ، موافقة لطبيعة العمران ، وروح الاجتماع .

ولا غرو في ذلك ، فهو يرافق الانسان في جميع أطواره ، ويتعمده في كل أحواله بالترية والتهذيب ، ويعلمه في كل مرحلة من مراحل حياته كيف ينظم شئونه ، ويدير أموره . فعلاقة المرء بربه يضع لها أقوى الروابط ، وأوثق العرا ، وحياته البينية وما يتعلق بها من زيجة ونظام أسرة ، وتربية أولاد ، يؤسسها على ما يكفل لها السعادة ، ويضمن لها الطمأنينة والراحة ، ويجعل جوارها نقيا صافيا ، لا يلوح فيه شيء من قتامة الفنون ، وكدورة الريب والشكوك . ووسائل الكسب والحصول على المال ، يبين له طرقها المشروعة ، وأبوابها التى لا ضرر فيها ولا ضرار ، ومواردها التى لا غنى فيها ولا اعتداء .

وصلاته الاجتماعية العامة والخاصة يبينها على أمتن القواعد ، وأعظمها ثباتا واستقرارا ،

ويقومها على ضمان الحقوق المتبادلة ، ورعاية المصالح المشتركة ، والالتزام بالحريات المقررة ، وينمو لها بروح المساواة العادلة التى لا استئداد فيها ولا استئلال ، والى لا فصل فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل بأرشادات الاسلام .

وهكذا لم يدع هذا النشرع الوافى الكامل صغيرة ولا كبيرة من شئون الأفراد والجماعات إلا وقد أنشأ لها من النظم ، وشرع لها من الأحكام ، ما هو خير كنفيل بسعادة الناس وهناءتهم فى الدنيا والآخرة .

وبعد ، فهذا إجمال نرجو أن نوفق الى تفصيله فى مقالات تالية ، إن شاء الله تعالى ؟

فسكرى ياسين

المدرس فى كلية الشريعة

الوقاحة لؤم

قال أديب : الوقاحة فى الرجل تدل على لؤم نجره ، وخساسة قدره ، وقلة خيره ، وكثرة شره .
وقال شاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكلم فيه الشر واجتمعا

وقال غيره :

من لم يكن عنصره طيبا لم يخرج الطيب من فيه

كل امرئ يشبه فعله ويرشح العكوز بما فيه

أصل الفتى يخفى ولكنه من فعله يظهر خافيه

وقد ليم بعض الوقحاء على الوقاحة فقال : الوجه ذو الوقاحة ينهى على صاحبه الانفعال (أى العطايا) ، ويفتح له الأفعال ، ويلقطه الارطاب ، ويلقمه ما استناب . ثم أنشد :

إذا رزق الفتى وجها وقاما تغلب فى الأمور كما يشاء

هذا صحيح ولكن فى الأمم التى يكثر فى رجالها الانحرافات الخلقية ، فترام إذا آنموا من واحد منهم وقاحة يادروا الى إكرامه ، وبالفوا فى الاحتفال به ، حشية منهم أن يبرى لهم فيكشف عن مساوئهم ، ولو كانوا على الجادة القويمة لما خشوا له بأسا ولا لقموه حجرا .

الآراء العالمية في الاسلام والمسلمين

الصراع بين الجنسين في البلاد العربية

فتنة المدينة الغربية تمتد الى أقصى بلاد المغاربة :

نشرت جريدة (لير نوفيل) الفرنسية في عددها الصادر في ٢٦ مايو الماضي تحت عنوان « النساء المسلمات في طرفي ممتلكاتنا بأفريقيا الشرقية » ما تعريبه :

« كان شمال أفريقيا الى الفتح الاسلامي يشاطر الغرب مدينته بواسطة اللاتينية ، فإن (تيريس) المؤلف الهزلي الكبير كان أفريقيا . وقد ولد الامبراطور الروماني (سيتيم سيهيم) بمدينة سبتاجرا من ليبيا . وكان القديسان أجوسنان وسربان من بربر تونس أو الجزائر . ولم تنقطع صلة شمال أفريقيا بالغرب إلا من عهد أن صار إسلاميا .

واليوم بعد وجودها مائة سنة في الجزائر وستين في تونس تظهر فيهما بأكورة نهضة ترمي الى التشبه بالغرب ، ذات صبغة فرنسية . فان نخبة السيدات المسلمات يتكلمن الفرنسية الى جانب العربية ، ويختلطن بطلبتنا وأطباتنا ومحامينا ومحافيينا . أما سياستهن حتى مع ما هي عليه من مناقضتها للسياسة الفرنسية - وهذا في الظاهر دون الباطن وقد تأيد ذلك في الحوادث الأخيرة - فانهن يستعملن لنشرها أساليب الدعاية الغربية . والامر على هذه الوتيرة في مصر وفي سورية . « أما في مراکش فيمكن مشاهدة عقلية المرأة المسلمة على حقيقتها لأنها حديثة العهد بالاستعمار الفرنسي ، إذ لم يحض عليه أكثر من عشرين سنة .

« إن بعض الأوربيات من الملمات والطبيبات والمرصات ومن زوجات الموظفين والنسبات متى تعلمن اللغة العربية ، يمكنهن إحكام أو اصر المودة بينهن وبين بعض النساء المراكشيات . وقد شهدن بأن المحوة بينهن لا تزال بعيدة القاع جدا .

« فلم يشاهدن عندهن حياء للاطلاع دالا على الذكاء إلا نادرا . فيقل تساكس عن طاداتنا وبلادنا ، أو ديانتنا . وتعليل هذا الاغفال ليس بالامر الصعب . ذلك أن الاسلام مادام أرفع عندهن من جميع الأديان ، وفيه غناء في كل شيء ، فلا داعي لمعرفة شيء بعد ذلك . وهن لا يفتنن النساء الأوربيات على حريتهن ، فهذه الحيرة في نظرهن من نصيب نساء الشوارع والموهسات والخدمات الملحقات بخدمة الأوربيين .

« إن الانتماع بمحو الاسلام القوي يجعل الناس لا يهتمون بالاطلاع على أية مدنية ليست إسلامية ، لم يستدع أن يدفع النساء المسلمات للتعمق في دراسة دينهن ، فإن أكثرهن يتقن

جاهلات به كل الجهل ، اللهم إلا بعض النسوة المحترمات الطاعنات في السن ، وهن على جانب عظيم من التقوى والاحسان ، والذي يفتقر العالم الاسلامي إزاء هذه الحالة هو أن تؤسس جمعيات دينية نسوية على نحو ما أسس منها في البلاد المسيحية ، وكان لها الأثر الجليل في نهضة النساء الادبية وتربيتهن . ولكن لأجل إمكان قيام هذه الجمعيات يجب أن ينتشر هنا نصيب من إدراك ما يجب أن تمنحه المرأة من الحرية ، على مثال ما بدأ يحدث في مصر بعد أن تأخرت في هذا المضمار ثمانمائة عام .

« ولنتقل الآن الى الطرف الآخر من ممتلكاتنا الافريقية وهي تونس ، فاسا نجد أن المنظر قد تغير . فان البنات الشابات اللاتي تخرجن في مدارسنا قد أسسن مجلة تدعى (كيشي) ، وهو حدث يعتبر عظيما في مراكش . وقد قبلن أن يساعدن في تحريرها بعض الرجال . ومن هنا نشأ فيها بين الجنسين حوار روعى فيه الأدب والوقار . فمن الموضوعات التي يؤيدها الرجال أنه إذا وجب على المرأة التونسية أن تتطور فلا يجوز أن يكون ذلك على المثال الغربي ، ولكن على المثال الشرقي المصري . فلا يجوز أن يستقبل النساء الرجال في الصالونات ، ويجب أن يربين تربية خلقية ودينية باللغة العربية ، وعلى أدق ما يستطاع . ولا ينبغي أن ينظر الى الآداب المدنية من الموقف نفسه التي تتفق معها المجتمعات المسيحية . ولا يحسن بالمرأة المسلمة أن تستعمل المساحيق البيضاء ولا الحناء ، ويجب أن يرسم المجتمع الاسلامي نفسه المراحل التي يجب أن تقطعها المرأة في التطور الذي ترى اليه . وكل تدخل أجنبي فيه يولد في النفوس عدم الثقة به . ومهمة المرأة هي أن تلتجئ للمجتمع أطفالا يشبهون جيودا صالحين لتحقيق استقلال الوطن .

« ولكن يظهر أن هذه الأوانس والسيدات لا يعرن هذه الوصايا كبير عناية ، ويقلن يجب الجري على الأسلوب الغربي في الزي ، لأن هذا الزي وحده هو الذي يسمح بالتغلب على المقاومات الاجتماعية التي تعجل حياة النساء مما لا يطاق . وتراهن يحلن بدفة غريبة مؤلفات ستندھال ، وأندريه جيد ، وجيروودو ، ولا يخفين ثورتهم على الزواج بالوسطاء ، ويعتبرنه ضربا من الانحرار بالرقيق الأبيض . وتجد الشبان يوافقونهم في هذا المذهب .

« ولكن أسراً آخر قد اتفق عليه الرجال والنساء ، ومن العجيب أن هذا الاتفاق بين الجنسين يكاد يكون موجودا في مراكش أيضا ولكن بأقل حدة ، هذا الأمر هو إسقاط الحجاب ! فقد كتب كاتب ، لا كاتبة ، يقول : الحجاب يساعد المرأة على ارتكاب جميع الانحرافات الخلقية بالسباح لمن بالاختفاء عن الانظار . الى أن قالت الجريدة .

« لقد أوجز المسبور . مونتاج المذهبيين المتعارضين في الجملة (ليلي) ، فأشار الى أنها يشهدان بوجود أزمة اجتماعية وأدبية مؤثرة : فالمرأة التونسية المسلحة ترداد كل يوم انجذابا

نحو الغرب ، ومواطنها من الجنس الآخر يريد أن يقفها باسم الواجب الوطني . الأمر واقف هنالك عند هذا الحد . فهل يمكن وجود معاهدة سلام بين الجلسين المتنازعين في المجتمع الاسلامي ؟ هذا ممكن لو منع الشبان التونسيون للنساء ، ولو على مضض منهم ، مثل التحرير الذي تنعم به أخواتهن في مصر . ولكن هذا يقضي الى تكليفهن بتحمل نصيبين من المسكحات السياسية التي ظلت الترفيات بصيدات عنها الى اليوم .

(مجلة الأزهر) : إن هذا الصراع الذي يراه القراء حاصلًا في تونس بين الجلسين موجود في كل بلد من بلاد المسلمين على درجات متفاوتة ، وهو أمر طبيعي ، فإن الجماعات الاسلامية التي طال عليها الامد في الفتور ، تتطلع اليوم لتباري الأمم الغربية في عزة الوحد ، ومناعة الحوزة ، واكتمال أسباب الترفيات المعنوية والصورية ، وليس يعقل أن جماعة تتحضر للانتقال من حال الى حال تحمل أمر المرأة وهي نصف عدد آحادها . فلا بد من تعليمها وإعدادها للاشتراك العملي في حركة النهوض التي هي سبيلها ، والتعليم كما يشعر صاحبه بواجباته ، يشعره بحقوقه . وحقوق المرأة مهضومة في الشرق كله ، وخاصة في الطبقتين الوسطى والديا . فلا بدع أن كان أول ما شعرت به المرأة بعد تعلمها أن تطالب بحقوقها ، وما هيبة ؟ هي أن تطلق من كل قيد على مثل المرأة الغربية ، وأن تقتدي بها في كل عاداتها وتقاليدها . ولكن الشرق وخاصة المسلم الذي لم يعتد أن تكون شريكته على هذه الشاكلة ، لا يقبل أن يحسبها هذا القدر من الحرية ، فيقع الراح بينهما ، ولا نعدم المرأة أن تجدد أنصارا من بعض الرجال ، فتقوى حجتها ، وتشتد خصومتها ، فيصطر مجادلوها الى التراجع إزاء هذه الحملات العنيفة ، فترداد نشبتا بأرائها ، وفي هذه الأدوار يصبأ رجال كثيرون الى مذهبيها ، إما تسليبا بالأمر الواقع ، تقاديا من التساع الخرق على الراقع ، وإما اقتناعا بحجتها ، وافتتاما بمظاهر الحياة الغربية .

على هذا النحو نالت قضية المرأة في الشرق فُلجعا مريعا حاسما لم تنله المرأة الغربية في قرون كثيرة . ولو كان ماعليه المرأة الغربية خيرا كله أو نصفه ، لهُتأنا أنصنا على هذه الثمرة الجنية ، ولكنه ليس كذلك لا قيا يختص بالرجال ولا قيا يتعلق بالنساء أنفسهم ، ولكن من يسمع ؟ إن كل ما نالته المرأة الغربية أنها أصبحت مستقلة كالرجل ، فصارت لا تُعتبر النصف المكمل له ، ولكن القرن المناظر له . وهذا من الناحية الخيالية الشرعية حسن ، وعند بعضهم أكثر من حسن ، ولكنه في الواقع خسران كبير على المرأة يجعلها أسيرة للرجل رصيت بذلك أم سقطت .

إن حركات الاجتماع كلها سائرة على نظام آلي لا يتخلف ، وليس للخبرة قدرة على تحصيله مرضاة لمعاطفة ، أو تحقيقا لمصلحة . فكما لا يستطيع المصريون ، حكاما ومحكومين ، أن يزيدوا في نمن قطار القطن قرشا واحدا ، كذلك لا يستطيعون أن يرفعوا قدر أي طلبة من الأمة

أو خفضها بإرادتهم ، فهل لو استنقت المرأة عن الرجل فأصبحت مناظرته المزاحم له ، لانصفه المسكول له ، تستطيع أن تساويه في مجال المزااحات الحيوية ، فتعيش بجانبه على قدم المساواة ؟ هذا محال ، لأن محصول قوى المرأة لا يزيد عن ثلثي محصول قوى الرجل ، فكيف يتأتى أن تكون وإياه في مستوى واحد ؟ وكيف يستطاع أن لا تقع تحت سلطانه ؟ تحت سلطانه لامن الناحية الزوجية ، وهي تقتضى من الاحترام لها والعطف عليها ما تحتمه الديانة والمدنية للزوجة ، ولكن تحت سلطانه من الناحية الاقتصادية ، وهي محكومة بقوانين فولاذية لا تعرف العطف ولا الرحمة .

المرأة لا تنكر قصورها من هذه الناحية ، ولكنها تتخيل أنها تتدرك هذا القصر بأنها ضرورية للرجل ، وأنها الحافظة للنوع . وهي مغدوعة في هذا التخيل ، فان ما أحدثه فوزها بالاستقلال طوح بالكثير من بنات جنسها الى الاياحة ، فلم يعد الرجال يشعرون بضرورة الحياة الزوجية ، وأما أنها حافظة للنوع ، فهي أحوج لحياة الأمومة منه ، أما هوفقلما تهمة حياة الأيوة وقد ظهر خطر استقلال المرأة في أوروبا على أشنع حالة ، فقد انتشرت العزوبة هنالك انتشارا مروعا ، وزاد عدد العائلات زيادة فاحشة ، حتى صرن سببا مباشرا لتعطل الرجال عن العمل ، وقتل أجورهن الى حد لا يكفى لحياتهم إلا بتدراك نقصه من طريق آخر ، سوى الأثر على بنية الاجتماع .

إن حل مسألة المرأة ، وإحلالها محلها الطبيعي في الشرق ، أصبح متعذرا ، لأن موجة الفرد السوى التي نارت في أوروبا لم تبلغ نهاية مداها بعد ، وهي في أثناء طغيانها لا بد محدثة تأثيرا في بلاد الشرق ، وهيهات أن ينجع النصحاء بوجوب اتقاء مظان الزلل المسبب عنها ، مادام لا تزال في مفتتح العمل ، فالمخدوعون عندنا من الرجال والنساء لا يزالون بعيدين عن تنور مواطن الداء الدوى في تلك الحركة العالمية ، فاهم ما يرحوا يعتقدون أنها متمشية نحو المثل الأعلى ، وهي في الحقيقة تسير الى حل نظام الزوجية ، وقد اعترف بذلك أقطاب العلم الاجتماعي مما لا سبيل الى نكرانه . فالعزوبة ترداد انتشارا ، والطلاق أصبح يسمح به لأسط الأسباب ، والمخادعة صارت ديدن الكفاة ، وهي تمدد للزوجات مجرداً من كل الضمانات التقاوية للنساء ، خلافا لتعدد في الاسلام ، فان فيه كل الضمانات التي تقضى بها العدالة . والتبرج النسوى أصبح نظرا ينظر اليه الرجال بعين الرضا ، بل يحذرون زوجاتهم عليه حملا ، وقد تبع هذه الحالة طادات وتقاليد ليس وراءها إلا مصير واحد : وهي الاياحة بما تحمله في ثيابها من آفات الاجتماع ، وأدواء الأمم . فهل تتحلف سمة الله فيحترم الوجود كل هذه الانحرافات الخلقية لمجرد أن الشهوات النفسية أصبحت تحتمها ؟ « ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به »

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

نحاول اليوم أن نعرض لمسألة كانت ولا تزال في نظام الوقف بمنزلة القطب من الرمح ، وهي أن يقف الواقف على نسله وحديثه وعقبه وأولاد الظهور والباطون والآل والجلس وأهل بيته وقرانه وأرحامه وألسانه . فما تواضع عليه علماء الفروع ، أن الواقف لو قال : وقفت هذه الضيقة على ذريتي أو على نسل وقف الوقف صحيحا ، ويدخل في صيغة وقفه ولده وولد ولده وإن سفل ، الذكور والإناث منهم وأولاد البنين وأولاد البنات في ذلك الشمول سواء .

ولو قال : وقفت على عقبى صح الوقف ، ودخل فيه كل من ينتسب إليه فالذات أو بالواسطة . فالصورة الأولى أولاده لصلبه ذكورا كانوا أم إناثا ، ومن ينتسب إليه بواسطة أبيه كالأذكور والإناث من أولاد نفيه وإن سفلوا على الصورة الثانية . وفي هذه الحالة لا يدخل أولاد بناته وإن سفلوا ، إلا أن يكون آبائهم من أولاد البنين . وكذلك أولاد الظهور في هذه الحالة . أما أولاد الباطون فهم الذكور والإناث من أولاد البنات وإن سفلوا .

نقل صاحب البحر صورة غريبة من صور الوقف فقال ملخصا . لو قال الواقف وقفت هذه الأرض على أعمامى وعلى أهل بيتى ومن بعدهم للمساكين ، صرح هذا الوقف لاستحقاق أعمامه في وجهى الانشاء جميعا ، إما بأنفسهم أو بأبائهم ، لأنهم من أهل بيته اتفاقا ، وفي هذه الحالة تقسم غلة الوقف على عدد أعمامه وثيقة أهل بيته ، فما أصاب الأعمام أخذوه ، وما أصاب وثيقة أهل بيته يسقط عنهم ، لأنهم يستحقون في حالة ولا يستحقون في حالة أخرى ، فكان هذا الشك باعثا على الحرمان ، ضرورة أن الاستحقاق لا يثبت بالشك ، وفي هذه الحالة يصرف ما يخصهم إلى المساكين .

ونقل العلامة ابن عابدين : لو قال الواقف : وقفت أرضى على أقربائى أو ذوى قرابتى أو رحاى أو أسابى ومن بعدهم هؤلاء جميعا للمساكين ، وقع الوقف صحيحا ، وشمل كل من يدخله في النسب بواسطة أمه أو أبيه إلى أقصى أب للواقف أدرك الاسلام ، ما عدا أبوى الواقف وأولاده لصلبه ، ضرورة أنهم لا يسمون أقرباء اتفاقا بين العلماء ، لأن الله قد وضع لهم أسماء تميزهم عن عدام . فالأب والام أم والابن ابن والحفيد حفيد ، وكذلك من علا من جهة أبويه أو سفل من جهة أولاده عند أنى يوسف وأبى حنيفة . وقد خالفهما محمد في هذه الحالة فقال باستحقاقهم حيث اعتبرهم من أقارب الواقف . وذهب ابن عابدين إلى أن هذا الرأي هو

ظاهر الرواية . ويدخل في الوقف على تلك الحالات السابقة المحارم وغيرهم ، قربت درجة قرابتهم من الواقف أم بعدت ، فالحكل في ذلك سواء عند صاحبين .

لكن الامام أباحنيفة رضى الله عنه اعتبر الاحرمية الاقرب منها فالأقرب مقياسا لدرجة الاستحقاق . ونقل العلامة ابن عابدين أن رأى الامام هو الصحيح وعليه الفتوى .

وقد فرغ علماء الفروع على الخلاف السابق في المحرمية بين صاحبين والامام الاعظم أن الواقف لو وقف عيالا على ذوى قرابته وكان له عمان وخالان كان الوقف كله للمعين على رأى أبي حنيفة لأقربيهما من الواقف عن الخالين .

ولو كان للواقف عم واحد وخالان كان للعم النصف ، وكان لخالين محتمين النصف الباقي بالسوية بينهما ، لأن العبرة عند أبي حنيفة في الاستحقاق بالأقربية في المحارم ، فمن كان أقرب الى الواقف كان أدخل في الاستحقاق ممن هو أبعد منه .

وإنما أعطى العم وحده نصف الموقوف وقسم الباقي بين الخالين بالسوية ، لأن الامام لا يعتمد في المحارم على أقل من اثنين ، ولما كان العم قريب المحرمية بالواقف عن الخالين نزل الخالان منزلة العم الواحد في الاستحقاق ، فالواحد عنده يستحق النصف والباقي لمن يابيه في القرب .

وعند صاحبين يقسم الربع على عدد الرءوس في الخالين ، لأنهما لا يعتبران الاقرب فالأقرب ، ولا يشترطان الجمع .

والذين يرون رأى أبي حنيفة يستدلون على صحة ما ذهب اليه بصورة أخرى ، وهي لو قال الواقف : وقفت أرضي هذه على محاربي الاقرب منهم فالأقرب ، ففي هذه الحالة تشمل القرابة أولاده من صلبه ، ويكون الاقرب مقدما على من دونه في القرابة ، وإنشاء الواقفين ؛ بدأ بمحمول على ما يستسيغه العرف وتقضى به التعاليم الدينية ، والأقربية بلا مرء قد اعتبرها القرآن مقياسا في آية المواarith .

وإن كان في هذه الحالة لا يعتبر الفقهاء القرب المعتبر في الارث ، ولا بحسب العصبوبة ، وإنما يعتبر القرب في باب الوقف أقرب الناس الى الواقف رحما .

فلو وقف الواقف على أقرب الناس اليه هم على المساكين وله ولد وأبوان ، فالغلة للولد ولو كان أنثى ، لأنه أقرب اليه ممن عداه . فدار الأقربية عند علماء الوقف الأقربية في الرحم لا الأقربية المعتبرة في باب الارث ولا في باب العصبوبة ، والآب والام متساويان في القرب ، فيكون الحكل مهما نصف الغلة فيما لو وقف على أقرب الناس اليه ، وهما أقرب من الاخوة والجدة ، والجدة لاب أقرب من الاخوة على قول من يجعله بمنزلة الآب ، والاخوة أقرب منه على قول آخر .

ولهذا البحث تعاريج كثيرة تعود اليها في الأعداد المقبلة ، إن شاء الله تعالى

مؤلفات جديدة

العرب والاسلام في العصر الحديث :

هذا عنوان عدد ممتاز أصدرته دار الهلال لمجلتها، وهو أثر يعتبر مثلاً أعلى لما تستطيعه الألفية الصحفية، والابداع المطبوع. أول ما يستوقف نظر القارئ، منه غلاف مذهب أنيق محلى بنقوش عربية جميلة، فإذا كشف عما بين دفتيه تجلت له مجموعة من مقالات وصور وخرائط على غير مثال سابق يتحلى لك منها كل ما تريد معرفته عن العالمين الاسلامي والعربي في العصر الراهن. وهذه أول مجموعة اشترك في وضعها ملوك المسلمين وعلمائهم وأدباؤهم، فتجد في مقدمتها كلمة جليلة القدر، عظيمة الأثر، لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول، تليها كلمات لحضرات أصحاب الجلالة، ملوك الحجاز والعراق وشرق الأردن، ويأتي بعدها بحث شائق ممتع لحضرة صاحب القضيعة الأستاذ الامام الشيخ المراغى في حاجة الأمم بعصا الى بعض، وعناية الاسلام بنشر مبدأ الأخوة الانسانية، وقد واثى فضيلته الاحسان كله على طاعته في كل ما يكتب.

ثم تتوالى أمامك البحوث والصور عن مسلمى الأرض قاطبة حتى لا تبقى لك الى المزيد. خبيلاً وأكرم هذه المجموعة الكريمة، وشكراً للاستادين الكبارين صاحبى دار الهلال.

التحقيق التام في علم الكلام :

علم الكلام من العلوم الاسلامية الخلية القدر، لأن موضوعه البحث في الالهيات والشئون والوحي والقرآن، وهذه البحوث كلها تقتضى الكلام عن الدليل وجهات قوته وضعفه، ومذاهب العلماء في النظر الصحيح والفاسد، ومعنى الوجود، وآراء الحكماء في الوجود الواجب، وحجج إثبات الصانع، وتحقيق مسألة الصفات ومذاهب العلماء فيها، والتنزيه وصرماه، وأفعال الله وأفعال العباد، وآراء أهل السنة والمعتزلة، والحاجة الى نعمة الرسل، وأقسام المعجزة، وإثبات النبوة، وصفات الرسل. وكلها مباحث شائقة طريفة. وقد لخص كل ذلك وصاغه صياغة قيمة حضرة صاحب القضيعة الأستاذ الحليل الشيخ محمد الحسيني الظواهري المدرس بكلية أصول الدين، وقد خدم فضيلته العلم بهذا الأثر الجليل خدمة تذكر له ونشكر.

حرية الفكر في الاسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر على مجلة المصور بمحدث يتناول حرية الفكر ، وتبرج النساء ، وصلة الأزهرين بالحياة العامة ، والعيد الألى للأزهر ، فأبنا أن نسجله لمضيلته في مجلة الأزهر ، فان هذا الحديث على إيجازه قد اشتمل من آراء الأستاذ الامام الناضجة ، وكلماته النابغة ، ما لم نجد بدا من ضمه الى نقائره من آثار فضيلته في هذه المحلة . وسيجد القراء في هذا الحديث الطريف مثل ما وجدوه في جميع أحاديث الأستاذ الامام من بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، وإصابة المرمى ، ونبالة القصد . وقد احتوت هذه القطعة على إيجازها من ذلك كله حصه وافرة .

سأله مندوب مجلة المصور قائلا :

يقول بعض الناس لمسألة الضجة التي قامت حول رواية « برناردشو » أن الأزهرين يناهضون حرية الفكر ، فما رأى فضيلتكم في ذلك ؟

فأجاب فضيلته بقوله :

يسمى أن يعرف أن الإيمان لا ينال بالإكراه ، وفي القرآن الكريم « لا إكراه في الدين » وفى آية أخرى - « أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . وقد أرشد القرآن الكريم الى التدبر في مصنوعات الله والتفكير فيها ، وأنصف المخالفين فقال لهم : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وقد اتسم المسلمون الى فرق متعددة في العقائد والفقه ، وقد جمعت آراء الفرق كلها بادلها وجرى عليها المقد العلمى ، والأزهر يدرس طائفة صالحة من هذه الكتب وفيها أيضا مذاهب فلاسفة اليونان وغيرهم من الأقدمين ، وبعض هذه المذاهب يخالف أصول الاسلام ، وقد اشتملت كتب التفسير أيضا على ذكر المذاهب المناقضة للقرآن الكريم وأصول الاسلام ، وتكفلت بإرد عليها ومن هذا يعرف أن سلف الأمة كانوا يتناولون هذه المذاهب ويمنون بالرد عليها . وإلى الأزهر يجرى على سنتهم . وفي الأزهر اليوم تدرس المذاهب الفلسفية الجديدة والتقدمية ، والمذاهب الخلقية ، ويعنى العلماء بالرد عليها ، وإذا كان هذا هو شأن العلماء فى الماضى ، وشأن العلماء فى الحاضر ، فكيف يقال إن الأزهر يناهض حرية الرأى وحرية الفكر ؟ غير أنه ينبغي أن يعرف أيضا أنه كما أن بعض الناس يؤمن تقليدا ، كذلك بعض الناس يلحد تقليدا ، أو يلحد نظرا . فقد شاع فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر

بين طبقة من المتمردين النظرف بالاحقاد ، والزراية على الأديان وأهلها ، لاعن تمكير وتمعق في البحث بل عن تقليد للثريين . ويظهر أن المسئل القديم « أنظر من زنديق » هو الذي أغرى هؤلاء بالزندقة ، ليكونوا ظرفاء . وهناك أيضا نوع من أنواع الاحقاد هو الاستخفاف بالدين ، سببه أشباع الشهوات ، لأن التقيد بالدين وإظهار الاعتقاد به قد يكون مانعا من الاسترسال في الشهوات ، وأصحاب هذا النوع لا يفقهون ادلة ولا يفقهون عقيدة ، وإنما يظهرون الفلسفة الجاهلة إشباعا للشهوة .

الحلال بين والحرام بين :

والحرية التفكير والرأى مناطق لا يجوز أن تتمدها ، محافظة على كيان الأمة وعلى أخلاقها ، فإن الجمهور الجاهل والنشء المتعلم يجب أن يحاط بسياس الدين وتقديسه ، وإلا تفلت من كل فضيلة ، وذهب وراء الشهوات ، وارتكب أنواع الجرائم والموبقات ، وكل شخص يحاول أن يمس عقيدة هؤلاء أو يشيع بينهم الزراية بالأديان ، ويشيع المبادئ التي من شأنها تقويض أركان الاسلام ، شخص مجرم لا شفقة في قلبه ولا رحمة ، ولذلك يجب ألا يكون في المجالات أو الحرائد شيء من هذا . لكن العلماء المخلصين في البحث إخلاصاً حقيقياً للمعلم لهم الحق في شرح المذاهب على الطريق العلمي بالأسلوب الذي يتعاضى الزراية والمطاعن .

وإذا كان في تلك الآراء ما يخالف أصلا من أصول الاسلام ، وجب على علماء الاسلام أن يقوموا بإحجامهم وهو بيان ما في تلك المذاهب من فساد وما عليها من نقد .

ولا أنظر أن الشكوى من الأزهر يحىء أكثرها من جهة مناهضة الآراء العلمية ، بل يحىء أكثرها من الآراء في مسائل الاجتماع ، ومن رأى أن المسائل الاجتماعية التي للدين رأى واضح فاطع فيها لا يجوز السكوت عليها ، فإذا ذهب كاتب مثلا إلى تحبيذ الحياة الخلية ، وإلى وجوب إعطاء الحرية فيها ، لم يكن هذا رأيا يستحق الاحترام في بلد إسلامي . فتبرج النساء مثلا وسفورهن مع الخلعة والمراقص وشرب الخمر والبغاء وما أشبه ذلك مما نص فيه الاسلام نصا صريحا ، لا يجوز أن يكون محل بحث ، ولا أن يسكت عنه ، وليس الحديث فيه مباحضة لحرية الرأى ، بل هو مناهضة للشرور والآثام المقوضة للمعمران .

ثم سأله :

وماذا ترون فضيلتكم في المناقشة التي دارت في مجلس النواب حول تهتك النساء

والفتيات ؟

فأجاب فضيلته بقوله :

— ليست مسئولية هذا الفساد واقعة على جهة واحدة بل يجب أن توزع ، فهناك أبواب

الأسر ، وهناك المدارس ، وهناك العلماء ، وهناك الحكومة ، كل أولئك يتحمل كل واحد منهم بعض الورد في هذا ، ومتى استهان الناس بدينهم وأمور الخلق ، وجبر هذا الى فساد النظام الاجتماعي ، وجب على الحكومة وقادة الأمة أن تتدارك هذا وأن تقاومه بالحزم ، وليست الأمور التي يشكو الناس منها خفية في الدين ، حتى يقال أن العلماء قصرُوا في بيان أحكامها .

ومن الدين ما هو ضروري يتساوى فيه العالم والجاهل ، فحُرمة الزنا وحرمة الربا وحرمة القتل وحرمة الاصرار بالناس وحرمة الحر ووجوب الصلاة ووجوب الصيام ، كل ذلك يعرفه الناس على اختلاف طبقاتهم ، ولا فرق فيه بين العالم والجاهل . ومن الكلمات المعروفة يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وأول واجب على الحكومة التي تعترف بالدين أن تحافظ على الدين وعلى مظاهره .

ثم سأله :

ما هي الجهود التي يبذلها الأزهر الجديد لتوثيق صلة الأزهرين بالحياة العامة ؟ وما الذي تحقق الى الآن من وسائل التجديد ؟ وما الذي تعتمونه فضيلتكم مستقبلا في هذا الشأن ؟ فأجاب فضيلته :

هذا السؤال يحتاج الجواب عليه الى حديث طويل جدا ، وكل ما أستطيع قوله الآن . إن خطاط الدراسة في الأزهر ومناهجه جعلت الأزهرى الحديث أكثر صلة بالناس وبالمتعلمين على الطريق المدني من الأزهرى القديم . وقد اتصل الأزهر بالأمة عن طريق الوعظ والارشاد إتصالا لا بأس به ، ومن المنتظر أن تحيي الأمة ثمار هذا الاتصال وتغار التعليم الجديد وكل شيء في هذه الحياة لا تحيي ثمراته فورا .

والأزهريون الآن يشاركون الكتاب على صفحات الجرائد والمجلات ، ويقومون بالوعظ على المسابر والجمعيات والأعياد ، وغير ذلك على نحو يهرك من طاش في مصر منذ أربعين سنة أنه منهج جديد قيم معبد ، وأنه يفوق القديم بما لا يمكن التعبير عن قدره .

ثم سأله أخيرا :

المعروف أن الجامع الأزهر بدأ في بناءه عام ٣٥٩ هجرية وتم بناؤه عام ٣٦٩ هجرية ، فأى ميعاد من هذين نويتم اعتباره عيداً ألقيا للأزهر ؟ وماذا أعددتُم لهذا العيد ؟ وإلى القراء إجابة الأستاذ الأكبر :

أرجح أن الأزهر يعد احتفاله بعيدة في التاريخ الذي يحتفل فيه بعيد القاهرة ، ولم نعد لذلك شيئا له قيمته حتى الآن ، وأرجوا أن تتم مباني الأزهر ومباني المكتبة وما يلزم ذلك من المرافق العامة قبل حلول الميعاد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

قلنا في فصل مضى إن النبوة مرتبة روحية يسأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى ، ويسمى هذا التلقى وحيا ، وقلنا إن الوحي رغما عما يثيره ضده الماديون ، شاهد محسوس في العالم الحيواني لا يستطاع تجاهله ، ولا قيمة لما عطل به أولئك الماديون هذا الوحي الحيواني ، كما أثبتنا ذلك بكل حجة . ثم ألمنا بما كشفه العلم من التسويم المنطائيسى ، وما تجلى فيه من وجود شخصية باطنية للإنسان أرق من شخصيته العادية ، ليس للإنسان بها أقل علم ، وما ثبت من وجود أفراد من كبار الرجال شهدوا أنهم كثيرا ما هدوا إلى حلول نظرياتهم المعويصة فجأة بدون إحالة نظر ، أو أنهم يسمعون ما ذانهم ما يجب أن يكتبوه ، أو يروون بأعينهم ما يجب أن يؤلفوه الخ . ثم ختمنا ذلك بقولنا : « هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (ه . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، وأما لا أريد أن أثبت بما أنقله أن السوء عقريه ، أو هى من نوع الحوادث التى سردها هنا ، ولكننا سقنا ماسقناه للتدليل على أمرين عظيمين : أولهما وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس ، وثانيهما وجود اتصالات روحانية باطنية تعد الإنسان بعلم ، وتسمقه بهداية من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس الخ »

واليوم أطالع موضوعا آخر أخص من كل ما تقدم وهو نوة محمد بن هدى الله صلى الله عليه وسلم ، فأدرس أولا الأدوار التى سبقت عنده الوحي ، ثم أتبعها بأدلة صدقه ، متوجها فى ذلك الأسلوب الذى تعهدت بالجرى عليه ، وهو الأسلوب المنفق عليه فى الزمان الأخير فى تحقيق مسائل العلم .

كيف بدأ محمد معيشته كفرد فى القيلة التى أنجبته :

ولد محمد فى سنة ٥٧١ للميلاد فى أشرف قبيلة عربية وهى قريش ، ومن أكرم أسرة فيها وهى أسرة بنى هاشم . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . وأمه آمنة بنت وهب وهى قرشية أيضا . توفي والده عبد الله ومحمد جنين فى بطن أمه لشهر بن مضيا من الحمل به . وولد فى دار عمه

أبي طالب، وأمه جده عبد المطلب عمداً . فلما بلغت سنه الرابعة أو أكثر توفيت والدته ، فكفله جده عبد المطلب وكان سيد قريش ، ولم يلبث أن توفي ، فكفل عمداً عمه أبو طالب وعمره ثمان سنين .

ولما بلغت سنه إثنتى عشرة سنة بدأ لعمه سفر الى الشام للتجارة فاستصحبه معه .
ولما بلغت سنه العشرين حضر مع قومه حرب الفجار ضد بني قيس .

وكان كسب عمه منذ ألقى على مائه أن يموت نفسه ، من رعاية القوم لأصحابها على قراريط يأخذها .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين دهنه سيدة ذات مال تدهى خديجة بنت خويلد ليسافر الى الشام في تجارة لها ، وكانت تسافر الرجال لهذا الغرض ، فسافر عبد بن عبد الله الى ذلك الإقليم مع غلام لها اسمه ميسرة ، فباع واشترى وأربحها ربها عظيماً ، فوجدت فيه الرجل القوى الأمين ، فخطبته لنفسها فتزوجها ، وكانت تناهز الأربعين ، اشتهرت بالعقل والتصون . فصار عمه يعمل في مالها حتى دعى للرسالة .

واتفق وهو في الخامسة والثلاثين من عمره أن حدث سيل جارف انصدت منه جذران النكبة ، وكانت وهنت من حريق كان أصابها قبل ذلك ، فرأت قريش أن تهديها وتعيد بناءها ، فكان أشراؤهم وكبراؤهم يحملون الحجارة على اكتافهم تبركاً بالمعمل لإقامتها ، وكان منهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه عبد الله .

ولما جاء وقت وضع الحجر الأسود مكانه تنافس أشراف قريش في وضعه ، واختلفوا حتى كادت تقب بينهم حرب من أجله . فأشار عليهم أمية بن المغيرة المخزومي أن يحسبوا رجلاً منهم يرضون حكومته . فقالوا نكل أمر الحكم لأول داخل علينا . فكان ذلك الأول عمداً ، فأجبروه الخبر ، فبسط رداه ووضع فيه الحجر ، وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، فرفعوه على هذا النحو حتى انتهوا الى موضعه ، فأخذوه هو ووضعوه فيه .

نفسية عمه قبل النبوة وبعدها .

لم يشتهر عبد بن عبد الله قبل مبعثه ، ماعدا الاستقامة الخلقية ، بشيء من المميزات السامية والثقافية ، فلم يكن بالشاعر الذي يرن أوتار القلوب ، ولا بالخطيب الذي يخنلب أهواء النفوس ، ولا بالعالم الذي يستهوى شهوات العقول ، ولا بالفارس الذي يلجأ اليه في حماية الخوذة إذا جد الجد في حرب زبون . ولم يعرف بشيء مما كان العرب يعملون عليه في منازعاتهم ومكاتراتهم وممانعاتهم ومنافراتهم ، فلم يعين مرة ، بمد تشاور ، قاصياً في نزاع ، ولا فيصلا في خلاف ، ولا مرجعاً في مجهول ، ولا حكاماً في منازعة .

لقد كان لدى العرب رجال يلوذون بهم في المهام التي تطرأ عليهم مناسبة لحياتهم القبلية . فكان لديهم قافة يتسمون بهم أثر الجناة ، ونسابتهم يصعدون بالمرء الى أرومته الأولى ، ومنطوية يلتصقون عند العلاج ، ورواة يرجعون اليهم في الشر والكلام البليغ ، ومحكرون يعوذون بهم في المنازعات ، وكهان يعتقدون فيهم الاتصال بالروحانيات ، فكانوا يسألونهم عن الغيوب ، ولم يكن عهد في شيء من هذه الخطط كلها ، فمات بين قومه لا يلفت لأحدهم نظرا ، ولا يستهوى بمظهره المادي لها .

اشتغل في طفولته راعيا فلم يحتر عن زملائه في شيء غير استقامة سيرته ، وكرم شجاعته ، وبعده عن السفاسف . فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كوسط أهلها لم يزل أمثاله في شيء غير أمانته في الأداء ، وعدائته في المماوضة .

كل إنسان كتب له التسويع في حمل من الأعمال يظهر عليه ميل اليه في طفولته ، فمن قدر له أن يكون شاعرا أو كاتباً أو خطيباً أو حكيماً أو قائداً تمت فطرته عليه فمدرت منه ، وهو طفل ، ما يدل على ما سينشأ فيه ، ولم يظهر على عهد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤول اليه غير ميل كان فيه الى السكينة والتفكير ، وكلما تقدمت به السن ازدادت حاجته اليها حتى تأدى به ذلك الى تمضية أيام بلياليها في غار بقرب مكة يقال له حراء ، فكان يمضي فيه قارة ثلاثة أيام وقارة سبعة وقارة تسعة وقارة شهرا ، يحكى فيه وحده متفكرا متديرا .

هذه هي الصفة التي ميزت عهد بن عبد الله عن غيره من أهل جيله ، وهي صفة لا يحوز أن تغفل أو أن يمر بها مرأ ، لأنها مظهر ما استتر في سويداء نفسيته من النزوع الى أفق الروح ، والاتصال بعالم الملائكة الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة قسما بشرية لا وجهتها هذا التوجيه الروحي على قدر ما فيها من قوة . ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعور عهد استيعابا لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه الى غار موحش أياما وليالي متوالية يمضيها في التفكير وتمس المخرج من الحيرة . من أي ضرب كانت هذه الحيرة ؟ من الضرب الذي يشغل بال الكثرة من أصحاب القلوب ، والبررة من أولى العزم - تخلص النفس من ظلمات المادة وتخلص الغير منها .

ونحن إذا كنا نحمل محامد عهد قبل النبوة لقله إكتراث الناس له ، وعدم أنيهم به ، فإننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والشفاف للناس حوله ، ونقلمهم عنه كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه . والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب في أول أدواره ، بما عرفه منها بعد وصوله الى قمة المجد ، وبلوغه غاية مرامه ، يكاد لا يعدو الحق ، فإن المعهود عادة أن الإنسان قد يطفئ النجاس ، ويفسد قلبه الفأج ، فيصبح حبارا عنيدا بعد أن كان وادعا متواضعا ، ولا عكس . فكل ما دُوِّن عن عهد صلى الله عليه وسلم ، بعد مبعثه من شمائل وآداب كانت لا شك له وهو في ميعة الصبا وعدم استكمال سن النبوة .

وقد دُون من شمائله أنه كان وادعا متواصعا ، هينا لينا ، يلقي أحبابه هاشا باشا ، لا يترفع عليهم ، بل يؤثرهم على نفسه ، ولا يسمح لهم بتعظيمه وتقييل يده ، وقد طاش طول حياته متفشفا مخشوشنا ، لم يشبع من خبز الشعير الذي كان يفضل على غيره . وقد بقي منصفاً بهذه الفضائل حتى اختاره الله لجواره .

قال الحسن بن علي رضي الله عنه : سألت هند بن أبي هالة ، وكان وصافاً ، فقلت صف لي منطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصلاً الأحزان ، دائم العكرة ، ليست له راحة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بمجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دفت ، لا يذم منها شيئاً غير أنه لم يكن يذم ذواكاً (أي طعم شيء) ولا يمدحه ، ولا نفسه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا نُعِدَّ الحق لم يقم لغضبه شيء ، (أي لم يقم لدفع غضبه شيء) حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث أنصت لها وصرب برأحه اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأفاح ، وإذا فرح غص طرفه ، جل ضحكه النسيم ، يفرح عن مثل حب الغمام » .

إن هذه النفس الخائرة الثائرة ، التي لم تجد في العالم المحسوس ما تمول عليه ، وتوكل إليه ، فأخذت تلتصق بلال غلتها ، وسكن جيشانها ، في عزلة الكهوف ، وظلمة المغاور ، وهي محرومة من ملاذ المطامع والمشارب ، ومتع المكاسب والمآرب ، لم تقس لم تطيع على غرار هذه النفوس العادية ، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها في محاولاتها اليومية . وإلا فإذا كان يقصر هذا إمداد أن يبلغ مبلغ الرجال ، وأصبح له زوجة وأطفال ، وعمل شريف يتكسب منه ، حتى يؤثر على لذات الحياة البيتية ، ومتع المحاولات الاجتماعية في سبب استكمال القوة ، واستتمام الفتوة ، حياة الانقطاع عن الناس ، وتجنب معاملتهم في الفترات التي تسمح له بها أعماله المادية ؟ إن تحقيق هذين المطلبين لا يكون إلا في الأسواق العامة ، حيث يكتسب الباهة والشارون ، وفي الجامع والأندية حيث يجتمع العقلاء ويتشاورون ، لا ركسر فارغ على رأس جبل لا يرقى إليه الطير .

لم تكن البيئة العربية بالبيئة التي تحفل بالمسائل الروحية وتعلم مدعى تمثيلها بين الناس ، فلم يكن فيهم مثبتة ولا مترهدة يعظمهم الناس ويتلصقون بدعائهم البركات ، ولا عباد إنقطعوا للعبادة في الصوامع على نحو ما كان عليه أهل الكتاب ، وكل ما كان لديهم من هذا القبيل كيان يدعو الاتصال بالجنان ، وما كان لهم من كبير شأن عند العرب حتى يطمع امرؤ في أن يعد من زميرتهم .

هنا يحار الفيلسوف في تحليل لجوء محمد بن عبد الله ، وقد مهد له طريق الحياة ، الى خار بعضى فيه أياما كثيرة ، في بيئة مادية محضة ، ليس فيها ما يفرى بالانقطاع للعبادة ولا بالتفرغ للتمكيز . ماذا كان يريد محمد بن عبد الله من وراء هذه الميزة الشاقة ، والعناء الكبير ؟ لا نجد الفلاسفة إلا جوابا واحدا ، وهو أنه كان نافرا عما عليه قومه من الضلال البعيد ، كارها أن يشاطروهم هذه الحياة الحيوانية ، فلم ير إلا أن يلجأ للتمكيز طلبا للهداية الى سواء السبيل . مطلب بعيد ، ولكن القلوب الكبيرة تلهم أنها مستقر أسرار خطيرة ، ومستودع أنوار يرتد عنها الطرف وهو حسير ، فتلجأ الى ذاتها تستثير قواها السكانية ، وتستجيش مساهرها الثابثة في سويدها مضاهيها الصميم .

هذه كانت بداية كل نابغة كبير ، وكل مصلح عظيم .

ولكن فيلسوفنا لا يكاد ينتهى الى هذه الحقيقة ويفرح بها حتى يعترضه أمر خطير : وهو أن محمدا لم يخرج من قاره نابغة كبيرا ، ولا مصلحا عظيما ، ولكنه خرج خائما ترتعد فرائسه ، فلجأ الى داره وهو يقول لأهله : زملوني زملوني ، أى ذروني ذروني ، فقد كان يشعر ببرد شديد من هول ما ظهر له من الشأن المهول .

هنا يعترف الفيلسوف بالعجز عن فهم ما حدث لمحمد ، ويترك مكانه للبسيكولوجي الخبير . فيتساءل هذا : ما الذى أصاب محمدا حتى اعتراه هذا الدعر الشديد ؟ فيعلم أنه لما خرج من الغار خائفا الى أهله فقال لهم : ظهر لي شخص وقال لي : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الى هذه الأمة ، ثم قال لي اقرأ . فقلت له ما أنا بقارى ، (أى إني أبى لا أعرف القراءة) ، وكنت نائما على نمط (وهو نوع من البسط) فغطى به (أى ضم به بأن حمله على فيه وأنه) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارى ، فأخذنى فغطى ثانية ثم أرسلنى ، ثم قال اقرأ . فقلت ما أنا بقارى ، فأخذنى فغطى الثالثة ثم أرسلنى ، وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فقرأتها وانصرف عني وقد استقر ذلك في قلبي .

ثم يعلم ذلك البسيكولوجي أن ذلك الشخص لم يظهر لمحمد ثانية إلا بعد أربعين يوما وقد يش من عوده . فبينما هو يمشى يوما إذ سمع صوتا من السماء فرفع اليه بصره ، فإذا هو الشخص الذى جاءه بالغار جالس بين السماء والأرض . فرجع الى أهله وهو يرتعد رعبا وقال لهم : (ذروني ذروني) أى أذفوني . فأزل الله عليه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثباتك فطهر ، ولا تجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » الى آخر السورة . فصدم بأمر ربه وقام بعد أن هدأ روعه يذهب الى الاسلام سرا ثم أمر بإعلان الدعوة فأعلنها ، وما زال جادا فيها هو يسيله حتى دانت له الأمة العربية فاطمة ولم تدن لاحد قبله .

ولكن البسيكولوجي لا يعتمد بهذا الفلج كله ، ولا يهجم أمره ، والذي يعنيه هو أن يتحقق ذلك الشخص الذي كان يظهر لمحمد ويكلمه أنه صورة ذهنية أم حقيقة لها وجود في الخارج ؟ لأنه يعلم أن ضروبا من الأمراض العصبية وخصوصا المستيريا تظهر للمريض بها أشباها لا حقيقة لها .

لعمري أن الصور المستيرية لا نتيجة لها غير إزعاج المريض وإفلاق راحته ، والتأدي به إلى الجنون أو ما يشبهه ، ولكن الصورة التي كانت تظهر لمحمد كانت تهديه للخير ، وتقيمه على الصراط ، وتحمده بما يجب أن يقوله لأمته ليهديها إلى سواء السبيل ، وقد تم لها ما أرادت . يرى البسيكولوجي هذا الفرق كله ولكنه لا يباين من تعليله ، فيذهب فكره إلى الشبح الروحاني الذي كان يظهر لسقراط ، ولا يرجل إلى أشباح أخرى ظهرت ولا تزال تظهر للكثيرين ، لأن شبح سقراط يجمع على صحته بشهادة جميع تلاميذه هذا الفيلسوف ومنهم أفلاطون واكسينوفون . والمعروف عن شبح سقراط أنه كان يظهر له ويفضى إليه بما يجب أن يقوله أو يفعله ، وكثيرا ما أنفضى إليه بأمور مستقبلية وأحبر بها تلاميذه ووقفت . وسقراط هذا يعتبر إمام الفلسفة اليونانية ، وقد رفعه بعض المؤرخين إلى درجة النوة لسله وفصله واستقامته .

وفيما نحن بسبيله من أمر محمد صلى الله عليه وسلم لا يثبت البسيكولوجي أن يمتدح بمثلك محمد أكثر من اعتقاده بالشبح الروحاني لسقراط (أولا) لا تنفاه افتراض المستيريا في خانم النبيين كما تقدم ، (ثانيا) لثبوت تحقق أمور غيبية كثيرة أنفضى بها الملك إلى محمد مثل قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، وقوله : « لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يصرون » ، وقوله : « إنا لننصر رسلا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ، وقوله : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء (أي سقف بيته) ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ » . وأجل من ذلك كله قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولينكبن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

حتى آنس صاحبنا البسيكولوجي كل هذا قرر أن مملك محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر ثبوتا من الشبح الروحاني لسقراط ، وأجل أثرا منه ، ولكنه لا يزال يشك في كنهه هل كان له وجود خارجي أم هو صورة ذهنية لمحمد أوجدها عقله الباطني ؟ لذلك تراه يميل على استيعاب جميع مراتب الوحي في أثناء نزول القرءان :

(فأولها) الرؤيا الصادقة في النوم .

و (ثانيها) ما كان يلقبه الملك في صدره من غير أن يراه .

و (ثالثها) خطاب الملك له عند ما كان يشتمل له بشراً سوياً

و (رابعها) رؤيته جبريل في صورته الروحانية فيأخذ عنه .

و (خامسها) ما كان يلقي إليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا النوع أشده عليه فإن جبينه صلى الله عليه وسلم كان يتفصد في أثناءه عرفاً في اليوم الشديد للبرد . وإذا انفق حصوله وهو راك بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحي على هذا الضرب وغذاه فوق غد زيد بن ثابت فتقلت عليها حتى كادت ترصها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى إليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتردد وجهه ، وغمضت عيناه ، وربما غط كغطيط البكر (أي الفتى من الإبل) .

كل هذا لا يحمل البسكولوجى المصرى على القول باستقلال جبريل عن شخصية محمد الباطنة ولا يزال يجد نفسه متأثراً بالشبهة التي مؤداها أن نبوته يمكن تعليلها بالاعراض المستيرية . فيرى نفسه مضطراً لأن يتأمل فيما كان يتأثر به من الأعراض عند نزول الوحي عليه ، فيجد ما يأتي :

(١) أن محمداً لم تكن تظهر عليه أعراض عند نزول الوحي عليه إلا عندما كان يلقي إليه بصوت يشبه صلصلة الجرس .

(٢) أن الهذيان المستيرى لا يحدث إلا مصحوباً بأعراض ثقيلة من التخطيط والاضطراب والصباح والمويل ، وهو ما لم يحصل قط لمحمد حتى في أثقل حالات الوحي عليه .

(٣) أن ما ينسب لثبستيريا من الهذيان يحدث في أثناء النبوة ، فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئاً مما قاله . وهذا على عكس حالة محمد فقد كان لا ينطق في أثناء الوحي بشيء حتى يتم ، فيعيد كل ما ألقى إليه ويأمر بتدوينه . وقد كان ، حرصاً منه على استظهار ما كان يلقي إليه ، يعيده بلسانه أو يحرك به شفثيه ، فهذه الحق عن ذلك بقوله تعالى : « ولا تعجل بالقراءة من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً » ، وقوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ، إن علينا جمعه وقرءانه ، فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ، ثم إن علينا بيانه » أى إن علينا جمعه في صدرك فلا نخش أن يفلت منك ، فإذا قرأه عليك الملك فأنصت إليه وتبجح قرأته .

(٤) أن مواضيع الهذيان المستيرية ، لا تخرج عادة عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المثتبة المريضة ، كتنخيل المريض رؤية روح شرير يتوعدده بالأذى ، أو يتقصده بالقتل ، أو يتلقاه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان مستيرى قط موضوعه نشر فضيلة ، أو إذاعة هداية ، أو الدلالة على مصلحة ، وأنت خبير بأن موضوع الوحي الذي كان يتلقاه محمد

صلى الله عليه وسلم كان أكبر شأنا من كل ما اشتغل به العالم الانساني وهو إذاعة الدين الأول الذي أوحاه الله الى المرسلين الأولين ، خالصا من جميع الأوهام البشرية التي ألصقتها به قادة الأمم بفساد بينهم ، وعدوانا على الحقيقة ، وكان ذلك بقصد إصلاح عام للأديان والمعتقدات نذب الحق للقيام بهذه المهمة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل . هذا عدا عما استنع هذا الإصلاح العام من دعوة الأمم للتمارف والتآخي ، والإفضاء اليهم بالأصول الأولية للشرعية المأدلة ، والأخلاق الفاضلة ، والمدنية السكاملة ، مما يشفق الناس قاطبة على صحته ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا من حاجته . وقد أثرت هذه الدعوة فسرت بين الأمم سريان العرق ، ومهدت الطريق لاصحابها للحصول على زعامة الأرض ، ولا تزال تهر العلماء بإياتها ، وتسحر الالباب ببساطتها ، وتفتح القلوب بأدلتها ، حتى قرر أهل البصر أن مآل الناس قاطبة الى حظيرتها . فإذا كان هذا كله أثر هذيان هستيرية ، ونوب مرضية ، فإذا أقيمت إمدد هذا للوحى السماوى ، والفيض الإلهى ، والإشرافات العلوية ، والاتصالات الروحانية .

هنا لا يتالك البسيكولوجى نفسه فيخرساجدا لله وهو يقول .

الهم ما أقوى سلطانك ، وأسطع برهانك ، أمى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان من معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادئ ، وبين ظهرانى أقوام لم يألفوا النظام ، ولم يأنسوا بالوحدة ، مضطربين الى ذلك فواعل الطبيعة المحيطة بهم ، وعوامل الحياة القاهرة لهم ، يفتدب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوم للسكامة الجامعة بينهم ، والطريقة اللائمة لشتمهم ، ملوما لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المطلب الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، مدلا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، والأمثال الساطعة ، وضاربا لهم المثل العملى بالقيام بتأليف أمة عالمية ليس فيها ظل من لعة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، ولا مانع من الاحتلالات القوية والثوية ، وبتوزيع العدالة وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسوية ، أمة خالصة من جميع علل الاجتماع ، كالتوائف المتفاوتة الحقوق ، والطبقات المتنافرة الاختصاصات ، والشخصيات المتوارثة الألقاب ، أمة كل ما فيها حق للكافة على السواء ، والكافة وحده لا تقبل الانقسام ، يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، ومبادئه المبادئ الأولية الخالدة التي لا يعترها تبدل ، ولا يتعنيها انخرام ، أمة رأس مالها المعرفة ، وأصل دينها العقل ، وسلاحها العلم ، وروحها الحكمة ، وغايتها المثل الأعلى فى الحياة .

أمى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان من معترك العقول ، وعن مضطرب النظريات والمبادئ ، يأتى بكل ما ذكرت على وجه لا مجال للشك فيه ، ونصوص صريحة لا تحتمل الصرف ولا التأويل ، لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ، ولا بد أن يكون قد تلقاه من عالم علوى لا من هذا العالم الأرضى . لأن هذه التعاليم التي أتى بها محمد خاصة بالافراد والجماعات

والنظم والدستور، أرق من أية فلسفة تقلت لنا عن الأقدمين، وأرق من مجموعها متضافرة متساندة، وكثير من أصولها سقت زمانها الطبيعي بعدة قرون، وبعضها بعد أن وكّدت مسبوقة بعدة قرون لا تزال لدى أهلها حلما من الأحلام، ومن العجيب أن موحى هذه التعاليم يقرر أنها قد سبقت أوانها، وأنها ستوجد من طريق النظر بعد زمان طويل، فيُعرف فصل الكتاب الذي أتى بها فقال: « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »، وقال: « ولتعلمن نبأه بعد حين ».

أي دليل على الوحي أقوى من هذا الدليل.

محمد فريد وجدي

كلمات في الممدوح الخلقية

مدح عرابي رجلا فقال: كان والله تمبا في المسكارم، غير ضال في طرقها، ولا متشاغل بغيرها عنها.

وقال آخر: فلان لو وجد الكرم في يد غيره لعلم أنه صالته له.

ومدح بدوي رجلا فقال: كان والله صحيح النسب، محكم الأدب، من أي أقطاره أتيته انثى إليك بكرم فمال، وحسن مقال.

ومدح غيره رجلا فقال: كأن الألسن والقلوب ربيعت له فلا تنعقد إلا على وده، ولا تنطق إلا بشأته وحده.

وقال طيغ: فلان من شجر لا يختلف ثمره، ومن ماء لا يأتلف كدوره.

وسأل الورير يحيى بن خالد البرمكي عن ابنه الفضل، فقال له المسؤول وكان بليغا: تركته وماء الحياة يتحد من أساري وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله، ولآلى العلم منثرة من مسارب منطقته.

ومن هذا الباب ما مدح به إبراهيم بن الصابي الوزير المهلب فقال:

له يد يروى جودا بنائلها ومنطق دوه في الطرس منتثر

خاتم كامن في بطن راحته وفي أناملها سحبات مستتر

وقال مروان بن أبي حفصة بمدح آل من:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأنجزوا

ولا يستطيع الساعلون فعالمهم ولو أحسنوا في الثائبات وأجلوا

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » :

رأينا أن نوفي هذه الفرصة الثمينة حقها ، فنكثر من البراهين الدالة عليه تعالى بقدر ما نستطيع ، علما بأن العقائد قد اعتوتها الشكوك ، والنفوس قد لست بها الاوهام . وقد أكثرنا بنوع خاص من أقوال فلاسفة أوروبا ، لما في ذلك من التأثير البالغ في قلوب شبابنا الذين أصبحوا يتهمون أئمة المسلمين ويقدمون أساتذة الأوربيين ؛ وفي خلقه شئون . ومما نقصده أيضا من نقل تلك الآراء والأفكار أن نعرف القارئ أن الطرق الموصلة الى الله تعالى لا تنحصر . وقد قالوا قديما : إن لله طرائق يمدد أنفاس الخلائق . وقد وصل الأمر من الوضوح عند بعض أرباب الوجدان من المسلمين أن سمح قائلا يقول : إن الفخر الرازي أقام على وجود الله ألف دليل ، فقال : « ومتى غاب حتى يستدل عليه » ؟

ولنستق لك بعض تلك البراهين ، ولعلها أليق ببعض الاستعدادات ، فنقول :

قال « نيوتن » الإنجليزي ، وهو أكبر علماء الفلك في عصره ، ومكتشف قانون الجاذبية العامة ، وقد سأله الناس من كل مكان أن يؤتيهم بدليل على وجود الخالق يكون في درجة المحسوسات ، فأجابهم قائلا : « لا نشكوا في الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي الفائدة لوجود والمنظمة له ، لأن ضرورة عبياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التسرع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجرائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والامكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن . أو لي له حكمة نامة وإرادة نافذة » .

أقول : أكثر نيوتن من كلمة الضرورة ، لأن الملحد يذكرونها كثيرا كلما أخرجوا . وبني ولا أخفى عليك وقد حاولت كثيرا أن أفهم ذلك فلم أستطع . وليت شعري ما هي الضرورة

التي توحد وتخلق ، وترتب وتضع الأشياء في مواضعها ؟ وما حقيقتها ، وما صفاتها التي أتت بهذا الابداع المدهش ؟ وإذا كانت الضرورة تفعل ذلك كله ، فما بالنا في هذا الصيق وهذه المصائب ؟ فهل اعتراها الوهن أم أدركتها الشيخوخة ؟ ثم تبين لي أن اللاؤهام والخيالات مدركات لا يتأتى للعقول أن تدركها ، لأنها لا تدرك إلا بواسطة وهم فاسد أو خيال كاسد ، ولذلك يقول الله : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » . والآنعام لها قوة الوهم لا قوة التفكير .

ولنرجع الى كلام نيوتن . قال بعد ما سبق : « من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبة العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » . ثم قال : « ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة على مستوى واحد بدون حدوث أي تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها المختلفة بالنسبة للشمس . ولما أركز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلاجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرّف هذه المواد وفارق بين كميات المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها ، وبين جوتير « المشتري » . والارض ، وقرر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها . إذن فقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه كل هذا يشهد بوجود وجود « سبب » لا أنعمى ولا حادث بالاتفاق » كما يرمي الملحدون الجاهلون « على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة » ثم قال :

« ليس هذا كل ما في المسألة ، فإن الله ضروري لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يكون من مجرد قوة الجاذبة أو لتعديد وجهة هذه الدورات كما يرى ذلك في الشمس وتوابعها ، بينما ذوات الأذئاب تدور في كل وجهة على السواء . ثم قال : « وغير هذا . أنظر تتكون الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم الى قسمين . القسم المصغى منها انحاز الى جهة لتكوين الأحرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم الممتنع يجمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالشواهب والكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له » . أليس هذا موافقاً لما نقوله من أن معلومات الله لا تنتهي وكالاته لا تنتهي ثم قال : « أنظر كيف كونت أحسام الحيوانات بهذه

الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضمت أجزائها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الابصار ونواميه ، والاذن بدون إلمام بقانون الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟ إلى أن قال : « وهذه الكائنات كلها في قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله متره عن الجسمية حتى حكيم ، يرى حقيقة كل شيء ويدركه أكل إدراك ؟ » .

قد أطلنا في هذا البرهان ، ولعل في ذلك التطويل فائدة لكثير من القراء . وقد كان صمد « نيوتن » في استدلاله ببيان الأشياء التي لا يمكن تعليلها بغير فعل القادر الحكيم .

وأقول : إن نظر علمائنا في هذا الموضوع أبعد غورا من غيرهم ، فهم إذا ظفروا بملل الأشياء وأسبابها جعلوا ذلك من براهن حكمة الحكيم ودلائل وجوده ، فإن هذه الملل ليس لها وجود من نفسها ، لأن دلائل الامكان فيها واضحة ، وكل ما ليس بواجب الوجود فلا بد له من واجب الوجود .

ثم نقول : ما الذي منحها تلك الخصائص التي حملتها عللا وأسبابا ؟ فقد كان يجوز أن تكون بصفات أخرى وقوى أخرى ، فانها قابلة لذلك كله بمقتضى إمكانها وتغيرها الذي نشاهده ، فكان وجودها بعد عدم وتمنيها بذلك القوى المخصوصة من أكبر الأدلة وأعظم البراهين .

وليت شعري لماذا عند الله الماصر المختلفة حتى جعلها تزيد على السبعين أو الثمانين ، ثم جعل لكل منها خصائص لا توجد في غيره ، بل قد تكون متضادة ، كالكسوحين ، والأزوت ، والكربون . فمن ذا أوحدها كلها وامتتها بهذه الخصائص حتى تتعاون على هذا النظام البديع ؟ وليت شعري ما الذي أوقفها عند هذا الحد فلم تقص عنه ولم تزد عليه ، غير مشيئة الله الذي علم كل شيء ودبر كل شيء فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

والحق أقول : إنى لم أر في هذا الوجود على سعة أكنافه وتباعد أطرافه وكثرة تنوعاته وتشعب مبدعاته ، أجن من أولئك الملحدين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . » ويكفيننا ما قال الله فيهم : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها . » ولا يصح أن يذكروا في عداد العلماء ، فإن الله يقول : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . » فشكل من لم يشهد بذلك فليس من أولي العلم . وقد قال سبدر وهو من أكابر علماء الانجليز « ليس القرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التي عرفها أبناء

المسدارس ، وإنما الفرض من علم الطبيعة أن تقف على ذلك الجسر الذي ننظر منه الى ما وراء الطبيعة . وقال « باسكون » وهو من أشهر مشاهير علماء الطبيعة « من أخذ علم الطبيعة بأطراف الغشاء كان ملحدًا ، ومن شربه عبا أوصله الى الخالق » .

براهين كلارك ، وهو من أشهر فلاسفة الانجليز . قال :

« لا بد لنا من فرض أن شيئًا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن ، وهذا الفرض حقيقة لا شك فيها لأن كل موجود من هذه الممكنات يجب أن يكون هناك سبب أوجده أى أصل قام عليه وجوده ، وهذه الأشياء إما موجودة بذاتها فهي إذن قديمة أزلية ، وهو ما لا سبيل اليه لما نرى فيها من دلائل التغير والحدوث الدالة على أنه ليس لها شيء واجب لثباتها ، وإما أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها فيكون هو القديم الأزلي » ثم قال كلارك ما ملخصه .

« لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادى مستقلا بنفسه ولا أبديا إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته ، ولكن مما لا شك فيه أن الوجود المنظور ليس هو واجب الوجود ، لأنه سواء أنأملت في شكله الظاهري مع قابلية أجزائه لحركاتها المختلفة ، أم اعتبرت مادته التي هو مكون منها بدون التفات الى شكلها الذي هي ظاهرة به الآن ، فلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار ، فجمعوها في جلته وكل واحد من أجزائها في موضعه وحركته ومادته وشكله . وبالجملة كل ما فيه متعلق بغيره غير مستقل وغير معقول أن يكون موجودا بذاته وإني أصرح بأن الوجود لاجل أن يكون صالحا يجب أن تكون أجزاؤه على الترتيب الذي هو عليه اليوم . ومما أعده هذيانا القول بأن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية ، وهي الضرورة التي يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها » . وقد سبق لك أن ذلك لا معنى له إلا في رؤوس المجانين .

براهين لوك ، وهو من كبار فلاسفة الانجليز ، قال :

« ما نعلم ببداهة العقل أن العدم لا ينتج مطلقا كائنا حقيقيا . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلي ونأسلوب رياضي أنه لا بد من أن يكون قد وجد شيء في الوجود من الأزل ، لأن كل ماله بداية يجب أن يكون ناتجا من شيء تقدمه . ومما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . إذن فالينسوع الأزلي الذي تستمد منه جميع الكائنات يجب أن يكون هو أصل جميع قواها ووجودها ، فهو إذن قادر على كل شيء ، وغير ذلك فإن الانسان يرى في نفسه قوة على العلم ، فيجب أن يكون الأصل الأزل الذي نتج منه الانسان طالما ، لأنه لا يعقل أن ذلك الأصل يكون مجردا عن العلم وتنتج منه كائنات طائفة . ومما يناقض البدهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها

يعقل لم يكن لها من قبل ، فيجب بالبدهة أن يكون أصل الكون عاقلا — بل لا حد لعقله وهو الله تعالى :

ولقف هنا اليوم ، ولنشد قول أمية بن الصلت ذلك البدوي الذي لم تفعله المدنية وزخرقها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواء اذكار وليل حلالهن نهار
وجبال هوائها واسيات وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل مشرقا في كل يوم تدار
ومحوس مضيئة لبرايا في نهار وفي الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج وروق وراءها أمطار
إن شان الله شاف كبير جل ربا وجلت الآثار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

برنفا الدروي

عصر جماعة كبار العلماء

التفرع لتقرير العدالة

دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر رضي الله عنهما أيام خلافته فلم يلم يرد عليه . فقال لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون خليفة رسول الله قد وجد على . فكلم عبد الرحمن أبا بكر في ذلك . فقال له : إنه أتاني . وبين يدي خضبان قد فرغت لها معمي وبصري وقلبي وعلت أن الله سألني عنهما ، وهما قالا ، وهما قلت .

وقال حكيم إسلامي : حق على من ملكه الله على بلاده ، وحكمه في عبادته ، أن يكون لنفسه مالكا ، وللهوى تاركا ، ولغيبط كافلا ، ولظلم هاضما ، ولعدل في حالتي الرضا وال غضب مظهرا ، وللحق في السر والعلانية مؤثرا . وإذا كان كذلك ألزم النفس طاعته ، والقلوب محبته وأشرق بنور عدله زمانه ، وكثر على عدوه أنصاره وأهوانه .
وقد أحسن من قال :

لا تشدح الظنة في حكمه هيئته عدل وانصاف
يعنى إذا لم تلفه شبهة وفي اعتراض الشك وقاف

السنة

الطوفان وما يتعلق به

ذكرنا في مقالنا السابق نص حديث ابن جرير في الطوفان ، وبيننا بعض المعاني التي اشتملت عليها آية « وقيل يا أرض ابلعي ماءك الخ » ، وقد بقي الكلام في أمور : (١) ملخص ما اشتملت عليه الآية الكريمة من المعاني الدقيقة . (٢) هل أمر الله للأرض والسماء حقيقة أو مجاز ، وبيان كل منهما (٣) بيان أن القرآن الكريم محفوظ من الألفاظ الباطلة ، فكان ينبغي للمفسرين أن يطرحوها جانبا (٤) بيان ما جاء في آخر الحديث من أن نوحا أمر الحيووانات التي كانت معه بالصيام فصامت .

(١) قد ذكرنا في مقالنا السابق أن الله سبحانه أراد أن يعبر بهذه الآية عن عظم قدرته الذي لا حد له ، ويسير أن أمره في خلقه نافذ ، فإذا أراد شيئا فلا مرد له ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء عظيمًا كان أو صغيرًا ، وأن عظام الأمور تستوى بالنسبة لقدرته القاهرة مع صغارتها . فأشار إلى هذا كله بهذه الآية الصريحة التي ليس فيها تعقيد ولا إبهام ولا تكلف ولا غرابة ، ولا إطالة ولا حشو ، ولا تناقض بين ألفاظها وحروفها ؛ بل عذوبة ألفاظها وسهولة ممانيتها ودقة إشاراتها وجلال بيانها تصل إلى عقول ذوي العلم والفكر بدون عناء ، بل لا بد لسكل من يسمع هذه الآية من أن يفهم منها معنى سهلا ومحصلا يلي بالغرض وإن لم يدرك جميع ما فيها من كل هذه المعاني التي يحجر العلماء المفكرون عن استقصائها إلى الآن فلم اجتمع البلغاء جميعا في صعيد واحد وقيل لهم : عبروا عن هذه المعاني التي تفهم من هذه الآية قبل أن يطلعوا عليها ويسمعوها لكتبوا في ذلك ممما كثيرة ، ومع ذلك لم تصل عقولهم إلى عشر معشار ما حوته من معانٍ تعجز عن مرادها العقول البشرية مهما أوتيت من صفاء وزكاء . فسبحان الله العظيم القدير ؟

وقد بينا تفصيل بعض المعاني التي احتوت عليها هذه الآية الكريمة في مقالنا السابق ونريد أن نلخصها للقراء الآن لننتقل منها إلى الكلام في الحقيقة والمجاز وغيرها من علوم البلاغة .

وحاصل ذلك : أن الله سبحانه أراد أن يبين المعاني التي أشرنا إلى بعضها في مقالنا السابق بهذه الآية الموجزة التي تسيل عبارتها رقة ، ويزهو حسن بيائها على جميع عبارات البشر مهما كانت فصيحة بليغة ، فبين لنا منها أمورا .

(أولا) أمر الأرض أن تكف عن إسالة الماء الذي تفجر منها وسال على ظهرها فأغرق جميع من عليها وترد القدر المار إلى بطنها ، فاستجابت وفعلت ما أمرها الله به بدون إبطاء .
(ثانيا) أمر السماء أن تكف عن إزال الماء الكثير الذي ينصب منها على الأرض ، فاستجابت ونفذت ما أمرها به .

(ثالثا) أمر الماء الذي نزل من السماء وسع من الأرض أن يفيض وينقص إلى الحد الذي ينفع الناس ففعل .

(رابعا) أن يظهر للنوع الانساني أنه سبحانه لن يترك الرسل ولن يحمل أمرهم وإن طال الأمد فقال : « وقضى الأمر » ، وهو إنجاز ما وعد الله به نوحا من إغراق قومه ، ففضى ذلك الأمر . وذلك شأنه سبحانه مع رسله السابقين الذين كانوا يلاقون من أمهم ما يلاقون من اضطهاد وتعلذيب ، كما قال تعالى : « حتى إذا استأنس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » ومعنى ذلك أن الله يهمل الظالمين الطاغين ولا يستعمل عقوبتهم كي لا يكون لهم حجة فيظن الرسل أن قومهم قد كذبهم فيما أوعدهم به الرسل من العذاب . وعند ذلك ينفذ الله سبحانه ما طلبه الرسل من العقوبات التي يستحقها المجرمون الطاغون . فهذا هو مجمل المعاني التي اشتملت عليها الآية الكريمة .

ولكن هل أمر الله للأرض والماء والماء بهذا من باب الحقيقة أو من باب المجاز ؟ جمهور المفسرين والعلماء على أن ذلك من باب المجاز لا من باب الحقيقة ، وأن الواقع ونفس الأمر هو أن فاعل ذلك كله هو الله وحده بدون واسطة مسبب من الأسباب ، وأنه سبحانه إذا أراد شيئا أنما يقول له كن فيكون . وذهب فريق من محقق العلماء إلى أن هذه الأوامر كلها من باب الحقيقة لا من باب المجاز .

مع العلم بأنهم متفقون على أن الالتفات المستعملة في غير ما وضعت له في الآية مجاز بدون نزاع .

وإليك بيان كل مذهب من المذهبين : فأما الذين يقولون إن أمر الله للسماء والأرض حقيقة فيمكنهم أن يبينوه بأن الله سبحانه قد خلق في هذه الأجرام قوى عاقلة تدرك به أمر الله تعالى ونهيه كما يدرك الانسان على خلاف العادة المعروفة لنا من أن الجادات لا تدرك ولا تفهم . وهؤلاء قد يؤيدون رأيهم بأن الكلام إنما هو في بيان آثار قدرة الله عز وجل ،

وأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأن الطائفتين المتدربين على خالقهم أقل شأنا من الجادات التي تطيع خالقها . ومما لا ريب فيه أن هذا المعنى يستفاد من الحقيقة بلا حاجة إلى المجاز . فإله تعالى يقول : إني خلقت الإدراك في الجاد وأمرته فنفذ الأمر بدون تردد ، وخالقت العقل في الإنسان وأرسلت له الرسل المؤيدين بالمعجزات الظاهرة فكفر وتمرد وعصى فبمدا لقوم الظالمين وهذا القول يحتمل ثلاثة أوجه :

(أحدها) هو أن يقال : إن الله تعالى خلق فيهما الإدراك بدون أسبابه المعروفة لما من العقل والحواس الظاهرة والباطنة . وذلك هو رأى جمهور المتكلمين الذين يقولون إن الربط بين الأسباب والمسببات عاды لا عقلى ، فيجوز أن يوجد المسبب بدون سبب ، أو يوجد السبب ولا يوجد المسبب مع عدم المانع من وجوده . وحينئذ فلا مانع من أن يوجد الإدراك في الجاد مع عدم وجود الحواس والعقل .

(ثانيهما) أن الله تعالى خلق الأسباب والمسببات وجعل الربط بينهما ضروريا بحيث إذا وجد السبب ولم يوجد المسبب ظاهرا فإنه لا بد أن يكون السبب موجودا في الواقع . فإذا رأى الإنسان مسببا بدون سبب فذلك لقصوره عن إدراك السبب . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الله سبحانه خلق في الأرض والسحب التي لا تدرك وسائل الإدراك ووسائل التنفيذ ، وأمرها فاطاعت وتفذت وإن كما لا تعرف كيف خلق الله فيها تلك الوسائل التي لا توجد عادة إلا في الإنسان أو الحيوان ، كما لا تعرف كيف خلق الله في الإنسان العقل الذي يدرك الكميات ، والحواس التي تدرك الأمور الجزئية ، بل تكفى معرفة أنه ممكن في ذاته بلا نزاع وقدرة الله صالحة لايجاد كل ممكن وإعدامه باتفاق . ولكن أصحاب الرأى يقولون إن الربط بين الأسباب والمسببات عاды يصح أن يتخلف ، وأصحاب الرأى الثانى يقولون إن الربط بينهما عقلى لا يتخلف كما هو سنة الله التي لا تبدل لها ، وعلى كل حال فإن هذين الرأين متفقان على النتيجة ، وهو أن خطاب السحاب والأرض الوارد في الآية الكريمة من باب الحقيقة لا من باب المجاز .

(ثالثا) أن يقال إن السنة الصحيحة قد جاء فيها أن لله ملائكة موكلة بالسحاب وملائكة موكلة بما في الأرض من جبال وبحار وغير ذلك ، وسواء كانت هذه الملائكة أرواحا مجردة عن المادة كما هو رأى بعض فلاسفة الاسلام (وهو الصحيح المعقول) أو لم تكن كذلك ، فقد وصفها الله سبحانه بالقوة والعلم . وعلى هذا فيمكن أن يكون الخطاب للملائكة المتعلقة بها . وإذا كان الإنسان لا يدرك إلا بالعقل المتعلق به فعلقا معنويا فكذلك هذه الأجرام لا تدرك إلا بالملك أو الروح المعنوية المتعلقة بها . فكما أن الله تعالى يأمر الإنسان وهو الحيوان المفكر باعتبار العقل المدرك فكذلك يأمر هذه الأجرام باعتبار الملائكة المتعلقة بها التي

تدرك وتنفذ الأمر . وكل ما يمكن أن يقال من الفرق بين الحالتين . هو أن الأمر الصادر إلى الإنسان هو الذي ينفذه بما أودعه الله فيه من الحواس والقوى ، بخلاف السحب والأرض فإن الذي يفهم وينفذ هو الملك المتعلق بها . وهذا لا يخرج الكلام عن الحقيقة إلى المجاز . فإنه أن يقال : إن فيه حذف مضاف كقوله تعالى : « واستل القرية التي كنا فيها » يعنى وأسأل أهل القرية . ومعروف أن حذف المضاف لا يخرج الكلام من الحقيقة إلى المجاز . فتداء الله للسحب نداء لملائكة المسكفين بها ونداء للأرض نداء للملائكة المسكفين بما عليها كلائكة البحار . على أن الفلاسفة قد أثبتوا للأفلاك قفوساً مجردة عن المادة . أما كون هذه المموس للأفلاك الكلية أو لها والحرثية فهو خارج عن موضوعنا الآن وقد بينا بعضه في مجلة الأزهر في الجزء الرابع سنة ١٣٥٦ . وبذلك يتضح أن نداء الله للأرض والسحب ونحوها حقيقي . وإذا أمكست الحقيقة فلا يصح المدول عنها إلى المجاز . ويؤكد ذلك أن الله تعالى قد صرح بخطاب الأرض والسماء وأمرها صريحاً في غير هذا المقام فقال تعالى في سورة فصلت « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » . وكذلك قد صرح الله تعالى بأن الجناد ينطق ويتكلم فقال في هذه السورة : « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » . وقد انفقوا على أن النطق في الآية الثانية حقيقي لا مجاز فيه . وقالوا إن معناه أن لطقاً ليس لمعجب من قدرة الله الذي قدر على انطق كل حيوان . فالتى قدر على خلق الإدراك في الإنسان ، والقدرة على النطق لا يعجزه أن يخلق هذا الإدراك في الحوارج التي لا تنطق مادة

ومن هذا البيان يتضح أن إرادة الحقيقة من هذه الآية الكريمة ممكنة ، وإنها تبلغ من المجاز ، لأنها تدل على عظم قدرة الإله عز وجل على وجه لا تحيط به العقول ، وهو المقصود من السياق . وهذا هو بيان رأى القائلين بأن الكلام في هذه الآية من باب الحقيقة لا من باب المجاز .

أما القائلون إنه من باب المجاز فأليك بيان رأيهم :

قالوا : إن خلق الإدراك في الجناد خلاف الظاهر المعروف لمعاطلين بالآية الكريمة ، والمجاز في هذا المقام أبغ من الحقيقة لما فيه من تصوير أثر القدرة في صورة لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفهام فهو سبحانه يقول لعباده من ذا الذي يستطيع ويقدر على أن يخلق هذه الأجرام ويخلق ما يصدر عنها من أفعال غيرى ؟ فضلاً عما فيه من دقائق التشبيه والتصوير الممحل للشر . وبيان المجاز في هذه الآية هو أن فيها أموراً ثلاثة . (أحدها) الفعل المراد تحصيله . (ثانياً) المأمور بذلك للفعل ، وهو المراد منه أن يوقع العمل . (ثالثاً) إيجاد ذلك العمل

وتحصيله . فأما الفعل المراد تحصيله فهو بلع الأرض للماء وإقلاعه السحب عن إزاله . وأما المأمور المراد منه تحصيل هذا الفعل فهو الأرض والسماء . وأما إيجاد الفعل وتكوينه فهو ظاهر بعد ذلك ، لأنه عبارة عن تحصيل الفاعل للفعل . فالتشبيه هنا دا يكون في المأمور الذي وقع منه الفعل ، فيقال : شبه المأمور أو شبه المراد منه إيجاد الفعل وهو الأرض والسماء بماقل قادر على تحصيل كل ما يطلب منه ، مطيع لا يتأخر لحظة عن تنفيذ الأمر ، وحذف المشبه به وهو ذلك الماقل وأشير إليه بشئ من لوازمه وهو البداية والأمر الصادر إليه الذي لا يصدر إلا للماقل . والعلاقة بين المشبه والمشبه به ظاهرة ، وهي أن المأمور الحقيقي يقع منه الفعل ويتعلق به حقيقة . أما المأمور مجازا وهو المشبه فإنه لا يقع منه الفعل حقيقة ، وإنما يسند إليه ويتعلق به ظاهرا . والفرينة على هذا التشبيه هي أن الذي يؤمر وينادي حقيقة إنما هو الماقل . هذا هو بيان الاستمارة في المأمور الذي طلب منه إيجاد الفعل وبقي الكلام في نفس ذلك الإيجاد ، فإن الإيجاد وهو تأثير الفاعل الذي يقرب عليه الفعل لا يقع حقيقة من الأرض والسماء ، فإيجاد بلع الماء لا يقع من الأرض طعنا . وكذا إيجاد الإقلاعه عن إزال الماء لا يقع من السماء ، وحينئذ فلا بد من تشبيه إيجاد الله وتكوينه لما أراده من إمساك الماء النازل من السماء وتخفيف الماء الواقع على الأرض بنفس الأمر الصادر منه تعالى إليهما وهو : ابلعي وأقلعي .

وحاصل هذا أنه سمعناه أمر الأرض بلع ما عليها من الماء فقال : « يا أرض ابلعي ماءك » وأمر السماء بالاقلاع والكف عن إزال الماء فقال : « يا سماء أقلعي » . وهذا يقتضي ظاهره أن الأرض هي التي أوجدت البلع وكونته ، وأن السماء هي التي أوجدت الاقلاع وكونته . ولكن الواقع غير ذلك ، فإن الذي وقع منه الإيجاد هو الله تعالى ، ولكنه أمر السماء والأرض ظاهرا ، فيكون الكلام من باب الاستمارة التسمية لما فيه من تشبيه إيجاد الله وتكوينه بأمره الذي صدر منه ، واستمارة صيغة الأمر للإيجاد على الوجه المبين في علم البيان .

وبقي الكلام هاهنا ذا في قوله تعالى : ابلعي ، وأقلعي . فأما ابلعي فعناه الحقيقي هو أن يردد الإنسان الطعام (بأكله سريعا) وهو معروف ، يقال : فلان بلع القطة أو قطعة اللحم إذا أزدردها . وهذا هو المشهور في اللغة . أما استمهال البلع في الماء كأن يقال : بلع الإنسان الماء إذا شربه ، فالتحقيق أنه مجاز لا حقيقة . وعلى كل حال فالمأمور هنا وهي الأرض لا يقال لها ابلعي الماء حقيقة باتفاق ، وإنما يقال لها : انشقي أو حني . وقد عرفت أن الغرض من الكلام إنما هو تصوير آثار قدرته تعالى في صورة نافذة بدون إبهال ، وهذا يقتضي أن يمر عنه بعبارة تفيد سرعة التنفيذ فقال : ابلعي . وعلى هذا يكون في أمر الأرض

بالبلع استعارة . وتماخضها أنه شبه الأرض بأنسان يزدد الطعام وحذف المشبه به وأشار إليه بشيء من لوازمه وهو البلع على طريق الاستعارة بالكناية . أو يقال . شبه الماء بالغذاء بجماع أن كلا منهما يترتب عليه الحياة : فكما أن في الغذاء حياة الانسان ، كذلك في الماء حياة الزرع والنبات ، وحذف المشبه به وهو الغذاء وأشار إليه بشيء من لوازمه وهو البلع وعلى كل حال فالمفسرون قد جاءوا بكل ما يحتمل من هذه الاصطلاحات الفنية ، فإرجع إليها من أراد الاستزادة .

وأما أمر السماء بقوله « أفلقى » ففيه استعارة أيضا ، وذلك لأن الاقلاع عن الشيء هو الكف عنه بالاحتيار . ومعلوم أن السماء لم يصدر منها هذا الفعل ، وإعما الذي حصل هو احتباس المطر النازل منها في الظاهر فشبه هذا الاحتباس المحكم السريع بالاقلاع عن الفعل بالاختيار بجماع السرعة بينهما . أو يقال شبت السماء بأنسان طافل يصدر عنه الفعل بالاختيار وحذف المشبه به وأشار له ببعض لوازمه وهو الاقلاع عن الفعل ، لأنه من لوازم العقلاء !

« يتبع »

عبد الرحمن الجزيري

من تواضع العظماء

روى أنه لما ولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة قال وهو على المنبر : « إني ولّيتكم ، ولست بخيركم » فلما بلغ كلامه الحسن البصري قال : بلى ، ولكن المؤمن يهضم نفسه .

وسئل بعض التابعين . هل رأيت أبا بكر ؟

قال : نعم رأيت ملكا في زى مسكين .

وقال شاعر ولمه يقصد أبا بكر :

فانظر الى ملك في زى مسكين
وداك يصلح للدنيا وللدين

إذا أردت شريف الناس كلم
ذاك الذي حدث في الناس قاله

وقال غيره متحديا له في هذا المعنى :

ففى زى من الدنيا الى الدين
فيغنى ملكا في زى مسكين

إن السعيد الذى تحت سيادته
يصد بالطرف منه عن زخارفها

التجديد في الاسلام

— ٥ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »
« حديث نبوي شريف »

المجددون في الاسلام

في القرن الثاني الهجري

الأئمة الأربعة . المأمون . الثؤلوي . أشهب . علي الرضا . الحضري . ابن معين . الكرخي .

١ — تمهيد :

في البحث الماضي بينا جبهة المجددين في القرن الأول الهجري ، وفي هذا البحث بين جبهة المجددين في القرن الثاني .

يرى الحافظ ابن الأثير أن المجددين للدين في المائة الثانية الهجرية ، هم ، من أولى الأمر : المأمون . ومن الفقهاء : الامام الشافعي ، والثؤلوي من أصحاب أبي حنيفة ، وأشهب من أصحاب مالك ، ومن الامامية : علي بن موسى الرضا . ومن القراء : الحضري . ومن المحدثين : ابن معين . ومن الزهاد : الكرخي .

٢ — مكانة الأئمة الأربعة :

الظاهر أن المجددين للدين في القرن الثاني ، الذين بلغوا في التجديد السماء التي ما طاولتها سماء ، والذين حفظوا الشريعة جدتها ، وجعلوها غنية المجتمع الانساني ، هم الامام أبو حنيفة والامام مالك ، والامام الشافعي ، والامام أحمد بن حنبل ، هؤلاء الأئمة الأربعة ، رضى الله عنهم ، هم الذين قدروا الجمهور حق قدرهم ، واعترف لهم بالزمام والامامة في العلم والدين ، ولم يبق لتفسيرهم من الفقهاء المتقدمين ذكر إلا بقدر ما ينقل لهم من الأقوال في أثناء كتب الخلاف على كثرة عديم ، وعظم شأنهم ، وهم التباريس لمن أتى بعدهم ، ومع ذلك فإن أسماء طويت ، ولم يعتبر واحد منهم متبوعاً لجمهور يسير على أثره ، ويقلده في مجموع آرائه ، ولقد فتح تاريخ الأبد صفحة الخلود لهؤلاء الأئمة الأربعة ، وسجل لهم فيها أنهم هم الذين باحتضارهم استنبطوا الفقه الاسلامي من أصول الشرع ، ونشروا المعارف الفقهية في العالم ، وملأوا

الأرض ثقافة إسلامية ، ونظما وتجديدا ، وقد ترسم الجمهور خطاهم ، وعمل بمقتضى مذهبهم ، حتى إنه ليجعل نصوصها كأنها مقدسة لا يجوز له أن يبتدعها ، ولقد انتقاد لهم أكثر من أربعمائة مليون من المسلمين في العالم ، واستمعوا لأقوالهم ، ودانوا الله بعمتدعم ، وساروا على أثرهم ، وعبدوا الله ركما وسجودا منذ نحو ثلاثة عشر قرنا بتلقيهم ، وجعلهم حجة بينهم وبين الله تعالى ؛ وكل يوم تطلع الشمس وتغرب ، ويموت أمان ويحيا آخرون ، وتنقرض دول ، وتنشأ دول ، وتحدث أحداث وتنقض ، وتوجد مذاهب وتنقرض ؛ أما مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة فبأية خالدة لا نصرم ، وأفواهم متبعة لا تنغير ، وقد كتبت كتبهم ، وانتشرت في الأرض مذهبهم ، وأنشئت المدارس والمعاهد لتلقيها ، مدرسا الشيوخ والشبان ، واستظهروها ، وصيروها إماما لهم ، واتخذوها قانونا يعملون بمقتضاها في حياتهم العامة والخاصة ، وأحروها في مجالس الأمراء والحكام ، وحكروا بها في الأموال ، والدماء ، والأعراض . هذا شيء من مكانة هؤلاء الأئمة عند الأمة .

٣ — ماذا أحدثت الأئمة الأربعة من تجديد في الاسلام ؟

أما تجديد الأئمة الأربعة في الدين ، فمائل في مذهب كل إمام منهم في الفقه الاسلامي ، الذي استنبطوه من أصول الشريعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ولقد صار هذا الفقه هو النظام المتبع الذي يسير عليه المسلمون ، ويعملون بمقتضاها فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الله تعالى ، وفيما بينهم وبين الناس ، مبدئنا ما للانسان من حقوق ، وما عليه من واجبات ، حتى قال أحد أفضل الكتاب : إن الباحثين من العلماء المنصفين - حتى من غير المسلمين - يعترفون للفقه الاسلامي بأنه البحر الذي لا ساحل له ، وأنه قسط العدل ، وأنه مجموعة انطوت على ما يسد حاجة الناس في التشريع ، وأن فيه كل حاجات البشر : في عقودهم ، وتوثيقاتهم ، ومعاملاتهم ، ومنازعاتهم ، وأقضيتهم ، ونظمتهم ؛ وأنه لا يوجد معنى من معاني الأحكام المشدود فيها العدل إلا وفيه قول يوافق حاجة من حاجات البشر في التشريع ؛ ولستنا معشر المسلمين كأننا زاهدون في رائتنا هذا ، وكأننا جاهلون بقيمة هذه التركة التي تحت أيدينا ، فلم نحسن القيام على هذا الفقه ، ولم نبرهن على أننا أهل للاستفادة منه ؛ ولو كان هذا الكثر الثمين مما ورثه الأوربيون عن أسلافهم لكانوا أوتوا به منّا ، ولبادرت حكوماتهم الى استنباط قوانينها ونظمها منه ، بل ولكان له الآن عندم دائرة معارف منظمة تنظيما مجيبا ، بحيث لا يتخطر بال أحد معنى من معاني العدل والتشريع إلا كان من السهل الرجوع إليه في طرفة عين في هذه الدائرة ، فيقف منها على جميع المذاهب في ذلك المعنى ، وعلى مدائع الأحكام ، وغريب الأقوال ، ونوادر الفتيا ، فيخرج الانسان من ذلك البحث الشامل وقد أحاط بمصارف علم العلماء فيه مدة نحو أربعة عشر قرنا . أما الباحث منا الآن عن مسألة في هذا الفقه فإنه

يصل إلى أن يراجع عشرات المجلدات ليصل إلى بعض النتيجة التي كان يصل إليها في ربع ساعة، ومراجعة كتاب واحد لو فكرنا في تأليف دائرة معارف للفقه — جميع مذاهبه — على مثال: كاربنتيه، ودلوز، والبانديكت في القانون. وكما قصرنا في تنظيم هذا الفقه فإننا الصغرنا عنه إلى القوانين الأجنبية، وأين هذه القوانين من هذا الفقه الذي أنس به المسلمون، ومارج أرواحهم مدة نحو أربعة عشر قرناً، وفيه مرآة مشاعرم، وعلاج أمراضهم الاجتماعية، تلك الأمراض التي وضعت لمداواتها أحكام هذا الفقه وهي مستنبطة من شرع الله تعالى الذي يذعن له كل مسلم، ويرضى به المحكوم له، والمحكوم عليه.

فالفقه الإسلامي نظام عام للمجتمع العشري، لا الإسلامي حسب، تام الأحكام، لم يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو الدستور، والقانون الأساسي لدول الإسلام، والأمة الإسلامية جماعة، وإن انتظام أمر دول الإسلام في الصدر الأول، وبلغها غاية لم تدرك بمذاهب العدل والنظام، ولديها دليل واضح على ما كان عليه الفقه من الانظام، وصراحة النصوص، وصيانة الحقوق، ونزاهة التأميم بتنفيذ أوامره، ودليل على ما كان لهذه الدول من التمسك بحبله المتين، وما دخلت الأمم الكثيرة في الإسلام أفعواجا أفعواجا، واتسعت دائرة الإسلام، فانتشرت الأمة الإسلامية، مادة جناحيها من نهر الفانج في الهند شرقاً، إلى إفريقية، ثم إلى أواسط أوروبا، في زمن قليل إلا باحترام الحقوق، والعمل بقواعد الفقه الإسلامي، والتسوية بين جميع أجناس البشر الذين كانوا في حضانة الأمة الإسلامية.

وهذه التواريخ العربية وغيرها لم ينتقد واحد منها نظام العرب الذي كانوا عليه، بل مدحوه عالم مدحوا به سواء، واقتبسوا منه، واختارته الأمم على ما كان لها من الظلم، فانصرفت عنها إليه، فالأمة الإسلامية تحيا بالفقه، لأنه لا رابطة ولا جامعة تجمعها سوى رابطة هذا الفقه وعقائد الإسلام، ولا تنعصب لأي جنسية لأنه لا جنسية عند المسلمين سوى الإسلام. ويجب على كل أمة إسلامية أرادت سن قانون أو دستور أن تراعي هذا المبدأ حفظاً لهذه الرابطة وللجامعة الإسلامية. إن جامعة الفقه دائرتها صيقة لأنها لا تشمل سوى الساطقين بالضاد مثلاً، أما جامعة الفقه فدائرتها واسعة جداً لأنها تشمل جميع المسلمين في العالم بقطع النظر عن جنسياتهم ولغاتهم وألوانهم. لما نهضت أوروبا نهضتها المعروفة للرق العصري كان أول حجر وضعت في أساس مدينيتها الزاهرة هو العدل، وسن القوانين بالتسوية في الحقوق، إذ لا يعقل أن ترتقى أمة وحقوقها مهضومة، وأفرادها مظلومون، وكل الباحثين المنصفين يعلمون أن بعض قوانين أوروبا مقتبس من الفقه الإسلامي: كقانون نابليون الأول، وغيره من ملوك أوروبا، فالفقه الإسلامي أصل التمدن العصري الحديث، والفصل كل الفضل في احترام الحقوق، وصيانتها، وتشديد منارها، للإسلام والفقه الإسلامي.

ومن معجزات هذا الفقه أنه تم نظامه في مدة نحو عشر سنين ، فلم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم الى الدار الآخرة حتى تركه تام الأصول ؛ ولم يحض على الأمة الاسلامية قرن ونصف حتى ألفت تآليف مهمة في فروعه ، ووسط أحكامه ، ونطبق أصوله على فروعه ؛ وهذا لم يكن للام قبل الأمة الاسلامية ؛ فهذه أمة الرومان التي يتسجج بعض أهل التاريخ بقوانينها ، ويمدون أصل التمدن الحديث ، لم ينضج فقها ، ولا جمع نظامها ، إلا على عهد القيصر « حوستيان » سنة ٥٦٥ ميلادية أي قبل الهجرة النبوية بسبع وخمسين سنة ، بعد أن مضى ثلاثة عشر قرنا من حياة الرومان ؛ ذلك ما يدلك على مكانة الفقه الاسلامي ، وأنه يوحى من عند الله (١) .

ولم يوجد شرع مزج المصالح الدنيوية بالدينية ، وبين قانون الاجتماع البشري ، والعدالة النامة بوجه يعم جميع المصالح الاجتماعية كالشرع الاسلامي ، ولذلك كان الخليفة الأعظم عندنا معشر المسلمين رئيسا دينيا ودنيا معا ، فهو جامع وظيفتين عظيمتين ؛ ولذا عرفوا الإمامة العظمى بأنها رئاسة عامة في الدين والدنيا توجب للمتصف بها أن يطاع ؛ أما القوانين الوضعية فلا تعلق لها بأمر العبادة ، ولا بالآداب النفسية ، وآداب المعاملة ، وإنما هي ضبط لمعاملة الأفراد والام ببادل المصالح ؛ وأيضا فالفقه الاسلامي هو بأمر إلهي ، والعمل به طاعة لله سبحانه وتعالى ، والعامل به له أمل الثواب في الدنيا والآخرة ، وعدم العمل به معصية متوعد عليه بالعقاب الآخروي ، زيادة عما تقر فيه من العقوبات الدنيوية .

فالفقه الاسلامي أُمس بالنظام من نقيض الشرائع ، والقوانين التي هي من وضع البشر . وفضلا عن ذلك فهو مؤسس على روح العدل والمساواة واحترام الحقوق العامة والخاصة ، والنظام المهم ، وتقدير الملك لدويته ، واحترام النوااميس الطبيعية ؛ وقد اعتمر ذرة المفاسد ، فقدمه على جلب المصالح ، وسدّ القرائع ، والمصالح المرسله ، ولا ضرر ولا ضرار ، وتقديم الأهم على المهم ، وبنيت أحكامه على الاعتدال ، لا إفراط ولا تفريط ، واعتبر العرف والمادة وإن المسائل المبنية عليهما تتبدل بتبدل المصور ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، وذلك على الوجه الذي شرحناه في العدد الأول من هذه السنة ، وكما قال عمر بن عبد العزيز . تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من خور ، وكما قال زياد بن أبيه لأهل البصرة في خطبته المشهورة قد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لسكل ذنب عقوبة ، فالفقه الاسلامي صالح لسكل زمان ومكان ، ولسكل أمة ، ولهذا كان لا ينسخ ، وكانت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الامم الى يوم القيامة .

(١) أختنا الدليل النقي والعقل في مقال نشره في مجلة الناس أن القانون الروماني اقتبس من

٥ - رعا سأل البعض فقال : إذا كان الفقه الاسلامي كما ذكر فهل يمكن صوغ قوانين منه كالقوانين الوضعية الحديثة ؟ وإني ادع الجواب على هذا السؤال ثقة من المنتهين في الشريعة الاسلامية ، وفي القوانين الحديثة ، وهو الدكتور عبد الرزاق بك السنهوري عميد كلية الحقوق السابق بالجامعة المصرية ، فانه قال مايتضمن : قسم الفقهاء الفقه الى أبواب للعبادات ، وأبواب للمعاملات ، وبذلك عرفوا بين المسائل الدينية ، وبين القانون بمعناه الحديث ، لذلك تقتصر - نحن المشتغلين بالقانون - من الفقه على أبواب المعاملات ، فهذه هي الدائرة القانونية ، ولانسم أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات مثلاً : « بالقانون الاسلامي » ولندخل ضمن هذا القانون ، مجوار هذا الجزء من الفقه ، علم أصول الفقه . وهو يبين لسا مصادر القانون ، وكيفية استنباط الاحكام من هذه المصادر ، ولدخل أيضاً في القانون الاسلامي جزءاً من الكلام ، وهو المتعلق بمباحث الامامة ، فان هذا هو أساس القانون العام ولنقسم القانون الاسلامي بهذا التحديد تقسيماً حديثاً . الى قانون خاص ، والى قانون عام ؛ وأساس تقسيم القانون الحديث هو التفريق بين القانون الخاص والقانون العام ؛ والقانون الخاص يشمل القواعد التي تصبط علاقات الافراد بعضهم ببعض ، فأبواب المعاملات ، والأحوال الشخصية تدخل في القانون الخاص ؛ والقانون العام - يشمل القواعد التي تسري على السلطات العامة ، وعلاقة هذه السلطات بالافراد ، وإذا أردنا أن نمجد في كل قسم فروعها ، سهل علينا دون كبير مشقة أن نجد في القانون الاسلامي الخاص : قانوناً مدنياً ، وقانوناً مرافعات ، وأساساً لقانون تجاري ؛ وأن نجد في القانون الاسلامي العام : قانوناً دستورياً ، وقانوناً إدارياً وقانوناً جنائياً ، وأصولاً لقانون دولي عام ، وقانون دولي خاص ؛ والشريعة الاسلامية إذا صادفت من يعنى بأمرها تستطيع أن تجارى القانون الحديث دون تقصير ، بل وتفوق عليه .

٦ - فأما عن وجود القوانين التي ذكرها الدكتور السنهوري في الشريعة الاسلامية ، فهذا بحس ملحوس لا ينكره إلا من ينكر الأمور الراهنة ، والموجودات المدوسة ؛ وما مثل الفقه الاسلامي إلا كمثل الذهب يصاغ منه جميع الحلى الثمينة على الشكل الذي يهواه الانسان ؛ فلو صيغت من الشريعة الاسلامية قوانين على نظام القوانين الحديثة لسكانت القوانين التي تصاغ من الشريعة أفضل من هذه القوانين الحديثة ، ولرجعت عليها وفاقها .

وأما عن صوغ القانون الدولي من هذه الشريعة على وجه أحسن ، فقد قرر كثير من أقطاب العلماء الباحثين - مسلمين وغير مسلمين - ومنهم ، نيس ، وريب ، وهولتزendorف أنه يوجد في الفقه الاسلامي أعمال وأوضاع تتعلق بما يسمى في هذه الأيام بالقانون الدولي ؛ كما يوجد فيه قواعد السلم وقواعد الحرب ، وجميع القواعد التي تتعلق بدار الاسلام ، ودار الحرب ، ولم يقتصر على الفتح والغنمة ، بل تجاوز ذلك الى فرض الضرائب ، وذكر

المواد المحرمة في التجارة ، ونظائر هذا ، مما لا يختلف إلا اسمه عما يستعمل الناس في هذه الأيام .

وعلى الجملة - فالفقه الاسلامي من مفاخر الزمان ، ومعجزات الدهور ، وحسبه أنه قرر المؤاخاة العامة ، والمساواة بين أفراد الأمة ، وأعطى الحرية المطلقة لكل إنسان في حدود الشرع ، وحفنه بالحماية حينما كان هو وأمواله وأهله ؛ وهذا من العوامل التي جعلت الاسلام يمتد امتداده العظيم نائشرا ظله على آسيا وإفريقية وأوروبا ؛ فهل نعمل لهذا الفقه ووجد منه هذه القوانين ليثبتي للناس أن الشريعة الاسلامية تفوق القوانين الحديثة إذا صادفت من يعنى بأمرها ؟ . وهل :

بني كما كانت أو اتلنا تبني وتعمل مثل ما فعلوا ؟

٧ - وهناك سؤال طالما رددته البعض فقال . النبي صلى الله عليه وسلم جاء بشرع واحد فمن أين هذه المذاهب الأربعة ، واختلافها يحدث بين الأمة ما لا تحمد عقباه ؛ وهناك فريق آخر يفضل بعض هذه المذاهب على بعض تفضيلا يؤدي الى تنقيص المفضل عليه ، وربما أدى ذلك الى الخصام بين الجهال ، والسفهاء ، وصغار العقول . وهذا من العريقان على غير الحق .

فأما الاختلاف في الآراء وفي المذاهب فهذا من الفرائض والطبائع البشرية ولا يمكن أن تنفق آراء الناس ومذاهبهم في كل شيء ؛ ومع ذلك فكل المجتهدين على هدى من الله ، وكلهم على حق ، وهم مأجورون غير مأزورين ، واختلافهم لا يستوجب ذما ولا قدما ، وإنما يستدعي المدح والثناء ، لأن اختلاف المذاهب توسع في الشريعة الاسلامية انقردت به عن الشرائع التي جاءت قبلها . فكأن كل مذهب شريعة ، وكأن المذاهب على اختلافها شرائع متعددة ، غصت هذه الشريعة كأنها عدة شرائع بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك توسعة رائدة لها ، ونفاعة عظيمة لقدر النبي صلى الله عليه وسلم وخصوصية له على سائر الانبياء ، إذ لم يبعث كل منهم إلا بحكم واحد في الأمر الواحد ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر الواحد بأحكام موعة حتى لا يصيق الأمر على أهلها بالتزام شيء واحد ، وحتى يناب كل عامل مذهب صحيح ، وحتى يحكم بكل حكم منها ، وينفذ ، ويصوب قائله ، ويؤجر عليه ، ويهدي به . على أن اختلافهم لم يقع إلا في فروع الشريعة دون أن يمس أصولها .

وقد وقع الاختلاف في الفروع بين الصحابة - وهم خير الأمة - - فما حاصم أحد منهم أحدا ، ولا عادي أحد أحدا ، والترجيح في المذاهب بالنظر الى الأفضل من حيث قوة الدليل ، والقرب من الاحتياط والورع ونحو ذلك في مسائل معدودة لا من حيث مجموع المذهب ، وأما بالنظر الى التصويب فكل صواب وحق لا شبهة فيه ؛ ومن هذا يظهر خطأ من لا يرى اختلاف المذاهب ، ومن يفضل بعضها على بعض . وأخرج بن سعد ، والبيهقي : أن عمر

ابن عبد العزيز قال : ما سرفى أن أصحاب عهد لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . وروى الخطيب أن هرون الرشيد قال للامام مالك : يا أبا عبد الله : مكتسب هذه الكتب وتفرقها في آفاق الاسلام لنحمل عليها الامة ؛ فقال الامام مالك : يا أمير المؤمنين . إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الامة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله تعالى . وروى أبو نعيم أن الامام مالك قال : شاورني هرون الرشيد في أن يملق الموطن على الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقال له مالك . لا تفعل ، فإن أصحاب عهد اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب . فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله . وروى ابن سعد : إن المنصور قال للامام مالك : إني عزمت على أن آمر بكسك فتفسخ ، ثم أبعث بها إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقامت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أطويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، ودأبوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . . . فهذا الفقه الاسلامي أثر من آثار تجديد الامة الأربعة في الدين ؛ وهذا تمهيد ومقدمة لدراسة حياتهم التي تأتي بعد إن شاء الله تعالى ؟

السبر عفي

الوجوه مرايا القلوب

قال أرسطو أمير الفلسفة : وجهك مرآة قلبك ، فانه يظهر على الوجوه ما تضر القلوب . وقد أولع الشعراء بنظم هذا المعنى فقال بعضهم :

إن العيون لتبدي في نواظرها ما في القلوب من البغضاء والاحن
وقال غيره :

تريك أعينهم ما في صدورهم إن الصدور يؤدي سرها النظر
وقال آخر :

عينك قد دلنا عني منك على أشياء لولاهما ما كنت أدريها
تظل في نفسك البغضاء كامنة والقلب يضرها والعين تبديها
والعين تعرف من عيني عهديها إن كان من حزنها أو من أهداياها
وقال زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خلية وإن ظاهرها تخفى على الناس تعلم

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٦ —

على بن أبى طالب

يكتنف التاريخ الاسلامى غموض كثيف فى كثير من نواحيه ، وهذا الغموض قد يشتد أحيانا فيقف الباحث فى جانب من الحيرة والاضطراب حتى لا يدري باى مذهب يستمسك ، وعلى أى رأى يعتمد ، وبأية قصة يأخذ ، لتضارب الروايات واختلاف المذاهب فى تكييف الأحداث العظمى التى كان لها أثر عظيم فى توجيه تاريخ الأمة الاسلامية وجهته التى صار إليها .

وقد كان للعصر الاول أوفى حظ من هذا الغموض المموق للدراسة التاريخية المثمرة ، فاننا إذا استثنينا حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته النيرة بعد البعثة ، لانكاد نعثر على صورة واضحة تمام الوضوح لحادث تاريخى ، ولا تكاد نعلم لنا سيرة رحل من رحلات الاسلام خالية عن شوائب الغلو أو التفريط ، ولعل ذلك راجع فى أغلب أمره الى تلك العنق القاصمة التى أسرعت الى الأمة الاسلامية وهى فى مهبها لم يشند ساعدها فقرقتها شيئا وأحراها والعرفه داء الامم الويل ، وجهت كل طائفة أن تؤيد مذهبها ، فلم يبال من لا يرجو لله وقارا أ كان الصديق فى يده أم كان من الكاذبين ، واختلط الحق بالباطل وراج الزيف بين الناس ، وصميت عليهم الحجة فلم يفسلوا بين رأى يعتمد على العقل والمنطق ، وآخر يتكا على الهوى ويتشبع بالباطيل ، وجاء الذين دونوا التاريخ فكان أرفعهم درجة فى الاحسان من يجمع الروايات المختلفة ، ووراءه مذاهب تحذو بها المصيبة المذهبية فلا تثبت إلا ما وافق هواها

ولكننا الآن أمام أنظار نافذة وهقول فاحصة لا تستطيع من البحث إلا ما كان آخذاً بسبيل من التحقيق العلمى ، فلا يتدافع مع رواية صادقة ، ولا يتراجع أمام امتحان الفكر السديد ، وحسب التاريخ الاسلامى حوائثه الصادقة ، فهى مليئة بالعبرة البالغة ، وسيرة رجاله فى غنية عن غلو الأساطير المفضحة على حياتهم إقناعاً أسدل عليها حجاباً من الشك الضيق .

لم يكدر رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتفع الى الرفيق الأعلى حتى مشى سحالي الفتنة ، ودب التنازع واضطربت أرهية الألفة والترابط بين الأمة ، وأصبحت عباديد من أجل الخلافة وإذا كان هذا الشقاق لم تنسح له شقة ، ولم يتفانم له شر بركة الصديق الأكبر ، وشدة إخلاص الأنصار لله ولرسوله ، وحزم الفاروق ، وحداثة العهد بالوحى وجلال النبوة ، فانه كان بلا ريب النواة الأولى لما جاس خلال الحياة الاسلامية من حزبية وتشيع تعددت مذاهبه وتكاثر نحلته بعد أن تضاءلت فى النفوس أسباب الألفة ، واندفعت الى الاسلام أحداث

من نكأ لهم الإسلام جرح عنجبية أسلافهم ، فانطوا له على مستكنة من الضفينة ، وترى صوابه الدوائر ، حتى اقتصرصوا أول نهزة سنحت ، فأوضعوها خلال صفوف الإيمان ينفونها الفتنة ، وتلاقت أغراضهم مع أغراض طوائف أخرى من طغام اليهود وأعلاج الفرس ، وكادوا للإسلام كيدا عن طريق الرأى ، لأنهم كانوا أنجز من أن يشهروا في وجهه السيف ، لأن عهد الفاروق جعل من المسلمين قوة لا تصارع ، فلم يبق أمام المؤمنين على الحق إلا تفريق هذه القوى عن طريق التظاهر بالفسيرة المصطنعة الكاذبة على آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم والنشيع لهم ؛ وكان طبيعيا أن تقف في وجههم جماعة أخرى ترد عليهم وتدحض آراءهم ، وثلاثة اتصال الطائفتين ، ورابعة تقف في سفح الأكمة فلا هي شرقية ولا غربية ، وتحنج لهذا التوقف وتبرره ، وخامسة وسادسة وهلم جرا ، مما اكتظت به أسفار التاريخ وأخطاء الأعداء .

وهكذا أصبحت الأمة التي جعل الله خصيبتها من بين الأمم الوحدة الإيمانية ، والاخوة الإسلامية في هذه الصورة الملتفة من الآراء المزيقة والمذاهب المرودة بالكذب العلمى والأباطيل المخنقة ، فإن كثيرا من هذه الطوائف لم تبال في سبيل تأييد نحتها أن تكذب على الله ورسوله ، فتعرف من آيات الله بباطل التأويل ما شاء لها هواها ، وتقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، وتزور إلى أئمة الهدى من الصحابة وآل البيت ما لا يتفق مع ما ضمن الله قلوبهم من التقوى والارشاد .

ولولا أن الله تعالى وعد بحفظ هذا الدين القويم جعل من الأمة طائفة لا تزال على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، بتحقيقا لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم ومملاوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولئيمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » ، لولا ذلك لسكنت هذه العواصف القاصفة قد طوحت بقرات الإسلام وقوضت معاملته ، ولكن الله تعالى أبر بدينه وأمة نبيه صلوات الله عليه فلم يتركها لحوائج الفتن تعصف بها بل جعل لها منها من يدفع عنها غوائل الجوح الفكرى ، وينقذ من دينها كذب الكاذبين وانحلال المبطلين وغلو الغالين حتى استقامت فئاتها على الحق من غير إفراط ولا تفريط .

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه هدف هذه الطوائف والشيع ، له أو عليه ، فشيعة قالية ، غلت فيه حتى كفرت به وأبت عليه أن يكون إنسانا ، وقالت فيه بقول المصارى في عيسى بن مريم ، وشيعة غلت في إنسانيته وجادت بأصاحبه أشبه بأسماء المعاصر وأحاديث المرورين . فالرعد عندها صوته ، والبرق ابتسامته ؟ وشيعة اعتدلت في كثير من أمرها ولكنها تعصبت في مسائل فأخطأها التوفيق ، وفيما بين هؤلاء وهؤلاء طوائف تتباعد وتتقارب حسبما وضمت كل طائفة لنفسها من قواعد وأصول ، ووراء ذلك فرقت

ناقة ساخطة ، فعتائية ناصبة ، وخارجية مارقة ، وواقفية حائرة ، وجماعية آسفة تحاول التوفيق فيخذلها التمسب المذهبي البليد .

ومما يحز في قلب المسلم الصادق الإيمان ما نشهده في حاضرا المسلمين من آثار هذه الخلافات الطائفية التي باعدت بين أمم الاسلام في حياتها الدينية والسياسية والاجتماعية حتى تقسمها ذؤبان الاستعباد ، وأصبح المسلمون في كثيرهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « غناء كغناء السيل » وهم اليوم أحوج ما يكونون الى وحدة الايمان وأخوة الاسلام ، طارحين وراء ظهورهم كل ما يساعد بين قلوبهم ، ماملين على ما يجمع حول راية القرآن الكريم أفئدتهم ، وليس ذلك بمسير على قادة المسلمين ومفكرهم إذا أخلصوا لله ورسوله نياتهم ، لأننا لا نعلم من مسائل الدين الأصولية مسألة تقف دون تمام طوائف المسلمين ، وأكثر الخلافات يرجع الى دواع قديمة اجتماعية وسياسية ذهب بها التاريخ ، وهي الآن نظريات لا يقيم لها الواقع وزنا ، ولقد خطا الأزهر معهد الاسلام الأعظم خطوة جلية في سبيل التقارب بين عواطف المسلمين ، فهل يستمع إخواننا المسلمون في أرجاء الأرض الى هذه الدعوة المباركة ويسائلون أنفسهم فيم يداير الشيعي أخاه السني ؟ وفيما الآن يختلف الأباضي مع الشيعي والسني ؟ إنهم إن فكروا تفاهلوا ، وإن تفاهلوا تجمعوا ، وإن تجمعوا توحّدوا ، وعلى هذه الوحدة قام مجد الاسلام .

هذه كلمة اناساق اليها القلم تمهيدا لما أردت أن أكتبه في أحاديث قادة الفكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه باعتباره من أعظم قادة الفكر في تاريخ الاسلام فنقد كان من حق البحث أن أقرأ قبل أن أكتب ، وماذا أقرأ وأنا بصدد الحديث عن شخصية إذا شئت كانت من أوضح الشخصيات الاسلامية ، وإذا شاء تاريخ الفرق كانت من أغصها ؟ فلا بد إذا من تعرف شيء مما يقوله الكتّابون في سيرته كرم الله وجهه ، وما أكثر من كتب في سيرته ، وما أشد اختلاف ما كتب ، ولقد قرأت مجيها ، وعذرت الشاذين من شباب المسلمين إذا شَبَّوا على هذا التباعد الفكري ، فذلك غذاء أفكارهم ، وعذلت القادة لأنهم تركوا — مختارين أو غير مختارين — سيرة عظماؤهم نهب الروايات الواهية المضللة في كتب مطبوعة مقروءة تتحدث عن شخصية واحدة ، ولكنها تختلف في تصويرها أشد الاختلاف حتى كأنها شخصيات متناكرة ، فأرئيتي إزاء ذلك كله مضطرا الى أن أنتكس سبيل الخوض في معمعان هذه الاختلافات محاولا رسم صورة مجلّة لشخصية أمير المؤمنين كرم الله وجهه تتمثل فيها بعض جوانب عبقريته الفكرية على سنتنا فيما كتبتنا عن فاروق الاسلام .

كان أبو طالب رجلا نبيلًا في قومه ، ورث مكانة أبيه عبد المطلب في شرفه وسيادته على قريش أرجح القبائل في ميزان الشرف العربي ، وهو صنو عبد الله والرسول الله صلى الله عليه وسلم ، آثره أبوه بكفالة ابن أخيه وأوصاه بحفظه وحياطته ، فضمه اليه بعد وفاة جده

وقام بما عهد إليه في شأنه أحسن القيام وأفضله ، روى محمد بن سعد في الطبقات « لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكوف معه ، وصب به أبو طالب صباية لم يصب مثلها قط » وفي رعاية هذا الحب الأبوي شب النبي صلوات الله عليه بين أبناء همه ، وهو يرى ما يلاقه همه في سبيل تربية أبنائه وإعاشتهم ، وكان همه من أكثر قريش ولدا وأقلهم مالا ، وفي نحو الثلاثين من عمر النبي صلى الله عليه وسلم ولد لابن طالب على فتلقته الحياة العربية نشطتها حتى شارف العام السادس ، وكانت قد نزلت بقريش أزمة وفحط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمميه حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المهل ؟ فجاءوا اليه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلًا وحذوا من شئكم ، وكان شديد الحب لثقل ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا ، وقال : قد اخترت من احضاره الله لي عليكم عليا .

ومن هنا تبدأ حياة فتى قريش وبطل العرب في اتجاه جديد ، يختلف كل الاختلاف عن حياة أمثاله من صبيان العرب وأنداده من فتيانهم ، فانه انتقل من بيت كان للوثنية فيه صوت دوى ، وأثر قوى ، الى بيت أقام الله صرحه على دعائم التوحيد ، وشاد دعائمه من الاخلاص واليقين ، والصبيان أشد الناس حساسية ، وأطبعهم على التقليد والمحاكاة ، وإذا كان على كرم الله وجهه قد ارتفع الشجاعة وكرم المعيزة ، ومحابل البيل عن أبيه سيد قريش في سنه الأولى ، فانه درج أيام شبابه وفتوته في مدارج الوحي ومهبط التشريع حيث أناح الله له أفويق النبوة سهل منها ما شاء له استعداداه وفطرته من حير ور ، وإيمان ويقين ، وعلم وحكمة ، في ظل أسنى الخليفة سريرة ، وأنقام علانية ، يلقى من رعايته وحنه وعطفه ما لم يلقه وليد في كنف أعطف والد ، حتى كان موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحا أمره ، وعيبة علمه ، وهو يصف ذلك فيقول : « يصمى الى صدره ، ويكفنى الى فراشه ويمسني جسده ، ويشمني عرقه ، وكان يعضني الشيء ثم يلقميه » .

نهد على كرم الله وجهه مسلما ، وترعرع على الإيمان ، وشب طاهر العقيدة ، لم يعبد من دون الله شيئا منذ نبطت عليه التمام ، ولم يفتح عقله وإحساسه للحياة إلا ونور النبوة قد أخذ بمشاعره وهداية الوحي ملأت قلبه ، وجلال الاسلام أيقظ روحه ، وتعاليم الشريعة وآدابها كانت نبراسا له يضيء حوائك الظلمات أمامه ، وتفتح أبواب الحكمة لعقله ؛ روى أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعيد البعثة فوجده هو والسيدة خديجة أم المؤمنين يصليان ، فقال : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا دين الله الذي بعث به رسله فأدعوك الى الله ، وأن تكفر باللات والعزى . فقال على رضى الله عنه : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا علي

إن لم تسلم فأكرم ، حشية أن يغشى أمره قبل أن يستعملته ، فكنت على ليلته يفكر في شأنه وشأن هذا الدين الجديد الذي جاء به ابن عمه الصادق الأمين ، ولكن هداية الله كانت تراه ، فلم يكبد يسفر عليه الصبح حتى أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا إيمانه بدعوته وقبوله لرسالته .

ناهز على العاشرة من عمره يوم شرف الله عز وجل عمدا بالبعثة الى الناس كافة فقابله قومه وعشيرته أعنت مقابلة ، ولا سيما بعد أن أعلن صلى الله عليه وسلم دعوته ، وعلى رسول الله عليه يشهد هذا النضال الذي سبق فيه اللسان السنان ، فعقل الله بذلك رجولته ، ونشأه على بطولة الاسلام ، فكان واحدها غير مدافع ، ودارسها غير متنازع ، حتى فتح الله لبيبه صلى الله عليه وسلم باب المحرة الى المدينة ، فخرج متخفيا وأمر أخاه وابن عمه فتى قريش أن يبيت على مضجعه تلك الليلة ، فبات فيه وتغشى بردا حضرميا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فيه ، واجتمع فتيان قريش بالباب يرصدون عليا وهم يظنون عمدا

روح الوفاء والطولة ملأت قلب فتى اللقيان على فأنامته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخطر المواقف وأخرج الأوقات فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤدي عنه ودائمه ووصاياه ثم يلحق به الى المدينة حيث يبدأ الاسلام حياته الجديدة .

صادق إبراهيم عمره

أسباب السؤدد

قال حكيم : أسباب السؤدد سبعة : العقل والحلم والصيانة والصدق والعلم والسخاء وأداء الأمانة ، وأضاف غيره اليها الصبر والتواضع والعفاف فتكون عشرة .

وقال رجل للأحنف بن قيس وكان سيد بني حنيفة وهو الذي قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب . قال له رجل يوما : بم سودك قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ، ولا بأصحبهم وجها ، ولا بأحسنهم خلقا ؟ قال : بخلاف ما فيك يا ابن أخي . قال الرجل وما ذاك ؟ قال الأحنف : بتركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعينيك .

وقال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لبنيه يوما . كلكم يترشح لهذا الأمر ولن يصلح له إلا من كان له سيف مسلول ، ومال مبذول ، ولسان معسول ، وعدل تطمئن اليه القلوب ، وأمن تستقر به في مضاجعها الجنوب .

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٥ —

أسلفنا في الفصول السابقة من هذه البحوث آراء بعض علماء أوروبا المحدثين في الاسلام وبنييه وكتابه ، وأشرنا الى ما لاحظناه في مؤلفاتهم من ما أخذ وهفوات ، وأبنا أنها ضئيلة الى جانب ما أثبتوه في تلك المؤلفات للاسلام من فضائل وخيرات ، وقررنا أن السبب في هذه الهفوات هو الجهل ببعض أسرار الاسلام ، أو النشوء بين أحضان دين آخر .

أما اليوم فإننا سنحاول الكتابة عن نوع آخر من العلماء الغربيين الذين تناولوا الاسلام ، وهم العلماء الذين لا تعتبر أخطاؤهم فيما كتبوه هفوات كهفوات الذين أسلفنا الحديث عنهم ، وإنما تعتبر سقطات ضخمة ليس من السهل أن تتساح فيها أو أن يمر بها التاريخ مغضيا .

وأول هؤلاء العلماء الذين وقع اختيارنا عليهم لنحاسهم هنا على ما فرطوا في جنب الحقيقة حسابا عسيرا ، سدهاء المطلق ، ولجته النزاهة والمهدوء هو الأستاذ « بول كازانوف » الذي كان حين ألف رسالته التي نحن بصدددها أستاذا لقعة العربية وآدابها في « الكليج دي فرانس » ثم انتدب بعد ذلك للتفريس في الجامعة المصرية .

هوان هذه الرسالة : « محمد ونهاية العالم » وغاية مؤلفها منها — فيما يظهر — هي محاولة إثبات أن القرآن قد أضيف إليه بعد وفاة النبي ما دعت إليه الحاجة في نظري أبي بكر وصرح مثل الآيات التي صرحت بأن الساعة من الأمور التي استأثر الله بعلمها بعد أن لم يتحقق ما أحجر به النبي من أنها ستقوم عند ما تنتهي مهمته ، وقد يكون ذلك في حياته أو على أثر موته مباشرة .

عرض هذا الأستاذ لتلك الممالة ، فبحثها البحث الذي هياته له بيئته ودراسته ، واتمى منها الى النتيجة التي شاءها له منطق ، والتي سنقفك عليها وعلى مناقشتها بعد قليل .

أما السبب الذي حدا بنا الى مناقشة هذا البحث الآن فهو أنه يعتبر أول بحث من نوعه تعرض لصحة القرآن أو تبديله وإضافة شيء إليه ، وأنه لهذا كان حدثا خطيرا أثار نائرة كثير من العلماء الباحثين فحمل فريقا منهم على متابعتة ، ودفع فريقا آخر الى مهاجمته ، وسوف يبقى مثار جدل عسير ما لم تقم الأدلة على بطلانه . ولا ريب أن هذه الأدلة إذا لم يسطع نورها من حصون الاسلام فعليها العفاء ، لأنه من غير الممكن أن يتيسر للمستشرقين الذين يخالفون « كازانوف » في هذا الرأي الخاطئ* مثل ما يتيسر للمسلمين المتقنين من البراهين على بطلانه .

لهذه الأهمية العظيمة التي يمثلها هذا البحث ، رأيت من الواجب على أن أقام في مساقته ، فإن لم أعكس من صد تياره ، فإنني على الأقل أسام في نقاش بحث كنيه عالم شهير عن الاسلام ، وأثيرت حوله زوامة من الجدل ولا تزال تثار وستظل ما شاء الله لها أن تظل ولن نحمد إلا بالأدلة القاطعة التي تقام على بطلانها من جانب باحثي المسلمين . وقد عبرت هنا بكلمة : أقام ، لأنني أعلم أن بعض القراء سيسخطون على هذا البحث ويقولون : مالنا ولا تارة مثل هذه المناقشات ؟ أما كان يجمل بنا أن نكتب فيما هو أمتع من ذلك ونحن نترك أمثال هذا البحث تجنباً لا يفاظ الفتن ، ونبدأ عن تجرئ الناس على قداسة الاسلام ؟ ولكنني أجييب هؤلاء مقدماً بأننا لو سمعنا نصائحهم لكان مثلنا كمثل النعامة التي تخفى وحما ظلة أن الصياد لا يراها مادامت لا تراه ، فتكون النتيجة أن نذهب فحمة هذا الحق . وإدأ ، فيجب علينا أن لا نجبن أمام هذه المثالب التي وجبها خصوم الاسلام إليه ، وأن لا ننزوي في أركان الخول ، راجين أن تعود الى الظهور بمد مرور العاصفة ، فتكون النتيجة أن نتجناحنا وتهدم علينا الأسوار التي إزويتنا في أركانها ولم ندفع عنها غوائل المدوان .

على أني أعود الى أولئك الذين عمام يعترضون على فأرمهم علنا بالتجافى من روح الاسلام ونص القراء الذي يقول : « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » . ويقول : « وإنا أو إياكم لعل هدى أو في ضلال مبين » ، والذي قدم لنا أرفع المثل للجدل المدطى المؤسس على الحجة القاطعة ، وليس هذا غريب ، بل إن حياة النبي العملية كانت كلها نموذجاً من نماذج الشجاعة والجهاد والافدام والنضج عن العقيدة ولم يؤثر عنه مرة واحدة في حياته أنه قال : « طأطئ رأسك للعاصفة تمر » بل أثر عنه أنه قال : « لو وضعت الشمس في عيني والقمر في يساري لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وناء على كل ما تقدم يجب علينا أن نواجه هذه الفكرة بكل ما أوتينا من قوة ومعرفة . غير أننا آثرنا قبل أن نبسط هذا البحث أن نترجم لك شيئاً من العبارات التي صدر بها هذا الأستاذ رسالته والتي تحمل كثيراً من معاني الاجلال للنبي المسلمين ، لنسجلها على كاتبها قبل أن نخوض في أخطائه العملية ومناقشتها . وهالك هذه العبارات : قال : « قبل الدخول الى أعماق المسألة أحرص على أن أعلني أنني أطرح بادئ ذي بدء كل نظرية تميل الى الارتباب في إخلاص محمد ... إن كل تاريخ هذا النبي يبرهن على أن خلقه واقعي جدى محمود ... ينبغى الوفاق على أن النبي كان رجلاً ذا ذكاء عظيم فإن الكيفية التي استطاع بها أن يحرز الفتي والاعتبار بعد أن كان معدماً يقياً ، مقدراً له منذ الطفولة أن يقذف به بين أحضان المترية

والأساء (١) وإن نضوج عقله وحكته اللذين برهن عليهما عند ظهور أول أوحائه ، وإن الفن الذي عرف كيف يجمع به قبائل العرب رغم انقساماتهم التي دامت عدة قرون وكيف يميز به ما ينبغي أن يبقى من دساتيرهم ، وما ينبغي أن يلغى منها ، وإن إبداع أسلوبه الذي لا نظير له ، بل الذي لم يستطع أي عربي أن يدرك ما اشتمل عليه من أفكار ، كل ذلك يدل على أنه كان لديه فكرة واضحة عن الحقيقة . وأن الحلم والخيال لم يكونا ميزتي عبقريته ، ولكن ميزتي هذه العبقرية كانتا الذوق وموهبة حسن الانجاء في الفهم والعمل .

« آية فائدة كانت تعود عليه في مبدأ مهمته من أن يقدم الخيالات المحضة الى الناس في صورة حقائق وإلهيات ؟ هل يمكن أن يفترض أن الطمع في أن يحكم مكة والجزء العربي والعالم أجمع قد استولى عليه في ذلك العصر المتأخر (٢) من حياته ، وأنه لكي يحقق هذا المشروع الهائل فكر في أن يكون رئيسا دينيا ، وبهذه الطريقة يصبح قويا كل القوة ؟ ولكن هذا لا يمكن أن يتفق مع ميله العادي الى العزلة ومع تلك الظاهرة الغير القابلة للاعتراض ، وهي أنه ظل الى عهد البده بمهمته بعيدا عن الحياة السياسية ولا مع تلك العقلية العربية الساخرة المرتابة الأجنبية — ولو في ذلك العصر على الأقل — عن النظر التنسكي . فلو كان الطمع هو وحده الذي دفعه لوجد في نفسه من سداد الرأي ما يحمله على أن يسلك طريقا آخر أقرب وأكثر مباشرة للحصول على التأثير الذي كان مولده وثروته (٣) قد صيراه جد مشروع ، بل كيف كان يتشدد كل ذلك الزمن في أن يفرض على المكين تلك المعتقدات التي كانت تظهر لهم مضحكة ، والتي — مع بعدها عن أن تحقق له السلطان — كانت تتضافر على زعج اعتباره من نفوسهم ؟ . إنه لم يقتنع بأنه يجب عليه أن يبحث عن أعوان خارج مكة وضدها إلا في الوقت المناخر ، وبعد أن يش من أسباب انتصاره . إن طريقته في العمل هي طريقة رجل ملهم مقتنع بأن جميع الناس مثله سيترفون بالهية أصول الكلام الذي صممه والذي هو يردده بكل بساطة ويدون أن يسأل نفسه لحظة واحدة هل لو وفق بين كلامه وبين عقلية معاصريه يمكن أن يكون حظه في إقناعهم أعظم من حظه الحاضر ؟ . غير أنه حين أصبح في المدينة على رأس جيش هجر الاقتصار على الحساس الأول ، إذ من الواضح أنه لو ظل منحصرا في ذلك النحس البحث بكل بساطة لسارع حزبه الى الانحلال ، ولما رأى ألبنة انتصار مذهبه ، فبعد أن كان

(١) خلط المستشرقون بين العفر ونيل اللول الذي لثي صلى الله عليه وسلم فارتاب بعض حيلاتهم بتأريخ أسرة عبد المطلب للماجئة في رقة عصر النبي وتبهم الدكتور طه حسين في هذه الفكرة السخيفة في كتابه « الادب الجاهلي » وسناقش هذا الرأي اليوم بعد انتهائنا من ترجمة هذا النص (٢) يقصد بكلمة العصر التأخر الوقت الذي بدأ فيه النبي بالصدع برسائته ، وهو زمن بلوغه سن الأربعين . (٣) يقصد الثروة التي أحردها النبي من تجارته أولا ، ومن زواجه بالسيدة خديجة ثانيا .

نبيا على نهج أسلافه من الاسرائيليين ، صار رئيسا دينيا وعسكريا . وإذا ذلك بسط مزايده الرئيسية كقائد ومنظم .

« كان محمد يرى الفاية ويتبعها بفطرته كسيامي مستنير ، وباطمامه كسبي غلص (١) » .

الآن وبعد أن انتهينا من هذا النص الذي أثنى فيه المؤلف على النبي صلى الله عليه وسلم وسجل فيه عبقريته وإخلاصه ومقدرته السياسية وقبل أن نبدأ في عرض آراء هذا الاستاذ الخطاطة ومناقشتها كما وعدنا القارئ يجب علينا أن نقف هنيهة عند مناقشة الفكرة التي أشرنا إليها في الهامش رقم ١ - من هذا المقال ، وهي : « كيف يمكن التوفيق بين البؤس المادي الذي نشأ فيه النبي وبين القول برفعة أسرته ؟ » .

لم يستطع المستشرقون أن يحلوا هذه المشكلة ، فتعبطوا فيها تحبط العشواء ، فذهب « كازانوف » الى أن القول برفعة مولد النبي هو في الأغلب خرافة ، ولو كان حقا لمولده مركزا عظيما فسل أن يفتنى ، ولكن المأثور من سنته لم يحدنا من شيء من ذلك . وقد اعتنى « كانياني الايتالي » في كتابه : « تاريخ الاسلام (٢) » وكذلك « جويج » و « فوليرس » هذه الفكرة الخطاطة وأبدوها في مؤلفاتهم بأدلة هي نسيج من الفروض والاهوام .

غير أن أسخف أفكار هؤلاء الاساتذة جميعا هي فكرة « الأب لا مانس » التي تزعم أن محمدا هو طفل فقير مجهول المولد تبنته أسرة عبد المطلب . ومن العجيب أن هذا الأستاذ المضحك قد اتخذ دليلا على هذه الفكرة التي هي حار على صاحبها وحده قول القراءان . « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك ظالما فأغنى » .

كنا نحب أن نهيب في إظهار سخف هذا الرأي وصائلته في ميزان العلم بسبب ما احتوى عليه من مخالفة أوليات المنطق ، بل أوليات التعقل الساذج ، ولكننا فصلنا الإيجاز ، لأنه غير جدير بالاسهاب ، إذ لو كان صحيحا لفصل العرب المتكبرون المنعرفون أن ينمضوا الى آخر طفل من أولادهم على أن يحنوا رؤوسهم لرجل شريد مجهول المولد ، ولما أجاب زعماءهم كسرى حين سأله عن نسبه بأنه خيرهم حسبا ونسبا ، ولما ارتضى زعماء القبائل تحكيمه بينهم حين اختلفوا على وضع الحجر الاسود ، ولما نايمة أبو طالب الجبار على مناصرته رغم أنه لم يمتنع دينه . ولما تردد زعماء مكة في الاقدام على قتله حين ضايقهم بالدعوة الى الاسلام كما فعلوا رهبة من أسرته ، ولما شج هزة رأس أبي جهل حين جرؤ على شتمه ، ولمنت العنجية المغالية أسر : خديجة ، وأبي بكر وعمر وعثمان من مصاهرته ، ولرأينا أباين الهبياء وضروب السب والافتداع تنجبه الى مولده وأسرته كما كانت العادة المألوفة عند العرب ، ولما استطاع أن يجابه

(١) انظر صفحة ٦ وما بعدها من كتاب « محمد ونهاية العالم » لسكازانوف (٢) هو كتاب منظم

عظماء العرب بذكر أجداده في بيته كان نصف موهبتها ينحصر في حفظ الاساب . وأخيرا لو كان كذلك لما رأينا له أخوالا من أسرة بنى السجار بالمدينة ، وهى فرع من قبيلة قريش المتكبرة التى يستحيل عليها أن تزوج ابنتها آمنة من رجل وضع ١١ .

هذا ، ولا زيد أن نستمر في سرد الأدلة الناصعة على بطلان ذلك الرأى ، لأنه لا يبعد على هذا القسيس أن يزعم أن كل هذه منتحلات وصمها المسلمون ، ليموهوا بها على المقول كما تعود كثير من المستشرقين أن يتهوموا إلا أننا نحب أن نذكر لك هنا على سبيل الاستثناس رأى الأستاذ « كارادى فر » في هذه الفكرة السخيفة . قال :

« إن الآب لامانس الذى يلتقط بكل سرور جميع الاشارات البسيطة التى من شأنها أن تحط من مقادير عظماء رجال الاسلام الاولين قد غلى أنه يستطيع أن يرتاب في منشأ عهد ، فأخذ الآيات المذكورة في السورة الثالثة والتسمين من القرآن : ألم يجدك يتيما الى آخره على ظاهرها ، فالتخذ من عهد طفلا يتيما نشأ من مولد مظلم تبنته أسرة عبد المطلب ، ثم استغله بنو هاشم فيما بعد كسلعة للتجارة .. ونحن يظهر لنا أكثر بساطة أن نرى في هذه السورة دعوة الى الاتعاظ .. فكأنها تقول : كل نفس بطبيعتها فقيرة شبيهة ببيتيم آواه الإله ثم أغناه (١) .

لا يغفونا قبل مغادرة هذا المجال أن نشير هنا الى أن الدكتور طه حسين قد سرق هذا الرأى من المستشرقين فاتهم المسلمين بأنهم رتبوا شرف مولد النبي كما شاعت لهم أهواؤهم حين رأوا مصلحة الاسلام في القول بنبل مولده فقال : في كتاب « في الأدب الجاهلي » ما نصه : « فلامس ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يسكون صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصي ، وأن يكون قصي صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب » .

وأنت ترى من هذه العبارات أن كاتبها يريد أن يقول : إن المسلمين قد اقتنعوا بأن أسرة نبيهم يجب أن تكون فوق الأسر ، وهى لم تكن في الحقيقة كذلك فرفموها . وبما أنه رأى مسروق — فضلا عن أنه مخيف — فقد آثرنا أن يكون نقاشنا مع أحد أصحابه الحقيقيين . وقد أسلفنا ردنا على « لامانس » في شيء من الإيجاز الجدير به ، لتجاوبه عن روح المنطق .

هذا ، وسنعرض في الفصل الآتى آراء « كازايف » في فكرة تبديل القراءان ، وسنناقشه فيها الحساب ١

الدركتور محمد محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) أنظر صفحتي ١٢٩ و ١٣٠ من الجزء الثالث من كتاب « مفكر الاسلام » للأستاذ « كارادى فر »

التشريع الاسلامي

وجريانه على الاعتدال في التكليف

كل من يلتفت نظرة فاحصة على الشريعة الاسلامية ، وعلى تعاليمها الراقية الحكيمة ، وبوارن بينها وبين ما تقدمها من شرائع ، ويقيس ما جاء فيها من تكاليف بما جاء في غيرها — يجد أنها قد جبرت في تشريعها على وضع حكيم ، وسنن مستقيم من الطريق الوسط الاعدل الواقع تحت كسب المبد واستطاعته ، والداخل في دائرة طاقته وقدرته ، فلا مشقة توقعه في الحرج ، ولا إرهاق يجلب إليه العنت ، ولا تهاون يخلّيه من المسؤولية ، ولا إباحة تلقى له الحسل على الغارب .

وذلك لأنها شريعة قامت على السداد والحكمة ، جمعت بين السهولة في التكاليف ، والرفق في التشريع ، والاعتدال في الاحكام ، وبين الحزم في كل ما يجب أن يؤخذ به الانسان من أوامر ونواه ، ومثوبة وعقوبة ، وزواجر وحدود ، فلا أثر فيها مطلقا للافراط أو التفريط في أي اتجاه من الاتجاهات التي لا تتفق وما وصلت إليه الانسانية من درجة الانتقال والتطور عند ما اقتضت حكمة الله تعالى أن يتمدد الناس بالشريع الاسلامي .

فهى بدأ — كما يقول الأصوليون — شريعة جارية على موازنة دقيقة تقتضى في جميع المسكلمين غاية الاعتدال ، فإذا وجد في المكلف شيء من الانحراف ، أو مظنة الانحراف عن الطريق الوسط الى أحد الطرفين ، جاء التشريع مانعا وراذلا له عن ذلك الى الوسط الاعدل على وجه يحصل به الاعتدال ، ويفتنى معه الميل .

ويظهر ذلك واضحا إذا نظرنا الى خطابات القرآن الكريم للناس حين بدء التكليف ، فانه عرفهم في كثير من آياته بالنعم التي أنعمها الله عليهم ، وبالطيبات التي أحلها لهم ، وبالمصالح التي أوجدها من أحلهم ، وبالمنافع والمرافق التي تنوقف عليها حياتهم ، ويقوم بها عيشهم ، وعدمهم بالنعم المقيم إن أطاعوا وآمنوا ، وبالعذاب الاليم إن ظفروا على كفرهم ، وسدروا في غوايتهم فلما لم يرحمهم ذلك عن موقفهم ، ولم يكفكف من حديثهم ، ولم يلين من حوائبهم ، وقابلوا الإرشاد بالمناد ، والاحسان بالكفران ، واليقين بالشك ، سلك معهم القرآن سبيل نصب الأدلة ، وإقامة الحجج والبراهين ، فلما لم يرجعوا بشيء من هذا ، وانصرفوا عنه ، ومالوا الى التعلق بالدنيا والاستماتة فيها ، والتهاكك عليها ، لم يتركهم القراءان وشأنهم ، ولم يعن عليهم ببيان حقيقة الدنيا ، ومدى ما فيها من متاع ، ومقدار ما لها من دوام وقاء ، بل أخذ يهيب بهم الى الرشد ، ويرجمهم الى الاعتدال ، ويصرفهم عن الميل والانحراف ، ويضرب لهم

الأمثال المبينة لحقيقة الدنيا ، والمنبثقة بزوالها وفنائها ، فقال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » وقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » وقال : « اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار بغائه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ، ومفكرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .



هذا هو موقف القراءان الكريم من الناس في مخاطباته أيام أول الدعوة إلى الإيمان ، وعند بدء التكليف ، وهو موقف ينطوي على منتهى العناية بمصالح العباد ، ويدل على غاية الانصاف في معاملتهم ، وأخذهم بما فيه كل الرفق بهم ، والتسامح معهم ، والتيسير لهم ، والتفادي بهم عن مرالق الحرج ، وأعياء المشقة ، حتى لا ينقطعوا عن العمل أثناء الطريق ، ويبغضوا العسادة ، ويعيوا بالتكاليف ، وحتى لا يقعوا في شيء من التقصير بتراحم الأعمال ، وتكاثر المطالب ، غادت تعاليمه سمحة سهلة حافظة على المخلق حبهام لها ، ورغبتهم فيها ، قال تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حسب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وفي الحق إن هذا الموقف ليس بغريب على دين قصد فيه مباشرة إلى مصالح العباد في العاجل والآجل معا ، ولا على تشريع هو من وضع الله الخالق لكل شيء ، المحيط بجميع الشئون ، العالم بأن الناس — مهما كانت قوتهم ، وكان استعدادهم — يضعفون أمام التكليف ، وينوهون بحملها ، قال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم » وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .



كما كان موقف الشريعة الإسلامية من الناس في بدء التكليف معنيا بدعوتهم إلى التوسط والاعتدال ، كذلك كان موقفها منهم بعد إيمانهم ودحوهم في الدين ، فلقد حرصت على أخذهم بهما في كل شيء حرصا شديدا ، ونهتهم إليهما في كثير من نصوصها ، واهتمت في مواردنا ومصادرها بتجنب الانحراف ، والبعد عن الميل والتحرز من أن يختل ميزان الاعتدال

في أعمال العبد ، فيقع فيما قد يجره الى الشدة والعنت ، أو فيما قد يستهويه الى الاندفاع في تيار الاعمال والتهاون .

ومن الأمثلة الواضحة في هذا الصدد أنه لما ورد على لسان القرآن الكريم ذم الدنيا ، وتحقير متاعها ، وتصفية الراغبين فيها ، وتحقيق المتطلعين الى زهراتها ، ثم جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتنلوا ويتركوا النساء وينصرفوا عن اللذة والدنيا ، وينقطعوا الى عبادة الله ، فلم يكن من الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلا أن رد عليهم ذلك ، ونهاهم عنه ، وحذرهم عاقبته ، وقال : من رغب عن سفتي فليس مني ، ولم يقف معهم عند هذا الحد بل أقرم على جمع الدنيا ، والتمتع بالحلال منها ، ودعا لآناس منهم بكثرة المال والولد ، كما وقع ذلك لانس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان له بستان يؤتي ثمرته في العام مرتين ، ولم يمت إلا وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولدا .

وفي هذا المعنى يقول القرطبي : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ويقول : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » ويقول : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

فأنت ترى من مجموع هذا أن الشريعة المباركة لم تطالب بأزهد في الدنيا ، ولم تأمر بتركها والتصون عن مفاتها وزحارها ، وللتعاشي من حباتها ومقرياتها إلا عند ظهور الحرص الشديد عليها ، والرغبة القوية فيها ، ووجود ما يقتضي الميل عن الاعتدال في طلبها ، ولم ترغب فيها وتدع الى الأخذ بالنصيب الصالح منها إلا عند مخالفة التوسط في الاعتدال بها ، وعند الاسراف في إهمال شأنها ، والغلو في المزوف عنها .



لم يقتصر الاسلام في تقرير مبدأ التوسط والاعتدال في التكليف على التشريعات العامة المرتبطة بحفظ كيان الجماعة ، والمتصلة بتوطيد نظام العمران ، بل لقد هم ذلك حتى في الشئون الفردية التي لا علاقة لها بالغير ، والتي ربما تمد من الأعمال الشخصية البهجة ، وذلك كالمعبادة ، فإنه دعا إليهما فيها بقدر ما يدخل تحت الباموس العام ، والطاقة المعتادة ، ففي حديث الحولاء بنت تورت ، حين قالت له عائشة رضي الله عنها : هذه الحولاء بنت تورت ، زعموا أنها لا تنام الايل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تنام الليل الا خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا » .

وفي حديث أس ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وحبل ممدود بين ساريتين ، فقال : ما هذا قالوا : حبل لزيب تصلى ، فإذا كملت أو فترت أمسكت به ، فقال : حلوه ، ليصلى أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد .

وفي حديث معاذ حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أفتان أنت يا معاذ ؟ » وذلك حين أُنال بالناس الصلاة ، وقال : « إن منكم متفرقين ، فأيسكم ما صلى بالناس ، فليتجاوز ، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » .



هذه كلها شواهد ناطقة بجزالة التشريع الاسلامي على الاعتدال في التكليف ، وبسريان هذا الروح السامي في جميع تعاليمه وأحكامه ، وهو ما يتفق كل الاتفاق وقول الله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ولعل أحسن ما يناسب أن نختم به هذا الفصل ، وأجمع ما يمكن أن يقال في هذا المقام هو ما ذكره الشاطبي في موافقائه عند الكلام على هذا الموضوع ، قال :

« فإذا نظرت في كلية شرعية ، فتأملها تجدها حاملة على التوسط ، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف ، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في لطف الآخر ، فطرف التشديد وجامعة ما يكون في التخفيف والترهيب والرجز ، يؤثر به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين ، وطرف التخفيف وجامعة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص ، يؤثر به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد ، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، رأيت التوسط لا تحا ومسلك الاعتدال واضحا ، وهو الأصل الذي يرجع اليه ، والمعدل الذي يلحق اليه » .

فكرى ياسين

المدرس في كلية الشريعة

علامات اللؤم

قال حكيم . أربعة من علامات اللؤم : إفساء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الأحرار ، وإساءة الجوار

روى أن رجلا سأل آخر أن يصف له نفسه فتلكأ وامتنع . فأقسم عليه أن يفعل ، فقال : حسود كنود ، لحوج حقود . فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال : لقد انتحل الشر بحذافيره ، ومرق من حلال الخير بأسره ، وتأنق في ذم نفسه ، ونجرد في الدلالة على لؤم طبعه ، وأفرط في إقامة الحجة على كفره .

وإمل أبو تمام يقصد رجلا مثل هذا بما يقول :

مساو لو قسمن على الفواني لما أمهرن إلا بالطلاق

أذان الجمعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه وهو .
تأسس بالمنشأة مركز جرجا مسجد لإقامة شعائر الدين ، فكان يؤذن فيه يوم الجمعة عند
جلوس الخطيب على المنبر عند باب المسجد ، ولكن أحد العلماء رأى أن يكون هذا الأذان
أمام المنبر ، حصلت مقابلة بينه وبين الذين يريدون التأذين على باب المسجد كادت تؤدي
الى الفتنة لولا أن حضرت قوة من نقطة البوليس . فترجو أن تمتوما في أى المسكنين يوافق
السنة ولحم الشكر ؟

حسن محمد نايب
من العلماء بالمنشأة

الجواب :

١ — كان أذان الجمعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أذاناً واحداً حين يجلس للخطبة
وقد دلت بعض الروايات الصحيحة على أن هذا الأذان لم يكن داخل المسجد ، وأنه لما كثر
المسلمون بالمدينة وتباعدت ديارهم عن المسجد زاد عثمان رضى الله عنه أذاناً آخر وحمله عند
دخول الوقت على دار بسوق المدينة يقال لها « الزوراء » للإعلام بدخول وقت الصلاة ،
وأبقى الأذان الذى كان فى عهده صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه بعد جلوس الخطيب .

وقد أقرت الصحابة رضوان الله عليهم تصرف عثمان رضى الله عنه نظراً لانه :

(أولاً) فيه المحافظة على ما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من الأذان الذى يكون حين
يجلس الخطيب للخطبة .

(ثانياً) إن النداء الذى استعده عثمان رضى الله عنه يحقق الغرض المقصود من الأذان
وهو الاعلام بدخول الوقت على أتم وجه .

وعلى ذلك رأى الجمهور من الفقهاء أنه يسن للجمعة أذانان . أحدهما عند دخول الوقت ،
والثانى عند جلوس الخطيب على المنبر .

وقد ذكر كثير من العلماء أن العمل استمر على هذا الى عهد هشام بن عبد الملك حيث
نقل أذان الزوراء الى المارة فوق المسجد وجعل الأذان الآخر داخل المسجد أمام المنبر .
ويؤيد هذا ما نقله ابن القاسم عن مالك رضى الله عنه أنه قال : « ليس الأذان بين يدي المنبر
من الأمر القديم » أى ليس من السنة النبوية ولا من عمل السلف الصالح ، وعلى ذلك جرى
أكثر الفقهاء من المالكية .

٢ — ويرى ابن عبد البر من كبار متقدي المالكية أن أذان الجمعة يكون أمام المنبر حين يجلس الخطيب ، وادعى أن السنة هكذا وقال : « إن من زعم أن هشام بن عبد الملك هو الذي نقل الأذان الثاني الى داخل المسجد فقد اشتبه عليه الأمر لأن هشام لم يفعل أكثر من نقل الأذان الأول من الزوراء الى المنارة . أما الأذان الذي يفعل الآن أمام المنبر فهو في مكانه الذي كان فيه على عهد صلى الله عليه وسلم »

أما الشافعية فقد جاء في مجموع النووي ما يفيد أنهم اختلفوا في أذان الجمعة ، وأن المحاملي نقل عن الشافعي أنه قال : « أحب أن يكون للجمعة أذان واحد عند المنبر » ومن رواية المحاملي هذه هم أكثر الفقهاء من الشافعية أن أذان الجمعة يكون داخل المسجد .

٣ — ومن هذا يتبين أن العلماء يختلفون في أذان الجمعة من جهة مكانه ، ومن جهة تعدده ووحدته . فمنهم من يرى أنه يكون خارج المسجد ، وبخالفهم في ذلك آخرون ، ومنهم من يرى أنه يكون أذانا واحدا لا متعددا ، وبخالفهم في ذلك آخرون .

فأما تعدد الأذان أو وحدته يوم الجمعة فقد عمل المسلمون بكل منهما وتوارث كل قطر من الأقطار الإسلامية ما صح عنده . فالمغاربة كما حكى عنهم بعض العلماء يؤذنون للجمعة أذانا واحدا اتباعا لما كان في عهد صلى الله عليه وسلم ، والمصريون يؤذنون فيها أذائين اتباعا لعمل عثمان الذي أقره عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .
وأما مكان الأذان فقبل الكلام فيه يحسن بنا أن نذكر المبادئ الآتية .

(أولا) إن للأذان غرضا يقصد منه وحكمة من أجلها شرع ، وهذه الحكمة هي إعلام الناس بدخول الوقت ودعوتهم الى الصلاة ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا بؤد للصلاة من يوم الجمعة فاسموا الى ذكر الله » ، وقال جل شأنه : « وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » لجعل الله الأذان نداء ودعوة للصلاة .

(ثانيا) إن الأذان وإن كان في ألفاظه وكيفية أدائه من الأمور التبعيدية التي يقتصر فيها على الوارد ، فليس هو في مكانه من الأمور التبعيدية ، بل هو أمر معقول المعنى يقصد منه غاية معينة في مصلحة الدعوة الى الصلاة ، فكل مكان يحقق هذه الغاية بأوسع معانيها يكون أفضل من غيره .

(ثالثا) إن صلاة الجمعة حكمها حكم سائر الصلوات في أن يتقدمها أذان يعلم الناس بدخول وقتها ويدعوهم الى ذكر الله فيها .

وعلى هذه المبادئ نقول : إذا اقتصر يوم الجمعة على أذان واحد كما هو العمل عند المغاربة

فإنه ينبغي أن يكون هذا الأذان خارج المسجد، وعلى مكان مرتفع حتى يكون في ذلك أوسع نطاق للإسماع الناس ودعوتهم إلى الصلاة .

وإذا جعل للجمعة أذانان كما هو العمل عند أكثر الناس بمصر فإن الأذان الأول ينبغي أن يكون للإعلام بدخول الوقت ولقاء الناس إلى الصلاة ، فلا بد أن يكون على مكان مرتفع ليحقق هذا الغرض أتم تحقيق وأوطاه .

أما الأذان الثاني الذي يكون عند جلوس الخطيب على المنبر فيكون الغرض منه كما قال الحافظ ابن حجر وغيره من العلماء — الإعلام بصعود الخطيب على المنبر ليستمع الناس للاستماع والانصات فيتركوا الصلاة والكلام . وحينئذ ينبغي أن يكون هذا الأذان في المكان الذي يحقق له الغرض المقصود منه . وواضح أن عمله خارج المسجد لا يلي هذه الحاجة لاسيما في المساجد الكبيرة واسعة الأرجاء . فيحسن أن يكون داخل المسجد ليكون أدنى إلى تحقيق الغرض منه .

وبعد : فإن النجبة تأسف أشد الأسف لما يحصل بين المسلمين من الخلفات الشديدة والممازعات التي تؤدي إلى البغضاء والتشاحن على أمر شأنه عند المتقدمين وعلماء السلف مارأيت من خلاف ، وتدعوا اللجنة المسلمين جميعا إلى أن يتخذوا من اجتماعهم لمباةة الله سبيلا للوحدة والتضامن والمحبة ، وأن يطرحوا وراء ظهورهم التفرق والممازعة والخلاف في دين الله باسم السنة والبدعة ، فالسنة حدود يعرفها العلماء ، والبدعة حدود يعرفها العلماء ، والكل واضح بين لا لبس فيه ولا اشتباه . وليقدر هؤلاء وأولئك أن السنة في الدعوة إلى الحق إنما تكون للحكمة والموعظة الحسنة .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

علامة من تمت سيانته

قال المرار بن المنتخذ العدوي :

يا حبذا حين تسمى الريح باردة
يا حذرمون كرام في مجالسهم
وادي الأضواء وفتيان بها هضم
وفي الرجال إذا صاحبتهم حدم

عمر بن عبد العزيز

— ٢ —

خلافته :

تولى الخلافة في يوم الجمعة لعشر خاوند من صفر سنة تسع وتسعين هجرية ، بعهد من سليمان بن عبد الملك اليه دون علم منه ، قيل في سبب العهد اليه : إن سليمان خرج ليصلي بالناس الجمعة ، فلم يرجع حتى ألم به مرض خفيف ، فلما ثقل عليه كتب كتاب عهده الى ابنه أيوب ، وكان دون الحلم ، فسأله رجاء بن حيوة : ماذا تصنع يا أمير المؤمنين ، إنه مما يحفظ الله به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح . فقال سليمان : هذا كتاب أستخير الله فيه يا رجاء ، ما الذي تراه في داود بن سليمان ؟ فقال له : هو غائب بالقسطنطينية ولا ندرى أحى هو أم ميت . ثم سكنت قليلا وقال : وما رأيك في عمر بن عبد العزيز ؟ فقال له : أعلمه والله رجلا فاضلا خيارا مسلما .

فأقره سليمان على ذلك ، ولكنه خشي أن تقوم فتنة من ولد عبد الملك ، ففرض لها ليزيد ابن عبد الملك من بعد عمر ، وأن يكونوا عوناً لعمر في خلافته ، فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، واتقوا الله ولا تغفلوا فيقطع فيكم »

البيعة الأولى لعمر :

ولما حتم سليمان الكتاب أرسل الى كعب بن جابر رئيس شرطته وأمره أن يجمع أهل بيته ، فمأجمعهم قال سليمان لرجاء بن حيوة : اذهب بكتابي هذا فאלقه اليهم وأخبرهم بأه كتابي ، وصرهم فليبايعوا من وليت ، فصدع رجاء بالأمر ، فبايعوا من ساء في كتابه ، ولم يكن صر يعلم من أمر البيعة شيئا أكثر من علمه بأن أهل بيت سليمان بايعوا رجلا في كتاب سليمان نفاق أن يكون الأمر قد أسند اليه ، فاشد رجاء أن يصارحه الأمر ليستفي قبل أن تأتي حال لا يقدر عليها ، واهتم هشام بن عبد الملك مخافة أن يكون الأمر قد تعداه ، فسأل رجاء ألا يكتم عليه سرا حتى يتدارك ما عساه أن يكون من خروج الخلافة من بني عبد الملك

موقف رجاء :

كان رجاء موضع سر سليمان بن عبد الملك ، فأبى إلا أن يكتم الأمر عليهما ، ولا يخبر أحدا منهما بحرف من الكتاب وإن أغصهما ذلك ، ثم عاد إلى سليمان فإذا هو يبالغ سكرات الموت ، فلزمه حتى فاضت روحه ، وبينما هو كذلك بعثت زوجته برسول لتتصرف الظير ، فقال له رجاء : إنه قائم ومغطى . فأخبرها بذلك فاطمأنت .

البينة الثانية :

عندئذ أطلق رجاء الباب على سليمان وأجلس على وصيده من يتق به ، وأوصاه ألا يرح حتى يأتيه ، ولا يدخل أحدا على الخليفة . ثم خرج إلى مسجد دابق ، وفض الكتاب بعد أن أخذ البينة لمن فيه وفي حضرة أهل بيت سليمان ، فإذا فيه المهد لعمر بن عبد العزيز . فقال الناس : أين عمر ؟ وقد كان في مؤخرة المسجد ، فتقدم إليهم فسلموا عليه بالخلافة إلا هشام بن عبد الملك فإنه قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » حين صار هذا الأمر إلى عمر بن عبد العزيز على ولد عبد الملك . وامتنع عن مبايعته ، فهدده رجاء بضرب عنقه إن هو تمادى في غيه ، فبايعه .

وأحد رجاء بضمى عمر وأجلسه على المنبر وعمر يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » حين صار هذا الأمر إلى لكرأهني له . ثم خرجوا جميعا من المسجد لدفن سليمان ، فصلى عليه عمر وما إن شيعوا جنته حتى أقبلت مراكب الخلافة من خيل ونفال وبراذين يتود كل واحد منها سائس . فقال عمر : إن في بغاتي وقسطاطي ما يعتنيني عن مراكب الخلافة ومنزلها . فقال له مولاه : يا أمير المؤمنين كأنك مهتم . فقال لمثل هذا الأمر الذي نزل في إهتمام ، إنه ليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحدف مشارق الأرض ولا في مغاربها إلا له قبل حق يحق على أداؤه إليه غير كاتب إلى قبه ومطالبه منى .

أول خطبة لعمر :

سار معه من كان مشيعا لجنة الخليفة الراحل حتى وصلوا المسجد فدخلوه ، وصعد عمر المنبر وقال : « أيها الناس ! إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى خلعت ما في أعناقكم من يميني ، فاختاروا لأنفسكم . فصاح الناس صيحة واحدة . قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعا ، حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه ثم قال : « أوصيكم بتقوى الله فإنها خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه الله عز وجل أمر دنياه ، وأصلحوا سروركم يصلح الله علانيتكم ، وأكثروا من ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها ، وإنما اختلفت في الدينار والدرهم ،

وإني والله لا أعطى أحدا مطلقا ، ولا أمنع أحدا حقاً ، ومن أطاع الله وجمت طاعته ، ومن عصا الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ومن أصابته مظلمة من عامله فلا إذن له علي ، ومن لا فلا أريسه . وإني والله إن منمت نفسي وأهل بيتي هذا المال وصليت به عليكم إني إذا لضيئ . ولا أن أنعم سنة أو أعمل بحق ما أحببت أن أعيش فواقا . ولو أن كل بدعة يخبثها الله على يدي ، وكل سنة يحببها الله على يدي ، بيضعة من لحمي حتى يأتي ذلك على آخر نفس مني لكان في الله يسيرا .

ثم نزل فامر بالنور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للحلفاء خملت ، وبيع جميعها ، وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين .

رده المظالم :

بدأ بنفسه ، ولا ليكون أوقع في النفس ، وليقتدي به غيره ، فخرج مما كان في يده من القطائع كالمكيدس ، وحل الورس باليمن ، وفدك ، وقطائع أخرى بالجماعة ، وجعلها لبيت المال ، إلا عينا بالسويداء كان قد استنبطها لعطائه فلم يردها ، وكانت غلتها في العام تقدر بعشرة آلاف دينار .

وجعل لا يدع شيئا مما كان في يد سليمان أو في يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة فاحتصم إليه جماعة من الأعراب مع قوم من بني مروان في أرض كانت مواتا فأحيهاها العرب ، فأخذها الوليد بن عبد الملك وأعطاه لبعض أهله . فقال عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، من أحيأ أرضا ميتة فهي له ؟ ثم ردها على الأعراب . وذهب إليه رجل دمي من أهل حمص فقال يا أمير المؤمنين : أسألك كتاب الله . قال : وما ذلك ؟ قال الذي : بن العباس بن الوليد بن عبد الملك اعتصم أرضي — والعباس يومئذ حاصر — فقال له : يا عباس ما تقول ؟ قال : أفطمعها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي سحلا بها . فقال عمر : ما تقول يا ذئ ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل فقال عمر : كتاب الله أحق أن يقيم من كتاب الوليد بن عبد الملك ، أردد عليه يا عباس ضيعته . فردها .

تمغفه عن مال زوجته :

لم يكن عمر ممن يحب نفسه ويتبع هواه ، بل كان يضحي بالكثير من ماله في سبيل اسعاد شعبه ورعايته ، ويبذل ماوسمه في تنظيم بيت المال وتنمية موارده ، فباع ما كان من كاليات للخليفة الراحل ووضع أثمانها في ذلك البيت ، وفاوض امرأته فاطمة بنت عبد الملك

— وكان أبوها قد أعطاهما من المال والجواهر ما لا يقدر بثمن — في أن ترد ما عندهما من مال وحل إلى بيت المال ، أو تلحق بأهلها إن هي خالفت رأيه . فقالت له : يا أمير المؤمنين إنني أختارك على هذا المال وعلى أصعابه لو كان لي ، فأمر بوضعه في بيت المال فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لعاطمة : إن شئت رددت مالك عليك ؟ فقالت : لا أشأؤه ، فلقد طبت عنه تقسا في حياة عمر ، فلا يصح أن أرجع فيه بعد موته .

أول ما تشكر له عمر :

خالف عمر ما كان من طادات السابقين قبله ، فخرج يوما في جنازة فأبى له ببرد كان يلقي للعلفاء ليقعدوا عليه إذ هم خرجوا إلى ذلك ، فأبى له فوكزه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فمحبب الناس لقمته وأيقنوا أنه سيكون خير رجل تولى قيادتهم . فأقبل عليه رجل ووقف بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين إغدت في الحاجة ، وانتهت في الصفاة ، والله يسألك عن مقامى هذا بين يديك . وكان في يده قضيب قد إنسكأ عليه ، فاستماده فأعاد ، وبسكى حتى جرت دموعه على القضيب . فسأله عمر : ما عيالك ؟ قال : خمسة : أنا وزوجتى وثلاثة أولاد ففرض له عشرة دنانير وأمر بمنحه خمسمائة دينار : مائتين من ماله ، وثلاثمائة من مال الله ، يتبلغ بها حتى يخرج عطاؤه .

الولد سر أبيه :

حرم عمر على ألا يطوق حقه بشعر من أرض أو درهم من مال المسلمين ، فجاءه أهله وأقptomه قطيعا من أرض ومال ، فهم يردنها للمسلمين . فقال له مزاحم : خذ له لأولادك . فخرقت عيناه بالدموع ، وقال : أكلمهم إلى الله . فلم يقنع مزاحم بذلك فذهب إلى أبيه عبد الملك وأخبره بما كان من عزيمة أمير المؤمنين ، فقال له : بشئ وزير الدين أنت يا مزاحم ! ووثب إلى أبيه وكان قد تبوأ مقيله فاستأذن ، فقال له البواب : ألا ترجونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة فسمع عمر صوته فأذن له بالدخول ، وقال ما الذي جاء بك إلى هنا يا عبد الملك ؟ فقال له : إن مراحمنا أخبرني بكذا وكذا وليس هذا من الدين في شيء . ففرح به عمر لتمسكه بدينته ثم قام لساعته وجمع الناس وأمر برد ما قطعه له أهله .

عمر مصطفى شاوي

القومية في التشريع

لكل أمة أحوال طبيعية واقتصادية تباين بها غيرها من الأمم الأخرى ، كما أن حالتها النفسية والعقلية والخلقية تختلف كذلك عما لبقية الأمم .

والحالة النفسية هي في الواقع نتيجة تكيف للأحوال الجغرافية ، والاقتصادية . فالبلاد الشمالية لها طابع نفسى مخصوص كونه الجواء الباردة وما تستلزمه من تنمية قوة الجراة وحس الاستكشاف الناشئ عن تفسير موضع الإقامة طلبا للرزق ، وتوقيا لحوادث الطبيعة . كما أن للبلاد الجنوبية — ومنها الأمم الشرقية — طابعا نفسيا خاصا خلقته جودة التربة الأرضية وهو طابع الانسجام بالموطن والرغبة في عدم النزوح عنه .

وعن صفة الحرأة والميل الى الاغتراب تنولد صفات أخرى ، مثل الاعتماد على النفس والاعتماد بها ، ومقاومة مشاق الحياة والتحمل للمسئولية ، كما تنشأ صفات أخرى عن الميل في الإقامة بالموطن ، مثل التواكل والرغبة في تكليف الغير بالقيام بالأمور وتحصيله مسئولية القيادة .

ومن هنا نفهم رغبة الشرق في الوظيفة ، وشدته ارتباطه بالمكان الذي يحمل فيه ويحمد به منعة نفسه التي يقوم بها لأجله غيره ، كما نفهم رغبة الشمال في الهجرة ولذته في المبادأة . من هنا نفهم لماذا تركت الأمم الشرقية التصرف في سياستها للدحيل فيها ، ولماذا تتحول البلاد الشمالية الى دويلات صغيرة تود الاستقلال وتموت دفاعا عنه .

لهذا التباين في الطابع النفسى يجب أن يكون هناك اختلاف كبير في القانون الخلقى لكل من الطائفتين . فالقانون الخلقى للطائفة الجنوبية في حاجة الى الحفز على العمل ، والرفع من شأن الاعتماد على النفس ، والخفض من شأن التواكل والكسل ، لأنه كلما مالت الناس الى الراحة بسبب عوامل طبيعية زاد واجب الأخلاق في إبعادهم عنها ، وتعين على القانون التشديد في العقوبة على لإعمال المنية عليها . فالسرقة والتسول مثلا من الأعمال التي يساعد عليها الميل الطبيعي الى الراحة ، ووقوعهما في البلاد الجنوبية لذلك مطرد .

هذا على العموم بالنسبة لما هو شمالى أو جنوبى ، بغض النظر عن أن كل بلد في المنطقة الشمالية الباردة ، أو في المنطقة الجنوبية الحارة ، أو المتوسطة ، لها سمات أخرى غير السمات الجوية لا بد من مراعاتها في التشريع أيضا .

فالعادات المأثوقة للشعب ، والخلق الموروث فيه ، لا بد أن يحظى بنصيب من نظر المشرع . لأن القانون الذى يغفل هذه الناحية يغفل في الواقع أحد الجزأين المكوّنين لنفسية الشعب ،

إذ نفسية الشعب عبارة عن الآثار المطبوعة في عقل كل فرد من أفرادها بواسطة العالم الخارجي . وهذا العالم الخارجي إما أنه الطبيعة الجغرافية للشعب ، أو بيئته العقلية التي تتمثل في عاداته وقانونه الخلقى والدينى .

ولهذا القانون الذى لم يُبين على « نفسية الشعب » إما أن يلقى معارضة في تنفيذه ، أو يؤدي الى نتيجة سلبية . فالطبيعة الجغرافية ما دامت على حالها ، والعادات والأخلاق ما دامت لم تتغير ، فلا بد أن يوضع القانون ملائما لها . وخطوة الإصلاح حينئذ تكون بالبدء في تنظيم طبيعة البلد والتغيير من عادات الشعب ووضعه أمام قانون خلقى آخر ، ثم يتبع ذلك تعديل القانون حسب نسبة التغيير والتطور في هذه العوامل .

فالقانون المصرى مثلا الذى يقضى بتجنيد العرب والبدو تجنيدا نظاميا ، لم يلاحظ في وضعه عادة هؤلاء وما جيلوا عليه من اعتبار عدم حصولهم للتجنيد ميزة خاصة بهم حتى صار موضع القهر فيهم . فقبل الإقدام على سن هذا القانون يجب على المشرع بواسطة الدعاية والتعليم أن يهيئهم لقبوله بتفهمهم أن من الرجولة ، التي هي طبعا من مواضع غرهم ، الاستعداد للدفاع ورد مقاومة العدو ، ثم تمهيدهم مع ذلك أنهم ليسوا أفرادا لحسب يعيشون موزعين في نقاط متعددة ، وإنما هم ينتمون الى أمة ، وأن هذه الأمة في حاجة إليهم ، والى دفاع منظم موحد من كل أبنائها . بمد هذه المحاولة من الإقناع يستطيع التشريع المصرى أن يخرج قانون التجنيد الإيجابى شاملا للعرب والبدو .

كذلك إذا أريد تجنيد الأزهرين ، لا شك أن القانون يلقى معارضة نفسية شديدة ، لأن الصفة الروحية التي للكنيسة قد غلبت على الاسلام أيام ضمعه وعجنته ، وعلى علمائه بأن استسلامهم ، وهودت هؤلاء على أن الشرف في عدم مساواتهم بقية طبقات الأمة في القيام بخدمة الجندية ، وعلى أن الكرامة في احتفاظهم « بوظيفتهم المقدسة » وهي أشبه بوظيفة « النيابة عن الرب » في العادات المسيحية التي تتنافى و « النزول » الى مرتبة الشعب .

فاذا أراد المشرع المصرى أن يتجنب هذه المعارضة ويتيقن بنتيجة إيجابية لمثل هذا القانون بين الأزهرين ، فليعمد أولا الى نوع من الدعاية الإصلاحية ، ولكنه نوع آخر يخالف ما يجب استعماله عند البدو والعرب للغاية نفسها . على المشرع أو المصلح أن يذكّرهم بعبء الجهاد في الاسلام ، وعن قام به في زمنه الاول ، يجب عليه أن يذكّرهم بأن الاسلام ليس مبدأ روحيا كفسيا ، وإنما هو فكرة معنوية تقوم على العزة والسلطان في ظل العدل وتحت راية الأخلاق الصكرية . فاذا ما انتشرت هذه الذكرى بينهم فأكبر على أنهم أنفسهم حبيدأون بحمل الهيئة التشريعية على جمل هذا القانون شاملا لهم كبقية الطوائف الأخرى .

وكما على المشرع أن يغير أولا من عادات البلد بالدعاية والتربية نحو ناحية الإصلاح والرقى

قل أن يضع قانونه - الذى مهمته فى الواقع الاحتفاظ فقط بحالة فى الشعب مرغوب فيها ، وليس التغيير والتبديل لأن الكفيل بذلك هو التربية وحدها - كذلك عليه أن يتناول الحالة الخلقية السائدة فى البلد بالتعديل مبدئياً بواسطة الدعاية أيضاً ، ثم يبنى قانون الأخلاق الجديد على أساس هذا التعديل .

فإننا من المذاهب الخلقية الشائعة فى مصر ، المذاهب الصوفية . فهذه المذاهب وإن تعددت ترحع فى الفتور الذى أصاب المسلمين الى فكرة واحدة ، الى العسكرة السلبية التى تقوم على الزهد فى الحياة الحاضرة طلبية لداعى عدم الرغبة فى العمل ، وإجابة لما تتطلبه طبيعة البلدان الشرقية من الميل الى الفراغ والكسل والاحتسالم ، وعدم الشعور بالمسئولية ، ومحبة الاستيطان فى موضع واحد . ومنشأ هذه الفكرة هى البلدان القديمة لتطور الفكر الانسانى بمران الهند وما جاورها من البلاد الشرقية الحارة ، فطبيعة هذه البلاد الجغرافية هى التى أملت على ساكنيها هذه الفكرة ، وقربتها من نفوسهم . حتى صارت عقيدة ثابتة . ومن ثم انتشرت بالتدرج فى الأقاليم الأخرى ، ووجدت من يعتنقها قلة وكثرة حسبما يكون الميل الطبيعى للعرد ، وحسبما تكون طبيعة الاقليم . والمذاهب الفلسفية القديمة - الشرقية - لم تكن سوى صدى لعكرة العزلة عن العالم والزهد فى الدنيا والتخلص من الجسم والرغبة فى الفناء فى ذات الإله الخالق ، والمسيحية ، ومن بعدها الأفلاطونية الحديثة ، تمثل جانبا عظيما من تلك المذاهب الصوفية الفلسفية .

فإذا تأجأ المشتري المصرى فرق الصوفية بمصر ، التى لا عداد لها ، بتحريم القيام بشعائر فرقهم ، وبمنعهم من نشر هذه الفكرة بين الطبقات الفقيرة التى هى أحوج الطبقات الى السعى فى طلب الرزق بالعمل والجهد فيه ، لم يجد إلا احتجاجا إجماعيا من رؤساء الصوفية وأتباعهم فإذا هو بدأ بقلب هذه العكرة الخلقية وهذه النزعة الفلسفية باداعة الفكرة الاسلامية القائمة على الدعوة لله وحده ، والتى تنادى بالعمل فى الحياة الدنيا ، وبفتر مبدأ الاسلام الخلقى الذى ينص على ربط الجزاء بالعمل ، ويفض فى السؤال والتواكل ، ويعترف بعزلة الجسم كمنزلة الروح . فكما أن هذه تحتاج فى تأدية رسالتها من الصفاء والمحبة لتغير الى عدم الافتنان بالمادة ، كذلك قريبها وهو الجسم يحتاج فى قيامه بمهمته من معاونة الروح الى الاحتفاظ بقوته ومنعته عن طريق السعى والعمل فى الدنيا . إذا تمكنت هذه الفكرة الاسلامية من نفوس الأفراد ومن نفسية الأمة ، كان للعشترع حينئذ أن يقن بما يحفظ هذه الحال ، مما يحفظ بقاء هذه الفكرة ويضمن شيوعها .

بهذا يكون التشريع أصمنا نجاحا وثباتا ، ويكون للقانون حرمة التى لا يصح أن تكون حرمة رهبية فحسب . بل قبل كل شئ، حرمة تقديس واحترام .

وكما يجب مراعاة الطبيعة الجغرافية وعادات الأمة وأخلاقها في وضع القوانين ، كذلك يجب عدم معارضتها للقواعد الدينية الصحيحة ، وإلا نشأت في الشعب ملكة الاستحفاف ، إما بالدين ، أو بالقانون الوضعي ، لأن كلا منهما يكون حينئذ سالكا اتجاهها مصادا لاتجاه الآخر ، ومستلزما طبيعا لأعمال هي على البقيض مما يستلزمه الآخر . فإذا حرم الدين شرب الخمر مثلا وأباحه القانون الوضعي ، فالشعب إما أن لا يتناول لأنه حرم في نصرة ، وإما أن يشربه ، فالدين يكون عنده حينئذ عديم الحزمة غير مستحق التقدير . وبما أن القانون الوضعي مصحوب دائما بالسلطة الزمنية فهو ضامن رحمان كفته ، ويومئذ ينمذم في الشعب مالا يمكن أن يعوضه القانون بحال من الأحوال ، وهي الناحية الدينية البحتة (العاطفة الدينية كما يقول علماء النفس) التي من أحسن مظاهرها طاعة الشعب المطلقة المصحوبة بالرضى النفسى منه ، وإقامة المدل من الحاكم بالأمر في الرعية عن عقيدة مصحوبة بخشية الهية . وحكومة لا تعتمد على هاتين القاعدتين حكومة لا تسجو من خطر الانقلابات الاجتماعية .

لذلك ينادى مونتيسكي (Montesquieu) وإن لم يوجب اشتقاق القانون الوضعي من الدين — في كتابه « روح القوانين » بلزوم تعاونهما « فالشريعة (١) — يقول مونتيسكي — والقانون الوضعي يجب أن يكمل كل منهما الآخر لأن إغتهما تهذيب الإنسان ، فإذا عجز أحدهما عن الوصول إلى هذه الغاية وجب أن يعاونه الآخر فالدين اليائس مثلا لا يعرف قواعد التصديق ولا جنة ولا ناراً (مهيبته محدودة) ، ولهذا نجد القوانين اليابانية في غاية الهدوء وتنفذ بكل دقة ... » .

وعدم أخذ مونتيسكي مجداً اشتقاق القانون الوضعي من الدين ، وإن أوجب تعاونهما ، راجع إلى أنه يرى أن الدين قواعد خلقية تقصد إلى تهذيب الفرد وحده دون القدرة على تهذيب الجماعة . « فالقوانين الدينية ترى (٢) إلى كمال الفرد الذي يقوم بأدائها ويمثل لها ، بينما القوانين الوضعية تقصد إلى التغير الخلقية للفرد باعتبار أنه إنسان على العموم . وإذا فهمهما كانت المعاني المشتقة من الدين محترمة فإنها لا تصح أن تجعل أساساً للقوانين المدنية ، لأن هذه مشتقة من أصل آخر وهو الصالح العام » .

واستشهد على رأيه هذا بمقارنة بعض مسائل تشريعية اختلف حكمها على عهد القانون الروماني في أيام الجمهورية والمملكة الرومانية ، ثم على عهد الكنيسة في الأباطورية البابوية فالتشريع الروماني راعى مثلاً في تنظيم الأسرة المحافظة على أخلاق النساء صوماً . فما حامت الكنيسة لاحظت في تشريعها للأسرة قداسة الزواج أكثر من العفة الخلقية . فقد كان يحكم

(١) صفحة ١١٩ من الفصل الرابع عشر من الكتاب الرابع والعشرين من القمم العائير طعة نيتسج سنة ١٨٤٣ . (٢) صفحة ١٤ ، ١٥ من الفصل التاسع من الكتاب السادس والعشرين من القمم التاسع .

في عهد القانون الروماني على الزوج — مثل زوجته — إذا أعاد زوجته الى عصمته بعد الحكم عليها لارتكابها جريمة خلقية في مدة الزواج الأول باعتبار شركته لها في الفسق حينئذ . ولكن لما جاء عهد الكنيسة شرع القيصر جوستنيان (Justinian) بإباحتها إذا مكثت في الديور مدة التوبة وهي ستان .

كذلك إذا ذهب الزوج الى الحرب ولم تسمع عنه زوجته خبرا ، جار لها بعد مضي الغيبة القانونية وهي أربع سنوات بناء على قانون قسطنطين (Constantin) — أن تكسب الى قائد الساحة في الحرب خطاب الطلاق ثم تتزوج غيره . فإذا قدر ورجع الزوج الأول لم يكن له حق في اتهامها بالخيانة الزوجية . ولكن بعد ما تولى القيصر البابوي جوستنيان عدل ذلك ومسمها من الزواج معها طال وقت الغيبة حتى تتحقق وفاته بإيدان قائد الساحة نفسه .

فهذا رأي مونتيسكي — يريد إذا أن يستنتج أن القانون الوضعي ، وهو القانون الروماني هنا ، قصد الى المصلحة العامة وهي المحافظة على المنفعة والتقليل من الجرائم الخلقية عند ما أباح الزواج ثانية ، بينما قانون الكنيسة قدرى الى منفعة فردية وهي رابطة الزوجين رابطة أبدية ربما تنشأ عن أديتها هذه أخطار خلقية اجتماعية .

ومع أن الناحية السياسية المدنية تغلب على مونتيسكي فهو لا يصبر عطاء للدين اذا قال بعدم اتخاذه أساسا للتشريع الوضعي ، ونادى بالمحافظة على الفرق بين الشريعة والقانون ، لأنه يرى في هذه المحافظة نفسها ضما كبيرا للمصلحة العامة ، « إذ القانون (١) الوضعي خاضع للتغيير الذي يتبع إرادة الانسان ، بينما عدم قابلية التحويل من أزم صفات القانون الديني لأن الأول يقصد الى « الحق » والثاني الى « الآحق » . والحسن يمكن أن يشمل في أشياء كثيرة بينما الأحسن لا يوجد إلا في شيء واحد . كما أن القانون الوضعي في دول عدة عبارة عن إرادة وقتية للحاكم ، ولو كانت القوانين الدينية بهذه الصفة لما كان هناك شيء ثابت للجماعة الانسانية ، مع أن الصروة تقضى بذلك ، وهو ما يمجده المرء في الدين » .

مونتيسكي جعل في الواقع أساس بحثه هذا في تعرف الصلة بين القانون الوضعي والشريعة ، الذي يطلب له الاعتبار العام وورغب في تميمه وتطبيقه كذلك على الأديان الأخرى ، ما رآه محسب في المسيحية من المعنى الفردي الروحي ، وبناء عليه قال بوجود تعاون القانون والشريعة دون أن يكون أحدهما أصلا للآخر ، وبعبارة أخرى دون أن يتخذ الدين أساسا للتقنين الوضعي .

وسواء أكان مثل هذا البحث — لأنه خرج من جزئية واحدة ، وهي دين بعينه ، ومع

(١) صعيقة ٤ ، ٥ من الفصل التاسع من الكتاب السادس والعشرين من القسم التاسع

ذلك يطلب صاحبه لتأنيجه الاعتبار المطلق — موافقا لقواعد البحث العلمي الصحيح أم لا ، فالذي لا شك فيه . وهو بغيرنا من هذا المقال — أن المقتن يجب عليه اعتبار الدين على أى وجه في تقيينه .

وإذا معنى القومية في التشريع عدم إغفال هذه النواحي (الطبيعة الجغرافية ، العادات ، الأخلاق ، الدين) ووجوب مطابقته لأسس الحياة الطبيعية والعقلية للشعب . ولا تعارض بين ما يوجهه الدين ، إذا قلنا بوجوب مراعاته في التقنين الوضعي ، من نداء بأخوة عامة في الإنسانية ، وبين ما تتطلبه القومية في التشريع من اعتبار أحوال الأمة ومصالحها وحدها ، لأن النداء بالأخوة العامة في الإنسانية معنى خلقى زائد عما يقتضيه التشريع الوضعي ، وأشبه شيء بمسألة السلام العام التي يمكن تأديتها مع حفظ كل أمة لمصالحها الخاصة بها .

أما التقليد في القوانين فليس من التشريع القوي في شيء ، الذي يترقب من ورائه نتيجة إيجابية ذات صبغة إصلاحية لأن القانون يكون حيث يطلب صيانة حالة من حالات الأمة مرغوب في بقائها والاستمرار عليها ، والقانون المقلد فيه لا يؤدي هذه الوظيفة في الشعب المقلد لأنه وضع لحالة أخرى في شعب آخر ، فهو لا يعبر عن نفسية الناس تمبيره عنها في بيئته الأولى .

الثقافة الإسلامية والتشريع القوي .

وأوضح مثل تاريخي لتأييد هذه النظرة الاختلاف في مذاهب الفقه الإسلامي بعضها تجاه بعض ، وأوضح منه الاختلاف الحاصل عند إمام واحد تبعها لاختلاف البيئة والمكان . وقد أسر الإسلام بمبادئها لآمة مبنية على اليسر لا على الإرهاق ، ولذلك اختلفت بعض انقروم في المذاهب الفقهية ، ففقه أهل العراق في المسائل الاقتصادية يختلف اختلافا كبيرا عن فقه أهل المدينة في المسائل عنها ، وفقه الإمام الشافعي وهو بغداد غير هو بمصر . كذلك البيئة المصرية كانت تطلب من الأحكام الفقهية الجزئية غير ما كانت عليه في بغداد ، وحملت الشافعي على أن يكون له رأيان : القديم والحديث .

واختلاف الفقه الإسلامي تبعاً لاختلاف مقومات البيئة نفسها لا يتقدم في « عمومية » مبادئ التشريع الإسلامي وصلاحياتها لكل زمان ومكان . لأن الأحكام الفقهية هي في الواقع أحكام فرعية لمسائل اقتضتها الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

كما أن تطبيق القومية على الثقافة الإسلامي ، أي جعل اختلاف المذاهب الفقهية دليلاً على ربط التشريع بالطبيعة الجغرافية والبيئة العقلية الخاصة ، لا يتعارض مع دعوى أن أحكام الإسلام معتبرة بالنسبة لكل الشعوب الإسلامية وأن دعوته عامة للجميع لا فرق بين عربي وعجمي . لأن الإسلام باعتبار قضايا الخلقية كالحث على العدل وطاعة الوالدين والرفق بهما ،

والمحافظة على العرة والسلطان للمؤمنين ، والحلت على العمل والسعى لطالب الرزق وطلب التعاون والائتماد . . . ؛ وباعتبار مبادئه التشريعية العامة ، كالزكاة ، والحج ، والقصاص والمدينة ، والنفقات ، والبيوع ، والجهاد في سبيل الله . . من المسائل الاجتماعية ، دين عام . والدعوة به معتبرة نحو كل إنسان وكل أمة . وهو بهذا الاعتبار غير الفقه الاسلامي الذي هو عبارة عن أحكام فرعية حضمت — وتخضع — لثبوت الزمنية والمكانية بترخيص منه دفعا لاجحرج ، وترجع في تفرعها الى أصول الاسلام التشريعية التي لها عمومية الاعتبار .

فالفقه الاسلامي ليس نفس قواعد الاسلام الخلقية الدينية ، وليس نفس مبادئه التشريعية الكلية وإن كان يمت إليها — إلى القواعد الخلقية والمبادئ التشريعية — بصللة المرجع والاشتقاق . وإذا الدين الاسلامي (باعتبار الطابع الخلقى والطابع التشريعى العام) دين عالمى روحى (universal) والفقه الاسلامي محلى (local) ، وأيضا غير روحى ، لأنه يتعلق بتنظيم الحياة الظاهرة لحسب وليس له على النفس الفردية مباشرة من سبيل خلقى إلا بقدر ما تؤديه أحكامه كقواد قانونية ، من نتائج خلقية في مجموع الأمة . فثلا الفرص من إزام الولد الموسر بالنفقة على والده العاخر عن السكسب تنظيم العلاقة بين الاثنين ودفع فاقة الجوع عن الوالد ، لأن من النظم العامة للدولة المحافظة على أرواح الافراد ، ولذلك كان لها التدخل في خصوصياتهم لمصاحبة بعضهم بعضا ، فإذا لم تلزم الولد في هذه الحالة كانت هى المكلفة بالنفقة على الوالد . والقاصى وقت حكمه بالنفقة على الولد لم يلاحظ في الواقع إزامه مباشرة باحترام والده الذى — أى الاحترام — هو معنى خلقى من أخص موحياته مساعدة الولد لوالده دون احتياج الى تدخل السلطة القضائية . ولكن ذلك الاحترام سيصبح لسلطة القانون وسطوته عادة خلقية في الشعب .

وحوب ائتماد الشرق في تشريعه الوضعى على الفقه الاسلامى :

وإذا كانت القومية هى عماد التشريع ومن الشرائط الأولية في تحقيق غايته من ناحية ، والتقليد في نقل القوانين من دوائى الاضطراب الداخلى وسيادة الارتباك في سياسة البلد الانشائية من ناحية أخرى ، وجب على كل أمة أن تؤسس تشريعها على ما لها من حالات طبيعية وما نشأت فيه من عادات ، وآمنت به من مبادئ دينية ، وارتضته لنفسها من قضايا خلقية .

فإذا قيل للقائم بأمر التشريع في مصر : إن الفقه الاسلامي هو الفقه القومى المصرى ، أو هو أقرب أنواع الفقه الى ما يصح أن نسميه أو نكونه باسم الفقه القومى ، ولهذا يجب الاعتماد عليه في سن القوانين ، لم يكن في هذا القول ، خلافا ولا « رجعية » . وإذا قيل له أيضا : إن القوانين الغربية لم تكن من عوامل مدينة أوروبا الحاضرة إلا لبنائها على أسس البينات القومية ، وأن بينها من الاختلاف والتفاوت تقدر ما تتميز به تلك البينات بعضها عن بعض من خصائص ، وأنها لذلك لا تنتج إذا هى طبقت في بلاد الشرق إلا أصرارا اجتماعية

واقنصادية وخلقية خطيرة ، لم يكن في هذا القول أيضا خفاء للمدنية الاوربية وإنحطاط من حقها .

كيف يطبق قانون مساعدة العاطلين مثلا الذي ينفذ في بعض بلدان أوربا على العاطلين في مصر أو في الشرق ، والشرقي على العموم ميال بحكم الطبيعة الى الكسل والقساعة التي هي ضرب من الازعان للذلة ؟ حقا يمكن تطبيقه إذا أصبح السعي الى العمل من عادة الأفراد وغدا حقيقة خلقية يخر بها الشعب . ولكن الحال على ما هو عليه من رغبة في العطلة ومودة للفراغ وإن كان في ظل الفاقة والجوع ، فالتقليد فيه تشجيع لما تقتضيه الطبيعة من الكسل ، وليس حداً لها كما يتطلبه المبدأ العام للتشريع وهو رعاية المصلحة وتقويم الطبائع الفاسدة .

وفوق ما للفقه الاسلامي من هذه الميزة ، وهي قربه على الأقل لما يصح أن يسمى تشريعا مصرياً ، إن لم يكن هو نفسه ، فإن مراعاته للعاطفة الدينية مما يزيد في تقديس الشعب للتشريع المصري الحديث لو اعتمد عليه ، ومما يجعله أميل الى طاعته والانتقاده أكثر من مخالفته إياه .

فالقاعدة من بناء النقيض الوضعي المصري على الفقه الاسلامي ، أو بمباراة أخرى التعديل في الفقه الاسلامي على حسب مقتضيات الحالة الطبيعية والعقلية في الوقت الخاص ، مردوجة ، أو على الأقل تتحجب بوساطته الأضرار الناشئة عن التقليد في التشريع أو عن معارضة القانون الوضعي للفقه الديني ؟

محمد البرهسي

دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس

ذم أكل الدنيا بالدين

قال شاعر يذم أهل الرياء في عصره :

مشايخ العصر لشرب المعصير
شر طویل تحت ذیل قصیر

قد نس الصوف لترك الصفا
الرقص والتناهد من شأنهم

وقال آخر :

وعلى المنقوش داروا
وله حجوا وزاروا
ولهم ريش لطاروا

أظهروا للناس نسكا
وله صاموا وصلوا
إن يكن فوق الثريا

الدفاع عن القرآن

الأسس الثمانية التي حملتها قواعد لباء ردودنا على الروايات الأحادية

- القاعدة الأولى : اعتراف ابن أبي داود في كتاب المصاحف بأن المروى آحادا ليس قرآنا .
- القاعدة الثانية : آراء الأصوليين في المتواتر والآحاد .
- القاعدة الثالثة : آراء علماء التفسير .
- القاعدة الرابعة : خلو المروى آحادا من البلاغة والابحاز .
- القاعدة الخامسة : نسخ العرض الأخير لما تقدمه .
- القاعدة السادسة : إجماع الصحابة على مصحف سيدنا عثمان .
- القاعدة السابعة : توثيق سور القرآن وآياته تنويف من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- القاعدة الثامنة : حكم الشريعة الإسلامية فيمن غير كلة من القرآن أو بدل حرفا مكان حرف .

القاعدة الأولى — اعتراف ابن أبي داود :

تقدم الكلام على اعتراف ابن أبي داود في كتاب المصاحف بأن المروى آحادا ليس قرآنا ، وقد اعترف بذلك في موضعين :

فالموضع الأول في باب مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه ، إذ ورد فيه ما نصه : « قال عبد الله بن أبي داود : لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذي اجتمع عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالاعادة » اهـ . والموضع الثاني — اعترف فيه اعترافا صمليا ، في أول باب اختلاف مصاحف الصحابة حيث ورد فيه ما نصه :

« قال أبو بكر بن أبي داود إنما قلنا مصحف فلان لما خالف مصحفنا هذا من الخط أو الزيادة أو النقصان — أخذته عن أبي رحمه الله هكذا فعل في كتاب التنزيل ، فقوله : لما خالف مصحفنا هذا ، يريد به المصحف الإمام — ولذلك نصاب المصحف المخالف إلى صاحبه ، فيقول مصحف عمر بن الخطاب ، مصحف عبد الله بن مسعود وهكذا ، فهذا القول من ابن أبي داود يدل على أن الزيادة أو النقصان ، أو المخالفة في الخط والرسم ، الواردة في المصاحف المضافة ليست قرآنا ، لخالفها الإجماع الذي انمقد على المصحف الإمام — هذان الاعترافان يهدمان ما زعمه الدكتور جفري — كما قلنا غير مرة — من أن كتاب المصاحف دليل على تطور القرآن .

القاعدة الثانية — آراء الأصوليين في المتواتر والآحاد :

نريد الآن أن نبين ماهو القرآن — ثم نبين أن شرطه التواتر وأن المروى آحادا ليس قرآنا ، مع بيان درجته من أنه خبر أو مذهب : وقد اخترنا ثلاثة مصادر من أهمات الكتب في أصول الفقه .

أحدها : وهو من أصول الشافعية . كتاب الأحكام في أصول الأحكام للأمدى .

وثانيها : وهو من أصول المالكية : مختصر المستهى لابن الحاجب .

وثالثها : وهو من أصول الحنفية : التقرير والتعبير ، شرح التحرير لابن أمير الحاج والكمال بن الهمام .

قال العلامة الأمدى في كتابه الأحكام ص ٢٨٨ :

أما حقيقة الكتاب فقد قبل فيه : هو ما نقل البيا بين دفقي المصحف بالأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا — وفيه نظر فانه لا معنى للكتاب سوى القرآن المنزل علينا على لسان جبريل ، وذلك مما لا يخرج عن حقيقةه بتقدير عدم نقله إلينا متواترا بل ولا بعدم نقله إلينا بالكلية ، بل غاية جهنا بوجود القرآن بتقدير عدم نقله إلينا ، وعدم علمنا بكونه قرآنا بتقدير عدم تواتره — وعلمنا بوحوده غير مأخوذ في حقيقةه فلا يمكن أخذه في تحديده — والأقرب في ذلك أن يقال . الكتاب هو القرآن المنزل فقولنا : القرآن احتراز عن سائر الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل وغيرها .

« وقولنا : المنزل احتراز عن كلام النفس فانه ليس بكتاب ، بل الكتاب هو الكلام المعبر عن الكلام النفساني ، ولذلك لم نقل هو الكلام القديم ، ولم نقل هو المعجز ، لأن المعجز أهم من الكتاب ، ولم نقل هو الكلام المعجز ، لانه يخرج منه الآية ، وبعض الآية مع أنها من الكتاب وإن لم تكن معجزة » اهـ .

وقال العلامة ابن الحاجب في مختصره في تعريف القرآن . « الكتاب (القرآن) وهو الكلام المنزل للأنبياء بسورة منه ، وقولهم . ما نقل بين دفقي المصحف تواترا حد للشيء بما يتوقف عليه ، لأن وجود المصحف ونقله فرع تصور القرآن »

وقال العلامة ابن أمير الحاج في شرحه المسمى التقرير والتحرير ، على تحرير الكمال ابن الهمام ص ٢١٣ من الجزء الثاني ما نصه . « وهو — أي القرآن — اللفظ العربي المنزل للتدبر والتذكر المتواتر — فاللفظ شامل للقرآن وغيره من الكتب السماوية وغيرها مخرج للكلام النفسي القائم بذاته تعالى ، والعربي مخرج لما سواه من الكتب السماوية ، والمنزل أي على لسان جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم للتدبر والتذكر أي

للتفكر فيه فيعرف ما يدبر أى ما يتبع ظاهره من التلاوات الصحيحة والمعاني المستنبطة ويتعظ به ذووا العقول السليمة — (ثم قال بعد كلام) والمتواتر يخرج لما كان هكذا غير متواتر كقراءة ابن مسعود رضى الله عنه (فاقطعوا أيمانها) وأبى (فعدة من أيام أخر متتابعات) ونمض الأحاديث الإلهية التى أسندها النبى صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى على لسان حبريل كالحديث الحسن الذى أخرجه أحمد وغيره أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أى البلاد شر قال: لا أدرى حتى أسأل فسأل حبريل عن ذلك فقال لا أدرى حتى أسأل ربى فاطلق قلبت ما شاء الله ثم جاء فقال: إني سألت ربى عن ذلك فقال: شر البلاد الأسواق اهـ.

فهذه النصوص صريحة أن المروى أحادا كقراءة ابن مسعود، وقراءة أبى وغيرهما لا ينطبق عليه تعريف القرآن، فهو ليس بقرآن، ومع كونه ليس قرآنا اتفاقا، فهل هو حجة يحتاج به فى الأحكام الشرعية — ويكون حكمه حكم الحديث فى الاستدلال أو حكم مذهب الصحابي أم لا — واليك كلام الأصوليين فى ذلك.

قال الأمدى فى كتابه المذكور:

«اتفقوا على أن ما نقل إلينا من القرآن نقلا متواترا، وعلينا أنه من القرآن أنه حجة. واختلفوا فيما نقل إلينا منه أحادا كمصحف ابن مسعود وغيره أنه هل يكون حجة أم لا، فنفاه الشافعى، وأثبت أبو حنيفة ونبى عليه وجوب التتابع فى صوم اليمين بما نقله ابن مسعود فى مصحفه من قوله: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

والخيار إنما هو مذهب الشافعى — وحينئذ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مكلفا بالقائه ما نزل إليه من القرآن على طائفة تقوم الحجة القاطعة بقولهم، ومن تقوم الحجة القاطعة بقولهم لا يتصور عليهم التوافق على عدم نقل ما سمعوه منه. فالراوى له إذا كان واحدا أن ذكره على أنه قرآن فهو خطأ وإن لم يذكره على أنه قرآن فقد تردد بين أن يكون حبرا عن النبى صلى الله عليه وسلم، وبين أن يكون منحه له فلا يكون حجة — وهذا بخلاف خبر الواحد عن النبى عليه الصلاة والسلام. وعلى هذا منع من وجوب التتابع فى صوم اليمين على أحد قولين:

«فإن قيل: قولكم أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إلقاء القرآن على عدد تقوم الحجة القاطعة لقولهم، لا نسلم ذلك، وكيف يمكن دعواه مع أن حفاظ القرآن فى زمانه عليه الصلاة والسلام لم يبلغوا عدد التواتر لقلتهم، وإنما جمعه إنما كان بطريق تلقى أحاد آياته من الآحاد. ولذلك احتلت مذاهب الصحابة ولو كان قد ألقاه الى جماعة تقوم الحجة بقولهم، لما كان كذلك، ولهذا أيضا اختلفوا فى البسطة أنها من القرآن. وأسكر ابن مسعود كون القاطعة والمعوذتين من القرآن. سلمنا وجوب ذلك على النبى عليه السلام، وأنه سمعه منه جمع

تقوم الحجة بقولهم ولكن إنما يمتنع السكوت عن نقله على الكل لمصنعهن عن الخطأ ولا يمتنع ذلك بالنسبة إلى مصمم — وإذا كان ابن مسعود من جملتهم وقد روى ما رواه فلم يقع الاتفاق من الكل على الخطأ بالسكوت — وعند ذلك يمتنع حمل روايته لذلك في مصحفه على أنه من القرآن لأن الظاهر من حاله الصدق ، ولم يوجد ما يعارضه ، غاية أنه غير مجمع على العمل به لعدم تواتره وإن لم يصرح بكونه قرآناً ، أمكن أن يكون من القرآن وأمكن أن لا يكون لكونه خيراً عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وأمكن أن يكون لكونه مذهباً له كما ذكرتموه ، وهو حجة بتقدير كونه قرآناً ، وبتقدير كونه خيراً عن النبي عليه الصلاة والسلام وهما احتمالان وإنما لا يكون حجة بتقدير كونه مذهباً له ، وهو احتمال واحد ، ولا يخفى أن وقوع احتمال من احتمالي أغلب من وقوع احتمال واحد بعينه . سلمنا أنه ليس بقرآن وأنه متردد بين الخبر وبين كونه مذهباً له ، إلا أن احتمال كونه خيراً راجع لأن روايته له مومم بالاحتجاج به ، ولو كان مذهباً له لصرح به نقياً للتلبيس على السامع المعتقد كونه حجة مع الاختلاف في مذهب الصحابي هل هو حجة أم لا .

« والجواب - أما وجوب إلقاء القراءان على عدد تقوم الحجة القاطعة بقولهم فذلك مما لم يخالف فيه أحد من المسلمين ، لأن القرآن هو المحزة الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام قطعاً ، ومع عدم بلوغه إلى من لم يشاهده بخبر التواتر لا يكون حجة قاطعة بالنسبة إليه ، فلا يكون حجة عليه في تصديق النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا يلزم من عدم بلوغ حفاظ القرآن في زمن النبي عليه الصلاة والسلام عدد التواتر ، أن يكون الحفاظ لأحاد آياته كذلك . وأما التوقف في جمع آيات القرآن على إخبار الأحاد فلم يكن في كونها قرآناً ، بل في تقديمها وتأخيرها بالنسبة إلى غيرها ، وفي طولها وقصرها ، وأما ما اختلفت به المصاحف ، فما كان من الأحاد فليس من القرآن ، وما كان متواتراً فهو منه . وأما الاختلاف في التسمية إنما كان في وضعها في أول كل سورة ، لا في كونها من القرآن .

« وأما إنكار ابن مسعود ، فلم يكن لأنزال هذه السور على النبي عليه الصلاة والسلام ، بل لإجرائها مجرى القرآن في حكمه قولهم إذا رواه ابن مسعود لم يتفق الكل على الخطأ — قلنا وإن كان كذلك إلا أن سكوت من سكت ، وإن لم يكن محتجاً إلا أنه حرام لوجوب نقله عنه ، وعند ذلك فلو قلنا أن ما نقله ابن مسعود قرآن لزم ارتكاب من عده من الصحابة للحرام بالسكوت ، ولو قلنا أنه ليس بقرآن لم يلزم منه ذلك بالنسبة إلى الراوي ، ولا بالنسبة إلى من عده من الساكنتين ، وبتقدير ارتكاب ابن مسعود للحرام مع كونه واحداً ، أولى من ارتكاب الجماعة له ، وعلى هذا فقد بطل قولهم بظهور صدقه فيما نقله من غير معارض ، وتعين تردد نقله بين الخبر والمذهب — قولهم : حمله على الخبر راجع - لا نسلم ذلك .

« قولهم : لو كان مذهبا لصرح به ، نفيا لتلبيس — قلنا أجمع المسلمون على أن كل خبر لم يصرح بكونه خبرا عن النبي عليه الصلاة والسلام ليس بحجة ، وما نحن فيه كذلك ، ولا يخفى أن الحمل على المذهب ، مع أنه مخلف في الاحتجاج به أولى من حمله على الخبر الذي ما صرح فيه بالجزية ، مع أنه ليس بحجة بالاتفاق — كيف وفيه موافقة للنقطة الأصلية ، ورواية الذمة من التنازع بخلاف مقالته ، فكان أولى » اهـ .

وقال العلامة ابن الحاجب في مختصره ما نصه :

« ما نقل آحادا فليس بقرآن ، لقطع بأن العادة تقتضي بالتواتر في تفاصيل مثله وقوة الشبهة في سم الله الرحمن الرحيم منعت من التفكير من الحاسنين والقطع أنها لم تتواتر في أوائل السور قرآنا فليست بقرآن فيها قطعا كغيرها وتواترت بعض آية في العمل ، فلا يخالف قولهم مكتوبة في المصاحف بخط المصحف ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما . سرق الشيطان من الناس آية لا يفيد ، لأن القاطع يقابله . قولهم : لا يشترط التواتر في الحمل بعد ثبوت مثله ضعيف يستلزم حواجز سقوط كثير من القرآن المقرر ، وجواز إثبات ما ليس بقرآن منه ، مثل (ويل يومئذ للمكذبين) و (قبلى آلاء ربكما تكذبان) لا يقال : يجوز ولكن اتفق تواتر ذلك ، لآما نقول : لو قطع النظر عن ذلك الأصل لم يقطع بانتفاء السقوط ، ونحن نقطع بأنه لا يجوز ، والدليل ناهض ولأنه يلزم حواجز ذلك في المستقبل وهو باطل » اهـ .

ولما تعرض ابن الحاجب هنا لمسألة التسمية ، وكان كلامه فيها مختصرا مجملا ، رأيت أن أنقل هنا ماد كره العلامة الآمدى فيها ، فإن كلامه فيها واضح جلي يعتبر كالشرح لأن الحاجب قال الآمدى :

« اتفقوا على أن التسمية آية من القرآن في سورة النمل ، وإنما اختلفوا في كونها آية من القرآن في أول كل سورة ، فنقل عن الشافعي في ذلك قولان — لكن من الأصحاب من حمل القولين على أنها من القرآن في أول كل سورة كتبت مع القرآن بخط القرآن أم لا — ومنهم من حمل القولين على أنها هل هي آية برأسها في أول كل سورة ، أو هي مع أول آية من كل سورة آية — وهو الأصح . وذهب القاضي أبو بكر وجماعة من الأصوليين إلى أنها ليست آية من القرآن في غير سورة النمل . وقضى بتخطئة من قال بأنها آية من القرآن في غير سورة النمل — لكن من غير تكفير له لعدم ورود النص القاطع بإسكار ذلك .

والحجة لمذهب الشافعي من ثلاثة أوجه :

« الأولى — أنها أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أول كل سورة . ولذلك نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف حتم

سورة وابتداء سورة أخرى حتى ينزل عليه جبريل بسم الله الرحمن الرحيم . وذلك يدل على أنها من القرآن حيث أثبت .

« الثاني . أنها كانت تكتب بخط القرآن في أول كل سورة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه لم ينكر أحد من الصحابة على من كتبها بخط القرآن في أول كل سورة ، مع تحضنهم في الدين ونحززم في صيانة القرآن عما ليس منه ، حتى أنهم أنكروا على من أثبت أوائل السورة والتعشير والتسقيط ، وذلك كله يغلب على الظن أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن أنها منه .

« الثالث : ما روى عن ابن عباس أنه قال : سرق الشيطان آية من القرآن — لما أن ترك بعضهم قراءة التسمية في أول السورة ولم ينكر عليه مسكر ، فدل على كونها من القرآن في أول كل سورة .

« فان قيل : لو كانت التسمية آية من القرآن في أول كل سورة ، لم يحل إما أن يشترط القطع في إثباتها ، أولا يشترط . فان كان الأول ما ذكرتموه من الوجوه الدالة غير قطعية بل ظنية ، فلا تصلح للإثبات ، وأيضا فانه كان يجب على النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين كونها من القرآن حيث كتبت معه بيانا شافيا شائعا قاطعا للشك ، كما فعل في سائر الآيات ، وإن كان الثاني ، فليثبت التنازع في صوم الحين ، بما نقله ابن مسعود في مصحفه ، قلنا : الاختلاف فيما نحن فيه لم يقع في إثبات كون التسمية من القرآن في الجملة حتى يشترط القطع في طريق إثباتها ، وإنما وقع في وضعها آية في أوئل السور ، والقطع غير مشروط فيه ، ولهذا وقع الخلاف في ذلك من غير تكفير من أحد الخصمين الآخر ، كما وقع الخلاف في عدد الآيات ومقاديرها . قسولهم : كان يجب على النبي عليه الصلاة والسلام بيان ذلك بيانا قاطعا للشك . قلنا : ولو لم تكن من القرآن لتبين ذلك أيضا بيانا قاطعا للشك ، كما فعل ذلك في التعمود ، بل أولى من حيث إن التسمية مكتوبة بخط القرآن في أول كل سورة ومنزلة على النبي عليه الصلاة والسلام مع أول كل سورة كما سبق بيانه . وذلك مما يوم أنها من القرآن مع علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وقدرته على البيان ، بخلاف التعمود ، فان قيل كل ما هو من القرآن فهو منحصر بمكان بيانه بخلاف ما ليس من القرآن فانه غير منحصر فلا يمكن بيان أنه ليس من القرآن ، ولهذا قيل بوجوب بيان ما هو من القرآن دون ما ليس من القرآن . قلنا : نحن لم نوجب بيان كل ما ليس من القرآن أنه ليس من القرآن ، بل إنما أوجنا بيان ما يسق إلى الاتهام أنه من القرآن بتقدير أن لا يكون منه كما في التسمية ، ولا يخفى أنه منحصر ، بل هو أقل من بيان ما هو من القرآن ، وعلى هذا فلا يلزم من وضع كون التسمية آية مع أول كل سورة بالاجتهاد والظن ، وقد ثبت كونها آية من القرآن في سورة النمل قطعا أن يقال مثله

في ثبوت قراءة ابن مسعود في التابع مع أنها لم يثبت كونها من القرآن قطعا ولا ظنا - اهـ .
وفي التقرير والتعجير ما نصه :

ثم إنما ذهب الى نفي قرآنيتها - يرهق التسمية - في غير سجدة الفل ، من ذهب بكامله لعدم توازن كونها في الأوائل - أي أوائل السور قرآنا ، وكتابتها بخط المصحف في أوائل السور لشهرة الاستئذان بالافتتاح بها في الشرع لقوله صلى الله عليه وسلم كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع ، رواه ابن حبان وحسنه ابن الصلاح - والآخر المثبت لقرآنيتها في الأوائل يقول : إجماع الصحابة على كتابتها بخط المصحف في الأوائل مع أنهم بتجريد المصاحف مما سوى القرآن ، حتى لم يثبتوا آمين ، فقد قال ابن مسعود : جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء يعني في كتابته . وروى ابن أبي شيبة عنه : جردوا القرآن لا تلتحقوا به ما ليس منه دليل على كونها من القرآن في هذه الحال - والاستئذان لها في أوائل السور لا يسوغ الإجماع على كتابتها بخط المصحف فيها . لتحقق الاستئذان في الاستعاذة ولم تكتب في المصحف - ثم قال بعد ذلك بقليل :

والشافعية على أنها آيات في السور أي آية كاملة من كل سورة على الأصح عندهم ، فيما عدا الفاتحة وبراءة فإنها آية كاملة من أول الفاتحة بلا خلاف ، وليست آية من براءة بلا خلاف وترك نصف القراء لها - أي ابن عامر ، وناقع ، وأبي عمرو في أوائل السور مطلقا ، وحزة في غير الفاتحة ، وتواتر أنه صلى الله عليه وسلم تركها في أوائل السور ، لأن كلا من القراءات السبع متواتر - وتواتر قراءتها في أوائل السور عنه صلى الله عليه وسلم بقراءة الآخرين لا يستلزم أن التسمية منها ، لجواز كون قراءتها فيها تبركا - اهـ .
مع معجب

موافقة اللسان القلب

يجب أن يوافق اللسان القلب والاصار المخالف بينهما منافقا . وقد ذم إمرأى قوما فقال :
قلوبهم أمر من الدفلى ، وألسنتهم من العسل أحلى .

وقال شاعر :

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول حاله الفعل
وقال ابن جبير :

الناس شبه ظروف حشوها صبر وفوق أفواها شيء من العسل
تحلو لدايقها حتى إذا انكشفت له تبين ما تحويه من زغل

المساواة الصحيحة والمساواة الزائفة

هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

لا مشاحة في أن الديمقراطية تكابد في هذا العصر أزمة خطيرة ، لا من ناحية أنها تقوم على أصول فاسدة ، كما يقوله خصومها ، ولكن من جراء غلو بعض الشعوب في تطبيقها ، وسوء فهم الأصول التي تقوم عليها .

أول دعاية تقوم عليها الديمقراطية المساواة بين الأفراد ، وقد قام الخطباء من لدن الثورة الفرنسية إلى اليوم بالإشادة بهذا المبدأ ، والمبالغة فيه ، إلى حد أن أوهموا العامة أنها مساواة مطلقة من كل قيد ، وأن لكل فرد الحق في كل مزاي الأختناج حتى ولاية الأحكام ، وقيادة الجماهير . متغافلين في ذلك عن الحقوق المشروعة للنخبة الممتازة من الجماعة ، وكانت ثمرة هذا التطرف نشوء الشيوعية وما دونها من المذاهب الغالية . وقد اعتبر بعض النقاد أن ذلك من عيوب الديمقراطية وشروعها في إسقاطها وإحلال نظام آخر من الحكم محلها ، مع أنها تبرأ من إطلاق المساواة إلى حد توليد هذه الأمراض الاجتماعية المضالة .

فكيف يمكن نبرثة الديمقراطية من هذه التهم وإخراجها من المأزق الذي دفعت إليه وهي كما يشهد العقل والعلم خير ما أتيت للناس من نظام يقوم بين الناس على أساس طبيعي حكيم ؟ لا يمكن ذلك إلا بالاستعانة بالفلسفة والعلم وهما ممول الديمقراطية في إثبات صحتها . فأما الفلسفة فلا تسمح باعتبار مبدأ المساواة على إطلاقه . فإذا كان لا بد منها في توزيع الحقوق والعدالة ، فليس ولاية الأمور العامة من هذه الحقوق ولا من العدالة ، فهي تقتضي من العلم والإطلاع والاختيار ما لا يوجد إلا في أفراد معدودين ، ولا يتفق قط أن يوجد في جميع أمة تقدر بالملايين .

ولو نظرنا إلى العلم رأينا أنه قوة محافظة لا ندعو إلى التسوية المطلقة بين الكافة ، ولكن إلى التفرقة الدقيقة بين طبقات الناس لنضع كل في المكان الذي تزدهر مواهبه فيه .

وإذا اعتبرنا الرجل الذي كانت كتاباته عوامل باعثة على تقرير حقوق الأفراد ، وتأيد مبدأ المساواة ، وهو (جان جاك روسو) الفيلسوف الفرنسي المشهور (١٧١٢ - ١٧٧٨) ، حتى قيل إنه موقد نار الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية بكتابات القيمة ، فهل كان هو نفسه من دعاء المساواة المطلقة المؤدية إلى هضم حق السكنايات الممتازة ، والمواهب النعمة ، التي يفتح عليها ما لا يفتح على الجماهير مجتمعين ؟

قال جان جاك روسو في الفصل الثاني من كتابه العقد الاجتماعي :
 « إن الإرادة العامة تعتبر مستقيمة دائماً وتميل إلى المصلحة العامة : ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون مشاورات الشعوب مؤدية إلى السداد . فالإنسان يريد الخير لنفسه ولكنه قد لا يراه فيخطئه . ومن المحال رشو الشعوب ولكن من الممكن خدعها » .

وقال في موطن آخر من ذلك الفصل :
 « الشعب يحافظ من ذاته يتطلب الخير ، ولكنه قد لا يهتدي بذاته إليه . إرادته كما ترى صحيحة ، ولكن الحكم الذي يقودها قد لا يكون على شيء من الهدى .
 « فهو يجب أن يُرى الأمور على ما هي عليه ، وأحياناً على ما يجب أن تظهر به إليه ، وأن يُدَلَّ على الصراط المستقيم الذي يبحث عنه ، وحمايته من تسويل الإرادة التي تحتوشه لنفسته ، ويجب أن تقرب إلى عينيه الأمكنة والازمة ، والمقابلة له بين حوادث المنافع الحاضرة المحسوسة ، وبين خطر الويلات البعيدة المحبوبة عنه .
 « فالأحد قد يرون الخير الذي يملونه ، والجمهور يريد الخير الذي لا يراه . فكلهما في حاجة إلى هداية » .

هذا رأي واضح كتاب العقد الاجتماعي الذي يعتبر موقد كبريات النورات الاجتماعية ، التي هبت للمطالبة بحقوق الشعوب والمساواة ، ولتنتقل إلى الثورة الفرنسية نفسها ل ترى رأي المطلقين في المساواة ؟ فنجد في المادة السادسة من إعلان حقوق الإنسان وهو الكتاب المقدس لتلك الثورة ما يأتي :

« كل المواطنين متساوون في الأهلية لجميع المخططات الاجتماعية على حسب استعداداتهم ، وبدون أي تمييز بينهم إلا ما يكون من ناحية خصائصهم ومواهبهم » .

وفي هذا دليل على أن الثورة الفرنسية التي يرجع دعاء الإطلاق إليها تفرق بين الناس بمواهبهم وخصائصهم ، أي بصفاتهم الأدبية ، أي بعقولهم وقلوبهم ، وهل يراد أكثر من هذا من ثورة قامت تطالب بالمساواة بين الناس ؟

فتلك المساواة التي أهرقت الشعوب دماءها للحصول عليها هي المساواة في الحقوق الطبيعية التي لكل فرد أن يتمتع بها ، فلا يصح أن يسمح لعظيم من العظماء مالا يسمح به لآخر وأجمل رجل من الهيئة الاجتماعية . مثال ذلك إذا حرم شعب على آعاده السير من جهة اليسار ، وجب عليه أن يؤخذ المخالفين لذلك على حد سوى ، سواء أ كانوا من المرأة أم من الذمء . وإذا قتل فرد نفسه وجب أن يقتل لها من قاتلها ، وإن كان من أعظم العظماء . هذا معنى المساواة ، ولكن هل يؤدي هذا المعنى إلى وحب اعتبار أي نابغة من النبءاء ، وأي جاهل من الجهلاء على حد سوى فيما يتعلق بأسناد بعض المهام الاجتماعية إلى واحد منهما .

لا يقول بهذا إنسان له عقل وشعور . وإذا كان الأمر كذلك فمن أين نشأ للعامة وخطائهم ، من الذين يملقونهم لاجتلاب أصواتهم ، سوء الظن بالطبقات العالية ، حتى إنه ليجود في البلاد الديمقراطية حقد مخترق في قلوب العامة عليهم ؟

نشأ ذلك من أن الطبقة العالية من الحاكين قبل عهد الديمقراطية كانت طبقة فاسدة التكوين ، مؤلفة من أفراد قذفت بهم ورائة الانقلاب إلى مكانات الرفعة دون أية ميزة عقلية ولا علمية كانت لهم . فلما نادى الخطباء الشعبيون لتسقط الارسطوقراطية ، لتسقط الطبقة العالية ، شايعهم الدهاء مقتنعين ، وأقبلوا يحطمونها باطشين . ولو كانوا قالوا : لتسقط الارسطوقراطية الزائفة ، لتسقط الطبقة العالية المزورة ، لكانوا أقرب إلى الحق مما خاضوا فيه .

لست مما أكتب أريد التبديل على أن الارسطوقراطية خير من الديمقراطية في قيادة الشعوب ، ولكني أريد أن أبرهن على أن الديمقراطية الحقة لا تعنى بمبدأ المساواة ، تجاهل المزايا الطبيعية والأدبية للأفراد فترتهم جميعا عمبار واحد ، ولكنها بإبطالها الحقوق المكتسبة بالوراثة تمكس أصحاب المواهب العالية ، والمزايا الخلية من شغل مكانهم من قيادة الهيئة الاجتماعية ، من غير أن يصادفو موانع تمنعهم من بلوغ هذه الغاية استنادا إلى نسب رفيع ، أو حق موروث . فهذا هو الذي كان يتطلبه جميع المصلحين ، وهذا نفسه الذي دعت إليه الثورات الإنجليزية من القرن الثالث عشر والثورة الفرنسية التي حدثت سنة ١٧٨٩ وكانت مثالا لجميع ما تلاها من الثورات الاجتماعية في سبيل تحرير الشعوب ، وهذا هو الذي قرره الاسلام قبل حدوث هذه الثورات بقرون كثيرة . فانه مع تأسيسه مبدأ المساواة في الحقوق الطبيعية بين الأقوياء والضعفاء ، ومحو نظام الطبقات القائم على الوراثة ، وتعميره المجال من جميع النعرات الجاهلية ، قرر أن حق القيادة يوكل للأفضلين حريا على قوله تعالى : « هل يستوى الأعمى والبصير » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم في إصلاحه الاجتماعي على هذا المبدأ القرآني فأسند الأمور إلى أهل الكفايات والسابقات الحسنة ، فغير مكرث إلى نسب رفيع أو وصيع ، أو شرف تليد أو طريف ، فولى الأمور العامة الموالي والعبيد ، والصالحين من أي جنس كانوا ، لافرق بين عربي وقري وباري وغيرهم . وهو لم يرد بذلك تطبيق مبدأ المساواة على إطلاقه ، فان ذلك غير معقول ، ولكنه أراد منه تطبيقه على وجهه الصحيح . أي أنه لم يكن يقصد هدم الأوضاع الطبيعية التي يقوم عليها كل اجتماع ، وهو وجود طبقات متفاوتة في الكفايات العقلية والأدبية والمالية ، ولكنه قصد حل الطبقات التي أوجدتها عوامل غير طبيعية ، قامت على الاغتصاب والوراثة والعصبية ، وإيجاد غيرها تقتضيها طبيعة الاجتماع الصحيح ، وتستدعيها المساواة الحقة .

وهذا ما قصدته الثورات الاجتماعية التي حدثت بعد الاسلام بقرون كثيرة وكانت من ثمراتها الديمقراطية .

فالمجتمعات البائدة لم تكن معلولة لأن فيها طبقات متفاوتة ، ولكنها كانت كذلك لأن الطبقات فيها كانت مغتصبة ووراثية ، وغالية من الروح التي تقتضيها وهي السمو والنبوغ والمواهب الفطرية . فكل الذي أحدثه الاسلام وأحدثته الثورات التي هبت بعده هي إسقاط السراة الزائفة ، وإحلال سراة حقيقيين مكانهم ، تقوم مكاناتهم على الفضائل الصحيحة ، والمواهب الكريمة ، لكي يتولى أقوى العقول ، وكبار القلوب ، وكرام النفوس ، مهمة قيادة الجماعة بدل أولئك الأشباح الذين رفعهم الى تلك المسكافات غفلة الشعوب ، وغلبة الصفات الساقطة عليها .

فإذا كانت قد حدثت مذاهب متطرفة كالشيوعية والغوضوية ، استندت الى مبدأ المساواة المطلقة ، فليس ذلك طاب الديمقراطية فإنها يرثى من إطلاق مبدأ المساواة ، بل تنافيه من كل وجه إلا في الحقوق الطبيعية كما رأيت .

وإذا تمكن خصوم الديمقراطية من إسقاطها بالصاق أمثال هذه التهم بها ، فلا يمكن أن يقوم على انقاضها إلا مذاهب استبدادية لا تستند الى مبدأ المساواة لا مطلقا ولا مقيدا ، ولكن تستند الى القوة .

فإن قيل إن الديمقراطية مسؤولة عن وجود هذه المذاهب ، لأنها لا تستند الى مبدأ حرية الرأي قد سمحت بأن تدعو الى نفسها ، وبأن يصبأ جماهير من السذج ومن يراد تسخيرهم إليها . فلو كانت أخذتهم بالحزم ، وعاملتهم بحسام أهل من الشدة لأمكنها القضاء على مذاهبهم قبل أن تنتشر وتصبح شوما على من تنشأ بين ظهرانهم .

نقول : إذا سمحت الديمقراطية لنفسها بأن تسلك هذه السبيل في كبت كل صاحب مذهب ، لبطلت أن تكون ديمقراطية ، فإن من صفاتها إحترام جميع الآراء والمذاهب ، ما دامت لا تنور على النظام العام بالقوة . ولو سمح للديمقراطية أن تعامل خصومها بالشدة ، لا نقلبت الى أداة استبدادية ، وخسرت جميع المزايا التي يقوم عليها جلالها ، وفقدت كل الدعام التي يستند إليها وجودها .

فإن قيل : إذا كان الأمر كما تذكر فما الذي يضمن وجودها ؟

نقول الذي يضمن وجودها هو الضمير البشري ، فإن الجماعة أو طائفة كبيرة منها إن افتتنت بدعوة تناقضها في دور من أدوارها ، وحررت عليها شوما بعيدا ، فلا تلبث ، بعد

أن تذوق وبال أمرها ، أن تعود الى حضن الديمقراطية ، وتكون هذه المرة أشد حرصا عليها ، وكلقا بها ، مما كانت عليه أول مرة .

على هذا النحو تحمي الديمقراطية وجودها ، وهو الأسلوب نفسه التي تحمي به الحقائق وجودها وخلودها ؟

محمد فرير ومجدي

ما هو العقل وأين هو

قال حكيم : العقل غريزة لا يقدر أحد أن يصنها في نفسه ولا في غيره ، ولا يعرف إلا بالأقوال والأفعال الدالة عليه .

وقال العتيبي واسمه عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : العقل عقلان : عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستقيده المرء بأدبه وهو الفرع ، فإذا احتمعا قوى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلة البصر .

وينسب الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

رأيت العقل عقلين فطبع—وع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ونور العين ممنوع

وقد مال حكماء الاسلام الى أن العقل في القلب وقد استندوا في ذلك الى قوله تعالى : « أفلم يسروا في الأرض فتسكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور »

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العقل في القلب به يفرق بين الحق والباطل » وهذا حق لا مبهمة فيه ، فالمراد بالقلب حقيقة الانسان لا العضو المعروف والعقل مظهر من مظاهره . والدليل على أن المراد بالقلب حقيقة الانسان قوله تعالى : « إن في ذلك لآية لمن كان له قلب » أي لمن كانت حقيقته الانسانية متبينة ، لا لمن كان له العضو المعروف بالقلب ، فانه مأم بين الناس جميعا ولكن الذين يدركون آيات الله قليلون . وكذلك قال الله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها »

وقال بعض الحكماء : أربعة تحتاج الى أربع : الحسب الى الأدب ، والسرور الى الأمن ، والقرابة الى المودة ، والعقل الى التجربة .

معرض الآراء العالمية

محمد وشرلمان

﴿ انتشار الاسلام بسرعة بحيرة للعقل — شهادة مؤرخ كبير ﴾

جاء في جريدة (الريوبليك) الفرنسية تحت العنوان المتقدم ما يأتي :

« كان لكل من النبي العظيم والامبراطور العظيم في خلال عهود التاريخ دور حاسم . فشكل منهما يمثل مدنية خاصة . ولقد كتبت حياة كل منهما فصلين تاريخيين نقشا على سور الاجيال بأحرف متخلفة كل التخالف .

« لماذا اختار المؤرخ البلجيكي المأسوف عليه (هنري بيرن) أن يكون هذا الاسمان عنوانا للكتاب الذي قدّر أن يكون تنويجا لاصحاله في سبيله الاخيرة ؟ اخنارها للدلالة على العلاقات الوثيقة التي توجد بين فتوحات الاسلام ، وبين قيام عهد القرون الوسطى في الغرب .

« وقد حذاه أيضا الى ذلك كلفه بأن يضع الدور الذي بقيت صورته مبهمة في مخاينا ، في موضع يساعد على إظهارها وإيضاحها ، وذلك الدور يبدأ من سنة (٦٣٢) وهي السنة التي توفى فيها محمد الى القرن التاسع . فقد أخل المؤلف البحث فيه وتابعه في مدى الحرب العظمى ، وكان من أسرارها ، وحصل من ذلك الى نتائج سيتولاها المؤرخون بالناقشة والتحخيص .

« أم هذه النتائج هي أن غارات القبائل المتبررة على الدولة الرومانية لم تغير من تركيبها الاقتصادي والروحي شيئا ، وما بقي من تلك المدنية كان معتمدا على صلته بالبحر الأبيض المتوسط . فاقصر التغير الذي حدث على انتقال المركز المذهب من روما الى القسطنطينية .

« ولكن كل ما تم من التحولات القريبة بأوروبا كان بفعل الاسلام . فانه قد أحدث انقلابا حقيقيا فصل به الشرق من الغرب نهائيا ، ووضع نهاية لجامعة المدنية التي كان رابطها البحر المتوسط . « فانتقل بذلك محور الحياة الغربية من عمالي الشمال لأول مرة في التاريخ ، فأدى ذلك الى ظهور أسرة الكارولنجيين في الاقطار الجرمانية وعليه فلولا ظهور محمد لما أمكن ظهور شرلمان (١) .

(١) شرلمان هو ملك الفرنكيين اسلاف الفرنسيين ، ولد سنة (٧٤٢) وحلف أباه سنة (٧٦٨) . شرع في فتوحات موفقة إلا في احتكاكه بحرب أسبانيا ، فقد دحروه دحورا شديدا وقتلوا قائده . من أعماله العظيمة أنه أعاد في شطبه عهد البراطرة الرومانيات وأعطه النافذ سنة ٨٠٠ امبراطورا . فطاعة الرومانية الغربية بعد أن كانت انقرضت بسبب هجوم المتوحشين عليها من كل جانب ، وبسبب ما كان أصابها من الترف ، ولكن بموت شارلمان انقسمت ممالكه وتميزت الدول على النحو الذي هي عليه اليوم .

« هذه الفتوحات العربية التي كان مجالها أوروبا وآسيا معا ، يعتبرها المؤرخ البلجيكي (هنري بيرين) لا مثيل لها في تاريخ البشر . ولا يمكن لإنسان أن يقابل سرعة تنافسها بنجاح إلا بما تم في عهود الدول المغولية على أيدي أتيللا وبعده بزمان جنكيزخان أو تيمورلنك . ولكن هذه الفتوحات الأخيرة كانت مؤقتة بقدر ما كانت الفتوحات الإسلامية ثابتة وراسخة . ولا يزال للإسلام أتباع في كل جهة استولى عليها الغلبة الأولى . إن انتشار الإسلام بهذه السرعة المحيرة للعقل تعتبر آية حقيقية إذا قوبلت بالبطء الذي نعمت عليه المسيحية .

« لا يدهش أحد أن يكون من آثار انتشار الإسلام ظهور الأسرة الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن المرء يتساءل متعجبا كيف لم يفن العرب في سكان الممالك التي فتحوها كما فنى الجرمانيون في سكان الممالك التي قهروها ولم يكونوا أكثر منهم عددا ؟

« لم يفن العرب في سواهم لأنه كانت لهم ديانة جديدة يمكن مواجعتها المسيحية بها ، ديانة لم تضطهد سواها ولكنها نمت أتباعا من جامعتها باعتبار أنهم غير مؤمنين ، وأحلت أصولها الشرعية محل الأصول للقانونية الرومانية .

« فالدولة بدخولها في المسيحية تتغير روحا ، ولكنها بإسلامها تتغير حمما وروحا .

(مجلة الأهرار) كل يوم يمر على الإسلام يظهر فيه للعالم من أمره عجبا جديدا . فهذا العلامة (هنري بيرين) المؤرخ البلجيكي الكبير يحدثنا أنه لولا فتوحات العرب في حوض البحر الأبيض المتوسط في عهد الخلفاء الأمويين ، لما أمكن قيام شرقاين ، ولما تم له من الفتوح ما استأهل به أن يتوج أمبراطورا رومانيا سنة (٨٠٠) ، بعد أن كانت تلك الامبراطورية قد انقضت . فعمل على جمع إشلائها المبعثرة محروب موقفة ، وحلاها بكل ما تحتاج اليه من نظم وقوانين ، وأصبح فدا من أعتاد تاريخ القرون الوسطى . ولما توفي لم يوجد في أولاده من يخلفه بمثل الكفاية والحكمة اللتين كان متصفا بهما ، فتجزأ ملكه بين أولاده وكان ذلك بدء نفوذ الدول الأوروبية الموجودة ، وهو انتقال ذريع في حالة أوروبا غيرتها من حال إلى حال ، وأوجدت فيها عوامل جديدة للثورات والتطورات الاجتماعية والجغرافية . فأكسب كثير مما كتبناه ذكرنا أن الإسلام كان سببا في تغيير خريطة العالم شرقا وغربا ، وأنه أزال دولا وأوجد دولا ، ومغص العالم مخصا نفي عنه كثيرا من أسباب الجود والكود ، فاعلمنا أن مثل هذه الأحداث الخطيرة .

يمصب المسيو هنري بيرين من أن الفتوحات الإسلامية تمت بسرعة محيرة للعقل ، ولو كان يعلم ما في الإسلام من روح علوية ، وعوامل ليست من نوع العوامل المعروفة ، لما تعجب من ذلك ، ولا اعتبره وحاما من وحود غلبة الحق على الباطل ، فإن ما كان يربط المسلمين الأولين بعضهم ببعض ، ويدبر حركاتهم للفتح والغلب ، ليست المطامع المادية ، والشهوات النفسية ، ولكن

القيام بما عهد به الحق اليهم من إعلاء كلمة الله في العالم ، وتأسيس دولة تقوم فيه بواجب العدل ، وتدفع بالإنسانية الى باحات الترقيات الصورية والمنعوية ، قياما بخلافة الله في الأرض . وهذا الشعور المالى يدفع بالنفس الى الاستهانة بالخطار ، والاستخفاف بالمعاطب ، فإذا وجد ألف من الناس استثمروا هذا المبدأ السامى ، أغنوا عن ألوف مؤلفة ممن ليس لهم من البواعث على المقاومة إلا ما اعتاد الناس أن يكونوا عليه حيال النوازل . هذا هو السر فى أن بضعة عشرات من ألوف كانوا يهزمون مئات الألوف ويستولون على بلادهم التى كانت قبل ظهور الاسلام أمنع من الجبال الرواسخ . أضرب لك مثلاً بسوريا ومصر والفرس . فقد تقابل فى سوريا بضعة ألوف من جيوش المسلمين بمئات الألوف من جيوش الرومان المدربة أعظم تدريب ، والمسلحة تسليحا يفوق تسليح المسلمين كثيراً . ومع كل هذا لم يثبتوا أمام المسلمين فى وقعة واحدة تجلوا عن الشام وفيها مكان حجهم .

أما مصر فتوجه إليها عمرو بن العاص بثمانية آلاف ، ثم أمده أمير المؤمنين القاروق بأربعة آلاف أخرى ، فهزموا جيوشاً رومانية تفوقهم عددا وعدة ، ولم تكن كثرتهم عنهم شيئا .

وأما الفرس فأمرها أغرب من هاتين ، فإن سعد بن أبى وقاص تقصدها بنحو ثلاثين ألفاً مستعداً عن قواعده مئات الكيلومترات ، فلم يفت هذا فى عهد المسلمين شيئا ، وكانت غائمة المعركة أن استولى المسلمون على فارس كلها ، ولم تلبث أن انقلبت إسلامية ورفعت من شأن الاسلام ما لم توفق الى مثله أمة أخرى .

فالمدار فى كل هذا على الروح التى تبعث على الاقدام ، فإذا كانت من نوع الروح المادية التى تدفع البعض الى شن الغارة ، والبعض الآخر الى الدطاع عن الحوزة ، توازمت الكفتان وكان الرجحان للمعد والعدة . ولكن إذا كانت الروح الباعثة من طراز هذه الروح المادية لم يقف فى وجهها شيء ، لأنها تلتشى من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، وليس بعد هذه الأمثلة من دليل ، وإلا فقد كان العرب هم اقبل الاسلام ، فبالهم قبلوا يحمل نير الفرس فى العراق واليمن ، ونير الرومان فى شمال بلاد العرب ، ولم يتحدثوا أنفسهم بالقاء هذين النيرين عن هوانهم ، وقد لبثوا يحملونهما أجيالا كثيرة ؟

ويمعب العلامة (هنرى بيرن) كيف لم يقن العرب على قلة عددهم فى الأمم التى دوخواها ، كما فنى الرومانيون فى الأمم التى تسلطوا عليها ، وهذا موطن ظاهرة بسيكولوجية دقيقة جدا ، ذلك أن النفوس التى يقنى بعضها فى بعض بسبب القلة والكثرة ، هى النفوس المتشابهة فى الوجدات والمقاصد ، ولكن الجماعات التى تكون صادرة عن تمايل عالية ، ومبادئ سامية ، ومقتنمة بها كل الاقتناع حتى أصبحت حالاً لها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن تقنى فى غيرها ولولم يبق إلا رجل واحد منها . وهذا دليل من طريق الزوم على أن تمايل الاسلام قطع

شخصية الآخذ بها بطائع لا يزول أثره ، يحميه شر الاندماج في أمم أحط منه نفسا ، وهو ما حفظ للمسلمين الى اليوم وحدتهم الدينية ، وصيغتهم الاجتماعية ، ونحما عن إهمالهم العمل بالنعالم التي يقدسونها .

من أروع الأمثلة على ذلك أمم إسلامية ساذجة وقعت تحت الاستعمار الأوربي أكثر من قرن من الزمان ، فبالع المستعمرون في بث لغاتهم فيها ، ونشر عاداتهم بينها ، حتى كادوا ينسونها لغتها وتقاليدها ، ومنعوا أداء فريضة الحج سنين كثيرة ، فلم يزدوا ذلك كله إلا تقديسا لنعالمها . يمكن أن يقال هنا إن هذا من الجود على القديم ، والحق إنه من إدراك السمو الذي بين تعاليم كتابها وما ترى عليه المغير على ملادها والمبادئ والأصول تتنازع الوجود كالأحياء سواء نسواء ، ثم لا يبقى منها إلا الأصلح للبقاء ، والأقوى على تحمل اللأواء .

ويعجب المؤرخ البلجيكي الكبير من بقاء الفتوح الإسلامية ودوامها ، على حين أن جميع الفتوحات التي حصلت قبله وبعده لم تبقى إلا مدة بقاء من قاموا بها . ولكن إذا علم السبب بطل العجب . ذلك أن الفتوح الإسلامية لم تعمل لتخليد اسم مستبد فاشم ، ولا للنوصل بها الى سلب الأمم منخورواتها من مال وحطام ، ولكنها حملت لمقصد سام وهو تطهير الأرض من المظالم التي رانت عليها ، والمعاسد التي داعت فيها ، وإيقاظ الشعوب من طريق الفتوح الى ما هي فيه من جمود يلحقها بالعمرات ، وركود جعل كل ترقى مستحيلا عليها . ولم يصحب هذه الفتوح جيوش الدعاة يخرجون الناس من أديانهم بالقوة ، بل تركوا على ما هم عليه ، واحترمت معابدهم وكهنتهم وتقاليدهم ، ولم يكلفوا من الإناوات إلا بيمض ما كانوا يقومون به لحكوماتهم الوطنية ، وعوملوا بالعدل المطلق ، حتى إذا شعر بينهم وبين المتغلبين عليهم نزاع ، أو ثار خلاف ، وحدوا في القضاء الاسلامي حكما عدلا ، فاقص لهم في الدماء ، وسوى بينهم في الحقوق .

أين هذه الحالة مما كان يحدث في الفتوحات غير الإسلامية ، من احتقار المغلوبين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم ، وتسخير نساءهم ورجالهم ، ومعاملتهم بما لا تعامل به الحيوانات العجم من القسوة والمذاب الميؤن ؟

لا جرم أن الشعوب التي تقع تحت أيدي الفاتحين المسلمين تأنس للحياة تحت ظلمهم ، وترتاح للسيف في جوارهم ، وتكره أن تعود حتى الى سلطان حكوماتهم الوطنية ، لأنها لم تكن على شيء من النظام الديموقراطي الذي يدعو اليه الاسلام ، ولكنها كانت على أحسن ما يمكن تصوره من النظام الاوتوقراطي الذي يسمح للعدد القليل من الأقوياء المتغلبين بتسخير جماهير الضعفاء لتوفير لقائهم ، وللكدح لزيادة ثرواتهم ، ولا بأس أن يموت هؤلاء الضعفاء جوعا وعريا وحرمانا ، فاتهم في رأيهم إنما خلقوا لخدمة الأقوياء لا لأنفسهم .

على هذه السنة كانت تقوم الحكومات الوطنية ، وعاليها كانت تسير الدول الفاتحة قبل ظهور الاسلام ، حتى ان ائما برمتها زالت بسبب فتح الاوربيين لأمريكا الجنوبية . فلا عجب بعد هذا البيان أن تثبت لفتوحات الاسلامية ، وتسمر خلال قرون تنطور فيها حتى تصبح بلادا إسلامية محضة . فقد شوهد أن الاسلام لم يستقر في بقعة من الأرض إلا انتشر فيها بلا إيجاب ، وتغلّبت لغته على لغة أهل تلك البقعة حتى نسختها .

إن حدوث هذا التحول السلمي كله أدلة قاطعة على أن أسلوب المسلمين في معاملة المقيمين حبب اليهم التحول الى دينهم يسيرا يسيرا . وهذا ما لم يحدث قط في العالم الاثنى في أية بقعة من بقاع الارض . فقد شوهد أن الأمم المقيورة إما أنها تمكنت من الافلات من يرائن المتغلبين ، وإما أنها فنيت برمتها في أجسادهم .

ومن أغرب الظواهر الانسانية وأدهش للدهش ، وهو ما لم يحدث في غير الاسلام ، انتقال بعض الأمم المقيورة بسرعة الى حظيرة الاسلام ، وتحولها الى صفوف المدافعين عنه بسيوفهم وأقلامهم ، حتى صاروا من أكبر حفظته ، وأعظم حمده .

فهذه الممالك المفتوحة لم يكفها أن تبقى مستنمية الى سلطان الاسلام فقامت تطود عن بيضته ، وتحامى عن حقيقته .

ولو فطن السامع هنرى بيرن الى هذه الخصوصية لفتوحات الاسلامية لجعلها في مقدمة ما استنزل عجب قرائه منه . وهو يدل على أن عاملا أدبيا يلزم الاسلام ويحل معه حيثما حل ، وهو عامل يصح أن يكون موضوع دراسة عميقة ، تؤدي حتما الى معرفة كنه هذا الدين ، والعوامل المسوثة فيه لايقاظ الآخذين به والمتصلين بهم ، فإن قصر الاوربيون في تلمسه ، فلا يعز على المسلمين أن يقوموا بهذا الواجب وهم أولى به من سواهم ؟

محمد فريد وجدي

نظام الوقف في الاسلام

وأثاره المترتبة عليه

اتفق الفقهاء على أن دعوى الوقف تثبت بإقرار المدعى عليه بأركان الدعوى ، أو إنكوله عن اليمين إذا أسكر من حالة ما إذا طلب المدعى تحليفه على أن ما في يده ليس وقفا . وهذا يتعين المصير اليه إذا كان المدعى عليه هو الواقف ثم عرض له من الأسباب ما يجمله بمجده هذا الوقف . فمن طرق الاثبات في هذه الحالة أن يعترف بها الواقف أو ينكل إذا طلب ذو صفة الى القاضى تحليفه على أن هذه العين ليست موقوفة . فها تواضع عليه علماء الفروع أن الاقرار من المحجج الشرعية التي يعتبرها القضاء في الطبيعة دليلا على صحة المدعى . وهذا مسلم الثبوت فالأقوال من دلالتها في المرتبة الثانية بعد الأفعال من الدلالة على إثبات المدعى إذا كان الاقرار خالصا من القرائن التي تجعله حيلة يحتال بها المقر على طمس معالم الحقيقة أو النسو بها عن جادتها الواضحة . وهو حجة قاصرة على المقر لا تنصدها الى غيره إلا إذا صادقه المقر له . والاقرار الصحيح ينفذ في كل ماله إذا أقره ، فإذا رجع المقر عن إقراره كان الرجوع غير صحيح ، وتعين المصير الى العمل بإقراره دون الرجوع عنه . وهذه مبادئ عامة تشمل الاقرار بالوقف وغيره ، لأن لها صلة بطرق الاثبات للمدعى إطلاقا .

لكن العلماء فيما نقل السلامة صاحب الفتاوى المهدية قد استثنوا حالة واحدة وهي الاقرار بالوقف ، فقالوا : ليس ب لازم من صحة الاقرار بالموقوف بتصديق المقر له إن كان الموقوف المقر به مميذا ، فإن صادق المقر له المقر فيما أقر به ، دخل في حكمه وإلا بان كذبه في إقراره بالموقوف انحاز نصيبه الى المساكين . فإذا رجع المقر له الى تصديق المقر صرح هذا الرجوع وعاد اليه نصيبه وإن لم يقر به الواقف أو الناظر مرة أخرى ، لأن العبرة بالاقرار الأول ، وهو صريح الشمول والدلالة .

ويتضح هذا التحقيق في صورة ما إذا أقر شخص لرجلين بأن هذه العين التي في يده وقف عليهما ، ومن بعدهما على المساكين ، فصدقه أحد الرجلين وكذبه الآخر ، ففي هذه الصورة تصرف حصص الجاحد في الفلة للمساكين ، فلو عدل عن تكذيبه عادت اليه حصته وإن لم ينكر من المقر إقراره لأن لما أوقفنا .

لكن نقل العلامة ابن عابدين في رسائله أن هذه الحالة في الوقف تختلف جد اختلاف عن الاقرار والعدول عنه من المقر له في الملكية . فلو أقر شخص لآخر بأرض غير موقوفة

فكذبه المقر له في إقراره ثم عاد فصادقه عليها فلا تصير ملكا للمقر له إلا إذا أقر المقر بها مرة أخرى .

قال العلامة ابن عابدين : والفرق بين الإقرارين أن الأرض المقر بوقفيته لا تصير ملكا لأحد بتكذيب المقر له ضرورة أنها تنحاز الى جهة المساكين أو أنها تصير المقر له عند عدوله عن التكذيب الأول مستحقا ، بخلاف الملكية فإنها تنحاز الى جهة المقر له عند تصديق الثاني ، والفرق بين الحالتين جلي لا يحتاج الى عناء في التقدير .

فلو أقر شخص بوقفية عين فأما أن تكون في يده أولا ، فإن كانت في يده فأما أن يمين وقفه أولا وإما أن يمين مستحقين في الوقف أولا . فإذا أقر شخص بوقفية أرض في يده ولم يمين واقفا ولا مستحقين حين الإقرار ، صح إقراره وتصير وقفا على الفقراء ، لأن الأوقاف تكون في يد القوام عادة ، ولو لم يصح الإقرار ممن هي في أيديهم لبطلت أوقاف كثيرة . ولا يمكن في هذه الحالة أن يجعل الواقف هو المقر لهذه العين إلا إذا أقام البينة أمام القاضي بأن هذه العين كانت في حيازته وقت الوقف . وحينئذ تندفع الخصومة القائمة ويثبت للقاضي أنه هو الواقف وتثبت تبعا وقيمة تلك العين ، وتكون للمقر في هذه الحالة الولاية عليها فلا يتطرق إليه عزل إلا بأسباب موجبة له .

ونقل العلامة الخصاص أن المقر لو عين مستحقين في إقراره ولم يسم واقفا وليس له من ينارعه في هذا الاستحقاق ، وقع هذا التعيين صحيحا ، وصرف الريع الى الجهة التي عينها في إقراره ، وإن عين نفسه وولده وذريته ، إلا إذا ادعى قوم أنهم هم الموقوف عليهم دون غيرهم فصدهم المقر لا يعتبر تصديقه إلا في حق نفسه ، فيصرف ما يخصه من الريع إليهم ، ويبطل بحوثه على ما هو مبسوط في البحر .

قال صاحب كتاب أنفع الوسائل ومثل هذه الحالة المتقدمة حالة أخرى وهي ما لو أقر المقر بالوقف ثم سكنت فذكر جهة من الجهات على سبيل التعيين فإنه يقبل منه ذلك التعيين استحسانا لأنه وقد أصبح الموقوف في يده كان مصداقيا يقربه متعلقا بالعين الموقوفة . أما قياسا فلا يقبل منه قوله الأخير ، وبالتالي تلك الجهة التي عينها ، لانه بإقراره الأول صار الموقوف للمساكين لعدم تعيين مستحق فلا يملك إبطاله بمد ذلك ، فحتى ذكر جهة من الجهات فلا يصح له أن يزيد عليها أو ينقص منها إلا إذا كان الاعتراف الثاني متصلا بالإقرار الأول .

وموعدهنا بالكشف من بقية البحث الأعداد القادمة . فالى اللقاء

عباس طه

لحضرات المشتركين

اضطربنا حرصا على النظام أن نمسك هذا العدد ضمن لم يصلنا منهم القسط الثاني من الاعتراف حتى نعرف رأيهم .

اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى :

أول من ألف في الخلافات العقبية أبو حنيفة النعمان ، فقد وضع كتاب (اختلاف الصحابة) ثم ألف تفيذه أبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ كتاب (اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى) وهو الذي نقرظه اليوم . ومن يعلم مكانة أبي يوسف من الفقه يدرك قيمة الفوائد الجليلة التي يمكن جنبها من كتاب يضعه في خلافيات إمامين جليلين .

عنيت بنشر هذا الكتاب لجنة إحياء المعارف النعمانية بمحيدر آباد الدكن ، وعنيت تصحيحه والتعليق عليه الأستاذ أبو الوفاء الأصفهاني المدرس بالمدرسة النظامية بالهند ، وأشرف على طبعه الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان ، فنشكرهما ونفكر لجنة إحياء المعارف على إبراز هذا المؤلف النفيس وارجئ أن يعم النفع به .

مباحث عربية :

الأستاذ بشير فارس شاب تيمم التعلم مرحل في طلبه إلى باريس ونال فيها الدكتوراه في الآداب ، ثم شغف إلى برلين ليطالع على مناهج أهلها في البحث والكتابة والتحليل ، ثم انتقل إلى لوندرة يستكمل فيها ما عسى أن يكون في تينك العاصمتين . وقد آب الآن إلى مصر ينشر فيها ما أدره في عواصم المدنية من العلم العالي والآداب الصميم . فكانت أول باكورة له كتابه الممتع (مباحث عربية) وإياه لممتع حقا بما سلكه مؤلفه من طرق التحصيل ، ومناهج التحقيق ، صدره بالكلام عن مسلمي فنلندة ثم وإلى بعده السحوت في مكارم الأخلاق ، والمروءة ، والتفرد والتباسك عند العرب ، والبناء الاجتماعي هندم في الجاهلية ، وتاريخ لفظة الشرف ، واصطلاحات الموسيقى والفلسفة ، ومصطلحات مختلفة من بعض المخطوطات العربية الخ .

الكتاب الذي نحن لصدده يعتبر أطروفة فنية من جميع نواحيه ، فهو مرجع من أدب وعلم ولغة وفلسفة ، جم الفوائد إلى حد أنه يشبه أن يكون كتابا تعليميا ولكن ليس فيه جفاف الأساليب التعليمية ، ومن النجاح العظيم أن يؤلف مؤلف كتابا غزير المادة العلمية وجذابا إلى حد يشبه معه قصة طريفة . يوجد بمكتبة المعارف بمصر .

الاجابة لايراد ما استدركنه عائشة على الصحابة :

هذا مؤلف ممنوع وصمه الإمام بدر الدين الزركشي وعنيت بتصحيحه ووضع مقدمته وتعليقه وفهارسه الأستاذ سعيد الأصفهاني .

موضوع هذا الكتاب يعرف من عنوانه ، وهو ما استدركته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على الصحابة في فهم بعض الأحاديث النبوية ، وفي عملهم بالسنة ، وفيهم أبو بكر وعمر وعلى وابن عمر وابن عباس ، وقد قدروا اسندرا كلها قدرها ، فهو كتاب كما قال ناسره ينحلي فيه ذكاء المرأة وفطنتها ومواهبها ودقة تفهدها .

الكتاب يقع في نحو ٢٢٥ صفحة وهو مطبوع طبعا جيدا على ورق صقيل فلشكر الحضرة ناسره حسن عمله ونرجو له مزيدا .

لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟

هذا بحث عويص ، متعصب النواحي ، لا يستطيع أن يخوض غماره إلا الأفاضل المطلعون على ما جريات الحوادث ، وشؤون الأمم ، ممن حصلوا على مذخور عظيم من علم الاجتماع ، وليس يشك أحد في أن الكاتب الكبير والزعيم الجليل الأمير شكيب أرسلان ممن يوثق بعمار فهم وملاحظاتهم في خوض هذا البحث الخطير .

بحث فيه واضعه الفاضل الملل التي مارأت على المسلمين ، وبين كيفية تسربها اليهم ، ودرس أحوال الأمم الغربية وبين مواطن قوتها ، وجهات عظمها ، وسرد في ذلك حوادث ، وآتى على بيانات ، فأصبح لدى القارئ بذلك مرجع جليل القدر في داء المسامين ودوائهم إن لم يكن صوابا كله ، ففيه حصة صالحة منه ، والخلاف يرجع الى تباين المذاهب في تشخيص الملل وهذا الموضوع قل أن يتفق فيه باحثان .

وقد عنيت بطبعه مكتبة عيسى البابي الحلبي فأهدت العربية منه سفرا جليل القدر ، عظيم الفائدة ، فنشكر لها هذه الخدمة .

الطليعة

ليس في مصر والشرق من يجمل مكانة الأستاذ إبراهيم الدباغ من الشعر والنقد والفكاهة فهو شاعر لا تحلو له قصيدة من كلمة نابغة أو نادرة طريفة أو سكتة ظريفة ، وهذه ميزة قصا توجد في شعر على النحو الذي هي عليه في شعر الدباغ من النزاهة والبعد عن الاسفاف ، وقوة التأثير .

تفضل حصرتة فأهداني بمجموعة من شعره بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٨ رأيت فيها المعجب المطرب من الشعر الفحل والأدب المصم . وعند تصفحه كان أول ما وقع عليه بصري قوله :

لي ضميره شقبت فيامن يشقري يريحتي من ضميري
يرغب الأصغرون مني صفارا وهو بأبي الاسكان الكبير

كلمتان لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

أولاهما كلمة رفيعة القدر ، بعيدة مدى النظر في الشؤون العالمية ، والعوامل الاجتماعية ، نشرت تفضيلته في العدد الممتاز الذي أصدرته دارالهلل لجلتها الشهرية تحت عنوان (العرب والاسلام في العهد الحديث) . ولست في حاجة لأن أطنب في تعريف هذه الكلمة الجامعة ، فقد عبرت عن الحقيقة الاسلامية أصدق تعبير ، وكففت عن أبعد أصول هذا الدين أنرا في جمع القلوب عليه ، ولغت الأنظار اليه ، فلا شيء أوقع في قفوس العالمين اليوم ممن يدعو الى الأخوة الانسانية العامة ، فإن جاءت معبرة عن كتاب أمة يبلغ عددها خمس سكان الكرة الأرضية ، فإن الفيورين على ارتفاع النوع البشرى يزددون إيماناً بتطلب عوامل الخير على عوامل الشر في الحياة البشرية .

والكلمة الثانية ما أحاب به فضيلته جماعة اتحاد المتخصصين وقد قابله وفد منهم تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الشيخ صادق مرجون للإعراب لتفضيلة الاستاذ الامام مما يشعرون نحوه من الاخلاص والتقدير . وإنا لنأثي بالكلمتين المذكورتين هنا جمعا لثقات كل ما يكتبه فضيلة الاستاذ الامام ، وهو لا يكتب إلا فيما يصلح المسلمين ، ويعلى قدر الدين .

كلمة فضيلته الاولى في العدد الممتاز للهلل :

الاسلام والاخاء الانساني

اليوم وقد نشأ الشعور بحاجة الامم بعضها الى بعض ، ونشأ الشعور بوجود جعل الحياة العامة في البشرية كلها بآمن من العوائل ، ونشأت الحاجة الى تحقيق مطالب اقتصادية ومدنية وعلمية وروحية لا تستقل بها أمة ، بل تحتاج الى مشاركة عامة — أخذت فكرة الرماله تتسع وتمتد لتشمل النوع الانساني كله ، ففكرة الرماله ليست نظرية فلسفية ، بل هي حاجة طبيعية تولدت في النوع البشرى منذ دور الطفولة ، ومنذ أدرك أن ارتباط الافراد بعضهم ببعض يساعد على قطع مفاوز الحياة بآمان ، ويعود عليه بالخير .

ومع شعور الاناس بالحاجة الى الرماله ، ومع أن العقل يقتضيها ، فقد كانت عوامل التفرق دائما ملازمة لهذا الشعور ، لأن الانسان لا يسير العقل وحده ، ولكن تسيره أيضا غرائز حيوانية ركبت فيه ، ومن هذه الغرائز حب الآثرة ، والغيرة والخوف والشك ،

وقد أضيف الى ذلك اختلاف الأديان والمذاهب ، فوجد حامل آخر للفرق ، حتى إنه عند ما يلوح للباحث أن الاخاء الانساني المنفرد تدافعه كل تلك التوازع في الانسان ، يبدو له أنه مطلب لا ينال في هذه الحياة ، إذ يهوله ما يحتمل فيها من شرور تصرفها جائر شرس لا قلب له ولا وجدان .

ولا أعتقد أن التقدم العلمي والفلسفي مقادر على التغلب على هذه العوامل وإزالة آثارها ، فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولا ووحشية كلما ازداد تقدم العلم ، وأنه أمضى أسلحتها ، بل في الحق أني لا أعتقد أنه سيحيى اليوم الذي تتحقق فيه المثل العليا للبشرية ، لأنه وإن أمكن بعامل من العوامل أن تحبو جذوة تلك النار المبعثة من قوى الطبيعة في الانسان ، فانه لا يمكن أن تنطفئ تلك النار . ولكن هذه العقيدة لا يصح أن تقفنا عن البحث عن الوسائل الملائمة لتلك الغرائز ، والكابحة لجاحها ، بل من الخير أن نبحث عن تلك الوسائل ، والمنادين حين يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها قد اعتمدت في الانسان على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته الى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة ، ترهب النيات وتحكم الصائر ، وأن هذه الحياة صائرة الى غاية من المسئولية والمجازاة . ففي التدين من هذا التآليه والخصوع ومراقبة الإله وتوقع محابته ، عوامل ليست أقل خطرا ولا أضعف أثرا في دفع الانسان الى الخير والبر ، من تلك العوامل الأخرى الداعية الى الشرور ، والدائمة الى الحرب والحرص ، وإفساد شأن الجماعة الانسانية .

وليس من شك في أن اعتقاد حياة أخرى أطول مدى من هذه الحياة ، واعتقاد أنها خير خالص يصل اليه الانسان بالعمل الصالح ، أو شر محض يكون نتيجة حتمية لأعمال الشر ، يجعل قلب الانسان مطمئناً راضياً إذا ساء حظه في الحياة الدنيا ، ويغير نظره الى هذه الحياة تغييراً تاماً . ثم اعتقاد أن الخير والشر يتزلان بمقدار بعد ووثهما بميزان عادل هو ميزان القادر الحكيم ، يحفز الانسان الى الاكثار من عمل الخير ، ويبعده عن عمل الشر .

يجب أن يكون المهيمن على عمل الانسان من داخل الانسان ، وهو خوف الله . وقد يقول علماء الأخلاق إنهم إذا وصلوا الى جعل الانسان يحب الخير لذاته ، ويكره الشر لذاته ، ونهوا الضمير الانساني بواسطة التهذيب والتربية أغنى ذلك عن التدين ، ولكن أني لهم ذلك ، وكيف يستطيع تهذيب الدهماء ، ومن تلبيهم من أول أدوار الحياة الحاجة الى الثبوت ؟ فالرجوع الى غريزة التدين أسهل ، وهذا الشعور الديني إذا عمق وصلح أقوى ، أو على الأقل ليس أضعف ، من الخوف والطمع والمساغة المثيرة للحروب . وهذا الشعور يرفع الانسان الى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والحياة والطبقة والثروة . وهو صالح لأن يغالب الحقد والحسد والأناية ، وفيه من تطمين النفس ما يقلل بطرها بالغنى ، ويهون عليها الفقر ، ويخفف ثورتها عليه .

وهذا الشعور يكرم النفس الانسانية ، ويحدوها الى المعرفة والحسنة ، ويكره اليها الجهل والحق . كل تلك الآثار قد ثبت تحقيق التدين لها فعلا ، لولا طوارئ أخرى ، ومن هنا تقوى طهارة المتدين في قبول تلك الغاية المرجوة من الأخوة الانسانية مهما عز ذلك أو بمد ، ولكن بقدر ما تحتمل ذلك طبيعة الانسان .

وقد عني الاسلام بفكرة الأخوة الانسانية ، فقد به القرآن الكريم الى وحدة الابوين الموجبة للتعاون والتعارف والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتغافل ، ولم يقر وزنا لشرف المولد وكرم الجنس ، ووضع معيارا لاتفاضل لم يعرفه الناس من قبل ، هو تقوى الله ؛ وفي القرآن الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وطلب القرآن الكريم الى المسلمين إحسان معايشة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا في حالة المدون ؛ وفي القرآن الكريم . « لا يهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما يهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وقد عمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه ، وخلقواؤه من بعده ، على وفق هذه المبادئ السامية ، حتى أتيح الإصهار الى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة وعدم منعها من شعائر دينها .

كلمة فضيلته الثانية لاتحاد علماء التخصص :

واجب العلماء في الحياة العامة

يسرني أن يكون لعلماء الأزهر عناية بالأحوال العامة ، فقد كان الأزهر لا يفكر فيها فيما مضى ، وكنت دائما أو ملئ نتججه اليها ، وأن يعالج في كياسة ورفق النقص الطارئ عليها . وإنى لاشعر اليوم بغبطة عظيمة لاسمكم قد أرضيتكم بأنجاهكم هذا رغبة الأزهر ، وهو انجاء مشكور طالما تمخى الأزهر تحقيقه .

ولا شك أن بلادا إسلاميا مثل مصر ، فيه تقدم جامعة إسلامية أدت ما عليها وصمدت للحوادث عشرة قرون ، حلت فيها الدين الاسلامي وعلوم اللغة العربية ، حتى أصبحت مصر زعيمة العالم الاسلامي والشرق في الدين والآداب والعلوم العربية والثقافية الدينية . مثل هذا البلد ، ومثل هذا المعهد العظيم ، عيهما الآن أن يفكرا ، ويفكرا طويلا ، في الاحتفاظ

بهذه الرامة ، وفي تفذيتها ، وعليها أن يوجد الثقافة التي تلائم روح الشرق وتستهدى بهدى الاسلام .

ولعل اتحادكم هذا يكون نواة لقيام فكرة عامة بين المسلمين ، هي تشاور جميع الأمم الاسلامية والشرقية في شئونها العامة التي لا تتوقف فقط على توحيد الثقافة ، بل تمتد لتشمل البحث في أمراض المسلمين ، والعلل التي أدت بهم الى ما يشكون منه الآن من ضعف وتفكك ووهم ، في حين كان الواجب أن يكونوا في طليعة الأمم الشرقية بما كفله لهم دينهم من سعادة ، وما ضمنه لهم من أمياب الرقي .

وطل أن خير علاج للحالة الراهنة في مصر وغير مصر ، هو بحث العلل الاجتماعية بحثا خاليا من التعصب ، بعيدا عن فكرة التقليد العمياء ، وألا تترك في هذا على تقاليد نستمدّها من السياسة الشرقية الماضية .

نقد فكرت من قبل طويلا في إيجاد روابط تربط الأمم الاسلامية في شئونها المتعددة ، وقد سرت في طريق ذلك خطوات ، ولكني أعتقد أني مازلت في منتصف الطريق فصلا من نهايتها غير أن يفتة علماء المسلمين ، وشعورهم بآمالهم وآلامهم ، مما يجعل من السهل تحقيق هذه الرغبات ، ويشر بانخير العظيم ، إن شاء الله .

ومع ذلك فليس عندي من الوسائل التي تضمن النجاح في هذه الأحوال إلا شيء واحد : هو أني أحب الاسلام والمسلمين ، وأحب أيضا أن يكون هذا هو شعوركم في كل أعمالكم لخير الاسلام وأهله لنضمن النجاح .

مم كرر فضيلته شكر أعضاء الاتحاد على فكرتهم النبيلة ، وعلى زيارتهم له ، ورجا الله أن يحقق آمال المسلمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مهمة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

نشرنا في الأعداد السابقة بحثونا في ماهية الوحي وفي إمكانه ، بل وجوده بالفعل في عالم الطبيعة مشاهدا محسوسا ، وفي أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان واحدا من الذين شرفهم الله بوحيه ورسالته بعد عيسى عليه السلام بنحو ستة قرون ، واليوم نبحت في ماهية المهمة التي كلف بها محمد صلى الله عليه وسلم .

المعروف من الاسلام بنصوص محكمة لا تقبل التأويل ، أن رسالة محمد عامة للناس كافة ؛ وأنه أرسل بالدين الأول الذي أنزله الله الى المرسلين قاطبة ، خالصا مما شابه به المحرفون ، وما ألحقه به الشارحون والمؤولون ؛

وأن هذا الدين هو ما تدعو اليه الفطرة الانسانية ، ويمكن أن يتفق عليه البشر كلهم ، فتصبح ديانتهم واحدة ، وجماعتهم واحدة ، لا طفرة ، ولكن بعد دور من التطور نحفزهم الى هذا الموقف حفزا طبيعيا ، تحت تأثير العلم والحكمة ، والمثلاث العالمية المربية ؛

وأن الاسلام مجموع من أصول ومبادئ هي المثل العليا التي تتطلبها النفس البشرية ، وتترامى عليها بمجرد إدراكها ، متى خلصت من سيطرة الأوهام الوراثية ، وتخلصت من سلطة الوساوس التقليدية ؛

وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو خاتم المرسلين ، به انتهى دور النبوة ، وانقضى عهد الوحي ؛

وأنه قد عهد بعده الى العلم والعقل أن يقوموا على حراسة هذا الترخ الإلهي من عبث العابثين ، وغنت المنتظمين ، وأن يعملوا على إزالة العراقيل دون انتشاره ، وبهذا السبيل لا لبلاغة غاية سلطانه .

هذه أمور خطيرة أعلنها الاسلام وحمل على تحقيقها ، ولم تكن تدور بمجد أحد من العالمين حتى أتمت الفلسفة أنفسهم ، إذ لم يكن يبحث أحد في إمكان وجود رسالة عامة للبشر كافة ،

ولم يكن يعرف إنسان أن الله أوحى لجميع المرسلين ديناً واحداً ، ولا أن التخالف في الأديان إنما حدث بسبب تحريف قاداتها لما أزل إليهم منها . ولم يكن يتخيل مصلح أن هذه الأديان المتخالفة كلها يمكن توحيدها وارجاعها إلى أصلها الأول ، فيصيح بذلك للأئمة قاطبة دين واحد ، ولا أن هذه الأمم ذات القوميات المتباينة ، والمصالح المتعاكسة يمكن أن تتوحد ويكون لها وجهة مشتركة ، باعتبار أن توحيدها أوفى بمصالحها ، وأدعى لزيادة رفاهتها .

ولم يكن في الأرض من يتصور المثل العليا في الأصول ، ولا أن في الفطرة البشرية عوامل تحفز النفوس إليها تحت تأثير المثالات العالمية ، والتفاعلات الاجتماعية .

ولم يبحث أهل الأديان قبل الإسلام في مدى سطوة الأوهام الوراثية بالعقول ، وتأثير الوسوس التقليدية في القلوب .

كل هذا لم يكن يتردد في العقلية الدينية قبل ظهور الإسلام ، ولم يكن أقطاب الفلسفة يهتمون بذلك من الوجهة الدينية ، فقد كان رجال الدين منتبذين ناعية لا يسمعون لأحد أن ينشأ فيها إلا لتأدية العبادة لهم ، ولما أقاموه من النمايل والنصب حولهم ، أما النشأ معهم على أصل ، أو مجادلتهم فيه ، فإن ذلك كان حزاؤه الاحراق بالنار ، أو على القليل كارثة لا ينقضي منها أبداً وإن تاب .

ولما كانت كل هذه الشئون ، لو جاءت بها نصوص كتابية صريحة ، تكشف عن أكبر تطور ديني عرفه البشر منذ وجد إلى اليوم ، وتدخل المسألة الدينية في صميم الظواهر الاجتماعية التي تماشى المنطق العلمي ، وتساير ناموس التطور الطبيعي ، ويكون انتهاء العالم إليها ضرورة لازمة ، فإن التدليل على قيام الإسلام عليها والنصوص الكتابية الصريحة لا من طريق التأويل ، يحول الأنظار إلى الإسلام نحوياً لا يأتي من أي طريق آخر ، ويعتبر أقوى دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن عقلاً بشرياً قبل نحو ألف وثلاثمائة سنة ، وفي بيئة لا تنجب مثل هذه المبادئ ، لا يقوى على تصور كل هذه الشئون العظيمة ، وينجح في إقناع جمهور كبير بصحتها ، ثم يحمله على التكيف بها والعمل لسيادتها ، بإذلا حياته في سبيلها ، بحيث يؤدي ذلك إلى قبول أمة عظيمة لها ، ودعوتهم العالم كله إليها .

بناء على هذه الاعتبارات يصبح مما لا يقبل الجدل أن مهمة محمد صلى الله عليه وسلم هي أن يحمل للبشرية كلها ديناً تاماً ، قائماً على أصول طبيعية لا يتأني هدمها ، بل لا يمكن الشك في أصالتها ، وفي انجاء كل المحاولات العلمية والفلسفية إلى الحل عليها ، مصداقاً لوعده تعالى : « سنجعل آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » .

تنازع أصحاب الأديان لقب الدين العام :

إن قوله تعالى في القرآن : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقوله : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وغامم النبيين وكان الله بكل شيء عليا » لا يدع محلا للشك في أن الاسلام أنزل ليكون دينا عاما للبشرية كافة ، وقد قام محمد صلى الله عليه وسلم بإبلاغ قادة الأمم ذلك بكتيب أرسلها إليهم يحملها رسل من قبله .

ولكن رجال الديانة الاسرائيلية والنصرانية ينازعون الاسلام هذا الحق ويدعون أن دينهم سقا الاسلام الى هذه المهمة العليا ، فلننظر ألهم حق في هذه الدعوى ، أم هي مجرد غيرة منطرفة منهم على دينهم ، حملتهم على أن يضعوها حيث لا تقوى أصولها على تبوئتهما هذه المكانة ، وتمكينهما فيها ؟

فأما الاسرائيلية فلا نص فيها على أنها هي الديانة العامة التي شرعها الله للناس كافة ، وكل ما فيها أن رجالا من أحبارها استفادوا مما جاء في القرآن عن الاسلام ، فأرادوا أن توصف بهذا الوصف دياتهم ، فنحلوها من المهام ما لم تساعد على فهمهم هذا آية واحدة من كتابهم ، على حين أنه حافل بما يدل على أنها ديانة أسرة بشرية واحدة ، هي يهو اسرائيل دون سواهم ، وكل ما جاء فيها خاص بها وبمصلحتها وبقوميتها وتقاليدها ، دون نظر لاعتبار آخر ، حتى إنه ليست لليهود دعوة الى دينهم ، بل إنهم يكرهون أن يصبا اليه من ليس من أسرهم . فنس تقاليدهم أنهم إذا تقدم اليهم راغب في ملتهم ، تلطفوا في رده ببيان ما في دياتهم من التكليف التي نشق عليه وما ينتظره فيها من الواجبات التي لا يستطيع الاضطلاع بها . فإن أصبر بعد تكرار رده على هذه الصورة قبلوا منه أن يتخلق بأخلاق اليهود ، ويتأدب بأداب شريعته ، دون أن يكلف غير ذلك (راجع كتاب (le Judaisme) لحاخام باريس المطبوع سنة ١٩٣١) .

كل ما يستندون اليه من نص في هذا الشأن ، ما ورد في كتابهم من أن بني اسرائيل سيكونون محكمين للأُمم ، ومرسين للشعوب القوية ، وأنه (قبيل قيام الساعة) سينفق العالم كله على عبادة الله اتباعا لديانة بني اسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيصطر الناس الى القيام عليه .

نقول : إن هذا القول وحده يكفي في الاعتراف بأن الديانة اليهودية محالها الراحة ليست بديانة عامة ، ولكنها ستكون كذلك ، كما يقولون ، في مستقبل بعيد جدا قبيل يوم الدين . فلا موجب للملاحاة أشياءها في أمر يمتدحون بأنه لم يوجد بعد .

وأما الديانة المسيحية فإن أهلها يعتبرونها الديانة الأخيرة العامة ، مستندين في ذلك الى اشتغالها على البشرية بخلص العالم من اللعنة التي أصابتهم بسبب عصيان أبيهم آدم لله ، وأكله

من الشجرة التي حرمت عليه في الجنة . فانهم يقولون إن الله غضب على آدم لعصيانه أمره ، ولمنه وقذف به الى جهنم ، وورث هذه الآفة جميع ذريته ، وسيقوا بعد وقتهم الى النار ، الى أن أراد الله أن يعفو عنهم ، فأرسل الله الوحيد يسوع الى الأرض ، حملت به مريم جنيته ، ثم ولدته طفلاً ، فتربى ونشأ وأخذ يعلم الناس ويعظمهم وينمى على الكهنة والفريسيين من اليهود تنطسهم في الدين وأخذهم بمشوره ، وغفلتهم مما أودع في آيات الكتاب من الأسرار ؛ فحقدوا عليه ، ووشوا به ، فقبضت عليه الحكومة وصلبته . وكان في صلبه كما يقول المسيحيون فدية للناس كافة من اللعنة التي كانوا يرزحون تحتها . وبعد ثلاثة أيام من دفنه قام من بين الأموات ، وقابل بعض حواريه وأوصاهم ووعظهم ، ثم صعد الى السماء ، وأخذ مكانه عن يمين الرب . وقبيل يوم القيامة ينزل الى الأرض ويدين أعداءه ، وبذلك يتم وعد الله ، وتنتهى هذه الحياة الجسدانية ، ويخلص الذين آمنوا بيسوعه الله ، واقتدائه الخلق بنفسه ، في الملا الأعلى على مثل حال الملائكة ، ويخلص الذين لم يؤمنوا بذلك في النار .

وقد نقل مؤلفوا الأناجيل كل ما قاله عيسى عليه السلام ، وما وصى بالقيام عليه من الأصول ، وهي تنحصر في الاستسلام المطلق ، وحس الغير ولو كان عدواً لدوداً ، والصفح عن المسيئين ، وعدم مقابلة الشر بالشر ، والتخلص من علائق الدنيا ، وانتظار الموت في سكونية وهدوء .

هذه الديانة لا تصلح أن تكون ديانة طامة للبشر لثلاثة أسباب .

(أولها) ابتناؤها على عقيدة لا يمكن أن يقام عليها دليل ، فإن لم تؤخذ بالنسليم فلا يكون لها سلطان ما على الضير الإنساني ، والنسليم غير ممكن في عصر كثرت فيه الشكوك ، وأصبح أهله لا يدينون حتى للدليل العقلي إن لم يمزجه شاهد من العالم المحسوس . فكيف يتأتى تعميم هذه العقيدة بين الناس وهي فاقدة أهم أركان التدليل ؟

(ثانيها) قيامها على مبدأ الزهد والتخلص من علائق الدنيا ، والحياة الاجتماعية تأتي ذلك ، ولا أدل عليه من أن الأمم الآخرة بهذا الدين تقوم على المنافسة في الاستكثار من المال ، وفي التورط في علائق الدنيا خلافاً لما يوصيهم به ؛

(ثالثها) إبطالها أهم أركان التشريع ، وهو منع الاعتداء بالقوة ، والضرب على أيدي الجناة لكف أذاهم عن الناس ، وإصلاحاً لنفوسهم . فإذا أخذ الناس بمبدأ العفو المطلق ، على قاعدة : من سرفك رداءك فأعطه قبضك ، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، استشرى الشر في الأرض ، وطم العدو ان فيها ، وذل الخيرون للشريرين ، وتمادوا في استدلالهم حتى منعموهم حق الحياة ، وليس هذا من الإصلاح المنشود لهذا العالم في شيء .

أقول هذا ولا أنكر مبلغ النمو الذي تنطوى عليه هذه الأصول من تجريد النفس من جميع العلائق الجسدانية ، ولكنه مما قد يسمح به لأفراد يعيشون في ظل جماعات قوية

تستطيع أن تحمي الفضيلة وأهلها من عدوان الماديين ، وعبث المابئين ؛ أما أن يصحح هذا التجريد ديناً للكافة فلا يعقل بوجه من الوجوه .

هل يصلح الدين الاسلامي أن يكون هو الدين العام ؟

بقيت الكلمة الآن للإسلام ، فهل يصلح أن يكون هو الدين العام ؟

أما أنه قد أوحى الإسلام الى محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الوصف ، فقد ثبت ذلك من النصين القرآنيين اللذين أثبتنا بهما في مقدمة هذا البحث ، وهو لأجل أن يقيم هذا التطور الديني الجلل على المسلمات العامة ، قدم لذلك مقدمات بديهية :

(أولاً) أن الله لم يخل أمة في الأرض من الهداية بواسطة رسول ، فقال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » .

(ثانياً) أن الأمم كانت تقابل هذه الهداية بالاستعصاء ، إلا أفراداً قليلين كانوا يتبعون الرسل متحمسين ما ينالهم بسبب صيوتهم عن دين آبائهم من العنت والاضطهاد العظيم ، قال الله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

(ثالثاً) أن الأمم التي كانت تأخذ بالاديان ، كانت تعتمد الى تحريفها لتتنق وما هي عابيه من وثنياتها ، وكان لومها مصالحة في ذلك التحريف وهي استغلال جهالات تلك الأمم لحفظ مكاناتهم ، وامتداد سلطاناتهم ، قال تعالى : « أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ » وقوله : « وما اختلف فيه (أى في الكتاب) إلا الدين أو نوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

(رابعاً) أن الدين الذي كان يبعث الله به رسله تترى الى الأمم ، كان يناسب الميول التي فطرم عليها ، ليكون أخذك به قائماً على الغريزة الأدبية التي تمتعت بها نفوسهم ، وكان هذا الدين واحداً لجميع الخلق لوحدة تلك الغريزة فيهم ، ومواده توحيد الله وتزنيه ، والاستسلام لارادته ، والاحسان في العمل ، قال الله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » ، وقال تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟ » . والدليل على وحدة هذا الدين المنزل لجميع الأمم قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ،

كبر على المشركين ما تدعوم اليه ، الله يجتنب اليه من يفاء ويهدي اليه من يئيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فذلك فادع (أى فلوحة الدين فادع) واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينهم ، الله ربنا وربكم ، لنا أفعالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا حاجة ولا خصومة) ، الله يجمع بيننا واليه المصير .

(خامسها) أن هذا الدين الحق الفطرى الذى أرسله الله الى الأمم كافة بلسان رسله ، قد أماد الله إزاله الى محمد صلى الله عليه وسلم ، رفعا للخلاف الدريع بين الأديان مع وحدة أصلها ، وأمر رسوله بأن يقسم بدعوة الناس إليه كافة ، باعتبار أنه دين البشرية كلها لا دين أمة واحدة منها ، فقال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الدين أوثوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوثوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا علىك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

(سادسها) دين البشرية وحدة لا تنجزاً تشمل الإيمان بجميع من أرسلهم الله من رسل ، وما أنزله إليهم من كتب ، جلة ، لأن التفصيل لا سبيل إليه ، قال الله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإناهم فى شقاق ، فسيكفكهم الله وهو السميع العليم . صبة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وقال تعالى : « إن الدين فرقا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » .

ومما هو ذو دلالة فاعمة فى أن الاسلام أنزل ليكون دين الانسانية طامة ، لا دين أمة خاصة ، ما شرطه الله على الداخل فيه من وجوب الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلوا الى الأمم وبجميع الكتب المنزلة إجمالا ، فإن كفر بواحد من أولئك أو من تلك الكتب ، اعتبر كافرا وإن آمن بالقرآن وحده ، قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويؤيدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويؤيدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا » .

فالاسلام هو الإيمان بدين الانسانية كلها وعدم التفرق فيه ، تحقيقا لوحدة الدينية ، وهى أساس كل خير يوجب للجماعات البشرية ، قال الله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام (وقد علمت ما هو) » ، وما اختلف الذين أوثوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن

يكفر بآيات الله فإن الله صريح الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبع ،
وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين (يريد بالأمينين العرب) أسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ،
وإن تولوا فإنا علىك البلاغ ، والله بصير بالعباد »

هذا أكبر تطور حدث في العالم يعكس تسجيله للعقلية الدينية ، وهو ما لا يمكن حدوثه
من عقل بشري بدون إرشاد سماوي ، لأن الحالة العالمية في عهد نزوله لم تكن توحى به ، ولم
تكن البيئة العربية مما تحفز اليه . جهد أعظم عبقرى يسند اليه إصلاح تلك البيئة ، كان ينحصر
في أن يوحد للأمة العربية ديناً يجمع شتاتها ، ويوفق وجهاتها ، ويحملها على أن تتحول الى أمة ،
بدل أن تبقى على حالة قبائل متناحرة .

هذا كان جهد أكبر عبقرى يتكافأ إحداث حمل جليل يسجله له التاريخ في تلك البيئة .
أما عدم الوقوف عند حاجة تلك البيئة الجزئية ، والاشتغال بحاجة العالم كله ، وما تقتضيه
من عرض أصول الأديان التي بها يدين الناس ، ومحاولة بيان الفاسد منها ، وإصلاح ما يقبل
الإصلاح منها ، والعمل على تعهد الطريق لتوحيدها بأحالة أصولها الى حقائقها ، والاضافة في بيان
ماهية الدين ، وعلاقة الإنسان به ، وفي ترويع الأمم في الأرض ، وحاجتها الى وحدة عامة ، الخ الخ
كل هذا لا توحى به البيئة التي نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أرقى عقلية في أرقى أمة
من أمم الأرض على عهده .

إن الصبغة العامة في الديانة الإسلامية واضحة الى حد أن آية واحدة من الكتاب لم توجه
الى العرب خاصة ، وكل ما فيه موجه الى الناس كافة ، أو الى المؤمنين ، بحيث أن نالي القرآن
الكريم من آية ملة كان لا يشعر بأن هذا الكتاب نزل بين ظهري أمة غير أمته . وهذه ميزة
يجب أن تلحظ في التدليل على صومية الدين الاسلامي .

الاصول التي قررها الاسلام لتحقيق هذا التطور العالمي :

لم يكتف الاسلام بتوحيد الدين من الوجهة النظرية ، ولكنه عمل على تحقيق هذا التطور
العظيم بتأليف أمة عالمية غير قومية ، كاف فيها لدوى الألوان المختلفة ، واللغات المتباينة ،
والاجناس المتباينة ، حقوق واحدة ، تحت اسم جامع مشترك تقضى فيه جميع الاسماء الخاصة ،
وهو (الأمة الاسلامية) .

فأهي الاصول التي قررها الاسلام لتحقيق هذا التطور العالمي ؟

(أولها) وجوب الرجوع الى العقل في الاخذ بأية عقيدة دينية .

(ثانیها) طلب الدليل على كل ما يتطلب التصديق .

(ثالثها) الاستماع الى كل قول واتباع أحسنه .

(رابعها) نصيد الحكمة من كل مظانها حتى ولو جاءت عن المشركين .
 (خامسها) طلب العلم من المهد الى اللحد ، وبذل كل جهد للوصول الى لبابه .
 (سادسها) النظر في السموات والأرض ، وفي جميع ما يقع تحت سلطان المشاعر والتأمل فيها .
 (سابعها) السياحة في الأرض لدراسة أحوال الأمم ، ومعرفة علل تقدمها وتأخرها ،
 أو هلاكها وبقائها .

(ثامنها) عدم الاعتماد بالمقائد الموروثة ، ومحاكتها الى العلم والمقل وتطلب الدليل عليها .
 (تاسعها) الامتناع عن التقليد وتطلب الاقتناع الشخصي .
 (عاشرها) استشعار المسؤولية الشخصية ، والاعتقاد بأن الانسان لا يغنى عنه أحد شيئا .
 هذه أصول لو أخذت بها أمة لحدث في عقليتها وتفسيثها ووجودها الاجتماعي تطور
 سريع لا يقف دون إبلاغها أرفع مستوى تنوق إليه في حياتها الأرضية .

ولو أخذت به الأمم قاطبة لتقاربت وتفاعلت وتعاظمت ، وانتهت الى الوحدة التامة ،
 كما حدث للامة الاسلامية وهي مؤلفة من عشرات من القوميات ، وكما يحدث لمن يقبل
 الاسلام ديناً له ، إذ يجد نفسه كأنه من المسلمين جسداً وروحاً ، وينسى أنه من نابتة بيئة أجنبية .
 فالاسلام رسول الوحدة الانسانية ، والمهد لا كبر تطور روحى وعقلى واحتجاجى سيحدث
 في العالم البشرى .

نعم إن هذا التطور العام لا يمكن حدوثه إلا بعد أدوار كثيرة من الانقلابات الأدبية
 والعلمية والاجتماعية ، ولكنه سيحدث لا محالة ، وليس بكثير أن نحصى عليه بضع مئات
 من السنين بعد وصوله الى حالته الراهنة ، وقد أنبأنا الله بذلك في قوله تعالى : « سترهم آياتنا
 في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد »

ولكن مما يجب علينا بيانه هنا أن هذا التطور سيكون لمصلحة الاسلام لا محالة ، لأنه
 كفل لنفسه هذه المكانة بما أحاط جوهره به من العوامل التي تجعله الغاية التي ليس وراءها غاية .
 فهو يدعو الى توحيد الله وتنزيهه ، ويحول دون الخيالات أن تتناول على أية حالة ، وهي
 التي فرقت الأمم شيعاً ، وألبست الأوهام حلة الدين « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
 يحيطون به علماً » .

ويدعو الى الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، ولكنه لا يلزم الأمم في التمسك اليهما أن
 تنوخى أسلوباً مقمراً ، تاركاً لناموس الترقى الحرة في تسكييف جهودها على ما تستدعيه
 حالات الانتقال في خلال المقتضيات المختلفة .

و يجمع العقل سلطانه كله ، لا يحمله إصرار ، لا ما يزيد في فصوجه من علم ونظر ، و يبارك في قواه من تثبت وتحقيق .

ويطلق الميول الجسدية حريتها ، ولكن في دائرة الاعتدال التي ترسمها الحكمة المستمدة من العلم الصحيح ، لا من التحكم وإرادة التصغير .

ويأمر بالتوسع في العلم ، والتجريب فيه ، العلم الذي يحمله الواقع المحسوس ، لا الذي يقيم صرحه الخيال ، وتمده الأوهام والظنون .

ويأمر بمراعاة الأحوال ، وتقدير الظروف ، ومعالجة الأمور بالحكمة لا بالخرق ، وبالتشاور لا بالاستبداد بالرأى .

ولا يحرم على أهله إلا الخبائث ما ظهر منها وما بطن ، سواء أ كانت في مأكّل ومشرب ، أم في قول وعمل ، علاحلم الطيبات في حدود الاعتدال والتوسط .

ويحث على دوام الترقى ، وتطلب الأحسن من كل شيء ، ونوحى الامثل من كل غيبة . ويحض على التخلق بأخلاق الله ، وهي ما يرى ظاهرا يبر الأناظر في كتاب الكون المبسوط للكافة ، يرون فيه آثار حكته وعدله ، ورحمته وإحسانه ، وتدييره وإتقانه .

إن ديننا يكون قد أحبط بكل هذه العوامل ، وكفى المهلات بما رأيت من الحوافظ ، جدير بأن يبقى على الدهر ، وإن انحرف عنه أهله ، ويدوم دوام السموات والأرض ، وإن التوى على بعض أصحاب الأغراض فهمه ، حتى إذا استعصت النفوس إلى إيتار الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، وجدت الاسلام أمامها يدعوها إلى حظيرة ، فأقبلت عليه إقبال الهيم على المورد العبد ، فقبلته ديننا لها إن طوعا وإن كرها ١ وإلى هذا يشير الحق في قوله تعالى : « أفغير دين الله بغفون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها (١) وإلى يرحمون قل آمنّا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أنزل موسى وهارون والسيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

محمد قدير وجري

(١) المراد بقوله تعالى : « كرها » فيما يظهر : إكراه الموائد المالية الناس على قبول الاسلام كقصد

لهم من الشرود

التفسير

تمت لتفسير سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا لك شيئا من كلام الفلاسفة الاقدمين والمحدثين في الاستدلال على وجود الله تعالى وقد رأينا أن نضرب معهم يسهم في ذلك الموضوع الرفيع بأسلوب بديع ، وقد وجدت من نفسى سائقا قويا لإعمال الفريضة في ذلك واستخدام القلم فيما هنالك ، علما بأن ذلك مطلب الأرواح وهو المقصد الأسمى من بعثة الرسل عليهم السلام . وأى سورة أحق بهذا من سورة الاخلاص التى تعدل ثلث القرآن بنص الحديث الشريف . ولو كتبنا أسفارنا في بيان سمديته تعالى أو أحديته عز وجل لم نلج إلا أقل القليل من دلائل قدرته وآيات عظمته « سبحانه لا تحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » والمجلة فقد حاء في هذا الالهام القوى الذى لا يمكن أن أخالف سلطانه ، أو أدع بيانه ، وهو فيما أعتقد أحل ما ينفع القراء ويتبع به أهل الدكاء ، فأقول متوخيا طريقة القرآن من وصوح البيان واستنارة الوجدان ، وبالله التوفيق :

(١) إن نسبة الاتحاد الى علم الطبيعة إفتراء على علم الطبيعة ، فإنه لا علاقة له بأوائل الأشياء ولا أواخرها ، وليس في قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا الى أين تذهب ، ولا ذلك من أنجائه وإنه لينطق بمحرزه مما وراء الطبيعة ، ولكنه يقدر بأمراره البديمة ، ذلك القابل المستقر لكنه ، الظاهر بآثاره ، الذى دق عن رؤية الابصار وحل عن أن يقع تحت الحس ، ولكنه معروف للعقول مرئي للبصار ، فهو كالروح وجودها بدهى في المظهر ولكنها مجهولة عند إرادة التكليف والتحديد ، لأنها تعمل عن ذلك عنقضى طبعها بعد التوراييات عن الظلمانيات ، فتسكرها عوالمك السفلية الكثيفة التى لا تعرف غير المحدود .

(٢) ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعة علمه وباهر ألوهيته ما أودعه في الأشياء من الحكم التى اقتضت أن يوجد لك كبدا تفرز الصفراء ، وغددا تفرز الريق ، وعجى للطعام ، وعجى للنفس ، ومصفاة في الأنف للهواء ، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الاحكام في الأذنين والبطين والشرابين والأوردة . وانظر كيف جعل لك متغذا للفصلات وبجانب قناة

البول قناة أخرى للمنى بعد حمل حوض البول يجتمع فيه وكتيتين تفرزانه من الدم، ثم جعل لك أنثى، وهياها لما يواد منها تخلق فيها رحما وتديا الخ .

وانظر الى حكمة : الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان في التيم الى غير ذلك مما يهرك إن كنت ذا وجدان صحيح .

(٣) من المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه ، فكيف نعطينا المادة الجامدة المينة الحياة والعلم والادراك ؟ وهل لتلك العناصر المادية كالكبريت والفسفور والأكسوجين والادروجين والذهب والذهب الى غير ذلك من عناصر المادة خير من ذلك أو أنارة من حياة أو علم أو إدراك وهل إذا اجتمعت الجذات كوت حياة وإذا انضمت الجهالات كوت علما عاليا وإدراكا ساميا . هل كان يمكن للمادة الجاهلة التي تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وإمعاء ورئين وكتيتين ، وأن تخلق في المعدة ما تحتاج اليه من العصارة المعدنية وبجانها العصارة البكرياسية ، ثم تخلق جهازا للتناسل وتعلم أن ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقا آخر من جنس الخلق الأول وتخلق فيه جهازا للتناسل يخالف الجهاز الأول ليكون الأول فاعلا والثاني قابلا ثم تخلق فيه محلا للجنين وتدير له كيفية غذائه مادام في الرحم وتخرج له ثديا يغذيه بعد خروجه وتهيئ له لبنا يجري فيه يناسب حاله وضعفه في طفولته ويجعل الرجل مجردا عن ذلك وقد أتى على كل منهما الشهوة الشديدة الى الآخر لينساقا الى ما خلقا له وليحفظ النوع من الفناء والدثور .

بل نقول : هل علمت المادة الصماء العمياء أن الكلبة ستلد أجراء كثيرة ، فجعلت لها أنثاء كثيرة وحلمات عديدة رحة بأولادها التي ستكون بعد ، وهل علمت أن العقاب سيتغذى باللحم فكونت في البيضة التي يتخلق منها منائر يقطع بها اللحم كما علمت أن بعض الطيور تأكل النبات وأن بعضها يجتاج الى حويصة فلم تكون ذلك في بيصتها .

٤ — إن أعمال الله تعالى لا تنأى ولا تدخل تحت حصر مما ينبغي من الاختيار والإرادة فان الأعمال الطبيعية يجب أن تكون متشابهة بل متحدة . فان الطبيعة لا تعمل إلا عملا واحدا ووجود الأعمال المتنوعة من خصائص الاختيار والإرادة وليس الاختلاف الذي نشاهده ولا يدخل تحت حصر قاصرا على الأنواع المتباينة بل أفراد النوع الواحد لا تكاد تدخل تحت الحصر مباينة واختلافا « يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وإن شئت فانظر الى الأشجار المتجاورة التي تضرب عروقها في قنمة واحدة وفروعها في هواء واحد ، بل انظر الى أوراق الشجرة الواحدة تجدها لا توافق ورقة منها ورقة أخرى ، فإن حاولت أن ترجع ذلك الى أسباب ومقتضيات فقل لي من الذي نوع تلك الأسباب وخالف بين تلك المقتضيات الخ .

٥ — وإن شئت فانظر الى تعاضد العوالم وخدمة بعضها بعضا وتوجيهها كلها لغاية واحدة مما لا يتصور مثله للمادة العاجزة التي ليس لها خبر مما يجاورها فصلا عن البعيد عنها فانظر الى خدمة العالم العلوي للعالم السفلي .

٦ — والى وضع الأرض وغيرها من العوالم العلوية على الأبعاد المناسبة حتى ينتفع بعضها ببعض ، وحتى لا تختل حركة الجاذبية العامة ، ولو جعلت الأرض قريبة من الشمس جدا لاحترق كل ما عليها بحرارة الشمس ، ولو جعلها بعيدة عنها جدا لم يعيش عليها نبات ولا حيوان « فسيحان العالم الحكيم » ومن المدهش كون أوصافها على نسبة تحفظ بها قوانين الجاذبية في الجميع بالنسبة لما على يمين الكوكب وما على شماله وما فوقه وما تحته الى آخر ما يحير الحاسبين ويدهش الناظرين .

(٧) وإن شئت فانظر الى الأرواح والجن وأفاعيلها التي خرقت كل نوااميس المادة وتلك الطوارق يعرفها المسلمون في أولياتهم بالكرامات وأنبيائهم بالمعجزات ، وقد اعترف بها الآن فلاسفة الأوربيين وأساتذتهم بواسطة استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى الذي أتى بما لا يمكن تعليله بالعلل المادية كما هو معروف الى آخر ما لا يتسع له هذا المقام .

٨ — وإنى لأعجب كيف تنسب هذه القدرة الباهرة التي أوجدت هذا الملك العظيم الذي لا يحيط به محيط في اتساعه وكثرة أنواعه من هواء وماء وأرض وسما ونجوم وأقمار ، ورياض وأزهار وجبال وبحار ، الخ . عجبت كيف تسبغ العقول ذلك أم كيف تسبغ أن تنسب الى المادة الجاهلة تلك العلاقات المنظمة التي بين الأشياء والترتيب الغريب المسيطر عليها والحكم السامية المودعة فيها التي اقتضت أن يكون « الأزل » في الهواء على نسبة ٩٩ في المائة « والأكسوجين » في الهواء على نسبة ٢١ في المائة ، حتى يتأتى أن يتنفسه الانسان والحيوان وتصلح به الأشياء . تلك الحكم التي أوجدت فيك المغ والخبخ والرئين وصورت لك فكين وأوجدت بينهما لسانا وعلى طرفيهما أسنانا ولم تسكنف بذلك حتى أوجدت لك غددا في ذاك المحل تفرز الريق الى آخر ما لا يسعنا إلا أن نلمع اليه لا أن نأثى عليه .

(٩) عجبت كيف لا يدهشه هذا الإبداع وكثرة الأنواع . بل اختلاف الصور والأشكال في النوع الواحد ، وانظر الى ذرة المكروب من نوع الحيوان الى أن تصل الى ما طوله عشرات الأمتار كما في حيوانات البحر والى ماله حريصة ومعدة ومعدتان وثلاثة والى آكلة النبات وآكلة اللحوم ، والى ماله عيون تزيد على عشرات المثات الى آخر ما بينه علماء الحيوان .

ثم انظر الى النبات كيف تزيد أنواعه على مائتي ألف نوع الخ : ثم انظر الى سعة العوالم العلوية وانتظامها ومعرفة حركاتها وما قرره فيها المكتشفون فيا ليت شعري ما الذي عرف هذه الاختلافات وتلك التنوعات وهذه النظامات وهذا الإبداع وذلك الاختراع .

(١٠) أم كيف أوجدته المادة التي لا تستطيع أن توجد نفسها . وألمت لنظرك الى هذا المذاق الذي تأكله كل يوم ولا تدري بشهادة علماء الطبيعة أنفسهم كيف يكون المين والمخ والمخبيخ الى آخر أجزاء البدن أم وكيف يكون العلف والخبث عينا في رأس الحصان ودما في جسمه ولحما في عظمه وربما سميت شهادة فلاسفة أوروبا في ذلك . فليت شعري أي قدرة عملت هذه ، وأي علم نظمها ، وأي سر أودع فيه ، وأي كيفية تم بها .

١١ — فان كان لا يدهشك أصل وجود الأشياء من العدم فليدهشك ما فيها من الأسرار وتوابعها وكيفية تأثيرها التي لا تعلمها ولا نحس منها إلا بقسرة تعلم عن العقول . ولست أدري أي سر أودع في بورة الثوت حتى أوجدت لك الشعرة الضخمة ونوعت أوراقها وثمارها دون شعرة الفول الذي هو أكبر من بورة الثوت بأصعاف كثيرة ، وأي سر أودع في المعدة حتى صيرت تلك الأشياء الجامدة الغليظة الميتة دما حيا يجري في مجاريه المتخلعة الى القلب ثم يروح الى أطراف البدن ست عشرة مرة في الدقيقة ، ولئن عرفنا تركيب الأشياء فلا ندري كيف تألفت ولا كيف أثرت . ولا كيف تظهر عنها نتائجها . أفلا تدهشك تلك الأسرار فتستدل بها على قادر عظيم لا ندري ما هي الأسرار التي أودعها ووعها ولا نعلم كيف يفعل فكما نزه في ذاته أن تدركه العقول كذلك نزه في فعله عن أن نعلم كيف يكون ، فهل أودعت الأشياء هذه الأسرار في نفسها « وكيف ذلك » ؟ وهل نوعتها الى تلك الأنواع التي لا يحيط بها محيط ويأملت بينها وحصصت كلا لكل الخلق ؟ وليت شعري كيف ذلك وهي السماء السماء بل الجناد الميت .

١٢ — بل نقول . كيف نعقل وجود المادة ، هل ترى أيديك الله أنها وجدت من غير شيء . وأودعت تلك الأسرار المتنوعة التي تخرج عن نطاق المد بل التي لا نهاية لها من غير شيء . اللهم إني ذلك كله باطل بالبداهة ولا يتحرفه ولا يكاد يسفه إلا مجنون فسد عقله أو نطقت إنسانيته . وضاعت فطرته التي فطر الله الناس عليها . أم نقول إن ذلك كله قد وجد بأصله وأسراره وحكمه ونظامه بالصدفة كما يقول أولئك المجانين .

وأنت لا تخجل إذا رأيت قصرا مشيدا مختملا على ترتيب عجيب ونظام غريب كل شيء فيه لغرض من الأغراض وسر من الأسرار أن يكون قد وجد بالصدفة . بل لا تخجل أن يوجد أقل شيء بالصدفة . بل ترجع بك الى أصل وجود الأشياء من العدم فان كنت تميز الصدفة في ذلك كله ويهضم ذلك عقلك فقد سقطت مكالمتك . وبعد : فتعالى عن رؤية شمس تعالي المشرقة على جميع الموجودات وباهر آياتها التي ملأت الأرضين والسموات ثم يلعب ذلك لعلم الطبيعة زورا وبهتانا وقد قال يا كوني وهو من أساطين علم الطبيعة من أخذ علم الطبيعة وشفا بأطراف الشفاء ألد ومن شره عبا أوصله الى الخالق . وقال الفيلسوف الكبير

« سينسر الانجليزى » ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك القواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس بل الغرض أن يوفقا على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة وما أجدرنا فى هذا المقام أن ننشر قول القائل :

يا من تفلسف كى يؤيد كفره مسح أنه لم يدركه وجوده
حسرت بسوق الفضل منقعة جاهل تحدد العلوم ذريعة لجوده
أو نقول ما قال غيره :

ومن البلى الذى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئا يدعى أكثر منه
ولقف هنا اليوم وموعدا العدد الآتى إن شاء الله ما

يوسف الرموى
عضو جماعة كبار العلماء

شئ من الزهد

مر محمد بن واسع الصوفى على قوم فسأل عنهم ، فقبل له : هؤلاء الزهاد . قال : وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها ؟

نقول : لعله نظر الى قول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لسايجان بن عبد الملك وقد أمهه سلطانة وسأله كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال له عمر : سرور لولا أنه غرور ، وحسرم لولا أنه عدم ، وملك لولا أنه هلك ، وحياة لولا أنها موت ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم .
وقال لقمان لابنه . يا بني بع دنياك بأخبرتك تربحهما جميعا ، ولا تبسع آخرتك بدنياك فتحصرهما جميعا .

وقال الفضيل بن عياض . لو عرضت على الدنيا بخذا فيرها حلالا لأحاسب عليها فى الآخرة ، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه
وقال : جعل الخمر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

نقول : الزهد فى الدنيا حال يعترى بعض النفوس العالية ، وهم فى زهدهم يخدمون المجتمع من ناحية بقدر ما يخدمه الأغنياء بأموالهم ، وذوو السلطان لسلطانهم . ولم يحرم الدين شيئا من الدنيا يناله الانسان حلالا طيبا ، يلتمسه من وجوهه المشروعة ، ويضعه فى مواضعه الصالحة .

الشيخة

الطوفان وما يتعلق به

موضوع كلامنا في شرح حديث الطوفان الذي رواه ابن جرير مرفوعاً ، وقد ذكرنا نصه وبيننا بعض ما يتعلق به في المحدثين السابقين من مجلة الأزهر ، ونريد الآن أن نتكلم في المطالب التي أشرنا إليها فيما مضى ، وهي : (١) بيان معنى قوله تعالى (وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا تقوم الظالمين) (٢) بيان أن القرآن الكريم محفوظ من القمص الباطل ، فكان ينبغي للمفسرين ألا يذكروه . (٣) بيان ما جاء في آخر الحديث من أن نوحاً أمر الحيوانات التي كانت معه بالصيام فصامت . وإليك بيانها على هذا الترتيب :

(١) يقال لغة غاض الماء بغيض غيضا إذا قل ونقص ، ويقال غاص الله الماء وأغاضه ، فإذا بنى الفعل للمفعول يقال غيض الماء ، ومعناه غاصه الله أو أغاضه ، فمعنى قولنا في مقالنا السابق أمر الله الماء أن يغيض فغاض ، معناه أن الله فعل به ذلك لأنه لا سبيل هنا إلى جعل الماء فاعلاً كما قيل أن الأرض فاعل ابتلاع الماء وأن السماء فاعل الإفلاق عن إزاله ، وذلك لأن الماء هنا مفعول قام مقام الفاعل فلا يتصور أن يكون فاعلاً . من المعلوم أن إسناد الفعل المسمى للمفعول إلى ذلك المفعول حقيقة ، لا مجاز ، فهو كإسناده إلى الفاعل ، ولكن قد يقال لماذا بنى الفعل للمجهول هنا فقال وغيض الماء ولم يقل أغاض الله الماء . والجواب أن الفعل إذا كان منحصراً في الفاعل بحيث يستحيل صدوره عن غيره بنى الفعل للمفعول للدلالة على شيئين : أحدهما دلالة الفعل المبني للمجهول على فاعل مقدر وهذه الدلالة حقيقية . ثانيهما دلالة على تخصيص ذلك الفعل بفاعل معين لا يمكن صدوره ذلك الفعل إلا عنه ، وهذه كناية عن تخصيص الفعل بفاعله . ولا يخفى أن الفعل صفة والفاعل موصوف فهو كناية عن تخصيص الصفة بموصوفها وإن شئت قلت إن بناء الفعل للمفعول وحذف فاعله المعلوم المعين لازم للعلم بذلك الفاعل فذكر اللزم وهو حذف الفاعل وبناء فعله للمجهول وأراد المألوم وهو العلم بذلك الفاعل فكانه يقول إن الفاعل معلوم معين لا حاجة لذكره ، ومن هذا تعلم أن حذف الفاعل هنا وبناء الفعل للمجهول يدل على معنى عظيم وهو أن فاعل هذا الأمر هو وحده التقدير على فعله فلا

سبيل الى تقدير غيره أليته ، ومن ذا الذي يقدر على إيجاد ذلك الفعل الهائل سوى الله الذي لا يمجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وكذلك الحال في قوله تعالى (وقضى الأمر) فإن المراد هنا ما وعد الله به نوحا من إغراق الكافرين من قومه وإبادتهم جميعا ، ومعنى قضى أنجز ، فهو يقول وأنجز الله ما وعد به نوحا من إغراق قومه وإبادتهم ، فبنى الفعل للمفعول للدلالة على أن التفاعل يختص بذلك الفعل وحده على الوجه الذي بيناه . ومثل قوله تعالى (وغيض الماء وقضى الأمر) قوله (وقيل بسدا) فإن المعنى قال الله ونحوه مما قدرناه أولا ، فبنى الفعل للمفعول وحذف التفاعل ليبدل على أنه يختص به وحده فإنه يستحيل أن يقول أحد ذلك وينفذ قوله .

أما قوله تعالى (واستوت على الجودي) فإن معنى استوت هنا استقرت كما يقال فلان استوى على السرير إذا استقر عليه ، والجودي اسم جبل بالجزيرة متصل بحبال أرمينية في نواحي ديار بكر . ويأتي فيه الخلاف الذي ذكرناه أولا من كون استواء السفينة حقيقى لا محازى . فإن الفعل مبنى للفاعل لا للمفعول . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الله قد أودع في السفينة قوة الإدراك المودعة في الانسان وأمرها بالاستواء على هذا الجبل فاستوت فتكون نسبة الاستواء اليها حقيقة لا مجازا . أما الذين يقولون إن فاعل الاستواء هو الله على أى حال فانهم يقولون إنما لم يذكر التفاعل لأنه هو وحده المختص بذلك ، وذلك كناية من تخصيص الصفة وهي الاستواء بموصوفها وهو الله تعالى كما قيل في بناء الفعل للمفعول لأن الفاعل إذا كان متيقنا دلت عليه الفرائض القطعية يصح حذفه مع بقاء الفعل على حاله كما هو الحال في بناء الفعل للمفعول بلا فرق . ومعنى قوله تعالى (وقيل بعدا للقوم الظالمين) قال الله ليهلك القوم الظالمين هلاكا لأن معنى البعد هنا الهلاك .

هذا بعض ما يتعلق بهذه الآية من علم البيان ، أما ما يتعلق بها من علم المعاني والبديع فأمره طويل يستغرق بيانه مفصلا زمنا طويلا قد تضع مع الفرصة على قراءة المجلة الذين يريدون الوقوف على أسرار الدين وحكمه من نواح أخرى ، فلذا رأينا الآن الاختصار على هذا القدر ليعلم المسلمون أن القرآن الكريم صادر من لدن حكيم خبير فلا تستطيع يد المحرفين أن تمتد اليه - ولا يستطيع أعداء الدين الاسلامي أن يتناولوا منه نبلا أو يسكيدوا له كيدا فهو محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما قال تعالى : (إنما نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

(٢) مما لا شك فيه أنه لا ينبغي لعاقل يدرك معاني القرآف الدقيقة ويفهم ترتيبها وأحكامها ويؤمن بأنه صادر من لدن حكيم خبير أن له ليتحدى به تحسول البلاغة وأذكاء العالم أن يجعل لتقصص المكذوب بالبدهة علاقة بتفسير هذه الآيات الحكيمية . فمن الاخبار

المكذوبة بذاهة ما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس من أنه قال إن أهل السفينة لحقهم من الفأر أدى خصوصا أنه كان يقرض حبال السفينة فمطس الأسد تخرج من منخره سنوران (قطان) ذكر وأنثى فأكلا الفأر إلا ما أراد الله تعالى أن يبقى منه . وهذا الخبر مكتوب بالبداهة . وذلك لأن سفينة نوح عليه السلام كانت مصنوعة على أحسن نظام وأتقنه . فإن الله تعالى قد أخبر بأنها مصنوعة بوحى من الله تعالى وإبرشاده سبحانه كما قال : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » والاعين هم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليعلموا نوحا كيف يصنع السفينة ، وليس من المعقول أن يصنعوا سفينة تقالب أمواج الطوفان الهائلة التي قال الله عنها « وهى تجري بهم فى موج كالجبال » وتكون أقل شأما من البواخر العظيمة التى نراها الآن فلا ريب فى أن هذا الخبر مكذوب من هذه الناحية ، وأيضا فإنه لا معنى لقولهم إن الهر قد خلق من عطاس الأسد فى هذا الوقت لأن جميع أنواع الحيوانات مخلوقة قبل هذا . ولو سلم هذا لكان الهر غير موجود فى عهد آدم ومن بعده . وهذا باطل بالبداهة وليت شعري كيف يتصور وجود الفأر ومله فى السفينة مع كونه غير محتاج إليه بل هو ضار بالنوع الإنسانى ولا يتصور وجود الهر .

ومن ذلك ما أخرجه أبو الشيخ أيضا أن أهل السفينة تأذوا بفضلات الطعام من بول وقائط ونحوها ، فمطس القمل تخرج من منخره خنثوران ذكر وأنثى ، فأكلا أذى أهل السفينة ولا ريب فى أن راوى هذا قد غفل عن أن السفينة لم يكن فيها محل خاص لقضاء الحاجة وذلك جهل عظيم بمعنى الآية لأن السفينة التى تصنع بالوحى ولا يكون فيها محل لقضاء حاجة الإنسان تكون ناقصة نقصا معيبا . بل لا تكون صالحة لمقابلة أمواج الطوفان ، ويظهر أن رواية هذه الأخبار قد اعتمدوا على ما ذكرى قصص الكتابيين بدون أن يتدبروا معناه وبدون أن يدركوا تقدم الصناعة ، بل رأوا السفن التى كانت فى زمانهم يحملوها عليها وصدقوا هذه الأخبار . ومن ذلك ما روى من أن إبليس تعلق بذنب الحمار فجعل نوح يحذبه وجعل إبليس يحذبه فقال نوح أدخل شيطان فدخل الحمار ودخل إبليس معه ، فلما سارت السفينة جلس إبليس فى ذنبها وأخذ يتغنى فقال له نوح ويحك من أذن لك قال أنت . قال متى . قال إذ قلت للحمار أدخل شيطان فدخلت بأذن منك . وهذا أيضا مما لا معنى له لأن إبليس لا يمتيه أن يكون فى السفينة أو يكون فى الماء ، فأننا إذا فرضناه ماديا فأننا نحرم بأن له قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، وأن له قدرة على الوسوسة فى أى ناحية من النواحي وفى أى وقت من الأوقات ولا يملك نوح عليه السلام ولا غيره من الأنبياء الحيولة بينه وبين أحد ، ولو أمكنه ذلك لمنعه من الوسوسة لقومه والوقوف فى سبيل دعوته فهذا كلام لا يمكن أن يتفق مع بلاغة القرآن وإحكامه وإتقانه . ومن ذلك ما رواه اسحق بن بشر عن زيد بن ثابت أن نوحا استعصت عليه ماعزة فدفعها فى ذنبها فأكسر ذنبها وبدت عورتها مكشوفة بخلاف النعجة فأنها امتثلت ودخلت

فسح نوح على ذنبها فستر عورتها ولعل هذا مضحك لأن المأخرة حيوان هادي لا يمكنه أن يستعمل بل يمكن حملها بسهولة ، وعلى فرض أنها استعصت فانها غير مكلفة حتى تعاقب بهذه العقوبة وعلى فرض أنها مكلفة فاذا ذنب من يأتي بعدها من هذا النوع حتى يعاقب بعقوبة غيره إن هذا شيء عجيب . ونسبته الى زيد بن ثابت وهو من مشاهير المدققين في رواية الاخبار وقد كان حجة في جمع القرآن الكريم من المضحكات المبكيات .

وأمثال هذا كثير ، ولكن يظهر أن الذين نقلوه في تفسير هذه الآيات التي خضعت لها أعناق الخول الأذكياء قد وضعوا ثقتهم العمياء في الرواية بدون نظر الى ما تدل عليه في الخارج وبدون تقدير لما يترتب عليها من أثر سيء قد يشوه جلال القرآن الكريم وعظمته ، ومن حسن الخط أن بعض المفسرين المشهورين قد نبه على ذلك فإن الأستاذ الألوسي قد نقل كثيرا من هذه الآثار ثم قال إنها تغضى الى العجب . وإنها لا يعول عليها في شيء . أما أنا فأعتقد أن ذكرها في التفسير ضار لأن بعض المفكرين الذين لم يطلعوا على أصول الدين قد يذهب بهم الوهم الى أن الدين الاسلامي مبني على هذه السخافات . مع كونه بريئا من كل ما لا ينطبق على المقول السليمة . ومشتعلها على كل ما تدل عليه الأدلة الصحيحة والبراهين القاطعة . ومن المستغرب أن تذكر أمثال هذه الآثار في تفسير الطبري مثلا بدون تنبيه على وضعها مع كونه عمدة لكثير من المفسرين : وعلى كل حال فالذي ينبغي ذكره هو ما اقتضت عليه آيات الكتاب المبين ، ولا يليق أن نعرض بغير ما يناسب النظريات الكونية والاجتماعية . فلذا سنحت للمفسر ضرورة تدعو لبيان قصة أو ذكر حادثة ، فعليه أن يرجع فيها الى نفس الكتاب والسنة الصحيحة وإلا فالخير كل الخير في عدم ذكرها .

(٣) أما كون نوح قد أمر الحيوانات الموحودة بالسفينة أن تصوم بعد نجاتهم فصامت فليس بعيدا ، لأننا قد رأينا في زماننا أن كثيرا من الحيوانات مستعدة للتعليم والادراك ، وأن بعضها قد يستخدم في مهام الأمور فينجزها على وجه كامل وسواء كان هذا الادراك من طريق الحس والمشاهدة أو من طريق قوة باطنة فإن إدراك تكليفها بالصيام ممكن ، فإيته أن يقال إن التكليف بالعبادة عادة إنما يكون لمن يدرك بفطرته كالإنسان والجن . أما البهائم فلا معنى لتكليفها بالصيام . ولكن يجاب عن ذلك بأن الغرض هاهنا ذا إنما هو إظهار الخضوع لله تعالى شكرا لما أولاهم من نعمة النجاة ، ومن المبالغة في شكره أن تعلمه الحيوانات التي لا تعقل متى أمكن إدراكها . وقد عرفت أن إدراكها ممكن لأنه قد شوهد فعلا في بعض الحيوانات المملعة ، فلا مانع من أن تصوم الحيوانات غير المملعة بطريق الإلهام معجزة لنوح عليه السلام .

وقد دلتنا بعض الحوادث في زماننا على أن بعض الحيوانات قد صامت فعلا ، فمن ذلك أن ممكة كانت في حوض مع رفيقة لها فلما ماتت رفيقتها صامت عن الطعام بنانا . وأن ثعبانا عظيما

في بعض حدائق الحيوانات قد أُضرب عن تناول الطعام وكانوا يفتدونه (بالحقن الصناعية) وغير ذلك كثير، هذا وقد بقي أن يقال ظاهر الآية يفيد العموم، وأن نوحا قد حمل في سفينته اثنين من كل نوع ذكرنا وأثنى، ولكن الظاهر المعقول أنه حمل من ذلك ما يحتاج إليه الانسان بعد نجاة السفينة، فالمراد بالعموم في الآية هذا المعنى وهو حمل كل ما يحتاج إليه النوع الانساني فلم يحمل نوح الفأر والحشرات ونحو ذلك مما لا حاجة اليه، ولا يقال أنه حملها بأمر الله تعالى لاستبقاء نوعها لأن الطوفان لم يكن عاما لجميع الجبال، وعلى فرض أنه عام فإن هلاكها لا يترتب عليه عدم إعادة خلقها، لأن الإله الذي خلقها أولا من موادها قادر على إعادة خلقها في أي وقت وهو الخلاق العظيم.

عبد الرحمن الجزيري

سقطات الأدباء

دخل جرير الشاعر المشهور على عبد الملك بن مروان بعد ما منعه من الدخول عليه كراهة فيه، فأشده :

انصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم قومك بالروح
فقال له عبد الملك : بل فؤادك، فحصر جرير وخرج خائبا .

وخاصم رجل خالد بن صفوان وكان قد كف بصره، فترافعا الى بلال بن أبي بردة، وكان أميراً للكوفة وقاضيا لها، ف قضى على خالد . فلما خرج وجلس الى ناحية مربه مركب، فسأل من صاحبه فقالوا له : هذا مركب بلال، فقام خالد وهو يقول :

سحابة صيف عن قليل تَفْشَع .

فسمعه بلال، فقال له : والله لا تفشع حتى يصيبك منها شروب برد، ثم أمر به فضرب مائتي سوط، وأمر بحبسه . فقال له خالد : علام تفعل بي هذا ولم أجن جناية ؟

فأحابه بلال بخبرك بذلك باب مصمت، وأفباد فقال، وقِيم يقال له حفص .

فلما نكب بلال وأحضر أمام مامل هشام في قيوده كان خالد جالسا حده، فقال له : الحمد لله الذي أذل سلطانك، وهذ أركانك . فقال له بلال : يا خالد إنما استطلت على بثلاث : الأمير عليك مقبل وعنى معرض، وأنت طليق وأنا عان، وأنت في وطنك وأنا غريب فأخلمه .

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٧ —

على بن أبي طالب

أتينا في كلمة طابرة بصورة بحلة من حياة أمير المؤمنين « علي » رضي الله عنه في مبتدأ أمره وعهد صباه حتى شب عن الطوق بين أحضان الاسلام في حجر النومة ، فكان في تربيته نسيج وحده ، وفريد عصره ، تجتمع فيه من الخصال والسوانق ما لم يكن لغيره ، يقول ابن عباس : « لقد سبق لمسي رضى الله عنه سوانق لو أن سابقة منها قسمت على الناس لوسمهم خيرا . » كانت له خصال ضواري قواطع سطوة في المشيرة ، وصهر بالرسول ، وعلم بالترديد ، وفقه في الأويل ، وصبر عند الزوال ومقاومة الأبطال ، وكان ألد إذا أعصل ذا رأى إذا أشكل ، ويروى البيهقي في المحاسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أم سلمة بنت أبي أمية إذ أقبل علي عليه السلام يريد الحول على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمقر نقرا خفيضا فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم تفره ، فقال : يا أم سلمة فومى فافتحت الباب ، فقالت : يا رسول الله من هذا الذي يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسن ومعاصي ؟ فقال : يا أم سلمة إن طاعتى طاعة الله جل وعز ، قال « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » فومى يا أم سلمة فإن بالباب رجلا ليس بالخرق ولا التزيق ولا بالمعجل في أمره يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله يا أم سلمة إنه إن تفتحن الباب له هل يدخل حتى يخفى عليه الوطء ، فلم يدخل حتى فأتى به وخفى عليه الوطء ، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل فلم على النبي عليه الصلاة والسلام فرد عليه السلام وقال : يا أم سلمة هل تعرفين هذا ؟ قالت نعم ، هذا علي بن أبي طالب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم هذا علي سبط لحمي ودمي بدمي ، وهو مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، يا أم سلمة هذا علي سيد مبجل مؤمل المسلمين وأمير المؤمنين وموضع سرى وعلى وبأبي الذي يؤوى اليه ، وهو الوصي على أهل بيتي وعلى الأخيار من أمتي ، وهو أخي في الدنيا والآخرة وهو مني في السناء الأعلى .

هذه خصائص من الفضائل وفواضل من المزايا لم تكن لاحد من المسلمين ، تفردها أبو حسن كرم الله وجهه فجعلت منه شخصية إسلامية صريحة تدور مع الحق حيث دار ، لا تعرف الخافلة ولا المداهنة في نسج السياسة وحولك الدهاء ، وهو يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث الى قريش في شأنه فقال : « والله لبيعتن الله عليكم رجلا منكم قد امتحن الله قلبه للايمان يضرب رقابتكم على الدنيا ، فقال أبو بكر أنا هو يا رسول الله ، قال .

لا ، فقال عمر . أنا هو يا رسول الله ، قال : لا ، ولكنه خاضع النعل ، وأنا أخضف نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتنحان الله قلب المؤمن للإيمان تخليص له من عوارض الدنيا ، وتقرب من شواغل الحيل والمواريث ، وإقامته بالحكمة والتسامي عن غرور الأباطيل ، وهذا ما كان أظهر صفات أبي تراب كرم الله وجهه في حياته منذ عقده الزم من لواء الرحولة ، ووضع في يده زمام بطولة الاسلام .

كانت المحرة الى المدينة فتح الفتوح على الاسلام والمسلمين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكذب يستقر بأصحابه من المهاجرين بين أنصاره من اليتريين حتى لحق به علي في أهل بيته ، وهذا تبدأ حياة الاسلام تستقبل من التاريخ وجهها جديدا تشرق من حبيبه شمس العزة والنخوة والبطولة ، فالمسلمون المستضعفون في مكة يقفون في وجهه قريش مناضلين بالسيف لحماية دعوتهم ، والدفاع عن حوزتهم ، وتستمر الحرب في بدر وتتعلى بطولة علي رضي الله عنه في صولاته طالبا لها هجمات صناديد قريش ، وتقول الرواية إن نصف قتلى بدر — وكانوا سبعين — إنما سالت نفوسهم على شفرات سيفه ، وفي غزوة أحد امتحن الله المسلمين فطارت أنفوس الكثرة شعاعا وتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يثبت معه إلا نفر فدوه بأنفسهم ، وكان نطل الاسلام على فارصهم ، فلم يزل يصول حتى فرج عن نبي الله ونحاجز الناس ، ومادت الى المؤمنين قلوبهم ، وفي غزوة الخندق اشتد على الناس الحصار ، وملوا الانتظار فاقتمع قرم العرب « عمرو بن ود » الخندق يطلب الى المسلمين المبارزة ، وعلى يومئذ شهاب ، وعمرو بن ود هو من هو في أبطال العرب وشجعانهم ، فبرز إليه على وصارعه حتى صرعه فتمس المسلمون الصعداء ، وفي هذا تقول أخت عمرو توثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبدا ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البسلة

وقد فتح الله على يديه حصون خير ، وفي هذه الغزوة المظفرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » ولم يعرف التاريخ أنه تخلف عن غزوة غراها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى « تبوك » فقد خلفه زمها رسول الله على المدينة وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » والحديث عن شجاعته لا ينتهي الى غاية ، وهو كما يقول في نفسه : « والله لا ين أبي طالب آنس بالموث من الطفل بشدي أمه » .

ظل أبو الحسن كرم الله وجهه يحمي راية الجهاد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتم الله على المسلمين نعمته وأكمل لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وبدلهم من إهدم خوفهم أمنا ، وقتلهم كثرة وعزة ، واحنار نبيه الى الرفيق الأعلى ، فاجتمع الناس بعد محنة طائفة على بيعة

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وتختلف عنها على وتفر من الهاشميين لأنهم كانوا يرون أن علياً أحق بإمامة المسلمين لما اختاره في الإسلام وقرآته وصهره من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه كرم الله وجهه لما رأى إجماع الناس على بيعة الصديق الأكرم بعث إليه أن أقل إلينا فأقبل أبو بكر حتى دخل عليه بيته وعنده النفر من بني هاشم ، فحمد الله على وثني عليه ثم قال : «أما بعد ، يا أبا بكر ، فإنه لم يمتعنا أن بابيك إسماعيل نفضيلتك ولا نفاسة عليك ، ولكننا كما نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً ، وموعدهك غدا في المسجد الجامع إن شاء الله » هذا مذهب جماعة من السلف ، روى عن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أنه قال : «كان إياس بن معاوية في صديقا فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وعنده جماعة من قريش يتدأكرون السلف ففضل قوم بأبي بكر ، وقوم ممره وآخرون عليا رضي الله عنهم أجمعين ، فقال إياس : إن عليا رحمه الله كان يرى أنه أحق الناس بالأمر ، فما بايع الناس بأبكر ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه وأن ذلك قد أصلح العامة اشترى صلاح العامة بقبض رأي الخاصة — يعني بني هاشم — ثم ولي ممر ففعل مثل ذلك به وبثمان رضي الله عنه ، فلما قتل عثمان رحمه الله واختلف الناس وفسدت الخاصة والعامة وجد أعوانا فقام بالحق ودعا إليه » .

ودهب جماعة آخرون إلى أن علياً لم ينتفع في بيعة أبي بكر ورأى أن تقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة وهو يرى مكان الهاشميين عامة وعلى خاصة مرجح لتقديم الصديق بالإمامة الكبرى ، وهم يسندون مذهبهم بما يروون عن علي كرم الله وجهه أنه لما فرغ من قتال أهل الجمل دخل عليه عبد الله بن الكواء وقيس بن عباد اليشكري فقالا : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرك هذا الذي صرت ، يضرب الناس بعضهم رقاب بعض أريأ رأيت حين تفرقت الأمة واختلقت الدعوة ، فإن كان رأيا رأيت أجباك في رأيك ، وإن كان عهد عهده اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانت الموثوق به المأمون فيما حدثت عنه ؟ فقال : « والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ، أما أن يكون عندي عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فلا ، والله لو كان عندي ما تركت أخاتم وعدي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يقتل قتلا ولم يمت جفاة ولكنه مرض ليالي وأياما ، فأنه بلال ليؤذنه بالصلاة فيقول إيت أبا بكر وهو يرى مكانى فلما قبض صلى الله عليه وسلم فطرنا في الأمر فاذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين قرصينا لدينا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا ، فوليأ أمورنا أبا بكر ، فأقام بين أظهرنا الكلمة واحدة والدين جامع لا يختلف منا اثنان ولا يشهد منا أحد على أحد بالشرك ، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغراني وأضرب الحدود بين يدي بسبي وسوطي على كراهة منه لها - الخلافة - وود أبو بكر لو أن واحدا ما يكفيه ، فلما حضرت أبا بكر رحمه

الله الوفاة ظننت أنه لا يعدل عنى لقرايى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابقتى وفضلى . فظن أبو بكر أن عمر أقوى منى عليها ، ولو كانت اثره لآثر بها ولده فولى عمر على كراهة كثير من أصحابه فكنت فيمن رضى لا فيمن كره ، فوالله ما خرج عمر من الدنيا حتى رضى به من كان كرهه ، فأقام عمر رحمه الله بين أظهرنا الكلمة واحدة والأمـر واحد ، لا يختلف عليه منا اثنين فكنت آخذ إذا أعطانى وأغرو إذا أغزاني وأضرب الحدود بين يديه بسوطى وسبقى أتبع أثره اتباع الفصيل أمه ، لا يعدل عن سبيل صاحبيه ولا يجحد عن سقتهما ، فلما حضرت عمر الوفاة ظننت أنه لا يعدل عنى لقرايى وسابقتى وفضلى ، فظن عمر أنه إن استخلف خليفة وعمل بخطيئة لحقته فى قبره فأخرج منها ولده وأهل بيته وجعلها شورى فى ستة رهط منهم عبد الرحمن بن عوف ، فقال : هل لكم أن أدع لكم نصيبى على أن أختار الله ورسوله قلنا نعم فأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاء وأخذنا ميثاقه على أن يختار الله ورسوله فوقع اختياره على عثمان رضى الله عنه ، فظفرت فاذا طاعنى قد سبقت بيعتى ، وإذا ميثاقى قد أخذ لغيرى فاتبعت عثمان وأديت إليه حقه على أثره منه وتقصير عن سنة صاحبيه ، فلما قتل عثمان رضى الله عنه نظرت فكنت أحق بها من جميع الناس .

وهذا الحديث عندنا أرفع رتب أحاديث التاريخ فى هذا الماذق ، فان فيه ضروباً من الآيات الدالة على صفاء طوية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وتجاوبهم عن التنازع لأمر من الدنيا وهذا أدنى الى سيرم الطاهرة وتربيتهم النبيلة ، ففيه « أولاً » أن بيعة أبى بكر لم تكن فلتة كما يزعم مؤرخو الشيعة ومن أخذ عنهم ، بل كانت قائمة على أساس الشورى المطلقة وأنها تمت باختيار المسلمين ، وم الذين ولوه أمر الأمة ، وأن الصديق كان لها كارها ولكنه رضى واحتمل نزولاً على إرادة الأمة ، وفيه « ثانياً » أن علياً رضى الله عنه لم يخرج فى نفسه بالنسبة لأبى بكر ما اختلج فيها بالنسبة لعمر من ظنه أحقيته بالخلافة منه لسابقته وقرايته لأن أبا بكر قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمامة الدين فى أهم أركانه ، فرضيه المسلمون للدنيا أخذاً بإشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه « ثالثاً » أن علياً كرم الله وجهه كان أصح الناس عقيدة فى إخلاص أبى بكر وعمر وصحبهما لله وللرسول ، فهو بمنحج لأبى بكر فى توليته عمر بأربع حجة فيقول : « ولو كانت أثره لآثر بها ولده » ، وبمنحج لعمر فى جعل الأمر شورى بين ستة رهط بأنه « ظن أنه إن استخلف خليفة فعلم بخطيئة لحقته فى قبره فأخرج منها ولده وأهل بيته » .

بائع على لأبى بكر طواعية فأخلص له النصيحة ، ووازره أصدق موازنة حتى عهد بها الصديق الى الفاروق فكان أبو تراب كرم الله وجهه وزير صدق لآلئ الخطاب ومستشاراً أميناً رضى عنه وعن خلافته ، ومدحه وأثنى على أيامه فقال : « لله جلاد قلائد — يعنى عمر —

فقد قوم الآود ودارى العمدة ، خلف الفتنة ، وأقام السنة ، ذهب نقي الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى إلى الله طاعته ، واتقاه بحقه ، رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدى فيها الضال ، ولا يستيقن المهتدى .

وكان عمر رضى الله عنه يعرف لملى كرم الله وجهه قدره في علمه وفضله وقرائه ، وكان يقول : « لا نعت لمعضلة ليس لها أبو حسن » ويقول : « لا يغني أحد بالمسجد وعلى حاضر » ولما دخل على عمر في طعنته التي مات فيها قال له عمر : « أعن ملاً منكم ورضى كان هذا ؟ » فقال على : « ما كانت عن ملاً منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا في عمرك » ولما وصح عمر الأمر في يد رجال الشورى قالوا له قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به ، فذكرهم جميعاً حتى جاء إلى على رحمه الله فقال : « وما يعنني منك يا على إلا حرصك عليها وإنك أخرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم ، ولعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وقرابتك وشرfk من رسول الله ، وما آذاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفونك ، فإن وليت هذا الأمر فأتى الله يا على فيه ، ولا تحمل أحداً من بني هاشم على وقاب الناس »

اتهمت الشورى إلى بيعة عثمان رضى الله عنه ، فسلم على واتبع وأخلص إيثارا لصالح الأمة وفراراً من الفرقة ، وفي ذلك يقول : « لقد علمت أنى أحق بها من غيرى ، ووالله لأسمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا على خاصة القساس لأجر ذلك وفصله ، وزهداً فيما تنافستوه من زخرفه وزبحه » وقد حدثت بعد ذلك أحداث أسكر الناس فيها على عثمان رضى الله عنه ، فاجتمعوا إلى على كرم الله وجهه وسألوه مخاطبة عثمان واستمئابه لهم فدخل عليه فقال : « إن الناس ورائى وقد استسفرونى بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ؟ ما أعرف شيئاً تحبسه ، ولا أدلك على شيء لا تعرفه ، إنك لتعلم ما تعلم ، ما سئمتك إلى شيء فتضرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلضكه ، وقد رأيت كباراً وبسماً كما سمعنا وصحبت رسول الله كما صحبنا ، وما ابن أبى قحافة ولا ابن الخطاب أولى بعمل الحق منك ، وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيعة رحم منهما ، وقد نلت من صهره ما لم ينال ، فإله الله في نفسك ، فإليك والله ما تبصر من همى ولا تعلم من جمل ، وإن الطرق لواضحة ، وإن أعلام الدين لقائمة ، وإنى أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقنول ؟ فإله كان يقال : يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أموراً عليها ويثبت الفتن عليها فلا يبصرون الحق من الباطل ، يعرجون فيها موجاً ، ويعرجون فيها مرجاً ، فلا تكونن لمرؤان سيطرة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر ؟ ! »

صالح إبراهيم همدان

التجديد في الاسلام

— ٦ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »
حديث نبوي شريف

المجددون في الاسلام

في القرن الثاني الهجري

الائمة المجددون الارسة : المأمون ، علي الرضا ، اللؤلؤي ، أشهب ، الحضرمي ،
ابن معين ، الكرخي .

١ — لماذا ندوس المجددين ؟

للأمم الراقية ولع شديد ، وعناية كبيرة بدراسة مجديها وزمائها وعظماؤها ، وقد لا تكتفي في دراسة أحدهم بوضع مؤلف واحد ، بل قد تضع في حياته المؤلفات مابين موحزة ومطولة ، وما كانت هذه الدراسة من باب اللهو واللعب والتسلية ، ولكنها من باب الجد والنفع والفائدة الكبرى ، ومن ضروب التربية والتعليم التي لها من الأثر العظيم في حياة الأمم والشعوب ، وفي توجيه الأفراد خصوصا الناشئين مالها ، فدراسة المجددين والزعماء والعظماء من النواحي الخفية التي يجب الاتجاه إليها ، والعناية بها ، بل هي من أنفع ما يدرس وأفضل ، ولقد بوه المجددين كثير من المؤلفين ، فقال العلامة الدكتور جوستاف لوبون : « يرجع الفصل في الرقي الذي وصلت اليه العلوم والفنون والصناعات وجميع فروع الحضارة الى ملائكة المجددين ، وإما لمدينون لهذا الرهط بكل رقي وفصل ، إن مقدرة الأمة كلها تجتمع في هذه الطائفة من الرجال المتارين ، حتى إننا إذا أخرحناهم من كل حبل سقط مستوى الأمة العقلي سقوطا كبيرا . ومع كون المجموع منتقما بهذا الفضل وهذا الرقي ، فإن الناس لا يرتاحون مادة للتفوق عليهم ، وإن كان النبوغ آتيا من بينهم ، لهذا ذهب كبار العلماء ، وعظماء المفكرين ، ومن البهم صحية غضب قومهم في غالب الأحيان ، وما درى القوم أن غرس الأجيال السالفة ، وثمره ماضيها ، إنما تنمو في بستان هذه العقول السانفة ، التي هي قطوفها الداية ، أولئك المجددون هم مجدد الأمم ، وكل فرد من أفرادها ينتفع بهم ، ويعتز بشأنهم ، لأنهم لا يوجدون اتفاقا ، ولكنهم ثمرة الماضي الطويل ، فهم تمثل عظمة عصرهم ، ومكانة أمتهم ، وكل من يساعد على نشر علومهم ، وانشاق أزهارهم ، فأنما يساعد على انتشار الرقي الذي تستفيد منه الإنسانية » .

ومن هذا يتبين الأثر الكبير الذي تتركه دراسة المجددين بصفة كونهم مثلاً علياً في نفوس دارسيهم خصوصاً في نفوس الناشئين ؛ ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا الطموح آخذاً على نفوس الدارسين كل مأخذ ، لأنهم يرون أمامهم مثلاً علياً يحثون السير للوصول إليها مهما كلفهم هذا من جهود وجهاد ؛ وقد فرغ العلماء من دراسة قيمة المثل العليا ، وتأثيرها في النفوس ، وقادتها في حياة الدارسين والقارئ ، حتى إنها أصبحت الآن في هداد البدهيات ؛ لذلك تقتصر في هذا الموضوع على هذه الكلمة الموجزة ، وننتقل إلى دراسة المجددين في القرن الثاني الهجري ؛ وتقتصر هذا المقال على دراسة المأمون .

٢ - من هو المأمون ؟

هو عبد الله المأمون ، بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين ، عهده الاسلام من أول الأمر في القرن الثاني الهجري كما قال الخافظ ابن الأثير ؛ عالم بنى العباس ، وحكيمهم ، ومن أحلمهم ، وأعدلهم ، وأستغمام يدا ، وأتمتعهم نفساً ، وأفضلهم مروءة وسؤددا ، وأنبلم أخلاقاً ، وأجلهم حزماً وعزماً ، ورأياً ودهاء وحسن سياسة ، وهيبة وشجاعة ، وعلو همة ؛ بل كان يفضل الناس بعقله وكلمه ، ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته ، وكثرة فضائله ، حتى قال يحيى بن أكرم - يا أمير المؤمنين ، إن ذكرنا السخاء فانت فوق حاتم في جوده ، وإن ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في لهجته ، وإن ذكرنا الوفاء كنت أوفى من السمور ، أو ذكرنا الأيثار كنت فوق كعب بن مامة في إثاره على نفسه . وقال الرشيد : في المأمون حزم المنصور ونسك المهدي ، وعزة الهادي .

علمه ودكاؤه :

توارث الإنباء أن المأمون كان آية في الدكاء ، وسرعة الخاطر ، وشدة الحفظ ، كما كان واسع الاطلاع ، محيط بكل فن ، غاية في كل علم ؛ قال يحيى بن أكرم ، يا أمير المؤمنين : إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم والفلك كنت هرمس في حسابه ، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه .

وقال الأنماطي : تفدينا يوماً مع المأمون ، فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة نوع من أنواع الطعام ؛ وكلما وضع نوع يقول : هذا نافع لكذا ، ضار لكذا ، فمن كان منك صاحب دم فليجنب هذا ، ومن كان منك صاحب صفراء فليأكل من هذا ، حتى أتى على فوائد جميع أنواع الاطعمة ومضارها بالنسبة لأصحاب الامزجة على اختلاف أنواعها . وعلى الجملة فقد كان المأمون يحفظ القرآن الكريم كله ، كما كان يحفظ كثيراً من الحديث الشريف ، وقد برع في اللغة والأدب ، والفقه ، والأخبار ، والفلسفة وعلم الفلك والنجوم ، وعقائد الأمم الفائرة وآدابها ، وغير ذلك .

وبما يدل على ذكائه وإحاطته بالفقه والموارث إحاطة تامة ، أن امرأة شكت إليه فقالت :
يا أمير المؤمنين ، مات أخي ، خلف ستائة دينار ، فحكم لي القاضي بدينار واحد . فقال لها
المأمون : هذا نصيبك . قالت : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : الرجل خلف بنتين ،
والدة ، وزوجة ، واثني عشر أخا . قالت : نعم . قال : فلتنتين الثلثان : أربعائة . وللوالدة
السدس : مائة . وللزوجة الثلث : خمسة وسبعون . ولكل أخ ديناران ، ولك دينار واحد .
وكان شعار المأمون في طلب العلم والاشتغال به كلمته الشهية : « لا زهرة في الدنيا ألد من
النظر في عقول الرجال » .

عذله وزأهته :

من غرائز المأمون حبه العدل ، وأحده الحق للضعيف من القوي ، وعدم المحاباة ، ولا
أدل على هذا من أنه جلس يوما للمظالم ، فكان آخر من تقدم إليه وقد تم بالقيام امرأة عليها
ثياب رثة ، فوفقت بين يديه وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : وعليك السلام
يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فأنشدته شعرا ضمنته شكواها ، فأمرها بإحضار خصمها يوم
الانقضاء لمجلس الحكم . فلما كان يوم الأحد ، انعقد المجلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك
المرأة ، فقال لها : أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على شمالك ، وأومأت الى ابنه العباس ،
فأجلسه معها بمجلس الخصوم ، فأحدا يترافقان ، وكان كلامها يعاود كلام العباس ، فقال لها
بعض الحاضرين : إنك بين يدي أمير المؤمنين تسكمين ابنه فأحفضي من صوتك ، فقال
المأمون : دعها قالت الحق أنطقها وأحرسه ، ثم بعد صمغ شكايها قضى لها وعاقب ابنه
العباس .

وقال يحيى بن أكرم : كنت أمشي يوما مع المأمون في بستان موسى ، في ميدان البستان
والشمس على وهو في الظل ، فلما رجعنا قال لي : كن الآن أنت في الظل ، فأبيت عليه ذلك .
فقال : أول العدل أن يعدل الملك في بطانته ، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ الى الطبقة السفلى .
رفقه وتواضعه وأدبه العالي :

كان في المأمون من الأدب العالي ، والتواضع الجب ، وحسن المعاشرة والحلم ، والنفاذ
والرفق بالناس خصوصا ببطانته وخدمه ما نصوره الوقائع الآتية :
قال يحيى بن أكرم : بت ليلة عند المأمون ، فعمشت في جوف الليل ، فقمعت لأشرب ماء
فرأني المأمون فقال : مالك لاتنام يا يحيى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين أنا والله عطشان ، قال :
ارجع الى موضعك ، فقام الى البرادة وجاء في ككوز ماء ، وقام على رأسي فقال : اشرب يا يحيى ،
فقلت : يا أمير المؤمنين ، هلا وصيف أو وصيفة ؟ فقال : إنهم نيام . قلت : فأنأ أقوم
للشرب . فقال لي : لئوم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وقال يحيى أيضا : ما رأيت أكرم من المأمون ، مت عنده ليلة فعمطش وقد نأنا ، فكره أن يصبح بالغلمان ، فأنتبه - وكنت منقبها - فرأيت قد قام يحشي قليلا قليلا إلى البرادة ويبنه وبينها بعيد حتى شرب ورجع . . وأخذ سعال ، فأخذ يسد فاه بكم قبضه حتى لا أستيقظ . وقال ابن صالح : كنا نتحدث عند المأمون حتى ذهب من الليل ما ذهب ، فطنى السراج ، ونام القيم الذي كان يصلح السراج ، فدعاه فلم يجبه - وكان نائما - فقالت : يا أمير المؤمنين أصلحه أنا ، فقال لا ، وقام هو فأصلحه ، ثم استيقظ الخادم فظننت أنه يعافيه لأنه كان يتأديه وهو نائم فلا يجيبه . قال : فتمجبت أنا من هذا . وصمعت المأمون يقول : ربما أكون في المتوضأ فيشتمونني ، أو يفترون علي ، ولا يدرون أرى أسمع ، فأغفو عنهم .

وقال محمد بن البواب : كان المأمون يحلم حتى يفيظنا في بعض الأحيان من حلمه . جلس يوما على دجلة من بغداد ونحن قيام بين يديه ، فر ملاح وهو يقول بأعلى صوته : أنظنون أن هذا المأمون ينزل في عيني . قال : فوالله ما زاد علي أن تبسم ، وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل ؟ ! !

بصره بالشعر ومهارته في نقده :

قال ابن أبي حفصة الشاعر لمهارة بن عقيل : أعلمت أن أمير المؤمنين لا يبصر الشعر ؟ فقلت : من يكون أعلم منه ؟ والله إنا لنشد أول البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون ممعنه . فقال ابن أبي حفصة : إني أنشدته بيتا أنجذت فيه ، فلم أره تحرك له ، وهذا هو البيت فاسمعه :

أصحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والساس بالدنيا مشاعيل

فقال له صمارة : ما زدت علي أن جعلت أمير المؤمنين محوزا في محرابها ، وفي يدها سحرة فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كانت مغضولا عنها ، وهو المطوق لها ، ألا قلت كما قال جرير لعبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مصيب نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

محافظته على الدين ومماقبته من محبة :

ومما يدل على محافظة المأمون على الدين ، ومهارته في نقد الشعر أيضا ما قصته محمد بن علي قال : كنا مع أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، ففنى علوية بقول الشاعر .

برئت من الاسلام إن كان ذا الذي أتاك به الواضون عني كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سرية إلى تواقصوا بالخميمة واحتالوا

فقال المأمون : يا علوية ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي . قال : أي قاض ويحك ؟ قال : قاضي دمشق . فقال : يا أبا إسحق ، اعزله . قال : قد عزلته . قال : فيحضر الساعة . قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير . فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان . قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله . فقال : يا علوية أشده الشعر ، فأشده . فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساء طوالتي ، وكل ما يملك في سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة ، لا في زهد أو معاتبة صديق . فقال : يا أبا إسحق ، اعزله فما كنت لأولى رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الاسلام . ثم قال : يا علوية ، لا تقل برئت من الاسلام ، ولكن قل :

حرمت مناهي منك إن كان ذا الذي أنالك به الواشوش عني كما قالوا

فانظر الى المأمون كيف يحافظ على الدين ، ويساقب قاضيا بالمزل ، لأنه لم يحسن التعبير في كلمة قالها تتعلق بالدين ، ويقول : ما كنت لأولى رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الاسلام .

تجديده .

يطول بنا القول إذا ذكرنا كل ما قام به المأمون من تجديد ، ولكننا نذكر شيئا منه على سبيل المثال : فن تجديد المأمون أنه أول من اهتم بقياس درجة من دوائر نصف النهار توصلا لتقرير مساحة الأرض ، وهو عمل خطير لم يتيسر للأوروبيين إلا بعد زهاء تسعمائة سنة . ومنه أنه أول من أسس دار كتب عامة في الاسلام ، وسماها : « بيت الحكمة » . ومنه أنه أول من أسس مجمعا علميا للعلوم وسماها دار العلم . ومنه أنه نقل كتب الأوائل الى اللغة العربية ، وصحح أغلاطها .

كلماته :

للمأمون من درر الكلمات ، وبدائع الحكم ما يجدر حفظه والتأمل به ، ومن ذلك قوله :

(١) الناس ثلاثة : غفهاء لا يد منه ، ودواء يحتاج إليه في حال المرض ، وداء مكروه على كل حال . (٢) وقوله : أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل . (٣) وقوله : ما فتقني علي في الخلافة فتق ، إلا وجدت سببه جور المال . (٤) وقوله : لو عرف الناس حبي لحنوا ، لتقربوا اليّ بالذنوب . (٥) وقوله : غلبة الحجة ، أحب اليّ من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها ، وغلبة الحجة لا يزولها شيء . (٦) وقوله : معاوية بمره ، وعبد الملك بن مروان بحجابه ، وأنا بنفسي . (٧) وقوله : لا نزعة في الدنيا ألد من النظر في عقول الرجال . (٨) وقوله : لؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه . (٩) وقوله : الناس

على طبقات ثلاث : ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ؛ فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمساكنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه .

رق الدولة في عهده :

ولقد ملئت الدولة في عهده شأواً بميدا من العمران والعرفان ، فقد وسع نطاقها بفتوحات جديدة ، وفوى ثمرورها ، وحصنها ، وشيد قلاعها ، وأحكمها وأنشأ لها السفن في البحار ، ونشط أهل الصناعة والزراعة والتجارة وأجرى العدل بين الجميع ، فرتعوا في بحبوحة الهناء .
تاريخه العلمي :

ولقد صرف المأمون همه في رفع منار العلوم والمعارف ، واستكمال النهضة العلمية التي أحيها المنصور ، ومن أتى بعده ، فاستحضر لذلك العلماء المبرزين وممظهم أجايب ، وأسبغ عليهم نعمه ، وطلب إليهم أن يترجموا له علوم لغاتهم إلى اللغة العربية ، ويعملوها للأمة ؛ فانتشرت العلوم والمعارف بين أبناء البلاد ، وجدوا في تعلمها ، فاستم أن قام منهم علماء وحكام ، تصوا في تأليف الكتب وإبداع المؤلفات .

والخلاصة : أن المأمون من أكبر الخلفاء ، إن لم نقل أكبرهم ؛ وله في عظم سلطة الأمة فضل لا يحويه كراة الأعصار ، وفي إيجاد العلوم والمعارف بينها صنعة تنقل كاهلها ما تماقت الأزمان .

توفي المأمون في سنة ٢١٨ هـ تبكية أختان : السياسة والكياسة ؛ وتوأمان : العلم والتقوى ؟

السيد هفني

بلاغات العرب

قيل إن أعرابية اعترضت المنصور بطريق مكة بعد موت الصفاح فقالت له :

« يا أمير المؤمنين قد أحسن الله إليك في الحالتين ، وأعظم عليك النعم في المتزلتين : سلبك خليفة الله ، وأفادك خلافة الله ، فاحتسب عند الله ما سلك ، واشكر له ما منحك » .

ووقف أعرابي على قوم يسألهم فقال :

« يا أرباب الوجوه الصباح ، والمقول الصباح ، والصدور الصباح ، والألسن الصباح ، والمكلام الصباح ، هل فيكم من يسمع كلامي ، فيعذرني من مقامي ؟ »

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٦ —

أسلمنا لك في الكلمة السابقة أننا سنعرض في الفصول الآتية لآراء العلماء الغربيين الذين حلقوا عن الاسلام آراء حسنة بأخرى سيئة ، وقلنا لك : إننا اخترنا آراء الأستاذ « كازانوفا » لتكون مبدأ لهذا القسم ، لأن كاتبها رجل معروف في الأوساط العلمية الراقية في أوروبا من جهة ، ولأن لنا به صلة خاصة من جهة أخرى . وقد أنبأناك بأننا اعتمدنا بسط هذه الآراء ومناقشتها دون رهبة ولا تهيب ، لأننا نعلم أنه لا يتهيب بمجابهة الخصوم إلا مبطل أو ضعيف ، وقد سجلنا أن الدين يريدون من المسلمين إغلاق هذه الأبواب وتجنب تلك المجادلات لا يتفقون وروح الاسلام في شيء ، لأنهم يصورونه في صورة هيكل من زجاج رقيق يتحطم أثر قذفه بأول حجر يلقيه عليه خصم جاهل أو متمصب . وبما أننا لسنا من أولئك الضعفاء من ناحية ، ولا من الذين يتزلون بالاسلام الى دركة الضعف والارتجاف من مجابهة الخصوم من ناحية أخرى ، فقد صممنا على أن نعرض تلك الآراء الخاطئة على بساط البحث ثم نقيم الحجج على نطلاتها ، لنشهد الباحثين المحدثين على أن الاسلام دين مطلق ويرهان ، لا دين تمصب أحمق ، ولا ضيق صدر واتعمال . ولما كان لهذا الأستاذ آراء صدر بها كتابه تشهد باخلاص النبي ، ومحو نفسه ، ورفعة عقليته ، فقد صدرنا بها حديثنا منه في الكلمة السابقة ، ثم وعدنا بعرض آرائه الأخرى التي قصد إليها من رسالته والتعليق عليها في كلمة اليوم . وها نحن أولاء نوفي بوعدها فيما يلي :

إن الغاية الرئيسية التي قصد إليها « كازانوفا » من كتابه « عهد ونهاية العالم » هي إثبات أن الاسلام ، وعلى رأسه القرآن ، قد حدثت فيه بعد وفاة النبي تبديلات جوهرية قام بها خلفاؤه لأغراض في تفوسهم ، وقد حاول التدليل على صحة هذه الفكرة بأدلة ضيقة أجهد نفسه في تقويتها وتدعيمها بكل ما أوتي من علم ومقدرة على الجدل . وهاك موجزا من عبارته التي بسطها غاية وبرايمه ، حتى تتيسر لك متابعة نقاشها وإبطالها ، لأن محاولة إبطال الدعوى قبل بسطها وإصاحتها ضرب من الحماية كما يقول الامام الغزالي .

قال كازانوفا : « إنني أؤكد أن مذهب عهد الحقيقي إن لم يكن قد زيف ، فهو على الأقل ستر بأكبر العنايات ، وإن الأسباب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد هي التي حملت أبنا بكر أولا ، ثم عثمان من بعده ، على أن يمدا أيديهما الى النص المقدس بالتغيير ، وهذا التفسير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلا » .

هذه هي النظرية التي أراد إثباتها في هذه الرسالة . ومن يراهنه على صحتها ما يأتي :

(١) « إذا سلمنا بأن القرآن الحالي كله حقيقي ، فالتنا نلاحظ أنه لا يوجد فيه أي تصريح من الآراء السياسية ، ولا يقتصر على أية قاعدة تطبق على السلطة الدنيوية . ومن ذلك تنبع النتيجة الأولى التي تسود التاريخ العربي سيادة تامة ، وهي أنه نشأ (على أثر موت النبي) حزبان متعارضان أعلن أحدهما أن الامام أو السلطان قد عينه الذي ، وقد وضع هذا الحزب للامامة قواعد متينة ثابتة . وصرح الحزب الثاني أن هذه المسألة ليست مما يكثر له الدين وأنها لهذا يجب أن تعالج بمحلول دنيوية محضة . والحزب الأول من هذين الحزبين هو حزب الشيعة الذي كانت دائما حزب المعارضة بالمعنى الكامل ، والذي ضم بين دفتيه المتضايقين والتأخرين والغالبين والعصامين ، والذي اشتهر بمقائد ميتافيزيكية وتفسيكية يعتبر أكثرها أجنبيا عن العقلية العربية الخالصة ، والذي لم يستطع أن يكون حكومات ثابتة إلا بين الفرس والمغارة ، والذي لم ينتصر إلا نادرا ، والذي كان العرب يسترون أنصاره دائما خارجين على الاسلام .

غير أن هذا الحزب مع ذلك قد بقي ، وسر بقاءه هو أنه أجاب على هذا السؤال الآتي الذي لا بد من الاجابة عليه ، وهو : لماذا نرى القرآن — وهو الذي لم يقتصر على تحديد العقيدة ، بل حدد الاخلاق والحقوق وقوانين الاسرة — لم يمن أية عناية بهذا العنصر الذي ليس أقل جوهرية للمجتمع مما عني به ، وهو : النظام السيامي ؟

وعند سكوت القرآن كوحى إلهي عن هذه المسألة ، لماذا أهمل النبي معالجتها بطريقة شخصية ؟ ولماذا لم يعمل على تثبيت انتقال السلطة التي كان هو مدينا بها لنبوته والتي لم يكن أحد بعده يستطيع عقليا أن يتلقاها إلا عنه وحده ؟ لأن عمدا إذا كان إماما للعرب لم يكن كذلك لأنه كان قرشيا من أسرة كذا أو كذا ، وإنما كان إماما ، لأنه نبي . ولهذا يجب أن يكون الاعتراف بخليفته تابعا لهذا النظام عينه . وبما أن النبوة لا تتجدد بعده ، فعلى الأقل كان ينبغي أن يكون تعيين الخليفة ناشئا من مصدر نبوي .

على هذا السؤال أجاب الشيعة بجواب هو أصل مذهبهم ، وهو أن النبي لم يهمل هذه المسألة ، بل عني بها كل العناية وعين الامام الذي يخلفه .

يشير الأستاذ « كارنوا » بجواب الشيعة هذا الى رأيهم الذي نقله ابن خلدون عنهم في مقدمته في مسألة الامامة ، والذي جاء فيه ما يلي :

« ومذهبهم جميعا متفقين على أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تقوض الى نظر الامة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا

رضى الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنص من ينقلونها ويقرولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهاذة السنة ولا نقلة الشريعة (١) . قال كازانوفا بعد ذلك :
« على عكس إجابة الشيعة على هذا السؤال ، أجاب ابن خلدون (وهو في هذا الجواب يمثل آراء إجماع المسلمين) فقال :

« وشبهة الامامية في ذلك إنما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون ، وليس كذلك وإنما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ، ولو كانت من أركان الدين ، لكان شأنها شأن الصلاة ، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أب بكر في الصلاة ، ولكان يشترط كما اشترط أمر الصلاة ، واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم : ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاه لدينا دليل على أن الوصية لم تقع ، ويدل ذلك أيضا على أن أمر الامامة والمهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم . » (٢)

بعد أن أشار الأستاذ « كازانوفا » الى إجابة الشيعة على هذا السؤال ، وذكر نص إجابة ابن خلدون عليه ، علق على ذلك بقوله :

« بقي علينا نحن الذين لسنا مسلمين والذين بناء على هذا لنا الحق في أن ننظر الى مجد كرجل عبقرى عادى أن توضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الاهمية الكبرى ، فنعلم أن السبب في إهمال أمر الخلافة بسيط ، وهو أن محمدا لم يفكر في أنه سيموت وسيترك خلفاء من بعده ، بل اعتقد أن نهاية العالم قريبة ، وأنه هو سيأبدها ، وهذه العقيدة تقرب نهاية العالم مسيحية محضة ، ومحمد كان يقول عن نفسه : إنه هو نبي آخر الزمان الذي أعلن المسيح أنه سيحييه لينتم رسالته .

وهذه الفكرة كما كانت عند محمد ، كانت عند المسلمين الأولين ، وإذا كان المسلمون المتأخرون لم يهتموا أن يستيفوا غلظة كهذه من نبيهم ، فانهم لم يقلوا عن أسلافهم في الاحتفاظ في هذا الشأن بكلام له اضطروا الى أن يلووا معانيه .

هذا هو البرهان الأول الذي ساقه « كازانوفا » ليؤيد به زعمه أن النبي كان يعتقد بشيء العالم قبل موته ، وأن القرآن قد احتوى هذه العقيدة ، وأن الصحابة قد تفهوا الى هذه الورطة فدعوا أيديهم الى القرآن بالتغيير . ويتلخص هذا البرهان في أن النبي لما كان مؤمنا تمام الايمان بأن العالم لن يستمر بعد وفاته ، وأن الساعة ستقوم قبل موته ، فقد أضرب تمام الاضراب عن تعيين من يخلفه على أمر المسلمين ، لأنه لن يكون بعده - فيما يعتقد خلافة

(١) انظر صمغى ١٧٠ و ١٧١ من مقدمة ابن خلدون . (٢) انظر صمغى ١٨٤ و ١٨٥ من

ولا خلافة ، ولا مسلمون ولا كفار ، وأن النبي لم يختار أباً بكر إلا ليخلفه في الصلاة أثناء مرضه ، وأن الصحابة لما رأوا أن الشمس تشرق وتغرب ، والعالم كما هو ، والساعة لم تقم ، أدركوا أنه لا بد لهم من تلاقى هذا الأمر ، وإلا تهدم صرح الاسلام ، فبادروا الى توطيد الحالة السياسية ، وبايعوا أباً بكر مبررين بيعته باختيار النبي إياه إماماً في الصلاة . ولما سئلوا كيف أن القرآن والنبي قد أهملوا الرياسة السياسية ؟ أجابوا بأنهما قد أهملها لصغر شأنها عن شأن إمامة الصلاة التي اهتم بها النبي وعين لها أباً بكر ، ولما كانت التمييز للاعلى يقتضى بالأولوية التمييز للأدنى ، فقد صح أن يكون أبو بكر إماماً سياسياً كما كان إماماً دينياً .

ونحن نعلن أن هذه الفكرة باطلة من أساسها ، وأن ما تقدم أو ما سيحى من براهينها أوهى منها . وبما أننا لم نقدم من هذه البراهين إلا برهاناً واحداً ، فيجب أن تقصر مناقشتنا اليوم عليه إلى أن نورد البراهين الأخرى فنناقش كلا منها على حدة . وهالك منافسة برهان اليوم :

أسس « كازانوف » هذا البرهان على أساس خيالى ، وهو أن النبي لم يمن بأمر الامامة السياسية ، فهل يساعد المنطق أو أسلوب البحث الحديث هذا الأستاذ على أن يجزم بأنه ليس هناك سبب حمل النبي على إهمال أمر الامامة السياسية إلا عقيدته بفناء العالم قبل وفاته ؟ وهل مجرد الفرض الخيالى يكفى في نظر العلم الصحيح لأن يكون دليلاً ؟ ثم ألا يعلم هذا الأستاذ أنه يحتمل أن يكون هناك سبب آخر منع النبي من تعيين الامام السياسى غير عقيدته بفناء العالم ، وأن من أوليات قواعد أرسطو وفرغوريوس المنطقية قولها : « ما تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال » .

على أننا نؤكد للاستاذ وأنصاره أن هناك سبباً آخر غير عقيدة فناء العالم هو وحده الذى منع النبي من هذا التمييز ، وأن هذا السبب ليس في درجة الاحتمال ، بل في درجة اليقين الذى لا يأتبه الساطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى تؤيده الشواهد الناطقة ، والحوادث الجلية ، والتاريخ الصحيح ، والذى لا يستطيع أى واحد من أنصار « كازانوف » أن يجادل فيه ، ذلك السبب هو أن النبي أعلن منذ الساعة الأولى لبعثته الى اللحظة الأخيرة من حياته أنه رسول دينى ، وأن مهمته العليا في هذه الحياة هي إرشاد الناس الى التوحيد والاستقامة ، أما الرياسة السياسية والقيادة الحربية فهما ضرورتان من ضرورات الحياة احتملها النبي احتلالاً ، لأنه لم يكن له منهما مفر وإدأ ، فهو لم يكن طاغية أو ديكتاتوراً أو ملكاً مطلقاً حتى يعين ولى العهد من بعده ويفرضه على الأمة فرضاً ، كما كان ذلك متبعياً في الدول الأخرى ، وكما حدث في الاسلام فيما بعد .

لهذا تصرف النبي في الأمر الديني الذي يملكه ، بل الذي هو مهمته الأساسية التي جاء من أجلها وترك الإمامة السياسية لمن يعينهم أمر دنياهم من بعده .

على أي لا أدري كيف يتفق فرض الإمام على الأمة مع مبدأ الشورى الذي أمر القرآن به النبي أمراً صريحاً فقال : « وشاورهم في الأمر » ، وأمرهم شورى بينهم ، فلم يسعه إلا الخضوع والطاعة لهذا الأمر ، وقد ظهر ذلك جلياً يوم الخروج إلى غزوة (أحد) حين رأى النبي عدم الخروج ، ورأى أصحابه الخروج ، فأذعن لكثرة راضياً مغتبطاً وتركهم يخرجون بل خرج على رأسهم كأن الخروج كان رأيه الشخصي . وليست هذه الحادثة هي الوحيدة التي ظهر النبي فيها بأحلي المظاهر الدستورية ، بل هناك عشرات الحوادث من هذا النوع يعرفها من له إلمام بالسيرة النبوية .

قد يمترض أنصار (كازانوفا) على هذا الإهمال بأن النبي عني بما هو أقل شأنًا في مصالح الأمة من الخلافة ، مثل سياسة الأسرة ، فلم يكن من الطبيعي أن يعنى بالأقل ويهمل الأعظم . ولكننا نجيبهم على هذا الاعتراض المضحك بأن غاية القرآن والنبي بالأسرة تنحصر في وضع القواعد المؤدية إلى نظامها وسعادتها ، وهذه العناية لم تحرم منها سياسة الدولة في القرآن أو في السنة ، بل كان لها منها فيهما حظ عظيم ، إذ عني القرآن وضيت السنة بوضع قواعد : الشورى ، والعدالة ، والاعتدال ، والعفة ، والبشاشة ، ولين الجانب ، وكرم الخلق ، للملوك والحكام (وشاورهم في الأمر) . (وإذا حكمت بين الناس أن تحكوا بالعدل) . (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) . (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . (وإليك لعل خلق عظيم) .

كذلك غنيت السنة بإيضاح أن مسئولية الحاكم مضاعفة ولو كانت رعيته من الحيوانات (كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) . (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) .

وإذا ، فقد وضع القرآن والسنة دستور الدولة ، ولكنهما لم يعينا الملك ولا نظام الحكم الذي يجب أن تسير عليه الأمة ، بل تركا هذا التمين لمن يهمهم الأمر من رجالاتها المسؤولين ، فكأنهما أعلن أن الأمة حرة في اختيار النظام الذي يروقها والملك الذي تريده على شرط ألا تكون الأهواء ولا الأغراض الخاصة ، ولا المصالح الشخصية هي التي حملت الرعاء على اختيار نظام بعينه ، أو هي التي تدفع الملوك إلى التكالب على الحكم أو تحول بينهم وبين تحقيق العدالة والعفة والتصحیح بالمصالح الشخصية في سبيل المنفعة العامة ، فإذا رأى المسلمون أن هذه الشروط تتحقق في أي نظام من أنظمة الحكم ، فليس عليهم أي إثم ديني في أن يأخذوا به ، لأن الإسلام لا يميز القصر والاضطهاد إلا في الأحوال التي لا مفر فيها

منهما ، مثل حالات الفتن ، وفساد الانظمة الاجتماعية ، وغيبة الامس ، وسيادة الفزع ، وهذه مبادئ لا تحط من قدر الاسلام ، بل على العكس هي تشرفه وترفع من شأنه في نظر عقلاء الصاسة والاجتماعيين .

وبناء على هذا كله ، فان الذي منع النبي عن تعيين الامام هو روحه الدستوري المشيع بمبدأ الشورى ، واحترامه للمعدل ، ويقينه بأن مهمته الاساسية دينية ، وعلمه بأن الأزمان متغيرة والظروف حائلة ، وأنه لهذا يجب أن يترك أمر الناس الديني في أيديهم بعد أن يوضح مسئولياتهم ، وأن يندرم بأن تصرفاتهم محسوبة عليهم ، وليست عقيدة فناء العالم قبل موته هي التي منعتهم كما تخيل الأستاذ كارافوتا .

الى هنا لم زد على أسأ أبطلا حبيبة عقيدة فناء العالم لاهمال تعيين الامام السياسي ، وأثبتنا أن السبب هو شيء آخر غير هذه العقيدة . أما وجود هذه العقيدة قسمها عند النبي فسيبرهن على بطلانه بالأدلة القاطعة في الكلمة الآتية ، فاذا فرغنا من إبطال هذا الدليل الأول لسكارافوتا عرضنا لما أتى به بعد ذلك من أدلة ، فبسطناه وناقشناه ، حتى إذا انتهينا منه قد فناه الى الدركة الجديرة به وبأمثاله من الآراء الباطلة .

أحمد كنور محمد محبوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

ما قيل في الاستبداد بالرأى

علم الناس قاطبة أن الاستشارة في المهام أجدى على الانسان ، وأعود عليه بالفالج ، من الاستبداد بالرأى ، ولكن طائفة فضلوا عليها الاستبداد لاعتبارات خاصة . منهم القائد الاموى المشهور المهلب بن أبي صفرة ، فقد قال : « لو لم يكن في الاستبداد بالرأى إلا صون السر وتوفير العقل لوجب التمسك به » .

وقال عبد الملك بن صالح : « ما استشرت أحدا قط إلا تكبر على ونصاغت له ، ودخلته العزة ، ودخلتني الذلة ، فعليك بالاستبداد فان صاحبه جليل في العيون ، مهيب في الصدور ، وإنك متى استشرت تضعف شأنك ، ورجفت أركانك ، فأياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب ، واشتبهت لديك المسالك ، وأنشد :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤث نصحه بلسيب

نقول : لا تنهض مثل هذه الشبهات حجة لنقض ما أجمع عليه البشر من ضرورة المشاورة .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

جاء من بعض حضرات العلماء الجاويين الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى وطلبوا أن تكون الاجابة على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه :

(أولاً) هل يكفى في نية الصلاة استحضار أركان الصلاة على سبيل الاجمال ومقارنتها لأي جزء من تكبيرة الاحرام ، أو لا بد من استحضار أعمال الصلاة كلها تفصيلاً ومقارنتها لجميع تكبيرة الاحرام ؟

(ثانياً) مشرك باع ولده الحر لمسلم أو غيره ، فهل يصح هذا البيع ؟ وهل يصير هذا الولد ملكاً للمشتري ؟ وإذا لم يصح البيع فما حكم عقده ؟ وهل يجب استرداد الثمن ، وما هي أسباب الرق بالضبط ؟

المجواب

عن الأول : النية في الصلاة فرض ، ولا تصح الصلاة إلا بها ، قال الشافعى : وإذا أحرم نوى صلاته في حال التكبير لا بعده ولا قبله ، ومعنى ذلك أنه لا بد أن تكون النية مقارنة لتكبيرة الاحرام . فلو خلت تكبيرة الاحرام من النية لم تعتد الصلاة .

ومعلوم أن النية هي القصد ، ولا بد من مقصود معلوم يستحضره النಾಯ أثناء التكبير فلا بد إذاً من استحضار المنوى ومقارنته لتكبيرة الاحرام .

وقد اختار إمام الحرمين والغزالي أنه تكفى المقارنة العرفية العامة بحيث يمد مستحضر الصلاة غير غافل عنها اقتداء بالأولين في تسامحهم في ذلك .

وهذا الذى اختاره هو المختار عند النووي في مجموعه ، وعليه عمل الناس الآن .

وعلى هذا يكفى في نية الصلاة استحضار أركانها على سبيل الاجمال ومقارنتها بأى جزء من أجزاء تكبيرة الاحرام .

عن الثانى : الاسترقاق ظاهرة اجتماعية نشأت منذ ابتداء الاجتماع الانسانى ، وتروج هذه الظاهرة الى تغلب القوى على الضعيف وتسلطه عليه واستخدامه إياه .

وقد كان الرق شائعاً قبل الاسلام في جزيرة العرب ، فكان الناس يشترطون الغلمان

والفنيات من بين أهلهم ، ويذهبون بهم الى الأسواق حيث يوحّد النحاسون وسماسرة الرقيق ، وكذلك كان شائعاً قبل الاسلام فى أمتى الفرس والرومان على نحو ما كان فى جزيرة العرب أو أشد .

وكانت معاملة الأرقاء فى هذه الأمم تختلف فى القسوة واللين تبعاً لاختلاف دياناتها وتقاليدها ، إلا أن هذه المعاملة على العموم كانت قاسية جداً ، يظهر فيها سلطان القوى على الضعيف بأجلى معانيه ، بل إن الديانة الهندية القديمة المؤسّسة على تمايز الطبقات البشرية كانت تعتبر الأرقاء من الطبقة الدنيا التى تلزمها الخسة لذاتها ، ولا يمكن أن ترقى يوماً ما الى ذروة الطهارة الانسانية .

جاء الاسلام ، وسوى بين الناس جميعاً ، وأعلى الألفصل لأحد على أحد إلا بالقوى ، ولكنه وجد نظام الاسترقاق قائماً بين الأمم ومعتبراً فيها من النظم الاجتماعية المتغلغلة فى صميم الحياة ، إذ ذاك ، فلم ير من الحكمة فى التشريع أن يلغى هذا النظام إلغاء تاماً ، بل صعد الى تقرير المبادئ الآتية التى تخفف من آثار الرق وتنظيم العلاقة بين المالك والمملوك لا على أساس القسوة والضعف كما كانت فى الأمم السابقة بل على أساس المحبة والأخوة وتبادل المنافع والتعاون فى شؤون الحياة ، ولا نبألغ إذا قلنا إن مبادئ الاسلام التى شرعها فى الاسترقاق تعتبر بمثابة إلغاء الرقيق ، واليك بعضاً من هذه المبادئ :

(أولاً) ضيق الاسلام فى أسباب الرق حتى حصرها فى سبب واحد هو محاربة المشركين للاسلام وصدّهم الناس عن سبيل الله ، فأذن للمسلمين الذين يدافعون عن دينهم ويردون عنه عادية المشركين أن يضربوا الرق على من يقع فى أيديهم من أسرى هؤلاء المشركين المحاربين .

(ثانياً) لم يجعل هذا الاسترقاق ضربة لازب ولا نتيجة حتمية لمحاربة المشركين والظفر بهم ، بل جعل ذلك من قبيل نظم السياسة الحربية ، فغير الامام فى أن يلجأ الى الاسترقاق إذا رآه وسيلة من وسائل الاعزاز لدين الله وكسر شوكة المعتدين ، وفى أن يمن على الأسرى فيطلق سراهم بقضاء أو من غير قضاء .

(ثالثاً) إذا رأى الامام أن فى الاسترقاق وسيلة حرية لاعزاز الدين ودفع اعتداء المعتدين فلجأ اليه فإن الاسلام لم يترك الحبل على الغارب ولا ترك الرقيق لمشئته ماركه ورحمته يحمله من شاء الأعمال ماشاء كما كان زمن الجاهلية ، ولا جعل حظيرة الرق حظيرة أبدية لا ينسى للرقيق الخروج منها بحال ، بل عني بأمر الرقيق وأوصى المسلمين به خيراً قال الله تعالى : « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس » وقال صلى الله

عليه وسلم : « من كانت له جارية فعملها فأحسن تعليمها ثم تزوجها كان له أجران » ثم رغب في المنق ودعا الى تحرير الرقاب وجعل لمن أعتق رقبة ثوابا عند الله يعدل ثواب كثير من الطاعات بل أوجب الاسلام ببعض المعاصي تحرير رقبة كمن قتل نفسا خطأ أو أفسد صيامه فامدا أو حنت في عيئه التي عقد عليها قلبه .

وآيات القرآن العظيم وأقوال الرسول الكريم في الرفق بالزقيق والاحسان اليه في المعاملة كثيرة مشهورة .

من هذا يتبين أن ليس للرق في الاسلام إلا سبب واحد هو ما أسلفنا الاشارة اليه من محاربة المشركين واعتدائهم على المسلمين ، وأن الاستيلاء على المشركين بأى وسيلة كانت زمن السلم ومن غير محاربة وخطف الأولاد من أهلهم كما كان يعمل في الماضي ، كل ذلك لا يترتب عليه أن يكون المستولى عليهم أرقاء ولا يسوغ التصرف فيهم بحال .

وأن يبيع الرجل ولده يكون بيعا باطلا يجب منعه ويجب رد الثمن للمشتري ورد الولد الى أبيه ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الصمام

قصيدة الكرم

حاتم طي ي ضرب به المثل في الكرم ، وقد أوجز مذهبه في شعر له فقال :

أماوى قد طال النجيب والمهجر	وقد هنرتنا في طلائكم العنبر
أماوى ابن المال غاد ورائح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إنى لا أقول لساقل	إذا جاء يوما حل في مالى النسر
أماوى ما ينقى الثراء عن الثقى	إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صدائى بقفرة	من الأرض لا مال لدى ولا خر
ترى أن ما أتفتت لم يلك ضرئى	وأن يذى مما بخلت به ضرئى
أماوى ابن المال مال بذلته	فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أنى حائما	أراد ثراء المال كالف له وفر
فانى وجدى رب واحد أمة	أخفنت فلا قتل عليه ولا أمر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى	شهودا وقد أودى بأخوته الدهر
غنيما زماما بالتقصد والفضى	وكل سقانا وهو كاسينا الدهر
فازدنا ماوى على ذى قرابة	غناا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

نظرة في عالم الاحياء الدقيقة

يكشف العلم حيناً بعد حين ، عن ناحية خفية من نواحي الحياة ، تتجلى فيها القدرة الإلهية بأوضح بيان ، وتبين عظمة هذا للكون الشاسع بأروع نظام ، مما لا يجد معه العقل البشرى إلا أن يسجد لله العلى القادر ، مبدع هذه الكائنات .

فهذه الأرض التي تذب عليها ، وهذا الهواء الذي نتنفسه ، بل هذا الماء العذب الذي نشربه سائفاً مرشفاً ، وذاك الطعام الذي نتناوله شبيهاً هنيئاً ، كل ذلك يحوى أنواعاً من كائنات حية لا ترى بالعين المجردة ، تعيش وتتكاثر ، وتؤدي مهمتها في الحياة شأنها في ذلك شأن الإنسان والحيوان والنبات . وإنك إذا علمت أن بعض تلك الأحياء يبلغ حجمها ميكرون واحد أي ١ على ١٠٠٠ من المليمتر ، لأدركت هذا الحجم الضئيل المتناهى في الصغر . ولقد زدري تلك الكائنات ، فتقول : هل لهذه التواضع شأن ما في الحياة ؟ فلا جدال في أن سيأخذ منك العجب كل مأخذ ، إذا ما علمت أن تلك الأحياء الدنيئة تلعب دوراً عظيم الأثر ، جليل الخطر في هذا الكون ، وأن تلك الضائقة في الحجم ، لم تمنعها من أن تؤدي مهمتها بلشاط عجيب ، وأن تقوم بأعمال عجز الإنسان عن القيام بها ؛ وقبل أن أتيسر في شرح ماهية تلك الأعمال أحب أن أسرد طرقاً من تاريخ حياة البكتريا — المعروفة باسم الميكروبات — وهي أهم تلك الأحياء شأننا وأعظمها أثراً .

تصح أبسط أنواع الحياة في البكتريا ، لجسمها لا يزيد عن كونه خلية واحدة ، تحتوى على مادة لزجة ضرورية للحياة ، وتحاط بمجدار غشائي رقيق ؛ وبعض أنواعها أهداب رفيعة جداً تتحرك بواسطتها في السائل الذي تعيش فيه ، بيد أن البعض الآخر يتحرك بالنواء جسمه كالنمايين ، وإن الأمر الذي يذهل الفكر ، فيقف أمامه مشدوهاً متمججاً ، هو تلك السرعة الفائقة التي تتكاثر بها البكتريا ؛ فإن الميكروب وهو عبارة عن خلية واحدة ، ينقسم إلى خليتين ، وكل منهما ينقسم بدوره إلى اثنين وهكذا ، ويسمى هذا التكاثر بالانقسام البسيط ويحصل في الظروف الملائمة مرة كل ٢٠ — ٣٠ دقيقة ، وإذا استمر هذا الانقسام بدون توقف مدة يوم فقط ، تكون عدد ضخم جداً من هذه الكائنات يملأ الأرض جميعاً وتعمدرت حينئذ سبل الحياة ، ولكن تقرب إلى فكرك هذا العدد ، نذكر على سبيل المثال بكتريا الكوليرا ، فانه لو تكاثر فرد واحد فقط منها في الظروف الملائمة بالانقسام ، لبلغ عدد الأفراد التي تنتج في ٢٤ ساعة ما يقرب من : (١ كترليون و ٦٠٠ ترليون) فرد أو ما يبلغ زنته نصف مليون رطل ، فبافه عليك إذا كان هذا هو ماينتج من تكاثر فرد واحد ، فما بالك

إذا بما ينتج من تكاثر تلك الأفراد جميعا ! ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ، ومعت حكمته ، أوجد عوامل طبيعية تقف حائلا في وجه هذا التكاثر السريع ، منها تناقص المواد الغذائية ، كما أن هناك تزاوجا وصراعا بين أنواع البكتريا المختلفة ، ومع هذا فإن عددها عظيم لا يستهان به ، ويكفيك أن تعلم أنه في الحرام الواحد من التربة يوجد ٦ — ٩٠ ملايين من هذه الكائنات ، لندرك أهمية هذه الأحياء في الوجود .

قلنا إن تلك الخلية الضئيلة التي تبلغ من الحجم ١ على ١٠٠٠ من المليمتر هي كائن حي تتجلى فيها ظواهر الحياة ؛ إذا فلا غرابة في أن نجد لها تسمى في الحصول على غذاء يقوم بأودها ؛ وهي إما أن تسلك في ذلك طريقا مباشرا بأن تتطفل على أجسام الكائنات الحية ، أو تتغذى على أجسام كائنات ميتة وبذا تكون رمية . وهي تأكل الفوسفور والبوتاسيوم والكبريت والحديد والكالسيوم والمنغنسيوم ، وأما عنصري الأزوت والكربون فهما من مقومات حياتها ، وتحصل على الأزوت من البروتين ، ولهذا نجد اللحوم ممرضة دائما لغارات البكتريا ، وتحصل على الكربون من المواد العضوية ، ويمكن لعدد قليل أن يمتص ثاني أكسيد الكربون الجوي . وحياة هذه المكروبات بدون الماء مستحيلة ، إذ أن الخلية البكتيرية تحتوي على ٧٥ — ٩٨ ٪ من الماء .

وهذه الكائنات تنفس أيضا . فتأخذ الأكسجين اللازم لها من الهواء الجوي ، وأما الأنواع التي تعيش في بيئات خالية من الهواء فتتحصل على المجهود اللازم لها من تحمیل المواد العضوية .

وقد يتبادر الى الذهن أن الميكروبات — وهي متناهية في الصغر — سريعة الفناء سهلة الهلاك ، ولكن الواقع المعلوم عكس هذا : فله سبحانه وتعالى قد جبا تلك المخلوقات بمناعة غريبة وقادرة على المقاومة فريدة في بابها ، مما لو توغرت للانسان لعاش مئات السنين سليما هائلا . فالانسان منا لو منع عن الغذاء أو الماء مدة من الزمن ، لهلك وقضى وكذا الحال في الحيوان والنبات ، وأما في الميكروبات ، فانها لا تهلع ولا تحزع ، بل تحزم أمرها على المقاومة والمجادة ، فتحيط نفسها بنشاء صميح يقبها المؤثرات الخارجية ، وتبقى كذلك في حالة سكون وكون منتظرة بصبر قريب أن ترجع اليها ظروف الحياة الملائمة . ولقد بلغ من مقاومتها العجيبة . أنها تستطيع الحياة بدون غذاء عدة سنين ، بل إنها لتحييا في الهواء السائل أي في درجة ١٩٠ تحت الصفر ، وتقاوم الاقراوات السامة الى حد بعيد وتعرف في هذا الوقت بالجرثومة .

سبحانك ربى ! يشر الانسان بألم بسيط ، فاذا به يكاد يقضى فرقا ، وهذه كائنات دنيئة لا تبصرها العين ، ولا يكاد يدركها الفكر ، تعرض لبرد يقصقض الاعضاء ، ويجمد

الزئبق في المآقي ، وتجد الحمر اللاقع والعدو المهاجم ؛ فتصمد أمامها جميعا بثبات وجلد ، ما أحوج بني الانسان الى جزء منه !

هناك عدة تأثيرات طبيعية تحدثها البكتريا ، منها إنتاج اللون ، والألوان الشائعة هي اللون الأبيض والأصفر والأحمر والأرجواني ، وهذا الأخير يشاهد كثيرا في البرك والمياه الراكدية . وبعض أنواع الميكروبات يتسبب عن نموه نقط حمراء مشابهة جدا لتقطط الدم ، تظهر فجأة على الخبز واللحوم . ومن طريف المقال ، أن هذه الظاهرة الطبيعية كان لها شأن كبير لدى رجال الكنيسة في المصور الوسطى ، فلقد كان الرجل منهم يترك حبه سليا نظيفا ، ويصبح فاذا بذلك البقع الدموية تغمره ، فبهت ويتعلكه المعجب ، ويقدم زناد الفكر عن سبب هذه الدماء فلا يجد حلا إلا أن يذهب ويصيح بين الناس بأن دم المسيح قد حل في ذلك الخبز المقدس . وهكذا ساعدت الميكروبات — دون قصد منها أو علم — على رواج تلك العقائد الخرافية وتمكينها من نفوس القوم .

وهناك من الميكروبات ماله خاصية الاضاءة ، فلقد شوهدت في كثير من الأحيان أضواء مختلفة في ماء البحر وعلى أنواع من السمك ، ثبت أنها أنواع من البكتريا المضيئة المعروفة علميا باسم Phosphores cent ، وقد أمكن فعلا تربية هذه الميكروبات في بيئات صناعية ، وأمكن أن يشاهد الضوء بوضوح ، وقد افترض بعض الباحثين استعمال هذه المزارع المضيئة في حمل مصابيح خاصة تستعمل في المناجم لمنع خطر الانفجار ، ولا يزال هذا الاقتراح رهن التجربة .

نعود بعد هذا الى الكلام على أهمية الميكروبات في الطبيعة ؛ حياة النبات — وبالتالي حياة الانسان والحيوان — تتوقف على وجود هذه الكائنات في التربة ، ذلك أنها تقوم بتحضير الغذاء الصالح للنبات ، فهي تحول المادة العضوية التي لا يستطيع النبات أن يستفيد منها ، الى مادة معدنية صالحة لغذاء النبات ؛ ومن المعلوم أن عنصر الأزوت هو أهم العناصر التي يحتاج اليها النبات على الإطلاق ، وأنه لا يستطيع امتصاصه إلا على حالة أملاح ، فنجد أن البكتريا تقوم بتجهيز هذا الأزوت من المواد المعقدة التركيب لينتجى النبات من استعماله وهناك أنواع أخرى من الميكروبات لها القدرة على امتصاص الأرواح الحرة ، فبالتحاضن مع مركبات الكربون اللازوتية ، يتكون مركب البروتين الذي يتحلل بعد موت البكتريا ، فتتكون منه الأزوتات اللازمة للنبات ، أي أن البكتريا نفسها تعد مصدرا آخر للأزوت .

فيتضح لنا من هذا أن خصب الاراضي طائفة بتوقف على وجود هذه الأحياء ، وأنه إذا كانت النباتات الخضراء هي أساس الحياة ، لأنها تكون المادة العضوية من مواد غير عضوية فإن تلك الأحياء تقوم بعكس هذه العملية ، أي تحول المواد العضوية الى أخرى معدنية صالحة لغذاء النباتات .

ومن أنواع البكتريا، النوع المسمى بالبكتريا المقدية، وله القدرة على امتصاص أزوت الجو وهي تصيب جذور نباتات العائلة البقولية وتتكاثر فيها وتحدث فيها انتفاخات كثيرة تبرز الى الخارج، وتكون ما يعرف بالعقد، وتتغذى هذه البكتريا على المشويات الموجودة بالنبات وبعد موتها يمتص النبات النقول أجسامها، وبذلك يحصل على الأزوت اللازم له من الهواء الجوي عن طريق البكتريا. والنباتات البقولية تفيد الأرض التي تزرع فيها بعد أن تتحلل بقايا جذورها لأنها تزيد كمية الأزوت في التربة.

علاوة على تلك الخدمة الجليلة التي تؤديها الأحياء للنبات فإنها تقوم بعملية هامة في الطبيعة ألا وهي عملية الاختار، وإليك لتشاهد هذه العملية في أبسط مظاهرها إذا ما تركت قليلا من اللبن ممرضا لحو مدة من الزمن، فإنك ترى أن طعم اللبن قد تغير وصار أقرب الى الحموضة وارتفعت درجة حرارته، وهذا ناشئ من فعل الميكروبات في اللبن وتكاثرها فيه وتكوينها لحض يسمى حمض اللبن، فإذا تركت هذا اللبن مدة أكبر، لتحين وجمد نتيجة ترسيب أملاح الكالسيوم الموجودة به بواسطة الحض المذكور.

وعلى ذلك ففي جميع العمليات الاختيارية، يستعان بالبكتريا لإتمامها في عمل اللبن الزبادي وفي عمل الخل وغيره، لا بد من وجود أنواع معينة من الميكروبات للقيام بتلك العملية. ومن المعلوم أن الجلود تحتاج لبكتريا خاصة لا تمام عملية دبقها.

تلك هي النواحي السافعة في حياة البكتريا. وأنها لمنافع جليلة الشأن عظيمة الأهمية. أجزاها إيجازا خشية الملل والإطالة، وبقي أن نذكر كلمة صغيرة عن الأنواع الضارة وهي التي تسبب هلاك الإنسان والحيوان.

قلنا آتينا أن البكتريا وجراثيمها منتشرة بكثرة في الهواء والماء ومائقة بالأسطح المعرضة للهواء الجوي، وعلى ذلك فالكائنات حامة معرضة لهجمات هذه الميكروبات، وهي كثيرا ما تسبب أمراضا خطيرة للإنسان وتصيبه عن طريق الجلد أو القناة الهضمية أو الجهاز التنفسي، فإذا دخلت الميكروبات عن طريق حرق أو ثلم في الجلد فإنها تتكاثر بسرعة وتسبب التهابات موضعية وتفرز موادا سامة تسرى في الدم وتسبب تسمم الجسم، الأمر الذي قد يفضي الى الموت. لهذا كان من أوجب الواجب المسارعة بتعقيم الجروح التي تحدث في الجلد بمادة مطهرة مثل صبغة اليود. وتصيب الجهاز الهضمي أنواع مختلفة من الجراثيم، من أحطرها بكتريا التيفود والكوليرا وينقلها الذباب من الأظعمة الملوثة. أما الجهاز التنفسي، فهو أكثر الأعضاء تعرضا للميكروبات، وتصيبه أنواع قتالة من جراثيم السل والالتهاب الرئوي.

حقا، إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، فهذا قل من كثر، وغيب من قبض من عوالم شأنها في الحياة جليل عظيم، وأمرها عجيب غريب، خلقها الله سبحانه وتعالى رحمة

للناس والكائنات عامة ، ثم جعلها نعمة منه يصيب بها من يشاء ، ففيها خير كثير وتنع عميم ، وفيها شر مستطير وعذاب أليم .

سبحانك اللهم ولا قوة إلا بك ، هذه آياتك في الكون بينات ، ناطقة بقدرتك شاهدة بمظمتك ، مبينة لرحمتك ، مظهرة لعذابك ، يمر عليها الناس صباح مساء ولكن أكثر الناس عن آيات ربهم غافلون معرضون ! » سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

رضوانه محمد رسول الله
بكالوريوس في العلوم الزراعية

شورى الكهول والشبان

اختلف الناس في أي القبلتين أولى بأن يستشاروا : الكهول أم العيان . فآثر بعضهم الأولين ومال بعضهم إلى الآخرين . فمن حجج أصحاب المذهب الأول قول حكيم : عليكم بمشورة من حلب ضرع دهره ، ومرت عليه صروف خيره وشره ، وبلغ من العمر أشده . لذلك كان العرب يقتدون بأراء الشيوخ ، ويعتمدون في تصريف المواصل عليهم ، لما يكثر فيهم من أصالة الرأي ، وإصابة الحدس ، وصحة النظر ، مع ما منحوا من حسن الاختبار ، وصمت الوطار . ومن حجج أصحاب المذهب الثاني أن للشبان من توفد الفطنة ونشاط النفس ، وقوة الذاكرة ، ما يقصر عن مثل ما هم عليه الشيوخ .

والحقيقة أن الصواب مع أهل المذهب الأول ، فإن الأمور لا تؤخذ بالعنف ، ولا تعالج بالقوة ، والنوازل لا تدفع بالعدة ، ولا تتعاضد بالمسكافة ، ولكن الإنسان إلى عقل بصير بحسن الحياة ، وفواعل الوجود ، ونظر ثاقب بأسباب الحوادث وعواقبها ، وحكمة صحيحة يوحوه الاختاء من العوادي أو تسهيل وقمها ، أحوج منه إلى اعتداد بالنفس يخفى عليه وجوه الوصول إلى الصواب ، واعتماد على الحول يورطه للصدقات حتى تخور قواه من شدة وقمها . وهذا العقل وتلك الحنكة ثمرة لممارسة الأحداث ومعالجتها ، وهي من حظ أصحاب الأسنان المتقدمة ، لا الشبان الذين ليس لهم بتكاليف الحياة خبرة .

بين النقد والادب

تدرج الطبيعة بالانسانية في مدارج الرقي والكمال ، وتنهج بها مناهج السمو والتطور ، فتحرم على النافع وتختار الأصلح ، وتجدد دائماً ، فننقل الناس من حال الى حال ، ونخرج بهم من وضع الى وضع ، وما أداتها في هذا إلا الشخصيات العظيمة ، والنفوس الكريمة ، والارادات القوية الوثابة ، التي تحمل في أطوارها عظمة الطبيعة نفسها ، فإذا هي في أعمالها وحياتها ومواهبها رائج سامية للجنس ، وشرائع عالية للنوع ، وعوامل ماهرة بدهاء الناس من ظلمة الخول ، وحماة الانحطاط ، ومثل رفيعة تنير بروعتها في للنفوس أعمق الخواطر ، وتلهمها الانقاء والخلق والإبداع !

وما الادب في وضعه الشامل ، ومادته المتصلة بكل شيء ، إلا دنيا حافلة ، وإنسانية كاملة ، فهو — كما يقول مكسيم جوركي — مرآة الحياة تنعكس على زجاغته المصقولة ، في هدأة الحزن أو ثورة الغضب ، سائر مشا كل الحياة وشماها المترامية ، وخبوطها المشتبكة ، وصاحبها المتناثية ، كما تنعكس كذلك على أديمه الشفاف كافة رغباتنا وشهواتنا ومشاعرنا وآمالنا ، وبالاختصار هو كل ما يحيا به العالم وسائر ما يعتمل وينبض في قلوب البشر .

فدنيا الأدب هي دنيا الناس تامة كاملة ، يصورها لنا الأسلوب المهذب ، ويرسمها التعبير الفنى الجميل ، وإن النهج الذى تسلكه الطبيعة في دنيا الناس للسمو بالانسانية ، والترقى بالعالم هو هو بعينه النهج الذى يحثذيه النقد في دنيا الأدب لخدمته وصقله وتهذيبه واختيار الأصلح منه . كما تفعل الطبيعة تماماً في دنيا الناس المادية المحسوسة ، وما النقد إلا رسالة من رسالات الطبيعة وعمل من أعمالها ، فمن المعقول أن يحثذيه في مهمته ، وأن يكون على غرارها في وضعه ، فهو — على ما يجب أن يكون — إرادة قوية تكشف وتوضح ، وتختار وتميز ، وتنفى وتثبت ، وتزجر وترشد ، قد تبتز الضعيف ، وقد تحبى القوى ، وما قصدها في ذلك الى البطش والانتقام ، ولا الى المداهنة والمحاباة ، ولكنها تقصد الى صقل الخواطر وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأمسكار ، من مظاهر البساطة الاولى التي تكون للناس إذ يخرج من أحافير الأرض ، فما تزال تتمهد بها بذلك حتى تقيمها على الوجه الصحيح النافع ، فإذا هي صمو بالانسانية ، وصلة بالحياة ، ومادة للخلود ، ومبعث الروعة والجلال على مدى الدهر وطول الأيام .

والادب والنقد يرميان الى غاية واحدة ، وينعاولان في مهمة متفقة ، فالادب — كما يقول الرافعى — يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية بإضافة الصور الفكرية الجلية اليه ، ومحاولة إظهار

النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بجله النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة ، وصوله الغريزة ، وحرارة الطبع الحيواني ، والنقد من وراء الأدب في هذا كله يصحح له هذا « التقدير » من جميع جهاته ، ويسدده على طريقه القويم ، ويبدله على الصور الرائعة التي يصح أن تكون مثلاً أعلى لما نطلبه من جمال الحياة وجمال المواطن ، ومن ثم كان النقد — كما يقول شوقي — حارس الأدب ، ومكمل الكتاب والكتب ؛ ومن ثم أيضاً كان النقد أساساً لكل نهوض أدبي مشر ، فإذا مارأيت أدباً مهذباً يغمز أصحابه بالحياة ويؤدى لهم غذاء المواطن والمقول ، ويملاً نفوسهم باليقظة والحكمة والاحساس ، ويرفعهم مالياً إلى الكمال الانساني ، ثم وحت تنلس السب في ذلك فلن نجده إلا النقد ، ثم النقد ، ولا شيء غير النقد .

قال لي أديب كنت أبسط له هذا الرأي : ولكك تعلم يا صاحبي أن أهل الفن قوم خلقهم الله أحرار المواهب ، فهم يطلبون حرية الفكر ، وذلك عندهم كل شيء ، ولعلك تذكر في ذلك قول ملتون الخالد : « أعطى حرية القول ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ، ولا تعطى شيئاً غير ذلك » . والنقد إنما هو ضرب من ضروب الجبر على هذه الحرية ، وحبسها عن التخليق في سماء الفن وجو الحياة الفسيح ، ولا شك أن الفنان إذا ما فقد حريته فقد فقد عبقريته ، وتلاشت شخصيته . ثم أنت تعلم أن حياة الفن إيجاب وتقدير ، وأن الفنان في حاجة كبيرة إلى العطف والنشاء والمدد والبخور ، ولكن النقد كثيراً ما يرهق أعصاب الفنانين — وهي الدقيقة المرفهة — بصلف الاستاذية أو عنت الحزازة ، وعبث الفصول ، وكثيراً ما هوى فنانون صرعى هذا الطغيان ، أو قل هذا القوم ، وكثيراً ما أحجم كرام فصلاء عن الظهور في الميدان ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة الصارية . وهذا ما يجعلني أعتقد أن النقد حداوة للأدب ، وتهجم على كرامة الفن ، وأنه طاغية مستبد ، يهدم ويشط ، ويندفع في حبروته واستبداده لا يلوى على شيء ولا يحفل بشيء ولا يفيد في شيء . . . وهذا ما جعلني أيضاً أرتاح لصنيع ألمانيا يوم حرمت النقد الأدبي ، ووقفت به عند عرض الموصومات وبسطها دون التعليق عليها أو إبداء أي رأي فيها ؛ ولقد كان وزير الدعاية الألمانية على حق إذ يقول في بيانه الذي أصدره في ذلك الصدد : إن الفن لا يفقد شيئاً إذا ما بعد أولئك القدة الإغرار من الميدان ، إذ العظمة الرائعة تسقط من غير أن يسقطها النقد ، أما أصحاب العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الاشكار ، والاحتفاظ بكرامتهم الفنية ، ويجب أن تصان العبقرية الصحيحة من كل ما يؤذيها ويهدد لسقوطها ...

ولقد يبدو هذا الكلام طريفاً لبعض الناس ، وأذكر أنني سمعت صدهاء في ندوة أدبية ، وقرأت كلاماً بمناه في إحدى الصحف ، ولكنه في الواقع أفن من الرأي لا يصح في عقل ، ولا يستقيم في منطق ، فإن النقد ليس مصادمة لحرية الفنان في شيء ولكنه تقويم لهذه الحرية ،

وتهميد السبيل لها الى الأوج ، وتنزيه لها من العبث ، وإذا كان له أن يقف بالفنان عند حدود ، أو يلزمه بقيود ، فليست هي إلا الحدود الفنية ، والقيود التي هي معاملة ودعائم كيانه ، فإذا ما أباح لنفسه أن يتعداها وأن يستهين بها ، هان فنه ، وسقط شأنه ، كذلك القيود التي يود أن يتخلص منها بعض الناس ، من تفريط في حق اللغة ، وعدم العناية بالأسلوب والاستهانة بأوضاع العرف والأخلاق ، والتقاليد والدين .

ثم كيف بمقل أن يكون النقد عدواً للادب وهما صنوانا يجمعهما الفن الى أصل واحد ؟ فإذا ما نظر النقد الى الأدب وهو ينصح له أو يسخر منه ، أو يسكر عليه ، فهو في هذا يمثل الطبيعة تحاول أن تذهب بالزبد ليبقى ما ينفع الناس ، والطبيب ليس بمحتجب ولا بمحتجب إذا ما بثر العضو الفاسد لينجو المريض ، والصائغ لا يقصد الفسار إذا ما تناول حجر المساس بالبر والصقل ليظهر جوهره . فالنقد إذا ما وصح الحق في نصابه ، ودافع عن الفن في نسقه الأعلى ، فإنما هو يؤدي رسالته التي ائتمن عليها ، وإن من انقلاب الأوضاع والاستهانة بالحقائق أن تحسب التهذيب عداوة ، والتطهير هدماً وتبليطاً ، وإذا كان بعض الأدباء لا ينفيدون في النقد تقويماً وإرشاداً فإنما هو التفريط منهم في الانتفاع بالرشد والإصاحة الى النصيحة ، ومأم إلا كالمرضى يصف الطبيب له الدواء ويقدر عليه الفناء ويقرر له ما يأتي وما يدع ، ولكنه يستهين بهذا كله ، وما يزال حتى ينوء بعلمته .

على أننا إذ نقول النقد ، فإنما نعني ذلك الفن الجليل بقواعده المقررة ، وأصوله المقررة ، وغايته الشريفة ، وهو شئ أسمى من أن يتساول بالغرور والتعيق والحقد والحسد ، ولقد صدق شوقي إذ يقول : « من نقد على غضب أسخط الحق ، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق ، ومن نقد على حسد لم يخف نفيه على أحد ، ومن نقد على حب حابي وجمع به التشيع ، وإنما النقد فن كريم ، وهو آلة إنشاء ، وعدة بناء ، وليس كما يزعمه الزاعمون معمول هدم ولا أداة تخطيط » .

ثم إنما إذ نقول الناقد فلسنا نريده من أولئك المزورين الادعياء الذين ليس لهم أداة النقد ، ولا عديم وسائله ، ولكنا نغنيه من أولئك الذين لهم قدرة الحكم ، وفيهم قوة الصواب ، وعندهم وسائل الترحيح ، وغايتهم الانصاف ، وشأنهم خدمة الفن ، فإذا لم يكن الناقد من هؤلاء عرض نفسه للزراية والسخرية ، وتدل بعقله وفنه الى أسفل .

فالنقد كما ترى مجلى العبقريات ، ودعائم النبوغ ، وظل التأليف ، وعضد الفن ، يذعن له الأدباء في ارتياح واطمئنان ، ويرمقونه بالاجلال والاكبار ، ويصبحون لسكنته بالوصى والانتفاع .

محمد فهمي عبد اللطيف

في مؤتمر الأديان العالمي

الخطبة التي ألقاها فيه صاحب الفضيلة الأستاذ

الشيخ محمد عبد الله دراز

عضو لجنة فؤاد الأول الأزهرية في جامعة السوربون

(موافقة المؤتمر بالإجماع على اقتراحين حليين لممثل الأزهر)

يعقد في عواصم أوروبا في دورات متعاقبة مؤتمر يدعى (مؤتمر الأديان العالمي) وقد دعى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي لحضوره فاعتذر وأرسل اليه بخطبة له قبلت بما تستحقه من الحفاوة والاكبار ، وكان لها صدى بعيد في الجرائد والمجلات العالمية .

وقد دعى الأزهر في دورة المؤتمر التي انعقدت في هذه السنة بباريز في جامعة السوربون فندب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فضيلة الشيخ محمد عبد الله دراز عضو لجنة فؤاد الأول الأزهرية ليلقي كلمة الأزهر في ذلك المؤتمر . فألقاها بالفرنسية ، فكان إيجاب المؤتمرين بها عظيما حتى قال عنها السير فويس رئيس المؤتمر : إن كلمة الأزهر هذه هي الكلمة الرئيسية ! وقد وافق المؤتمر بالإجماع على اقتراحين قدمهما الأستاذ دراز وراهما القراء في الخطبة . وإن مجلة الأزهر لتفخر بأن تنشر لأحد نجباء أبنائه كلمة جليلة القدر كانت أول ما سمع الأوروبيون من أمثاله عن الاسلام ، فنهنت بهذا المورد العظيم ، وزجو أن يكثر الله من أمثاله في علماء الدين .

واليك ترجمة الخطبة :

باسم الأزهر ، ذلك البيت العتيق الذي هو أقدم الجامعات الدينية العمية المعروفة في العالم ، وأكبر المفاخر الادبية للقطر المصري وللمدينة القاهرة ، والمركز الذي تلتف حوله قلوب مئات الملايين من البشر ، يعدونه رمزا خالدا لحضارتهم ، ومنبعا دائما للقيمان لتقاقتهم الروحية .

بل باسم الاسلام ، ذلك الدين الخاتم الذي أخرج للناس يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الغبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي

كانت عليهم ، ويمحو ما بينهم من فوارق الانساب والاجناس ، واللغات والالوان ، ليجعل منهم أمة واحدة على قدم سواء ، لا فصل لأحد منهم على أحد إلا بالعمل الصالح ؛ بل باسم الإنسانية التي اجتمعتم اليوم لتشاور في الوسائل الفعالة لتخفيف آلامها ، وإتخاذها من الهاوية ، التي أثمرت على التردى فيها ؛ باسم الأزهر والاسلام والإنسانية ، أرحب بقدومكم ، وأحيي فيكم ذلك الشعور البيل الذي أوحى إليكم فكرة هذا المؤتمر ، وأتمنى لكم النجاح والتوفيق ، فيما ترسمونه من الخطط لتأييد السلام العام .



يا حضرات السيدات ويا حضرات السادة .
إن نظرة واحدة نلقبها على العالم اليوم ، لتكشف لإدراك ما يسود بين شعوبه من روح العداوة والشحناء ، وما ينبعث في أقطاره من زفرات الشكوى والابين .
فن أين جاءت هذه التركة الشريرة التي تنذر بأسوأ المواقف ؟
أليس منشؤها هو تحكم المادية وازدياد نفوذها في تسيير مجرى الأمور العالمية ؟
وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون العلاج الوحيد هو أن نعود الى الروح فنعيد إليها سلطانها الذي أهملناه في هذا العصر إهمالا كبيرا ؟ ثم ما هي تلك القوة التي تستطيع أن تضطلع بهذا الصب الساق إن لم تكن هي قوة الدين ؟
غير أننا إذا رجعنا الى الأديان فلتتمس منها الممونة ، هائلا ما نراه من اختلافها اختلافا طاملا كان من أسباب الخصومات والحروب ، بدل أن يساعد على حسن النعمان والتقريب بين القلوب ، فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة في المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محورا لتفريز السلام بين معتقبيها ، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع ؟ هذه هي النقطة الأساسية التي تدور عليها أعمال المؤتمر ، وهذا هو الاشكال الذي يحاول المؤتمر أن يجده له حلا .

أما أما فأميل الى أن يكون هذا الحل على أساس الفصل في الأديان بين ما حبتها الاجتماعية وبين واعيها الأخرى ، واعتقد أن افتراق الأديان في عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع النقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هي أساس التعاون المطلوب ؛ وذلك أنها كلها تامر بالعدل والاحسان ، وتنبه عن الظلم والعدوان ، وكلها تسوى في هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها .



اصبحوا الى إذا أن أستعرض البيانات التي هي أكثر انتشاراً في العالم اليوم ، أعني الديانة الهندية « البرهمية » والديانة البوذية ، والديانة اليهودية ، والديانة المسيحية ، والاسلام ؛ لكي أبين بليجاز ما في كل واحدة منها من روح التسامح والرحمة الانسانية :

أما الديانة الهندية فإن التاريخ يتحدثنا أنها لم يقع منها اصطهاد قط للفلسفة الالهادية التي نشأت بين ظهرانيها ، حتى إن الفيلسوفين « كايلا » و « كانادا » وغيرهما أمكنهم أن يزعموا أن كتابهم المقدس « الفيدا » ليس كافياً للخلاص ، بل أمكنهم أن يذكروا وجود الإله ، ألبته ، ومع ذلك لم يحسمهم من رحال الدين أذى ولا إحراج ، بل إن الديانة البوذية التي هي فيما يظهر وليدة تلك الفلسفات الالهادية استطاعت أن تنشر نظرياتها المدمية بملء حرية وبقية على ذلك اثني عشر قرناً دون أن يقاومها أحد من البراهمة بالعنف . نعم إنها آل أمرها الى أن طردت من الهند وهاجرت نحو الشمال ونحو الشرق ، حتى زعم بعض المؤرخين أنها ألحقت الى ذلك بتأثير التعصب الديني البرهمي ، لكنهم في الحقيقة ليس عندهم دليل يوجب أن يؤيد هذا الرأي .

والديانة البوذية بدورها ما اعتدت قط على أحد من مخالفتها . على أن مبادئها نفسها تضطرها اضطراراً الى الاحتمال وتوسيع الصدر لكل خلاف ، فإن من جرد نفسه من تأثير هذه الآلم ، وجعل منتهى همه إنكار الذات والوصول الى الفناء والعدم ، لا يمكن أن يجد غضاضة في أي مذهب يخالفه مهما كان متطرفاً . هكذا نجد مشكلة السلام العالمي محاولة بطبيعتها في الديانة البوذية بحيث لا محل لوضع السؤال فيها .

ولعل الديانة التي تليها مباشرة في هذا المعنى هي « الديانة المسيحية » إذ أنها لا تتصل بالاحوال الزمنية ؛ لا اتصالاً ضعيفاً ؛ ولذلك نرى فيها طابع التواضع والسلام ، بل قد يقال طابع الخضوع والاستسلام ، أوضح من أن يحتاج الى بيان ؛ فشعارها ليس فقط « أحب جارك كما تحب نفسك » بل « أحب عدوك وصل لمن يضطهدك » أو بمباراة أخرى « من ضربك على الخد الأيمن فامد له الخد الأيسر » ، وهنا تحسن الإشارة الى أن المسيحيين في العصور الأولى كانوا يتحززون تحزوا شديداً من الانحراف في سلك الجنسية ؛ وأن من دخلها منهم مضطراً كان يجب ألا يسفك دم أحد ؛ ولا لكان حزاؤه الطرد من حظيرة الدين .

غير أن الناظر في تاريخ اليهودية والاسلام قد يجد فيهما شذوذاً عن القاعدة ، وقد يشمرع في الحكم بعدم انطوائهما على روح الرفق والتسامح ؛ ذلك أن موسى ومحمد عليهما السلام لم يكونا مؤسسي دين فحسب ؛ بل كان كل منهما جامع شتات أمة ومؤسس دولة ؛ كلاهما كان مشرعاً وحاكماً ، وكلاهما قاد الجيوش لفتح بلاد الأعداء ؛ ويضيف الاسلام الى ذلك أنه توسع في هذه الفتوح فأنشأ إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات في أصرع زمن عرفه التاريخ .

ولكن الخطأ كل الخطأ ، بل الظلم كل الظلم للحقيقة ، أن توصم هذه الفتوحات النبوية

بوصمة النقي والمعدوان ؛ فليس هناك مثال واحد يدل على أن اليهودية أو الاسلام أباحا البدء بالاعتداء على الطوائف الأخرى سواء أكان ذلك لمقاصد دينية أم لأغراض سياسية ؛ بل الواقع على العكس من ذلك أنهما احتملا الاضطهاد أمداً طويلاً قبل أن يأذنا لاتباعهما باتخاذ القوة للدفع عن حياتهم وعن حريتهم في اعتناق الحق والدعاء اليه ؛ وهذا الدفع المشروع ما زال حقاً مقررراً لا يجادل فيه عاقل : « ولأمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق » .

يكفي في شأن اليهودية أنها رفعت قيمة الحياة الانسانية الى درجة لم تصل اليها أشد النظريات العصرية تحمسا في الدفع عن حق الفرد .

ينقل لنا القرآن عن التوراة أن قتل النفس بغير حق لا يقاس في نظرها بقتل أمة بل بقتل الانسانية جمعاء ، وحياته بجياتها . « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .



وأما الاسلام فن السهل الرجوع الى كتابه والى حياة نبيه ، فكتابه لا يزال غضا طريا محفوظا في نصه وحرفيته كما تركه صاحبه ؛ وحياة نبيه قد سجلها التاريخ بتفاصيلها بأتم عناية وضبط . وإن نظرة واحدة في هذين المصدرين لكافية في معرفة موقف الاسلام نظريا وعمليا من قضية السلام العالمي .

نعم إن الاسلام قد غاض كل ميادين الحياة وتدخل في جميع جزئياتها ، ولكنه على رغم ذلك بقي محتفظا بسموه الروحي حتى في أشد الشئون ارتباطا بالمادة ، وهكذا كان وجه بداعته أنه استطاع أن يوفق بين المطالب الروحية والمطالب الزمنية للإنسان ، بنسبة مادية مستقيمة .

لا يتسع نطاق هذه المحاضرة للإتيان على ما في القرآن وتاريخ نبيه من براهين على صحاحة الاسلام وسعيه للوحدة والاتلاف بأوسع ما في حدود الامكان ؛ فلنكتف بالاشارة الى شيء من ذلك . أما من الوجهة النظرية فقد سمي الاسلام لتأسيس هذه الوحدة على دعامتين :

أولاً : من طريق توحيد الغاية ، وذلك بدعوة الناس جميعا الى عبادة إله واحد .

وثانياً : من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية ، وذلك ببيان أن الشرائع السماوية ترجع كلها الى أصل واحد ، ودعوة معاصريه من أهل الأديان السابقة الى تكوين أسرة روحية واحدة تؤمن بجميع الكتب وجميع الأنبياء بدون تفريق بين أحد منهم : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » « قولوا آمنا بالله وما أنزل اليها وما أنزل الى ابراهيم

وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأمركم فأعبدون » .
 ونرى القرآن في أثناء هذه الدعوة يعنى دائماً بربط الاسلام بالاديان التي سبقت منذ عهد نوح : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، ويصور بي الاسلام بصورة المأمور باتباع هدى من قبله : « أولئك الذين هدى الله فبإذام اقتده » ، ويقول إنه لم يجئ بجديد يهدم القديم وإنما جاء مجددا لما اندرس منه ، مبينا لما خفى ، مصححا لما حرف : « قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » ، وبلمحة ليميد الدين الى نقاوته الاولى .

بل إن اسم الاسلام نفسه « في اصطلاح القرآن » اسم مشترك يضمه القرآن على لسان أكثر الانبياء المتقدمين ، يقول في شأن إبراهيم : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ، وفي شأن يعقوب : « إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ، وفي شأن التوراة وأنبياء بني إسرائيل : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » . وهو حين يقول بصيغة الحصر : « إن الدين عند الله الاسلام » لا يمكن أن يعنى إلا هذا المعنى المشترك بين الأديان المترلة ، وإلا لكان هادما للأساس الذي أراد أن يقيم عليه بناء هذه الوحدة .

غير أن هاهنا نقطة يجب التنبيه اليها وهي أن القرآن حين دعا الى هذه الوحدة لم يجعلها غاية يطالب الوصول اليها من كل طريق ، وشراؤها بكل ثمن ، بل نظر اليها كمثل طال وأمل عزيز يقبض الاقتراب منه بقدر الطاقة ، واعترف في أكثر من موضع بأن هذا الأمل متعذر التحقيق : « ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » . هذه النظرة لها نتائجها الطبيعية في مسلك الاسلام بإزاء مخالفيه ، فهي التي جعلته يواحه الحقيقة الواقعة بالاحتمال والتسامح ؛

وهي التي حددت مهمة الرسول بأنها ليست هي إكراه الناس على الإيمان وإنما هي التعليم والانذار ثم تقويض الأمر في عقائدهم الى الله الذي سيتولى الحكم بينهم في يوم الفصل « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ « لا إكراه في الدين » « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » « ما على الرسول إلا البلاغ » « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » « لكم دينكم ولي دين » « قل للذين آمنوا يقرءوا للذين لا يؤمنون أيام الله

ليجزي قوما بما كانوا يكسبون». ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الموقف لا يخص علاقة المسلمين بأهل الكتاب، فإن أكثر هذه النصوص مكية في شأن الوثنيين أنفسهم. وقد صرح القرآن بأن هذه هي حدود مهمة الرسول بإزاء الطوائف كلها، وذلك في تلك الآية المدنية الجامعة: «وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أن أسلمتم؟ فإن أسلموا عقد أعتدوا، وإن تولوا فأنما عليك البلاغ» والله بصير بالعباد».

وأما من الوجهة العملية، فالإسلام «أولا». قد حظر البدء بمناوشة مخالفيه أو عصايتهم في الحياة المادية ما داموا مسلمين له، وأمر في هذه الحال بحسن جوارهم ليس بطريقة سلبية لحسب بل بالبر إليهم، والعدل بينهم: «لا ينهاكم الله من الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين». ولقد كان من أول الأعمال التي قام بها النبي بعد الهجرة إلى المدينة محالفته لليهود ومواقفاته بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أنشأ في المدينة أمة واحدة من عناصر ثلاثة مختلفة في الجنس والدين، يستوى قحطانهم وعدنانهم وإسرائيلهم كما يستوى مسلمهم ومشرِكهم ويهودهم، في حقوق الولاء وحسن الجوار والتناصر على دفع المغيرين. كما كان من أواخر أعماله مصالحته لنصارى مجران، وإقرارهم على دينهم في قلب الوطن العربي الإسلامي.

ثانياً: في الحال التي تمنعكم فيها المداوة وتكون الظروف مهددة باحتال وقوع حرب، وضع الإسلام وسائل كافية لاتقائها في الوقت نفسه الذي يكون فيه المسلمون أشد قوة؛ وأوصى بقبول كل شروط يعرضها المخالفون مادامت تؤدي لحقن الدماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين. ومن الأمثلة الواضحة في هذا الموقف السلي النبيل تلك المعاهدة التي وقعها الرسول بنفسه مع قريش في عام الحديبية. هذا والمهادنات الإسلامية ليست حبراً على ورق، بل هي عقود دينية يوجب الإسلام تنفيذها بدقة وأمانة حتى مع الوثنيين: «إلا الذين ماهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأعزوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين». ولقد كان فريق من أهل الكتاب يوفون بمهودهم إلى أهل ملتهم ولكنهم لا يرون الوفاء واجبا بمهودهم مع المسلمين «يقولون ليس علينا في الأميين حبيب» جاء القرآن ناعياً عليهم هذا التفريق، مبيناً أن الوفاء بالمهد واجب إنساني عام: «بلى من أوفى بعهدة واتقى فإن الله يحب المتقين».

ثالثاً: في الحال التي تصبح فيها الحرب أمراً واقعاً وضع الإسلام قواعد عملية كثيرة تخفف من أهوالها وتحدد بالإنصاف ما يقتضيه الموقف الدفاعي البحت، فنهى عن قتل المرأة في بيتها والراهب في متعبده، والفلاح في مزرعته؛ وبالجملة حصر القتال في ميدان الحرب لا يتمدها: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»، وفي هذا الميدان نفسه نهى عن التفشى بالقتل والتعذيب: «ولا تقتلوا إن الله لا يحب المعتدين».

رابعا : في الحال التي تنجلي فيها المعركة عن ظفر المسلمين ، صرب الاسلام أمثلة مائية في الكرم والصنع عن الماضي وعدم الاستمرار في تتبع الفارين الذين يطلبون الأمان ويلقون كلمة السلام : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا . ومن أروع الأمثلة في ذلك موقف الرسول يوم فتح مكة مع فريش الذين ناصبوه الحرب والمداة أكثر من عشرين سنة ، إذ قال لهم بعد أن ظفر بهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وأطلق سراح أكثر من ستة آلاف أسير .



أما أن محمدا عليه السلام كان مطبوعا بفطرته على التسامح وحب السلام ، وأنه كان داعية توفيق لا تفريق ، فذلك ما تدل عليه كل حياته حتى قبل النبوة . ولا ضرب لذلك مثالين اثنين فقط : (أحدهما) حادث الحجر الأسود حين اختلفت القبائل فيمن يكون له شرف وضعه في مكانه من الكعبة وحكوا محمدا « الأمين » بينهم ، فلم يتحيز في حكمه لجانب قبيلته هو ، بل حكم أن يوضع الحجر في رداء ، وأن تأخذ كل قبيلة بطرف لتسامم كلها في هذا الشرف ، وهكذا كان به حقن دماهم والتأليف بين قلوبهم . (الثاني) اشتراكه حين كان له من العمر خمس وعشرون سنة في حلف الفصول ، وهو شبه مؤتمر صغير تحالفت فيه قريش على نصر المظلوم وحفظ الأمن العام .

إن إثارة هذه الذكرى في يومنا هذا وفي مكانا هذا لها موقع خاص في نفسى ؛ وإنى لا أستطيع أن أدفع عن حيالى هذه المقارنة بين الماضى والحاضر . ويلوح لى ألسنا الآن إنما نطبع على غرار ذلك الماضى البعيد ، وإنما نترسم الخطوات الأولى للنبي العربي الكريم .



إن فكرة الاجتماع والائتلاف نفسها يرى عليها في الاسلام مسحة من طابع القدسية ، فغير يوم عند المسلمين اسمه يوم « الجمعة » أى يوم الاجتماع ، وخير مكان عندهم اسمه « الجامع » . إن المحبة المتبادلة بين المؤمنين هي إحدى النعم المظلمة التي يمتاز الله عليها بتحقيقها بالفعل : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتكم بجمعة إخوانا » . وإن المحبة المتبادلة بين الناس أجمعين هي إحدى الأمانى الغالية التي فتح القرآن بها أمام المسلمين : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » . إن اسم « السلام » نفسه واسم « الاسلام » يرجعان في اللغة العربية الى أصل واحد ؛ وإن أحب التحيات الى المسلمين هي الدعاء بالسلام .



وبعد : فإنا نستطيع أن نخلص من هذا البيان الى النتائج الآتية :

(أولاً) أن الأديان كلها ، بدلا من أن تكون سبب نزاع وخصام في شئون هذه الحياة ، هي على الضد من ذلك تنادى بالائتلاف والوئام .

(ثانياً) أن السبب الحقيقي لهذه الخصومات هو بالعكس نعتد الانحراف عن الدين ، وأن كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين كاذبة في دعواها الانتساب إلى دينها .

(ثالثاً) أن العلاج الوحيد للآلام الانسانية الحاصرة هو أن يمتن رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخلقى العام منه ، فيمتنوا في أتباعهم عاطفة الأخوة الانسانية باسم الدين نفسه . إن هذا التقارب والتعاون في الحياة العملية إن تم على وجهه سيكون خطوة أولية في سبيل التفاهم في الحقائق الدينية نفسها ، وروحى من وراء ذلك تقليل فوارقها النظرية وتسهيل الوصول إلى الحقيقة بالبحث الحر ، في جو ودى نزيه .



وفي الختام أحب أن أعرض على هيئة المؤتمر اقتراحين عمليين أرجو أن يؤخذ الرأي عليهما :

الأول : أن تنشر خلاصة قرارات المؤتمر على رجال الدين في كل أمة ، وأن يرجى منهم المساهمة في علاج الأزمات الراهنة بتحريض أتباعهم على اقتناء هذه المثل العليا .

الثانى : أن يطلب باسم المؤتمر إلى مختلف الحكومات أن تنصف الشعوب المظلومة التي تحت نفوذها .

إننا إن فعلنا ذلك نكون قد قما بنصيينا من الواجب الدينى والانسانى لحير الجميع ؟

المسلمون يطالبون بإبطال المنكرات الدينية

سيدي المحترم رئيس تحرير مجلة الأزهر الفراء :

تحية وسلاما « وبمد » فنقدم إليكم صورة موجزة للعرائض التي رفعت موقعة من عدة آلاف من السيوطيين من كبار الموظفين وصغارهم ومن الأعيان ومن التجار والصناع والآهالي الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح والى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء والى حضرة صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر . فترجو التفضل بنشرها خدمة للغرض الشريف الذي تسعى اليه هذه العرائض . ومع أجزل شكرى أقدم أومر احترامى ما

عنهم

محمد محمد محرم

المدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيوط

قرارات

تداول المصلون في مساجد مدينة أسيوط في أمر الأرجاس الشائعة في البلاد ثم أصدروا القرارات الآتية :

(أولا) استنكار استمرار انتشار البغاء الرسمى والخر الرسمى والتهار الرسمى في مصر البلد الاسلامى الذى يملك عليه التعاروق الصالح مليكنا المسلم الموهوب الموفق المحبوب .

(ثانيا) مطالبة الحكومة بإلغاء المنكرات العلنية ومكافحة المنكرات السرية وإصدار القوانين المحرمة لتبرج النساء الفاحش .

(ثالثا) مطالبة الحكومة بجميع البغايا فى الحال فى ملجأ يؤدى فيه بعض الأعمال النافعة .

(رابعا) مطالبة وزارة المعارف بتنشئة أولادنا وبناتنا بالمدارس على اختلاف درجاتها تنشئة دينية صالحة وذلك بالاكتثار من دروس الدين .

(خامسا) مطالبة الحكومة باستنباط القوانين المصرية من الشريعة الاسلامية السمحة التى تحوى كل الفضائل السامية .

(سادسا) رفع عرائض الى ساحة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح المعدى والى حضرة صاحب المقام الرفيع والى حضرة صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر لالتماس تحقيق هذه المطالب .

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٢ -

كان يديع الزمان الحمذاني على الرغم من نسبه عربي الأصل ، وإن كان فارسي النشأة ، يدل على ذلك قوله من رسالة بعث بها إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الأسفرائيني « إني عبد الشيعي واسمي أحمد ، وحمدان المولد ، وتلقب الموردي ، ومضر المحدث » .

وهما يكن في الشعوبية من طعن أو مدح ، فهي عامل ذو خطر من العوامل التي غدت الأدب حيناً بلبانها .

ولا ينبغي من هذه المقالات التي قمت بنشرها تحت هذا العنوان إلا أن أجلي للقارئ هذه الناحية من الأدب ، وأبسط له ما قيل فيها دون أن يكون هي التعصب للعرب ضد العجم أو للعجم على العرب .

ولا يضوتني أن أكون حكماً - إن استطعت - بين هذين الفريقين المشرقيين في التعصب ، المتفاليين في الدود عن حياضهما ؛ فكل قول قيل في هذا الباب لم يحل من مبالغة وإغراق عمقوتين .

وقد كان يشار إلى - وهو رأس الشعراء المحدثين - من أكثر الشعراء طعنًا وتعصبًا على العرب ، فقد قال يتبرأ من ولائهم :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم	مولى المريب لحد بفضلك فأنغر
مولاك أكرم من نعيم كلها	أهل الفعالي ومن قرئش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع	سبحان مولاك الأجل الأكبر

وله شعر كثير في هذا الباب كله قدح وطعن في العرب ، من ذلك ما يروى في كتب الأدب من أن أعرابياً دخل على مجرة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : شاعر ، فقال : أمولى هو أم عربي ؟ فقالوا بل مولى ، فقال الأعرابي : ما للمولى والشعر ؟ فغضب بشار وسكت هنيئة ثم قال : أناذن لي يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فأنفذ بشار :

خليل لا أمام على اقتسار	ولا آبي على مولى وجار
سأخسر فأخر الأعراب عني	وعنه حين تأذن بالفعار
أحين كسيت بعد العري حزاً	ونادمت الكرام على المقار

تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار ! حبسك من خسار
وكنْتَ إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب في ولع الأطار
تريد بخط كسر الموالي وبسبك المكارم صيد فار
وتغدو لثقتنا فذ تدرها ولم تقمــــــــــــل بدراج الديار
وتنشع الشمال للإسبها وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك يملنا دلس علينا فليتك غائب في حر نار
وقفرك بين خنزير وكلب على منى من الحدث الكبار
فقال مجرأة للأعرابي : قبحك الله فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولا مثالك .

ولئن كان هذا قد حدث من بشار بن برد وهو من شعراء العباسيين ، وأنت تعرف ما كان للموالي في هذه الدولة من جاه وسلطان ، فقد كان ما يدايه في صدر الاسلام من شاعر عربي رغم ما جاء به الدين الحنيف من تسوية بين الشعوب ، وعدم اعتداد بالمواريق الجنسية ، فقد روى أنه لما احتضر عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم صهيبا على المهاجرين والأنصار فصبى بالناس وقال له : استخلف ، فقال : ما إخالني ممن استخاف ، فذكر له السنة من أهل حراء فكلهم طعن عليه ثم قال . لو أدركت سالما مولى أبي حذيفة جيا لما شككت فيه . فقال في ذلك شاعر العرب :

هذا صهيب أم كل مهاجر وعلا جميع قتائل الأنصار
لم يرض منهم واحدا لصلاتنا وهم الهداة وقادة الاحبار
هذا ولو كان المترم سالم حيا لنال خلافة الامصار
ما زال هذى المعجم تحيا دوتنا إن العريب لى همى وخسار

وفيا عدا هذا قد أخصبت الشعوية قرائم كثير من الشعراء فقالوا مدعوين بهذا الدافع ما واتهم به قرائمهم ، ومن هؤلاء الحسن بن هاني القائل على مذهب الشعوية :

وجاورت قوما ليس بيني وبينهم أواصر إلا دعوة ويطوف
إذا ما دما بأبمي العريف أجبتة إلى دعوة مما على يهوف
لازد عمان ابن المهلب بزوة إذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكرى أن النسوة أنزلت على مسمع في البطن وهو حنين
وقالت تميم : لا زى أن واحدا كأخفنا حتى المات يكون
فلا ملت قيسا بعدها في قنية إذا اغتفروا ، إن الحديث شحون

ولقد أساء بنو أمية إلى الموالي واشتعلوا في الغلظة عليهم والجفاء ، وأظهروا لهم كل

ضروب السخرية وألوان الاحتقار ؛ وآية ذلك أن المخاطب ما كان ليخطب امرأة من الموالي إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى مواليتها ، فإن رضى زوج وإلا فلا ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليتها فسخ النكاح . وليس هذا بالمعجب المستغرب ، ولا بالبعيد المستنكر من بني أمية .

وقد دما معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال : إني رأيت هذه الحراء قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن تقسى لا تطيب لقتل أخي لأبي وغالي ومولاي ، وقد شاركهم وشاركونا في النسب ، فظننت أني قد قتلت عنهم ، وأطرق . فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلى يأسير المؤمنين ، فأنا أقوى ذلك منهم ، وأبلغ منه . فقال معاوية قوموا حتى أنظر في هذا الأمر ، قال الأحنف : فقمنا عنه وأنا خائف ، وأبيت أهلي حزينا ، فلما كان بالفداء ، أرسل إلى ، فعلمت أنه أخذ برأبي وترك رأي سمرة .

فأنظر كيف كانت المصلحة الجنسية تخرج في نفس معاوية ، وتدفع به لعمل شديد الوقع في النفوس خفية أن يصح الجنس العربي مسودا بعد أن كان سائدا . ولا بد هنا من التنويه بشجاعة الأحنف وانتصاح معاوية ، فكلا العاملين يستحق الإعجاب .

وقال أبو عبيدة : مر عبد الله بن الأهم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده . قال أبو عبيدة : ليت سمع لحن صفوان وخاقان ومؤمل ابن خاقان .

وكان عقيل المري من أشد الناس حمية في العرب ، وكان ساكنا في البادية ، وكان يصهر إليه الخلفاء ، فقال لعبد الملك بن مروان وقد خطب إليه ابنته الجرياء : جنبني ههنا ولدك ! ومن تلك المثل تقف على مبلغ تعصب بني أمية ضد المعجم ، وإفراقهم في التمسك بهذه النمرة العربية والتنفى عما سورها ، والإطراء على محامدها .

أحمد إبراهيم موسى البارودي

تخصص البلاغة والأدب

دفاع عن القرآن الكريم

متابعة آراء الأصوليين

أوردنا في المقال السابق طائفة من آراء الأصوليين في موضوع التواتر والآحاد ، ولم تنسج صفحات المجلة الغراء لاستيفائها ، فورد في هذا العدد بقية آرائهم في الموضوع :
قال ابن الحاجب في مختصره :

العمل بالشاذ غير جائز ، مثل (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) ، واحتج به أبو حنيفة رحمه الله - لنا - ليس بقرآن ، ولا خبر يصح العمل به - قالوا ينبغي أحدهما فيجب . قلنا : يجوز أن يكون مذهبا ، وإن سلم فالحبر المقطوع بخطه لا يعمل به ، ونقله قرآنا خطأ اه
وقال صاحب التقرير والتحجير :

القراءة الشاذة حجة ظنية ، خلافا للشافعي ، لنا : منقول عدل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : متيقن الخطأ ، قلنا : في قرآنيته لا خبريته مطلقا ، وانتفاء الاختصاص ، يعنى القرآنية ، لا ينفي الأعم يعنى التجربة مطلقا - فكما لاخبار الآحاد في الحكم لأنها منها ومنهم الحصر في كونه قرآنا أو خبرا ورد بيانا فظن قرآنا فألحق به ، وعلى التقديرين يجب العمل به يتجوز ذكر الصحابي ذلك مع التلاوة مذهبا للقارىء بناء على دليل اعتقده كاعتقاد حمل المطلق على المقيد بالتتابع في كفارة الطهار ، فذكره في معرض البيان بعيدا لأن نظم مذهبه مع القرآن إيهام أن من القرآن ما ليس منه - ثم قال : فلا ، وإن لم يكن قرآنا يقرأ فقل حالته أن يكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن القرآن لا يأتي به غيره اه

تواتر القراءات السبع :

قال ابن الحاجب :

القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والامالة وتخفيف الهمز ونحوها . لنا : لو لم تكن لكان بعض القرآن غير متواتر كلك ومالك ونحوها وتخصص أحدهما تحكم باطل لا ستواهما .

وقال صاحب التقرير والتحجير :

قراءة السبعة ما كان منها من قبيل الأداء بأن كان هيئة اللفظ ينحقق بدونها ولا يختلف خطوط المصاحف به كالحركات والأدغام في المثلين أو المتقاربين ، وهو إدراج الأول منهما ساكنا في الثاني ، والاشتمام ، والروم ، والتعظيم ، والامالة ، والقصر ، وتخفيف

الهمزة ، وأضادها : من الفك وعدم الاشمام ، وعدم الروم ، والترقيق ، وعدم الامالة والمد ، وتخفيف الهمز - لا يجب تواترها . وخلاف ما كان من قبيل الاداء مما اختلف بالحروف ، (كلك) المنسوب قراءته الى من عدا الكسائي وعاصم (وماك) المنسوب قراءته اليهما ، ويسمى بقبيل جوهر اللفظ متواتر . ثم قال :

وقد نظر العلامة الشيرازي في كون ما من قبيل الاداء كالحركات لا يجب تواتره بخلاف ما كان منه ، لأن الحركات وما معها أيضا قرآن .

لنا في أن ما من قبيل الاداء ، أنه قرآن موجب تواتره ، ضرورة أن جميع القرآن متواتر إجماعا لكون المادة قاضية به . قال المخالف :

هذه القراءات آحاد ، لأنها منسوبة الى سبعة نفر ، والتواتر لا يحصل بهذا العدد فيما اتفقوا عليه فصلا عما اختلفوا فيه . أجيب بأن نسبة القراءات السبع إليهم لا اختصاصهم بالتصدي للاشتغال بها واشتهارهم بذلك ، لأنهم النقلة لها خاصة ، بمعنى أن روايتهم مقصورة عليهم ، بل حدد التواتر موجود معهم في كل طبقة ، الى أن ينتهي الى النبي صلى الله عليه وسلم اهـ .
نتائج هذه القاعدة :

- (١) القرآن المنزل من الله بواسطة جبريل عليه السلام ، على النبي صلى الله عليه وسلم .
- (٢) القرآن الكريم متواتر إجماعا .
- (٣) القراءات السبع ، فيما يخص المادة ، متواترة إجماعا .
- (٤) القراءات السبع ، فيما يخص الهيئة متواترة عند الحنفية والشافعية والحنابلة .
- (٥) القراءات الشاذة ليست قرآنا إجماعا .
- (٦) المروى آحادا ، كصحف ابن مسعود وغيره مما ليس في المصحف الامام ، ليس قرآنا إجماعا .
- (٧) المروى آحادا متردد بين أن يكون خبرا (حديثا) أو مذهبا للصحابي .
- (٨) المروى آحادا ليس حجة في الاحكام الشرعية ، عند الأئمة إلا الحنفية في بعضها .
- (٩) التسمية في النمل قرآن إجماعا .
- (١٠) التسمية في أوائل السور قرآن عند الشافعية ، آية مستقلة ، أو هي مع أول آية ، آية .

القاعدة الثانية آراء المفسرين والمحدثين :

يعتبر علماء التفسير والحديث من أصحاب الشافعي في موضوع كتابنا هذا ، فانه يتعلق بالقرآن الكريم ، وعلماء التفسير من هذه الناحية هم المختصون ، ولما كانت السنة تبين القرآن

لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس » كان علماء الحديث من المحدثين أيضا .
لذلك رأينا أن نستند على آراء أهل العلم لما لهم من الاختصاص .

وقد رجعنا الى كتب الحديث وشروحا ، وكتب التفسير ومقدماتها ، فوجدناها بحمد
الله مملوءة بالحجج القاطعة ، والبراهين الدامغة .

ولما كان نقل جميع ما ذكره في الموضوع - يهضى بنا الى الاطالة ، وكان العلامة
أبو عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبي ، جمع في مقدمة تفسيره : « الجامع لاحكام القرآن »
فصلا حسا في هذا المعنى ، نقل فيه خلاصة آراء شراح الحديث والمفسرين ، كما نقل شيئا من
كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان لابن بكر الانباري) رأينا الاختصار على ما جمعه .

ولما كانت أظهر شيء في ذلك هذا الحديث المشهور « إن هذا القرآن أنزل على سبعة
أحرف فآفروا ما تيسر منه » رأينا أن نصدر به المبحث كما فعل القرطبي رحمه الله :

روى مسلم عن أبي بن كعب « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عبد أصاة بني غفار فأتاه
جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على حرف ، فقال : اسأل الله
معافاته ومغفرته ، وإن أمي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ
أمك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه
الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : اسأل الله
معافاته ومغفرته ، وإن أمي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ
أمك القرآن على سبعة أحرف فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذي عنه قال
« لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل . إني بعثت الى أمة أمية منهم
المعجوز والشيخ الكبير والغلाम والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قط ، فقال لي : يا محمد
إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » قال : هذا حديث حسن صحيح . وثبت في الآمات
البحار ومسلم والموطأ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنفات والمسندات : قصة عمر مع
هشام بن حكيم وسيأتي تكاليفه في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ، ذكرها أبو حاتم
ابن حبان البستي ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال .

الأول ، وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري
والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بالفاظ مختلفة : نحو أقبل ،
وتعال ، وهلم . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكر قال : جاء جبريل الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استرده ، فقال : اقرأ على
حرفين ، فقال ميكائيل : استرده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فشكل شاف كاف

إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة ، على نحو : هلم وتعال وأقبل وادهب وأسرع وعجل .

وروى ورقاء عن ابن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ (للذين آمنوا انظرونا) : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنوا أخرونا ، للذين آمنوا أوقبونا . وبهذا الاسناد عن أبي كان يقرأ (كلها أضاء لهم مشوا فيه) : مروا فيه ، سموا فيه . وفي البخاري ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهياً له إلا بمشقة عظيمة ، فوسع له في اختلاف اللفاظ إذ كان المعنى متفقاً ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا لذلك على تحفظ ألفاظهم ، فلم يسمح حينئذ أن يقرأوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وماذا ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

وروى أبو داود عن أبي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا إني أقرأت القرآن فقبل لي على حرف أو حرفين ، فقال الملك الذي معي قل على حرفين ، فقبل لي على حرفين أو ثلاثة ، فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ، ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت جميعاً عليهما ، عزيزاً حكيماً ، ما لم تخلط آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بمذاب . وأسنده ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبي — حمل على أن هذا كانت مطلقاً اسم ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع غيره مما يوافق معناه أو يخالفه .

القول الثاني : قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها بمنها وتزارها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجمل شيئاً منها ، وكان قد أوتي جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابي : على أن في القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : (وعبد الطاغوت) ، وقوله (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب) وذكر وجوهاً كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف

لا كله . والى هذا القول أى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حفظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب ، عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف ما اختلفتم أتم وزيد ما كتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبيين : كعب قريش وكعب خراة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن حراة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة فاطمة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا ، ولم يقل قرشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مصر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عدى : الأغلب والله أعلم ، لأن لغة قريش موحود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز .

وقال ابن عطية : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جهلتها نزل القرآن ، فيعبر عن المسمى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوضح فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش ابتداء ؟ فجاءت فى القرآن فلم تنجبه لابن عباس حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها .

قال ابن عباس . ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : « فاطر السموات والأرض » . وقال أيضا : ما كنت أدري معنى قوله تعالى : « ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها تعالى أفتحك : أى أحاكك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبية ابن مالك إذ صرح النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : (والخل باستقامات) ذكره مسلم فى باب القراءات فى صلاة الفجر ، الى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث . أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مضر ، قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان . نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكتانة ، ومنها لاسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لقيم ، ومنها لعنبة ، ومنها لقيس . قالوا : فهذه قبائل مضر

تستوعب سبع لغات على هذه المراتب . وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها في مضر ، قالوا : في مضر شواد لا يجوز أن يقرأ القرآن بها : مثل كشكشة قيس ، وتمتمة نعيم ، فأما كشكشة قيس فاتهم يجعلون كاف المؤنث شيئا فيقولون في (جعل ربك تحتك سرى) : جعل ربك تحتك سرى . وأما تمتمة نعيم فيقولون في الناس : الناس ، وفي أكياس : أكياس . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الخلق بعضها من بعض ، فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود ، « ليسجنه عني حين » ذكرها أبو داود ، ويقول ذي الرمة :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولونك إلا عتها غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب اللآلئ عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة ، منها ما تنغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل « هن أطهر لكم » وأطهر ، « ويضيق صدري » ويضيق ، ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالأعراب ، مثل « ربنا بأحد بين أسفارنا » وباعد . ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نثثرها » ونثثرها ، ومنها ما تنغير صورته ويبقى معناه : « كالعن المنفوش » وكالصوف المنفوش . ومنها ما تنغير صورته ومعناه ، مثل « وطلع منضود » وطلع منضود ، ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » وجاءت سكرة الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : « تسع وتسعون نمجة أثني » وقوله : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وقوله : « فإن الله من بعد إكراهي لمن غفور رحيم » .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمر ونهي ووعد ووعيد وقسم ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني . وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة . ومنه قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » . كذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي .

البدع في الاسلام

لا يوجد تعليم أدبي واجتماعي في الأرض يجافي بروحه وحرفينه البدع الدينية ، والخزعات الاعتقادية ، والتقاليد الخرافية ، بقدر ما هو عليه من ذلك كله دين الاسلام . ناهيك بدين كان من أوليات ما شرع من أجله تخليص الانسان من الآصار الوهمية التي أنقضت ظهره ، والوساوس الجاهلية التي صلت عقله ، والجهالات الوراثية التي أفسدت قلبه ، حتى يكون من الذرة منها على مثل ما كان يوم ولدته أمه ، أي على الفطرة التي فطره الله عليها . هذه هي الحالة التي شرع الاسلام ليؤدي الانسان اليها ، وقد صرح له بأنها هي الدين القيم ، وكل ما عداه مما لم يثبت عليها ، ولم يتقرر عقليا ، فأضاليل مضلين ، وأباطيل مبطلين ، لا يصح له أن يرفع بها رأسا ، أو يقيم لها وزنا .

هذا هو الغرض الأول من الاسلام ، ومن أجل هذا استحق المسلمون أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ولهذا السبب جعلوا شهداء على سائر الأمم في غلوهم وتقصيرهم ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

لم يلبث الاسلام لصحة أصوله ، ومسوخ آدابه ، ونصوح حجته ، واستقامة محجته ، من الانتشار بين عشرات من الأمم ، أخذت به طوعية بدون إيجاب ، وجرت منه على سنن ظهرت عليها آثارها في سنين معدودة ، حتى آلت اليها خلافة الأرض ، وزعامة العلم ، وقيادة الأرواح .

ولكن الشعوب التي أخذت بالاسلام هي كسائر الشعوب سوادها الأعظم جاهلون أميون تأنس بقومهم للبدع ، ونسلس مقادتهم للمضللين ، فانتشرت فيهم تقاليد وعادات ليست من الدين في شيء بل مما يجافيه الدين ، وينافيه صريح الكتاب ، وصحيح السنة . فاضطر حمة الدين حيال ذلك أن يضعوا المؤلفات الكثيرة دعما لهذه البدع العاشية ، وزجرا عن هذه الضلالات الدائمة ، ولكن الأمية المستحكة كانت تحول دون الاطلاع على هذه الروايع ، فكان أثرها فيهم ضعيفا ، واكتسبت تلك البدع بسبب الاستمرار قوة ، واخذت بالدين في نظر الدماء حتى صارت لديهم كأنها جزء منه ، وأصبح لها من المرتزة دعاء يؤيدونها ، ويؤولون صريح الآيات لإثباتها ، وزادوا جرأة فوضعوا فيها مؤلفات تبررها .

حدث هذا كله في دور فتور الدولة الاسلامية ، واشتغال نيران الفتن في أجزائها ، وتغلغل عوامل التحلل في جنتها ، فلم تأبه لهذا التدهور المريع في نفسية بنيها ، فتركهم

وشأنهم . فلما تنبه المسلمون لاسترداد مكاتهم الاجتماعية ، رأى عقلاؤهم أن ذلك ضرب من المحال ما دام عامة المسلمين على ما هم عليه من الأخذ في دينهم بالباطيل ، وفي عقليتهم بالأضاليل ، وفي عاداتهم بالبدع ، فكيف تؤثر روح الاسلام الصحيح في شعوب استقاموا الى أصول ترجع بهم القهقري ، واستراحوا الى مبادئ تمنعهم الأخذ بما فيه نهوضهم وصالح شئونهم ؟

والموجب للأسف أن هذه البدع التي يدين لها جميع العامة ، قد طفت على كل شيء ، حتى على الحكومات ورجال العلم ، فترى أكثر حكومات الشعوب الاسلامية تشاطر تلك الشعوب رسميا في بدعها التي ليست من الدين ، وتحتفل بما يحتفلون به وعلى النحو الذي يجرون عليه . وبذلك لتشاهد ذلك فيما تسمح به من اقتناء الافراد مساحات واسعة من الارض لإقامة مدافن خاصة لهم فيها ، وتصرح لهم ببناء مساكن عليها وتخليتها بكل وسائل البقاء فيها من ماء وكهرباء وقاز ، حتى أصبحت مساحة المقابر تكاد تساوي مساحات للعوام ، مما ليس له وجود في أية مملكة من ممالك العالم ، وهنالك يرتكب من ضروب البدع باسم الاسلام ما الاسلام منه براء .

ومن مشايعة الحكومات للبدع العامة ساجها بإقامة الماسك ، وسد الطرقات في وجوه المارة بما ينصب من سرادقات ، وهي تقضي حفر الأراضي المرصوفة بالمساكن أو الأسفلت لإقامة السواري الخشبية عليها التي تحملها وتحمل المصابيح التي تعد على طول الشوارع المؤدية للدار الى مسافات بعيدة ، وفي تلك المرادقات ترتكب من البدع في حق تلاوة القرآن ما يعتبر دينيا من أشد الآثام .

وقد علق هوى هذه السرادقات بالأذهان الى حد أن أصبحت عشا ثقيلًا على مانق الناس ، ولكنهم يأتونها إما عملا بالسنة كما يكتبون ذلك في المناعي ، والسنة من ذلك براء ، وإما صيانة لمكانة المتوفى أو أهله بين الناس . وقد اجتمع كثير من أعلام العلماء ، وقرروا حرمة الجلوس للتعزيزة ونشروها في الجرائد . ولكنهم مع ذلك يأتونها على روس الأشهاد كأنهم ليسوا مكلفين بها قبل سوام من الدماء .

وأنجب ما شهدناه من هوى هذه السرادقات ، أن رجلا مات والدته فأخذ يستندي لإخراجها ، وإقامة سرادق لها ، أكف أهل السخاء ، وكنا نحن فيمن رأسم أهلا لبذل المعونة له . ولما مضى على وفاة والده أرعن يوما ، وكانت في حياتها تنبع قطعا من الحوى بجانب جدار ، أسرع الرجل وإحوته ، وما فيهم من يكسب ما يزيد عن قوته اليومي ، الى إقامة سرادق امتد بضعة عشر مترا سادين به الحارة الضيقة التي كانت تصل بين شارعين أهلين بالمارة ، احتفالا بمرور الأربعين على وفاتها . فلما بلغت الخبر عجبت غاية المحب وقلت لمن أطرفني به : ما أولى هذه الام بقول عبد الشاعر عبيد بن الأبرص :

لأعلمك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

ليس هذا كل ما تؤاخذ عليه الحكومات ويؤاخذ عليه العلماء ، فإن هناك من منكرات المساجد والمواالد ما لا يصح أن يصبر عليه .

فأما المساجد فقد أقيمت فيها القباب ، وأوقدت فيها المصرج ، وأدخل إليها القبور ، ورفعت عليها المقاصير ، ووضعت على شواهدها العمام ، وسمح للناس أن يطوفوا بها ، وأن يضرعوا إليها ، وأن يقبلوا الأرض أمامها ، وسمح لهم أيضا أن يقيموا لها الاحتفالات السنوية تحت اسم المواليد ، وأن يجتمع الناس حول تلك المساجد ذكورا وإناثا في حالة تهتك لا ترضى بها رجولة أمة تعرف كرامتها . وأغصى الطرف عن الفتن التي تتحق وتؤخذ فيها تسميه الذكر ، فيتأيل الذاكرون بمينا وقمبالا حول واحد منهم ينشدم بعض الأشعار الغرامية ، أو يغرب لهم على الصنوج النحاسية (الساجات) ، أو ينفخ لهم في صفارة ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

فهذا المظهر من طغيان البدع الذي أدى إلى اعتراف الحكومات الإسلامية بها ، ومشاركة العامة فيها ، وسكوت العلماء عنها ، هو موطن الخطر على صحة الاسلام ، وسقوط منزلته في نظر الباحثين والناقدين . فإنهم يقولون : إن الاسلام لو كان على ما يقوله أفذاذ المصلحين الذين نبثوا في جماعته ، خالسا من هذه البدع والمزعجات ، لما استطاعت الحكومات أن تشايع الدهماء فيها ، ولما صح العلماء لأنفسهم بأن يسكتوا عنها . لذلك نرى في جميع الكتب الأجنبية التي نقرأها التعبير بالاسلاميات على كل ما يعمل المسلمون في بلادهم مما يتصل بالدين ، حتى أصبح يتعذر على أي إنسان أن يقول لأجنبي : إن ما تذكره من الأعمال المنسوبة للمسلمين ليست من الدين ، لأنك تسمهه يصبح بك على الفور : إذا كان ما نقوله حقا فكيف نقايمهم فيه الحكومات ، ويسكت عنه العلماء ؟

كلمة حق بعد الذي مر :

لقد مرت على المسلمين حقبة من الفتور ، سنة الله في خلقه بعد كل دور من أدوار الانقلابات التي تدخل فيها الأمم ، قصت على أهله بالاستئانة للبدع ، والأخذ بها تقليدا للشعوب التي احتكوا بها في حياتهم الاجتماعية ، وتناولت عليهم الآماد فيها حتى أصبحت من تقاليدهم ، وابتنت عليها عاداتهم ومعاملاتهم ، وأصبح يستحيل سلخهم منها طرفة بدون تعرض وشائج ترابطهم الاجتماعي المعطر ، والقضاء على وجودهم الاقتصادي بالتزعزع ، بل وعلى عاطفتهم الدينية بالضعف .

إن الناظر من بعيد الذي يستعرض هذه البدع ، ويرى كل ما فيها من الشائعات المنافية للعقل والدين ، والشخافات الجافية للكرامة والوقار ، يدركه ما يدرك كل غائر على كيان أمتة من التحلل ، وكل حريص على شرفها من التدهور ، ولا يتألك نفسه أن يصبح بالحكومات الإسلامية وبالعلماء صيحات حماسية يثار منها الشر ، ثم يعود فيعجب من أن نداهم لم يصادف

مجيباً ، مع أن أولى الحل والعقد يرون كلهم مثل رأيه ، ويرجون القضاء على جميع البدع مثل وجائه .

يجب ولكنه لو كلف أن يعمل لاصطر أن يتشد كما يتشدون ، ولحسب لكل خطوة حسابها كما يحسبون .

إن أمراً في ثلاثة أسطر نصدره الحكومة يكنى لمنع أي سراق يقام لما تم في طول البلاد وعرضها ، ولا نجد من يعترضها في ذلك ، بل تصادف من التأييد والتحميد ما يملأ قلبها غبطة وسروراً . ولكن عُدْ متى كم بيتا تقضى عليه هذه الأسطر الثلاثة بالخراب من بيوت الفرائشين والحميمية والطهارة وصناع المقاعد من النجارين والمنجدين ، وعمال الأبسطة وباعة اللبن والقارئين ؟

قس على ذلك إبطال الموالد ، وزبارة المقابر ، وتشديد المدافن الخ مما لا يحصى كثرة ، ولكله تأثير بقدره في الحالة الاقتصادية مما لا قبل لحكومة على الإقدام عليه طرفة بغير تدريج .

فمعالجة هذه البدع والحالة هذه يجب أن تُستمد لها معونة الزمن الطويل ، فإن ما حدث واستقر ودخل في صميم العادات ، وابتنت عليه مهن وصناعات ومناجر يحتاج في إزالته إلى مثل الزمان الذي نشأ واصنولى على الأهواء فيه .

فإذا قلت : فكيف تسنى لرسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الوثنية وما يتعلق بها من بدع وعلامات ، وعلى الجاهلية وما تقوم عليه من سخافات وشناطات ، طرفة بدون تدريج في نحو عشر سنين ؟ قلنا : هذا موطن الاعجاز الذي تستدل به على نبوة خاتم النبيين . وهذا عمل لم يقم له شبيه في الأرض من يوم خلقها الله إلى هذا الحين . وقد لجأ صلى الله عليه وسلم إلى بناء أمة جديدة ، وأمجحه الله فيها ، مناقضة لجميع النواميس المعروفة عند البشر .

أما نحن وإن كنا نستهدى بهديه ، ونسترشد بسنته ، إلا أننا لا نملك مثل ما كان يأتى به من المدد الإلهي المعجز لتقوم الحجة على رسالته .

فالذي علينا اليوم نشر التعليم بين جميع الطبقات ، وإبطال ما يمكن إبطاله من بدع المساجد والموالد والمآتم دون التعرض لما يبتنى عليه تصدع في النفوس ، أو في البناء الاقتصادي ، مع الميل بالتعليم إلى حاسب التكرير في البدع ، والتشجيع على المنكرات ، فننشأ أجيال متعاقبة تنفى عن نفسها حيث هذه الطامات تدريجاً ، فلا تحدث صدمة لا في العاطفة الدينية ولا في البنية الاجتماعية ، ونصنع بفضل الله كما يرعده الاسلام منا أمة هادية مهدية ، مثالا يحذيه الناس أجمعون ، كما كان آباؤنا الأولون ؟

محمد فريد وجدي

معرض الآراء العالمية

في الاسلام والمسلمين

مراكشي تحتفظ بالتقاليد القديمة

جاء في حريدة (الكرونيك) التي تصدر بالفرنسية في دمشق ما يأتي :

« إن خلق المراكشي في المحافظة على التقاليد يتبين في العناية التي يبذلها لحفظ عادات الأسلاف فيما يتعلق على الأخص بملابس النساء .

« يعرف الناس أن الباشا التازي بفاس كان قد حذر على النساء المسلمات أن يخرجن لابسات الجلابية وهي من أزياء الرجال ، وأمرهن أن يحافظن على لبس الإزار التقليدي . وقد أخذ كثير من باشوات المدن الأخرى بهذه النصيحة في المملكة الشريفة بقصد مكافحة المودة الجديدة التي تقلب العادات القديمة رأساً على عقب . من هنا يسهل تصور الانتقادات العنيفة التي تلقى بها الرأي العام الاسلامي ما حدث من عبد الحفيظ توديس زعيم حزب الإصلاح بتطوان الذي شوهد يتنقل حديثاً في أشهر شوارع المدينة ، مستصحبا امرأته في زي أوربي صافرة الوجه . وكانت نتيجة هذه الجراة من زعيم حزب الإصلاح أن تقدمت اليه استقالات كثيرة من الحزب ، يعلن فيها أصحابها أنه لا ترجى فائدة من حزب مراكشي يقضى بالاستسلام لجميع المودات التي تأتي من الخارج »

(مجلة الأزهر) : من الذين يزجون بأنفسهم بقيادة أدوار النهوض في الجماعات الاسلامية بداء العناية بالقشور ، فترام قبل أن يعمدوا مجتمعاتهم الرجولية لآداب أرفع مما هم متصفون به ، ومبادئ أقوم مما هم عليه ، ويمهدون البيئة لقبول انتقالات جديدة بافتراض أنها شروط ضرورية للنهوض ، يعمدون الى الظهور بالنهايات والدعوة اليها ، فيبادرون الى إخراج نسائهم حاسرات الوجوه ، طاربات السواعد والسيقان ، على النحو الذي كان يأنف الشرق أن يسمح به لطفلة صررها سننان . ويغفل هؤلاء الرعماء الزائغون أن المرأة الغربية لم تلتزم الى هذا التمرى إلا بعد أدوار كثيرة أمضتها في السفور ، لا طرفة على ما عليه الحال في الشرق . من هنا يتبادر الى أذهان الناس أن الفرص من الجمجمة التي يقوم بها طلاب النهوض ، ليست إلا ستارا على مذهب إباحي ينشرونه على الرغم من الغيرة الفطرية في الرجال ، والنخوة القومية العزيزة عليهم فإذا كان هؤلاء الدعاة حكماء لجعلوا دينهم إصلاح النفوس ، وتقويم الأخلاق ، ومكافحة الخمر والقمار والفسق ، وهي أمهات جميع الرذائل ، والملاحقة لكل ضروب الفصائل . فإذا

استدعى الحال بمد ذلك أن تدخل الآراء النسوية في أدوار من الانتقالات ، جاءت مناسبة لما عليه المجتمع من أخلاق ، وما تمس به من آداب ، وكان ما يحدث مناسبة لما تتطلبه مصلحته الاجتماعية ، ومراعى فيه أصوله ومبادئه .

المتنطعون في الدين :

كتب المسيو ميشل رينو بجريدة (لا فرانس ميليتير) الباريزية تحت هذا العنوان : كيف قابل الكولونيل بيلاندو الحاكم على قسم من صحراء مراکش فيها بلدة الموزاب موطن المئسدين في الدين من مسلمي المغرب ، ثم قال :

« يعرف الناس هنا حياة الموزابيين العجيبة ، أتباع محمد ، وهم على ما يرجح من سلالة القرطاجيين القدماء . فقد أمروا أن يقيموا طريقة القرآن ، ويترجموا تعاليمه على ما يفهمونها ، أن يهجروا السهول الساحلية الثرية منذ ألف سنة ، وكانوا يعيشون فيها سمداء ، والإصعاد إلى هضبة جرداء كالصخر ، حفروا فيها الآبار العميقة ، وأنشأوا فيها من مواد مختلفة جمعوها من هنا وهناك ، سبع مدائن ، واستقبتوا في هذه الأرض الصخرية حدائق من النخيل وهو ما يعتبر من عجائب موزاب .

« ولكن تلك الناحية لا تكفي لصناعتها لإقناع ما فيها من السكان ، فاضطر عدد منهم للهجرة إلى إقليم الجزائر وقونستنتين ليشتغلوا فيها بدالين وحزارين وتجارا للجوخ . وهم على جانب عظيم من الذكاء ، ويعتبرهم الكافة أمثلة في الأمانة وفي حسن تصرفهم للأعمال .

« وقد حظرت الحكومة أن يحضروا معهم إلى موطنهم الجديد نساءهم أو بناتهم أو أخواتهم ، ولا سبيل إلى الامتناء في هذا الحظر ، لأنهم كثيرا ما سكنت جالياتهم مدينة الجزائر أو غيرها من المدن الساحلية والسهلية الفخمة ، وصرحوا بأنهم لن يعودوا إلى معيشتهم الخشنة في موطنهم الصغير ، ولكنهم على الرغم من هذا التأكيد طأداوا كلهم إليه بعد أن بلغوا منام من التراء »

« قلت : إن الموزابيين قوم أذكى ، ونجاحهم في التجارة يثبت ذلك ، ومع هذا تراهم غيبا لعوائدهم الخاصة . فقد اتفق أنه عند وصولي إلى موزاب كان الكولونيل بيلاندو في حالة حدال عنيف معهم . أتدري على أي شيء ؟ لأن السلطة العسكرية تريد أن تحل أسلاك السور إلى تلك البقعة ، فلما عرض هذا القرار على رجال الدين والحكام عندهم رفضوه بالإجماع . فدهش الكولونيل بيلاندو من هذا الرفض ، ولما سأله عن السبب أجابوه : نحن لا نريد الكهرباء في دورنا لأن المال الأوربيين أو الوطنيين الذين يكلفون إصلاح الأسلاك الممتدة على رؤوس الساريات يمكنهم أن يلقوا بأنظارهم إلى سطوح منازلنا ، وقد لا نخجل في ساعات الحر من التهار أن يكون نساءنا وبساتنا يرحن هناك .

« روى الكولونيل موضوع هذا التراجع وهو يضحك ، ولكنه أمل أن يقيم محكوميه بالمرايا التي تمنحها مدينتهم من هذا التجديد .

« ثم قال لي : ولقد اشتد عجبى حينما رأيت أن عددا من المعارضين كانوا ممن تاجروا في مدينتي الجزائر وقوسطنطين ، مدة سنين ، وأخروا كنه مزايا الضوء الكهربائي في محلاتهم التجارية » .

وختم الكاتب مقاله بتشبيه أهالي موزاب المغربية لطائفة البوريتان المسيحية .

(مجلة الأزهر) إن الطائفة المسيحية التي شبه المسيو ميشيل دينو بها أهالي الموزاب ، نشأت في إنجلترا في القرن السادس عشر حيث كانت قراءة السكتب المقدسة هي الشغل الشاغل للانجليز ، ومذهب هذه الطائفة هو العمل بأصول المسيحية بدون تأويل ، وهي تنحصر في الزهادة والتشقق وعدم الدفاع عن النفس ومقاومة الشر بالخير ، والتشدد في ذلك إلى آخر حدود التشدد .

لنا توجه الكلام إلى موريتان المسيحيين ، ولكننا نوجهه إلى أهل موزاب المغربيين ، فنقول : إنهم إذا كانوا قد تخيلوا أن ما فعلوه بأنفسهم هو الاسلام الصحيح فقد خدعوا أنفسهم من حيث لا يعلمون . فالاسلام الصحيح يدعو أهله لأن يحبوا حياة صحيحة فاصلة ، لا بالتشقق والشظف ، ولا بحرمان النفس من مزايا الصنائع النافعة والفنون ، ولا بالهرب من مزدحم المجتمعات ليعيش حيث لا تقع الأنظار ، ولا تحوم الظنون .

الاسلام لم يحرم على أهله متعة من متع الحياة ما دامت لا تفسد القلب ، ولا تلهي عن الحق ، ولا تدفع بالإنسان إلى رذيلة . وهم مأمورون أن يعيشوا في مزدحم الجماعات ، ومضطرب الشئون ليظهروا الحق الذي وكل اليهم الدفاع عنه ونشره ، وإسقاط الباطل وتخليص العالم من شره . فللمسلمين مهمة عالمية لا يكفل إسلامهم إلا بتأديتها ، والاضطلاع بأعبائها .

فكل من هرب من مزدحم الأمم بحجة أنه هارب بدينه ، فثله كمثل الهارب من ساحة الوغى ، فصلا عن أن ذلك يعتبر من أخط درجات حب الذات ، ومن أشد ضروب الاعتراف بالضعف .

فإذا لم يحصل الإنسان من كفاحه للضغائن ، ومكاولته للأتنام ، قوة نفسية يستقيم بها على الطريق وضما عن كل ما يحوشه من عوامل الاغراء والتسويل ، فلا يكون قد جنى من حياته ما بُعث به إليها ليحنيه من صحبة الرجولة ، وقوة الإرادة ، وعزوف النفس عن الدنيا ، وترفعها عن السفاسف .

وإذا كان الاسلام بما يصح أن يهرب به أهله إلى مجاهل الأرض ليستطيعوا أن يقيموه

فن الذي كلف إذن أن يقوم على نشره في الأرض ، ويتحمل ضروب المجاهدات على هداية الناس إليه ؟

إن مذهباً كهذا ينافي أصول هذا الدين ويخافها إلى حد أن الأخذ به يكاد لا يعتبر من أهله لولا أنه يعترف بصحته .

والذي رأيناه بأعيننا أن الاسلام قد لقي من أمثال هذه الطائفة ممن رجموا أنهم صوفية وليسوا منهم في شيء ، أشد مما لقيه من أعدائه ، فقد فهموه على غير حقيقته ، وصرفوه إلى غير وجهه ، ووقفوا به وليس من شأنه الوقوف ، وجدوا حيث هم وليس من صفاته الجود . في الاسلام من قوة التوثب والتطور ما ليس في أي مذهب من مذاهب الإصلاح الاجتماعية ، فقد أثبت ذلك من دفع ذويه في أدوار الانتقالات وثبا ، وغيرم لا يقطعها إلا أجواء ، وأحياناً بمدفقات طويلة من الوقوف ، فيكون من أعجب العجائب أن يقف مجتمع إسلامي أجيالاً حيث هو . والله لو كان هذا المجتمع مسالماً حقاً لما أمكنه هذا الوقوف !

الرأي الاسلامي ومشروع واردا

الفكرة تخالف التقاليد الاسلامية

جاء في جريدة بريطانيا العظمى والشرق تحت هذا العنوان ما ملخصه :

منذ منحت الأقاليم استقلالها الذاتي ، كان لآراء مستر فاندى عن التعليم ، تأثير ظاهر في نظامه في سبعة الأقاليم التي اشتركت في المؤتمر .

ويقوم المشروع على أسلين : الأول أن يكون التعليم عن طريق العمل الانشائي ، والثاني أن يصيب التلميذ شيئاً من الكسب المادي أثناء تعليمه .

وقد عينت جماعة المسلمين بالهند لجنة لفحصه برأسها بيروور فاعترضت عليه . ثم ختمت الجريدة هذا الموضوع بقولها :

والنقد الصحيح لمشروع واردا هو مخالفته للأفكار الاسلامية ، فإدام يجب أن يمشي المسلم إلى جانب الهندى في بلاد واحدة ، فلا سبيل إلى نجاح نظام التعليم إلا إذا كان أساسه التسامح والاحترام المتبادل .

والمشروع كما جاء في التقرير يحاول مرض الأفكار الهندية البعثة ، ولا يستبعد فقط تعليم الديانات التي تمتنعها الطوائف الهندية ، بل يحل محلها أفكار مستر فاندى الفلسفية .

محمد فريد وجدي

متى تسقط دعوى المدعى بالحق الشرعى

الخلافاً على ذلك بين علماء الفقه الإسلامى

أسلفنا لقراء المجلة سلسلة من البحوث تتلاقى كلها بمجموعة فى نظام الوقف فى الإسلام ، واليوم نعرض لبيان المدة الطويلة التى لا تسمع بعدها الدعوى إذا ادعاها مدعى فى مجلس القضاء ، وأقوال الفقهاء فى مدى تلك المدة ونعرضهم لتفصيلات لا يجيد الباحث فى نظام الوقف الإسلامى عنها غناء :

فما لا مشاحة فيه أن خلافاً نشب بين الفقهاء على تحديد المدة التى تسقط بعدها دعوى المدعى ، فقد روى العلامة ابن تيمية فى رسائله أن المدعى إذا ترك دعواه مدة طويلة من الزمن دون أن يدعيها فى مجلس القضاء ثم جاء إلى المجلس بعد مضي هذه المدة وادعاها وأنكرها المدعى عليه ، فإن كان الحق للمدعى إرثاً أو وقفاً منع القاضى من سماع الدعوى بأحداهما إذا مضى على المدعى دون أن يدعيها فى مجلس القضاء ثلاث وثلاثون سنة ، وإن كان المدعى شيئاً آخر غيرهما منع القاضى من سماع الدعوى به إذا مضى عليها خمس عشرة سنة . وروى صاحب البحر أن بعض الفقهاء قدر لسماع الدعوى بارت مدة خمس عشرة سنة .

ومن الحلى أن تلك الحيلة تتخذ فى مصالح الناس والابقاء عليها سليمة قطعاً لكل شك يتطرق إلى حكم القاضى فى صحته وبقائه نافداً محترماً .

من أجل ذلك كفلت قوانين المحاكم الشرعية فى مختلف أزميتها التنبه على هذه المدة حتى لأتمه سنة ١٩٣١ وهى اللائحة التى يجرى عمل المحاكم الشرعية عليها ، فقد نصت المادة ٣٧٥ على ما يأتى : « القصاة ممنوعون من سماع الدعوى التى مضى عليها خمس عشرة سنة مع تمكن المدعى من رفعها وعدم العذر الشرعى له فى عدم إقامتها إلا فى الارث والوقف فإنه لا يمنع من سماعها إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة مع التمكن وعدم العذر الشرعى ، وهذا كله مع الانكار للحق فى تلك المدة اهـ » .

وبدهى أن القضاء يجرى على تلك المادة فى سائر مناحيه ، وأن صوم تلك المادة يشمل دعوى الاستحقاق فى الوقف لأول وهلة ، لكن كثيراً من حضرات القضاة فى دوائرهم حرى على أن دعوى الاستحقاق فى الوقف كدعوى الملك تسقط بمضى خمس عشرة سنة على المدعى دون أن يدعيها فى مجلس القضاء طيلة هذه المدة ، وليست ملحقة بدعوى الوقف ذاته حتى لا تسقط إلا بمضى ثلاث وثلاثين سنة .

بقي أن يتضح بجملة مبدأ تلك المدة المضروبة لسماع الدعوى فى الارث وفى الوقف من جهة وفى غيرها من جهة أخرى : فقد توأص علماء الفقه الاسلامى وعلماء القانون المدنى على أن المدة تبتدىء من وقت ثبوت حق مطالبة المدعى وظهور واضح اليد على العين بمظهر المالك لها مقترنا ذلك المظهر بعدم قيام مانع شرعى يحول دون المدعى من إقامة دعواه كأن يكون أحد المتداعيين غائبا مسافة يتمنر على أحدهما معها مقاصاة الآخر ، أو يكون أحدهما مجنونا أو صبيلا لاولى له ولا وصى ، أو يكون الوقف شاغرا من النظر ، أو يكون المدعى عليه حاكما ذا شوكة مرهوب الجانب سريع الانتقام من خصومه ، وما الى ذلك من الاعذار القاهرة التى تحول دون دعوى المدعى فى خلال الأمد المضروب . وعلى كل حال فقد أفتى غير واحد من علماء الفروع بأن تقدير ذلك يفوض الى فطنة القاضى وقياسه .

وعلى الجملة فالأجل المضروب لسماع دعوى المدعى فى الوقف وفى الارث وفى غيرها وسقوط الدعوى بمضى تلك المدة مسائل مما كشفت عنها عظمت الماضى فاستبصر بها القضاء فى الحاضر ومنعها من تقديره أفضل قسط .

وقد فرغ العلماء على تلك العوائق بفروع منها :

(١) أن المرأة لو مات عنها زوجها أو طلقها بعد أربعين سنة من وقت النكاح مثلا فلها حق المطالبة بمؤخر صداقها المؤجل الى أحد الاجلين لأن حق المطالبة إنما يثبت بعد الموت أو الطلاق فتبتدىء المدة الطويلة منهما ، وأن المستحق فى الوقف إذا كان لا يستحق إلا بعد وفاة أبيه مثلا فإن المدة المانعة من سماع دعواه تبتدىء من تاريخ انتقال الاستحقاق اليه ولا تحسب عليه المدة التى ترك أبوه فيها الدعوى ، ولا يعتبر المانع من سماع دعوى أبيه مانعا من سماع دعواه لأن الحق ينتقل اليه من الواقف مباشرة طبق شرط الوقف ولا ينتقل اليه من قبل أبيه ، بخلاف الارث فإن ما يمنع سماع دعوى المورث يمنع سماع دعوى الوارث شرعا .

(٢) أنه إذا لم يظهر واضح اليد على العين بمظهر المالك لها كأن وضع يده مقرأ بالاجارة أو الامارة ، لا تسقط الدعوى عليه ولو طال المدة ما طال ، كما إذا أقر صريحا بالحق للدعى ، لكن إن جحد الاقرار بذلك وأراد المدعى أن يبرهن على إقراره تسمع دعواه وتقبل بينته ما لم يترك الدعوى من وقت الاقرار بالمدة الطويلة المسقطه لسماها .

هذا ولبحث تفاصيل لا يتسع لها هذا المقال . فالى النقد القريب لاستيفاء الكلام عنه فى أعداد تالية .

عيسى ط
الحامى الشرعى

نشيد الازهر في الحرب

قد سار الازهر ، فاحتفى بامصر ، وسيرى المعجذ
 كم قاد رجالك من قبل ومضى بالمر وبالسعد
 يحتال بالوية النصر
 أبطال الدنيا والدين أبطال ، عاشوا أحرارا
 يقصمهم من ورد الهون أسلاف ، عاشوا أطهارا
 وأناروا الدنيا بالفكر
 الازهر تحويه الحرب فتخال العالم يوتج
 أسد في وثبتهم غلب فطارب ليس له فج
 ينجيه من الموت المر
 اسمع أغنيي : عطار واهدر كالجلل الصوال
 إخوانك من حوك داروا فاضرب في صدر الأبطال
 وامنعهم من دمك العطرى
 ضيقت لنا الوادى بدى وموت بوجهى لله ١١١
 أفضى بهما حق التهم ومقام العبد الآواه
 لا تقربى ، صبقى سحرى
 فاروق لقد عز الوطن يوم اخترناك لسا ملكا
 نقديك وإن عز الثمن وننال بمعناك الفلكا
 فلتعني فلتشرق ومصر

عبد الجواد رمضان
 المدرس بكلية اللغة العربية

الدين والعقل — برهان القرآن

صرف حضرة الاستاذ احمد حافظ هداية حياته في وضع فهرست للقرآن الكريم يفوق
 جميع ما وضع منها حتى الآن ترتيبا وتوفية بالحاجة . وقد جاء فيه بالآيات الشريفة بنصها ،
 وأطلع عليه جمهورا من العلماء قبل طبعه فشهدوا له بالكفاية ومحموا له بنشر تقاريرهم . فنشكر
 لحضرة المؤلف همته ، وزجر لعمله إقبالا . وعنوانه شارع المدولى رقم ٣٤

أرجأنا مضطرين نقد وتقرظ ما لدينا من المؤلفات الى العدد القادم .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

فيما يجب أن يكون عليه الناس لو نشبت حرب

زار مندوب الجريدة المصور حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، فتمنّض وحمله هذه النصيحة لينشرها باسم فضيلته . ونحن ننقلها هنا تمعياً لإذاعتها في الاقطار الاسلامية كافة .
قال حفظه الله :

« آتني أنت لا تقع حرب ، فاذا لا قدر الله لم يكن من شعوبها مقر ، فصيحتي »
« للمصريين محوما أن يعتصموا بالصبر والسياسة ، والايمان بالله تعالى والتوكل عليه . »
« ومن التوكل على الله الأخذ بجميع الأسباب التي في مقدور الأمة أن تأخذ بها ، وأن »
« يعتقد كل مصري أن دفاعه عن وطنه نفسه أو بماله ، أو بالصالح للناس فرض ديني »
« يطلبه الله سبحانه وتعالى . »
« وواجب العلماء أن ينصحوا مواطنيهم بأخذ الآهية والاستعداد ، وبذل النفس »
« والمال في سبيل الدفاع عن الوطن . وكل قادر منهم على عمل من الأعمال يجب عليه أن يقوم »
« به . فمن كان في مقدوره أن يحمل سلاحاً ، أو يساعد المجاهدين ، فواجب عليه لبلاده »
« أن يفعل . »

هذه كلمة وجيزة ، ولكنها اشتملت على كل ما يجمل بالقادة وخاصة الدينيين منهم أن يقولوه . وإذا صح أن خير الكلام ما قل ودل ، فهو في هذا الموطن أصح منه في جميع المواطن ، لأن الحرب إذا كانت دفاعاً عن الحوزة ، ودياراً عن البيضة ، عم النفوس جيماً شعور قوياً بضرورة القيام بها على أكل وجه . وهنا كما في كل موطن تهدد فيه النفس بالاجتياح ، تقوم الغريزة مقام العمل الاختياري ، فلا تحتاج الجماعة ، لكي تهب على قلب رجل واحد ، الى أكثر من كلمات معدودة .

قلنا : الغريزة ، ونقصد بها ما تدل عليه عمياً ، وهي الاندفاع للعمل إيجاباً وسلباً بدون إجابة نظر ، ولكن من طريق الإلهام الإلهي . وقد هدى الله الى المحافظة على القادات جميع الحيوانات حتى المجردة منها من التعقل والتفكير ، كالبعوض والديدان الحفيرة ، فتراها إذا تهددت في مواطنها دافعت عن وجودها دفاعاً مجيداً حتى تنبذ أو تؤسر ، ولا تستسلم وفيها دألمه من الحياة .

وأغرب ما يُرى من فعل الغريزة للدفاع عن الذات، أنها غير مقصورة على عالم الحيوانات، ولكنها مامة حتى فيما هو في حكم الجادات، فترى اللسان في حالة المصع يتقى أن يقع تحت الأضراس وهو يؤدي وظيفته الشاقة من قلب اللقمة على كل جانب ثم القامها إلى الفكين .
فالحفاظة على الذات كما ترى من الأمور الضرورية المرتكزة على الغريزة الطبيعية، ولكن الإنسان في حاجة إلى السلاح الذي يدافع به عن نفسه، وقد خلق مجرداً منه اعتماداً على أن عقله يهديه إلى اتخاذ ماسبأ فرمته . فصارت الحاجة الإنسانية ماسة إلى التسليح وإلى انتخاب آخر طراز منه . وحوّز السلاح لا يغنى عن إتقان استعماله، وهذا لا يغنى أيضاً عن تعلم الطرق والأساليب التي تدار بها وحى المعارك .

لنأنا الآن في مقام التبسط في تفصيل هذا الاجال، وما دما قررنا أن الدفاع عن الحوزة يرتكز على غريزة طبيعية فلسنا نرى ضرورة للحض عليه، فهو كائن لا محالة، ولكن مهمتنا تنحصر في إضمار النفوس بأننا قد نضطر لخوض الغمرات في سبيله، ليأخذ كل منا أهبة للقيام بواجبه منه حين يُهاب بنا إليه .

لقد علم الناس جميعاً أن الحروب قد تطورت في هذا العصر، فبعد أن كانت تُقتصر على الجيوش المعماة على الحدود، أصبحت تشمل جميع أفراد الأمم ومن كلا الحسنيين معا . وبعد أن كانت لا تتمعدى اليانسة والبحر، أضحت في الهواء أيضاً . وهذا الضرب الأخير منها أشد هولا من ضربها الأولين .

فاذا كانت الأمة المحاربة قد تُؤكّي من فوق رءوسها، فيتساقط عليها وابل من قذائف ساحقة، وأخرى محرقة، وغازات سامة، صار من أوجب الواجبات أن يتعلم كل فرد ما يجب عليه إزاء هذه الحالة لنفسه ولأهل بيته ولكل من تعمل يده إلى إنقاذه .

هذه الحالة التي تطورت إليها الحرب هي أسوأ ما لجأت إليه شهوة الفتنك لزيادة السكاية في العدو، وأشنع ما دفعت إليه السحائم والإحس بقصد تعميم ويلات التخريب والتدمير .

فاذا كان يز علينا أن نُستباح بلادنا، وأن يُصاب مرضانا وشيوخنا ونساؤنا وأولادنا، وجب علينا أن لا نستسلم للذعر، فانه لا يفيد أمحابه شيئا غير الخذلان والتلاشي، ولكن علينا أن نتعلم كيف نقف جميع قوى عقولنا، وسائر وسائلنا المادية والأدبية، على الصمود لمثل هذه الصدمات لو وقعت .

نعم إن ضرب المدن غير المحصنة بالقنابل والغازات من الجو، ونسف الناس أشلاء ممزقة وهم في أكسار ديارهم، وفيهم الهرمى والزمنى والنساء والولدان، يعتبر تدلياً إلى الوحشية لا يتناسب وما بلغه الإنسان من العلم والحكمة، وتمشيا مسرماً إلى هدم معالم المدنية الإنسانية التي بذلت الأمم في إقامتها جهوداً مشكورة في عشرات كثيرة من القرون .

فهل نياس والحالة هذه من مصير السلام المرجو أن يسود بين الأمم ؟

اللهم لا ! فالامر في نظرنا موجب لزيادة التفاؤل ، فان الشيء لا يزول وينقضى عهده إلا إذا استشرت مضاره وأخطاره . والحرب كانت حاجة اجتماعية في عهد البشرية الأولى ، ثم صارت أداة لسط السلطان ، وإثبات العظمة ، عندما كانت تكاليفها لا تتمدى الجيوش المتحاربة ، ونيرانها لا تصيب إلا صدور المقاتلة الذين أضلواها . أما اليوم وقد عم الدمر منها الطفل السام في مهده ، والشبح ألهم في مخدعه ، والزمن الملقى على سريره ، والعداء الغضة في حدرها ، توقعا أن تهدم بيوتهم على رؤوسهم وهم قيام ، أو تنسرب اليهم الفازات المهلكة وهم نيام ، وفي سبيل انتقاء ذلك يُنقل ألوف المرضى وملايين الأطفال والنساء من مدنهم الى القرى والملاوات ، فان الفطرة البشرية أصبحت مجمعة على لمن الحرب ولعن من يوقد نارها من المخاطرين . وإذا أضفت الى هذا أن الغالب والمقلوب يستويان اليوم في تحمل تبعاتها ، ومكابدة فظائنها ، أدركت أن عهدها قد آذن بالزوال ، وأن هذه الحرب القائمة ستأني على سحق ماخى من حراييمها ، وبحق ما بقى من عواملها ، فيحل الحق في حسم المنازعات محل القوة ، ويقوم اللجأ الى العدل مقام الاحتكام الى الحديد والنار .

لسنا في تفاؤلنا هذا بمخدوعين ، فان العوامل التي ألجأت آحاد الجماعات الى الاتفاق على الخضوع للتحكيم ، بعد ما ثبت لهم أن اعتماد كل منهم على قوته الذاتية لا يتفق والحياة الاجتماعية ، تلك العوامل نفسها تضطر اليوم الجماعات المصرية لاستقاط حكم القوة ، وإحلال نظام التحكيم الدولى محله .

فقد مضى الزمان الذى كانت فيه كل أمة تستطيع أن تحيا مستقلة عن بقية العالم ، إندخلت المصالح الاقتصادية ، وثقابت الوسائل الصناعية ، وصار يستحيل على أمة أن تعيش مقطوعة الاتصال بسواها إلا إذا قبلت أن ترتكس الى الحالة الوحشية .

فأصبح التعاون بين الأمم اليوم حاجة حيوية ، وهو لا يكون من طريق فرض السيادة ، ووضع الأغلال على الأمم فى يديها ، فصار من أمس الحاجات العالمية تصافر الأمم على قدح أنف كل أمة متغطرة تريد أن تفسر سيادتها على الأمم من طريق القوة ، وإقامة محاكم دولية للمصل بين منازعاتها ، وهو الذى تقايل الأمم الداعية الى السلام فى سبيله اليوم ، وهى واصله إليه لا محالة ، والله ولي المصلحين .

محمد فريد وجدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

أدوار الدعوة الإسلامية وما لقي أهلها في سبيلها

ليس في الشئون الاجتماعية ما هو أشد على المصلحين من تغيير عادة من عادات أمة برمتها ، فضلا عن تغيير عقيدة من عقائدها ، فإذ ذلك بتغيير كل ما يخالف الحق والعدل من عاداتها ، والعقل والحكمة من عقائدها في سنين ممدودة ؟ هذا ما لا سبيل إليه في نظر جميع الذين طالجوا الشئون الاجتماعية ، ودخلوا في مصايقها ، وهو الذي قام به محمد بن عبد الله خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ، واعتبر بحق أدل آية على صحة رسالته . آية تنحطم حيالها كل ما يمكن أن يدعى به من الشبهات وهي راسخة رسوخ الجبال ، وتضمحل دونها ضروب الخسافات الكلامية وتتبخر في الهواء ، وهي ماثلة أمام الأعين مثل الشمس في رابعة النهار .

يقول شوبنهاور الألماني مؤسس المذهب النفاثي : « تخيل لجاهل أن كل حادث تعليله ميسور ولا تراءى له وجوه الإعضال فيه » ، وتخيل لجاهل فيما نحن بصده أن تعليل مجاح النبي في الانقلاب الذي أحدثه في الأمة العربية أمر ميسور ، وبمحوم فكره حول الشبهات التي يلقفها عن أعداء هذا الدين ، فيعزوه إلى البيان الساحر الذي أديمت به الدعوة الإسلامية ، ويعتبره أنه أن سحر البيان أنجز من أن يهدم ما بنته الأجيال في متناول الأحقاب والقرون ؛ أو إلى الإكراه والإجبار ، ويقتضى أنهما لا يكونان إلا بالقوى المسلحة ، وأين هي ممن لا ناصر له ولا معين ؟ فإن قيل : كان له الناصرون والمعينون . قلنا : هذا وجه الحيرة فكيف حصل على عدد عديد منهم بحيث تغلبوا على أمة بأسرها ؟ ثم سأل : وكيف بقوا أقوىاء مخلصين بعد مآلات زعيمهم ولم يفرقوا شذرا بذرا ، كما هي السنة في كل أمر لا يقوم على أساس من الحق ركين ؟

أشد ما تراءى إلى هؤلاء الفسريين من خصوم الإسلام ، أن العرب كانوا في دور نهوض ، فلما أهاب بهم محمد إلى العمل أبوابه متقادين ، ويفتحي هؤلاء المصلطون عن أنه لو كان لأهل الجاهلية ميل إلى الاجتماع والنهوض لما استنكروا ما جاءهم به النبي من النور المبين ، ولا لتفوا حوله متساندين متكاتفين . ألم يخلق أنه حين دعا النبي قريشا للدين وهي أرق قبائل العرب إدراكا وبصرا بأعقاب الأمور ، ثار ثأرها ، وجن جنونها ، وعلقت تعارض الدعوة بكل وسيلة

نطوف بخيال الجاهليين : الاستهزاء ، الاضطهاد ، المقاطعة ، حتى اضطر النفر الذين قبلوها للهجرة الى الحبشة مرتين ، واضطر من بقي للالتجاء الى شعبهم في الجبل يتقون فيه مباغنة إخوانهم الأقربين ؟ وبعد أن بقيت الحال على هذه الوتيرة ثلاث عشرة سنة اضطر المسلمون للهرب من وجه المشركين الى المدينة ، وتبعهم النبي صلى الله عليه وسلم خفية ، وقد اضطر في الطريق أن ياجأ الى غار يفض بالهوام والحشرات ، حتى استبعد متعقبوه أن يكون قد لجأ هو وصاحبه اليه ، لأن دخوله فوق مقدور الآدميين !

ثم ألم يبينهم أن خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر في المدينة ، وكان قد هدى الله أهلها للإسلام ، تتبعه فيها المشركون شائين عليه حروباً طاحنة ، قاصدين اصطلام المؤمنين ، والفراغ من أمر هذا الدين ؟

فهل يعقل أن قبائل تميل الى التوحيد والنهوض ، تهاهد دعوة مثل الدعوة الاسلامية أساسها توحيد القلوب ، وتطهير العقول ، وتوقية النفوس ، وجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والعيش على أكل وأهل ما يكون ؟

وهل لم يبلغ الخصوم أن قريشا ، وهي القبيلة التي كان يرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحيد والنهوض ، قد بقيت محاربة للدعوة الاسلامية ، تؤلب عليها العرب وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها يثرب لتبيد خفراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم أن يدهى الى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عنوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تنير على خلفائه الحروب ، وتنفر منهم القلوب ؟

فاذا كانت في بلاد العرب قبل عيسى النبي صلى الله عليه وسلم فكرة عن التوحيد والنهوض ، أكانت تنحطى صميم العرب من قريش وخزاعة ونعيم وهوازن الخ وتواوى الى قلوب أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج ، ولم يكونوا في مكة تسمح لهم بأن يحددوا أنفسهم بحركة من هذا القبيل ؟

وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت في رموس بعض مفكرهم ، فاذا قالوا فيها من شعر نظم ، أو نثر حكيم ؟ أكانت حركة بكاء لا تنبس بكلمة تدل على وجودها ، وقد تكلموا في كل شيء ، حتى في النسوق والفجور ، ونقل عنهم في حرص شديد ، ومبالغ فيه الى أقصى الحدود ، أفلا كانت تتراعى من أحد خطبائهم أو شعرائهم كلمة في هذا الموضوع الخطير ؟

لقد حرص نقلة اللغة ممن عاشروا أهلها في الدواة على نقل كل كلمة من كلامهم ، حتى الدالة على الهنات ، وأطلبوا في ذكر بلاغة قائلها ، ونوسعوا في سرد نسيه ، وتمداد مناقبه ، أفلم يمتروا على اسم شاعر دعاهم للوحدة أو خطيب أهاب بهم للنهوض وهي دعوة بملاً صداها المعمور ؟ الحق الذي لا مرية فيه أن بلاد العرب لم تقم فيها دعوة ترمي الى توحيد قبائلها ، وإصلاح

نفسيتها ، وتقويم ديانتها ، ولو كان لثرامت إليها أضرارها مكبرة مضخمة ، لأن هذه الحركة الإصلاحية لا يمكن أن تكون خفية ، فهي شعور تولده في الجماعات الحاجة ، وتهيته العوامل ، تضطرب له أعصابها ، وتنفلت له أعضاءها ، وتنشأ تحت تأثيره أخلاق جديدة ، ومرام بعيدة ، تدرك تطوراتها الشعوب البعيدة عنها ، فما ظنك بالقرية منها ؟

أما وقد ثبت ذلك بكل دليل ، فإن مصداقه من القرآن الكريم قول الله تعالى في كتابه : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا (أي حين نادينا موسى) ، ولكن رحمة من ربك ، لتسدر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

كيف انتشر الاسلام في بيئة الجاهلية ؟

لو تصدى أحدنا أن يتخيل ما يمكن أن يعمله رسول أمر أن يقوم بدعوة جديدة في وسط هذه البيئة الأمية المتشددة في جاهليتها ، لما وجد لذلك طريقا مقبولا ، إلا ما سلكه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يدعو أولا أهل بيته ، فأمنت به امرأته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان في كفاله لضيق ذات يد والده ، وكان إذ ذاك قد هاجر من الحلم ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان مولاه اشتراه ثم أعتقه وتبناه ، وأم أيمن حاضنته .

ثم رأى صلى الله عليه وسلم أن يدعو سرا من يعرف فيهم رجاحة العقل ، وسلامة الفطرة ، والزروع إلى الحق ، فشافه بالدعوة أبو بكر بن أبي قحافة ، وكان صديقا له ، فأسرعه إلى تصديقه ، لما يعلم فيه من الصدق والأمانة والاخلاص . وكان أبو بكر من عظماء قريش ورجالها المعدودين مالا وجاها وسخاء ، وكان محببا إلى الناس مبجلا فيهم ، لذلك اتخذته النبي صلى الله عليه وسلم وزيرا له ، يستشير به في جميع ما لم ينزل فيه وحى .

فقام أبو بكر من ناحيته بدعوة من يثق بنضوج عقله ، وصحة منطقته ، فلبى دعوته رجال : منهم عثمان بن عفان ، وكان شابا لا يجاوز العشرين . فلما تراءى إلى عمه الحكم بن عفان حبر إسلامه ، قبض عليه وأوثقه كنانا ، وآلى على نفسه أن لا يحمله حتى يرجع إلى دين آبائه ، فتحمل عثمان هذا الاصطهاد بصبر وثبات . فلما رأى عمه تغايبه فيما هو فيه ، أطلقه .

ومنهم الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب ، فلما بلغ عمه خبر خروجه عن دين آبائه كان يعضه بأن يعضه في الدخان المتصاعد من الحريق ، فلم يزد ذلك إلا تشبعا عما هو فيه على أنه لم يتعاون مع الحلم .

ومنهم عبد عمرو بن عوف بن عبد عوف (وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمه فجعله عبد الرحمن بدل عبد عمرو) .

ومنهم سعد بن أبي وقاص ، وكانت أمه حننة بنت أبي سفيان بن أمية ، فلما علمت بصبوته

عن دين آباؤه قالت له : بلغني أنك قد صمات ، فوالله لا يظننى سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد ! فلم يثنه ذلك عن عزمه واستمر على ما هو عليه .

ومنهم طلحة بن عبيد الله ، وكان يسمع من أهل الكتاب أن نبيا سيرسل في آخر الزمان ، فلما سمع دعوة أبي بكر باشر إلى الاسلام .

ومن سبقوا إلى الاسلام مسوقين إليه بدافع وجداني ، صهيب ، وكان صدرا روميا ، وعمار ابن ياسر وأبوه وأمه حمية ، وعبدالله بن مسعود ، وكان راعيا للغنم ، فلما سمع ببعث رسول الله اتبعه ولا زمه ، فكان يمشي أمامه ، ويستتره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ، وأبوذر الغفاري ، وكان من أهل البداوة ، فصيح اللسان حلو الحديث ، وسعيد بن زيد المدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ، وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو سلمة بن عبد الله بن حمة رسول الله وزوجه أم سلمة ، وهشام بن مظعون الجمعي وأخوه قدامة وعبد الله بن أبي الأرقم ، والأرقم ، وخالد بن سعيد بن العاص ، فقضب عليه أبوه ومنعه الغناء ، فأوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم بعده أخوه عمرو ابن سعيد .

حدث كل هذا والنبي مخنف في دار الأرقم بن أبي الأرقم يدعو إلى دينه سرا . ثم أمره الله بالجهر بالدعوة في قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، فصعد على جبل يقال له الصفا وطلق ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطن قريش ، فكان الرجل إذا لم يستطع الخروج بنفسه ، أرسل من يأتي له بالخبر ، فلما اجتمع الناس قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ » قالوا : نعم ما علمنا عليك كذبا . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »

فلم يرفع أحد بما قاله رأسا ، ولم يتم له وزنا ، وأغلظ بعضهم له القول ، ثم تولوا عنه مدبرين . عند ذلك أزل الله عليه قوله تعالى : « ونذير عشيرتك الأقربين » (وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس) ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون » فاستدعاهم رسول الله وقال لهم : « إن الزائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله تموتن كما تتامون ، ولتبعن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لدار أبدا » ١

فكلهم القوم كلاما ليئا إلا عمه أبا طه فإنه أغلظ له القول ، وصاح بالناس أن خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذن ذلتم ، وإن منتموه قتلتم . فأجابه همه

الثاني أبو طالب قائلا : والله لننعه ما بقينا ، وقد بر يمينه . وكان الجهر بالدعوة في السنة الثالثة من النبوة .

عهد الاضطهاد وما لقي منه النبي والمسلمون :

لما أمر صلى الله عليه وسلم بإعلان الدعوة ، أخذ يقضى مجالس قومه ويدعوهم للإسلام ، ويبالغ لهم في إظهار حجته ، ووجاهة محبته ، ويكثر لهم من الأدلة من عوج طريقته ، وبطلان دياتهم . فكابوا يقابلونه بالسخر والاستهزاء ، كأن يقولوا : هذا ابن أبي كبة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، ولا يتجاوزون هذا الحد . ولكن لما أخذت الآيات تترى عليه في تسفيه أحلامهم ، وتحقير آلهتهم ، وتفضيل آبائهم ، تغير موقفهم حياله ، وانتقلوا من مجرد الاستهزاء الى ضروب من الايذاء ، وصنوف من الاضطهاد لا نطاق .

دخل عليهم النبي يوما المسجد الحرام فوجدهم يسجدون للأصنام ، فنهام عن ذلك ، وأبهم على خروجهم على دين أبيهم إبراهيم . فأجابوه : إنا إنما نسجد لها لتقربنا الى الله . فبين لهم بأن ذلك هو الشرك الذي لا يقبله الله منهم ، ونهى عليهم استرسالهم فيما هم فيه ، فأجمعوا على مخالفته ومناذته ، كما يحكي الله ذلك في قوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهًا واحدًا ؟ إن هذا لشيء عجيب . والنطق الملاءم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليترقوا في الأسباب . جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كدبت قبلهم قوم نوح وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صبيحة واحدة ما لها من فؤاد » .

وكان ما أجمع عليه المشركون معاكسة النبي صلى الله عليه وسلم بكل وسيلة ، ومحاربة دينه بكل حيلة . فصاروا ينحسكون بالمسلمين ويحاولون حملهم على الرجوع الى دينهم بعد أن صاروا مسلمين . وكان أكثر الناس سعيًا في هذه السبيل أبو جهل وهو من أشرف قريش ، فكان إذا سمع بإسلام رجل تابعه الله كرجل جليل القدر ، لآمه وهدده قائلا : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لتسفرن جارك ، ولتخلين رأيك ، ولتضمن شرفك . وإن ترى إليه إسلام ناجر ، قال له : لتكسدن تجارتك ، ولتهلكن مالك . وإن كان الذي أسلم مستضعفًا أهانه وضربه . وقد تعنف المشركون في ضروب التعذيب حتى لم يدمروا وجهًا من وجوهه إلا أخذوا به حتى الأيلام بالنار . فقد عذبوا بها حمار بن ياسر ، وعذبوا بها أيضًا أباه وأخاه وأمه . فأت ياسر من أثر النار . وأخذ أبو جهل امرأته فعذبها ثم طعنها برمح فقتلها .

وقيل في تفصيل هذا التعذيب إن أبا جهل كان يلبس عمارا درما من الحديد في اليوم الصائف .

ومن عذب في الله خباب بن الارت ، وكان يحدث عن نفسه فقال : لقد رأيتني يوما وقد أوقدت لي نار ووضعوها على ظهري فأطفاها الاودكة ، أي دهنه .

وكان قد أسلم غير خباب عبيد كثيرون ، فكان مواليتهم يذيقونهم عذاب الهون ، رجاء أن يصبأوا عن الاسلام فما كانوا يفعلون . وكانت أبو بكر إذا مر بعد يعذب في الله ، اشتراه وأعتقه ، منهم بلال مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمامة أم بلال وبنتها ، وزُبيدة .

فكان مولى بلال يخرج إذا هبت الظهيرة بعد أن يجيمه ويمطشه يوما وليلة ، فيطرحه على ظهره في الرمضاء . أي الرمل إذا اشتدت حرارته ، ثم يأمر بالصخرة الثقيلة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتمود إلى عبادة اللات والمزي !

أما زُبيدة وأخت عامر بن فهيرة ، فكانتا لعمرو بن الخطاب قبل أن يسلم ، فربى أبو بكر وهو يعذبهما بالضرب فاشتريهما منه وأعتقهما . أما عامر بن فهيرة فكان يعذب حتى يخرق ممشيا عليه ، فاشتراه أبو بكر كذلك وأعتقه .

وكان أبو مكينة عبداً لصفوان بن أمية ، فأخرجه في يوم شديد الحر مقيداً إلى الرمضاء ، ووضع على بطنه حجرا حتى خرج لسانه وهم صفوان حاضر ، فكان يقول لابن أخيه : زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره . فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وأم هنس كانت أمة لبي زهرة ، وكان الأسود بن عبد يغوث قد ثوى لعمديتها بأشد ما يستطيع قلب صلد أن يفعله ، فصادفه أبو بكر فاشتراها وأعتقها . واشترى كذلك ابنتها لطيفة وكانت تُسام أشد العذاب ، وأعتقها . واشترى لبنة جارية الموثل بن حبيب ، وكانت تلاقى من سيدها أظفح ما يلقاه ضعيف من قوى .

ومن أودى في الله أبو بكر نفسه ، حتى أنه ثوى أن يفريدينه من وطنه ، فقصده الحبشة وسار حتى أتى برك الغداد ، وهو موضع يبعد عن مكة بخمسة ليال ، فلقبه سيد قبيلة القارة ابن الدغنة فسأله عن وحيته ؟ فقال : أريد أن أصبح في الأرض وأعد الله . فقال : مثلك لا ينبغي أن يخرج ، فأنا لك جار ، ارجع وأعيد ربك ، وصحبه ابن الدغنة حتى أتى قريشا وقال لهم : مثل أبي بكر لا يصح أن يخرج . فقبلت قريش جوار ابن الدغنة ، وشرطوا على أبي بكر أن لا يعلن صلاته ولا قراءته . فقبل منهم ذلك ، ولكنه ابتنى لنفسه مسجدا في فناء داره ، فكان يجلس فيه ويقرأ القرآن ، وكانت تجتمع عليه نساء المشركين وأبنائهم معجيين به وبشوقهم . فغنى المشركون أن

يفتنهم ما يرونه فيه ، فأسلوا لابن الدغنة يشكونه إليه ، فغضر وقابل أبابكر وقال له : إما أن تقتصر على ما اتفقنا عليه وإما أن ترجع إلى ذمتي . فقال أبو بكر : إني أرد عليك جوارك ، وأرضى بحوار الله افتقصده المشركون وألحقوا به من ضروب الاضطهاد ما لا يصبر عليه إلا مثله لحوء قريب إلى المسألة بعد يأسهم من تأثير الاضطهاد .

لما رأى المشركون أن ما صبوه على المسلمين من ضروب الأذى والاضطهاد لم يزد لهم إلا تمسكا بدينهم ، وتعلقا بنبينهم ، اجتمع قاداتهم وتشاوروا فيما يعملون . فأشار عليهم عتبة بن ربيعة العبشمي وكان سيدا مطاعا ، بأن يذهب إلى عهد فيعرض عليه أمور العله يقبلها ويقطع عما هو ماض فيه . فقبلوا رأيه . فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فصادفه يصلي ، فلما أتم صلاته فأتته الحديث وقال له : « يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، وإليك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفقت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آياتهم ، فاصمع مني أعرض عليك أمورا تمطر فيها لعلك تقبل منها بعضها » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد اسمع » .

فقال له الوليد . « يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا أجونا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرنا سودناك علينا حتى لا تقطع أسرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربي من الجن لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى » .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ »
قال نعم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فاصمع مني :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعطون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إليه واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا

أَتَيْنَا طَائِفِينَ ، فَقَضَاهُن سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحُفَّتْهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ هَادٍ وَنَمُودٍ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَأَنَّا بِنَا أَرْسَلْنَا بِهِ كَافِرُونَ »

لَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، أَمَسَكَ عَتَبَةَ بَنِيهِ وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكْفَ عَنْ قِرَاءَتِهِ .

فَلَمَّا رَجَعَ عَتَبَةُ إِلَى قُرَيْشٍ قَالَ لَهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ . وَاللَّهُ مَا هُوَ بِالْغَمْرِ ، وَلَا بِالْكُهَانَةِ ، وَلَا بِالْحَجَرِ . يَأْمُرُ قُرَيْشٌ أَطِيعُونِي فَاجْعَلُونِي لِي ، خَلَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ ، فَاعْتَزَلُوهُ . فَوَاقَهُ لِيَكُونَ لِكَلَامِهِ الَّذِي سَمِعْتَ نَبَأً ، فَإِنْ تَعَبَهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَعَزَّهُ عَزَمُكُمْ !

فَقَالُوا لَهُ : لَقَدْ سَحَرَكَ مُحَمَّدٌ !

فَقَالَ لَهُمْ : هَذَا رَأْيِي ، وَتَرْكُهُمْ وَشَأْنُهُمْ .

يَتَجَلَّى مِنْ سَفَارَةِ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرٌ ذُو دَلَالَةٍ قَوِيَّةٍ فِيمَا مَحْنُ لَصَدَدِهِ : ذَلِكَ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَا قَدَّمَهُ مِنَ الْمَغْرِبَاتِ لِحَاثِمِ الْمُرْسَلِينَ كَانَ هُمُ مَصْرُوقًا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْحَافِظَةُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ عَلَيْهَا ، فَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ حَرَكَةٌ تَطُورُ لظَهَرَتْ جَلْبَةٌ فِي كَلَامِهِ ، بَلْ لَجَعَلَهَا مَحْوَرِ حِوَارِهِ ، وَلَمَّا هَادَ إِلَى قَوْمِهِ لَمْ يَنْصَحْهُمْ بِاتِّبَاعِهِ ، بَلْ لَمْ يَتَّبِعْهُ هُوَ نَفْسَهُ ، وَكُلُّ مَا أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِهِ أَنْ يَتْرَكُوهُ وَشَأْنَهُ ، فَلَمَّا أَنَّ يَكْفِيهِمُ النَّاسُ أَمْرَهُ فَيُطْمَئِنُّوا عَلَى عَادَاتِهِمْ وَوُثْنِيَّاتِهِمْ وَنِظَامِهِمُ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَإِمَّا أَنْ تَكْثُرَ أَنْصَارُهُ وَيَسُودَ فَيَسْتَفِيدُوا مِنْ عُلُوِّ شَأْنِهِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَأَقْرَبَاؤُهُ ، وَلَيْسَ هَذَا شَأْنُ الْجَنَاحَاتِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا عَوَامِلُ النَّهْوِضِ وَالنُّطُورِ . وَلَيْتَهُمْ رَضُوا بِهَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْحَيَادِ الَّتِي دَعَامَ إِلَيْهَا عَتَبَةُ ، وَلَكِنْهُمْ رُؤُوسُهَا لَا تَطَاقُ حَيْلُ دَعْوَةِ يَرْشُكُ أَنْ تَتَمَرَّ ثَمَرَاتُهَا فَتَنْقَلِبَ مِمَّا جَمَدُوا عَلَيْهِ آمَادًا طَوِيلَةً ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهُ حَوْلًا .

إِنَّ الدِّينَ يَرِيدُونَ الْفُضْ مِنْ تَأْثِيرِ الْإِسْلَامِ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لِتَقْلِيلِ شَأْنِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، يَبْذُلُونَ جُهْدًا عَظِيمًا فِي تَحْرِيقِهِ هَذَا التَّمْلِيلِ ، وَفَتْتَنَ بِهِمْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِقَصْدِ تَمْجِيدِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَكِنْ لَا أَوْلَئِكَ وَلَا هَؤُلَاءِ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا عَلَى مَا يَقُولُونَ بِسُلْطَانِ بَيْنَ ، لَا سِوَا وَأَنَّ أَدْوَارَ الْمَشَادَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ تَقَفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، كَمَا سَتَرَاهُ فِي الْمَقَالَاتِ التَّالِيَةِ مِمَّا لَا يَدْعُ مَقَالًا لِقَائِلَ ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ مَا

محمد فريد ومجدي

التفسير

تمة تفسير سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسمعناك في مقالنا السابق من دلائل الإلهية وآيات الربوبية ما ينشرح به الصدر ، ويتضح به الأمر ، على نهج ما تفتن فيه كبار الفلاسفة قديما وحديثا ، سالكين في ذلك طريقة القرآن من الوضوح والبيان ، وسنسمعك اليوم ما يزيد به إيمانك ، ويتم به إيقانك ، إن شاء الله . ولا غرو فهو أجل المطالب وأعظم الرغائب ، فأقول وبالله التوفيق :

إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئا أو نظر الى شيء أحس بوجود الله عز وجل ، وكأن شيئا يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهد روعه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس طاعته الذي أثر فيه ، ومبدعه الذي تحل بين خوفه ، لأن الروح الانسانية لا تعقل أثرا بلا مؤثر ، ولا نظاما بلا منظم ، ولا حكمة بلا حكيم ، ولا سرا بلا عليم ، بل وجود الله عز وجل عند الانسان الذي لم تقصد إنسانيته من أول ما غرس فيه ، فهو أوضح بدهياته ، وأول أولياته ، متى أحس بروحه أحس به ، لأنه لا يمتل وحوده بنفسه ، فهو مقترون بوجوده ، والاحساس به ملازم للإحساس بنفسه ، ولا يمكن أن ينطلي ذلك منه وإن كان يغفل عنه « ولئن سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم أنزلهم من فوقهم أم لا يؤقنون » « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبالباب »

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس ، أقرب اليها من الاحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبي بالأجنبي ، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه ، ومع وجودها وجوده ، وفي أعماقها قبضه وجوده ، وفي أحداثها النظر اليه ، ومركز في طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه »

وسر ذلك أن طبيعتها معجونة بمعرفته واللجأ اليه ، والاحساس به مغاض عليها من نوره

بحيث يجعلها تذهل عن نفسها ولا تذهل عنه ، خياتها في الحقيقة بأنسه ، وفرحها ليس إلا بنور قدسه ، فلا يمكن أن يفارقها إحساسه ، أو يزاوئها إنسانه ، ولكن الناس بسوا الله فأقسام أنفسهم ، فبقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعدهم منه ، فصباحان من يحول بين المرء وقلبه ، ولبص الحجاب بينه وبين ربه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد . غاية الأمر أن الآوهام البشرية والخيالات الجسمانية التي لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تتصور غير المكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوقاتها ، وهي لا تعرف إلا ما كان محددا مقيدا ، وهو يملو من التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تكيفه وهو لا ينكيف ، وأن تقبده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لا ينشأه ، فتفر منها وبمد عنها ، فلم تقع عليه ولم تصل إليه ، وتنادى منادى العزة : إنك أنتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ سنائه ، أو معرفة مداه ، فليس فيك صلاحية لذلك ، ولا خلقت قابلة لما هنالك ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما أن العين لا تدرك الهواء وهي واقفة مع رقعتها على ما حد لها من درجتها ، كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ، ولا يملو إلى أفق الروحانيات ، ومحال عليه أن يعرف رب الأرض والسماوات ، الذي جل عن الكيفيات ، وعلا عن القياس وتزده عن إدراك الحواس .

ولكن فيك أيها الإنسان عالمنا يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ، فيمكنه أن يستلم شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك القهار ، ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بحمال تلك الإشراقات . وأما أنت أنتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد ، وليس لك من هذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ، فقلدى الروح فيما توجه اليك وتلقيه عليك ، فهي التي تعرف وتعرف ، وتسجد وتقترب ، فليعرف كل عالم من عوالمك قدره ، ولا يتجاوز طوره ، فان طلبت أن تعرف عوالمك السفلية فقد طلبت أن تحده ، والمحدود لا يكون إلها للآشياء ، بل يكون له ما لها ، وعليه ما عليها ، وما هي إلا نزعة عباد الأصنام وأسراء الآوهام .

ولعمري لو رجعت إلى نفسك ، ولم تتقيد بمألوقات حسك ، لو جدتها أول البدييات ، وأوضح الواضحات ، لا تحس بوجودك إلا أحسست بوجوده ، غير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه بالتكيف ، والإله يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلها كما قلنا ، بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهي التي أمدتك بكل شيء ، وأفاضت عليك كل شيء ، ولست شيئا إلا بها بل ما أنت إلا هي ، ومع ذلك لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخرجها عن عالم التقييد والتكيف : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فما بالك تطمع في إدراك الاطيف القدوس الذي فوق كل شيء وما يماثله شيء ؟ جل أن تشبهه

الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » ، بل أنزل بك الى ما هو أقرب من هذا ، فإنه لا يمكنك أن تعرف عالم الجن فانك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك من الماديات التي بين يديك وتحت أسرك وتصرفك ما لم تصل اليه ولم تعرف كنهه ، مثل الكهرباء والسر المودع في المغناطيس ، الى غير ذلك من أسرار الطبيعة التي أودعها الله في المادة ولم يعرفوا إلا ظواهرها لا حقائقها ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هي المادة وما حقيقتها ، الى آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التي خروا لها ساجدين ، وظلوا أمامها مبهوتين ، مع كونها من العالم الكشيف لا من العالم الخفي ، ومن الماديات لا من الروحانيات ، فما أجدرني أن أنشد قول الغزالي :

قل لمن يفهم عني ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
نم سر فامض من دونه قصرت والله أغناق النحول

هذا ، وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ، ومن ذاق نور الوجود الحق بوجدانه وأدرك الأمر من أصله فهو غني عن البيان ، ومن وصل الى حد العيان فلا حاجة به الى البرهان . وعلى كل حال فنطاق التعمير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع الى نفسك فمجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس ، وإذا عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شيء بعد ذلك أكثر من ذلك الوجدان ، ولا معنى لأن تطلب شيئاً نجده في نفسك ونحس به في أعماق قلبك ، ومن كان في أصل الشجرة فلا معنى لأن يستدل بأوراقها عليها ، بل يعرف أوراقها وغصونها وتمازها وخوصها التي هي ظلها ومستندة منها ، ولا قوام لها إلا بها ، بما يشاهده عياناً ووجداناً من أصل تلك الشجرة التي يحس بها مغروسة في نفسه وبين أعماق قلبه ، وإذا كان الشيء أقرب الأشياء إليك وأخذت تبحث عنه من بعيد ، كان ذلك سبباً في هدم وصولك إليه لا في تنورك عليه .

ولا بأس أن نذكرك بما قلناه في بعض ما كتبناه : إن الحار إذا صربه ضارب ، التفت لينظر الصارب ، لأنه لا يجوز أن يوجد ضرب بلا ضارب . فمن أنكر وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر قدرته ويدافع حكته ، فهو أجهل من الحار ، الذي لا ينكر المؤثر مع وجود الآثار . وقد قال لي يوماً بعض أذيل الماديين : بماذا تردون على الطبيعيين الذين لا يقولون شيئاً وراء المادة ؟ فقلت له : إن الرجل العاقل المسلم يمكنه أن يفهم أساطين الماديين ، فضلاً عن العلماء والفلاسفة من الموحدين ، فإن ما يشاهده ذلك العاقل من حوادث الجن التي يعرفها حق المعرفة ، وقد شاهدها سراراً ، تحرق كل نواويس المادة التي يتقدمها الماديون ولا يثبتون شيئاً وراءها .

وقد جاء في أحد أعداد المجلة الطبية الرئيسية هذه العبارة : « ليست الفكرة الواحدة

إلا اتحاداً يشبه اتحاد حفص « التوسفوريك » والتفكر نفسه ناتج من التفسور الذي هو في تركيب المخ. فرد عليها العلامة الشهير « كاميل فلامريون » قائلاً: من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين؟ إن الناس يتوهمون أن معلمكم يعلمونكم هذه الهديات مع أن الأمر بخلاف ذلك، لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمي إلا هباء منثوراً. على أي لا أدري أي الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر: أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم، أم من سخافة ادعاءاتهم؟ إن نيوتن كان يقول: « يظهر لي » وديكرت كان يقول: « إنني أستدل حكمي في هذه القروس ». ولكن هؤلاء يقولون: نحن نثبت، نحن نذكر، هذا موجود، هذا غير موجود، العلم قد حكم، العلم قد أقر، العلم أدهش، مع أنه ليس فيما يقولون ظل من الرهان العلمي. إلى أن قال: إنكم تتجاسرون أن تعلموا للعلم هذا العبء الثقيل، ولئن سمعكم العلم أيها المادة لقد حق له أن يضحك استهزاء من غرورك! إلى آخر ما قال.

ولنحتم كلتنا هذه بقول الله عز وجل: « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ». فانظروا لنفسك وأشفق عليها، فإن الأمر والله جليل « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ». ولنقل من كل قلوبنا:

اللهم يا من ليس في السماء من قطرات، ولا في الأرض من حبات، ولا في هبوب الريح من ولحات، ولا في قلوب الخلق من خطرات، ولا في أعصائهم من حركات، ولا في أعينهم من لحظات، لا وهي لك شاهدات، وعليك دالات، وبروبييتك معترفات، وفي قدرتك متعيرات. فأسألك يا الله بالقدرة التي تحير بها من في الأرض والسموات، أن تحلأ قلوبنا بقيتنا، وأن ترزقنا حبك وحب من أحبك، وحب ما يقربنا إلى حبك، وأن لا تسكننا إلى أنفسنا طرفة عين بمنك وكرمك؟

يوسف البرهوي

عضو جماعة كبار العلماء

الشيعة

الوحي

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : « أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته يتزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليبتعد عرقا » . رواه البخاري :

رأينا من الحسن أن نقصر كتابتنا في مجلة الأزهر على شرح أحاديث البخاري الهامة في كل باب من أبوابه ، لينتفع به طلاب العلم وغيرهم من قراء المجلة ، ورأينا أن نبدأ بهذا الحديث من أحاديث الوحي ، والله المستعان :

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الوحي وبيان أقسامه (٢) كيف يتمثل الملك في صورة رجل ؟ وهل الملك مادي أو مجرد عن المادة ؟ (٣) شرح باقي ألفاظ الحديث .

(١) يطلق الوحي في اللغة على عدة معان ، منها الرسالة ، فيقال : أوحى إليه وحيا بمعنى أرسل إليه رسالة . ويطلق أيضا على الإلهام وعلى الكلام الخفى ، فيقال : أوحى إليه : بعنه وألهمه .

وأما الوحي في اصطلاح الشرعيين فيطلق على أمور أيضا ، أحدها : أن يلهم الله رسوله ما يشاء من أحكام وغيرها ، بمعنى أن يلقنهم إياها على وجه لا يحتمل الخطأ .

ثانيها : الرؤيا في المنام ، فإذا أمر الرسول في نومه بأمر من قبل الله عز وجل ، أو نهي عن أمر أو أخبر بخبر ، فإنه يكون وحيا صادقا لا شك فيه . ومن ذلك ما رآه إبراهيم في نومه من ذبح ولده إسماعيل ، وما روى من أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح . ويعلل الفلاسفة ذلك بأن الروح الانسانية التي تدرك وتدبر الانسان مجردة عن المواد الجوانية ، فهي أمر معنوي ، ومتعلقة بالانسان تعلقا معنويا لتدبره وتتصرف

في أموره ، ومن شأن المجرد الاطلاع على الأمور الغيبية ، ولكن اشتغال الروح حال اليقظة بتدبير المدن يحول بينها وبين الاطلاع على الغيب ، فإذا نام الانسان وانصرفت عن تدبيره ، وانصلت بالملأ الأعلى كما هو شأنها : فإذا كانت صافية غير ملوثة بالشهوات الفاسدة كانت إدراكها للغيب كاملا ، وكانت الصور التي تدركها هي بعينها التي صنعت بدون تغيير ما ، كما هو الحال في الأنبياء والرسل وأتباعهم الصالحين ، أما إذا كانت الروح ملوثة بالشهوات الفاسدة واللذات المحرمة ، فإن صفاتها يتغير بهذه الشهوات ، ويكون مثلها كمثل المرآة التي يملوها الصدا فلا تنطبع فيها الصور على وجه صحيح ، كما هو الحال في غير الأنبياء والصالحين . وهذا لتعليل حسن مقبول ، وقد أقره صاحب الفتوحات المكية في مبحث الرؤيا ، وأبان فيها الفرق بين الرؤيا بهذا المعنى ، والرؤيا بمعنى طرد الصور المخروقة في الدماغ ، وهي التي تدرك بالحواس في حال اليقظة وإذا نام الانسان تمثلت له في صورة مختلفة . والرؤيا تارة تكون متمثلة بأمر قد وقع قبل النوم وبقيت صورته في الدماغ ، وتارة تكون متعلقة بأمر لم يقع أصلا .

فالتأني : أن يكلم الله الرسل من وراء حجاب ، كما وقع لموسى صلوات الله عليه . وقد اتفق علماء التوحيد على أن الله سبحانه منزّه عن المكان والجهة ، وعلى أنه تعالى لا تدركه الأبصار . فإذا كان المراد بتكليم موسى أن الله كلمه بكلام مؤلف من حروف وألفاظ تنقضى بمجرد النطق بها ، فلا نزاع في أن معنى هذا أن الله خلق له الكلام وخلق فيه إدراك معناه . وإذا كان المراد أنه خلق فيه قوة لإدراك كلامه القديم ، فذلك مما لا فائدة له ولا معنى له في هذا المقام ، لأن المقام مقام تكليف برسالة تلغ للناس ، وكلام الله القديم على تسليم أنه صفة حقيقية قائمة بذاته منزّه عن الحروف والأصوات ، ولا ضرورة لتكليف موسى بالاطلاع عليه في هذه الحالة . فلا بد من الرجوع الى المعنى الأول وهو أن الله خلق له الكلام وأقيم له إياه بالوسائل التي أرادها سبحانه .

رائعها : أن يرسل الله تعالى ملكا الى أنبيائه ليبلغهم ما يشاء ، وهذا هو الغالب كما صرح به الأحاديث الصحيحة الأخرى .

(٢) وإليك بيان ما قيل في معنى الملائكة اتفق المسلمون وغيرهم من أهل الكتاب على أن الله ملائكة ، ولكنهم اختلفوا في بيان معنى الملك ، وجمهور علماء الكلام والحديث يقولون إن الملائكة مخلوقة من مادة . أما فلاسفة الاسلام فانهم يقولون إنها مجردة عن المادة ، وسواء أكانت مادية أم مجردة عن المادة ، فقد اتفقوا على أن لها قدرة على التشكل في صور مختلفة وقد عرفها المتكلمون والمحدثون بأنها أجسام هوائية لطيفة تقدر على التشكل بأشكال

مختلفة . وبعضهم عرفها بأنها أحسام نورانية تقدر على التشكل . ولعلمهم يريدون أنها مخلوقة من مادة الهواء ولكن قد جعلهم الله فجعلهم كالنور . أما فلاسفة الاسلام فإنهم يقولون إنها مجردة عن المادة كالروح الانسانية ، ولكنهم يقولون إن الله تعالى يلبس كل ملك الصورة التي يريدها ، ومن ذلك قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » .

وبيان ذلك : أن الفلاسفة يقولون إن العالم منه ماهر مجرد عن المادة ، ومنه ماهر مادي ، وليس من المعقول إنكار المجردات عن المادة مع كون الانسان نفسه مشتملا على كثير من الأمور المعنوية الوجودية المجردة عن المادة . وكيف تنكر المجردات مع كون الألفاظ التي ينطق بها الانسان لها معان ثابتة وهي مجردة عن المادة ، وكذلك الحب والغضب والفرح ونحو ذلك من الأمور التي يترتب عليها آثار ظاهرة مع كونها أموراً معنوية صرفة لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقتها . وإذا ثبت أن بين الممكنات المحضة أموراً معنوية لا يمكن لأحد أن يدرك ماهيتها ولا يحكم عليها بالتعيز في المكان ونحوه مما تستلزمه المادة ، فلامعنى للحكم بأن كل شيء مادي . ولهذا ذهب بعض فلاسفة الاسلام (ومنهم الامام التزالي) فقالوا : إن الروح الانسانية مجردة عن المادة ، وإنما متعلقة بالبدن تعلقا معنويا كتعلق العاشق بمعشوقه ، فكما أن علاقة العشق أمر معنوي لا يمكن لأحد أن يدرك حقيقتها فكذلك الروح الانسانية التي بها الإدراك الكلي مجردة عن المادة ، ومثلها الملائكة . وهو الظاهر المعقول الذي يؤيده ظاهر القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ، وهذه الإجابة تدل دلالة واضحة على أن الروح ليست مادية ، لأنها لو كانت كذلك لأوحى الله الى بنيه منهاها المادي خصوصاً في مقام التحدى ، لأنهم كانوا يريدون أن يتحدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا السؤال ، ولذا قال بعد هذا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فهو سبحانه خاطب السائلين من أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين بأنهم عاجزون عن إدراك حقيقة الروح وغيرها من الأمور المعنوية التي خلقها الله تعالى ، بل هم عاجزون عن إدراك حقائق الأمور المادية كذلك ، لأن الانسان عاجز عن العلم بحقائق الأمور البسيطة التي يعجز عن تحليلها ، وكل ما يستطيع هو معرفة أجزاء المركبات من عناصر مختلفة ، حتى إذا انتهى الى أجزائها التي لا يمكن تحليلها وقف عند هذا الحد من العلم . وقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يجعل للنوع الانساني حاجة الى معرفة حقائق الأشياء ، بل جعل حاجته الى خواصها ومزاياها . فالانسان من حيث هو إنسان ليس في استعداد إدراك حقيقة المجردات مطلقا ، وليس في استعداد إدراك حقيقة الأجزاء التي ينتهي اليها تحليل المركبات المادية ، وكل ما يمكن أن يعلمه الانسان إنما هو خصائص هذه المركبات ومزاياها التي ينتفع بها النوع الانساني .

ومن هذا تعلم أن العالم الممكن منه ما هو مادي ومنه ما هو مجرد عن المادة ، والملائكة من المجرّدات ، ولها قدرة على التشكل بأشكال مختلفة . هذا هو رأى فلاسفة الاسلام .

أما المشكّمون والمحدثون فقد أسكروا المجرّدات عن المادة بناتوا وقالوا : إن المآزى عن المادة وعلاقتها هو الله وحده ، ومع ذلك فقد قالوا إن الملائكة مع كونهم ماديّين مخلوقين من الهواء فإن لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة .

ولكن الفلاسفة الذين يقولون إن الملائكة مجردون عن المادة ، يقولون إن تعريف الملائكة بأنهم أجسام هوائية لطيفة يرد عليه أمران :

(أحدهما) أن الجسم اللطيف لا يقدر على الأفعال الشاقة ، بل هو يتلاشى بأقل قوة وبأذى سبب يصل اليه من الخارج ، وهذا لا يتفق مع ما ورد من أن الملائكة لها قوة وبطش لا حد لها بالنسبة لجميع الأجسام المخلوقة . والجواب : أن القوة والبطش وشدة البأس لا تتنافى مع الدقة والطفافة ، لأن الله تعالى قادر على أن يمنح اللطيف قوة عظيمة لا يوجد عشر معشارها في الأجسام الضخمة . وذلك مشاهد محس في كثير من الأجسام ، فإن الإنسان الرقيق القوام قد يأتي بأفعال شاقة عظيمة يعجز عن القيام بها ذوو الأجسام الضخمة ، فانه قادر على أن يمثل الحديد ويكسر الحجر ويتسلط بقوته على صاحب الجسم الضخم ، بل يرى كثيرا من الحيوانات الرقيقة القوام لها قوة تفكك لكثير من الحيوانات الضخمة . وهذا هو الأسد الصغير يمكنه أن يفكك بالجل الغليظ ، وبالخنجر الضخم وغيرهما من الحيوانات . فالقدرة لا تتبع الأجسام ولكنها في الواقع مستندة الى إرادة الإله القادر الذي يفعل ما يشاء . وهذا الجواب حسن .

(ثانيهما) أن يقال : ما فائدة تشكّل الملائكة بأجسام قابلة للتأثر بما يتأثر به الجسم الانساني مع كون الوحي لا يستلزم هذا التشكل كما عرفت مما ذكرناه لك في معنى الوحي ؟ وقد يجاب عن هذا بأن تشكّل الملك بشكل الإنسان لكون طبيعة الإنسان لا تأنس عادة إلا الى نوعه . فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا قد يتصلون بهم بدون واسطة ملك يتمثل في صورة الإنسان ، ولكن مجيى الوحي في صورة إنسان يستلزم زيادة أسس وأطمئنان للرسول ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : إن أحسن الأحوال حسده هي الحالة التي كان يأتيه الوحي فيها في صورة دحية الكلبي ، وهي صورة رجل جميل من أصحابه . وذلك لأن طبيعة الإنسان مهما كان حاله من القرب بربه أكثر ميلا وأشد أطمئنانا الى تلقى الأوامر الإلهية من إنسان مثله . على أن سنة الله في خلقه قد اقتضت أن تكون أوامره وبواهيه بواسطة رسل من النوع الانساني غالبا ليقطع على المنكرين حججهم ، ويسد عليهم باب العناد في طلبهم الاتصال بالإله مباشرة ، فكأنه سبحانه يقول لهم : إن هذا الرسول مع كونه من المقربين الى بشر مثلكم ، ولا يمكن أن أرسل اليه ملكا على الهيئة التي خلقته عليها ، لأن الإنسان من حيث

هو إنسان عاجز عن إدراك حقيقة الملك ، وأحز عن النقام معه ، كما لا يمكن لبشر أن يتصل في اتصالا مباشرا وهو على حائه المادية التي تحول بينه وبين المتزهد من جميع المواد وتحجبه عن إدراكه ؛ وبذلك يرد عليهم طلبهم الذي طلبوه عنادا . ولهذا قال تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » . وذلك لأن المشركين اقترحوا أن يرسل الله مع عبد ملكا يبلغهم ، أو يأتيهم ملك بدون عبد ليبلغهم رسالة ربهم ، فرد الله عليهم ذلك بقوله « ولو جعلناه ملكا » الخ .

هذا هو اعتقاد علماء المسلمين وفلاسفتهم ، وهو لا ينافي القول بأن الأرواح مجردة عن المادة ، لأن المسلمين الذين يقولون بتجردها عن المادة يقولون إنه لا مانع من أن هذا المجرد يتعلق بمادة ذات صورة من الصور المألوفة للرسول .

أما الفلاسفة الذين ينكرون تعلق الجردات القائمة بنفسها بمادة تتشكل فيها بأشكال مختلفة فإن قواعدهم لا تأتي أن تكون الملائكة أرواحا مجردة عن المادة ، ولكنهم ينكرون نزول الوحي في صورة إنسان أو غيرها من الصور . وهذا الإنكار ليس مبنيا على استحالة عقلية ، بل كل ما قالوه في هذا المقام أن تشكل الملك في صورة إنسان أو في صورة شيء له طنين كطنين الجرس ، يرفع الثقة بالوحي لجواز أن يكون الملك نحلة تطن أو يكون إنسانا آخر غير ملك . ولكن هذا الكلام صادر عن غفلة بمقام الرسول ، وجهل بالشرط الاسامي الذي تنسب عليه الرسالة ، وهو أن الرسول معصوم عن الخطأ في فهم جميع ما يأتيه من عند الله ، فحال أن يشكل على الرسول أمر الملك ، ومحال أن يأتيه رجل آخر في صورة دحية أو غيره ويبلغه عن ربه كذبا . ومن هذا يتضح أن الملك سواء كان مجردا عن المادة أو كان ماديا فإنه لا يأتي الرسول غالبا في صورته الحقيقية ، وقد عرفت أنه لا مانع من أن يلبس صورة بشر أو غيرها من الصور التي يريد الله تعالى . والظاهر المقول يؤيد فلاسفة الاسلام القائدين إن الملائكة مجردون عن المادة والله تعالى يلبسهم الصور التي يريد

أما الذين ينكرون وجود الملائكة رأسا فهم مارقون من الدين الاسلامي وغيره من الأديان التي لها كتاب ، وذلك يدل على أنهم قريبون من الماديين الذين يسكرون الإله وينكرون كل معنى من المعاني الغيبية ، فهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، وبذلك يهدمون قواعد الأديان : من وجود إله ، ووجود يوم القيامة ، وغير ذلك . وهذا جهل وسخافة ، فإن كثيرا من الأمور المادية التي لم تكن مألوفة في زمن من الأزمان وكان الإخبار بوجودها يكاد يكون مستحيلا عند أمثال هؤلاء ، قد أصبحت أمورا طادية يدركها الصغير والكبير ، كاللحامكي ، فإننا قبل وجوده ما كنا نكاد نصدق بأن شخصا يتكلم وراء البحار بكلمة فسمعها بمجرد أن ينطق بها ، وغير ذلك من الأمور التي جاء بها العلم ، فهي تدل على أن الله تعالى قد أودع في هذا

العالم من الأسرار والحكم ما لا يحصى إلا هو ، سبحانه وتعالى ، كما قال : « ويخلق ما لا تعلمون » .

(٣) أما شرح باقي ألفاظ الحديث فإن معنى قوله : « كيف يأتيك الوحي » ، يحتمل أن يكون المراد به السؤال عن معنى الوحي الذي يبينه آتاه ، فكأن السائل يقول له : ما معنى الوحي ؟ وقد عرفت أنه يطلق على الإلهام ، وعلى الرؤيا الصالحة ، وعلى تكليم الله الرسل من وراء حجاب ، وعلى ما يجيء به الملك من أوامره ونواه وغيرها إلى الرسل . ويحتمل أن يكون المراد به السؤال عن صفة حامل الوحي نفسه وهو حبريل ، فكأنه يقول : ما صفة الملك الذي يأتيك بالوحي ؟ ويحتمل أن يكون المراد به السؤال عن الأمرين مما . وقد تضمنت إجابة النبي صلى الله عليه وسلم بيان الأمرين ، فقد بين له صفة الملك الذي يأتيه بأمر الله ونهيه وخبره ، واقتصر عليه لأنه هو الغالب الذي نزل به القرآن ، أما بقية أحوال الوحي من رؤيا وتكليم الله بلا واسطة فإنه قليل .

ومعنى صلصلة الجرس : صوت الجرس . والحكمة في ذلك واضحة ، وهو تنبيه الرسول إلى ما سيلقى عليه من قول الله عز وجل . وقد يوضح معنى هذا الإجراء (الكهرائية) الموجودة في رماننا . ولا خفاء عندي في جوارها ، أما التنبه عن استعمالها فهو مختص بما له نعم يستعمل في الملامح وإثارة الشهوات . ولا أدري كيف ينهى عن استعمال الأحرار المفيدة للتنبيه المترتب عليه كثير من المنافع الهامة المشروعة مع كون قواعد الدين الاسلامي مبنيّة على جلب المصالح دائماً ، ومع كون النبي صلى الله عليه وسلم قد صرح بأن الوحي نفسه كان يأتيه على هذه الحالة ؟

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وهو أشده على » : يفيد أنه كان يجد صعوبة في تلقى الوحي على أى حال ، ولكن هذا الحال أشد عليه من غيرها . وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس خشية من الله عز وجل ، وأشدّهم خوفاً منه تعالى ، وأعلمهم بقدرته وبطشه بالكافرين ، فكان عند مجيء الوحي تتمثل له عظمة الإله القادر القاهر ، فيشتد خوفه من الله ، ويتأثر لمعاني القرآن على الوجه الأكمل ، خصوصاً أنه كان حذراً على قومه من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم التي قبلهم من الهلاك والدمار فيضطرب قواده ، ولكن الله يشبهه بقدرته فيحفظ ما يلقى عليه . على أن الظاهر أنه في هذه الحالة كان يأتيه الملك (حبريل) وهو على حالته الروحية ، وقد جرت العادة أن النوع الانساني تغلب عليه الشرية حال اليقظة فيجد صعوبة في التفاهم مع الروحي .

وقول عائشة : « فيغصم عنه » معناه : يتفصل عنه ويفارقه . وقولها « ليتفصد عرقا » معناه . يسيل عرقا كثيرا كالدم الذي يسيل بسبب الفصد ؟

عبد الرحمن الجزيري

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

— ٨ —

على بن أبي طالب

لم تلق شخصية من شخصيات التاريخ الاسلامي من المحن والابتلاء في حياتها العملية الاجتماعية مثل مالفيتها شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد خرجت من هذا الامتحان المرير أبجل ما تكون علما وفقها ، ورجولة ، وشجاعة في الحق ، واستمساكا بالدين والتقى ، وإعراضا عن زخرف الحياة وزينتها ، ولو شاءها لزويت بين يديه وكان له منها أوفر حظ وأوفى نصيب .

كانت فتنة المروانيين في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه فتنة هوجاء ، عميت مسالكها وغامت آفاقها ، فلم يعرف لها التاريخ صدرا ولا وردا ، وكانت الى ذلك أعظم البلايا التي أصابت كيان المجتمع الاسلامي التي قمصت بدعائه القوية ، وفصمت وشائجها ، وعبثت برجالان الأمة فساطتهم سوط التقدر حتى عاد أسفلهم أعلام وأعلام أسفلهم ، فلم يسلم من شرها عظيم ، ولا نجا من هولها حقير ، خاض لها قوم سراب الأمانى خوفا ، ومرجوا في خلاها مرجا ، أخذت بمخالفهم القادة من عظماء المؤمنين ، ودفعت بهم الى صدر القناة تنزف من صدورهم دماء الآسى والحسرة ، فلا يكادون يحدون صميمة الصوت التبري يخرج من أنفاسهم حتى يفشام صائح التهمة ينطق بهم ، وفي غمار هذه القواصم تراحف الرءاء والغرقاء من أطراف الأرض الى عش الاسلام يفنكون بالحرمان فتلك الذئاب الجائعة بالخلان الصالة ، حتى تجمموا حول دار الخلافة وفيها ثالث الراشدين أمير المؤمنين ذو النورين عثمان بن عفان ، من لا تبجل ساقته ولا يحدد فصله ، فاصروه ومنعوه الطعام والشراب ، فحاججهم وناشدهم الله والقربى وحاكهم الى الحق والدين ، فلم يزدحم ذلك إلا إمعانا انتهى بقاصمة الظهر وفاقرة الاسلام ، وقتل الخليفة صابرا محتسا ، والدين لا يزال غضا ، ومعالم السوء قائمة ، ومنازل الوحي أهلة حائرة بالجة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ا

إما إذا نظرنا للأمر نظرة تاريخية صافية من كدورات المصيبة العمياء لنستخرج منه العبرة الزاحرة والأسوة الصالحة ، ووصفنا الأمور في أوصاعها ، ورددنا النتائج الى مقدماتها لنتعرف الحقيقة في ذاتها ، نجلى لنا موقف علي كرم الله وجهه في هذه الفتنة الخائفة قويا خالفا من شوائب الهوى ، ونجلى لنا الى جانب ذلك تقاض بصيرته ، وصلابته في الحق ، وعرفاته

بطنائع المجتمع الذي طاش فيه ، ولكنه لم يصدر في جميع أعماله إلا عن وازع الدين وخشية الله ، وهذا مصداق فراسة عمر بن الخطاب يوم كلم رهط الشورى فكان من قوله لعلى عليه السلام « أما والله لئن وليتهم لنحملنهم على الحق الواضح والمحنة البيضاء » !

لقد كان على رضى الله عنه رأس المسلمين ، تومعه الأنظار وتهفو اليه القلوب ، فإذا جد الجدد وحزبت الناس شدائد الأحداث تطلعوها اليه وصغوا الى رأيه ، فكان من الطبعي أن يجعله الأمة قطب الرحى في هذه الأزمنة الآزمة ، يدور حوله من كان صفوه اليه في طمأنينة ورضا ، ويظف به الآخرون يحرصون عليه أنفاسه ويرقبون حركاته وسكناته ، فرقا من سطوته أن تبطل بأهوائهم ، ومن هنا كانت مقالات التاريخ في ذلك العهد ، وكانت نازات التهم الباطلة حول الأكارم من رحالات الاسلام ، وكان هذا التساؤف الذي نراه في كتب التاريخ . وكان أكبر معوان على استقراء الفساد تلك العواصر الجديدة التي دخلت في تأليف المجتمع الاسلامي من غوغاء الأمم ودؤبان العرب ممن لم تحاط بشاشة الايمان قلوبهم ، وهم الذين تولوا كبر الفتنة وسفكوا الدم الحرام ، وفتحوا على الأمة أبوابا من الشر والبلاء لا تستطيع لها سدا

إن التاريخ ليحمل في ثيابه شواهد المصدق على أن عليا كرم الله وجهه لم يأل جهدا في النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وقد بذل نفسه وفلذة كبده في سبيل القود من حوزة الاسلام وخلافته في شخص عثمان رضى الله عنه ، ولكن شيطان الفتنة الذي تقمص مروان بن الحكم كان يفسد عليه كل تدبير ورأى بعصم الأمة من التردى الى هاوية الفرقة والاختلاف .

يقول الواقدي : « لما أجلب الناس على عثمان وكثرت القالة ، خرج ناس من مصر في ألفين عليهم أبو حرب الغافقي ، وخرج ناس من الكوفة في ألفين منهم زيد بن صوحان العبدي ومالك الأشتر النخعي ، وخرج ناس من أهل البصرة عليهم حرقوس بن زهير السعدي ، وأظهروا جميعا أنهم يريدون الحج ، فلما كانوا من المدينة على ثلاث تقدم أهل البصرة فزولوا ذا خشب ، وكان هوام في طلحة ، وتقدم أهل الكوفة فزولوا الأعوص ، وكان هوام في الزبير ، وجاء أهل مصر فزولوا المروة ، وكان هوام في علي ، ودخل ناس منهم الى المدينة يخبرون ما في قلوب الناس لعثمان ، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار ، ولقوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنما نريد الحج ونستغنى من همالنا ، ثم لقي جماعة من المصريين عليا وهو متقلد سيفه عند أحجار الزيت فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم ، فصاح بهم وطردهم وقال : « لقد علم الصالحون أن حيش ذى المروة وذى خشب والأعوص ملمعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ! » فانصرفوا عنه ، وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك ، وأتى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك ، فتنفروا وخرجوا عن المدينة الى أصحابهم ، فمأمن

أهل المدينة منهم واطمأنوا إلى رجوعهم ، لم يشعروا إلا والتكبير في نواحي المدينة وقد نزلوها ، وأحاطوا بعمان ، ونادى مناديتهم : يا أهل المدينة من كف يده عن الحرب فهو آمن . فحصره في منزله ، إلا أنهم لم يمنعوا الناس من كلامه ولقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين وسألوهم ما شأنهم ؟ فقالوا : لا حاجة لنا في هذا الرجل ، ليعترسنا لنولى غيره ، لم يزيدوهم على ذلك .

هذه الرواية تدلنا على أن هؤلاء الذين قدموا إلى المدينة من الأمصار الثلاثة الكبرى متظاهرين بالحج ، كانوا على اتفاق وتدير سابق للثورة على خلافة عثمان رضى الله عنه ، وتدلت الرواية أيضا على أن رؤوس الصحابة وفي طلبيتهم على كرم الله وجهه لم يكونوا على شيء من علم ما دبر هؤلاء واثتمروا به ، وأنهم إذ علموا غضبوا أشد الغضب ولم يرضوا عن مسلكهم ، وزرهم على رضى الله عنه ولم يشعروهم بمسكة من هراة في أمرهم ، وروى في شأنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أشد ما ينفر الناس عنهم وعن الاحتطاب في جبلهم ، وأن الثأرين لما لم يجدوا من المهاجرين نصيرا دبوا أمرهم وبيتوا المدينة بعد أن خدعوا الناس برجوعهم ، وحصروا الخليفة في منزله ، فعسا سألهم رؤساء المهاجرين عن شأنهم لم يزيدوا على أن طلبوا عزل عثمان رضى الله عنه ليولوا غيره .

لو أن باحثا تعمى أسماء هؤلاء الثأرين وتنبع سيرتهم لأعياء أن يجد فيهم رجلا هذبه الدين وأدبته محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولوجد كثيرتهم أعراية جافية لم يجاوز الإيمان حناجرهم ، طمعوا في السلطان لأهم ألفوا عطفنا ولينا ودعة وديا عريضة تفتح أبوابها لمن يفترب حتى أصبح أمر الأمة إلى الغفواء يولون الخليفة ويمزلونه وفقا لأهوائهم ، وليس لقادة ورؤساء المهاجرين من الأمر شيء ، فلم يبق إلا أخذ الأهبة والتشمير لإصلاح ذات البين والعمل على توفير الخلافة وتعرف أسباب الثورة والاحتكام إلى الدين ، لتلايستفحل الخطب ، ويطمع في الأمر من ليس له بأهل ، ومن ثم ظهر القادة في الميدان ليردوا شماس الثأرين ، ويكبحوا جماحهم ، ويرجعوا الأمور إلى مشارعها ، فثنى على إلى عثمان رضى الله عنهما بالنصيحة الصادقة ، فاجتمع إليه عثمان وألصف من نفسه ، ولكن شياطين الفتنه من أمثال مروان وابن أبي سرح من فتيان أمية الطامعين أبوا إلا أن يسعروا لظاهها ، ولم يبالوا أن يكون ضحيتها عثمان رضى الله عنه .

روى أبو جعفر الطبرى في تاريخه ما ملخصه . إن القوم لما نزلوا ذاخشب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون ، وعلم عثمان ذلك ، جاء إلى منزل على رضى الله عنه فدخل وقال : يا ابن عم : إن قرابتى قريبة ولى عليك حق ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبى ولك عبد الناس قدر ، وهم يسمعون منك ، وأحب أن تركب إليهم فتقدم عني ، فإن في دخولهم

على وهنا لأمرى وجراًة على ا فقال عليه السلام . على أى شىء أردم ؟ قال : على أن أصير الى ما أشرت إليه ورأيتنى لى ، فقال على رضى الله عنه : إني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع ، وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعند الله ابن سعد ، فانك أظمتهم وعصيتنى . قال عثمان رضى الله عنه : فاني أعصيتهم وأطيعك فأمر على الناس أن يركبوا معه فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار حتى كلموا الناس ورجعوا بهم بأصحابهم الى بلادهم ، وأشار على عثمان أن يكلم الناس ليسكنوا الى ما يمدحهم به من الزرع وقال له : إن البلاد قد تمحصت عليك ولا آمن أن يجيئك ركب من جهة أخرى فتقول لى : يا على اركب اليهم ، فان لم أقبل رأيتنى قطعت رحمتك واستخففت بحمك . فخطب عثمان خطبة وعدها للناس الصفة ، وقال : « والله لأعطيكم الرضا ، ولا نغبن مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم » فرق له الناس وبكوا . قال أبو حمزة : فلما نزل وجد مروان وسعدا ونفرا من بنى أمية في منزله فعمودا لم يكونوا شهدوا الخطبة ولكنهم بلغتهم ، فلما جلس قال مروان : يا أمير المؤمنين أتتكلّم أم سكّيت ؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان : لا بل نسكت فأتهم والله قائلوه ومنمو أطفاله إياه قد قال مقالة لا ينبغي له أن يتزع عنها . فغشمها مروان وعاد الى مسالة عثمان رضى الله عنه ، ولأمره على ما كان منه في خطبته للناس ، وخوفه اجتماع الناس حول بابه ، فقال له عثمان : فأخرج أنت الى الناس وكلمهم فاني أستحي أن أكلمهم وأردمهم ، فخرج مروان الى الناس وقد ركب بمصهم بعضاً فقال لهم : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ، شأنت الوجوه أن تريدون أن تزعوا ملككم من أيدينا ؟ أعزبوا عنا والله إن رمتونا لنمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم ما لا يضركم ، ولا نحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فأتاه الله غير مغلوبين على ما في أيدينا ا فرجع الناس خائبين ، وأتى بعضهم عليا كرم الله وجهه فأخبره الخبر ، فأقبل على رضى الله عنه على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري فقال : أحضرت خطبة عثمان ؟ قال : نعم ، قال : أحضرت مقالة مروان للناس ؟ قال : نعم ، فقال : « أى عباد الله ! يا لله للمسلمين إني إن قدمت في بيتي قال تركتني وخذلتني ، وإن تكلمت فبلغت له ما يريد جاء مروان ويلعب به حتى قد صار سيّقة له يسوقه حيث يشاء لهذا كبر السن وصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ا » وقام مغضباً من فوره حتى دخل على عثمان فقال له : « أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ، فأنت معه تكمل الظمينة يقاد حيث يسار به ، والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا عقله ، وإني لأراه يوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا حائد بعد مقامى هذا لمعانيتك ، أفسدت شرفك وغلبت على رأيك ! »

هذا موقف على رضي الله عنه في الصبح لعثمان وتسدده ، يحمل في طياته أصدق الإخلاص وأصوب الوفاء ، فلما أيس من استصلاح لظانته أو صرفه عن الاتقياد اليها قعد في بيته أسيفاً حزيناً ، وعاد الناس على بدتهم ، واشتدوا على عثمان حتى منموه الماء ، فبلغ عليا فغضب

من ذلك غضبا شديدا ولم يزل حتى أدخل عليه الماء ، ثم أرسل ابنه الحسن في طلبه أبنائه المهاجرين والأنصار ليكون في حماية الخليفة والذب عنه ؛ ولأمرهما أبي عثمان رضي الله عنه مقام هؤلاء بيابه فأقسم عليهم أن يرجعوا الى منازلهم . قال الطبري : « لما اشتد على عثمان الحصار أشرف على الناس فقال : « يا أهل المدينة استودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة بمدي 1 » ثم رُم الدار وأمر أهل المدينة بالجوع وأقسم عليهم أن يرجعوا ، فرجعوا إلا الحسن بن عليّ ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم » .

ويقول الواقدي : « واستنقل نفر من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبي وقاص ، والحسن بن عليّ ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، فأرسل اليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ، فانصرفوا » . والطبري يروي أن الحسن بن عليّ لم ينصرف مع من انصرف ، فقد قال له عثمان : « إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أحلك ، فأخرج عليه ، أقسمت عليك لما خرجت » فلم يفعل ووقف محاميا عنه ، وخرج مروان بسيفه يباله الناس فهاجوا وماجوا ، وانتهى الأمر عما بدأت به أعظم مأساة عرفها التاريخ الاسلامي ، وقتل أمير المؤمنين عثمان رضوان الله عليه مظلوما بأيدي الرعاع والسفلة ، وتدير بطانة سوء .

وقد أجل عليّ كرم الله وجهه موقفه وموقف الناس من هذه العتة فقال : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، أو نهيت عنه لكنت فاصرا ، خير أن من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أناخير منه ، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني ، وأما جامع لكم أمره استأثر فأساء الآثره ، وجزعتم فأساتم الجرع ، والله حكم واقع في المستأثر والجارع » ا

صالح إبراهيم عمره

ذكاء العميان

عرف الناس في كل زمان أن العمى يكونون سريعي الحفظ ، دقيقي الحس ، وكثير منهم وصل الى درجات عالية من الذكاء ، وما ذلك إلا لاعتمادهم على حافظتهم وذكريتهم وشمورهم بعد ضياع بصرهم ، فصقلت هذه الحواس صقلا لا يحدته غير مثل هذه الحاجة الماسة .

من هؤلاء قتادة بن دعامة فقد روي أنه كان يقول لقائده تجنب بي الحلقى التي فيها الخطأ فإنه ما وصل الى معنى شيء فأداه الى قلمي إلا حفظته ولم أنسه .

التجديد في الاسلام

— ٧ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »
حديث نوى شريف

المجددون في الاسلام

في القرن الثاني الهجري

الأئمة الأربعة : المأمون ، الثؤلوي ، أشهب ، الحصري ، ابن معين .

ذكرنا من قبل ما قاله الحافظ ابن الاثير من أن المجددين للدين في المائة الثانية الهجرية هم : من أولى الأمر : المأمون ، ومن الفقهاء : الامام الشافعي ، والثؤلوي من أصحاب أبي حنيفة ، وأشهب من أصحاب مالك ، ومن القراء الحصري ، ومن المحدثين : ابن معين . وفي هذا العدد نتكلم على هؤلاء ، ما عدا المأمون ، فقد سبق الكلام على شيء من صفاته وأحواله ، وما عدا الامام الشافعي ، فسبأني الكلام عليه مع الأئمة الأربعة ، إن شاء الله تعالى .

١ — الثؤلوي :

فمن هو الثؤلوي ؟ هو الحسن بن زياد الثؤلوي ، الكوفي ، تلميذ الامام الاعظم أبي حنيفة ، وأحد أصحابه الذين اشتهر بهم مذهبه ، ويعتبر الحسن بن زياد مجتهدا مطلقا منتسبا الى أبي حنيفة ، كأبي يوسف ، وعبد بن الحسن ، ونسبتهم الى الامام الاعظم كنسبة الشافعي الى مالك ، أو ابن حنبل الى الشافعي : أي أن نسبتهم اليه كنسبة المنعلم للمعلم ، ولم تكن كنسبة المقلد للمقلد .

طلب الحسن بن زياد العلم وحده فيه ، حتى صار من كبار الأئمة ، ولعل هذا مما جعل هارون الرشيد يختاره ليحضر في كل أسبوع يوما عند ابنه «المأمون» ليمسكه الفقه والحديث ؛ فأما الفقه فحسبه أن يقول فيه يحيى بن آدم : ما رأيت أفقه من الحسن بن زياد . وأما الحديث فقد حدث هو عن نفسه في نفسه فقال : سمعت من ابن جريج ، وكتبت عنه اثني عشر ألف حديث ، كلها يحتاج اليها الفقهاء . وهذا القدر من الأحاديث يزيد عن الأحاديث التي في صحيح البخاري وصحيح مسلم . فأنظر الى الحسن بن زياد في إحاطته بآثني عشر ألف حديث خاصة بالأحكام ، فما منك بما يرفقه من الأحاديث الأخرى ؟

تقديره وعدّه حجة عصره :

قدر أفضل العلماء وخيارم الحسن بن زياد ، فقال نصير بن يحيى : قلت لخلف بن أيوب من الحجة اليوم ؟ فقال : الحسن بن زياد ، فأعدت السؤال عليه ثلاثاً ، فقال : الحسن هو الحجة . وسأل رجل خلف بن أيوب عن مسألة ، فقال : لا أدري ، فقال الرجل : دلي على من يعرف ، فقال : الحسن بن زياد بالكوفة ، فقال : إنه بعبد ، فقال حاف : من هته الدين فالكوفة اليه قريبة . وروى عن ابن صالح أنه قال : كما عند أبي يوسف ، إذ أقبل الحسن ابن زياد ، فقال أبو يوسف : سلوا الحسن قبل أن يسأل ، وإلا لم تقدروا عليه أمانته على العلم والفتوى :

مما يدل على أمانة الحسن بن زياد على العلم ، أنه استفتى يوماً في مسألة ، وبعد أن أفتى ظهر له أنه أخطأ ، ولم يظفر بالمستفتى ، فاستأجر منادياً ينادي في الأماكن والطرق : ألا إن الحسن ابن زياد استفتى في مسألة كذا فأخطأ ، فمن كان أفتاه الحسن فليرجع اليه ! فكث أياماً لا يفتى حتى عاد اليه السائل ، فأعلمه بخطئه ، ورده الى الحق .

موازنة بين الحسن وأبي يوسف ومحمد :

سئل بعض العلماء عن أصحاب الامام أبي حنيفة . أبي يوسف ، ومحمد ، والحسن بن زياد ، فقال : الحسن بن زياد أحسن الناس سؤالا ، ولم يكن جوابه على قدر سؤاله ؛ ومحمد بن الحسن أحسن الناس جواباً ، ولم يكن سؤاله على قدر جوابه ؛ وأبو يوسف : أحسن الناس سؤالا وجواباً . صفاته وأخلاقه واتساعه الشئنة :

كان الحسن بن زياد آية في السهولة واليقظة ، والمناورة على العلم وطلبه ، كما كان آية في مكارم الأخلاق ، فقال أحمد بن عبد الحميد الحارثي . ما رأيت أحسن خلقاً ، ولا أقرب مأخذاً ، ولا أسهل حالاً وجانباً ، من الحسن بن زياد ، وقد كان يكسو مماليكه كما كان يكسو نفسه .

كيف كان الحسن يقضى يومه ؟

كان الحسن بن زياد يقضى يومه في العلم والفتوى ، وعبادة الله تعالى ، وخدمة الناس . قال نصير بن يحيى : قسم الحسن . وقته أقساماً : فكان يجلس صدر النهار فيدرس ويحوض في مسائل الفقه الى قبيل الزوال ، ثم يدخل منزله فيقضى حوائجه الى وقت الظهر ؛ ثم يخرج لماله ، ويجلس للوقامات والفتاوى الى العصر ، وبعد أن يصلي يجلس فيتناظر من بين يديه في الأصول الى غروب الشمس ؛ وبعد أن يصلي المغرب يدخل منزله ، ثم يخرج فيتذاكر في المسائل المتعلقة الى العشاء ؛ فاداً صلاها جلس لمسائل الوصايا ونحوها الى ثلث الليل ؛ فلا يفت

عن النظر في العلم . وكان له جارية إذا اشتغل بالطعام تقرأ له على المائدة حتى يفرغ وقد حدث الحسن عن الوقت الذي كان يقصيه في العلم فقال : مكثت أربعين سنة لا أبيت إلا والمراجع بين يدي .

مؤلفاته :

ألف الحسن بن زياد عدة كتب ، منها . كتاب أدب القاضي ، وكتاب النفقات ، وكتاب الوصايا ، وكتاب الفرائض ، وكتاب الخراج . توفي سنة (٢٠٤) هـ .

٢ — أشهب :

هو أشهب بن عبد العزيز المصري ، تلميذ الامام مالك رضى الله عنه ، وصاحبه ، وأحد الأئمة المصريين المجتهدين ، الذين حملوا لواء مذهب مالك ، وقاموا بنشره ، وعنه تسرب الى إفريقية والأندلس ، وقد انتهت اليه الرياسة بمصر بعد ابن القاسم .

كان أشهب إماماً مجتهداً ، ولكنهم اختلفوا فيه وفي ابن القاسم ، هل كانا مجتهدين مطلقين ، أو مجتهدين مقيدين ؟ والظاهر أنهما مجتهدان مطلقان منتسبان الى الامام مالك رضى الله عنه . وقال الشاطبي : لا يلزم المجتهد أن يكون مجتهداً في كل علم يتعلق بالاجتهاد ، وإن أشهب ، وابن القاسم ، ومحمد بن الحسن ، وأبى يوسف ، والمزني ، والبرقي ، اتبعوا أقوالهم ، وعمل على وفقها مع مخالفتهم لأئمتهم وهم مقلدون لهم في أصول مذهبهم ، واحتجاجهم مبني على مقدمات مقلدة فيها ، فإذا لا ضرر على الاجتهاد مع التقليد في بعض القواعد المتعلقة بالمسألة المجتهد فيها .

أطرى الأئمة أشهب ، وشهدوا له بالفقه ، والورع ، والصدق . فقال الشافعي رضى الله عنه : ما رأيت أفقه من أشهب ، وما نظرت أحداً من المصريين مثله . ولم يدرك الشافعي من أصحاب مالك بمصر سوى أشهب ، وابن عبد الحكم . وقال القضاة : كان لأشهب رئاسة بمصر ، وكان أنظر أصحاب مالك . وذكر ابن يونس أن أشهب أحد فقهاء مصر ، ودور رأيا . وقال ابن عبد البر : كان أشهب فقيهاً حسن الرأي . وقال ابن القيم : مكانة أشهب من العلم والأمانة غير محبولة . ووصفوا أخلاقه فقالوا : ما كان أصدق أشهب ، وأورع في صناعه ، وأوثق فيما رواه عن مالك ، وأخوفه من الله تعالى .

ولأشهب من المؤلفات : كتاب في الفقه رواه عنه الكثيرون .

موازنة بين أصحاب مالك : ابن وهب ، وابن القاسم ، وأشهب :

من علماء مصر في القرن الثاني الهجري الذين أعلوا شأنها ، ورفعوا قدرها ، وكانوا عماد مذهب مالك بمصر ، وعنه تسرب الى إفريقية والأندلس . ابن وهب ، وابن القاسم ، وأشهب . فهؤلاء بلغوا درجة الاجتهاد مع الانتساب للامام مالك رضى الله عنه . وقد سئل مالك عن

ابن وهب وابن القاسم فقال : ابن وهب عالم ، وابن القاسم فقيه . وسئل ابن وهب : ممن نأخذ الفقه ؟ فقال : إن أردت فقه مالك فعليك بابن القاسم ، فإنه انفرد به وشغلنا بغيره . وسئل الامام الشافعي عن أشهب فقال : إنه ما رأى أفقه منه ، ولا ناظر أحدا مثله من المصريين . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : أشهب أفقه من ابن القاسم مائة مرة . فأنكر عليه ذلك ابن كسادة ، وقال : إنما قاله لأن أشهب شيعه وممعه . فقال ابن عبد البر : ابن القاسم شيخه ، وأشهب شيخه . أي شيخ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وهو أعلم بهما لكثرة مجالسته لهما ، وأخذهما عنهما . وسئل سحنون : أيهما أفقه ؟ فقال : كأننا كفرسي رهان ، وربما وفق هذا وخذل هذا ، وربما خذل هذا ووفق هذا . فانظر الى العلم في مصر في القرن الثاني الهجري ، والى علمائها ، وشهادة مالك والشافعي لهم ، وانظر الى العلم فيها اليوم في القرن الرابع عشر ، وقارن بين الماضي والحاضر واحكم . والله الأسر من قبل ومن بعد .

وقد ولد أشهب بمصر سنة ١٤٠ هـ أو ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٤ هـ بمدة وفاة الشافعي بأيام .

٣ — الحضرمي :

هو يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري ، أحد القراء العشرة ، إمام أهل البصرة . بلغ الحضرمي من العلم والجاه والأخلاق ما قصته معاصروه . فقال أبو القاسم الهزلي : لم يرق في زمن يعقوب الحضرمي مثله ، كان طالما بالقرآن واختلافه ، والعربية ووجوهها ، فاصلا ، تقيا ، ورعا ، زاهدا ، وبلغ من جاهه بالبصرة أنه كان يحبس ويطلق ، وقال أبو حامد السجستاني : يعقوب أعلم من رأيت بحروف القرآن واختلافه ، وعلمه ومذاهبه ، ومذاهب السحو . وقال الذئبي : أتم يعقوب في اختياره عامة البصريين بعد أبي عمرو ، فهم أو أكثرهم على مذهبه . وسئل أحمد بن حنبل عنه : فقال : صدوق . وقال ابن المنادي : كان يعقوب أقرأ أهل زمانه ، وكان لا يلحن .

وقال ابن المنادي : كان أبو يعقوب وجده من أعلم أهل زمانهما بالقرآن والسحو . وقال أبو حاتم : يعقوب بن إسحاق من أهل بيت العلم بالقرآن والعربية وكلام العرب والرواية والفقه ، وكان أقرأ القراء .

هل يجوز الصلاة بقراءة الحضرمي ؟

طالما ردد بعض الناس هذا السؤال ، وإني أدع الجواب عنه للإمام ابن الجزري قال . لا فرق بين قراءة يعقوب ، وقراءة غيره من القراء السبعة عند أئمة الدين المحققين ، وهو من الحق الذي لا يحيد عنه ، ومن أعجب العجب ، أو من أكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من

الشاذ الذي لا تجوز القراءة به ولا الصلاة ، فلا يقول هذا إلا من لا يمول على قوله ، ولا يلتفت الى اختياره . توفي الحضرى سنة ٢٠٥ هـ

٤ — ابن معين :

هو يحيى بن معين ، العالم الحافظ أحد أئمة الحديث ، الثبت الثقة المتقن ، صاحب الحرح والتعديل ورئيسه ، فن جرحه سقط الى الحضيض ولم تقم له قائمة ، ومن عدله ارتفع الى السماء ، وكان ممن وثق بقوله ، المظهر كذب الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه الإمام أحمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين ، فليس هو بحديث .

نشأته وحياته :

كان والد يحيى كاتباً لعبد الله بن مالك ، أو كان على خراج الرعى ، فأتى وترك لابنه يحيى ألف ألف درهم ، وخمسين ألف درهم ، فاتفق كل هذا على الحديث حتى لم يبق له فعل يلبيه . وقال على بن المدينى : لا نعلم أحداً كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين . وسئل يحيى ابن معين : كم كتبت من الحديث ؟ فقال : كتبت يدي هذه ستائة ألف حديث . وقد عاش حياته الطويلة المباركة وقد أربت على سبعين سنة فى خدمة السنة النبوية المطهرة ، وترك من لكتب أكثر من مائة قطر مملوءة كتباً معظمها فى الحديث الشريف .

اتهى العلم الى يحيى بن معين فى عصره . فقال على بن المدينى : اتهى العلم بالبصرة الى يحيى بن أبى كثير وقتادة ، وعلم الكوفة الى أبى إسحاق والأعمش ، واتهى علم الحجاز الى ابن شهاب وعمر بن دينار ، وصار علم هؤلاء الستة الى انى عشر رجلاً ، منهم بالبصرة : سعيد بن أبى عروة ، وشعبة ، ومعمر ، وحامد بن سلمة ، وأبو عروانة ، ومن أهل الكوفة : سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، ومن أهل الحجاز : مالك بن أنس ، ومن أهل الشام الى الأوزاعي ، واتهى علم هؤلاء الى محمد بن إسحاق ، وحشام ، ويحيى بن سعيد ، ووكيع ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، وابن آدم ، وصار علم هؤلاء جميعاً الى يحيى بن معين ، فهو منتهى المعارف ، وجمع العلم فى زمانه .

أخذ عن يحيى بن معين كبار العلماء والأئمة : كالبخارى ، ومسلم ، وأبى داود ، وأحمد ابن حنبل ، وعبد بن سعد ، وغيرهم من الحفاظ .

أخلاقه وتقده الرجال :

كان يحيى بن معين فى تقده الرجال يزن بالقسطاس المستقيم ، ولا يؤثر فيه أى عامل من العوامل التى تؤثر فى الناس ، وكان يسير فى تقده بالحكمة ، ومنتهى مكارم الأخلاق ، وقد حدث عن ذلك فقال : ما رأيت على رجل خطأ إلا سترته ، وأجبت أن أرين أمره ، وما

استقبلت رجلا في وجهه بأسر يكرهه ، ولكن أين له خطأ فيا بيني وبينه ، فإن قبل ذلك ولا تركته . وقال ابن الرومي : ما سمعت أحدا يقول الحق في المشايخ غير يحيى بن معين ، أما غيره فكان يتعامل بالقول . وقال الامام أحمد بن حنبل : هاهنا رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يظهر كذب الكذابين — يعني يحيى بن معين .

ولد يحيى بن معين سنة ١٥٨ هـ بالقرب من بغداد ، ومات بالمدينة سنة ٢٣٣ هـ وعمره ٧٥ أو ٧٧ سنة إلا أياما ، وصلى عليه والى المدينة ، ثم صلى عليه مرارا ، وحلوه على سرير النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفن بالقيع .

السيرة عفيفي

مساعدة ذوي الحاجات

يروى أن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها ذكرت يوما قول لبيد الصحابي وهو أحد أصحاب المعلقات :

ذهب الدين يعاش في أكسافهم وبقيت في حلف بكلمة الأجر

وقالت لله أبوه ما كان أشعره لقد صدق . قالوا وكيف يا أم المؤمنين ؟ فقالت : كان أحدم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث لا يعلم ثم ذهب أولئك وجاء قوم كان أحدم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث يعلم . ثم جاء من نادم قوم إذا علم أحدم من أخيه خلة أحب أن يسأله ، فإذا سأله أعطاه . ثم جاء من نادم قوم إذا علم أحدم من أخيه خلة أحب أن يسأله فإن سأله منحه ، ثم بعد ذلك يفضحه ، فيقول جاء فلان يسألني فلم أعطه .

مما يناسب هذا قول شاعر في بخيل :

لا يفرئك الباس ليس في الآتواب ناس
م وإن نالوا الثريا بخلاء وخاس
كل من يدعى رئيساً هو في الخسة راس
كم يد تصلح قطع فتغدى وتباس

الاسلام كما يراه الاوربيون

- ٧ -

أسلفنا في الكلمة السابقة بعض مزاعم الأستاذ « كازانوف » عن القرآن وقلنا إنه ادعى أن النبي كان يعتقد أنه سيشهد قيام الساعة قبل وفاته ، وأنه لهذا لم يعين الامام الذي يخلفه ، وأن أصحابه لما رأوا أن الساعة لم تقم قبل وفاته مدوا أيديهم الى القرآن بالتعديل ، لينجوا من تلك الورطة . وقد ردنا على فكرة تفاضى النبي عن تعيين الامام بأن السبب فيه هو إيمانه بأن رسالته دينية قبل كل شيء ، وتشبعه بروح العدالة والشورى ، ووعدنا القارىء بأننا سنناقض شيئاً من براهين هذا المستشرق على هذه الدعوى السخيفة . واليك بعض هذه المناقشة :

ذكر « كازانوف » كثيراً من البراهين على دعواه . ولما كنا لا نستطيع أن نستوعبها كلها هذه البراهين ، لأن بعضها ينبو عن المطلق ، والبعض الآخر يعتمد على روايات أسطورية وأخبار حرامية وردت في كتب المسعودى والمقرئى والطبرى وما شاكل ذلك ، فقد صممنا على أن نقتفى من هذه البراهين أقواها في نظر الباحثين ، ليكون هدمها آية واضحة على أن دعوى هذا الرجل واهية الدعائم والأركان . وأقوى هذه البراهين عند العلماء هو في نظرنا ما اعتمد على القرآن أو على حديث ثبتت صحته .

غير أنه ينبغي لنا قبل الخوض مع هذا المستشرق في مناقشة براهينه أن نسجل عليه أنه لم يفهم روح القرآن ، بل لم يفهم روح اللغة العربية في أغلب الأحيان . وفوق ذلك فإنه كثيراً ما يهجر التراجم الى الأغراض والآهواء ، فيستخدم لغايته صدر جملة لو أنه أتبعها لألقى القارىء في عجزها رداً مفجعاً على فكرته . وهاتان الملاحظتان تدفعاننا الى الاحتياط من خطة هذا المستشرق في البحث ، وتحملاننا على النظر الى نتائج بحوثه بعين الحذر المرتاب .

ومهما يكن من الأمر ، فإننا سنتعقب أهم براهينه على هذه الدعوى ، لنثبت بطلانها أو ضآلتها في ميزان البحوث العلمية .

قرر « كازانوف » بدياً أن القرآن أشار في عدة مواضع الى الساعة : أى الى نهاية العالم والبعث والحكم الأخير ، ولكنه لم يحدد لذلك زمناً معيناً . « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجئها لوقتها إلا هو » ، « ثقُلَّتْ في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بفتنة ، يسألونك كأنك حرجى عنها » ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١)

ومع ذلك فإن في القرآن آيات عديدة تتحدث في وضوح عن قرب الساعة : « اقتربت الساعة وانشق القمر (١) » ، « أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٢) » . ولكن هذه الآيات لا تشمل على شيء من التحديد ، بل كل ما يمكن أن يستخلص منها هو شعور بأنه يجب أن ننتظر هذه الساعة في كل لحظة .

على أنه إذا كان القرآن قد اقتصر على إثبات قرب الساعة ولم يتعرض لتعيين وقتها ، فإن السنة تربط أصبق الربط وأحكم بين بعثة النبي وقيام الساعة ، فمن ذلك مثلا ما روى عن ابن عباس بمناسبة حديثه عن آية « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال : إن الله أوحى أولا آية « اقتربت الساعة ، فقلق الكفار » ، ولكنهم لما رأوا أن الساعة لم تقم فادوا إلى اطمئنانهم ، فنزل قوله : « اقترب للناس حسابهم » فرجع اليهم فلقهم ثم جحدوم ، فأزل قوله تعالى : « أتى أمر الله » فرفع الكفار رموسهم ، فنزل قوله : « فلا تستعجلوه » ، وبهذه المناسبة قال النبي : « بيني وبين الساعة كما بين هاتين » وأشار إلى ما بين سبائنه ووسطاه (٣) .

هذا الحديث هو محماد أول البراهين التي سلناقشها اليوم . وهو في نظر كازانوا من الأهمية بموضع عظيم ، بل قد اعتره أحد المستندات الأساسية لساكنه ، لأنه في رأيه تصرع بأن بعثة النبي مرتبطة ارتباطا مباشرا بقيام الساعة ، وهو يؤيد هذا الرأي بتلك المبارة المضحكة : « إن تمثيل شيتين بأصبع اليد لمير مألوف في لفننا القرنية بثبت بين هذين الشيتين علاقة ضيقة يحكى أن يعبر عنها بعدم قابلية الانفصال ، إذ أن هذا التعبير صورة مسترعة من أمحاق الانسانية ، ومعناه واحد في جميع لغات العالم . وإذا فن الحتمل إن لم يكن من المؤكد أن محمدا أراد بهذا التعبير أن يقول : إن مجيئى والساعة غير قابلين للانفصال (٤) .

ومما ضاعف أهمية هذا الحديث في نظر « كازانوا » هو أن إجماع المسلمين منعقد على صحته ، بل إن كثيرا من علماءهم استخلصوا منه فروضا وعمليات حسابية أثبتوها في كتبهم . فن ذلك مثلا أن الطبرى — فيما يرويه ابن خلدون والمقرزى — أجرى في مشكلة الساعة العملية الحسابية الآتية :

حيث إن القرآن قال - « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٥) ، وإن النبي قال : « إن وجودكم بالسبة إلى وجود من سبقوكم كما بين العصر وغروب الشمس » ، وقال أيضا : « إننى نعت في زمن كنت فيه أنا والساعة كهاتين » وأشار إلى سبائنه ووسطاه ، وقال كذلك : « إن بقاء هذا العالم هو أسبوع من العالم الآخر الذى يومه ألف سنة » .

ولما كان ما بين العصر وغروب الشمس جزءا من أربعة عشر جزءا من اليوم ، ولما

(١) سورة القمر (٢) سورة النحل (٣) انظر صفحة ١٦ من كتاب « محمد ونهاية العالم » لمكازانوا .

(٤) انظر صفحة ١٧ من نفس المصدر . (٥) سورة الحج .

كانت الوسطى تزيد على السبابة بحزه من أربعة عشر جزءا من الأصغر ، ولما كان عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، فقد وجب أن يكون ما بين النبي والساعة جزءا من أربعة عشر جزءا من عمر الدنيا وهو خمائة سنة .

غير أن السهيلي الذي عاش الى ما بعد سنة خمائة وثلاثين للهجرة قد اقتنع بأن حساب الطبري غير صحيح ، وقرر أن هذا الحديث لا يفيد إلا قرب الساعة .

هذا هو موجز ذلك الرهان الذي ساقه الأستاذ « كازانوا » في طليعة براهينه على دعواه القريبة . ولكي نكون منطقيين في نقاشنا ينبغي لنا أن نلقت نظره بديا الى أن استدلاله على جزم النبي العربي بعدم قابلية انفصال بعثته من الساعة بما يرد من هذا التعبير في لغة كازانوا الفرنسية ضرب من الطراء المتحصل الذي لا يليق بصغار المتعلمين فضلا عن العلماء والباحثين ، إذ من الذي لا ينجعل من أن ينسب اليه التاريخ أنه صر عبارة في لغة شرقية سامية بما يرد بمثلا في لغة غربية لاتينية ؟ ومن الذي يجرؤ على الادعاء بأن روي اللغتين متماثلتان أو متقاربتان ؟ وما يدري كازانوا أن هذه العبارة عامة مشترعة من الانسانية كما يزعم ؟ أفلا يمكن أن يكون ممساها في اللغة الفرنسية عدم قابلية الانفصال ، وأن تكون في اللغة العربية مجرد تصوير للتقرب أو محض تشبيه يفيد القرب وقصر المسافة التي تفصل بين بعثة النبي والساعة ؟ الحق أن موقف هذا المستشرق بإزاء هذه العبارة ضعيف مزهد لا يليق بالباحثين الذين يحترمون أنفسهم .

على أننا إذا أغضينا عن هذه السقطة وغفرا له فهمه اتصال البعثة المحمدية بالساعة مباشرة واملأناه معاملة من فهم مجرد القرب بينهما ثم نظرنا الى اعتراضه على هذا القرب ، ألفيهاء في نظر علماء الفلك ضعيفا واهيا ، وألفيهاء قول النبي مؤيدا بأحدث آراء العلماء المعاصرين ، لأن إجماع أولئك العلماء منعقد الآن على أن ما بقي من عمر الدنيا الى جانب ما مضى منها يشبه حقا ما تزيد به الوسطى عن الساعة ، وأن هذه الثلاثة عشر قرنا التي فصلت بعثة نبي المسلمين عن العصر الحاضر لا تنكاد نعتير إلا جزءا ضئيلا من عمر الكون لا يتعارض مع الإخبار باقتراب نهايته قبل مرورها ، لأن العمدة في تقدير هذا الاضطراب إنما هو نسبة ما بقي الى ما مضى . وأكثر من ذلك أن أحد كبار علماء الفلك الغربيين قرر منذ أعوام في محاضرة عامة أنه إذا أريد أن يقاس ما بقي من عمر الكواكب أو من عمر الكون بما مضى من السنين وجب أن يقدر ما مضى بمدد كمية من طوائع البريد ، صف بعضها فوق بعض من سطح الأرض الى قمة جبال الهملايا ، وأن يقدر ما بقي منها بكمية تساوي ارتفاع إحدى المرات البحرية . ونحن نحسب أن الأستاذ « كازانوا » يوافقنا على أن ما بين الوسطى والسبابة من فرق لا يقل عما بين المنارة وجبال الهملايا من هذا الفرق ، كما أنه يوافقنا على أن آلاف السنين الى جانب

الملايين تعتبر ضئيلة الى حد أن تصح الإشارة إليها بأصبع اليد، كما أننا نحسب أنه لا يخالفنا في أن نسبة الثانية الى الدقيقة هي بعينها نسبة المليون الى الستين مليوناً من السنين أو من القرون، وأنه ما دامت موازنة نبي المسلمين كانت تتعلق بنسبة ما بقى من عمر الدنيا الى ما مضى منه فإنه ليس له أن يعترض اعتراضاً علمياً على هذا الحديث الذى يصرح بقرب الساعة. وليس أدل على ما نقول من وصف هذا النبي أمته بأنها في وسط ما مضى من الخلائق كالشجرة البيضاء في الثور الأسود. فإذا استطاع كراخوخاً أن يحصى شعر ثور، وأن يحمل ملايين المسلمين جميعاً وحدة واحدة من عدد شعر هذا الثور، ويحمل الأمم السابقة بقدر ما بقى من الشعر مصروبا في عدد ملايين المسلمين، أمكنه أن يصل الى إحصاء عددي يتكافأ مع الإحصاء الزمني الذي أخبر نبي المسلمين به بأن ما بقى منه الى جانب ما مضى يشبه ما تريد به الوسطى على السبابة.

أما تلك العملية الحسابية التي أحراها الطبرى فهي سخيفة مضحكة ليس الاسلام مستولا عنها ولا مؤاحداً بها، لأن الاسلام مستول مما ورد في كتابه وما ثبتت صحته من أحاديث نبيه، وليس مستولا عن آراء كل من هب ودب من معتقيه وأنصاره. أما قول القرائن: « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » فهو تشبيه أريد به أنه يتم في اليوم الواحد بالقدرة الإلهية ما لا يتم من أفعال العباد في ألف سنة من سنى ديارهم. وأما الحديث الآخر الذى استغله الطبرى في حمليته الحسابية وهو قول النبي: « إن ما بقى من عمر الدنيا كما بين العصر وغروب الشمس » فهو — إذا صح — تشبيه بديع يشبه تشبيه السبابة بالوسطى الذى ورد في الحديث الأول، وهو كالتلف لا يتعارض مع الآراء العصرية في تقدير أعمار الأفلاك.

استشهد كراخوخاً على دعواه هذه ببرهان ثان ورد كسائفه في السنة فيما يزعم، وهو أن النبي كان يعتقد أن المسيح الدجال الذى لا شك في شهوده نهاية العالم كان معاصراً له. وآية ذلك أنه أشار الى ابن سعيد اليهودي بقوله: « هذا هو المسيح الدجال » وأن قيس الدارنى حدث النبي أنه كان مسافراً فوق البحر مع عدد من بني عمه فألقت بهم عاصفة على إحدى الجزائر فرأوا فيها حيواً هائلاً مغطى بشعر طويل فسألوه عن شعبته، فأجابهم الحيوان بأنه الجساسة التى ستظهر في آخر الزمان، ثم قالت لهم: احذروا سبد القصر، فنظروا فرأوا رجلاً مكسلاً بسلاسل من حديد مربوطة في عمود من حديد، ومن أوصافه كذا وكذا، ثم حدثهم فأنبأهم بأنه المسيح الدجال، وأنبأهم بوقوع عدد من الملاحم، ثم أعلن أنه لن يدخل مدينة النبي.

بعد أن ذكر الاستاذ كراخوخاً هاتين الروايتين علق عليهما بقوله: « من هذا يتضح أن هذا كان يعتقد أنه سيشهد نهاية العالم ».

لا ريب أن هذا البرهان هو أضعف من سائفه، لأنه يعتمد على روايتين، أما أولاهما وهى إطلاق النبي اسم المسيح الدجال على ابن سعيد الاسرائيلي، فإذا صححت فإن ما فيها لا يخرج

عن كونه ذمًا لهذا الاسرائيلي وإهانة له من الذي بإطلاق اسم المسيح الدجال عليه ، كما يقال : هذا شيطان ، وهذا وحش ، وهلم جرا . ولا يعقل أن يكون هذا الإطلاق حقيقيا على ظاهره حتى يستند الأستاذ كارانوا إليه في إثبات نظرية علمية ، ألهم إلا أن يكون هذا الأستاذ كالغريق الذي يتعلق بالقش أملًا في أن ينحو من الفرق .

أما الرواية الثانية فقد نقاها كارانوا عن مروح الذهب للمسمودي ، وإذا فهي ضمن ما أشرنا إليه في أول هذه الكلمة من الروايات الخرافية التي صرحنا أننا لن نقيم لها وزنا لسقوط قيمتها في نظر البحث الصحيح الذي يعتمد على اليقينيات .

هذا ، وسنمود الى مناقشة بقية براهين كارانوا التي تصلح للمناقشة ، وموعدا المقال المقبل .

الدكتور محمد مغرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

علامات العي

ترى المتكلم إذا كل لسانه يقول عند مقاطع كلامه للمخاطب : استمع الى ، واسمع مني ، وافهم عني . ومنهم من يقول في خلل كلامه : أما قول كذا فأعني به كذا . وهو لا يريد التفسير ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأول ، فسيانه أبدا يقهر عن إيضاح إشكاله ، وإن آتى بأنواع الكلام وأشكاله .

وذم بعض اللغاة عيبا فقال : قلبه ميت الفطنة ، ولسانه يادى اللكنة ، ولفظه ظاهر الهجنة ، شديد التعاون (يريد بالتعاون الميوب السابقة من قوله : اسمع مني الخ) ، بين التهاوت ، إذا عضته ولغته المساحلة والمساورة تنأب للمعاس ، وتناقل للنماس ، وتشاغل بمسح الهجنة ومس الجبهة ، وقرع اللسان ، وقتل الأصابع ، فعجزه ظاهر وعيه حاضر .

نقول . لا يعيب العي عيه لأنه يعجز عن إصلاحه ، ولكن الذي يعاب أن يعلم من نفسه القصور عن مقامات الفصحاء ، ومحالات البلغاء ، ويدفع بنفسه اليها مزاحما المتكلمين ، مشوشا نظام المجتمعين . فهذا هو الذي يسخر منه ، ويذري به .

عمر بن عبد العزيز

— ٣ —

افتداؤه بالقرآن في أصحاله :

كان يحيد القرآن لفظاً ومعنى ، وبحكم به في كل تصرفاته ، علماً منه بأن من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ولأنه سنام الكتب السماوية ، والدستور الإلهي الذي لا تغييره الأهواء والأزمان . فدخل أنه عبد الملك يوماً عليه وهو في قائلته فأيقظه وقال له : ما يؤمنك أن تؤتى في ممالك وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟ فقال له أبوه : يا بني إن نفسي مطبقة إن لم أرفع بها لم تلتفتي . إني لو أنعت نفسي وأعوانى ، لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا ، وإني لأحتسب في نومي من الآخر مثل الذي أحتسب في يقظتي . إن الله جل ثناؤه لم ينزل القرآن جملة ، بل أنزله الآية والآيتين حتى استمكن الإيمان في قلوب ذويه . يا بني : إن مما أنا فيه أسراً هو أهم إلى من أهل بيتك ، هم أهل العدة والعدد ، وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك في يوم واحد حشيت انتشاره على ، ولكي أنصف الرجل أو الاثنين فيبلغ ذلك من وراءها فيكون أنعم ، فإن يرد الله تمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الآخرة لحسب عبد أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف رعيته !

روايته الحديث :

أخذ عمر من كل ناحية بطرف : حفظ القرآن ، وتعلم السياسة والعلم ، وأسند الحديث عن جماعة من الصحابة ، وعن جماعة من كبار التابعين ، إلا أنه كان مشغولاً عن الرواية ، فقل حديثه ، فروى عن أنس بن مالك ، وابن عمر ، وابن جعفر ، وابن أبي سلمة ، والسائب ، وابن سلام ، وابن الصامت ، والداري . وأرسل الحديث عن شعبة ، وطائفة ، وأم هانئ ، وحسوة ، والمسيب ، وابن قارظ ، وأبي بكر بن عبد الرحمن ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسلمة بن عبد الرحمن ، وعروة ، وعبيد الله بن هبة ، وحارثة بن زيد بن ثابت ، وطاهر ابن سعد بن أبي وقاص ، وأبي بردة ، والربيع بن سبرة ، وهراث بن مالك ، وأبيه ، والزهرى ، وعبد بن كعب ، وأبي حازم ، وغير هؤلاء .

ولندكر مائتة من أحاديثه ليستدل بها على من سمع منه وروى عنه :

روايته عن أنس :

حدثنا الحارث بن محمد العبدي عن إسماعيل بن أبي حكيم عن عمر بن عبد العزيز عن أنس

ابن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم عدوا من غيركم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

روايته عن عبد الله بن جعفر :

حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن حمير بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أسماء بنت حميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الكرب قال : « إذا زل بك كرب فقل : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا » .

روايته عن حمير بن أبي سلمة المخزومي :

حدثنا إبراهيم بن أبي يحيى عن اسماعيل بن أبي حكيم ، عن حمير بن عبد العزيز ، عن حمير بن أبي سلمة المخزومي : « أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في ثوب واحد متشحا به وقد خالف بين طرفيه » . وهذا غريب من حديث حمير بن عبد العزيز تفرد به الحسن عن عبد الكريم .

وقد أرسل الحديث عن جماعة من القدماء ، منهم عبادة بن الصامت ، قال : حدثنا إبراهيم بن يحيى عن عبد العزيز بن حمير بن عبد العزيز عن حمير بن عبد العزيز ، عن عبادة بن الصامت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل رمضان قال : « اللهم سلمني لرمضان ، وسلم لي رمضان ، وتسلمه مني مقبلا » .

روايته عن أبيه :

قال حدثنا المغيرة بن أبي السعدى ، قال حدثنا الحسن بن أبي الحسن عن حمير بن عبد العزيز ، عن أبيه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا خشى أحدكم نسيان القرآن فليقل : اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أقيتني ، وارحمي بترك ما لا يعنيني ، وارزقي حسن النظر فيما يرضيك عني ، وأزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني ، وور به بصري ، واشرح به صدري ، واجعلني أتلوه كما يرضيك عني ، وافتح به قلبي ، وأطلق به لساني » .

وقصارى القول : أنه روى أحاديث من ذكرتهم قبلا وعن غيرهم ، ولكن لما كان هذا المقام مقام إيجاز لا إطناب اكتفينا بما ذكر من الأحاديث ، وما بقي منها فليرجع إليه في مواضعه .

تركة سب على على المنايا :

نشأت العداوة والبغضاء بين الأمويين وعلى بن أبي طالب لاعتقادهم أنه كان سبيبا في قتل عثمان ، فسكوا له السباب والمطاعن في منندياتهم ومجتمعاتهم بل وعلى منايرهم أيام الجمع ، وتبهم في ذلك ذريتهم ، حتى استخلف حمير بن عبد العزيز فحرم عليهم ما كانوا يفعلون ، واستبدل

سببه على المسابر بقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، فاتخذها الخطباء في نهاية الخطبة الثانية الى وقتنا هذا ، وتوعد بالمقاب من ينال عليا بمكروه ، وأكرم مولاه « زريقا » حيا وفد عليه ، وقد كان يحفظ القرآن والفرائض ، فقال له : يا أمير المؤمنين إني رجل من أهل المدينة ، وقد حفظت القرآن والفرائض ، وليس لي ديوان . فأجابه عمر : من أي الناس أنت ؟ قال : رجل من موالى بنى هاشم . فقال له : مولى من ؟ قال له : رجل من المسلمين . فقال له عمر اليك أسأل ، وصاح به : أتكتفى من أنت ؟ فقال سرا — مخافة أن يسمعه أحد من بنى أمية . أنا مولى على بن أبى طالب رضى الله عنه . فكفى عمر حتى جرت دموعه على الأرض ، ثم قال : وأنا مولى على ، أتكتفى ولأه على ؟ حدثني سميد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ثم قال : يا مزاحم كم تعطى أمثاله ؟ قال : مائة درهم أو مائتين . فقال عمر : أعطه خمسين دينارا لولايته لعل ابن أبى طالب ، وزده عشرة أخرى ، ومره أن يلحق ببلده فسيأتيه مثل ما يأتي نظرائه .

نحول جسمه بعد الخلافة :

كرس عمر حياته على توخي العدل بين الرعية ، وإذا ما اختلف فيه من الأحكام الى كتاب الله وسنة رسوله ، متأسيا بقوله تعالى : « فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » وألا يترك عاملا من عماله يعبت بنظام من ولى عليهم . كل ذلك كان شاغلا له عن راحته وزوجته وجواريه ، تغيرهن بين البقاء في المنزل أو الطلاق ، فبكين بكاء شديدا . وتغيرت حالته بعد أن كان شابا غليظا ممتلي الجسم حتى رقى له محمد بن كعب القرظي حينما دخل عليه يوما من الأيام وجعل ينظر اليه نظر تعجب ، فقال له عمر : ما أهبطك يا ابن كعب ؟ قال : لما حل من لونك ، ونفى من شعرك ، ونحل من جسمك . فقال له : كيف لو رأيته في قبري بعد ثلاثة أيام حين تقع حذقتي على وحتي ، ويسيل منغري وفي صديدا ودودا ، كنت لي أشد نكرة يا ابن كعب أعد على حديثنا حدثني عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال : قال ابن عباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لكل شئ شرفا ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، وإنما يجالسون بالأمانة ، ولا تصالوا خلف الثائم والمحدث ، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في صلاتكم ، ولا تستروا الجدر بالثياب ، ومن نظر في كتاب أخيه من غير إذنه فكأنما ينظر في النار ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتيق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يده » .

والفضل ما شهدت به الأعداء :

لما كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية وطلب معاوية تحكيم كتاب الله ، اختلف أصحاب

على أن يقبلون التحكيم لأنهم يحاربون لإعلاء كلمة الله ، أم لا يقبلون لأنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وصحبه لما أحصوا بالهزيمة ؟ وبعد جمدال وتردد قبل على التحكيم ، واختار معاوية عمرو بن العاص كما اختار أصحاب على أبو موسى الأشعري ليحكم بينهما . إذ ذاك ظهر قوم من أتباع على ونفروا من التحكيم لاعتقادهم خطأه . هؤلاء هم الخوارج : تفرقوا شيعة وأحرابا ، وتمذهب كل واحد منهم بمذهب خاص مستعريين نهش أعراض من كانوا لهم بالأمس إخوانا ، واستمروا على حالتهم هذه يناوئون من لا يعمل على . طريقته من الخلفاء والأمراء ، إلى أن استخلف عمر بن عبد المريز فشهدوا فيه نهاية السلك والتواضع ، وأنه قد صرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر على اختياره ، فسلط عماله طريقته ، فأقبلوا عليه وقالوا له : لقد حققت منا دعاءك وعرضك لذلك وحسن سيرتك . ثم طأضوه أن ينجح طريقتهم فأبى .

محمد مصطفى شادي

فضل البيان

قال حكيم : فضل اللسان على الحيوان بالبيان ، فإذا نطق ولم يفصح عاد بهما وقيل : ما لم يهروءة ، ولا لمنقص البيان بهاء ، ولو حكت يا فوخه في عنان السماء . وقالوا : ألمي داء دواؤه الخرس .

وروى : أنه تكلم رجل في حضرة معاوية بن أبي سفيان وكان ذاعى ، فقال عمرو ابن العاص وكان حاضرا : سكوت إلا لكن نعمة . وقال معاوية : وكلام الاحق نعمة . وقالوا : البيان بصر والى صمى ، والبيان من نتاج العلم ، والى من نتاج الجهل . ويحكى أن رجلا وكان داهية جريشا قام إلى عهد بن الزيات وزير المعتصم فقال له : إلى مظلومك !

فقال الوزير : هذا الكلام يحتاج إلى شهود وبينه ، وأشياء غير ذلك . فقال الرجل : أصلحك الله . الشهود هم البينة ، والبينة هم الشهود ، وأشياء غير ذلك حصر وعى وزيادة هي نقص في القيام بمجنتك أيها الوزير !

فضحك ابن الزيات منه وكشف غلامته .

الفائدة والربا

بين النظريتين الغربية والاسلامية

تقوم السياسات المالية في العالم الآن على أساس الفائدة والبنوك ، فما من عملية مالية تتم بين طرفين إلا ولها فائدة أثر بين فيها .

والفائدة هي النتيجة الضرورية لنظام الملكية الخاصة والمبادلة الحرة ، وهي ثم استئجار رأس المال ، سواء أكان ذلك في الاستهلاك أم في الإنتاج ، وسيلة ذلك الإقراض .

ويرجع سبب الاقتراض الى توزيع الجهود البشرية ، فأنت يمكنك استثمار المال في ناحية من نواحي نشاط الاقتصادى حيث تؤهلك ميزانك الخاصة وتدريبك لهذا العمل .

ومن الجنابة أن تعطل رهوس الأموال بكثرةها في خزائن حديد كما كان يفعل الأقدمون ، إذ أن كل قرش يحجز في تلك الخزائن يسحب من السوق ، فتقل وسائل المبادلة ، وبذلك تتأثر القوة الشرائية في المجتمع ، مما يسبب فقر الأمة . وهذا هو سبب مهاجمة النظريات الاشتراكية والشيوعية للرأسمالية . ذلك أن القود وهي وسيلة المبادلة ، تصدرها الحكومات والبنوك المركزية بقدر محدود ينفق وحاجة البلد الاقتصادية محافظة على القوة الشرائية فيه ، لأنها لو زادت أو نقصت عن حاجة الأمة اختلت تلك القوة الشرائية ، وتغيرت الأسعار ، وارتبك المنتجون والوسطاء والمستهلكون جميعا .

ويتكون رأس المال من مال موروث أو مدخر ، وهو في كلتا الحالتين يود صاحبه أن يستثمره ، وقد يكون صاحب رأس المال غير كفء للعمل ، أو أن رأس المال ذاته يكون زائدا عن حاجته فيقرضه لمن يتطلبه نظير فائدة . وبذلك يكون الإقراض إما للاستهلاك وقد أصبح نادرا مثله كالقروض التي تعقدها الحكومات للحروب ، وإما للإنتاج وتقوم الصناعات الكبيرة والمشروعات الجديدة معتمدة على هذا النوع من القروض لتغطي حاجتها المتزايدة للمال ، حتى إنه قد تأسست بنوك وبيوت مالية خاصة لتنظيم مسألة الإقراض والتسليف ، كالبنوك التي أنشئت خصيصا لتمويل المصانع الكبيرة في ألمانيا ، أو لإنشاء صناعات جديدة فيها ، وكنبتك التسليف الزراعى في مصر .

وإن المال التجارية والمؤسسات المالية والمصانع والبنوك بدورها تشغل جزءا من رأس مالها وتستثمره تارة بهيئة قروض ، وطورا في شراء سندات أو أوراق مالية أخرى ، ويدخلون في حساب أرباحهم فائدة رأس المال ، ولا يحتفظون برصيد كبير طائل في خزائن محلاتهم ، بل هم يتعاملون دائما مع البنوك ، ومن طبيعة عملها التعامل بالمال في نواحي الاستثمار المختلفة .

ويرجع تاريخ الفائدة الى المصور الاولى ، فقد شغف الاسرائيليون من قبل موسى بجمع المال والاشتغال به ، واتبعوا طرقا مغرية لسحب من ذويه ، فابتدعوا نظامى الفائدة والرهن ، وانتشروا بين الناس ، وأسسوا « بنوكا للتسليف تحت رهونات » ، وأنزل إليهم كتاب من ربهم ينههم عن الربا ، فعصوا أمر ربهم ، واستباحوا لأنفسهم ذلك الجشع المادى ، ودفعهم التقصى الذى يشعرون به من تفرقهم وتشتتهم الى الاحتفاء وراء المال والتقوى به ، وتمسكوا فى نظام الفائدة فجعلوها مركبة تنصاعف بطول مدة القرض ، حتى إذا ما عجز المدين عن الدفع زرعوا ملكيته ونقلوا الى أنفسهم كل ثروته .

وكانت النتيجة أن تجمعت الأموال فى أيدي نفر قليل أصبحوا أصحاب رهوس الأموال ، وتكونت منهم طبقة غنية عاطلة تحترف الإقراض ، وتعرف بالخبرة أنها تحصل دائما على فائدة لتقودهم التى يقرصونها يمتبرونها — فى هرفهم — فائدة مكنتسة .

وكان أن جاء دور الانقلاب الصناعى فى أوروبا ، واستخدمت الآلات بدل الانسان ، وبنى ذلك بالانتاج الكبير ، وعاد بالربح الوفير على أصحاب المصانع والمتاجر الكبيرة ، فاثرت طوائف عديدة ، وراد الإقبال على الادخار ، واستعملت كميات هائلة من رهوس الأموال فى وسائل الإنتاج ، واحتاج رجال الأعمال الأغنياء أنفسهم الى الاقتراض — وهذا هو الإقراض للإنتاج — نظير فائدة يحددها عرض رهوس الأموال سواء المدخرة أم الموروثة ، وطلب المستعين لها ، وأصبحت لها نسبة مئوية ، وأصبح من السهل على رب العمل الحصول على المال اللازم لصاعته بفائدة صغيرة ، بينما العامل الذى لا يقتضى إلا لغرض الاستهلاك — لا الحصول على حاجاته الضرورية — لا ينال ما يحتاج إليه إلا بعد أن يقبل فائدة مضاعفة ، ويوهن منقولانه وأملكه ، وبذلك تهتد تلك الطبقة بالفقر والاعدام .

وزاد نفوذ الرأسماليين وتحكمهم فى رقاب العمال والطبقات الفقيرة ، واتخذ نظام الرق شكل رق العمل ، وانهى الأمر بتبرم العمال ، وظهور اتحادات العمل ، ونظريات الاشتراكية والشيوعية ، والاشتراكية الوطنية وغيرها ، ترى للتخلص من يبر رب العمل ، وتحسين حالة العمال والطبقات الفقيرة ، بتقليل ساعات العمل ، وزيادة الأجور واقتسام الأرباح ، بل والقضاء على الملكية الخاصة ، وعلى الطبقة النسية المعاملة ، وعلى الدخل الشائى من الفائدة والإيجار ، وإياحة الدخل الشائى من كسب العمل .

أسباب الفائدة :

اتفقت الشرائع على تحريم الفائدة والربا ، على لسان موسى وعيسى ، وجاء بهى العربى صلى الله عليه وسلم يقول : « وأحل الله البيع وحرم الربا » . ذلك أن الأموال كانت تقرض لأغراض الاستهلاك فقط ، أى لحالات شخصية غير منتجة ، وكان الفقير هو الذى يقتضى من الغنى

المراعى الذى ينتهز فرصة حاجة المدين الى المال ويملى شروطه القاسية ، حتى إنه فى عهد الرومان كان يرهس المدين شخصه ، فإذا ما حل ميعاد الوفاء ولم يمكنه تفرغه أن يدفع لا المبلغ ولا فوائده يدفع بجسمه وعمله بأن يصبح ملكاً للدائن . وإن فى قصة « شيلوك » المراعى الذى حكمت له المحكمة أن يقتطع رطلاً من لحم المدين وفاء لشروط سداد دينه لدليلاً على قسوة الدائنين وتحكمهم ، وأن المدين الذى يقبل هذه الشروط كان يقبلها تحت إرغام الحاجة الماسة التى تسلب قواه العاقلة فيخضع لشروط الدائن ، ولذلك أقام الدين من نفسه قياً عليه ليحفظ له أمواله واعتباره ، ويمنعه من الوقوع بين يرائى الدائنين .

ولكن تقسيم العمل والانقلاب الصناعى وقيام الصناعات الكبيرة ، كل أولئك قلب الأوضاع وجعل الإقراض للإنتاج هو الظاهرة الأكثر شيوعاً . ولذلك يذهب الاقتصاديون لتبرير الفائدة الى سببين : قانونى ، واقتصادى .

السبب القانونى :

أن رأس المال هو أحد عوامل الإنتاج الثلاثة ، وهى الأرض ، والعمل ، ورأس المال . فكما أن الأرض تستحق نظير استعمالها إيجاراً ، والعمل أجراً ، فكذلك يأخذ رأس المال فائدة . وإن مثل امتلاكك منزلاً تنتقل اليك ملكيته إما عن طريق الميراث أو الشراء : مثل رأس المال الذى تكون قد ورثته عن آباءك أو قد ادخرته فى حداثتك ، فهو ملكية خاصة لا تعطى لأحد إلا فى نظير مقابل ، مثلاً يأخذ المالك إيجاراً نظير تأجير منزله أو أرضه .

وقد يقال إن رأس المال شئ زائد عن حاجة صاحبه ، أو إن صاحبه عاجز عن العمل والتصرف فى ماله فلا يستحق منه فائدة . ولكن كما يقول الأستاذ « جيد » فى كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسى) : أفترض على أن أدع غبرى يحل ببقى فقط لأنه قدر على أن أكون غائباً عنه ؟ أو أن أسمح لغيرى أن يأكل طعامى لأنى لست جائعاً الآن ؟ ثم إنه إذا كان إيجار المنزل أو الأرض يعتبر قانونياً فكيف لا يكون إيجار رأس المال كذلك ما دام يمكن استعمال رأس المال فى شراء منزل أو أرض ؟ بل إن رأس المال نفسه شكل دائم من الثروة له شخصية قائمة من المنزل الذى قد تهدم ، أو الأرض التى قد تبور .

السبب الاقتصادى :

تنشأ الفائدة نتيجة الموازنة بين الحاضر والمستقبل ، والتفاضل بين المنفعة الحاضرة والمنفعة المستقبلية . فالمقرض يؤخر التمتع بوسائله الحاضرة فى سبيل أن يضمن حصوله على فسط ثابت فى مستقبل حياته ، أو هو يصحى منفعة حاضرة بمنفعة مستقبلية .

فللأمانة جنيته فى هذه السنة قيمتها تساوى بعد سنة بالنسبة للدائن مائة جنيه وخمسة جنيهات ، وعلى ذلك يستحق المقرض خمسة جنيهات هى فائدة قرصه .

أو أن المائة جنيته قيمتها تساوى بعد سنة بالنسبة للدائن ٩٥ جنيها ، فهو يخصم خمسة جنيهات من المبلغ المقرض في تاريخ عقد القرض حتى لا يضار اقتصاديا .

ولكن هذه الأسباب قررها الاقتصاديون تبريرا للحالة الساجدة عن النظام الاقتصادي ، وهذا النظام بوضعه الحالي قائم من أساسه ، لأنه لم يمنع تصادم الفئات وحشع الأفراد واقتتار بعض البلاد نتيجة لنظام توزيع الثروة ، مما سبب المازمات والشحناء الدائمة بين رب العمل والعامل ، أو الحكومات بعضها وبعض ، بسبب المادة التي تجبعت لدى أفراد وشجت من لدن آخرين . وإن التوزيع الحالي في الحالة الدولية يرجع سببه لسوء توزيع المادة الأولية التي توفرت لدى الرأسماليين .

ولقد حرم الله الربا لما يؤدي اليه من النتائج الساقطة التي تهدد المجتمع بالانهيار ، ويرفع من شأن الانسان ، فلا يعيش على التحايل لجمع المال وكرهه ، وبذلك تتكون الطبقة العاطلة من الامة ، تبقى حارسة على مال معطل ، أو تستخدمه في إذلال فئات أخرى . ولا يحق ما يتركه ذلك من الأثر النفساني السيئ ، من تقسّي الحسد والبغضاء بين الطبقات المختلفة . وهذا ما يسعى لاسلام للقضاء عليه ، لأنه وهو « دين عام خالده » يفرض محتمما غير المحتجع الذي نعيش فيه : مجتمعا مثاليا تسود فيه المحبة والإحباء بين جميع المسلمين ، فالمسلم أخو المسلم ، ولا ينم إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، لذلك لم يفرق بين الإقراض للاستهلاك أو الإقراض للإنتاج بل إن من توفرت لديه كميات من المال من تجارة أو صناعة أو ميراث أو غنائم وأصبح في غنى منه فلا ضير أن يقرضه لإخوانه الذين يحتاجون اليه سواء لغرض إشباع حاجتهم ، أو للعمل في الإنتاج ، ولا يتطلب منهم فائدة ، إلا أنه في الحالة الأخيرة يمكنه كما سبقين بعد أن يشترك في الإنتاج وبنال أرباحا ، وهذا أسمى أنواع التعاون . أليس من مبادئ التعاون الاشتراك في رأس المال دون انتظار نصيب في فوائده ؟

كذلك يفرض الاسلام في المحيط الاسلامي تعاونا بين جميع أفرادها ، فهم وحدات تدأب على العمل في تعاون بينهم لإتمام العمل الرباني الذي خلق الانسان من أجله ، حيث قال تعالى . « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »

ولكن مبادئ الاسلام أصبحت طافية الآثار ، إذ قد أهملها ذووها وأخذوا عن الغرب قوانينهم الوضعية ، واعتنقوا مبادئهم الاقتصادية . ولذلك اختلط على أفراد المسلمين التوفيق بين محاربة الفريين والتمسك بأهداب دينهم ؛ خصوصا أن حكوماتهم قد رتبّت معاملاتها الاقتصادية على تلك النظم الغربية ، فأست البنوك ، وأقامت الشركات والبيوت المالية الحديثة . فترى المسلم يودع أمواله في البنك إلا أنه هو أزع الديني يأنى أن يأخذ عنها

فوائد . وفي ذلك يقول جيد : إن البنكر المسبحى أو اليهودى يستفيد من ذلك كثيرا ، لأنه يفعل ويستثمر تلك الأموال ثم هو يأخذ الفائدة لحسابه .

إلا أن المسلم الذى يفعل ذلك يرتكب خطأ كبيرا من الوجهتين القومية والدينية :

فن وجهة الاقتصاد القوى : إن مجرد إيداع المال فى البنك يزيد ثروة الأجانب ويقوى نفوذهم ، وكان المفروض أن تطرد رؤوس الأموال المصرية رؤوس الأموال الأجنبية ونحصل محلها فى الصناعة والتجارة والترقى بالزراعة ، خصوصا فى مصر البلد الناشئة نشأة اقتصادية ناهضة ، فبدلا من تعطيل رؤوس الأموال يجب المجارفة بها بتأسيس شركات كبيرة لاستثمار الموارد الطبيعية فى مصر ، أو الاشتراك فى رأس مال للشركات الموجودة بشراء أسهمها .

أما من الوجهة الدينية فيكون مثله مثل الرجل يؤجر قهونانى ذكاء فى منزله ويحرم على نفسه الخمر ، بينما هو قد ساعد على انتشارها بين سكان الحى . فهو بالمثل إذا لم يأخذ الفائدة من البنك عن أمواله المودعة فيه فإنه يعطيه فرصة تشجيعها ومضاعفة أرباحه .

ثم إن ذلك لم يخرج عن كونه كترآ ، وفى ذلك يقول تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيبشرهم بعباب آليم . يوم يحصى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فمدووقوا ما كنتم تكنزون »

هذه هى نظرية الاسلام فى تحريم الكثر والاشتغال بجمع المال « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أحلله » . ولكن لا يظن من ذلك أنه يدعو الى الإتيان والإسراف والتبذير فتضيع الثروة الفردية ولا تتجمع لدى الأفراد رؤوس الأموال اللازمة للصناعة والانتاج الكبير ، كلا بل إنه يحض على إنفاقها فى سبيل الله : أى فى التداول والانتاج والقيام بالعمل الرأبى الذى كلف به الإنسان يوم حمل الأمانة الكبرى ، وهى تكملة نقص الأرض وزينتها وزخرفها باستخراج ما أودع فى بطنها فى المناجم والمحاجر وصناعاته وتنظيمه وتنسيق الزراعة .

بل هو لهذا الغرض يدعو الى الادخار والاقتصاد ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقال : « المال والنون زينة الحياة الدنيا » وقال : « ولا تسطها كل السط » وقال صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدياك كأنك تعيش أبدا » .

والادخار الذى يدعو له الاسلام ادخار لغرضين : إما للقيام بمشروع جديد ، أو للاشتراك فى مشروع قديم . ويكون ذلك فى عصرنا الحالى بقيام جماعة من المسلمين بتأسيس شركة والاشتراك فى رأس مالها وطرح أسهمها فى السوق ليكتتب الجمهور فيها ، أو بشراء أسهم شركة قائمة كشركة الغزل ، وبذلك يشتركون فى رأس مالها ، لأن السهم جزء من رأس المال

يمود على صاحبه برح ناشئ من كسب التجارة أو الصناعة ، فهو حلال بَيِّن ، ولا عبرة إذا كانت الشركة تفعل جزءا من رأس مالها نفوائد ، فإن هذا ليس الغرض من قيامها ، وحكمه حكم الخرب في لباس يغلب في نسجه القطن .

إنى إذا كانوا أصحاب الشركة أو المشروع فلا يصدرزون سندات ، وإذا كانوا من جمهور المساهمين أو الممولين فلا يشترون سندات ، لأن السند يمثل ديننا على الشركة ويستحق صاحبه فائدة سنوية سواء ربحت الشركة أم خسرت ، وبذلك يدخل في الفئة الغنية العاطلة التي تشتغل بالمال ، والتي يحاربها الاسلام ، ونحاربها الاشتراكية الحديثة .

وإذا كانت الحكومات الاسلامية قد سارت على سنن القوايين الاقتصادية الوصعية ، فأنشأت بنوكا مركزية وصناديق لتوفير تفعل أموالها وتمطى عنها فوائد ، وبنوكا للتسليف وتأخذ هي الفائدة ، واضطرتها الظروف السياسية الى الاستدانة وعقد القروض مع الحكومات والسيوت المالية الاجنبية نظير فائدة تدفعها سنويا — فإنه يتعين على كل مسلم حريص على اتساع تعامله دينه أن يتحاشى هذه المعاملات ، وأن يؤلف ذوو السعة جمعيات من بينهم للإقراض ، إما لغرض الاستهلاك في الحالات الضرورية ، أو للإنتاج لتشجيع الصناعة والزراعة القومية والنهوض بها بدون فائدة . ولاخير من الرهن حتى إذا لم يف المدين بدينه يبيع الشيء المرهون ويرد لعدين باقي قيمته في لين ورفق ، إذ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . ويخرجون الزكاة ويتصدقون ، حتى تخف وطأة الحاجة على المال والعقراء ، قل الله تعالى « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

إبراهيم زكي

خريج كلية التجارة العليا

عدل عمر الفاروق

كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافقوه في موسم الحج ، فإذا اجتمعوا قام خطيبا وقال : أيها الناس : إنى لم أستمعل مما لي عليكم ليصيبوا من أضراركم ولا من أموالكم شيئا ، إنما استعملتهم ليحجزوا بيسكم ، ويردوا عليكم فيسكم ، فأيسكم كانت له عدى مظنة فليقم .

نقول : إن هذه الوسيلة التي استكرها عمر وتفرد بها من بين جميع قادة الامم ، هي أفضل في تقويم أخلاق الولاة من كل الأوامر المشددة التي تصدر اليهم ، فضلا عن أنها تشف عن ديمقراطية تحفظ على الشعب كرامته وتمنح له عزه .

النبوغ بين الذكر والنسيان

الخليل بن أحمد

ذكر الناس سييويه ونسوا أستاذه ، وتمثلوا بذكاء إياس وتركوا الخليل ، ولهجوا بالاصمعي وأهملوا صاحب العين .

ذلك هو الخليل بن أحمد ، نابغة العرب ، وصاحب الفضل الأعظم على لغة الصاد والناطقين بها جميعا .

عصر الخليل :

شهدت المدة التي قضاها الخليل من سنة ١٠٠ الى ١٧٤ هـ انطلاقا هائلا في حياة العرب الاحتجاجية والعلمية والفكرية والأدبية ، ذلك بأن الخلفاء من بني أمية قد ركضوا الى الترف والإصراف ، واستمرروا الدهة والحوّل ، وانشقوا على أنفسهم ، فذهب الضعف في دولتهم ، وطمع فيهم خصومهم ، واتهمهم بنو عمومهم من العباسيين والموليين ، واستعانوا عليهم بغير العرب من العجم ، حتى ذكروا عروشهم ، وأطاحوا برؤوسهم ، وأعمل السفاح والمنصور السيف في أهل بيتهم حتى كان من شناعة ذلك ما سطره التاريخ . قام بنو العباس إذن على سواعد الفرس ، فقرّبوا المعجم وأبعدوا العرب لتمصهم لبني أمية ، وخوفهم من بني علي ، وأوصى المنصور أبا مسلم وصيته المشهورة : « إن استطعت ألا تدع في خراسان لسانا عربيا فافعل » . فنشأ عن ذلك انقلاب في الفكر وفي اللغة . فقد تعلم المعجم لسان العرب ، واستخدمهم الخلفاء في الدولة ، فأدخلوا أفكارهم وعلومهم وفلسفتهم ، وتغيرت حال اللغة في النصور والتفكير والخليل والأسلوب ، واستفاد العرب من كل ذلك وتعلموه وفهموه ووضعوا فيه الأسفار ، وابتكروا من عندهم فنونا وعلوما ، فكانت نهضة كبرى أورتنا حضارة اليوم .

غير أن ما تقدم قد صحبه سيئات ، منها أن العجمة انتشرت ، ونشأ اللحن ، وتبلبلت الألسنة ، وضمت السليقة ، فقام الغيوروون ينصحون عن العربية ، يصححون أصولها ، ويضعون قواعدها ، ويبتكرون ضوابطها ، وينشرون فيها السلامة حتى نحوا عنها شرا كثيرا . وقد أم القوم في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي .

نشأة الخليل :

نشأ الخليل نشأة عربية ، فتعلم القرآن والحديث ، وأخذ اللغة والأدب عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر النخعي ، وتلقى فن الإيقاع وغيره على أئمة تلك الفنون . ورحل الى البادية غير

مرة ، فشافه الأعراب والبلغاء ، وجمع من شعرهم ولقنهم ما لم يجتمع لأحد قبله ، ولم يكن همه من الرحلة الى البادية البحث عن الشعر واللغة وضبط الألفاظ ومعرفة اللهجات ليس غير ، وإنما حشد حشده لوضع أصول النحو وفروعه ومسائله حتى جعل من ذلك علماً قائماً مصبوحاً نقله عنه أئمة هذا الفن ، كما سيأتي ذكره بعد .

اختراع الخليل :

الشعر كتاب العرب ، وصموا فيه تاريخهم وعلومهم ومفاخرهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فكان طبعها أن يهتم الخليل به أكثر من غيره ، ففطر إليه نظرة البحث في ماضيه وحاضره ومستقبله فوجد أن العرب حرت في ذلك على نظام لم يشد عنه أحد منهم ، وجرى الخلف على ما صنع السلف بالطبع والسليقة ، ولكن الحال الآن قد تغيرت ، فالوالمى قد تعاطوا الشعر وقرضوه ، والعرب قد ضمنت فيهم السليقة ، والألسنة تبلبلت واللحن فشا ، وقد انزلت لعصم الى غير المقاييس العربية ، ولو اطرده الأمر على هذا لعمت القوضى ، واضطرب حال الشعر ، وكانت الكارثة على أعمى ما حلف العرب . فطن الخليل الى هذا فباله ، فأخذ يجمع شعر العرب من كل فج ، ورتبه ترتيباً عجيباً ، وجعله طوائف ، وأرجع كل طائفة الى أصل ، ووضع لكل أصل تفصيلات مترنة يعرف بها ، ويتميز من أصحابه من أجلها ، وانتهت أصوله الى خمسة عشر أصلاً سماها بحورا ، وجعل لكل بحر اسماً يناسبه ، واستخفى بعمله عن الصحب والولد ، مخافة أن يظنوا به الظنون . وقد رآه مرة أحد أولاده يقطع بيتاً من الشعر فظنه مجنوناً وأخبر الناس بذلك ، فلامه الخليل على عمله وقال :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتنى وعلمت أنك جاهل فعذرتك

فلما اطمأن الخليل الى عمله ، ووثق من حلية أمره ، أخرجته الى الناس مهرم ، واستنول عليهم ما يشبه الدهول ، وخضع الجميع أمام نبوغ الخليل وتفوقه . ولو كان في عصرنا هذا لأقاموا له التماثيل .

أمنت لغة القصر آن ذن من الاضطراب ، وأصبح الشعر في حصن لا يشترق إليه فساد ولا يعتوره خلل ، وصار الشاعر آمناً يؤوى الى دكن دكين ، يقيس به قوله ، ويقدر به عمله ، وأصبح الناطقون بالصاد عيالاً في ذلك على الخليل ، سواء منهم الشاعر والناثر ، والفقير والمحدث والمفسر ، والعالم والطالب ، ولا يدري إلا الله ماذا كانت الحال اليوم في شعر العرب لو لم يصنع الخليل ما صنع .

هذا الرجل الذى أتى بعالم يأت به أحد قبله ، وكانت حياته خيراً وركبة على لغة العرب ، وكان في وقته ملء فم الدنيا ومعها ، أين ذكره الآن ؟ هل تعرفه الجامعة ؟ هل تعرفه وزارة

المعارف ؟ والترب في أمر هذا الرجل أن الناس يجمعون اليه في كل يوم ألف مرة ، ولكن أحدا لم يذكره مرة !

ولم يكن اختراع الخليل مقصورا على ضوابط الشعر وأوزانه ، وإنما ابتكر طريقة تدوين المعاجم ، وهو صاحب الشكل المستعمل الآن .

قال حمزة بن الحسن الأصمباني : إن دولة الاسلام لم تخرج أبداً للعلوم التي لم يكن لها عند العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا من حكيم أحده ، ولا على مثال تقدمه احذاه ، وإنما اخترعه ، فلما كانت أيامه قديمة ، ورسومه بعيدة لفتك فيه بعض الامم لصنعه ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه علم العروض ، ومن وضعه كتاب العين الذي يحصر لغة أمة ... الخ .

نبوغ الخليل :

النبوغ : التفوق . وسأقف منه على كلمات ، فقد اتسعت أرجاؤه وإن قل وجوده في الناس ، والنبوغ قد يكون في فكرة ، وقد يكون في إدراك ، وقد يكون في فن ، وقد يكون في علم ، وقد يكون في غير ذلك . والنبوغ مزاجاً وشجياً ، فهو الذي أضاء العالم ، ووهب للناس النور والمعرفة ، ونقلهم مما كانوا فيه الى الافق الذي رى الآن . غير أنه يخرج على المجهود والمألوف ، ويطمس كثيرين من العلماء البارزين ، ويقضي على شهرة المشهورين منهم . ولهذا كان أكثر الناس عداوة للنبوغ ، وأشدهم حقداً على النافع ، العلماء وأنصاف العلماء ، يحاربونه ويغللون من شأنه . ولكن أتى هذه أن تطاول الجبل ، وللهذبة أن تباهى الغزالة ! ومن شأن الناعة أن يفكر في كل شيء حوله ، وأن يفكر فيما ليس حوله ، وأن ينصت الى صوت الطبيعة ، فقد تكون منه لغة يتفاهم بها مع نفسه ، ويزداد هذا التفاهم حتى يخرج من العدم وجوداً ، وقد يرسل النابغة فكره الى عالم آخر فيواتيه الإلهام فيبدله على ما لم يدعه أحد قبله . والخليل قد فكر فواتاه الإلهام ، وأنصت الى صوت الجناد فكانت منه لغة تفاهم بها مع نفسه ، وازداد هذا التفاهم حتى أوجد ما لم يوجد أحد قبله . قالوا إن الخليل قد مر برجل يصرب عقرعة على طست ، فخلق من هذه الزنات علم العروض ، وهذا هو النبوغ . فالخليل نابغة لأنه فكر ، ولأنه أدرك ، ولأنه خلق ما لم يخلق من قبل .

الخليل الغوى :

كان الخليل إماماً في اللغة ، أخذها عن ابن العلاء وأضرابه ، وشافه الأعراب في البادية ، فأحاط من ذلك بما لم يحاط به أحد ، فأراد أن يحفظ للعرب لغتهم ، فابتكر طريقة المعاجم ، ووضع كتاب العين ، وقد أكله بعده تلاميذه النضر بن شميل وغيره ، وقد احتذى مثله

كل من جاء بعده من اللغويين ، وقد بدأه بحرف العين فسماه بهذا الاسم . غير أن النضر وزملاءه لم يتمكنوا من إتمام الكتاب كما رسم الخليل ، فغيروا وبدلوا ، شاء فيه بعض اضطراب لا يقع الخليل في مثله .

الخليل النحوى :

إذا استثنينا جلا قصيرة وضعها أبو الأسود وغيره ، وجدنا أن الخليل هو الذى أبدع النحو ، أو على الأقل هو الذى أوجده علما قائما مضبوطا ، فقد استخرج مسائله وفتح على أصوله ، ووضع صوابه ، وخف اليه العلماء فأخذوه عنه ، ولقن سيبويه ما وضع منه كتابه الذى صار مرجعا وإماما لكل من كتب فى هذا الفن بعد . وقد طبع من شأن هذا الكتاب أنه كان إذا أطلق لفظ الكتاب لا ينصرف القهسى إلا إليه . قال الجاحظ : أردت الخروج الى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتمد ففكرت فى شيء أهديه اليه فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه . وكان الخليل يحب سيبويه ويقربه ، ويقول عند قدومه : مرحبا بزار لا يمل ! قال أبو عمرو الخزوى : ما صحت الخليل بقولها لأحد إلا لسيبويه .

الخليل العالم :

يكفى أن نقول فى ذلك : إن الخليل كان يعلم ما يعلمه أهل زمانه ، ويعلم ما ليس يعلمونه ويعلمهم إياه ، وقد ألف كتباً فى كثير من العلوم والفنون .

الخليل الزاهد :

كان الخليل على النفس بعيد الهمة ، ألبا ، يرى الحياة فى العلم ، وإبداع ما ينفع الناس ، غير مهتم بمال ولا منصب ، فكان تلاميذه يكسبون بعله الأموال الطائلة وهو مقيم فى كوخ من أكواخ البصرة يعمل ويفكر ويخرج الى الناس ما يهرم ، وكان يقول : « إني لأغلق على بابي فأبجأه همة » . وكثيرا ما كان ينشد قول الأحنف :

وإذا افترقت الى القفا لم نجد ذرا يكون كصالح الأعمال

وقد علم بحاله سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة فأحرى له راتبا ، وكان واليا على فارس والأهواز ، وكتب اليه يستدعى حضوره ، فأحس الخليل أنه إنما يريد أن يستخدمه بماله ، فكتب اليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة	وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحا بنفسى أنى لا أرى أحدا	يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الصعف ينقصه	ولا يزيدك فيه حول محال
والعقر فى النفس لا فى المال نمرقه	ومثل دالك الغنى فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب ، فقال الخليل :

إن الذي شق في ضامن **المرزق** حتى يتوفى
فبلغ ذلك سليمان فكتب اليه يمشد وأضعف راتبه .

وفاة الخليل :

قالوا : إن الخليل دخل المسجد وهو يفكر في اختراع نوع من الحساب تذهب به الحارة
الى البياع فلا يظلمها ، فصدته سارية الجامع ، فكانت هذه الصدمة سبب وفاته ، رحمه الله ،
وذكر العلماء به **محمد ناصف**

حرفة الادب

اشتهر قول الأدباء - أدركته حرفة الادب . والحرفة : الحرمان ، يريدون بذلك أن كل
أديب لا بد من أن تدركه هذه الحرفة فتتمكس آماله ، وتسوء حاله . حتى روى أن أبا عبيدة
ابن معمر بن المثنى قال : قال لي أبي : إذا كتبت كتابا فالحل فيه ، فإن الصواب حرفة ، والخطأ
نجح . أخذ بعض الشعراء فتظمه في قوله :

إني كنت يوما كاتباً رقعة تبني بها نجح وصول الطلب
إياك أن تقرب العاظم فتكسح حرفة أهل الادب

ومن أدلة القائلين بهذا الرأي ما حدث لعبد الله بن المعتز : فانه لما طلع المقتدر بالله العباسي
بويج عند الله بن المعتز بالخلقة ، وهو واضح علم البديع ، ومكانته في الادب لا تطاول . فلقبوه
المرتضى . وكانت الفتن قائمة على ساق وقدم فلم يلبث في الخلقة غير يومين ، فألحت عليه
الاضطرابات فاضطر للهرب بحياته من وجه الذين يتقصده بالموث . ولم يلبث أن انكشف
أمره وقتله حرب خصه في تلك الدار . فقال فيه ابن بسام :

فه درك من ميت بمضية ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لولا ولا ليت فتقمه وإنما أدركته حرفة الادب

وقال أبو إسحاق السبائي :

قد كنت أعجب من مالى وكثرته وكيف تفصل عني حرفة الادب
حتى انشئت وهي كالفصبي تلاحقني شررا فلم تنق لي شيئا من الشب

أما نحن فنرد كل هذا ، ودليلنا ما كان للادب من دولة في شباب الدولة الاسلامية ، وماله
من دولة اليوم ، حيث ييوسى المجيدين من أهله أعلى المراتب .

نظرة في عالم الأسماك

أطروفة علمية عن عالم البحار

إن هذا النهر العذب الفرات ، الهادئ ، الخصب ، وذاك البحر الملح الأحاج ، المتلاطم الأمواج ، يسمان بين طياتهما عالمًا غريبًا مملوءًا بكل مدهش وعجيب ، ذلكم هو عالم الأسماك . وكلما تقدم العلم أبان عن ظواهر غامضة ونواح غريبة في حياة تلك الكائنات يقف العقل أمامها حائرا مشدوها ، لا يجد لها تفسيرًا أو يدرك لها تعليلًا . فهاكم حديث الأسماك المهاجرة : تلك التي تترك موطنها وتهاجر في سياحة شاقة طويلة ، معرضة لأشد الأخطار دون أن تتردد أو تهين ، حديث فيه طلاوة وغرابة ، وفيه عظمة وعبرة .

وجد علماء الحيوان من المشاهدات المديدة أن ثمايين السمك لا تتناسل أصلا في الأنهار التي تعيش فيها ، ومع ذلك فإن عددها لا ينقص سنة عن أخرى ؛ فلما أن وضع تاريخها موضع البحث والتحري ، طالعهم قصة من أغرب القصص التي لا يكاد يصدقها العقل ، تبين أن ثمايين السمك حينما يتم نموها في السنة الخامسة أو السادسة ، تهيأ لمفادرة النهر والرحلة إلى المحيط ابتغاء التزاوج ، فتتجهن وقت الخريف وتترك النهر في جماعات هائلة متجهة إلى مصبه ، ثم تنتظر ليلة مدهمة الظلام حالكة السواد عاصفة الجور ، فتزول إلى البحر وقت اضطرابه ، وتعم فيه نشاط عجيب ؛ بتبديء بذلك رحلتها الطويلة ، فتمر من بوغاز جبل طارق إلى المحيط الأطلنطي ، وتعبه إلى جزائر برمودة شمال بحر المرحاس ، التي تبعد عن شواطئ الولايات المتحدة الأمريكية بنحو ألف كيلو متر . وقد اصطيدت حيوانات مختلفة في مناطق متعددة أثناء تلك السياحة ، فوجد أن العدد التناسلية تكون أقرب إلى البلوغ والبضج كلما اقتربت من بحر المرحاس ، مما يدل على نموها طول فترة السياحة .

تقطع إذاً آلاف الكيلومترات لكي تصل إلى جزائر البرمود لمرعة تراوح بين ٢٠ — ٣٠ كيلو مترا في اليوم ، فإذا ما وصلت إلى مكانها المنشود تبيض الأنثى كمية هائلة من البيض قد تزيد على المليون ، ثم تفرغ الذكور حيواناتها المنوية في الماء ، وبهذه الطريقة يتم إخصاب البيض .

يبقى البيض مدة في الماء ثم يفقس وتخرج منه يرقات صغيرة تبدأ سياحتها راحمة في نفس الطريق الذي سلكه الآباء من قبل ، وتنفض في طريقها بالحجومات المائية الدقيقة . أما مصير الآباء بعد وضع البيض فأمره مجهول تماما ، إلا أن الرأي السائد في الدوائر العلمية أنها تموت بعد أن تؤدي مهمتها في الحياة ، كما هي العادة عند بعض الحيوانات . وعند ما تدبر

اليرقات المحيط الى النهر تصل اليه في أوائل الشتاء ، فيعيش جزء منها بالقرب من مصبه ، ومنه تتكون في غالب الأحيان ذكور المستقبل ، والتي تعيش في أعلى النهر تكون الإناث . تستغرق تلك الرحلة المعجبية حوالى العامين تتعرض فيها لأخطار لا حصر لها دون أن يثنى ذلك عن عزمها ، أو يضعف من إرادتها ، أو يرحمها عن إدراك بغيتها .

وهناك نوع من الأسماك يهاجر من البحر الى النهر ، مثل السمك الأوروبي المعروف باسم « حوت سليمان » ، فهو يهاجر في جماعات كثيرة العدد ، فيترك البحر الذى يعيش فيه أواخر الخريف وأوائل الشتاء ، ويتجه نحو النهر مفترسا ما يصادفه من الأسماك الأخرى ، حتى إذا ما وصل الى مصب النهر يصوم عن غذائه ، وحينئذ تنبدى الغدد التناسلية في المصج . ومن المعجيب أن له قدرة عظيمة على السباحة فى النهر ضد التيار ، كما أن له مقدرة غريبة على القفز متخطيا بذلك أى انحدار يصادفه فى مجرى الماء . ولقد وصلت إحدى قفزاته الى ارتفاع ثلاثة أمتار فوق الماء ، وفى الأنهار التى بنيت بها سدود تقف حجر عثرة فى سبيل تقدم الحيوان وتعرقل مسيره ، قام الأوروبيون ببناء حاجز مائل بجانب كل سد يتعذر عليه الماء من أعلى الى أسفل ، وبهذا تستطيع الأسماك أن ترقى السلم متابعة لطريقها .

ولقد شوهد أن الحيوان يختار فى رحلته هذه الأنهار السريعة الجريان المتدفقة المياه ، ولذا فهو يفضل دائما أن يرحل الى الأنهار الأوروبية فى أوائل الشتاء ، حيث تهطل الأمطار بشدة ، وتزداد سرعة المياه فى الأنهار لدرجة عظيمة ، وتبين أن الحكمة فى هذا الاختيار هو أن ماء الأنهار السريعة الجريان تحتوى على كمية كبيرة من غاز الأكسجين المذاب ، كما أنه فى أثناء صعوده النهر يتغير الأفرع الغنية بالأكسجين ، إذ أنه شديد الميل لهذا الغاز ، فإذا ما وصل الى منبع النهر تكون الغدد التناسلية قد تم نضجها ، فتبيض الأنثى عددا عظيما من البيض ثم يلقح الذكر البيض ، وبذا يتم إخصابه ، وبعد ثلاثة أشهر يفقس البيض الى يرقات تتطور وتنمو كل واحدة منها الى سمكة صغيرة تعيش مكان أبويها مدة تقرب من السنتين ، ثم تهاجر من مكانها فى النهر الى البحر حيث كان مقر أبويها من قبل ، وهى تسلك فى ذلك نفس الطريق المرسوم .

تلك كلمة موجزة عن رحلة بعض أنواع السمك ، يتساءل الانسان بمدىها عن الدافع الذى يحدو هذه الحيوانات أن تترك موطنها وتهاجر فى رحلة شاقة معرضة لشتى الأخطار ، وكان الأخرى بها أن تبقى حيث نشأت فتتناسل وتكاثر فى أمان ؟ لم يعثر العلم على تفسيرات شافية لهذه التنقلات المعجبية ، وكل فرض قيل فى هذا الصدد هو من قبيل التخمين ليس إلا ، فلا يزال العقل البشرى يقر ببجالة أمام هذه الظاهرة الغريبة ، إلا أن العلم قد أثبت بصفة لا تختمل الشك أن هذه الهجرة صفة وراثية يكتسبها الآباء عن الآباء ، يدل على ذلك أنه عند قيام

ثم ابين السمك الأمريكية النامة النمو بمياحتها من الأنهار الى المحيط ، فإن نسلها لا يرجع إلا الى الأنهار الأمريكية التي تربي فيها الأيوان ، فلا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوروبا ولا في أنهار أفريقية ، وكذلك الشأن مع الثعالب الأقربى والأوربي ، كل يملك سبيلا مرسومًا لا يجيد عنه فيد أمثلة ، هو السبيل الذي سلكه أبواه من قبل

فقل لي بربك : أي قدرة خفية ظاهرة تسيطر على تلك الحيوانات فتسيرها في طريق لا نجد محيصا عن سلوكه ، لا يختلف في ذلك الابن عن الأب من الجد ؟ ثم كيف يدرك الأبناء أنها في غرة عن الوطن ، فلا يهدأ لها بال ، ولا تستقر على حال حتى تهاجر من مقرها وهي لا تفضل سبيلها في تلك البحار الخضممة المتلاطمة الأمواج ؟

إنها قدرة الله العلي القادر (وما كان الله ليمجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليا قديرا) ١١١
رضوانه محمد ورضوانه

بكالوريوس في العلوم الزراعية

من أخبار أهل الفصاحة

قال الجاحظ - رأس الخطابة الطبع ، وحمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وهماؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بالابحاز .

في المثل : أخطب من قس بن ساعدة الأيادي .

وقد عرف الناس أن لا ياد وتيم شرطا ليس لقبيلة من العرب ، فأما إياذ فلائذ النبي صلى الله عليه وسلم روى كلام قس وموعظته تعكاز . وأما تيم فلائذ صلى الله عليه وسلم سأل عمرو بن الأيهم عن الزرقان بن بدر ، فأجابه بكلام مدحه فيه بما عسده ، فلم يرض الزرقان باقتصاره على ما قاله ، ورأى أنه غض منه ، وأنها عثرة لا تقال . فعاد عمرو بن الأيهم فذمه لرسول الله في المجلس نفسه ، وكان صادقا فيما ذكره أولا من محاسنه ، وصادقا فيما ذكره ثانيا من مساوئه . فمحب صلى الله عليه وسلم من سرعة بديته ، وطلاوة عبارته ، وقال : إن من البيان لسحرا .

قال فيس بن عامر مدح قوما بالخطابة :

خطباء حين يقول قائلهم ييسض الوجوه مصافح لسن
وقال آخر :

وإني من قوم كرام أعرة لأقدامهم صيفت رهوس المناير

دفاع عن القرآن الكريم

هل هذه القراءات السبع هي الأحرف السبعة

فصل : قال كثير من علماء كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تليق هؤلاء القراء السبعة ، ليست هي الأحرف السبعة التي اتسمت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف . ذكره ابن السكيت وغيره . وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء . وذلك أن كل واحد منهم اختار فيها روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب إليه ، فقبل . حرف نافع ، وحرف ابن كثير . ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوره . وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكل صحيح . وقد أجمع المسلمون في هذه لأعصار على الاعتداد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب . وعلى هذا الأئمة المتقدمون والمتفصلون المحققون ، كالقاضي أبي بكر بن الطيب ، والطبري وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأعصار على قراءة السبعة بها يصل لانها ثبتت بالاجماع ، وأما شاذ القراءات فلا يصل به لأنه لم يجمع الناس عليه . أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيه إلا أنهم رووه . وأما ما يؤثر عن أبي السماك ومن قارنه فلا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ، وأحسن معاملها أنها بيان تأويل مذهب من نسبت إليه كقراءة ابن مسعود : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » فأما لو صرح الراوى بإسماها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فختلف العلماء في العمل بذلك على قولين : النفي والإثبات . ووجه النفي أن الراوى لم يروه في معرض الخبر بل في معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثاني أنه وإن لم يثبت كونه قرآناً فقد ثبت كونه سنة . وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام — قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وطأرضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على الوحي الذي فيه الإجاز ووحدة الوصف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : « فآقرأوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظ من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه . ولو كان هذا لأذهب إيجاز القرآن ، وكان معرضاً أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل

من عند الله . وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بن مازن به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما طارضه به أيضا . وعلى هذا تجمي قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها . وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما ، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأني جبريل » ؟ هل ذلك إلا أنه أقرأ مرة بهذه ومرة بهذه ؟ وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قبلا . فقيل له : إنما نقرأ : وأقوم قبلا . فقال أنس : وأصوب قبلا وأقوم قبلا وأهيا ، واحد . فاعلم معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لاحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكذبت أن أنجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لبنته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأنيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله : أقرأ : فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت : ثم قال لي : أقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه .

قلت : وفي معنى حديث عمر هذا ، ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضيا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرءا ، فحس النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ! فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني ضرب في صدري فقصص مرقا ، وكأني أنظر إلى الله تعالى فرقا ، فقال : يا أباي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على أمي ، فرد إلى الثانية أن أقرأ على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمي ، فرد إلى الثانية أن أقرأ على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة ردتكها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمي ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام .

قول أبي رضي الله عنه « فسقط في نفسي » معناه : اهترتني حيرة ودهشة : أي أصابته نزغة من الشيطان ليشوش عليه حاله ، ويكدر عليه وقته ، فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما في نفسه ، وإلا فأى شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحدوث في النسخ الذي هو أعظم ، فكيف بالقراءة ؟ ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه في صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره

وتنور باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح الى حالة المعايينة . ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وقاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : « وقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وسيأتي الكلام عليه في سورة الاعراف إن شاء الله تعالى .

الرد على من خالف مصحف عثمان :

لا خلاف بين الأمة ، ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له ، فمن ادعى زيادة عليه أو نقصا منه فقد أبطل آية رسوله عليه السلام ، لأنه إذ ذلك يصير القرآن مقدورا عليه حين شيب بالباطل ، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية ، وخرج عن أن يكون معجرا .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن عبد الانباري ما مضى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ، ما يوجب الحق والانصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين وتحريف الرافضيين ، حتى نزع في زماننا هذا رائغ زاعغ عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها ، ويثبت أسسها ، وينشئ فرعها ، ويحرسها من معائب أولى الخيف والجور ، ومكابد أهل المداوة والكفر ، فزعم :

(١) أن المصحف الذي جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قد سقط منه خمسة آيات حرف ، قد قرأت بعضها وسأقرأ بقيتها ، فنها . « والعمر وروائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « وروائب الدهر » ، ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرا ليلا أو نهرا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، فادعى هذا الانسان أنه سقط على أهل الاسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

(٢) وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه ، فقرأ في صلاة الغرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغير لفظ « أحد » وادعى أن هذا هو الصواب والذي عليه الناس هو الباطل والمحال ، وقرأ في صلاة الغرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن على قراءة المسلمين .

(٣) وادعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة منها : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تفرحهم فإنت العزيز الحكيم » فادعى أن الحكمة

والمزة لا يشاكلان المغفرة ، وأن الصواب « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » .
وتراعى به التنى في هذا وأشكاله حتى إن المسلمين يصحفون : « وكاتب عند الله وجبها »
والصواب الذى لم يغير عنده : « وكان عبد الله وجبها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على
ما أخبرنا به جماعة ممنموه وشهدوه : « لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقرأته ، فإذا قرأناه
فانتع قرأته ، ثم إن علينا نبأ به » ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم ممنموه يقرأ : « ولقد
نصركم الله ببدر تيسف على وأنتم أذلة » ، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : « وهذا صراط
على مستقيم » ، وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عز وجل فهم : « وما أرسلنا من
رسول إلا بلسان قومه » فقرأ : « أليس قلت للناس » فى موضع « أنت قلت للناس » .
وهذا لا يعرف فى نحو الممرين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ، لأن العرب لم تقل : ليس
قت ، فأما است قت ، فالتاء فشاذ قبيح لأن ليس لا تتحد الفعل الماضى ، ولم يوجد مثل
هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ؟ وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

(٤) وادعى أن عثمان رضى الله عنه لما أسند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يصب ، لأن عبد الله
ابن مسعود وأبى بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ
أمتى أبى بن كعب » ولقوله عليه السلام « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ بقرأة
ابن أم عبد » ، وقال هذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ،
فقرأ « إن هذين » ، و « فأصدق وأكون » ، و « بشر عباده الذين » بفتح الياء ،
« فما آتاني الله » بفتح الياء ، والذى فى المصحف « إن هذان » بالالف ، « فأصدق وأكن »
بغير واو ، « فبشر عباد » ، « فما آتانا الله » بغير يامين ، فى الموضعين ، وكما خالف ابن كثير
ونافع وحمة والكسائى مصحف عثمان فقرأوا « وكذلك نحى المؤمنين » بإثبات توين ،
يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم . وفى المصحف تون واحدة ، وكما خالف حمزة المصحف
فقرأ « أتمدونى بمال » تون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف تونان ولا ياء بعدها ،
وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ « ألا إن تمودا كفروا ربهم » بغير توين ، وإثبات
الالف يوجب التنوين ، وكل هذا الذى شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف للمصحف .

قال أبو بكر : وذكر هذا الانسان أن أبى بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس
وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ، لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ،
ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبى بن كعب « حصيدا كأن لم تغن بالأمس
كذلك تفصل الآيات » ، وفى رواية : وقرأ أبى القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا
الاسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصيانة . وإذا صح عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك الزبدي : قرأت القرآن على أبي عمرو بن الملاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبي بن كعب ، وقرأ أبي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم . حدثني أبي نبأنا نصر بن داود الصائفي سأنا أبو عبيد قال ما يروى من الحروف التي تخالف المصحف الذي عليه الإجماع من الحروف التي يعرف أسانيدھا الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبي : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » .

وعن ابن عباس « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج » ، ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » مع نظائر هذه الحروف كثيرة ، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحمل ، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ، لأنها حروف لو جعدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ، والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أسكر بعضه منكر كان كافرا ، حكاه حكم المرتد بصقاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنع عثمان رضى الله عنه في جمعه القرآن يصنعه بأنه من مناقه المظالم ، وقد طعن عليه في بعض أهل الزيف فأنكشف عواره ، ووصحت فضائحه ، وقال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن حريز عن أبي عبيد : قال طعن قوم على عثمان رحمه الله بحمقهم جمع القرآن ثم قرءوا ما نسخ ، قال أبو عبيد : يذهب أبو عبيد إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط لم كما أثبت الذي أثبت يعلم . قال أبو بكر : وفي قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » دلالة على كفر هذا الإنسان ، لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التفسير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، فإذا قرأ قارى : « ثبت يدي أبي لحب وقد تب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » سيصلى نارا ذات لخب ، وممرته حالة الخطب ، في جيبها جبل من ليف « فقد كذب على الله جل وعلا ، وقوله ما لم يقل ، وبدل كتابه وحرفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ، وفي هذا الذي أنناه تومئة الطريق لأهل الإلحاد ، ليدخلوا في القرآن ما يحلون به عمرا الإسلام ، ويسبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالإباطيل عليهم ، وفيه إنطال الإجماع الذي به يحرس الإسلام ، وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتتحرى المتعبدات .

وفي قول الله تعالى : « السر كتاب أحكمت آياته » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر ، لأن معنى « أحكمت آياته » منع الخلق من القدوة على أن يريدوا بها ، أو ينقصوا منها ، أو يمارسوها بمنزلها ، وقد رأينا هذا الإنسان زاد فيها « وكفى الله المؤمنين القتال يعلى » وكان الله قويا عزيزا ، فقال في القرآن هجرا ، وذكر عليا في مكان لو سمعته يذكره فيه لأمضى

عليه الحد، وحكم عليه بالقتل، وأسقط من كلام الله: «قل هو» وغير «أحد» قرأ: الله الواحد الصمد، وإسقاط ما أسقطه نفي له وكفر، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية، لأن أهل التفسير قالوا: زلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: صف لنا ربك: أمن ذهب أم من نحاس أم من صخر؟ فقال الله جل وعز رداً عليهم: «قل هو الله أحد» ففي «هو» دلالة على موضع الرد ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم. ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته: أخرجونا عن القرآن الذي تقرأه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلك من أسلافنا سواء: هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره صحيح الألفاظ والمعاني مار من الفساد والخلل، أو هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا؟ وإن أجابوا بأن القرآن الذي معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء، صحيح اللفظ والمعاني، سليمها من كل زلل وخلل، فقد فضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه «فليس له اليوم هاهنا حميم، وليس له شراب إلا من غسيل، من عين تجري من تحت الجحيم» فأي زيادة في القرآن أوضح من هذه؟ وكيف يخاط القرآن وقد حرمه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يأتى به مثلها، وإذا تؤملت وبحت عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام الباري تعالى ولا تختلط به، ولا توافق معناه؟ وذلك أن بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون».

فكيف يؤكل الشراب والذي أتى به قبلها «فليس له اليوم هاهنا حميم، وليس له شراب إلا من غسيل، من عين تجري من تحت الجحيم» لا يأكله إلا الخاطئون؟ فهذا متناقض يفسد بعضه بعضاً، لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب: أكلت الماء، لكنهم يقولون: شربته وذقته وطعمته. ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصخرة في القرآن الذي من خالف حرماً منه كفر: «ولا طعام إلا من غسيل» لا يأكل الغسل إلا الخاطئون، أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون. والغسلين: ما يخرج من أعواهم من الشحم وما يمتلئ به من الصديد وغيره، فهذا طعام يؤكل عند الباية والقمة، والشراب محال أن يؤكل، فإن ادعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله «من عين تجري من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» وبني هذه الآية من القرآن لنصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله رداً لقوله، وخزياً لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرء أن يتلى؟

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٣ -

حدث ابن أبي ليلى قال : قال لي عيسى بن موسى وكان متدينا شديدا المصيبة : من كان فقيه البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن ، قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : ثمها ؟ قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وسليمان ابن يسار ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ومحمد بن المسكندر ، ونافع بن أبي نجيح ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي ، وابن أبي الزناد ، قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالي ، فارتد وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاوس وابنه وابن منبه ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، فانتفضت أوداجه فانتصب قاعدا ، ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراساني ، قال : فما كان عطاء ؟ قلت : مول ، فزدد وجهه ترددا ، واسود اسوداداً حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مول ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عتيبة ، وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم والشعبي ، قال : فما كانا ؟ قلت : عريان ، قال : الله أكبر ، وسكن جأشه !

وهذه المحاور قد أثبتنا صاحب العقد الفريد فنقلناها عنه محافظين على نصها ؛ فإن كانت صحيحة — ولا بعد في ذلك — فليس فيها غريب ، فهي تدل من قريب على أن المصيبة الجنسية قد بلغت بعضهم هذا المبلغ الذي رأته ، ولم يمنعها عن الطغيان ويقفها عن الغلو ما اشتهروا به من ورع عن الدنيا ، وتعفف عن المسف من القول والخزي من الفعل ؛ فهذا هو عيسى بن موسى في صلاحه وتقواه ، وعفته وزهده ، ويقينه بأن الفصل بيد الله يختص به من يشاء ، وأن الحكمة تحت تصرفه يعطيها لمن يشاء ، وأن التلميذ قد يفوق أستاذه ويبيذه في الميدان ، وأن الناس كلهم لآدم لا فرق بين مجيهم وعريهم إلا بسلامة الفطن ، ورجاحة القول ، وتقوب الأفكار ونسوج الآراء ، فأى غريب في أن يكون قادة الأمة الموفقون ، وزعماءها المظفرون ، وفقهاؤها المجتهدون ، من أجناس مختلفة ؟ وأي مسوخ لهذا الحقد الدفين ، والحسد الأصيل الذي رأيناه وتراه على محيا ابن موسى ، فيتجههم تارة ، ويريد تارة أخرى ، وتنتفض أوداجه من الفيظ طورا ، ويتنفس الصعداء طورا آخر ، لا لشيء سوى أن فقهاء كل بلد بما ذكره كانوا من الموالي لا من العرب ؟ وليس هناك من باعث فيها لعمق إلا تعصبه لقومه ؛ وليس هذا من مذهب الاسلام في شيء . أما دري أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس

بكونهم عرباً ولا عجماً ، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد همهم ؟ ورحم الله
عاصم بن الطغيلة ، فإنه يقول في هذا المعنى :

وإني وإن كنت ابن سيد عاصم وفارسها المشهور في كل مركب
فما سوتني عاصم عن وراثة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
ولكنني أحبي حماها وأتقى أذاها وأرى من رماها بمكب

وقال آخر :

إنا وإن كرمنا أوائلنا لسنا على الأصحاب تشكّل
نبى كما كانت أوائلنا تبنى ، وتعمل مثل ما فعلوا

وقال آخر :

نقى عصام سوتت عصاما وعطته الكرم والإفدا
وجعلته ملكا هاما

وقال آخر :

مالى عقل وهمتى حبي ما أنا مولى ولا أنا هوى
إني اتى منتم الى أحد فاني منتم الى أدنى

وقد تكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فأعجب عبد الملك
ما سمع ، فقال : ابن من أنت يا غلام ؟ قال : ابن نقي . يا أمير المؤمنين التي نلت بها هذا المقعد
منك ! قال : صدقت !

الى غير ذلك من الشواهد التي ترد على ابن موسى اعتقاده . وفي العرب متعصبون
لا يستطيع حصرهم ، فمنهم عدا ما قدمنا : الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأنت حبيب بقداره ،
وما كان عليه من نعمة وكبرياء .

فقد ذكر المحافظ في كتاب (الموالى والعرب) أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث
وعبد الله بن الحارود ، ولقي مالى من قراء أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه
وخرج عليه الفقهاء والمفاناة والموالى من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد
الاعظم ، أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم ، حتى لا يتألفوا ولا يتماقدوا ، فأقبل
على الموالى وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراؤكم أولى بكم . ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ،
وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجه اليها ، وكان الذي تولى
ذلك منهم رجلا من بني أسد بن عجل ابن لحيم يقال له حراش بن جابر ، فقال شاعرهم :

وأنت من نقش المعلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمي عامل الحجاج على البصرة ، وقد كان قاضيهم رجلا من الموالي يقال له نوح بن دراج . وقال شاعرهم :

إن القيامة فيما أحسب اقتربت إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيًّا له الحجاج ما بقيت صبيحة كفه من نقش حجاج
وقال آخر :

جارية لم تدر ما سوق الإبل أخرجها الحجاج من كن وظل
لو كان عمرو شاهدا وابن جبل ما نقش كفاك من غير جدل

فتلك حال أخرى لا تقل من سابقتها خطرا في بابها . وهكذا يكشف لنا هذا البحث عن كل مدهش وغريب ما

أحمد إبراهيم موسى البارودي
مختصم البلاغة والأدب

بديهة واعظ بليغ

جلس نحوي الى جانب منبر واعظ يستمع اليه ، فلحن ، فقال له المعوي : أخطأت يا أئمة ! فقال الواعظ بديها :

« أبها المرب في أقواله ، اللاحن في أفعاله ، مالي أراك تائها منكرا ؟ أكل ذلك لأنك رفعت ونصبت ، وخفضت وجزمت ؟ هلا (رفعت) الى الله يديك في جميع الحاجات ، و (نصبت) بين عبيك ذكر المعات ، و (خفضت) نفسك عن الشهوات ، و (جزمتها) عن اتباع المحرمات ؟ »
« أو ما علمت أنه يقال يوم القيامة : ألا كنت فصيحاً معرباً ؟ وإنما يقال لك : لم كنت عاصياً مذنباً ؟ فلو كان الأمر كما زعمت ، والخطب كما حكمت ، لكان هرون أحق بالرسالة من موسى ، إذ قال الله تعالى إخباراً عنه : « وأخى هرون هو أفصح مني لساناً » ، فجعل الرسالة في موسى لفصاحة تبيان لا لفصاحة لسانه ، فالفصاحة فصاحة الجنان لا فصاحة اللسان ، ثم أنشد :

يجازف في الفعل ذو زلل حتى إذا جاء قوله وزنه
قال وقد أعجبته لفظته تبها وعجبا : أخطأت يا أئمة
فقلت - أخطأ الذي يقوم غدا ولا يرى في كتابه حسنه

الثقافة الاسلامية

وأثرها في حركة إحياء العلوم في أوروبا

وفي النهضة الحديثة

الثقافة الاسلامية أثر من آثار العقيدة الاسلامية . فالقرآن الكريم رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها النظر في الكائنات ببحرية واستقلال ، ووجهه للبحث في الوجود والتأمل في عوالمه ، وحث الانسان على التعلم والتجديد وكشف المستاتير .

والثقافة الاسلامية قبل أن تنتقل الى أوروبا بفعل الفتوح الحربية تركت في بلاد الشرق تركزا قويا حتى لا يزال أثره بارزا فيه الى اليوم . فالثقافة العربية لم تقف في الشرق عند حدود بلاد العرب والشام وما جاورها من البلدان ، وإنما تجاوزتها الى الهند والصين على يد التجار من العرب المهاجرين من الفرس والفايزين من الترك والمغول . فالعرب نقلوا في رحلاتهم التجارية طائفة كبيرة من المعارف الى تلك البلاد ، حتى إن دخول الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهند وجزء من الشرق الأقصى ، أدى الى ثورة عظيمة في الأدب والثقافة .

والرق الفجائي الذي طرأ على اللغة العربية وأحاطها الى لغة مكتوبة مهذبة ، من أعجب الأمور إذا تذكرنا أن وقت ظهور الاسلام لم يكن للعرب أدب لغة ، وأن الخط كان قليلا ، وأن القرآن نزل بلغة أهل الحجاز ، وأنه لم يكن هناك معجم عربي يضم بين جباحيه الألفاظ المتداولة ، شأن معاجم اللغة . ولم يكن هناك كتاب يفصح عن قواعد النحو والصرف .

وبالرغم من أن الفتوح الأولى للقوات الاسلامية في الهند لم تذهب بهم بعيدا داخل البلاد الأجنبية فإن الأتراك في القرن العاشر استطاعوا أن يتوغلوا بالاسلام الى مسافات بعيدة داخل الهند ، الى أن كان القرن الثالث عشر قرأيا أن أول ملك تنو أعرش دلهي كان ملكا مسلما . وكان الهنود قبل الاسلام وثنيين ، وكانت آدابهم خليطا من الهندوكية والبوذية . ولما تزح أتراك أواسط آسيا الى الهند ونشروا الاسلام كان هؤلاء الأتراك ينسكحون التركية بينما كانت ثقافتهم فارسية ، وهي تلك الثقافة الحديثة التي ظهرت فجأة في بلاط مميندس في بخاري .

فعلى هذا القياس يكون الاسلام قد أدخل في الهند لغتين : العربية لغة الدين ، والفارسية لغة الشعر ، إلا أن العلاقة الوثيقة بين اللغة الفارسية واللهجات السائدة في الهند الشمالية هي السبب في أن مسلمي الهند قد اختاروا الفارسية واسطة لآدابهم دون العربية

والتركية. واستمر الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر إذ لم تصل اللغة الاردية وهي خليط من الهندية والفارسية إلا في ذلك القرن .

ولم يك مسلمو الهند قادرين على تذوق السمو الذي امتازت به العربية بالسرعة التي كانت عند غيرهم من الفرس ، إلا أن الاسلام صبح المدد العظيم من الهنود بصيغة العقيدة الاسلامية . وكان من أثر الثقافة الاسلامية عند الهنود أن تهاقت الأدهان الى تدوين تاريخهم ، وكان نتيجة ذلك أن دونت أحبار جميع ملوك دلي ابتداء من القرن الثالث عشر ، بعد أن كان التاريخ يعتبر أمراً مادياً في نظر المفكرين والفلاسفة . وهذا هو السبب في أن التاريخ الهندي القديم قد جمع بصعوبة عظيمة ، وكان الاعتماد في جمعه على ما عثر عليه من السكة والتماثيل دون أن يكون هناك مخلفات كتابية . يقول السير دنسون روس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن : « الأثر الذي تركته اللغة العربية والثقافة الاسلامية في عقول مسلمي الهند والفرس والأتراك كان أجل شأناً وأعظم خطراً من الأثر الذي تركته اللاتينية في عقول الأدباء من أهل أوروبا في القرون الوسطى » الى أن يقول : « ومع أن اللاتينية كانت الواسطة للكتابات الدينية والعلمية لم يكن لها ميرة كبيرة في الثقافة حيث كان يوجد في أوروبا قبل حركة إحياء العلوم لغات كثيرة اصطبلت بصيغة الميتة التي وجدت فيها ، ولم يكن الأمر كذلك في اللغة العربية ، فإن العربية قد أمدت المستعربين في أواسط أوروبا بثقافة جديدة من كل الوجوه ، وفتحت أذهانهم الى علوم حديثة لم يألفوها من قبل » .

وإذا انجبننا بمد الهند صوب فارس نجد أنه بالقضاء على الديانات القديمة ، وبحلول العربية محل اللغات القديمة في المسائل الأدبية ، ثم باستبدال الثقافة الاسلامية بكل ما يرجع في أصله الى الثقافة الآرية ، كل هذا يدفعنا الى القول بأن العربية قد أمدت بلاد فارس بخزائن جديدة من العلم ، أو قل : أمدت الفرس ببعث قوى جديد مع ثقافة حديثة .

ومما يدعو الى الدهش أن الاغريق وقد حكموا الفرس نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي ، كما أنهم لم يتركوا شيئاً من هذا في الهند . كذلك لم يترك فتح الفرس لمصر أي أثر في تلك البلاد ، ولكن دخول هذه البلاد تحت نفوذ المسلمين جعلهم يستسلمون طوعاً لحكمهم ولدينهم ثم لثقافتهم .

ولما كان العرب قد ساهموا في كل شأن من شئون المدنية ، فلم يحض قرآن على فتحهم حتى كان أكثر البلاد المفتوحة على دينهم . وإن نظرت الى اللغة رأيتهم هبتوا لغتهم لكل جديد ووسعوها — وهي البدوية الأصل والمنشأ — حتى زاحت الفارسية في فارس ، والرومانية في الشام ، والقبطية في مصر ، وسارت مع الدين جنباً لجنب ، كلها سار الدين وظفر سارت اللغة وظفرت . وإن نظرت الى العلم والتشريع ، وقف الفقهاء في كل قطر يوسعون مذاهبهم حسب

الحاجة وحسب الاقليم الذين حلوه ، وخلقوا من ذلك قوانين لا تزال الى اليوم محل إعجاب المشرعين وإن انتفت الى العلم رأيت أنهم في كل فرع من فروع العلم أحدوا بحظ وافر ، لم ينعمهم دينهم أن يأحدوا عن وثني اليونان فلسفتهم ، ولا عن الفسافة طيبهم ، ولا عن اليهود أخبار أنبيائهم وعلمائهم ، وأبلوا في العلم بلاه لا يقل عن ثلاثهم في الحرب ، ثم خلقوا من كل ذلك ثروة علمية تداولوها بالنقد والشرح ، وضموها اليها ما أوحته نظرات دينهم من العلوم الاسلامية والمذاهب الدينية . من هنا نعلم أنه من المبعث أن يحاول كاتب في التاريخ الخط من شأن العامل الديني في التطور الاجتماعي ، وأن يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها .

ومن أجل هذا كانت الثقافة الاسلامية تتبعه العقيدة الاسلامية . فان هي انجبت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلائ الذين حملها على ذلك ، وطلب منها أن تتروى من العلم حيث كان ولو في الصين ، وأن تأخذ الحكمة ولو من المشركين .

وقد بذر الاسلام في نفوس أصحابه بذورا تاصلت فيهم ، فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرطا ، إنما كانوا دائما يعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرءوا . فلذا نظرنا الى كتب الفارابي وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم ينفوا موقف التقليد بحسب ، بل بقدوا وزادوا ، ووقفوا بين الفلسفة والدين ، وأمدوا كل شيء أخذوه من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها ، حتى المنطق اليوناني الذي دامت له كل الأمم زاد الغزالي في بعض كتبه فصولا عن القرآن ، وابن تيمية وابن حزم ، وغيرها نقدوا منطق اليونان وعدوه مطلق شكل لا منطق مادة .

فدعوى أن المسلمين في ثقافتهم كانوا حفظا للثقافة البوذية أكثر منهم مبتكرين للثقافة خاصة ، دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية .

لذلك لما انتقل الاسلام الى أوروبا بدأت الدنيا تتقلقل كأنها صر بقدمه على مركزها فضغطها فحركها ، وكانت خطواته تخط في الأرض بينا معاه تخط في التاريخ ، وظل الاسلام ماضيا في طريقه لا ينحرف ، ومستزما لا يتحول . فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين في الأندلس انصالا وثيقا ، واتخذوا علماء وفلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشأت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا من مؤلفات ابن رشد المترجمة الى اللاتينية لا نجد أصلها بالعربية . وكان من أشهر من قام بهذه الحركة : « ريموند » الذي كان مطرانا لطليطلة من سنة ١١٣٠ الى سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، حتى بلغ ما ترجمه عن العربية ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور لكارلوك في كتابه تاريخ الطب العربي . وكان أكثر ما ترجم كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوى

وابن رشد وابن سينا والقاراني ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ في باريس بعد ثلاثين سنة من حمل هذه الجمعية ، وأمر لويس الحادي عشر عند ما نظم برامج التعليم سنة ١٤٧٣ بإدخال فلسفة ابن رشد ضمن مباحث التدريس .
ولقد ظلت هذه الكتب المترجمة تدرس في جامعات أوروبا مدى خمسة قرون ، وظلت فلسفة ابن رشد تدرس في جامعات فرنسا وإيطاليا وعلى الأخص بادوا وبولونيا ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي .

قال المؤرخ خورخ ملر في كتابه فلسفة التاريخ :

« إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الميتافيزيقية ، وأصبح جنوب إيطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة الى أوروبا » .

وكان ممن تزود بعلوم العرب جريرت الراهب الفرنسي ، فبعد أن درس علم اللاهوت في أوريانك مسقط رأسه توجه الى قرطبة فدرس فيها الرياضيات والفلك ثلاث سنين ثم رجع الى قومه ينشر فيهم ما تزوده من العلوم ، فرمود بالكفر والسحر ، ولكنه ارتقى الى سدة البابوية سنة ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني . كذلك تخرج على عماء قرطبة شاذلي ملك ليون واسنوريا . وأوصى الراهب روجر بيكون في كتبه بدراسة اللغة العربية وقال « إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ، ولم يبق أن يؤتيها اللاتين ، وإنما أتاها العرب » .

وذكر جيبون في الفصل الثاني والحسين من كتبه تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسكوته : « إن مدرسة سالرنو التي نشرت الطب في إيطاليا كانت من صنع العرب وغرس أيديهم » .

وقال المؤرخ وثر الانجليزي في كتابه منخص التاريخ ، وهو من أمهات الكتب التي تدرس في الجامعات الأوروبية اليوم :

« جاءنا علم اليونان عن طريق العرب لا عن طريق اللاتين . فليونارد ديز وأرمان ديفلنوف وريجون لول وهرمان السامسي وميخائيل سكوت ويوحنا الاشيلي وسان توما وألبير لجراند والقونس العاشر أمير قشتالة لم يكونوا غير تلاميذ العرب أو نقله عنهم » .

وقال رينان الفيلسوف :

« إن ألبير لجراند مدين بعلمه كله لابن سينا ، وسان توما مدين بفلسفته لابن رشد » .
ويقول بترارك شاعر إيطاليا العظيم وهو من شعراء القرن الرابع عشر : « أبعد ديموستين يستطيع سيشرون أن يكون خطيبا ؟ وهل بعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعرا ؟ وهل بعد العرب يستطيع جيل من الناس أن يخط بقلمه على القرطاس ؟ » .

وقال البارون دي فو مترجم كل ما كتبه الامام الغزالي :

« إن الميراث العلمي الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد حفظوه وأتقنوه ، فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للمعالم ، ولكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذنين الجهد في تحسينها وإتمامها حتى سلموها للمصور الحديثة .

وقال الدكتور سارطون في إحدى خطبه العامة بالجامعة الأمريكية ببيروت :

« إن بعض الأوروبيين يحاولون أن يفتقروا من قدر العرب العلمي في القرون الوسطى ، وذلك بقولهم : إن العرب لم يكونوا غير نقلة للمعالم ، وهذا خطأ . وإذا افترضنا أن العرب لم يكونوا غير نقلة ، أليس في مهملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ، ولكننا حتى الآن في القرون الوسطى . »

الحق أن فضل العرب بثقافتهم الاسلامية على المدنية الحديثة كان من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبشوا من روح في الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يعثرون نواحي تأثير الثقافات الاسلامية في الثقافة الأوروبية ، وكان من آخر ما أظهروا في هذا الباب كتاب « ما خلفه الاسلام » Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية في الجغرافيا والتجارة ، وفي القانون والاجتماع ، وفي الفن والعمارة ، وفي الأدب وفي التصوف ، وفي الفلسفة واللاهوت ، وفي العلم والطب ، وفي الهيئة والرياضيات .

والمتتبع لدراسة المدينيات وتاريخ قوميات الشعوب يرى أن تاريخ المدينيات عبارة عن حقائق يسلم بعضها الى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل اليه سابقها . وكانت المدينية الاسلامية في الذروة أيام كانت أوروبا تظلمها سحابة سوداء من عمالة الجهل في القرون الوسطى . ولم يكن يصارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى في العالم في مدينتهما وثقافتهما ونظمهما الادارية والحربية .

فلو لم يكن في الوجود مدينة بغداد وقرطبة ما كانت حركة إحياء العلوم في أوروبا ، ولما كانت النهضة الأوروبية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن لو لم تتركز على المدينية الاسلامية والثقافة الاسلامية المنبثقة من ضوء بغداد وقرطبة .

ولزيادة الايضاح ننظر في أسس المدينية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدينية الاسلامية: لقد بنيت النهضة الحديثة في الثقافة على أساسين : وهما الشك والتجربة ، وكانت للثقافة في القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان ، وتقديس آراء أفلاطون وأرسطو كل التقديس . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقي وحده يؤيدون به المذاهب والآراء . والقياس المنطقي وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسلياً أعمى ، وتنتهي فيه بالشكل ، فجاءت النهضة الحديثة تشكك في هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجري التجارب عليها ، ولا تؤمن

بشيء حتى تدل التحارب على صحته ، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحقيقة أن طريقة المصحح العلمي في البحث الحديث لم تكن بعيدة عن أذهان المسلمين .

فالتاريخ يحددنا أن النظام أُلّف في نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ في كتاب الحيوان يستطلع ما قاله أرسطو في الحيوان ثم لا يمنحه شيئاً من العناية بل ينقده نقداً حريئاً ، ويقول : « قد جربنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً » ويقول « إن قوله هذا قريب » إلى أن يقول : « وهو قول لا يجبره العقل » . والجاحظ بهذا الانتقاد يحمل عقله الفصيل على أرسطو على حين أن فلاسفة القرون الوسطى جعلوا أرسطو حكماً على العقل والبرهان المتوفى سنة ٤٤٠ هـ سنة ١٠٤٨ م والذي قال عنه المستشرق الألماني سناو « إنه أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره » كان يحكم عقله في الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، حتى لقد ترجم كتابه الآثار الباقية إلى الإنجليزية ، وطبع عام ١٨٧٩ في لندن ، وترجم أيضاً كتابه تاريخ الهند وطبع في لندن عام ١٨٨٧ م .

ويقف الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال الموقف الذي وقفه بعد ديكارت فيقول « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الإسلام ، وإنه لم يفتن بهذا الدين التقليدي التلقيني ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال : إنه بدأ بالشك في كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته »

وابن خلدون الذي كان وقوف الغرب على تراثه منذ منتصف القرن التاسع عشر اكتشافاً علمياً حقاً ، حيث ظفر الغرب بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي إلا بعد ابن خلدون بمصور طويلة . أجل اكتشاف النقد الغربي لدهشه وإعجابه في تراث ابن خلدون كثيراً مما ردهه مكيفاً لعمده بقرن ، وما ردهه مستنكياً وآدم مميث وأوجست كونت بعمده بقرون أيضاً . وكان المعتقد أن البحث الغربي أول من اهتدى إلى فلسفة التاريخ ومبادئ الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسي ، فإذا ابن خلدون يسبقه بمصور ويفرغ في مقدمته هذه المبادئ ، ويعرض كثيراً من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة ، حتى لقد اعترف المستشرق النمساوي الكبير البارون فون كيرمر في رسائله الشهيرة بالألمانية (ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية) ابن خلدون مؤرخاً للحضارة ، لأنه أول من خصص فصلاً ضافياً لتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم والمخططات العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها في الدول الإسلامية ، ثم عن العلوم والفنون والآداب . وابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها ، وإنما يعالجها كمصور من العمران ، ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

وعلى الجبهة فهذه الأسس التي بنيت عليها النهضة الأوروبية الحديثة في أوروبا ، من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عادة العقائد ، منال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذته القدماء من علماء القرون الوسطى في أوروبا قضايا مسلحة ، كل هذه الأسس كانت موجودة كتقواعد عامة في الثقافة الإسلامية في عصورها الزاهية ، وكانت مظهرا من مظاهر الاختراع العقلي للعالمين ، وكانت من عوامل بناء المدنية الإسلامية التي بنيت عليها المدنية الحديثة من بعض وجوهها .

عبد الحميد سامي بيومي

كيف يعاقب السفهاء

قال حكيم : أعقل الناس من لم يتجاوز الصمت في حقوبة السفيه .
وقال غيره : السكوت عن السفيه جواب ، والاعراض عنه عقاب .
وقال بعض الشعراء :

إذا نطق السفيه فلا تجبه خير من إجابته السكوت
فإن جاوبته فرجت عنه وإن خليته كذا يموت

وقال غيره :

لا ترجع إلى السفيه حكاية إلا جواب تحية حياكها
ففي تحركه تحرك جيفة تزداد ثقتا ما أردت حراكها

وقال أديب . إذا سكنت عن الجاهل فقد أوسعت جوابا ، وأوجعت عذابا .

وقال غيره : ثلاثة لا يفتصفون من ثلاثة : حليم من أحق ، وبر من فاجر ، وشريف من دنيء .

وقال شاعر حكيم :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخطأ أصبت حليما أو أصابك جاهل
فأصبحت إما قال عرضك جاهل سفيه وإما قلت ما لا تحاول

يقول : وقد فات هؤلاء الملاجج الفعال للسفاهة ، وهو استشعار الرحمة بأهلها في حالة الامتناع عن إجابتهم ، لا استبطان نية تعذيبهم ، ففي الحالة الأولى تفت روحك في تموسهم أدبا معنوياً ، وفي الحالة الثانية يزيدك قسداً الذي بهم مضيا وتمردا .

الانسان والرزق

كثير من يرون أن الله سبحانه وتعالى قَتَر عليهم في الرزق يغفلون عن نعمه الكثيرة التي أسبغها عليهم بواسع فضله ، ولو فطنوا لها لعلموا أنهم حاززون المعجز كله من شكر بعضها .
ففي هذه الآيات نخاطب هؤلاء :

أَمْسِكِ الذِّمَّةَ فِي آثَارِهَا وَدَعِ الْأَمْرَ إِلَى خَالَتِهِ
هَذِهِ الدُّنْيَا تُجِبُّ آثَارَهَا وَاتَّكِ الرِّزْقَ إِلَى رَازِقِهِ
إِنْ يَشَاءُ أَعْطَى ، وَإِنْ شَاءَ أَمْنَى

وهو في الحالين رب عادل سَخَّرَ الْقَمَسَ لَنَا وَالْقَمَرَا
لَطْفُهُ ضَاقِ التَّوَاحِي شَامِل بَسَطَ الرِّزْقَ لَنَا أَوْ قَدَّرَا
كَمْ حَبَاكَ الْفَضْلُ ، بَلَّةَ الذَّهَبَا

حَلَقَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا لَكَ خَالِقٌ قَامَ إِلَيْهَا قَدَحَهَا
نَمْ سَوَاكَ عَلَيْهَا مَلِيكََا مُسْتَبَدًّا فِي دَحَاهَا وَضَحَاهَا
تَصْرَعُ الْيَتَى بِهَا وَالْتَمَلِيَا

لَيْسَ بِحَدَى الْيَتَى نَابَهُ وَلَا ذَلِكَ التَّمَلُّبُ يَغْنِيهِ دَهَاؤُهُ
أَكَلَا الْإِنْسَانُ فِيهَا أَكَلَا لَضَعِيفُهُ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدَاؤُهُ !!
سَالِبٌ حَكْمٌ فِيهَا سَلْبَا

وَلَاكَ الْيَابِسُ ، وَالْمَاءُ ، وَمَا دَبَّ مِنْ مَكْنَاهُ ، أَوْ سَحَا
فَأَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَا وَاتَّبِعْ مِنْ سَبِيلِهِ مَا أَوْضَحَا
لَا أَرَى مِنْ ضَلٍّ فِيهَا أَوْ كَبَا

وَإِذَا أَبْصَرْتَ شَيْخَا مُعَدِّمَا أَوْ فَقِيرَا طَاوِيَا أَحْشَاءَهُ
فَاذْكُرِ اللَّهَ وَقُلْ مَا أَحْكَا لَيْسَ بِمَحْصَى عَبْدُهُ آلَاءُهُ
ذَاكَ فَضْلٌ سَرَّهُ قَدْ حَبِيَا

محمد الأسمر

ملاحظات

حضرة الأستاذ مدير مجلة الأزهر .

قرأت في جريدة الديلي تلغراف التي صدرت في يوم السبت ٢٦ أغسطس ١٩٣٩ كلمة تحت عنوان (Danzig is not the issue) بقلم J B Firth رأيت فيها إشارة الى الاسلام في أيام ظهوره ، كلمة لم أحب أن تمر من غير أن ألفت اليها القراء وأعلق عليها تعليقا موجزا في مجلة الأزهر :

يقول هذا الكاتب : « إن الدكتاتورية تستعمل في إرضاء مطامعها الروح الحربية التي لا تقاوم ، كما استعملها الاسلام في أيامه الأولى » . ولو أن هذا الكاتب قل أن يكتب مقالة أجهد نفسه قليلا واختار من وقته ساعة ، وقرأ لمضا من الكتب التي كتبت حول « كيف ظهر الاسلام » ، لعلم أن الاسلام لم يكن يوما ما من آثار الحرب إينارا لها ، ولم يكن طموحا أن يعلم بالسف والمعدوان ، ولم تكن القوة سلاحا له يدعو بها . وهذه مبادئه وتعاليمه تتحدى كل مدح ، وهذا هو التاريخ يكذب كل مفتر . وما سبب حروبه إلا القبائل والأمم المجاورة : حرمت على أهله أن يدعو الى الله بالحسنى ، وأن يقيموا بالرهان ، وطادتهم وجمعت له الجوع وحاربهم ، فكان مقتضيا على الاسلام لحفظ كياه وإبقاء على المسلمين أن يدفع عن نفسه المدوان ، وأن يستعمل السلاح ليدفع به الغارة ، وليبقى في بيته آمنا مطمئنا .

ولا أعلم أن هناك مبدأ خلقيا أو نظرية فلسفية أو دينيا من الأديان يحرم الدفاع عن النفس ويجعله من المهنات التي يهزم بها ويلزم . وكم من ملايين من الانفس البريئة قتلت تحت اسم المسيحية .

أنا لا أسأل هذا الكاتب شططا ، ولا أكلفه مؤنة البحث والتنقيب وراء الحقائق ، بل ما أرجوه منه أن يستقى معلوماته من مصادر معتمدة موثوق بها ، وهناك علماء لا أقول « شرقيون » ، غربا لا يؤمن الكاتب بهم ، بل مستشرقون أوصفوا الامر حليا ، وبينوا أن الاسلام كثيرا ما كان مضطرا الى الحروب ليدفع بها عن نفسه المدوان .

وأخيرا ، غافى لا أسأل الكاتب أن يكيل عبارات الشاء للإسلام ، فالاسلام عن كل ذلك في غنى ، وكفى بشعاليه شاهدا ومزكيا له . ولكني أسأله أن يكون منصفيا في حصومته وألا يبيع لمائطه أن تغلب عقله ، فان خصومة كهذه تعقد قيمتها الأدبية ما

محمود هب الله

عضو بمئة فؤاد الاول الأزهرية بلندن

حضرة الأستاذ مدير مجلة الأزهر .

نشرت مجلتكم في عددها السابع تقلا عن جريدة « الكرونيك » الفرنسية (التي تصدر في دمشق) : أن زعيم المغاربة المحبوب عبد الخالق الطريس طاف في أشهر شوارع المدينة مستصحبا معه زوجته بزي أوربي ، سافرة الوجه ، طارية الرأس ، دون أن يساوره خجل من بنى قومه الآباء (الذين يبتذنون كل المظاهر المخالفة لدينهم الحنيف وقوميتهم النبيلة) .

وإذا تصحيح لكم ما أرجفت به جريدة الكرونيك حرصا على الحقيقة فنقول : إن عبد الخالق الطريس ما كان من الزعماء المرففين ، فالجميع يعرف تضعياته ، وإخلاصه في النود عن إحياء لغة القرآن ، وإعلاء شأن الإسلام في بلاد المغرب ، والبرهان على هذا هو التفاف الأمة المغربية حول ظل حركته الوريث . وهو من أشد الناس تحمسا للقومية المغربية التي تصون المرأة المغربية من تيار المدنية الزائفة ، وأن حزب الإصلاح الوطني ما أنشئ إلا لإنهاض القصب ، ومحاربة كل من حاول أن يفتك حرمة المرأة في هذا السبيل .

وأصدق دليل على صحة ما نقول : هو ما حدث في المؤتمر العربي للدفاع عن قضية فلسطين فإنه لما استدعى إليه ممثل البلاد المغربية — وفي مقدمتها المغرب الأقصى ، انتخب الرجل القدير والزعيم الفخمس : عبد الخالق الطريس لتمثيله في المؤتمر ، والشاهد عندنا أنه مثل بلاده بلباس قومه الصميم .

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .
فأيدوا الحق « إن الباطل كان زهوقا » . وانصروا دماء الإصلاح وزعماء الإسلام : « ينصركم الله ويثبت أقدامكم »

محمد الرصماني

عضو البعثة المغربية

(مجلة الأزهر) إتنا اغتصنا كل الاغتباط مما ثبت من براءة ما نسبته جريدة الكرونيك الى الزعيم المغربي عبد الخالق الطريس ، وننشر هذه التبرئة شاكرين لمراسليها لنا .

معرض الآراء العالمية في الاسلام والمسلمين

الاسلام في بلاد الصومال التابعة لفرنسا

جاء في نشرة الاخبار الدولية الصادرة في ٤ أغسطس سنة ١٩٣٩ :

« إن الدماكل وم سكان الشاطئ الفرنسي لبلاد الصومال ، الذين يقيمون في منطقة تقع بين مصوع شمالا وبين حوليت كاراب جنوبا ، قد دخلوا في الديانة الاسلامية ، مثلهم كمثل أهل الصومال البريطاني والصومال الايطالي .

« كانت هذه الاصقاع يسكنها أولا السود الذين يدعون ببتوس ثم قبائل الحالاس ، فكابدت عدة غارات صومالية جاءت من ناحية الشاطئ الأفريقي خليج عدن ، تخلقت الديانة الاسلامية الديانة المسيحية هناك من لدن القرن الثاني عشر ، واستقرت على الاخص في المرافي التي كان أهلها المختفلون بالتجارة يحتفظون منذ قرون لعلاقات مادية مع المراكز الاسلامية في بلاد العرب . أما القبائل الداخلية التي كانت شديدة التعلق بعقائدها الساذجة وعاداتها الوحشية فلم تقبل الدعوة الاسلامية إلا بعد أن أدبجت فيه أصولها التقليدية .

« فأهالي البلاد كلهم اليوم مسلمون سنيون إلا عددا من الهنود . أما البورهيون فهم شيمة ، ولكن حتى لدى المتشددین في عقائدهم لا يشاهد أثر للمص . ودرجة غشيان الساحد لديهم في درجة متوسطة . والصوماليون لا يفرقون بين مساحد القسوق المختلفة ، ولكن العرب لا يصلون إلا في مساجدهم ، لأن القرآن الذي يتلى في مساحد الصوماليين لا يتجرد من أثر المعجزة الملازمة لسانهم ، وهم يريدونه قرآنا عربيا صحيحا

الى أن قالت النشرة :

« القوايين القرآنية المعمول بها في القبائل هي التي طلقت على العادات السائدة لديهم . وهي القاعدة التي يخضع لها الكافة هناك . فإذا تعارضت آية قرآنية وعادة مقرررة في قانون الزواج أو إحياء ذكر الموتى ، آثروا اتباع العادة على الخصوع للقرآن !

« ولا تزال عادة تعظيم الاولياء معمولاً بها هناك . فانه في أوقات مختلفة من السنة يزور أهل المدن والبدو قبور الصالحين الذين امتازوا في حياتهم عمراة الفصائل . وهؤلاء البدو أمانيون جدا ، وليس لهم شغف بالعقائد كأهل المدن . ومع هذا ففي جاء المساء اجتمع الزائرون جميعا وصلوا في حظيرة منفية بالأحجار الجافة ومتجهة نحو الكعبة .

« أما الطرق الصوفية المحترمة لديهم فأربع : القادرية ، والأحمدية ، والصالحية ، والرافعية .

وتجديد خيرة العلماء هناك منتسبين للطريقة القادرية . أما الصالحية فهي طريقة أهل البادية ، ولها تأثير عليهم في تأليف جماعات تشتغل بالشئون الزراعية .

« ويكثر المرابطون في القبائل ، وهم من أحسن المروحين لسياسة الفرنسية . ولكنهم قليلون في المدن ، منهم اثنان يتمتعان بشهرة عظيمة : الشيخ عمر الأهرى في جيبوتي ، والشيخ عبد تراب في تادجورا .

« الأول صومالي من جنس أتيوبي لجأ الى جيبوتي منذ الاحتلال الإيطالي للحبشة ، والثاني من الدناكل .

« أما الوهابية فلم تصل الى مستمرتنا على الرغم من قربها من البلاد المقدسة . وقد حاول شبان من العرب منذ عدة سنين إدخالها بالتفافهم حول رجل ضريح قدم من اليمن الى جيبوتي ، ولكن أئمة الدين كالجوا هذه الطريقة كفاحاً شديداً حتى صدوها ، واضطر داعيتها الضريح للعودة الى بلاد العرب .

« الاسلام في الصومال قد طبق على التقاليد الصومالية ، والعادات الأهلية ، ولذلك ترى مسلمهم يمارسون الاحتفال (بالسار) وهو نوع من العبادة يصحبها رقص وذهول ، وباليوم الأول من السنة . وهم يمتدنون باستمرار الحياة المادية بعد الموت ، وبالسلطان السحري لرئيس القبيلة وللعلماء من طريق الوراثة . أما من ناحية تمسكهم بعوائدهم فهم يقولون بجواز تزوج أخت الزوجة ، وبمحلية الزوج بالاختطاف ، وبشمن الدم ، وبجرمان المرأة من الميراث ووضعها خارج دائرة القانون .

(مجلة الأزهر) إن ما تزويه نفرة الأخبار الدولية عن أهل الشواطي الصومالية من إتيار عاداتهم وتقاليدهم على أحكام الشريعة السماوية ، ليس خاصاً بهم ، ولا بالمسلمين وحدهم ، ولكنه داء هم جميع الجماعات البشرية في جميع الأحيال قديماً وحديثاً ، إما من طريق المعاصرة الصريحة ، وإما من طريق التأويل . فهل يرى القارئ لأحوال الأمم متمدنها ومتوحشها في جميع البقاع الأرضية غير هذه الظاهرة النفسية المدهشة ؟

لو كانت هذه المعاصرة مقصورة على الشرائع السماوية ، بحجة قيام شبهات علمية ضد بعض أصولها ، كما يصرحون بذلك ويضعون فيه النحوث المستفيضة ، لمزناهم ، ولكن هذه المعاصرة تمتد على أصول العلوم اليقينية نفسها التي لا يتأتى أن يتأري فيها رجلاان على الكرة الأرضية ، كإباحة الحر والقهار والزنا وغير ذلك مما أصبح ضحاياهم وويلاتهم عبرة لمن كان له نظر ، وذكرى لمن كان له قلب .

فالدناكل والحشاش والنيام نيام وأمنالهم ، يمزرون في إتيارهم عاداتهم على الترائع السماوية ، لجهاثهم وبمدم عن مساقط الأنوار العلمية ، فما عذر الجماعات المنمدة التي بلغت من العلم شأواً يميذا في معاصرة الأصول التي اعتبرتها معارف يقينية ، بل حقائق خالدة ؟!

حُرِّمَ على الأمم المتمتدة المشروبات الكحولية ، والمقامرة ، والزنا ، ثم انظر تجد عدد المجرمين والمنتهزين والمجانين قد نزل الى أقل من نصف ما كان عليه ، وفق النصف الآخر موزما على آثام أخرى تنص الشرائع الالهية على ضرورة إزالتها وحماية الناس من ضرورها .
إنى لأخجل أن أوجه ملاما الى الدنا كل ومن يجري مجرى مجرام ، إذا كنا نحن والأم العظيمة المتمتدة نرتكب هذا الشطط نفسه ، ونحن من العلم والفلسفة ومنطق الحوادث في ثروة ليس لتلك الجماعات الساذجة ذرؤ منها . فإذا كان ولا بد فدرهم الى هؤلاء وقطار إلينا .

فإن سألتني بعد هذا : وما الدواء لهذه الحالة من إيثار الباطل على الحق ، والميل إلى سماسف الأعمال دون معاليها ، والإصرار على ذلك إلى حدود الجهل المطلق ، والجود المطلق ؟

قلنا : لادواء لهذا الداء المقام الا القوارع والمثلثات ، ولا شيء غير القوارع والمثلثات !
فلو كان الانسان يؤمن بما يقوله العلم نفسه : أن كل ما يفعله الناس من حسن أو قبيح ، من خير أو شر ، يعود عليهم أثره كنتيجة لتقديم ، لبدلوا جهدا جهيدا في تحرى الاحسان في كل شيء ، ولكنهم يشكون في هذا الأصل ، ويظنون أنهم يستطيعون أن يركبوا أهواءهم ثم يفلتون بحسن احتياهم من نتائجها . وهيهات ! د وكأين من قرية عنت عن أمر ربه ورسله فحاسبها حسابا شديدا وعذبها عذابا مكررا ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا .

محافظون لا متنظعون

نقلنا في العدد الماضي ما نشره المسيو ميشيل رينو بحريضة (لا فرانس ميانيير) نقلنا عن السكولونيل بيلاندو الحاكم على قسم من صحراء مرا كاش عن تشدد أهل موزاب (ومحمها ميزاب) في الدين ، وعن إيائهم إدخال التيار الكهربائي الى قراهم ، فرارنا عالم حليل من عمامهم هاجر الى مصر منذ ست عشرة سنة ، وأقضى إلينا بالأسباب الحقيقية لامتناع أهل ميزاب عن إيصال التيار الكهربائي الى بلادهم فقال :

« إن أهل وادى ميزاب أثارة من الدولة الرستمية التي حكمت المغرب من سنة ١٤٠ الى ٢٩٦ هجرية ، وهي دولة عربية بربرية فارسية ، وقد كانت مثلا يضرب في عدلة الحكم ، وصيانة الأمن ، والعمل على الإصلاح والتعمير . فلما انقرضت تجمع بقاياها في بعض الوديان ، وكان وادى ميزاب الذى يبعد عن البحر ٦٣٠ كيلو مترا مباءة لقسم مهم ، وهو الذى يتناولهم بالذكركاتب لا فرانس ميليتير اليوم . وما كان لهجرة هذه البقايا من الدولة الرستمية إلا فرض واحد وهو صيانة دينهم وقوميتهم من الفتن التي كانت افتكت من عقلمها على عهد الدولة الفاطمية بالمغرب .

« على أن مهاجرة ميزاب لم يريدوا بهجرتهم أن يقبعوا في دورهم كسالى خملين ، ولكنهم

طلقوا يفلحون الأرض ويستثمرونها ، ويزاولون التجارة بالأسفار البعيدة ، ويمارسون العلم والحسكة على مذهب غارجه بن زيد التابعي الجليل ، وقد نفع فيهم أئمة يشار إليهم بالبنان ، منهم محمد يوسف أطفهيش المفسر الكبير في العهد الحديث ، وقد توفي سنة ١٣٣٢ هجرية .

« وهم ليسوا بجهلون مزاياء الفتوحات العلمية ، والمستكشفات الصناعية ، ولا ممن يرون أن الاستفادة منها إنما يعاقب عليه ، كما ينوم كل من يقرأ ما نشره عنهم المسيو ميشيل رينو ، ولكن بشرط أن يحثهم على أيديهم وتحت رقابتهم ، حتى لا يكون ذلك وسيلة لمن يريد التدخل في شئونهم تحت هذا الستار من الإصلاح والتنمية . فرقصهم على الكولونيل بيلاندو إدخال التيار الكهربائي الى فراهم كان غرضهم منه قطع ذرائع التدخلات التي يجر إليها هذا العمل المدني البريء ، لأنهم يرون في الانسحاب بالكهربائية بدعة لا يجوز العمل بها ، أو عملا لا فائدة منه يمكن الاستغناء عنه . ولكنهم آثروا أن يعيشوا بعيدين عن زخرف المدينة ماداموا لا يُمسكئون من حماية جماعتهم مما يجر اليه من ضروب الافراطات والتفريطات في آدابهم وأخلاقهم ودينهم ، كما حدث في جميع الممالك الاسلامية » .

هذا ما حدثني به ذلك العلامة الجليل ، وهو حديث يبري أهل ميزاب من وصمة التنطع في الدين ، وينقلهم الى طائفة المحافظين .

ونحن نشكره ونرجو لقومه أن يعملوا جادين على تحلية جماعتهم بجميع الوسائل الصناعية ، والمستكشفات العلمية ، وأن يتدارسوا الى جانب علم الدين ، العلوم الحديثة التي أصبحت لا ممدى عنها في هذا العصر ، وأكسبت أهلها من قوى التسلط والاستيلاء ما لا سبيل الى دفعه إلا بها . ولما نحن يقول بأنه مع وجود تلك العلوم والوسائل الحيوية لا يستطيع صد تيار الفتن ، ولكننا نقول : إن الشعب الذي يصبر على حرمان نفسه منها يستطيع بقوة الإرادة أن يحمي نفسه شرور المدنية إذا صدقت عزيمته في ذلك ، ولأهل وادي ميزاب وغيره من الوديان من مزية العزلة ، وشدة الشكيمة ، ما يجعلهم قادرين على ذلك . ودليلنا على ذلك أن كثيرا منهم ينزحون الى المدن الحافلة بصروب الفتن والمسولات فلا يتأثرون بها ويعودون الى بلادهم أطهارا من جرائمها .

أقول هذا وأخ عليهم في قبوله ، فإن ثباتهم فيما هم فيه مع تجردهم من جميع وسائل المناعة المادية ، قد لا يطول أمد ، فإن زحف المدنية عليهم منواصل من جميع الجهات ، وقد لا ينقضي جيل حتى تتصل بهم فيضطرون الى قبولها كرها ، وفي وسعهم أن يحصلوا أنفسهم بحيث لو اتصلت بهم المدنية لم تجرد في وسائلها ما تقتضيه .

فإلى أهل ميزاب تحيتنا مشفوعة بهذه النصيحة ، راجين الله لهم كرامة الدارين ، وشرف الحسينين .



هل هناك ضرورة لاقامة مؤتمرات للمسيح الملك

جاء في جريدة (لاكروا) أى الصليب التى تصدر فى باريس تحت العنوان المتقدم ما يأتى :
« كُتبت إلينا (الى جريدة لاكروا) السكرتارية العامة لمؤتمر المسيح الملك نالبيو نليا تقول :
« قد يظن أن مسألة : (هل هناك ضرورة لاقامة مؤتمرات للمسيح الملك ؟) لا موجب لها ،
ونرى أنه تجب الاجابة عليها .

« ماذا يراد من عبارة المسيح الملك ؟

« يراد بها أن المسيح ملك السماء والارض ، ولكن هل العالم يعترف له بهذا الملك ؟
« معنى المسيح الملك أنه يجب أن يحكم ، وأن تعترف به ملكا لجميع الممالك وجميع الشعوب ،
لأنه يجب عليها له الطاعة والخضوع ، فقد قال هو : « اذهبوا وعلّموا جميع الأمم وعمدوها
وأدخلوها فى حظيرتى حتى لا يكون فى الأرض إلا راع واحد وقطيع واحد » .

« ولقد ولد المسيح منذ ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين سنة ، فلى أى حد فى مدى هذا
الزمن نفذ أمر المسيح ؟

« يبلغ عدد سكان الأرض اليوم نحو ألفى مليون نسمة ، منهم مليون وأربعمائة ألف
وثييون ومسلمون ، ولا يعترف بالمسيح منهم إلا ستمائة مليون أى نحو ثلث سكان الأرض أجمعين ،
ولا نفس أن ما يقرب من نصف المسيحيين خوارج ومبتدعة منقسمين الى فرق شتى . فلا يوجد
من الكاثوليك إلا ثلاثمائة وثمانون مليون أى خمس مجموع البشر أى ١٩ فى المائة . ولكن لا يعتبرون
طاملين بالكتسكة إلا نحو نصف هذا العدد . وسكان المدن الكبرى يعتبرون نصف وثنيين ،
فلا يؤدى شعائر الدين منهم إلا نحو ٥٠ فى المئة . وهذه الوثنية الجديدة تنتشر بوقاحة ،
والخروج من المسيحية والمادية المسحطة ينموان بدون انقطاع . وفى ممالك مختلفة تنشر دعاية
مباشرة للاستكثار من عدد المرتدين . ففى مدينة (غراتز) (١) وحدها ، أعلن ثلاثون ألفا
من أهلها خروجهم عن المسيحية . وعدد المواليد الذين لا يعمدون أبائهم يزداد يوما بعد يوم .
وطوائف بروتستانية تنشر دعوة نشطة لمذهبا فى البلاد الكاثوليكية . والاسلام ... (٢)
ينتشر بسرعة فوجب التلقى .

« ولنضيف الى هذا ، المذهب البلشئى ونشره الدعوة الاتحادية الشيعة . فما أحرأه على رفع
رأسه طانيا وعلى محاولته فتح الأرض بأسرها ، وإزالة الإله من عرشه ، واستئصال شأفة الدين
فى كل بلد يحل ! إن قوى الحميم لم تهاجم قط مملكة الله على هذا النحو .

(١) بلدة نمساوية (٢) وصف الاسلام ملييد أو للهك ظم رد أن ثبت هذا الوصف الوقع !

« فلا يربِّسنا أحد بوصمة التشاؤم فإننا إنما نعتمد على الأرقام والحوادث التي لا يمكن النزاع فيها . وأى قائدة ترحى من كتان الحق أو إسكار ما لا يحمله أحد ؟ فيجب علينا أن ننظر إلى الحقيقة مواجهة ، لأن الحقيقة وحدها هي التي سوف تنجدها .

« إنا نعلم أن المسيح كان وسيكون دائماً موصفاً للتراع ، ونعلم أن أبواب الجحيم لن توصد أبداً ، وسنهاجم مملكة الله بدون انقطاع .

« ونحن نعترف بأن في الكنيسة الكاثوليكية خيراً وجمالاً عظيمين ، وفيها عناصر إنشائية ومقوية ، كوحدة الاعتقاد والطاعة للبابوية ، مما لا تكثر أشباهه في تاريخ الكنيسة ، ويوجد حب صادق للأب المقدس ، وتقوى وورع ، وميل للتضحية ، ونقاط قوى للبدل ، وروح ترابط اجتماعي . ونرى الناس يصلون كثيراً ويضحون كثيراً ، وفيهم زوع للكتاب . وتوجد كتابات كثيرة وكلام كثير في وجوب الاتحاد والنظام ، ونشاط لم يرمثه للكنيسة في سائر المجالات .

« نحن نمتدح بوجود ذلك كله ونسره به ، ولكننا لا نستطيع أن نحقق الأخطار التي تزداد تفاقم يوماً بعد يوم مهددة المسيحية كلها ، كما لا نستطيع إخفاء الخسائر التي تكبدناها .

« فقد تألب أعداء مملكة الله عليها ، واتفقوا في جميع البلدان على محاربتها . فالاشتراكية والشيوعية ، والماسونية ، والحرية الفكرية ، لا تعرف فيما بينها حدوداً ، وليس لأشباع هذه المذاهب إلا فكرة واحدة تحميها ، وغرض واحد يجمع بينها ، وهو : الكفاح ضد مملكة الله .

« أما نحن الكاثوليك فلسنا بمتحدين فيما بيننا اتحاداً وثيقاً . نعم إننا منظمون تنظيمياً كنسياً ، ولكن العقول والقلوب يلوح أنها غير متفقة على ما ينبغي ، فهي تختلف باختلاف الأجناس واللغات . وقد أضعف الفلور في القومية الديانة الكاثوليكية . .

« فيجب على جميع الكاثوليك أن يتفقوا بهذا واحدة ، ويتعارفوا ويتعاونوا ، ويتشاوروا فيما ينبغي عمله للدفاع ضد هجمات الظلام ، وفي زيادة احترام الكنيسة الخ الخ » .

(مجلة الأزهر) لا نحتاج هذه إلى تعليق .

لدينا مؤلفات عديدة لم نستطع تقديمها في هذا العدد ، ونرجو أن ننظر فيها في العدد المقبل إن شاء الله .

المحاماة قديما وحديثا

في عدد من أعداد هذه المجلة من بعض سننها الماسية عرضنا للكلام لما من المحاماة قديما وحديثا ، وكيف تطورت اليوم حتى بلغت مستواها الذي بلغته ، وألصقا في ذلك البحث الى أن حق الدفاع قديم في البشر . فهي ضرورة من ضرورات الاجتماع تدعو اليها نواويس هذا الوجود وتقرضها قضايا العمران بما فطر عليه الانسان من حب الغلبة والمصر .

ففي قصة موسى حين طلب الى الله سبحانه أن يرسل معه أخاه هارون الى قوم فرعون الذين كذبوه إذ قال : « وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فارسله معي رداه يصدقني إلى أخاف أن يكذبون » ، وإذا قال الله له : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يصلون إليك » ، بآياتنا أنما ومن اتبعكم الغالبون » ، وفي قوله سبحانه : « وكان الانسان أكثر شئ حذلا » - آية الآيات على أن الدفاع في الدثيرة قديم وحد منذ تمخضت الانسداد عن الخليفة ووطئت بقدمها تلك الرقعة السوداء . وألمنا أيضا الى أن الدفاع في الخصومات كان في زمن موسى عليه السلام طليقا من كل قيد إلا من الساطة الساذجة .

فقد كان لليهود في زمنه عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه نظام المحاماة اليوم . فمن أظهر مظاهر اشتغالهم بها حل المشكلات التي تظهر بين الأفراد من المسائل القانونية . ويروى الأستاذ جلاد بك أنهم كانوا في حملهم هذا غير مأجورين ، لأنهم احتضوا بجماعة في بيت المال يتقاضونها كتشجيع لهم على الاستمرار في مهمتهم الانسانية الجليلة ، وكانوا يعتبرون كأنهم من رجال القضاء ، حتى إن القضاة لم يكفروا بفتنهم إلا من بين أفرادهم ، لأنهم مارسوا فنون الكلام وأساليب الدفاع عن أمهم ، وعرفوا كوامن الليل في نقوس الاهلين ، فليس في طبقة أخرى من يفضلهم في فنون التقاضي ، لذلك أملت عليهم المصلحة ووضع الأشياء في مواضعها أن تنتخب القضاة من بين المحامين وحدهم .

ولم يكن اليهود في زمن موسى المستأثرين بتلك الخواص فحسب ، بل شاعت تلك الظاهرة أيضا في السكلايين والمصريين والفرس وأهل بابل . فقد كان بين هؤلاء الأمم رجال اشتهروا بالعلم والذكاء ، يرجع الناس اليهم في المشورة ، ويستعينون بهم في حصوماتهم ، مما يشبه نظام المحاماة اليوم ، حتى إن هؤلاء الافئذ كانوا يجتمعون فيما يشبه الادبة العامة أو الخاصة فنان في البهم الناس تستشيرهم وتصدر عن رأيهم .

وقد ظل الأمر كذلك حتى اخترع المصريون فن الكتابة على ما يروى لنا المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا ، فخطروا من ذلك المهد على المشتغلين بالقانون ألا يترافعوا إلا بالكتابة .

وسر ذلك الخطر أنهم خشوا أن يخلب المترافع أبواب القضاة بأنبساط لسانه واتساع بيانه وحدة جنانه وعدوية منطقته .

وتطور هذا الفن تطورا مطردا ، وكانت أقدم الناس به عهدا المصريون والفرس والسكندانيون كما أسلفنا ، والمصريون في الطليعة . وقد ظل هذا الفن يدرج في حصور متواصلة حتى انتقل حجة الى اليونانيين . فليس من بلد نبغ فيه العدد العديده من الفلاسفة والحكام والمشرعين والخطباء والكتاب والعلماء مما بلغه في بلاد اليونان

ويروى العلامة أحمد فنجي زغلول باشا أن المستبصرين في ذلك العهد قد أعجبوا إيماء إعجاب بما بلغه المضج العقلي في بلاد اليونان . وقد توارث هذا الإعجاب علماء القانون والفكر في كل عصر وجيل حتى المصور التي شق الفرنسيون فيها الى التشريع لهم طريقا ، وإن كانوا مسبقين في نظرياتهم العامة بالفعه الاسلامي الذي يقرر في نظرياته العامة أهدي قواعد الوجود وأرسخها قديما في الفقه تشقيه ، وفي الفلسفة وفي القانون ، وفي كل ماله أوثق الصلات بحير البشرية وإسعادها .

لكن مما لا سبيل الى الجدل فيه أن تلك الشرائع كانت على قسط وفيه من الكمال والعقل ، حتى إن حكومة الجمهورية الرومانية في ذلك العهد ، ولها يومئذ سعة سلطانها وقديم مجدها وبأدخ عزمها ، قد أرسلت الى بلاد اليونان بموتاليقنيسوا عنها تلك الشرائع لتستدير بأصولها في تشريعاتها المختلفة وتنظيم روابطها المتنوعة .

ولقد كانت الفصاحة مهمة عند الأمم فعنى بها اليونان وتدارسوها في مدارسهم ، ووضعوا لها أصولا وقعدوا لها قواعد ، حتى صارت فنا من فنونهم القومية ، وجزءا غير منفصل من حياتهم الثقافية .

وهنا يروى الأستاذ جلال وصاحب المزة عبد الفتاح السيد بك المستشار بحكمة القضا أن أول أمة أدخل على صناعة المحاماة فيها فن البلاغة هي الأمة اليونانية .

ومن ذلك العهد ببتت فكرة شائفة بين السكان ، وهي أن يستعين أرباب القضايا بأحد هؤلاء الخطباء في المرافعة أمام القضاة في آئينا داتها وفي بعض البلاد الأخرى ليؤيدوا حججهم في وجهة نظرم وسل اتجاههم . وقد بدأ هؤلاء الخطباء بالقاء الخطب بأنفسهم نائين من أصحاب القضايا . ول هؤلاء العلماء حطب مشهورة كانوا يلقونها بأنفسهم أمام منصة القضاة .

ومن الرجال الأعداذ الذين خدموا القانون والقضاة بل خدموا قضية العدالة والانتصاف ، الأستاذ (استين) ، فقد خصص نفسه للدفاع عن المتهمين علما ، حتى إنه كان يكتب دفاعه الى بعض هؤلاء المتهمين إذا تبين رقة حاله وتبيل باله ، ليقراء ذلك المتهم على القضاة .

ومن هؤلاء الرجال الاستاذان (دراكون) و (سيلون) اللذان وضعوا القوانين لتنظيم حرفة الدفاع وتثبيت قواعده على سبيل يكفل أن يأخذ العدل مجراه ، فاشترطوا في المحامي الذي يمارس حرفة المحاماة ويلقبونه يومئذ بالخطيب : أن يكون حراً ، وأن لا يكون مرذولاً فاقدر الشرف مثلوم العرض ، وأن لا يكون مأخوذاً عليه عصبان والديه أو القمود عن تلبية داعي الوطن أو قبول وظيفة صوملية أو الاتجار شجاعة تحالف الآداب وتشين الاعتبار ، وكذلك من شاهده الناس في أماكن القمض والمجور ، ومن عاش عيشة التأنق والتبذل فببدد ما ورثه عن آباءه ، ومن كان أميناً على أموال الدولة في عزمهم يومئذ .

كذلك منعت النساء من المحاماة لما ينبغي لذلك النوع من التواضع على الحشمة والدعة والوقار ، ولما تقرر في قواعد الفلسفة القديمة أن المرأة وهي كثيرة الاضطراب في الآراء سريعة السير مع الأهواء ، لا تعمل الرجل في عقله وسلامته إدراكه وقوة استنتاجه .

وقد كانت حظيرة المحاماة التي تشبه نقابة المحامين اليوم ، معدودة من الأماكن المقدسة التي لا يجزى في فئاتها ولا أرجائها هجر ولا لغو ، لأنهم كانوا يرون فيها يومئذ أداة الانقاذ وكشف الحقيقة واسترداد الحقوق الضائعة ، وفي دوائر القضاء إصاف المظلوم ، وإفانة الملهوف وتشديد صروح العدالة على قواعد من الأدلة والبراهين التي أدلى بها المحامون ، فهم والقضاة سواسية في تلك التجلة ودهك الاحترام . فإذا حان وقت إقامة المدصة ونصب ميزان العدل ، رش المكان بالماء المطهر رمزاً الى أنه مكان فوق مستوى الامكنة المادية ، فلا يجزى فيه إلا ماله صلة بمصلحة الجمهور ، مما صنموه اليه بمزيد بسط ، وبيان في أعداد تالية . فالى القد القريب ؟

عباس ط

تصحيح

وقع في العدد السادس ٤٧١ ٢١ خطأ هذا صوابه : إن في ذلك لذكرى

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يتحدث عن واجب الشعب والعلماء وأبناء الأزهر في الأحوال الحاضرة

قابل مندوب «الأهرام» حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ عبد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر، وسأله عما إذا كان هناك ما ينصح به لحضرات علماء الأزهر وطلبة معاهده ليسترشدوا به في تأدية واجبه في الظروف الحاضرة، فقال فضيلته :

« هناك نواح كثيرة لظروف المحيطة بنا الآن، ولكن أهم شيء في نظري أن تسير الحياة في هدوء ونظام وأمن، وأن يعاون الشعب الحكومة فيها هي بسبيله من حيطة الوطن والذود من حياصه والدفاع عنه، وأن يقوم بين الشعب تعاون وثيق وشعور رحمة وعطف، وأن يكون الجمهور غير شاعر بمعض الحياة وعدم القدرة على سد العوز ودفع ألم الجوع، وهذا يقتضى من الجمهور اقتصادا، ومن التجار قناعة .

« فأننا أطلب الى حضرات العلماء وأبناء الأزهر جميعهم في المدن والقرى، أن يراعوا هذا، وأن يكونوا رسل رحمة، قوامين بما هو واجب عليهم من النصيح .

« وأسأل الله أن يقي هذه البلاد شر عوادي الزمان، وأن ينقذ العالم مما هو فيه من شرور، ويرده الى الفضيلة عن طريق هداية الوحي ونور السنة .

هذه كلمة من كلمات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام، نضيفها الى مثيلاتها من كلمات المؤجزة ذات الدلالات العالية . وهي تنحصر في مطالبة الشعب بمعاونة الحكومة فيما ترمى اليه من إعداد الوطن للدفاع عن كياه، من طريق تنظيم وجوهه، وتوفير معداته، وهذا التعاون الرئيسى يقتضى تعاون أفراد الشعب فيما بينهم حتى تكون الأمة كالجسد الحى فى ترابط أعضائه، وتكافل أجزائه .

ولما كان هذا المثل الأعلى من النضام والرفاد يقتضى شعورا من الآحاد بالواجب يحمده بالوجود، أهاب فضيلة الأستاذ الامام هذه العاطفة فى النفوس لما يبتنى على التقصير من مضع الحياة، وأشار الى أن مصابرة هذه الأحوال تقتضى من المستهلكين اقتصادا، ومن التجار قنماتا .

وفى هذا الموطن يهيب الأستاذ محضرات العلماء وأبناء الأزهر أن يجملوا من أنفسهم رسل رحمة بين الناس، وأن يقوموا بما هو واجب عليهم من النصيح

فعلى الذين يقرءون هذه الكلمة القيمة أن يكرروها فإنها نعم البرنامج الأدبى لهم فى هذه الآونة الشديدة، حى الله كنفاته من كل شر، وألهمنا ما ألهم آباءنا من قبل، من روح الاستبسال فى الدفاع عن الوطن، وحقيقة الصبر فى مواقف الجدد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

عزم المشركين على الجدل في وقف الدعوة الإسلامية

لم يترك الجاهليون وجها من وجوه الإيذاء والإيلام إلا عاملوا به النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمنوا معه ، فلما عجزوا عن فنقتهم عن دينهم ، أجمعوا على معاملتهم بأقصى ضروب الشدة ، حتى يفرغوا من أمرهم ، ولكمهم قبل أن يقدموا على هذا الأمر رأوا أن يندروا عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليتدخلوا عن حمايته ، فاذا أبوا أعلنوا الحرب وعاملوه معاملة الأعداء . فشئ جماعة منهم إلى أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له :

« يا أبا طالب ! إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإننا قد طلبنا إليك أن تنهى ابن أخيك عما فلم تنهه ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتصفية أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإن لم تكفه عنا نازلناه وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين »

فلما سمع أبو طالب ما قالوه عظم عليه مخالفة قومه وعداوتهم ، ولكنه لم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه ، وتعريصه لوحشيتهم ، فرأى أن يكلمه في هذا الأمر فقال له :

« يا ابن أخي ! إن قومك جاءوني فقالوا لي كيت وكيت ، فأبى على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » .

فأجابه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

« يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم بكى وقام . فلما ولي ناداه أبو طالب ، فأقبل إليه فقال له : « اذهب يا ابن أخي وقل ما أحببت والله لا أسلمك إليهم »

فلما رأته قريش أن مسعاهم لم يفلح اعتزموا أن يسلكوا لتحقيق غرضهم طريق الشدة ؛ ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية محمد صلى الله عليه وسلم ، فأجابوه إلى ذلك إلا أنه أباهب .

فتوالى الاضطهاد بشدة على المسلمين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم . فمارروا من إيذاهم له ما حدث به عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو يصلي ، وقد نحر بعض الناس جرورا وبني قرته وكرشه . فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى هذا التفسر يلقيه على محمد ؟ فقام عتبة بن أبي معيط ، وجاء بذلك الفرس فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فنضاحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض ، قال ابن مسعود : تخفنا أن نلقيه عن ظهره ، حتى جاءت فاطمة ابنته بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها الخبر ، واستمر النبي ساجدا حتى ألقته عنه .

وروى البخاري عن عروة بن الزبير قال : قالت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكسبه إذا أقبل عتبة بن أبي معيط فأحسد بمكبه ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر وأخذ بمكبيه ودفع عنه .

وروى أنهم اجتمعوا مرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجذبوا رأسه الشريف ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟

ولما بدا له صلى الله عليه وسلم أن يدعو أهل الطائف ، وهي قرية بقرب مكة ، شخص إليها فقابله أهلها بأقبح رد ، وتولاه سفاتهم بالرجم وهو راجع حتى أدموا رحله بحجر .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر بإعلان الدعوة لآلئ في دعوة القبائل في مواسم الحج ، فكان يتبعهم بمعى والموقف يسأل عنهم وعن منازلهم ، ويأتى إليهم في أسواق الموسم وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة وتقيم به عشرين يوما ، ثم تزيله إلى سوق ذي المجاز فتقيم به أيام الحج ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقصدهم في هذه الأسواق ويعرض نفسه عليهم طالبا إليهم أن يحموه حتى يبلغ رسالة ربه ، فكان يلازمه رجل من المشركين يصد الناس عنه مدعيا لهم أن به جنة ، فيعرض الناس عنه ، ولا يقيمون لما يقوله وزنا ؛ استمر على ذلك نحو عشر سنين .

هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة :

إن ما كان يلحق النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى والاضطهاد كان يلحق مثله الذين آمنوا به ، حتى أن أباه بكر وهو سيد كبير من ساداتهم صرب مرة حتى احتلط وجهه ، فلما طلع

السكريل ، ولم يبق في قوس الصبر مترع ، رأى بعضهم أن يهاجر إلى الحبشة ، فارتد إلى الله بدينهم ، وفاركن لأموالهم وعشائهم . فاتفق عشرة رجال وخمس نسوة على الشغوص إلى الحبشة ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وأم سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب ابن عمير ، وسهل ابن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وأكثرهم من أشراف قريش تحت قيادة عثمان بن مظعون ، ولكن لم يطلب لهم المقام هناك لأن الأحياء كانوا على النصرانية وذوى عصبية دينية لا تعرف التسامح ، فبعت بهم الديار ، فلم يلبثوا إلا ثلاثة أشهر ثم عادوا أذراجهم ، ولما رجعوا لم يتمكن من دخول مكة إلا من وجد له مجيرا ، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب ، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم رأى أن يرد عليه جواره عند ما بلغه ما صنعه من اضطهاد المسلمين وما لا يزال يصنعه معهم .

إسلام حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ومهر بن الخطاب

كان من أكر العوام في إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ما شعر به من الامتناع الشديد من إيذاء المذركين لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم . فقد قيل إن مولاة لعبد الله بن جدعان كانت في دارها ، قرأت بعينها وممعت بأذن أنها أبا جهل وهو أبو الحكم بن هشام ، لقي رسول الله فشنمه ورماه بالتراب ووطئ برجله عاتقه ، ثم انصرف إلى نادى قومه . فلم تلبث الأمة التي كانت قد تأثرت بما فعله أبو جهل أن صر بها حمزة عائدا من قنصه متوشحا بسيفه ، فقالت له الفتاة : يا أبا عمار : لو رأيت ما فعل ابن أخيك الساعة أبو الحكم بن هشام ، تعنى أبا جهل ، وحكت له ما رأيت . فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذي تقولينه ؟ قالت : نعم .

فاستشاط حمزة غضبا وقصد المسجد فصادف أبا جهل جالسا ، فأقبل إليه ورفع فرسه وضرب بها رأسه فشجه قائلا : أنشتم محمدا وأما على دينه ؟ أقام رجال من بني محزوم ينصرون أبا جهل ، وقالوا لحمزة : ما نراك إلا قد صيأت إلى دين محمد .

فصعد لهم حمزة ولم يبال بتأليبهم عليه ، فتركوه . ولما كان اليوم التالي ذهب إلى رسول الله وسلم فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه ، لأنه كان أعرف في قريش ، وشدهم شكية على من يناوئه ، تخفف المشركون أدام عن رسول الله ، متحامين بطش حمزة ، وكان ذلك في السنة السادسة من النبوة ، وقيل بن الخامسة منها .

أما عمر بن الخطاب فقد حدث عن سبب إسلامه فقال ما مؤداه : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيني ذات يوم رجل من قريش ، وقال يا ابن الخطاب

تزعّم أنك هذا ، أي أنك الصلب القوي في دينك ، وقد دخل هذا الأمر في دينك (أي الإسلام) ؟
 فتملأت غضباً ثم قصدت دار أختي زوجة سعيد بن زيد وقابلتها بما تكبره على أن تركت دين
 آبائها وصبت إلى دين محمد ، ثم نظرت فإذا صحيفة في ناحية من البيت فأخذتها ، فإذا فيها :
 « بسم الله الرحمن الرحيم ، سبّح لله ما في السموات والأرض » ، فتلوها حتى بلغت قوله تعالى :
 « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . إلى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين »
 فمطمت في قلبي وصممت على الإسلام ، وقلت لهم : دلوني على مكان رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، فجئت إليه في دار الأرقم وكان مختبئاً فيها بمن معه ، وطرقت الباب فلم يجسر أحد أن
 يفتتح لي ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : افتحوا له إن بها الله به خيراً يهده ، فأدخلوني
 بين رحلين آخذين لمعدى . فقال لهم النبي أوسلوه ، أي اتركوه ، فجلست بين يديه ، فقال لي :
 ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنهني حتى ينزل الله بك قارعة . فقلت : يا رسول
 الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . ١

قال عمر . وكان الرجل إذا أسلم استخفى ، فقلت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً لا يبق
 مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان قال عمر : وأحببت أن يصيبني ما أصاب من
 أسلم من الضرر والإهانة .

روى عبد الله بن عمر قال : لما أسلم أبي قال : أي قرشي أنقل للحديث ؟ فقبل له : جميل
 ابن حبيب ، ففعلنا عليه وغدوت أتبع أثره وأنا غلام أعقل ما أرى ، حتى لقبه فقال له : أعلمت
 يا جميل أني أسلمت ؟ فوالله ما راجعته حتى قام يحمر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبي حتى إذا ظم
 على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ! فأخذ الناس
 يضربونه ويصرهون حتى قال خالي ما هذا ؟ قالوا ابن الخطاب ، فقام على الحجر وأشار بكمه ألا إني
 أجرت ابن أختي ، فأنكشف الناس عنه . وغاله هذا هو أبو جهل وهو في الحقيقة صمه وإنما دعى
 خاله مجازاً .

وروى البخاري عن ابن عمر قال : بينما عمر في الدار غائفا إذ جاء العاص بن وائل السهمي
 أبو عمرو بن العاص ، وعليه حلة جبرة ، وقميص مكفوف محبر ، فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم
 قومك أنهم سيقتلوني لأنني أسلمت . قال : لا سبيل إليك . فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم
 الوادي . فقال أين تريدون ؟ قالوا ابن الخطاب الذي قد صبأ . قال لا سبيل إليه ، ففكر الناس
 وانصرفوا .

ثم رأى عمر أن يرد على العاص بن وائل جواره . قال : فارتدت أضرب وأضرب حتى أعز
 الله الإسلام .

إن إخلاص عمر في إسلامه يستحق أن ينوه به ، فإنه بعد أن آمن وكان من أشد الناس

إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، لم ير ما يكفّر عنه حالف عدائه للحق إلا أن يعرض نفسه لضروب الإيذاء التي تعرض لها إخوانه الذين سبقوه إلى الاسلام ، فأعلن إيمانه لينال من الاضطهاد مثل ما لقوه . وقد لقي منه الشيء الكثير .

مقاطعة المشركين للمسلمين .

لما رأى قادة الجاهلية أن جميع ضروب الاضطهاد لم تفت في عصد المسلمين ، ولم تحل جماعتهم ، عمدوا إلى سلاح من أشد الأسلحة على الأقليات المائشة مع أكرثية ساحقة ، وهو سلاح المقاطعة . فاجتمع صناديدهم وقرروا بعد التشاور أن يتفقوا كتابةً على أن يقطعوا بنى هاشم وبنى المطلب ، فلا يصاهروهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يزوجونهم حتى يسلموا إليهم رسول الله يقتلونه . وأحدث كل جماعة نسخة من هذا العقد وعلقوا واحدة منها على جدار الكعبة . وكان ذلك سنة سبع من النبوة .

فلم يسع بنى هاشم وبنى المطلب إلا أن يجتمعوا تحت إمرة أبي طالب بن عبد المطلب وينجأوا معه إلى شعب بالحيل متحصنين فيه ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم من أسلم من غير بنى هاشم وبنى المطلب أن يهاجروا إلى الحبشة حتى لا يهلكوا جوعاً . وبقي من دخل الشعب منهم في حالة يرثى لها من الجوع والمعش ، وكادوا يهلكون جميعاً لولا أن الله سخر لهم رحلين كانا يعطفان عليهم ، ويأتياهم بشيء من الطعام خفية ، أحدهما هشام بن عمرو العامري ، كان من أشد الناس ممانعة في إبرام عقد المقاطعة ، وقد أسلم بعد ، فكان يأتيهم بما يقدر عليه من الأغذية ، فأدخل عليهم في ليلة واحدة ثلاثة أحمال من الأنظمة ، فبلغ قريشا ما صبح فكلموه في ذلك ، فوعدهم بالاقلاع من هذا الفعل ، ولكمه لم يف بوعده ، وطود إمداد المقاطعين بالأغذية ، وبلغ قريبا أيضاً فأغلقت له القبول وهمت بقتله .

وثانيهما حكيم بن حزام ، لقبه أبو جهل يوماً وقد حمل غلامه قحاً إلى من بالشعب ، فكلمه في ذلك وشنع عليه ، فأخذ حكيم على بعير فصر به فشجه ، وتدخل بينهما أبو البختري فلم يتطور التنازع إلى ما هو أشد منه .

ولكن ماذا عسى أن تكون قيمة هذه المساعدات الفردية بأزاء حاجة عشرات من الأنفس ؟ فلقد لقوا من الشدة ما لا يصبر عليه إلا الكرام .

وقد روى أنهم جامعوا حتى أكلوا الخس (ورق الشجر) وكان بعضهم يحضر الخس ويحاول أن يشتري شيئاً فلا يستطيع من الرقيب الذي يוכל به حتى يرجع للشعب .

لبث بنو هاشم وبنو المطلب على هذه الحال سنتين وقيل ثلاث سنين ، وهو الأرجح ، حتى بلغ بهم الجهد ، فاتفق خمسة من رجال قريش ليلاً على أن يعملوا في غدم على نقض عهد المقاطعة ، وهم هشام بن عمرو العامري ، وهو أشدهم رغبة في ذلك ومحاولة له ، وزهير بن أبي أمية الخزومي

ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمطعم بن عدي الموقفي ، وأبو السحري بن هشام الأسدي ، وزمعة بن الأسود الأسدي .

فلما كان الغد جاء زهير إلى المسجد وعليه حلة ، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس وقال : يا أهل مكة أنا أكل الطعام وناس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكتي لا يبيمون ولا يتعاونون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة ! يريد صحيفة العقد المعلقة بالكعبة ، فعارض في ذلك أبو جهل ، فرد عليه رمعة بن الأسود ، وعالونه أبو البخري بن هشام الأسدي ، وانضم إليهما المطعم بن عدي ، وقام إلى الصحيفة ومزقها .

فلما بلغ بني هاشم والمطلب ما حدث خرجوا من الشعب

هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة :

فبنا إن النبي صلى الله عليه وسلم حين أوى هو وعشيرته الأقربون إلى الشعب ، أمر من أسلم من الناس أن يهاجروا إلى الحبشة ، فاجتمع نحو ثلاثة وعشرين رجلاً منهم ، وعثاني عشرة امرأة وخرجوا مهاجرين إليها ، منهم جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت حميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جعش وامراته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وانضم إليهم الذين أسلموا باليمن وهم أبو موسى الأشعري وبنو عمه .

فلما رأته قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص (قبل أن يسلم) وحمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليسلم المسلمين لقريش ، فأبى عليهما ذلك ، وقد بقي هؤلاء المسلمون بالحبشة حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فعادوا إليه بها .

محاولة الاستماعة ببني ثقيف بالطائف :

لما آتس النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشا قد تضافرت على مماكسته بكل وسيلة ، رأى أن يلجأ إلى بني ثقيف بالطائف ، وهي بلدة في الجنوب الشرقي من مكة ، طالباً إليهم حمايته حتى يؤدي رسالة به ، فقابل رؤسائها وكلهم في هذا الشأن ، فأخشوا له في الرد ، وأرسلوا غلمانهم ليقطعوا عليه الطريق وهو قافل إلى مكة ، فلما أقبل عليهم قابله بوابل من الحجارة حتى أدموا عقبه ، ولولا أن زيد بن حارثة كان يزودهم عنه للحققتهم أذى كبير .

ولما قرب من مكة لم يستطع أن يدخلها لما علمه كفار قريش من ذهابه إلى الطائف واستنصاره عليهم بأهلهما . فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى المطعم بن عدي بن نوفل يخبره أنه يريد أن يدخل مكة في حواره . فأجابه إلى ذلك وحمل هو وبنوه أسلحتهم ، واستعدوا لقتال من يعترضهم ، وذهبوا إلى رسول الله واستقبلوه خارج مكة وقدموا معه حتى بلغوا به المسجد . عند ذلك سأل المشركون المطعم بن عدي قائلين : أبحر أنت أم نابع ؟ فقال : بل بحير . قالوا : إذا لا تخفر ذمتك .

وفاة خديجة رضى الله عنها :

بعد خروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشعب بقليل توفيت خديجة بنت خويلد ، وهي تستحق صحيفة خالدة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس لامرأة في الاسلام من الفصل ما يعدل فضلها ، فقد كتب لها أن تكون خاتم المرسلين زوجة ، فتولته وهو في ميعة صباه بالمعطف والرعاية ، حتى بلغ الثالثة والحسين من صمره المبارك ، فلم تدع وجهها من وجوه العناية به ، والاخلاص له ، إلا قامت به على أكل وجه .

شاطرته الحياة وهو في ريعان الشبيبة ، مكفته عما لها الكد المصنى ، فسهلت له التجرد للتفكير والتأمل ، وما دأب الاهتداء الى الحق ، وطريقا التهيؤ للنبوة التي كتبها الله له ، وسوغت له الانقطاع عن العمل الديوى الأيام والليالي التي كان يقضيها في قار حراء ، ولم تقف عقبة في سبيله لقطع هذه المرحلة من حياته الاعتزالية .

ولما انبثق له النور الالهى ، وشافهه الملك بالوحى ، وأدركه ما أدركه من الملح ، كانت أول من تولته بالتهنئة ، وحاضنه من حنانها بما خفف عليه احتمال تلك المفاجأة .

ولما أدرك أن ما جاءه هو الوحى ، وأنه بعث بالدين الحق ، كانت هي أول من آمن به ، وفى إيمانها سكن قلبه ، إذ لو كانت كآ كثر النساء جامدة على عقائدها الوراثية ، لكانت عوقفا الطائف منه ، وهو بين روعة الوحى ولوعة الشعور بعظم التبعة ، أشد عليه من أن كفر الناس به .

فلما شدد عليه قومه التكير ، وتقصدوه بالأذى والاضطهاد ، كانت هي أكبر المشجعين له على المضى فى أمره ، ولو أدركها الذعر ، وحاولت صرفه عن شأنه ، لسببت له من العنت ما لا يوصف بوصف .

كانت خديجة رضى الله عنها ذات مال ، ولدنوات المال إدلال ، وملال من اضطراب الأحوال ، وخديجة كانت تعلم أن مضى زوجها فيها هو فيه ، مع صمله فى تجارتها ، يوجب لها الكساد ، فلم يرو أنها فاتحة مرة فى الاقتلاع مما هو بسبيله ، محافظة على مكانتها المالية ، وهذا أندر ما يكون فى أصحاب الهيل والهبلان .

وتبتمته الى الشيعب تاركة ثروتها بين يدى الجاهليين ، وصبرت معه صبر الأكرمين ، ثم أدركتها الوفاة بعد خروجها ، فكان حزن النبي عليها عظيما ، ناهيك أنه ما نسيها طول حياته ، فحيا الله أم المؤمنين فى عليين ، وأجرها أجر السابقين المقربين ١

محمد قنبر ومبرى

التفسير

تفسير سورة الاخلاص

« تكميل »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأبنا بمناسبة نشاط المبشرين في هذه الأيام ببلادنا المصرية ، أن نناقشهم مناقشة منطقية في معتقداتهم أولا ، ثم ندخل معهم فيما شاءوا من الأبحاث بعد ذلك ، ولم نر أاسب لذلك من تفسير سورة الاخلاص ، إذ هي سورة التوحيد التي ترد عليهم ودا صريحا يؤيده العقل والمنطق ، مبينة أنه تعالى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . أما المسيحيون فيقولون : إن ابن الله نزل جنينا الى بطن امرأة آدمية ، وجرى عليه الاحداث البشرية والكوارث الدنيوية ، ثم صلب أخيرا .

ولندع محاورتهم اليوم في هذا وهو من البداهة بمكان ، ولكن نرد عليهم بما جاء في الإنجيل نفسه من النصوص الصريحة التي تنطق بإنسانية المسيح ، حتى يعلموا أنهم حالفوا المعقول والمنقول ، فنقول وبالله التوفيق :

قد أوجبتم الآبوة الإلهية للمسيح لكونه لا أب له من البشر ، فلم لم توجبوها لآدم مع أنه ليس له أب ولا أم كما يصرح به التوراة والإنجيل ؟ ليس من الواضح عند ذوى العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم الثشرين لآدم عليه السلام أن يكون ابنا لله تعالى ، لم بالأولى ألا يكون عيسى ابنا لله تعالى لعدم الأب فقط ؟ أليس هذا مصادمة لقياس الاولوى عند كل مائل ؟

ولندع هذا الآن ولقل : ألم يبلغكم - وهو في إنجيل لوقا - أنه قال : « إنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف يقبلوني » ؟ فصرح بأنه من الانبياء عليهم السلام . وفي إنجيل متى :

أن رجلاً أقبل على المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح : أى خير أصعب لآمال الحياة الدائمة ؟ فقال المسيح : « لم قلت لى صالحاً ؟ إنما الصالح هو الله وحده » . وإذا كان لم يرض أن يلقب صالحاً فهل يسبح المنطق أنه يرضى أن يلقب إلهاً مع تصريحه بأنه غيره ؟ وفى الإنجيل أيضاً . أن اليهود لما أرادت القبض عليه رفع بصره الى السماء وقال : « قدما الوقت يا إلهى فشرفى اليك واجعل لى سبيلاً » . وفى إنجيل لوقا أنه حين ما أحيا الميت بمدينة « نائيم » عندما راح أمه لشدة حزنها عليه فقالوا : إن هذا لنبى عظيم . وهو تصرع بنوته لا يقبل الجدل . وفى إنجيل يوحنا : أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئاً لكننى أحكم بما أسمع لأنى لست أعتقد إرادتى بل إرادة الذى يعنى » . فهل ترى أصرح من ذلك فى الاعتراف بأنه عبد مريب قد بعث من قبل سيده ؟ وفى إنجيل يوحنا : أنه أعلن صوته فى الهيكل وقال لليهود : « إناى لم آت من ذاتى ، ولكن يعنى الحق وأنتم تجهلوننى ، وأنا أعلم أنى منه وقد يعنى » . فها هو ذا قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود ، وقال إنه لم يأت من نفسه ولكن الله بعثه ، فما زاد فى دعواه شيئاً على ما ادعاه غيره من الأنبياء عليهم السلام . وفى إنجيل يوحنا : أنه قال لليهود : « إن كنتم بنى إبراهيم فافقروا أثره ولا تريدوا قتلى ، وما قلت لكم إلا الحق الذى سمعته من الله » قالوا : لسنا أولاد زنا إنما نحن أبناء الله ، فقال : « لو كنتم أبناء الله لحفظتمونى لأنى رسول منه خرجت مقبلاً ولم أقبل من ذاتى ولكن هو يعنى لكنكم لا تقبلون وصيى وتحتزون عن سماع كلامى ، إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته » . وفى إنجيل يوحنا : « أنه كان يعشى فى ديوان سليمان فأحاطت به اليهود وقالوا له : الى متى نحفى أمرنا ؟ إن كنت المسيح الذى منتظره فأعلننا بذلك » . ولم يقولوا : إن كنت الله ، لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك ولا اختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه هو إنسان نبى وليس إله كما تزعمون . وفى إنجيل يوحنا : « أن اليهود قالوا لكبير من أحبارهم (نقود مشى) : « اكشف الكتاب ترأه لا ينجى من الجليل نبى » فإذ قالت اليهود ذلك إلا وقد أزل لهم نفسه منزلة نبى فقط ، ولو علمت منه ادعاء الألوهية لشتموا عليه وهاجوا عليه العامة تقبيحاً له ونحريراً على قتله . وفى إنجيل يوحنا الأصحاح ٨ العدد ٤٠ « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله » . فاعترف بأنه إنسان يسمع من الله ، ولم يقل إنه هو الله . ورسالة تيموثاوس الأولى الأصحاح الثانى العدد ٥ : « لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح » . وفى إنجيل يوحنا أيضاً : « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى الى الآب لأن أبى أعظم منى » . وفى إنجيل متى : « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم وقال إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ أى

إلهي إلهي لما تركتني . وفي صحيفة ٥٠ أيضا « صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » .
وفي الإنجيل لوقا ما نصه : « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : يا أبته في يديك أستودع روحي » .
وكثير من هذا في الإنجيل يطول ذكره . ولو تتبعنا كل ما جاء في ذلك لظال المقال
واتسع المجال . ولست نعلم في أن هذه النصوص تنفي ألوهية المسيح رأسا وتقتلع جذور تلك
العقيدة اقتلاعا ، فإنه لا ريب أنك إن سمعت تلك بالانقياد إلى الحق وحملت لباس الهوى
أيها المسيحي المصنف ، علمت أن ذلك من أول البدهيات وأوضح الواضحات .

ويمكننا بعد هذا أن نناقشكم معشر النصارى في عقيدة الصلب أيضا مستبدئين إلى العقل
من كتبكم ، محتكين إلى ما يقضى به الدليل الواضح والمنطق الصحيح ، فنقول :

جاء في إنجيل لوقا . « أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويهوذا
وبوخنا ، فبينما هو يصلي إذ تغير منظره مما كان عليه ، وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا
بموسى بن عمران وإليها قد ظهرا له وجاءت سجدة فأظلمت ، فوقع النوم على الذين معه » . فأى
مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع في اليوم الذي طلبته فيه اليهود ، ولكن اختلفتم في نقلها
كما اختلفتم في نقل غيرها ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام ونظيل السحابة ووقوع النوم
على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلا واضحاً على الرفع إلى السماء وعدم الصلب ، وإلا فلا معنى لظهور
هذه الآيات . وثانيها ما في إنجيل متى . « أن المصلوب قد استسقى لليهود فأعطوه خلا مزموجا
بعر فذقه ولم يشربه ، فنادى إلهي إلهي لم خذلني » ؟ مع أن الأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه
السلام كان يطوى أربعين يوما وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ . إن لي طعاما لستم تعرفونه .
ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وأربعين ليلة ، لا يظهر الحاجة للماء بسبب عطش يوم
واحد . وقد جاء في النوراة أن الله خلق جميع ما للحية في عصا موسى عليه السلام ، وذلك
أعظم من إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر . وإني أعجب لمن يصدق أن الله قلب المصاحبة تسمى ،
وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، إلى غير ذلك من خوارق العادات التي كانت للأنبيا ،
كما في النوراة والإنجيل كقلب الماء خرا مشلا ، كيف لا يصدق أن الله ألقى شبه عيسى
على غيره بعد أن رفعه إلى السماء ؟ ولا شك أن الالتباس القوي وقع لليهود عند أخذه حتى
دلم عليه أحد تلاميذه وقال لهم . الرجل الذي ألقاه فاسكوه ، وقال له رئيس الكهنة :
أستحلفك بالله الهي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ لا شك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك
الشبهة العظيمة نحو ثلاثين سنة في المحاورات العظيمة والمجادلات العسيفة كلها تدل على وقوع
الشبهة قطعا ، خصوصا أن في الإنجيل أنه أخذ في حديد من الليل مظلم من لستان ، فقهرت
صورته ، وغيرت محاسنه ، بالضرب والسحب وأنواع النكال . ومثل هذه الحالة توجب
الالتباس قطعا ، فمن أين لكم أو لليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى عليه السلام ؟

والحق الذي لا مزية فيه هو أن الأمر على ما قال الله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما . وفي الإنجيل أيضا أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود في صلبه فخرج إليهم عليه السلام وقال لهم : من تريدون ؟ قالوا : يسوع ، وقد خفي شخصه عنهم ، ففعل ذلك مرتين ، إلى آخر ما لا يطيل به . ولنقف هنا اليوم وموعدا العدد الآتي إن شاء الله .

يوسف الرمهي

عضو جماعة كبار العلماء

فضل الادب على صاحبه

قال أكنم بن صبي حكيم العرب : الرجل بلا أدب شخص بغير آلة ، وحسد بلا روح . وقال الأحنف بن قيس سيد بني حنيفة ، ومن أخص أشياح علي بن أبي طالب : لكل شيء دؤابة وذؤابة الشرف الأدب .

وقال أعرابي لولده : عليك بالآداب فانه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه في مجالس الملوك . وقال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لبنيه . تأدبوا ، فان كنتم ملوكا برتم ، وإن كنتم أوساما فقمتم ، وإن أهرؤكم المماش عشم . استفيدوا من الأدب ولو كليلة واحدة .

وقال أعرابي : تعلموا الأدب فانه زيادة في الفضل ، ودليل على العقل ، وصاحب في الغربة ، وأيسر في الوحدة ، وجمال في المحافل ، وسبب إلى درك الحاجة .

وقال أمير المؤمنين المأمون : والله لأن أموت طالبا للأدب ، خير من أن أموت قائما بالجهل .

وقال الخليل بن أحمد : من لم يكتب بالآداب مالا ، اكتسب به جمالا .

وقال الشعبي : الأدب للفقير مال ، وللفني جمال ، ولحكيم كمال .

وقال شاعر وأحسن :

كن ابن من شئت واكتب أدبا يقتيك عموده عن النسب

السِّيَرَةُ

شجاعة المسلمين الأولين

في قتال الأعداء

عن أنس رضي الله عنه قال : « غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتُ المشركين ، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أ صنع ! فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إني أعوذُ اليك بما صنع هؤلاء ، يمني أصحابه ، وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء ، يعني المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ : الجاهُ وربُّ النضر ! إني أجد رجحاناً من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدناه بضماً وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببيانه . قال أنس : كننا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنههم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » . رواه البخاري .

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) معناه . (٢) حب التضحية وآثاره في المسلمين الأولين . (٣) بيان أن التمسك بالسنة الطبيعية التي سنّها الله تعالى أمر لازم لا بد منه .

(١) معنى الحديث : هو أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك راوى هذا الحديث ، لم يشهد قتال بدر ، وهو أول قتال وقع للنبي صلى الله عليه وسلم مع مشركي مكة ورءوسهم ، فكان أنس بن النضر يمد ذلك خسارة عظيمة أصابته في حياته ، وكان يتمنى أن يهيئ الله له فرصة أخرى تمكنه من الجهاد في سبيل الله ليستبض بها مما فاتته من حضور قتال بدر . وقد هرب عن هذا المعنى بقوله : « يا رسول الله : غبتُ عن أول قتال قاتلتُ المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أ صنع » . وهذه العبارة تنطوي على معنيين عظيمين . أحدهما : أن هذا الرجل العظيم قطع على نفسه عهداً لله ولرسوله أن يقوم بجهاد المشركين بكل ما يستطيع من بأس وفوة عند أول فرصة يشهد فيها قتال المشركين . ثانيهما : أنه وقف في عهده عند الحد الذي يستطيع أن يفعله بدون غرور أو تهور . ومع هذا فإن عبارته تدل على عزم ثابت وإرادة جازمة لا تردد فيها ، فهو يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقيتُ

بالمشركين في ميدان القتال فلا بد من أن أفعل كل ما في وسعي من التكيل بهم ، والقيام بما يحب على من نصرته الله ورسوله .

وقد استجاب الله له أمنيته ، فأشهدته معركة أحد بعد ذلك ، ولكن من سوء الحظ أن المسلمين في هذه المعركة قد انهزموا بعد أن انتصروا في أول أمرهم ، لخالفتهم أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كما سنبينه بعد . فلما رأى أنس بن النضر وهم منهزمون لم تكن هزيمته ، ولم يشكك بعنده الذي قطعه لرسول الله ، فصر على منازلة الأعداء ، والنيل منهم بكل ما يستطيع من حول وطول ، وهو موقن بأنه صائر إلى القناء لا محالة ، وأنه سيلقى حتفه بلا ريب ، ولكنه لم يبال بكل هذا ما دام فيه بر بعنده وحرصاً لربه ، ووفاء لأمته ونصرة لعقيدته ، بل قد تبدل في نظره الحال فرأى في إقدامه على الموت سعادة خالدة ، ولذة محبة ، ولذا قال لسعد بن معاذ وهو في هزيمته : « يا سعد : الجنة ، نى أجدر يربحها من دون أحد » ، وأقسم له على ذلك برب النضر ، ويريد بالنضر أباه ، أو ابنه ، لأنه كان له ولد اسمه النضر . وهذه العبارة التي قالها أنس بن النضر لسعد بن معاذ تدل على إيمان أنس الجازم بأن الموت في سبيل الله يفضى لا محالة إلى رسوان الله عز وجل ، والتمتع بنعيم الجنة الخالدة الذي لا يفنى ، كما وعد الله به الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون . على أن بعض الدارين يقول : إن صدق إيمان أنس قد ذهب به إلى الاحساس بنعيم الجنة فعلاً ، فصار يتم راحة نعيم الجنة حقيقة حال جهاده . وعلى كل حال فإن هذا الرجل العظيم كان أحسن قدوة لمسلمين في التضحية ، وبذل النفس في سبيل الله ، والوفاء بالعهد ، بل هو مثل كابل لقرة اليقين ، والصبر على المسكاره ، والجزم بأن نعيم الحياة الدنيا زائل مهما طال مدته ، فالؤمن حقاً هو الذي يعمل للحياة الناقية الدائمة ، والنعيم الخالدة الذي لا يفنى .

ذلك هو اعتقاد أنس بن النضر رضى الله عنه ، وتلك حالته النفسية التي دفعته إلى أن يخاطر نفسه لينال من الأعداء بقدر ما يستطيع كي يفي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعنده ، وليس هو وحده الذي كانت تتحل في هذه الروح المنظمة ، روح الاخلاص والتضحية ، بل كان معظم أصحاب الرسول على هذا الحال ، فكانوا لا يبالون بمعارفة الحياة ولذتها ، بل كان كثير منهم يحتقرها ويهجرها عمداً ، وكان كثير منهم يتمنى الموت في سبيل الله كي ينظر بما اشتاق إليه نفسه من مرضاة الله عز وجل ، والاستمتاع بالنعيم الخالدة الذي لا تشوبه متاعب الحياة الدنيا وآلامها ، وكانوا يقولون : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وها نحن أولاء قد بعنا أنفسنا لله تعالى بهذا النى العالى ولم نقبضه بعد ، فحق تهيب لنا القوس الاستمتاع بقبضه ؟ وهذه العقيدة الجليلة هي التي كانت تدفعهم إلى منازلة الأعداء الأقوياء بدون مبالاة ، فكانوا لا يتهيبون عدواً ولا يخشون قناء ، ومن أجل ذلك كتب الله لهم الفوز على أعدائهم من المشركين وغيرهم من الأمم التي كانت أكثر منهم عدداً ، وأقوى منهم سلطاناً ، بل كانوا لا يحسبون إلى جانبها شيئاً ما ، وذلك جزاء العاملين المخلصين .

ومن لطيف ما نقل عن أنس بن الضمر في هذا الحديث قوله : « اللهم إني أعترض إليك بما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المشركين » فإن هذه العبارة تدل على أن هذا الرجل العظيم صابط لمألفته ، حافظ لسانه في كل ما يقول ويفعل ، فلم يروعه هول الموقف ، ولم تسفزه هزيمة أصحابه إلى الخروج عن التؤدة والبر ، فاعتذر إلى الله تعالى عن هزيمة أصحابه المؤمنين لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخروج عن السنن الإلهية التي أمر الله باتباعها ؛ ويرى إلى الله من صنيع المشركين واستمساكهم بالباطل ، وطفيلانهم على الحق الواضح الذي فيه سعادتهم وسعادة المجتمع الانساني ، فقال في هذا الموقف المخرج الدقيق : اللهم إني أعترض إليك مما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه من المسلمين الذين اهزموا في وقت كان يمكنهم أن ينتصروا فيه لصرا مينا لو لم يخالفوا أمر الرسول ، وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ، يعني المشركين الذين يحاربون الله ورسوله ومن والاهما من المؤمنين .

فانظر إلى هذا الأدب الحميم ، وهذه المسكارم المالية ، والغيرة على حقوق الصعبة في الله حتى عند هذوذ الأصحاب وخروجهم مما هم مكلفون به من الثبات للأعداء والصبر على مقارعة الأهوال ، فإن هذا الرجل العظيم يعتذر إلى الله عنهم فيما أتوه من مخالفة . وانظر إلى عبارته التي قالها لأعدائه في أخرج المواقف وأدقها ، فلم يسب ولم يقذف ، ولكنه تبرأ منهم إلى الله عز وجل خالقهم لإمعانهم في محاربة الحق الذي هو في الواقع سعادة لهم وللمجتمع الانساني ، فقال : وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المشركين . ثم هجم على أعدائه وهو يضرب فيهم ذات الجبين وذات الشمال ، وسعد بن معاذ ينظر إليه ويعجب من تكيله بالمشركين المنصورين ، حتى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما استطعت يا رسول الله أن أحصى ما صنع أنس بالمشركين .

وقد يقال : إن عمل أنس هذا عاطرة قد لا يقرها الدين الاسلامي ، لأن الله تعالى قال : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والحواب أن معنى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » : لا تهملوا وسائل الدفاع عن دينكم ووطنكم ، ولا تصنوا بالاتفاق في سبيل الله فيتمكن منكم العدو ويهلككم بالتسلط عليكم ماديا وأديبا . ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في صدر هذه الآية : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فإن الشح وعدم الاتفاق على كل ما يلزم لقتال الأعداء موجب لتهلكة لا محالة . ولذا فرض الدين الاسلامي على المسلمين الاستعداد لقتال الأعداء بكل الوسائل الممكنة ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ومن هذا تعلم أن عمل أنس رضي الله عنه وأمثاله لا يتسبب عنه تهلكة الأمم ، بل حياتها ، لأن العدو الذي يرى رجلا واحدا يصرب فيه ذات الجبين وذات اليسار وقت هزيمة قومه ، لا بد أن يشعر بوجل وخوف مما عساه أن يكون في القوم كثير من أمثال هذا ، وذلك هو

الواقع ، لأن المشركين كانوا يعلمون أن انتصارهم هذا مؤقت ، وأن المؤمنين لا بد أن تعود إليهم شجاعتهم ، ولا بد أن يرتبوا صفوفهم بعد هذا ، ثم يمددون لهم ، ولهذا وقفوا عند هذا الحد ولم يستطيعوا أن يتقدموا إلى ديار القوم . ثم كانت للعسكدين الغلبة التامة عليهم بعد ذلك ، فأبادوا الشرك من شبه جزيرة العرب جميعها ، وأصبحوا من أقوى الأمم بطشا ، وأعظمهم شأنًا .

(٢) مما لا شك فيه أن قلوب المسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت تنطوي على الغيرة الشديدة على دينهم وكرامتهم ، فكانوا لا يدحرون وسعا في الذود عن الواجب وتأيد الحق مهما كلفهم ذلك من التضحية في الأموال والأنفس ، بل كانت الضحايا التي يبذلونها في ذلك السبيل لا تؤثر في أنفسهم أدنى أثر ، فلم تكن لهم عريضة في أي موقف من المواقف ، ولم تضعف لهم إرادة ، ولم تنفتر لهم قوة ؛ بل كانوا يستعذبون الموت وبذل الأموال في سبيل الله . وذلك كان من أجل أمانتهم وأكبر لذاتهم . ولهذا لم تزلهم الكوارث ، ولم تنزعهم المواقف ، فنصروا دين الله القويم المشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحسان وصلة الأرحام ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وحاربوا الإغلاء كلته فأعلى الله قدرهم ، ودانت لهم رقاب أعدائهم ، وخضعت لشوكتهم الجبابرة ، وأصبحوا سادة أهل الدنيا ، ولهم في الآخرة أحسن الجزاء .

ذلك كان شأن المسلمين الأولين ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول : « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتحلفوا عني ، ولا أجد ما أحلهم عليه ، ما تخلفت عن مرية تغزو في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » . ورواه البخاري . ومعنى هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يمتنى أسرين : أحدهما . أن يذهب مقاتلا مع كل جماعة سواء كانوا قليلين أو كثيرين ، لأن السرية من الجيش أكبر عددها أربعمائة . ثانيهما : أن يقتل في سبيل الله شهيدا ثم يحيا بعد هذا ويقاتل في سبيل الله فيقتل شهيدا ، ثم يحيا فيقتل الخ . ولا يمنعه عن الذهاب مع كل جيش إلا ضرورة تخلفه مع قوم من أصحابه لا يستطيعون الغزو ولا تطيب أنفسهم بمعارفته ، وليس عنده من معدات الحرب يومئذ ما يكفي لحملهم وتجهيزهم ، فكان لا يخرج إلا في المواقف الكبيرة التي تستلزم خروجه .

ذلك كان شأن المسلمين الأولين في مقارعة الأهوال ومصارعة المبطلين ، وما زالوا على هذه الحال حتى مكن الله لهم من عدوم قبيدوا شمله ، وقضوا عليه ، وأصبحت كلمة الله هي العليا . ولقد كان الله عليا بما تكنه قلوبهم من الشجاعة ، وحب التضحية في سبيل الحق ، ففرض عليهم يومئذ أن يقوم الواحد منهم بإراء عشرة من المقاتلين المشركين ، بحيث لا يجوز له أن

ينهزم إلا إذا زاد العدد على ذلك ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ومعنى هذا أن الله تعالى العليم بأحوال خلقه وما يناسب كل حالة بحسب اختلاف الظروف والأحوال ، شرع لكل حالة ما يناسبها . فالمسلمون في أول أمرهم كان عددهم قليلا لا يكاد يذكر بجانب أعدائهم الكثيرين الذين يصدون عن سبيل الله بكل ما لديهم من حول وقوة ، فكان المناسب لهذه الحالة أن يكون لدى المسلمين من القوة المعنوية ما يضاعف المزيمة والثبات ، وتحصيل جميع الوسائل الممكنة التي تجعل الواحد منهم مقام عشرة من أعدائهم . ولما كان هذا شاقا في المادة ويكاد يكون غير ممكن ، هوّن الله عليهم الأمر فقال لهم : إن الكافرين قوم لا يفقهون ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدركون معنى الفصائل الإنسانية ، فهدر بالمؤمنين ألا يخافوا بأنفسهم ، وأن يسوقهم أمامهم كما تساق الحيوانات التي لا تفكر ، ومع هذا فقد وعدم الله بأنهم إن امتثلوا وأطاعوا الله ورسوله فإنه ينصرهم على أعدائهم . ويؤخذ ذلك من قوله تعالى : (يَغْلِبُوا مِائَتِينَ) فإن معنى هذا : إذا ثبت الواحد منهم لعشرة فإن الله ينصره عليهم ، ويظهرهم .

هذا هو الذي كان يناسب المسلمين في أول أمرهم ، وقد تلقوا ذلك الأمر بالطاعة وبذل أقصى ما يستطيعون بذله من تنفيذه ، فكان الله تعالى دائما معهم ينصرهم على أعدائهم كلما اشتبكوا معهم في قتال ، فلما كثر المسلمون خفف الله عنهم ، وفرض عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنتين من أعدائهم فقط ، فقال لهم : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا » . ومعنى هذا أنكم وأنتم في قلة كنتم أقوى منكم وأنتم في كثرة ، لأنكم في الحالة الأولى كنتم تعتمدون على القوة المعنوية وحدها فلا تهايون خصمكم مهما كان كثير العدد . أما في الحالة الثانية فقد أعجبكم كثرتكم فلم تكن عنكم شيئا ، فلهذا تغير تعلق علم الله بتغير أحوالكم ، وتعلق بحالة الضعف العارضة لكم ، فشرع لكم ما يناسبكم . على أنكم على أي حال تمتازون بعبادة الله وتفارقةكم أبدا ، وهي الإيمان بالله ورسوله ، فلم تكونوا كغيركم مهما كان عددهم ، فليكن الواحد منكم كاثنتين من الكافرين .

هذا كان حال المسلمين الأولين الذي مرتوا عليه ، فأصبح لازما لهم لا يفارقهم في معركة من المعارك ، ولا يفك عنهم في شأن من الشئون الحربية ، فأصبح حب التضحية ملحة لهم . وكان من آثار ذلك أن هزموا جميع أعدائهم ، وأصبحوا سادة الدنيا .

(٣) من يقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حروبهم مع المشركين والظالمين ،

لا يسمه إلا أن يحرم بأن الله تعالى كان يؤيدهم بمجنود حارجه عن قوتهم ، كما وقع في معركة بدر وفي معركة الأحزاب وغيرها ، وذلك لأن المسلمين يومئذ لم تكن لديهم القوة السكاكية لمقاومة أعدائهم الذين يريدون القضاء عليهم بكل الوسائل . ومع هذا فإن الله سبحانه أمر المسلمين بالتمسك بكل وسائل القوة الممكنة ، ليكونوا مثالا لمن يأتي بعدهم من المؤمنين ، لأن الله سبحانه وتعالى قد أقام هذا العالم على نظام دقيق يحكم ، فجعل لكل شيء سبباً لا يخرقه إلا عند الضرورة الملحة ، كما هو الحال في معجزات المرسلين . أما ما وراء ذلك فإن الله تعالى قد أمر عباده المؤمنين بأن يحتاطوا لجميع الطوارئ ، وأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة .

وقد ضرب الله تعالى الامم الإسلامية مثالا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة أحد التي قتل فيها أس بن النضر المذكور معنا في الحديث . وملخص الحادثة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قاد الجيش يومئذ نفسه وقسمه الى قسمين : قسم يحمى ظهور المحاربين المسلمين فلا يرحون مكابهم ، وقسم يهاجم المشركين ويقاثلهم . وأمر القسم الأول بالأبترك موقفه حتى ولو انهزم المسلمون . فانتصر المسلمون على المشركين بالقسم المحارب ، وغر المشركون أمامهم ، فمات أكرم القسم الذي وقف ليحمى ظهور إخوانه المسلمين قد انهزموا ، ورأى إخوانه المسلمين منتصرين ، فقلب عليه حب المشاركة في اقتسام الغنائم ، وترك موقفه الذي يحمى ظهور إخوانه ، فذكر عليهم المشركون المهزومون من وراء ظهورهم ، وأخذوا يضربونهم ، فانهزموا وغرؤا ، ولم يؤيدهم الله تعالى في هذه الحالة ، لأنهم خالفوا أمر الله تعالى ، وخالفوا السنن الطبيعية التي ينبغي الاستمسك بها دائما . فكان ذلك درسا قاسيا لهم ولمن يأتي بعدهم من المسلمين الذين أهلوا سنن الله تعالى واستمسكوا بما لا يقره الدين ؟

عبد الرحمن الجزيري

ما قيل في انتهاز الفرص

قال سالم الأنباري :

تمتع من الدنيا بساعتك التي ظفرت بها ما لم تملك الموائع
فما يومك الماضي عليك بمائد ولا يومك الآتي به أنت وائق

ولكن هذا الأمر الذي يسوغ في نظر سالم الأنباري ، لا يسوغ في نظر أبي الطيب

المنذبي حيث يقول :

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأى سرور لم يشبه هذا اليقين ، الصحيح أن الدنيا دار جد وعمل ، لا دار لهو وكسل .

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

- ٩ -

على بن أبي طالب

تاب الناس الى عقولهم بمد تلك النوبة الحنونية التي عصفت بهم فأضلت أحلامهم ، وأدركوا مغبة الفتنة وسقط في أيديهم ، وأصبحوا وقد زلزل الخزع أممهم ، وتلفتوا فإذا نظام الأمة قد انقرط ، وعقدها قد انحمل ، وإذا أمرها صار الى العوضى ، ولم يبق للقادة مخلص من الأخذ بزمام الرأي لتلا يقبض عليه الثائرون من أوشاب الناس الذين تجمعوا من أطراف البلاد وأشعلوا نار الفتنة حتى انتهت الى شرافة وأشأم نهاية .

أسرع بالناس الخوف مما صار اليه أمرهم الى التشاور ، فلم يجدوا في الأمة كلها من يستقيم في كفة ميران معريب البوة ورضيع الاسلام وحضين الوحي « أبي الحسن » رضي الله عنه ، فأجمعوا على بيعته ، فأبى عليهم ، ورد الأمر لأهل الشورى وأهل بدر ، وهؤلاء هم قادة الأمة ورؤسها المفكرة الذين يرمون أمر الامامة للكبرى والخلافة العظمى ؛ ولم يكن امتناعه كرم الله وجهه من قبول البيعة إلا لتقديره للأخطار التي يستهدف لها مستقبل الأمة في نايأ هذه الأعاصير ، ولكنهم أكثروا عليه وخاشعوه ، وكان أشدم عليه صفيه « الأشتر العضي » ، فلم تصادف شدتهم منه إلا صلابة وإباء ، وقال لهم : « دعوني واتسوا غيري ، فإننا مستقبلون أسرا له وحوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أظلمت ، والمهجة قد تنكرت ، واعلموا إن أحببكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ الى قول القائل وعنب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعل أممكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميرا » .

أبى الناس عليه إلا قبول البيعة ، وألجأوه إلجاء وصفه بقوله : « وبسطم يدي فكففتها ، ومددتوها فقبضتها ، ثم ندا ككتم على تذاك الابل الهيم على حياضتها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء ، ووطى الضميف ، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير ، وهدج اليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت اليها الكعاب » . قبلها وهو يعلم ما تحمل في طياتها من فتق مبيدة ، وعظام مبيدة ، فغلب بها ، وشمر لها على مصص ينقش في قوله : « ذمتي بما أقول رهينة ، وأما زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حذرتة التقوى عن تقحم الشبهات . ألا وإن بليتكم قد طادت كهيئتها يوم نعت الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذي بعثه بالحق تسليبا بليبا ، ولتفرطن غربلة ،

ولتساكن سوط القدر حتى يمود أسفاسكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن ساقون كانوا قصروا ، وليقصرن ساقون كانوا سبوا ، والله ما كنتم وثمة ولا كذبت كذبة ، ولقد بئت بهذا المقام وهذا اليوم ! ألا وإن الخطايا حيل فحس حمل عليها أهلها وخلعت لجها ، فتفجعت بهم في النار ، ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمها فأوردتهم الجنة . حق وباطل ، ولكل أهل ، فلئن أسر الباطل لقد بما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولعلما أدبر شيء فأقبل .

بركان من الفتى انفجر على الأمة الإسلامية ، على عهد خلافة أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فهذا معاوية وأهل الشام قد شقوا عصا الطاعة ، وامتشقوا السيف في وجه الخلافة العلية زاهمين أنهم يطلبون دم عثمان رضى الله عنه .

وهذه طائفة أم المؤمنين رضى الله عنها زور عن أمير المؤمنين لطبيعة ما يكون بين الإجماع ، وعن عيبتها الزبير بن العوام ، وعن يسارها طلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما ، وبين أيديهم جميعا شباب من أساء المهاجرين والأنصار ، يحف بهم أحلاط من الأعراب الذين يندفعون وراء كل ماعق ، كثرة لا يحصيها العد ، خرجوا يقولون الناس لحرب على وأصحابه ، وهؤلاء أهل العراق جند أمير المؤمنين وحاصته لأسر ما تخادوا عنه وعن الجهاد في ظل رايته ، طوائف اعتصمت بالباطل فاحتجعت عليه ، وطائفة انتثرت حول الحق مدعورة حائرة ، ضاق بها أمير المؤمنين ذرعا ، ورواهم بقارس القول وقاصمة الظهر ، فلم يرمعوا عن حالهم حتى يرم بهم ، وأعلن لهم عن ذات نفسه ، خطبهم يوما قائلا : « أحمده الله على ما قضى من أمر ، وقدر من فعل ، وعلى ابتلائى بكم أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطلع ، وإذا دعوت لم تجب ، إن أمهاتم خضتم ، وإن حورنم خرتن ، وإن اجتمع الناس على إمامكم ملتمن ، وإن أحنتم إلى مشافة بكمتم ، لا أبا لغيركم ما تنتظرون نصركم ربكم والجهاد على حقكم ، الموت أو الدل لكم ، فوالله لئن جاء بوى - وليأتينى - ليفرقن بينى وبينكم ، وأنا لكم قال ، وبكم غير كثير ، فله أتم أما دين يجمعكم ، ولا حمية تشجركم ؟ أوليس محببا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فينبعون على غير معونة ولا عطاء ، وأنا أدعوك وأتم تريكة الاسلام ونقية الناس إلى المعونة وطائفة من المطاء فتتفرقون عني وتحلفون على ؟ إنه لا يخرج اليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا سحق فتحنمون عليه ، وإن أحب ما أنا لاق إلى الموت ، قد دارسكم الكتاب وفتحكم الحاج ، وهرفتكم ما أسكرتم ، وسوفكم ما مجحتم ، لو كان الاممى بلعظ أو السائم يستيقظ ؟ »

ومن وراء ذلك كله الخوارج ، وهم أشد الطوائف مراسا وجبا للموت ، خرجوا يعينون في الأرض فسادا ، يحاجون ويحتجون ، فكأنما الدنيا بأهلها وزخرفها ومطامعها في كفة ، وأمير المؤمنين في صراحته وزهادته وتقواه وخاصة أهل وأصحابه في كفة ، حق

مسلوب ، وباطل منصور ، وبأس قائم ، وحند متخاذلون ، وعدو متكاثرون ، وحروب يثيب لهاها الوليد ، ومع ذلك كله فقد كانت كفته راجحة في حروبه لما رزقه الله من الصبر والحكمة ، وقد نفس عن صدره مرة فقال : « فنظرت فإذا ليس لي معي إلا أهل بيتي ، فصمت بهم من الموت ، وأغضيت على القذى ، وشربت على الشجى ، وصبرت على أخذ الكفلم ، وعلى أمر من طعم العلقم » .

كتب إليه أخوه عقيل بن أبي طالب كتابا يصف فيه ما تراهي إليه من حال الناس معه وتفرقهم عنه ، ويعرض عليه نفسه وولده وأهل بيته ، فرد عليه أمير المؤمنين بكتاب هو ثقتة من الألم المعض يقول فيه : « ودع عنك قريشا وحلهم وتركاشهم في الضلال ، وتجوالم في الشقاق ، ألا وإن العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العدو ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كل الجهد ، وحروا إليه جيش الأحزاب ، ألهم قاجر قريشا عن الجوازي ، فقد قطعت رحى ، وتظاهرت على ، ودفعتني من حق ، وسلبتني سلطان بن أمي ، وصمت ذلك الي من ليس مثلي في قرأتي من الرسول وسانقتي في الاسلام ، لا أن يدعى مدع ما لا أمرفه ، ولا أعلن الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال » !

في هذه الكلمات ما يلفت نظر الباحث الى بعض المهمات في قضايا التاريخ الاسلامي ، فهي أولا مبرجة في أن العرب وفي طليعتها قريش لم تكن لتطوى على الولاء والاخلاص لآل البيت عامة ، وعلى وأبنائه من فاطمة خاصة ، وقد نستطيع أن نجد تعليل ذلك في الطبيعة العربية الميوفة من التبعية والانتقاد ، الجبولة على اعتبار النار أول شعارها ، ولقد كانت تضرب قريش في جاهليتها بهذا المعنى بين بيتين من بيوتها ، فلما نفذ الله قضاءه بالنسوة في خيرها تفخ الشيطان في أسفار العيشمين فاستكبروا أن يستجيبوا لله ولرسوله الهاشمي ، حتى دارت الدائرة ، وظهر الله نبيه وحكه في رقاهم ، فن عليهم فضله ، فسكانوا من الطلقاء يوم الفتح الأكبر وهذه واحدة ، والثانية : أن دماء غطارقتهم إنما سالت على غلبا سبني على وحزة البطلين الهاشميين ، وقد أخذوا من حمزة رضى الله عنه ما شفى بعض غلتهم ، وظل على كرم الله وجهه سيدا مبعلا في الاسلام لم يتمكنوا منه بشيء ، فلما جاءت الخلافة بعد النبوة ، وليس لها من حصانة الدين وقد استه ما لثبوة ، اهتملواها فرصة ، وكاد بعض من تبرجت له الدنيا كيد له على وآله ، وهذا ما يكشف عنه كلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عباس في حوارهما . « لقد حمدكم قومكم أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة » .

وهي ثانيا تصور لنا نظرة الهاشميين للحكومة في الاسلام ، فهي عند سلطان ورائي لا يصح أن يذهب لغريم ، وهذه نظرية دار عليها موقف الهاشميين في جميع أدوار التاريخ ،

والاسلام لا يعرف الوراثة في الحكم ثمة ، وإنما ينظر الى صالح الأمة . وإذا كان قد ورد : « الأئمة من قريش » فهذا مقيد بصلاحياتهم لهذا الأمر ، فإذا اجتمعت الصلاحية والقرشية كانت نهاية ما يقصد الفارع من الحكومة الاسلامية . ونحن نلمح من كلام أمير المؤمنين هذا المعنى ، لأنه أضاف خصائصه وسوابقه الى قرابته .

ونقد كان على كرم الله وجهه من أتخذ الناس بصيرة ، وأعلمهم بمصادر لأمور ومواردها ، استشاره عمر بن الخطاب في خلافته أن يشخص لقتال الفرس بنفسه فقال له : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أطهره ، وجنده الذي أعدده وأمدده ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حينما طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وباصر جنده ، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخمرز يجمعه ويصمه ، فإذا انقطع تفرق الخمرز وذهب ثم لم يجتمع بخذافيه أبدا ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالاسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكأن قطبا واستدر الرحي بالعرب ، وأصلهم دويك نار الحرب ، فإني شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من الموراث ثم إليك مما بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب فإذا اقتطعتهموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلمهم عليك وطمعهم فيك »

فانظر الى قوله : ومكان القيم بالأمر الخ ، وإلى قوله : فكأن قطبا واستدر الرحي بالعرب الخ ، وإلى قوله : إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا الخ ، نجد نوعا من السياسة الحكيمة الصادقة ، في غير مخادعة ولا مجانبية للحق ، وهذه هي دعائم سياسته في حروبه وخلافته منفصلها ونبين وجهها وما كان لها من أثر في توجيه الأمة توجيها طائلا لو أخذت به لاستقامت على الحادة ؟

صادق إبراهيم عرجون

مذهب التشاؤم لدى الادياء

قال ابن الرومي :

أيت من دهرى ومن أهله فليس فيهم أحد يرتضى
إن رمت مدحا لم أجد أهله أو رمت مجوا لم أجد عرضا

وقال هو نفسه :

قيل لي لم دمت كل البرايا وهجوت الأنام هجوا قبيحا
قلت هب أنى كذبت عليهم فأروني من يستحق المديحا

ونحن نريهم إياه : هم الذين مدحهم وبألف في الاشادة بهم . . .

التجديد في الاسلام

— ٨ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوي شريف

المجددون في الاسلام

في القرن الثاني الهجري

الامام أبو حنيفة ، الامام مالك ، الامام الشافعي ، الامام احمد بن حنبل

تمهيد — هل الشريعة الاسلامية أرستقراطية أو ديمقراطية ؟

ادعى بعض الباحثين أن الشريعة الاسلامية أرستقراطية ، واستدل على دعواه هذه بوجود أحكام فيها للرق والأرقاء . ومن حق النظر في هذه الدعوى وجدها غير صحيحة ، وما استدلوا به لا يصح ولا يصلح دليلاً عليها . فان الشريعة القراء المطلقة ، ونصوصها صريحة بأنها ديمقراطية بأنهم معاني الديمقراطية وأوطاها . فان كانوا يريدون من الديمقراطية أنها هي : الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والمعاداة ، فالشريعة الاسلامية لم تترك مطعماً لمستريد في هذه الاشياء الأربعة ، بل هي المثل الأعلى في كل ذلك .

فأما الحرية في الاسلام ، فلكل إنسان أن يفعل ما يشاء ، ويقول ما يريد ، في حدود الشريعة ، بحيث لا يحدث عن هذه الحرية المطلقة أي ضرر ، إذ لا ضرر ولا ضرار في الاسلام . ولقد نوه بالحرية الاسلامية الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لوالى مصر عمرو بن العاص : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ !
وأما الإخاء الاسلامي ، فهو الذي تنشده الانسانية ولا تجد ، وحسبك الإخاء الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار عقب الهجرة النبوية ، فلقد بلغ بالمتأخين حداً لم تعرف الانسانية مثله ، وكان الأنصارى يؤثر أخاه المهاجر على نفسه ، ولو كان به خصاصة . وحسبك الإخاء الذي أوجده الاسلام بين قبائل العرب ؛ فهناك بينهم الاسلامي وجهوا قوتهم المتحدة الى أعدائهم ، فنالوا في زمن قليل ما لم تله أمة قباهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم . ولقد تجاوز الإخاء الاسلامي حواجز الجنسيات ، وحدود الممالك ، فصار المسلم أخا لآخره المسلم بمجرد كونهما مسلمين ، مهما بعدت بينهما الديار ، واختلفت اللغات ، والألوان والجنسيات ، بل تجاوز هذا الإخاء نظام الرقيق ، فمع الاسلام استرقاق

من يدخل في هذا الإغاء، ثم فتح الباب على مصراعيه للتقرب إلى الله تعالى بعنق الرقيق وتحريره، واختلط رقيق الأسرة بها حتى كاد يكون واحدا منها. وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين الأرقاء وساداتهم فقال: «إخوانكم خولكم، حملهم الله تحت أيديكم، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم».

ولما كان الإسلام ديناً عاماً للمجتمع الإنساني، لا الاسلامي فحسب، فقد عني العناية كلها بالإغاء الإنساني العام، وأُنع إلى هذا شيخ الاسلام، الأستاذ الامام المراغي، شيخ الأزهر الشريف، فقال: «عنى الاسلام بالأخوة الانسانية، فقد نبه القرآن الكريم إلى وحدة الاوين الموحدة للتعاون والتعارف والتناصر، والمساعدة عن التناكر والاختلاف والتغافل، ولم يقم وزناً لشرف المولد وكرم الجنس، ووضع معياراً للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل: هو تقوى الله، قال الله تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، وطلب القرآن الكريم إلى المسلمين إحسان معايشة غيرهم من أهل الأديان والمداهب، إلا في حالة العدوان، قال الله تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبرؤم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين». إنعائنها كره الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم، أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون». وقد حمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه، وخلفاؤه من بعده، على وفق هذه المبادئ السامية حتى أتيح الإصهار إلى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة، وعدم منعها من تأدية شعائر دينها». ومن هذا يظهر أن الاسلام بلغ بالإغاء الإنساني العام نهاية الكمال.

وأما العدالة والمساواة، فالشرعية الاسلامية منسهما ومجمعهما، وكما فيها من نصوص أمرة بهما، ناهية عن العمل بغيرهما: خطب النبي صلى الله عليه وسلم، فأنشأ على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فأما أهلكت الدين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ولقد غرس الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الفصائل والمكارم في نفوس المسلمين، ومنها العدالة والمساواة، فكان لها من الأثر في نفوسهم خصوصاً في نفوس الصحابة ما تراه فيما يأتي.

١ - في قول الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «العالم حديقة سياجها الشريرة، والشريرة سلطان يحب لها الطاعة، والطاعة سياسة يقوم بها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق يجمعه الرعية، والرعية سواد يستعبدون العدل، والعدل أساس قوام العالم».

٢ - وفي قوله لما ضربه ابن ملجم، فانه جمع أبناءه وقال لهم: «يا بني عبد المطلب، لا ألعينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً، تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن في إلا

قاتل ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فأضربوه ضربة بضربة ، ولا يمتثل بالرجل ، فاني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إياكم والمثلة ولو بالسكاب العقور » .

٣ — وما تراه في قول أنس بن مالك : « بيننا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد ، إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ! فقال عمر : ما شأنك ؟ قال : ساءت على فرس ابننا عمرو بن العاص ، أسير مصر ، فجعل يقتضى بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمرًا أباه ، فغشى أن آتيك ، فخبسني في السجن فأنفلت منه وأتيتك . فكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا ، فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ؛ وقال للمصري : أقم حتى يأتيك ، فقدم عمرو فشهد الحج ، فلما قضى عمر الحج ، وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص واه الى جانبه ، قام المصري ، فرمى عمر رضى الله عنه اليه بالدرة . قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! قال المصري : يا أمير المؤمنين : قد استوفيت واشتفيت . قال : ضعها على صلعة عمرو ! فقال المصري : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت الذي ضربني . قال : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع ! ثم قال عمر بن الخطاب : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! فجعل عمرو بن العاص يعتف عن هذا » .

٤ — وفيما رواه الثقات : من أنه جاءت عمر بن الخطاب يرود من اليمن ، ففرقها على المسلمين ، فحصل نصيب كل رجل من المسلمين برد واحد ، ثم حصل نصيب عمر كنصيب واحد من المسلمين ، ففصله عمر ثم لبسه ، وصعد المنبر ، فأمر الناس بالجهاد ، فقام اليه رجل من المسلمين وقال : لا سمحاً ولا طاعة ! قال عمر : لم ذلك ؟ قال : لأنك استأثرت علينا . قال عمر : بأي شيء استأثرت ؟ قال : إن الأبراد اليمنية لما فرقها حصل لكل واحد من المسلمين برد منها ، وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد لا يكفيك ثوباً ، وذاك قد فصلته قبيصاً تاماً ، وأنت رجل طويل ، فلو أنك لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قبيص ! فالتفت عمر الى ابيه وقال : يا عبد الله أجبه . فقام عبد الله بن عمر وقال : إن أمير المؤمنين عمر لما أراد تصيل برده لم يكفه ، فناولته من بردى ما نعمة به . فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

فانظر الى روح الديموقراطية في الاسلام في هذا الذي ذكرناه ، تر الشريعة الاسلامية لم تشرع إلا للمعدل المطلق ، والمساواة التامة ، وقد كفل للشرع الاسلامي المعدل والنصفة لكل من نزل على حكمه مسلماً كان أو غير مسلم .

أما ما قيل من إن الشريعة الاسلامية أوستقراطية بدليل أحكام الرق والارقاء فيها ، وغير ما نرد به على هذا ما يأتي :

١ — ما قاله الأستاذ رئيس تحرير هذه المجلة في كتابه : دائرة المعارف للقرن العشرين ،

فانه قال ما يتضمن : « جاءت الشريعة فقررت مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » فجعل التمايز بالمرأى لا بالاعتراء الى الامور الخارجة ؛ وقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح » . وإذا كان الاسلام قد أفر الرقيق على ما كان عليه ، إلا أنه قصره على أسرى الحروب المشروعة ، وعلقه على إرادة أمير المؤمنين ، وحاط الأرقاء بكل أنواع الرعاية والحماية ، حتى قرر القصاص للعبد من الحر . وإعنا أفر الاسلام الرق — في بعض الحالات — لأن حالة العرب إذ ذاك كانت تستدعي هذا الشكل من الحياة الاجتماعية . وقد جرى المسمون على مبدأ المساواة في حكومتهم حتى خرجوا بها الى باحات الديمقراطية المحضة ؛ ويعرف ذلك من قصة حيلة بن الأيهم — ملك غسان — حين لطم أعرابيا ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بأن يقتص منه الأعرابي بلطمة مثلها ، فقال حيلة : أتساوى بين الملوك والصعاليك ؟ فأجابه عمر بأنه لا ميزة لأحد على أحد أمام الشرع الإلهي . فهرب حيلة ، ولحق بالقسطنطينية ، وعاد الى دينه الأول . ويروى في الخبر أن أبا ذر كان يجادل رجلا أسود بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لحى عليه فقال له : يا ابن السوداء ! فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « طف الصاع ، طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا لعمل صالح » . وقد أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحكام والأحكام الى ذوى الكفايات غير مراعاة أسود ولا أبيض ، ولا قرشيا ولا باهليا .

٢ — وما قاله لجنة الفتاوى التي يرأسها العلامة الأستاذ وكيل الأزهر الشيخ الفحام ، فقد جاء في بعض فتاويها : « جاء الاسلام فسوى بين الناس جميعا ، وأعلن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولكنه وجد نظام الاسترقاق قائما بين الأمم ، ومعتبرا فيها من العظم الاجتماعية المتغلغلة في صميم الحياة إذ ذاك ، فلم يرو من الحكمة في التشريع أن يلغى هذا النظام إلهاء تاما ، بل عمد إلى تقرير المبادئ الآتية التي تخفف من آثار الرق ، وتنظيم العلاقة بين الممالك والمملوك ، لاعلى أساس القوة والضعف ، كما كان في الأمم السابقة ، بل على أساس المحبة والأخوة ، وتبادل المنافع والتعاون في شئون الحياة ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن مبادئ الاسلام التي شرعها في الاسترقاق تعتبر بمثابة إلغاء الرقيق ، واليك بعضا من هذه المبادئ »

١ أولاً — ضيق الاسلام في أسباب الرق حتى حصرها في سبب واحد : هو محاربة المشركين للإسلام ، وصدوم عن سبيل الله ، فأذن للمسلمين الذين يدافعون عن دينهم ، ويردون عنه طائفة المشركين ، أن يضربوا الرق على من يقع في أيديهم من أسرى هؤلاء المشركين المحاربين .

« ثانياً — لم يحمل هذا الاسترقاق ضربة لازب ، ولا نتيجة حتمية لمحاربة المشركين والظفر بهم ، بل جعل ذلك من قبيل النظم السياسية الحربية ، تخيير الامام في أن يلجأ

الى الاسترقاق إذا رآه وسيلة من وسائل الاعزاز لدين الله وكسر شوكة المعتدين ، وفي أن يمن على الامرئ فيطلق سراجهم فداء ، أو بغير فداء .

« ثالثا — إذا رأى الامام أن في الاسترقاق وسيلة حربية لإعزاز الدين ، ودفع اعتداء المعتدين ، فليجأ اليه ، فإن الاسلام لم يترك الحبيل على الغارب ، ولا ترك الرقيق لمشينة ما لكه ورجمته يحمله من عناء الأعمال ما شاء ، كما كان في زمن الجاهلية ، ولا جعل الرق أبديا لا يقضى للرقيق الخروج منه بحال ، بل عني بأمر الرقيق ، وأوصى المسلمين به خيرا ، قال الله تعالى : « وبالوالدين إحسانا ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كانت له جارية فعملها فأحسن تعليمها ثم تزوجها كان له أجران » . ثم رغب في العتق ، ودعا الى تحرير الرقاب ، وحمل لمن أعتق رقبة ثوابا عند الله يعدل ثواب كثير من الطاعات ، بل أوجب الاسلام بعض المعاصي تحرير رقبة : كمن قتل نفسا خطأ ، أو أفسد صيامه فامدا ، أو حنث في يمينه التي عقد قلبه عليها . وآيات القرآن العظيم ، وأقوال الرسول الكريم في الرق بالرفق ، والاحسان اليه في المعاملة كثيرة مشهورة .

« من هذا يتبين أن ليس للرق في الاسلام إلا سبب واحد ، هو ما أسلفنا الإشارة اليه : من محاربة المشركين ، واعتدائهم على المسلمين . إن الاستيلاء على المشركين بأي وسيلة كانت ومن السلم ، ومن غير محاربة ، وخطف الأولاد من أهلهم كما كانوا يعملون في الماضي ، كل ذلك لا يترتب عليه أن يكون المنول عليهم أرقاء ، ولا يسوغ التصرف فيهم بحال . فدمج الرجل ولده يكون بيما باطلا يجب منعه ، ويجب رد النحر للمشتري ، ورد الولد الى أبيه » .

٣ — وما قاله العلامة محمد بن الحسن الحجوي : من أن الزعم بأن الشريعة الاسلامية أرسنقراطية ، بدليل أحكام الأرقاء فيها ، زعم غير صحيح ، بل هي ديمقراطية حقة ، بمعنى أنها بنيت على مبدأ العدل والمساواة في الحقوق بين طبقات الناس . قال عليه الصلاة والسلام : « كلنكم من آدم ، وآدم من ثواب » . ومن الأدلة على أنها ديمقراطية بناؤها على الشورى ، ونبد الاستبداد ، والحرية الشخصية (الدكتاتورية) ، ودليل نتائجها على المساواة في الأحكام أن خطاباتها عامة للذكر والأنثى ، وأن كل خطاب فيها ، وأمر ونهى ، متناول للرسول صلى الله عليه وسلم فن دونه .

من ههنا يتبين أن الشريعة الاسلامية ليست أرسنقراطية ، ولا دكتاتورية ، وإنما هي ديمقراطية . وقد انفردت في ديمقاطيتها عن الأشياء ، وتزهت عن الظاهر . البر عفي

من عجائب الكون

النباتات آكلة اللحوم

أبما توجه بصرك في هذا الكون الشاسع ، يطالعك آيات بينات فيها هدى وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تأمل هذا النبت الصغير الذى تمر به فتعجب جامدا وهو على أنشط ما يكون من الحركة والنمو ، عجذيراته الشعرية تذوق الغذاء الصالح من الأرض ونوزعه على مختلف الأضاء ، وأوراقه الخضراء الزاهية تستمد الطاقة من أشعة الشمس وتكون منها المواد السكرية اللازمة لها فى الحياة ، كل عضو من أعضائه قد خصص لعمل هي له ، فأداءه حق أدائه .

وقد تملكك الدهشة وبأحدك العجب حين تعلم أن ذلك البت الضيف لا يقتصر فى غذائه على مادة واحدة أو مادتين أو ثلاث ، بل لا بد له من عشر كاملة (١) لا تنقص واحدة ، فهو لا ينمو بحالته الطبيعية إذا لم يجد كل تلك المواد ، فيعثره الهزال والضعف ، وينتابه الموت . ولقد شاعت حكمة ربك أن تكون الأرض المادية غنية بأغلب تلك العناصر الغذائية ، فيجد النبات فيها ما يقوم حياته ، ويحفظ كيانه .

غير أن بعض الأراضى لا تتوافر فيها كل تلك العناصر فينقصها عنصر أو عنصران ، وعلى الأخص عنصر الأزوت ، وهو أهم مادة ضرورية لنمو النبات ، إذا ما يكون المواد الحية فى جسمه ، فكان حتما مقضيا على النباتات التى تعيش فى مثل تلك الأراضى أن تبحث لها عن مصدر جديد للأزوت . وهنا تتحلى القدرة الإلهية بأوضح بيان ، فلقد هيا الله سبحانه وآلى تلك الكائنات الضعيفة بتحورات خاصة فى أعضائها جعلتها ملائمة لاقتصاص الحشرات وصغار الحيوان والتغذى عليها ، وبذا تستمد من لحومها عنصر الأزوت .

من كان يخاطر بباله أن ساقا يأكل اللحم ويمتنع الدم ؟ إنه أمر بعيد عن التصديق ، ولكنها الحقيقة الواقعة والمشاهدة الملموسة . فهناك فى جزر الملايو نبات البنفس Nepenthes قد تحولت كل ورقة من أوراقه على شكل جرة ذات غطاء ، ليتحكم النبات فى فتحه وإغلاقه حسبما يريد . وإليك إذا شاهدت هذا النبات رأيت حقيقا حلو الطعم ، ذكى الرائحة ، يسيل على جوانب الجرة فيفري الحشرات بطعمه ، ويجذبها براغمته ، حتى إذا ما استجابت

(١) هذه المواد هي : الكربون . الأكسجين . الهيدروجين . الأزوت . الكبريت . الفوسفور . البوتاسيوم . الكالسيوم . الحديد . المنغنسيوم .

إحداها لداعى الإغراء ، وأقدمت على لتهامه بلذة ونهم ، لا تمكث طويلا فى تلك المتعة حتى يروعا قفل الباب وإحكام الزجاج ، فيحدثها القلب بما هنالك فتحاول التكاك والخلاص والعودة من الغنيمة بالإياب ، ولكن أنى يكون لها ذلك ؟ لقد وقع القدر وحم القضاء . لم تدخل المصيدة إلا طائفة مختارة ، ولكنها لن تخرج منها إلا أشلاء متناثرة يذروها الريح ويصبت بها الهواء . وتجذب البسات فى تلك الأثناء مشغولا بفريسته يفرز عليها العصارات لخصها وامتناعها ، حتى إذا ما استخلص بغيته منها فتح الباب ، واستعد لاستقبال القادم الجديد ، وهكذا دواليك .

وهناك نبات الدروريا (Drosera) ذو الأوراق المخمصة التى تنتشر عليها الزوائد الحساسة . ويزرع النبات مادة رحيقية لزجة تفرس سطح الأوراق وتجذب الحشرات ، فإذا ما سقطت إحداها على ورقة من تلك الأوراق انصقت بالمادة الرحيقية حالما تلامسها ، فتذهل الحشرة ، ويأخذ الرب منها كل مأخذ ، فتضرب بجناحيها على غير هدى محاولة التخلص من تلك الورطة ، ولكن عينا تحاول الفرار ، فكما تحركت يمينا أو يسارا اشتبكت بزوائد أخرى من تلك الزوائد الحساسة ، وبذا تصبغ داخل شبكة محكمة لا سبيل الى الخلاص منها ، ويكون خروجها ضربا من المحال . وعندئذ يفرز النبات مادة البصير لضم الحشرة وإذابة جسمها ، ثم يمتص المواد المذابة ، وحينئذ تمتد الزوائد وتعود الورقة الى شكلها الطبيعى ، وتنبأ لاقتناص فريسة أخرى .

وهذا نبات الديونيا (Dionaea) يحتمل على اقتناص الحشرات بحيلة فريسة بسيطة ، فتجد أن الورقة تحتوى على مصراعين يتحركان على المشرق الأوسط حركة مفصالية ، وتنتشر على السطح العلوى لكل منهما زوائد شوكية حادة ، فما إن تقف الحشرة التى يوقعها سوء حظها على ورقة من تلك الأوراق ، حتى يقفل المصراعان لحاة وبسرعة زائدة ، ومصرعان ما تنفرز الأشواك الدقيقة فى جسم الحشرة فتدزقها شرمزق ، وبذا تبدأ عملية الهضم والامتصاص ، ثم ينفتح المصراعان وتنفرج الورقة استعدادا لكل قادم .



تواترت الأخبار فى السنين الأخيرة بلبأ الثور على نوع من الأشجار يفترس الانسان ويتغذى بلحمه ، فقد روى العلامة الدكتور كارل ليش أحد مشاهير الزواد التمسويين ، ومن أقطاب العلماء : أنه قد اتفق له أنباء رحلته فى أرتياد مجاهل جزيرة مدغشقر أن رأى منظرا أخذ بلبه وملاك عليه حواسه : ذلك أنه شاهد جماعة من الزوج يدفعون فئاة طارية نحو شجرة هائلة تشبه شجر الأناطس ، ذات أوراق ضخمة وأشواك حادة ، ويسيل منها رحيق مكر ، ولقد أصاب تلك الضحية الجريئة رعب وذهول ، رعب الموت ، وذهول الجيوز ،

محاولة المقاومة ، ولكن هل تجدى المقاومة مع أمثال أولئك الوحوش ؟ لقد دفعوها قسرا ، وأسنة حراهم تمزق من لحمها وتسيل من دماؤها ، حتى قارت الشجرة فصاحوا فيها صيحة جنون مرعبة لتشرب الرحيق ، وما كانت لتتنأى عن شربه وهي مسلوبة الإرادة مبهمة الجناح ، ومرغان ما انتابها إلا غماء وتلقفتها الشجرة بأوراقها الضخمة فماتت في طياتها ، وإن هي إلا لحظة حتى سال دم الفتاة غزيرا مع رحيق الشجرة ، وأقبل الزنوج عليه يشربونه بشراهة وغلظة .

أيد تلك المشاهدات الكابتة هرست الانجليزي الذي قام على رأس لجنة علمية لاكتشاف مجاهل جزيرة مدغشقر ، فلقد وصف ما شاهده وقال : إن الشجرة تظل مطقة الأوراق خمسة أيام أو ستة ، تنفجر بعدها عن أشلاء وهياكل عظيمة تذروها الرياح .

أقول : إن هذه المشاهدات سواء أ كانت حقيقة واقعة أم محض خيال ، لا تخالف العلم ولا تعارض العقل ، فلقد رأينا كيف أن النبات يفترس الحيوان في احتياجه الى الأزوث ، ولا يميز النبات بين حيوان أو إنسان إن استطاع الى هذا الأخير سبيلا . وأغلب الظن أن الشجرة المذكورة في جزيرة مدغشقر تعتمد في غذائها على الحيوانات التي تلجأ اليها لتشرب من رحيقها اللذيذ الطعم ، أو لتقضى ليلها بين أوراقها الضخمة ، أو تهجع اليها فرارا من شدة القيقظ أو هربا من عدو . ولقد عرف الأهل في تلك الخاصية العجيبة التي لم تهضمها عقولهم ، فقد سوها ، وأخذوا يقدمون لها القرابين من بني الإنسان ، ويشربون من رحيقها المسكر المختلط بدم الصحايا ، وهم يستقدون أنه شراب إلهي قدمته إليهم الآلهة تقبلا منها وكرما .

تلك كلمة موجزة عن نوع غريب من أنواع النباتات ، شابه في مميسته الأنواع الضارية من الحيوان ، فسبحانه وتعالى خلق صوي ، وقدر فهدى ؟

رضوانه محمد رضوان

بكالوريوس في العلوم الزراعية

ما قيل في وصف الاجادة في القول

قال أديب في وصف كاتب بليغ : فلان إذا أنشأ انتشرت زهرات الآداب من غدوبة لسانه ، وإذا أفعد حرك ذا الوتر طربا بإحسانه .

وقال حسان بن ثابت الصعابي في هذا المعنى :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل علمت قطرات لا ترى بينها فصلا
كفى وشقى ما في النفوس ولم يدم لدى إبرة في القول حدا ولا هزلا

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

— ٤ —

لئن طال النزاع ، واحتدم الخصام ، واستمر الجلاد بين ماضى الشعوبية ومناوئها في الاسلام ، دين الوحدة والآلة والوثام ، لا دين الفرقة والتنايد والخصام - فما كان ذلك بالبديع المعيب ، والمستحدث الغريب ، الذي لم تألفه الأجيال التي سبق بها الزمن ، ولم تدرج عليه ، من صراحة وضعتها الى آتة زعها ، وإنما تراجع الأيام صفعة من تاريخها القديم الذي ملئ بالمفاخرة ، وفاض بالعصية بين العرب والأعجم ، في تلك الفترة التي كان فيها المعجم يقبصون على زمام الحضارة ، ويتربعون على أربكة الجيوش والسلطان ، بينما العرب في صحرائهم يهيمون بين وهج الشمس ولظاها ، يسترحفون الغيث ، ويستعطفون الكلاء ، لا ملك يجمعهم ، ولا وحدة تؤلفهم ، ولا قانون يجمعهم ؛ في ذلك الزمن السحيق الذي بلغ فيه ملك العرس مبلغا لا يبارى ، لم يقف النعمان بن المنذر أخرس الاسان ، ضعيف الجنان ، أمام مقالة كسرى التي أتت على العرب من أصول مكارمهم ، ولم تدع مغفرة من مفاخرهم إلا أبادتها وأهلكتها ، بل تلطف في الرد مفندا كل ما جاء به كسرى حتى أكبره وأعظمه ، وكساه من كسوته ، فرجع الى موضعه من الجزيرة متوجا بتيجان الشرف ، مكلا بأكاليل النصر ؛ ذلك موقف مشهود وقعه النعمان من كسرى وتناقضه كذب التاريخ . فلا لوم علينا إذا أنحفنا القارى الكريم بهاتين المقاليتين غير متقوصتين ، لما فيهما من مناع أدبي يثالج الأمددة ويشرح الصدور ، ولما أخذناه على أنفسنا من توحى هذه الساحة دون سواها :

حدث ابن القطامي عن الكلبي قال . « قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ما ذكروا ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارس ولا غيرها ، فقال كسرى ، وأحدثه عيرة الملك : يا نعمان : لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حال من يقدم على من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألقنها ، وعظم سلطانتها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها دينيا يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهاها ، ويقوم جاهلها ، ورأيت الهند تحموا من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب سعادتها ، وطيب أشجارها ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ؛ وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها ومهنتها في آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ؛ والترك والخزر ، على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الثمار والحصون ، وما هو رأس صمارة الدنيا من المساكن

والملايس ، لهم ملوك تضم قواصمهم ، وتدير أمرهم ، ولم أر لعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر هممتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النائرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ، ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به فاعصم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع ، لنقلها وسوء طعمها ، وخوف دائها ؛ وإن قرى أحدهم ضيقاً عندها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عندها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فحرى لها ذلك إلى يومنا هذا ؛ وإن لها مع ذلك آثاراً ولوساً وقري وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس — يعني اليمن — ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من القلة والقلة ، والفاقة والبؤس ، حتى تفشخروا وتربدوا أن تزلوا فوق مراتب للناس .

فإن سمع النعمان ذلك حتى غلت في قلبه مراجل العزة والخوة العربية ، فاندفع قائلاً :
أصلى الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم حظها ، وتعود درجتها ؛ إلا أنى عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمني من غضبه لطقته .

قال كسرى : قل فأنت آمن .

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به ، من عتولها ، وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبمحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية أبائك ، وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماد ؟ قال النعمان : بمزها ومنعتها ، وحسن وجوها ، وبأسها وسفاهها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنتها ووقاتها :

فأما عزها ومنعتها : فإنها لم تزل محاورة لأبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطعم فيهم طامع ، ولم ينالهم قاتل ، حصونهم ظهروا خيلهم ، ومهادم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين ، وجزائر البحار ؛

وأما حسن وجوها وألوانها : فقد يعرف فصامهم في ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة ؛

وأما أساليبها وأحسابها : فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباؤها وأصولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عن وراثته أبيه دُنياً ، فلا ينسب ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى

آباءه أباً فأباً ، وأحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه ؛

وأما سخاؤها : فإن أقدام رجلا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمولة ، وشبهه وريه ، فيطرقة الطارق الذي يكتفى بالقلعة ، ويحتري بالشربة ، فيمقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دياه كلها فيما يكسبه حس الاحدوة ، وطيب الذكر ؛

وأما حكمة الستهم : فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ، وروفق كلامهم وحسنه ، ووزنه وفوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضررهم للأشغال ، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجاس ؛ ثم خيلهم أفضل الخيل ، وناؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجوزع ، ومطايهم التي لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر ؛

وأما دينها وشرعتها : فأنهم متمسكون به ، وإن لم أشهروا حرماً ، وبلدا محرماً ، وبيننا محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رغبه منه ، فيحجزه كرمه ، ويمتنعه دينه عن تناوله بأذى ؛ وأما وقاؤها : فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويوى الأيماء فهي وثت وعقدة (١) لا يخلها إلا خروج نفسه ؛ وإن أحدهم ليبينه أن رجلاً استجاره ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفتي تلك القبيلة التي أصابته أو تفتي قبيلته ، لما أخفر من جواره ؛ وأما قولك أيها الملك : يثدق أولادهم ، فأعيا يفعله من يفعله منهم بالإثبات أنفة من العار وغيره من الأزواج ؛

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها : فأتروا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعدوا إلى أحلبها وأفضلها ، فكانت حراكيهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها فائلاً ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحما إلا استبان فضلها عليه ؛

وأما تحاريمهم ، وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الاتقياد لرجل يدوسهم ويحجمهم : فأما يفعل ذلك من يفعله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وأنه إما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضاهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمهم ؛

وأما العرب : فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفة منهم من أداء الخراج ، والوظف بالعسف ؛

وأما النعمان التي وصفها الملك : فلما أتى جده الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك مفسق وأمر مجتمعا ، فأثاه مسلوبا طريدا مستصرغا ، قد تقاصر عن إيوائه ، وصفر في عينه ما شيد من بئانه ، ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى محال ، ولو جد من يجيد الطعان ويفضض للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال : إلك لأهل لموضعك من الرئاسة في أهل إقليمك ، ولما هو أفضل ! ثم كساه من كسوته ، وسرحه إلى موضعه من الجزيرة .
تلك محاولة تدل في غير التواء على مبلغ ما للمصيبة الجنسية من سلطان على النفوس ، مما يجعلنا نؤمن بأن الشموعية وإن ولدت في أحضان الإسلام فهي تستمد من معين لا يصبه وجد منذ وجد الإنسان ؟

أحمد إبراهيم موسى الباردوي

من عمادح البلغاء

مدح خالد بن صفوان رجلا ببراعة المنطق فقال : كان والله جزل الألفاظ ، غزير مقال اللسان ، فصيح مآخذ البيان ، رفيق حواشي الكلام ، بليغ الريق ، قليل الحركات ، ساكن الاشارات .

ومدح أعرابي رجلا فقال : فلان أخذ بزمام الكلام فقادته أسهل مقاد ، وساقه أجل مساق ، فاسترح به القلوب الجماعة ، واستصرف به الأبصار الطامعة .

ووصف ابن المقفع بليغا فقال : ما زالت ينابيع حكمه تترقق في مقابن الآذان حتى أعشبت بها القلوب عقولا (المخبين ، الأبط ، وهو يريد بمقابن الآذان أحناءها) .

وقد ألم بهذا المعنى أبو الطيب المتنبي فقال :

نطق إذ ما القول حط لثامه أعطى بمنطقه القلوب عقولا

يريد أبو الطيب من إعطائه القلوب عقولا ، أنه ينطق بالحكمة فيخلق عن القلوب غواشيها ويهيمرها بالحق فتندركه وتتيحه . وهو وصف جميل لقدرة على صرف القلوب إلى وجهة الحق .

أما الخاية التي ليس وراءها مطمح في وصف البيان ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٨ —

أشرنا في الكلمات السابقة الى ما حاسبه « كازانوف » براهين حاول أن يدلل بها على صحة دعواه ، وذلك كبراهين إقصاء النبي صلى الله عليه وسلم عن تعيين الامام السياسي ، وقوله : « بيني وبين الساعة كهاتين » ، ودعوته أحد معاصريه بالمسيح الدجال ، وغير ذلك مما توم هذا المستشرق أنه يثبت اعتقاد النبي بقيام الساعة قبل موته ، وأبشأ ما في هذه البراهين من ضعف وتخاذل ، وأنبأ أنها لا نستطيع أن تثبت لحظة واحدة أمام المنطق المستقيم . واليوم نريد أن نعرض لما بقي من هذه البراهين الهزيلة فنترطها المنزلة التي تستحقها من الهوان كما فعلنا بسوالفها

يعتبر هذا البرهان الرابع ثم براهين « كازانوف » وأخطرها في نظره ونظر أشياعه ، لأنه حاول فيه أن يثبت أن في القرآن ، كما في السنة ، آثارا تشهد بأن الصلة بين بعثة النبي وبين الساعة متينة وثيقة ، وأن موت النبي سيكون ضمن الموت العام الذي هو نتيجة مباشرة للطامة الكبرى ، وهي قيام الساعة . وإليك كيف يسوق هذه الحجة :

أشار القرآن في كثير من آياته الى نهاية العالم والموت العام فقال :

« ونفخ في الصور فصمق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم ينظرون (١) » ، « ويوم ينفخ في الصور فمزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٢) » ، « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة (٣) » ، « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون (٤) » ، « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون (٥) » .

مما لا ريب فيه أنه لا يمكن تطبيق الآيتين الأولى والثانية إلا على الفريق الأخير من الناس ، وهم المعاصرون لقيام الساعة ، أما الآيات الثلاث الباقيات فقد أتى بها لإثبات تعميم الموت وحلوله بكل حي ، ماصبا كان أو حاضرا ، ولكن ينبغي أن نعرف أن جميع الآيات التي تعرضت لفناء العالم أو لعمومية الموت ربطت بينهما وبين البعث ربطا محكما ، أي أن هذه الآيات أعلنت أن البعث لا بد أن يتلو الموت العام مباشرة . فلمدرس الآن الآيات المتعلقة بموت النبي على ضوء هذه القاعدة :

(١) - سورة الزمر (٢) سورة البقر (٣) سورة آل عمران . (٤) سورة الانبياء .

(٥) سورة العنكبوت .

قال القرآن : « إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (١) »
« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مِتَ فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت » ونبلوكم
بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٢) » .

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات ، ألقينا أنها تصل البعث بموت مجد ، كما وصلت الآيات السابقة
البعث بملوك العالم وفناء العالم .

على أن أحقية اثنتين من هذه الآيات مشكوك فيها ، إذ لم تثبت نسبتها إلى السلق النبوي ،
بل إن أبا بكر كان هو الوحيد الذي نطق بهما على أثر موت النبي فأقره المسلمون عليهما ،
وهما قول القرآن : « وما مجد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم » ، وقوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، أفليس لنا الحق في أن نطرح أن الآية
الثانية على الأقل قد صنعها أبو بكر من أساسها بعد موت النبي ؟

ومهما يكن من شيء ، فإن هاتين الآيتين ، حقيقتين كانتا أم مصنوعتين ، إذا فهمنا
كما أراد أبو بكر أن يوجههما ، تنصان على أن النبي يجب ألا يشهد الساعة ، ومع ذلك فيمكن
أن نفهم الآية الأولى على أنها خطابية تريد أن تقرر القاعدة المنطقية في ذاتها ، أي تريد أن
تسأل نظرياً قائلة : أفإن مات فرضاً أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ وفي هذه الحالة لا تقرر أنه
سيموت قبل نهاية العالم ، ويمكن أن نفهم الآية الثانية على أن الاختصاص عند الله تابع مباشرة
لموت النبي ومآصره . وفي هذه الحالة يكون شهوده الساعة أمراً محققاً .

أما إذا فهمناهما حراً غير مقيد ألبيته ، لا بتوجيه أبي بكر ولا بتوجيهنا الذي أضفناه
آخفاً ، بل أخذنا على ظاهرهما ، فلهما لا تثبتان ضرورة أن مجداً يجب أن يموت قبل قيام الساعة ،
فإذا أضفنا إلى غيبة ضرورة موت النبي قبل قيام الساعة نصوصاً قرآنية أخرى تفيد إمكان بقائه
حياً إلى يوم الساعة ، ونصوصاً أخرى محتوية على وعود تختلف تمجيداً واسكشافاً صدرت من
الله إلى نبيه بأنه سيشهد الساعة ، أقول : إذا أضفنا هذه النصوص إلى ما تقدم ، فقد وجب أن
تكون دعوانا صحيحة . وأهم هذه النصوص هي النصوص التي تقول مخاطبة النبي : « وإما
نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٣) » « وإما
يريك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤) » « فاصبر إن وعد
الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٥) » .

فإذا اعترض بأن هذه النصوص ليست مشتملة على وعود صريحة بشهود النبي الساعة ،
وإنما هي مشتملة على الامكان فحسب ، قلت - نعم ، هذا حق ، ولكنه ينتهي بنا إلى الاقرار

(١) سورة الزمر . (٢) سورة الانبياء (٣) سورة يونس . (٤) سورة الزمر .

(٥) سورة المؤمن .

بأن الإله غير متأكد من القاية ولم يستطع أن يحدد مصير نبيه . وأحسب أنه لا شيء يظهر لنا أكثر سخفا وبمدا عن التعلل من القول بأن هذا الإله — وهو سيد الأقدار — لم يستطع أن يصمم على أن يحدد مسألة بسيطة الى هذه الدرجة ، أو أنه يجمل ما إذا كان النبي سيصوت أو سيعيش الى نهاية العالم ، في حين أنه يقول : إنه يعلم بالساعة علما يقينيا ، ولكنه لا يريد أن ينفي الناس بهذا العلم . وبناء على ذلك ، أفليس من المعقول أن تقرر أن هذه الآيات قد مدت اليها يد التبديل ، وأنها كانت قبل التبديل مثلا : سريك بعض الذي نعدم ، أي أنها كانت نصا صريحا في شهود النبي الساعة ، ثم لما رأى أصحابه أن الساعة لم تقم وصموا صورة الشك في هذه الآيات موضع صورة اليقين ، وجعلوها وإما رينك بمض الذي نعدم أو توفيك ؟ غير أن هذا التحوير الذي أوقعوه في الآيات السالفة لم يكن من السهل عليهم إجراؤه في بعض الآيات الأخرى ، لتأليفها كلاما متماسكا أولا بآخره تماسكا محكما الى حد أنه لو وضعت فيه صورة التردد لا يقلب هذا الكل المنسجم مشوها مضحكا .

لهذا أبقوا تلك الآيات الأخرى على حالها ولم يحدثوا فيها أي تغيير ، جاءت شاهدة على أن محمدا كان يعتقد بقاءه الى شهود الساعة من جهة ، وعلى أن الآيات الأخرى وقع فيها تبديل من جهة ثانية . وإليك تلك الآيات التي لم يمكن التبديل فيها :

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصبر الصبر الجليل ، إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك الى مامتنا به أزواجا منهم ، ولا تحزن عليهم ، واحض جناحك لمؤمنين . وقل إني أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عصين فوربك لنسألنهم أجهين مما كانوا يعملون . فاصبر بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كعيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ، فسوف يعلمون . ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (١) » .

لا ريب في أن اليقين هنا هو الساعة ، والمفسرون يوافقون على ذلك ، وإذا فالقرآن صريح في أن الساعة ستأتي النبي وسيشاهدها هو شخصيا ، ولذلك هو يأمره بأن يصبر به حتى تأتيه هذه الساعة . وما يؤكد ذلك أن الفعل العربي الذي عبرت به الآية الخامسة والثمانون في جانب الساعة ، وهو فعل أتى ، هو نفسه الفعل الذي عبرت به الآية الخامسة والتسعون في جانب اليقين ، فقالت الأولى : إن الساعة آتية ، وقالت الثانية : حتى يأتيك اليقين .

ومن هذه الآيات التي لم يقع فيها التبديل ، وهي تنص على أن النبي سيشهد الساعة ، قول القرآن : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

« واستمع يوم ينادى المساد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج » .
 « يوم تشرق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (١) » .

أما استنتاجنا الخاص بعد كل ذلك فهو يتلخص في أن القسم الأول من القرآن كان بكل بساطة إنباء صريحا بنهاية العالم وقرب الساعة : « عم يتساءلون . عن النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون . كلا ، سيعلمون . ثم كلا سيعلمون (٢) » . وأن القسم الثاني منه عني بأن يضعها موضع الامر الجوهري : « يسألوك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى ، لا يجلبها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بمنة (٣) » . وأن القسم الثالث الذي كان النبى أثناء مشغولا بالتشريع والقيادة الحربية ، قد أهمل مسألة الساعة إهمالا تاما ، وكانت الأقسام الثلاثة متابزا بعضها عن بعض في وضوح ، فزحها أصحاب النبى ببعضها لغايات في تفوسهم ، وأن كل الآيات التى نصت على شهود النبى الساعة وأمكن تبديلها قد بدلت ، وما لم يمكن تبديله قد وجهوه التوجيه الذى أرادوه .

هذا هو موجز أم براهيم « كازاوا » على هذه الدعوى بعد الذى قدمناه ، فلنلخص أولا نقطة ثم تناقشها واحدة بعد الأخرى : (١) زعمه أن صلة البعث بموت النبى كصلته بالموت العام . (٢) ارتيابه في آتى : « إنك ميت » و « أفان مات أو قتل » . (٣) زعمه أن المقصود بقول القرآن « بعض الذى نعدم » هو الساعة (٤) ادعاؤه أن هذه الآيات كان نصها أولا : سريك بعض الذى نعدم ، ثم قلبت الى صورة التشكيك فأصبحت : فلما زريك الخ . وقد علل لهذا الزعم بأن الله أعظم من أن يحول المصير فيتحدث بلسان الشك . (٥) زعمه أنه وردت في القرآن آيات صريحة في وجوب شهود النبى الساعة كقول القرآن مثلا : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب الخ » . (٦) زعمه أن كلمة « اليقين » المذكورة في القرآن معناها الساعة ، وبهذا يكون قوله : « حتى يأتبك اليقين » معناه : حتى تأتيك الساعة .

هذا هو موجز نقط أم براهيم ، فلننظر الآن الى شئ حدى متفقة مع النقول .

(١) ادعى الأستاذ « كازاوا » أن البعث ورد في القرآن متصلا بعوت النبى اتصاله بالموت العام . وغايته من هذا هى محاولة إثبات أن البعث سيبدأ بعد وفاة النبى مباشرة ، فإذا نظرنا الى الآيتين اللتين سافهما في موت النبى لم نجد فيهما ألبنة ما يؤيد دعواه أقل تأييد ، وذلك لأن الآية الأولى وهى : « إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » معناها : إنك فان قابل للموت ، وهم كذلك فان قابلون له ، وإنكم ستموتون جميعا ، كل بأجله ، ثم إنكم سوف تبعثون وتختصمون أمام ذى الجلال والاکرام ، والآية نص صريح بعدم زمن الاختصاص عن زمن الموت بدليل التعبير ثم . ولو أن الأستاذ كازاوا كان يفهم الفرق بين حروف المطف في اللغة العربية لما جرؤ على أن يزعم هذا الزعم ، ولكن

هذا ذنب الجهل لحاء الله ! وفوق ذلك ، فقد وضعت الآية يوم القيامة كطرف للاختصاص ، ولما كان الاختصاص معطوفاً على الموت يحرف ثم ، وبالتالي بعيداً عنه ، فقد وجب أن يكون ظرف الحدث المتأخر متأخراً عن ظرف الحدث المتقدم بالمسافة التي تسمح بها ثم . وفي هذا برهان قاطع على أن البعث ليس متصلاً بموت النبي اتصالاً مباشراً كما زعم هذا المستشرق .

أما الآية الثانية وهي : « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فلا شأن لها بنهاية العالم ولا باتصال موت النبي بالبعث أو بانفصاله عنه ، وإنما هي وردت لتأنيب المنافقين الذين تزعمت قلوبهم حين أدعاه أبو سفيان أن النبي قد قتل ، ولا أدري ما هي الصلة التي تخيلها « كازانوفا » في هذه الآية بين موت النبي ونهاية العالم إلا أن يكون من الخالمين !

(٢) على أنني لا أدري كيف يستشهد بهاتين الآيتين على هذه الصلة ، وهو قد أعلن ارتيابه فيهما وعراً وضمهما إلى أبي بكر ، وهنا تفردنا المناسبة إلى مناقشة النقطة الثانية ، وهي أن أبا بكر هو الذي صنع هاتين الآيتين ، فنقول لهذا الاستاد : ألم تعترف أنت شخصياً في مقدمة كتابك بأن النبي كان أعظم أهل عصره إخلاصاً ، وأظهرهم نفساً ، وأفواهم عبقرية ؟ ثم ألم تشهد بأنه هو الذي أطلق على أبي بكر اسم الصديق ؟ ثم أفلا يكون إطلاقه اسم الصديق على رجل حدير بالتصليب برهاناً إما على النفاوة أو على النفاق ؟ وأنت أثبت له العبقرية والاختلاص وطهر النفس ؟ هذا خلف يا أستاذ !

وفوق ذلك ، فهل شارك كل أجراء الصحابة أبا بكر في هذا التزييف ، أو كانوا جميعاً من الغفلة بحيث تنطلي عليهم هذه الحيلة ، ونحن نعلم أنه كانت بينهم عقليات تلتهم ذكاء وعبقرية ؟ ثم ألم يكن للاسلام خصوم طالما مسموا من النبي أنه سيشهد الساعة ثم القسوة قد طارق الحياة ولم تم الساعة ؟ فهل تظن أن هؤلاء الخصوم كانوا يقاومون هذه القرصة القائلة صامتين دون أن يشنوا الغارة على الاسلام والمسلمين ؟

أضف إلى هذا أنه إن كان أبو بكر قد وضع هاتين الآيتين ، فمن الذي وضع الآيات والاحاديث الكثيرة التي تنص على أن الساعة سر قد استأثر الله بعلمه ، وأن موت النبي سيكون حدثاً بسيطاً ضمن حوادث الكون العام كما كان موت من سبقوه من الانبياء ، وأن الحياة منتظلة من بعده زمناً لا يعلم مداه إلا الله ، وأن الساعة سيكون لها علامات ، وأن الذين سيشهدونها هم أقل الناس إيماناً ؟ وهل وضع أبو بكر أيضاً كل هذا دون أن يتنبه إليه أحد ؟ اللهم اشهد أن المنطق ليس له في هذه الدعوى عين ولا أثر !

(٣) أما زعمه أن « بعض الذي ندمم » معناه الساعة ، فهو زعم سخيف ، لأن المقصود بهذا البعض هو مصارع المكابرين يوم غزوة بدر وماهددوا به من عذاب (١) ، وليس المراد هنا الساعة كما توهم الأستاذ كازانوفا . وإذا فقد سقط هذا الزعم أيضاً .

(٤) أما ادعاؤه أن هذه الآيات نفسها كانت أول الأمر . سنريك بعض الذي نعدم ثم غيرت فجعلت : وإما نريك الى آخره ، فهو تخرص ليس لدى صاحبه عليه من دليل إلا أن الله أعظم من أن يجهل المصير فيعبر لعبارة الارتباب . ولو أن هذا المستشرق كان قد فهم روح القرآن لما هوى في تمكيده الى هذا الحد ، لأن هذه عبارات تشكيك لا شك ، والفرق بين الحالتين عظيم ، ولكن هذه أيضا سقطة الجهل والسطحية والتسرع ! أما حكمة استعمال هذا التشكيك ، فهي استنثار الله بعلم يوم وفاة النبي ، وهل هو سيحيى قبل مصارع أولئك المعاندين أو سيتأخر عنها ؟ وهو في كلتا الحالتين يبشر ببيه قائلا : كن على يقين أنني سأريك مصارعهم إذا أبقيتك الى ذلك اليوم ، وإذا توفيتك قبله فسأريك في الآخرة ما سأصنع بهم فأعنا عليك البلاغ وعلينا الحساب .

على أنني لا أفهم أيضا كيف استساغ كازانوف استنثار الله بعلم الساعة وإخفائه إياها من الناس جميعا ، ولم يستغ إخفائه عنهم مصير أولئك المعاندين ، وهل ستكون مصارعهم على مشهد من النبي أو سيتوفى قبل وقوعها فيرى مصيرهم الأحرى الذي هو أدهى وأمر ؟

(٥) أما ادعاؤه أن آية « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب » تدل على شهود النبي الساعة ، وأن المنادى سينادى يوم فناء العالم ، فهو ضرب من السخف المزرى ، لأن المنادى المذكور في هذه الآية هو الذي سينادى يوم الحشر لا يوم فناء العالم ، بدليل ما أتى بعد هذه الآية من قول القرآن : « ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ، ذلك حشر علينا يسير » . ولكن يظهر أن الاستاذ كازانوف لا يعرف كيف يفرق بين يوم فناء العالم ، وهو آخر أيام الدنيا ، وبين يوم البعث ، وهو أجنبي عن الأول أجنبية لا تمنح على ذى عقل .

أما شهود النبي يوم الحشر واستماعه نداء المنادى فيها أمران لا ينكرهما المسلمون ، بل يجب ألا ينازع فيهما أحد ، وإلا لكان جاحدا لشهود النبي الحساب الذي لا يمكن أن يتخلف عنه أى إنسان كائنا من كان عظيمة أو ضعة .

(٦) أما ادعاؤه أن كلمة « اليقين » الواردة في القرآن معناها الساعة ، واستدلالة على ذلك باستعمال مادة الإتيان في القرآن في جانب الساعة حينما ، وفي جانب اليقين حينما آخر ، فهو أمر جدير بالاشفاق على هذا الأستاذ أكثر مما هو جدير بالقد ، لأن اليقين معناه الموت ، وليس معناه الساعة ، ولا يصح أن يكون غير ذلك ، إذ أن اليقين الوحيد الذي يجب أن يمر بكل حي إنما هو الموت لا الساعة ، لأن الساعة لا تقوم إلا على معاصريها ، وبهذا لا يكون الأمر بالعبادة طامعا ، بل يكون خاصا مقصورا على أولئك المعاصرين .

أما استشهاد عبادة آتى ، فحسبى أن أقول له بإزائه : إنه يقال في اللغة الفرنسية : أنت الكارثة وأنى « كازانوف » ، فهل يصح لنا بناء على هذا أن نقول . إن كازانوف هو الكارثة

بدليل صحة إسناد فعل آتى إليه وإلى السكارة كما كان اليقين في القرآن معناه الساعة بدليل صحة إسناد فعل آتى إلى اليقين وإلى الساعة ؟

أما بعد مناقشة هذه النقط الواردة في براهين كازانوفا ، فالتناجب أن نسأل هل سؤال لا تتعذر الإجابة عليه حتى على عقلية السوق والأمين ، وهو . إذا كان النبي يعتقد قيام الساعة قبل وفاته ، فلماذا نظر إلى الحياة الاجتماعية هذه النظرة التي تدل على إيمانه ببقائها زمنا طويلا ، فأتى لها بهذا الدستور الفخم ، وذلك التشريع القيم الذي تناول به جميع أفرع الحياة الشخصية والمعاملات الاجتماعية ، من زواج وطلاق ، وعدة ونفقة ورضاع وتوريث ووصية وهدية وبيع وقرض ومشاركة ، فهل كل ذلك قد شرع لمعاصري النبي فقط ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فهل يوصف بالحكمة والمقربة اللتين وصفت أنت بهما النبي من يتعب نفسه من أجل التشريع لهذا الزمن الضئيل ؟ ثم حدثني بربك : كم وقع من المواريث في تلك الأعوام التي مرت بعد تشريع الميراث الاسلامي وقبل موت النبي ؟ ولماذا لم يترك النبي قومه يتعاملون ويتوارثون حسب تشريعاتهم القديمة ما دامت الساعة ستقوم عليهم قبل انتقاله من بينهم ؟

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا حقول

هذا ، ونأمل أن نكون قد وفقنا للرد على أهم النقط الأساسية في هذا الكتاب السخيف الذي أحدث رنبا هائلا في البيئات المادية في أوروبا ، لأنه كان الأول من نوعه ، ولأنه لم ينبر الى الآن أحد من المسلمين للرد عليه بحجج قيمة ؟

الدكتور محمد غنم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من أرتج عليه الكلام فأبدع

أراد خالد بن عبد الله القسري أن يخاطب يوما فآرتج عليه ، فقال للناس :
« إن هذا الكلام ينجي أحيانا ، وربما كور فآني ، وعولج فسا ، والتأني لحيته خير من التعاطي لآيته ، وتركه عند تنكره ، أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يختلط من الجري جانه ، وينقطع من الدرب لسانه ، وسأعود فأقول . »

نقول : لعل هذه العبارة على وجازتها خير من الخطبة التي كان يريد أن يبدل بها . ولو كان كل من أرتج عليه آتى في اعتذاره بمثل هذا الابداع الخطابي لفتننا أن يرتج على كل من يتصدى لأقول رجاء صماع مثل هذا الاعتذار .

الامام فخر الدين الرازي

وتفسير القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم في عصور الاملام المختلفة :

زل القرآن الكريم وفي آيات تحتاج لتفصيل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم بينها للناس من تلقاء نفسه أو إجابة على سائليه عنها ، ووقف الأمر عند هذا الحد .

ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كبار الصحابة يقولون تفسير القرآن ، وخاصة على بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعند الله بن مسعود وأبي بن كعب ، وشرحوا في كثير من الأحيان أسباب زول الآية وفيمن زلت .

ولما جاء التابعون قرروا كل ما ذكره الصحابة من الشرح ، وكان من التابعين أنفسهم من فسر بعض آيات القرآن أو ذكر سببا لزولها ، إما احتشادا أو صماتا ، وجاءت الطبقة التي تليهم وروت عنهم ما قالوا

وفي عصر التابعين تصخم تفسير القرآن بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الاسلام حاملين معهم ما تلقوه من قصص الانبياء ومن أساء عالم الغيب ، ومن أشهرهم وهب بن منبه وعبد الله بن سلام وابن جريج ، فكانوا يروونها عن التوراة والانجيل وشرحها وحواشيها . فلم ير المسلمون بأسا من أن يرووها شرحا لآيات القرآن ، فكانت منبعها من منابع النضج .

هذه التفسيرات لم تتخذ في أول أمرها شكلا . نظما ، بأن تذكر آيات القرآن مرتبة كترتيب المصحف ثم تتبع تفسيرها ، ذلك أن الحديث كان المادة التي تشمل جميع المعارف الدينية تقريبا ، فهو يشمل التفسير ، ويعمل التشريع ، ويشمل التاريخ ، وكانت كلها ممتزجة بعضها ببعض تمام الامتزاج . ثم أخذ المؤلفون في آخر العصر الاموي وأول العصر العباسي يجمعون الاحاديث المتشابهة المتعلقة بموضوع واحد ويفصلونها عن غيرها ويرتبون أبوابها ، كما فعل مالك في الموطأ ، فقد جمع احاديث الاحكام ورتبها ، وكما فعل محمد بن اسحاق ، فقد جرد الاحاديث المتعلقة بالسيرة وزاد عليها من اشعار قيلت ، وأخبار رويت ، وكوّن من ذلك السيرة النبوية ، وبذلك كان التفسير فرما من قروص الحديث .

وجاءت الخطوة الثانية ، بأن اختص كل جماعة بتفسير عالم مصرم ، فمضى المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس المكي ، كجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة ، وعن التابعون

من الكوفيين برواية ما ورد عن ابن مسعود الكوفي، كملقمة بن قيس والاسود بن يزيد، وإبراهيم النخعي والعمري، وهكذا .

وكانت الخطوة الثالثة انفصال التفسير من الحديث وعده علما قائما بنفسه .

وينصح حليا أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور متأثرا بالحركة العلمية فيه، وصورة متمكنة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية .

فلو تتبعنا عن الصحابة والتابعين ما صدر من تفسير، وجدنا أنهم كانوا يقنصرون في تفسير الآية على توضيح المعنى القوي الذي فهموه من الآية بأخصر لفظ، ولا نجد أثرا للاستنباط العلمي لحكم فقهي، ولا انتصارا لمذهب ديني .

وعلى الجملة انقسمت كتب التفسير في أواخر العصر الاموي الى نوعين، فمن العلماء من غلب عليه منهج المحدثين فاقصر على ذكر المنقول، ومنهم من غلب عليه منهج العقليين فشرح باجتهاده .

ولما دونت علوم اللغة والنحو والفقه، وأثيرت مسائل الكلام، وبجئت في العصر العباسي، أثرت في علم التفسير أثرا كبيرا . فالتحويون أخذوا القرآن الكريم مادة من موادهم لتدليل على صحة قواعدهم، فأعربوا القرآن إعرابا أغان على التفسير، والغويون وضعوا الكتب في قرىب القرآن كما فعل أبو عبيدة، وعنى الفقهاء بآيات الأحكام يستنبطونها منه، وألقوا في ذلك الكتب . فكتب أحكام القرآن (على مذهب مالك)، وكتاب أحكام القرآن لأبي بكر الرازي (على مذهب أهل العراق)، وكتاب أحكام القرآن للامام الشافعي، وأحكام القرآن لداود بن علي الطاهري (القهرست ص ٣٨)

وجاء المتكلمون، وهم أظهر عصر عقلي في هذه الحركة العلمية، وكانوا لا يميلون كثيرا الى المنقول، وكانت لهم مذاهب في التوحيد وصفات الله، وأفعال العباد، فعرضوا لتأويل القرآن بهذه العقلية وهذه العقيدة . إلا أن هذه الطريقة التي سار على نهجها علماء الكلام لم ترض الذين يعتمدون في التفسير على العقل، ولم ترض في الوقت نفسه أهل السنة، فكان النزاع بين الطريقتين . فهاجهم ابن قتيبة في التفسير كما هاجهم في الحديث (انظر تأويل مختلف الحديث ص ٨٠) . وقد أدى النزاع الى أن المتكلمين قاتلوا المعتزليين على أسلوبهم في التفسير بمثل هجومهم .

ويجدنا الجاحظ في كتابه الحيوان في مواسم متفرقة مهاجمة اليهود والنصارى والملاحدين آيات في القرآن والاعتراض عليها من ناحية العقل، ورد المعتزلة عليهم على طريقتهم . كما نرى في كتابه ردودا واعتراضات وتشقيقات على بعض أقوال المفسرين الذين اكتفوا في قولهم بالاعتقاد على المنقول ولو خالف المنقول .

وهذا النوع من التأويل هو الذى نما بعد ، فكان منه تفسير الكشاف للزمخشري ، والغفر الرازي في كتابه مفاتيح الغيب ، المشتهر بالتفسير الكبير .

هذا تمهيد نجمه بين كلامنا عن إمام المفسرين حوز الدين الرازي .
ترجمة نثر الدين الرازي :

قال ابن خلكان : « هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي ، النيسابوري ، البكري ، الطبرستاني ، الرازي المولود ، الملقب بنثر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي » .
وفي إخبار العلماء بأخبار الحكماء « ولد بمدينة الري سنة أربع وأربعين وخمسمائة . وقيل : ثلاث وأربعين ، ونشأ في بيت علم وأدب ، فوالده الامام ضياء الدين عمر ، خطيب الري ، كان على جانب عظيم من العلم ، برع في علم الأصول والمذهب ، وأخذ عنه الكثيرون » .

درس الرازي من العلوم والفنون ما عرف في عصره ، واشتغل في مبدأ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ضياء الدين صاحب محي السنة أبي محمد البغوي ، ثم قصد الكمال السمعاني واختلف اليه مدة ، ثم عاد الى الري فألم بالطب ، ونسج في الادب ، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما . وكان من أهل الدين والتصوف ولما كانت نفس الرازي توافقة الى الاستزادة من العلم والمعرفة ، دفعته الى طلب العلوم العقلية ، ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، فتردد على مجلس مجد الدين الحلي وقرأ عليه علم الكلام والحكمة .

وفي أخبار الحكماء : أنه وقف على تصانيف أبي علي بن سينا والفارابي واستمد من ذلك علما كثيرا . وفي وفيات الأعيان : أنه تلقى أهل زمانه في علم الكلام والمعتقدات وعلم الأوائل .
بدأ الرازي حياته العلمية فقيرا ، فلما انتشر ذكره قصده الناس وهرعوا ليقبضوا من علمه الغزير ، فأثرى من هذا الباب . ويقص علينا صاحب ذخرات الذهب : أن الرازي مات عن مال كثير . وجاء في كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام الرازي ، طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر : أن الامام كان ذا هيبة وجلال ، عجل البدن ، كبير اللحية ، يتعاطى على الملوك في عصر كان سلطان الملوك فيه عظيما ، يسير وحوله إذا ركب نحو ثلاثمائة طالب ، وكانوا أكثر الناس إحلالا له وتعظيما ، فإذا جلس لتدريس أطاف به كبار تلاميذه : أمثال زين الدين الكشي والقطب المصري وشهاب الدين النيسابوري ، ثم يليهم بقية التلاميذ . فإذا سأل أحد شيئا أجابه كبار التلاميذ ، فإن استعصى الأمر ، أجابه الامام نفسه . أما منطق الشيخ وقوة طارضته في الجدل فقد وصفهما شرف الدين بن عنين :

ماتت به بدع تمادى صرعا	دهرا ، وكان ظلامها لا ينجلي
وعلا به الاسلام أرفع هضبة	ورسا سواه في الحضيض الأسفل
غلط امرؤ بأبي علي قاسه	هيئات فقصر عن مداه أبو علي

لو أن رسطاليس يسمع لفظة من لمظه لمرته هزة أفكل
وبحار بظليموس لو لاقاه من برهاته في كل شكل مشكل
ولو أنهم جمعوا لديه تيقنوا أن القضية لم تكن للأول

حين نصبت مواهبه العلمية ، ترك الرى وذهب الى خوارزم ، وهناك ظهرت كفايته المنطقية في جدال المعتزلة حتى عاد الكثيرون منهم الى مذهب أهل السنة والجماعة . وفي تلك الفترة أخرج الرازي كثيرا من الأسفار والرسائل في علم الكلام والعقائد ، يناقش عقائد المخالفين ، ويعرض لها في أسلوب منطقي رائع ، بل تراه تارض الأئمة المتقدمين كالاشعري وابن فورك والقاصي أبي بكر وإمام الحرمين في بعض ما كانوا يعتقدون . إلا أن كثرة المبادلات الدينية استنزفت مخالفه ، فأخرج من خوارزم ، فقصده ما وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له في خوارزم ، فعاد الى الرى . وفي شذرات الذهب : أنه توجه الى شهاب الدين الغوري سلطان غزنة فحصلت له منه أموال طائلة ، ثم اتصل بالسلطان خوارزم شاه محمود ابن تكش وحظى عنده بالمقام السامى ، وتزوج وزيره علاء الملك بابتة غفر الدين . استقر الامام بخراسان ثم سار الى مدينة هراة ، وهناك لقب الرازي بشيخ الاسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكانت بينه وبين الكرامية أحاديث حدلية غنية يهتمهم بالحداد وتهمونه .

وفي الحادى والعشرين من المحرم سنة ست وستائة ، أملى على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الاصفهاني وصيته التى تعتبر الغاية القصوى للمؤمنين الصادقين جاء فيها :

« اعلموا انى كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء شيئا لا أقف على كية ولا كيفية سواء كان حقا أو باطلا أو غنا أو ممينا ، إلا أن الذى نظرت في الكتب المستبرة لى : أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزه عن مماثلة المنجزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ؛ ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن الكريم ، لأنه يسمى فى تسليم العظمة والجلال بالسكينة لله تعالى ، ويمنع من التعمق فى إيوار المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضائق العميقة والمناهج الخفية ، ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته ، وبراهنه عن الشركاء فى القدم ، والآزلية والتدبير والمعالية ، فذاك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به ، وأما ما انتهى الأمر فيه الى الدقة والغموض ، فكل ماورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو ؛ والذى لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين انى أرى الخلق مطبقين على أمك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، فكل ماسر به قلبي أو خطر ببالى

فأستشهد وأقول : إن علمت منى أتى ما سمعيت إلا فى تقديس اعتققت أنه الحق وتصورت أنه الصديق ، فلتكن رحمتك مع قصدى لا مع حاصلى ، فذلك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى زلة ، فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يامن لا يزد ملكه عرفان العارفين ، ولا ينقص ملكه بخطأ الجرمين ؛ وأقول : دينى متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابى القرآن العظيم ، وتعميلى فى طلب الدين عليهما .

وفى آخر الوصية يوصى أولاده وتلاميذه أن يبالغوا فى إحقاق موته ولا يجربوا به أحدا . وفى يوم الاثنين أول شوال من تلك السنة ، يوم عيد الفطر ، أسلم الروح بمدينة هراة ، ودفن آخر النهار فى الجبل المصائب لقرية مزداخان . ويروى القفطى أنه توفى فى دى الحجة سنة ست وثمانمائة — ١٢٠٩ م .

موقف الامام الرازى من التصوف الاسلامى :

ضمن الرازى رسالته فى الفرق على صغر حجمها أغلب الفرق الاسلامية ، وكثيرا من فرق اليهود والنحوس والنصارى ، وأفرد فصلا خاصا لأحوال الفلاسفة ، وذكر فرق الصوفية ، وهو الوحيد كما قال هو نفسه الذى عد الصوفية فرقة ، حيث لم يهتم المؤلفون بتمييز مذهب الصوفية باعتباره مذهب فرقة مستقلة . هذا النقص لاحظته الامام فخر الدين الرازى ، لأن الصوفية تمتاز بشئ فى الأصول تختلف فيه عن بقية الفرق الاسلامية . فأهل السنة والجماعة يرون أن الطريق لمعرفة الله هو السمع ، وفرقة المعتزلة وبعض الفرق الأخرى ترى أن ذلك الطريق هو العقل ، أما الصوفية فتري أن الطريق لمعرفة الله هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية للوصول الى مرتبة الكشف .

ولم يذكر من مؤرخى حياة الفخر الرازى هذه الرسالة فيما ذكره من مصنفات الرازى سوى صاحب طبقات الأطباء ، وصاحب شذرات الذهب ، باسم الملل والنحل ، وذكرت فى أخبار الحكماء باسم : الرياض الموققة فى الملل والنحل . وذكرت فى كتاب كشف الظنون ، وذكرت فى بروكلمان بعنوان كتاب اعتقاد المسلمين والمشرىين لفخر الدين الرازى .

الذى يهنا من هذه الرسالة ما أفرده الامام الرازى خاصا بالصوفية سقاه فيما يلى معتمدين على نسخة مكتبة تبجور باشا وعلى نسخة مكتبة بريل :

« اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية ، وذلك خطأ ، لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق الى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وهذا طريق حسن ، وهم فرق :

« الأولى : أصحاب العادات ، وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر كلبس الحرقة وتسوية السجادة .

« الثانية : أصحاب المبادات ، وهم قوم يشغلون بالزهد والعبادة مع ترك سائر الاشغال .
« الثالثة : أصحاب الحقيقة ، وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشغلوا سواها
العبادات ، بل بالفكر وتجريد النفس عن الملائق الجسدية ، وهم يجتهدون أن لا يخلو سرهم
وبالهم عن ذكر الله ، وهؤلاء خير فرق الأديمين .

« الرابعة : النورية ، وهم طائفة يقولون . إن الحجاب حجابان : نوري ، وأما النوري
فالاشتغال باكتساب الصفات الحمودة ، كالنكاح والشوق والتسليم والمراقبة والانس والوحدة
والخالة ، وأما الساري فالاشتغال بالشهوة والنصب والحرم والامل ، لأن هذه صفات نارية ،
كما أن إبليس لما كان نارياً فلا جرم وقع في الحسد .

« الخامسة : الخولية ، وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون في أنفسهم أحوالاً
عجيبة ، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الخلول
أو الاتحاد ، فيدعون دعاوى عظيمة . وأول من أظهر هذه المقالة في الاسلام الروافض ، فانهم
ادعوا الخلول في حق أئمتهم .

« السادسة : المساحية ، وهو قوم يحفظون طاعات لا أصل لها ، وتلبسات في الحقيقة ،
وهم يدعون محبة الله تعالى ، وليس لهم نصيب في شيء من الحقائق ، بل يخالفون الشريعة
ويقولون : إن الحبيب رفع عنا التكليف . وهؤلاء شر الطوائف ، وهم على الحقيقة على دين مردك .
وقد نظم غفر الدين الرازي أشعاراً تغلب عليها النزعة الصوفية كقوله :

نهاية إقدام العقول عقاب	وأكثر سعي العالمين صلال
وأرواحنا في وحشة من جسامنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستقد من بجننا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال ، فزالوا ، والجبال جبال

وله أشعار في هذا المعنى كثيرة يبدو فيها في صورة المتصوف ، وقد زهد الحياة جميعها ،
وعرف فناءها ، واستيقن انحلالها ، وتسمى إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا من مثل عليا .

وقال في كتابه الذي صنفه في أقسام الآلات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج
الفلسفية لما رأيتها تنسج عبيلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أسح الطرق طريقة القرآن ، أقرأ
في التنزيه : « والله الغني وأنتم الفقراء » وقوله تعالى : « ليس كمثل شيء » و « قل هو الله أحد » ،
واقراً في الإثبات : « الرحمن على العرش استوى » « يخافون ربهم من فوقهم » و « إليه
يصعد الكلم الطيب » ، وأقرأ في أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » . ثم أقول

وأقول من صميم القلب من داخل الروح : إني مقر بأن كل ما هو الأكل الأفضل الأعظم الأجل ، فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزله عنه .

موقف الرازي من تفسير القرآن الكريم :

في وصية الامام الرازي التي أملاها على تلميذه ابراهيم الاصفهاني : أن العقل الانساني يصحح أمام عظمة الله تعالى ، ولا سبيل الى معرفة القرآن الكريم والوقوف على تفسيره إلا عن طريق الاطعام والكشف الصوفي .

فالامام الرازي ، رغم ما كان ينتابه من حالة تصوفيه وإطعام من الله ، كان يستخدم فطرته القوية التكوينية بجانب تفكيره التحليلي في شرح الآيات البينات ، ويستعرض أسباب نزولها استمراضا هادئا ، ويفحص جزئياتها من جميع وجوها ، مستندا في تأييد رأيه على السنة ، وأقوال الأئمة والسلف الصالح ، ثم يعز كل ذلك برأى صحيح وقياس مستقيم .

العقل يخذلنا في تأمل عظمة الكون وصخامة مظاهره ، ولا يسعنا في تفهم دقائقه وصغائره ، ويصرح العلماء اليوم أن العلوم المضبوطة مثل الفلك والكيمياء والطبيعات تعجز قوى العقل إذا تغفل فيها .

ولقد عبر عن هذه الحالة العلامة « أرست ماخ » بقوله : « عندما نوفق الى فهم ظاهرة من الظواهر الطبيعية ، فغاية ما نعمله هو أن نلحق شيئا غير مألوف ولا مفهوم بشيء مألوف غير مفهوم » .

ويقول هنري بوانكاريه وهو من أساطين العلوم الرياضية :

« لو كان للانسان عينان لها قوة الميكروسكوب لما أمكنه استكشاف قوانين الطبيعة ، لأن هذه القوانين تتعالى أن تخضع للفحص البالغ منتهى الدقة » .

والقوانين الطبيعية الآن ليست في نظر العلماء سوى احتمالات . ولقد كانت الفلسفة سابقة للعلم في ذلك . فقد وضع الفيلسوف كانت في نقد العقل حدا لسلطان العقل في كل شيء ، وفي مذاهب نغت وشونهاور وشليخ : العقل جانب جزئي من جوانب الحياة . ويمثل هذه الفلسفة أقوى تمثيل في العصر الحديث برجسون ، فليس العقل عنده هو المهيمن على الوجود الانساني ، والمعلومات الهامة مصدرها عنده الوجدان لا العقل .

وهكذا يظهر لنا أن العلوم الصحيحة والفلسفة وعلم النفس قد اضطرت جميعها الى ترك فكرة أن كل شيء في الدنيا يمكن أن يفهم تفسيراً عقلياً .

ولما كانت الأديان قائمة على قوة اليقين والاعتقاد ، وأن طبيعة الدين الاسلامي وكتاب الله سبحانه وتعالى تقوم على الاعتقاد بالوحدانية مع اكتساب تأييد العقل ، نرى أن الامام

الرازي يعتمد الاعتماد كله في هذا الشأن في تفسيره القرآن الكريم على الالهام ، لانه يخرج النفس من نطاق المادة الى عالم الروح والعشاء .

أطلق الرازي من شرفة عقله الكبير على خضم الحياة ، فلم يحرفه التيار ، بل ظل واقفا على الشاطئ يتأمل من تدافع أوجه الحياة وتجاذبها ، ومن تجاذبها وتساورها ، فاستنتج أن العقل ضعيف في فهم كنه الحياة ، ودفعه هذا الاستنتاج الى الرد على الماديين بهذا الكلام .

لا زال الفلكيون يقولون : إن العالم عبارة عن قانون الاحرام السماوية . ويقول الكيماويون : إن العالم هو الجوهر الفرد . ويقول فلاسفة الطبيعة . إن الكون عبارة عن سنن من القوة والطاقة . فهم مصيبون ولكن بنسبة ما ، والى حد محدود . فإذا ما سألت هؤلاء : لماذا خصت المادة بسنن الجذب والدفع ؟ ولماذا يكون لحركات الاجرام السماوية وتجاذب ماديتها يد في نظام العالم ؟ ولماذا تتكون المادة من جواهر فردة ؟ ما وحد هؤلاء من جواب أرواح عليهم وأخرج بهم من هذا الضيق العقلي إلا القول بأنها كذلك سبقت في إرادة الله . بجانب نظريات النقد التي وضعها الرازي ، وبجانب النظر المسمى الذي امتاز به هذا الامام الاسلامي ، نراه يتساءل : في أي ناحية من التجارب يكون هذا العالم ؟ أجاب بأن هذا العالم ما هو إلا عالم الالهام والوحي الباطن ، وأن الحياة الباطنية تثبت تفوقها على الحياة الظاهرية . على هذا الاساس قامت فلسفة الامام الرازي في تفسيره لكلام الله ، حيث شرح الله صدره ويسر أمره ؟

عبد الحميد سامي بيومي

وصف فطاحل الكتاب

قال ابن المقفع : الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك .

وقال شاعر :

فوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
فالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لا يسال بمحمد المشرفيات

نقول : اغترب من الكتاب يمثل هذا الكلام غيل إليهم أن منارلة أعاديهم تكون بقذفهم بحمم من حجر القول ، وساقط السباب ، وما دروا أن هذا السلاح يرتد إليهم فيرددهم ، فإنه متى اشتهر أن كاتباً يتذرع لقمع خصومه بهذه الوسيلة الخسيسة ، اعتبر هجاء مفحشا ، وسقطت الثقة به الى الخفض ، وبعد كلامه هراء يمد به طبع دنيء ، ونفس شريرة . وإنما بمحمد قرام المخصوص بالكتابة إن كانت تفنيدها لمداهم يعلم ، أو نقدا لآرائهم بحكمة ، مع استعمار الرحمة بهم ، والحدب عليهم ، وجذبهم الى ناحيته بالتي هي أحسن .

رمضان شهر الصيام

نحن اليوم في مستهل رمضان ، وهو الشهر الذي أمرنا أن نقوم فيه بقريضة الصيام ، وهي أحد أركان الاسلام الخمسة .

والصيام ، كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الدين فرض عليهم : رياضة دينية ، لا متعة بدنية ، وهي كسكل المبادئ الاسلامية ، قصد بها رفع الانسان عن حضيض الحيوانية ، الى المستوى الذي يليق بمواهبه الادبية . فكل ما يبطل هذه الثمرة المرجوة منه ، أو ينقص منها ، يعتبر مملا مما كسا للرامي التي قصدت من إيجابه .

ونحن إذا رجعنا الى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه ، نتحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب ، ومهلة تُطهر وتزده عن جميع الكدور الجسدية والنفسية .

لعل قائل يقول : ما للدين وأمر التغذية ، وهو وضع طبيعي ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج اليه من المواد التي تدر فيه بسبب الجهود التي يبذلها في المحاولات المختلفة ؟

نقول : إن حكمة تدخل الاسلام في أمر التغذية ، أن الجسم والروح مترابطان في هذه الحياة ، والروح جوهر كريم لا تنكدره الأعراض ، ولكنه مودع في هذا الغلاف المادي ، وهو الجنان ، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التي جعلت فيه ، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة الحية ، التي جعلت أداة للإدراك . ولما كان هذا الجنان مغلوة من التراب فهو عرضة لكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار ، وأشد ما يصيبها منها ما يصيب عليها من ماحية الغذاء . لذلك كانت حاجة الانسان ماسة الى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات ، وليس منها ما هو أفضل فيه من الصيام ، وتبديل ما يحتاج اليه من الطعام .

نعم الصيام ، أما سمعت أنه قد تقرر علينا أن الأجساد البشرية متى لم يراع في تغذيتها الاعتدال ، وتخثر ما يناسبها من المواد ، فسدت أعضاؤها ، واستدت أوعيتها ، وتصلبت شرايينها ، وتضخمت أجهزتها ، باكتسائها بالمواد الشحمية ، وشحن دمه بالمواد الأجنبية عن البنية ، وترسبت على جدران حلاياها ، وسببت لها أعراضا ثقيلة من الألم ، والإعياء ، والترهل ، وضعف الذاكرة ، وضلال المشاعر ، وعدم الاحتمال ، وتعدت هذه المواطن المادية الى الصفات الادبية فضيقت الخلق ، وولدت الصعر ، وسببت المالمحوليا والحق ، وأنغرقت فأحدثت اليأس ، وقد تسوق الى الانتحار ؟

رأى العلماء أن الانسان متى وصل الى هذه الحالة أو بعضها ، كان أحوج ما يكون اليه

الامساك عن الطعام أياما متوالية ، كل أسبوع ، لترايل أعضائه هذه المواد الدخيلة . لأنه إذا لم يعامل علله هذه بالامساك عن الطعام ، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه ، فلا يشفى مما يشعر به ، ولو تعامل كل عقاير العالم ، كل هي تزيده خبالا على ماله من الخبال (١) .
نعم إن السواد الأعظم لا يصلون الى هذه الدركة من الانحطاط البدني ، ولكنهم لا يحلون قط من الأمراض والأعراض التي تسببها لهم الأغذية ، فهم في حاجة ماسة الى الصيام وتغيير الغذاء .

وقد شرع الاسلام هذا الصيام لهذا الغرض ، فهو رياضة جسمية ، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية ، التي رأت على أعضائه الباطنة ، فسيبت لها أعراسا ثقيلة يشعر بها ولا يمرى لها علة ، وتقوم حجابا بين روحه وما أعدت له من الإشراقات العلوية ، وهذا أكبر حرمان تمنى به الحياة الانسانية ، التي خلقت لتحقيق موعود الله من الترفيات الصورية والمعنوية .

الصيام في الاسلام وإن لم يكن إمساكا مطلقا عن الطعام أياما متوالية ، كما ينصح به العلم في الأحوال الثقيلة ، فإنه يهيئ للبقية فترة طويلة من خلاء المعدة ، تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الصارة للأغذية ، وبتوالي هذا الامساك ثلاثين يوما متوالية ، يتخلص الجنان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة .

هذا بشرط أن لا يُعقّب هذا الامساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفترق في تنويع ألوانها ، ما يشاؤه له النهم القوي اعتاده في حياته العادية ، فيصبح الصيام عليه شرا وبيلا ، ولا يجي منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية .

نعم إن الناس اعتادوا متى جاءوا أن يتشبهوا ضروب الأطعمة ، من العجينيات والحلوى والبقول والنباتات والخضراوات ، وأن يتدفموا في التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحسب لتبغات الأغذية حسنا ، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من النقل ، وتراحي الأعضاء ، وخود العقل ما يدرك المرطين ، وكان يجب أن يدركهم تقيض هذه الأحوال ، من نشاط الجسم والعقل ، وانسائط النفس . وبالإيمان على هذه الحالة ثلاثين يوما متوالية يخرج الصائمون وهم في حاجة الى اللجوء الى المستشفيات ، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل .

ونحن لأجل أن نبين للقارئ ما يجره النهم ، والحمل بدستور التغدى على الصحة ، وما يحمله من الويلات على الحياة ، نبين في اختصار ما لا يسع إنسانا حمله من فلسفة التغدى مقول :
المواد المائمة والحامدة التي يتناولها الانسان في غذائه ، لا تخرج في تركيبها عن كونها إما

(١) الخبال لغة : العساد يكون في الاضال والابدان والفتور وهو أيضا : النقصان والهلاك والمم القاتل

مركبة من ثلاثة عناصر . (الأوكسجين والايديروجين والكربون) ، وإما من أربعة عناصر : (الأوكسجين والايديروجين والكربون والازوت) .

الطائفة الأولى من هذه الأغذية : تدعى المواد الاحتراقية ، ومهمتها أن تحترق في خلايا الجسم فتؤتيه بالحرارة الغريزية وبالقوة الضرورية ، وهي كالمواد الدهنية والسكرية والنشا ومح البيض . والطائفة الثانية من الأغذية : تدعى المواد الازوتية أو الفولالية أو البروتينية ، ووظيفتها إنشاء الجسم بخلايا جديدة بدل الخلايا التي تدثر منه بالجهود اليومية ، وهي مثل زلال البيض والحب والخبز والفول والمكس وما إليها .

إذا علم الانسان ذلك ، وجب عليه أن يعلم بجانبه أن البنية الانسانية تحتاج الى مقدار (معين) من كل منها لا الى أكثر منه ، وأن كل زيادة عن الحد المقرر يلحق بها الانسان الى معدته تستحيل الى مادة سمية تقرب الى الدم فتسمم الاعضاء وتفسدها .

هذا يصطدم علم التغذية وعقيدة العامة اصطداما مروما ، يصرع فيه عدد لا يحصى من الناس كل يوم . ذلك أنهم يزعمون أن التغذية مادام يؤتى الجسم بالمواد الضرورية له ، ويولد له القوة ، فلا كثار منه يزيد في تلك القوة ، على حين أن العلم يقرر أن كل زيادة عن الحاجة في التغذية تضعف الجسم وتوقعه في شر هظيم .

ولكن لعل هنا في موضوع هذه الزيادة تفصيل : ذلك أنها لو كانت من المواد الثلاثية العناصر ، لم تحدث تسما ولكنها تحدث تشحبا ، فيتضخم الجنان ، وتكتسب أعضاء الباطنة بطبقات كثيفة من الدهن فلا تكاد تؤدي وظائفها إلا ببذل جهد كبير . وهذا الجهد يشعر به صاحبها فيتمتع من أقل حركة ، ويعتريه البهر ، وحفقان القلب ، وضيق النفس ، ولا يعود الى راحة نسبية إلا بعد مرور وقت يحضيه في الهدوء .

وأشد ما يصيب هذه الاعضاء يقع على القلب ، وهو أشرف عضو في الانسان ، دائم الحركة لو وقف بطلت بوقوفه الحياة ، فتخيل "عضوا هذه مكانته ، يضطر للحركة في أغلفة مثراكة من اللحم أحاطت به من جميع الجهات ، فتراه يجاهد مجاهدة المستبسل ليؤدي وظيفته بكل مشقة ، وصاحبه غافل عن هذا الأمر الجلل ينظر الى بدائته فيفرح بها ، ويسجل بالتمخر كل رطل يزيد على وزنه ، ويتجاهل أنه تحت إصر هذه البدانة أصبح عاجزا : لا يستطيع أن يقاوم عاديا ، ولا أن يرفع ثقلا ، ولا أن يصعد سلما طليا ، ولا أن يسرع الخطى في مهم ، فتتل هذه الحالة يجب أن تعتبر عجزا ، وهي في الرجال أقبح منها في النساء ، فن بلى بها فليبادر بالتخلص منها بالصيام الصحيح ، والاقبال من المواد الثلاثية العناصر .

أما الزيادة من المواد الرباعية العناصر ، فهو يؤدي الى التسم لا بحالة ، لأن الزائد من هذه المواد يستحيل الى بولينا ، وهذه البولينا إذا أضيفت إليها ذرة واحدة من الأوكسجين

استعالت الى حمض بوليك، وهو سم قاتل لا يجوز أن يبقى في الدم بحال . وهو يخرج بالمعالجة الحكيمة ، بشرط أن يقطع عن البنية المدد الوارد اليها من الخارج ، وذلك يكون بالانقصار على ما هو ضروري لها من تلك المواد .

وقد بحث العلماء في المقدار الواجب تعاطيه منها ، فقدر أولا بنحو ١٥٠ غراما كل يوم ، ثم تبين أن هذا القدر كبير ، فأسقط الى ١٠٠ غرام ، ثم الى ٨٠ ، ثم رأى أخيرا أنه يكفي أن تكون ٢٥ غراما . وعنى بهذا التقدير من كبار العلماء الدكتور هند هيد الداعركى ، وقد سلك فيه طريق التجربة ، فكان يختار رجالا من الذين يعملون بأجسادهم ، لا عنيفة ، ويكيل لهم الاطعمة ووزنها بحيث لا يجاوز مقدار ما يستخرج منها من المواد الرباعية العناصر ٢٠ أو ٢٥ غراما ، فرأى أن هذا القدر قد كفاهم ، واستدل على ذلك ، بعد تجربة عام كامل ، بجودة صحتهم ، وقدرتهم على الاستمرار على العمل بدون كلل ، وانتهى من تجاربه بالنتائج الآتية :

(أولا) أن المادة الزلالية الموجودة في الأغذية النباتية أفضل من المادة الزلالية الموحودة في الأغذية الحيوانية .

(ثانيا) أن الأغذية التى تقل فيها المادة الزلالية تزيد في قدرة الجسم على احتمال المشاق .
(ثالثا) أن عدد الوفيات بأمراض الكبد والسكريتين والأمعاء يباع بين سكان المدن نحو أربعة أضعاف ما يبلغه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والمواد الدهنية .

وقال : إن العرب الذين يكتفون في طعامهم بالخبز والتمر فيهم من صلابة العود ، وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوربيين . وإن جراحة جنود السخ من الهنود ، وهم من أشد جنود الدنيا ، لا يجاوز في اليوم كأسين من اللبن و ٢٥ أوقية من الخبز (أى نحو نصف أقة) ، وأوقيتين من الربد (وهما يساويان نحو ٢٥ درهما) ، وأربع أواق من الفاصولياء (أى نحو ٥٠ درهما) وخمس أواق ونصف من البطاطس (أى نحو ٦٢ درهما) ، وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثا في الشهر .

وقد امتعن علماء آخرون النتائج التى وصل اليها العالم الداعركى ، نخص بالذكر منهم الأستاذ تشندون الانجليزى ، وأجرى هذه التجارب على نفسه وعلى غيره فاقنع بصحة ما ذهب اليه الدكتور هند هيد .

هذا رأى العلم في مقادير الاغذية الضرورية للإنسان العادى .

وقد ذكرنا البدانة وضررها ، وعزوناها الى الاكثار من تعاطى المواد الثلاثية العاصر ،

ونستدرك هنا على ذلك بقولنا : إن من الناس من يفرط في الأكل إلى حد التخمة ، وهو يحيل الجسم . وقال الدكتور جاستون دورفيل في كتابه صناعة إطالة الحياة :

« إن جميع المفرطين في الأكل ليسوا عمنثنين شعما ، فثمة من يكونون على العكس يخاف الأجسام ، ولكن القسمان يستويان في الهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير .

ثم قال :

« من الناس من يفرط في الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ، وعيابه مشرقا ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكى أقل وجع ، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو في عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش ، فإن هذا الأكل لم يكن في جسده مراقب عنيد يعاقبه على كل إفراط وتفریط ، فتأدى في شأنه فترات عليه السموم فقتلته ولا كرامة »

وبعد :

فنحن اليوم نؤدي فريضة الصيام ، وقد جعله الله وسيلة لتركية أجسامنا وعقولنا وقولنا من طريق الامساك عن الأطعمة التي تهلكنا على النحو الذي بينته في هذه المجلة . فإن احتل محتل على الإبقاء على العادة السيئة التي تسربت إلى المسلمين ، فقلبت شهر الرياضة والراحة إلى شهر نهم وقصف (١) ، فزعم أننا بأمرنا بالامساك عن الطعام ساءات معينة ولم تؤمر بما يمسد ذلك من الإفلال منه . . . قلنا له : إن الاعتدال في الطعام ، وتحريم القدر الضروري منه لحفظ الحياة ، وعدم تعدى ذلك الحد إلى الاسراف ، أمر مأمور به في الإسلام في الشهور العادية ، فوجوبه في شهر العبادة أزم . ألم يقل الله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المفرفين » ؟

أولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « حسب أحدكم من الطعام لقيات يقمن صلبه » ؟ أولم يقل أيضا : « ماملا ابن آدم واه شرا من بطنه » ؟ أفكان الله ورسوله يأمرنا بالاعتدال في الطعام في الأيام العادية ، ويبيحان لنا الاسراف فيه في شهر الفسك والعبادة ؟

فلنتنزه هذه الفرصة السانحة لنا في هذا الشهر الكريم ونقفوا أثر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر أصحابه ، لنصل إلى بعض ما وصلوا إليه من كرامة الحياة ، وعزة الوجود ، وشرف البقاء ،

والله ولي المحسنين .

محمد فريد وجدي

(١) القصف : التهو والهيب والتوسع في الطعام والشراب .

المدة

هل التشريع الاسلامي مأخوذ من التشريع الروماني ؟

محال لا ريب فيه أن الزواج ضرورة من ضرورات الحياة كضرورة القوت والماء لبقاء النوع الانساني ، فقد قصت حكمته جل وعلا ، أن يقسم النوع الانساني الى جنسين : الذكر والانثى ، وكذلك أن يقسم النوع الحيواني بـله النباتات ، ولكن مهما طال أمد هذا الاقتران فإن هذه الروابط تضمحل وتتلاشى في بعض الاحيان بصورة طبيعية « كاللوت » ، أو قد تتطور الحياة وتتدهار الامزجة والمعادن فتقع الفرة « كالطلاق » .

إذن منذ أن بدأت الخليقة فالزواج والطلاق يتكرران على كر الأيام . واتقد أدرك الانسان الأول ، والاقوام الابتدائية ، أن تفكك عرا الزواج في لحظة واحدة ، واسترداد كل من الزوجين حرية كاملة غير منقوصة ، يخالف كل المحالفة لعواطف الانسان وطبيعته وجبلته ، وبذلك يمكننا أن نتحكم بأن العدة كانت منذ بدء الخليقة معروفة عند الجميع .

ويمكن تعريف العدة لغة : « الاحشاء » ، وشرطاً : « تربص يانزم المرأة عند زوال السكاح أو شبهه » . وهي تسمى عند الرومانيين *Le temps de pleurer* "Le temps lugendi" أي « مدة البكاء » ، وعند الافرنسيين "delai de viduité" « أي مدة الاستبراء » .

وبعد هذه المقدمة القصيرة سأحصر بحثي في تطور العدة خلال القرون القليلة ، ولذا سأطرق الامور الآتية : (١) العدة في التشريع الروماني . (٢) العدة في القرون الوسطى . (٣) العدة بعد الثورة الفرنسية وقبل سنة ١٩٢٢ (٤) العدة في فرنسا بعد سنة ١٩٢٢ (٥) العدة في التشريع الاسلامي . (٦) الخاتمة .

(١) العدة في التشريع الروماني :

إن التشريع الذي سنه « أوغست » كان يجبذ كثيراً زواج المرأة بعد تلاتي زواجاها الأول ، ولا يوجد في ذلك الحين إلا مانع واحد يحول دون زواج المرأة التي مات عنها زوجها : وهو أن تنتظر مدة عشرة أشهر بعد موت زوجها ، وكانوا يطلقون على هذه المدة كما قلت : مدة البكاء "Le temps de pleurer" وكانت هذه المدة لا تشمل طبيعة الحال المرأة المطلقة ، فالمرأة بعد طلاقها عند الرومانيين يمكنها أن تتزوج عقب طلاقها مباشرة .

(٢) العدة في القرون الوسطى :

أما في القرون الوسطى فقد كان السائد في أوروبا في هذه المدة القانون الكنسي ، وهو

يسمح بمقد عقود متتابعة دون تحديد، ولكن الكنيسة كانت لا تنظر الى ذلك بعين الرضا لأنه يخفف على عدم العقاب، لكن المذهب المسمى كاثارس "Cathares" (١) الذي انتشر في فرنسا في القرن الحادى عشر - وأشباعه معتبرون كنهدين - ذهب الى أن كلا من المرأة والرجل الذى يتزوج بعد موت أحد الزوجين يتكبد جريمة الزنا أو جريمة « جمع المرأة بين زوجين أو الرجل بين زوجتين » .

ولقد حملهم على القول بهذا الرأى ما كانوا يعتقدونه من خلود النفس وعدم انتهاء الروابط الزوجية بموت الموت . فالنشرع الكنسى منذ نهاية الحكم فى الامبراطورية الرومانية Bas Empire رفع مدة العدة الى اثنى عشر شهرا ، مع أنه من المقرر فى ذلك الزمن أن أقصى مدة الحمل كانت عشرة أشهر ، وأصبحت العدة منذ ذلك الوقت تشمل المرأة المطلقة وتشمل المرأة التى مات عنها زوجها . ويمكن تعليل ذلك بأنهم كانوا لا يودون تشجيع المرأة على الزواج عقب انتهاء زواجها الاول ، حتى إن جستيان سن فى سنة ٥٣٦ م قانونا قرر به صحة الشرط الذى يوصى به رجل فى وصيته الى امرأة مطلقة مات عنها زوجها على شريطة أن لا تتزوج قط ، مع أن هذا الشرط قبل هذا التاريخ كان يعد باطلا ولا يعمل به .

(٣) المدة بعد الثورة الافرنسية وقبل سنة ١٩٢٢ :

إن المادة (٢٢٨) من القانون المدنى الافرنسى Code Civil تمنع المرأة عن عقد زواج جديد قبل مضى عشرة أشهر على موت الزوج الاول .

والمادة (٢٩٦) تقرر المنع نفسه ، والمدة على المرأة المطلقة . ويمكن أن يلحق بذلك بطريق القياس - لاتحاد الملة - حالة فسخ النكاح ، والنكاح المسمى عندم « بالنكاح الموهوم » *Manage putatif* .

أما الدامى لهذا المنع فهو ليس من نوع الحزن الجبرى *Deuil obligatoire* وإلا كان يجب أن يحال بين الرجل وبين زواجه قبل مضى عشرة أشهر عن موت زوجته أو طلاقها ، ولوجب أن تشمل العدة والحالة هذه الجنسين . ولكن الدامى لذلك هو تحجب اختلاط الانساب "La Confusion de part" . فإذا تم الزواج دون أن تراعى المرأة مدة العدة فإن الحاكم الافرنسى لا يحكم ببطال العقد ، لأن الضرر الناجم عن ذلك كما قال مسيو « بلانيول » قد وقع ولا يمكن تلافيه أو إصلاحه ، فلا فائدة من بطلان العقد .

وإنما اختير مدة عشرة أشهر لأنه من المقرر فى القانون الافرنسى أن أقصى مدة الحمل هى عشرة أشهر ، ففى بحر هذه المدة يعلم بصورة يقينية هل المرأة حامل أولا .

(١) القانون المدنى تأليف العلامة الافرنسى للشير « بلانيول » الجزء الاول من (٢٦٥)

أما مبدأ العشرة الأشهر فهي في الطلاق بعد تسجيل حكم الطلاق . فإذا يجب على المرأة الافرنسية أن تترصد طوال مدة المحاكمة ، لأن الطلاق عندئذ لا يكون إلا بواسطة حكم المحكمة ، وهو يتطلب مدة طويلة : عدة سنين على الأقل ، ثم بعد صدور الحكم يجب أن تنتظر تسجيل الحكم ، وبعد تسجيله عليها أن تنتظر عشرة أشهر .

(٤) العدة في فرنسا بعد سنة ١٩٧٢ :

إن الحكومة الافرنسية أدركت أن هذه المدة مجحفة ولا تتفق مع المحكمة التي شرعت العدة لأجلها وهي عدم اختلاط الأنساب . ولما رأت أيضاً أن هذه المدة لا تنمى مع سياستها التي ترمي إلى تشجيع الزواج وإكثار النسل ، الذي تحتال على إكثاره جميع الدول بشق الوسائل والقوانين ، لأنها تخيلت أن الحق للقوة ، وأن القوة هي الأكثرية ، ولهذا كله رأت عليها التزاماً أن تخفف هذه المدة : فحلت مدة العشرة الأشهر في حالة الطلاق بتبدي من يوم حكم الحاكم للزوجة - أي قبل الطلاق - بمغادرة منزل زوجها . وبذلك فتتبدى عدتها يوم نطق المحكمة بالطلاق ، لأن المحاكمة تستغرق كما قلت وقتاً طويلاً ، وكذلك القانون الصادر في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٧٢ جعل عدة المرأة الحامل التي مات عنها زوجها تنتهي « كما في الشريعة الإسلامية » بوضع الحمل .

وكذلك أعطى هذا القانون حقاً لرئيس المحكمة في تقصير هذه المدة إذا ثبت له أن الزوج لم يقطن مع المرأة منذ (٣٠٠) يوم .

(٥) العدة في الشريعة الإسلامية .

إن المحكمة الموجبة للعدة في الشريعة الإسلامية هي كما في القانون المدني الافرنسي : عدم اختلاط الأنساب ، ومعرفة استبراء الرحم . ولكن ليس المعتبر عندنا في تقدير مدتها مدة الحمل - كما في التشريعات السابقة - بل المعتبر عندنا فيها هو الحيض لاستحالة اجتماع حمل وحيض . ولذلك يمكننا أن نحكم أن الشريعة الإسلامية لا تمنع زواج المرأة بعد انتهاء زواجها الأول ، على عكس أكثر الشرائع السابقة . والدليل على ذلك تحديدها مدة قصيرة ومعقولة جداً ، ومنفقة كل الاتفاق مع المحكمة الموضوعة لها .

(أ) فعدة المرأة المدخول بها التي تحيض ، للطلاق أو الفسخ أو الرفق . ثلاثة قروء أو حيض لقوله تعالى . « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

(ب) وعدة التي لا تحيض لكبر أو صغر أو بلغت بالسن ولم تحض : هي ثلاثة أشهر ، لقوله تعالى في حكم كتابه : « واللاتي يئسن من الحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللاتي لم يحضن » .

(ج) وعدة الحرة للموت في نكاح صحيح : أربعة أشهر وعشرة أيام ، لقوله تعالى : « يتراهن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » . وفي هذا دلالة على أن الأصل في العدة الحيض ، وأن الظهور يدل عنها ، حيث جعل الأشهر عدة بشرط عدم الحيض ، على حدة قوله : « فلم تحسدوا ماء فتيمنوا » . أما عدة الأمة لحيضتان ، وفي الموت وعدم الحيض فنصف ما للحرة (لأن الرق منصف) .

(د) وعدة الحامل وضع الحمل مطلقا ، حتى وإن كان الموضوع سقطا استبان بعض خلقه ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ، ولقول عمر رضي الله عنه . « لو وضعت وزوجها على سريريه لانتصت عندها وحل لها أن تتزوج » .

(هـ) وعدة من طلقت في مرض موت رجما : كعدة الزوجة ، وأما إن كان طلاقها بائنا فانها تعتد بأبعد الأجلين . أما في حالة الطلاق قبل الدخول فلا عدة أصلا ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدوهن ، فتموهن وسرحوهن سرا ما جيلا » .

(و) وعدة الذمية أو الكتائية إذا طلقها أو مات عنها ذمي إذا اعتقدوا عدم وجوب الاعتداد وأراد أن يتزوجها مسلم فعدتها حيضة واحدة تستبرئ بها .

(٦) الخاتمة : لقد رأينا كيف تطورت مدة العدة ، وكيف تغيرت الحكمة الموحية لها منذ آلاف السنين . ويمكنني أن أستنتج من هذا البحث وهذا التحليل أن التشريع الروماني والتشريع الأفرنسي هما من صنع الإنسان ووضعهما ، فالحاكم أو القاضي أو المجالس النيابية ومجالس الشيوخ يسنون القوانين التي تتطلبها الحالة الاجتماعية حسب مبادئ وعادات قد تتطور مع تطور الأحيال . أما التشريع الإسلامي فهو من صنع الخالق عز وجل ، نزل مرة واحدة على محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان مثلا أعلى للتشريع Droit naturel لا تعتوره الأيدي ، ويصلح لكل زمان ومكان . وفي هذا البحث دليل قاطع ورد مفهم وحجة دامغة على من يدعي أن التشريع الإسلامي منقول ومأخوذ عن الرومانيين ، لأنه انضح لك جليا من هذا المثال كالشمس في رابعة النهار أن القانون الأفرنسي بعد تمديله وتشذيبه وتقييده في خلال هذه العصور ، لم يصل بعد إلى مستوى شريعتنا ، كسالة عدة الحامل والطلاق قبل الدخول وغيرها ، إلا منذ سبع عشرة سنة .

فهل من الصواب والرشاد أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن التشريع الروماني ، مع أن الحكمة التي حملت على العدة عندهم هي حزن المرأة على الرجل في حالة الموت ، مع أنها عندنا هي تجنب اختلاط الأنساب واستبراء الرحم ؟

أم هل من الصواب والرشاد أن يدس ذلك على شريعتنا ، والعدة واجبة عندنا في حالة الطلاق وحالة الموت ، مع أنها عندكم لا تجب إلا في حالة الموت فقط ؟

أو هل يصح أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن التشريع الروماني مع أن مدتها عندكم كانت عشرة أشهر ثم حولت في نهاية الإمبراطورية الرومانية إلى اثني عشر شهرا ، مع أن مدتها عندنا تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة أشهر وعشرة أيام ؟

هل يقبل المنطق والعقل السليم أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن الرومانيين مع أنهم كانوا يقدرونها بأقصى مدة الحل - وهذا يوافق التشريع الأفرنسي إلى يومنا هذا - مع أن شريعتنا نهجت منهاجا آخر وهو طريق الحيض في التعرف عن استبراء الرحم ؟

أم هل يجوز أن يقال ذلك مع أنهم يوجبون العدة بالموت أو بالطلاق بعد العقد مباشرة مع أننا لا نوجبها إلا بعد الدخول ؟

وقصارى القول يمكنني أن أقول إن التشريع الروماني والتشريع الأفرنسي لعدم مضي آلاف السنين وتحولهما وتطورهما وتحويرهما في خلال هذه العصور ، وبذلك مجهود آلاف المشرعين وجهابذتهم وأساطينهم في كل عصر من عصور التاريخ ، لم يصلا بعد قط إلى المثل الأعلى إلى شريعتنا التي نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مشكلة العدة . فكيف يجوز أن يقال : إنه نقلوا عنهم ؟

وما مسألة العدة إلا واحدة من ألف سنطرق منها ما يوفقنا الله إليه ، والله ولي التوفيق ؟

فهم الدين الصائب
كلية الشريعة

كلمات في ماهية البلاغة

قال علي بن عيسى الرماني : أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وكثر إيجازه ، وتساوت صدوره وأعجازه .

وقال غيره : البلاغة إيصال المعنى إلى القلب ، في أحسن صورة من اللفظ .

وقيل لبعض العلماء : من البليغ ؟ فقال : الذي إذا قال أسرع ، وإذا أسرع أبدع ، وإذا أبدع حرك كل نفس بما أودع .

هذا تقرير أئمة البلاغة ، فما بال قوم يتخيلونها في الاكثار من الغريب ، وفي الاطالة المملة لغير سبب مقبول ؟

عمر بن عبد العزيز

— ٤ —

مناظرته غيلان الدمشقي وشوذب الخارحين وإخامه لها :

كان عمر فصيح اللسان ، قوى البيان ، واسع الاطلاع ، يفهم خصمه بالدليل والبرهان ، يدفع حجته بأقوى منها ، كل ذلك كان سببا في ثقله على مناظره .

فمعت ذات يوم غيلان الدمشقي بكتاب الى عمر يقول فيه : « أبصرت يا عمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الاسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فيامينا بين الاموات ، لا ترى أثرا فتتبع ، ولا تسمع صوتا فتفتنع ، طنى على السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل ، وربما نجت الامة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فانظر أى الامامين أنت فافقه يقول : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » ، فهذا إمام هدى هو ومن اتبعه شريكان ، وأما الآخر فقلال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون الى النار » ، ولئن تجد داعيا يقول : تعالوا الى النار ، إذ لا يقبله أحد ، وإنما الدعاة الى النار هم الذين يهدون الى معاصي الله وكفى نبياني هذا بيانا ، وبالحق عنه عفى .

فناقشه عمر حتى كشف عن شبهته وأزال غمته ، وقطع حجته ، فاعترف بالحق قائلا : يا أمير المؤمنين : لقد كنت ضالا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعملتنى ، والله لا أتكلم شيئا فى هذا الأمر ! ولكنه ما بعد موت عمر وأمن فى دعاته الاولى ، وبالحق فيها حتى ولّى هشام فقتله .

ودخل عليه شوذب الخارجى هو وآخر فقال لها عمر : أخبرانى ما الذى أخرجكم عن حكى هذا وما تقصم ؟

فتكلم الأسود منها فقال : « إنا والله ما تقمنا عليك فى سيرتك وتحريك العدل والاحسان الى من وليت ، ولكن بيننا وبينك أمر إن أعطيتنا فنعن منك وأنت منا ، وإن منعتنا فليست منا ولسنا منك » فقال عمر : وما هو ؟ قال : « رأيناك خالعت أهل بينك وسميتها مظالم ، وسلكت غير طريقهم ، فإن زحمت أنك على هدى وم على ضلال فالتهم وابرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق » .

فقال له عمر : إني قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا غرضكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ، وإني أسألكم عن أمر فبالله أصدقانى فيه

مبلغ علمكما . قال : نعم . قال : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ، ومن تتولياني ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : نعم . قال : فهل عهدتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك دماءهم ، وأخذ الأموال وسبي الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها ؟ قال : نعم . قال : فهل يرى عمر من أبي بكر أو تبرءون أئمة من أحد منهما ؟ قال : لا . ثم استورد عمر يذكر لهم الواقعة تلو الواقعة إلى أن قال لهما : لقد قال فرعون : أنا ربكم الأعلى ، وتكبر وطني في الأرض ، فهل لمنتموه أتما ومن اتبعكما ؟ فقالا : لا . فقال لهما : كيف تستحلون لمن أهل بيتي ، ولم تستحلوا لمن ادعى الألوهية وعاث في الأرض فسادا ؟ عندئذ قال له الأسود : ما سمعت كاليوم أحدا أبين حجة ، ولا أقرب مأخذا منك ، أما أنا فأشهد بأنك على الحق ، وإنى يرى من يرى منك . ثم قال عمر لصاحبه : يا أخا بني شيبان ماتقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما قلت ووصفت ، غير أنني لا أفئات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت وأنظر حجتهم . قال عمر : أنت وذلك . فأقام الحبشي مع عمر وأمر له بالعطاء ، فلم يلبث أن مات ، ولحق الشيباني بأصحابه حتى قتل معهم بعد وفاة عمر .

ما قيل له من المواعظ :

لم يكن عمر بالنكير القاسي ، ولا بالشديد الجبار ، بل كان لين الجانب في كل أموره ، يعامل الناس برفق وهوادة ، إلا ما كان منها متعلقا بحق الله أو لآدمي ، فكان يقتص ويثأر في حدود كتاب الله ، وسنة رسوله ، متوحيا العدل في أحكامه ، معتقدا أن الخلافة ابتلاء من الله لا مناص منه ، إلا بالسير في الناس على نهج الشريعة الفراء ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فبعث بكتاب إلى أهل العلم والزهدي والورع ، يسألهم موافقة بالموعة الحسنة ، وبكتب عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهد ، فكتب إليه الحسن البصري :

« أما بعد : فأعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظنن ، وليست بدار إقامة ، ولها في كل حين صرعة ، وليست صرعة كصرعة ، هي تهين من أكرمها ، وتذل من أعزها ، وتصرع من آثرها ، ولها في كل حين قتلى ، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه ، طاردا فيها تركها ، والغنى فيها فقرها ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالدواوي جرحه ، يصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، يحمي قليلا مخافة ما يكره طويلا ، فإن أهل الفضائل كان منقطعهم فيها بالصواب ، ومشبههم بالتواضع ، ومطعمهم الطيب من الرزق ، مخمض أبصارهم من الحارم ، يخوفهم في البر ، يخوفهم في البحر ، ودعاؤهم في السراء ، كدعائهم في الصراء ، فاحذر هذه الدنيا الصارعة ، الخاذلة القاتلة ، التي قد تزيت بخدعها ، وفنكت بغرورها ، وخدعت بآمالها ، فالعيون إليها مائرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهي لازواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقي

بالماضى معتبر ، ولا الآخسر لما رأى من أثرها على الأول مزدجر ، ولا العارف بالله المصدق له حين أخبره عنها مذكر ، قد أبت القلوب لها إلا حبا ، وأمت النفوس لها إلا عشقا ، ومن عشق شيئا لم يلهم غيره ولم يفعل سواء ، مات في طلبه ، وكان أثر الأشياء عنده .

« احذر يا أمير المؤمنين فإن أمانتها كاذبة ، وأماها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأنت منها على خطر ، فلو كان الخالق تبارك وتعالى ، لم يخبر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مثلا ، ولم يأمر فيها بزهد ، لكأت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونهت الغافل ، فكيف وقد جاء عن الله منها زاجر ، وفيها واعظ ، فإلما عنده قدر ولا وزن من الصغر ، فلهي عنده أصغر من حصاة في الحصى ، ومن نواة في النوى ، ولو كانت عنده وزن جناح بموضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ، ولو كان لك صمر نوح وملك سليمان ، وبقير إبراهيم ، وحكمة لقمان ، فإن أمامك هول الموت ، ومن ورائه داران ، إن أخطأتك هذه صرت إلى الأخرى . فبكى صمربكا شديدا .

وكتب إليه ملاوس :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين ، وبعد : فإن الله عز وجل أزل كتابا وأحل فيه حلالا وحرم فيه حراما ، وضرب فيه أمثالا ، وجعل بعصه محكما ، وبعضه متشابها ، فأحل حلال الله ، وحرم حرام الله ، وتذكر في أمثال الله ، وأعمل عمركه ، وآمن بعنشاياه . فأنجب صمربكا هذا الكتاب .

وكتب له سالم بن عبد الله :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد : فإن الله خلق الدنيا لما أراد ، وجعل لها مدة قصيرة ، كأن بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضى عليها وعلى أهلها بالفناء يا صمربكا : ولبت أمرا عظيما ، فإن استطعت ألا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل ، وإن استطعت أن تحيى يوم القيامة لا يتيمنك أحد بمظلمة ، ويحيى من قبلك وهم غايطون لك فافعل ، وشدد العقوبة على عمالك ، وانزجرم زحرا عن أخذ الأموال ، وسفك الدماء إلا بحقتها ، المال المال يا صمربكا ! الدم الدم يا صمربكا ! واعلم أن صمربكا الخطاب رضى الله عنه عمل في غير زمانك ، وبغير رجالك ، ولبت في زمن تعلم بعد ما عمل ، وأنا أرحو إن عملت على النحو الذى عمل به صمربكا بعد ما بلوت من الظلم أن تكون أفضل منه عند الله ، وقل كما قال العبد الصالح : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

وكتب إليه محمد بن كعب : « يا أمير المؤمنين : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان :

من إذا رضى لم يدخله رصاه في الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

وكتب إليه أبو حارم : « يا عمر : اتق أن تأتي محمدا عليه السلام وأنت بتبليغ الرسالة له مصدق ، وهو عليك لسوء الخلافة في أمته شهيد » .

وقال له القاسم بن مخيمر : « إن من ولي على الناس سلطانا فاحتجب عن فاقهم وحاجتهم ، احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه » .

وقال له ابن الأهمم : « إن الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، أمانا لمعصيتهم أن تنقصه ، فالناس يومئذ في الحالات والمنازعات مختلفون ، فالعرب منهم بشر تلك الحال (أهل الدير والشعر والحجر) لا يتلون كتاب الله ولا يصلون جماعة ، ميتهم في النار ، وحيمهم أسمى بشر حال ، ولما أراد الله أن ينشر فيهم حكمته ، بعث فيهم رسولا من أنفسهم « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » فبلغ رسالته ، ونصح لأمته ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين » .

ثم ذكر له ما كان من أمر الخلفاء الراشدين وما قاسوه أيام حكمهم ونحريم العدل والرشد إلى أن قال له : « وأنت يا عمر بن الدنيا غدتك بأطاييها وألقمتك نديها ، تطلبها من مظانها ، تعادى فيها وترضى لها ، حتى إذا ما أفضت إليك بأركانها من غير طلب منك لها رفضتها ، ورميت بها حيث رى الله بها ، فامض رحلك الله ولا تلتفت ، فالله الذي فرج بك كربنا ، ونفس بك غمنا ، فإنه لا يذل مع الحق حقير ، ولا يكبر مع الباطل عزيز ، وأنت يا عمر من أولاد الملوك ، وأناء الدنيا ، ولدوا في النعيم وغدوا به ، لا يعرفون غيره » .

عندئذ بكى عمر حتى غشى عليه .

ثم وعظه خالد بن صفوان وزباد وسالم مولى محمد بن كعب ورجال آخرون بما لا يشذ عن مواضع السابقين .

ما قاله عمر من المواعظ :

كان عمر يأمر الناس بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويدكرهم بأيام الله ، ويحذرهم عقابه ، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح حالهم في الدين والدنيا والآخرة ، فقال لهم :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الطعن ، فكفكم حاسر موثق عما قليل يحرب ، وكم مقيم مغنبط مما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من الثقة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كىء ظلال قلنس فذهب ، بيبا ابن آدم في الدنيا منافس ، وبها قرير العين إذ دعا الله بقدره ، ورماه

يوم حتمه ، فسلبه آثاره وديناه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، إنها تمر قليلا وتحزن طويلا .

وقال في موضع آخر « أيها الناس ! من أحسن منكم فليحمد الله ، ومن أساء منكم فليستغفر الله ، فإنه لا بد لأقوام أن يعملوا أفعالا وضعا الله في رقابهم ، وكتبها عليهم . »

وقال : « أيها الناس ! من ألم بذنب فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوفة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها ، وإن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحرم . »

وقال لأبي الجودي : « يا أبا الجودي : اغتم الدمة تسليها على خدك الله ، لقد نفع الموت على أهل الدنيا ما لم فيه من نصارة وبهجة ، فبينام كذلك وعلى ذلك إذ أنام حاد من الموت فاحترمهم بما لم فيه ، فالويل والحسرة هنالك لمن لم يحذر الموت ويذكره في الرخاء ، فيقدم لنفسه خيرا يحجده بعد ما يفارق الدنيا وأهلها . »

وقال : « أيها الناس : إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به إنكم لحق (١) ، وإن كنتم تكذبون به إنكم لهلكي ، إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تقولون ، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شراب ، لا تصفون لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرُونَ إليه خالدون فيه . ثم غلبه الكآبة فسكت . »

وقال : « من وعظ أماء بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح ديناه ، فقد أحسن صلته ، وأدى حقه ، فائقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها ، وعظة منجية لكم من العواقب فآزموها ، فالرزق مقسوم ، فلن يعدو المرء ما قسم له ، فأجلوا في الطاب فإن في التسويع سعة وبلغة وكفا عن كلفة ، لا يحمل الموت في أعناقكم ، وجهن أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى كأن لم يكن ، وكل ما هو آت قريب ، أو ما رأيتم حالات لمبت وجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ، ولم يعمر الديار ، واتقوا يوما لا يخفى فيه مثقال ذرة في الموازين . » وله غير هذا من المواعظ كثير .

ما كتبه إلى عماله :

كتب إلى بعضهم : « أما بعد : فكأن العباد قد عادوا إلى الله ، ثم يلبثهم بما عملوا ، ليعزى الدين أساءوا بما عملوا ويعزى الدين أحسنوا بالحسنى ، فإنه لا معقب لحسنة ، ولا منازع لأمره ، وإني أوصيك بتقوى الله ، وأحثك على الشكر ، فيما اصطنع عندك من نعمه وآتاك من كرامته ، فإن نعمه يحدها شكره ، ويقطعها كفره ، وأكثر من ذكر الموت الذي لا تدرى

(١) من هذا الكلام : « إن كنتم تصدقون به مع عبادكم فيما أنتم عليه من التقدير إنكم لحق »

متى يفشاك فلا مناص ولا فوت ، وأكثر من ذكر يوم القيامة وشدة ، فإن ذلك يدعوك الى الزهادة فيما رغبت فيه ، والرغبة فيما زهدت فيه ، ثم كن مما أوتيت من الدنيا على وحل ، فإن من لا يحذر ذلك ، ولا يسجو منه ، توشك الصرعة أن تدركه في العفلة ، وأكثر النظر في عملك في دنياك بالذي أمرت به ثم اقتصر عليه ، فإن فيه لعمري شغلا عن دنياك ، ولن تدرك العلم حتى تؤثره على الجهل ، ولا الحق حتى تذر الباطل ، نسأل الله لنا ولك حسن وموته ، وأن يدفع عنا وعنك بأحسن دفاعه برحمته .

وكتب الى أمير الجزيرة :

« أما بعد : فإن ناسا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة الدنيا ، وإعما مصيرهم ومرجعهم الى الله بعد الموت ، وقد بلغني أن ناسا من القصاص قد أخذوا الصلاة على أسرائهم عند ما يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءك كتابي هذا فراق القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة ، وليدعوا ما سوى ذلك ، والسلام . »

ما كتبه بعض عماله اليه :

« يا أمير المؤمنين إني بأرض قد كثرت فيها النعم حتى لقد أشفقت على من قبل من أهلها ضعف الشكر . »

فكتب اليه عمر : إني قد كنت أراك أعلم بالله ، إن الله لم يعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمد أفصل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المبرر فقد قال الله تعالى « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين » ، وقال تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تنبؤا من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » . وأي نعمة أفضل من دخول الجنة ؟

محمد مصطفى شادي

الاشتراكية الغربية والتعاونية الاسلامية

التعاونية الاسلامية هي النظام الطبيعي لاقتصاد وسياسة الأمم

الاشتراكية الغربية :

يرجع تاريخ نهضة حرية الرأي وتطور الافكار في أوروبا الى الثورة الفرنسية ، والانتقال الصناعي ، فالأولى نشرت آراء الفلاسفة والكتاب في المساواة والحرية والإحسان ، والثاني جمع شتات الفئات العاملة في رباط واحد مما يجعلهم أقرب الى التضامن والاتحاد .

والانتقال الصناعي نتيجة الاختراعات والحروب النابوليونية وما أدت اليه من نشر مبادئ الثورة الفرنسية ، وإيقاظ شعور الأمم ، وقيام الصناعة في إنجلترا بلا ممانع لها ، واكتشاف الدنيا الحديدية ، واستعمار الأقطار الواسعة ، وفتح الأسواق لتصريف المنتجات ، وبالإجمال نهضة الصناعة في كل أوروبا ، وتجمع الثروة الناشئة عن ذلك في أيدي نفر قليل هم أرباب العمل وأصحاب رؤوس الأموال ، الذين يهرم ذلك المال فتطلبوا من عمالهم كثرة الإنتاج بدوام العمل نظير آخر زهيد لزيادة الربح ، وبمسند تقسيم العمل وأثره في تسكين حالة العمال الذين أصبحوا كآلة يؤديون نوعاً واحداً من العمل ويكرروه ، مما يجعل المال والسأم يتسرب الى نفوسهم ، فيصيب ذهنهم بالبلادة وقلة المعلومات ، وأصبحوا في خطر التهديد بالطرد من المصنع ، والواحد منهم لا يحسن إلا حراً واحداً من العمل ؛ وزيادة بطش رجال الأعمال وما خلفته العصور الوسطى في الزراعة من أنواع الاستبداد والعبودية ، فمالئ يقيم بعيداً عن أرضه وله وكلاء يجمعون له المال من الفلاحين والمستأجرين ، سواء بيع المحصول أم كسده ، فهم مكلفون بدفع الأقساط والصرائب حتى ولو أدى ذلك الى بيع بهائمهم وأثاث منازلهم ، والسفرة من حاب الحكومة ، فالفلاحون والعمال مطالبون بالقيام بالمشروعات العامة التي تعود بالفائدة على الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال ، يقومون بها بلا مقابل ، بل بالسياط تلعب ظهورهم .

كل هذه الظواهر جعلت الفئات العاملة تشعر بالصمت الواقع عليها ، وتطلع في خشية ووجل الى مستقبلهم المظلم ، ومستقبل أولادهم وأزواجهم المحموم بالخصاطر ؛ ويطرد بهم البحث الى سوء نظام توزيع الثروة بين الفئات والطبقات المختلفة ، مما أوجد هذا التفاوت الكبير بين الطبقات الغنية الساعية في رغد العيش ، والتمتعة بالسلطة والجاه والنفوذ والجبرية ، وطبقات العمال والفلاحين الفقيرة المستعبدة المستضفة المستغلة . قرأى مفكرون تغيير نظام المجتمع الحالي من أساسه ، ووضعوا أسس الاشتراكية على فكرة أن هناك أساساً تزيد ثروتهم

عن اللازم لهم لإشباع حاجاتهم ، وهؤلاء هم الأغنياء ، وأناسا وهم السواد الأعظم لا يجدون ما يكفون به حاجاتهم الضرورية ، وهم الفقراء ، وهؤلاء قد استقر في عقولهم أن الثروة قد اغتصبها الأغنياء فيجب أن تسترد منهم ، إما بإبطال الملكية ، وبمع أصحاب هذه الملكيات تعويضا بشرط أن يكون في شكل سلع تمفد بالاستعمال ، ولا يبقى لدى هؤلاء الذين كانوا بالأمس أغنياء وسيلة للعيش غير العمل كباقي أفراد المجتمع ، إذ الاشتراكية لا تعترف بالدخل إلا إذا كان آتيا من أجر العمل ، وهؤلاء هم المنتظرون .

وإما بإبطالها بالتدريج ، مع السماح ببقاء الملكيات الصغيرة في حوزة أصحابها ، وخصوصا الأراضي الزراعية ، إذ لا تخرج تلك الملكيات إلى عدم المساواة ، لأن دخلها صغير يكفي حاجة أصحابها المعيشية فقط ، وهؤلاء هم الممتدلون .

ويكون هذا التدرج بالكيفية الآتية :

١ — بفرض ضرائب تصاعدية على الدخل ورأس المال والميراث .

٢ — بتحديد قانون الميراث ومنع الوصية .

٣ — باستيلاء الدولة على كل أرض تصبح منبع ثروة كأراضي المساجم .

وتتمتع المذاهب الاشتراكية على أنه يجب أن تقتل ملكية وسائل الإنتاج من أصحابها الخاليين إلى ملكية وإدارة الدولة ، فالأرض والمصانع والورش وسكك الحديد والآلات ووسائل النقل والمادة والتعليم والتدريب يجب أن تكون ملكية عامة .

ولكن ليس معنى هذا أن يحتفى كل تملك ، لا ، فيمكن الإنسان أن يملك ثأناه وكتبه وأدوات منزله ، ويدخر نقوده ، ويملك منزله ويورثه ، إلا أنه لا يسمح بملكية المساكن إذا أهرت ، لأن هذا يعني عدم المساواة ، وإيجاد طبقة ممتازة ، ولذلك فإنه لا يسمح بعقود الإيجار ولا بدفع إيجار أو فائدة .

وتستمر المبادلة في الدولة الاشتراكية ، إذ المبادلة وسيلة إنتاج ، ويكون هناك مخازن وحواليت لعرض وبيع السلع ، إلا أن الوسطاء وأصحاب المحال يكوون رجال أعمال تحت إشراف ورقابة الدولة ، فهي التي تحدد لهم الأسعار ومقدار الربح الذي يحصلون عليه ، والباقي يعطونه للدولة .

ويصحبون نظاما للأجور في شكل تعويضات للعمال الذين يقومون بصنع سلع لا يستهلكونها ، فيسلم لكل واحد منهم نصيب من السلع المستهلكة والخدمات ، إما في شكل سلع أو في شكل نقود .

ويكون توزيع الأحرار بين طوائف العمال المختلفة تبعاً للمبادئ الثلاثة الآتية :

١ — إما تبعاً للحاجة : فذلك الذي يشتغل بعقله يحتاج إلى أدوات معيشية أكثر من

ذلك الذى يشغل يده وجسمه . هذا والدولة الاشتراكية لا تلتفت للفروق التى تنشأ بين الناس نتيجة الحاجة والتمتع المتسبب عن العادة والنعوذ ، فكون البعض أكثر حساسية ، والبعض أكثر خشونة ، يرجع الى أن الأول درج في النعم بينما تربى الآخر بين أحضان المسغبة .

٢ — وإما تمعا للنصحية : أى يحكون الدفع بنسبة المصعب الذى يلقاه العامل فى تأدية عمله ، وفى حالة ما تنساوى وطأة العمل وكرهه ، يورع عليهم الأحرر بنسبة وقت (ساعات وأيام) العمل .

٣ — وإما تمعا للكفاية : فكل عامل يعوض تمعا لما يضيفه على الدخل الاجتماعى ، فالذى القوى يحصل على أكثر من الفنى الضعيف ، ولكن ذلك يكون منافسا لمبدأ الحاجة حيث يحتاج الضعيف الى الأكثر والقوى الى الأقل .

هذا ويرى الاشتراكيون أن يكون التغيير السابق فى الأمور الاقتصادية فقط أو فى أية ناحية من نواحي المجتمع ، ناتجة من معاملات اقتصادية ، إلا أنهم يشترطون لتنفيذ برنامجهم أن تقوم حكومة منظمة ديمقراطية ، ويرتأج (رود برنس) الى نظام الحكومة الملكية ، وإن كان (كونت) الفيلسوف العظيم الذى وضع نظاما مثاليا للدولة الاشتراكية ، يرى أن يكون على رأس الدولة حاكم أو توفراطى .

هذه هى مبادئ الاشتراكية الغربية ، وهى ، كما هو ظاهر ، لا تحتمل النقد فى كثير من مواطنها لأنها تبدو خيالية أكثر منها عملية ، قد أوجها الحق المتزايد ضد الطبقات الضيقة . فالتضاء على الملكية الخصوصية وحملها ملكية عامة ، يحمل الدولة عبئا ثقيلا ، لأنه سيجعلها هى المنتج والمصانع والزراع ، وهذا يمرقل كثيرا من نشاطها السياسى ويحصرها فى المعاملات الاقتصادية المعقدة ، ثم إن دافع لمصلحة الذاتية ينعدم من بين الأفراد الذين سيصبحون عمالا وموظفين فى الدولة يبالغون أجورهم ، ولا يهمهم اطراد الرق والتقدم ، خصوصا أن من طبيعة العمل أنه منعوب ومكروه ، يود الإنسان أن لا يؤديه ما لم يكن وراءه رقيب أو دافع . ثم إن ذلك يقضى على المنافسة التى تعمل على تحسين الانتاج . ولنضع الأستاذ توسيج مدرس الاقتصاد فى أمريكا يناقشهم حيث يقول -

« كيف يكون تملك المساكن وتوريثها ؟ وكيف تنتقل الملكيات بقيمة الى الدولة عندما يريد الأفراد السير فى طريق الاشتراكية ؟ وكيف تؤثر من الدولة كمالك عام ؟ وما هو المدى الذى يسمح به فى بيع وتأجير وشراء سلع المستهلكين كأثاث وسيارة ؟ ثم إنه لضمان تقدم الإنتاج لا بد أن يسود النظام وإطاعة الأوامر والتنظيم ، وهذا يقتضى وجود قادة وزعماء ، فمن يختارهم ؟ وعلى أى أساس ؟ وكيف يتقاضون أجورهم ؟ ثم هل سيتوفر عدد من المحترفين فى تلك البيئة العملية المحضة التى لا تعطى إلا أحر العمل ؟ »

ثم إن الواقع أن الدول الاشتراكية لم تنزع تلك المبادئ بتامها ، إذ أنه في ألمانيا لم تخفف الطبقة المتوسطة ، ولا الملكيات الصغيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، ولذلك لم يسمهم إلا الاعتراف بها وتركها في أيدي أصحابها . ثم إن عدد الأغنياء أخذ في النمو كما أن عدد المؤسسات الكبيرة يزداد باستمرار ، فيتوقع أن يرجع هذا النظام بالدولة إلى النظام الرأس مالي ، إذ الدولة تصبح هي صاحبة رهوس الأموال تتكبد في حراستها ، إذ أبطالوا أن يكون ذلك بواسطة الأفراد ، ولكن باحتجار الدولة لجزء من ثروة المجتمع للمنشآت الجديدة ، ويصير بذلك جميع الأفراد عمالاً لديها ، فينتهي بها الأمر إلى إذلالهم وتقييد حرياتهم . وما هذه الدولة إلا مجموعة من الرماء والقادة هيأتهم الظروف للوصول إلى مراكز الحكم ، منهم من يعمل مخلصاً للوطن ، ولكنهم يسكنون القصور ويقيمون الحفلات والزيارات ، ويعيشون في أبهة الملوك ، وهكذا تتكون منهم طبقة مترفة ممتازة ، عن بقية أفراد المجتمع السكادحة العاملة ، وتغر الأيام وترجع إلى التفرقة وعدم المساواة بين الأفراد في توزيع الثروة ، ثم يقوم فريق يدعى إلى نظريات جديدة أو يبحث عن هدى يوصل في السكون الطمئنا وسلاماً ، وهو لا شك واحد في التعاونية الإسلامية كما سنبين ذلك هنا .

التعاونية الإسلامية .

التعاونية الإسلامية تحرم الدخل الناشئ من الربا ، ولا تبيع إيجاد طبقة غنية طائلة تنجر بالمال فقط ، وقد فصلنا ذلك في مقالنا المنشور في العدد الماضي ، ولكنها تبيع الملكية والنورث ، وفي مقابل ذلك فرضت الزكاة ، وهي ضرائب تحبى على أنواع مختلفة من الأغنياء . ثم إن الممالك محاط بسياج من القيود والحدود ، فلا يظنى ولا ينجر ، إذ هو مسئول عن رعايته « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فهو مسئول عن يشتغل في ماله يفلح أرضه أو ينتج في مصانعه يخشى أن يصيبهم غت فيسأله الله ويؤاخذه القانون ، وهو مسئول عن تعليمهم وتوفير حاجاتهم وترقية مستواهم ، وتوفير وسائل الصحة لديهم وقد أمر الأغنياء بالصدقة : « لينفق ذو سعة من سعته » . ثم إن هذه الملكية لم تدع مطلقاً للتفرقة بين الأغنياء ، فكل المسلمين سواء أمام القانون

وهذه المساواة لا تجمل للملكية آثارها المقهورة ، فلا القى يبغي ويشجر ، ولا الفقير ينور وينرم ، خصوصاً أن التعاونية الإسلامية قد ولدت نظام الوقف الخيري ، وهو عبارة عن نقل جزء من ملكة الأفراد تزيد عن حاجتهم إلى إدارة الدولة لتنفق من ريعه على الفقراء والمعوزين ، أو لاصلاح مرافق الدولة ليعود ذلك بالخير على الجميع .

والتعاونية الإسلامية لم تغفل في الأمور الاقتصادية رعاية الطبقات الفقيرة العاملة ، ولذلك فهي تحرم على الأغنياء الاحتكار في أي صورة كان سواء أكان في شكل معادن أو منتجات

و محاصيل ، و تحرم إتلافها لترتفع أسعارها ، كما تفعل أمريكا في القطن ، و كما تفعل البرازيل في البن إذ تقلف بكيات هائلة منه في قاع البحر . و يحرم الاسلام أيضا حجز المنتجات و تسكديسها في المصانع أو المحلات ليجرد الرغبة الجشعة في رفع ثمنها ، أو المحافظة على مستوياتها لصالح أصحاب رؤوس الأموال ، بينما تعاني الكثرة الساحقة من الأمة الحاجة والعاقة . ولا معنى كذلك لكثرة سائك الذهب في أسواق الصياغة وفي خزائن الأغنياء ، بينما تشح الأموال لدى جمهور المستهلكين ، و محتاج الحكومة الى المال فتقترض من الحكومات الاحتببية بفوائد باهظة .

ما ضر المستجبن لو باعوا كل ما أنتجوه بأسعار معتدلة ليقبل الناس جميعا على شرائها وإشباع حاجتهم منها ؟ وإن من المذاهب الحديثة في الاقتصاد من يقول بكثرة الرخ عن طريق تخفيض الثمن وكثرة المبيعات ، وهذا ما تحض عليه التعاونية الاسلامية لتتلافى المنازعات والخصومات القائمة بين الطبقات الفقيرة والغنية ، وهي التي جمعت المسيح عيسى بن مريم يقض قفقراء ، ويقول كما ورد في الإنجيل العاشر من إنجيل مرقس : « لأن يابح الجمل من مم الحياط لا يسر من أن يدخل غني ملكوت السموات » ، والتي جمعت النبي الكريم يقول : « اللهم أحبني مسكينا وأمتني مسكينا واحشني في زمرة المساكين » ألم تؤد هذه المنازعات الى ظهور الحركات الثورية في أوروبا والنظريات المتطرفة فيها ؟

والتعاونية الاسلامية تقوم على المبادئ الآتية :

- ١ — تفرض قيام حكومة رشيدة مأدلة على أساس الشورى .
- ٢ — يقوم الحكم على أساس التعاون بين الجميع ، فكل واحد في الدولة دولة في نفسه .
- ٣ — تفرض الدولة العمل على كل فرد قادر سواء في ذلك الغني والفقير ، فهي تأبى التقاعد والتكاسل والنواكل .
- ٤ — الجميع متساوون في الحقوق والمعاملات أمام القانون .
- ٥ — تحرم الربا والفائدة وتجميع الأموال العاطلة في أيدي الأغنياء وتأمّر باستثمارها في نواحي الإنتاج المختلفة .
- ٦ — تحرم الاحتكار في أشكاله كلها طلبا لرفاهية جميع الأفراد .

يتضح لنا مما تقدم أن الاشتراكية الغربية لم تكن موقفة ، لأنه يعوزها الطريقة العملية لتميش وتزدهر ، بينما التعاونية الاسلامية عاشت وازدهرت ، وأقامت دولة في سنين معدودة انتهت إليها زمامة الأرض ؟

ابراهيم زكي

خريج كلية التجارة العليا

معرض لأراء المجتهدين

في الإسلام والمسلمين

القرآن

حاء تحت هذا العنوان بجمريدة الموبولير الفرنسية بقلم المسيو (بول تينو) ما يأتي :

« من بين جميع الحركات الاجتماعية الكبيرة التي حدثت أو تنهت بعد الحرب ، ما يشير العالم الاسلامي منها الآن يستحق عناية خاصة . ولكن الذي يذكر الاسلام لا بد له من أن يذكر القرآن . فها هو القرآن الذي هو في آن واحد دستور للحكم وكتاب للدين ؟

« عرّفه مستشرق عظيم نقوله : « هو وحى أنزل على العرب ، بلغة عربية ، بواسطة نبي عربي » . يؤدي هذا التعريف أن الذي يبدو للإنسان لأول وهلة في القرآن ، هو أنه قل كل شيء كتاب ديانة عربية .

« لا مشاحة في أن صدور إحدى الديانات العظيمة من صحراء جزيرة العرب بمنبر آية حقيقية . ولكن هذه الآية يمكن أن نملل طبعيا بالوضع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية التي كانت إحدى الطرق الكبيرة لتجارة العالمية .

« ومن ناحية أخرى كانت حياة البدو الرحل في تلك البيئة الفاحشة حياة ساذجة من ناحية الأحوال المادية ، ولكنها كانت مبهذبة إذا رجعنا إلى ما نعرفه عنهم في عالم الأدب .

« هذا التناقض يمكن تفسيره أيضا إذا اعتبرت قيمة تأثير التبادل التجاري في نفسيات الجماعات . والمعروف أن البدويين كانت لهم علاقات ثائرة وودية بالبرانتينيين (أي أهل القسطنطينية) والسوريين والفرس وعدد عديد من النصارى واليهود . من هنا يستنتج أن نظرية الوحدة الإلهية لم تكن محبولة عند العرب . فلهذا السبب صادفت ديانة محمد أرضا مساحبة ليموها افتتحتها بمسألة عقائدها ، وبمسألة أوصافها للشئون الانسانية .

« في هذه الناحية من الأرض انتشر القرآن في أول ظهوره .

« إن لعلم اللاهوتي المستمد من القرآن (يريد علم الكلام) موحز إلى الحد الأقصى ، وهو يتحصر فيما يلي : « أن الله قد أوحى الدين له بدد كبير من الأنبياء في عهود متعاقبة ،

أكرم شأنا إبراهيم وموسى وعيسى . ولكن اليهود والصاري قد حرقوا التوراة والانجيل ، فأرسل الله محمدا لإعادة الدين الحق . والله وحده هو الحاكم المطلق لا معقب لحكمه . والإنسان مسئول عن أعماله وسيعاقب أو يثاب عليها . وعلى المسلم أن يقوم بخمس عبادات : الإيمان بالله ، والصلاة اليومية ، والصيام السنوي ، والزكاة المشروعة ، والحج إلى مكة .

« أما تعاليم القرآن الواضحة كل الوضوح ، فتهب هذه العقائد الجديدة روحا من البساطة هي من أشهر صفات هذه الديانة .

« وأما أصول القرآن الأدبية فهي كثيرة وذات مرام هي غاية في السمو . فلا نذكر على سبيل المثال إلا بعضا منها وهي : حب الناس ، والاحسان إليهم ، واحترام النفس ، وإنجاز الوعد ، والتسامح الديني إزاء اليهود والصاري .

« وفي مقابل هذا يقرر القرآن « الحرب المقدسة » ضد الوثنيين ، ويقرر الاسترقاق وتعدد الزوجات .

« ولا ننسى أن القرآن أصلح حال المرأة في الحياة الاجتماعية إصلاحا عظيما .

« وقد استفاد النبي نفسه بتوسع من مبدأ تعدد الزوجات . فقد كان له ، بامتياز خاص ، عشر زوجات بينما للقرآن لم يسمح إلا بأربع فقط .

« ولناسبة ذكر مبدأ تعدد الزوجات الذي أخذ يقل العمل به تدريجيا ، يجب علينا أن ننبه أن في الزواج على سنة الاسلام شرطا محكما جدا وهو مجهول على وجه عام ، يسمح لممثل الزوجة أن يطلب من الزوج تمهيدا بعدم اتخاذ زوجة غيرها . فإذا لم يوف الزوج بهذا الشرط انحلت الزوجة من العقد الذي بينها وبينه وأصبحت حرة من علاقات الزوجية » .

ثم أحد الكتاب يفصل قواعد الاسلام من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم قال .

« هذه هي الواجبات التي يفرضها القرآن ، ذلك الكتاب السامي الذي يدير حياة ومحاولات مئات الملايين من الناس ، والذي يعتبر بهذا الوصف واحدا من الكتب السائدة على العالم . أما سلطانه على النفوس فعظيم جدا ، وبمحسن الامام بالاصول التي يدعو اليها فيمكن فهم رد الفعل الذي يسببه ، وموقف الاسلام حيال المسائل المراهنة » .



(مجلة الأزهر) : هذا ما كتبه المسيو (بول تيتو) في جريدة البوولير الفرنسية ، وهو

يعتبر معتدلا في الجملة ، ولكنه لا يخلو من خطأ في التقدير

ذلك أنه يقول : إن ظهور دين من صحراء جزيرة العرب يعتبر آية حقيقية ، فلو كان اقتصر على هذا لصادف قوله الحق من جميع الوجوه ، فإن جزيرة العرب التي كانت تسكنها قبائل في حالة

تناحر ، ومتمورة في أمة مظلمة حتى صارت الأمة عما عليها ، وفي جاهلية لا حدود لها ، وسعت جميع صورها بأخص معانيها ، وأشنع عيظاتها ، مثل هذه البيئة لا تسمح بصدور دين منها لا يمكن تعليله بالعلل الطبيعية ، ولكن بسبب أن الكتّاب كأكثر الذين يكتبون في الشؤون الاجتماعية مادي لا يعتقد بوحى مماوى ، ولا بعلم فوق هذا العالم ، أسرع يلتبس عللا طبيعية يفسر بها صدور هذا الدين من جزيرة تسود فيها جهالة لا تسمح بصدور مثله ، فكان غير موفق في تلخيص تلك العلل . ونحن نلخصك عدم التوفيق الذى صاحبه حتى تعجب كيف يستند الى مثل هذه الأطليل الواهنة رجل ينقئ مآثور القول :

إن قوله في مقدمة تعليقه إن موقع بلاد العرب الجغرافى جعلها واحدة من الطرق التجارية العظيمة ، من الأخطاء التى لا تغتفر فى عصر أصبح فيه العلم الجغرافى والطرق التجارية تدرس بتوسع فى المدارس الثانوية ، ولا تحتاج فى تفهمها للألمعية بمنازة . فالطريق الوحيدة التى كانت ولا تزال تصلح لنقل السلع هى التى تخترق العراق ، والعراق فى أقصى الشمال الشرقى من بلاد العرب ، وكان واقعا تحت نير الفرس ، وأهلهم الذين كانوا يترددون على فارس وسورية والقسطنطينية يبيعون ويشترىون ، ولم يكن بينهم وبين أهل الحجاز الذين ظهر بين ظهورهم الاسلام علاقة مباشرة ، لما يفصل بين الاقليمين من الصحارى البعيدة الاكشاف . والكتّاب يعرف أن الاسلام ظهر فى الحجاز .

نعم كان للحجازيين علاقات تجارية بسورية ، فكانوا يترددون عليهم لبيع ماينتج فى بلادهم من الصمغ والاعطار وغيرها ، ويستبصمون منها المنسوجات والاعامعة ، ولكن ماذا عسى أن تجلب لهم هذه الرحلات التجارية من المعلومات ، أكثر مما تجلبه رحلات الاميين الى مختلف الاقطار ؟ لو كانت تجلب شيئا لآخذ المراقبون عن الفرس دياتهم الميوسية ، ولآخذ الحجازيون عن السوريين ملتهم المسيحية ، أو عن الملسطيين نخلتهم اليهودية ، ولم يبقوا على وثنيهم المربية طوال القرون .

ولكن فيم هذا التكلف كله لتعصيد أسباب النقل ، ألم يكن فى بلاد العرب نفسها نصارى ويهود مجاورين للقبائل العربية ، حتى أن بعضها كبنى تغلب كانت تنصرت وبقيت على نصرانيتها حتى ظهر الاسلام ، وقد نهو كثير من أهل اليمن عماكاة لليهود الذين كانوا بين أظهرهم ؟

فلا محل والحالة هذه لتلخص أسباب اتصال العرب بغيرهم من الأمم ذوات الاديان . ومن الغريب أن المسيو (بول تيتو) يرتكب هذا التكلف كله لتحليل انتقال التوحيد الى العرب ، والتوحيد كان مرموزا فى بلاد العرب من أقدم العهود لآله دين ابراهيم ، وكان فى بلاد العرب رجال كثيرون على دين ابراهيم أجيالا متعاقبة .

ولكن ألا يوجد شيء في القرآن غير التوحيد يقتضي أن يتلصق له المسيو بول تيتو مارقا للانتقال الى العرب ؟

إن في القرآن مبدأ التنزيه وهو لم يكن مبروفاً عند ملّة من الملل قبل ظهور الاسلام ، والتنزيه كما لا يخفى هو نقي جميع الصفات البشرية ، والأعراض الجثمانية عن الخالق عز وجل ، بل نقي جميع ما يجوز في الخيال عنه سبحانه وتعالى ، والاعتراف بالعجز المطلق عن الإلمام بشيء يتعلق بذاته . وقد وضع المسلمون قاعدة لذلك فقالوا : « كل ما حطر سالك فله بخلاف ذلك » . ولم يكن في الأرض دين يمكن نقل هذا التجديد العظيم في موقف العقل عنه . فالديانة الامرائيلية تقول : إن الله خلق الانسان على صورته ، والاسلامية تقول : « ليس كذلك شيء » ؛ وفي تلك ما يستدل منه على حتميته ، فقد جاء فيها أنه بكى تأثراً من بعض الأحوال البشرية حتى رمدت عيناه . والديانة المسيحية تذهب الى ترك ذات الخالق من ثلاثة أقاليم ، والاسلامية تمنى ذلك بكل قوة وتعد القول به أمراً إذا ، « تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر لهما الجبال هذا » .

فإنصاف العرب تلك الممالك التي ذكرها المسيو (بول تيتو) لم تكن دياناتها لتعلم العرب هذا التنزيه الذي لم تصل اليه الفلسفة إلا بعد الاسلام ، وهو في الاسلام على حال من السمو بحيث لا يعقل أن تكون فوقه درجة .

وإذا كان هذا حال التوحيد الذي يدعى المسيو (بول تيتو) أن العرب نقلوه عن الأمم التي كانوا يتجرون معها ، فما ظنك بكل ما في الاسلام من أصول العدل الطبيعي ، والمساواة المطلقة ، والآداب العالية ، والاسلوب السامي في تركية النفس ، وترقية المجتمع ، والدعوة القوية لطلب العلم والحسنة ، والنوصية الصريحة بوجوب فك العقل من أغلاله ، وإعطائه كامل سلطانه ، والاستهداء به في تمييز السليم من السقيم ، والخس من القبيح ، والخير من الشر من المذاهب والآراء والتعاليم ، ومعاملة الناس بالإنصاف حتى في مواطن القتال ، وتقرير مبدأ الشورى في الحكم ، والاعتراف بسلطة الأمة المطلقة ولم تكن معروفة في الأرض ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعين من يخلفه ، فترك للأمة حق انتخاب من يتولى أمرها ، وهذا يعتبر نهاية النهايات في هذا الباب . ولما حضرت الخليفة الأول الوفاة ، لم يعين من يخلفه إلا بعد أن استأذن الناس في ذلك فأذوا له . ولما يئس المسلمون من شقاء عمر بن الخطاب طلبوا إليه أن ينتخب لهم من يخلفه ، كما فعل أبو بكر ، فأبى ولكنه حصر اختياره في ستة رجال وأشار عليهم أن ينتخبوا أحدهم . وهذه نهايات لا تصل إليها الأمم إلا بعد أدوار شتى من الانقلابات .

كل هذا اقتبسه المسلمون الأولون من القرآن ، ولا يزال هذا القرآن يربينا من مكسوفاته

عجبا ، فهل كل هذا نقله العرب من الفرس والرومانيين والسوريين والهنود الذين كانوا من دينهم في أمر صريح ، من نمازح السلطات ، وتنافس الطبقات ، وحيرة العامة بين المتنافسين حين كانوا يسافون الى الجارور على غير نصيرة منهم ، لا لنصرة مبدأ ولكن للايقاع زعيم يرى الناظر عليه أنه أحق بالسيطرة منه .

ناشد المسيو (بول تينو) العلم أن يقول لنا : ماذا يرى في الممالك التي ذكرها من الحكمة المالية ، يحسن أن ينقله النبي عنهم ليستطيع أن يؤلف منه دينا كالا سلام يدير أمر مئات الملايين من البشر ، وقد كانوا هم أنفسهم غرقى الى الأذقان فيما نعلم من المجادلات اللاهوتية ، والمظالم الحكومية ، والقوضى الخلقية ؟ وإن من يقرأ القرآن حق قراءته يرى أنه قد ألم بذكر تلك الآم ، فأوسمها لوما وتقريعا على ما فرطت في جنب عقولها ، وما استرسلت في الخنوع لاهواء قادتها ، وما انقادت لاستهواء مضللها ، ولم يستثن من ذلك اليهود والنصارى ، بل كان أكثر تشهير بهم ، فكيف يعقل أن ينتقدم ويدحض أصولهم ثم ينقل دينه عنهم ؟

يقول المسيو (بول تينو) : إن الاسلام أقر الاسترقاق وتمدد الزوجات ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم ميز نفسه في عدد الزوجات عن المسلمين لمد نزول آية تحديدهن بأربع . والاكتفاء بهذا الاجمال ظلم للاسلام .

نم أقر الاسلام الاسترقاق ولكن بعد أن ألغى جميع مصادره وحصره في مصدر واحد وهو الحرب المشروعة . والاسر في الحروب قائم الى اليوم .

ولكن أما كان يجدر بالمسيو (بول تينو) أن يذكر أن الاسلام كان أول من ألغى النخاسة في الأرض ، أي قبل أن تلغها المدنية بأكثر من اثني عشر قرنا .

فإن قال ولكن الاسلام أقر ما كان قد حدث بسنها ، فلم يفعل كما فعلت المجلثة وفرنسا وجميع الأمم من تحرير الأرقاء جميعا حين انتدبت لإلقاء النخاسة من الأرض سنة (١٨٣٤)

نقول : إن الاسلام لم يفعل ما فعلته الدول في العهد الأخير تفاديا من اختلال عظيم في الحالة الاجتماعية إذ ذاك ، فإن أولئك المحررين كانوا يبقون بلا عمل ولا مأوى بعد أن تنحل أواصر الولاية بينهم وبين ساداتهم . ألم يعلم بأن المجلثة تبرعت بسبعة ملايين ختية وفرنسا بثلاثة ملايين لتنفيذ هذا المشروع ، فكيف كان يمكن الحصول ولو على جزء من مائة من مثل هذا المبلغ في ذلك العهد من الاجتماع ولما يستوف مقوماته الاقتصادية ؟

ولكن الأمر الذي يهم في هذا الموضوع هو أن الاسلام ألغى الاسترقاق الآتي من طريق النخاسة ، واعتبر متركب هذه المهنة مقصدا في الأرض يستحق أشد العقوبات البدنية .

وبعد أن حصر الاسلام الاسترقاق في الحروب المشروعة وكل الى الحكومة القائمة بالامر أن تتصرف في أسرى الحروب ، إما بقبول الفدية عنهم ، أو بالمن عليهم بالحرية . وقد اتفقت الأمم اليوم على المن على أسرى الحروب بالحرية ، بعد أن نضع الحرب أوزارها ، ولا مانع يجمع الحكومة الاسلامية من سلوك هذه الحادة وقد وكل الاسلام الامر إليها في ذلك . على هذا الأسلوب يكون الاسلام بأحكامه القيمة قد مهد السبيل للوصول الى إبطال الاسترقاق قبل أن يفكر في ذلك سواء بآني عشر قرناً .

أما إقرار الاسلام لمبدأ تعدد الزوجات فلم يكن المقصد منه موافاة ميول الرجال في الاستهتار في الشهوات ، ولكن قصده حماية المرأة من عسف الرجال .

ذلك أن المشاهد الى اليوم أن كثيراً من الرجال ، حتى في المجتمعات التي بلغت شأواً بعيداً في المدنية ، لا يكتفون بزوجة واحدة ، فترام يتخذون الخديبات فيما يشونهن معايشة الزوجات ، وليسكن دون أن يكون لمن أدنى حق شرعى على من احتازهن حين يبدو لهم الاستغناء عنهن ، فتخرج المرأة من هذا الارتباط الأليم فاقدة كرامتها ، ومجردة من كل شيء يضمن حياتها ، وقد تكون قد أصابتها عاهة ، أو اعتراها الكبر ، فتسهم الى كئيبات النساء .

فهذه الحالة لا ترضى أية نفس كريمة ، لا سيما وكثير من هؤلاء الخديبات يكن قد رزقن بعدة نبي ، فيخرجن بهم ، ويعشن معهم في الحرمان المطلق ، وإذا كانت هذه الحالة لا ترضى النفوس الكريمة فهي لا ترضى الدين الذي شرعه الله رحمة للعالمين .

وما دام لا توجد وسيلة لحل الرجال على الاكتفاء بواحدة ، ولا على عدم اتخاذ الخديبات ، فالاسلام رأى ، صيانة لحقوق النساء ، أن يقر مبدأ تعدد الزوجات ، ويحرم الفسق واتخاذ الخديبات تحريماً لا هوادة فيه ، ويماقب عليهما بأشد العقوبات

وما دام عدد لا يحصى من النساء يرضين أن يكن خديبات مجردات من الحقوق ، فيسهرهن أن يرفعن الى درجة الزوجات الشرعيات ، ولا عيب على مجتمع أن يكون مسموحاً فيه تمديد الزوجات ، ما دام هو لم ير من العيب أن يكون مسموحاً فيه اتخاذ الخديبات .

ولكننا نرى العكس ، نرى أن المجتمعات العصرية تستنكر كل الاستنكار تعدد الزوجات ولا تستنكر اتخاذ الخديبات . وأنت إن كلفت نفسك تحليل هذين الشعورين المتناقضين رأيت أن السبب في التفرز من مبدأ تعدد الزوجات ، وعدم التفرز من مبدأ اتخاذ الخديبات ، أن الزوجية تقنص من الحقوق ما لا يقتضيه احتياز النسوة غير الشرعيات . والرجال هم الذين يملكون القوانين فلا يريدون أن يتقلا كواهلهم بالكثايف مع عدم وضع حد للشهوات .

ولكن العدل يأبى ذلك ، فإما أن يكتفى الرجال بزوجة واحدة مع عدم العدوان على أعراض النساء ، وإما أن يقبلوا مبدأ تعدد الزوجات ، أما التوسع في إشباع الشهوات مع عدم العقيد إزاء ذلك بالحقوق التي تترتب عليها ، فلا .

لست بما أقره استحسن شيوع مبدأ تعدد الزوجات ، وخاصة بدون قيد ولا شرط كما هي الحال الآن ، وأصرح بوجوب بذل عناية عظيمة لحصر مضاره ، ولكنى أطارض كل المعارضة في حده مع إقرار مبدأ آخر أشد منه على الأخلاق ضرراً ، وأقبح في تشويه رونق المدنية أترا ، ألا وهو إباحة الفسق ، فإذا عددت من سينات تعدد الزوجات ما يقع فيه كثير من النسوة في البؤس ، وما يلحق بأولادهن من الشقاء ، وما يصيب الأمر من التصدع والانهيار ، عددنا لك من ضرور إباحة الفسق واتخاذ الخديشات ، ما تقشعر له الأبدان من شيوع الفحشاء ، واندساسها بقوة التعود بين الفرائز الشريفة للانسانية ، ونفلها عليها بسلطان الشهوات ، وسوقها لها الى الوحشة الهيمية التي تنافي السمو الأدبي المقدر للانسان أن يبلغه . ولو وقعت الحال عند هذا الحد لرضى به الذين لا يؤمنون بالسمو المقدر لهذا النوع ، ولكنها تسوق النفوس لتعيش في جو من الدنايا لم تخلق لتعيش فيه ، فيعترها كرب الاختناق ، وتضطرب لتخلص منه ، وما اضطرابها إلا ما تراه من التذافع والتناحر وعدم الاستقرار ، ودوام توقع الانهيار العام .

إن قيل . فلم تعلق هذا الشر المستطير على رذيلة واحدة مغلاسات الرذائل المنتشرة بين الناس ؟

قلنا . لأن تلك الرذائل غير مباحة ، ومترتب عليها عقوبات مختلفة في القوانين ، وجميع قوى الحكومات حاملة على مكافئتها أي وجدت ، ولكن رذيلة الفسق مباحة إن حدثت عن تراض من الطرفين ، والتراضى عليها من أيسر الأمور ، ولا تنس أن الفسق يجر الى ارتكاب جميع الرذائل من الكذب والخداع والتغريب والكيد والسرقة حتى القتل نفسه . وقد ثبت أن الشهوة الجسدية أشد الشهوات تحكما في النفسية الانسانية ، فتركها بدون قمع ، تدفع صاحبها للعث بالأعراض ، لا يجعل لما تجره من المعاصد حدا تقف عنده .

وإني لأعجب كيف يشكو الناس من انتشار العزوبة وما نجر اليه من الأمراض الاجتماعية المعصاة ، ويفعلون عن سببها الرئيسي وهو إباحة الفسق ، وتيسير سبيله الى حد بعيد ؟

وكيف يفعلون عن أن تحريم الفسق ، وسد الطريق على أهله ، يحفزهم الى الزواج ، ويكفهم عن جميع الشرور التي تدعوم إليه الاطاحة الحيوانية ؟

دعانا الى هذا الإيهام ، التذليل على أن ما ينال الجماعات من الشرور بسبب إباحة الفسق ، يفوق أضرعا مضاعفة ما ينالها منها بسبب إباحة تعدد الزوجات .

فإن صدقت نوايا المصاحين في البحث عن المخرج من هذه الورطات ، سهل عليهم أن يجدوه فيما يحفظ للدين سلطانه ، والانسانية كرامتها ، والله ولي المؤمنين ؟ محمد فريد ومهرى

المحاماة قديما وحديثا

ألمعنا في البحث السابق الى أن حق الدفاع في المحسومة قديم في البشر ، وأنه متوارث بين الناس من أول عهد الخليقة حتى تطورت البشرية تطورا حفز بالدفاع عن النفس وعن الغير الى مستوى تختلف قوة وضعفا باختلاف طرائقه ، وبما وصل إليه البشر من النضوج العقلي في تكييف طرائق الدفاع والنبوه عن مزلق الضلال ومراوغ البنى .

واليوم نحاول في إيجاز أن نعرض لما كان عليه المحامون في عهد الإمبراطورية الرومانية وفي عهد اليونان ، وأن نساير القارئ حتى نبليغ به عصرنا الذي نميش فيه :

كان خطباء المحامين في العهد اليوناني يمتقدون أن عملهم منحصر في خدمة العدالة والكشف عن الحقيقة في ثوبها القشيب ، ولكن هذه العقيدة لم تكن حليقة الواقع ، فقد كان بعضهم يستخدم للفوز على خصمه حيلة تضلل القضاء وتزهق روح العدالة ، فاستشعر أولياء الكلمة في اليونان ذلك الخطر الذي يحيط بالعدالة ويكتشفها من أطباها ، فأصدروا قانونا يحظر على المحامين أن لا يتخذوا المقدمات الآخذة وسيلة في دفاعهم الى الظفر بقلوب القضاة ، وأن يتمتعوا عن كل شيء يكون من شأنه استجلاب الرفق بالمهين ، أو استثارة مكان من الغضب ضد خصماتهم ، كما يحظروا على القضاة أن لا ينظروا الى المتهم نظرة تأثير حين يحاول استعطافهم واستثارة كوامن الرحمة في نفوسهم ، حتى لقد احتاطت السلطة التنفيذية فأمرت بأن يصبح صانع عند افتتاح كل جلسة تذكير المحامين بتلك النصوص التي اشتمل عليها قانونهم الجديد ، ولقت نظرهم الى ما يسترتب على تلك المخالفات من فوارج الحراة ، حتى تبقى تلك النصوص ماثلة في قلوبهم ، وحتى لا يستخدم أحدهم الوسائل غير المشروعة للفوز في خصومة باطلا . وكان من أثر إصدار هذا القانون فتور عزائم الخطباء في المحامين والمخطاط فن الخطابة بينهم .

وقد استمر المهيمسون على الدولة اليونانية والإمبراطورية الرومانية يتعقبون سير المحامين في حصوماتهم ويتجسسون مواطن الضعف حين يرون أن العدالة تكاد تفتقص من أطرافها ، حتى لقد تبينوا أن بعض المحامين يطيل في دفاعه إطالة قد تكون في كثير من الأحيان سببا في إهمال القضاة ونسيان نقط الدفاع والفلة عن مناص الاتهام ، فصدر قانون يحدد زمن كل محام ، وجعلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، وانخذت في قاعة الجلسة ساعات مائة للاحظة ذلك .

وقد صدرت تعليمات من السلطة التنفيذية فيما يشبه المنشورات الدورية ، حدث من فضول المحامين وخروجهم عن جادة الاعتدال ، ووقعهم حيث تصان كرامة القضاء .

وكان جزاء من ارتكب مخالفة لتلك التعليمات التعزيم .

أدرك الرومانيون أن العدالة كيان الأمم وعنوان مجدها وسبيل عظمتها ، وأن القضاء أهم أركان العمران في الأمم ، فاحتار (رومولوس) وهو أول ملوك الرومان على مارواء الصلابة أحمد فتحى زغلول باشا عددا من الأشراف وألف منهم مجلس الاعيان وحمل الباقي من أمثالهم في العلم والاختبار قواما على مصالح الطبقة الثانية في الأمة .

فانقسم الناس الى فريقين : فريق المتبرعين ومنهم أعضاء المجلس ، وفريق التالعين ، وقد ألدوا بالتابع من تسميه نحن المحامي في ذلك العصر وكيل الميكنت ، وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والمند سيده والعتيق معتقه .

وقد حددت واحبات كل فريق من الفريقين فلا تطفئ إحداها على الأخرى ، ولم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ما عليه الآن نسبة المحامى الى موكله ، بل كانت أوسع مجالا وأكثرهما ، فكان يجب على المتبوع أن يعين تابعه في جميع أموره ، ويستجده في مساعدته ما أتبع له من العزة والجاه ، وما لديه من العلم والمال ، وهو الذى يرشده في معاملاته عند الحاجة ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء إذا تلبته نائبة أو نزلت به كارثة كان من أثرها توجيه المسؤولية اليه .

ولقد بالغت تلك التقاليد يومئذ في العلاقة بين المحامى ووكيله ، فدهشت أوضاع ذلك العصر الى أن الوكيل مقدم على أقرباء المحامى ، فإذا ما تقاضى الوكيل مع أحد أقرباء المحامى ، كان على المحامى أن يحضر عن وكيله وإن أدت مراعاته الى مخالفة أقرائه والخروج عليهم .

ولقد روى الصلابة فتحى زغلول باشا أن محافظة المحامى على مصاحبة وكيله في عهد الإمبراطورية الرومانية لم يكن وصفا تقايديا خشب ، بل كان تشريعا نافذا من السلطة التنفيذية ، وكان مخالفه يستهدف للعقاب ، مما ساعد على عند الفرص الموازية أن يوفيه حقه من البحث والتعليل ، إن شاء الله .

هبلسى ط

تصحيح

وقعت في العدد السابق أخطاء هذا صوابها .

صفحة	سطر	
٦٢١	١٨	أنه لا يقال
٦٣٤	١٧	صحراء الحرائر
٦٣٥	٢	مذهب جابر بن زيد

علم الاقتصاد المصريين :

هذا اسم أحفل كتاب أنتجته قريحة مصرية في علم الاقتصاد ، لم يدع فراغ في التبحر في هذا العلم بحثا عما يتلاق به من قريب أو بعيد ، إلا أتى به محكما مفصلا لا يحتاج بعده الى مزيد . يقع هذا الكتاب الجليل في نحو ٤٠٠ صفحة اشتملت على الباب المعض من العلم ، لذلك وسعت من المباحث والنظريات والتطبيقات والشرح والتعليقات ما لا تسعه أضعافها ، في عبارة سرية شائقة ، وبيان طلي حذاب ، وهرض مرتب مناسك تنطلق النفس الى استيعابه .

صدور مثل هذا الكتاب في أوروبا وأمريكا يعتبر حدثا ثقافيا خطيرا ، يتولاه العلماء الاختصاصيون بالنقد والتقرير ، ولا نشك في أنه بالغ لدينا هذه المرة ، وإن قل المقدرون للفضل ، والمكبرون للحمود وإياهما بالغما في الإشادة بذكوره ، فلن نستطيع أن نوفي به حقه ، فسكتنى بما ذكرناه اليوم ، راجين أن نعود اليه بعد حين .

فنشكر لحضرة مؤلفه العلامة الجليل الأستاذ الدكتور محمد فهمي طيطة المدرس بكلية التجارة ما أزره لامته من عمل ضخم ، راجين له دوام التوفيق ، لا تحاف أمتة بالكثير من أمثاله .

بيان في الاندلس :

هذه قصة طريفة ، بليغة العبارة ، حسنة الأسلوب ، حجة الحوادث المؤثرة ، وضعها حضرة الأستاذ الأسمى أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ، وكيل فرع بنك التسليف الزراعى ، في نحو مائتى صفحة ، وطبعها طبعا منقنا ، على ورق ممتاز ، ومرماه منها إعطاء صورة صحيحة لما كانت عليه الحالة الاجتماعية في إسبانيا قبل أن يفتحها المسلمون ، ثم ما آلت اليه بعد فتحهم لها من ازدهار المدنية ، وسيادة الحق ، وحموم العدل . وقد افتتن المؤلف اللبق ، ليصل الى هذه النتيجة ، في تصور الحوادث ، وتلون الوقائع ، ونهضة المناسبات ، ليعطى القارى صورة حية ذات شخصية أدبية لما هو بصددده ، فأنتج إنجازا باهرا .

الحق أن هذا الكتاب قطعة فنية جديرة بالاعجاب .

الدين والعقل — برهان القرآن :

هذا كتاب ضخم حصر فيه مؤلفه الأستاذ أحمد حافظ هداية جميع مقاصد القرآن الكريم ، فأتى بطائفة من الآيات على كل مقصد ، واحتشد في بيان مطابقتها لما هدى الناس اليه من المسطق والعلم الكونى وسنن الوجود المقررة ، لجاء كتابا فريدا في موضوعه يستحق أن يجد مكانه بين طرائف المؤلفات عند كل مسلم .

حضرة صاحب الجلالة الملك

يهي شعبه والشعوب الاسلامية كافة بشهر الصيام

شعبي العزيز :

أبعث إليك وإلى إخواننا المسلمين في العالم الإسلامي بتحياتي ، وأهنئكم جميعاً بشهر رمضان المبارك الذي كتب علينا صيامه ، لما في الصوم من تهذيب النفوس ، وتطهير القلوب ، وجمال الصبر ، وبث الرحمة والخير .

لقد أقبل شهر رمضان هذا العام ، والعالم يعاني محنة قاسية ، وتمرر حوادث دامية ، فأنصحهم إلى الله تعالى لعل الله يكشف عن عباده الضر ، وادعوه مخلصين أن ينصر قضية الحق التي تؤيدها بقلوبنا ، حتى يخرج الناس من ظلمات الخوف ، وتتغلب روح العدل والحرية اللذين لا بد منهما لكل سلام دائم .

شعبي العزيز :

إن بلادنا العزيزة تمتاز دوراً دقيقاً في حوزة عالمي معمم بالأخطار ، وإن الحالة تستوجب تضافر القلوب والمواعيد حتى تكون على تمام الاستعداد ، ولا سبيل إلى ذلك بغير الوحدة الوطنية . فالتحاد الأمة وتعاونها أكبر عون لها على مواجهة المستقبل ، وإسكمت لشهددون المثل العليا تضربها بلاد العالم في الاستعداد للذود عن حياضها ، وكيف يؤدي أبنائها واجبهم في غير ما جللة ولا ضوضاء ، وكيف يؤيدون حكوماتهم في غير ما تردد ولا إبطاء ، وكيف يضعون بكل مصلحة في سبيل مصلحة البلاد العليا .

ومن حسن التوفيق أن يكون على رأس حكومتنا في هذا الوقت العصيب ، رجل نزل من نفسنا منزلة الرضا والتقدير ، لصدق وطنيته ، ولسابق بلائه في خدمة البلاد والعرش .

ومن دواعي فبطني أن أرى الحكومة شاعرة بوأحياتها ، باهصة بقضائنا ، فأحملوا معها تجمعكم فكرة واحدة ، وعاطفة واحدة ، لغاية واحدة ، هي مجد الوطن لا مجد الأشخاص .

شعبي العزيز :

هذه حاجات الساعة ومقتضياتها الملحة ، وإنها لنفرض علينا أن نحتفظ باتحادنا وهدوئنا لسكون أقوىاء ، فإن قوة الأمة أقوى ضمان لها ، وليكن لنا من دروس الحوادث عظة وعبرة . فاسميد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه .

والسلام عليكم ورحمة الله

هذه الكلمة العامة التي تفصل حصرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بتوجيهها الى شعبه وسائر الشعوب الاسلامية بواسطة الامواج الانثريه ، فنلقنها بأسماعها وقلوبها ، وكان تأثيرها فيها أبلغ تأثير ، وأنفذه الى أعماق النفوس .

لقد اشتمل هذا الحديث الملكي السامي من عناصر استنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، واستثارة الحفائظ ، على أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا المجال . وإذا أضيف الى التأثير الذي تحدثه ألفاظها الجزلة ، ومبانيها المحسكة ، ومعانيها السرية ، التأثير الذي يكسبها إياه سمو مصدرها ، عرف المدى الذي بلغه هذا الحديث الكريم من الفعل في نفوس المسلمين ، والواقع الذي وقعه من أفئدتهم .

وإذا كان تأثير الموعظة الحسنة يكون مناسباً لدرجة الإيمان الذي تصدر عنه ، فإن قلب حضرة صاحب الجلالة الملك طاهر بأرفع درجات الإيمان ، فلا جرم أن يكون للعديد الذي يصدر عنه خاصة التغلب على الأهواء ، والاحتيلاء على التزلمات .

وما أجل ما ختم به جلالاته كلمته السنية من الدعوة الى تصافي القلوب ، وتآلف النفوس ، وهذه الدعوة بهيب بها المصلحون في كل حين ، ولكنها من جلالة الملك أفعل في العقول ، وأوقع في الصدور . أعاد الله على جلالاته هذا الشهر الكريم مدى عمر طويل ، حافل بمعظائم الأمور ، وجلال الشئون .



تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فذكر كلمة في الأهرام ، يهنئ بها العالم الاسلامي لشهر الصيام ، فجاءت من أجمع كلمات فضيلته لاصول الاصلاح ووسائله ، وأفعالها في أبواب الناس وأفئدتهم ، وقد جاءت في أثناء فقراتها فقرة لا أنصدي لتقريرها ، ولو فعلت لما وجدت من العبارات ما يفي بحمقها ، ألا وهي قول فضيلته : « وأرى واحبا على تنبيه المسلمين الى أمور جدبيرة بالنظر والتنبه ، منها وجوب السعى الى الوحدة الاسلامية ليتم بينها التعاون والتناصر ، ولتكون أمة محترمة عزيزة الجناح ، صلبة القناة ، ويبنى أن تكون الوحدة شاملة لثقافة والمذاهب والآراء الخ » وهذه الحقيقة التي تولدت في عقلية فضيلة الأستاذ الامام ، وتنبأت له الفرصة لإبرازها ، هي علاج حاسم لما ينفق في الشكوى منه أربعمائة مليون مسلم لا تقرب عنهم الشمس ، فعلى كل من يغار من هذه الشعوب على حياته أن يقف جبهة على تحقيقها وكفى .

وإذا تقدم لقراءتنا نص ما كتبه فضيلة الأستاذ الامام في الصفحة التالية .

رمضان بين عامين

لمفكرة صاحب القضية الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر

دار انقلك دورته ، وأعاد رمضان سيرته ، ففلاحة المحمدية منى أصدق الاخلاص ، وأخلص
النهاي ، وعظيم الرجاء في أن يكون تجدد الشهور والسنين حاملا معه أحسن البشائر ، محققا
لأعز الأمانى ، محمدا شباب الاسلام ومجده ، معيدا سيرته الأولى ، معينا على القرب الى الله ،
ومعينا على رضا رسول الله ، حافظا هم المسلمين على التمسك بالحق ، والاستقلال برأية القرآن ،
وعلى الجهاد في سبيل الحق ، وفى سبيل الله ، وفى سبيل إحياء الاخلاق الفاضلة ، والتشدد فى
التمسك بها ، وفى سبيل إمانه المظلومين على الظالمين ، ورد طغيان المتجبرين .

قدم رمضان هذا العام والامم فى شغل شاغل ، وهم مقعد مقيم . ذك أن الحرب وإن
كانت لم تمد بقمة خاصة فى أوروبا ، إلا أن اشتراك مصالح العالم ، ووسائل المواصلات ، وإذاعة
الاحبار ، جعلت جميع البقاع بقعة ، وجميع الامم أمة ، وأى حادث عظيم فى جهة ما ، يتردد
صداه فى جميع أرجاء الكون .

انفقدت نار الحرب بين ألمانيا وبولونيا ، وذهبت الاخيرة طعمة نارها فى بضعة أسابيع ،
وهي أمة ذات عدد وعدة ، وشجاعة متوارثة معروفة ، ولها تاريخ فى الكفاح والجلاد مشهور ،
لكس مخترعات العلوم وأدوات التدمير الحديثة لا ترحم شيئا ، ولا تشفق على طفل ، ولا ترحم
حرمة ناسك ، ولا وقار عالم ، ولا تبالى شجاعة الشجعان . ولا تزال الحرب ناشبة بين دول عظيمة
شديدة المراس ، قوية الحكمة ، أعدت للحرب عدتها ، وافننت فى وسائل الدمار والهلاك ، ولهذا
الدول علاقات متشعبة فى جميع أطراف العالم ، والافكار تتبادل والآراء تنجاذب ، ولا يدرى
إلا الله ما الذى تنمض عنه الأيام ، ويحدث من الأحداث ، وهل تندلع نار الحرب فيصلى بها
من ليس من جاراتها ، وتلتهم البعيد والقريب ، أو تبقى حيث هي الآن ؟

وليس من شأنى أن أعرض لسياسة وأدلى برأى فيها ، فلا أنا من رجالها ، ولا أنا ممن يحسن
تناولها على الوجه الدقيق لا يبداء رأى نافع .

غير أن رجال الدين يجب عليهم أن لا ينسوا عبر الماضى والانماط بالحاضر ، ويجب عليهم
أن ينبهوا الى مواطن الداء وما يرجى من الدواء ، وقد قص الله فى كتابه العزيز أخبار
الماضين وسير القافرين ، وما أصابهم من سخط الله وعذابه ، فلم يترك قوم نوح ولا قوم هود
ولا قوم صالح ، وذكر قصة موسى وغيره من إخوانه الانبياء . والقرآن الكريم ليس كتاب

سير وتاريخ، بل هو كتاب هداية، ولم يسبق تلك القصص إلا للعبرة والعظة، ليقارن الناس بين الماضي والحاضر، وليحذروا الشرور والآثام، ويتعدوا عن غضب الرحمن.

وإن ما يحمله العالم الآن من الالتئام والتفرد على الكتب المنزلة، وعلى الله وعلى أنبيائه، والتفرد على ما قرره الحكماء والصالحون من الأحلاق الفاضلة، والسير الحيدة، وشق عصا الطاعة على المبادئ التي ارتكزت عند الناس وصلاح حال البشر عليها - أشد هولاً، وأوخم عاقبة، وأشد فتكاً للإنسانية، من كل ما ارتكبه الأمم السابقة من قبل، فليس عجيباً أن ينال العالم الآن من الخوف، وسلب الطمأنينة، ومن الشرور، ما هو حاصل فيه. وقد سلب الله هناءة النفس من البشر، وهناءة الطمأنينة إلى القضاء والقدر، بعد إلخادهم وطمعهم، وانقطاعهم في الشهوات، وتقديسهم عبادة المادة، وجعلهم هذه المدينة الفاسدة الحديثة بما فيها من شرور أصناما يقدمون لها الضحايا من الأنفس والأموال.

هذه عبر الماضي وعظات الحاضر، وهذا كتاب الله حي ناطق شاهد عدل وصدق.

وإني أناشد المسلمين أن يتدبروا، وأن يفتحوا كتاب الله ويفهموا ما فيه، فإله دواء لأدواء البشرية، وإله علاج للأرواح وشفاء للصدور.

وأرى واجباً على تنبيه المسلمين إلى أمور جديرة بالنظر والتنبه، منها وجوب السعي إلى الوحدة الإسلامية لينم فيها التعاون والتناصر، ولتكون أمة محترمة عزيزة الجانب صلبة القناعة. وينبغي أن تكون الوحدة شاملة للثقافة والمذاهب والآراء، لتزول تلك الفوارق التي قطعت أواصر السب، وجبال المودة الإسلامية، وكانت سبباً للضعف الذي استغل واتخذ أداة لتفريق وهدم. ومنها السعي للاستزادة من العلوم على اختلاف أنواعها، أريد العلوم الحقيقية لا تلك التي كلها خيالات وصلال ومذاهب هادمة، وأريد مع هذا كله تدبر كتاب الله وسير النبي الأكرم ومصابته.

وبعد: فإن الصوم رياضة وممران على ترك العادات وما تألفه النفس من الترف والنعيم، ومنبه إلى ارتباط النفس بالله، وبالعالم العلوي البريء من الشرور والآثام، ومن حق المسلم فيه أن يحقق لأخيه المسلم معنى الأخوة من الرحمة والرفق.

وإني أطلب إلى المسلمين جميعاً أن يذكروا دائماً في جميع عباداتهم في شهر رمضان، الالتجاء إلى الله سبحانه، والضراعة إليه: أن يعيد السلام إلى العالم، ويحفظهم جميعاً من شر الطغيان، ويقيهم من عوادي الزمان، ويحمل أوطانهم في أمن، ويسد من شرور المذاهب الضالة المضلة المبعدة عن الله، ويحفظ عليهم نعمة الإيمان والاسلام، ونعمة الهداية بالقرآن.

واسأل الله سبحانه أن يهدينا جميعاً سواء السبيل، وينير لنا الطريق، إنه ولي الإنعام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

نظرة في مناهضة للشركين للدعوة الاسلامية
وما تم عنه من العوامل

إن ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الدعوة الاسلامية ، وما لقيه أصحابه بسبب قبولهم لها يدل على أمور لا يجوز لكاتب السيرة المحمدية أن يغفلها ، وخاصة في هذا العصر الذي ساورت أهل الشبهات فيه ، ليس على صحة الرسالة المحمدية لحسب ، ولكن على صحة جميع الرسالات ، فقد اشتدت وطأة المذهب المادي عليهم حتى أنكروا المحسوسات ، فإن لم يستطيعوا إنكارها أولوها تأويلات شتى ، وذهبوا يتلمسون لها عللا طبيعية ، فتوصل الى إثبات أنها أمور إنسانية بحتة ، لا أثر لعالم الروح فيها ، إذ ليس لهذا العالم وجود حقيقى فى نظرم . ولكنهم على الرغم من موقفهم هذا لا يمكنهم أن يتخلصوا من الاعتراف بخمسة أمور وهى :

(أولا) شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الاسلامية ، دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم هذا الدين من أن العرب كانوا وقت البعثة المحمدية وقبلها قليل فى دور نهوض اجتماعى وأدبى ودينى .

(ثانيا) تعصب الذين دخلوا فى الاسلام حديثا فى التمسك بعقيدتهم الى حد صبرهم على الاضطهادات العنيفة ، والاستشهاد فى سبيلها .

(ثالثا) حدوث انقلاب لا نظير له فى التنسية العربية بسبب الاسلام نفسه ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بكل ما هى عليه من تجرد وصمو وعظمة .

(رابعا) انتصار الدعوة الاسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يسبق له منيل فى تاريخ البشر .

(خامسها) تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام التي قلبت خريطة العالم، يدل على اتصاله بالعالم الروحاني الذي يصرف العالم المادي ويدبره، وهو من أقوى الأدلة على نبوته .

ونحن نعالج كل هذه الأمور لإثبات صحتها، وبذلك نقضى على أهواء الشبهات التي يكثر من ترديدتها خصوم الاسلام للإدلال على أنه دين بشري :

الامر الأول :

١ — إن شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الاسلامية دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه

خصوم الاسلام من أن العرب كانوا قبل البعثة المهدية في دور نهوض :

لا تخيل أن من كانت عنده مسكة من المطلق يجسر ، مهما بلغت به الخسومة لمذهب ، أن يدعى أن نحاح الدعوة الاسلامية في بلاد العرب كان سببها أن هؤلاء كانوا في دور نهوض اجتماعي وأدبي . ألا يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث بين ظهرائي قريش ، وهي النجيب القبائل العربية ، ثلاث عشرة سنة يدعوها الى عقائد تشهد بصحتها أوليات العقل فلم ترفع بدعوته رأساً ، اللهم إلا أفراداً من أهل قرابته ، وآخرين من ذوى العقول الممتازة الذين لا يخلو من أمتهم أى مجتمع ، مهما كان متغفلاً في الجاهلية ، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع ضروب الاضطهاد ، فلما لم يجدوا منها مخرجاً عمدوا الى المهاجرة الى الحبشة ، والهجرة الى مثلها في تعصبا لمسيحياتها ، وإسفافها في جاهليتها ، ليس بالامر الهين .

فلو كان لدى القرشيين نزوع الى النهوض لوحدت هذه الدعوة إقبالا منهم ، فإن لم يكن إقبالا فتسامحوا بهم " النفوس للتطور الجديد المنتظر . ولكن الذي رأيناه أن ما قوبلت به هذه الدعوة من النفور والاستيحاء ، يقتلع فكرة النهوض من جذورها ويرى بها الى مكان صحيح . ألم تر أنهم " عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون ساحر كذاب " ؟ هم عجبوا ؟ ألم يسمعوا قط أن الله أرسل في جميع العصور الى الأمم منذرين حذروهم مما تورطوا فيه من الآثام ، فأبى عجب في أن يرسل الله إليهم منذرا منهم ؟ لا حرم أن التعجب من هذا الامر يدل على أنهم كانوا مطمئنين الى حالتهم الى حد أنهم ما كانوا ينتظرون أن يسمعوا من جراء التآدي فيها نذرا ، ومن جسر على ذلك منهم اعتبروه ساحرا كذبا !

وقد تمادوا في وثنياتهم ، وجمدوا عليها الى حد أنهم حسبوا أن الاعتقاد بالتوحيد أمر يوجب الدهش ، ألم يقولوا : " أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب " ؟ فأبى عجب في التوحيد يمكن أن يشتد حتى يصير عجابا ؟ وهل هذه عقلية شمس في حالة تطور أو على وشك التطور ؟

وما كفاهم أن يقتصروا على التعجب من التوحيد ، ولكنهم تأمروا على المقاومة ، وتحالفوا على نصرته الوثنية : « وانطلق الملا منهم أن امضوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » أى أن كبارهم انطلقوا قائلين : امشوا أيها الناس واثبتوا على آلهتكم إن هذا لامرئ هائل يراد بكم .

والأدل من ذلك على أنهم كانوا مجردين من بواعث النهوض ودواعيه الأولية ، قولهم كما حكاه الكتاب الكريم عنهم : « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » ، يريد بالملة الآخرة الديانة التي كان عليها آباؤهم . وهذا يسجل عليهم أنهم كانوا شديدي المحافظة على تقاليدهم لا يغيرون عنها حولا ، حتى إن كل ما جد من الأمور لا يقيمون له وزنا ما دام لم يرد إليهم من طريق ديانة آباؤهم .

ويجري هذا الجري في الدلالة على مجردهم من جميع الخواطر للنهوض قولهم كما حكاه القرآن الكريم عنهم : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » وقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . وسجل عليهم الذكر الحكيم هذه الحال فقال : « إنهم ألغوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون »

الامر الثاني :

٢ — رسوخ المسلمين في عقائدهم إلى حد صبرهم على الاضطهاد ، والاستشهاد في سبيلها .

إن من يتأمل في مدى الصبر الذي تحلى به المسلمون الأولون إزاء ضروب الاضطهادات الوحشية التي شنها عليهم المشركون ، في مدى ثمن قرن ، يدهش من روح الاحتمال التي سهلت على أهلها مكابدة كل هذه المشاكه .

إن تاريخ العالم حافل بصنوف الاضطهادات التي عومل بها المبتدعة والخالفون ، وهي ، سواء أكان منارها خلافات دينية أم سياسية ، تكشف لنا مبلغ ما تستطيع العقيدة أن تعد صاحبها به من الصبر والثبات ، حتى تصل به إلى أقصى حدود البطولة ، ولكنا في كل ما رأيناه لم ننهده في طبقة العبدان والاماء ، كما شهدناه إبان الدعوة الاسلامية . فقد آتينا في المقالين اللذين نشرنا في العدد الثامن والتاسع أن عددا لا يستهان به من الأرقاء ، ذكورا وإناثا ، دخلوا في الاسلام ، حمل ذلك ساداتهم على تعذيبهم بالحديد والنار ، فلم يرجع منهم واحد أو واحدة إلى ملتها ، فكان أبو بكر رضى الله عنه يشتري ما يضر عليه منهم ويعتقه ، فيلتحق بالنبي صلى الله عليه وسلم . ومنهم من صار من رجالات الاسلام حتى وصل إلى درجة عالية كبلال ، وكان مملوكا حبشيا ، صادقه الصديق يعذب بالنار لاسلامه ، فاشتراه وأعتقه ، ووجدت مواهبه الروحية والعقلية مجالا رحبا في الديموقراطية الاسلامية الكريمة فوصل إلى دست الامارة .

وهذه الحالة من الاستهانة بالحياة في سبيل العقيدة في أمة كالأمة العربية التي لا يحفظ عنها تاريخها كبير عناية بالدين ، تعتبر ظاهرة عجيبة ، ويزيدها قيمة أنها وقعت في شعب غير متطور في الناحية الدينية كغيره من الشعوب الكبيرة ، فلم يسمع في تاريخ العرب كله أن قبيلتين اقتلتا لنصر وثني على وثني ، أو لتأييد فهم جديد لأمر من أمور الدين .

الأمر الثالث :

٣ — حدوث انقلاب لا نظير له في النفسية العربية بسبب الاسلام وحده ، إذ أبطل

فيها العاطفة الدينية :

هذه علة للأمر السابق ، فلولا أن الاسلام أبطل العاطفة الدينية في نفس الأمة العربية ، لما كان يعقل أن يتمصب له ناس فيقيمونه في وسط علة معادية له ذات كثرة ونخوة جاهلية ، ويقفون به وقفة بطولية راضين بأن يناهض أشد ضروب الايذاء في سبيله .

نعم إن النفوس البشرية لا تتجرد من العاطفة الدينية ، وكان للعرب الجاهليين قسط منها ، بدليل ما ورد من أخبار أصنامهم وأساطيرهم ، ولكن هذه العاطفة عندهم كانت ضعيفة الى حد بعيد جداً . ناهيك بأنه لم يكن يبلاد العرب كلها رجال رحميون للقيام بالخدمة الدينية ، كما كان موجودا ولا يزال موجودا في كل أمة ، حتى أحط القبائل الافريقية والاسترالية . ليس هذا لأن العرب كان لهم رأي فيما يجب أن يقوم عليه الدين من الحرية ، فحذفوا طقة رجال الدين ليضلوا السبيل لهذه الحرية ، إذ لو كان الأمر كذلك لما أجمعت عليه جميع قبائلهم ولم يكن بينها ترابط من أية ناحية كانت ، ولكنا عثرنا في تاريخهم على العهد الذي كانت فيه هذه الطقة قبل أن تحذف ، ولكنا توصلنا الى معرفة الأسباب التي حملتهم على هذا الأمر الفذ الذي ليس عليه جماعة من الجماعات الانسانية . ولما لم يكن شيء من ذلك فالعلة في عدم وجود هذه الطقة في الأمة العربية واضح كل الوضوح ، وتؤيده جميع الدلائل ، وهو ضعف العاطفة الدينية لديها .

وبما يصح أن يتخذ دليلا محسوسا على هذا الضعف في العاطفة الدينية ، عدم وجود كتاب مقدس لدى عرب الجاهلية ، يجمع بين دفتيه ما كانت تدن به من العقائد ، وتتوجه اليه من المقاصد الأدبية والروحية ، بل عدم وجود صحف أو نقوش تجمع هذه العقائد ، ولا يوجد أمة على سطح الأرض أو قبيلة ، مهما انحطت ، تتجرد من هذا كله . فبعثت هذه العاطفة القوية في قلوب أمة هي من أعصى أمم الأرض قيادا ، وأشدّها عنادا ، يعتبر من الأمور التي لا يعقل حدوثها في سنين ممدودة ، فأى عقل لا يحار عندما يلقي بنظرة على الأمة العربية قبل البعثة المحمدية فلا يجد فيها غير حروب تشب نيرانها ، وغازات يشور عجاجها ؛ وعندما يتسمع لما ينبعث من أصوات أهلها ، فلا يطرق أذنه إلا تصايح الأقران يناهض بعضهم بعضا ، وقمعة

الجهنم في أفواه الحياض تحول في ميادين القتال ، وحليل السيوف مصلته في أيدي فرسان يماول بعضهم بعضا ، ونبات ترتفع بالتهديد والوعيد ، والتمادى في المشاركة والانتقام ، وتفاخر بالآباء ، وتكاثر بالضحايا والويلات ؟ فإذا ألقي عليها بنظرة بعد البعثة وجد فيها سلا ما ضاربا مرادقه فوق الكافة ، وأخوة محقت ما كان من آثار الجاهلية ، فأصبح فيها الناس ينعمون بنعمة المحبة والتكافل للنهوض بأعباء الحياة ، وإذا ألقي بسمعه تواردت اليه أصوات التالين والذاكرين ، والمستغفرين بالأسحار والمسبحين ، وتكبيرات المصلين والطائمين ، والمتوسمين في ملكوت الله والمتأملين ؛ قلنا : أي عقل لا يحار إذا شهد هذا الانقلاب الذريع وتديره ، وخاصة إذا أراد تعذيبه فرأى أن اللعل الطبيعية لا تنجازف في محاولته ؟

هذا المنظر وحده يشهد برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤكد أن هذا الدين روح من أمر الله أنزلها على العرب ، كما أنزلها على غيرهم من الأمم ، فقامت تنفذ ما أراد الله أن يتم على يديها من الأحداث العالمية الخطيرة .

فإن قلت بعد هذا إن هذا انقلاب لا نظير له في تاريخ البشرية فلا أعني مبالغا ، فقد أضيفت في مطالعة تواريخ الجماعات ، وخاصة إبان الدعوات الدينية ، فلم أعر على مثال مما أما بصده .
الامر الرابع :

٤ - غلبة الدعوة الإسلامية على أمة يرمتها في حياة صاحبها حادث لم يمهده الناس

في تاريخ وجودهم :

إن تلمب الدعوة الإسلامية ، بمد كل هذه الاضطهادات الشنيعة ، والمقاومات العنيفة ، على أمة يرمتها ، تغلبا (إقناعيا) بدون إجبار ، يعتبر أمرا غاربا للعادة ، وليس له شبيه في تاريخ أية أمة من الأمم ، ولا أية دعوة من الدعوات الدينية أو السياسية .

هنا يعترض علينا بعضهم فيقولون : كيف تقول لم يكن فيه إجبار ، أنسيت تلك الحروب الطاحنة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وبينه وبين القبائل في مدى عشر سنين ؟ فلولوا الاجبار لكان المسلمون في جزيرة العرب قلة لا تبلغ نصف عشر مجموع أهلها .

نقول . أولسيت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام وحيدا ، فأول من لباه زوجته ، ثم أفراد من أسرته ، ثم بعض معارفه ، وكلهم لم يلبثوا أن يحموا أنفسهم ، فسيما الخسف ، وعمهوا بالصف ، حتى اضطروا للهروب بدينهم الى بلاد ليس بينها وبينهم صلة ، تخيلوها أرحم بهم من قومهم ، ثم اضطر النبي نفسه الى الهجرة مستترا ؟

إن قلت لم أنس ذلك كله ، قلنا : فهل بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم هاجر الى قوم لبوا دعوته سرا في بعض أيام الحج ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته ضد الأبيض والأسود ولو فتوا على بكره أيهم في هذه السبيل ؟

إن قلتَ بلفظ ذلك ، سألتك فأين الاكراه بعد هذا ؟ إن كل دهوة في الأرض متى تحصلت من طريق الاقتناع على أنصار يكفون لحايتها وإذاعتها ، أمنت أن تهتم أنها انتشرت بالاكراه وإن سلكت طريق الاكراه في حل بعض الجماعات على مشايعتها . فقد يكون في بقاء تلك الجماعات مشافة لها خطر على كيانها ، فيكون من حقها الاستيثاق لوجودها . أرأيت إن كانت حكومة ملكية تقوم بأزائها جماعة ترى الى قلبها جمهورية ، وقامت هذه الحكومة تأميناً لسلامتها بإجبار خصومها على الخضوع لها ، أيقال في هذه الحالة إن هذه الحكومة بقيت ملكية بالأجبار ؟ أم يقال إنها عملت ما يجب على كل حكومة أن تفعله في مثل هذه الحال ؟

إذ لم يكن هذا سائفاً فلا يعقل أن تقوم جماعة منتظمة في الأرض ، لأن الخلافات الدينية والسياسية لا يمكن ملاصقتها ، فيكون من الحق الطبيعي للكثرة التي تنولى الأمر أن تعمل ما يحفظ كيانها في حدود العدل ، والحرية الشخصية .

وهذا ما فعله الاسلام فإنه بعد أن حصل من طريق الاقتناع على جماعة تؤيده ، ودافع عن نفسه بها ضد الغارات التي تواترت عليه من خصومه ، رأى أن وجوده سالماً ، وأداءه للرسالة التي شرع من أجلها لا يمكن أن يكون إلا بعد تطهير بيئة الاسلام من الوثنية التي لا تتأقأ تهدد بالانتقاص عليه في كل وقت ترجى فيه أن تتغلب عليه . وقد حدث ذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ ارتدت قبائل العرب ، وندت كما تند الإبل غفل عنها قائدها ، فأعاد أبو بكر رضي الله عنه الأمر الى نصابه ، وأحضر هذه العناصر الجاهلية على لزوم الطاعة .

والمعترض حين يفترض أن الأمة العربية برمتها خضعت لدعوة فرد واحد من طريق الاكراه يسجل عليها الذل والاستكانة الى حد لم يشاهد له شبيه في تاريخ الجماعات الانسانية قاطبة .

فإذا حاول تخفيف هذا الحكم القاسي ، وقال إنه لولا الاكراه لما بلغ عدد الذين داؤوا للاسلام نصف عشر الأمة العربية ، فإنه لا يستفيد من هذه المحاولة كبير شيء ، ويتخلف من قوله أمر واحد يوجب الدهش ويسأل عن سببه ، وهو استطاعة نصف العشر التغلب على التسعة الاغشار والنصف ، فإذا صح هذا القول كان معناه أن الاسلام روح إلهية تغلب كيان الآخذ به وتنفذ فيه قوة لا تمكن مغالبتها ، حتى أن الأمة لو أخذ به منها نصف عشرها استطاع أن يتغلب على مجموعها . وهذه النتيجة لا يجب أن يصير اليها المعترض ، وهي حقيقة ثابتة أبدتها الحوادث ، فإذا تلغ قوة قبيلتي الأوس والخزرج إزاء قريش ، بسط سائر القبائل العربية ؟ وقد رأيت أنهما تغلبتا على جميع القبائل بفضل الروح التي بها فيها الاسلام لا بفضل شيء آخر ، فقد كانتا في الجاهلية ليستا على شيء من التفوق ، ولم يمهدهما أعمال بطولة نادرة ، والمعروف عنهما أنهما كانتا فيما بينهما في حروب مستمرة وهما ولدا هم .

لا جرم أن غلبة الدعوة الاسلامية على أمة برمتها في حياة صاحبها حادث لم يمهده نظير

في العالم أجمع ، في كل أدواره التاريخية . فلو كانت هذه الدعوة قوبلت في أول ظهورها باستحسان أو بفثور لا يتمدى حد القول والایماء ، لكان على المعارض تعليل غلبتها على جميع الدعوات . ولكنها قوبلت بمصافة هوجاء من الاعتراضات ، لم تلبث أن استعالت الى اضطهادات قاسية توقعها نفوس مائبة ، ثم لم تلبث هذه الاضطهادات أن تطورت الى حروب طاحنة ، قتل هذه الدعوة التي تقابل هذه المقابلة ، لا يعقل أن تستسيغها النفوس إلا بعد أدوار كثيرة من التطورات العقلية والنفسية ، أما حصولها بالسرعة التي حصلت بها وفي حياة صاحبها فتمنبر معجزة يقل لها أن نسمي معجزة .

ثم لو نظرت فرأيت أنها بقيت بعد موت صاحبها ، ونمت نموا عظيما ، وتفرعت شجرتها الى كل اتجاه ، وأثمرت ثمرات لفتت بها نظر العالم اليها ، ولم تزل تشر حتى شهد بخصها جميع أهل الأرض ، كل هذا يدل على أن هذه الدعوة روح إلهية من نوع الأرواح التي يرسلها الحق لإحداث الانقلابات الكبيرة في الأرض ، ولكنها في هذه المرة دعيت لإحداث أكبر حدث عرفه البشر تغير له وجه الأرض ، ولما تفرغ من مهمتها بعد .

الامر الخامس :

٥ — تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام قبل حدوثها ، يدل على اتصاله بالعالم العلوي ، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته :

من أنجب ما لازم الدعوة الإسلامية من علامات النبوة ، والمسلمون واقفون تحت كلاكل الاضطهادات العاشقة ، وبعضهم كان هاربا بدينه تحير البحر ، والبعض الآخر لا يسكدهم مخرج من بيته مخافة أن يتخطف ، تأكيدات الحق جل وعز بأن الله سينصر أهلها على أعدائهم ، ويجعل كلهم العلىا وكله الجاهليين السفلى . فلا مشاحة في أن هذه التأكيدات تعتبر من أعلام النبوة .

ومما هو مذهى غير العقل ، ولا يقبل التعليل . لا بالنبوة ، بحسب بعض هذه التأكيدات على حالة بخيل للتأمل فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، ذلك مثل تبشير المؤمنين بأنهم سيخولون خلافة الله في الأرض ، زلت هذه الآية حين كانوا بعد هجرتهم يبيتون ويصبحون في سلاحهم قائلين : هل يأتي علينا حين من الدهر تؤدى فيه شعائرنا آمنين في مدينا ، مطمئين على وجودنا ؟ وهو قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وهموا بالصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدنهم من بعد خوفهم أمسا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وقد تحقق مؤدى هذه الآية ، فآلت الى الأمة الإسلامية خلافة الله في الأرض . والمراد بالخلافة كما هي في الآية الكريمة زعامة العالم ، لا الخلافة في الحكم ، بدليل قوله تعالى في تلك الآية : « كما استخلف الذين من قبلهم » .

ومما ينتظم في هذا الباب من التنبؤات الدالة على الانقلابات الجسيمة المقدرة للبلاد العربية قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » لما نزلت هذه الآية لم يكن حدث بين المسلمين والمشركين قتال ، إذ كان نزولها أول وجودهم بالمدينة ، فقال عمر رضى الله عنه لما سمعها : « لم أعلم ما هو ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع » . وقد اعتبر مفسرو القرآن الكريم هذه الآية من أعلام النبوة ، وبها لكذلك ، فقد كان عدد المسلمين في هذه الموقعة الكبيرة لا يبلغ ثلث عدد الجيش المغير ، ولكنه هزم شر هزيمة بعد ما هلك من قادته من لا يمكن تمويضهم .

ومما ينسلك في هذا السلك قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فإطاعت رسالته » والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين »

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تطوع بمض أصحابه لحراسته من الجاهليين ، فلما نزلت هذه الآية أخرج رأسه من حجرته وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس . وهذه من أقوى دلائل النبوة كسابقاتها . وإلا فن يستطيع أن يؤكد أن رجلا يتصدى لأمة برمتها ، يطمع في ديانتها ، ويحقر من أهلها ، ويسلم بنفسه منها ، على كثرة ما كان يتقصد بالأذى ، حتى أجمعوا أخيرا على محاصرته في بيته ، واشتراك جميع القبائل في قتله . وقد قصد بالقتل بعد ما هاجر الى المدينة ، وخاض غمرات الحروب بنفسه ، فسلحه الله من جميع أعدائه . ومما يتفق وهذا الموضوع قوله تعالى . « إنا لننصر رسولنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

وقد تحقق هذا الوعد وانتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع أعدائه أعداء الله وأنفسهم ، وانتشر الاسلام وعم نوره الأرض كما قال تعالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » وهذه الآية الأخيرة أيضا من أدل دلائل النبوة ، وفي القرآن من هذا كثير .

ومما يمتز غاية في تحدى أعداء الاسلام قول الله تعالى : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع » (أى فليمدد بحبل الى سقف بيته ثم ليختنق ، فإن قطع بمعنى اختنق) ، فلينظر ، هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟

محمد فرير ومجدي

التفسير

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا بعد تفسير سورة الإخلاص أن نشرع في تفسير « والشمس وضحاها » لتكون هذه الآيات الكونية التي ذكرت فيها كالدليل لما ذكر في سورة الإخلاص من كونه أحدا صمدا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، مع بيان ما اشتملت عليه من التوائد الجليلة ، من طلب تزكية النفوس ، والتحذير من سلوك طريق المكذبين لرسولهم « كنفود » ، الى آخر ما سنقف عليه إن شاء الله تعالى . ولنقدم قبل ذلك مقدمة ينتفع بها القارئ ويخضع لها السامع فنقول : اعلم أن القرآن هو البحر المحيط الذي يتشعب منه علوم الأولين والآخرين ، إلا أن سر القرآن الأصبي ومقصده الاسمي ، هو دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى ، وما بينهما وما تحت الثرى . وإذا نظرت بنور البصيرة التي لم تتراكم عليها الظلمات ولا أفسدتها الآفات ، لم ترى الوجود غير الله وأفعاله ، التي تقرأ فيها حكمة باهرة ، وقدرة قاهرة ، ورحمة ليس لها غاية ، وأمرار ليس لها نهاية .

وقد أكثر القرآن من لفت نظرك إلى تلك الآيات التي امتلأت بها الارصون والسموات ، وقد تمعن فيها القرآن تفننا يستولى على العقول يأخذ بمجامع القلوب ، فتارة يأمرك بالنظر فيها على سبيل الإجمال فيقول : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ، ويقول : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر عما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، آيات لقوم يعقلون » . وليس يخفى عليك أن الآية السكينة تشير إلى أن من لم يتفكر في ذلك فليس من قوم يعقلون . وتارة يلتفت الانظار بالثناء على المتفكرين فيها ، فيجعلهم من أولى الالباب الذين أثمر لهم ذلك التفكير ذكر الله في جميع أحوالهم ، فيقول : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون

في خلق السموات والأرض . وتارة يلتفت الانظار اليها بالإقسام بها فيقول : « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها » الى آخره . وتارة يبين بها ما لله تعالى من عظمة ورحمة وعكرم وعناية بخلقه ، وفي الوقت نفسه هي دلائل وانصحات وآيات بينات تقهر القلوب على الالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، والفرق في توحيده وتمجيده .

ولا بأس أن تسلو عليك بعض ما جاء في ذلك حتى تعرف الفرق بين تلك الأدلة المطلقة التي تعرفها في كتب الفلاسفة والمتكلمين من المتقدمين والمتأخرين ، حتى تقول بلسان حالك ومقالك : هذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . فانظر إن شئت الى مثل قوله : « الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقوله : « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » وقوله : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » .

واعلم أن القرآن من عاداته زيادة التقرير والتكرير ، علما بما عليه الانسان من الجهل العميق والحجاب الغليظ « ألا يعلم من خلق وهو الغنيف الخبير » فتراه يكرر ما تقدم بأسلوب آخر مع زيادة بيان وتوسع في البرهان فيقول : « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأتى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يملكون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يعقون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضيرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمث مشجبا وغير متشابه ، انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » الى أن قال : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء عابده ، وهو على كل شيء وكيل » . ثم يقول في السورة نفسها : « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » الخ . ويقول : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يفتي الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » . ويقول : « وهو الذي يرسل الرياح » الخ . ويقول : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » الى أن قال : « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » . ويقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أئمن بملك السمع والبصار ، ومن يهدي الأمر ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم

الحق فإذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون . ولما كانت هذه الدلائل واضحات يتعجب منها من كفر الكافرين وجحود الجاحدين ، أزال ذلك لبان سره الراجع الى تقديره الذي لا ينال فقال : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » .

وانرجع الى ذكر آيات التوحيد ودلائله فبقول : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم تلتقون ، وهو الذي مده الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يخشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . »
« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أتمم له بخازنين » ويقول : « خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » . الى أن قال : « والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » ويخلق ما لا تعلمون » الى أن قال : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما درأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون » ويقول : « وإن لكم في الانعام لمبة ، فسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لنا حالصا سائغا للشاربين » .
ويقول : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . « قل من ربكما يا موسى . قل : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الى أن قال في وصفه تعالى : « الذي جعل لكم الأرض مهادا ، وسلك لكم فيها سبيلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أروابا من نبات شتى . كلوا واربعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى » . ويقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير » . ويقول : « ولقد خلقنا الانسان من سلافة من طين » ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة عاقا ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحا ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .
ويقول : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » . ويقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » الى أن قال : « ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك » . ويقول : « أولم يروا أما خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فيها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » . ويقول : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجا ، وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم

خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ويبشر رحمة ، وهو الولي الخلد » . « إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » . « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف ببنيناها وزيناها وما لها من فروج » . « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » . « والأرض وضعها للأنعام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو المصف والريحان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » . ويقول : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والآنصار والأفئدة ، قليلا ما تفكرون » . « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » . « أنجب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نقطة من مقي معنى . ثم كان علقة خلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » .

وقد ذكر في سورة الروم عدة آيات واضحة فقال . « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تتخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا . ثم قال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك آيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار واستغاثكم من فضله » . « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا » . « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » . « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون » الخ الخ .

ولقد نصر على هذا وهو قليل من كثير . وقد ظل بعض فلاسفة أوروبا : يكفيني من آيات الله أنه خلق الآتي بجانب الذكر ، ومتعها بخصائص ليست فيه ليم ما أراد منها . « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فتارة بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان . عظم والله البرهان ، وامتلا الوجدان ، ووصل إلى حد المباني ، وليس بعد المباني بيان .

وقد رأينا أن من المناسب جدا لهذا المقام أن نذكر لك شيئا مما قاله الإخصائيون عن سمة العالم لتعرف بذلك شيئا من عظمة الله تعالى وتقول ما قاله صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وانسمعك بعض ما قال أساطين علم الطبيعة بأوروبا في ذلك الموضوع حتى تعرف أن الملحدين ببلاذم كذبوا على علم الطبيعة الذي لم يأخذوا منه إلا قشورا ، فنشدقوا بها وكانوا قوما جورا . ولندأ نقول بأكون : « من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاء كان ملجدا ، ومن شر به عبا أوصله إلى الخالق » . وقول سبنسر : « ليس الغرض من علم الطبيعة أن تعرف تلك الظواهر التي يعرفها تلاميذ المدارس ، بل الغرض الأصمى أن تقف على ذلك الحسر الذي نستشرف منه

ما وراء الطبيعة » . ولقد صدق ، فالأرض مملوءة بالآيات ، فانظر تر الأرض يابسة فما أسرع أن تكسى حلايب سديسية ، وتقرش أعطاء ملوثة زرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون وتعطيكم ما به تتداوون ، ثم هي مهادر لكم عليها تنامون ، وجمال لكم في رياضها تنتزهون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء به تستشفون ، وجعل السماء قبة صافية ذات حلايب زرقاء مرصعة بالدراري الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ويزجي السحاب ، « فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد » « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .
ولعلم الحق إن هذا النظام البديع ليدل على قدرة باهرة أوحده ، وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

أما سعة العوالم فتقربها اليك ببيان سير السور وما يقطعه من المسافات بالنسبة الى الكواكب المختلفة ، فنقول : إن الدور يسير في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، فاضربه في الدقيقة ثم في الساعة ثم في السنة الى آخر ما ستسمع ، فهذا النور الذي عرفت سيره السريع يصل اليها من الشمس في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار حسمى من الأرض الى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها في أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة ، فإذا تقول إن قلنا لك : إن الشعري العمور لا يصل ضوءها اليها إلا في ٩ سنين نورية ، والفسر الطائر لا يصل صوؤه اليها إلا في ١٤ سنة نورية ، والنمر الواقع في ٣٠ سنة ، والعيوق في ٣٣ سنة ، والساك الراح في ٥٠ سنة ، الى أن تصل الى خمسمائة سنة وألف سنة ، وأكثر من ذلك على ما بينوه . ولذلك يذهب بعضهم الى أن العوالم لانهاية لها ، وإن كان علماءنا لا يقولون بذلك بناء على أدلتهم العقلية التي تراها في كتب التوحيد الفلسفية . ومجموع الذي علمه نوع الانسان الى الآن ٣٢٤ مليوناً من النجوم على ما يقولون .

ولتعلم أن من النجوم ما هو أضوأ من شمسنا بكثير ، حتى قالوا إن الشعري تفوقها بخمسين مرة ، وبنات نعش تفوقها بنحو ثلاثمائة مرة ، والمجاكين يفوقانها بنحو ستائة مرة ، وإنما يظهر نور هذه النجوم لنا ضئيلا لشدة بعدها عنا ، وقد عرفت ما يقطعه السور في الثانية الواحدة فإذا عسى أن يكون ما يقطعه السور بسيره السريع في تلك المدد المتطاولة التي يحتاج اليها في وصوله اليها ؟ فسبحان الكبير المتعال الذي تقصر العقول عن درك كماله ، وتخفض السموات ومن فيهن لعظمة جلاله ؟

يوسف المبروي

عضو جماعة كبار العلماء

الشيعة

الإيمان والاسلام

عن أنى هريزة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أى العمل أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور .
رواه البخارى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور ، أحدها : معنى الإيمان والاسلام وبيان اختلاف آراء العلماء فى معناهما . ثانيا : شرح معنى قوله : الجهاد فى سبيل الله . ثالثا : شرح قوله : حج مبرور .

(١) اختلف العلماء فى معنى الإيمان والاسلام اختلافا كثيرا ، وسبب ذلك يرجع الى ما فهمته كل طائفة من ظواهر الأحاديث الصحيحة ، فان بعضها يدل على أن الأعمال البدنية من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وغير ذلك داحلة فى معنى الإيمان ، وبعضها يدل على اتحاد الاسلام والإيمان ، وبعضها يدل على تعاريفها ، وبعضها يدل على أن الإيمان هو التصديق فقط بدون ذكر للأعمال ، الى غير ذلك مما سنبينه لك هنا .

فعل الذين يريدون الوقوف على معنى الإيمان والاسلام أن يفرقوا قبل كل شيء بين المعنى اللغوى ، والمعنى الشرعى الذى يوافق اصطلاح كل طائفة من الطوائف الآتى ذكرها . فعنى الإيمان فى اللغة التصديق مطلقا ، سواء كان بالله ورسوله أو بغير ذلك . فن صدق بالله كان مؤمنا فى اللغة كمن صدق بآله آخر أو بأهله متعددة كما هو الحال فى المشركين الذين يعبدون الأصنام . أما معناه فى الاصطلاح فإليك بيانه على الترتيب الآتى :

الاول : اصطلاح جمهور المتكلمين الأشاعرة ، قالوا : الإيمان : هو التصديق بالقلب . فن صدق بقلبه بأن الله إله واحد ، وأن محمدا عبده ورسوله الى الناس أجمعين ، كان مؤمنا لا يخلد فى النار يوم القيامة . وقد اتفق معظمهم على أن من صدق بالله ورسوله ثم أدركه الموت قبل أن ينطق بلسانه أو يعمل بجوارحه ، فإنه يكون مؤمنا بينه وبين الله تعالى . وحتهم فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان »

فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : « أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » الخ .

فهذا يدل على أن الذى يؤمن بالله ورسوله لا بد أن يخرج من النار وإن كان قد يعذب على ما كسبه من عمل سوء . ولا سبيل الى جمل الإيمان فى الحديث بمعنى العمل الزائد على التصديق كما هو رأى لبعض الأئمة ، لأن الحديث صريح فى أن المراد بالإيمان هو المتعلق بالقلب ، وهو التصديق الحسب .

ولا منافاة بين هذا الحديث وبين ما أخرجه البخارى عن أنس وهو : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شميرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير » . وفى بعض الروايات « وزن ذرة من إيمان » بدل وزن ذرة من خير .

وذلك لأن حديث أبى سعيد الخدرى الذى يحنج به الإشارة معناه أن التصديق كافى فى الخروج من النار بدون أى عمل ، وحديث أنس معناه أن التصديق (مهما كان وصفه) مع قول لا إله إلا الله يكفى فى الخروج من النار . وهو كذلك ، فانه إذا صح أن يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، وإن لم يقل لا إله إلا الله ، صح أن يخرج منها من آمن وقال لا إله إلا الله من باب أولى ، فلا تنافى بين الحديثين .

هذا حكم من آمن بالله ولم يتمكن من النطق بالشهادتين ثم مات . أما من آمن بقلبه وعاش مدة يستطيع أن ينطق فيها بالشهادتين وعلم بوجود النطق بهما ، فحكمه عند ظهور الإشارة حكم الأول فى كونه غير مخلد فى النار ، لأن المدار فى ذلك على الإيمان بالله ورسوله . وقد أورد على هذين الوجهين أن فرعون موسى مؤمن ، لأنه أقر بلسانه ولا بد أن يكون فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فى هذه الحالة مع أن المسلمين مجمعون على أنه ليس بمؤمن . نعم قال صاحب الفتوحات المكية : إن فرعون مؤمن بهذا القول . ولكن رأى صاحب الفتوحات هذا لا يحرق الإجماع . والواقع أن سياق الآية لا يؤيد صاحب الفتوحات وأنصاره ، وذلك لأن الله سبحانه لو علم منه الإيمان حقاً لرد عليه رداً جليلاً ، ولكنه رد عليه بما يفيد أن إيمانه فى هذا الوقت لا يجديه نقماً . وكيف يصنع بقوله تعالى : « آلاآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » ؟ فهذا يدل على أن إيمانه لم يكن فى الوقت الذى يقع فيه الإيمان ، كما قال تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قل إني تبت الآن » . والرأى السديد فى بيان هذا الوقت هو أن يتأكد الإنسان من موته ولم يبق له أى أمل فى الحياة . وقد ورد أن فرعون قال ذلك حين أُلجِه الفرق وأصبح هالكا لا محالة . على أن صاحب الفتوحات المكية

قرر أنه سيعذب بما كسبت يده ، ولكنه لا يخلد في النار الى ما لا نهاية . وهذا مذهبه في فرعون وغيره من الكافرين . فالواقع أنه لم يأت بمجديد في مسألة فرعون ، وذلك لأنه يرى أن الخلود والتأبيد الواردين في القرآن معناهما طول المدة . وقد وافقه على هذا الرأي ابن تيمية وابن القيم ، واستدل ابن القيم على ذلك بأدلة كثيرة في كتابه : حادي الأرواح ، فمن أراد أن يعرفها فليرجع اليه .

ومن هذا تعلم أن جمهور الأشاعرة الذين قرروا هذا لم يقولوا إن مرتكب الجرائم التي نهى الله عنها لا يعذب عليها إذا مات ولم يقب ، ولكنهم يقولون إنه سيعذب على ما كسبت يده ، والله أن يعفو عنه إذا شاء ذلك ، وما كان لأحد أن يقدم على جريمة من الجرائم وهو يعتقد أنه على خطر عظيم ، وأنه لا يدري هل تغفر له هذه الجريمة ويكون داخلا فيمن يصح أن يشاء الله لهم من المغفرة أو لا . فليس في هذا الرأي تساهل في الحث على أداء الواجبات الدينية والخلقية التي كلفنا الله بها .

هذا وظاهر الأحاديث التي تقدمت يقتضي أن التصديق يزيد وينقص ، وهو كذلك ، ولكن التصديق يطلق على الاعتقاد الجازم الحاصل عن دليل يقيني لا شبهة فيه ، وهذا لا يحتمل الزيادة والنقص ، ويطلق على التصديق الحاصل بالتقليد ، ولا شبهة في أن مثل هذا التصديق قابل للزيادة والنقص ، فإن الواقع المحس هو أن المصدقين متفاوتون في استمساكهم باعتقادهم وإن تساوا في اتصافهم به ، فترى اثنين من العقلاء يعتقدان عقيدة واحدة سرت إليهم من آباءهم أو من البيئة التي نشأوا فيها ولكن يمكن تشكيك أحدهما دون الآخر ، ويرجع ذلك الى قوة اعتقاد أحدهما دون الآخر ، فدل ذلك على أن التصديق لا يلزم أن يكون على حالة واحدة ، باعتقاد القلب الجازم الذي لا يرتكز الى دليل يقيني ، قابل للقوة والضعف . وهذا هو رأي كثير من السلف ، منهم الامام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، ولم على ذلك أدلة ، منها حديث أبي سعيد الخدري وحديث أنس المذكورين ، ومنها قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً » . أما الامام أبو حنيفة فقد نقل عنه أنه قال : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإن كان قد يتفاوت بأمور زائدة عليه خارجة عنه ، فقد تكون أسباب الإيمان أكثر جلاء عند بعض الأفراد دون بعض ، فإذا ظهر السبب بنسبة واحدة كان التصديق متساويا عند الجميع ، مثال ذلك الحكم بحديث العالم ، فانه بعد معرفة أدلته ودفع الشبهة الواردة عليها يصبح كالحكم بأن الواحد نصف الاثنين . والامر في ذلك حين ، فإن الحنفية يسمون بأن الإيمان يقوى ويضعف لا يحسب داته ، بل بحسب الأدلة الخارجة عن ماهيته . ولكن هذا تكلف لا حاجة اليه ، فإن الظاهر يؤيد جمهور الفقهاء والمحدثين الذين لا يشترطون في الإيمان أن يكون بمعنى التصديق الجازم الحاصل عن دليل يقيني لا يحتمل التشكيك . هذا هو اصطلاح جمهور المنكلمين الأشعرين .

الرأى الثانى : للمعتزلة ، وهؤلاء قالوا : إذا تعدى الإيمان بالبهاء كما إذا قيل : آمن به ، فإن معناه يكون منحصرًا فى التصديق الحارم . أما إذا ورد الإيمان بدون تعدية بالبهاء فإن معناه يكون شاملاً للاعتقاد والأعمال والاقرار باللسان ، وهل أعمال الجوارح والاقرار باللسان داخلان فى ماهية الإيمان الشرعى أو هما شرطان فى صحته ؟ الظاهر أنهم يقولون إنها جزء من حقيقة الإيمان ، وإن كان بعض شراح الحديث نقل أنهم يقولون إنها شرط لصحته .

وعلى كل حال فإن المعتزلة يقولون لا يتحقق الإيمان إلا إذا اشتمل على ثلاثة أمور : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والأعمال التى كلفها الشارع بها . فإذا ترك شيئاً من ذلك لم يكن مؤمناً . وهل الأعمال التكليفية تشمل المندوبات أو هى مقصورة على الواجبات ؟ خلاف فيما بينهم . والمحققون منهم على أن المندوبات لا تدخل فى الإيمان . وعلى كل حال فهم يجمعون على أن مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمن ، ويخلد فى النار إدامات وهو مصر عليها ، وهو قول لا يلتقى مع كثير من نصوص الكتاب والسنة ، وكيف ينفق ذلك مع قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وقوله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » ، وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ، فهل من العدل أن يعمل الإنسان صالحاً فى كل أدوار حياته ثم إذا ارتكب كبيرة مرة واحدة ومات حبط كل عمله ؟ إن هذا فاسد لا شك فيه . ثم يحبط الأعمال كلها الردة عن الدين ، فإذا ظل عاملاً طول حياته ثم ارتد عن دينه ومات حبط عمله بنص القرآن . ومن الغريب أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة يقول : إن ترك المندوب يهدم الإيمان ، فمن فعل مكرهاً يخلد فى نار جهنم . ومعنى هذا أن معظم المسلمين يخلدون فى نار جهنم ، فإن المندوبات لا حد لها ، فإذا فرض وترك الإنسان مندوباً ولم يفعل ما يكفره ثم مات يخلد فى النار . وهل يقول بهذا عاقل ؟

الرأى الثالث : للخوارج ، وهؤلاء على رأى واصل بن عطاء فى هذا الموضوع ، فإنهم يقولون : إن الإيمان بالله معناه المعرفة بالله وبكل ما وضعه الله عليها دليلاً عقلياً أو نقلياً من الكتاب والسنة ، ويتناول طاعة الله تعالى فى جميع ما أمر به من فعل وترك صغيراً كان أو كبيراً ، فمن ترك خصلة من هذه الخصال فإنه يكون من الكافرين . وقد عرفت أن هذا رأى فاسد لا يبعث الله به .

الرأى الرابع : للمرجئة ، وهؤلاء كانوا مع المعتزلة على طرفى تقيض ، فالمعتزلة أفرطوا ، والمرجئة فرطوا وقالوا إن كل الذنوب كبيرة كانت أو صغيرة لا قيمة لها بعد الإيمان ، فمن آمن بالله ورسوله فقد نجا ولو كان زانياً سارقاً قاتلاً . وهذا فساد فى الدين لا حدة له . ولعله

قد سرى الى هؤلاء من أن عقيدة الإيمان بالمخلص تكفى في النجاة . وثق صبح هذا كانت التكليف الشرعية عبثاً ، وكانت الأوامر الإلهية التي وردت في كتاب الله وحنه رسوله لعبا . والرأى السديد الذي يقتضيه صريح الدين ويؤيده العقل : هو أن الناس مجزيون بأعمالهم من خير وشر ، فمن عمل صالحا وهو مؤمن كان له على الله أن يدخله جنات النعيم ، ومن عمل سوءا وهو مؤمن فإنه يجزى عليه بالعذاب بقدر هذا العمل ، والمؤمنون بالله ورسوله لا يخلدون في نار جهنم وإن كانوا يعذبون بحسب أعمالهم كما ذكرنا ، والكتاب والسنة يؤيدان ذلك في كثير من المواضع ، أبرزها قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذا أم ما قيل في الإيمان ، ولا يخفى أن الحديث الذي معنا يدل على أن الإيمان غير أعمال الجوارح ، لأن السائل سأل عن العمل مطلقا سواء كان عمل القلب أو عمل الجوارح ، فأجابته الرسول صلوات الله عليه : أفصل الأعمال عمل القلب وهو الإيمان ، فأطلق الإيمان على عمل القلب .

أما الجهاد والجهاد فيها من الأعمال الظاهرة . وهو دليل لمن يقول : إن الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان .

أما الاسلام فمعناه لغة : التسليم وترك الاعتراض فيما لا يلائم . أما في الشرع فانه قد ورد على ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه مرادف للإيمان ، ثانيها : أنه متاخر للإيمان ، ثالثها : أنه جزء من الإيمان داخل فيه .

مثال الأول قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » . ومعنى الآية . فأخرجنا آل لوط المؤمنين من القرية التي كان يسكنها قومهم فلم نجد فيها غيرهم ، إذ لم يكن بين قوم لوط مؤمن سوى آل لوط إلا امرأته ، فسميهم الله أولا مؤمنين ، وسميهم ثانيا مسلمين ، فدل ذلك على أن الإيمان والاسلام متفقان في المعنى .

ومثال الثاني قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » فإن معنى أسلمنا : أظهرنا بالاسلام والخضوع وقلوبنا غير مصدقة ، فالاسلام هنا مقابله للإيمان . ومثال الثالث : ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : أي الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الاسلام ، فقيل له : أي الاسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان . فدل ذلك على أن الإيمان داخل في الاسلام وجزء منه .

(٢) وأما الجهاد في سبيل الله فهو فريضة من أهم الفرائض الدينية ، والعناية به ينبغي أن تكون فوق كل عناية ، وذلك لأنه يتوقف عليه عز الأمة وصيانة دينها وكرامتها . ولقد كان المسلمون الأولون لا يحرمون على شيء في الحياة الدنيا إلا على العزة والكرامة والحفاظة

على دينهم بجميع الوسائل المشروعة ، وأولها الجهاد في سبيل الله ، ومقاومة المخيرين الذين يريدون أن يسندلهم ويسلمهم مجددهم وكرامتهم ويعيشوا بأحلاقهم ودينهم . وإن لنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن حذا حذوهم من المؤمنين حقاً كبير العظات وأجل العبر . ولعلنا نوفق إلى أن نكتب للمسلمين المتفرقين الذين طغت عليهم الشهوات الفاسدة من ذلك شيئاً إن شاء الله .

(٣) وأما الحج المبرور : فهو من أجل وسائل التهذيب ، وأعظم قواعد الاسلام المبنية على ضرورة التعارف والاتحاد والتناصر والتواد . فالحج خصوص لله عز وجل ، وذكر لعظمته التي لا تحدها العقول ، وفيه منافع للناس من تعارف وتواد ، وفيه ذكر لليوم الآخر . وسعود إلى الكلام عليه بعد لضييق المقام الآن ، والله الموفق المعين .

عبد الرحمن الجزيري

فضيلة الحياء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء خلقاً وخلق هذا الدين الحياء » . قال علماء الأخلاق في تحديد الحياء : إنه التوقى من فعل المساوئ خوف الدم . وهذا ما معناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لأبي : عليك بالحياء والألفة ، فإنك إن استحييت من الفصاة تجنبت الخساسة .

قال حكيم : من المروءة أن لا تعمل شيئاً في السر يستعيا منه في العلانية .

وقال عمر بن عمر الجاحظ - الحياء لباس سابع ، وحجاب واق ، وستر من العيب ، وأخو العفاف ، وحليف الدين ، ورقيب من العصاة ، وعين كاللثة تدود عن الفحشاء ، وتنبه عن ارتكاب الأرجاس ، وسبب إلى كل جميل .

وقال حكيم : لا ترض قول امرئ حتى ترضى فعله ، ولا ترض فعله حتى ترضى عقله ، ولا ترض عقله حتى ترض حياته ، فإن ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم ، فإذا قوى الحياء قوى الكرم ، وإذا ضعف الحياء قوى اللؤم .

وقال غيره : لا يزال الوجه كريماً مادام حياؤه ، ولم يرق بالحاجة ماؤه .

وقال شاعر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

من هو الولي ؟

يسأل كثير من الناس عن حقيقة الولي ومميزاته ، ويحارون في معرفة ذلك حين يرون أو يسمعون أن بعض الأشخاص يلزم بيته ، فلا يخرج لصلاة ، ولا يؤدي عبادة ، ومع ذلك يجد من يعتقد فيه الولاية ، ويشرك به ، ويستغني بزيارته ، ويستغني عن المغيبات وما يجري به القدر من الوقائع والحوادث ، ثم يتأول عدم صلاحه بأن له أحوالاً خاصة تسقط عنه الفرائض ، أو يزعم أنه يصلي عند البيت الحرام ثم يعود من غير أن يشعر به أحد .

ولقد يكثر الجدل عندنا في مثل هذه المسائل ، ويشد النزاع عليها ، ثم لا يصل المتنازعون إلى نتيجة حاسمة ، أو غاية واضحة ، تقضي على أسباب النزاع ، وتزيل ما شجر من خلاف ؛ ولو أنهم إذ يقتنازعون يرجعون إلى قول الله ورسوله ، ويرضون به حكماً ، تخلصوا أنفسهم من الحيرة ، واهتدوا بعد الضلال ، وظهر لهم الحق وانحما لا ليس فيه ولا إبهام : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، ذلك خير وأحسن تأويلاً .

وها نحن الآن نقرر المسألة التي نحن بصدد حلها مستنديين فيما نقرر إلى ما نطق به الكتاب العزيز ، وما ورد من الصادق المصوم صلوات الله وسلامه عليه ، وما روي عن بعض الصوفية ، ليعلم هؤلاء الادعاء حظه من الدين ، وإلى أي حد جنوا على صلتهم بأسلافهم ، وابتمدوا عن هديهم وطريقهم ، فنقول وبالله التوفيق :

قال الله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم النشرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة » لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم . فن هذه الآيات ، تبين أن الولي هو الذي جمع إلى الإيمان الكامل التقوى الدائمة المتصلة ، ومن هنا قالوا : إنما سمى الولي ولياً ، لأن الله قد تولاه بالمعونة والنصر ، والتأييد والحفظ ، أو لأنه قد والى بين طاعات الله ، وواصل بين أعمال البر والخير ، فلم يفعل من المعاصي والشور ما يقطع تلك الحلقات المتصلة المتوالية . وإذا كانت الولاية الحققة تعتمد أمرين : الإيمان الكامل ، والتقوى الدائمة ، فقد تكفل القرآن الكريم ببيانها وشرحها في غير آية ، اقرأ قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . وقوله جل شأنه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى

رهبهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . « وائل إن شئت » إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجمون . وبالأسحار هم يستفخرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، إلى غير ذلك من الآيات ، وهي كثيرة ، وكلها ناطقة بأن الإيمان لا يتم ، والتفوى لا تتحقق — وما حقيقة الولاية — إلا باقامة الفرائض ، والحفاظة على الشعائر ، والسبق إلى الخيرات ، والتزام الحدود .

ويحدثنا البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطئ بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » . والحديث بين أن أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما فرض من فرائض ، وشرع من واجبات ، ثم يرقون من ذلك إلى الاستزادة من فعل النوافل والمندوبات ، لتصفو قلوبهم ، وتسقى قلوبهم ، فمن كان كذلك قرب الله إليه ، وأذناه من حضرة ، ورقاه إلى درجة الاحسان ، فعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله ومحبه ، وتمظيمه وإجلاله ومهابته ، والانس به والشوق إليه ، ومتى امتلأ القلب بذلك ، محاذ عنه كل ماسواه ، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ، فلا إرادة له إلا ما يريد منه مولاه ، وحينئذ لا ينطق إلا بذكره ، ولا يتحرك إلا بأمره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سمع سمع بالله ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به ، فلا تنبعت الجوارح إلا بالطاعة ، ولا يصدر عنها إلا ما يرضى الله . والحديث يبين بعد أن من نتأج تلك المحبة أن العبد إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه ، وإذا استعاذ به من شيء أطأه منه ، وإن دعا أجابه ، لمزلته منه ، وكرامته عليه .

وفي مسند الامام أحمد من حديث عمر رضي الله عنه : « إن من عباد الله ناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله تعالى ، قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وحوهم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا هذه الآية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . والحديث يصف لنا الأولياء ببعض مميزاتهم وتوصافهم ، وأنهم يتحابون في الله ، ويحتممون على طاعة الله ، من غير أن تكون بينهم أرحام أو أنساب تربطهم ، ومن غير أن تكون لهم أغراض دنيوية تجمعهم .

وروى البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رجل يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رُموا ذُكر الله ، أي أن لهم من حسن السمعة في الطاعة وآثار الصلاح

ومظاهر التقوى ، وعلامات الخضوع والإخبات والابانة ، ما يذكر الناس برهم ، ويحملهم على التأسى بهم ، والافتداء بأنفسهم .

فهذا بعض مما نطق به القرآن ، وجاءت به الأحاديث في بيان الأولياء ، وشرح مميزاتهم وخصائصهم ، فمن تحقق بها وكل بها نفسه ، فقد صار في زميرهم ، وليس يلزم أن يخرق الله له العادات ، أو يظهر على يديه من الكرامات ما هو غير معمول ومألوف (كالشيء في الهواء ، والمشي على الماء ، والإخبار بالمغيبات) مما يرى بعض العامة أنه ضروري للولاية . وحسبه كرامة عنابة الله به ، وروحانيته له ، ومحنته إياه ، ووقايته من الفتن والشهوات ، وحفظه من المعاصي والمسكرات ، حسبه أن الله وليه وناصره ، ومعينه ومسنده ، وأنه سميع لدعائه ، مجيب لدعائه ، محارب من يعاديه ويؤذيه ، موال من يحبه ويواليه .

فأين مما ذكرنا أولئك الذين يدعون الولاية ويحترمون بها ؟ هل يعرف الدين أن الولاية حرفة وباب رزق يدر على الولي الأموال الطائلة من الجبهة والبسطاء ؟ وهل تتفق الولاية مع هذا الجشع والاحتيايل على الدماء ؟ ولماذا لا تنفتح النفحات ولا تنفتح التركات إلا بالقود يدها السفهاء ؟ وهل تبقى ولاية لمن يسأل الناس ويتكففهم بعد قول إمام الأنبياء وسيد الأولياء وصفاة الاتقياء صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يأخذ أحدكم أحبه فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » ، وقوله عليه الصلاة والسلام « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مزعة من لحم » ؟ لكن القوم — طافم الله — يدعون أن لهم أحوالا تغاير أحوال الشريعة ، وأن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر ، فعملهم خاضع للحقيقة وإن أسكرته الشريعة ، لذلك يبيعون لأنفسهم أن يسألوا غير الله ، ويحتالوا على جمع المال بشئ الوسائل والأساليب ، فيجلس أحدكم في بيته فيأتيه الأغرار للاستشفاء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، وتزويج الأيتام وتوظيف الماطلين إلى آخره ، وليس عليهم بعد ذلك من حرج إذا تركوا الصلاة والصوم ، وهجروا شعائر الدين ، واختلوا بالنساء ، ما داموا قد تحملوا من قيود الشرع وصارت لهم أحكام خاصة بهم . ومن المعجب أن هذه الدعوى الفاسدة لا تزال تجد عقولا تصدقها وتخدع بها ، ولا تزال تجد من يروج لها من العامة وأشباه المتعلمين ، وهي تتمثل إلى حد كبير بما أدخل على طرق المتصوفة في زماننا من الأحداث والبدع المنافية للدين .

فقد كان الفرض الاسمي من التصوف عند السلف الصالح ، هو رياضة النفوس وتهذيبها ، ومعالجة أمراض القلوب وإصلاحها ، والاحذ بعزائم الأمور ، والزهادة في متاع الفروع ، كل ذلك على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ، كما يعلم ذلك من تتبع أحوالهم ، ودرس تراجمهم ، واطلع على مؤلفاتهم ، وقرأ ما لهم من الحكم الجليلة والمواعظ المفيدة ، ورأى أنهم كانوا على علم

بالدين أضافوا اليه الاخلاص في العمل به ، والسير على منهجه ، فكان لهم بذلك أثر طيب في تهذيب النفوس وإرشادها ، وهدايتها من ضلالها ، وكانت لهم جولات صادقة في الدعوة الى الله ، ومجتمعات حافلة لتذكير والإرشاد ، أنجبت كبار الوعاظ والزهاد .

أما اليوم فقد أصبحت الطرق — إلا ما عصى ربك — وسائل لكسب العيش ، وغرس الضرائب والأتاوات ، وأسندت شئونها لكثير ممن يجهل الضروريات من دينه ، ولا يعرف السنة من البدعة ، ولا يدري متى تصح العبادة ومتى تبطل ، ولا يستطيع أن يعالج قلبه من مرض العجب والحسد وحجب الشهرة والصيت . فلا الشريعة درسها ، ولا الحقيقة عرفها . أصبح التصدي لإرشاد الناس بدهوى التصوف ميسورا لكل أني حاهل ، لا يعرف صفات ربه ، ولا سيرة نبيه ، فيبتدعون في الأذكار ما تخليه أهواؤهم ، وتحسنه شهواتهم ، ولا نسل عن تحريف في أسماء الله وتمايل ورقص ، وصغير وضرب بالدف ، وغير ذلك من كل ما يخالف الآداب ، ويبرأ منه سلفهم الأولون . وليس من شك في أنه كان لهذا أثره السيء في قلب الأوضاع والسمكاس الأفهام ، وظهور بعض من رجال الطرق بمظهر الولاية الزائفة ، والصالح المصطنع الذي لا يرتكز على أساس من الدين ، ولا يمت بسبب الى صفات المتقين .

قال العلامة الألويسي في تفسيره نقلا عن بعض المحققين ما يأتي :

« الشريعة ثلاثة أجزاء : علم ، وعمل ، وإخلاص ، فإلم بتحقيق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة ، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى ، وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية » ورضوان من الله أكبر . « فالشريعة متكاملة بجميع السعادات ، ولم يبق مطلب وراء الشريعة ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الاخلاص ، فالقصد منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك » . ثم نقل عنه أيضا ما يأتي : « فنقرر أن طريق الوصول الى درجات القرب الإلهي منحصر في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار مأمورا بها في آية « قل هذه سبيلي أدعو الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعني » . وآية « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » تدل على ذلك أيضا ، وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ومنحرف عن المطلوب الحقيقي ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة ، وشاهد ذلك آية « وأن هذا صراطي مستقيما » وآية « فإذا بعد الحق إلا الضلال » وآية « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً » وحديث « حط لنا النبي صلى الله عليه وسلم » الخبر (١) ، وحديث « كل بدعة ضلالة » .

(١) يشير الى ما رواه الامام أحمد من حديث ابن مسعود قال : « حط النبي صلى الله عليه وسلم خطا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس بها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقال سيد الطائفة الجنيد رضى الله عنه : الطارق كلها مسدودة إلا على من اقتنى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا العلم ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو الحسين الثوري : من رأته يدعى مع الله حالا تخرجه عن حدد العلم الشرعى فلا تقربه ، ومن رأته يدعى مع الله حالة لا يشهد لها حفظ ظاهره فاتهمه على دينه .

والنتيجة إذاً أنه لا يجوز لأحد أن يعتمد الولاية في شخص لا توافق أعماله ما جاءت به الشريعة ، على نحو ما فصلناه . أما دعوى الصلاة في مكة ، فهي دعوى لا يقيم لها وزن ولا يلتفت إليها ، كما أن الدراويش والمجاذيب لا تثبت لهم الولاية من أجل (دروشتهم واجداهم) إذا كانوا في ذهول حقيقى قد أثر على عقولهم ، فاصبحوا لا يدركون ما حولهم ، ولا يستطيعون تأدية واجبه ، فكيف لو كان ذهولا ادماثيا ، كما هو الغالب الكثير ؟ ولكنهم اصطنعوه لتنمويه على الناس ثقة منهم بأن هذا هو السبيل الذى به تعتقد ولايتهم ، لما وفر في نفوس العامة من أن هذا المظهر من دلائل الولاية وعلامات البركة ، كأن الولاية وقف على كل أبلة (عيبط) يلقى الكلام جزافا ، وينطق بالألغاز والعبارات التى لا يفهم لها معنى ، ولا يدرك لها مغزى ، ويلبس المرقعات ، ويمشى فى الأسواق حافى القدمين مكشوف الرأس طارى الجسم . اللهم إن الحق أبلغ ، والطريق واضح ، والسبيل نير ، ولكن أكثر الناس يجهلون ، فهل آن لهم أن يسلوكوا الطريق المستقيم ، وأن يعتمدوا فى آرائهم وأعمالهم على ما نزل به الذكر الحكيم ، وأن يستمدوا معلوماتهم من هدى الرسول الكريم ؟ يا أيها الناس قد جاءكم منكم موعدة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

رزقنا الله محسنه ومحبة أوليائه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،

أحمد قطب

الواعظ بالقاهرة

العفو من شيم الكرام

كان المأمون من أوتي العفو طبعاً لا تكلفاً ، حتى إنه قال : « إني لأستعمل العفو حتى أخاف أن لا أوجر عليه » ولو علم الناس قدر محبتى العفو لتقربوا إلى بالذنوب . وما أحسن ما قيل فى العفو شعراً :

وجهل رددها بغضل حلومنا ولو أننا شئنا وددها بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة وعدنا على أهل السفاهة بالتمصل

الاغريق والتصوف عند الغزالي

تمهيد:

كانت الأخلاق قبل الغزالي تستمد عناصرها من ثلاثة منابع مختلفة : الأول الكتاب والسنة وآثار السلف من صحابة وتابعين ومن والام من أتقياء المسلمين .
الثاني : الحكم والأمثال الشعبية من عربية وفارسية .

الثالث : مذاهب فلاسفة الاغريق التي ترجها العرب وشرحوها وعلقوا عليها ، وانتصر كل فريق منهم لبعضها وألف فيه وبرهن على صحته كما فعل إخوان الصفاء وابن مسكويه وابن حينا . فلما جاء الغزالي ودرس كل هذه المنابع دراسة صميقة لم يسه إلا أن يكون منها مزيجاً صالحاً يؤسس عليه مذهبه . غير أنه اعتبر الكتاب والسنة جوهرين أساسيين ، فاعتنق كل مالا منهما ، ونذ في غير تردد كل ما كان معها على خلاف . وإذا فهو لم يتخذ لمذهبه أساساً حقيقياً من أخلاق الاغريق أو من الأخلاق الشعبية ، وإنما اتخذ من هذين المنصرين ناصراً لمذهبه ومعيناً على إيضاحه ونشره .

نصيب الأخلاق من النظر عنده :

ليس علم الأخلاق عند الغزالي وحدة فلسفية لها أساس معين اتبع فيه واضعه نظرية خاصة من نظريات ما وراء الطبيعة كما هو الشأن عند جميع الفلاسفة الأخلاقيين . ولهذا لم يحاول معالجة المشاكل الأخلاقية من ناحية النظر العقلي البحت ، بل وصل الى تكوين بعض القواعد النظرية عن طريق استقراء جزئياتها العملية الوارد عليها النص في الكتاب والسنة ، فبدل أن صرح الفلاسفة النظريون بأن الحكم المسموع القول في مقاييس الخير والشر هو العقل أو هو الضمير أو البصيرة ، ثم وضعوا الخير والشر ومقاييسهما النظرية نصب أعينهم وأخذوا يطبقون كل ما يشاهدونه من جزئيات خارجية على هذه المقاييس ، صرح الغزالي بأن الحكم الأوحد في الخير والشر والحسن والقبح ليس هو العقل ولا الضمير ولا البصيرة ، وإنما هو الشرع . ولما لم يسكن الشرع قد وضع قواعد عامة فقد اضطر الغزالي الى أن يرجع الى الجزئيات الخارجية . فإذا مثل من لا عن الخير في ذاته لم يجب سائله إلا بعد أن يستوضحه عن الجزئيات التي يتكون منها هذا الخير ، فإذا أجابه بحادثة بقوله مثلاً : إنه يتكون من الصدق والامانة والعادلة والحياة والاحسان ، طلب إليه أن ينظره الى أن يرى حكم الكتاب والسنة في هذه الجزئيات ، ثم أخذ بعد ذلك يستعرض ما ورد في الشرع بازائها ، حتى إذا استأكد

من أنه حث على التخلق بها ، ونهى عن أضدادها ، أعلن أن السكينة المؤلفة من هذه الجزئيات ومما يحاثلها في أمر الشرع بها هي الخير حقا .

وعند الغزالي أن الأخلاق ليست مقصودة لذاتها ، وإنما الغاية منها هي تطهير النفس من الأدراة وجعلها صالحة للتصوف . ومن أجل هذا غنى عبادة فائقة بالصق الأخلاق بالنسك ، فسمى الخول فضيلة ، وأثنى كثيرا على الإخلاص والصبر والاحتفال ، وهاجم الرياء والكبر والتكبر والعجب في شيء من الصف ، وساق على قبها من الآيات والأحاديث والآثار ما يصورها في أشع الصور وأفطعها . ولكن ليس معنى هذا كله أن الغزالي قعد عن وضع القواعد الأخلاقية ، كلا ، بل إنه تصرف في هذه النظريات تصرف الرجل العالم المثقف الذي له آراء خاصة وأفكار شخصية .

وفوق ذلك فإنه كان من أدق علماء النفس العالميين وأعمقهم في اكتشاف خفايا النفوس ودقائق الفروق القائمة بين الأعمال والتي لا يقوى على إدراكها إلا كل ذي بصيرة نقادة ، وقد أهله هذه الدقة إلى أن يكون أقدر أهل عصره كافة على تعيين الفوارق الأخلاقية الدقيقة وتنظيمها ، كما جعلت أكثر ملاحظاته الأخلاقية بحثا دقيقة عميقة عن بسائط الفوارق ، وهذا هو السر في شعور الباحثين بتعذر تلخيصها عليهم ، وفي اكتشافهم بذكر أمثلة قيمة منها .

تعريف الخلق وإمكان تغييره :

يعتبر التعريف النظري الذي وضعه أبو حامد للخلق إفشاء من حاشه لذلك السر الذي كان دائما يحرص على كتابته ، وهو تأثره بالافريق ، وإن لم يكن هذا التعريف هو الوحيد الذي سبق به فيه في النوح بهذا السر ، كما سنشير إلى ذلك في شيء من الإيجاز . وإليك هذا التعريف :

« الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجيلة الممودة عقلا وشرما ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدور خلقا سيئا » (١)

وعنده أن الخلق أو هذه الهيئة الراسخة في النفس قد تكتسب من البيئة فتحسن بعد سوء ، وتسوء بعد حسن . ولذلك خطأ الذين قالوا بعدم إمكان تغير الأخلاق ، وربما بالقعود عن محاولة سلوك سبل الخير ، وهاجم رأيهم مهاجمة عنيفة ، ورهن على همة ما ذهب إليه بأنه ما دام أن طباع الحيوانات تتغير ، فطباع الإنسان أخرى بذلك ، وأنه لو كان تغير الأخلاق مستحيلا لما كان للوعظ والإرشاد أية قيمة . وهو في هذا يقول :

(١) انظر صفحة ٤٦ من الجزء الثالث من كتاب « إحياء علوم الدين » طعة الحلي .

« اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه ، استنقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتركية النفس وتهذيب الاخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره وقصره وخبط دخلته ، فزعم أن الاخلاق لا يتصور تغييرها ، فإن الطباع لا تتغير ، واستدل فيه بأمرين . أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر ، فخلقها الظاهرة لا يقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القصيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجري هذا الجرى ، والثاني أنهم قالوا : حسن الخلق يقع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمي ، فاشتغاله به تضيق زمان بغير فائدة ، فإن المطلوب هو قطع النفات القلب الى الحظوظ الماحلة ، وذلك محال وجوده ، فنقول : لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم . وكيف ينكر هذا في حق الآدمي ، وتغيير خلق البهائم ممكن ، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل الى التأديب والامساك والتخليفة ، والفرس من الجحاح الى السلاسة والاقبياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق (١) » .

وعنده أن الأصل في الفطرة الانسانية هو الخير ، أما الشر فهو عروض التشوه لهذه الفطرة السليمة . ولهذا يمكن إزالة هذا التشوه وإرجاع الفطرة الى سلامتها الأولى وجمالها الطبيعي . وهو في هذا يقول : « وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتقبل اليه والى القبايح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل للنفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يصاهى الميل الى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب ، فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر رباني ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض عن طبعه (٢) » .

وهو يرى أن أولئك الذين حادوا عن الفطرة وبادت بهم الى الخير وترويضهم عليه ينقسمون الى أربعة أقسام :

القسم الأول : الانسان الغفل الذي يأتي المخطور وهو لا يعرفه ، ويسمى جاهلا ، وصلاحه سهل .

القسم الثاني : الذي عرف الحسن من القبيح ، ولكنه قد تعود القبيح ، ويسمى في نظر المفزالي جاهلا وضالا . أما نحن فلا نرى معنى لتسميته جاهلا إلا إذا وافقنا على رأي سقراط

(١) انظر صفحة ٤٨ من نفس المصدر . (٢) انظر صفحة ٥١ من الجزء المذكور .

القائل بأن العلم يستلزم الفضيلة، والجهل يستلزم الرذيلة، لأن العلم والفصيلة، أو الجهل والرذيلة كالماء والنلج، حقيقتهما واحدة، وصورتهما مختلفتان. ولا ريب أن هذا هو أحد آثار الفلسفة الأغريقية على أبي حامد، ولكننا نحيل إلى تسمية هذا القسم ضالا فقط.

القسم الثالث: الذي يرى الشر خيرا، والحسن قبحا، ويسمى - جاهلا وضالا وفاسقا. ولا يرجى صلاحه في نظر الغزالي إلا على الندرة.

القسم الرابع: من يفعل الشر ويتباهى به ويفخر، وهو أصعب الأشخاص في الرياضة، ويسمى جاهلا وضالا وفاسقا وقسريا.

الارادة عنده:

يسمى أبو حامد الارادة بالية، ويعرفها بأنها هي المنبثقة عن المعرفة والباعنة للقدرة، وهو يجعلها أساسا للعمل ويرفعها عليه ويعتبرها خيرا منه كما اعتبرها الحديث النبوي، فقال: «إنما الاتصال بالنبات» و«نية المرء خير من عمله». والارادة في رأيه تضعف وتقوى بالرياضة والفكرين، فكأن في إمكان الفرد أن يضعف إرادته بالاهمال، يستطيع كذلك أن يقويها بالعناية. وإليك ما يقوله في هذا الشأن:

«وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياضة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياضة والأعمال المطلوبة لذلك، تأكد ميله ورسخ وعسر عليه التزوع؛ وإن خالف مقتضى ميله، ضعف ميله وانكسر، وربما زال، بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وحمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة، والمخالطة والمحاورة، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على التزوع عنه؛ ولو قطع نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك دفعا في وجهه حتى يضعف، لأن بين الجوارح والقلب علاقة حتى إنه ليشتر كل واحد منهما بالآخر، إلا أن القلب هو الأصل المتنوع، فكأنه هو الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرايا والاتباع (١)»

النصوف عنده:

كان الغزالي شديد الميل إلى القراءة، واسع الاطلاع، غريب الثقافة، لم يدم مذهبا في عصره إلا عسفه، ولا رأيا إلا ألم به. ولهذا استطاع أن يهضم نظريات الفلاسفة هضمًا يمكنه من

(١) انظر صفحة ٣١٤ من الجزء الرابع من «إحياء علوم الدين».

بسطها ومناضلتها ، واستطاع أن يتغلغل الى علم الكلام فيعرف ما فيه من نفع وضر ، وما ينتج من الاشتغال به من خير وشر ، وأن يصدر بعد ذلك حكمه الفاصل الذي قسمه الى قسمين ، وحدد لكل قسم منهما أهله الذين يجوز لهم الاشتغال به ، واستطاع كذلك أن يكون للأمة العربية في الأخلاق والتربية وعلم النفس تراثا صالحا منظورا إليه من علماء أوروبا في العصر الحديث بمعنى الاحترام والاحترام .

بهذا العلم الواسع ، وبذلك النشاط النادر الذي أوصلنا الغزالي الى معرفة كل ما في عصره ، استطاع أن يدرس منتجات الصوفية دراسة عميقة دقيقة كما هو شأنه في كل ما درس ، فأحاط بمخلفات : المحاسبي والمزني والشافعي وحرمة والجنييد والحلاج وأبي طالب المكي ، والقشيري والبسطامي وغير هؤلاء ، إحاطة مكنته من معرفة مذاهبهم المختلفة ، وآرائهم المتباينة ، ثم أخذ يصكر في هذه الآراء طويلا حتى انتهى به تفكيره الى أن المعرفة البصيرية التي لا نحى عن طريق الخواس ممكنة بدليلين ، الأول : أن الأنبياء عرفوا من طريق غير طريق الخواس ، وشاهد ذلك معبراتهم الباهرة . والدليل الثاني أن العالم قسمان : مرئي وغير مرئي ، وليس من الطبيعي أن يكون للمرئي أدوات يعرف بها دون الغير المرئي ، فإذا كانت أدوات المرئي هي الخواس ، فأدوات الغير المرئي هي البصيرة ، وعلى ذلك نمت المعرفة البصيرية ، وإذا ثبت إمكان هذه المعرفة ، وجب الاشتغال بالبحث عن وسيلتها التي ليست شيئا آخر إلا التصوف العملي الذي لا يكاد المرء يبدأ فيه بإخلاص حتى يشاهد ملاحق نتائجها ، ثم يظل يرقى من درجة الى ما فوقها حتى يفوز بما شاء الله له به ، وهو يصف هذا فيقول :

« ومن أول الطريقة تبتدى المسكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق (١) » .

غير أنه يلاحظ أن هذين الدليلين الذين ساقهما أبو حامد لا يقنعان إلا المؤمنين بالأنبياء وبالعالم «اللامرئي» . ولعله كان يريد مناقشة المسلمين الذين آمنوا بالوحي من ناحية ، وأنكروا الكشف من ناحية أخرى ، وهو لذلك يقول : « وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيئا بالدوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء هي على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل الى جبل حراء حين كان يتخوف فيه بره ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمدا عشق ربه (٢) » .

ومهما يكن من الأمر ، فقد افتتح الغزالي بوجود المعرفة «اللاحسية» ولكنه يقن بأنها مستحيلة بدون التصوف العملي الذي يبدأ بقطع علائق الحياة الدنيا وجر الأموال والمناصب

(١) انظر صفحة ٢٨ من كتاب المنقذ من الضلال الغزالي (٢) انظر صفحة ٢٩ من المنقذ .

والشهرة والحاء واعتزال المجتمع كما أشرنا الى ذلك آنفا ، جعل هذا اليقين يعذبه ويشقيه ويصرفه عن كل ما حوله ، ويفرز من جميع مظاهر الحياة رداء ستة أشهر . وبعد هذه المدة اعتزل العالم وخلص لربه يناجيه ويصافيه ، ففتح له - كما يقول - الباب ، وزال من أمامه الحجاب ، فانغمس في الغيبوبة وانسكب عليه الالهام وغار بالمعرفة . وهو في هذا يقول :

« وآثرت العزلة أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال ، وضروريات المعيشة تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع الطمع منها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، واسكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها (١) » .

غير أن هذه المعرفة - في رأيه - معرفة عجيبة لا يمكن التعبير عنها بلغة هذا العالم ، فإذا حاول من أوتىها التعبير عنها وقع في الخطأ ، وإذا تعادى هوى في الضلال ، لأنه لا يلبث أن يطق بالتماظ نوم الحلول أو وحدة الوجود أو غير ذلك من المذاهب الصالة . وإذا فن الخبير للمتنصوف الأيزيد على قوله : عرفت ولا أدري ماذا عرفت . وإليك نصيحته في هذا المقام :

« ولا يحاول المعبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه . وعلى الجملة : ينتهي الأمر الى قرب يكاد تنخيل به طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأقصى » بل الذي لا يسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما كنت أذكره فطن خيرا ولا تسأل عن الخبر (٢) »

وأينا من كل ما تقدم أن أبا حامد يؤمن بالمعرفة البصرية ، ويرى أن وسيلتها هي النصوص ، ويؤمن كذلك بأن حالة المتصوفين تشبه حالة الأنبياء قبل الرسالة ، ويمتقد أن الإنسان قد يصل الى السكال الاخلاقي إذا عصم عرا الصلات بينه وبين المادة ، ورأينا كذلك أنه يسحر من المرتابين الذين لا يؤمنون إلا بالحواس ومعارفها الظاهرة ، ولا حظنا أيضا أنه لا يقر الحلولية ولا الوحدةية الذين فهمتا من تعبيرات بعض من سبقوه من الصوفية ، وأنه عد هذه التعبيرات منهم خطأ أو قهصم في التهمة ، وأوقع الجاهل في سوء الفهم .

المركنور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

حياة حياة لست لست لست

على بن أبي طالب

- ١٠ -

مرت حياة أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه في طورين عظيمين ، اختلفت مظاهرها اخلافا كبيرا ، قد يحمده الباحث في أول وهلة شيئا من العناء في سبيل توحيد أحدهما التاريخي حتى تنألف منها شخصية تاريخية واحدة ، لما يخاله الناظر في الحوادث من المفارقات التي تفسر أسبابها وظلها وراء حجاب من مسابقة الوقائع وتتابعها ، حتى إذا سر غورها وحلها الى مناشئها ، وردّها الى مصادرها ، تصامت والتأمت صورة واحدة تعبر عن طبيعة واحدة بألوان تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية وأطوارها ، ولم تكن نعمة بيئة اجتماعية أسرع تطورا ، وأرمى الحوادث من البيئة التي عاش فيها أبو حسن كرم الله وجهه .

وقد كان لهذه البيئة الأثر الفعّال في تكوينه ، فهو ربيب النبوة وحضين الوحي ، لا يرى ولا يسمع إلا الحق والصدق ، ولا يعرف إلا الصراحة والاخلاص ورواية العهد ، يقسو وينغضب لله ، ويرحم ويرضى لله ، لا يمجّد السكر والمداورة الى نفسه سبيلا ، لا يذمّن ولا يخادع ، شديد التجاوى عن الدنيا وزخارفها ، كيف لا وقد ضمه النبي صلى الله عليه وسلم الى كفّه قبل أن يشب عن الطوق ، يريه ويراه ويحنو عليه ، ويأخذه بأدب الوحي غصا طريا ، حتى كان منه سابق الأمة الى الهدى والحق ، وقامها المظفر في ميادين الجهاد ، لم تسكس له راية ، ولم يسقط له لواء ، ظل طوال مرحلته الأولى يتنقل من نصر الى نصر مؤيدا من روح الله ، مجما على حبه وموالاة ، لم تحمل كاتته ، ولم يهتد رأيه ، عظيم معظم ، نظم معظم ، سيد محل ، حبيب الأمة وعيها في حلقات الفكر وفنون العلم والمعارف ، وقاضيا الأعدل إذا حزبتا الأمور وقامت عليها الحقائق ، وفيصلها الملمم إذا تعقدت أمامها المعضلات ، وحكيمها إذا ادلمت بوائق الأظامير ، وخطيبها الذي لا يتعق بغيره اللسان المقاول ، ووزير نبيها صلى الله عليه وسلم ، وأمير كتابها ، صاحب القول الفصل والصوت المسموع .

هكذا كان في طوره الأول من حياته منذ مس قلبه برد الخنّان المحمدي وهو في مهده ، الى أن ولي الخلافة في حو من الأحداث بسطناه في مقالاتنا السابقة بقدر ما اتسع له الزمان ووصل اليه جهد البحث .

أما الطور الثاني فهو الذي يبدأ بولايته الخلافة ، وإن شئنا الجنوح الى التدقيق رأينا هذا الطور يبدأ بولاية عثمان رضي الله عنه للخلافة ، فقد تمكشفت بها طوايا قوم اتخذوا الاسلام رداء يسترون وراءه جاهلية حمقاء ، لا يكونون لعلى وآل بيته رضا ومحبة ، وكأنهم في توائهم عليهم كانوا يترصون بهم الفرس ، وقد حال حزم الصديق وصرامة الفاروق في خلافتيهما دون ظهور أية شائنة لتلك الاحقاد الموروثة ، فلما تولى عثمان رضي الله عنه ، وكان دمتم الاخلاق ، حياء ، لين العريكة سمح الطبيعة ، قريب الرضا ، بعيد الغضب ، وصولا لرحمه ، بارا بقومه ، ساس الامة بطبيعته هذه ، ولم ينظر الى هؤلاء الفر من شباب أمية وجماعة الاعراب فطر حزم وصرامة حتى ماعدوا بين الخليفة والامة ، ووقعت الطامة ، وتبوأ على كرم الله وجهه أربكة الخلافة الاسلامية ، ولم يبايحه معاوية رحمه الله ومن وراءه أهل الشام ، ونقص بيعته طلحة والزبير رحمهما الله ، وأخرج أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها تزل الناس عليه ، واتخذل عنه الخوارج ، وكانوا من أقوى أصحابه شكيمة فأصبحوا شوكة في جسم إمامته ، كل هؤلاء ناصبوه كرم الله وجهه العداء وعلنوه الحرب ، وهو في حشد متعادلين ، يدعوهم فلا يجيبون ، ويأمرهم فلا يطيعون ، حتى انتهى الى غدره الخوارج به ، وما استقر له السلام يوما واحدا .

فكيف تم هذا وعلى هو من وصفنا في عبقريته وفضله وعلمه وفقهه وشجاعته وبطلته ، ولم يكن في منافسيه من يجزى في شوطه ؟ هل كان ذلك لأن عليا رضي الله عنه لم يكن داهيا في السياسة كماوية وعمرورحمهما الله كما يزعم بعض من لم يسبر غور الرجال ولم يتعرف سياسة الدين والفريضة ومقاصدها ؟

يتولى الامام أبو عثمان الجاحظ الاجابة عن هذا التساؤل ، ونحن نلخص كلامه ، قال : « وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز ، وهو من العامة ويظن أنه من الخاصة ، يزعم أن معاوية كان أعمد غورا وأصح فكرا وأجود روية وأبعد غاية وأدق مسلكا ، وليس الأمر كذلك ، وسأوى اليك بحجة تعرف بها موضع غلظه ، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله :

« كان علي عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، ويقول في حربه : لا تبدهوم حتى يبدءوكم ، ولا تتبعوا مديرا ، ولا تمهزوا على حريم ، ولا تمنحوا بابا مغلقا . وسيرته في الرؤساء كسيرته في الخاشية والخشود والاتباع والسفلة وأصحاب الحروب ، إن قدروا على البيات بيتوا ، وإن قدروا على رضخ الجميع للجندل وهم بياض فملوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه الى ساعة ، وإن كان الحرق أنجل من الفرق لم يقتصروا على الفرق ، ولم يؤخروا الحرق الى وقت الفرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصاء

ولم يدعوا أن ينصبوا المجابيق والعرادات والتقب والترتيب والديابات والركين ، ولم يدعوا دس السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب ، وطرح الكتب في عساكرهم بالسمائيات ، وتوهم الأمور ، ويحاش بعض من بعض وقتلهم بكل آلة وحية ، وكيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال ، فن اقتصر من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكاييد فعلى عليه السلام كان ملجأ بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل نصا ، ومنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا ، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه ، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والمكر والمكاييد والآراء .

وحسبنا هذا القدر من كلام الجاحظ ، فقد أطال أبو عثمان النفس حتى لم يبق لأحد مقالا . ومن البدأ أن عليا كرم الله وجهه لم تكن لتخفى عليه تلك القالة ، ولم يكن ليخفى عليه أمر نفسه ، فدافع بكلمة واحدة أقام صرح الحجة فقال « لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب » وهذه السياسة الشرعية التي كان أمير المؤمنين يتقبلها في رعيته لم يتركها عملية فحسب ، ولكنه كان يحب أن يشعر بها الأمة لتتربى فيها العزة والذخوة وكرامة النفس ولاعتداد بالشخصية ، فقد خطب الناس يوما فقال :

« أما بعد : فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقا بولاية أمركم ، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم ، والحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقتها في التناصف ، لا يجرى لأحد إلا جرى عليه ، ولا يجرى عليه إلا جرى له ، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تسكانا في وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا ، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي ، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، جعلها نظاما لآلهم وعزا لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية ، ولا تصلح الولاية إلا باستقامة الرعية ، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقا عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واهتدلت معالم العدل ، وجرت أذلالها السن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع في بقاء الدولة ، وثبتت مطامع الأعداء ، وإذا غلبت الرعية واليهما ، أو أحجف الوالي برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الأدغال في الدين ، وترك مجامع السن ، فعمل الهوى وعطلت الأحكام ، وكثرت على النفوس ، فلا يستوحش لعظيم حق عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهناك تذلل الأبرار وتمز الأشرار ، وتمتد تبعات الله سبحانه عند العباد ، فليكن بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتد على رضا الله حرصه وطال في العمل اجتهاده ، ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له ، ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم ، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق

منزلته وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرت
النفوس واقتضته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

هذه كلمة من أروع كلمات أمير المؤمنين رضوان الله عليه ، وهي من طراز كلمة الصديق الأكبر
رضي الله عنه في أول خطبة خطبها بعد ولايته فقال : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست
بمخيركم الخ » ، ومن طراز كلمة الفاروق رضي الله عنه : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحرارا » . لكن كلمة أبي تراب مفصلة ؛ وهذه الكلمات من أولئك المبشرين
هي أساس دستور الحرية لمفاضلة أو الديمقراطية العادلة ، كما يقول التعبير الحديث ، التي قام
عليها نظام الدولة الإسلامية في القرآن الكريم ، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته .
فلينأمل القارئ في قوله كرم الله وجهه : « ولستم على من الحق مثل الذي لي عليكم »
فانه تحديد للملاقة بين الرعية والراعي ، وتوطيد لحق الأمة ونظام العدالة العامة ، وهذا الذي
رتبه تأس أمير المؤمنين في ثانيا كلامه حيث يقول : « فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ،
ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية » .

أما مقامه كرم الله وجهه في البلاغة والأدب فناهيك به ، مقام تجمعت له عناصر لم تتوافر
لغيره من الناس فمن دوحة قریش أفصح العرب ، وغصن هاشمي ، وتربية سوية ، ونشأة
إسلامية ، وشباب حرب وجلاد ، وبضال وجهاد ، لحاية الدعوة وتبليغ الرسالة ، ورجولة أحداث
هو اصف ، وكهولة إمارة محسنة ، وأعداء متضافرون على ماطلهم ، وأصهار كحميل السبل ، كثرة
جوفاء متخاذلون على حقهم ، وفتن تمسى وتصبح كقطع الليل ، تذر الحليم سفيها والعقول
حيرى . تلك هي بعض مقومات البلاغة العلوية التي تفرد بها أمير المؤمنين ، فكانت نفحة
من العلم الالهي ، وعبرة من البيان النبوي ، وإعجازاً لقادة الأدب العربي ، من القرآن الحكيم
منبعها ، ومن المصاححة الحمديدية مشرعها ، زويت لغة العرب في نصاعة ألفاظها وحرارة أسلوبها ،
وتجمعت له الأفكار على تباين مراميها اجتماع الغيث في أحصب الأودية ، ففاضت على لسانه علما
وحكمة وزجرا ووعيدا ، ووعدا وترغيبا ونصحا وتزهيدا ، حتى كان في ذلك كله . كما قال
الرضي — مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه
أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ .

وإذا أضفنا الى ذلك أنه هو واضع علم العربية ، وعلى قواعده أسس أبو الاسود الدؤلي علم
النحو ، علما أن علي بن أبي طالب كان واحدا من أمداد قادة الفكر الاسلامي في جميع فنون
الاسلام وعلومه ، والذي كتبناه عنه إشارات تفتح الباب للباحثين ، وترشد شباب الاسلام
الى مواطن العظمة في رجاله . ولننقل الكلام الى غيره من قادة الفكر في تاريخ الاسلام ؟

صادق إبراهيم عرموه

أبو حيان التوحيدى وفلسفته

اجتمعت في بلاد الاسلام في القرن الرابع الهجرى عوامل لحضارات مختلفة ، من فارسية ورومية وهندية ، نشأت منها آثار سياسية ودينية واجتماعية ، فكثر في هذا العصر المترفون ، وشاعت فيه فنون الغلالة والمجون ، ونوافل الشهوات ، ولم يكن للعلم منهج واحد في ذلك العصر ولكنه كانت له مناهج كثيرة ، منها منهج أهل السنة ، ومنهج الفرق الاسلامية ، ومنهج العلوم الكونية من يونانية وفارسية وهندية وغيرها .

فالقرن الرابع الهجرى عصر أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق ، كما كان عصر الثقافة العامة ، حيث كثرت فيه المشاركة في مسائل البحث والمطابقة .

والظاهر أن علم النجوم والرياضيات كانت أروج العلوم الكونية وأكثرها طلباً ، لفسوس الحضارة اليونانية التي كان أهلها يؤهلون الكواكب ويفسبون اليها التأثير في الارض .

وعلى الجملة كان القرن الرابع ، وهو العصر الذي ظهر فيه التوحيدى ، فيه التشيع بدرجاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوال المتحدين فيها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الكونية بشعابها ، حيث تولد من كل ذلك كثرة الآراء وتعدد وجهات النظر ، فكان الإحساس بالعقيدة الدينية يحرك بواعث الغيرة عليها ، ويزعج النفوس الى المساقفة عنها .

ترجمة حياة أبو حيان التوحيدى :

هو على بن عبد بن العباس ، أبو حيان التوحيدى ، اختلف المؤرخون بين نسبته الى شيراز أو واسط ، ومهما يكن من خلاف فانه فارسى الأصل ، وأنه عاش في القرن الرابع ، وشهد صدر القرن الخامس ؛ وجاء في تاريخ شيراز أنه توفي سنة ٤١٤ هجرية . وكما اختلف المؤرخون في أصله اختلفوا في نسبته ، فقال ابن قاضى شهبه : إن أباه كان يبيع نوماً من القمح العراقي في بغداد يقال له - التوحيد ، وعليه اعتمد الزبيدى صاحب الناح . وقال ابن حجر : يحتمل أن يكون قد نسب الى التوحيد الذى هو الدين ، فان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . ولعل رأى ابن حجر هو الأرجح ، لأن أباه حيان كان يروى صحة أصول المعتزلة .

لم يقتصر أبو حيان في تلقى علومه ومعارفه على شيوخ بغداد ، بل ذهب الى البصرة . وهما يقول ابن السبكي : تفقه أبو حيان على القاضى أبى حامد المرووزى ، وسمع الحديث من أبى بكر للشاشى وأبى سعيد السيرافى وجعفر الخلدى . وكان أبو حيان فيما نقل وإقوت

متفننا في جميع العلوم ، درس ما عـرف في عصره من الفلسفة والمنطق والأدب والطبيعات والإلهيات والتصوف وعلوم الكلام ، وكان صوفي السمـت والهيئة ، جاحظيا ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ .

ظهرت في القرن الرابع خصومات كانت تشند وتقوى ، نراها ممثلة في الآثار العلمية لذلك العهد . ومن هذه الآثار محادلات ورسائل تبين لنا طريقة الكتاب في شرح حقائق الحياة ، وكان دفاع أولئك الكتاب بفيض حيوية وقوة ، ويحتوي على مباحث قيمة من النواحي النفسية والاجتماعية والأدبية التي تتنازع بها الأمم والشعوب . ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى امتناع النفس بالصراحة المطلقة بما تملـه عليهم عقولهم وحواسهم جميعا . ومن أمـ الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر خصومة الهمذاني والحوارزمي ، وخصومة التوحيدي والصاحب ابن عباد . فالهمذاني كان يريد من الخصومة الشهرة والاستعلاء على غريمه في ميدان الجدل والنقاش ، أما التوحيدي فكان يرغب في مال ابن عباد ، ولما ضاق عنه صدر هذا ، كتب التوحيدي كتاب « مثالب الوزيرين » كشف به نوايا ابن العميد وابن عباد ، ثم حاد اليهما بالتجريح مرة أخرى في كتابه الامتناع والمؤانسة بأسلوب شديد .

حدثنا التوحيدي في كتابه مثالب الوزيرين (انظر يا قوت ص ٣٩٦ ج ٥) أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نحاح بن سلفة فاطـر خزائن كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا الشيخ : نسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدي وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضرع وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقـة التي لم تكن كاسدة ببغداد . ولما وصل ذلك إلى الصاحب حقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر ، أو يرجع في قول ، فكان ذلك من أسباب إهمال التوحيدي عند الصاحب ، فرحل عنه ، وكان يقول « وما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرعنيـه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملى عليه من الاحفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المنصل ، والظن الحسن ، حتى كأتى خصصت بخساسته وحدي ، أو وجب أن أعامل بها دون غيري ! »

ولما ضاقت الدنيا أمام التوحيدي أتى على كتبه حرقا ، وقد أبان علة ذلك في رسالة طويلة كتبها إلى الفاضل أبي سهل علي بن محمد تنطق بالألم ، وتصور حياة البؤس والشقاء لمن رزقه الله دقة الحس وقوة الإدراك ، فتراه يصور بلواه قناس أصدق تصوير حين يقول :

« جاورتهم عشرين سنة فاصح لي من أخدم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخصر في الصحراء ، وإلى التكفف القاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء

بالسمة والتناق ، وإلى ما لا يحس بالحس أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان داية لعينك ، بارزة بين مسائلك وصاحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وقطنتك ، وشدة تفهك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتبته ، بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت منه وطوئته ، إمارها من التطويل ، وإما خوفا من ائقال والقبيل .

ترك أبو حيان من آثاره القهنية الكثير من المصنفات ، وقد وصفها في مختلف العلوم والمعارف والآداب ، والترم في بسطها وإصاحها طريقة الناظر والتجاور وأسلوب المحاضرة والمسامرة .

وإليك ما وقف عليه المؤرخون من مصنفاته :

(١) البصائر والمناظرات ، (٢) الامتناع والموانسة ، (٣) المقابسات ، (٤) الرد على ابن جى في شعر المتنبي ، (٥) الزلفة ، (٦) تهريظ الجاحظ ، (٧) مثالب الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد ، (٨) الاشارات الإلهية ، (٩) رياض العارفين ، (١٠) الحج العقلي إذا ضاق القضاء عن الحج الشرعى ، (١١) رسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة ، (١٢) في أخبار الصوفية ، (١٣) في الحنين إلى الأوطان ، (١٤) في الصديق والصدقة ، (١٥) في ثمرات العلوم ، ثم الرسالة البغدادية .

وقد زعم مرحليوث المستشرق الانجليزى أن كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء من ضمن مؤلفات التوحيدى .

كتاب المقابسات :

صورة حية لعقيدة التوحيدى ، وعمود شاخص لما كان عليه عصره من حياة الفكر والمقيدة ، يحيل للباحث أنه متاع قليل ، ولكنه في الحقيقة مركز في الكثير من العلم والفلسفة ، طبع الكتاب أولا في الهند ، ثم طبع أخيرا في مصر ، يحكى الجاحظ في أسلوبه الفلسفى والأدبى ، ويترك السجع ويقبل على الازدواج . وكتاب المقابسات مشحون بالموضوعات الكثيرة بحثا وراء الطبيعة ، وفي الطبيعة وفي العقل ، وفي الفرق بين العقل والعمل ، وفي القضاء بين السلب والإيجاب ، وفي أن النفس ليست قائمة بذاتها .

وبالرغم من أن كتاب المقابسات عبارة عن ١٠٦ مقابلة إلا أنه يدور حول هذه الموضوعات السمة الآتية :

(أولا) تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية .

(ثانيا) الناموس الإلهى ووضعه بين الخلق .

(ثالثا) شرف الزمان والمكان .

(رابعا) الحركة والسكون وأيهما أقدم .

(خامسا) معرفة الله تعالى ضرورة أم استدلالية .

(سادسا) في أننا نناق بالطبيعة الى الموت وبالعقل الى الحياة . تهذيبك في الكتاب الفكرة السامحة العايرة ، والظرة الدقيقة الفاحصة ، تراه يتدرج في بحثه من الطبيعي الى ما وراء الطبيعي ، ومن المحسوس الى المعقول ، ثم يعطيك البرهان الصحيح في حذل مستقيم ، وتعبير فلسفي متزن ، أن السكون محدود بمقاييس ، وأن الإنسان محدود بهذه المقاييس ، جريا على سنة الطبيعة والنسجاء لقانونها الإلهي المطرد في الكائنات . وكان شعار التوحيدى في بحثه قوله :

« يجب على الفيلسوف أن يكون بقض العقل ، وأن يصنى لكل رأى ، ولكن لا يكون مصدر الحكم إلا نفسه ، لا يتخدد بالطواهر ، ولا يعيل الى فرض فروض خاصة ، ليس تابعها للذهب معين ، لا يتخدد الأشخاص ولكن يحترم الحقائق ، غرضه الاسمى الوصول الى الحق ، فإن هو أضاف الى ذلك الجسد فى السعى ، كان خليقا أن يتخترق حجب الطواهر ، ويصل الى حقائق هذا العالم » . فالتوحيدى عالم قد حنكته السن ، وأيدته التجربة ، وأحكته الأمور .

وكتاب المقابسات لا يقرؤه من سئم المشل العليا ، وكذب بالأغراض الرفيعة ، وفترت فيه قوة العقيدة ، بل هو كتاب يستشعر فيه القارئ رؤية العقل ، وصفاء الإحساس ، وأن السكون مجال حياة وأسرار يولد فيه الإنسان مخلوقا حيا عريق الاصول فى آباء لانهاية لها . فالمقابسات وإن كانت مجموعة من الآراء والخواطر الفلسفية إلا أنها وحدة عامة يقيم فيها ما بين العلم والحياة من وشائج الصلة والقراءة . والتوحيدى فى كتابه المقابسات يحاول إثبات العلاقة بين الجواهر الروحانية وبين المواد الجسمانية عن طريق المعرفة ، فتراه يتعرض لجميع صور المعرفة من علم وأدب وفلسفة ودين ، يرسم لها مقاييس فى شريعة العقل ويحاول أن ينفذ الى صميم الأشياء ليستخلص الحقائق وينتزعها من أحضان المعارف الإنسانية ، ويستوعب من مبادئ العلم ونظريات الفلاسفة القدماء من يونان وعرب ، كل ما تواضعوا عليه من حجج وأسانيد . كل هذا يجمعه التوحيدى ويؤمه فى كتابه المقابسات بطريقة جدلية تهذب التفكير وتسدحى التحجيس والاستقراء ، كل هذا رغبة فى الوصول الى ما بين الروح والجسد من تعارف .

والإنسان منذ أبعد عصور التاريخ يحاول محاولة التوحيدى فى إيجاد تعليل يصح أن تقوم عليه شواهد العقل فى صلة الجسم بالروح . ففكرة التعليل هذه أخذت دورها عند الفرعون إحسانون ، وفى فكرة الإنسان الكامل فى عقل سقراط ، وفى فكرة المنطق عند أرسطو ،

وفى فكرة الاسلوب والشك فى عقل ديكارت ، وفى فكرة المثاليات فى عقل اسبينوزا وكانت ، وفى فكرة التطور فى عقل دارون . والتوحيدى إزاء هذه القضية الروحانية أشبه بشيخ فى يده مصباح ينوء به وهناً وضعفاً ، وعالم الروح بحر خضم ، والمصباح فى يد الشيخ غريق بين لجأته يلوح ويخفى .

شخصية التوحيدى

هو رجل موهوب ، آمن بفكرة ، وأرصد خلاصة جهوده على تحقيقها ، ووطن النفس على السعى من أجلها بصرف النظر عما إذا كانت الظروف ستعاونه على تمييزها فى يوم من الأيام أم ستخيّب أمه وتغدر به وتختلف فى نفسه الحسرات .

والتوحيدى كان يفكر ويدرس ويضع الخطط وينظم برامج حياته . كان يتأمل فى أغراضه ويحددّها ويميز اتجاهاتها ثم يتربص بالزمان ويسدد صفوة قواه كي ينقض عليه ويمتلكه ، ويطويع لإرادته ، ويحوّله الى خدمة مثله الأعلى ، فهو رجل يعلم ما يريد ، ثم يحدد فيها بينه وبين نفسه خلاصة ما يريد . فالتأهب الثقافى كان العامل الأول فى تكوين شخصية التوحيدى مضافاً إليها إيماءة بالمثل الأعلى إيماناً صوفياً شبه دينى استغرق فكره ، واحتل حافطته ، واستعوذ على مشاعره .

ومتى توافرت عناصر الايمان ، افتقر العمل وتنفيذه بإرادة جبارة . وهذه العناصر كانت متوفرة فى شخصية التوحيدى ، غارادته لم تكن فى يوم من الأيام رخوة ، ولم تشد المستعجل ، ولم تصطدم بصخرة الأمل الخيالى الباطل ، بل كانت إرادة حكيمة عرفت كيف توفق بين مطامعها وبين مقتضيات الواقع ، وما يمكن أن تسمح به ظروف الحياة العملية .

والتوحيدى كان يعيش فى عصر كل ما فيه يدفع الى المتعة واللذة ، والاستهتار ، وعدم الاكتراث . فلأنه أطلق لغرائزه العنان واستسلم لهذه لدوافع التى يساق اليها الانسان بالضعف وبالرغبة المتأصلة فى الاستمتاع ، لاحظ شعور الرجل بالكرامة ، وهبطت قواه المعنوية ، وهجز عن تأدية الواجبات التى يفرضها عليه المجتمع ، وتفرضها عليه قوانين التطور وطبيعة الحياة نفسها .

والتوحيدى كانت إرادته مظهراً لسريته ، وعقيدته فى الحياة صورة لشخصيته . ويكفيه هذا من متاع الدنيا ؟

عبد الحميد سامى بىرمى

فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٥ -

كان العربي لا ينام على الضيم ، ولا يستشر المذلة ، ولا يستسبح الهزيمة ، ولا يرضى من الفضيحة بالإياب . كذلك كان حال النعمان بن المنذر بعد المناظرة التي جرت بينه وبين كسرى ، فقد بات مسهد الجفن ، قضيب المضجع ، موغر الصدر ، ملتاع الفؤاد ، إذ أنه ما كان يحسب أن كسرى ينظر إلى العرب بهذا المنظار القاتم الذي وارى عنه فضائلهم ، وقضى عليهم بأنهم أخف الأمم وزناً ، وأهونها شأماً ، وأحطها مكاناً .

فلما قدم إلى بلاده أسلم رأسه إلى التفكير ، فخرج من هذا المأزق بأوفق ما يخرج به زعماء الأمم المحككون ، وقادتها الموفقون ، إذ بعث إلى أكنم بن صبي ، وحاجب بن زرارة ، وإلى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود ، وإلى خالد بن جعفر ، وعقمة بن علاثة ، وعامر ابن الطفيل ، وعمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معد يكرب الأيبدي ، والحارث بن ظالم المري ، وكلهم من حكام العرب ، أو أبطالها المفاويز ، الذين لهم الباع الطويل في اللسن ، وشدة المراس ، وقوة الحجاج ؛ فلما قدموا عليه في الخوارج قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجيب ، وقرب حوار العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات أحشى أن يكون لها غور ، ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن ينخذ به العرب خولاً كبعض طلائعته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل ملوك الأمم الذين حوله ؛ فاقنع عليهم مقالات كسرى وما رد عليه ؛ فقالوا : أيها الملك : وفقك الله ، ما أحسن ما رددت ، وأبلغ ما حججته به ؛ فرنا بأمرك ، وادعنا إلى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعززت بمكانكم ، وما يتخوف من فاجبتكم ، وإيس شيء أحب إلي مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزكم ؛ والرأي : أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم عليه نطق كل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظن ، أو حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يفضيه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثير الأموان ، مترف محجب بنفسه ، ولا تنحلوا له الخزال الخاضع القليل ، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم ، وهطيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكنم بن صبي لسنتي حاله ، ثم تابموا على هذا الأمر من منازلكم التي وضعتم بها ، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم على بمجمل كل رجل

مستم على التقدم قبل صاحبه . ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك ، وألبس كل رجل منهم حلة وحممه بعامة ، وحتمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجبية معرية ، وفرس نجبية ، وكتب معهم كتابا جاء فيه . « أما بعد : فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجسته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلحج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته ، وحث ما يلبيها بفضل قوتها ، تبلغها في شيء من الأمور التي يترعرز بها دوا الحزم والقوة ، والتدبير والمسكيدة ، وقد أوقدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليغمض عن حفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمى بكرامهم ، وتمجيل سراحهم ، وقد لبستهم في أسفل كتابي هذا إلى عقائهم » .

تفرج القوم في أهبتهم ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإزالته إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم ، فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر سرارته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام الترحان ليؤدي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام ، فقام أكتهم بن صبي فقال :

« إن أفضل الأشياء أماليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أهمها نعمة ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، والصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجأحة ، والحزم مركب صعب ، والمعجز مركب وطىء ، آفة الرأي الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطائنه كان كالفاس بلقاء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه الرىء ، خير الاعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريره ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شر جماعه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نقر ، ومن تراخى تألف » .

فتمجج كسرى من أكتهم ثم قال ويملك بأكتهم ! ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك في غير موضعه ! قال أكتهم : الصدق يفتي عنك لا الوعيد قال كسرى لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكتهم : رب قول أنفذ من قول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال : « ورى زندك ، وعلت يدك ، وهيب سلطانك ! إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرثها ، ومنعت درتها ، وهى لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة مالايتها ، سامعة ما ساعته ، وهى العلقم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ،

والعمل حلوة ، والماء الزلال سلاسة ، نحن وفودها إليك ، وألستها ليدك ، ذمتنا محفوظة ، وأحساننا ممنوعة ، وعشارنا فينا سامعة مطيعة ، إن ثوب لك حامد خير فاك بذلك عموم محمدتنا ، وإن نذم لم نخص بالذم دونها .

قال كسرى يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ! قال حاجب : بل زئير الأسد بصوتها ، قال كسرى : وذلك .

ثم قام الخارث بن عباد البكري فقال دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سائها ، من طال رشاؤه كثر منعه ، ومن ذهب ماله قل منعه ، وهذا مقام سيوجف بما تنطق به الزكب ، وتعرف به كنه حالنا المعجم والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعيسون ، خيولنا حمة ، وجيوشنا فحمة ، إن استنجدتنا فغير ريب ، وإن استطرفتنا فغير جهش ، وإن طلبتنا فغير غمض ، لا نلثني لدمر ، ولا نلتكر لدمر ، وماحتنا طوال ، وأعمارنا قصار .

قال كسرى : أنتم عزيزة والله ضميعة ! قال الخارث : أيها الملك ، وإن يكون لضعيف عزة ، أو لضعيف مرة ؟ قال كسرى : لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الخارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتبية مفررا بفسه على الموت فهي منية استقبلها ، وجنان استديرها ، والعرب تعلم أني أنمت الحرب قدما وأحبسها ، وهي تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسمرت لثاها ، وكشفت عن ساقها ، حملت مقادها رعي ، ويرقها سيفي ، ورعدها زئيري ، ولم أقصر عن حوض محضاحها حتى أنفسي في عرات لججها ، وأكون فلسكا لفرسانى إلى محبوبحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك جماتها جذر السباع وكل نسر قشقم .

فقال كسرى لمن حضره من العرب : أ كذلك هو ؟ قالوا فعلاه أنطق من لسانه

قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفدا أحشد ، ولا شهودا وفدا

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي ، ونطق بكلام لم يصادف هوى من نفس كسرى ، ولم يحزن عنده إعجابا ، مما أحنقه عليه واضطره إلى أن يقول له : ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس ! ثم نهض خالد بن جعفر الكلابي ، فدعا لكسرى بالإسماع والرشاد ، وعبر عما في نفس النعمان من إخلاص وولاء لكسرى .

فقال له كسرى نطقت بعقل ، وصمرت بفضل ، وعلوت بببل .

ثم قام عنقمة بن علاثة العامري ، ونهج نهج أسلافه من ثناء على كسرى وإطراء ، وبيان ما للعرب من مزايا ومحامد ، فقال له كسرى : حسبك أبلغت وأحسنت !

وهكذا قام قيس بن مسمود الشيباني ، وعامر بن الطفيل المامري ، وعمر بن معد يكرب الزبيدي ، وكل منهم لم يقصر في الميدان عن حياد تقدموه .

وأخيرا قام الحارث بن ظالم المري فقال : « إن من آفة المساق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطر الرأي خفة الملك السلط ، فإن أعلنك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادنا لك عن تصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بحليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالمهود ، وإحكام وألت العقود ، والأمر بيننا وبينك ممتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم . قال : إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالفدر ، وأقرب من الوزر .

قال الحارث : إن في الحق مغضبة ، والمسرور التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجملك . قال كسرى : هذا فني القوم !

بني هنا ينتهي حديث الوفد الذي لمت به النعمان إلى كسرى ليعلم له أن العرب ليسوا في المكانة التي وضعهم بها ، بل هم في منزلة أسمى وأرفع ، ينطق بذلك بياعهم ، وتعبير حلومهم ، وقد شاهد القاري الكريم تطبيق كسرى على كل مقالة صدرت من صاحبها بين يديه .

وفي نهاية المجلس علق كسرى تعليقا عاما فقال : « قد فهمت ما نطق به خطابكم ، وتقت فيه متكلموكم ، ولولا أني أعلم أن الأدب لم يتقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنتقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فطقتن بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم - لم أحزلكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإني لا أكره أن أجبه وفودي ، أو أحنق صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مدبركم . وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم ، وقد قيات ما كان في منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى مككم فأحسنوا مواررتهم ، والتموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم ، وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدهم ، فإن في ذلك صلاح العامة . »

هذا من كسرى نصيح بمنع رائق ، ومنطق سيد راشد ، ومنهج في النقد قويم محكم ، وأدب في الخطاب والرد موثق الدعائم ثابت الأركان ، وكل أولئك يكشف لنا اللثام ، ويهيك الحجب مما بين الحضارة والبداءة من بون شاسع ، وفرق عظيم ، لا يزال ظاهر الآثار ما من الملوأ ، وتماقب الجد يدان ؟

محمد إبراهيم موسى البارودي

تخصص البلاغة والأدب

أحدث أبحاث الوراثة

نخبروا لنطفكم فإن العرق دساس

معجزة علمية

ألف رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت ضوء الوحي الإلهي أمة فاضلة استأهلت خلافة الله في الأرض ، ولم ين وهو يقيم صرحها يفضي إلى آحادها من أسرار الحياة ما يجعل أخلافهم يبنون على أساسهم ، فلم يدع أصلاً يبنى من وجودهم أو يكل أخلاقهم إلا لله في روعهم ، ونقشه في عقولهم . ومن أروع ما وقعنا عليه من وصاياه ما يتعلق بفعل ناموس الوراثة في تكوين الشخصية الإنسانية : ألا وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « نخبروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، فقد كشف بهذا الحديث عن حقيقة علمية خطيرة ظلت في طي السيان أمداً طويلاً من الدهر ، حتى آن لها أخيراً أن تكتشف وتعرف منذ أعوام قلائل

لما كان التناسل هو الوسيلة في تجديد الجنس جيلاً بعد جيل ، إذ أنه إذا ما انحدرت نطفة بخلفية تناسلية أنثوية ، تكونت من اتحادها كائناً حتى يسمو ويكبر ويخرج للحياة فرداً مستقلاً ، هذا الكائن الحي يستمد كل صفاته من أبيه وأمه كما سيتبين فيما بعد ؛ لهذا كان من أوجب الواجب العناية باختيار الزوجة الصالحة وتزوج الصالح ، ذلك أن امرأة السوء أو رجل الشر لن يورثي نفسه حسب ، بل إنه جناية كبرى على خلقه من بعده ، أولئك الذين يرثون شروره وآثامه ، ويتطعمون بطعامه وينسجون على منواله ، وهؤلاء بدورهم يقولون منكراتهم وخباياهم إلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد ، سلسلة متصلة غير منقطعة ، وهكذا دواليك تستمر تلك الشجرة تروى بالماء الحبيب ، فتعطى ثمراً حنظلاً مرّاً . هذا ما يديه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « فإن العرق دساس » .

ولا يحسن القارئ أني أتكلم جزاءً ، أو ألقى القول على عواهنه ، فهذه النتيجة مستمدة من أحدث الأبحاث الوراثية ، وهي التي تظهر بحلاء معجزة النبي الكريم ، وهاك بيانها :

لاحظ كثير من العلماء المشتغلين بدراسة أسرار الوراثة في الإنسان ، أن بعض الأسر تكثر فيها نسبة المجرمين بشكل يلفت لل نظر ويوجب التأمل ، فتوفروا على دراسة تاريخ تلك الأسر دراسة مستفيضة ، وخرجوا بحقيقة هامة ، ألا وهي أن الصفات الإجرامية والشذوذ المعنوي كلها صفات وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد . ولكي تحكم بنفسك أيها

القارئ الكريم على صحة تلك النتيجة ، ذكر لك فيما يلي تاريخ إحدى تلك الأسر ، وهي أسرة شخص أمريكي يدعى « جول » :

افتتح ذلك الرجل بامرأة من البغايا ، فتزوج بها ، وأخلف أولادا تزعت نفوسهم الى الشر ، وسرت تلك الدماء الملوثة في الأبناء والأحفاد ، فجاء النسل كله عريقا في الإجرام ، فأحصى العلامة « دوجديل » أفراد تلك الأسرة في مدينة نيويورك ، فعثر على ١٢٦ فردا بهذا الترتيب :

- ١١٨ شخصا من القصوص
- ١٧٠ » من المتشردين
- ١٢٩ » حالة على غيرهم
- ١٨١ » من المدمنين على الخمر
- ٨٦ » يدرون بيوتا سيئة السمعة
- ١٩٨ » يشتغلون بالحرف الدينية (وقد تعلموها داخل السجن)
- ٣٧٨ امرأة من البغايا

ولقد حسبت الخسائر المالية التي تكبدتها حكومة نيويورك من جراء إفساد تلك الأسرة فوجدت ٥٥٠ ر ٢٥٠ و ٩ دولارا

فهذا رجل جرى وراء شهواته واتبع زلمات الشيطان ، فوقع في مغبة عمله وسوء فعله ، وتردى في هوة صميقة لا قرار لها ، وجنى على المجتمع الانساني شر جنابة ، فقد أخرج له فئة من الاشرار المهرمين يمينون في الارض فسادا ، دون وازع من ضمير أو رادع من عقاب ، فقل لي برك : أليست هذه الحقيقة الواقعة مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » ، قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء .

سبحانك ربى ! لقد أرسلت رسولا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، فهاهى ذى كلمات الحكيمات باقيات على الدهر غرة ناصعة في جبينه ، ونبراسا ينير لنا السبل ، ويهدينا الصراط المستقيم ، ودررة ساطعة تتلقى منها العلم والحكمة والخلق الى يوم الدين .

وقد يملكك المعجب وتأخذك الدهشة اذا ما علمت أن العلماء بذلوا الجهود الجبارة في سبيل إصلاح نسل تلك الأسرة وإرجاعه الى الطريق القويم ففشلوا في ذلك فشلا ذريعا ، فلقد كانوا يأخذون الطفل الرضيع من مهبه ويمهدون بتربيته الى إحدى الأسر الشريفة لينشأ محبا للأخلاق الحيدة مطيعا للقانون ، ولكن :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

ما يكاد الطفل من هؤلاء يشب ويترعرع حتى تظهر عليه سياء الشر ، وإذا به يحطم كل القيود التي تشبه عن إدراك نفيته ، وينطلق هائماً في ساحة الجريمة .

من هذه التجارب يتضح لنا أن طبيعة البيئة ليست هي العامل الأساسي في تكوين المجرم والشرير ، ولو أننا لا نستطيع أن نهمل تأثير البيئة ، إلا أنه يلزمنا معرفة أن الوراثة هي التي تلعب الدور الأول والأكبر في تكييف الشخص وتوجيهه الوجهة التي سيسير على ضوئها في الحياة ، فالمجرم الوراثي يشعر ويمتد اعتقاداً جارماً بأن حياته الإجرامية إن هي إلا حياة عادية لا شاذة فيها ، بل إنه ليجد اللذة والسرور عند اقترافه لموبقاته ، قتل هذا الشخص لا يمكن إرجاعه عن طبيعته لأن حب الجريمة قد سرى فيه سرى الدم . وأما الشخص الذي دفعته البيئة دعماً الى سلوك سبيل الشر ، فيمكن إصلاحه بنقله الى بيئة طيبة ، وتمهده بالتربية الصحيحة وإخلاق القويم .

قلنا : إن ضعف العقل وشذوذه والميل الى الاجرام ، كلها صفات وراثية تنتقل من جيل الى جيل ، كذلك الصفات الممتازة كالكفاءة والمقدرة العقلية النافذة ، يرثها الأبناء عن الآباء ، فلقد درس العلماء تاريخ إحدى الأسر الشهيرة في أمريكا وأحصوا أفرادها سنة ١٩٠٠ فوجدوا منهم ١٩٢٤ شخصاً يحملون مراكزهم في الحياة الاجتماعية ، فقد كان من رجالها :

١	وكيلاً للجمهورية الأمريكية	٦٠	طبيباً
٣	أعضاء لمجلس الشيوخ	٣٠	قاضياً
١٣	عمداء كليات الجامعة	٦٠	عمامياً
٦٠	أستاذاً في الجامعة	١٠٠	حاكماً
٦٠	من مشاهير الكتاب		

وغير هؤلاء عدد غفير من كبار رجال الدين ، ومن رؤساء المعاهد العلمية ، وأعضاء في المؤتمرات الدولية ، الى غير ذلك من المراكز الممتازة .

إزاء كل هذه الحقائق ابتدأ العلماء يتعمقون في دراسة أسرار الوراثة في الإنسان ، ييخون من ذلك استكمال تقدم النوع الانساني في مجال الرقي العقلي حتى يزداد بذلك إنتاجه ، نتيجة لزيادة قواه المفكرة . كذلك يرمى العلماء الى تركيز الاخلاق القويمة في الانسان ، والقضاء على الصفات الوراثية الخاصة بالإجرام والجنون وضعف الشعور بالمسؤولية ، وكذا الاحتفاظ بصحة الانسان بالقضاء على الصفات الوراثية التي تحجب الحاملها الاستعداد للإصابة بالأمراض . وكل هذه أبحاث حديثة شيقة ومفيدة ، وسنتكلم عليها بالتفصيل في أعداد قادمة ، إن شاء الله

رضوانه محمد رضوانه

بكالوريوس في العلوم الزراعية

دفاع عن القرآن الكريم

القول في إيجاز القرآن

وخلو القراءات الشاذة من الاعجاز

أوردنا في المقالات السابقة أن القراءات الشاذة ليست قرآنا إجماعا ، والآن نريد أن نبين الموضوع من ناحية البلاغة والاعجاز ، فهل القراءات الشاذة بليغة ، وهل تحتوي على سر الاعجاز ؟ فإذا ما أثبتنا حلوها من ذلك كنا قد لمنا دليلا آخر قاطعا في بى قرآيتها ، يضاف على ما تقدم من البراهين .

أما إذا كانت هذه الروايات ليس شأنها ما ذكر فلم يقع بها التحدى ، وجب أن يسلم الدكتور وأمثاله بأنها ليست من القرآن إطلاقا ، وأن الشاف فيها لا يمدو ما ذكره علماء الأصول فيما تقدم من إحدى الحالات الثلاث السابقة ، وأنهم غير صادقين فيما رموا به علماء المسلمين من التقصير .

وهذا المبحث فرضى جدلى تنزلى ، إذ قد ثبت مما تقدم بحال محال للشك فيه أنها ليست قرآنا .

ما هو السر في إيجاز القرآن ؟ وهل كان العرب يعلمون هذا السر ؟

لا جدال في أن العرب كانوا يعلمون السر الذى به عجزوا عن معارضة القرآن ، وإلا لبطل معنى التحدى ، إذ ليس معنى التحدى أن تطالب إنسانا بأن يمارض كلاما من غير أن يسكون قد عرف الوصف الذى إذا أتى بكلام على هذا الوصف يكون قد أتى بمثله .

أما إذا وقع التحدى بالقرآن ولم يعلم المتحدى الوصف المفصّل فيه الذى يجب أن يكون من وصف كلام المعارضة ، ثم هو لم يمارض ، فليس من الإصاف أن نصفه بالمعجز .

وقد ضرب لذلك الامام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز مثلا حسنا فقال ما نصه : « لا يقوم في عقل عاقل أن يقول لحصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلى ، وهو لا يشير له الى وصف يعلمه في فعله وراه قد وقع عليه . أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : إني قد أحدثت في خاتم حملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها ، لم تتعه له عليه حجة ، ولم يثبت به أنه قد أتى بما يحمزه ، لا من بعد أن يراه الخاتم ويشير له الى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ؟ لانه لا يصح وصف الانسان بأنه قد عجز عن شيء حتى يريد ذلك الشيء ويقصد اليه ثم لا يتأتى له ، وليس يتصور أن يقصد الى شيء لا يعلمه ، وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه في جملة ولا تفصيل » اهـ

فهذا صريح من الامام بأن المعجز بعد التعدي لا يثبت إلا إذا علم المتحدى الوصف الخاص فيما تحدى به .

لذلك صح قولنا في صدر البحث : لاجدال في أن العرب كانوا يعلمون السر الذي به عجزوا عن معارضة القرآن . وإذا يقال : ما هو هذا السر ياترى ؟

لا يجوز أن نذهب الى ما ذهب اليه بعضهم من أن سر المعجز عن الاتيان بمثل القرآن هو في الكلم المفردة ، لأنه :

(أولا) أن هذه المفردات مقدور عليها للعرب ، فصلا عن أنها من أوضاعهم واصطلاحاتهم ، فلا يعجز عربي مطلقا عن أن يقول : موسى ، ابراهيم ، سعة ، يوم ، الله ، الحى ، القيوم ، الى غير ذلك ، وهذا بديهي .

و (ثانيا) أن الوصف الخاص في كلام القرآن ، مع كونه يجب أن يكون معلوما لهم على ما سبق ، قد تجدد بالقرآن ، ضرورة أنه خاص به ، فلم يعرف قبل نزوله ، وحينئذ استحال أن يكون في المفردات ، لسبق وضع المفردات ، ولأنه يلزم أن يكون في حروف المفردات وهيئاتها أوصاف يمجدها السامع لمفرد القرآن ، ويفقدها في مفرد غيره . فبطل أن يكون السر في الكلم المفردة .

ولا يجوز أن نذهب مذهب من يرى أن السر إنما هو في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللفظ ، لاستحالة ذلك أيضا ، فان تقدير ذلك يؤدي الى أن يكون قد تجدد بنزول القرآن في معنى (الطعام) و (كلب) و (حلا) و (بنى إسرائيل) مثلا ، وصف لم يكن موجودا في معاني هذه الكلمات قبل نزول القرآن ، وهو محال .

المقاطع والفواصل :

كذلك لا يجوز أن نذهب مذهب من يرى أن السر الذي كان سببا في عجز العرب عن معارضة القرآن إنما هو في المقاطع والفواصل ، على معنى أنهم كلّفوا أن يأتوا بكلام له مقاطع وفواصل كالذي نراه في القرآن . ذلك أيضا محال ، لأن الأمر إذ ذاك لا يعدو مراعاة الوزن ، والفواصل في آى القرآن أشبه بالقوافي في الشعر ، وكلنا يعلم بالضرورة اقتسارهم على القوافي ، فلو كان التحدى بأن يأتوا بنصوص كلام يكون لها أواخر أشباه قوافي لما عجزوا عن ذلك مطلقا ، فبطل إذاً أن يكون السر في الفواصل . على أن الأمر الذي بهر العرب من القرآن ، والروعة التي دخلت عليهم فآز عجزهم ، فوصفوا القرآن أجمل وصف ، لا يمكن أن تكون تلك الروعة ، وهذا الجلال والإعظام لقى راعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيب بينها وبين سكناته ، أو لفواصل في آخر آياته ، بل لا بد وأن يكون هناك أسر أعلى من هذه الأمور كلها ،

وسر رفيع لم يحم حوله أصحاب هذه الآراء المتقدمة . انظر الى قول الوليد بن المغيرة حين سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية . ما يقول هذا بشر . وانظر الى سيدنا عبد الله بن مسعود حين يقول في وصف القرآن : « لا يتفه (١) ولا يتشان (٢) » ، وحين يقول : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أتانق فبين » أى أتتبع محاسنهن .

هل يمكن أن يكون هذا القول وأشباهه من أجل أوزان الكلمات ، وفواصل الآيات ، أم من أجل مادة الكلم المفردة ، أم معانيها الوصية ؟ لا ، بل الذى سر هذا المفاصل من القرآن شئ آخر أرفع مكانا من هذا وأعظم شأنًا ، وهو الذى سنبينه فيما يأتى إن شاء الله تعالى بعد أن نفرغ من استعراض بقية الآراء ، ونأتى على نقضها وبطلانها .

وأرى أن من المناسب أن أختتم هذا المقال بكلمة وجيزة للجاحظ في وصف القرآن ، فقد يستأنس بها لما ذهبنا اليه من وجوه بطلان الآراء السالفة ، قال : « لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغناهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وملازمها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه » . ١٠ هـ .

مسرح مسبح

من سقطات الادباء

قال نزار بن برد ، وهو الذى نقل الشعر العربى من خشونة البداوة ، الى رقة الحضارة ، وهو من أهل القرن الثانى للهجرة : « لقد عشت في زمان وأدركت أقواما لو اختلفت الدنيا ما تحملت إلا بهم ، وأنا الآن في زمان ما أرى فيه مافلا حصيفا ، ولا فانسكا ظريفا ، ولا ناسكا عفيفا ، ولا جوادا شريفا ، ولا خادما نظيفا ، ولا جليسا خفيفا ، ولا من يساوى على الخيرة رغيفا ، وأنشد :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

نقول : من أراد أن يدرك ما يجلبه الحرم أو اليأس من تضليل العقلية الانسانية ، اعتبر بما نقل عن نزار بن برد هنا ، فانه قد نُحِل اليه وهو في عنفوان الدولة الاسلامية ، وفي رُبُوع شببته ، وفي الكثرة الحافلة بالآئمة الاعلام ، وبالقادة العظام ، وبكل ما يشرف المجتمعات ويعلى من أقدارها ، أنه في بيئة ليس فيها من يساوى رغيفا !

(١) تفه الشئ : قل وخس .

(٢) تشان الجله يس وتتنج . وما مجازان ظامران .

بَابُ الْأَسْبَغَةِ وَالْفَتَاوَى

الاستشهاد للميت الاستنجار للقراءة على الميت ، وثواب قراءة الأجر .

قراءة الفاتحة في تشييع الجنازة ملازمة القبر سبعة أيام

—

جاء الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المفضل راج كلتن رئيس المجلس الديني بماصمة
كونا باروكنتن الأسئلة الآتي ملخصها :

(١) جرى العمل عندنا على أن يقول الامام بعد صلاته على الميت : ما تشهدون فيه ؟
فيجيب الحاضرون : « أهل خير » أو « أهل السعادة » . فهل هذا العمل مشروع ونافع للميت ؟
وهل ما صح في لبخاري ومسلم من أن الصحابة لما أثنوا بالخير على جنازة قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « وجبت » يعني الجنة ، ولما أثنوا على أخرى بالشر قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« وجبت » يعني النار ، هل هذا الحديث وما صح في الباب من أحاديث أخر أدلة لمشروعية
العمل المذكور أم لا ؟

(٢) وجرى العمل أيضا أن أهل الميت يدعون حفظة القرآن عند قبر الميت أول ليلة من
دفنه فيقرأون ألوفا من سورة الاحلاص ومن التيسيح والصلاة على النبي والاستغفار للميت ،
فهل هذا موافق للسنة ؟ وهل ينفع الميت كما زعموا أم لا ؟

(٣) وجرى العمل أيضا أثناء تشييع الجنازة أن يقول أحد المشيعين : « الفاتحة » ، فيقرأ
الجميع الفاتحة وقوا ، ثم يتكرر ذلك مرات ، فهل لذلك أصل في السنة ؟ وهل قراءة الفاتحة
بهذه الكيفية تنفع الميت ؟

(٤) وجرى العادة أيضا أن يستأجر أهل الميت قارئاً يلزم القبر سبعة أيام بلياليها
أو أربعين يوماً بلياليها يقرأ القرآن ويسبح ويصل على النبي صلى الله عليه وسلم ويستغفر للميت ،
فهل هذه الإجارة صحيحة ؟ وهل ثواب ما قرأ الأخير يصل الى الميت ؟ وهل هذا عمل موافق
للسنة ؟ وهل ما رواه الامام أبو سعيد بن لب أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا
يستحبون ألا يتفرقوا عن الميت سبعة أيام صحيح يستدل به على عمل الناس الآن ؟

الجواب :

عن السؤال الأول :

أن الاستشهاد على الكيفية الواردة في السؤال لم يؤثر عن السلف الصالح ، لا في عهد
الرسول صلوات الله عليه ، ولا في عهد الصحابة والتابعين ، فهو إذاً بدعة .

وشهادة الناس للميت بأنه من أهل الخير أو من أهل السعادة لا تعدو أن تكون إخباراً مما يعلمونه من حال الميت ، فإن كانوا صادقين في شهادتهم بالخير له كان ذلك دليلاً لنا على أن الله تعالى سيقبل عمله ، وينفضل عليه بدخول الجنة ؛ وهذا الذي قلنا هو معنى الأحاديث الواردة في هذا الباب التي تتضمن أن من أئس عليه عدد من المسلمين وجبت له الجنة .

(٢) عن السؤال الثاني :

أن الذين يقرءون سورة الإخلاص أو أى سورة من القرآن عند القبر إذا اتفقوا مع أهل الميت على أن يكون لهم أجره على ذلك ، أو جرى العرف بإعطاء مثلهم أجراً على قراءته ، فإن حملهم هذا يكون من قبيل الاستئجار على الطاعات ، وللعلماء في ذلك خلاف ، والجمهور منهم على كراهته ، وعلى أن القراءة بالأجرة لا ثواب فيها للقارئ ولا للميت . أما إذا كانوا متبرعين بالقراءة دون أن يكون لهم على ذلك أجر ، لا شرطاً ولا عرفاً ، فإن الإمام أحمد رضى الله عنه وأكثر المتأخرين من علماء الفقه يرحون أن تكون هذه القراءة مقبولة ، وأن ثوابها يصل إلى الميت . ونقل عن الإمام الشافعى رحمه الله أن قراءة القرآن لا يصل ثوابها للميت لأنها ليست من عمله والله تعالى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . ويرى المتقدمون من علماء المالكية أن القراءة للميت مكروهة لا ثواب فيها له لأنها ليست من عمل السالف الصالح ، فقد كان حملهم التصديق والدعاء لا القراءة . وأما النبرع بالاستغفار للميت فإنه من الدعاء المطلوب شرعاً وهو نافع للميت .

(٣) وعن السؤال الثالث :

أن طلب الفاتحة من المشيعين للجنائز ليس له أصل في السنة ، وقراءة المشيعين الفاتحة للميت فيها الخلاف السابق .

(٤) وعن السؤال الرابع :

(١) أن الاستئجار لقراءة القرآن قد تقدم الكلام فيه ، وأن الجمهور يرون كراهته ، بل نص الحنفية على أن الإجارة على قراءة القرآن غير صحيحة ، وكذلك الإجارة على التسبيح والتهليل والتحميد والاستغفار للميت .

(٢) وأن قراءة الأخير لا ثواب فيها للقارئ ولا للميت كما هو رأى الجمهور من متقدمي العلماء .

(٣) وأن ملازمة قبر الميت سبعة أيام أو أربعين يوماً لا أصل له في السنة . وما رواه الإمام أبو سعيد من أنهم كانوا يستحبون ألا يتفرقوا عن الميت سبعة أيام فلم تر تصحيحه في الكتب المعتبرة ، بل الذي نعرفه أنهم كانوا لا يستحبون الإقامة على القبور ولا يستحبون الميت في المقابر . روى البخارى رضى الله عنه في صحيحه أنه لما مات الحسن بن الحسن بن علي

رضى الله عنهم ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت ، فسمعوا صائحاً يقول : ألا هل وجدوا ما فقدوا ! فأجابهم آخر : بل يسوا فانتقلوا ! قال الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري نقلاً عن ابن المنير : إنما ضربت الخيمة هناك لتأس بالقرب من الميت تمليلاً للنفس وتخبيلاً باستصحاب المألوف من الأنس ، ومكابرة للحس ، كما يتعلل بالوقوف على الاطلال البالية ، ومخاطبة المنازل الخالية ، فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتقين بتقبيح ما صنعوا .

وقال النووي : وأما المبيت في المقبرة فكروه من غير ضرورة . نص عليه الشافعي ، واتفق عليه الأصحاب .

نعم وردت السنة الصحيحة بانظار المشيعين بمد الدفن ساعة يستغفرون فيها لميت ويسألون له التثبيت . روى أبو داود عن عثمان رضي الله عنه قال . « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف على قبره وقال : « استغفروا لأحبيكم واسألوا له التثبيت » . والله أعلم »

محمد عبد اللطيف القمام

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

التواضع مجلبة للشرف

قال عروة بن الزبير من كبار علماء التابعين . التواضع من مصايد الشرف ، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع .

وقال حكيم : التواضع في الشرف ، أشرف من الشرف .

أما أخبار الكبار المتواضعين وخاصة من أهل هذه الملة فكثيرة ممتعة ، نذكر منها أن أبا هريرة لما استخلف على المدينة ، كان يذهب فيحتطب على ما كان عليه قبل الولاية ، ويأتي بالحزمة من الحطب على ظهره يشق بها السوق قائلاً : جاء الأمير ، جاء الأمير ! ليعلم به الناس فينصرفوا إليه في حوائجهم .

هذه قاية لم يسمع بها إلا عن صحابي ، ناهيك أنها أبانت عن تقسية ليس لمظاهر المادية سلطان عليها ، فإذا استطاع الإنسان أن يحتفظ بمثل هذه النفسية نقية صافية على هذا النحو فلا تعجب إن انكشف له من أسرار الروح ما لا ينكشف لغيره من الراحين تحت آصار الأمراض النفسانية .

المواسم والاسواق

وآثارها في نهضة الأمم الاقتصادية والعلمية

هذه وإن كانت فذلك اقتصادية من نشوء الحركة التجارية وتطورها ، فانها في الوقت نفسه تكشف عن سنن الله في ترقية البشر ، وعن الأصول التي يقوم عليها نظام التبادل الاقتصادي ، وتأثير ذلك في تطور الأخلاق ، وتقريب مادات الأمم بعضها من بعض ، وفي هذا من النفع في فهم حكمة الاسلام في الحفز على التجارة وعلى الأسفار لتعرف أحوال الأمم ما فيه لذلك غنيا بإيراده ليكون فاتحة لبحوث اقتصادية مستفيضة ، ولا يوحد اليوم من مجهل مكان الاقتصاد من ترقية الشعوب وتوجيهها الى الغايات البعيدة ، فأقول :

لقد درج الانسان الأول في متسع رحب من الأرض بهم فيه سعيًا وراء فريسة يقتنصها ، أو رجا ، فأكفه دانية يقتطفها ، ولما تكاثرت فسله وشموا تلك الحياة المشردة المهدة ، انتظموا قبائل متفاوتت مواقعها ، فكان منهم من استقروا على مقربة من مسيل ماء فزرعوا ، ومنهم من أقاموا في مسابغ المعشب ، أو ضربوا في القياض ، فرعوا .

ولما كانت الزراعة أسهل وسيلة للحصول على ضروريات الحياة اللازمة للناس والبهيم ، من طعام وفي ، ومأوى ، أقل عليها الناس ، واجتمعوا في الوديان ، وعلى مجارى الماء وشواطئ الأنهار ، يفلحون الأرض حتى إذا آتت أكلها وزاد الناتج عن الحاجة ، بدهوا يستبدلون تلك الزيادة بما توفر لدى الرعاة من الحيوانات والثمار التي ليس لديهم منها ، فحصلت بينهم مقايضة ، وكان اجتماعهم على مقربة من المزارع نواة الاسواق . وإنما لشاهد مثل تلك الحالة الأولية في أطالي السودان ، إذ ما زالت تعيش قبائل على القفطرة يعطون العاج ومنتجات الغابات نظير أسلحة قديمة يدرعون بها عوادي الحيوانات المفترسة ، أو بعض أنواع اللحوم والملبوسات الساذجة . وكانت تتم عملية المقايضة بنسب غير معروفة ، وغير دقيقة لانعدام المقياس الذي تقوم به المبادلات ، فكان الرجل يعطى شاة ليأخذ غلالا . ثم كثر النسل في الجهات الزراعية ، لتوفر دواهي الهدوء والاطمئنان الى الرزق ، وحاجة رب الأسرة الى أبناء يساعدونه في مباشرة زراعته ، وانتشر بذلك العمران في تلك الجهات ، وقامت بها مدنيات ، وتقدمت الزراعة في مساحات واسعة ، وأدخل عليها تحسينات ، وتنوعت المحاصيل ، ووجد الناس أنه من الأجدي لهم أن يخصصوا جهودهم في زراعة أو صناعة ما امتاز به وطهم ، واستبدال منتجات البلاد الأخرى ، وبذلك لم يعد الانسان ينتج لحض سد حاجاته الشخصية ، وإنما بدأ يزرع وينتج أشياء بقصد أن يتقايس بها أشياء أخرى تجود بها الطبيعة ، في أماكن أخرى تهيات فيها الأسباب الطبيعية والاقليمية لإنتاجها وإنتاجها .

فإذا ماتم الحصاد حمل الفلاحون محصولهم الى القرى أو المدن المجاورة ، فوق ظهور الابل أو على متون الخيل والبغال ، لبيعه واستبدال غيره به ، واحتتموا في مكان قريب وسط المدينة لينمكسوا من عرض ما حملوا ، وبذلك تكونت السوق المحلية بطريقة أولية وهي مجرد عرض سلع في انتظار المشتري . وبدأت تتكون لدى أهل الريف فكرة عن حياة المدن ، واختلطوا بسكانها وعرفوا عاداتهم وعلومهم وفنونهم ، فتهدبت أخلاقهم ، وحسبت اليهم معيشة المدن ، فزح بعضهم اليها ، ونقل الآخرون تلك المظاهر الى عشائهم .

وقد خرج النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو في شبابه الى أسواق الشام ، في تجارة السيدة خديجة .

وأصبحت القوافل التي تحمل حاصلات الريف والبادى في ذهابها ، ونضائع ومنتجات المدن في إيابها ، مورد رزق لكثير من البلاد التي تحط بها رحاها لتستريح من وعناء السفر . وقد ذكر الله تعالى وهو يعدد نعمه على أهل مكة رحلتى الشتاء والصيف : « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » . وغدت تلك البلاد مراكز تجارية يلتقى فيها التجار من جميع الجهات فيتبادلون البضائع ويتعارفون ، واعتبر اجتماعهم سوقا محلية ، تقدم اليها الناس من أطراف المدينة ، ومن القبائل الضاربة على مقربة منها ليتزودوا من سلعهم ، ويبدوا يتحدثون في شئونهم ويروون أشعارهم ، وينفخرون ويعدحون ويهجون ، ممثلين مدنيات أقوامهم . فكان ذلك أصلا لنشأة الأسواق التي اشتهرت في الحجاز : كسوق عكاظ ، وذى الحجة ، وغيرها .

واكتشف استعمال النقود في تقدير قيم الأشياء المتبادلة ، فادى ذلك الى تطور كبير في الحياة الاقتصادية ، وأمكن تقويم السلع والملكيات والقيام بأعمال التسليف ، وبدأ الانسان يظهر كوحدة اجتماعية في معترك الحياة في مصر والعراق ووسط آسيا ، وارتقى مستوى معيشته وزاد إدراكه للأشياء ، وتهدبت لغته وأصبحت أكثر وضوحا ودقة .

وجرت السمن الشراعية تنقل حاصلات الشرق ونصائمه الى جسوب أوروبا ، فظهرت في المدن القريبة من الدولة الرومانية حركة تجارية كبيرة ، واشتهرت مدن فلورنسا وبيزا وجنوا وفيينسيا ، حيث كانت ترسو على مواثها السفن ، وتفرع بها حولتها ، لتوزعها على أسواق أوروبا ، فأثرت تلك المدن ، وبنت لها أساطيل تجارية تختر عباب البحار ، والتقى فيها المسلمون بكنوزهم المادية والعلمية بالغربيين ، وكانوا مازالوا في جمل القرون الوسطى ، فأخذوا عنهم ونهلوا من مواردهم ، وتقدمت لديهم الفنون الجليلة والرسم والنحت والهندسة والشعر والفلسفة ، وكان ذلك بدء النهضة الأوروبية الحديثة .

إلا أنه كثيرا ما كان يضار المنتجون والبائعون من تعرض بضائعهم ومنتجاتهم لآخطار

الطريق ، وللتلف من طول عرضها في السوق لجعل المعروضة عليهم بها . وكان المستهلك نفسه يجد مشقة في الحصول على حاجاته من تنقله بين المعارضين ، وانتظاره مواسم المحاصيل . ولما كانت رغبة المنتج في تصريف منتجاته لا تقل عن رغبة المستهلك في الحصول على حاجاته ، وجدت طائفة الوسطاء والتجار ، ولهم من الخبرة والدراية والمران ما يجعلهم حلقة اتصال بين الطرفين ، فيشترون من المنتجين سلعتهم وحاصلاتهم ويزيدون في مبالغها بوضعها في متناول المستهلكين بالطرق التي يقتضيها فن البيع الذي يخلق الرغبة في الشيء أو يهدي إلى منافع الأشياء ، وبذلك لم يعد المنتجون في حاجة إلى الانتقال ببضائعهم إلى الأسواق والانتظار ريثما يأتي المشتري ، وإنما تجمع حاصلاتهم ومنتجاتهم بالقرب من بيئة الإنتاج في أسواق مركزية ، ثم ينقلها تجار الجلة إلى الأسواق المحلية ، ومن ثم توزع على تجار التجزئة لبيعها إلى المستهلكين .

وارتقت وسائل الانتقال ، واستعملت عربات سريسة منظمة في نقل البضائع ، وبذلك امتدت الأسواق إلى أبعد من محيط المدينة الواحدة ، وأصبحت تعتمد في تمويلها على البلاد البعيدة ، وبذلك اتسع نطاقها واستقرت الأسواق المحلية داخل المدن ، ووجد لكل سلعة سوق على حدة .

تقدمت التجارة ، ونما عدد السكان في العالم ، وتطورت الأفكار ، وجاء دور الانقلاب الصناعي في أوروبا بما أحدثه من ثورة هائلة في وسائل النقل ، فاخترعت الآلة البخارية ، وانتشرت السكة الحديدية في أنحاء العالم ، وأنشئت الجسور والأنفاق ، وتقدمت السكة الحديدية فتمسها في ثقلها وقوتها ومقدرتها وسرعتها ، واخترعت السيارة تساعد وتنافس السكة الحديدية في نقل الناس والبضائع ، وارتقت السفن البخارية في الحجم والمناطة والسرعة ، وحفرت القنوات ، وربطت لوسائل النقل البحرية أن تسير في داخل مساحات أرضية ، فقص ذلك كله على المسافات ، وربطت أجزاء العالم بعضها ببعض ، وأصبح في مقدور البشر من جميع الأجناس واللغات أن يجتمعوا ويختلطوا ويتبادلوا ما تحمله سفنهم من المواد الخام والبضائع ، وقرب ذلك بين الأسواق ، وتعدت السوق المحلية إلى أسواق خارجية ، وصار من السهل على المصانع والمستهلكين أن يعتمدوا على الخامات وموارد الاستهلاك من مصادر الإنتاج البعيدة ، بل لقد أصبحت المعمورة كلها سوقاً واحدة يتمتع كل قطر منها بخيرات الأقطار الأخرى عن طريق التجارة والمبادلة الحرة ، وبذلك تعدى التجار الخارجي المواد السكانية إلى المواد الضرورية .

غير أنه منذ أكثر من خمسين سنة كانت التجارة في البهم واللحوم والسمك والغواكه والخضروات محدودة لتعرضها للتلف السريع ، فكانت تستهلك في حدود دائرة لا يزيد محيطها على بضعة مئات الأميال من موطنها مع ضرورتها وشدة حاجة الشعوب البعيدة إليها ، ولكن العلم تقلب على بعض هذه الصعوبات وأمكن تخليص أنواع من هذه المواد كالكولات ، فعاثت طويلاً وأمكن تصديرها إلى البلاد النائية .

وابتداءً من منتصف القرن الماضي استعمال طريقة حفظ اللحوم والمخضر والفاكهة بواسطة تبريدها الى أقل من درجة الحرارة التي تتولد عندها ميكروبات التعفن ، ويرجع الفضل في ذلك الى الاهتمام الى طريقة استخدام الثلج واكتشاف مادة الامونيا في سنة ١٨٦٠ فأمكن إرسال أول شحنة من لحم العجول من أمريكا الى إنجلترا في سنة ١٨٧٧ وأول شحنة من لحم الصان من استراليا الى إنجلترا في سنة ١٨٨٠ ، وشاع استعمال طريقة التبريد ، واستخدمت في حفظ المخضر والفاكهة وعصيرها والجبن والمأكولات المعبأة كالمرليات ، ثم تقدمت الفنون وحدد التحقيق العلمي درجات الحرارة التي تتم عندها عملية التبريد والحفظ الخاصة بكل نوع من أنواع الطعام ذات الأسواق البعيدة .

وانتشرت الأسواق المحلية في المدن الكبيرة والقرى حيث تمتد يوماً في الأسبوع تنشط فيه حركة البيع والشراء ، وخصوصاً في أيام المواسم والأعياد لما يجري عليه الناس من تمجيد تلك الأيام والاحتفال بها والمخروج فيها عن مألوف عاداتهم في حياتهم اليومية مادية كانت أو معنوية ، فينفقون من سعة ، ويقدمون على تجديد ملابسهم وأثاثهم ، ويوسعون على أنفسهم وعيالهم ، فيزداد الاقبال على طلب السلع المعروضة في السوق ، ويكون أغلبها أشياء جرت العادة أو التقاليد بطلبها في تلك المناسبات كالسكك والكمك والملابس والأقنعة في العيد ، وصنوف المأكولات وأنواع البندق والوز وغيره في رمضان ، وبذلك يرتفع ثمنها لأن المعروض منها يكون أقل من الطلب عليها إلا إذا أغرى التجار كثرة ما يعود عليهم من الربح فيعقدون صفقات أكبر من المنتجين ، وقد تنتهي موضة الموسم أو نظراً لظروف كحالة حرب أو كساد أو فتك أوبئة وأمراض أو فيضان أو زلزال ، فتضعف القوة الشرائية لدى جمهور المستهلكين ، ويعجز التجار عن تصريف سلعهم ، لذلك يلزم الى جانب ما يجب أن ينحلي به الناصر من صفات الدعاية نفسية وميول المستهلكين ومواسمهم وأعيادهم والدقة والحدس ، أن يتبع طريقة التخزين ، وذلك بحفظ سلعة في مستودعات التخزين ، سواء أكانت عامة تملكها شركات وتؤجرها للتجار أم في مستودعات يملكها التجار أنفسهم ، ليضمنوا بذلك ثبات الأثمان ، فلا تتعرض للهبوط القريب إبان الموسم لزيادة المعروض وقتئذ ، ولا للصعود الفاحش بعد أن ينتهي الموسم .

هذا وتخزين السلع وحفظها بمد تبريدها جعل كثيراً من أنواع الطعام غير خاضعة للنظام الموسمي ، وأمكن بذلك تموين البلاد الصناعية الغاصة بالسكان .

ولكن قد يستغل التجار جهل المستهلكين بالكمية المخزونة لديهم ، ويعمدون الى رفع الأثمان ، فدرء لهذا الضرر تقوم الحكومات بعمل الإحصاءات اللازمة لحصر مقادير السلع المخزونة ومقدار الانتاج منها لياخذ المستهلكون حذرهم من جشع المنحرفين .

ولسهولة الانتقالات ورخصها في القرن الحالي أمكنه الحصول على المواد الخام من أبعد

أنحاء العالم ، واستخدام العلم والفن في تكييفها ، وخلق منافع كثيرة منها لم تكن في الحسبان ، كالطير الصناعي من الخشب وغيره ، وأصبح لزاما على المنتجين وتجار الجملة أن يقوموا تحت عبء المنافسة الحرة بمحلات إعلانية واسعة النطاق يقدمون بها السلعة الجديدة الى العالم بأسره . وكان لتقدم فن الاعلان ، وتسهيل دفع أثمان المنتجات ، ومقدرة أبواب العمل الفنية والمالية ، أثر كبير في تهيئة الرأي العام لقبول أنواع جديدة من السلع ، وتخوير العادات والتقاليد لتتفق وما تخرجه مصانعهم منها ، وبذلك تطورت عادات الشعوب ، وازدادت معلومات الجماهير ومعرفتهم ، وأحاطوا بكثير من أسرار الفنون والعلوم بإطلاعهم على المبروضات النموذجية أو بقرائهم ما ينشر في الاعلانات في كل مكان ، وارتفع مستوى المعيشة العالمي لأن حاجات كثيرة كانت تعتبر من الكماليات في العصور الأولى لندرتها وارتفاع ثمنها وصعوبة الحصول عليها ، أصبحت الآن من الضروريات وفي مقدور جميع الناس الحصول عليها والاستمتاع بها ، بسبب انتشار وسائل النقل ورخصها ، واتباع نظم البيع الحديثة .

واقضى التقدم في جميع نواحي النشاط البشري تنظيم الأسواق المحلية والعناية بها من جانب الحكومة بفرضها رقابة عليها لمنع الغش والتلاعب بالاسعار ، وأدى اهتمام التجار بالاعلان والدعاية الى أن أصبح لكل سلعة شهرة عالمية ، خصوصا إذا كان الانتاج منها وفيرا والطلب عليها متزايدا كالقطن والحبوب والفواكه ، وأصبحت أسواقها أسواقا دولية ينطبق عليها التعريف الحديث للسوق ، فانه لم يمد يقصد بها مكان معين تباع فيه البضائع ، بل أصبحت تشمل الاقطار أو العالم بأكمله ، وتطلق على جميع المتعاملين في أية سلعة يكون نطاق المعاملات فيها واسعا ، ويكون المتعاملون أحرارا في معاملاتهم وعلى اتصال دائم مهما احتلت أماكنهم ، وذلك بوسائل الاتصالات الحديثة كاللغراف والنايفون واللاسلكي . وعلى ذلك قد تحتوي المدينة التجارية على عدة أسواق بقدر ما يوجد بها من عروض التجارة ، أو قد تكون الدولة كلها سوقا واحدة إذا كان إنتاجها الكبير لا يتمدى نوبا واحدا من السلع .

ويجتمع كبار المتعاملين في البورصات وقاعات المزادات العامة حيث تعقد الصفقات ، وتحدد الاسعار ، وتشر على الملا بوسعة اللاسلكي والمصحف السيارة ، وتعلق في الحلقات والشئون ، وبذلك تتجه أسعار السلع الواحدة نحو التساوي بسرعة وسهولة في جميع جهات العالم ، وبذلك أيضا ازداد ترابط أحرار العالم وأصبحت الكرة الأرضية وحدة لا تفرقها إلا الخصومات السياسية للاستيلاء على منابع الثروة والتسلط على موارد المادة الخام وضمان أسواق لتوزيع منتجاتها ، وكانت النتيجة أن اتبعت بعض لدول نظم الحماية والخصم الجركية لتقييد الواردات ، رغبة منها في زيادة مصادراتها ، وحرصا منها على صناعيتها الناشئة أو القائمة على المنافسة الخارجية ، ولكن الدول الأخرى بطبيعة الحال تقابل تلك السياسات بالمثل ، فحال ذلك كله دون رواج

التجارة ، وحرية المبادلة اللازمة لرخاء ورعاية العالم ، بل أدى ذلك الى تكديس البضائع في المخازن لا تجد مصريها ، فكسدت الأسواق وتهدد المنتجون بقلة الأرباح ، فقللوا الانتاج وأغلقوا بعض مصانعهم ، وخفضوا الأجور ، واستغفوا عن كثير من العمال ، فكثرت البطالة ، وانخفضت القوة الشرائية ، وهبطت كنتيجة لذلك مقطوعة ما يبيعه التجار ، فاضطر التجار لإبطال ما سبق أن تعاقدوا عليه ، فغاث المستحون ، واندقر المنتحون وهكذا ، وتسنجكم الأزمة وتشل الحركة التجارية ، وتزداد وطأة هذه الحالة في زمن الحرب حيث يقف دولاب العمل تماما .

إلا أن الحرب تعتبر موسما مواليا لمعامل السلاح والمواد المرفقة ، فتدب فيها الحياة وتفتح أبوابها للعمال ، وتشترى أرواحا من المواد الغام ، وقد تحصل عليها بسهولة لأن الحكومات المواد لها تعيينا وتؤازرها ، فيثري تجار السلاح ومنتجو مواد ، وتتسع رفعة أسواق السلاح والذخائر في بعض البلاد المحايدة التي تورد أسلحة لكل من العارفين المنحاربين ، وتجري الفلك في حراسة الأساطيل محمى بمواد وآلات الهلاك والتمهير بعد أن كانت تسير في حراسة الله بسم الله مجراها ومرساها ، وهي تحمل مواد ضرورية للحياة والتعمير ، وتنقل رسل المعرفة والنور ؟

ابراهيم زكي

ما قيل في ضروب اللباس

من الناس من يتأنق في لباسه الى حد الخروج بذلك من مالوف الناس ، فيعجبونه بأبصارهم ، ويخذونه في قلوبهم ، قال الشاعر :

قل للذي يخرج عن شكله ليرتقى أسباب أوطار
كيف ترجو أن تنال العلا ولم تبال النهر من حار
من فارق المعهود من زي فذاك لا كاس ولا حار

وقد عرف قديما وحديثا أن ليس هناك تلازم بين اللباس والألمعية ، فرب متبذل في لباسه ملا طبايق الأرض علما ، ومتأنق فيها كان حشوا إهابه جهلا فاضحا . وهذا لا يعني أن كل ألمعي يجب أن يسف في ملبسه ، فقد ورد في الكتاب الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح حث على التحمل .

قال مكحول من أعلام التابعين : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله ، ومن جمع بينهما ظهرت مروءته .

مختارات عن كبار علماء أوروبا

الدور الذى قام به آحاد من النوع البشرى
فى التطور العقلى للانسانية

وأينا استكالا لضروب التحسين فى تحرير هذه المجلة أن نشئ* فيها بابا نودعه أحسن وأنفع ما نقف عليه من البحوث المالية ، فى أهم الشئون الانسانية ، لكبار العلماء ، وأجله الباحثين الغربيين ، مترجما عن لغاتهم الأصلية ، لأعلى سبيل الاستشهاد بها فى إثبات شئ أو نفيه ، ولكن على سبيل عرض آراء جبارة المقول فى أعوص المسائل التى يعنى بها العالم فى حياته الراهنة . فنبداً بتعريب مقال للعلامة الدكتور (أوجين أوستى) مدير أكاديمية البحوث النفسية فى فرنسا . قال تحت العنوان المتقدم :

« يبعد جداً أن يكون الآحاد المؤلفون لمجتمع متمدن فى عصرنا الراهن على درجة واحدة من الناحية العقلية ، بل هم من شدة التحالف بحيث يصعب ترتيبهم ترتيباً مرضياً . فلن ننظر اليهم هنا إلا من ناحية التطور التى تهتنا وحدها .

« ولننبه بادئ ذي بدء أنه يجب لأجل التعمق فى درس مزاجهم التيسير كولوجى أن نميز فيهم :

(أولاً) ما هو أصلى أو فطرى لديهم ، أى الذخر العقلى الذى وإن احتجب عندهم خلف الصفات المكتسبة ، فهو الى حد ما يعتبر القوة المؤثرة فى تحديد وجهة أعمال الشخص وأفكاره .

(ثانياً) ما يكونون قد أضافوه الى هذا الذخر العقلى من آثار التربية والعلم ، وهى آثار تؤثر فى ذلك الذخر العقلى ، وتمطى هؤلاء الأفراد مظهرها يوم أنهم متشابهون ، على حين أنهم يكونون متخالفين كل المخالف .

« فإذا لوحظت الكائنات الانسانية من هذه الناحية ، رُئيت على حال من الترتيب تكون فيه جميع درجات التطور العقلى ممثلة . فإذا حكم عليهم بعد تقدير الذخر العقلى الذى لكل منهم فيمكن أن ينقسموا الى ثلاث نماذج تضم جميع آحادهم ضمماً جلياً .

« فالنموذج الأول يجمع جميع الكائنات الانسانية ذوى الذخر العقلى المجاور للحالة الأولية ، وهؤلاء يعملون ويفكرون متأثرين بالميلول الجسدانية الطبيعية ، فهم يكونون تحت تأثير اندفاعات طبيعية ، شعورهم العقلى مظلم وضامهما يكونون قد حصلوه من المعلومات . فالحياء

بالنسبة لهم ليست غير ظاهرة بيولوجية من درجة محطة (١) . وهؤلاء لا يكون حظهم من الأخلاق إلا مظهرا مفروضا عليهم بسلطان القوانين الاجتماعية ، أو القواعد الدينية ، أو بتأثير مادات لا تناقض تربيتهم البتة إلا مفاضة ضعيفة .

« هذه الطائفة هي في المجتمعات البشرية بكثرة لا يتوقعها الساطرون ، لأن أفرادها لا يجدون فرصة للظهور في المجتمعات إلا في للشئون الصغيرة للحياة الشخصية ، وهي لا تلت نظر إلا قليلا . ولكن إذا طرأت أحوال تصلح لإظهارهم على مام عليه ، تحقق الساطرون من كثرة عددهم .

« هذه الطبقة ولدت القنلة والسلايين في جميع الاحيال البشرية من أول رؤساء الشعوب الشرهين المولعين بالغارات والحروب ، الى الفاردة ومن دونهم من جميع الأقدار والأنواع ، الى القامئين بتعذيب الأجساد والعقول ، الى المتجسسين على أعمال الناس ومحاسنتهم على عقائدهم ، حتى ينتهي الأمر الى الطوائف المؤتملة على النهب وسفك الدماء ، وفي أيامها هذه تولد هذه الطبقة ، على حسب الامكنة التي تضمهم فيها الظروف ، وعلى قدر معارفهم أو جهالاتهم ، الجماهير الصاحبة للوصولين المجردين من الضمائر ، المستعبدين لرجال أمثالهم ، والفاهرين الذين لا يعنهم إلا نفوية شهواتهم وذواتهم . وتولد أيضا العدد الضخم من الحيوانات نصف الفاعرة التي تتراعى على الافتراس والقتل متى لاحت لها أول فرصة .

« هذه هي الكائنات ذوات الميول الخفنة التي مسحتهم المادات ، ومقتضيات الحياة الاجتماعية ، مظهرا يخفى تحته الاندفاعات الهيمية للأناسى الأولين في كل حيوانها وقونها .

« وفي مكان متوسط بين هذه العقليات الأولية ، وبين العقليات التي يمكن أن تعتبر في نظر أهل عصرنا الراهي أنها بلغت منتهى الترقى ، يوجد نموذج إنسانى يحوم حوله السواد الأعظم من كل أمة عصرية متمدنة ، جعلهم الترقى التدريجى الذى أنتجهم كائنات أقل تعلقا ببدا الأثرة من سابقهم ، وأكثر انقيادا لواجبات التبادل التي تقتضيها الحياة الاجتماعية ، ولكنهم مع هذا غرقون في المادية ، لا تنصرف عقولهم الى ما هو خارج عن دائرة مطالبهم الحيوانية التي زادها الرقى المدنى تركبا ، إما مباشرة أو بواسطة . فهم كائنات مادية يعتبرون الحياة مرعى خصيبا لهم ، فيوفقون جهودهم عليها ، ويوجهون نشاطهم الى الحصول على أحسن مكان منها . فالحياة الأرضية على أكل ما تكون هي في نظرم القلب الذى ينجذبون إليه مقهورين خلال أعمالهم الجزئية التي تشغلهم في وجودهم . وصل هؤلاء في سبيل الانتفاع ينتج الرقى المادى العام ، ويسهل عيش الأفراد في أحسن الأحوال .

« أهل هذه الطائفة يُظهرون ارتياحا للأوضاع الأدبية الراهنة ، وللأمر العلوية التي

(١) يريد بقوله : ظاهرة بيولوجية ، أى حادث جوى أحدثته التواميس الطبيعية فيما أحدثته من الظواهر الحيوية

تقويتهم بها دياناتهم أيا كانت إذا كانوا متدينين . وهم يعتقدون أن مبدأ سيادة القوة من الضرورات التي لا يحصى عنها ، وهذا المبدأ في نظرم من النواميس الطبيعية التي يجب الخضوع لها . فهذه الطبقة تمثل الانسانية التي بلغت الى منتصف الشعور ، وأقلمت عن خشونة انذاماتها الجاهلية ، طبقة يعمل فيها قانون التطور باستمرار ، وتولد فيها التوثبات التي تحدث في كل جيل لدفع عدد أكبر من الناس نحو ذروة الترقى .



« مما لا مشاحة فيه أن أوج التطور العقلي في عصرنا الراهن نسبي ، وهو أرفع مستوى وصل إليه البشر من السمو النفسي ، ولكنه ليس بالحد النهائي لترقى القوة الفكرية .

« يندر من يرتفع الى هذا المستوى ببذل الجهد الشخصي ممن يكون الفخر العقلي لديهم في درجة منحطة . فكل إنسان يولد وله تركيب نفسي فيزيولوجي يؤهله لاكتمال القوة الفكرية فيه ، فتأتي التربية وتأتي المعلومات فتحقق هذا التطور التام المستعمله ، وتدفع الذين لم يستعدوا له الى ما يقرب منه .

« وعلى خلاف هذا يكون أصحاب الفكر العقلي المتطور من ناحية الاستفادة من استمدادهم الفطري بالتربية ، أو لعدم الاستفادة منه بتركهم جهالا . فقد شوهد بين جاهل الكائنات المتأخرة في الهيئات الاجتماعية أشخاص تركيبهم العقلي من أرقى طبقة ، ولكن لم تسعفهم الأحوال بالتربية . هذا إذا لم يكن قد أصابهم مؤثرات رجعية ، فنجدهم رغمًا عن نفوس أصحابهم في بيئة لا تصلح لظهور قابلياتهم ، وقد تكون معاكسة لها أيضا ، يتميرون عن بقية المحيطين بهم من أهل طبقتهم سمو أفكارهم ، وبتمطش عقولهم لفهم كل ما يؤثر عليهم ، وبشدة إحساسهم بالجمال ، وبأحجامهم بالأفكار العالية ، وبمدالة أحكامهم ، وبمطقتهم واستقامة أصماهم ، وهم في توازنهم النفسي الكامل يجمعون كل القوى القابلة للظهور ، مما تصادفها مطلقة من كل قيد عند الرجل المتطور الذي أسعفه الأحوال بالتعلم .

« تأتي على رأس جميع الطبقات الشريحة القليلة لطبقة المتورين الذين أسعدهم الحظ بالتعلم . فهؤلاء كائنات ذوو شعور واضح تغلب عليهم الوظيفة الفكرية ، وقد احتازوا منطقة العمل لجرد المنفعة المادية ، وسلكوا كل طريق يمكن أن يؤديهم الى مدى أبعد في باحات العلم والمعرفة . وهم إذا نظروا الى شيء قاموا بذلك بتثيت وزاحة ، متبصرون في إثباتهم وتقييمهم ، لا يبصرون الأشياء من خلال حجب مضلة تعسد عليهم أحكامهم ، ولا يخلصون لرأي ما ولا لافتراض ما خضوعا مطلقا ، ولا يستبد بهم الاتباع وإن كان شرطًا في الوصول الى العلم . ولكمال إدراكهم تفاهة المعلومات البشرية ، لا يسمحون لأنفسهم بحق الحكم على أي مجهول

اعتمادا على ذرؤ لا قيمة له من المعلومات التي لديهم . فتجدهم يتألمون من صيق الجبال الذي يمنع به لأفكارهم ، وهي منعشة للإلهام بكل شيء في الوجود .

« إن سمو الشعور الأدبي الذي لدى هؤلاء الرجال ، من ذوى التطور العالي الذين يعدون الإنسانية بالمصاييح التي تتقدمها في سيرها نحو الرقي غير المحدود ، ينتج من اتساع مدى الشعور العقلي . فإن العقل على عليهم السيرة التي يتبعونها بدون أن يحتاجوا الى الإيحاءات التي ترد من الخارج . ونظرا لأن وجودهم الشخصي لا يظهر لهم أنه مجرد مجموع أعمال ذات أغراض تفعية أملتها عليهم الآثرة ، ولأن النشاط العظيم الذي تمنع به أفكارهم تفقههم بالتجربة على مبلغ القيمة النفسية للإنسان ، فقد تأدوا تأديا ضروريا الى ماطقة احترام أنفسهم واحترام غيرهم ، وأخذوا يسرون في معاملاتهم على هذه الأصول : العدالة ، والحرية ، والتسامح ، والرحمة .

« وهم لا ينظرون الى سوام من الناس نظرم الى أعداء أنت بهم المصادقات ، ولكن نظرم الى زملاء مدفوعين في حركة واحدة تحمل الإنسانية جماء نحو غاية مجهولة . وهم على علمهم بأن هذا الدفع من الأمور التي لا تدخل تحت الاختيار البشري ، تجدهم يحاولون تغيير تسلسل الأسباب الثانوية ، لجيكن أن تحوّل الأحوال الرديئة للحياة الى أحسن ما يمكن أن تكون عليه ، فترام يعيشون حياتهم صحايا لصدق نظرم الذي يريهم بوضوح تام أنها وهم باطل ، وضحايا لإحساسهم الحاد الذي تؤثر فيه على وجه الاستمرار الوحشيات المحيطة بهم .

« وهم محردون من السلاح في جماعات بشرية مقودة على الدوام بقانون وجوب الحرب لأجل الحياة ، ليقدمهم غريزة الجري وراء التريسة .

« بفضل هؤلاء الأفراد المتطورين قد بلغت الإنسانية دور الرشد . فإذا كانوا لا يزالون قليلين إذا قولوا تعدد الدهماء ، فإنهم يزدادون عددا يوما بعد يوم بدون انقطاع ، وصرعة آخذة في الارتفاع ، وسيأتي على الناس عهد لا يمكن تخلفه ، تصح فيه هذه الطائفة المنسورة الآن هنا وهناك السواد الأعظم من الناس . عندذاك تنقشع عن الإنسانية الموائد الخشنة التي تجعل حياة أكثر الأفراد توقيعات شتى للحن واحد : ألا وهو الألم .

« من ذروة الرقي النفسى هذا الى أحط الطبقات الجاهلة ، تأتي طبقات الشخصيات الحاصلة على درجات متباينة من التعلم ، ولكنها لم تبلغ منتهى التطور ، في نظام يقوم على درجة قابلياتهم الفطرية ، وعلى مقدار تربيتهن العقلية .

« فهم أصحاب شعورات عقلية لم تبلغ كمالها ، ومدارك ذات مدى محدود ، وغير ناضجة في بعض نواحيها ، وليس لها هذا التوازن ، ولا ذاك التلاؤم في الوظائف النفسية التي تهب الفكر مداه ودقته ، ومنطقه غير المشتق ، وخلوصه التام من ربة التقاليد الرجمية .

« إذا ألقينا مسبارنا هنا وهناك في هذه البيئة من الاختار العقلي ، نستطيع أن نقف على نموذجات من الخلاف الدريع الموجود بين الكائنات الانسانية وهي تحت تأثير العمل التطوري المتواصل .

« فقد يرينا هذا السبر طالما مشهورا في كل مجال من مجالات فرع من فروع العلم ، ولكنه جامد كل الجود ، ومنكر لكل ما يدخل في دائرة الافتراضات التي يختارها ، والآراء التي بناها لنفسه .

« ويرينا طالما آخر يقتنع بأبحاثه على أسلوب لا غبار عليه ، ولكنه يدع أحكامه الأخرى وسيره تحت سلطان عواطفه .

« ويرينا فيلسوفا يؤكد أو ينفي وجود الروح والخالق ، ويحكم على نظام الوجود بعبارات تولد الأباطيل ، وتهب الوجود لما ليس بموجود .

« ويرينا رجلا باطسيا ، والباطنية قرارة الخزعبلات التي تولد في الانسانية من لدن عهد طفولتها ، يُدخل — وهو في غفلة عن سخامة ما يعمل — البيولوجيا الانسانية في علم اللاهوت الذي يبتنيه ، ويضبط اللانهاية ، ويكسر المجهول المبحوث عنه رداء من ضيق آرائه .

« ويرينا رئيس حكومة يظن أن من المهارة أن يدفع شعبه الى اقتناص فريسة أدمم بما لديها ، وبمقدار من المكر والخديعة والاهب أكثر مما اتخذ من سقمه ، فيورطه في المدايح البشرية وهو يتوهم أن الانسانية كلها محصورة في الحزب الذي يمثل غايته وخاصة في شخصه هو ، وهو يخدعه نفسه وخدعه الناس ، ويجعله الى أية وجهة يتبعه البشر ، يعمل على إيجاد حركة تناقض حركة التقدم .

« ويرينا موطئا يصلح لكل وظيفه ، قد خدع الناس بإعلامهم أنه خادم أمين للجماعة ، فأساء استعمال السلطان القليل الذي منحه ، فأصبح غمروذا صغيرا ضد الذين كان يحب عليه أن يخدمهم .

« ويرينا جميع الذين يتخيلون أن مهمة الحياة الجري وراء الدرهم ، ويرتبون طبقات الناس على قدر ما يملكون من حطام الدنيا .

« ويرينا القنى الصخور بفنيمته التي يحتفظ بها ، والفقير الذي يحسده على ما في يده .

« ويرينا الفرق في أعمالهم الذين لا يبرحون كدحهم لجر المنافع ، إلا للاستمتاع بالذات المادية .

« ويرينا جميع الذين هم في الواقع بطون تتطلب أن تملأ ، أو أطفال يبحثون عن التسلية .

« كل هذا والمجموع المفقود على أن يعيش مجتمعا تنوال أجياله ناظرة الى ما حولها من

خلال جميع التقاليد والمعادن التي نشأت في ماضٍ منحط ، مضاعفاً اليها بتوسعٍ وهم جديد في وجود فيه العقل الراشد يميز بصعوبة عظيمة حقائقه النسبية ، من الوهم المطلق الذي يزيد هذه الحياة المنحطة حقارة على حقارتها . جماهير تموج في ركسف من الظلمة ، تتحرك في طلب النور ، وهي متبادلة في أحلامها المؤلمة التي لا حد لها . طوائف من المتخلفين في جميع مراحل السير نحو العقل المستنير أكثرهم في غفلة عن التطور الضخم الذي يعمل فيهم وبهم لمصلحة سوام .

« في أسفل هذه الطبقات الخاضعة لتأمر التطور ، يجد الباحث الطبقة الاجتماعية التي توصف بالمنحطة لأنها حرمت من التعليم .

« فهناك تصادف الذخر الأدبي في أولى درجاته ، لأن ما يضاف اليه من المعقولات المكتسبة لا يستطيع أن يحدث تغييراً يذكر في الفرائز العنصرية . المهم إلا ما يحىء من بعض الشبايع المهدبة من المدد الأدبي ، فانه يكون ماملاً حقيقياً في إحداث التطور .

« إن آحاد هذه الطبقة المتدججة في كثرتها ، توزن أقدارهم عقلياً على حسب الذخر الذي ورثوه من آباؤهم ، وأديباً على حسب الانجاء الذي يوحى إليهم ، متى كان ذلك الذخر الموروث ليس من درجة عالية . فيوجد فيهم الجيد والردىء متى عرست مظاهرهم على مأم عليه بدون تصنع منهم .

« فتصادف فيهم قابليات قد أهمل أمرها ، وأفكاراً بقيت في حالة جنينية لتقع في تركيبنا الاجتماعي .

« من هذا المستودع للاختار العقلي البطيء ، ينفع الى ارتفاعات مختلفة ، وربما طفرة من الخفيض الى الذروة ، أفراد أسعدتهم الأحوال بدفعهم الى مجال التطور .

« هذه الكتلة البشرية الجامدة في غلامها العقلي ، متروكة عرضة لكل الإيهامات التي ترد عليها وتؤثر فيها وما ترثه عن أسلافها يحسن من حالتها في جميع أدوارها ، وينقلها درجة عما كانت عليه في ماضيها » .

محمد فريد وجدي

لا يضيع المعروف

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها شكور أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما جحد الكفور

الحرية العلمية في الاسلام

كيف طبقها ملوكه في المشرق والاندلس

- ٩ -

يرى المفكرون أن الحرية العلمية اعترض طريقها في كل جيل أمران خطيران : الجهل ، والحكومة الظالمة . فالجهل يتور على العلم ويتخذ هدوله ، وقد يطلب من الحكومة أن تعينه عليه وتثأر له منه ، لاثذا بالدين مرة ، وبخوف من الالحاد أخرى ؛ وقد تكون الحكومة ضعيفة في حاجة الى معونة الجهل فتتصره ؛ وقد تكون جاهلة فتتألم في التسيكيل بالعلم ؛ وقد تكون حكيمة فتعالج الامر في رفق وحكمة ، فتسترضي الجهل ولا تظلم العلم ؛ وكثيرا ما رأينا الموم يسوقون الحكومات فتبسط بالعلم بطشة كبرى كما سنبينه في موضعه .

قد يضيف بعض الناس الى هذين الامرين المعارضين طريق العلم وحرية ، أصرا آخر له شأن وخطر ، وهو الدين ، يشجعهم على ذلك استبداد الكنيسة في القرون الوسطى بكل شيء ، ولكن الاسلام لم يقرر سلطة روحية . فدين هذا شأنه لا يعقل أن يشاق العلم ولا يضيق حريته ، ولكن يجري معه جنبا الى جنب ، ويرى فيه ما يعزز قواعده ، ويثبت أركانه ، مما سئرى أثره بعد .

فلما مضى عهد الخلفاء الراشدين وجاء بنو أمية ، اشتغلوا بفتحهم ودينهم ، وقرأ بعضهم شيئا من الطب ، واستقدم خالد بن يزيد بن معاوية تقرأ من مصر توجها له كتب في الكيمياء ، وانقضت دولتهم ولم يزيدوا على هذا شيئا . قال صاعد بن أحمد الأندلسي : « إن العرب في صدر الاسلام لم تمن بشيء من العلوم إلا بلغت معرفة أحكام شريعنها ، حاشى صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس اليها . فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية » .

مضت هذه الدولة ولم تحدث فيها خلافات دينية ، غير أن الجعد بن درهم بذر يذور المحنة الشديدة التي كان لها أثرها ونحايها في الدولة العباسية ، وهي القول بخلق القرآن ، وأظهر في ذلك مقاتله ، فهاج الناس وغضب الخليفة ، وأرسله الى أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله ، فبلغ هماما فهدد في قتله ، فقتل . وكان ابن درهم يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلا .

وأخذ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إخذ ابن درهم في القول بخلق القرآن ، ولكن

تتابع الحوادث ، واستعمار الجروب بين الأمويين والعباسيين ، وخوف العامة ، دفن هذه الفكرة مؤقنا حتى رفعت رأسها في القرن الثالث كما سيجي بعد .

نستعرض الآن حالة العلم في عهد الدولة العباسية التي قامت على سواعد الفرس ، فنشط رجالهم لإمداد الأدب العربي بحاجاته ، فترجموا له عيون الكتب المؤلفة بلسانهم ، واستخدم الخلفاء المترجمين عن اليونانية والعبرية والسريانية ، فترجم يحيى بن البطريق المجسطي في الفلك ، وجورجيس بن حبريل كسا في الطب ، وكان المنصور مع تفضله في الفقه كلما بالظر في علوم الأوائل . فلما جاء الرشيد كان الحرية العلمية في عهده شأن عظيم ، فأطلق البرامكة لئلا يحدوا عقولهم وأقلامهم ، غير أن حرية العلم ونقل الكتب إلى اللغة العربية لم يصل إلى غايتها إلا في عهد المأمون . كان المأمون قد نظر فيما ترجم من علوم المتقدمين ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، وملكت الفلسفة عليه كل حواسه ، فكان يذكرها قائما وقاعدا .

قال ابن أبي أصيبعة : حكى ابن عدي أن المأمون قال : « رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا على حكر من جالس في المجلس الذي أجلس فيه ، فتعاطمته ونهايته وسألت عنه ، فقبل . هو أرسطوطاليس ، فقلت : أسأله عن شيء ، فسأته : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنته الشريعة . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنته الجمهور . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ثم لا ثم . وهذا يرينا إلى أي حد تمكنت الفلسفة والعلوم من نفس المأمون . وكان يقدم أرسطو وفلسفته على من عداه ، وأعد دارا للحكمة حشد فيها من الترجمة والعلماء جمعا كبيرا ، وأرسل إلى حاكم صقلية في أن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة ، ففعل . كما أرسل إلى ملك الروم يستأذنه في أن يوفد إليه من يختار له من كتب اليونان وعلومهم ، فأجاب إلى ذلك ، فأنتد إليه جماعة من بينهم سالم وابن البطريق والحجاج بن مطر ويوحنا بن ماسويه ، فاختاروا من كتب اليونان جمهرة عظيمة حملوها إلى بيت الحكمة ، ونقلوها إلى العربية . لم يكن أمر الترغيب في النقل والترجمة قاصرا على دار الخلافة ، وإنما جرى الناس في هذا على مذهب مليكهم ، فكان كثير منهم ينفق الآلاف من الدنانير في الشهر على النقل إلى العربية . فسط الناس إلى النظر والتفكير على الأسلوب المقتبس من تلك الكتب ، فنشأت لهم آراء ومذاهب خالفت ما عليه العامة ، وشجع على ظهورها إطلاق المأمون حرية العلم ، وفتح باب الجدال على مصراعيه ، فلم تنهيب الناس عما كانوا يتهيبون منه من قبل ، وأدلو بما عدم ولو كان ضد الخليفة نفسه ، وكان المأمون يقبل ذلك ولا ينكره ، ويرحب بالآراء وتضاربها حتى تظهر الحقيقة ناصئة .

قال ميور المستشرق في الكلام عن المأمون : « إنه كان واسع الحرية إلى درجة مدحشة ، وقد أباح للمسيحيين حرية المناقشة في أي الدينيين أفضل : الاسلام أم المسيحية . وأحاط

المؤمنون نفسهم بالعلماء من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة في حضرته في مسائل كان البحث ممنوعاً فيها من قبل : كعلاقة الانسان بالله ، وطبيعة الألوهية . وقد وجد بعض مرضى النفوس الجور صالِحاً فمالوا من العرب وحطوا من شأنهم ، وهم قوم الخليفة ، فلم ينكر عليهم ، وأطلق الأفلام حربتها ، وقد جاء الشعوبية وغيرهم من ذلك بالشيء الكثير .

لم يكن المؤمنون يكتفي بهذا غصب ، وإنما كان يشترك معهم ، وقد يخالفونه فيرجح بهذا الخلاف ، لا يهيمه شيء إلا الوصول الى الحق . وكثيراً ما كانت مخالفة العلماء له مصدوبة بشيء لا يليق ، وكان يترامى إليه أشياء ، وكانت تحز في نفسه كثيراً ، كما حصل من تفضيله علياً ، واتهامه بتنقص الخلفاء الراشدين ، فكان يألم من ذلك ويقول : « والله ما أستصحب أن أتقص الحجاج فكيف السلف الطيب ؟ »

قال يحيى بن أكثم : « لما دخل المؤمنون بغداد أمرني أن أجمع له وحوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم ، وجلس لهم المؤمنون مسائل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المؤمنون : يا أبا محمد قد شغل الناس أهواؤهم . . » ولم يسترح لما جرى ولكن ذلك لم يفت في عضده ، بل صبر على ذلك ، ورأى أن مداومة البحث والنظر قد تقوم المعوج وتصلح ما فسد من الأمور .

الى هذا الحد بلغ هوى المؤمنون في حماية الحرية الفكرية والعلمية مما لم يكن له مثيل إلا في هذه العصور ، ولكنه لم يلبث أن أتى على جل ما بناء من صرح غم لهذه الحرية ، فأصدر أمره ، وهو يحارب الروم ، الى نائبه ببغداد أن يستدعي علماء الدين بدون استثناء ويأق عليهم هذا السؤال ، وهو من مباحث الممتزة : القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ وأمره أن يبطش بكل من يقول إنه غير مخلوق . فصعد نائبه إسحق بن ابراهيم بالأمر ، وضرب عدداً لا يحصى من كبار العلماء .

فمعبت المفكرون من هذا التناقض ، وزاد عيبيهم أن يأمر بالتحذير على القول بأمر ليس له أدنى علاقة بإصلاح دين ولا دنيا ، فشاب بهذا العمل ما كان سيخلد له من الذكر في إقامة صرح الحرية الفكرية والعلمية .

على أن هذه الحادثة لا يجوز أن تنسينا ما كان عليه المؤمنون من الخلال الكريمة ، وما خدم به العلم الكوني والفلسفة ، من ترجمة كتبها الى العربية ، الأمر الذي أثمر ثمراته في الاحياء التالية لحيله ، وتولدت منه المدنية الاسلامية التي أصبحت مفخرة الانسانية الى اليوم .

معجز لآء الممبءاء

فى الاسلام والمسلمين

الجنرال تشيانج كائ شىك زعم الصين

يشهد لمسلمها بالبسالة والوطنية

جاء فى جريدة شنغائى التى تصدر فيها باللغة الفرنسية ما تعريبه :

« رفع الجنرال تشيانج كائ شىك صوته عاليا فى الاجتماع السنوى لاتحاد الجمعيات الاسلامية الخاصة بالدفاع عن السلامة الوطنية ، فقال : إن المساعدة الاختيارية التى يقدمها خمسون مليوناً من مسلمى الصين من الرجال والمال وتمت أشكال أخرى ، وقد انضموا جميعاً الى الحبهة المتحدة للمقاومة ضد العدوان اليابانى ، لما يوجب لهم المدح والثناء العظيم . كان عدد المجتمعين فى هذا الاجتماع نحو مائتين من المسلمين . وقد حضره عدد من كبار الرجال الرسميين . منهم الجنرال باى تشونج سى من هيئة أركان الحرب العامة ، وهو رئيس هذا الاتحاد ، والجنرال هونيج شىج وزير الحربية ، وتشين لى هو وزير المعارف .

« وقد أثنى الجنرال تشيانج كائ شىك رئيس جمهورية الصين على حب المسلمين للحق ، وعلى شجاعتهم فى الدفاع عما يعتقدونه حقاً . وقد استشهد على صحة قوله بحوادث استخرجها من تاريخ الصين تدل على بطولة مسلمى الصين وإخلاصهم لوطنهم ، وضرب لذلك مثلاً بالجنرال تشانج يوشو الذى اشتهر بالبطولة فى أسرة مينج الملكية .

« ونوه بمس ذلك بالحربة العظيمة الممنوحة للأديان فى الصين حيث يوجد فيها بوذيون وتاويون ونصارى ومسلمون .

« وقد افتتحت الجلسة بعمل دينى مؤثر جدا وهو قيام الرئيس الاسلامى الصينى الامام بقرأة آيات من القرآن ، وعقبه بدعاء رجافيه من الله أن يجعل النصر النهائى من نصيب الصين . »

(مجلة الازهر) . هذه شهادة رئيس أكبر حكومة فى الارض يبلغ عدد أتباعها نحو خمسمائة مليون نسمة ، فمسلمون أينما كانوا ، ومن أى جنس كانوا ، لا تزالهم ما أكسبتهم أصولهم الصحيحة ، وهو حبهم للحق والدفاع عنه ، والاحلاس للبلاد التى يعيشون فيها ، ولولا أنهم

على هذه الأخلاق السامية لبادوا في وسط تلك الكثرة الساحقة ، ولما بلغ عددهم عدد أمة عظيمة تألفت مملكة قوية ، لا سببا ولم تكن الصين في جميع عهودها على مثل ما هي عليه اليوم من التسامح الديني ، والحرية الاعتقادية .

في سبيل الأرواح الاسلامية :

كتب العلامة جورج جويو من المجمع العلمي الفرنسي مقالا في جريدة (لا كروا) أي الصليب ، تحت هذا العنوان ، ما يلي :

« ظهر العالم الاسلامي في خلال العصور إزاء العالم المسيحي كنلة مندعة لا يمكن الفوز الى باطنها . وإن طلب نشرة يوليو التبشيرية أن يدعو الناس لقبول المسلمين الاعتراف بالمسيح ، يقتضى وجود ثقة مطلقة في أنه في مستقبل قريب أو بعيد ستصبح قلوب المسلمين مفتوحة للدعوة المسيحية ، وأنها ستدخلها لا محالة .

« وقد أوضح الأب شارل في نشرته المدعوة (دوسيهات الأعمال التبشيرية) موقف الاسلام وممارسته في كل العصور للديانة المسيحية . وهذا الفس الذي لا ينخدع للألفاظ ولا للآراء المقررة ، والذي يجدد بصدق بحوثة مواقع الدفاع عن المسيحية ، يتبين أن الاسلام بين جميع الأديان العظيمة العالمية قد وجد بعد المسيحية ، وأنه من بينها هو الدين الوحيد الذي يقدم نفسه للناس تحت عنوان أنه الكمال النهائي للسبيعية ، وأنه بعد أن اجتاز حدود القومية التي نشأ فيها ، قد ارتقى ليس في كثرة عدد أتباعه لحسب ولكن بسريانه في مناطق جديدة . وقد حدث في مدى القرون الماضية كلها أن هذين الدينين المسيحي والاسلامي قد تصادما وتقاتلادون أن يتصل أحدهما بالآخر اتصالا وثيقا . وهنا قال الأب شارل حرقيا : « إن هذين الدينين قد ماشا جنبا الى جنب فافتتلا مستهترين ، ولكنهما ظلّا متجاهلين » . ولم تظهر أول ترجمة للقرآن مصحوبة بمقدمة في تفنيده إلا على عهد البابا (اينوسان) الحادى عشر أى في آخر القرن السابع عشر .

« هذا من ناحية المسيحية ، وأما من ناحية الاسلام فانه يوقوعه في خطأ من العلم بعقيدة التثليث كما نفسه برداء العظمة باعتبار أنه دين التوحيد الخالص ، وتصدى لانتهام العقيدة في المسيح ، على ما هي عليه في الكنيسة ، بأنها تحل بعقيدة التوحيد وتجدها . وهذا الاسلام الذي لا يعرف إلا القليل من المسيحية ، ويحكم عليها هذا الحكم السيء ، قد اعتبره مسيحيو القرن السابع والثامن بدعة مسيحية مشبعة بالروح الاربابية والنسطورية (١) . والمسيحيون الذين ينظرون الى الموضوع من قرب يرون لدى المسلمين الاولين اعتقادا في

(١) الاربابية والنسطورية من المذاهب للسيعة للوحدة .

قلمية المسيح ، وعظمة المنراء ، وفي وجود الكون من العدم . وقد اعتمد الاسلام على كل ما حوته الأساطير القديمة في علم الكون والعالم الروحاني . ولكن هذا الخشوع الرث لا يجوز أن يحجب ما بقى من الآراء المسيحية في الأفكار الاسلامية . أما تعدد الزوجات فقد اعتبر زمانا طويلا هوة سحيقة بين الاسلام والمسيحية ، وهي في الواقع هوة لا يمكن اجتيازها .

« ولكن الأب شارل ينف في كتابه الذي نحن بصده على : أن تعدد الزوجات ليس باجباري في الاسلام ، ولكنه كان عادة قديمة عند القبائل العربية ، وأنه قد زال الآن من ممالك إسلامية عديدة ، وأنه ليس بأصيل في الاسلام .

» وعليه فلا نقول إن وطأة الخلاف بين المسيحية والاسلام تخف ببيان هذا العالم التبشيري ، ولكن تقل الحوائل التي تقوم بينهما ارتقاء وعرضا .

« إن هذه الدراسة النيرة للأب شارل توافق الوقت الذي اتجهت فيه عزيمة رجال التبشير على اجتذاب المسلمين الى العقيدة المسيحية ، وحتى في الأوقات التي كان الناس فيها لا يعرفون جيدا ماهية الاسلام ، كانت الكنيسة ليست واقعة جامدة حيال الانتشار السريع للاسلام وازدياد طغيان موجته في العالم ، وهذه الموجة كانت لأجل أن تنتشر تعتمد على القوة ، فكانت الحروب الصليبية ردا على هذه القوة باسم الحق .

« ولكن في الوقت نفسه كانت تهباً حركة في النفوس ابتدأت في القرن الثالث عشر ، وهي حركة سان لوي الذي قام بالافتارة على تونس محاولا بذلك أن يقود الى المسيح روح السلطان (١) وحركة ريمون لول الداعية المسيحي أمام جموع المسلمين ، وقد كاد يستشهد وهو يقوم بواجبه . وما نحن بعد مرور مائة قرون نرى أنفسنا حيال رسولين للمسيح الى المسلمين ، وما الأب فوكولد ، والأب شارل أندريه بواسونيه .

« وقد نصبت لوحة تذكارية لهذا المبشر كتب في السطر الثاني منها « سفير المسيح الى أرض الاسلام » . ولما كانت سنة ١٩١٥ وخطب الأب داسونفيل في مدينة ليل ينصح بوقف حركة التبشير ، ألم بذكر الأب فوكولد والحسين مليونا من غير المؤمنين الواجب على فرنسا تنصيرهم ، وكان حاضرا في جملة الذي يشملهم القعود عن التبشير شاب هو الذي يرحى فيه أن يكون نديدا لفوكولد ألا وهو بواسونيه . وهذا قد أحمل فكره فيما هو بصده من هذا العمل العظيم ، وقدر الصعوبات التي تحول دونه حق قدرها ، ثم اعترف أن يسير في تحقيق أغراضه متوخيا الحري على الحكمة التي قالها وهي : « لنعمل كأب النجاشي لا يتعلق إلا بمجهوداتنا الانسانية وحدها ، وادع الله دعاء من يعتقد أن السجاح يستدعي إحداث آية » .

« ولما أصبح الأب بواسونيه فسياسا جعل من أغراضه تحقيق ثلاثة أمور :
 (أولاها) العمل على إزالة الأوهام والسخائم التي يوحىها منظر كل أجنبي الى قلوب
 المسلمين ، وهذا لا يكون إلا بأن يجعل الأجنبي من نفسه عربيا عائشا بين العرب .
 (ثانيا) كسب احترامهم بنقص روح القداسة باطنا وظاهرا
 (ثالثا) اجتذاب قلوبهم بالقيام بالأعمال الخيرية ، مع تجنب إثارة الخلافات الدينية .
 « هذا هو البرنامج الذي سبه وجرى عليه الأب شارل أنديره بواسونيه في مؤسسته تازيرت .
 ولما أملت به المنية في فبراير من سنة ١٩٣٨ سارت تازيرت كمقطعة مضيئة تراهى بسببها شجرة
 الإيمان المسيحي حفية للأرواح المسومة مشيرة الى ثمرتها الياقوتية وهي الاحسان الى الغير .
 « ألا إن أرواحا وروح الأب فوكولد وروح الأب بواسونيه عهد الى الاسلام طرقا بواسطتها
 تستطيع المسيحية أن تقترب منه . وما تلقيناه هذا الشهر من الرجاء المنشور في النشرة التبشيرية
 سينال من الله تعالى قبولاً ، فتتوسع هذه الطرق التي تقيح للمسيح أن يتجه منها الى الاسلام
 اتجاه الظاهر المنتصر » .

(مجلة الأزهر) : إن رجال الدين في أوروبا وأمريكا يدعون الى تناسي الاحقاد الدينية ،
 وتأسيس زمالة إنسانية بين الناس أجمعين ، بصرف النظر عن عقائدهم ومذاهبهم ، وهم يقيمون
 لإذاعة هذا التسامح المؤتمرات في أكبر عواصمهم ، ولكنهم لا يفتأون يحاولون أن يفتنوا
 المسلمين عن دينهم ليصباؤا الى ملتهم . وقد سلكوا لتحقيق أغراضهم طرقا شتى يعرفها جميع
 القارئین ، وليس يجمل هنا سردها . واليوم يبشرنا المسيو (جورج حويو) أن القس
 بواسونيه ارتأى أن يسلك في اجتذاب المسلمين طريق الإحسان اليهم ، وقد فصل وجوه ذلك
 الاحسان . وإنا نشكره على دعوته الى وجوب تحول الدعاة عن طريقهم الموحجة لسوء الظن
 والسخائم الى طريقته من المسالمة والمصاحمة ، وإن كانت لا تؤدي الى فتنه المسلمين عن دينهم
 كما يريد .

ونحن نعجب من هؤلاء الدعاة يبذلون أموالا طائلة في سبيل الدعوة التي يقومون بها ،
 وينذرون لترويجها بكل ما تتخيله عقولهم من الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، إلا وسيلة
 واحدة ، وهي (الاقتناع) . ففهم بالفت في الدعوة لمذهب ، وتفتنت في لفت النظر اليه ،
 وأشبعت في حيله بطونا غرقى ، وكسوت أجسادا عربا ، وطألت جسوما مرضى ، فلن تبلغ
 من المدعوين أكثر من الشكر على حسن صنيعك ، أما الانتقال اليه ، والتمويل في توفية حاجة
 العاطفة الدينية عليه ، فسيبيله أمر آخر غير الاحسان المادى وهو الاقتناع العقلى . وهذا
 الاقتناع يقضى عن كل الوسائل الأخرى كما ثبت ذلك عمليا . فقد ذكر الكاردينال الفرنسي
 المشهور (لافيجرى) في تقاريره أن المسيحية والاسلامية تنازعنا السلطان على عقول متوحشى
 أفريقيا ، الأولى يغفلها رجال نساء . دهم الحكومات ، وتحت أيديهم أموال طائلة ينفقونها

اجتذاباً لاهواء أولئك المتوحشين ، والثانية يمثلها دراويش فقراء يعيشون حالة على المدعويين ، أو تجار لا يذلون درهما واحداً في سبيلها ، فكانت النتيجة أن دخل في الاسلام نحو ستين مليوناً في القرن الأخير ، ولم تنمر الدعوة المقابلة لها شيئاً يذكر .

وقد انتشر الاسلام في أول ظهوره بهذه الوسيلة نفسها ، فقبلته النفوس مطمئنة اليه ، لموافقته لما فطرت عليه من حب التعقل لما تدين له ، وإذا كان قد كذب لهذا الدين أن ينتشر بين الناس كافة ، فلن يكون ذلك إلا بهذه الوسيلة لا غيرها .

فإذا حصل الدعاة بما يقوله الأب بواسونييه فلدسوا لبوس العرب ، وتعموا لغتهم ، وعاشوا بين ظهرائهم ، وعاملوهم بالبر والاحسان ، فلا تشك في أن هؤلاء الدعاة أنفسهم يصبأون الى الاسلام بعد أن يفهموه ، لأنه لا محيد لنفس بشرية عن سبيله إذا كانت تريد أن تستقيم على الجادة الصحيحة .

وقد قل أن تصادف من يذكر الاسلام ولا يذكر تعدد الزوجات ، والقرص من ذكره إضمار المخاطب بأنه بسبيل دين شهواني يحلل التوسع في اقتناء النسوة لزيادة الاستمتاع المادي . وقد ألمنا بهذا الموضوع في العدد الماضي في صفحتي ٧١٦ و ٧١٧ فليرجع اليه .

على أن فهم الحكمة في إقرار الاسلام لمبدأ تعدد الزوجات وحصره سهل جداً ، ذلك أن العظم الاجتماعية التي قصرت الزواج على واحدة قد غابت كلها ، لأن الناس احتلوا على تعدد الزوجات باتخاذ الخدينات ، وقد كان ذلك شائعاً في أعظم عصور المسيحية ، ولا تزال هذه العادة معمولاً بها في جميع البلاد المتقدمة .

ولما كان مبدأ التعدد ناشأ في بعض النفوس الى هذا الحد كما ترى ، رأى الاسلام أن لا يفلت من رعايته ملايين النسوة اللاتي يوقعهن الرجال في حبائلهم ، فأبدل مبدأ السماح بتعدد الزوجات بمبدأ اتخاذ الخدينات (المتريسات) ، وغرضه من ذلك أن لا تحرم هؤلاء الملايين من النسوة والأولاد من حقوقهم المشروعة ، وأن لا ينتشر البغاء باسم القانون ويتغلغل في النفوس .

فأي المذهبين أرقى علياً ، وأرحم اجتماعياً ، وأجل أثراً أدبياً ؟

ليتخيل المسيو (جورج جويو) ما تقول إليه حالة قبيلة يحرم فيها تعدد الزوجات ، ويباح فيها الفسق والمخادعة ، ألا يرى أن حالة المرأة فيها تسوء الى حد لا تمكن إلفاقته ، وتندهور فيها الأخلاق تدهوراً لا قرار له ؟

الخلاصة : أن الاسلام قد نشأ يكتنفه المنطق والعلم ، وعاش وهما سلاحه طول حياته ، وسيميش مصاحباً لها في جميع أدواره ، وما كان كذلك استحال أن يهجره ذووه إلا إذا هجروا العلم والمنطق ، وهذا محل أي محال ؟

محمد فريد وجدي

نظام الوقف في الاسلام

نحاول اليوم أن نعرض لذلك من الشهادة بالوقف وما يتعلق بها ، بعد أن عرضنا لأصل الوقف في أنواعه المختلفة :

نقل صاحب البحر جواز الشهادة على الوقف من الرجال والنساء ، وجواز الشهادة على الشهادة بشرائطها المبينة في بابها مما تدعو الضرورة الى صردها ، والشهادة احتساباً ، فلا يشترط عند علماء الوقف أن تقتصر الدعوى بالشهادة ابتداءً ، بل يجوز في أثناء نظر الدعوى أن يتقدم شهود الى القاضي فيشهدوا بواقعة معينة يموذ إثباتها بالمنفعة على جهة الوقف ، كما حدث في عدة محاكم كلية . والقدر المتفق عليه بين العلماء لتجوز ذلك : أن الوقف حمل من أعمال البر قصد به الترفية عن جماعة من الانسان ابتغاء أن يدفعوا عنها عوارض الفقر وذل العاقة ، فكان من الترخص في هذا السبيل تيسير الاثبات للمعين الموقوفة بالقدر المصحح لهذا الاثبات ، حتى تكثر أنواع البر ، وتتلاقى النوايا الطيبة في ملتي واحد .

من أجل ذلك أجاز علماء الفروع للقاضي أن يسمع الدعوى مقترنة بالشهادة على معين أو غير معين من الوقف ، وإن كان صاحب كتاب أنفع الوسائل يرى أن الشهادة على غير معين لا تثبت إلا أصل الوقف إذا كانت حسبة ، أما إذا كانت الشهادة على معين فيشترط فيه لصحتها تقدم الدعوى مقترنة بذكر الشهادة لتكون صحيحة الأركان من الناحية القضائية . وليس تقدم الدعوى صحيحة على شهادة الحسبة ضرورياً ، لأن الوقف حمل من أعمال البر ، ونوع من التعاون بين الأغنياء والفقراء .

وكما لا يشترط تقدم هذه الدعوى صحيحة في الوقف ، أجاز الفقهاء الشهادة فيه بالتسامع . وقد عرف الفقهاء شهادة التسامع أن يشهد الشخص بما لم يعاينه بناء على إخبار جمع من الناس يؤمن توافدهم على الكذب أو شهادة مدلين عنده بذلك ، فالوقف إذا كان على جهة بر لا تنقطع تقبل فيه الشهادة بالتسامع ، فلو شهد جماعة مثلاً بأن مكان كذا وقف على مسجد أو مدرسة أو ملجأ ، وصحت شهادتهم ، وثبت كون المشهود عليه وقفاً على الجملة التي سموها في شهادتهم . لكنهم لو شهدوا في حالة أخرى غير مماثلة لتلك الحالة ، كأن شهدوا على أن الواقف شرط في وقفه ألا تصرف غلة الموقوف إلا الى ولده فلان دون فلان ، ففي هذه الحالة لا تسمع شهادة الحسبة . ويشترط في الشهادة بالتسامع في الوقف تحديد الموقوف تحديداً تاماً بحيث لا يلتبس بغيره إن لم يكن مشهوراً متميزاً بين الناس ، فإن كان كذلك فشهرته تغني عن تحديده ، ويكتفى باختصار منه بثلاثة حدود على الراجح ، كما يشترط أن لا يجبر الشاهد بهذه الشهادة معناه الى نفسه ، وأن

لا يدفع عنها مفرما ، وألا يكون موتورا ، وألا تعود شهادته ببعض المضامين إلى ذوى قربان مما سوف يقول اليهم استحقاقه في العين المشهود عليها منهم . فلو شهد بأن الواقف وقف عليه أو على أولاده أو نسله أو من يجمعه به قرابة ، لم تصح الشهادة ، لأنها جرت مغتا لشاهد بالذات أو بالواسطة .

ومثل ذلك ما لو شهد بأن العين وقف على فقراء قرابته ، حتى لو كانوا أغنياء وقت الشهادة ، لاحتمال أن يعرض لهم الفقر مآلا ، غير أن العلماء قد استثنوا حالة أخرى قد تكون شبيهة بأهل قرابة الشاهد في بعض الأحيان ، وهي أن يشهد الشاهد بوقف عين يستحق فيها جيرانه أو أحدهم ، لأن الجوار مما يتغير ، فقد يجاورك شخص ثم يبعد عنك يوما ما ، وهذا كاف فيه احتمال البعد ، وإلا فن ذا الذي يسوى من الفقهاء بين جوار قد تتحول أحواله ويتغير مآله وبين قرابة لا تزول ولا تدول ؟ ولم يفرق بعض العلماء بين الجوار والقربى ، وطرد الباب على وثيرة واحدة ، واعتبر تغيير مكان الجوار وتنقل الجيران من مكان إلى مكان ، مآرضا من العوارض التي قد تطرأ وقد لا تطرأ ، والاعتبارات الشرعية لا يصح ابتناؤها على فروض مستقلة قد تقع وقد لا تقع ، إنما تقام على حالات راهنة تتخذ مقياسا لمصالحيتها أو عدم صلاحيتها .

وبما لامشاحة فيه أن شهادة الحسبة معتبرة شرعا ، وأكثرها اعتبارا في المسائل التي تعود على المجتمع بحدوى وثأمة . وقد أقام المشرع الاسلامى لشهادة الحسبة وزنا غير يسير ، فأدخلوا في باب لائحة ترتيب الحاكم الشرعية لسنة ١٩٣١ نظام الحسبة بمد الأذن بالخصومة ، ونظموا الإذن بالخصومة تنظيما يكفل مسمع شهادة الحسبة على وجه قضائى يرفع الدعوى المشهودة إلى درجة القبول أمام القاضى .

ولتبحث تفصيلات أخرى نعود إليها إن شاء الله في المستقبل القريب ا عباس ط

لحضرات المشتركين

لما كان نظامنا المالى يقضى بعدم إرسال المجلة إلا لمن يدفع اشتراكها أو جزءا منه فترجو حضرات القراء بأن يبادروا بالاكتتاب منذ اليوم .

بحوثنا في السنة المقبلة

١ — العوامل الأدبية التي استخدمها الاسلام لتطوير الشخصية الانسانية .

٢ — صحف مختارة من أقطاب العلم المصري .

اعتزمنا بعون الله وتوفيقه أن نفتح السنة الحادية عشرة لـ *مجلة الأزهر* ببحثين جديدين مع مباحثنا الأخرى :

(أولها) دراسة العوامل الأدبية التي استخدمها الاسلام لتطوير الشخصية الانسانية . وهذه الدراسة ضرورية للشعوب الاسلامية الراحنة التي تود أن تنهض بالمبادئ الاسلامية ، الى حيث بلغ أسلافها الأولون في سنين معدودة .

معلوم بالضرورة أن الأمة العربية الى عهد نزول القرآن كانت لا تزال على الحالة القبيلية ، حتى ما كان مضطرا منها للاحتكاك بالأمم المنظمة بقي على تلك الحالة الى أن جاء الاسلام فأنتقذه منها ، وجعل من العرب أمة ذات مبادئ مقررّة ، وأصول محررة ، وغاية مرجوة ، ثم دفع بها الى مزدهم الجماعات البشرية لتبتلى بجميع ما يتصور من المحللات الاجتماعية ، فلم ينقسم تماسكها ، ولم ينحل ترابطها ، ولكنها صمدت للأحداث تغالبها حتى بلغت أرقى ما تبلغه أمة في مجال العلم والعمل ، وأرفع ما تتوج به جهود شعب من السؤدد والغلب .

هذه حادثة فذة في تاريخ الانسانية ، تقتضى عوامل من ضرب طال جدا تستخدم لاحداثها ، فها هي هذه العوامل ، وكيف أثرت طفرة في شعب كان مجردا منها ؟

هذا موضوع ترى لدراسات متوالية في صميم الآيات القرآنية ، وللباب العلوم الاجتماعية والنفسية .

(ثانيهما) الصحف المختارة وقد سبق الكلام عنها فلا نكرره هنا .

أسرار البلاغة — في علم البيان :

أصدرت دار المنار في هذه الأيام هذا الكتاب النفيس لمؤلفه الإمام « عبد القاهر الجرجاني » مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد صقيل . والكتاب ومؤلفه غنيان عن التعريف . وقد وضع في وقت تحسنت فيه دولة الألفاظ واستبدت على المعاني . وهو خير ما كتب في موضوعه عبارة وأسلوبا ، وإيضاحا للعسائل وبسطا للدلائل . وقد امتاز بإرجاع الاصطلاحات الفنية الى علم النفس وتأثير الكلام البليغ في العقل والقلب . وقد عني بتصحيحه علامتا

المعقول والمنقول المرحومان الشيخ « محمد عبده » والشيخ « محمد محمود الشنقيطي » ، وعلق حواشيه العلامة المرحوم « السيد محمد رشيد رضا » منشئ « مجلة المنار » .
تمن النسخة ٢٥ قرشا .

سمو المعنى فى سمو الذات :

هذا اسم كتاب فى سيرة الحسين بن على رضى الله عنهما ، وتاريخه كما يعلم القراء جزء من حوادث جسام حدثت فى القرن الاسلامى الاول بسبب ولاية الحكم ، المطلع عليها يشرف من قرب على الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين فى ذلك العهد ، والكتاب الذى بين أيدينا يسرد تلك الحوادث ويحللها تحليلًا دقيقًا ، وفى الكتاب بحوث بسيكولوجية ممتعة فى الاسلام والقرآن والشخصية والمبدأ والصراحة والبطولة الخ مكتوبة بلغة فصيحة وأسلوب شائق ، فنشكر للمؤلف الفاضل الأستاذ الشيخ عبد الله الملايلى ، هديته ، ونرجو له التوفيق لابرار ما فى جيبته من المؤلفات ، وخاصة المعجم الجديد الذى وعد به .

الطبع والصناعة فى الشعر :

الأستاذ المفضل محمد المهياوى كاتب بليغ وله فى الأدب جولات ممتعة ، وفى تاريخه اطلاع واسع ، آتحفنا اليوم بكتاب قيم جميل الطبع والوضع بعنوان (الطبع والصناعة فى الشعر) أتى فيه على كل ما يتصل بهذا البحث ، جاء كتابه تحفة فنية جعلتها عباراته العالية ، أطروفة علمية تقرأ وتكرر .

خواتمى :

هذا اسم كتيب صغير وضمه حضرة الأستاذ المفضل الشيخ محمود حسين مرعى من الجامعة الأزهرية ، يفن به حربا شعواء على الرذائل ، ويبنى به صرحا عاليا لفنائل . إن لمحاربة الرذائل ضروريا شتى ، ولكن الضرب الذى ابتكره الأستاذ محمود حسين مرعى يعتبر طريقا ، لأنه يكافح الرذائل على طريقة الشعر المنشور المتشبع بعاطفة مثتبهة ، تضطر القارئ لقراءته وإعادته ، ولا يمتاعه لغيره ، على حين أن الكتب التى تعالج هذا الموضوع لا تسهوى القارئ ، ولا تشوقه .

لا جرم أن هذه القوة الفنية التى تفيض من نفسية مؤلفنا الشاب تبشرنا بأنه سيجلى حين يستكمل آلات العمل فى ميدان الاجادة ، فيكون فى الرعيل الاول من بناء الأخلاق القيمة فى المستقبل .